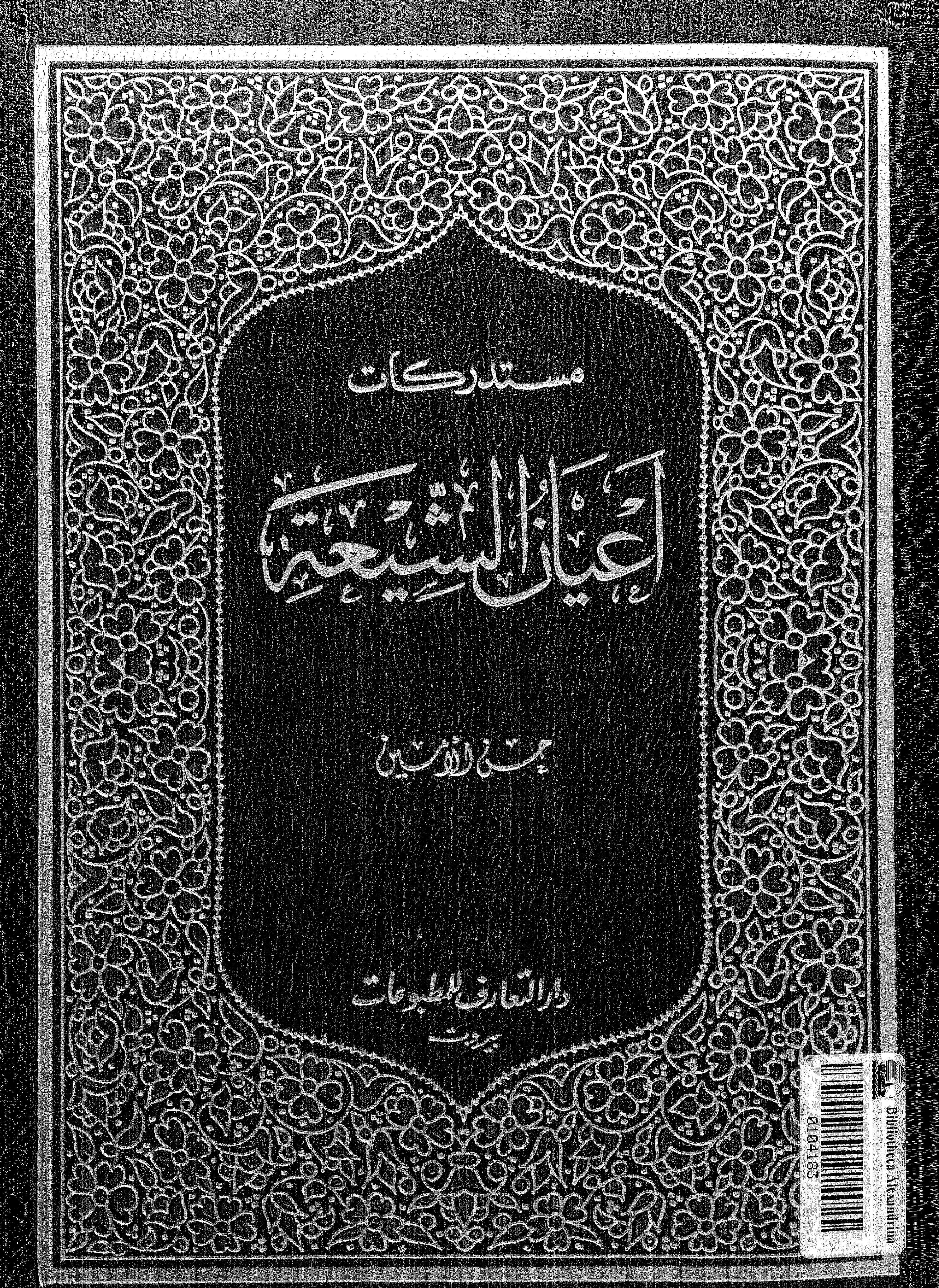
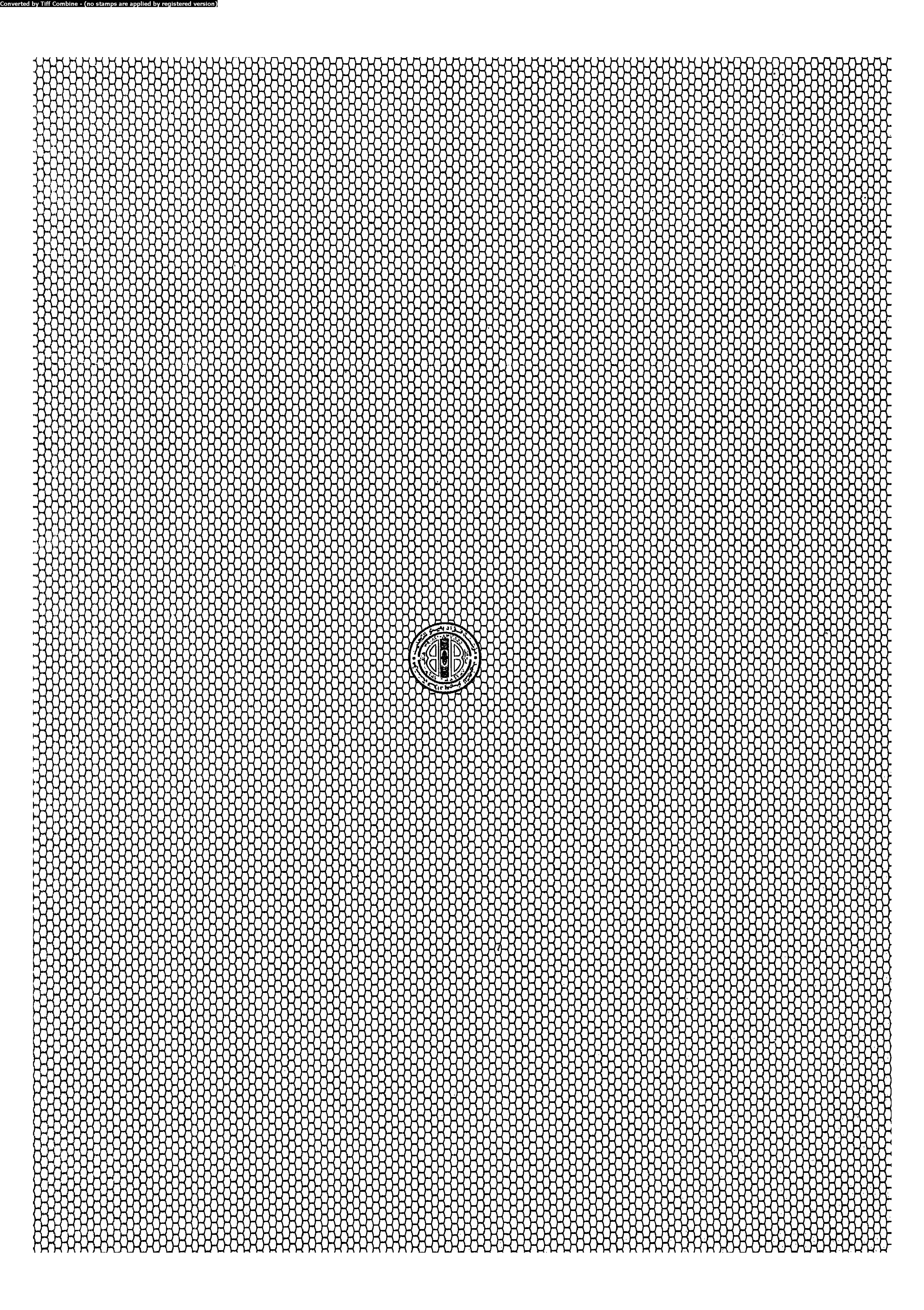
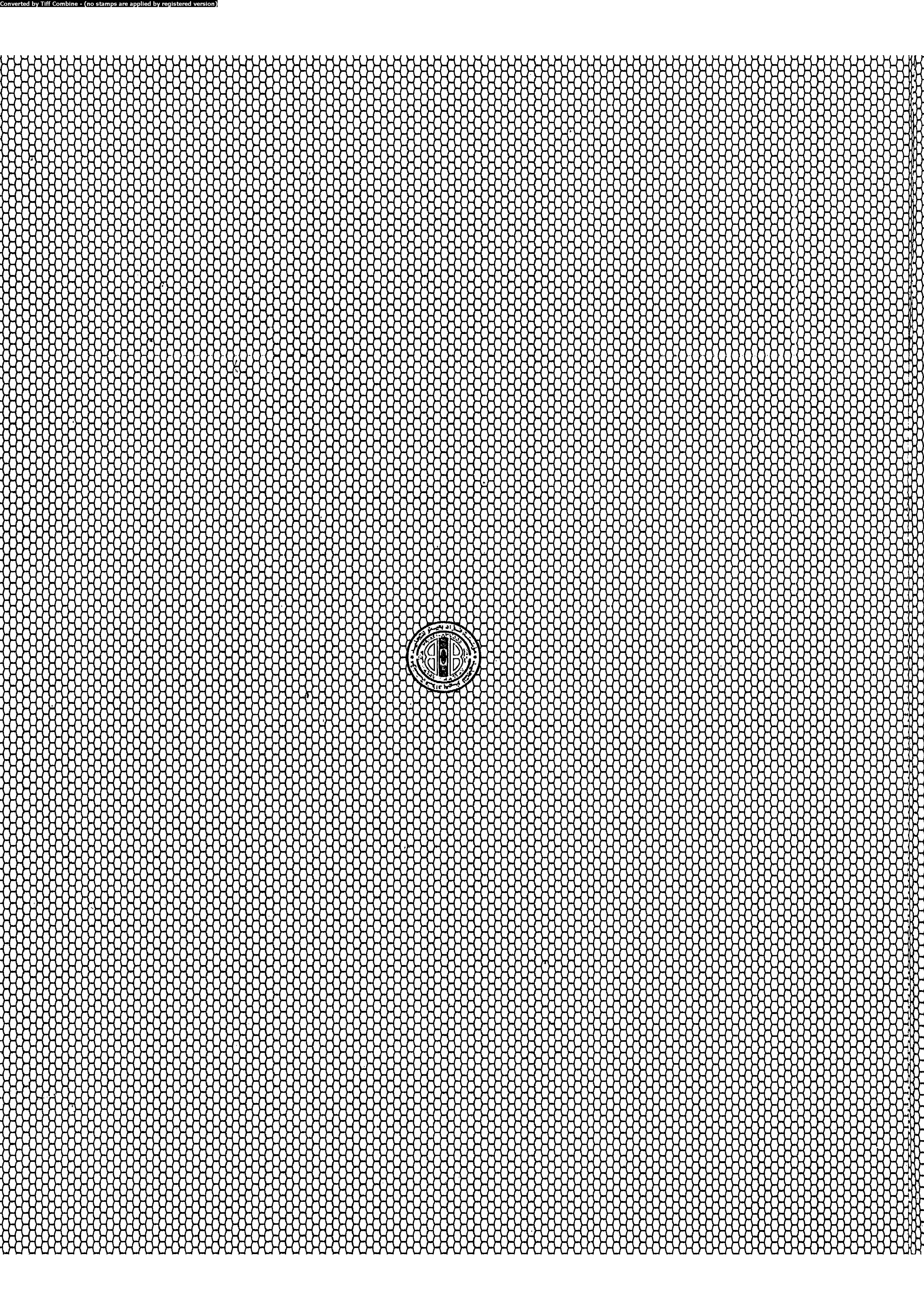

مستدركات
أعيان الشيعة
حسن الأمين
دار التعارف للمطبوعات
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0104183





مستدركات

أعيان الشيعة

مستدركات

أعيان الشيعة

المجلد السادس

حسن الأمين

دار التعارف للمطبوعات
بيروت

الطبعَـة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور إبراهيم آيني

ولد في قرية (بازار) من توابع قضاء (بير جند) في جنوب خراسان سنة ١٣٣٨ وتوفي سنة ١٣٨٤.

بدأ دراسته في بير جند ثم في الحوزة العلمية بمدينة مشهد ثم دخل جامعة طهران فنال منها شهادة الدكتوراه في الفلسفة والعلوم العقلية الإسلامية كان يجيد اللغتين العربية والانكليزية.

من مؤلفاته: ١ ـ السيرة النبوية. ٢ ـ تحقيق كتاب المقولات والآراء المتعلقة بها. ٣ ـ ترجمة تاريخ اليعقوبي والتعليق عليه. ٤ ـ الأندلس أو تاريخ الحكومة الإسلامية في أوروبا. ٥ ـ ترجمة كتاب مرآة الإسلام للدكتور طه حسين. ٦ ـ ترجمة كتاب العالم في القرن العشرين عن الانكليزية. ٧ ـ مساهمته في تأليف كتاب: تاريخ عاشوراء. ٨ ـ مساهمته في تأليف كتاب: سرماية سخن (منهل الكلام) ٩ ـ محاضرات بعنوان: حديث الشهر في ثلاثة أجزاء. ١٠ ـ شهداء الإسلام في عصر الرسالة وغير ذلك.

إبراهيم بن جعفر بن لطف الله بن عبد الكريم بن إبراهيم بن علي (نور الدين) بن أحمد بن مفلح الميسي العاملي.

كتب جده الشيخ لطف الله الميسي تاريخ ولادته بأصبهان هكذا: يوم الثلاثاء ٢٥ محرم سنة ١٠٢٧ بالدار المتصلة بالمسجد الشاهي العباسي[(١)].

السيد ابراهيم الحائري بن راضي

من علماء أوائل القرن الرابع عشر التابعين لتعاليم الشيخ أحمد الأحسائي وهو من أصحاب السيد كاظم الرشتي. ذكره السيد عبد الرحيم الحسيني اليزدي في كتابه «كاشف الرموز» من جملة من اعتبر الحاج كريم خان الكرماني ضالاً مبدعاً، ووصفه (بالمبالغات المعهودة) بقوله: «سيد جليل نبيل عالم الأعلام معلم العلام مشيد الأحكام هادي الأنام البحر القمقام العليم الحكيم...»[(٢)].

السيد ابراهيم الأصطهباناتي الشيرازي بن ميرزا حسن.

(١) السيد أحمد الحسيني.

(٢) السيد أحمد الحسيني.

ولد سنة ١٢٩٧ في أصطهبانات[(٣)] وتوفي سنة ١٣٧٨ في النجف. هو من ذرية السيد مير حسين الشهير بإمام زاده حسين حياة غيبي، له بقعة في قرية «حسين آباد» من قرى «پشت كوه»، يقصد للزيارة.

وآباء المترجم له إلى السيد مير حسين المذكور كانوا في سلك العلماء الأتقياء ومن المروجين الداعين إلى الدين الحنيف. وكان لهم احترام في تلك النواحي وللناس فيهم اعتقاد راسخ.

نشأ بها برعاية والده الميرزا حسن فقرأ بمسقط رأسه الأوليات العلمية والسطوح على والده وبعض الأساتذة من شيوخ العلم.

ثم هاجر إلى شيراز، فتتلمذ سنين على علمائها في الفقه والأصول وبعض العلوم الأخرى.

وفي نحو سنة ١٣٢٤ هاجر إلى النجف الأشرف، فحضر على كبار مدرسيها الأعلام كالسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي والمولى محمد كاظم الآخوند الخراساني والميرزا محمد تقي الشيرازي.

ثم استقل في التدريس خارجاً بعد وفاة أستاذه الميرزا محمد تقي الشيرازي سنة ١٣٣٨.

وحضر حلقات درسه جماعة من أفاضل الطلبة.

وقد رجع إليه في التقليد كثير من المؤمنين حتى أصبح من كبار مراجع عصره، وخاصة بعد وفاة السيد أبي الحسن الأصبهاني في سنة ١٣٦٥ حيث انتهت إليه مرجعية شيراز وما والاها وكثير من بلدان إيران والخليج.

ترك من المؤلفات بعض الكتب الفقهية وحواشي على بعض الكتب[(٤)].

السيد ابراهيم بن الحسين الحسيني البابلكاني المازندراني، شرف الدين.

ملك نسخة من كتاب «شرائع الإسلام» عليها خط المحقق

(٣) اصطهبانات مدينة في الجنوب الشرقي من «شيراز»، فيها مدارس علمية دينية تخرج منها جماعة من العلماء ثم ذهبوا إلى الحوزات العلمية حيث أكملوا بها مراحلهم الدراسية.

(٤) السيد أحمد الحسيني.

الحلي، وصرح في تملكه أنه يسكن في استراباد في قرية «دربندوه»[١].

الميرزا ابراهيم الحسيني المعروف بكدخدا

فاضل أديب شاعر بالفارسية، كتب مقطوعات من شعره في مجموعة بتاريخ ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٢٠[٢].

السيد ابراهيم بن سليمان الموسوي الحسيني

لعله من تلامذة الشيخ أحمد بن الحسين الحر العاملي أخي صاحب «وسائل الشيعة» فقد كتب نسخة من كتاب أستاذه «الدر المسلوك» وأصلح منه بعض المواضع، فهو من أعلام القرن الثاني عشر[٣].

الشيخ ابراهيم بن عبد الله الخطيب المازندراني

من أعلام القرن الثاني عشر، قرأ على المولى محمد أمين الأسترابادي كتاب «الكافي» ورأيت نسخة من فروعه قوبلت على نسخة المازندراني مرتين[٤].

الشيخ ابراهيم بن عبد الجليل الحائري

درس العلوم الدينية سنين فتبحر في العقليات والفقه والحديث، ثم اتصل بالشيخ أحمد الأحسائي فتتلمذ عليه، وصرح في بعض مصنفاته أنه قرأ عليه كتابي الصلاة والصوم استدلالاً، وبعد وفاته تتلمذ على السيد كاظم الرشتي في كربلاء. وهو شديد الإكبار لهما بحيث يعتبر دراساته الماضية ضلالاً وإضاعة للوقت وتلمذته عندهما رشداً وهدى، وكان مدرساً في كربلاء على طريقتهما.

توفي أواخر القرن الثالث عشر.

له «شرح حياة النفس» للشيخ أحمد الأحسائي المذكور، و«تحفة الملوك في علم السلوك» ألفه سنة ١٢٤٧، و«الصوم والصلاة» و«أركان ثلاثة» و«أصول العقائد» و«تزكية النفس» و«مناسك الحج»[٥].

الميرزا ابراهيم بن عبد المجيد الشيرازي الحائري

مذكور في نقباء البشر ص ٤ و١٦ على أن الترجمة لشخصين، ولكن الصحيح أنها لشخص واحد، ويعرف ذلك من كتاب «كاشف الرموز» للسيد عبد الرحيم الحسيني اليزدي حيث صرح بأنه مؤلف «رجوم الشياطين» ومن العلماء التابعين للشيخ أحمد الأحسائي والسيد كاظم الرشتي وقد عده من جملة من اعتبر الحاج كريم خان الكرماني ضالاً مبدعاً، ووصفه «بالمبالغات المعهودة» بقوله:

«فخر المحققين والأعلام وصدر الحكماء والعلام وحيد العصر وفريد الدهر لسان الفقهاء والمجتهدين ومبين معضلات الحكماء الإلهيين مصباح الشارحين ومرغم أنف الملحدين ورافع أعلام الدين ومشيد شريعة سيد المرسلين ومرجم الشياطين وموضح أسرار المبدعين المكذبين الضالين المضلين...»[٦].

الشيخ ابراهيم بن علي السكري الحلي

قرأ على السيد حسين بن كمال الدين الأبزر الحلي كتاب «الاستبصار» فأجازه في عدة مواضع منها في آخر الجزء الثاني منه في يوم الاثنين ١٨ ذي القعدة سنة ١٠٤١، وقال فيها «الشيخ الأجل التقي النقي الوفي العالم العامل الكامل ذي القلب السليم والطبع المستقيم الذكي الألمعي... قراءة تحقيق وتدقيق تدل على فهمه وتشهد بتبحره غير مقتصر على تصحيح المباني بل جامع بينها وبين تحقيق المعاني...»[٧].

الشيخ ابراهيم بن علي (نور الدين) بن أحمد بن مفلح الميسي العاملي

رأيت بخط ولده الشيخ عبد الكريم الميسي تاريخ وفاته هكذا:

توفي والدي الشيخ ابراهيم إلى رحمة آ ورضوانه يوم الخميس سادس عشر شهر المحرم من شهور سنة ٩٧٩ ببلدة سبزوار ودفن بالمشهد الرضوي على مشرفه الصلاة والسلام يوم السبت خامس شهر صفر من السنة المذكورة»[٨].

الشيخ ابراهيم بن علي بن مبارك البحراني

قابل نسخة من كتاب «الاستبصار» على نسخة الشيخ محمد بن سليمان بن محمد بن علي البحراني وأتم المقابلة في الخامس من شهر صفر سنة ١٠٨٣ وصرح بأن صاحب النسخة أستاذه وشيخه[٩].

الشيخ إبراهيم بن علي بن الحسن الطريحي

كتب كتاب «قواعد الأحكام» للعلامة الحلي في سنة ٧٢٤ وعلى النسخة بلاغات وحواشي، ونقل فيها إجازة للشيخ فخر الدين ابن العلامة كتبت في عشرين من جمادى الأولى سنة ٧١٧.

---

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.
(٧) السيد أحمد الحسيني.
(٨) السيد أحمد الحسيني.
(٩) السيد أحمد الحسيني.

أقول: كذا في فهرس المكتبة المركزية لجامعة طهران ٨/ ٨٤. ولعل هذه النسخة كتبت من نسخة في ذلك التاريخ فليس الطريحي هذا من أعلام القرن الثامن[1].

الشيخ إبراهيم اللنكراني

مترجم في «نقباء البشر» ونقول:

عالم فقيه، أصولي توفي قبل سنة ١٣١٤ المستنسخ فيها بعض آثاره العلمية والمصرح فيها بوفاته حينذاك.

وصفه بعض الناسخين لكتبه بـ«عمدة العلماء وأفقه الفقهاء وأعلم الفضلاء وزبدة المدققين والمحققين المحقق الرابع...»

له «أصول الفقه» استدلالي كبير، و«كتاب البيع»[2].

الملا ابراهيم المازندراني

قرأ عليه المولى علي رضا بن الحاج خدادوست العلياني في قرية «كردكلا» من قرى «پيل خواران» بمازندران، تفسير علي بن ابراهيم القمي وكتب في آخره بلاغاً بتاريخ سنة ١٠٦٢ وقال عن شيخه «قد بلغ سماعاً عن مولانا المحقق وسيدنا المدقق فريد دهره ووحيد عمره الإمام ثقة الإسلام فقيه أهل البيت عليهم السلام ناموس آل محمد صلوات آ وسلامه عليهم...»[3].

السيد ابراهيم بن محمد الحسيني

كتب نسخة من كتاب «من لا يحضره الفقيه» وأتمها في يوم الجمعة خامس شوال سنة ١٠٧٤ وقرأ الكتاب عند الشيخ صالح بن عبد الكريم البحراني فكتب له بلاغاً في آخر الجزء الأول منه بتاريخ سلخ ربيع الأول سنة ١٠٧٣ وكتب له إنهاء «في آخره بتاريخ ١٥ صفر سنة ١٠٧٧»[4].

الميرزا ابراهيم بن محمد سميع (المعروف بآقابالا) بن عبد الله الشترباني الزنوزي التبريزي

ولد بمدينة تبريز وبها نشأ وعلى شيوخها درس المقدمات العلمية، ثم هاجر إلى النجف الأشرف وقرأ بقية السطوح على الحاج فخر الشرابياني أخي الفاضل الشرابياني وعلى الميرزا محمد علي القراداغي. ثم تتلمذ فقهاً وأصولاً خارجاً على الميرزا حبيب آ الرشتي والمولى لطف آ اللاريجاني ثم الشيخ هادي الطهراني ولازمه إلى أن توفي أستاذه هذا.

وكان إلى جانب دراسته للفقه والأصول يتعلم الرياضيات والعلوم الغريبة، فتتلمذ فيها على السيد مرتضى الكشميري والميرزا عبد الحسين الأيرواني والميرزا محمد حسين الحسيني المرعشي، واشتهر في العلوم الغريبة في النجف وتبريز حتى عد من أساتذتها البارزين.

اشترك مع جماعة من إخوانه في بعض الأحداث السياسية فكان ضد المشروطة آنذاك فسببت مشاركته في هذه الأحداث بعض المشاكل ولكن صمد لها في تبريز حتى انجلت الغبرة وزال ما كان يكدر الصفو.

توفي بتبريز سنة ١٣٣٤ ودفن بها.

له «لسان الحق» و«تقرير أبحاث الطهراني» الأصولية والفقهية وكتابات متفرقة أخرى في أصول الفقه والعلوم الغريبة وغيرها[5].

الشيخ ابراهيم بن محمد هادي السرخديزجي الزنجاني

أصله من «سر خديزج» وسكن زنجان وكان من علمائها البارزين، كتب تقريضاً على كتاب «تبيان البيان في قواعد القرآن» للشيخ محمد حسن الزنجاني في ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٣٠٨[6].

السيد ابراهيم الموسوي الدزفولي

من علماء أوائل القرن الرابع عشر التابعين لتعاليم الشيخ أحمد الأحسائي وهو من أصحاب السيد كاظم الرشتي، ذكره السيد عبد الرحيم الحسيني اليزدي في كتابه «كاشف الرموز» من جملة من اعتبر الحاج كريم خان الكرماني ضالاً مبدعاً، ووصفه (بالمبالغات المعهودة) بقوله: «سيد أجل أعظم أعلم فخر السادة ومفخر الأجلة أعلم أهل زمانه وأفضل أهل عصره وأوانه سميع عليم رحيم حكيم...»[7].

الشيخ ابراهيم الورك رودي القزويني

ولد في قرية وَرك رود من توابع ضياباد في ضواحي قزوين سنة ١٢٩٨ وتوفي بها سنة ١٣٧٩.

من فقهاء العصر ورجال العلم والبيان والفضل أخذ المقدمات وعلوم القرآن في ضياباد وفي سنة ١٣١٠ هاجر إلى قزوين وأكمل السطوح ثم أخذ الفقه والأصول والتفسير على السيد هبة آ التلاتري والشيخ علي أكبر الجلوخاني والشيخ علي أكبر السيادهني والشيخ فتح آ الشهيدي ثم قصد العراق للانتماء إلى الحوزة العلمية الكبرى في العتبات المقدسة وسكن النجف الأشرف وكربلاء وأخذ الأصول عن الشيخ محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية والفقه عن السيد كاظم الطباطبائي اليزدي صاحب العروة في النجف الأشرف ثم حضر في كربلاء على زعيم الثورة

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.
(٧) السيد أحمد الحسيني.

العراقية الكبرى الشيخ محمد تقي الشيرازي المتوفى سنة ١٣٢٨ ثم رجع إلى موطنه قزوين سنة ١٣٤٠ وشغل كرسي التدريس والفتوى والتف حوله جمع من طلاب العلوم الدينية. وبعد مدة هاجر إلى مسقط رأسه قرية وَرَك رود منصرفاً إلى العبادات والرياضات والتنسك والتهجد وتلاوة القرآن الكريم والاذكار والأدعية وكان من مراجع التقليد في ضياباد وضواحي قزوين وله مؤلفات منها:

١ ـ كتاب شرح المعالم.

٢ ـ حاشية على مباحث الألفاظ في كفاية الأصول.

٣ ـ تقريرات أصول الآخوند محمد كاظم الخراساني.

٤ ـ تقريرات الفقه للسيد كاظم الطباطبائي اليزدي.

٤ ـ حاشية على شرح اللمعة.

٥ ـ كتاب في الزيارات والأدعية وغير ذلك من الرسائل والحواشي[١].

الشيخ ابراهيم بن يحيى بن محمد بن نجم الدين بن الحسين بن سودون العاملي.

ملك نسخة من كتاب «مختصر جمع الجوامع» للشيخ عبد القادر بن محمد العمري الشافعي في سنة ١٢١٤[٢].

السيد ابن حسن نونهروي بن السيد محمد جواد

ولد سنة ١٣١٨ في نونهره التابعة لقضاء غازي بور (الهند) وتوفي سنة ١٤٠٠ في لكهنو.

كان عالماً فاضلاً خطيباً بارعاً من أرقى خطباء الهند، يملك تأثيراً سحرياً في الخطابة لا يمل السامعون كلامه مهما طال، بل يتمنون المزيد.

درس دروسه الأولى في بلده ثم قصد لكهنو ودخل مدرسة سلطان المدارس متتلمذاً على كبار العلماء. ثم أصبح مدرساً فيها. وانتقل إلى مدرسة الواعظين مديراً لها ومسؤولاً عنها، وهي مدرسة كبرى للمبلغين والدعاة المرشدين، وبقي يتولى إداراتها ومسؤولياتها حتى آخر حياته.

كان في تدريسه متمكناً قوياً لاسيما في الفلسفة والأدب. ولانهماكه في التدريس والإدارة والسفر لم يتمكن من التأليف.

أبو البقاء التفريشي

فاضل من أعلام القرن الحادي عشر، قال في تاريخ تأليف «زبدة الأصول» كما وجدت بخط الشيخ بهاء الدين العاملي:

سلطان محققين برأي صائب   براوج سپهر فضل مهر ثاقب

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٢) السيد أحمد الحسيني.

وٌن زبده نوشت سال تاريخ امد   منسوخ كن أصول ابن حاجب (١٠٢٠)[٣]

أبو تراب

تتلمذ عليه المولى علي نقي في عدة من الفنون، فأجازه في نسخة من كتاب «نهج البلاغة» بإجازة عامة في آخر الباب الأول منه في ١٢ رجب سنة ١٠٩٧، وكتب له إنهاءاً في آخره في أواسط ربيع الثاني سنة ١٠٩٨[٤].

السيد أبو تراب بن أبي الحسن الحسيني الأزهدي

فاضل متتبع. من أعلام أواخر القرن العاشر ولعله أوائل القرن الحادي عشر.

له «منهاج المؤمنين» في الأدعية بدأ به في شهر رمضان سنة ٩٩٢[٥].

السيد أبو تراب بن أبي القاسم الحسيني النطنزي

فاضل كتب مجموعة فيها رسالة «آداب غازشب» للمولى علي قلي النطنزي في سنة ١٢٣٩ وأكمل ما وجد فيها من نقص من كتب الفقهاء.

أديب شاعر بالفارسية[٦].

السيد أبو تراب بن جعفر بن علاء الدين الحسيني الواعظ اليزدي

تتلمذ على أخيه السيد أبي القاسم الواعظ اليزدي في علمي الحديث والتفسير وأخذ منه فني الخطابة وخط النسخ، وكان يقيم بمدينة «لاهيجان» ويعرف برئيس الواعظين، وهو من أعلام أواخر القرن الثالث عشر[٧].

أبو تراب بن محمد بن محمد جعفر اللاهيجاني

فاضل أديب حسن الإنشاء، متوغل في علوم العربية كثير الكتابة فيها: من أعلام النصف الثاني من القرن الثالث عشر.

له «تهذيب القوانين» و«شرح ألفية ابن مالك» أتم قطعة منه في شوال سنة ١٢٧٤، و«اللطائف الأبهية في شرح الألفية» أتم الجزء الأول في سنة ١٢٧٥[٨].

أبو تراب بن محمد حسين القزويني

فاضل عارف متوغل في التصوف، له اطلاع واسع بالعلوم

(٣) السيد أحمد الحسيني.

(٤) السيد أحمد الحسيني.

(٥) السيد أحمد الحسيني.

(٦) السيد أحمد الحسيني.

(٧) السيد أحمد الحسيني.

(٨) السيد أحمد الحسيني.

الدينية، نشأ ظاهراً في العتبات المقدسة بالعراق وكان في سنة ١٢٦٠ بطهران.

له «تحصيل العلم» و«الشريعة والحقيقة» و«شرح زيارة أشهد أنك طهر طاهر مطهر»[١].

أبو تراب المشهدي

أجازه الشيخ حسين بن حسن المشغري العاملي في آخر نسخة من كتاب «خلاصة الأقوال» للعلامة الحلي في مشهد الرضا (ع) في العشر الثالث من المائة الحادية عشرة (بعد ١٠٢٠)[٢] وقال في الإجازة «عارضني المولى العالم الفاضل خلاصة الفضلاء وزين العلماء.. معارضة تفتيش وتدقيق ومقابلة فحص وتحقيق، فلما أن رأيته جامعاً للإفادة حاوياً للإفاضة أهلاً للإجازة أجزت له.. أن يرويها عني على الشرط المذكور في إجازتي غير هذه له..».

ولعله المذكور في أعيان الشيعة ٢/ ٣١٠ بعنوان الميرزا أبو تراب المشهور بفطرس المشهدي المتوفى سنة ١٠٦٠ بحيدر آباد[٣].

الميرزا أبو الحسن بن أحمد دستغيب الحسيني الشيرازي

كان بالإضافة إلى مقامه العلمي فاضلاً أديباً منشئاً له شعر بالعربي ولكنه لم يكن بالرفيع، ولاّه معتمد الدولة فرهاد ميرزا بعض الأوقاف التي أوجدها في سنة ١٢٩٦.

له «أخلاق معتمدي»[٤].

الميرزا أبو الحسن بن الحسين بن نقي الكلان محله أي الرودباري الجيلاني

ولد في قرية «كلان محله» من قرى «رانكوه» من توابع «رود بار» بجيلان، وهو عالم فاضل جليل ملم بأطراف العلوم مائل إلى الفلسفة والعرفان، من أعلام النصف الثاني من القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر.

تتلمذ على الميرزا محمد بن سليمان التنكابني حين إقامة التنكابني بلاهيجان سنة ١٢٧١، وأقام سنين بالنجف الأشرف متتلمذاً على أعلامها الذين لم نطلع على أسمائهم بتفصيل إلا أنه كان بها في سنة ١٢٨٣، وفي سنة ١٢٨٧ كان يقيم بطهران ويقرأ على أساتذتها ظاهراً.

(١) السيد أحمد الحسيني.

(٢) تمت كتابة النسخة المذكورة من الخلاصة في يوم الخميس رابع ذي القعدة سنة ١٠٣٧ فالصحيح أن يقال «في العشر الرابع» ويكون (بعد سنة ١٠٣٠)، فيكون التاريخ الدقيق للإجازة بين سنتي ١٠٣٧ ـ ١٠٤٠.

(٣) السيد أحمد الحسيني.

(٤) السيد أحمد الحسيني.

كان يضيف إلى اسمه لفظة «الممتحن» ولا نعلم أنه لقب له أو شكاية منه من زمانه الذي كان شديد التبرم من أبنائه، ويلقب نفسه بـ«المحقق» في بعض ما كتبه.

والظاهر أنه كان يقيم في أواخر أيامه بقزوين، وكان حياً سنة ١٣٣٨ عند تأليف «هداية المستبصرين» تأليف صدر الأفاضل..[٥].

الشيخ أبو الحسن الشيرواني

فاضل أديب يميل إلى العرفان والتصوف، أصله من «شيروان» وسافر مرتين إلى خراسان وفي المرة الثانية أقام بمشهد الرضا (ع) على أثر ما لقيه من إكرام ركن الدولة والي خراسان. وهو من أعلام أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر[٦].

أبو الحسن بن عبد آ بن إسماعيل الخلخالي

أصله من خلخال ونشأ في أردبيل، فاضل له اشتغال بالعلوم العقلية، قابل مجلداً من «شرح أصول الكافي» لصدر الدين الشيرازي على نسخته وأتم المقابلة في سنة ١٠٨٣[٧].

الميرزا أبو الحسن المشكيني بن عبد الحسين

ولد في قرية «أحمد آباد» من قرى «مشكين» سنة ١٣٠٥ أو ١٣٠٦ وتوفي سنة ١٣٥٨ في الكاظمية ودفن في النجف.

مرت له ترجمة موجزة في (الأعيان).

تعلم في قريته القراءة والكتابة ثم هاجر إلى مدينة «أردبيل» وهو في الخامسة عشرة من عمره. وقرأ بها المقدمات والسطوح، ثم هاجر إلى النجف الأشرف أواخر سنة ١٣٢٨ فأدرك بحث المولى محمد كاظم الآخوند الخراساني قليلاً، وبعده تتلمذ على الشيخ علي القوجاني وكان من أرشد تلامذته.

وقد استفاد أيضاً من دروس السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي وشيخ الشريعة الأصبهاني.

وفي سنة ١٣٣٧ انتقل إلى كربلاء وحضر بها أبحاث الميرزا محمد تقي الشيرازي، وبعد وفاته عاد إلى النجف فاشتغل بالتدريس والتصنيف وكان يعد من متقدمي المدرسين في أصول الفقه وخاصة في كتاب «كفاية الأصول»، يحضر حلقات درسه جماعة من أهل الفضل، فتخرج عليه جمع من أفاضل الحوزة ترك بعض المؤلفات الفقهية والرجالية وحواشي على بعض كتبه.

الميرزا أبو الحسن الانگجي التبريزي بن الميرزا محمد

ولد سنة ١٢٨٢ في تبريز وتوفي فيها سنة ١٣٥٧.

نشأ في تبريز برعاية والده الذي كان في وقته من أعيان علماء تبريز المبرزين.

(٥) السيد أحمد الحسيني.

(٦) السيد أحمد الحسيني.

(٧) السيد أحمد الحسيني.

قرأ العلوم الأدبية والرياضية في تبريز، ثم حضر في الفقه والأصول على المولى مير فتاح السرابي والميرزا محمود الأصولي.

ثم هاجر إلى النجف الأشرف سنة ١٣٠٤ فحضر بها في الفقه والأصول العاليين على الشيخ محمد حسن المامقاني والمولى محمد الفاضل الأيرواني والميرزا حبيب آ الرشتي والشيخ محمد حسين الكاظمي وغيرهم.

ثم عاد إلى تبريز أواخر سنة ١٣٠٨. فاشتغل بالتدريس واجتمع حوله الطلاب وأرباب الفضل والعلم، وتخرج عليه واستفاد من محضره العلمي جماعة كبيرة من العلماء.

كان من أعلام تبريز، مرجعاً دينياً قلده جماعة من أهالي آذربايجان وطبعت رسائله العملية مرات.

وفي سنة ١٣٤٧ خرج من تبريز لتوارد الفتن، وأقام مدة ببعض القرى ثم زار الإمام الرضا (ع) وبقي في مشهد قريباً من سنة. ثم عاد إلى تبريز. ترك بعض المؤلفات الفقهية[١].

أبو الحسن بن محمد تقي (حسام السلطنة) بن فتح علي شاه القاجاري.

سافر إلى الهند في سنة ١٣١١ وأقام في بمبى أكثر من سنة في بيت سلطان محمد شاه مشتغلاً بإمامة الجماعة في بعض المساجد والوعظ والإرشاد بعد الصلوات والمحافل الخاصة بآل البيت، وكان يحضر مجالس وعظه جماعة كبيرة فيهم بعض المجوس وغيرهم، ثم عاد إلى وطنه وألف في الطريق بالسفينة كتابه «اتحاد إسلام» في شهر جمادى الأخرى سنة ١٣١٢[٢].

السيد أبو الحسن بن محمد الحسيني الشيرواني

كتب مجموعة من رسائل صدر الدين محمد الشيرازي في سنتي ١٢٧٩ ـ ١٢٨٠ وعلق عليها تعاليق بعضها له تدل على مشاركته في العلوم العقلية ومعرفته بالفلسفة[٣].

السيد أبو الحسن بن محمد صادق بن ميرابي الخير الرضوي الموسوي الفالي البردستاني، المعروف بآقامير

نشأ وقرأ المقدمات في «فال» والدروس العالية في شيراز، وبعد أن نال قسطاً وافراً من العلم عاد إلى فال وبقي بها إلى آخر عمره.

كان عالماً متولياً لشؤون فال ولارو القرى التابعة لهما يقيم الجماعة وللناس فيه عقيدة راسخة، وهو جامع فاضل أديب شاعر متبحر في العلوم والفنون. توفي سنة ١٣٣٢[٤].

الشيخ أبو الحسن بن محمد كاظم الجاجرمي

بالرغم من تبحره في العلوم العقلية يرى التوغل فيها تيهاً وضلالاً. كما أنه يصرح بأن أكثر المتصوفة في عصره ليسوا متمسكين بالدين وأوامر الشريعة وهم جبرية إن علموا وإن لم يعلموا.

ويبدو أنه كان مقرباً عند الأمراء وذوي المكانة والرفعة، له سعي بليغ في قضاء الحوائج والوساطة لديهم، كما يفهم مما كتبه بعض ناسخي مؤلفاته.

كان له اهتمام بالتدريس وإشاعة العلم، لأنه يرى أن ترك العلم لمن قضى مدة في التعلم هو التعرب بعد الهجرة المذموم على لسان الأحاديث المروية. توفي بعد سنة ١٢٤٥[٥].

السيد أبو الحسن بن محمد هادي القزويني التنكابني.

أصله من «تنكابن» وسكن مدينة قزوين، وكان من علمائها المشهورين، متتبعاً جامعاً لأطراف العلوم. من مؤلفاته: (باقيات صالحات)[٦].

الميرزا أبو الحسن شريعتمداري الرشتي بن الميرزا مهدي

ولد سنة ١٣٠٠ في مشهد الرضا وتوفي سنة ١٣٦٨ في رشت ودفن في النجف.

أصل هذا البيت العلمي (شريعتمداري) من جيلان، عرفوا بجدهم المولى رفيع شريعتمدار الرشتي المتوفى سنة ١٢٩٢، وقد كان من أعاظم علماء عصره وله شهرة عريضة في بلاد إيران، وعرف أولاده فيما بعد بـ«شريعتمدار» وكان كل واحد منهم ذا شخصية معروفة في وقته.

فأبو المترجم له، الميرزا مهدي شريعتمدار المتوفى سنة ١٣٣٥ من أجلة علماء زمانه.

وأخوه ميرزا علي المتوفى سنة ١٣٦٧، كان من أعيان علماء طهران.

وأخوه الآخر آقا رفيع شريعتمدار الرشتي، كان أيضاً من أعلام العلماء بطهران وتوفي سنة ١٣٧٨.

وولده الشيخ نور الدين شريعتمدار، كان من علماء طهران البارزين، وقد توفي سنة ١٣٨٦.

وبعد سنوات قليلة من عمر المترجم انتقل إلى «رشت»

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.

فابتدأ بها بالمقدمات العلمية وقرأ على أفاضلها بعض كتب الفقه والأصول وغيرهما.

ثم هاجر مع أخيه الأصغر الحاج ميرزا علي إلى النجف الأشرف، فتتلمذ في الفقه وأصوله على المولى محمد كاظم، الآخوند الخراساني والسيد كاظم الطباطبائي اليزدي وشيخ الشريعة الأصبهاني والسيد أحمد الكربلائي.

ثم عاد إلى مدينة رشت وتوطن بها مقيماً لصلاة الجماعة ومشتغلاً بالتدريس وتربية الطلاب، وتولي الشؤون العامة.

وبعد سنين من إقامته في رشت اختلت الأمور لضعف الحكومة وظهور الفتن والاضطرابات المحلية، فاضطر إلى الهجرة إلى طهران وسكناها، واشتغل هناك بالشؤون العلمية والتدريس.

وفي سنة ١٣٥٦ ذهب إلى النجف وأقام بها واعتزل الحياة الاجتماعية، وفي خلال إقامته بها أتى إلى إيران مرتين وتوفي في السفرة الثانية بالسكتة القلبية في رشت[١].

أبو الخير بن أحمد بن أصلان القزويني

وهب له فخر الدين ابن العلامة الحلي نسخة من كتاب «مختصر مصباح السالكين» لابن ميثم البحراني، فكتب أبو الخير ملكيته لها في سابع عشر ذي القعدة سنة ٧٥٨.

توفي بعد سنة ٧٩٤ التي انتقلت فيها نفس النسخة إلى بعض العلماء ودعا له بما يدل على حياته في التاريخ[٢].

السيد الميرزا أبو صالح بن ميرزا حسن بن الميرزا الغ بن أبي صالح بن شمس الزمان محمد الرضوي الشريف التقوى المتوفى سنة ١٠٩٠ هجرية.

من أعيان العلماء وأكابر الزعماء في عصر الشاه عباس الثاني (١٠٥٢ ـ ١٠٧٨ق) وأمه فخر النسب بنت الشاه عباس الكبير ترعرع ونشأ في البلاط الصفوي وأخذ المقدمات والعلوم الإسلامية وفنون الأدب من أفاضل علماء أصفهان حتى نال حظاً وافراً من العلم وكان من أعلام عصره هاجر إلى خراسان وسكن المشهد ولا تزال ذريته وأحفاده من خدام الروضة الرضوية حتى اليوم. ذكر صاحب [فردوس التواريخ] نسبه هكذا [الميرزا أبو صالح بن الميرزا حسن بن الميرزا الغ بن أبي صالح بن شمس الدين محمد بن غياث الدين عزيز بن شمس الدين محمد بن محمود بن محمد بن مير ياري بن الحسن بن أبي الفتوح بن عيسى بن أبي محمد بن صفي بن علي بن محمد الأعرج بن أحمد بن موسى المبرقع بن الإمام الجواد (ع)] وفي [نبذ التاريخ] للطبرسي أنه كان صهر الشاه صفي (١٠٣٨ ـ ١٠٥٢ق) على بنته. ذكره شيخنا الأستاذ في طبقات أعلام الشيعة ووصفه بالعالم الفاضل النبيل وله آثار ومآثر خالدة في خراسان باقية حتى اليوم منها مدرسة النواب ويقال المدرسة الصالحية) وهي مدرسة دينية ضخمة بنيت سنة ١٠٨٦ هجرية في طابقين تحتوي على ٨٤ غرفة ومدرس[٣] ولا تزال تعرف باسمه حتى اليوم وهي من المدارس المعمورة في العصر الحاضر وحافلة بطلاب العلوم الدينية وجعل لها موقوفات تصرف وارداتها على الطلاب وله تعميرات واسعة في الروضة الرضوية منها الأيوان الذهبي للحرم المطهر وغيره من الآثار[٤].

الملا أبو طالب

أجازه السيد محمد جواد العاملي صاحب «مفتاح الكرامة» وقال عنه في إجازته: «لما كان العبد الصالح التقي النقي الورع العالم العامل المقدس الكامل الفاضل مولانا ملا أبو طالب حرسه آ تعالى قابلاً للرواية مستعداً للدراية مطلعاً مضطلعاً متتبعاً محققاً مدققاً زكياً ذكياً ممن يعتمد على ورعه وتقواه وضبطه واحتياطه فيما سمعه ورواه محتاطاً في أقواله وأفعاله...»

وأجاز السيد علي الطباطبائي صاحب كتاب «رياض المسائل» في آخر الإجازة المذكورة المجيز والمجاز، فالعاملي والطباطبائي كلاهما من شيوخ المترجم له[٥].

أبو طالب بن أبي تراب

كتب نسخة من كتاب «نهج البلاغة» وأتمها في يوم الخميس حادي عشر شهر شعبان سنة ١١١٠، واختار لها حواشي من الشروح وكتب اللغة تدل على فضل فيه وتتبع[٦].

السيد أبو طالب بن أبي تراب بن قريش بن أبي طالب بن ميرزا يونس الحسيني الخراساني القائني

تتلمذ في الفقه العالي على السيد محمد الرضوي المعروف بالقصير وأجازه اجتهاداً ورواية ووصفه بقوله:

«المتصف بصفات أجداده العظام وأسلافه الكرام من الزهادة والتقوى والحلم والسعادة والكمال والعلم العالم العامل والفاضل الكامل الصاعد من حضيض التقليد إلى أوج الاجتهاد والبالغ بجده الأنيق إلى سعادة الهداية والإرشاد... وقد وجدته جيد الحفظ والذكاء والتدقيق وأوقاته مصروفة في الإفادة والاستفادة والتحقيق وأهلاً للإفتاء والاستفتاء...».

---

(١) السيد أحمد الحسيني.

(٢) السيد أحمد الحسيني.

(٣) انظر تاريخ المدرسة: علي أصغر المقري: بناهاي تاريخي خراسان ص ٤٢ ومطلع الشمس ج ٢ ص ٢٥٣ وتاريخ مدارس إيران ص ٣٥٤.

(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٥) السيد أحمد الحسيني.

(٦) السيد أحمد الحسيني.

وأجازه اجتهاداً أيضاً الشيخ محمد رحيم البروجردي في سنة ١٢٦١ مصرحاً بأن القائيني تتلمذ لديه ولازمه مدة مديدة وأثنى عليه ثناء بليغاً[١].

السيد أبو طالب بن الحسن الحسيني

فقيه من أعلام القرن السابع، وهو من تلامذة ظهير الدين محمد بن قطب الدين الراوندي، وقرأ عليه محمد بن الحسين المتعلم كتاب «النهاية» للشيخ الطوسي فأجازه في أول جمادى الأولى سنة ٦٣٣ في النجف الأشرف[٢].

أبو طالب بن غفور بن شرف علي بن أحمد الجربادقاني الكزازي السلطان آبادي الاراكي

اصله من «كزاز» (ايران)، تتلمذ أولاً في النجف الأشرف على الشيخ مرتضى الأنصاري ثم على الميرزا حسن الشيرازي في النجف وسامراء، ثم عاد إلى سلطان آباد (أراك) وصارت له بها المرجعية والرياسة التامة. وتوفي في أراك سنة ١٣٢٩ ودفن بمقبرة تعرف بـ«دروازه شهربرد» من مدينة أراك.

له إجازة الرواية من شيخيه المذكورين والميرزا حبيب آ البرشتي والشيخ محسن خنفر النجفي، ويروي عنه جماعة منهم السيد شمس الدين محمود المرعشي المتوفي سنة ١٣٣٨.

له «شرح نجاة العباد» ورسالة في «الإمامة»[٣].

السيد أبو الفتح بن محمد الحسيني الخوارسكاني

كتب كتاب «الكافي» و«من لا يحضره الفقيه» و«التهذيب» و«الاستبصار في تسع مجلدات وقابلها وعلق عليها بعض التعاليق، ثم وقفها على العلماء والطلبة في يوم الثلاثاء ١١ جمادى الأولى سنة ١٠٨٥.

يظهر من وقفية الكتب المذكورة أنه كان من المقيمين بإصبهان[٤].

الميرزا أبو الفضل بن أبي القاسم بن محمد علي بن محمد هادي الكلنتري النوري الطهراني

رأيت قد كتب على نسخة من كتاب «لوامع الأنوار العرشية» في يوم الرابع من شوال سنة ١٣١٥ : أنه يروي عن أبيه عن الشيخ المرتضى الأنصاري، وذكر أن طرقه كثيرة لا يظن أحد من علماء عصره أكثر طريقاً منه إلى أخبار الأئمة (ع).

كانت له مكتبة عامرة فيها من النفائس المخطوطة الشيء الكثير، وسجع ختمه الكبير عليها «هو المالك، بمنه وطوله عزّ وجلّ في نوبة العبد أبي الفضل دخل»[٥].

السيد أبو القاسم بن السيد مير إبراهيم بن السيد اسماعيل بن السيد حسن بن السيد المير ابراهيم بن السيد المير معصوم بن السيد المير محمد فصيح بن المير أولياء الحسيني القزويني آل الحاج السيد جوادي

ولد في قزوين سنة ١٣١٧ وتوفي فيها سنة ١٤١١ ودفن في مقبرة الأسرة الواقعة شرق روضة شاه زاده الحسين بن الإمام الرضا (ع) عارف نحرير حكيم متأله فقيه متضلع كان يعد من المتنسكين المتهجدين أهل الأذكار.

ولد في بيت علم وفضل وترعرع في أحضان الزهد والتقوى وآل الحاج السيد جوادي من أشهر الأسر العلمية في قزوين نبغ منها علماء أعلام مر ذكر هذا البيت الجليل في المجلد الثالث من مستدركات أعيان الشيعة ص ١١٧ عند ترجمة أبي الأسرة السيد عبد الجواد.

أخذ المترجم المقدمات وفنون الأدب على أفاضل علماء قزوين ثم أكمل السطوح على والده السيد مير ابراهيم الذي كان من مشاهير المدرسين في المدرسة الالتفاتية وأخذ العقليات عن حوزة العلمين الميرزا طاهر التنكابني والسيد أبو الحسن الرفيعي القزويني والسيد موسى الزرابادي القزويني وتفقه على ملا علي الطارمي ثم هاجر إلى قم وتخرج على الشيخ عبد الكريم الحائري وشغل كرسي تدريس الفلسفة العالية.

ترك مؤلفات وتحقيقات وحواشي منها: حواشي على كتاب الأسفار لصدر المتألهين ملا صدرا الشيرازي، رسالة في أصول العقائد حواشي على منظومة السبزواري، شرح عوامل ملا محسن وغير ذلك[٦].

الميرزا أبو القاسم بن الحسن الهزارجريبي المازندراني.

عالم جليل وأديب شاعر بالفارسية متوسط الشعر وينظم بالعربية، من أعلام أواخر القرن الثالث عشر، وأوائل القرن الرابع عشر. له شرح البردة الفه سنة ١٢٩٧، وشرح القصيدة العينية للسيد الحميري[٧].

أبو القاسم حالت

ولد سنة ١٣٤٠ في طهران وتوفي فيها سنة ١٤١٣ الأديب والشاعر والمترجم.

أكمل دراسته الجامعية في صناعة النفط، ثم صار عضواً في شركة النفط الوطنية الإيرانية، واستمر فيها إلى أن تقاعد.

---

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٧) السيد أحمد الحسيني.

كان يجيد اللغات العربية والانكليزية والفرنسية، وقد ترجم العديد من الكتب من هذه اللغات إلى الفارسية.

وكان يجيد نظم الشعر وهو أول من طور الشعر الفكاهي الهزلي من البحر الطويل، وكان ينظم قصائده الهزلية على هذا البحر وينشرها في أشهر مجلة فكاهية إيرانية وهي مجلة (توفيق)، ثم تعاون مع مجلة فكاهية أخرى هي مجلة (پل آقا)، وكانت قصائده ونكاته تدور على الألسنة.

كان مترجماً قديراً وأشهر ترجماته كانت للكتب الآتية: الكامل في التاريخ لابن الأثير. تاريخ فتوحات المغول. تاريخ التجارة. نابليون في المنفى، حياتي لمارك توين.

كما ترجم الأشعار العربية في كليات سعدي.

له من المؤلفات: ديوان حالت. تذكرة شاهان. پلزار خنده. ديوان أبوالعينك. ديوان شوخ وغير[١].

السيد أبو القاسم بن جعفر بن علاء الدين الحسيني الواعظ اليزدي

عالم عارف بالتفسير والحديث، مدرس ومن جملة تلامذته أخوه السيد أبو تراب الواعظ اليزدي. من أعلام القرن الثالث عشر وتوفي بعد سنة ١٢٧٠ التي كتب فيها مجموعة من كتب الفيض الكاشاني وغيره، وكان يقيم بمدينة «لاهيجان» ويمتهن الخطابة والوعظ ويعرف بسلطان الواعظين[٢].

السيد أبو القاسم الحسني السمناني

مفسر فاضل، من أعلام القرن الحادي عشر.

له «ذخيرة يوم الجزاء» أتمه في شهر ذي الحجة سنة ١٠٧١[٣].

أبو القاسم الطالقاني

كتب له محمد الشريف الأصبهاني كتاب «المطول» وأتمه في خامس شهر محرم سنة ٩٧٩ في شيراز، ووصفه بقوله «الفاضل الكامل المدقق الأعز الحامي(؟) شمساً للفضيلة والورع والتقوى...»[٤].

الشيخ أبو القاسم الطالقاني المرجاني

عالم جليل، كتب مجموعة بين سنتي ١٣٠٦ ـ ١٣٠٩ فيها بعض آثاره ويذكر من جملة شيوخه الذين تتلمذ لديهم الميرزا حسن المدرس والسيد علي أكبر.

(١) الشيخ محمد رضا الأنصاري.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.

أستبعد كون المترجم هنا هو المترجم في «نقباء البشر» ص ٥٧، فإن المترجم هنا كان ظاهراً في التاريخ المذكور في إيران وفي دور التلمذة.

له «حاشية فرائد الأصول» كتب بعض مباحثها سنة ١٣٠٩ في قرية «الفردوس» من قرى شهريار[٥].

السيد أبو القاسم بن فتح الله بن يد الله الحسيني الحائري

كان من علماء أواخر القرن العاشر، أكثر إقامته بكربلا ويتردد على النجف الأشرف.

له عناية بكتب الحديث مقابلة وتصحيحاً وقراءة، ورأيت عدة كتب حديثية قابلها، وأتم مقابلة قطعة من فروع الكافي في حرم الإمام الحسين (ع) في عصر يوم الجمعة ١٩ شعبان سنة ٩٧٧[٦].

السيد أبو القاسم بن علي أصغر الكلبايكاني

فاضل جليل، قرأ في أصول الفقه على السيد ريحان آ الكشفي البروجردي وهو كثير التعظيم له، وكان يقيم بطهران.

1له «المقائل» حرر نسخته الثانية في سنة ٣١٦[٧].

الميرزا أبو القاسم بن محمد رضا الكاشاني

عالم فاضل فقيه جامع للفنون العلمية متتبع ماهر، من علماء كاشان في القرن الرابع عشر.

أجازه اجتهاداً السيد محمد بن ابراهيم العلوي الكاشاني في ليلة الخميس سادس ذي الحجة سنة ١٣٤٧ وقال عنه:

«وممن جد في تحصيله ووجدانه وجهد في تكميله واتقانه وأكثر مساعيه الجميلة في ابتغائه وإمعانه وأسهر لياليه الطويلة في اقتنائه ونشدانه هو العالم العامل الجليل والفاضل الكامل النبيل أسوة الحذقة النحارير وقدوة اللبقة السفاسير عمدة أعمدة التدقيق وزبدة أسندة التحقيق نادرة زمانه وباقعة أوانه ملجأ الأنام وملاذ الإسلام صهر العلماء الأعاظم وبدر الفقهاء الأفاخم.. حتى ساعده الإقبال فبلغ درجة الكمال ووافقه الرشاد فوصل إلى مرتبة الاجتهاد...»

له «جامع الشتات» تعاليقه على الكتب الدراسية في اثني عشر مجلداً تمت في سنة ١٣٢٧ و«وجوب رد السلام» و«شرح شرائع الإسلام»[٧].

السيد أبو القاسم الدهكردي بن السيد محمد

ولد في قرية (دهكرد) من توابع أصفهان سنة ١٢٧٢ وتوفي

(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.
(٧) السيد أحمد الحسيني.
(٨) السيد أحمد الحسيني.

سنة ١٣٥٣ في أصفهان ودفن بوصية منه في (الزينبية) وهي المزار المنسوب إلى السيدة زينب بنت الإمام موسى الكاظم (ع) في قرية (أرزنان) من قرى أصفهان.

مرت ترجمته في المجلد الثاني من (الأعيان) في الصفحة (٤١٧) ونعيدها ببعض التفاصيل:

كان أبوه السيد محمد باقر الدهكردي من أفاضل علماء أصفهان، من تلامذة المولى محمد ابراهيم الكرباسي صاحب «بشارات الأصول» وغيره، فقد درس عنده خمس عشرة سنة، ودرّس ابنه الميرزا أبو المعالي الكرباسي مقداراً من كتب المقدمات.

وولده السيد حسين الدهكردي كان من الأفاضل الورعين، وقد عاش منزوياً منطوياً على نفسه متخذاً السكوت ديدنه سنين عديدة حتى توفي سنة ١٣٧٥.

نقل المترجم والده من مسقط رأسه دهكرد إلى أصفهان في سنة ١٢٨٤ وهو في الثانية عشرة من عمره، فابتدأ بالعلوم الآلية في مدرسة الصدر وقرأها على جمع من الأساتذة والشيوخ.

وأول أساتذته في المراحل العالية هو الميرزا أبو المعالي الكرباسي حيث قرأ عنده مبحث الاستصحاب من أصول الفقه.

ومن أساتذته في أصفهان أيضاً: ميرزا محمد هاشم الجهارسوقي الأصبهاني، وميرزا محمد حسن بن محمد علي النجفي، والشيخ محمد باقر المسجد شاهي. وقرأ بها الأسفار والعلوم العقلية عند المولى اسماعيل الحكيم.

ثم هاجر لطلب العلم إلى العراق، فبقي مدة في سامراء وتتلمذ على الميرزا محمد حسن الشيرازي في الفقه، واستفاد أيضاً من مجالس الملا فتح علي العراقي العالم الأخلاقي المعروف في السير والسلوك والتهذيب النفسي..

ثم ذهب إلى النجف الأشرف فحضر أبحاث الميرزا حبيب آ الرشتي الفقهية والأصولية والشيخ راضي النجفي، وكان له حينذاك مطارحات علمية مع المولى محمد كاظم الآخوند الخراساني.

وبقي مدة في كربلاء متتلمذاً على الشيخ زين العابدين المازندراني.

وبعد أن بقي بالعراق سنين منتهلاً من نمير علماء سامراء والنجف وكربلاء عاد إلى أصفهان مشتغلاً بالتدريس والإفادة وتربية طلاب العلوم الدينية.

كان يدرس في مدرسة الصدر فقهاً وأصولاً. وفي أيام التعطيل كان يدرس في تفسير القرآن الكريم أو أصول الكافي أو الرجال والدراية.

ورجع إليه جماعة من أهالي أصبهان وغيرهم في التقليد، وطبعت رسالته العملية «هداية الأنام» أكثر من مرة.

وكانت له مكتبة حافلة تحوي نفائس المخطوطات، ويحيل في مؤلفاته إلى مصادر كثيرة مصرحاً أن المخطوط منها في مكتبته»[١].

أبو القاسم بن محمد علي الأصفي

قابل «دعوات الأسماء» للسهر وردي على نسختين وأتم المقابلة في يوم الثلاثاء ١٢ رجب سنة ١١٠٨، ولعله من العرفاء المائلين إلى التصوف[٢].

الشيخ أبو القاسم بن محمد علي بن محمد باقر الكاشاني

كتب بخطه الفارسي الجيد نسخة من «شرح دعاء الصباح» للمولى هادي الحكيم السبزواري وأتمها في الثامن عشر من شهر رجب سنة ١٢٧٩ وصرح في آخرها أنه قرأ الكتاب عند مؤلفه السبزواري.

وكتب أيضاً «حاشية الأسفار» لأستاذه المذكور في سنة ١٢٧٩[٣].

السيد أبو القاسم بن السيد الميرمحمود بن السيد المير محمد اسماعيل بن السيد محمد تقي بن السيد المير مؤمن بن السيد المير محمد تقي بن السيد المير محمد رضا بن السيد المير قاسم أمير الحاج بن السيد المير محمد باقر قافلة باشي الحسيني القزويني المعروف بـ التقوي.

ولد في قزوين سنة ١٣٠٠ وتوفي بها سنة ١٣٥٩ ودفن في الحجرة الشرقية من صحن الإمام زاده الحسين بن الإمام الرضا (ع).

من كبار الفقهاء ومشاهير العلماء في قزوين أخذ المقدمات وفنون الأدب على أفاضل علماء قزوين ثم أكمل السطوح على الشيخ ملا علي الطارمي وحضر قسماً من خارج الفقه والأصول على العلمين الشيخ ملا علي أكبر الجلوخاني القزويني المتوفى سنة ١٣٣١ والشيخ ملا علي أكبر سياه داني القزويني المتوفى سنة ١٣٤٠ والشيخ عيسى آل الشهيد الثالث المتوفى سنة ١٣٣٩ واختص به وفي سنة ١٣٣٠ توجه إلى طهران وسكن في مدرسة المروي وأخذ الحكمة والفلسفة العالية من حوزة الشيخ الميرزا حسن الكرمانشاهي المتوفى سنة ١٣٣٦ والآخوند الميرزا هاشم الأشكوري المتوفى سنة ١٣٣٢ وغيرهم حتى عام ١٣٣٥ حيث

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.

قصد العراق واستقر في كربلاء والتحق بحوزة زعيم الثورة العراقية الكبرى الشيخ الميرزا محمد تقي الشيرازي المتوفى سنة ١٣٣٨ وبعد وفاة أستاذه المذكور هاجر إلى النجف الأشرف وحضر على أعلامها واختص بالسيد أبو الحسن الأصفهاني وأخذ الفلسفة عن السيد حسين البادكوبي المتوفى سنة ١٣٥٨ وجلس للتدريس في النجف وحضر حلقة درسه جمع من أهل الفضل حتى سنة ١٣٤٧ حيث عاد إلى موطنه قزوين وتزعم كرسي التدريس والفتوى والإمامة وكان من كبار المدرسين في قزوين ومشاهير علمائها.

وآل التقوي فرع من آل القزويني الشهيرين ترك المترجم له مؤلفات منها ١ ـ كتاب الاعتقادات (عربي) ٢ ـ تعليقة على الكفاية للآخوند الشيخ محمد كاظم الخرٰساني ٣ ـ كتاب شرح ديات الشهيد الثالث في الفقه (فارسي) ٤ ـ شرح دعاء السمات، ٥ ـ كتاب شرح دعاء الصباح ٦ ـ كتاب في الفقه من الطهارات إلى الديات مجلدين (عربي)، ٧ ـ رسالة في الجبر والتفويض (عربي) ٨ ـ كتاب في تاريخ وحياة الأئمة المعصومين ٩ ـ رسالة في الإجازات (عربي) ١٠ ـ رسالة في علم الدراية (عربي) ١١ ـ رسالة في اجتماع الأمر والنهي وغير ذلك وقد تخلف بستة أولاد ذكورهم السيد محمد حسن والسيد محمد حسين والسيد أبو الفضل والسيد أبو طالب والسيد سعيد والسيد ناصر[(١)].

السيد أبو القاسم الكاشاني بن السيد نظام الدين

توفي سنة ١٣٩٠ في كاشان.

نشأ في مسقط رأسه مدينة «كاشان»، وبها أخذ الأوليات العلمية وعلى علمائها قرأ العلوم الدينية.

كان أكثر تحصيله في كاشان على والده السيد نظام الدين والسيد محمدالعلوي البروجردي وفي أصفهان على الآخوند ملا محمد حسين الفشاركي.

وكان ذا يد طولى في التفسير والأدب، وله شعر فارسي جيد يتخلص فيه بـ«رضوان».

ترك مؤلفاً في التفسير وحاشية على مطول التفتازاني[(٢)].

السيد أبو القاسم بن محمد مهدي بن محمد سعيد الموسوي الخلخالي

فاضل شاعر بالفارسية جيد الشعر، رأيت بيتين من شعره كتبهما على مجموعة في سنة ١٣١٣ في رثاء أخيه[(٣)].

السيد أبو القاسم بن مير محمد بن مير عيسى بن مير صدر الدين الحسيني المرعشي التستري.

مما قرأ على السيد نعمة آ الجزائري كتاب «الاستبصار» للشيخ الطوسي، فكتب له إنهاءات ثلاث آخرها في آخر الجزء الثاني بتاريخ ربيع الثاني سنة ١٠٨٨ وقال عنه «قد أنهى هذا الكتاب الشريف من أوله إلى هنا قراءة السيد الجليل النبيل الفاضل الصالح التقي النقي...»[(٤)].

سقط هنا بحث بعنوان (السيد الميرزا أبو صالح بن ...)

الميرزا أبو الهدى الكلباسي بن محمد

توفي سنة ١٣٥٦ في أصفهان.

مرت له ترجمة موجزة في (الأعيان) ونذكرها هنا بتفاصيل:

آل الكلباسي من البيوتات العلمية الشهيرة بأصبهان، جمعوا بين المقامات العلمية والرياسة الدينية في تلك المدينة، أصلهم من خراسان من بلدة تسمى «كاخ ـ كاخك» انحدروا من هراة، ولذا يقال لبعض أسلافهم الخراساني الهروي.

لقد طفحت كتب التراجم ومعاجم أسماء المؤلفات بذكر جماعة من هذا البيت، إذ كان لهم نشاط في عالم التأليف ومكانة اجتماعية.

فأبو المترجم الميرزا أبو المعالي محمد المتوفى سنة ١٣١٥، بالإضافة إلى ما اشتهر به من الزهد والورع والتقوى، خلف مؤلفات قيمة بعضها مطبوع منتشر وبعضها لا يزال من المخطوطات.

وجده الشيخ محمد ابراهيم الكلباسي المتوفى سنة ١٢٦١. مشهور في عصره بالعلم والعمل، وله مؤلفات سائرة أشهر كتبه «إشارات الأصول».

وأخوه ميرزا جمال الدين الكلباسي المتوفى سنة ١٣٥٠، أكبر من أخيه أبي الهدى من الخريجين من جامعة النجف العلمية، وهو مؤلف كتاب «تلخيص الهيئة».

وابنه الشيخ محمد الكلباسي من عيون علماء أصفهان وفضلائها.

نشأ المترجم نشأته العلمية الأولى بمسقط رأسه أصبهان، وبعد أن أتم المقدمات حضر أبحاث شيوخ العلم بها، وكان أكثر دراسته في العلوم العالية على والده الميرزا أبي المعالي، فاستفاد من محاضراته إلى حين وفاته سنة ١٣١٥.

وفي حدود سنة ١٣٢٠ ذهب إلى العتبات المقدسة بالعراق، فحضر بالنجف الأشرف أبحاث المولى محمد كاظم الآخوند الخراساني الأصولية، فأدرك الدورتين الأخيرتين من تدريسه لكفاية الأصول.

وحضر في الفقه دروس السيد محمد كاظم الطباطبائي

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٢) السيد أحمد الحسيني.

(٣) السيد أحمد الحسيني.

(٤) السيد أحمد الحسيني.

اليزدي وشيخ الشريعة الأصبهاني وغيرهما، وكان أكثر استفاداته الفقهية من الأول.

ثم عاد إلى أصفهان، واشتغل بالتدريس والبحث والتأليف وإمامة الجماعة وغيرها من الشؤون العلمية والاجتماعية.

كانت حوزته الدراسية ـ وخاصة في الرجال محطّ أنظار ذوي العلم والفضل والتحقيق، يؤمها العلماء ويقصدها الطلاب.

له حواشي كثيرة غير مدونة على كتب الفقه والأصول والرجال كما أن له بعض المدونات في علم الأصول وعلم الرجال وفي الفقه[١].

الخواجة (أحسن الله) المعروف بظفر خان الأحسن بن الخواجة أبو الحسن تربتي المعروف بآصف خان[٢].

مرت له ترجمة موجزة في المجلد الخامس من (المستدركات) ونعيدها هنا بتفاصيل أوسع مكتوبة بقلم: الدكتور أمير حسين العابدي:

وصل الخواجة أبو الحسن تربتي الهند في زمن ملك الهند المشهور جلال الدين أكبر (٩٦٣ ـ ١٠١٤)، وعينّ في عهد جهانپير (١٠١٤ ـ ١٠٣٧) رئيساً للوزراء وأوكل إليه منصب «البنجهزاري»، وانتزعت ولاية كابل عام ١٠٣٣هـ من مهابت خان[٣] وأوكلت إلى الخواجة أبو الحسن، فحكمها ظفر خان بالنيابة عن أبيه، وغادر صايب (المتوفى عام ١٠٨٨هـ) إيران قاصداً كابل شوقاً للقاء ظفر خان، فوصلها ومكث فيها معه عدة سنين، ثم توجه ظفر خان عام ١٠٣٩هـ إلى الهند فرافقه صايب.

في عام ١٠٤١هـ عين شاه جهان (١٠٣٧ ـ ١٠٦٩) ظفر خان حاكماً على كشمير بدلاً من اعتقاد خان. وأوكل إليه منصب (السهزاري). وحين توجه ظفر خان إلى كشمير، ترك صايب بلاط شاه جهان ورافق ظفر خان في رحلته إلى تلك الولاية. وكان لإقامة ظفر خان في كشمير الأثر البالغ في ازدهار الشعر والأدب لأن أغلب شعراء ذلك العصر تجمعوا حوله، وطفقوا ينشدون الشعر في حضرته ويتبارون في ذلك. وكان من عادته أن يقترح موضوعاً للغزل، يأخذ الشعراء في مجاراته، وقد أسهمت هذه العادة في إضفاء رونق خاص على الشعر والشعراء.

عزل ظفر خان عن ولاية كشمير عام ١٠٤٨، ولما غادر كشمير تقوض مجلس الشعر والأدب فيها. من هنا عُدّ ظفر خان من الأشخاص الذين أسهموا في تنمية الشعر والأدب الفارسي. وسبب إقبال شعراء إيران عليه وخصوصاً الشاعر صايب هو اهتمامه الكبير في هذا المجال. ومن أشهر الشعراء الذين لازموا مجلسه وارتبطوا معه بعلاقة خاصة. صايب وكليم والقدسي والغني ودانش والمير صيدي.

كان ظفر خان يطرح قرطاساً يكتب عليه الشعراء شعرهم، وتُرسم صورة كل شاعر خلف شعره. ويذكر خوشپو صاحب كتاب «السفينة» أنه رأى هذا القرطاس. ويتحدث صاحب «شمع انجمن» ومؤلف «مآثر الامراء» عن ظفر خان بقولهما: «يكفي ظفر خان فخراً وشرفاً إن الميرزا صايب امتدحه في شعره.

ينقل عن ظفر خان في أيام شبابه أنه لم يكن يتورع عن محرم ولا ينتهي عن منكر حتى كانت ليلة الاثنين الثاني والعشرين من جمادى الأولى عام ١٠٦٣هـ حيث رأى الرسول (ص) في الرؤيا فتاب على يده. وأخذ بعد ذلك يؤدي واجباته الدينية ويقرأ الأدعية، فوضع له العلماء كتاباً في الأدعية والاذكار المنقولة عن الائمة(ع) وسموه «أحسن الدعوات» وأضافوا إليه شروحاً باللغة الفارسية[٤].

توفي ظفر خان عام ١٠٧٣ في لاهور، ودفن في مقبرة أبيه. ويمكن القول إن أبرز الأمراء الهنود في زمن شاه جهان ممن ناصروا الشعر والشعراء ودعموهم بتأييدهم هو ظفر خان الذي كان ينشد الشعر بنفسه، ويستفيد في ذلك من صايب. وقد ذكر ذلك في شعره، وهو موجود في نسخة خطية تحت عنوان (كليات أحسن) في مكتبة بانكي پور في الهند تحت رقم ٣٢٩.

سار على خطى ظفر خان ابنه الميرزا محمد طاهر المعروف بعنايت خان، حيث كان يعتني بالشعراء والأدباء ويجالسهم، وله ديوان شعر وثلاثة في المثنوي. وله في النثر تلخيص لـ «پادشاه نامه»[٥] وهي تفصيل لثلاثين سنة من سلطنة شاه جهان وسمى التلخيص المذكور باسم «الملخص». ويذكر صاحب كلمات الشعراء انه أفصح من الملا حميد.

عين عنايت خان في عهد شاه جهان في منصب الـ «هزار وپانصدي»[٦] ولكنه عزل في عهد ابنه عالمپير(١٠٦٩ ـ ١١١٩) فقضى حياته في كشمير معتزلاً حتى وافته المنية عام ١٠٨١.

الشيخ احمد بن ابراهيم بن نعمة الله الأردكاني اليزدي.

توفي بعد سنة ١٢٣٣ التي كتب فيها نسخة على حاشية الخوانساري من نسخة بخطه وذكر في آخرها مع دعاء «دام مجده وعزه».

ويبدو من بعض النسخ المخطوطة أنه كان يدرس المعقول على جماعة من طلبة العلم.

(١) السيد أحمد الحسيني.

(٢) كانت وفاة آصف خان عام ١٠٤٢.

(٣) هو زمانه بيك الملقب بمهابت خان خانان بن غيور بيك الكابلي. المتوفى عام ١٠٤٤.

(٤) توجد نسخة خطية من الكتاب في مكتبة مجلس الشورى تحت رقم ٨٢٤.

(٥) «دشاه نامه» تأليف الملا عبد الحميد اللاهوري المتوفى عام ١٠٦٥هـ.

(٦) البنجهزاري والسه هزاري والهزار وبانصدي إصلاحات مشتقة من الأرقام فالأول يعني خمسة آلاف والثاني ثلاثة آلاف والثالث الألف وخمسمائة.

له «حاشية حاشية الخفري على شرح التجريد» في بحث علم الباري تعالى خاصة[١].

الشيخ أحمد بن أحمد بن محمد بن الحسن بن أبي جامع العاملي الشقرائي[٢].

فاضل له اشتغال بالأدب والشعر، كتب بعض القصائد في مجموعة في ليلة الأحد ٢٤ رمضان المبارك سنة ٩٣٩.

يقول حسن الامين: هذا ما كتبه السيد أحمد الحسيني، ونحن نتساءل عن هذا العاملي الشقرائي الذي هو من آل أبي جامع الذين صاروا يعرفون بآل محيي الدين، والذين لا يزال قسم منهم في جبل عامل، والقسم الآخر استقر في العراق.

والذي يلفت النظر هنا، هو وصفه بالشقرائي، نسبة إلى بلدة شقراء التي هي من بلدات جبل عامل، إذ لم يعرف أن أحداً من آل أبي جامع قد سكنها.

ويبدو من هذه النسبة أن بعضاً منهم قد حل بها، على عكس ما هو معروف.

الشيخ أحمد بن اسماعيل بن عبد النبي بن سعد الجزائري النجفي

مذكور في «أعيان الشيعة» ٢/٤٧٩، ونقول:

كتب إجازة للشيخ عبد النبي بن مفيد البحراني الشيرازي في يوم السبت ٢٩ ذي الحجة سنة ١١٥٠ وذكر من شيوخه فيها الشيخ أبو الحسن الشريف الفتوني والمولى محمد نصير المجلسي والمير محمد صالح الخاتون آبادي والمولى محمد قاسم بن محمد رضا الهزاجريبي.

ومع ملاحظة تاريخ هذه الإجازة التي كتبها بخطه في آخر نسخة من كتاب «إيضاح الاشتباه» للعلامة الحلي. لا يبقى محل لتردد السيد الأمين في تاريخ وفاة صاحب الترجمة[٣].

أحمد التبريزي

فاضل أديب شاعر، من أعلام القرن الثالث عشر وكان حياً في سنة ١٢٤٠ التي كتب فيها الشيخ محمد حسن الخوئي بعض أشعاره في مجموعة مع الدعاء له بـ«سلمه آ تعالى»[٤].

الميرزا أحمد بن جعفر الأمين الحسيني اللالابادي

كتب نسخة من كتاب «نتيجة المقال في علم الرجال» للشيخ محمد حسن البارفروشي المازندراني وأتمها في يوم الثلاثاء ١٦ صفر ١٣٠٣ وصرح في آخرها بأن المؤلف من شيوخه[٥].

أحمد الجيلي، نظام الدين

قابل نسخة من كتاب «الأفق المبين» للسيد ميرداماد الأسترابادي. وأتم المقابلة في الليلة الرابعة من شهر شوال سنة ١٠١٦ مصرحاً في بلاغه بأنه قرأه على المصنف وأنه من تلامذته[٦].

الشيخ أحمد الدندن بن حبيب بن خميس الأحسائي المبرزي

توفي سنة ١٣١١

عالم جليل، وأديب شاعر وكان والده من كبار الشعراء.

ولد في (الأحساء)، وبها نشأ وترعرع، ولا نعلم سنة مولده، وكان توطنه وسكناه في مدينة (المبرّز). والمعروف أنه تلقى دروسه العلمية في الأحساء على يد علمائها الأعلام، وكانت الأحساء في عصره مشرقة بالعلماء، وكان للنشاط العلمي فيها تفوق قليل النظير.

والمترجم له كان من تلامذة السيد هاشم آل السيد سلمان الموسوي الأحسائي ـ قائد الحركة العلمية في مدينة (المبرّز) ـ، ولعله تتلمذ على غيره أيضاً، وكان من الملازمين لأستاذه المذكور ومن المقربين لديه، حتى نال رتبة عالية من العلم والفضل، وأصبح في عداد العلماء الأجلاء، وكان أستاذه يمدحه ويثني عليه ثناءً بالغاً، كما قيل.

وقال في شأنه السيد محمد العلي ـ المتوفى عام ١٣٨٨: «الشيخ أحمد بن حبيب بن خميس، كان من العلماء، وعلى جانب عظيم من الزهد والورع».

وبعد وفاة أستاذه السيد هاشم سنة ١٣٠٩ كان المترجم له يراسل الشيخ محمد آل عيثان الأحسائي ـ المتوفى عام ١٣٣١هـ ـ ويسأله عن مسائل علمية كثيرة ومختلفة، مما يدل على نشاطه العلمي وشغفه باكتساب المعارف.

وله أخ اسمه الشيخ حسين، كان من أهل العلم أيضاً ومن تلامذة السيد هاشم المذكور، لكن لم نعلم عن حاله شيئاً.

والشيخ عبد الله بن دَندن، من أساتذة الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي.

كان أديباً ينظم الشعر كما كان عالماً فاضلاً، وديوان شعره المخطوط كان موجوداً عند الشيخ صالح السلطان الأحسائي ولكنه فُقد.

---

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.

ومن شعره هذه الأبيات من قصيدة في رثاء القاسم بن الإمام الحسن عليهما السلام:

عن قاسم بالطَّفّ هاتِ وأوردِ أنباءَ قصّته وسبطَ محمّدِ
عَرَضَ الكتابَ وقال يا عمّاه وا أسفاهُ لي إن فاتَ أمري من يدي
وبَنو أبي ورَدوا مَواردهم وما لي دونَ مورد معشري من مورد
أرأيتَ بي يا عمُّ نقصاً دونَهم فيفوتَ وَعْدُكَ هم وأُخلِف موعدي
تأبى عليَّ نقيبةٌ، عزماتُها وَطئات بأخمصها مناطَ الفرقد

إلى أن يقول ـ على لسان رملة تخاطب ولدها القاسم (ع)ـ:

قالت بُنيَّ خذِ النَّصيبَ كمثل ما أخذته قومُكَ يا فتى بهمُ اقتد
الركبُ جدُّوا ورادينَ وأدركوا فضلَ السِّباقِ وأنتَ دونَ الموردِ
كلاً لأنتَ أبو البسالةِ والذي أبقى أبوكَ لمثل هذا المشهد
يا ليتَ قتلَكَ دافعٌ عنه الرَّدى والسبيَ عن حرم النبي محمد

وله من قصيدة في رثاء الإمام الحسين (ع):

يا خائضَ اللججِ المثير النقع في أمواجها قطعاً من الأحقاف
يا حامي الإسلام ليتكَ حاضرٌ وبنوكَ أسرى في متون عجاف
أعلمتَ يا خدرَ الظعينية طوّحت ببناتكَ الأظعانُ في الأطراف

أحمد بن الحسن بن ناصر بن علي بن سيف

فاضل أديب، كتب نسخة من كتاب «الدرر السنية على شرح الألفية» لزكريا الأنصاري وكتب عليها تعاليق تدل على اطلاعه الجيد بالعلوم الأدبية وهو من أعلام القرن الثاني عشر ظاهراً[1].

الشيخ أحمد بن الحسين بن أبي القاسم بن الحسين بن محمد العودي الأسدي الحلي

من أعلام القرن الثامن: كتب مجموعة أكثر رسائلها كلامية في سنة ٧٤٠ ـ ٧٤٢، وأنشأ فيها وصية عرض فيها عقائده، وهي تدل على فضل كثير وعلم غزير في الكلام والعلوم العقلية، بالإضافة إلى أدبه الرفيع وإنشائه الحسن[2].

الشيخ أحمد بن الحسن البير جندي اليزدي

أصله من «بير جند» وسكن مدينة يزد، ولعل تحصيله كان من مشهد الرضا (ع) فقيل له المشهدي وبير جند من توابع مشهد، وقد سافر إلى أصبهان وأقام بها مدة ألف فيها بعض كتبه وكان موضع حفاوة علمائها.

كان حسن الإنشاء بالفارسية واسع الإطلاع في المعارف الدينية كثير الاشتغال بالتأليف والتصنيف[3].

السيد أحمد التستري المعروف بالسيد آقا بن السيد حسين المعروف ببزرك بن السيد محمد بن السيد حسين بن السيد عبد الكريم بن السيد محمد جواد بن السيد عبد آ بن السيد نور الدين بن السيد نعمة آ الموسوي الجزائري التستري المعروف بالإمام

ولد بتستر سنة ١٢٩١ وتوفي في النجف سنة ١٣٨٤ نشأ وترعرع في تستر وعلى أعلامها قرأ المقدمات العلمية، فقرأ العلوم الأدبية والرياضية والتجويد على الشيخ محمد تقي شيخ الإسلام والسيد بزرك آل طيب والسيد محمد بن محمد باقر المعروف بشيشه برخانه والآخوند ملا جعفر شرف الدين وغيرهم.

وفي سنة ١٣٠٩ ذهب إلى مدينة «دزفول»، وبقي بها سنتين متتلمذاً على الشيخ محمد طاهر آ الدزفولي ومدرساً لجماعة من شباب الطلبة.

وفي سنة ١٣١١ ذهب إلى النجف الأشرف وأقام بها إلى آخر عمره، فحضر بها بحث المولى محمد كاظم الآخوند الخراساني والسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي وآخرين.

كانت له اليد الطولى في علوم الحديث وشرح ألفاظه وبيان معانيه، متوغلاً في علوم القرآن الكريم وخاصة في التجويد حيث كان يعتبر من أساتذته وتتلمذ عليه في هذا الفن جماعة من الأفاضل في حلقة دراسية خاصة بالتجويد في «مسجد الهندي بالنجف».

وتعاطى الأدب أيضاً ونظم الشعر قليلاً بالعربية والفارسية، وقد جمع شعره بعض أقاربه.

وكان له ولع بجمع الكتب المخطوطة والمطبوعة حتى تجمعت له مكتبة عامرة بالمؤلفات وخاصة مؤلفات أجداده «آل الجزائري».

من مؤلفاته: (إجازات المشائخ ومجازاة الشوامخ» وهو مجموعة فيها أكثر من ثلاثين إجازة متفرقة أكثرها بخط المجيزين، وقد انتقلت إلى مكتبة صاحب الذريعة بالنجف الأشرف.

وتتمة الشجرة وتنمية الثمرة، وهو تتمة «الشجرة النورية».

وتعويد اللسان بتجويد القرآن وتقويم المعرفة، في معرفة التقويم وهو فارسي وحاشية الروضة البهية والعجالة، في تراجم الرجال المذكورين في مجمع البيان والفوائد المختلفة والفرائد المتشتته والفوز العظيم في ترجمة جده السيد حسين بن السيد عبد الكريم، والكواكب الدرية، مجموعة من أشعاره وأشعار آخرين ومجموعة، فيها متفرقات عربية وفارسية[4].

أحمد بن الحسين الأصبهاني.

استكتب كتاب «الاستبصار» ثم قرأه على السيد حسين بن حيدر الحسيني الكركي العاملي، فكتب له إنهاءاً وإجازة في آخر كتاب الطهارة منه في سنة ١٠٣٩ معبراً عنه بـ«مولانا الفاضل الجليل...»[5].

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.

السيد أحمد بن سلطان علي بن أحمد بن صادق بن أحمد بن مجد الدين بن السيد علي خان الكبير شارح الصفيحة السجادية.

عالم جليل جامع للعلوم العقلية والنقلية، متبحر في العلوم الأدبية. ويبدو مما كتبه بعض معاصريه أنه كان منزوياً غير معروف في الأوساط بالرغم من مكانته العلمية الممتازة.

كتب السيد علي الطباطبائي في تقريضه على كتاب الهداية يصف المترجم له «السيد العالم العامل والسند الفاضل الكامل الجامع بين المعقول والمنقول والمستجمع للفروع والأصول صاحب الأخلاق المرضية ومصاحب الأوصاف السنية الصورية والمعنوية سالك مسالك العلوم والمعارف وناسك مناسك الحقائق واللطائف مجمع الفضائل السيد الجليل الملقب بصدر الأفاضل...».

توفي - كما كتبه محمد علي بن ابراهيم الشريف - ليلة الجمعة ٢٧ شهر رجب سنة ١٣٤٣.

له «هداية المستبصرين» في شرح دعاء عرفة وأتمه سنة ١٣٣٨[1].

السيد أحمد بن مير صدر الدين الحسيني النائيني الملقب بحسيني نجاد

استعان به ميرزا محمد هادي بن أبي الحسن الشريف النائيني في تأليف كتابه «سرور المؤمنين» في أحوال المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وعظمه في أوله ووصفه بحبه لأهل البيت عليهم السلام، وهو من أعلام القرن الثالث عشر، وكان يقيم ظاهراً بمدينة كاشان[2].

الدكتور أحمد الظاهري العراقي

هو العالم الفاضل والمحقق المتتبع والخبير في الكتب، ولد عام ١٣٦٤هـ في مدينة أراك (بوسط إيران) بدأ دراسته في مدارس مسقط رأسه ثم هاجر إلى طهران ودخل عام ١٣٨٠هـ في جامعة طهران قسم الآداب والعلوم الإنسانية فتخرج منها عام ١٣٨٤هـ حائزاً على شهادة الليسانس ثم في عام ١٣٨٦هـ صار عضواً في مؤسسة (بنيادفرهنگ) الثقافية وعمل فيها في مجال التحقيق في الكتب والمكتبات مدة أربع سنوات ثم انتقل منها إلى مؤسسة (مركز خدمات كتابداري) وهي مؤسسة تختص بدراسة الكتب والمكتبات وفهرستها وعمل فيها مدة ٧ سنوات، ثم بعد ذلك قضى فترة دراسية في الجامعة الأميركية ببيروت درس فيها علم فهرسة الكتب وعلم المكتبات وتعلم فيها اللغة العربية، ثم سافر منها إلى القاهرة وقضى فيها ستة أشهر باحثاً ومتعلماً في دار الكتب المصرية ومكتبة الجامع الأزهر وغيرها من المكتبات وحضر دروس الأدب العربي في جامعة القاهرة، ثم عاد إلى إيران وحصل على منحة دراسية فسافر عام ١٣٩٣هـ إلى بريطانيا ودخل جامعة أدنبره فدرس فيها في مجال اختصاصه وهو علم الكتب والمكتبات وفي تلك الفترة درّس فيها دواوين جلال الدين الروحي ومحمد البلخي وحافظ الشيرازي وبعد أن قدم أطروحته للدكتوراه حول بعض التعديلات في نظام فهرسة الكتب على طريقة ديوئي الأميركي بحيث تتوافق مع متطلبات المكتبات الإسلامية وفهرسة كتبها فحاز على درجة الدكتوراه. ثم درس فترة في نفس الجامعة الآداب العربية وحصل منها على الدكتوراه في الأدب العربي. وفي عام ١٤٠٤هـ عاد إلى إيران فصار عضواً في مؤسسة (دائرة المعارف الإسلامية) وهي مؤسسة تعنى بنشر دائرة معارف إسلامية معاصرة، ثم رُقّيَ فصار نائب رئيس هذه المؤسسة والمسؤول عن الشؤون العلمية فيها واستمر فيها حتى حين وفاته، وفي هذه الفترة التي استمرت ٨ سنوات من عام ١٤٠٤ إلى ١٤١٢هـ أشرف على إصدار الجزء الأول من (دانشنامه إسلام وإيران= دائرة المعارف الإسلامية الإيرانية) كما رأس تحرير مجلة (تحقيقات إسلامي) وهي مجلة تعنى بالشؤون العلمية وترصد آخر الأعمال في مجال التحقيقات في إيران وقد صدر إلى آخر أيامه أعداد منها وكان في تلك الفترة يقوم بتدريس مادة التصوف والعرفان في كلية الإلهيات التابعة لجامعة طهران حتى توفي عام ١٤١٢هـ.

كان عالماً فاضلاً أديباً، محباً للعلم والعلماء، مُكباً على الدرس والمطالعة لا تفوته شاردة أو واردة من التحقيقات وكان يتتبع آخر الإصدارات من الكتب والدوريات العلمية والجامعية في إيران والعالم الإسلامي وغيره وكان كريماً سخياً في إعطاء معلوماته لمن يطلب منه فلا يبخل في بذل علمه على أحد وكان مساعداً للمحققين في تحقيقاتهم. ومعيناً لهم، يحاول أن يرشدهم في ذلك، كان محبوباً من الجميع، يحبه الطلاب والأساتذة على حد سواء. مرض قبل أسبوع من وفاته بمرض خبيث فلم يمهله إلا أياماً معدودات فتوفي وآلمت وفاته جميع العلماء في إيران. ودفن في طهران وقد رثته جميع المؤسسات الثقافية والمجلات العلمية في إيران - وقد أقيم احتفال تأبيني بمناسبة مرور عام على وفاته في (أنجمن فلسفة) المؤسسة الفلسفية الإسلامية الإيرانية بطهران ورثاه جمع من العلماء[3].

الشيخ أحمد العاملي

هاجر إلى الهند وتقرب إلى ملوكها كالسلطان عبد الله قطب شاه المتوفى سنة ١٠٨٣، وكان أديباً فاضلاً له شعر بالفارسية، وهو من أعلام القرن الحادي عشر.

(١) السيد أحمد الحسيني.

(٢) السيد أحمد الحسيني.

(٣) الشيخ محمد رضا الأنصاري.

له «ترجمة الكشكول للبهائي»[١].

الشيخ أحمد بن عباس الهمداني

من أعلام أوائل القرن الثالث عشر، كان إمام الجمعة والجماعة في «أردستان» وقد أوقف كتبه في شهر جمادى الأولى سنة ١٢١٢، وذكره السيد محمد حسين بن محمد صادق الطباطبائي في الوقفية بعنوان «المولى الفاضل العالم الصالح الورع التقي»[٢].

الشيخ أحمد بن عبد الله الربيعي الأحسائي

فاضل أديب شاعر، من أعلام القرن الثاني عشر.

ذكره السيد عباس المكي في كتابه «نزهة الجليس» ١/ ٣٩٦ وقال: أنشدني من لفظه لنفسه ببندر سورت (الهند) سنة ١١٣٧ الشيخ الكامل العالم العامل الصفي الوفي الشيخ أحمد:

عبد بقيد الذنب أصبح موثقاً يثني على من في يديه عنانه
وآ ما استوفى القليل من الثنا لو أن كل الكائنات لسانه[٣]

الشيخ أحمد بن عبد الحسين بن إبراهيم بن ناصر بن جعفر بن موسى بن أبي الحسين الشيباني

قابل نسخة من كتاب «تهذيب الأحكام» في سنة ٩٥٣ - ٩٥٤ على عدة نسخ وصححها تصحيحاً دقيقاً يدل على شدة عنايته بالحديث، وكتب اسمه فيها مكرراً «أحمد بن عبد الحسين الشيباني»[٤].

الشيخ أحمد بن عبد المحمد البرنجاني

فاضل محدث وخطيب له إلمام بالتاريخ والعلوم الإسلامية، من تلامذة الشيخ محمد حسن القزويني، وهو من أعلام النصف الثاني من القرن الثالث عشر، حسن الإنشاء شاعر متوسط الشعر.

له «بحار العيون وأنهار الجفون»[٥].

الشيخ أحمد بن عبد الواحد العبودي

من أعلام القرن الثالث عشر، قرأ كتاب «منية اللبيب» للسيد ضياء الدين ابن الأعرج في سنة ١٢٣٢[٦].

الشيخ أحمد بن علي محمد

فاضل له باع في الحديث وعلومه، مائل إلى الشيخ أحمد الأحسائي وينقل عنه في كتاباته كثيراً.

له «أصول الدين»[٧].

أحمد بن محمد ابراهيم الحسيني

كتب تقريظاً حسن التعبير على كتاب «رفع الالتباس عن أحكام الناس» في سنة ١١٦٩، يعرف منه تبحره في الآداب والعلوم الدينية.

ولعله هو السيد أحمد بن الأمير ابراهيم بن الأمير معصوم القزويني المذكور في «الكواكب المنتثرة» المخطوط وغيره[٨].

الشيخ أحمد بن محمد بن الحسين بن الفقيه علي بن محمد بن الحسين بن إبراهيم بن محمد الفقيه المحمدي

كتب نسخة من كتاب «نخب المناقب» لأبي عبد آ ابن جبير وأتم كتابتها في يوم الجمعة ٢٩ ذي القعدة سنة ٨٣٩، ثم قابلها على أصلها بدقة تدل على عناية ومعرفة[٩].

الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن سرحان البحراني

كتب نسخة من رسالة «علم آ تعالى» للشيخ علي بن عبد آ بن علي البحراني وأتمها في ثامن شوال سنة ١٣٠٩ وصرح في آخرها أنه من تلامذة المؤلف[١٠].

الشيخ أحمد بن محمد (شمس الدين) بن علي بن خاتون العيناثي العاملي

مترجم في «إحياء الداثر» ص ١٢، ونقول:

قرأ عند بعض كتاب «الدروس الشرعية» للشهيد الأول فكتب له إنهاءً في آخره في يوم الأحد ٢٢ ذي القعدة سنة ٩٠٧[١١].

السيد أحمد بن محمد باقر بن عناية الله بن محمد بن زين العابدين الموسوي البهبهاني الحائري

سافر في سنة ١٣٠٨ إلى مشهد الرضا (ع) وعند عودته إلى طهران ألف كتابه «معين الوارثين».

قال السيد محمد صادق بن علي نقي الموسوي الزنجاني في تقريظه على كتاب المعين المذكور: «العالم العامل الفاضل الكامل صاحب الأنوار البهية والقوة القدسية الإلهية الفقيه الجامع الذي زين بذكر محامد صفاته المسامع في المجامع السيد السند والزاهد الورع النحرير المؤيد العلامة المسدد...»

له غير ما هو مذكور في الذريعة «الخلع والمباراة وفساد الطلاق بالعوض» و«الشرط في ضمن العقد» و«عرق الجنب من الحرام» و«منجزات المريض» و«الوقف»[١٢].

الشيخ أحمد بن محمد بن الحسن بن المصيرد البلدائي، المعروف ببصيص

أصله من قرية «البليدا»، كتب كتاب «شرائع الإسلام» وأتم الجزء الأول منه في يوم السبت سادس شعبان سنة ٨٩٧ والثاني في يوم الأحد ٢٢ صفر ٨٩٩، وقرأه عند الشيخ علي بن محمد بن الحسام فكتب له إنهاءً في آخر الجزء الأول منه في ٢٤ شعبان سنة ٨٩٨[١].

الميرزا أحمد بن محمد حسين القمي المنشي

ولد في قرية «كركان» من قرى فراهان في جمادى الأولى سنة

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.
(٧) السيد أحمد الحسيني.
(٨) السيد أحمد الحسيني.
(٩) السيد أحمد الحسيني.
(١٠) السيد أحمد الحسيني.
(١١) السيد أحمد الحسيني.
(١٢) السيد أحمد الحسيني.
(١) السيد أحمد الحسيني.

١٢٧١، وكان أسلافه أباً وأماً من أرباب المناصب الحكومية في طهران وقم وأراك.

نشأ في مسقط رأسه وتعلم مبادىء القراءة والكتابة في تلك القرية، ثم انتقل إلى قم وبدأ بتحصيل العلوم الدينية على أساتذتها العلماء مجداً في الدراسة حتى سنة ١٢٨٨ حيث حصل القحط والغلاء وانشغل برهة عن الدرس والبحث.

وفي سنة ١٢٩١ ذهب إلى العتبات المقدسة بالعراق، وأقام بها بعض السنين مشتغلاً بالعلوم الحوزوية العالية، ودرس الفقه والأصول على مشايخ العلم وكبار المدرسين.

وفي سنة ١٢٩٨ عاد إلى إيران وأقام بطهران، واشتغل بوظيفة كاتب عند مخبر الدولة وزير العلوم آنذاك، وبعد مدة ترك الوظيفة وذهب إلى قم، ولكن لم يبق بها كثيراً حيث عاد إلى طهران منزوياً قليل الاختلاط بالناس[1].

أحمد بن محمد أمين [القزويني]

فاضل جامع لأطراف العلوم، مشتغل بالعلوم الرياضية وغيرها، ولعله كان من القاطنين بقزوين.

له «الفوائد الصحيحة في شرح الصحيفة» ألفه سنة ١١١٧[2].

السيد أحمد الصفائي الخوانساري بن محمد رضا

ولد في مدينة «خوانسار» سنة ١٢٩١ وتوفي فيها سنة ١٣٥٩.

بعد تعلم الأوليات في بعض المكاتب في خوانسار قرأ العلوم الأدبية على الشيخ الميرزا حسين الخوانساري والسطوح على السيد علي أكبر البيدهندي الخوانساري وشرح المنظومة على المولى محمد علي الخوانساري المعروف بالحكيم الإيماني.

هاجر سنة ١٣١٠ إلى أصفهان. حيث تتلمذ بها فقهاً وأصولاً على السيد محمد هاشم الجهارسوقي والشيخ محمد تقي الأصبهاني المعروف بآقا نجفي والميرزا محمد حسن النجفي والمولى محمد باقر الفشاركي والميرزا حسن بن إبراهيم الأصفهاني والسيد محمد باقر الدرأي والشيخ محمد علي ثقة الإسلام والشيخ أبو المعالي الكلباسي. وقرأ الأسفار وشرح الإشارات والشفاء على الآخوند ملا محمد الكاشي وجها نپيرخان القشقاني والحاج ميرزا بديع والحاج آقا منير الدين البروجردي.

وفي سنة ١٣٢٢ ذهب إلى النجف الأشرف، فتتلمذ عند المولى محمد كاظم الآخوند الخراساني والسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي وشيخ الشريعة الأصبهاني كما أنه أدرك قليلاً من درس الحاج ميرزا حسين الخليلي الطهراني أيضاً. واستفاد في الرجال والحديث من دروس السيد أبي تراب الخوانساري.

وعاد في سنة ١٣٢٨ إلى خوانسار. واشتغل فيها بالوظائف الشرعية والإرشاد وإقامة الجماعة وتدريس الطلاب والتأليف والقيام بالواجبات الاجتماعية.

كان كثير التدريس ويقضي أكثر أوقاته فيه، فكان يدرّس كتاب «مغني اللبيب» إلى «كفاية الأصول» و«الرسائل»، ولا يستنكف عن تدريس أي كتاب يطلب منه تدريسه. وقد ربى في حوزته العلمية كثيراً من الطلاب من أبناء بلدته والوافدين إليها.

وإلى جانب مشاغله العلمية والدينية، استنسخ عدداً من المخطوطات غير المتوفرة تجاوزت المائة كتاب ـ غير مؤلفاته ـ وقابلها وصححها في دقة واتقان، وكوّن بذلك لنفسه مكتبة غنية كانت مادة ثرية لمؤلفاته وخاصة كتابه «كشف الأستار» الذي منه يظهر مدى تتبعه في الآثار المخطوطة ومدى صبره على المطالعة.

ترك مؤلفات فقهية، وأهم ما تركه كتاب تاريخ خوانسار، ولا ندري إلى أين انتهى أمره[3].

أحمد السبعي بن محمد بن عبد آ بن علي بن الحسن بن علي بن محمد بن سبع (سبيع) [ابن سالم] بن رفاعة السبعي (السبيعي) الرفاعي، فخر الدين الأحسائي

مترجم في رياض العلماء ١/ ٦٢ والضياء اللامع ص ٧ ونقول:

رأيت نسخة من ديوانه لعلها من القرن الحادي عشر على الورقة الأولى منها بخط جديد أضاف في آبائه «ابن سالم» ونسبه إلى الأحساء وذكر أنه توفي سنة ٨٦٠ ونيف بالهند.

و«السبعي» أو «السبيعي» و«الرفاعي» نسبة إلى جديه المذكورين.

وهو بالإضافة إلى مكانته العلمية العالية أديب شاعر طويل النفس في قصائده، وقد تمحض ديوانه الصغير الذي رأيته بفضائل أهل البيت عليهم السلام ومناقبهم، ومن شعره قوله في رثاء الحسين (ع) من قصيدة:

أتصبو بعد ما ذهب التصابي ... وولّى مسرعاً شرخ الشباب
تقضّى العمر منك وما تقضى ... من الدنيا هواك وأنت صابي
أعيذك من ذهاب في التصابي ... وقد نادى المنادي للذهاب
وحان الارتحال إلى صحاب ... مَضَوْا وهم الخيار من الصحاب
إلى دار البلا زمّوا ركاباً ... وحادي الموت يحدو بالركاب
وما ارتحلوا عن الأوطان إلا ... لترحل عن فناها والرحاب
فكم من والهٍ يُذري دموعاً ... عليهم يوم تقويض القباب
ولو كان اللبيب لكان يبكي ... مصابَ النفس من قبل المصاب
أرانا مزمعين لوشك بَينٍ ... وليس عقيب ذلك من إياب
أرانا موضعين بكل خرقٍ ... يبلغنا إلى جدث خراب
فمن يك سائلاً عني فإني ... بعيد في دنوي واقترابي

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.

سأبكي لانفرادي واغترابي بذي قدم يطول به اغترابي
سأبكي والمسافة قيد رمح من الآتي ولا يغشى جنابي
سأبكي في مرابعه اجتيابي وما أعددت زاد الاجتياب
سأبكي إن بكيت على ذنوبي فإن الخطب جلّ عن الخطاب
كفى نفسي البكاء لرزء نفسي فقد أوبقتُ نفسي باكتسابي
كفى عيني البكاء لصنع عيني وما نظرت إليه من ارتياب
إذا ناحت مطوقة بوكر ذكرت جرائري فبكيت ما بي
وإن ذكر القتيل بكربلاء سمحت بصب دمع ذي انصباب
سأغرب في البكاء على غريب بكاه كتاب ربي باكتئاب
سأندب في عراص الطف ندباً مزاراً للفراعل والذئاب
ثلاثاً بالعرا يا لهف نفسي على العاري السليب من الثياب
أيلتحف التراب عقيب مسح لكفي أحمد وأبي تراب
أتحضنه مطهرة بتول ويمسي نهب أطراف الحراب
ألا من راع للزهراء قلباً وأغرى دمعها بالانسكاب
وألبسها القميص تخال فيها خلوقاً من دم قاني الخضاب
ستشكو وهي قانية عليها إلى الرحمن في يوم المآب
أسفت لغارم يبكي عليه وقد لج المطالب في الطلاب

ومن تخميسه لقصيدة الشيخ أحمد الأحسائي في مدح الإمام أمير المؤمنين (ع):

أعيت صفاتك أهلَ الرأي والنظر
وأوردتهم حياضَ العجز والخطر
أنت الذي رق معناه لمعتبر
يا آية الله بل يا فتنة البشر
يا حجة الله بل يا منتهى القدر
عن كشف معناه ذو الفكر الدقيق وهن
وفيك رب العلى أهلَ العقول فتن
أنى تحدك يا نور الإله فِطَن
يا من إليه إشارات العقول ومن
فيه الألباء تحت العجز والخطر
نفى حدوثك قومٌ في هواك غَوَوا
إذا أبصروا منك أمراً معجزاً فغلوا
حيرتَ أذهانهم يا ذا العلى فَعلَوا
هيمت أفكار ذي الأفكار حين رأوا
آيات شأنك في الآيات والعصر
أوضحتَ للناس أحكاماً محرفة
كما أبنتَ أحاديثاً مصحفة
أنت المقدم أسلافاً وسالفة
يا أولاً آخراً نوراً ومعرفة
يا ظاهراً باطناً في العين والأثر
يا مطعمَ القرص للعافي الأسير وما
ذاق الطعام وأمسى صائماً كرماً
ومرجع القرص إذ بحر الظلام طما
لك العبارة بالنطق البليغ كما
لك الإشارة في الآيات والسور
أنوار فضلك لا تطفي لهن عدا
مهما يكتمه أهل الضلال بدا
تحالفت فيك أفكار الورى أبداً
كم خاض فيك أناس فانتهوا فغدا
معناك محتجباً عن كل مقتدر
لولاك ما اتسقت للطهر ملته
كلا ولا اتضحت للناس شرعته
ولا انتفت عن أسير الشك شبهته
أنت الدليل لمن حارت بصيرته
في طي مستشكلات القول والعبر[1]

الشيخ أحمد بن عبد الرضا مهذب الدين

مترجم في أعيان الشيعة ٢/ ٦٢٤ ونقول:

اسم أبيه الرضا لكنه اشتهر بعبد الرضا كما يقول المترجم له في آخر كتابه «فائق المقال»، له إجازة حديثية من الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي بالإضافة إلى أنه كان أستاذه[2].

المولى أحمد بن عبد العظيم بن علي أكبر الكاشاني

ولد في مدينة كاشان وبها نشأ، ثم ذهب إلى العتبات المقدسة بالعراق بصحبة أبيه وأخيه الأكبر. فتتلمذ في كربلاء على السيد علي الطباطبائي صاحب «رياض المسائل» فقرأ عدة من الكتب الأصولية والفقهية والحديثية ومنها كتاب الطهارة والصلاة والنكاح من «الرياض»، كما أنه تتلمذ مدة أيضاً على المولى محمد باقر الوحيد البهبهاني.

ثم بأمر من أستاذه الطباطبائي عاد إلى مسقط رأسه كاشان سنتين قبل هجوم الوهابيين على كربلاء، وبقي في كاشان مشتغلاً بالتدريس والشؤون الدينية والاجتماعية، وأصابته نكبات من جراء خلافات مع بعض العلماء لا نعلم شيئاً من تفاصيلها، وأدى ذلك إلى ترك التدريس والتأليف، ولكن بعد برهة عاد إليهما.

أجازه رواية أستاذه السيد علي الطباطبائي في شهر ذي القعدة سنة ١٢١٣ والمولى محمد علي ابن أستاذه الوحيد البهبهاني في كرمانشاه بتاريخ شهر ذي الحجة من نفس السنة.

له «مشارق الأنوار» و«حاشية معالم الأصول» أتمها سنة ١٢٢٦[3].

الشيخ أحمد بن ملا محمد بن حسين الزاجكاني القزويني

توفي بعد سنة ١٢٨٠.

من كبار أئمة الفتوى والتقليد أخذ المقدمات وفنون الأدب على أفاضل علماء قزوين ثم التحق بحوزة الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ هجرية وشقيقه الشهيد الثالث المستشهد سنة ١٢٦٣ (هجرية) وتتلمذ في الفلسفة العالية على الآخوند ملا آغا الحكمي القزويني ثم هاجر إلى العراق

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.

قاصداً الحوزة العلمية الكبرى في كربلاء والنجف فحضر في كربلاء على السيد ابراهيم القزويني صاحب الضوابط المتوفى سنة ١٢٦٢ وبعد وفاة أستاذه القزويني توجه إلى النجف الأشرف وحضر على الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر المتوفى سنة ١٢٦٦ والشيخ مرتضى الأنصاري وفي سنة ١٢٧٠ عاد إلى موطنه قزوين وشغل كرسي التدريس والفتوى والإرشاد في المدرسة الصالحية وكان من أبرز المدرسين في قزوين وله مؤلفات منها:

١ ـ كتاب بحر البكاء في واقعة الطف بالعربية.

٢ ـ رسالة في أصول الدين بالفارسية.

٣ ـ صراط النجاة رسالة عملية.

٤ ـ كتاب الاعتقادات بالعربية.

٥ ـ رسالة في بيان الولاية ومعنى الشريعة والطريقة.

٦ ـ منتخبات من خطب نهج البلاغة.

ترك ثلاثة أولاد ذكور وهم ١ ـ الشيخ محمد جواد ٢ ـ الشيخ أبو القاسم ٣ ـ الشيخ أبو الحسن كلهم من العلماء الأعلام في قزوين[١].

الحاج ميرزا أحمد الكفائي بن محمد كاظم

ولد في النجف الأشرف في شهر ربيع الأول سنة ١٣٠٠ وبها نشأ نشأته الأولى في كنف والده المولى محمد كاظم الآخوند الخراساني. قرأ المكاسب والرسائل عند السيد أبي الحسن الأصبهاني بأمر من والده، وقرأ الكفاية قبل طبعه عند أخيه الحاج ميرزا محمد الكفائي، ثم دخل في حوزة درس والده فقهاً وأصولاً فتتلمذ عليه عشر سنوات ثم أصيب بفقده.

أبعد من النجف إلى إيران مع جماعة من المراجع والعلماء في سنة ١٣٤١، وهبط مشهد الرضا (ع) سنة ١٣٤٢ وأقام به إلى آخر حياته مدرساً يربي التلاميذ ومرجعاً يتولى الشؤون الدينية والاجتماعية[٢].

السيد أحمد علي بن السيد مير محمد عباس المفتي التستري الجزائري اللكهنوي

ولد في لكهنو سنة ١٣٠٣ وتوفي فيها سنة ١٣٨٨.

نشأ في لكهنو وتعلم المبادىء على القارىء الميرزا مهدي.

وفي سنة ١٣١٢ التحق بمدرسة «مشارع الشرائع»، فقرأ على أساتذتها المقدمات وبعض كتب السطوح، ومن أساتذته بها السيد نجم الحسن النقوي والمولوي جعفر حسين اللكهنوي.

ثم زار أئمة العراق سنة ١٣١٨ مع والدته، وأقام بكربلاء مدة فتتلمذ على السيد محمد باقر الحجة والسيد كاظم البهبهاني والشيخ غلام حسين المرندي.

ثم انتقل إلى النجف الأشرف، فقرأ كتاب «الرسائل» و«المكاسب» وبعض كتب «رياض المسائل» على الشيخ ضياء الدين العراقي، ثم حضر خارج الفقه على الحاج ميرزا حسين الخليلي الطهراني. ثم تتلمذ في الفقه والأصول على المولى محمد كاظم الآخوند الخراساني والسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي، وكان أكثر استفاداته العلمية من أستاذه الأخير فانقطع إليه ولازمه إلى حين عودته إلى الهند.

وعاد من العراق إلى مسقط رأسه لكهنو. واشتغل بالتدريس وتربية الطلاب والناشئين من أهل العلم في «مدرسة مشارع الشرائع» و«المدرسة الناظمية». فتخرج عليه جمع من الأفاضل.

كان واعظاً قوي الخطابة جيد البيان، يحضر مجالسه في شهر رمضان المبارك كثير من المستمعين.

وكان عالماً، أديباً له شعر كثير بالعربية والفارسية والأردوية.

أحمد بهمنيار بن محمد علي المشهور بالمعلم

ولد في كرمان في ربيع الأول سنة ١٣٠١ وتوفي سنة ١٣٧٥هـ بطهران.

من رجال الأدب والثقافة في إيران درس على أبيه الصرف والنحو والأدب العربي. ثم استمر في دراسته فدرس الفقه والأصول والحديث والتفسير والأدب الفارسي وتعلم اللغة الانكليزية والتركية بالإضافة إلى العربية.

وقد نبغ في العربية إلى الحد الذي قام بتتميم ألفية ابن مالك في منظومة قال فيها:

أبدأ بسم الله في سرد الجمل نظماً وخيرُ القول ما قل ودل

قام في سنة ١٢٨٩ بتأسيس جريدة باسم (دهقان= الفلاح) وإثر وقوع الحرب العالمية الأولى وحدوث اضطرابات في إقليم كرمان حُبس هو مع جماعة من المثقفين الأحرار ونفي إلى مدينة شيراز ودام حبسه ١٤ شهراً. وبعد أن أفرج عنه هاجر إلى طهران وبعد مدة صار موظفاً في وزارة المالية ثم اختير مفتشاً في تلك الوزارة وسافر إلى خراسان وبقي فيها مدة ٧ سنوات مسؤولاً عن إنتاج (الترياك).

وفي تلك السنوات قام بإصدار جريدة (فكر آزاد= الفكر الحُر) في مدينة مشهد (سنة ١٣٠٣).

ثم استقال من وزارة المالية وعين في سنة (١٣٠٥) رئيساً لدار المعلمين في مدينة تبريز وبقي فيها مدة سنة. ثم عاد إلى طهران ودخل سلك القضاءِ وعمل في مناصب القضاء في ولايتي

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٢) السيد أحمد الحسيني.

همذان وقزوين مدة سنتين. ثم عاد إلى طهران وعمل معلماً في ثانويات طهران حيث كان يدرس الأدب العربي والفارسي والفلسفة والمنطق. له مؤلفات عديدة منها:

١ - التحفة الأحمدية في شرح ألفية ابن مالك.

٢ - تصحيح كتاب التوسل والترسل لمحمد بن مؤيد البغدادي.

٣ - تصحيح تاريخ بيهق لأبي الحسن علي بن زيد البيهقي.

٤ - تصحيح أسرار التوحيد للشيخ أبي سعيد.

٥ - ترجمة زبدة التواريخ في تاريخ آل سلجوق.

٦ - كتاب عن حياة الصاحب بن عباد وغير ذلك[١].

أحمد بن محمد مهدي الشريف الخاتون آبادي الأصبهاني.

من أعلام أصبهان في القرن الثاني عشر، وله اطلاع واسع في العلوم الرياضية والنجوم بالإضافة إلى تبحره في العلوم الدينية، وقد ألف فيها عدة مؤلفات مختصرة ومفصلة.

من شيوخ إجازة الشيخ عباس بن الحسن البلاغي النجفي، كما ذكر البلاغي ذلك في إجازته المؤرخة سنة ١١٥٧ للمولى رجب علي.

له «التقويم» ألفه سنة ١١٢٦[٢].

أحمد بن محمود المتطبب التولمي الجيلاني

فاضل أديب، مشتغل بالفلسفة والعلوم العقلية، طبيب صوفي متوغل في العرفان كان ساكناً شيراز وهو من أعلام القرن التاسع. كتب مجموعة أكثر رسائلها عرفانية صوفية في سنة ٨٦٤ - ٨٦٦.

له «بازنامه» رسالة في الصيد ألفها سنة ٨٥٤[٣].

الشيخ أحمد بن مصطفى بن أحمد بن مصطفى بن أحمد الخوئيني (ملا آقا القزويني)

مترجم في أعيان الشيعة ٣/ ١٧٥ ونقول:

اسمه أحمد وعرف بما كان يدعى به جده «الحاج ملا آقا».

ولد في «خوئين» من بلاد آذربيجان، في ليلة السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٢٤٧ كما في «مرآة المراد» للمترجم له، لاسنة (١٢٤٦) كما في الأعيان.

بدأ في مسقط رأسه بالأوليات العلمية من الصرف والنحو وهو في الثامنة من عمره، ثم انتقل إلى مدينة «قزوين» وهو في الثالثة عشرة فقرأ هناك السطوح، وبعد ذلك ذهب إلى أصفهان وبقي بها خمس سنين متتلمذاً في الفقه والأصول والحديث والرجال على أعلامها ومنهم الحاج آقا محمد الكرباسي الأصبهاني، ثم عاد إلى قزوين وبعد إقامة شهور بها وبمسقط رأسه «خوئين» ذهب إلى العتبات المقدسة، فأقام بكربلاء برهة مشتغلاً بالفقه والأصول على مشايخها، ثم انتقل إلى النجف الأشرف دارساً عند أساتذتها ومؤلفاً لبعض كتبه لمدة خمس سنوات.

وبعد طي المراحل المذكورة في الحوزات العلمية، جاء إلى قزوين وأقام بها مشتغلاً بالتدريس والتصنيف والتأليف متولياً لشؤون العامة وساعياً في قضاء حوائجهم.

له من المؤلفات غير ما هو مذكور في الذريعة: «الاستصحاب» و«حجية الظن» و«رسالة في الأرث» و«ترجمة رسالة الأرث» و«المختار من الأصول العملية» و«الفقه» في أربع مجلدات و«تعليقة على الصافي» و«حاشية رياض المسائل» و«حاشية قوانين الأصول» و«أجوبة مسائل متفرقة» و«مجموعة متفرقات» و«البداء» و«مختصرة مليحة»[٤].

الشيخ أحمد المطهري

ولد في مدينة ساوه عام ١٣٦٢ وتوفي سنة ١٤١١هـ.

درس مقدمات العلوم الدينية في مسقط رأسه ثم سافر إلى قم ودرس فيها وحضر أبحاث السيد البروجردي ثم سافر إلى النجف لإكمال دراسته فدرس على السيد الشاهرودي والسيد الخوئي.

ثم عاد إلى قم وزاول النشاط الثقافي فشارك في مؤسسة (في طريق الحق) الثقافية وكتب في نشراتها مقالات عديدة عن قضايا الدين والشباب. كما كان له نشاط ديني. ثقافي في مسقط رأسه حيث قام بتأسيس حوزة علمية دينية فيها ومكتبة عامة وعدة مشاريع خيرية عامة.

له عدة تأليفات منها: تحرير الوسيلة - طرحهاي رسالت - روابط در جامعه إسلامي - ذمامداري أمام مجتبى (ع) - شفاعت - علم بيامبر وإمام - نماز جمعة وجهاد[٥].

الميرزا أحمد بن معصوم بن علي أشرف الأنصاري اليرمرودي، مستعان الممالك

فاضل أديب جيد الإنشاء والخط، كان يقيم في مدينة «أرومية» بآذربيجان وتوفي بعد سنة ١٣٣٤.

---

(١) الشيخ محمد رضا الأنصاري.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) الشيخ محمد رضا الأنصاري.

له «شرح ألفية ابن مالك»[١].

الشيخ أسد الله بن عبد الله بن محمد جعفر بن محمد علي بن محمد باقر الكرمانشاهي.

مترجم في نقباء البشر ص ١٣٩ ونقول:

كان إمام الجمعة والجماعة بكرمانشاه، جامعاً لأطراف العلوم الدينية.

له «بدائع الأخبار» و«تزكيه الأعمال»[٢].

الشيخ أسد الله بن محمد علي بن مهدي بن محمد مهدي بن أبي ذر النراقي الكاشاني.

فقيه فاضل، من أعلام أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر، قرظ كتابه في الطهارة السيد حسين بن مير محمد علي الحسيني الكاشاني مع تصديق اجتهاد وإجازته في الحديث بتاريخ ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٥، وقال في التقريظ: «العالم البهي والفاضل الألمعي صاحب الذهن الوقاد والفكر النقاد والسليقة السليمة والقريحة المستقيمة والقوة القدسية التي يُقتدَر بها على استنباط الأحكام الشرعية ورد الفروع الجزئية على أصولها الكلية ذو الحسب الظاهر والنسب الفاخر المقتدي بآبائه في العلم والعمل الحافظ لدينه عن النقص والخلل نتيجة العلماء العظام وسلالة الفقهاء الفخام ونخبة الفضلاء الكرام...»[٣].

أسد الله بن محمد كاظم بن رضا الطبري

من أعلام أوائل القرن الرابع عشر، صحح كتاب والده «حل التراكيب» وكتب عليه تعليقاً يدل على تبحره في النحو والعلوم الأدبية[٤].

الشيخ أسد الله بن محمد إبراهيم القزويني

فاضل عارف يميل إلى الصوفية في نقولاته وله رياضات، من علماء القرن الثالث عشر، يسلك في مؤلفاته مسلك الشيخ أحمد الأحسائي ويذكره فيها بكل تبجيل واحترام.

له اشتغال بالأدعية والأوراد والعلوم الغريبة، وينقل كثيراً من الختومات والأدعية عن شيخه ملا أبو طالب الطهراني.

له «الحجة البالغة والبراهين القاطعة» و«سر الأسرار ومبدأ الأنوار» و«الولاية المطلقة» رسالة ألفها سنة ١٢٦٢، و«غرائب الأسرار وشوارق الأنوار» و«مصباح السالكين»[٥].

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.

الميرزا أسد الله بن ومهدي الكاشاين، شعري.

عالم متتبع ذو اطلاع جيد بالعلوم الدينية ومعرفة بالحديث والتأريخ، أديب منشىء حسن الخط جداً شاعر بالفارسية يتخلص في شعره بـ«شعري» كان يقيم بطهران ظاهراً[٦].

أسد الله المنجم الطهراني

فاضل مشتغل بالنجوم والعلوم الرياضية، من تلامذة ميرزا خليل الطبيب الذي كان أستاذاً في الطب والرياضيات بطهران ولعله من أساتذة دار الفنون، كتب المترجم له بأمر أستاذه هذا رسالته في البركار المترجمة عن الفرنسية في سنة ١٣٠٨، وتوفي بعد سنة ١٣٥٨[٧].

إسماعيل بن إسحاق البروجردي الحائري

مذكور في «نقباء البشر» ص ١٥١ ونقول:

متبحر في العلوم العقلية ذو اطلاع واسع بالعقائد والمذاهب الاسلامية وآرائها له « مشكاة العقائد »[٨]

الشيخ اسماعيل بن الحسين التائب التبريزي

ولد سنة ١٢٨٧ ودرس العلوم الأدبية والدينية على أساتذة في تبريز وغيرها، وأقام سنين في النجف الأشرف وكان أيام حركة المشروطة بها كما صرح بذلك في مؤلفاته، وتتلمذ بها على أساتذة لم نقف على أسمائهم تفصيلاً، وقد استفاد من محضر السيد حسن الصدر الكاظمي كما كتب في بعض مؤلفاته، ولعله درس عنده شيئاً من علم الرجال والحديث بالكاظمية، كما أنه استفاد في الأخلاق والعرفان من الشيخ محمد مهدي البهاري الذي كان من تلامذة ملا حسين قلي الهمداني الأخلاقي المعروف في عصره.

كان يكتب على كتبه «الشريف الحسيني» لأنه ينسب من طرف الأم إلى الإمام الحسين (ع)، ويلقب نفسه بـ«ناصر الإسلام»، ويتخلص في شعره بـ«التائب». وكان خطيباً يبين المسائل الشرعية عندما يرقى المنبر ولذا كان يعرف أيضاً بـ«مسألة پو».

كان فاضلاً عارفاً له يد في العلوم والمعارف. وله مكاتبات علمية وعرفانية مع بعض أعلام معاصريه، وكانت حجرته في مدرسة «خيرات خان» بالمشهد الرضوي منتدى يأتيه جماعة من محبيه فتجري فيها أحاديث علمية وأدبية متنوعة لا تخلو من فائدة وطرافة.

زادت أشعاره ـ وهي بالفارسية ـ على ثلاثين ألف بيت، منها ثلاثة آلاف بيت في أهل البيت عليهم السلام والبقية في المعارف

(٦) السيد أحمد الحسيني.
(٧) السيد أحمد الحسيني.
(٨) السيد أحمد الحسيني.

الإسلامية والعقائد والحكم والمواعظ والعرفان ومساجلات شعرية، وفيها أشعار هزلية يراد منها الإرشاد الأخلاقي.

توفي بمشهد الرضا في السابع عشر من شهر ربيع الثاني ١٣٧٤ ودفن في مقبرة «باغ رضوان» مساء اليوم المذكور.

الأمير اسماعيل الحسيني الخاتون آبادي الأصبهاني

مذكور في أعيان الشيعة ٣/٣١٣ ونقول:

له إجازة من المولى محمد تقي المجلسي والسيد أبي محمد شرف الدين علي الموسوي الجزائري ومن تلامذته السيد نعمة آ الجزائري، وقد قابل مع المولى محمد داود الطسوجي نسخة من كتاب «من لا يحضره الفقيه» فأجازه الطسوجي في سنة ١١١٨ [١].

الشاه إسماعيل الصفوي بن حيدر

مرت ترجمته في (الأعيان) ثم مرّ له ذكر في المجلد الثاني من (المستدركات) ثم في المجلد الثالث منها. وننشر هنا تفاصيل تضاف الى ما تقدم:

الشيخ صفي الدين وطريقته

كان الشيخ صفي الدين يسمى في مقتبل عمره (اسحاق) وهو امين الدين جبرائيل بن صالح المنتهي نسبه الى الإمام موسى الكاظم عليه السلام.

قدم أجداد الشيخ صفي الدين الى اردبيل منذ زمن فيروزشاه. وقد كان أهالي آذربيجان والقفقاز حتى القرنين الخامس والسادس للهجرة يعتنقونَ الديانة المسيحية بيت أرمن وپرجيين ونسطوريين وكان بعضهم يعتنق الديانة الزرادشتية.

وفي بداية القرن السادس الهجري أغارت جماعة من أكراد سنجار بقيادة الأمير أدهم على آذربيجان فاستولت عليها ونشرت الإسلام فيها. وكان فيروزشاه أحد الشخصيات التي قدمت من سنجار وقد آلت إليه حكومة أردبيل بعد احتلال آذربيجان. وبعد وفاته أقام أولاده الذين كانوا يمتلكون المزارع في أطراف مدينة أردبيل في قرية كلخوران على بعد كيلومترين من المدينة وانصرفوا لشؤون الزراعة.

وقبل ولادة الشيخ صفي الدين ببضع سنين هجمت جماعة من أهالي كرجستان (جورجيا) على أردبيل فأمعنت فيها قتلاً ونهباً وجرح السيد قطب الدين خلال هذه الأحداث جراحاً خطيرة ونهبت جميع أمواله كسائر الناس، ولكنه بريء من جروحه البليغة التي أصيب بها في عنقه، فاهتم بالبناء والعمران مرة أخرى وواصل ابنه أمين الدين جبرئيل طريق أبيه ولكن الشيخ صفي الدين كان له شأن غير شأن أبيه وأجداده منذ نعومة أظفاره. فقد كان معتكفاً في الدار مشتغلاً في العبادة والرياضة الروحية ليل نهار. وما إن بلغ الحلم حتى عزم على الخروج من عزلته لطلب المرشد الكامل، فأصر على أمه أن تأذن له ففعلت وانطلق في سياحته الصوفية. وكانت سياحة تتميز بكثير من الزهد والورع، حتى دخل شيراز فالتقى فيها بالعرفاء وذوي المقامات الروحية.

وكان أخوه صلاح الدين يتمتع بجاه ومقام، في حكومة شيراز فتوسل به أن يقيم معه في داره الواسعة، ولكن دون جدوى...

والتقى الشيخ في شيراز بالشيخ مصلح الدين سعدي وازداد زهداً وتقوى وذاع صيته في فارس فأرسل له الخواجة سيف الدين بلوك دار بعشرة آلاف درهم مع ابنته ولكن الشيخ أبى.

ثم التقى الشيخ صفي الدين في شيراز بمولانا رضي الدين المانقي، وكان الأخير يؤمن معاشه من حياكة الكرباس وبيعه بنفسه، فدرس على يده علم تفسير القرآن.

وأخذ الشيخ صفي الدين خلال إقامته في شيراز يسيح في الأرض ويطوف على جميع المزارات والأماكن المقدسة الموجودة في تلك النواحي في الجبال والصحارى والنقاط النائية المحاطة بالأخطار ويبيت ليله في الصوامع والمساجد ويمارس أعمالاً روحية شاقة فتراه يصوم سبعة أيام متوالية وفي بعض الأحيان أربعة عشر يوماً، لا يفطر خلالها إلا على شربة من ماء.

وطال المقام بالشيخ دون أن يجد غايته التي ساح في الأرض من أجلها، ألا وهي المرشد الكامل. فأرشده بعض كبار المشايخ إلى الأمير عبد آ الذي كان معروفاً بنسب السيادة الشريف وبزهده وتقواه ومنزلته العرفانية، فطرح الشيخ عليه الأمر وأوضح له أحواله بطريقة الدراويش فأطرق الأمير عبد آ برأسه هنيهة ثم رفع إليه رأسه وقال:

أي بني: لن تجد بغيتك عندي، حيث لم أبلغ ما تريد...

أي بني: لن يقدر على حل مشكلتك في شرق الأرض وغربها أحد خلا الشيخ الزاهد البيلاني.

وما كاد الشيخ صفي الدين يسمع باسم الشيخ الزاهد حتى داخل قلبه الأمل، فسأل عن موطنه فأخبره الأمير عبد الله بأنه في گيلان أسپهبد (المقصود من گيلان أسپهبد هو: طوالش وآستارا من بلاد گيلان).

عزم الشيخ على مغادرة شيراز فودع عرفاءها ومشايخها الكبار، ومن بينهم سعدي الذي استقبله وأمر أصحابه ودراويشه الحاضرين في خانقاهه أن يتبرع كل منهم بما يعين الشيخ على سفره، ولكن الشيخ أبى أن يأخذ منهم شيئاً، ولما أدرك سعدي إصرار الشيخ في رفضه قال له: أيها المرشد إذا كنت لا تقبل هذه الأشياء، فسأهديك كتابي (بوستان) وقد أكملته بخط يدي، فأجابه الشيخ: إن في قلبي من الحب الإلهي ما يغنيني عن مثل هذا الكتاب، إذ لا يتأتى لي الوصول به إلى الله...

وفي عودته من شيراز عرج على أردبيل فزار أمه وأقاربه ثم

(١) السيد أحمد الحسيني.

رحل منها إلى گيلان أسبهبد وأفلح في لقاء الشيخ الزاهد.

وإذا كان الشيخ قد هذب نفسه وراضها بأنواع الرياضات الروحية حتى بلغ في ذلك شأواً بعيداً، فقد أخذ بعد وصوله إلى الشيخ الزاهد يخطو نحو الحقيقة بخطوات سريعة فاحتضنه الشيخ الزاهد وعينه خليفة ونائباً عنه على الرغم من وجود أبناء مرتاضين وعارفين. ثم عمد إلى تزويجه بابنته فاطمة خاتون. وأبقاه ملازماً له في جميع الأوقات والأحوال. وحينما كان الشيخ صفي يذهب إلى أردبيل لتفقد عائلته وأملاكه لم يكن الشيخ الزاهد يطيق على فراقه صبراً وفي حال احتضاره لم يجر على لسانه شيء سوى ذكر الشيخ صفي.

وعندما أحسَّ الشيخ الزاهد في ميناء (پشتاسفي) بدنو أجله، استدعى الشيخ صفي من أردبيل، وكان آنذاك أبناؤه ومريدوه يحيطون به وجميعهم يرغب في أن يكون قبره قريباً من مسكنه فمنهم من رجح أن يكون القبر قريباً من (پشتاسفي) ومنهم من رجح (مغان) أو (دشتاوند) وما زالوا في اختلافهم حتى حضر الشيخ صفي فاستشاره الشيخ الزاهد في الأمر، فرجح له پيلان إذ كان يعلم بميل أستاذه ومرشده إليها.

ثم جهز الشيخ صفي سفينة بلوازم السفر وحمل عليها شيخه وأبناءه ومريديه، ومخرت السفينة عباب البحر حتى رست إزاء (سياورود) فحملوا الشيخ الزاهد إلى صومعته السابقة فحمد آ حين رآها ثم لفظ أنفاسه بين يدي الشيخ صفي.

خليفة الشيخ الزاهد

ينقل أن الشيخ صفي بعد أن بلغ مراحل بعيدة من الكمال وتهذيب النفس وبعد أن حظي برعاية خاصة من الشيخ الزاهد، راح يواجه بحسد المعاندين وعدائهم لا سيما بعد أن رشحه شيخه لخلافته في تربية الخلق والجلوس على سجادة الإرشاد.

وكان المخالفون يرون لزوم استخلاف الشيخ الزاهد لابنه جمال الدين علي فهو رجل كبير السن بلغ مراحل بعيدة في الكمال وإضافة إلى ذلك فهو ابنه، بينما كان الشيخ الزاهد لا يلتفت إلى آرائهم بل دأب على العناية بالشيخ صفي وترشيحه لخلافته.

مزار الشيخ الزاهد

دفن الشيخ الزاهد في ساحل البحر، ولكن مزاره الآن يبعد بعض الشيء عن الساحل، وقد بنى الشيخ صفي مزاراً لقبره، وتجدد بناء هذا المزار عدة مرات على يد أبناء الشيخ صفي ثم الملوك الصفويين من بعدهم وبعد أن فرغ الشيخ صفي من دفن شيخه[1] وإقامة العزاء على روحه وتنظيم شؤون عائلته رحل إلى أردبيل مع زوجته ابنة الشيخ الزاهد (فاطمة خاتون) وأقام في قرية كلخوران.

وفي ذلك الوقت كان خانقاه الصوفية يسمى أيضاً بالصومعة أو الزاوية ثم سمي بالتيية ولكن الإسم الأخير استخدم في زمن القاجاريين لأماكن إقامة العزاء والمراثي الحسينية واقتصرت تسمية محل اجتماع الدراويش على لفظ الخانقاه.

طريقة الشيخ صفي

كان كل واحد من مشايخ الصوفية ومرشديهم يتخذ لنفسه طريقة خاصة به، ورغم توافق الطرق في أصولها إلا أنها كانت تختلف في مظاهرها من مراسيم وطقوس وأساليب تربية المريدين.

وعندما ظهر الشيخ صفي كانت الصوفية منقسمة إلى فرقتين كبيرتين، اشتهرت إحداهما باسم قلندر.

وكان أتباع الفرقة القلندرية يطلقون شعر رؤوسهم، ويرتدون ثياباً غريبة من الجلود ويحملون مسبحة ذات ألف حبة ويتمنطقون بحزام مطعم بأحجار ثمينة مثل الدر والعقيق ويمسكون بعصي من أشجار اللوز الجبلي يطلقون عليها اسم (پلاتكين).

ولم يكن القلندريون يتبعون شيئاً من أحكام الشريعة ولا يتورعون عن ارتكاب المحرمات. وكان بعض الصوفيين على اختلاف طرقهم عن القلندرية يعتبرون الطريقة أمراً مغايراً للشريعة، فحالما يدخلون الطريقة يرون أنفسهم في حل من الشريعة. ولكن الشيخ صفي كان في طريقته مراعياً لأحكام الشريعة.

فقد كان يشترط على مريديه حالما يدخلون خانقاهه أن يتوبوا عن معاصيهم ويتعهدون بالكسب الحلال واختيار حرفة ومهنة خاصة لهم، والامتناع عن استجداء الناس وحتى عن قبول الهدايا وتناول الطعام في المآدب العامة خشية أن تكون فيها لقمة من حرام.

وعلى الصوفي أن يؤدي الصلوات في أوقاتها، ويراعي جميع الأعمال المستحبة والواجبة في الشريعة الإسلامية جهد الإمكان.

دور الخانقاه في حفظ البلاد

بلغ الشيخ صفي الدين منزلة كبرى بين زعماء عصره وربما كان كافياً لبيان الكرامة والمنزلة اللتين بلغهما في نفوس زعماء البلاد أن نذكر بأن الملوك من أمثال محمود غازان خان بعد إسلامه والسلطان محمد خدابنده وابنه السلطان أبو سعيد وأمراء كبار مثل الأمير چوپان والأمير حسن والملك الأشرف، أن هؤلاء جميعاً كانوا يتشاورون مع شيخ خانقاه الصفوية حول المشاكل السياسية الرئيسية في البلاد حيث كانوا يطلبون الهداية من الشيخ صفي الدين وابنه الشيخ صدر الدين موسى.

وعلى سبيل المثال نذكر الحادثة التالية:

نشب خلاف بين الملك المغولي وأوزبك خان ملك سهول

(١) يقع مزار الشيخ الزاهد حالياً في قرية تدعى باسم (شيخانه ور) وهي تقع على يمين طريق لاهيجان ـ لنبرود.

(القبجاق) المعروف بعدالته وإنصافه وإخلاصه للمسلمين وسعيه في نشر العمران والمشهور بعظمة دولته وقوتها فتحرك نحو آذربايجان وإيران على رأس جيش جرار فدخل القفقاز حتى وصل ضفاف نهر (كر).

وعندما بلغ الخبر ملك المغول قدم على خانقاه أردبيل والتقى الشيخ فيه وطرح عليه الأمر، ثم أخبره أنه أرسل جميع قواته للتصدي لملك الأوزبك الذي قدم على رأس جيش جرار من الأتراك والمغول الكافرين وطفق يعيث في الأرض فساداً فينهب ويقتل ويحرق، فالتفت الشيخ إلى السلطان أبي سعيد وطمأنه ثم بعث إلى ملك الأوزبك بأحد خلفائه المعروفين وهو المرشد عز الدين. فأبلغه عن لسان الشيخ ما يلي:

«يقول الشيخ بأنك ملك مسلم عادل فكيف ترضى بمهاجمة المسلمين بجيش من المغول الكافرين وعبدة الأصنام. فإما أن تعود عن هذه البلاد بإرادتك وإما تعيدك الروح المقدسة لحضرة خاتم الأنبياء محمد (ص) مرغماً.

وعندما سمع ملك الأوزبك هذا الخطاب أطرق هنيهة يتفكر، ثم رفع رأسه للمرشد عز الدين وقال له: بلّغ سلامي إلى الشيخ وقل له بأني سأعود بإرادتي بشرط أن تكون راضيا عني.»

وفي اليوم التالي انسحب ملك الأوزبك عن ضفاف نهر (كر) إلى سهول القبجاق خلافاً لرغبة أمراء وقادة جيشه.

وبقي المقام الرفيع للشيخ صفي الدين ونفوذه الواسع محفوظين لذريته ومشايخ الخانقاه الصفوي، بل كانا يتزايدان بمرور الزمان، وقصة الملك الأشرف الجوباني وسقوط دولته الموروثة دليل على هذه الحقيقة، وقد تعرض لذكرها صاحب صفوة الصفا في صفحة ٣٢٥ وكذلك ذكرها مؤرخون آخرون مثل السيد السيفي القزويني في(لب التواريخ) وخلاصة هذه القصة هي كما يلي:

بعد أن بلغ الملك الأشرف الجوباني سدة الحكم أخذ يعامل رعيته بكل قسوة وجور، فعذب الفلاحين والمتمولين الذين جمعوا أموالهم بالتجارة والكدح وصادر كل ما جمعوه وبلغ بظلمه وجوره حداً أن عذب العلماء والعبّاد والمشايخ الكبار ثم انتهى به الأمر إلى التفكير باعتقال الشيخ صدر الدين وحبسه في إحدى القلاع لاعتراضه على سلوكه ووقوفه في وجهه فاضطر الشيخ للهجرة من أردبيل إلى پيلان فمكث فيها، وهاجر العديد من كبار العلماء والمشايخ إلى خارج البلاد هرباً من ظلم الملك الأشرف ومن بين المهاجرين بعض خلفاء الشيخ صفي الدين مثل شمس الدين حافظ السلماسي وآخرين حيث هاجروا برفقة القاضي محيي الدين البردعي إلى السهول المتاخمة للقفقاز وحطوا رحالهم في مدينة(سراي) عاصمة جاني بيك ملك السهول، واشتغلوا فيها بالوعظ والإرشاد.

وكان الملك جاني بيك خان ملكاً مسلماً عادلاً، فلما سمع بدخول هؤلاء الصالحين بلاده، بادر إلى حضور مجلس الوعظ الذي يقيمه القاضي في أيام الجمعة. فتعرض القاضي خلال مجلسه لذكر المظالم التي يرتكبها الملك الأشرف بحق المسلمين وكان أسلوبه مؤثراً فأجهش الحاضرون بالبكاء ومن بينهم الملك، ثم أشار إلى الحديث الشريف (كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته...) ثم خاطب الملك قائلاً إذا كان الله منح الملك العادل القدرة والمنعة فقد كلفه برفع مظالم الملك الأشرف عن رؤوس المسلمين.

فبادر الملك جاني بيك خان إلى تجهيز جيشه وبعد شهرين تحرك نحو آذربايجان فدخل أردبيل ومكث فيها بضعة أيام منتظراً موكب الشيخ صدر الدين موسى حيث كان مقرراً أن يقدم إليه من پيلان ثم توجه إلى تبريز فهزم الملك الأشرف وأمسك به وصادر حمولة أربعة مائة بعير من الذهب والجواهر كان الملك الأشرف قد أخذها من الناس غصباً.

ثم قدم الشيخ صدر الدين من پيلان فعرج على مرقد الشيخ صفي الدين ثم توجه إلى معسكر الملك وكان وصوله في اليوم الثاني من حمل الملك الأشرف إلى المعسكر وحبسه في إحدى الخيام، فلما دخل الشيخ صدر الدين علت أصوات التهليل في أركان المعسكر فبلغت مسامع الملك الأشرف وسأل عنها فأخبروه، إنه الشيخ صدر الدين قادم بموكبه، فتأوه وتحسر ثم راح يتوسل بالشيخ أن يصفح عنه ويبكي بكاء حاراً فحاول الشيخ أن يصفح عنه ويشفع له لكن كبار علماء الإسلام لم يكونوا راغبين في الشفاعة وكان رأيهم أن يفوض الأمر إلى صاحبه، وبعد بضعة أيام من عودة الشيخ قتل الملك الأشرف في الخامس من رجب[1].

مقدمات ظهور الصفويين

كان الشيخ صفي الدين الأردبيلي أول شخص من أفراد الأسرة الصفوية يصل مقاماً شامخاً ويشتهر إسمه في الآفاق.

وقد حظي الشيخ صفي بمنزلة كبيرة واحترام فائق في أوساط الملوك المغول الحديثي العهد بالإسلام.

وكان الملوك المغول بعد اعتناقهم الإسلام يرون لزوم بقاء معنويات الشعب الإيراني عالية والحفاظ على أفكاره منسجمة في سبيل الإحتفاظ باستقلال البلاد وللوصول إلى غايتهم هذه كانوا يهتمون بالشيخ الزاهد الكيلاني وخليفته الشيخ صفي الدين الأردبيلي، ومن ثم اتبع ملوك المغول وأمراؤهم طريقة الشيخ صفي الدين.

وقد ذكرنا أن الشيخ صفي الدين كان يؤكد على أتباعه ضرورة الإلتزام بأحكام الشريعة والحفاظ على مظاهرها، وبذلك أخذت مبادىء الدين والأخلاق تستعيد وجودها وثباتها بعد أن

(١) صفوة الصفا صفحة ٣٢٨.

تزلزلت أسسها بسبب حكم المغول وهكذا نرى أن طريقة الشيخ صفي الدين ظلت تحتل مركزاً مهماً بين سائر الطرق الصوفية فلم تضمحل بوفاة زعيمها كما هو حال أغلب الطرق الصوفية الأخرى على الرغم من كثرة الأعداء والمعاندين. فكان الخانقاه الصوفي بعد وفاة المرشد الأول يأخذ بأسباب الإزدهار يوماً بعد آخر حتى أصبح محطاً الرحال آلاف الزوار الذين يقدمون إليه من أرجاء البلاد، فكانوا يبلغون من الكثرة بحيث يتطلب تنبيههم إلى وقت الغداء والعشاء ودعوتهم إلى مائدة الطعام بالضرب على الطبول.

وكان خانقاه الصوفية في عهد الشيخ صفي الدين وفي عهد ابنه صدر الدين موسى من بعده مطمحاً لأنظار زعماء العالم الخارجي. فمثلاً عندما هاجم الملك جاني بيك خان ملك سهول القبجاق تبريز وقضى على حكم الملك الأشرف فيها، أقبل على الشيخ صدر الدين موسى فعامله بكل تبجيل واحترام وقال له: لقد أقبلت معاقباً للملك الأشرف لسوء أدبه تجاه حضرة الشيخ.

وفي أواخر عهد الشيخ صفي الدين انتشر العديد من دعاة الصفوية في مختلف الأرجاء فكثر مريدو مشايخ الصفوية في الروم[1] والهند والشام وفلسطين ومصر.

ومن كبار العارفين الذين اتبعوا هذه الطريقة شاه قاسم أنوار والسيد محمد نور بخش والسيد محمد المدني الذي أسس فيما بعد الطريقة الرفاعية التي لا تزال شائعة في كردستان وسوريا.

خليفة صفي الدين

سافر الشيخ صدر الدين موسى بعد وفاة أبيه إلى الحج وسلك في سفره طريق بغداد وفلسطين ولبنان ليتفقد خانقاهات وخلفاء طريقته وليقوم بتوجيه خلفائه وإرشادهم وبعد فراغه من رحلته عاد إلى أردبيل في موكب عظيم.

وبعد وفاة الشيخ صدر الدين موسى آل الأمر إلى نجله الشيخ الخواجة علي.

وبعد انقراض سلطة الحكام المغول وظهور الأمير تيمورلنك اليورپاني، أخذ هذا يبدي احترامه وتقديره لكبار مشايخ الصوفية لا سيما الخانقاه الصفوي.

وحينما عزم الأمير تيمور على السير إلى الروم زار الشيخ الخواجة علي تبركاً بمقامه وشخصه، فأهداه الخواجة سيفاً، قلده له بنفسه.

وفي عودته من انتصاره وأسره للسلطان بايزيد عرج الأمير تيمور على أردبيل وحل فيها ضيفاً في أيام رمضان على الخانقاه الصفوي، وبينما هو جالس على مائدة الخانقاه ينتظر طعام الإفطار تنبه إلى امتناع الشيخ عن تناول الطعام والشراب رغم دخول وقت الإفطار، فأدرك أن في نفس الشيخ حاجة يتردد في طرحها فخاطبه قائلاً: إذا كانت ثمة حاجة للشيخ فليبادر إلى ذكرها لتلبى له.

فأجابه الشيخ: لقد أمر الأمير الفاتح بتهجير بعض القبائل الكبيرة التي كانت مقيمة لسنين طوال في الروم والشام إلى تركستان، ونحن نأمل أن يطلق الأمير سراحهم ليدعوا له على كل مائدة من موائدهم.

فأجابه الأمير دون تردد: لقد عفونا عن هذه القبائل الأسيرة التي جلبناها من أرض الروم إكراماً للخانقاه.

وقصة هذه القبائل أنها غادرت تركستان قبل قرون وتوجهت إلى بلاد الشام والروم ربما خوفاً من هجوم المغول، وعندما دخل الأمير تيمور الشام والروم عرف بوجودهم، فغضب منهم وقال: لقد تركوا أرض تركستان للخراب رغم أنهم أتراك وقدموا إلى هذه الأراضي ليكونوا قوة إعمار وحرب بيد أعدائنا. ثم أمر بترحيلهم إلى تركستان.

وعندما دخل الأمير أردبيل اغتنم زعماء القبائل الفرصة وتوسلوا بالشيخ الخواجة علي ليتوسط لهم في إطلاق سراحهم.

وكان جواب الأمير للشيخ يتضمن إبقاء القبائل المذكورة تحت سلطة الخانقاه الصفوي لكي يدفعوا الضرائب والزكاة الشرعية سنوياً إلى الخانقاه أينما كانوا.

وفي اليوم التالي حضر جميع زعماء القبائل وأفرادها حتى النساء والأطفال مجلس الشيخ ودخلوا حلقة الدراويش وفقاً للتعاليم المقررة. وبعد دخولهم في الصوفية واطلاعهم على أسرار الخانقاه الصفوي وهي اعتناق المذهب الشيعي وجه الشيخ كل واحدة من تلك القبائل إلى ولاية من ولايات الروم وديار بكر والقفقاز للإقامة فيها.

ومنذ ذلك الحين أخذت تتقاطر على الخانقاه الصفوي جماعات الناس من أقصى البلاد لتقديم الزكاة وعرض الحاجات ثم تعود أدراجها.

وكانت القبائل التي قدمت إلى آذربايجان ضمن أسرى الأمير تيمور وتمّ إطلاق سراحها بتوسط الشيخ الخواجة علي فدخلت في عداد مريدي الخانقاه الصفوي هي القبائل التالية: تكه لو وشاملو واستاجلو والقاجار وأفشار ورملوزنپنه وانضمت إلى هذه القبائل في زمن الشاه اسماعيل قبيلة (ذو القدر) حيث هاجرت من ديار بكر إلى إيرأن بعد سقوط حكومة علاء الدولة. وانضمت إلى مريدي الخانقاه الصفوي، وفي بداية الحكم الصفوي كان اصطلاح (القزلباش) يطلق على هذه القبائل.

وفي أواخر أيام حياته سافر الشيخ الخواجة علي إلى الحج

(١) المقصور بالروم هنا بلاد الاتراك في الأناضول.

اقتداء بسنة أبيه وجده، ثم سافر بعد ذلك إلى بيت المقدس وحط رحاله فيه، فأقبل عليه خلفاء الخانقاه الصفوي الذين كانوا آنذاك يشتغلون في الإرشاد في فلسطين وسوريا واغتنموا فرصة وجود الشيخ فنشطوا في الدعوة إلى هذا الخانقاه.

وكان الشيخ إبراهيم ابن الشيخ الخواجة علي خليفة لأبيه في أردبيل، ولما طال فراق أبيه عزم على إتباعه إلى فلسطين التي كانت آنذاك مركزاً لإقامة أكثر العارفين الكبار ومشايخ الإسلام، ومن ثم سافر في موسم الحج إلى مكة المكرمة ثم رحل إلى بيت المقدس ليلتقي أباه هناك.

وكان الشيخ الخواجة قد أحسَّ بالضعف والوهن وأدرك دنو أجله فاستدعى زعماء الصوفية وخلفاءها وأبلغهم توصياته وتعليماته ثم أوكل الزعامة إلى ابنه الشيخ ابراهيم وفاضت روحه.

الشيخ ابراهيم: ـ وبعد وفاة الشيخ الخواجة علي عزم ابنه الشيخ ابراهيم الذي لقبه الصوفيون بالشيخ الملك على مغادرة بيت المقدس والعودة إلى أردبيل.

وفي عهد الشيخ ابراهيم ازدادت مكانة الخانقاه الصفوي عظمة وهيبة، وأرسل دعاة الصفوية إلى أنحاء العالم، حتى أضحى مقر الشيخ قبلة لأعيان المسلمين وعلمائهم، وبلغ نفوذ الشيخ حداً بعيداً فكان الملوك يستقبلون رسائله بكل احترام وتقدير وينفذون طلباته.

وفي هذا العهد ازدادت مساحة الخانقاه ازدياداً كبيراً، وكانت موائد الطعام تستقبل يومياً آلاف الزائرين الذين يقبلون على أردبيل من مختلف البلدان.

الشيخ جنيد: ـ وبعد وفاة الشيخ ابراهيم في عام (٨٥١هـ) خلفه ابنه السلطان جنيد. وكان إقبال المريدين والصفويين على الخانقاه يزداد في عهده يوماً بعد آخر، فخشي الملك الميرزا جهانشاه قراقويونلو من نفوذ الخانقاه وتعاظمه، فأخذ يبعث برجاله إلى السلطان جنيد ليصرحوا تارة ويلمحوا تارة أخرى بأن خروجه من مملكة جهانشاه سيعود عليه بالنفع والمصلحة.

وأدرك الشيخ جنيد حقيقة الأمر فرحل إلى ديار بكر بجماعة من خلفائه ودعاته، وأخذ مريدو الصفوية والصوفيون يلتحقون بركبه زرافات ووحداناً، ورأى الشيخ أن يسير للكفاح في طرابوزان وكان ملكها معرضاً لهجوم العثمانيين فصالحه على مبلغ من المال.

وكان الأمير حسن الآق قويونلو آنذاك حاكماً على جزء من ديار بكر وممتنعاً عن طاعة جهانشاه، فكان بين الطرفين عداء مستمر. فلما سمع بقدوم موكب الشيخ جنيد عد ذلك من علامات الفتح وحسن الحظ فسار لاستقباله بنفسه وأسكنه في قصره معززاً مكرماً وأسكن مرافقيه في منازل مناسبة.

وأخذ الأمير حسن يتردد على الشيخ يومياً فزادت أواصر العلاقة فيما بينهما قوة، وزوج الأمير أخته خديجة بيهم من الشيخ جنيد فتحول الانسجام بينهما إلى اتحاد إذ أمر الشيخ جميع أتباعه في ديار بكر بمساعدة الأمير حسن وأن يوالوا أولياءه ويعادوا أعداءه، ثم استأذن الأمير في مغادرة ديار بكر وعاد إلى أردبيل.

وألقت عودة الشيخ إلى أردبيل الرعب في قلب الملك جهانشاه، حيث كان استحكام الصلة بين السلطان جنيد والأمير حسن مدعاة لإثارة سوء الظن في نفسه. فأخذ يفكر في التخلص منه بأي وسيلة كانت، حتى ولو استدعى الأمر إرسال قوة إلى الخانقاه ومقاتلة الشيخ فيه، ولكن أعيان الدولة نصحوا جهانشاه بالانصراف عن فكرة محاربة الشيخ، لمنزلته في نفوس الناس ولما ستحدثه من عار كبير على الملك، واقترحوا عليه إرساله إلى حدود بلاد الشركس للجهاد فيها، وبذلك ينشغل الصوفيون بعمل يناسب رغبتهم ويتوافق مع أفكارهم.

واضطر الشيخ إلى مغادرة أردبيل والتوجه إلى جبال القفقاز على رأس جماعة كبيرة من أتباعه ومريديه للجهاد في تلك النواحي، وفي أثناء ذلك كتب جهانشاه إلى السلطان خليل ملك شيروان بأن الشيخ سيضطر لعبور أراضي شيروان في طريقه إلى بلاد الشركس، وسيكون في ذلك فرصة مؤاتية للإحاطة به في غابات شيروان وإبادته بمن معه، وبذلك يُتخلص منه.

واستجابة لأوامر جهانشاه بعث السلطان خليل شيروانشاه بعدة آلاف من خيرة قواته فأحاطت بمعسكر الصوفيين ودارت بين الطرفين معركة طاحنة أبدى خلالها الصوفيون شجاعة فائقة وتضحيات كبيرة للدفاع عن شيخهم ومرشدهم وكان التباين كبيراً بين القوتين فأحيط بالشيخ جنيد من كل جانب وتوالت عليه السيوف والرماح والسهام حتى سقط قتيلاً وكانت هذه الحادثة في عام ٨٦٠هـ.

وبعد أن اتصلت أسباب المودة والاتحاد بين الأمير حسن والصفوية وأعلن إرادته تجاه الخانقاه الصوفي أخذ الصوفيون يلتفون حوله ويظهرون استعدادهم للتضحية من أجله، فتشكلت لديه بذلك قوة كبيرة استطاع بها دخول الحرب مع جهانشاه وإلحاق الهزيمة به فقتله واستولى على مناطق حكمه جميعها.

وبعد استتباب الأمر للأمير حسن في حكم غربي إيران عزم السلطان أبو سعيد بوريان الذي كان يمتلك قوة كبيرة على انتزاع ممالك جهانشاه من قبضة الأمير حسن فسار إليه على رأس جيش تراوح عدده بين ستين ألف ومائة ألف مقاتل.

وهاجم آذربايجان فتصدى له الأمير حسن بالمقاتلين الصوفيين وأتباع الصفوية فهزم جيش (أبو سعيد) الجرار وقتل الملك المذكور في المعركة.

وقد ساهمت الانتصارات التي أحرزها الأمير حسن في ترسيخ

مكانة العائلة الصفوية في نفوس الناس فكثر مؤيدوها وبادر الملوك والزعماء إلى مد يد الإرادة إلى مشايخ هذه العائلة.

الشيخ حيدر: خلف السلطان جنيد ابنه السلطان حيدر ابن أخت الأمير حسن وهو لا يزال صبياً لم يبلغ الحلم، وبعد أن بسط الأمير حسن سلطته على آذربيجان اهتم برعاية ابن أخته والمقيمين في الخانقاه الصفوي، حتى بلغ السلطان حيدر سن البلوغ فزوجه من ابنته (حليمة بيكي آغا) المشهورة باسم (علم شاه بيبم) وبذلك توثقت الصلة بين العائلتين أكثر.

وفي أيام السلطان حيدر ازدهر الخانقاه ازدهاراً كبيراً، وقد أمر بوضع علامة خاصة لمريدي الخانقاه بارتداء القبعة الحمراء علامة لاتباع الخانقاه الصفوي.

وكان لظهور هذه القبعة هيبة بين الناس، وكان مسير جماعات من مرتدي هذا النوع من القبعات في أوساط الناس يبرز قوة الخانقاه ومكانته.

واستمرت العلاقة الودية بين السلطان حيدر والأمير حسن على أفضل حالها طوال حياة الأخير، فالشيخ حيدر ابن أخته وصهره، ولكن بعد وفاة الأمير حسن ووصول ابنه السلطان خليل ومن بعده ابنه الآخر السلطان يعقوب أخذت أواصر المودة تضعف بين الطرفين وشاب العلاقات سوء الظن إثر دسائس المغرضين، وبلغ سوء الظن بين السلطان حيدر والسلطان يعقوب غايته، ففضل الأول الخروج إلى بلاد الشركس، ومن ثم أمر جميع مريديه بالتجمع والسير نحو داغستان، ثم سلكَ في سيره نفس طريق أبيه وبلغ الخبر السلطان يعقوب فكتب إلى ملك شيروان أن السلطان حيدر تحرك بقواته نحو الشركس وهو يبطن الثأر منكم لأبيه فإذا كنتم عازمين على التصدي له فأبلغونا لنبعث لكم من تبريز بالمدد الكافي لنتمكن معاً من استئصال وجود القزلباش.

ومن الطبيعي أن ملك شيروان اغتنم فرصة عرض السلطان يعقوب فبعث إليه يستمده العون، ثم أمر قواته بسد الممرات والمعابر المعروفة في شيروان.

وقدم السلطان حيدر إلى حدود مدينة دربند على رأس سبعة آلاف من الصوفيين، وعزم على احتلال قلعة (باب الأبواب) وأوشك أن يفلح في احتلالها... لولا أن قوات السلطان يعقوب بقيادة سليمان أوغلي التي يبلغ تعدادها أربعة آلاف فارس فأجأته من الخلف، فانصرف عن احتلال القلعة وتوجه لقتال العدو الجديد وشارك بنفسه في القتال الذي نشب بضراوة بين الجانبين، ثم هجم على قائد جيش العدو فتصدت له رشقة من النبال أصابته واحدة منها في حلقة فصرعته. وانصرف الصوفيون عن القتال بعد مقتل السلطان حيدر، ودفنوا جثته تحت جنح الظلام في مكان سري خشية وقوعه بأيدي العدو، وبعد إحدى وعشرين سنة نقله ابنه الشاه اسماعيل إلى أردبيل حيث دفن فيها مع أجداده.

وكانت وفاة السلطان حيدر في عام ٨٩٣هـ.

وكان للسلطان حيدر أربعة بنين من زوجته علم شاه بيبم ابنة الأمير حسن، كان السلطان علي أكبرهم فخلف أباه ولقبه الصوفيون باسم السلطان علي شاه، وتصدى للإشراف على خانقاه أردبيل وباشر نشاطاته من جديد، فبايعه جميع مريدي الأسرة الصفوية، وأخذت قوافل الزوار تتوافد عليه فعظمت مكانته وقويت شوكته.

وكان الملك يعقوب في خوف متصل من ازدهار الخانقاه الصوفي وتعاظم أمره، فبعث بجيش إلى أردبيل أمره بالقبض على جميع أولاد الشيخ حيدر وحملهم إلى بلاد فارس لحبسهم هناك في قلعة اصطخر ليكونوا فيها تحت نظر حاكمها منصور بيك، وأوصى بمنع تردد الصوفيين على أطراف القلعة المذكورة.

وحمل أولاد الشيخ حيدر الأربعة إلى القلعة وهم السلطان علي شاه والميرزا اسماعيل والميرزا ابراهيم والميرزا سليمان، مخلفين وراءهم أمهم علم شاه بيبم وابنتيها بري خانم وحوري خانم. وكانت حادثة اعتقال أبناء شيخ الصوفيين في قلعة اصطخر في عام ٨٩٤هـ.

وعلى غرار سائر أفراد القبيلة البايندرية (آلاق قويونلو) كان منصور بيك برناك يرى لأمير المؤمنين علي (ع) وأهل البيت منزلة خاصة، وإضافة إلى ذلك كان يتبع الطريقة الصفوية، ولذلك حينما قدم أبناء الشيخ حيدر إلى قلعته رحب بهم غاية الترحيب وواظب على خدمتهم ورعايتهم ليل نهار.

واستمرت فترة اعتقال الأمراء الأربعة في قلعة اصطخر أربع سنين، وفي السنة الرابعة سار الملك يعقوب إلى حدود قراباغ في القفقاز أثناء فصل الشتاء فمرض هناك وفارق الحياة.

وبعد وفاته انقسم التركمان إلى فرقتين، وقفت إحداهما إلى جانب أخيه المسيح ميرزا ووقفت الأخرى إلى جانب ابنه بايسنقر ميرزا، ودارت بين الفرقتين حرب ضروس قتل خلالها المسيح ميرزا فاستولى على الحكم بايسنقر.

وفي بداية حكمه أمر بايسنقر بإلقاء القبض على الميرزا رستم حفيد الأمير حسن وابن الميرزا مقصود وحبسه في قلعة النجق تحت إشراف السيد علي كوتوال.

ولم يمض على حكم الملك بايسنقر وقت طويل حتى أقنع أحد أمراء التركمان السيد علي كوتوال بإطلاق سراح الميرزا رستم، وعين ملكاً حال خروجه وأخذ أنصار المسيح ميرزا يلتفون حوله فتوجه على رأس جيشه إلى مدينة تبريز فبلغ حدود أرس، وخرج الميرزا بايسنقر لاستقبال خصمه فشاهد قواته في مرند

يتفرقون عنه أفواجاً ويلتحقون بجيش رستم، فأدرك خطورة وضعه واضطر إلى ترك سلطانه وتوجه بعدد قليل من خدمه إلى شيروان حيث كان بايسنقر ابن أخت ملك شيروان.

ودخل رستم تبريز وتربع على عرشها، إلا أن ملك شيروان جمع قواته وسار إلى تبريز منتصراً لابن أخته بايسنقر.

واستشار رستم رجاله في الأمر، فأشاروا عليه باستغلال نفوذ أبناء شيخ الصفويين والاستعانة بهم على دفع العدو، فأرسل وفداً إليهم في حبسهم فأخرجوا من قلعة اصطخر معززين مكرمين وخرج رستم لاستقبالهم وطلب من السلطان علي شاه أن يستمر في نشاطه وسمح لأتباعه بزيارته بعد أن حرموا منها فترة طويلة.

وأرسل السلطان علي شاه دعاته لإحضار مريديه وأتباعه من ولايات الروم والشام وفي أثناء ذلك تواترت الأخبار حول تحرك قوات ملك شيروان وبايسنقر، فعين الميرزا رستم السلطان علي شاه قائداً أعلى لقواته وعين لمساعدته أحد كبار أمرائه. وتشكل الجيش من الصوفية الصفوية والتركمان البايندرية.

والتقى الطرفان عند نهر (كر) فعسكرا على ضفتيه، ومكثوا بإزاء بعضهما دون قتال. ثم عاد بايسنقر ميرزا إلى شيروان وعاد سلطان علي شاه إلى تبريز، وفي غضون ذلك تمرد على الميرزا رستم أحد أمراء السلالة البايندرية (كوسه حاجي) الذي كان آنذاك حاكماً على أصفهان، فخطب باسم بايسنقر وضرب النقد باسمه. وكان لهذه الحادثة تأثير كبير في تشجيع بايسنقر، فعاد إلى تبريز مرة أخرى على رأس جيش كبير وأعاد رستم تعيين سلطان علي على رأس قواته ووقعت بين الطرفين معركة طاحنة، هزم فيها جيش بايسنقر وقتل هو فيها.

ازداد تكريم الميرزا رستم لسلطان علي وإخوانه وعائلته بعد هذا الفتح وبعث بهم إلى أردبيل فعاد نشاطهم هناك وأخذت جماعات المريدين تتوافد عليهم من كل مكان، فكانت أردبيل تزدحم بهم في كل يوم. فأخذ الحساد يحذرون الميرزا رستم من خطر الأسرة الصفوية، فخاف من تعاظم شأنهم كما هو حال أسلافه وبعد استشارة ذوي الرأي استقر رأيه على جلب السلطان علي شاه وإخوانه إلى تبريز ليكونوا تحت إشرافه المباشر.

وقدم سلطان علي شاه وإخوانه من أردبيل إلى تبريز وعسكر السلطان خارج المدينة، ثم أدرك بعد أيام أن الميرزا رستم وضع العيون حول معسكره رغم إظهاره المودة، فاستوضح الأمر فعلم أن رستم يريد منع تردد الصوفيين على المعسكر فاستجاب سلطان علي لطلب الملك، ولكنه علم بعد أيام من بعض أصحابه المندسين في حاشية الملك أنه عازم على إلقاء القبض على جميع أبناء السلطان حيدر وإبادتهم ففر تحت جنح الظلام بسبعمائة شخص من مريديه نحو أردبيل وأبلغت الميرزا رستم الخبر عيونه المندسة حوالي المعسكر الصفوي فوجه أربعة آلاف من خيرة مقاتليه لتعقب الهاربين والتقى الطرفان في حدود قلعة شماسي بالقرب من أردبيل ودارت معركة ضارية بينهما فاقترح بعض ذوي الرأي على السلطان علي شاه أن يهرب من أرض المعركة ويشاغل أتباعه العدو حتى يصل وإخوانه إلى مكان أمين، ولكنه رفض وأصر على رفضه قائلاً: سأكون الشهيد الثالث بعد جدي وأبي ودون قتلي لن تسطع أنوار أخي (وأشار إلى أخيه إسماعيل). ثم استدعى ثلاثة من كبار خلفاء الخانقاه وهم: حسين بيكّ شاملو وخادم بيك طالش وعبدل بيك ذو القدر الملقب بـ (دده بيك) وخاطبهم بقوله: ستسطع قريباً أنوار دولة أخي هذا حتى تبلغ عنان السماء وتشمل عدالته العالمين، وإني أنيط بكم خدمته فهو خليفتي من بعدي والوريث الحق للشيخ صفي الدين. ثم خلع عن رأسه تاج الإرشاد وتوج به رأس أخيه الميرزا اسماعيل، وأفضى إليه بالأسرار التي يفضي بها شيوخ السلف لشيوخ الخلف. وهكذا أنيطت بهذا الصبي الذكي مهمة الشيوخ الكبار العارفين، وأخذ على عاتقه مسؤولية ثقيلة.

وانطلق سلطان علي شاه بعد فراغه من أداء وصيته إلى ساحة المعركة فاستشهد فيها.

وتفرق أتباعه ومريدوه الحاضرون معه أرض المعركة، بعد مقتله، ولكن حسين بيكّ وخادم بيك - اللذين أصبحا فيما بعد يشغلون منصب خليفة الخلفاء في الخانقاه الصفوي - حملا نعش الشهيد إلى أردبيل ودفناه في جوار أجداده، وكانت هذه الحادثة في عام ٩٠٠ للهجرة أي بعد سبع سنوات من مقتل السلطان حيدر.

فترة الهجرة

حمل مريدو الصفوية الميرزا اسماعيل وأخويه إلى أردبيل بعد مقتل أخيهم، وأخذوا ينقلونهم من بيت إلى آخر خلسة كل بضعة أيام، في حين كان رجال الدولة البايندرية يتابعون بحثهم عنهم وتقصيهم لآثارهم، حتى بلغ بهم الأمر إثر إلحاح الميرزا رستم في أوامره إلى تفتيش بيوت أردبيل بيتاً بعد آخر.

وبعد أربعين يوماً من اشتداد الضغط واستمرار التفتيش. اجتمع شيوخ الخانقاه الصفوي لدى علم شاه بيبم واستأذنوها بنقل أبنائها من أردبيل إلى ولاية كيلان، حيث كان أكثر أهل كيلان ومازندران من الشيعة ومن اتباع الخانقاه الصفوي.

واستجابت علم شاه بيبم لطلبهم رغم صعوبة الفراق عليها، فتوجه الثلاثة المار ذكرهم بالميرزا إسماعيل وأخويه إلى كيلان تحت جنح الظلام برفقة مائتين من كبار شيوخ الصفوية، فدخلوا رشت واستقبلهم واليها الأمير إسحاق وقدم لهم أنواع الخدمات ومظاهر الاحترام والتعظيم.

وتذكر التواريخ العثمانية أن الميرزا رستم بعث إلى رشت بوفد لمطالبة الأمير إسحاق بتسليم أبناء السلطان حيدر، فأنكر الوالي وجودهم في الوقت الذي كانوا موجودين في ولايته.

وعاد الوفد بخفي حنين فبعث الميرزا رستم ثانية بوفد إلى رشت يتشكل هذه المرة من قضاة تبريز ومفتيها بالإضافة إلى أعضاء الوفد الأول وطلب من الأمير إسحاق أن يسلم أبناء الشيخ حيدر وإن أنكر وجودهم فليقسم بحضور العلماء والقضاة على عدم وجودهم في ولايته وإلا فلينتظر هجوم جيش آلاق قويونلو والقضاء على ملكه.

ودبر الأمير إسحاق وأرباب الرأي من حاشيته أمراً للتخلص من هذه الورطة، فوضعوا أبناء الشيخ في سلال وعلقوها في أشجار الغابة حيث لا يراها أحد، ثم أقسم الأمير بحضور العلماء والقضاة أن لا وجود لأبناء السلطان ولا سكن لهم على أي بقعة من أرض ولايته.

وبعد انقضاء فترة من الزمن غادر الميرزا اسماعيل مدينة رشت متوجهاً إلى حدود (لشته نشا) فدخل لاهيجان وكان عليها كاركيا ميرزا علي وهو من أحفاد الإمام الحسن المجتبى (ع) فاستقبل الميرزا اسماعيل بالترحيب وعامله بالتكريم والاحترام.

وطالت الإقامة بالميرزا اسماعيل في لاهيجان وكان خلفاء الصوفية وأعيانها عاكفين على تربيته وتعليمه، وقرروا منع تزاحم قوافل مريدي الصفوية على شيخهم فحددوا عدد الزائرين بثمانية عشر شخصاً فإذا عاد هذا العدد إلى نهر كربان سمح لمثلهم بالدخول إلى لاهيجان وزيارة شيخ الصوفية فيها، وأرادوا بتنظيمهم هذا الحيلولة دون إزعاج أولي الأمر في لاهيجان وقطع الطريق على الحساد فيها لئلا تسوء العلاقة الودية التي تربط الميرزا اسماعيل بكاركيا ميرزا علي.

وكانت ولادة الميرزا إسماعيل في ٢٥ رجب سنة ٨٩٢هـ. وقد برزت عليه آثار الذكاء والفهم والفراسة منذ نعومة أظفاره وتوسم شيوخ الخانقاه الصفوي فيه الخير، وكان عموم أتباع الخانقاه ومريديه يرون عزتهم وقوة شوكتهم بوجوده ومن ثم كانوا يسمونه ـ وهو إذ ذاك صبي لم يبلغ الحلم بحضرة الملك اسماعيل ابن الشيخ أو الشيخ الملك، ويرون فيه بكل صدق وإخلاص المرشد الكامل لفرقتهم.

ويذكر صاحب (تاريخ جهان آرا) أنه في بداية قدوم أبناء الشيخ حيدر إلى لاهيجان توالت وفود الملك رستم على پيلان مطالبة باستعادتهم، وفي كل مرة كان كاركيا ميرزا علي يعتذر بأعذار حكيمة فتعود الوفود خالية الوفاض.

واشتغل في لاهيجان مولانا شمس الدين اللاهيجي بتعليم أبناء الشيخ حيدر قراءة القرآن الكريم ومقدمات اللغة العربية، بينما درّسهم نجم الپيلاني ـ الذي لقب فيما بعد بالأمير نجم وشغل منصب الوزارة في عهد الشاه اسماعيل ـ مقدمات الرياضيات وعلم النجوم والحكمة.

استمرت إقامة اسماعيل في پيلان ست سنوات ونصف، وأمضى أكثر أوقاته في السنتين الأخيرتين منها في الصيد الذي كان يعد نوعاً من السياحة والسفر.

وفي عام ٩٠٦هـ وقعت الحرب بين الميرزا مراد ابن الملك يعقوب والميرزا الوند بن الميرزا يعقوب بن الملك حسن وانتهت بتقسيم العراق والولايات الغربية من إيران بينهما.

ولم يطق الميرزا اسماعيل الاستمرار في عزلته وأخذ يفكر بالشروع في فتوحاته، وكان معتاداً على استشارة كاركيا ميرزا علي وأخيه كاركيا ميرزا حسن ومداولة الأمور فيما بينهم. فطرح عليهما ما يدور في ذهنه واستأذن كاركيا ميرزا علي في الخروج إلا أنه وإخوانه وحاشيته لم يرجحوا له فكرة الخروج لصغر سنه وطلبوا إليه أن يصبر بعض الوقت.

واستجاب الميرزا اسماعيل لطلبهم ومكث في لاهيجان فترة أخرى، وذات يوم التقى كاركيا مرة أخرى وسأله: هل ترى في شخصي خليفة لخانقاه الشيخ صفي الدين؟ فأجابه كاركيا: نعم، فقال له: إني أرى بالإلهام الغيبي أني مكلف بالخروج وقد عزمت على الخروج عزماً قاطعاً. ولم يحر كاركيا وحاشيته جواباً وأطرقوا برؤوسهم وجهزوه بما يلزم لخدمته وسفره، وترصد أهل النجوم ساعة سعد لخروجه من لاهيجان.

وخرج حاكم لاهيجان وجميع أفراد عائلته وأركان دولته مشيعين للميرزا اسماعيل في سفره لعدة فراسخ ومودعينه بالدعاء.

بداية الثورة والفتوحات

غادر اسماعيل لاهيجان متوجهاً إلى طارم ومنها إلى خلخال ثم أردبيل، ولكن حاكم أردبيل سلطان علي أكرلو رفض دخوله إلى أردبيل وطلب منه الانتقال إلى مدينة أخرى، ولم يكن اسماعيل يمتلك حينها قوة كافية للوقوف بوجه حاكم أردبيل ففضل الانسحاب إلى طالش وأمضى فصل الشتاء في حدود آستارا وتكفل زعماء طالش وقبائلها باستضافته والوقوف على خدمته.

ومع حلول الربيع توجه ثانية إلى أردبيل فدخلها وتوجه لزيارة مرقد الشيخ صفي الدين ومزارات آبائه وانصرف هناك إلى الدعاء واستدرار البركات حتى أدرك استجابة دعائه فأسرع لزيارة أمه.

ولم تكن إقامته في أردبيل أمراً يسيراً حيث استولى علي بيك أكرلو على هذه الولاية بالقوة وعاضده في ذلك الميرزا محمد طالش، ولم تكن قوة الصفويين المحدودة قادرة للتصدي لقوات

العدو، فاستدعى اسماعيل أعيان الصوفية مثل: عبدي بيك وحسين بيك لَلّه وخادم بيك ودده بيك وغيرهم وأبلغهم بأن الإقامة في أردبيل بعيدة عن السداد وسألهم عن الجهة التي يرونها للمسير فأبدى كل منهم رأيه، وفكر اسماعيل ملياً ثم أبلغهم بأن الطريق الأنسب هو الهجوم على برجستان لرفع راية الجهاد هناك، فباشر الحاضرون بإبلاغ الصوفيين المنتشرين في النواحي القريبة وأكناف العراق وأذربايجان بعزم الشاه إسماعيل. وتعذرت الإقامة في أردبيل على مرشد الصوفية وأتباعه فتوجه إلى قراداغ و(كوپه دنيز) لانتظار قواته هناك.

وكان السلطان حسين الباراني قد استولى على هذه الولاية فبعث إلى الشاه اسماعيل بأنه سيدخل في خدمته وطاعته حالما يرفع راياته ويتوجه إليه.

والسلطان حسين هو أحد أحفاد جهانشاه قراقويونلو وكان يرى في سلطان آذربايجان حقاً شرعياً له، وكان النفاق والخلاف بين أمراء البايندرية ينخران في هذه السلالة فاغتنم السلطان حسين الفرصة ووطد العزم على حشد المؤيدين والأنصار من حوله وإزالة المعارضين عن طريقه لتتأتى له سبل القوة والمنعة وليتمكن من استرجاع حقه الشرعي السليب.

وكان أعيان الصفوية واقفين على نوايا السلطان حسين فرجحوا للشاه اسماعيل الامتناع عن تلبية دعوته والبقاء بعسكره حيث هو.

وما إن بلغ السلطان حسين الخبر حتى أقبل بجماعة من رجاله وأظهر آيات الاحترام والتبجيل وأكد للشاه اسماعيل بأنه إذا ما حل ضيفاً عليه فسيعود مجد القراقويونلو إلى سابق عهده.

ورأى الشاه إسماعيل المصلحة في تلبية الدعوة فتوجه إلى حيث يعسكر السلطان بقواته وطلب بقاء معسكر الصفويين مستقلاً، ليتسنى للقوات التي تتقاطر في حضورها والتحاقها بعسكره اللقاء به وتقديم فروض الطاعة والمراسيم التي تقتضيها الأعراف الصفوية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكثرة في القراقويونلو من أتباع المذهب السني. على أن فيهم جمهرة من الشيعة بينما كان الآق قويونلو بصورة عامة من أتباع المذهب الشيعي على عكس ما توهمناه فيما ذكرناه في ترجمة الشاه اسماعيل في مجلد سابق من المستدركات وكان تشيعهم كتشيع قبيلة ذو القدر وقبيلة القرامان.

وكانت قبيلة ذو القدر مسيطرة على ديار بكر بينما كان القرامان يسيطرون على بعض الأناضول مثل قونية وغيرها ولكنهم هزموا على أيدي العثمانيين، ولم يكن القرامان وذو القدر والآق قويونلو متعصبين في تشيعهم، فمثلاً كانوا في تبريز يحتكمون في قضاياهم حسب متطلبات العصر إلى قضاة الحنفية رغم كونهم وملكهم ورجال دولتهم يرون أنفسهم من أتباع المذهب الشيعي.

ومع استحكام الأواصر بين أمير الآق قويونلو حسن والسلطان جنيد، انضم عدد من أقوام الآق قويونلو إلى سلك مريدي الصفوية، ومن ثم ازداد تمسكهم بالمذهب الشيعي رسوخاً.

وقد ذكرنا آنفاً أن حسن شاه قضى على حكم جهان شاه قراقويونلو، وأكثر جنود الأمير حسن هم من مريدي العائلة الصفوية ومن ثم فمن المستبعد جداً أن تمد عائلة جهان شاه أواصر المودة والمحبة، ولذلك كان الشاه اسماعيل وأتباعه من ذوي الفطنة ينظرون إلى دعوة الباراني وتظاهره بالمودة بكثير من الشك والريبة.

وعلى أي حال مكث عسكر الصوفيين في جوار عسكر حسين الباراني لبضعة أيام، أظهر الأخير خلالها آيات المحبة وقدم مستلزمات الضيافة، ثم اطلع ذوو الحيطة والحذر بأن الباراني يحيك مؤامرة في الخفاء تفوح منها رائحة الغدر والخيانة.

وزاد هذا الخبر من حذر الصفويين فعزموا على الانفصال عن معسكر مضيفهم والابتعاد عنه بأسرع وقت، وأخذ أعيان العسكر الصفوي يبيتون الأسباب لذلك، فاستدعى السلطان بعضهم وقال لهم بأن رحيل الشاه اسماعيل مخالف للعقل والمصلحة والأحرى به أن يمد يد الاتحاد لنتمكن معاً من القضاء على المعاندين والمعارضين وفرض الاستقرار على أوضاع البلاد ثم أبدى استعداده لعقد أي اتفاق يرتضيه الشاه اسماعيل.

وأبلغ الصوفيون السلطان حسين بأن شيخهم لن يتمكن من المكث أكثر، وأدرك السلطان أنهم عازمون على الرحيل فطلب إليهم أن يحضر شيخ الصوفية مأدبة يقيمها لتوديعه.

وفي اليوم التالي تمارض الشاه اسماعيل وأبقى معه حسين بيك وأرسل بعبدي بيك وخادم بيك وعدد آخر من أعيان الصوفية للاعتذار من السلطان حسين، وصدق السلطان مرض الشاه اسماعيل.

وعندما خيم الليل أخذ عبدي بيك وخادم بيك وأصحابهما يعدون العدة للرحيل، فأضيئت مشاعل كثيرة في أنحاء المعسكر وحملت الإبل والبغال ولم يكد ينتصف الليل حتى انطلق الشاه اسماعيل نحو (نخجوان) و(خُور سعد) في ألف وخمسمائة رجل من أصحابه.

وحينما رأى السلطان حسين وأتباعه كثرة المشاعل في معسكر الشاه اسماعيل تيقنوا من مرضه وحسبوا أنه لن يقدر على التحرك بعسكره في تلك الليلة ولكن ما إن أشرقت الشمس حتى أسقط في أيديهم وأدركوا أن فريستهم قد أفلحت في الإفلات من

قبضتهم، وفكروا في تعقب آثارهم ثم انصرفوا عن ذلك.

وحط الصوفيون رحالهم في (بخور سعد) ومكثوا فيها ينتظرون قدوم القوات التي كانت تلتحق بهم تباعاً دونما انقطاع.

وفي تلك الأيام حيث كانت جماعات أتباع الصوفية ومريديها يتقاطرون على موكب الشاه اسماعيل وينضمون إليه وقعت حادثة، يمكن اعتبارها بداية حروب القزلباش وفتوحاتهم وانتصاراتهم. فقد كان أحد زعماء الصوفية الروم واسمه قراجه الياس قادماً في جماعة من أتباعه لزيارة الشاه اسماعيل فوصل منطقة تدعى (شوره پل) بالقرب من إيروان، فقرر أن يمضي وأصحابه ليلتهم بالقرب من قلعة (منتشا بهادر).

وكان منتشابهادر قد أحكم قلعته ويزعم أنه يقوم بالحفاظ على أمن الطريق وتأمين سلامة القوافل القادمة. فما كاد رصد القلعة يشاهد وصول قافلة الصوفيين حتى أبلغ بهادر الخبر، فبادر هذا لاستقبالهم وأظهر احترامه لهم وتصوفه وقال لهم: محال أن أرضى بنزول جماعة من الدراويش الأطهار بالقرب من قلعتي ولا أتشرف باستضافتهم.

وقد تمكن بهادر من خداعهم وأدخلهم قلعته ثم وزعهم على المنازل فجعل كل مجموعة منهم في منزل وأخلد الصوفيون إلى الراحة. فجمع مضيفهم الغدّار أصحابه ودفع إليهم بالسلاح ثم هجم على ضيوفه فجردهم في ظلمة الليل من كل متاعهم وطردهم خارج القلعة.

وبعد جهد جهيد أوصل الياس نفسه وأصحابه إلى معسكر الشاه اسماعيل وأبلغه خيانة بهادر، فاستشاط الشاه اسماعيل غضباً وعزم على السير إليه بنفسه فانتدب خيرة فرسان القزلباش لهذه المهمة وانطلق نحو قلعة بهادر.

وبلغ بهادر خبر الهجوم فأدرك ضعفه وعجزه عن المقاومة، ومن ثم استخلف على القلعة بعض أصحابه وخرج إلى (شوره پل) لعله يجد من حاكمها مدداً.

وكانت الحروب والاضطرابات الداخلية القائمة آنذاك قد شغلت كل حاكم وأمير بنفسه فانصرفوا جميعاً للحفاظ على مناطق نفوذهم دون التفكير في نصرة غيرهم.

ولم يبادر أبطال الصوفية إلى فتح القلعة بل هاجموا جميع القرى المحيطة بها والتي كانت تسكنها قبيلة (منتشابهادر) فنهبوها وقتلوا من قاوم من أهلها واشتدت قساوتهم في الفتك بهم، وهرب الكثير من أهل هذه القرى إلى الصحارى وبينما كان الصوفيون في طريق عودتهم إلى مواقعهم التقوا بهؤلاء الهاربين فأعملوا السيف ببعضهم وأسروا آخرين ثم أطلقوا سراحهم بعد أن أخذوا منهم الفدية.

ومع حلول الصيف رحل الشاه اسماعيل إلى مصيف أرزنجان وتوقف في ربوعه شهرين توافد عليه خلالهما العديد من الأتباع والمريدين حتى بلغ عدد جيشه خمسة آلاف شخص، وانضم بعضهم بأهله وبعشيرته إلى المعسكر ومنهم عبدي بيك من قبيلة شاملو فقد انضم بخمسمائة من أبطال عشيرته والشخص الآخر هو خان محمد استاجلو الذي أصبح فيما بعد حاكم ديار بكر وهو من أشجع القادة وأعلمهم.

ومن بين القادة الآخرين الذين التحقوا في تلك الأيام بموكب الشاه اسماعيل بيرام بيك القراماني وهو أحد أمراء القرامان ومن الأشخاص الذين رفضوا الاستسلام للعثمانيين بعد احتلالهم لمدينة قونية وسقوط الدولة القرامانية حيث أخذ يتنقل ببضعة آلاف من قبيلته رافضاً جميع الوعود التي كان العثمانيون يعدونه بها في حال استسلامه، وكان مخلصاً للعائلة الصفوية فلما بلغته أوامر المرشد الكامل استجاب لها وأسرع نحو مصيف (أرزنجان) فتشرف هناك بلقاء شيخ الصفوية، الذي شمله بألطافه واحترامه.

وفي الفترة التي كان فيها الشاه اسماعيل معسكراً في المصيف قدم إليه بعض أهالي المنطقة واشتكوا إليه دباً يضاهي البعير بضخامته والقرد في خفته والنسر في قوته قد قطع الطريق عليهم وقتل العديد من أفرادهم.

ولم يكن الشاه اسماعيل آنذاك يتجاوز الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره، فعزم على الخروج إليه بنفسه، وحين بلغ مكمنه أمر بعض مرافقيه بنفخ الأبواق وضرب الطبول ليخرجوا الدب إليه، وبعد هنيهة خرج الدب من فتحة الغار فسدد الملك اسماعيل إلى صدره سهماً ألقى به من أعلى الجبل إلى قعر الوادي. فارتفعت أصوات الاستحسان والثناء من حوله وزادت مكانته في نفوس أتباعه.

فتح شيروان

وفي أواخر أيام الاصطياف جمع الشاه اسماعيل زعماء عسكره لاختبار الوجهة المناسبة التي يبدأ جيش القزلباش تحركه نحوها.

اقترح بعض الحاضرين أن يكون التحرك نحو ضفاف الأرس وحدود نخجوان.

واقترح البعض الآخر تمضية الشتاء في المناطق الدافئة من آذربايجان أو في بلاد آران حيث ولايتها الرئيسية قراباغ ومناطقها الدافئة والانتظار هناك ريثما يحل فصل الربيع فينظر حينئذٍ بالأمر.

ورأت فئة ثالثة الخروج لقتال قبائل الشركس والهجوم على جبال القفقاز.

وظل الجميع يترددون بين هذه الآراء الثلاثة وخرج حسين بيك وخادم بيك من بين الحاضرين وأبلغا الشاه اسماعيل بما

توصل إليه المجتمعون فلم يستصوب منها رأياً وجلس ليلته للعبادة والاستخارة.

ولما أصبح طلب قادة جيشه مرة أخرى وحضر مجلسهم ثم أبلغهم أن أرواح الأئمة ألهمته المسير إلى شيروان والانتقام فيها من شيروان شاه. فأبدى الجميع طاعتهم لمرشدهم وتحركوا بقوات القزلباش نحو شيروان.

ولما بلغت القوات منزل (ياسمن) أمر الشاه اسماعيل خادم بيك بالتوجه إلى پرجستان بعدد من أبطال الصوفية، لتأديب الزعماء الپرجسيين فيها، بعد أن بعث إليهم بطلبه في الالتحاق بجيشه والاتحاد معه أو إرسال ممثلين عنهم للتفاوض ولكنهم لم يجيبوا على طلبه بجواب مناسب.

ودخل خادم بيك أراضي پرجستان فأغار على بعض النواحي الكبيرة فيها وقتل عدداً من أهلها وأسر آخرين ثم عاد إلى معسكر الصوفية بغنائم كبيرة فأمر الشاه اسماعيل بتقسيمها بالتساوي بين أفراد العسكر.

ومن جانب آخر أُمر قراجه الياس الذي أصبح اسمه الياس بيك بالتوجه على رأس قوة من الصوفيين لاحتلال قلعة منتشابهادر، وما أن بلغ أهل القلعة خبر توجهه إليهم حتى لبسوا أكفانهم ووضعوا سيوفهم على أعناقهم وأسرعوا إلى الياس مستدرين عطفه وعفوه، فاحتل الياس قلعتهم وعاملهم بالحسنى ثم بعث بشيوخهم إلى الشاه إسماعيل فعاملهم الشاه بعطفه ورحمته وخلع عليهم حللاً وأرجعهم إلى منازلهم.

وسار عسكر الملك فوصل (حسن آباد) في اليوم التالي وفجأة خرج (منتشابهادر) من وراء حائط وألقى بنفسه عند قوائم جواد الشاه اسماعيل طالباً العفو والصفح وأخذ يذكر خدماته السابقة للعائلة الصفوية فاستحسن الشاه كلامه وعفا عنه ثم وضع على رأسه تاج الصوفية وخلع عليه خلعة خاصة وأهداه جياداً ونطاقاً مرصعاً وأعاده حاكماً على قلعته.

واقترب الجيش من نهر (كر) فبعث الشاه بيرام بيك القراماني في فوج من قبائل التكه لو وذو القدر لحراسة المعابر لئلا تسيطر قوات شيروان عليها فتحول دون عبور الجيش الصفوي، وتقرر في حال حدوث فيضان إقامة جسور في الأماكن المناسبة لتعبر القوات عليها. وعندما بلغ بيرام بيك وأصحابه النهر وجدوه يضيق بمائه وأدركوا استحالة العبور من المعبرين الرئيسيين الموجودين في تلك المنطقة.

وتوجه بيرام بيك وأصحابه إلى ملتقى نهري أرس وكر، وقرروا إقامة جسر هناك، وما زالوا يتدبرون الأمر حتى قدم الشاه اسماعيل إليهم فرأى حيرتهم وترددهم فلوى عنان جواده إلى الشمال بمحاذاة النهر ثم اقتحم فجأة لجة النهر فعبرها بسهولة ولم يكن الماء يتجاوز بطن الجواد فعرف الجميع أن ثمة معبراً طبيعياً لم يكونوا يعرفونه.

وأخذ الصوفيون وأبطال القزلباش يعبرون النهر في جماعات منظمة، وعبر الجميع بنجاح وعلت الأصوات مبتهجة بالعبور وعدت هذه الخطوة فألاً حسناً يبشر بانتصارات لاحقة.

وبعد اجتياز نهر كر واجه الجيش نهرين عظيمين فاجتازهما بسهولة وفي تلك الأثناء وصلت أنباء تشير إلى انسحاب ملك شيروان إلى القلاع المحصنة الموجودة في قمم الجبال الشاهقة، للوقوف فيها بوجه زحف عدوه القوي، وفهم من ذلك أن عاصمة الملك المذكور، مدينة شماخي أضحت خالية من القوات العسكرية.

وأرسل الشاه اسماعيل أحد خدمه إلى شماخي لطمأنة أهلها وتبشيرهم بالأمان، وأن أحداً لن يصاب بأذى ما دام لا يحمل سلاحاً.

وفي اليوم التالي توجه جيش القزلباش إلى شماخي فدخلها، وعُلم حينئذٍ أن أهلها جميعاً قد غادروها والتجأوا إلى شعب الجبال الوعرة.

ومكث الجيش في شماخي يومين، وقدمت العيون تحمل أخباراً مفادها أن شيروان شاه انصرف عن رأيه الأول في الاعتصام بالقلاع المنيعة وعسكر في غابة بين قلعتي پلستان وبيپرد وأحاط عسكره بأغصان الأشجار والأخشاب والأشواك.

وسر الشاه اسماعيل بهذا النبأ واعتبر إقدام العدو على هذه الخطوة إمارة على سقوطه واندحاره، فأسرع بجيشه نحو العدو.

وكان موقع ملك شيروان مستحكماً، فقد كان بإمكانه استدراج الجيش الصفوي إلى داخل الغابة وتشتيته فيها ولكنه أخطأ مرة أخرى فترك الغابة على جناح السرعة وتوجه إلى قلعة پلستان ليتحصن فيها وليكون أقرب إلى مدد ملك الآق قويونلوا المقرر وصوله من تبريز.

وخرج ملك شيروان من الغابة فدخل الصحراء ولا تزال بينه وبين قلعة پلستان مسافة كبيرة، وفجأة اصطدم بقوة من القزلباش وكان الشاه اسماعيل قد قسم جيشه إلى مجموعتين بعث بواحدة إلى الشمال ووجه الأخرى إلى الجنوب وكان هدفه من ذلك الإطباق على العدو من جهتين حيث لا طاقة له بمواجهته من جهة واحدة فقد كانت قوات العدو تبلغ عشرين ألف فارس وسبعة آلاف راجل.

وألفى ملك شيروان نفسه إزاء عدو قوي، فانحاز إلى تل قريب واعتصم به ثم قسم جيشه إلى قلب وجناحين.

ودارت رحى معركة ضارية رجحت فيها كفة قوات شيروان بادىء الأمر ولكن ظهور المجموعة الصوفية الثانية التي توجهت إلى الشمال سبب إرباكاً في صفوف الشيروانيين فكان دخولهم

أرض المعركة حسماً لها حيث قتل ملك شيروان وعدد من وزرائه وكبار قادته وأركان ديوانه، ولاذ الباقون بالفرار، ورفرفت راية الصوفيين في ساحة الحرب عالية خفاقة... وأخذ زعماء الولايات المجاورة يتوافدون على الشاه اسماعيل بعد سماعهم خبر انتصاره الكبير.

ومكث الشاه في أرض المعركة ثلاثة أيام غادرها في اليوم الرابع متوجهاً إلى شماخي.

وفي شماخي، عاصمة شيروان بلغ شيخ الصوفية (الشاه اسماعيل) أن ابن ملك شيروان الشيخ ابراهيم الذي أفلح في الهرب من ساحة المعركة قد خرج في (شهرنو) الواقعة على ساحل بحر الخزر في جماعة من أنصاره عازماً على الاستمرار في المقاومة. فوجه الملك إليه بخادم بيك ليتعقب أثره، وما أن بلغ الشيخ ابراهيم الخبر حتى بادر إلى ترك (شهرنو) وأبحر بسفينة إلى ولاية پيلان.

ودخل خادم بيك (شهرنو) بعد مغادرة الشيخ ابراهيم لها، فاستقبله أهلها وأعلنوا عن طاعتهم له. وفي اليوم التالي دخلها الشاه اسماعيل وتوج زعماءها بتيجان القزلباش وخلع عليهم خلعاً فاخرة وعين خادم بيك حاكماً على (شهرنو) ثم غادرها إلى محمود آباد.

وفي محمود آباد بلغه أن أهالي قلعة (بادكوبه) ـ التي كانت في الحقيقة مستودعاً لخزائن وأموال الشيخ ابراهيم الملقب بالشيخ شاه ـ رفضوا استقبال رسله وغلقوا الأبواب دونهم ووقفوا على أهبة الاستعداد للمقاومة. فوجه إليهم بخان محمد استاجلو والياس بيك في فوج من قوات القزلباش لاحتلال قلعتهم.

وكانت قلعة بادكوبه غاية في المنعة والاستحكام، يحيط بها بحر قزوين من ثلاث جهات ويحدها خندق منيع من جهتها الرابعة، فحاصرها القزلباش ووقعت مناوشات بين الطرفين واستمر الحصار طويلاً دون أن تفتح.

فأمضى الشاه اسماعيل الشتاء في محمود آباد ومع دنو فصل الربيع توجه بقواته إلى (بادكوبه) وأخذ يتفحص أطرافها بنفسه ثم عين جماعة لنقب الجدار وجماعة أخرى لمشاغلة المدافعين عن القلعة برميهم بالسهام. ثم أخذ حجراً وألقى به في الخندق والتفت إلى القزلباش فأمرهم بإلقاء ما أمكنهم من حجر في تلك النقطة.

وانصاع الصوفيون لأوامر مرشدهم فأخذوا يلقون بالأحجار حتى طمروا بها تلك النقطة من الخندق وأصبح تلاً عالياً يشرف على السور وأهله.

وما إن شاهد أهالي القلعة قوات القزلباش تشرف عليهم حتى أخذوا يتوسلون ويتضرعون، طالبين الصفح والأمان ولم يكن الشاه اسماعيل يبغي شيئاً سوى استسلامهم فمنحهم الأمان وكرم زعماءهم.

ودخل خادم بيك القلعة وحمل إلى معسكر مرشده ما وجده فيها من كنوز ذهب وفضة وجواهر، فأمر مرشد الصوفية بتوزيعها بالتساوي على أفراد العسكر ولم يختص نفسه منها بشيء، بل لم يأخذ حتى خمسه الشرعي إذ أمر بإنفاقه على المبرات الخيرية التي أوصى بها.

وتم الاستيلاء على جميع أراضي شيروان بسقوط قلعة بادكوبه باستثناء قلعة پلستان فحاول الملك اسماعيل فتحها ثم انصرف عنها بعد أن وعده أهلها بالدخول في طاعته في حال احتلاله لتبريز مركز آذربايجان.

وتحرك باتجاه قره داغ فبلغه في أثناء الطريق أن الملك الوندميرزا قد قدم من تبريز إلى نخجوان على رأس جيش جرار وبعث أحد قادته المدعو محمد قراجه إلى پنجه للتوجه منها إلى شيروان وأرسل قائداً آخر وهو حسن بيك شكراوغلي لدخول شيروان عن طريق نهر «پرمارود».

واستدعى الشاه اسماعيل قادته لاستشارتهم فأشاروا عليه بالتصدي لقوات الوند ميرزا قبل أن يستفحل الأمر ويتحد أعداء الصوفية بوجههم.

الحرب من أجل العرش والتاج

كان السلطان العثماني يدعم دولة عائلة الآق قويونلو ويرغب في استمرارها. فكان يلح على الوند ميرزا أن يتصالح مع إخوانه وأبناء عمومته ويحثهم جميعاً للوقوف بوجه الفاتح الجديد الشاه اسماعيل.

وكان الوند ميرزا عازماً على خوض غمار الحرب مع مراد ميرزا، فبعث السلطان العثماني بأحد مشايخ الصوفية ويدعى بابا خير آ للتوسط بينهما فتصالحا على أن تكون ديار بكر وأران وآذربايجان حتى نهر قزل أوزن من حصة الوند ميرزا بينما تكون حصة السلطان مراد الضفة الثانية لأوزن وعراق العجم[1] وفارس وكرمان.

ومن جانب آخر وعد السلطان العثماني بدفع حاكم ديار بكر قاسم بيك البايندري للدخول في طاعة الوند ميرزا.

ولم يكن الوند ميرزا يأمن مكر أمراء البايندرية وشرهم في حال اصطحابهم معه لمواجهة القوات الصفوية، فعزم على السير إليها بمفرده ومن ثم استدعى جميع أفراد قبيلة الآق قويونلو الموجودة في أراضي آذربايجان وأران وجهز منهم جيشاً كبيراً ثم

(١) عراق العجم، أو العراق العجمي: اسم أطلقه السلاجقة على ما كان يعرف في عهد البويهيين باسم (بلاد الجبل) وأهم مدنه: كرمنشاه (قرميسين) والري همذان وأصفهان.

توجه إلى نخجوان وبعث من هناك ـ كما أسلفنا ـ بمجموعتين إلى شيروان لدخولها من جهتين.

وتحرك جيش الصوفيين عبر قراباغ إلى نخجوان وأمر الشاه اسماعيل أحد القاجاريين واسمه پيري بيك بالسير على رأس فوج من المحاربين الشجعان للتصدي لحسن بيك شكر أوغلي.

وتوجه پيري بيك نحو نهر (گرمارود)، وسمع حسن بيك شكر أوغلي بتوجهه إليه فلاذ بالفرار قبل أن يدخل الحرب معه والتحق في نخجوان بالوند ميرزا ولكن بعض قواته التي تخلفت عن مواكبته اصطدمت بقوات پيري بيك وقتل بعضها وأسر آخرون وحمل پيري بيك الغنائم إلى معسكره ومن جانب آخر كان بعض زعماء البايندرية مثل قرلغاي بيك ولطيف بيك منشغلين بالكر والفر في حدود قره باغ فلما بلغهم نبأ اقتراب القوات الصوفية، فضلوا الانسحاب والتحقوا بالوند ميرزا.

وفي أواخر ولاية قره باغ استعد الشاه اسماعيل لخوض الحرب فعبأ جيشه وعين القلب والجناحين ثم بعث پيري بيك ليكون طليعة جيشه. وجعل الوند ميرزا عثمان بيك وهو قائد عثماني في طليعة جيشه.

والتقت قوات پيري بيك بقوات عثمان بيك وكانت تعليمات الصوفيين تقضي بالهجوم على القائد هجوماً مباغتاً، فنفذت التعليمات وأسر عثمان بيك، فلما رأى جنده ما حل به فروا من ساحة المعركة وتعقبهم الصوفيون فأعملوا فيهم السيف وأسروا بعضهم، وحمل الأسرى إلى المرشد الكامل وحين علم بكون عثمان بك أجنبياً ومن أتباع الدولة العثمانية أمر بقتله وقتل من كان معه من العثمانيين.

وعندما بلغت أخبار الهزيمة الوند ميرزا أدرك بأنه كان مخطئاً في تقدير قوة خصمه فأمر بالتقهقر عن نخجوان.

ورأى الصوفيون في هذا التقهقر فراراً، فارتفعت معنوياتهم وانتهز الشاه اسماعيل الفرصة فدخل نخجوان ثم سار لتعقب خصمه فالتقى به في مساء ذلك اليوم نفسه في محل (آبادي شرور) من توابع نخجوان ومكث الفريقان بإزاء بعضهما طوال الليل ملتزمين الحيطة والحذر.

وفي صبيحة اليوم التالي نظم الوند ميرزا قواته وأمر بإيقاف الإبل خلف صفوف محاربيه وربطها إلى بعضهما بالسلاسل وكان غرضه من ذلك الحيلولة دون فرار بعض قواته ممن كان يتحسس فيهم ميلاً للأسرة الصفوية.

وعمد الوند ميرزا إلى وضع المدافع والبنادق التي وصلته من الدولة العثمانية على سفح تل قريب من أرض المعركة وجعل الرماة في مقدمة صفوفه.

التفت الصفويون إلى انعزال المدفعية والبنادق عن بقية الجيش فالتف فوج منهم حول الموقع وانقضوا عليه بسرعة فقتلوا بعض المقاتلين وأسروا آخرين، وحينئذ تنبه الوند ميرزا إلى الأمر فأمر جناحه الأيمن بالتوجه لحماية المقاتلين الموجودين على التل، وامتثل قائد هذا الجناح فأسرع بقواته لحماية التل.

وشاهد الصوفيون انحياز الجناح الأيمن إلى جانب التل فعدوا ذلك تراجعاً وفراراً، فبادر جناحهم الأيسر إلى الهجوم مطلقاً صيحات الله . . . فأحدثوا في صفوف عدوهم إرباكاً وألقوا في قلوبهم ذعراً.

وتنبه الشاه اسماعيل إلى الحالة التي سيطرت على ساحة المعركة فاستل سيفه وهجم فتبعه جميع مقاتلي القلب والجناح الأيمن.

ووقف الوند ميرزا وعدد من قادته في مقدمة قلب قواتهم للتصدي لهجوم الشاه اسماعيل ودارت معركة ضارية بين الطرفين قتل فيها الكثير من قواد جيش الوند ميرزا، ثم اضطربت صفوفه وفقدت نظمها ثم لاذت بالفرار، وهرب الوند ميرزا ببعض أصحابه.

وكان العديد من التركمان الهاربين يحاولون التخلص من سيوف القزلباش ورماحهم فيتجهون نحو الخلف ويصطدمون بجدار من الإبل المربوطة إلى بعضها، فيضطرون للتوجه شمالاً أو يميناً فيكونون هناك فريسة للقزلباش.

وانتهت المعركة بمقتل العديد من زعماء قبيلة الآق قويونلو ووزرائها ووقع بعضهم أسرى ففدوا أنفسهم بدفع جميع أملاكهم.

وقد ذكر صاحب تاريخ (جهان آرا) أن عدد القتلى في صفوف قوات الوند ميرزا بلغ عشرين ألفاً بينما يذكر صاحب لب التواريخ بأنهم ثمانية آلاف قتيل.

وأمر الشاه اسماعيل بعد انتهاء المعركة بنصب فسطاطه واستدعى إليه جميع أمراء جيشه وقادته وأفراده الذين كان لهم دور مميز في ساعات المعركة، فكرمهم وخلع عليهم وشملهم بعطفه وعنايته، وأمضى مقاتلو القزلباش ليلتهم ينعمون بأسباب الرفاه التي غنموها من معسكر العدو.

فتح تبريز

وفي اليوم التالي توجه جنود الشاه اسماعيل نحو تبريز، وكان عددهم يومئذ يتراوح بين سبعة آلاف واثني عشر ألفاً.

وكان مسيرهم في أوائل عام ٩٠٧هـ وبعد أيام قليلة دخل موكب الملك اسماعيل تبريز فهب أهلها لاستقباله وتقديم فروض الطاعة إليه. وجلس على عرشها متوجاً نفسه ملكاً لإيران.

وقرر الشاه اسماعيل أن تكون الخطبة باسم الرسول (ص)

وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة الاثني عشر (ع) ومن ثم اسمه.

وكان لهذا القرار أهمية كبرى حيث كانت تبريز آنذاك يتقاسمها الشيعة والسنة، ورغم كثرة الشيعة إلا أن جميع الأمور الدينية والقضائية كانت بأيدي علماء السنة من الشافعيين والحنفيين، إذ كان حكامها يرون المصلحة تقضي دعم أهل السنة وتقويتهم منذ بدأ الصراع مع القزلباش في عهد السلطان يعقوب.

وقد رفض بعض الخطباء الانصياع للأوامر فضربت أعناقهم على رؤوس الأشهاد، فأصيب الخطباء الآخرون بالخوف والهلع فلاذ بعضهم بالفرار وأخفى آخرون أنفسهم بينما انصاع بعضهم للأمر الواقع، فخطبوا باسم الأئمة الاثني عشر (ع) وأدخلوا في الأذان عبارة (أشهد أن علياً ولي الله).

وكان جنود الصفويين والقزلباش يلازمون المساجد في أيام الجمعة وأوقات الصلاة في الأيام الأخرى طوال ثلاثة أشهر لمراقبة الخطباء وما يلقونه من خطب، فإذا أتى أحدهم بعمل مخالف للأوامر الصادرة أو أنكر شيئاً من تعاليم الشيعة بادروا إليه بسيوفهم أمام أعين الحاضرين.

ومن الأمور التي استحدثت آنذاك ارتداء جميع أفراد المناطق التي خضعت لفتوح الشاه اسماعيل لقبعات القزلباش الموحدة بعد أن كانوا يرتدون قبعات شتى.

وفي الوقت الذي كان الشاه اسماعيل يشتو في محمود آباد بعد فراغه من فتح شيروان قدم إليه الأمير شمس الدين زكريا الذي شغل منصب الوزارة لدى ملوك البايندرية لسنين طوال ثم اعتزله بعد حدوث الاضطرابات الداخلية، وكان محيطاً بأوضاع البلاد إحاطة تامة فاغتنم الشاه مقدمه ورأى في شخصه منفعة كبرى لدولته الحديثة التأسيس فرحب به وكرمه ولقبه بمفتاح آذربايجان وعينه في منصب وزارة الديوان الأعلى، وعين حسين بيك شاملو أميراً للأمراء وشاركه في ذلك إبدال بيك.

وبعد فتح تبريز والفراغ من مراسيم التتويج جعل حسين بيك وكيلاً له وفوض الأمور الإدارية ورئاسة الديوان للأمير زكريا، ولم يجد الشاه الوقت الكافي لاستحداث إدارات ومؤسسات جديدة فقرر أن تكون الأساليب الإدارية على غرار ما كان معمولاً به في زمن الحكومات البايندرية.

وتولى القاضي شمس الدين الپيلاني منصب الصدارة، وهو يشتمل على رئاسة الأمور الدينية والقضائية، حيث كان جميع القضاة وأئمة الجماعات وسادنو الأوقاف يعينون من قبل الصدر ويعملون تحت إشرافه.

وأمضى الشاه فصل الشتاء في تبريز، ومع حلول فصل الربيع بلغه أن الميرزا الوند يقوم بتجهيز جيش في حدود أرزنجان وبلغه أيضاً أن علاء الدولة رئيس قبيلة ذو القدر الكبيرة الذي يحكم أجزاء مهمة من ولاية ديار بكر اتفق مع الميرزا الوند وهو في صدد إرسال المدد إليه، فغادر الشاه اسماعيل تبريز متوجهاً إلى أرزنجان للقضاء على الميرزا الوند فيها ولتهديد علاء الدولة. وبلغ خبر تحركه الوند فسلك طريقاً آخر إلى آذربايجان فانصرف الشاه اسماعيل إلى ممارسة رياضة الصيد في أرزنجان.

واضطرت قوات القزلباش في حملتها هذه إلى اجتياز الأراضي العثمانية الحدودية، فأبدى الشاه اسماعيل لحكامها الاحترام والمودة ووعدهم برعاية السكان فيها وعدم إيذائهم وبعث في هذا المجال برسالة إلى السلطان العثماني طمأنه فيها وأعرب له عن مودته. وأجابه السلطان برسالة تفصح عن رضاه عن سلوك قوات القزلباش حين عبورها من الأراضي العثمانية.

ودخل الميرزا الوند تبريز فعاث فيها فساداً، وجمع عدداً من تجارها وأثريائها فأذاقهم مر العذاب لانتزاع أموالهم وهكذا كان حال أكثر الوزراء والأعيان والصدور في آذربايجان وبلغت الأخبار الشاه اسماعيل فاستشاط غضباً وأسرع نحو تبريز فهرب الميرزا الوند نحو همذان وتوجه منها إلى بغداد.

وانصرف الشاه اسماعيل طوال عام ٩٠٨ إلى إعمار ما ضربه الميرزا الوند وإصلاح أمور بلاده وإقرار الأمن فيها.

فتح غرب إيران

وفي شتاء عام ٩٠٨هـ بلغت الشاه اسماعيل أخبار مفادها أن الملك مراد ميرزا جمع قوات عراق العجم وكرمان وفارس فبلغت سبعين ألف مقاتل وهو متوجه بها إلى همذان للانطلاق منها إلى تحرير بلاد آذربايجان التي يرى فيها حقاً شرعياً له من خصمه الشاب.

وهاج سكان تبريز بعد سماعهم بقدوم مراد ميرزا وأنشأ العديد من أهل السنة ممن يرفضون الحكم الجديد يبثون الإشاعات المثبطة لإرباك قوات القزلباش.

وقد أشاعوا أن السلطان العثماني بايزيد بعث إلى مراد ميرزا بمئات المدافع وآلاف المدفعيين، ولكن هذه الإشاعات لم تكن تؤثر على إرادة الشاه اسماعيل أو تثنيه عن عزمه، فجمع قواته وأسرع بها نحو همذان وواصل السير دون أن يتوقف في المنزل أكثر من ليلة واحدة حتى وصل إلى ما يبعد عن العدو مسافة فرسخين في يوم السبت الرابع والعشرين من ذي الحجة عام ٩٠٨ وتوجه في اليوم التالي إلى لقاء العدو. إلا أن حرارة الطقس جعلته يرجىء الهجوم إلى يوم آخر.

وفي يوم الثلاثاء، الرابع والعشرين من ذي الحجة عام

٩٠٨هـ نظم الشاه اسماعيل صفوف قواته في قلب وجناحين وتحرك نحو العدو.

وكان الميرزا مراد معسكراً بقواته في سفح جبل، وقد رتب مدفعيته في صف مترابط ليتسنى لقواته القتال خلفها في حال اضطرارها للانسحاب.

وكانت قواته تناهز السبعين ألف مقاتل بينما بلغ عدد الصوفيون اثني عشر ألفاً وفي رواية ثلاثين ألفاً وبلغ عدد المدافع التي بعث بها السلطان العثماني إلى مراد ميرزا ثلاثمائة مدفع.

وبدأت المعركة بنزول الفرسان إلى الميدان قبل أن تباشر مدفعيتهم بإطلاق نيرانها، حتى إذا انطلقت المدفعية أخذت تحصدهم حصداً فدب الذعر والاضطراب في صفوفهم، فأخذوا يتقهقرون إلى مواقعهم وحاول الميرزا مراد وبعض رجاله السيطرة على الوضع، واستغل فوج من القزلباش الفوضى السائدة فهجموا على الوند ميرزا الذي فوجىء بالهجوم فانحاز إلى جانب من معسكره فحسب رؤساء القبائل والأمراء في جيشه حركته هذه فراراً، فلوى كل منهم عنان جواده وانطلق لا يلوي على شيء وشاهد قادة الجيش ذلك فتبعوهم هاربين، ووصل القزلباش مواقع المدفعية فاعملوا السيف برجالها.

وقد بلغت خسائر جيش مراد حسب كتاب «لب التواريخ» عشرة آلاف شخص، وغنمت قوات القزلباش في تلك المعركة كميات كبيرة من الأسلحة والخيول والأمتعة النفيسة، حيث كان العديد من زعماء ولايات عراق العجم وعراق العرب وفارس وكرمان وخوزستان مصطحبين معهم إلى أرض المعركة أسباب الترف والرفاه فتجمع منها الشيء الكثير ووقع غنيمة في أيدي القزلباش.

وانصرف الشاه اسماعيل بعد نصره المؤزر للصيد والترويح عن النفس، وبعد أسبوعين بلغه أن الميرزا مراد بعد هربه وهزيمته في أرض المعركة توجه إلى شيراز وأقام فيها، وباشر بحشد قبائل فارس وعشائرها واستنصر بعشائر عراق العرب، وبعث برسله إلى البلاطين العثماني والمصري وكذلك علاء الدولة ذو القدر حاكم ولاية ديار بكر يستمدهم العون والمدد.

وأيقن الشاه اسماعيل أن عدوه إذا ما تُرك استعاد قوته وقويت شوكته وأصبح التصدي له أمراً عسيراً. ومن ثم عزم على المسير إليه، فاجتاز مصايف همذان واتجه جنوباً، ولما بلغ قم بلغه خبر تمرد حاكم رستمدار الأمير حسين الجلاوي.

ورستمدار هذه هي الأرض الممتدة بين حدود دماوند وجبال (خوار) الشمالية والجنوبية، ومن قمم جبال ألبرز التي تنحدر نحو مازندران حتى سهولها وينتسب الأمير حسين الجلاوي إلى عائلة عريقة، فبادر إلى إعلان استقلال بلاده ولم يكتف بذلك بل طمع إلى إخضاع إيران جميعاً لسلطته، وذلك بعد تحريض الدولة العثمانية له ووعود أمراء دولة الآق قويونلو بنصرته.

وأمر الشاه اسماعيل الياس بيك أيقوت أوغلي وهو أحد قادته الأبطال بالتوجه إلى (ورّامين) على رأس قوة من أتباعه، للعسكرة فيها وحشد المتطوعين والسير بهم لقتال حسين الجمع قواته وأسرع بها نحو همذانجمع قواته وأسرع بها نحو همذان الجلاوي.

وأخذت تتوافد على الشاه اسماعيل في مقر إقامته في الوند ثم في قم رسل الحكام والزعماء محملين بالهدايا والرسائل التي تعرب عن الطاعة والبيعة له. ولم يتخلف أحد من حكام ولايات كرمان ويزد وأصفهان وكرمانشاه وكردستان عن مبايعته والدخول في طاعته.

وغادرت قوات القزلباش قم متوجهة إلى أصفهان ومن هناك إلى شيراز، وسلك طريق أيلغار مواصلاً سيره دون توقف حتى دخل شيراز فعلم أن الميرزا مراد هرب إلى شوشتر، ولم يجرؤ على الإقامة فيها فغادرها إلى بغداد.

وما أن علم زعماء فارس وأمراؤها بخبر وصول شاه إيران ولايتهم حتى أخذوا يتوافدون عليه مبايعين طائعين وأقبل أصحاب القلاع والحصون يحملون مفاتيح قلاعهم وحصونهم ويقدمونها إلى الشاه طائعين.

وأقام الشاه مدة في فارس سعى خلالها لإزالة أسباب الظلم والجور وسن قوانين جديدة كفيلة بحفظ الأمن والنظام ثم غادرها إلى كاشان، فاستقبله أهلها استقبالاً حافلاً.

وأثناء إقامة الشاه اسماعيل في كاشان حظ القاضي محمد برعايته وقربه، حيث أعجب الشاه بمنطقه وفصاحته وفضائله، فعينه في منصب الصدارة فكان شريكاً في هذا المنصب لمولانا شمس الدين الپيلاني.

ونشط القاضي محمد في مهمته فنظم خلال فترة قصيرة أمور القضاء والأوقاف وشؤون المدارس وجميع الأمور المتعلقة بالثقافة والعلم، فازدادت مكانته وعين نائباً للشاه.

وبعد فراغ الشاه من أيام الاحتفالات والأفراح في كاشان غادر إلى قم فأمضى الشتاء فيها.

القضاء على الرستمداريين

تشمل رستمدار أعلى قمم جبال ألبرز وأكثر القلاع والحصون استحكاماً، وحينما خرج الأميركيا حسين الجلاوي على طاعة الشاه اسماعيل، استحدث قلاعاً حصينة أخرى.

وشكل كيا حسين جيشاً مؤلفاً من اثني عشر ألف مقاتل. ونظمه نظاماً كاملاً وجهزه بمستلزمات الحرب وصرف له الرواتب

الشهرية، وإضافة إلى هذا الجيش كان هناك العديد من أبطال رستمدار ومازندران الذين التحقوا به، وكان هؤلاء لا يجارون في استخدام الأقواس ورمي الحراب.

وإضافة إلى هؤلاء جميعاً كان هناك أمراء وأعيان وأشراف القبيلة البايندرية الذين انضموا بقواتهم إليه بعد هزيمة الميرزا مراد، وكذلك كان الرافضون لحكم الشاه اسماعيل والأعيان ورجال الدين السنة يلتحقون به سراً في كل يوم.

وكانت الأوامر تقضي بتوقف الأمير الياس في حدود ورّامين ويرمسار والتصدي لقوات كيا حسين إذا ما زحفت عبر طريق نهر (جم آب) أو طريق نهر (هبله) وهو نهر يرمسار، ومراقبة تحركات العدو، وإذا بلغه المدد يبادر بالهجوم.

وبلغت كيا حسين أخبار توجه الشاه اسماعيل إلى شيراز وعلم أن الياس بيك يفتقر إلى القوات الكافية، فسلك بجيشه طريق (جم آب) متوجهاً إلى أيوانكر، فتراجع الياس بقواته عن حدود تلك المنطقة ودخل قلعة أيرج في ورّامين واعتصم بها، فحاصرها كيا حسين فترة وحاول دخولها دون جدوى فعمد إلى المكر والخديعة، فأرسل وفداً إلى إلياس ليصور له أنه عاجز عن الوقوف بوجه قوات الشاه الصفوي ومن ثم يلتمس منه التوسط بين الطرفين لإنهاء العداء بينهما.

وكان إلياس رجلاً بسيطاً رغم مكانته وشجاعته فانطلت عليه الحيلة وخرج من قلعته واختلط بالرستمداريين ثم جلس معهم على مائدة الطعام، وكان كيا حسين قد دبر أمراً لقتله ومن معه فخرج فجأة من الفسطاط وانقض جنوده بسيوفهم فقطعوا إلياس ومرافقيه إرباً وقتل العديد من جنوده وأسر آخرون.

وبلغت الشاه اسماعيل أنباء هذه الخيانة فاستشاط غضباً، وفي أواخر فصل الشتاء حين أخذت الجبال تتعرى من طبقات الثلوج غادرت قوات القزلباش مدينة قم في اليوم الثاني عشر من رمضان عام ٩٠٩هـ متوجهة إلى رستمدار، فهاجمت بادىء الأمر قلعة (پل خندان) الواقعة فوق جبل مرتفع ويحيط بها خندق عميق يشبه الوادي ويضاهي سورها الجبال بارتفاعه.

وأمر الشاه اسماعيل قواته بإحاطة القلعة، فأحيط بها كإحاطة الخاتم بالإصبع. وفي اليوم التالي أطلقت مشاعل النيران باتجاهها، إلا أن غزارة الأمطار حالت دون تأثيرها فباشر القزلباش بالهجوم عليها محاولين تسلق سورها وراح المدافعون يرشقونهم بسهامهم، فكانت الجماعات تسقط لتليها جماعات أخرى حتى نجحوا في اعتلاء السور، وأدلوا سلالمهم لرفاقهم وفتحت الأبواب فقتل العديد من المدافعين ثم صدرت الأوامر بإبادة من فيها، وكانت هذه الحادثة في الثاني من شهر شوال.

وبعد الفراغ من أمر (پل خندان) توجه القزلباش نحو (فيروز كوه) عاصمة رستمدار فمروا بقصبة دماوند واستشعروا الخلاف من أهلها حين امتنعوا عن بيعهم بعض المتاع فدخلوها وقتلوا بعض أهلها ونهبوا شيئاً قليلاً من متاعها.

وكانت قلعة (فيروز كوه) تتميز بكثير من الحصانة والمنعة بحيث يتبادر إلى الذهن أن فتحها ضرباً من المحال، فبالإضافة إلى موقعها ومنعتها وقوة المدافعين عنها وجلادتهم، كانت تتوفر فيها مقادير كبيرة من المؤن والذخيرة الحربية بما يكفي لفترة طويلة من الحصار دون أن تتأثر به أو تحتاج إلى مساعدة خارجية.

وحالما وصلت قوات القزلباش حدود قلعة فيروز كوه، أمرها الشاه اسماعيل بضرب ونفخ آلاف من الطبول والأبواق فحدثت ضجة عظيمة زعزعت معنويات القوات المدافعة وفي اليوم التالي أطلقت على القلعة من جوانبها الأربعة مشاعل النيران والسهام والصخور الثقيلة واستمرت المناوشات من الخامس عشر من شوال حتى أواخره، ثم أدرك حاكمها علي كيا عقم مقاومته فوضع السيف على عنقه وأقبل يلتمس عفو الشاه وصفحه فعفا عنه، ثم أمر بقتل القوات المدافعة لا سيما أفراد الآق قويونلو ورعاية سائر الأهالي. ومعاملتهم بالحسنى.

وتحرك الشاه اسماعيل على رأس قواته بعد فراغه من احتلال فيروز كوه عبر نهر (هبله) متوجهاً نحو قلعة (استا) التي كانت بمثابة الملجأ الأخير لكيا حسين الثلاوي، وعزم الأخير على التصدي للزاحفين بجيشه المؤلف من اثني عشر ألف مقاتل الذي جهزه بأفضل الأسلحة وأنفق عليه أموالاً طائلة.

وغادر كيا حسين قلعته سالكاً طريق (پرما به سر) و(قلعة كريينه) للالتفاف حول جناح القزلباش الأيمن ومهاجمته ليلاً. وكان الشاه اسماعيل في غاية الحذر ويتوقع هجوماً على جناحه الأيمن فجهزه بخيرة قواته وقادته.

والتقى كيا حسين بالقزلباش فالفاهم على أهبة الاستعداد وبادروه بالهجوم ودارت المعركة بين الطرفين فأدرك كيا حسين عدم جدوى المقاومة وأسرع بقواته نحو قلعة (استا) للاعتصام فيها.

وفي اليوم التالي بلغت قوات القزلباش حدود القلعة فارتقى الشاه اسماعيل تلاً مشرفاً على سور القلعة فتفحص السور ولاحظ مناعته وصعوبة إحداث ثغرات فيه بوسائل دك القلاع.

ومن جانب آخر لاحظ أن نهر (هبله) يحيط بالقلعة كالخندق ثم علم بعد التحقيق أن أهلها يعتمدون على هذا النهر في تأمين مياه الشرب فقرر قطعه عنهم وأمر حسين بيكّ وجماعة كبيرة من قوات القزلباش بتنفيذ هذه المهمة فنفذت في وقت قصير بحفر مسلك جديد للنهر وطمر المسلك الأول، فأصيب سكان القلعة بالعطش وضجوا منه، ورأى كيا حسين عقم مقاومته فاصطحب معرضه ورفيقه الأول مراد بيك شاملو قسراً وخرج من القلعة إلى معسكر القزلباش.

وانتهى حصار قلعة (أستا) الذي استغرق ثلاثة وثلاثين يوماً وقتل جميع سكانها الذين كانوا في أغلبهم من الجند باستثناء أهل العلم

وأصحاب الفضل والأدب وأخذ مراد بيك شاملو الذي كان مصدر الفتنة والفساد فقطع إرباً وحبس كيا حسين في قفص من حديد، ولكنه غافل حراسه في حدود ورامين فجرح نفسه ولم يمض عليه يومان أو ثلاثة حتى هلك.

والعجيب أن كيا حسين مات في نفس المكان الذي قتل فيه الياس بيك غدراً. ولم تخرج جثته من القفص، حتى أحرقت في أصفهان أمام السفير العثماني.

وفي أثناء إقامة الشاه اسماعيل في حدود قلعة(أستا) قدم إليه كاركيا ميرزا حسن من پيلان بأنواع التحف والهدايا فغمره الملك بعطفه ورحب به ترحيباً حاراً لما لمسه فيه وفي أخيه وعائلته من المحبة والوداد أثناء هجرته إلى لاهيجان.

وقدم على الشاه اسماعيل عدد من الأمراء اليورپانيين لمبايعته والدخول في طاعته فرحب بهم وكرمهم وخلع عليهم وتوجهم بتيجان القزلباش ثم أذن لهم بالانصراف إلى ديارهم.

حوادث متفرقة

من الأحداث الجديرة بالذكر التي حصلت في عام ٩١١هـ، معاقبة أعداء الأسرة الصفوية والمقصود بهؤلاء الأعداء هم الأشخاص الذين اشتركوا في قتال السلطان حيدر الصفوي.

فبعد مراسيم العزاء التي أقامها الصفويون بمناسبة ذكرى استشهاد السلطان حيدر، وبعد فراغهم من حلقات الذكر توجهوا بالدعاء سائلين الله أن ينتقم لهم من قتلة السلطان حيدر، وكان لهذا الدعاء وقعاً مؤثراً على الشاه اسماعيل فعزم على التحقيق في الأمر وأخذ الثأر لأبيه. ومن ثم أناط هذه المهمة بإبدال بيك دده.

وبذل إبدال بيك جهوداً كبيرة في معرفة المشتركين في قتل السلطان حيدر فتعرف على العديد منهم ونالوا عقابهم، وكان لذلك دور في إخافة أعداء المذهب الشيعي فبادروا إلى الالتحاق بصفوف القزلباش والانضمام إلى حلقات ذكرهم وارتدوا القبعات الإيرانية الموحدة وتظاهروا بولاء آل بيت الرسول (ص).

ومن الأحداث المهمة الأخرى التي حدثت في هذه السنة؛ وقوع الاضطرابات في لاهيجان، ومقتل حاكمها كاركيا سلطان حسن، وكان ابنه السلطان أحمد موجوداً آنذاك في معسكر الشاه اسماعيل، فاستدعاه وشمله بعطفه ورعايته ثم عينه حاكماً على پيلان وبعث به إليها في فوج من القزلباش فدخلها وقتل عدداً من الأمراء الذين شاركوا في قتل أبيه، واستمرت فترة حكمه عشرين سنة.

وفي شتاء هذه السنة حصلت حادثة مهمة أخرى، حيث توفي آخر ملوك اليورپانية الأقوياء في خراسان السلطان حسين ميرزا بايقرا في السادس عشر من ذي الحجة من عام ٩١١هـ. فخلفه ابناه بديع الزمان ميرزا ومظفر حسين ميرزا ولكنهما تعرضا لهجوم الأوزبك وأحدث الهجوم دماراً واسعاً في خراسان.

وتوجه الشاه اسماعيل إلى (قزل أوزن) فأبلغ هناك أن شخصاً يدعى صارم كرد قد جمع حوله عدداً من الأوباش وقطاع الطرق الأكراد واتخذ له مقراً بالقرب من پروس وعمد إلى أخذ الخراج من التجار والمزارعين وعرض القوافل للسلب والنهب.

وعزم الشاه على أخذه على حين غرة، فانقض على موقعه إلا أن الأكراد كانوا قد تركوا مواقعهم قبل وصول جيش الصوفيين ولاذوا بالفرار، فوقعت جميع أملاكهم في أيدي القزلباش وتعقبوا بعضهم فأهلكوهم.

وفي ربيع عام ٩١٢هـ خرج (صارم كرد) مرة أخرى وجمع أوباش الأكراد وأشرارهم وعاث في (أرومية) فساداً؛ فأمر الشاه اسماعيل بيرام خان قرامانلو وخادم بيك خليفة بالتوجه إليه وتأديبه.

ودارت بين الطرفين معركة ضارية راح ضحيتها من القزلباش اثنان من كبار قادتهم هما عبدي بيك شاملو وصارو علي تكه لو وانتهت بانتصار القزلباش وفرار صارم، وأسر ابنه وإخوانه وعدد من قادة جيشه ومقتل العديد من أتباعه، وعُرضت قبيلته للنهب.

وعاد بيرام بيك وخادم بيك إلى المعسكر ورووا للشاه الأعمال الشنيعة التي ارتكبها الأكراد فثار غضبه وأمر بقتل جميع الأسرى.

الحرب مع علاء الدولة ذو القدر

وفي ربيع عام ٩١٢هـ عزم الشاه اسماعيل على قطع دابر فتنة الآق قويونلو، فقد سمع أن الميرزا مراد توجه إلى ديار بكر بعد فراره إلى بغداد فلجأ إلى علاء الدولة ذو القدر وتزوج بابنته، وباشر الاثنان بتجهيز جيش كبير، وأخذ هذا الجيش - كما هي عادة التركمان - يعتدي على أموال الناس وأعراضهم، حتى لم يعد أحد من أهالي ديار بكر يأمن شرهم على عرضه وماله.

وأخذت رسائل الشكوى تصل الشاه اسماعيل تترى، لا سيما رسائل الشيعة الذين كانوا آنذاك يشكلون نسبة كبيرة من أهالي ديار بكر. فقرر الملك السير لفتح ديار بكر وإنقاذ أهلها من محنتهم، وأمر باستدعاء القوات من ولايات فارس وكرمان والعراق وآذربايجان وأران وكردستان ولرستان.

واجتمعت القوات حول قائدها، فتوجه بها إلى أرزنجان.

وبلغت علاء الدولة أخبار تحرك الجيش الصفوي فأوكل مهمة حراسة قلاعه الحصينة إلى كبار قادته ثم توجه إلى ولاية بستان ليكون في منأى عن قبضة الشاه اسماعيل.

وسمع الشاه بفرار علاء الدولة فغادر أرزنجان لتعقب آثاره، واجتاز بعض الأراضي العثمانية لاختصار المسافة وعامل أهلها

بالحسنى حتى بلغ ضفاف نهر يمر بالقرب من بستان فعسكر هناك.

وكان علاء الدولة قد أدرك خطورة وضعه فقسم عائلته وذويه إلى مجموعتين، وبعث بإحداهما إلى الشام التي كانت آنذاك تابعة لحكومة سلطان مصر وبعث بالأخرى إلى الأراضي العثمانية، ثم توجه بعدد من أبطال ذو القدر إلى جبل درنا وهو من أعلى الجبال في تلك المنطقة فاعتصم به.

واجتمع زعماء قبيلة ذو القدر فقرروا التصدي لشاه إيران، وعسكروا بقواتهم بإزاء قوات القزلباش في اليوم الثالث من نزول القوات الأخيرة على ضفاف نهر بستان.

ودارت معركة ضارية بين الطرفين، استمرت حتى حلول الليل، وعاود الجيشان الكرة في اليوم التالي دون أن يحرز أحدهما نصراً على خصمه، حتى كان اليوم الثالث فلم يكد ينتصف النهار حتى أخذ جنود ذو القدر يولون الأدبار. وتعقبهم القزلباش فأعملوا فيهم السيف.

ودخل الجيش الفاتح ديار أعدائه، فطفقوا يقتلون ويدمرون ويحرقون، حتى دب الذعر في نفوس الناس من سكان الولايات المجاورة فأعلنوا دخولهم في طاعة ملك إيران.

وتوجهت قوات القزلباش بعد ذلك إلى مدينة خربوت الحصينة التي كانت مركزاً لتجمع قبيلة ذو القدر، فضرب عليها حصاراً شديداً ووقعت مناوشات بين الجانبين ثم أفلح القزلباش في إحداث ثغرة في حصن المدينة فاقتحموها وأعطى الشاه اسماعيل الأمان لأهلها فخرجوا من مدينتهم أفواجاً وسلموا على الشاه ودخلوا في طاعته.

وبلغ خبر مدينة خربوت الولايات المجاورة فبادر جميع حكام ولايات ديار بكر إلى إرسال مفاتيح مدنهم وقلاعهم مرفقينها بالهدايا والتحف إلى الشاه اسماعيل، فشملهم بعطفه وإحسانه وأجزل لهم العطاء ثم عين خان محمد استاجلو وهو أحد كبار قادته حاكماً على ديار بكر، وغادر المنطقة بعد ذلك متوجهاً إلى ولاية أخلاط، فأقبل عليه في أثناء الطريق شرف الدين بيك وهو أحد أكبر حكام كردستان ومركزه مدينة بتليس محملاً بأصناف التحف والهدايا، فرحب الملك بقدومه وقربه من مجلسه.

وتوجه محمد بيك استاجلو ببضعة آلاف من قواته إلى مدينة حميد فغلّق حاكمها قاشميش بيك أبوابها دونه واضطر محمد خان للعسكرة في الصحراء فواجه لعدة أيام ظروفاً قاسية لشحة المؤن والعلف، ومع هذه الظروف كانت قبائل الأكراد تهاجم عسكره.

ولم ير محمد خان بدأً من مهاجمة الأكراد فدارت معركة ضارية بين الجانبين قتل فيها سبعة آلاف من الأكراد، وكان النصر حليف محمد خان فغنم منهم ذخيرة كثيرة ومؤونة كافية لأفراد جيشه.

وأعاد محمد خان الكرة على مدينة حميد، فبعث حاكمها أحد خواصه إلى علاء الدولة ذو القدر يستمده العون والمدد ويتعهد له بتسليمه المدينة، فراقت الفكرة علاء الدولة، وطمح إلى السيطرة على مدينة حميد رغم انهزامه بوجه قوات القزلباش.

وكان الطقس شديد البرودة، فبعث ابنه قاسم بيك المعروف بسارو قيلان وابنه الآخر أردوان بيك في جيش مؤلف من عشرة آلاف مقاتل.

ولم يكن محمد خان استاجلو يمتلك عدداً كافياً من القوات للتصدي للزاحفين فوقف بقبيلة استاجلو ودارت معركة قاسية بين المتحاربين وقع فيها الكثير من الضحايا، ثم وقع سارو قيلان المعروف بشجاعته وبسالته وأخوه أردوان بيك في أسر قوات القزلباش، فاضطربت صفوف قواتهما وأخذت بالتقهقر رغم كثرة عددها، وأخذ القزلباش يتعقبونها ويقتلون العديد من أفرادها، ثم أمر استاجلو بقتل الأميرين.

وعاود محمد خان استاجلو هجومه على مدينة حميد مرة أخرى، وتحصن بها حاكمها قاشميش بيك واستعد للدفاع، ولكن أهلها رفضوا الانصياع له ففتحوا الأبواب بوجه قوات القزلباش، فألقي القبض على قاشميش بيك موصلو وقتل، وخلا الجو في ديار بكر لمحمد استاجلو وقويت شوكته وازدادت هيبته.

وبلغت علاء الدولة أخبار مقتل ابنيه وهزيمة جنده فثارت ثائرته، وباشر بحشد قوات ذو القدر مرة أخرى فجمع منها خمسة عشر ألف مقاتل وسيرهم تحت قيادة ابنيه كور شاهرخ وأحمد بيك للانتقام من عدوه وأخذ الثأر لابنيه القتيلين.

واستعد محمد خان للقاء عدوه في ثلاثة آلاف مقاتل من القزلباش، ودارت معركة بين الطرفين تطايرت فيها الرؤوس وسالت الدماء كالأنهار، وأخذ محمد خان يشن حملاته المتكررة على قلب جيش العدو حتى اخترقه ووصل إلى مقر كور شاهرخ وأحمد بيك فقتلهما وقتل العديد من أصحابهما، وعندما رأت القوات تشتت قلبها ومقتل قائديها، أخذت تفر على وجهها وتعقب القزلباش الهاربين فأهلكوا منهم خلقاً كثيراً.

وبعث محمد استاجلو رؤوس القتلى إلى المرشد الكامل الشاه اسماعيل الصفوي.

وبعد إلحاق الهزائم المتوالية بعلاء الدولة وقتل أبنائه وذويه، وهنت شوكته وقلّ خطره في أعين أعدائه، فاغتنم السلطان الفرصة وكان بينهما عداء قديم فهاجمه وقتله، فانتهت سلالته بموته وافترقت قبيلة ذو القدر فرقتين، التحقت واحدة بالسلطان العثماني وانضمت الأخرى إلى أنصار الشاه إسماعيل حيث ارتدوا قبعات القزلباش ودخلوا في

سلك مريدي الصوفية.

وقد ذكر المؤرخون أن قبيلة ذو القدر كانت تتألف من ثمانين ألف عائلة، وكان علاء الدولة آخر ملوكهم وقد تميز بسياسته وحسن تدبيره حين احتفظ بملكه في جوار دولتين قويتين هما الدولة العثمانية والدولة المصرية.

ويذكر اسكندر بيك في كتابه (تاريخ عالم آرا) بأنه كان إذا قدم إليه السفراء العثمانيون يلبس بعض أتباعه الزي المصري، ثم يقول للسفراء بأنهم رسل الدولة المصرية إليه وقد قدموا لتحريضه على الدولة العثمانية ولكنه رفض دعوتهم وتحريضهم لاحترامه للعلاقات الودية مع الدولة العثمانية، وكان يفعل العكس إذا قدم إليه سفراء الدولة المصرية.

وبعد مقتل علاء الدولة لجأ الميرزا مراد آق قويونلو إلى السلطان العثماني سليم، وحين عزم الأخير على دخول الحرب مع إيران لم ير مراد صلاحاً في مرافقته ففضل الانفصال عنه وقدم إلى ديار بكر فجمع أتباعه فيها وسار بهم لاحتلال مدينة أورفا.

وكانت مدينة أورفا آنذاك بيد قوات القزلباش وحاكمها من قبل الشاه اسماعيل هو آجه سلطان قاجار. وخرج آجه سلطان من حصنه لقتال عدوه في ثمانمائة مقاتل من القزلباش، وكان عدد قوات العدو ثمانية آلاف مقاتل، فاشتبك الطرفان وقتل الميرزا مراد وتفرق جيشه وانقرضت بمقتله سلالة الآق قويونلو.

فتح بغداد

في خريف عام ٩١٤هـ عزم الشاه اسماعيل ـ وكان في همذان آنذاك ـ على فتح العراق واحتلال بغداد.

فعندما هرب الميرزا مراد من شيراز إلى بغداد ثم توجه إلى ديار بكر وتخلف عنه في بغداد أحد كبار أمرائه، ويدعى باريك بيك. واستطاع هذا بحسن تدبيره وسياسته وبالاستعانة بالقوات التي خلفها الميرزا مراد أن يخضع لسلطته منطقة شاسعة امتدت من حدود ديار بكر حتى شط العرب.

وكان الشاه اسماعيل آنذاك يفكر في توسيع إيران، فرأى أن يبدأ باحتلال العراق وانتزاع آخر ولاية بقيت تحت سيطرة التركمان الآق قويونلو، قبل أن يتوجه إلى خراسان.

وفي أول خطوة على هذا السبيل بعث إلى بغداد بأحد خواصه ويدعى خليل بيك يساول وهو رجل محيط بدقائق الأمور واقف على القضايا الإدارية والعسكرية، وكانت مهمته إقناع باريك بيك بالدخول في طاعة الشاه اسماعيل وتحذيره من مغبة التمرد والعصيان.

وتوجه خليل بيك إلى بغداد محملاً بخلع فاخرة وتاج ثمين، وبلغ خبر مقدمه باريك بيك فبعث جماعة من أصحابه المقربين لاستقباله بالقرب من خانقين على مسافة ثلاثة أيام من بغداد، فاستُقبل موكب السفير بحفاوة واحترام، وأدخل بغداد فأسكن في بستان الميرزا پير بداغ وهو من الآثار الجميلة التي خلفها التيموريون في بغداد.

وأبدى باريك بيك طاعته وخضوعه للشاه وارتدى التاج والخلع الملكية وتوج أكثر الناس بالتيجان القزلباشية ثم أعد هدايا ثمينة وبعث بها إلى البلاط الصفوي مع خليل بيك وأرسل معه أحد أمرائه واسمه بو إسحاق شيره جي سفيراً له في البلاط الصفوي.

والتقى خليل يساول وبو إسحاق بالشاه اسماعيل في همذان وقدما الهدايا إليه، فلم يلتفت الشاه إليها ولكنه عامل السفير بو إسحاق بالحسنى وشمله بعطفه.

لم يكن الشاه اسماعيل من الأشخاص الذين ترضيهم المجاملات وتخدعهم المداهنات فقال للسفير بو إسحاق: قل لباريك إذا كان تابعاً لدولتنا فليقدم علينا، ولينتظر أمرنا وإلا فسينال جزاءه.

ونقل بو إسحاق إلى باريك ما شاهده وما سمعه، فعزم الأخير على المقاومة، ثم أعلن خلافه بعد أن سمع بقدوم قوات القزلباش، وخلع تاج القزلباش عن رأسه وأخذ يجمع الغلال من أطراف بغداد إليها فجمع فيها ما يكفي لثلاث سنين. ثم باشر بتحصين بغداد وتجهيزها بما يلزم للمقاومة.

وكان في العراق سيد جليل ذو نسب رفيع اسمه السيد محمد كمونة ورث النقابة والوجاهة في النجف أباً عن جد، ولم ترض السيد تصرفات باريك فلامه عليها، فأمر باعتقاله وحبسه في قعر بئر عميق مظلم.

وانتدب الشاه اسماعيل حسين بيك لتقدم القوات في فوج من القزلباش، وكان هذا رجلاً مدبراً فتوجه نحو كرمانشاه ومنها إلى خانقين وكان شديد البطء في حركته، وغايته من ذلك وصول الأنباء التي كانت تُحمل تباعاً إلى داخل العراق لسكان المدن العراقية الناقمين على حكم الأتراك ليقوموا بمواجهتهم وليزداد اضطراب باريك بيك وارتباكه.

وقد أفلح حسين بيك فيما ذهب إليه، فما كاد يقترب من بغداد بمسافة منزلين حتى أحسَّ باريك بيك أن أكثر أعيانه وأمرائه يبطنون الولاء لملك إيران وحذره أصحابه المقربون من احتمال خروج حراسه عليه وتسليمهم إياه إلى قوات العدو. فأخذ الرعب من قلبه مأخذه وعزم على الفرار من المدينة، فركب زورقاً بخاصته تحت جنح الظلام وتوجه إلى حلب.

وكان باريك بيك قد كتب إلى الميرزا مراد وعلاء الدولة يستمدهما العون والمدد، وعندما هرب إلى حلب التقى فيها الميرزا مراد، فتوجها خائبين يائسين إلى دولة علاء الدولة فالتحقا فيها بقبيلة ذو القدر.

وفي بغداد عندما عرف أهاليها وأعيانها بفرار الوالي بادروا إلى إخراج السيد محمد كمونه من البئر وكان حينها في منتهى الضعف والوهن فنصبوه والياً على بغداد.

وفي يوم الجمعة خطب السيد كمونة وصلى ثم توجه بأكثر أهل بغداد لاستقبال بيك الذي بلغ حينئذٍ مشارف بغداد، فرحب به الأخير وعامله بإجلال وإكرام ثم بعث إلى الشاه اسماعيل بالخبر، فحمد الله وأثنى عليه، وعين خادم بيك ـ الذي كان يلقب حينئذ بلقب خليفة الخلفاء ـ حاكماً على ولاية العراق.

وكان خليفة الخلفاء خادم بيك أحد الأمراء العادلين والصوفيين الزاهدين، فكان تعيينه في هذا المنصب مناسباً كل المناسبة.

وواصل الموكب الملكي حركته صوب بغداد وحين اقترب منها أسرع لاستقباله السيد محمد كمونه وخادم بيك وعدد من أشراف العراق وأعيانه، وخرج أهالي بغداد عن بكرة أبيهم لمشاهدة الموكب الملكي، وكان هؤلاء يصطحبون معهم آلاف الأبقار فما كاد موكب الشاه اسماعيل يطل عليهم حتى ذبحوا أبقارهم.

وقدم الشاه فتأثر بسلوك أهالي بغداد وابتهاجهم فشملهم بعطفه ووزع أموالاً طائلة من الذهب والفضة على المحتاجين والفقراء من أهالي بغداد، ثم نزل في بستان پير بوداغ في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من عام ٩١٤هـ، واهتم بالسيد كمونه فكرمه وقربه إليه وأمر بنقر الطبول عند داره يومياً، في الوقت الذي كان فيه نقر الطبول خاصاً بالملوك والحكام.

وأمضى الملك يومه الأول في بغداد محتفلاً بالفتح المظفر، وفي اليوم التالي شد الرحال إلى العتبات المقدسة في كربلاء، فدخل روضة سيد الشهداء (ع) واشتغل بالدعاء والمناجاة ثم أنعم على الساكنين بجوار الروضة الحسينية بأنواع العطايا والهدايا، وخص القبر الشريف بالتحف الثمينة وأمر بإكسائه بطلاء من الذهب وتعليق اثني عشر قنديل من الذهب فوقه وفرش الحرم الشريف بسجاد من الحرير.

وكان الشاه يشارك بنفسه في القيام بهذه الأعمال مثله في ذلك مثل الخدم والبوابين.

وفي الليلة الأخيرة من إقامته في كربلاء اعتكف في الحرم حتى الصباح مشتغلاً بالعبادة والدعاء ثم ارتحل إلى النجف عن طريق الحلة فلما لاحت لناظريه مشارف النجف الأشرف ترجل مسرعاً إلى المرقد المقدس وتشرف بزيارته والدعاء تحت قبته، ثم التفت إلى الخدم والسدنة فكرمهم وأجزل العطاء لهم، وأنعم بالعطاء على جميع سكان مدينة النجف واعتكف ليلة في الحرم الشريف ثم عاد إلى الحلة فاشتكى إليه بعض أهلها من إزعاج بعض قبائل أعراب البادية لهم ولقوافلهم. فهجم عليهم ذات يوم وقتل جماعة منهم وصادر أموالهم فقسمها على جنده، ثم توجه إلى بغداد ومنها إلى سامراء والكاظمية وأجزل العطاء لسكان هاتين المدينتين.

ثم أمر خليفة الخلفاء خادم بيك بشق نهر من الفرات إلى النجف الأشرف، والقيام بإعمار المدن المقدسة. وعين السيد محمد كمونه سادنا لحرم أمير المؤمنين في النجف ونصبه حاكماً على بعض مدن العراق. ثم توجه إلى ولاية خوزستان.

فتح الحويزة: كانت بعض القبائل العربية تعيش في الحويزة التي تقع بين خوزستان والعراق، وكان حكام هذه القبائل هم سلالة آل المشعشع.

وكانت هذه القبائل على شيء من الغلو العقائدي، فاستحدثت طقوس عبادية خاصة بها.

وفي الوقت الذي أخذ فيه كوكب الشاه اسماعيل يظهر إلى الوجود، كان السلطان محسن حاكماً على الحويزة، وحينما فرغ الشاه اسماعيل من فتح بغداد بلغه أن السلطان محسن مات وخلفه ابنه السلطان فياض وأن المشعشعين ارتدوا عن ديانتهم السابقة، فصاروا يرون في السلطان فياض إلهاً لهم.

ومن جانب آخر عادت رسل الشاه إلى حاكم الحويزة خالية الوفاض، حيث رفض الأخير الدخول في طاعة الشاه اسماعيل والانضمام إلى الدولة الإيرانية، ولم يكن الشاه يرضى ببقاء دولة مستقلة داخل الأراضي الإيرانية ومن ثم توجه إلى الحويزة لتأديب حاكمها.

وفي نفس الوقت بلغ الشاه أن السلطان العثماني يراسل حاكم لرستان الملك رستم وأن رستم أظهر له المودة، فأمر الشاه اسماعيل الأمير نجم الدين مسعود بالسير إلى لرستان برفقة بيرام بيك وحسين بيك على رأس قوة مؤلفة من عشرة آلاف فارس لتأديب الملك رستم وتوجه هو إلى آل المشعشع.

وسمع السلطان فياض باقتراب قوات القزلباش من حدود ولايته فخرج لها بجيش من قبائل العرب وكان بينهم العديد من الماهرين في استخدام الأقواس والبارعين في القتال بالسيوف والرماح.

واشتبك الجانبان فدارت بينهما معركة ضارية، لم يستطع أي من الطرفين إحراز نصر فيها، حتى إذا حان العصر شن القزلباش حملة مركزة قتلوا فيها السلطان فياض والعديد من أمراء المشعشعين، فتشتتت صفوفهم وغنم القزلباش منهم أمولاً وأشياء كثيرة.

وبعد إحرازه لهذا الانتصار عين الشاه أحد أمراء القزلباش حاكماً على الحويزة، ثم توجه إلى دزفول فأسرع حاكمها إليه بمفاتيح القلعة، فشمله الشاه بعنايته ثم توجه إلى شوشتر وكان حاكمها يعتزم المقاومة، فأقام في قلعة السلاسل وهي قلعة حصينة ولكنه ما إن رأى جحافل القزلباش تزحف نحو قلعته حتى أدرك عظم الخطر المحدق به، فبادر إلى حمل الهدايا والتحف المناسبة لمعسكر القزلباش فقدمها مرفقة بمفاتيح شوشتر.

وفي الوقت الذي كانت قوات القزلباش تعسكر بالقرب من شوشتر، أمر الشاه اسماعيل باستدعاء الأمير نجم الدين وإناطة أمر لرستان بلله بيك وبيرام بيك. فشدد هذان الأميران من ضغوطهما على حاكم لرستان الملك رستم فهرب من مركزه إلى رؤوس الجبال الشاهقة فاعتصم بها، واستولى أميرا القزلباش على جميع أملاكه، فلم ير بداً من استدرار عطف الشاه اسماعيل والإقلاع عن التمرد والعصيان، فبعث إلى الأميرين بممثلين عنه لأخذ عهد منهما بعدم إلحاق الأذى به في حال استسلامه وحمله إلى معسكر الشاه معززاً مكرماً.

وكان الملك رستم شيعياً منذ زمن طويل والمشهور عن عائلته أنها ترجع في نسبها إلى العباس بن علي أبي طالب (ع). فقبل بيك وبيرام بيك طلبه وحملاه معززاً إلى معسكر الملك. وما إن وصل إلى حضرته حتى أخذ ينشد أشعاراً باللغة اللرية العذبة، فنال استحسان الشاه واستدر عطفه، فأمر بتزيين لحيته بأنواع الجواهر واللآلىء والياقوت والألماس وتزيين وجهه بما كان يفعله ملوك إيران القدماء.

ومكث الملك رستم على تلك الحال في معسكر القزلباش يشتغل في الخدمات الخاصة للشاه حتى أصبح من أصحابه المقربين، ثم أنعم عليه فأعاده حاكماً على لرستان.

وعائلة الملك رستم المسماة بالعائلة العباسية هي إحدى العوائل المعروفة في إيران، وقد حكمت لرستان منذ زمن الدولة العباسية فاحتلت موقعاً سامياً في نفوس جميع القبائل اللرية حتى تحولت إلى مريدين لهذه العائلة. وعلى الرغم من اتباع هذه العائلة للمذهب الشيعي، مثل سائر القبائل اللرية فإنها كانت ترتبط بالدولة العثمانية بروابط ودية، وكانت ترى في هذه الازدواجية نوعاً من حسن التدبير والسياسة.

نفوذ البرتغاليين في الخليج

في الوقت الذي انتظمت فيه أمور خوزستان واستقرت الأوضاع في لرستان بلغت الشاه الصفوي أنباء تفيد بأن بعض الإفرنج البرتغاليين قد دخلوا حدود الخليج الفارسي بسفنهم وعقدوا اتفاقاً مع حاكم (هرمز) وأخضعوا (لار) وجزيرة هرمز لنفوذهم.

ولم يكن الشاه اسماعيل قادراً آنذاك على السيطرة على الأوضاع في ساحل البحر، حيث كانت أجزاء كبيرة من إيران وهي المحافظات الشرقية لا تزال عرضة لهجمات الأوزبك المتكررة، وإضافة إلى ذلك كانت الدولة الصفوية لا تزال فتية، لا تجد فرصة سانحة لتشكيل قوات بحرية ومن ثم رأى أهل الحل والعقد في الدولة الصفوية أن المصلحة تقتضي عدم الاعتراض على معاهدة ملك هرمز مع البرتغاليين والاكتفاء بمطالبة ملوك هرمز وسواحل لار بالضرائب والخراج السنوي، وسلوك المداهنة والمداراة مع الجميع في هذه المناطق.

وهكذا غادر الشاه اسماعيل خوزستان وتوجه إلى فارس ونشط هناك للصيد في قصبة (داراب). وكان قد بعث أحد أمرائه ويدعى أخي بيك إلى هرمز ولار قبل مغادرته لشوشتر لزيارة ملك هرمز والأمير علاء الملك الحاكم العام لهرمز ولارستان ولمطالبتهما بالخضوع والانقياد لسلطان ملك إيران. وعاد السفير من زيارته في الوقت الذي كان الشاه اسماعيل لا يزال مشتغلاً بالصيد والترويح عن النفس، فقدم إليه أنواع الهدايا الثمينة ومبالغ طائلة من الضرائب والخراج حملها معه من هرمز ولار.

وكانت أحداث هرمز والتطورات السياسية فيها تحظى آنذاك بأهمية قصوى فقد كانت المرة الأولى التي تتصادم فيها مصالح دولة أوروبية مستعمرة مع مصالح الأمبراطورية الإيرانية.

وقد بدأت هذه التطورات منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي حين أخذت أسعار التوابل التي كانت تحمل إلى أوروبا من جزر المحيط الهندي تتصاعد بصورة مستمرة فبدأت أكثر الدول الأوروبية تسعى لاكتشاف الطرق التي يمكن بها الحصول على التوابل بأسعار منخفضة لتباع في أوربا بأسعار مرتفعة.

وكان ملك البرتغال دومزوا الثاني أحد الناشطين لهذا السعي، حيث أرسل العديد من بعثات الاستكشاف التي كان هدفها الرئيس البحث عن البلدان التي تتواجد فيها التوابل.

وبمناسبة ذكر التوابل وندرة الحصول عليها وارتفاع أسعارها في أوروبا، تجدر الإشارة إلى أن تجارة الشرق مع أوروبا كانت قبل القرن الخامس عشر بيد أهالي ولاية جنوى وهي ميناء يقع في غرب إيطاليا على سواحل البحر المتوسط ثم أخذت جمهورية البندقية (وهي في الوقت الحاضر ميناء إيطالي أيضاً، كانت مستقلة في تلك العصور) زمام التجارة بيدها، فأصبحت لها تجارة واسعة مع الشرق، ولكنها فقدت قاعدتها الأساسية للتجارة مع الشرق باحتلال الأتراك العثمانيين لمدينة القسطنطينية وبدأت كبرى الطرق المؤدية إلى الهند تنقطع تباعاً وأصبح الوصول إلى الهند عن طريق البر أمراً متعذراً حتى بالنسبة للعثمانيين، حيث كانوا في أغلب الأوقات في صراع وخلاف مع إيران. ولم يبق سوى البحر الأحمر

طريقاً إلى المحيط الهندي، ولكن حتى هذا الطريق لم يكن خالياً من الصعوبات، إذ كان سلاطين مصر يخضعونه لإشرافهم ومراقبتهم. وما زال على هذه الحال حتى استولى السلطان سليم العثماني على دولة مصر.

وإضافة إلى ذلك كان البابا يلعن التجار الذين يسلكون في تجارتهم طريق البحر الأحمر، حيث كان البابا لا يرغب أن تمر تجارة الشرق مع الغرب عبر المسلمين.

وحين اكتشف البرتغاليون رأس الرجاء الصالح، واستطاعوا الانتقال من المحيط الأطلسي والالتفاف حول أفريقيا للوصول إلى المحيط الهندي، حينذاك ازداد ملك البرتغال عزماً على الوصول إلى بلدان التوابل والسيطرة عليها.

ومن بين عدة بعثات توجهت إلى الشرق استطاعت واحدة الوصول إلى ساحل كلكتا وساحل بوا، فأقامت هناك مركزاً تجارياً وبنت قلعة عسكرية ومن ثم أخذت توجد السبل الكفيلة بإقامة إمبراطورية واسعة للبرتغال في شرق الكرة الأرضية.

وفي عام ١٥٠٦م عزم أحد رؤساء البعثات البرتغالية ويدعى (البوكرك) على إخضاع الخليج الفارسي للسيطرة البرتغالية حيث كان هذا الخليج آنذاك أهم مركز للتجارة بين الشرق والغرب وكانت جزيرة هرمز أهم مركز تجاري فيه.

وثمة عادة ظلت قائمة في هذه المناطق منذ عهد الساسانيين وهي تسمية حكام الموانىء التجارية بملوك الموانىء، وفي الوقت الذي نتحدث عنه كان حاكم هرمز حاكماً على جميع مناطق الخليج الفارسي وهو تابع بدوره من الناحية السياسية لحاكم (لار) ويتبع هذا بدوره أيضاً لحاكم فارس، وكانت حكومة لار آنذاك منحصرة في إحدى العوائل الإيرانية العريقة وكذلك كان الحكم في هرمز.

بلغ (البوكرك) مدينة مسقط بعد التفافه حول شبه الجزيرة العربية، وكانت مسقط آنذاك تابعة لملك هرمز فاشتبك أهلها مع قوات البوكرك في حرب لم تستمر طويلاً ثم استسلموا وقبلوا بدفع الخراج والضرائب لحكومة البرتغال بعد أن كانوا يدفعونها لملك هرمز.

وكان البوكرك قبل وصوله مسقط قد توقف في (رأس الحد) وهي أول الأراضي الإيرانية وأضرم النار في أربعين سفينة صيد كانت موجودة هناك وأسر أهلها ثم أغار على ميناء كوريات الصغير وارتكب المجازر فيه، وبعد ذلك قدم إلى مسقط وأرغم أهلها على القبول بدفع غرامة من الذهب إلا أنهم تأخروا في الدفع فكان الجزاء إحراق المدينة بمسجدها ثم أحرق السفن الراسية بإزاء ميناء مسقط ولم يكتف بذلك بل عمد إلى الأسرى الذين وقعوا في قبضته من أهالي المدينة فصلم آذانهم وجدع أنوفهم.

وغادر مسقط متوجهاً إلى ميناء صحار، فأرغم الأهالي فيه على دفع خراجهم إلى ملك البرتغال بدلاً عن ملك هرمز، ثم توجه إلى ميناء (خورفكان) فنهض أهله للمقاومة فهاجمهم ونهب أموالهم ثم أحرق الميناء وأخذ الأسرى الذين وقعوا في يده ففعل بهم فعلته بأسرى مسقط.

وأخيراً توجه البوكرك إلى جزيرة هرمز وأرسى بإزائها وحين شاهد البرتغاليون سعة المدينة وكثرة العمران فيها ووجود عدد من السفن الحربية بكامل تجهيزاتها في مينائها أحجموا عنها وراجعوا البوكرك في شأنها مطالبينه بالتزام الحيطة والحذر، ومكث البوكرك يتدبر الأمر ويتحسس أوضاعها الداخلية حتى اطمأن إلى سلامة موقفه ورجحان كفته وعلم أن ملكها صبي في الثانية عشرة من عمره وإدارة أمورها بيد وصيه الخواجه عطار، وهو من ذوي الحزم والرأي.

وحين أحيط الخواجه عطار علماً بقدوم البوكرك بأسطوله باشر بتجهيز القوات فأحضر إلى ميناء الجزيرة عدداً كبيراً من السفن ثم استأجر جماعات كبيرة من المحاربين من الأراضي الإيرانية وأرض الحجاز فبلغ عددهم في الجزيرة حين قدوم البوكرك ثلاثين ألف مقاتل، من بينهم أربعة آلاف محارب إيراني معروفين بمهارتهم في إطلاق النبال. وإضافة إلى هؤلاء كانت لديه قوته البحرية المؤلفة من أربعمائة سفينة بين صغيرة وكبيرة وألفين وخمسمائة مقاتل.

وطلب البوكرك من ملك هرمز في بادىء الأمر الخضوع لسلطة ملك البرتغال فأبى الأخير ذلك وحينئذ شن البوبرك هجمومه رغم قلة قواته مستعيناً بالحرب النفسية فقد كان على غرار أكثر الأوروبيين المستعمرين يدرك الثغرات في الحكومات الضعيفة. واستغل الثغرات الكامنة في حكومة هرمز فراح يؤكد لرجالها أن البرتغال في حال خسارتها الحرب لن تقف مكتوفة الأيدي بل ستعاود الكرة مرة بعد أخرى حتى تنتقم لخسارتها وفي حال خسارة ملك هرمز فيها فإن حكومته ستنقرض حتى على فرض قدوم المدد من داخل الأراضي الإيرانية.

ومن جانب آخر كان الخواجه عطار ورجاله يائسين من وصول نجدات إليهم، فقد كانت عائلة الآق قويونلو آخذة بالانقراض آنذاك وكان الشاه اسماعيل مشغولاً بالحروب الداخلية المثارة عليه وإخضاع الولايات المركزية في إيران لسيطرته.

وهكذا وجد ملك هرمز نفسه مرغماً على القبول بتبعية البرتغال فدفع غرامة حربية مقدارها خمسة آلاف (زرافين) من الذهب وتعهد بدفع خمسة عشر ألف زرافين أخرى سنوياً إلى البرتغال كخراج سنوي (تعادل كل ١٦ زرافين ليرة ذهبية إنجليزية واحدة تقريباً). وإضافة إلى ذلك وقع ملك هرمز اتفاقاً مع آلبوكرك تعهد

بموجبه بإعفاء البضائع البرتغالية من الرسوم الجمركية وعدم فرض ضرائب على البضائع التي يشتريها البرتغاليون بما يتجاوز الضرائب المفروضة على سكان الجزيرة أنفسهم، وعدم السماح للسفن التي لا تتبع الجزيرة بالمتاجرة في الخليج إلا بإذن من البرتغاليين، واستطاع البرتغاليون بشرطهم الأخير أن يحصروا التجارة في الخليج في إطارهم الخاص.

ومع عقد الاتفاق المذكور في عام ١٥٠٧م ٩١٠هـ باشر آلبوكرك ببناء قلعة محكمة في الجزيرة ومركز تجاري كبير وحث العاملين في هذا المركز على تخفيض الأسعار ما أمكنهم من أجل كسب المسلمين وربطهم بالمركز.

وحين بلغت الشاه اسماعيل أخبار هذه الأحداث بعث إلى حاكم هرمز بوفد لمطالبته بأداء الضرائب السنوية المتعارف عليها.

وراجع حاكم هرمز آلبوكرك في الأمر فأجابه الأخير قائلاً: ليس لملك هرمز حق في دفع الضرائب والخراج لأي دولة غير دولة البرتغال، فإذا خالف هذا الأمر عزلناه وأقمنا شخصاً آخر بدلاً عنه. ثم أخذ آلبوكرك مقداراً من الذخيرة وقذائف المدفعية والبارود والبنادق ودفع بها إلى رسول ملك هرمز قائلاً: قل للملك أن يبعث بهذه الأشياء إلى الشاه اسماعيل ويخبره بأن البرتغاليين لا يقدمون سواها إلى عدوهم وأن البوكرك بعد فراغه من بناء قلعته سيتوجه إلى جميع موانىء الخليج الفارسي ليحتلها باسم ملك البرتغال وينتزعها من سيطرة الشاه اسماعيل.

ولم ينفذ البوكرك شيئاً من تهديداته هذه، حيث نشب خلاف بين ملاحي سفنه وضباط بحريته فاضطر الجميع للتوجه إلى الهند وطرح شكواهم على نائب الملك البرتغالي في ميناء بوا.

وبعد عودة البوكرك إلى الهند بعث الشاه اسماعيل بسفير إلى البلاط الشيعي في بيجابور وطلب منه التوجه من هناك إلى نائب الملك البرتغالي وتوطيد العلاقات الودية معه. وحين وصل السفير ميناء بوا كان نائب الملك الأول قد رحل عن المنطقة وعين البوكرك محله حسب الأوامر الصادرة عن ملك البرتغال.

ونجح السفير في إقامة العلاقة الودية مع نائب الملك الجديد فاعترف الأخير رسمياً بخضوع ملك هرمز للشاه إسماعيل. ولكن هذا الاعتراف لم يستمر طويلاً، فبعد أن هاجم العثمانيون إيران واندلعت الحرب وانصرف الشاه اسماعيل باهتمامه للمناطق الغربية من إيران، استغل آلبوكرك الاضطرابات التي حصلت آنذاك في هرمز وتوجه إليها في ست وعشرين سفينة حربية وألفين ومائتي مقاتل.

كان حاكم هرمز آنذاك الملك سيف الدين خاضعاً لأوامر الشاه اسماعيل لعدة سنين وما زال متربعاً على عرشه حتى خرج عليه أحدهم ويدعى الرئيس حامد الذي ألقى القبض عليه وأودعه السجن.

واغتنم آلبوكرك هذه الأحداث فتوجه إلى الجزيرة وأمر بدكها بالمدفعية حالما اقترب منها، وكان القصف المدفعي عنيفاً فأصيب الرئيس حامد بالرعب وبادر إلى إطلاق سراح الملك سيف الدين ودارت بين الجانبين مفاوضات طويلة انتهت باحتلال البرتغاليين لقلعة الجزيرة ورفعوا علمهم على مشارفها بل وعلى قصر الحكومة ذاته.

وبعد فترة من احتلال الجزيرة بعث الشاه اسماعيل بسفيره إلى البرتغاليين وكانت إيران آنذاك في حاجة ماسة للأسلحة النارية للدفاع عن نفسها لأنها كانت باستمرار عرضة لهجمات العثمانيين مما اضطرها إلى التوجه إلى مصادر السلاح في أوروبا واستطاع السفير الإيراني الحصول على مقادير من المدافع والبنادق وعدد من المتخصصين في صناعة المدافع.

ولما وجد الشاه اسماعيل نفسه عاجزاً عن مواجهة البرتغاليين وأسطولهم البحري الضخم. ولم يكن يملك أية قوة بحرية، والحرب من أجل استرداد هرمز يقتضي لها قبل كل شيء قوى بحرية، سلّم بالأمر الواقع.

وإذن فقد تزامنت حركة الشاه اسماعيل من شوشتر إلى فارس في عام ٩١٥هـ مع انسحاب آلبوكرك من الخليج الفارسي على أثر الخلافات التي حصلت بين ضباط بحريته وملاحي سفنه، واغتنمت إيران هذه الفرصة ففرضت سيطرتها على موانىء وجزر الخليج الفارسي وأحكمت الدفاع عنها بقوات كافية لا سيما المدن الساحلية الرئيسية. وفرضت على ملك هرمز دفع الضرائب والخراج والانقياد للحكم في إيران، ولكن كما ذكرنا آنفاً، لم تستمر هذه السيطرة فترة طويلة بسبب انشغال إيران بصد هجمات العثمانيين عليها، فأعاد البرتغاليون الهجوم على الخليج الفارسي وسيطروا على البحرين وجزيرة هرمز وغيرهما.

الطعن بالأمير نجم

أمضت قوات القزلباش شتاء عام ٩١٤هـ وربيع عام ٩١٥ في ولاية فارس، وانصرف الشاه اسماعيل خلال هذه الفترة إلى تنظيم أمور البلاد وأحياناً إلى اللهو والمتعة.

ومن أبرز الأحداث التي وقعت خلال تلك الفترة، عزل وقتل القاضي محمد الكاشي. وكان هذا القاضي قد جمع منصبي الصدارة والإمارة في الديوان الأعلى أي جهاز الحكم في الدولة. واستطاع بذكائه وفطنته وتدبيره أن يلفت انتباه الشاه اسماعيل إلى بعض صفاته ويكتسب حبه ومودته حتى أصبح لا ينافس في مكانته وصلاحياته.

وحين عين الأمير نجم الپيلاني في منصب أمير الأمراء بصلاحيات مطلقة، رأى القاضي محمد تعارض وجود الأمير نجم مع مصلحته، فعمد إلى القيام بعمل لو قدر له التنفيذ في دولة فتية

مثل الدولة الصفوية لانتهى بها إلى السقوط لا محالة. ولكن الشاه اسماعيل كان يتمتع بكثير من الذكاء والدهاء وحسن التدبير، فلم يكن يقبل بتقاليد التركمان والمغول وأعرافهم الفاسدة، بل كان يبادر إلى محو هذه التقاليد والأعراف والقضاء عليها كلما سنحت فرصة إلى ذلك.

وكان التقرير من بين التقاليد الفاسدة التي خلفها الأتراك الطورانيون في إيران، وتقليد التقرير هو كما يلي:

حينما يكون في الدولة وزيران أو أميران متنفذان في إدارة الدولة، ويبدآن في التنافس فيما بينهما، يعمد أشرهما طبعاً وأسوؤها عنصراً إلى تحين الفرص للإيقاع بصاحبه، وحينما يرى الملك المنغمس في اللهو والمتعة يحتاج إلى المال، يبادر إليه قائلاً: لو أمكنني الله من فلان (خصمه) لقدمت كذا مبلغاً من المال ثم اتبعته فيما بعد بآخر، ودون أن يلتفت الملك إلى سوء طبع هذا الوزير وفساد أخلاقه ودون أن يراعي الخدمات التي قدمها الوزير الآخر، يأخذه الطمع فيقبل المبلغ ويأمر بتسليم الوزير الذي شمله التقرير لعدوه ومنافسه ليفعل به ما يشاء، ومن الطبيعي أنه يتعرض للتعذيب ومصادرة أمواله وغالباً ما تزهق روحه تحت التعذيب.

وكان تقليد التقرير شائعاً في زمن السلاجقة وتكرر حدوثه في زمن المغول وحكومة التركمان ولكنه اقترح لأول مرة في زمن الدولة الصفوية من قبل القاضي محمد الكاشي ودفن معه، فلم يجرؤ شخص بعدها على اقتراحه طوال عمر الدولة الصفوية حيث منع رجال البلاط وكبار موظفي الدولة من اللجوء إلى هذه العادة المنكرة.

ومن الطبيعي أن يعد الشاه اسماعيل من أهم أركان العدالة في إيران بقضائه على هذا التقليد الفاسد.

وخلاصة القول: إن القاضي محمد بعد أن رأى تفاقم أمر الأمير نجم وتعاظم شأنه وسيطرته على أزمة الدولة وشؤونها الإدارية والعسكرية، أخذ يكيد له ويسعى للقضاء عليه بأنواع المكائد والحيل. إلا أن جهوده كانت تذهب هباء في كل مرة، ولذلك بادر إلى ما هو أخطر، فقد كان ذات يوم جالساً مع الشاه اسماعيل في مجلس لهو وأخذ يتجاذب معه أطراف الحديث حتى وصل الأمر إلى الأمير نجم فقال له القاضي: إن الأمير نجم قد أخذ من خزانة الدولة مبلغاً قدره عشرون ألف تومان، فإذا أوكل أمره إليّ فسأسترد منه إلى الخزينة مبالغ طائلة وسترى مني في إدارة شؤون البلاد غاية الخبرة والحكمة. (والمقصود بالتومان هنا هو التومان الذي يعادل عشرة الآف دينار أو مال يقارب مائة مثقال من الذهب الخالص).

وحينما سمع الملك الشاب ذو العاطفة الجياشة تقرير القاضي الشرير أعرض بوجهه عنه وغير مجرى الحديث، لأن القاضي محمد قد فضح بتقريره هذا طبيعته الخبيثة ولؤمه وفساد خلقه، وتعرف الملك على حقيقته التي كان عليه أن يتعرف عليها منذ زمن بعيد، وأضمر الأمر في نفسه ثم صارح به الأمير نجم بعد أيام وبعد ذلك أمر بتسليم القاضي محمد إلى الأمير نجم لمجازاته.

وكان الأمير نجم رجلاً شريفاً طيب القلب فعزم على مؤاخذته باللين وتغريمه مبلغاً من المال ليعفى عن جريرته ولكن العديد من الناس شكوا منه ومن المظالم التي ألحقها بهم بعد أن كانوا يخافون سطوته فلا يجرؤن على النيل منه أو الشكوى من مظالمه، فبدأت قبائحه تنكشف للعيان شيئاً فشيئاً حتى أصبحت عقوبته لا بد منها. فاجتمع الديوان الأعلى وثبتت جرائمه وفضائحه فأمر الملك بقتله فقتل.

وكان القاضي محمد يحمل عنوان الصدارة، إلا أنه في الحقيقة تجاوز هذا العنوان ليتدخل في جميع مهام وظائف كبار الوزراء والأمراء، وعندما قتل آلت الصدارة إلى الأمير شريف الدين علي وهو أحد أبناء الأمير السيد شرف الدين علي البورياني.

وكان هذا السيد محمود الطبع والسيرة، لائقاً بانتسابه إلى جده السيد شريف البورياني، فباشر فور تصديه لمنصب الصدارة إلى إصلاح الأمور القضائية وضمان الأمن الاجتماعي وتطوير المدارس والحوزات العلمية وسعى جاهداً في إنفاق أموال الأوقاف في مواردها المقررة.

احتلال بلاد شيروان

توجه الشاه اسماعيل إلى أصفهان بعد فراغه من أمور فارس والموانىء، فأقام فيها وباشر بتعميرها وتوسيعها وتزيينها ومن ذلك قيامه بتوسيع ميدانها الذي كان آنذاك صغيراً وضيقاً وتزيينه بأنواع النقوش والأعمال الفنية الأخرى، فأسماه بعد اكتماله بميدان (نقش جهان) الذي نشط حفيده الشاه عباس الكبير فيما بعد بتعميره وإحداث تغييرات جديدة فيه.

وبعد الفراغ من بناء الميدان وتزيينه غادر الشاه مدينة أصفهان متوجهاً إلى همذان فأمضى فيها فصل الصيف ثم توجه إلى آذربايجان، وما إن سمع أهالي تبريز بقدوم موكب ملكهم المحبوب حتى أسرعوا إلى لقائه وأقاموا الاحتفالات والأفراح بهذه المناسبة بعد غيابه الطويل.

وخلال هذا السفر أصيب الأمير نجم بالحمى ثم اشتدت عليه، فلما غادرت قوات القزلباش مدينة تبريز وتوجهت إلى شبستر وسواحل بحيرة أرومية التي تميزت باعتدال مناخها في فصل الشتاء، فارق الأمير نجم الحياة، فأمر الشاه بنقل جسده إلى النجف الأشرف.

وكان الأمير نجم رجلاً مدبراً حكيماً وجديراً بمنصبه، ومن

ثم فقد أعطي صلاحيات واسعة، واستغل هذه الصلاحيات في إصلاح أمور البلاد والقضاء على الفساد الإداري وسوء التصرف بعائدات الدولة وأموال بيت المال، ولذلك كان موته صدمة عنيفة للشاه الصفوي الشاب وحرمه من وزير لائق بهذا المنصب، فخيم الحزن عليه فترة طويلة وقد أعلن الحداد العام في جميع دوائر الدولة بعد وفاة الأمير نجم واستمر هذا الحداد لعدة أيام وأقيمت مراسم العزاء وبعد أسبوع عين الأمير يار أحمد الأصفهاني في منصبه الذي كان عبارة عن وكالة الملك والنيابة عنه، تنفيذاً لوصية الأمير نجم في حضور الشاه اسماعيل بتعيين هذا الأمير خلفاً له، ولقب يار أحمد بنجم الثاني.

وكانت صلاحيات نجم الثاني كبيرة جداً إلى حد أنها تجاوزت صلاحيات سلفه، فقد أصبح جميع الأمراء والوزراء وأركان الدولة يأتمرون بأمره ويخضعون لإشرافه وكذلك خضعت لإشرافه جميع الشؤون الإدارية والمالية في البلاد. وكان الأمير نجم الثاني بحق رجلاً مدبراً، ذا همة عالية، عادلاً في سيرته وتعامله مع عموم الناس، ولكن الأمر الذي يجدر ذكره هنا هو أن كثرة الصلاحيات في بلد واسع مثل البلاد الإيرانية لا بد أن يخلق نوعاً من الغرور والاستبداد في الرأي ومن الطبيعي أن كل من يتخلق بهذه الصفات هالك لا محالة.

وفي نفس هذه السنة امتنع حاكم شيروان شيخ شاه عن دفع الضرائب والخراج إثر تحريض المغرضين وخصوصاً البلاط العثماني، فأخذت وفود الشاه اسماعيل تتوافد عليه لهدايته ونصحه بالكف عن غيه ودفع ما بذمته، ولكنها كانت تواجه في كل مرة بالرفض القاطع، فلم ير الشاه اسماعيل مندوحة من التوجه إليه وتأديبه ومن ثم غادر (خوي) متوجهاً إلى شيروان في فصل الشتاء رغم غزارة الأمطار ونزول الثلوج.

وما كادت أخبار قدوم جيش القزلباش تبلغ شيخ شاه حتى غادر عاصمته (شماخي) وتوجه إلى قلعة بيغرد (بهيرد) المنيعة فاعتصم بها، وعرف الشاه اسماعيل بالأمر فوجه قوة من جيشه لاحتلال مدينة شماخي وتوجه بمن معه إلى قلعة بادكوبه المحصنة، إلا أن حاكمها أسرع لاستقباله وإعلان طاعته وتسليم مفاتيح القلعة للشاه الصفوي.

وغادر الشاه قلعة بادكوبه بعد ذلك إلى ولاية شادبران، فبادر حاكمها إلى استقباله وإعلان طاعته له وهكذا كان الحال في جميع القلاع والولايات باستثناء قلعة دربند، فقد وقف حكامها للدفاع عنها لاطمئنانهم إلى استحكاماتها ومنعتها.

وحين يئس الشاه اسماعيل من حاكمي القلعة أحمد آقا ومحمد بيك أسرع إليها بقواته فحاصرها وأمر جنود القزلباش بنقبها وإحداث الخنادق فيها، وأفلح القزلباش خلال خمسة أيام بإحداث اثني عشر نقباً في جانبي القلعة رغم صعوبة المكان وصلابة الصخور فيه واستثنى جانبا القلعة الآخران من العمليات العسكرية وهما الجانب المطل على بحر الخزر وجانب البوابة المعروفة بالبوابة الحديدية أو باب الأبواب والتي تمر الآن السكك الحديد بين بادكوبه وموسكو عبر الوادي المجاور لها.

وشاهد محمد بيك وأحمد آقا نشاط القزلباش فأدركا أن سقوط قلعتهما قادم لا محالة، فلم يريا بدأ من التنازل عن المقاومة وطلبا الأمان من الشاه اسماعيل، فآمنهما وقربهما إليه وأدخلهما في سلك خدمه الخاصين، ثم عين منصور بيك حاكماً لدربند ونصب بيك حاكماً على بلاد شيروان.

وفي تلك الأيام أمر الشاه بعض خاصته ومقربيه باستخراج جسد السلطان حيدر الذي دفن في قصبة طبرستان خلسة قبل ٢٢ عاماً ونقله إلى مقبرة العائلة الصفوية لدفنه فيها إلى جوار جده الشيخ صفي الدين في أردبيل.

وبعد الفراغ من فتح بلاد شيروان توجهت قوات القزلباش إلى مشتى قراباغ فأمضت فيه بقية أيام الشتاء، ومع حلول عيد نوروز ودخول الربيع توجهت إلى تبريز فاستقبلها أهالي المدينة بالزينة والاحتفالات.

وفي تبريز انصرف الشاه الصفوي إلى تنظيم شؤون مملكته ومتابعة أمور القفقاز وآذربايجان وديار بكر ورفع حوائج المعوزين. وبعد فراغه من ذلك عزم على السير لفتح خراسان، فغادر مدينة تبريز متوجهاً إلى سلطانية وهناك أصدر أوامره باستدعاء القوات العسكرية.

فتح خراسان

يذكر التاريخ أن آخر الملوك الذين خلفوا الأمير تيمور وتربعوا على عرش خراسان هو السلطان حسين ميرزا بايقرا الذي تزامنت السنين الأخيرة من حكمه مع بداية حكم الشاه اسماعيل.

وكانت المودة هي الطابع العام الذي يغلب على العلاقات بين السلطان بايقرا والشاه اسماعيل، إلا أن بداية الأمر لم تكن كذلك، فحين باشر الشاه اسماعيل بالقضاء على أمراء الآق قويونلو، لجأ بعضهم إلى خراسان وسعى للإيقاع بين بلاط هرات وبلاط تبريز، فكان أن تغيرت لهجة حكومة بايقرا في مراسلاتها مع بلاط الشاه الصفوي فلم تراع الأدب والاحترام، وانزعج الشاه لهذا التغير وأضمر الأمر في نفسه.

وفي تلك الأثناء حدثت اضطرابات في يزد بزعامة عدد من المشاغبين وعلى رأسهم محمد كره، فأسرع الشاه اسماعيل إلى يزد وقضى على رؤوس الفتنة فيها، ثم توجه إلى صحراء طبس فقتل العديد من المسلحين وأفراد الجيش فيها، وألقى بذلك الرعب في قلوب الخراسانيين ووجه إليهم إنذاراً صريحاً، وخشي السلطان حسين بايقرا عاقبة الأمر فبعث إلى الشاه الصفوي بوفد لتوطيد أواصر المحبة معه والاعتذار إليه عما بدر من حكومته.

ولم يكن الشاه اسماعيل ليتسى العلاقة القديمة بين الأمير تيمور بوريان ومشايخ الصفوية، فرحب بالعلاقة الجديدة وقبل الاعتذار، وأصبح منذ ذلك الحين يخاطب السلطان حسين بايقرا الذي بلغ آنذاك من الكبر عتيا بالأب، واستمرت العلاقات الودية بين الطرفين حتى نهاية الدولة التيمورية.

وفي عام ٩١١هـ توفي السلطان حسين بايقرا وخلفه على العرش في هرات ابناه بديع الزمان ميرزا ومظفر حسين ميرزا مشتركين في حكم البلاد، ولكن أبناء الملك الآخرين رفضوا الانصياع لأوامر أخويهم، مشترطين في ذلك انفراد أكبرهم بديع الزمان ميرزا بالحكم، لأنهم لم يكونوا يرون في مظفر حسين ميرزا فضلاً عليهم.

وقد أحدث هذا الشقاق اضطراباً في الأوضاع الداخلية للبلاد، وأطمع أعداء خراسان في الخارج بالاستيلاء عليها ومنهم محمد خان الأوزبكي المسمى ب(شاهي بك خان) و(شيبك خان) أو (شيباني خان)، فما كاد يسمع هذا بوفاة السلطان حسين وحدوث الاختلاف بين أبنائه حتى بادر إلى حشد قواته وأسرع بها إلى خراسان فبلغها قبل أن يستعد الأمراء التيموريون لمواجهته، ووقفوا لمقاومته في قوة صغيرة فهزمهم محمد خان الأوزبكي ودخل مدينة هرات دون كثير عناء، وكان ذلك في عام ٩١٣هـ.

وباشر محمد خان (شيبك خان) فور فراغه من احتلال عاصمة خراسان بإرسال القوات إلى جهات خراسان الأربعة، فاستولى على الأراضي الممتدة حتى حدود دامغان وسمنان ومن جانب آخر حتى ولاية قندهار وسيستان وأطلق لقواته العنان في الاعتداء على الأعراض والنهب والسلب، ولم يتوان عن ارتكاب المجازر وسلب الأموال وإيذاء الناس في أكثر مدن خراسان ونواحيها.

وقد قضى شيبك خان على الأمراء التيموريين الواحد تلو الآخر وتزوج بنسائهم حسب الشرع وبدونه ولم ينج منهم إلا من أفلح في الإفلات من قبضته واللجوء إلى بلاط الشاه اسماعيل.

وبعد أن أحكم شيبك خان قبضته على مملكة التيموريين بما فيها خراسان ورأى نفسه دون منافس في حدود تركستان وأن بلاده قد امتدت إلى مساحات شاسعة بدءاً من حدود منغوليا وحتى حدود العراق، أخذ يفكر بالتوسع غرباً، فبعث برسالة وقحة إلى الشاه اسماعيل زعم فيها أنه ينوي حج بيت آ الحرام ولذا يتوجب على الملك الصفوي أن يعبد الطرق له ويخزن المؤمن والذخيرة والعلف لقواته في الخانات الممتدة على طول الطريق.

ورد الشاه اسماعيل عليه بأسلوب مؤدب يظهر مدى الدبلوماسية التي كان ينتهجها في حياته السياسية حيث كتب إليه ما يلي: «إن أسلوبكم لا يليق بشأن الملوك، وإذا كنتم عازمين على حج بيت آ فنحن عازمون على زيارة حضرة سلطان السلاطين علي بن موسى الرضا (ع) وسنلتقي بكم أينما أحببتم».

وكان الشاه اسماعيل يدرك حقد محمد خان ملك الأوزبك وأطماعه التوسعية، فلم يتوان عن إرسال السفراء البارعين في الخطابة وتلافى الأمور واغتنام الفرص، ومن بينهم الشيخ محيي الدين أحمد المعروف بشيخ زاده اللاهيجاني وهو من كبار المشائخ ويحظى باحترام القاصي والداني ومن بينهم أيضاً العالم المشهور القاضي ضياء الدين نور آ حيث حمله رسالة إلى مرو طلب فيها من ملك الأوزبك كف عماله عن ارتكاب المظالم بحق الناس، وطالبه بالغرامة لما ارتكبه بعض أقوام الأوزبك في غارتهم على حدود كرمان وقتلهم للمزارعين فيها ونهبهم لأموال الناس في هذه النواحي.

ويذكر صاحب (حبيب السير) أنه في الوقت الذي كان شيخ زاده اللاهيجاني لا يزال في بلاط الأوزبك بعث شيبك خان أحد سادات خراسان وهو الأمير كمال الدين حسين الأبيوردي إلى بلاط الشاه اسماعيل برسالة مفعمة بأساليب التهديد.

ولم يكن محمد خان الأوزبكي يغفل عن تحريض أمراء الدولة الصفوية في الولايات المجاورة لأرض العراق ودفعهم إلى الخروج عن طاعة الشاه اسماعيل، ومن هؤلاء حاكم مازندران آقا رستم الذي غرته وعود شيبك خان وأثرت به تحريضاته، فكان أن أجاب رسل البلاط الصفوي القادمين إليه لجباية الضرائب السنوية والخراج قائلاً: «ما دمت أحتمي بالملك محمد خان الشيباني فلن أخشى الشاه اسماعيل ولن أهابه».

ولم يطق الشاه اسماعيل غرور شيبك خان وأطماعه التوسعية، فعزم على تحقيق حلمه في توحيد جميع الولايات الإيرانية تحت سلطته ومن ثم أمر في السلطانية في شهر رجب عام ٩١٦هـ باستدعاء جميع القوات العسكرية من عراق العرب وعراق العجم وفارس وكرمان وكردستان ولرستان وأران وآذربايجان فقدم إليه أمراء وحكام هذه الولايات بعدد كبير منها.

وانتظمت القوات وقادتها وأمراؤها في السلطانية في عرض مهيب وتشكلت من القادة لجنة، اجتمع بها الشاه وخطب شارحاً تطور العلاقات الإيرانية ـ الأوزبكية معرضاً بذكر التهديدات والإهانات التي وجهها ملك الأوزبك لشخصه ودولته ثم استشارهم في السير لفتح خراسان التي تعد النصف الأيمن من إيران، فأشار عليه الحاضرون بالإجماع بالسير للفتح دون تردد أو تلكؤ، وبعد استماعه لأرائهم وإجماعهم على ما عزم عليه، أمر بإقامة الاحتفالات ونصب موائد الطعام. ثم وزع على الحاضرين أنواع الهدايا والحلل والخلع وأهداهم جياداً وإبلاً من الاصطبل الملكي، وفي صبيحة اليوم التالي نفخت الأبواق معلنة البدء في التحرك فانتظمت صفوف قوات القزلباش في صفوف وأفواج متناسقة ثم تحركت تحت إمرة قادتها الأبطال.

وهنا تجدر الإشارة إلى شيء مهم غفل المؤرخون عن ذكره وهو كون الخانقاه الصوفي آنذاك من أهم الوسائل الإعلامية والدعائية ووسائل جمع الأخبار وتوزيعها.

ويرجع وجود الخانقاه الصوفي في خراسان إلى عهد السلطان ميرزا شاهرخ وميرزا الغ بيك البورياني حين باشر شاه قاسم أنوار تثبيت دعائمه وأسسه. وكان شاه قاسم قد تخطى مراحل السير والسلوك والتعاليم الصوفية على يد الشيخ صدر الدين موسى بن الشيخ صفي الدين. وقد سافر إلى هرات حينما كان سائحاً وكان عليها الميرزا شاهرخ ابن الأمير تيمور وهو في علاقات غير ودية مع أمراء الآق قويونلو والقره قويونلو ومن جانب آخر كان يعتقد أن الصفوية تؤيد هؤلاء الأمراء، فلم يرحب بقدوم شاه قاسم، فغادر الأخير هرات إلى سمرقند فاستقبله الميرزا الغ بيك الخورياني بالترحيب والاحترام وأعد له أسباب الراحة في عاصمته وبدأت طريقة شاه قاسم العرفانية تنتشر في هذه المنطقة منذ ذلك الحين، وكانت طريقته في الحقيقة هي عين الطريقة الصفوية.

وحينما ظهر الشاه اسماعيل، أخذ أهل السير والسلوك والدراويش في خانقاهات خراسان يحيطونه علماً بجميع أحوال وأوضاع مناطقهم، ومن ذلك إبلاغهم إياه في أواخر عام ٩١٥ بتحرك جيش جرار بقيادة أبناء محمد خان وبعض أقاربه من (مرو) إلى تربستان الشرقية لاحتلال مناطق جديدة في حدود كاشغر وحدود التبت والصين.

وكان الشاه اسماعيل يتحين الفرصة المناسبة لانتزاع خراسان من مخالب الطورانيين وضمها إلى إيران ومن ثم رأى في هذه التطورات فرصة مؤاتية لتنفيذ ذلك واستصوب رأيه قادة الجيش ورجال إيران.

وكانت ثمة مجموعة من الرواد تتقدم جيش القزلباش وهي تحمل رايات خضراء وترتدي ملابس رسمية فاخرة، وتواصل إنشاد الأشعار المؤثرة في مدح سيد النجف وآل بيت الرسول، فكان أهالي المدن والقرى يهرعون لمشاهدة هذا الموكب والإصغاء إلى أشعاره وأناشيده المهيجة وغالباً ما كان الناس يجهشون بالبكاء لشدة تأثرهم.

وهكذا توجهت قوات القزلباش من السلطانية إلى الري ومنها إلى سمنان ثم إلى حدود دامغان، وكان عليها صهر محمد خان الشيباني ويدعى أحمد سلطان.

وما كاد أحمد سلطان يطلع على قدوم قوات القزلباش نحو ولايته، حتى ترك أمواله وأملاكه ولاذ بالهرب، وكذلك فعل حاكم استراباد الخواجه أحمد قنقرات حيث ترك ولايته وهرب إلى ولاية درون ومنها إلى خوارزم. وعندما شاهد شيوخ وشخصيات جرجان الحاكم الأوزبكي وهو يلوذ بالفرار اجتمعوا فيما بينهم وانتخبوا منهم شخصين هما السيد رفيع وبابا نوذز وعدداً آخر من الشخصيات للوفادة على الشاه اسماعيل، فأكرمهم وأحسن إليهم ثم أجازهم في العودة إلى ديارهم.

وفي غضون ذلك كان هناك أحد أعيان الدولة التيمورية يعيش في منطقة (كبود جامه)، فلما سمع بقدوم رايات الشاه اسماعيل أسرع لاستقباله فالتقاه في منطقة جاجرم ورأى الشاه في اسمه فألاً حسناً حيث كان اسمه سيف الدين مظفر، وكان رجلاً فاضلاً ذا خصال حميدة فشمله الشاه بعنايته وعطفه وخلع عليه خلعاً فاخرة وزينه بزينة رسمية وعينه في منصب وزير الخاصة في البلاط.

ووزارة الخاصة هذه تعني إدارة الأموال الخاصة بالملك حيث أقدم الشاه اسماعيل على فصل أمواله عن أموال الدولة وأسمى الأخيرة ببيت المال بعد أن كان الملوك لا يرون فرقاً بين أموال الدولة وأموالهم.

وزاد اهتمام الشاه اسماعيل بالخواجه مظفر يوماً بعد آخر فمثلاً عندما وصلوا اسفراين بعد مغادرتهم جاجرم قرر أن يضيف إلى ختمه على فرامينه الملكية ختم سيف الدين مظفر، ولم يكن هذا الامتياز قد أعطي لأي وزير كان عدا الوزير الأعظم.

وغادر حكام ولايات سبزوار ونيسابور ولايتهم قبل أن تدخلها قوات القزلباش وتوجهوا إلى هرات، وحين بلغ الموكب الملكي مدينة نيسابور بعث برسالة إلى محمد خان الشيباني مفادها أنك كنت تتبجح باستمرار وتطلب منا اللقاء، فها أنذا أحتل مدنك الواحدة تلو الأخرى دون أن ألمس وجوداً لقوات الأوزبك. وإذا أعدت ملك خراسان لأهله وهم أقوام القزلباش ورحلت إلى ما وراء آمو فقد عملت وفقاً للعقل والتدبير، وإلا فحري بك أن تحدد موقعاً للقتال.

وكان حمل هذه الرسالة إلى ملك الأوزبك أمراً لا يخلو من مغامرة، فتبرع أحد أبطال القزلباش بإيصالها ويدعى حسين بيك يساول.

وبلغ حسين بيك والوفد المرافق له مشارف هرات، وسمع سكان المدينة بقدوم رسل الشاه اسماعيل فهبوا لمشاهدتهم في الشارع الرئيسي للمدينة وتوجه لاستقبالهم عدد من رجال ملك الأوزبك. ورأى حسين بيك نفسه بين حشد كبير من الناس فاستغل الفرصة وصاح بصوت عال قائلاً: «أخبروني أين ابن يزيد فإنني أحمل إليه رسالة من ابن الإمام الحسين».

وحسين بيك هذا رجل طويل القامة عظيم الجثة أحمر العينين ذو شارب طويل يلامس أذنيه. فلما دخل بلاط ملك الأوزبك وجلس على الكرسي المعد له، تزحزح قليلاً فانكسر الكرسي من تحته،

فاستبدل بثان فانكسر أيضاً وتكرر الأمر مرة ثالثة، فقال حينئذٍ: «إن الأطفال لتضحك حينما ترى بلاطكم خالياً من كرسي يصلح لجلوس الرجال».

وكانت هذه العبارات إهانة واضحة لمحمد خان، فاستعجل في إرجاعه من حيث أتى.

وتجدر الإشارة إلى أن شيبك خان كان قد قسم قواته قسمين فبعث بالقسم الأول إلى تركستان الشرقية ووجه الآخر إلى أراضي (هزاره). وأقوام هزاره في الأصل هم سكان التبت ويتبع أغلبهم المذهب الشيعي. وعندما شن جنييز خان هجومه على إيران كان يجلب القوات من بلدان الشرق الأقصى، وسميت هذه القوات بالهزارة (أي الألف) لأنه كان يقسمها إلى مجاميع تتألف كل واحدة منها من ألف مقاتل.

واختارت قبائل الهزارة التي قدمت إلى إيران مع جنييز خان السكن في جبال غور وغرجستان وهي المناطق المركزية من أفغانستان ويسمى أفراد الهزارة الموجودين الآن في خراسان وأطراف مشهد بالبربر.

وكانت هذه القبائل متعصبة في تشيعها، ومن ثم فمن الطبيعي أنها لم تكن مستعدة للخضوع بسهولة لحكم الأوزبك، فعزم شيبك خان على السير إلى هذه القبائل والقضاء عليها ونهب أموالها ولكنه وجد نفسه في ورطة لا مخرج منها حينما قدم بقواته إلى جبال الهزاره، ودارت معارك بين الطرفين، هزم الأوزبك فيها ثم لجأ إلى بعض زعماء قبائل الهزارة للاستعانة بهم في تأمين انسحاب قواته، وهنا يذكر صاحب حبيب السير قائلاً: «عاد من هجومه على الهزارة ممزق القلب ونزل في بستان جهان آرا».

الحرب مع الأوزبك

توجه الشاه اسماعيل إلى مشهد لزيارة الإمام الرضا (ع) بعد أن بعث رسوله إلى شيبك خان، وبعد تشرفه بالزيارة أمر بالتحرك نحو هرات وحينما بلغ حدود سرخس وافته طلائع جيشه بوصول بعض قوات الأوزبك حتى مشارف تجن، فانتدب أحد الصوفيين المجربين والمعروفين بشجاعتهم ويدعى (دانه محمد) للسير إلى قوات الأوزبك على رأس قوة من القزلباش.

وحضر دانه محمد لدى الشاه فأطال الأخير النظر إلى وجهه ثم أذن له بالانصراف وحينئذ التفت إلى من حوله وقال لهم لن نرى دانه محمد مرة أخرى، وكان حدسه في موقعه، فعندما اشتبك مع قوات الأوزبك جرح جروحاً بليغة وخاطب قواته قائلاً: «اعلموا أن دانه محمد إذا مات فإن المرشد الكامل حي بحمد الله فانشطوا للقارعة مرفوعي الرؤوس».

وحينما سمع أبطال القزلباش هذه العبارة دب الحماس في نفوسهم وهجموا على عدوهم هجمة رجل واحد، ورأى قائد الأوزبك (جانوقا ميرزا) نفسه في خطر حين أخذت سيوف القزلباش تقترب منه فلاذ بالفرار وتفرق جمع قواته، وتشتتت في الصحراء.

وبلغت أخبار هذا النصر المؤزر قوات القزلباش وهي في طريقها إلى هرات فعم الجميع فرح غامر، وفي أثناء ذلك وصلت أخبار تفيد بهرب محمد خان الشيباني من هرات إلى مرو، فأمر الشاه اسماعيل عدداً من رجاله المعروفين بحنكتهم وحسن تدبيرهم بالتوجه إلى هرات والسيطرة على زمام الأمور فيها والحفاظ على أمن سكانها. ثم أمر قوات القزلباش بالسير إلى مرو لإدراك محمد خان فيها، وكانت قوات الأوزبك التي هزمت في معركتها مع فوج دانه محمد قد التحقت - بعد فرارها من أرض المعركة - بمحمد خان في مرو، وروى أفرادها ما شاهدوه من بسالة القزلباش وشجاعتهم فكان لرواياتهم تأثير سلبي على معنويات الجنود الأوزبك.

وبدت طلائع القزلباش في مشارف مرو، فاجتمع محمد خان برجاله وتداول الأمر معهم، فكان رأيهم الابتعاد عن خوض الحرب في الصحراء والدخول إلى قلعة المدينة والاعتصام فيها مع إرسال رسل سريعة في أثناء ذلك إلى تركستان لإحضار القوات منها والقيام بمشاغلة القزلباش حتى يصل المدد وحينذاك تقطع طرق التموين على القزلباش حتى يصيبهم القحط ثم تهاجم من كل صوب بعد أن يكون الجوع قد أخذ مأخذه منها.

واستحسن ملك الأوزبك هذه الفكرة، فدخل سور مرو وأمر قواته التي بلغ تعدادها ثلاثين ألف مقاتل بالدفاع عن السور والأبراج.

وفي الجانب الآخر وصلت قوات القزلباش أطراف مرو فأحاطت بها من جهاتها الأربع، ولكن تجهيزات هذه القوات لم تكن كافية لمحاصرة مدينة كبيرة وسور منيع كما هو الحال في مرو ولم تكن قد جلبت معها المستلزمات الضرورية لفتح القلاع حيث لم يكن أحد يتصور أن يلجأ محمد الشيباني إلى الاعتصام في قلعة بعد كل ما بدر منه من تبجح وغرور.

وفي الأيام الأولى من الحصار، أخذت بعض قطعات الأوزبك تخرج من المدينة وتهاجم القزلباش، ولكنها كانت تعود في كل مرة بخسائر كبيرة، فأمر شيبك خان بالكف عن الحرب، فكانت الأيام الأخيرة من الحصار هادئة وخالية من أي عملية عسكرية، مما كان يوحي بأن الأوزبك يتعمدون إضاعة الوقت وإطالة فترة الحصار.

ومن جانب آخر كان الشاه اسماعيل وأركان دولته يدركون كل الإدراك أن الحصار إذا ما استغرق شهرين أو ثلاثة فلن يكون في مصلحتهم، وستتعسر الأمور أكثر بقدوم إمدادات القوات الطورانية من كل حدب وصوب. وأخذ الشاه يتدبر الأمر ويستجلي الحلول حتى توصل إلى فكرة، عزم على تنفيذها.

وفي اليوم التالي أخذ قادة القزلباش يتحدثون إلى أفرادهم عن وقوع حوادث مؤسفة في حدود آذربايجان وديار بكر والعراق، حيث خرج المشاغبون في هذه المناطق وعاثوا فساداً.

وانتشرت هذه الإشاعة بين صفوف القزلباش في وقت قصير، ثم انتقلت منهم إلى الأوزبك عبر الجواسيس والمنتفعين وأخذت تكبر شيئاً فشيئاً، ثم بعث الشاه اسماعيل رسالة إلى محمد خان الشيباني كان مفادها ما يلي: لقد قدمنا إلى خراسان على أمل اللقاء بك كما وعدتنا مراراً، ولكنك لم تقابلنا وأغلقت بابك دون الضيف ولازمت دارك كالنساء، والآن فقد اضطرتنا أحداث آذربايجان والعراق إلى العودة، وإني أوكل الأمر إليك في المستقبل لتلتقي بنا حيثما تشاء.

وحمل الرسالة أحد أهالي المنطقة، ثم طوى القزلباش خيامهم في وضح النهار وحملوها على ظهور إبلهم ثم تحركوا في صفوف منظمة.

وحين تحركت قوات القزلباش مغادرة مرو، عين الشاه فوجاً منها للسير وراء القوات وحماية ظهرها، وكان تعيينه هذا علانية، ولكنه خصص من هذا الفوج حوالي ثلاثمائة فارس وجعل عليهم أمير بيك موصلو، وأمره سراً بمواكبة الفوج حتى النهر الذي يتفرع عن نهر (تجن) ثم التخلف عنه بمجموعته والتوقف هناك. ثم قال الشاه لأمير بيك: إني واثق أن قوات الأوزبك ستلحق بنا حالما ترى انسحابنا فبادر أنت ومجموعتك إلى الكر والفر على بعد أمامها وعندما تقترب منكم سارع إلى الفرار والحق بنا لتبلغنا الأمر.

وبعد صدور هذه التعليمات توجهت قوات القزلباش إلى محمود آباد فعسكرت بالقرب منها، فلما خيم الليل بظلمته أمر الشاه بإيقاد نار قليلة في المعسكر، ثم أصدر أوامره إلى أفراد القزلباش بترتيب صفوفهم على شكل نصف دائرة كما يفعلون في ميدان الحرب وسمح لهم بالنوم مع البقاء على أهبة الاستعداد، وأوصى بتثبيت مشاعل جاهزة للاشتعال في نصف دائرة وإشعالها حالما يصدر صوت خاص.

ويذكر المؤرخون أن عدد قوات القزلباش آنذاك يتروح بين ٢٥ و٣٠ ألف شخص بما فيهم الخدم والحمالون.

وحين وصلت محمد خان رسالة الشاه اسماعيل وشاهد بعينه انسحاب القزلباش التفت إلى حاشيته قائلاً: «إنها فرصة ثمينة هيأها لنا حسن حظنا، فلا بد أن يكون الشاه الشاب والمغرور يعيش الآن النشوة فينصرف إلى اللهو والمتع هذه الليلة فإذا بادرنا إليه وأخذنا قواته على حين غرة أهلكناه وشتتنا قواته».

وهكذا كان محمد خان يرى لزاماً عليه أن يغسل العار الذي لحق به بمهاجمته لقوات القزلباش ومن ثم جمع قواته المتواجدة في المدينة ويبلغ تعدادها ثلاثين ألف فارس وخرج بها من المدينة ليلاً فعبر نهر محمود آباد، فأخذ أمير بيك موصلو يكر ويفر حتى إذا هجمت عليه قوات الأوزبك أسرع بجماعته هارباً أمامهم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن صاحب (روضة الصفا) وعدد من مؤرخي ذلك العصر يذكرون بأن ثلة من حملة المعاول والرفوش قد أخفوا أنفسهم على ضفاف نهر محمود آباد بأمر من الشاه اسماعيل لتدمير الجسر الممتد على هذا النهر بمجرد عبور آخر مجموعة من الفرسان الأوزبك.

وهكذا عبر الأوزبك النهر وتعقبوا أمير بيك وفرسانه الهاربين وفجأة وجدوا أنفسهم بين نصف دائرة من صفوف القزلباش المستعدين للقتال، حيث كان أمير بيك قد أعلمهم من قبل وحينئذ نفخ بوق خاص فأضرمت النار في المشاعل المثبتة حول المعسكر وتحول الليل إلى نهار، وأدرك شيبك خان حينها أنه خدع واستدرج إلى المصيدة فلم ير بداً من الاشتباك مع العدو، وكان الوقت سحراً فاستمر الأوزبك يقاتلون لثلاث ساعات حتى مرت ساعة على طلوع الشمس فلم يطيقوا الصمود أكثر وأطلقوا الأعنة لخيولهم مدبرين، فلما بلغوا الجسر وجدوه محطماً، فاتجهوا نحو بستان كان محمد خان قد بناه حديثاً في تلك المنطقة، وكان المدخل إلى هذا البستان عبارة عن دهليز يبلغ طوله ثلاثين متراً فتدافع الجنود للدخول واشتد زحامهم فهلك بعضهم تحت حوافر الخيول، وأدركهم القزلباش فضربوا حول البستان حصاراً شديداً ثم أفلحوا في هدم جدار البستان واقتحموه فقتلوا من حاول المقاومة وأسروا من استسلم منهم ولكنهم لم يجدوا لمحمد خان أثراً، ويذكر السيد رضى التبريزي في كتابه أن شخصاً من أبطال القزلباش يدعى عزيز آقا استطاع في آخر الأمر العثور على جسد محمد خان بين أكداس القتلى فقطع رأسه وقدمه إلى الشاه اسماعيل فلما شاهده الشاه أطرق برأسه ثم توجه بالحمد والثناء للباري تعالى على تمكينه من خصمه اللدود وكان مقتل محمد خان في يوم الجمعة، آخر شهر شعبان عام ٩١٦ للهجرة.

أوضاع هرات وخراسان

بعد اندحار الأوزبك

بعد أن أحرز القزلباش انتصارهم الكبير على الأوزبك، أمر الكتاب بكتابة رسالة الفتح بأسلوب أدبي بليغ إلى كل مكان ووجهت رسالة إلى هرات، حملها أحد المقربين إلى الأمير نجم الثاني ويدعى قلي جان بيك.

وبلغ أهالي هرات خبر اقتراب موكب قلي جان بيك من مدينتهم، فبادر العلماء وكبار القوم مثل: شيخ الإسلام أحمد التفتازاني والأمير نظم الدين عبد القادر الشهندي والسيد غياث الدين محمد پور أمير جلال الدين يوسف الرازي والقاضي صدر

الدين محمد الإمامي والقاضي اختيار الدين حسن تربتي وعدد آخر من العلماء والسادات إلى الاجتماع في دار السيادة السلطانية التي بناها الملك اليورياني لاستقبال السادة بشكل خاص وتداولوا أمور المدينة فيما بينهم وانتدبوا عدداً منهم لاستقبال موكب قلي جان بيك، وشاهد أهالي هرات الذين ذاقوا من الأوزبك مر العذاب اثنين من الأوزبك يدخلون دار السيادة فثارت ثائرتهم واقتحم الدار عدد من الأوباش والشباب الثائر فقتلوا محمد لكور ومحمد علي العيني أمام المجتمعين ثم سرى الاضطراب إلى أنحاء المدينة وأزقتها فقتل مائة شخص ممن كان لهم علاقة بالأوزبك، وفي عصر ذلك اليوم دخل قلي جان بيك المدينة فهدأ أهلها وسلم رسالة الفتح إلى أعيان المدينة وأشرافها.

وفي اليوم التالي اجتمع عامة الناس وخواصهم في المسجد الجامع واعتلى حافظ زين الدين المنبر وأنشأ يقرأ رسالة الفتح بأسلوب عذب ولحن مؤثر، ولكنه لم يستجب لطلب القزلباش الموجودين تحت منبره بذكر بعض العبارات فما كاد ينزل عن المنبر حتى بادره القزلباش بسيوفهم فأردوه قتيلاً في داخل المسجد.

وأصيب أهالي هرات بالرعب والهلع عند مقتل زين الدين. وقبل أن يتوجه معسكر القزلباش إلى هرات قدم الخواجه سيف الدين مظفر إليها امتثالاً لأمر الشاه فاستقبله أعيان المدينة وأشرافها وعلماؤها وأصدر أمره بالخطابة باسم الأئمة الاثني عشر (ع).

وكانت رسالة الوزير الأعظم نجم الثاني إلى أكابر هرات تتضمن الدعوة إلى المذهب الشيعي، وكذلك بعث الشاه برسائل أخرى يستميل فيها أكابر هرات وأشرافها وسائر أهاليها.

وفي يوم الجمعة اجتمعت جميع شخصيات هرات في المسجد الجامع، وارتقى المنبر الأمير صدر الدين سلطان ابراهيم الأميني وهو من كبار سادة هرات فقرأ على الناس رسالة من الشاه إسماعيل يطمئن الناس فيها، ثم أشار الخواجه مظفر إلى نقيب أشراف هرات الأمير جمال الدين عطاء آ وهو من كبار السادة في المدينة فخطب خطبة الجمعة وخص بها مناقب وفضائل الأئمة الاثني عشر، وختم خطبته بالثناء على الشاه إسماعيل والدعاء له.

وبعد ذلك قدم الوزير الأعظم نجم الثاني إلى حدود هرات في أواسط شهر رمضان عام ٩١٦هـ مصطحباً معه الخواجه كمال الدين محمود الساغرچي فسار لاستقباله سادات هرات وقضاتها وعلماؤها وفضلاؤها محملين بأنواع الهدايا، ثم نزل الأمير نجم في (باغ سفيد) وأرسل الخواجه كمال الدين محمود برسالة وعظ إلى الخواجه خرد.

والخواجه خرد هو أحد أعيان الأوزبك وكان آنذاك متحصناً في قلعة اختيار الدين وهي أكثر قلاع هرات مناعة وقوة، فلما قرأ رسالة الأمير نجم نزل عن قلعته معتذراً منه وطلب إليه أن يضمه إلى مرافقيه ففعل وعين (ويس بيك تكلو) حاكماً على قلعة اختيار الدين.

وفي أثناء ذلك سمعت المدينة باقتراب موكب الشاه الصفوي فباشر الأهالي بتزيين الشوارع والأزقة وفرشوا طريق الشاه من داخل المدينة إلى مسافة بعيدة عنها بأنواع الفرش الثمين.

وفي صبيحة العشرين من شهر رمضان المبارك خرج أهالي هرات عن بكرة أبيهم لاستقبال الشاه وفي (شمه خيز) بانت لهم طلائع الموكب الملكي وكان موكباً فخماً مهيباً لم يسبق له مثيل.

وعمد الشاه إسماعيل في هرات إلى إلغاء جميع التقاليد والأعراف التي سنها الأوزبك والطورانيون ورفع عن الأهالي كثيراً من الضرائب، وسلك في ولاية خراسان سلوكاً غاية في العدل والإنصاف وسعى في تأمين راحة الناس وتطييب خواطرهم حتى أحبه جميع السكان من سنة وشيعة ومسلمين وغير مسلمين.

وأمضى الشاه إسماعيل شتاء ذلك العام في هرات، وكان صيته قد طار في الآفاق فأخذت الرسل تتوافد عليه من مختلف الدول وقدم إليه أحد حكام النواحي المجاورة شخصياً وهو الميرزا السلطان أويس ابن السلطان أبو سعيد بورپان وكان يلقب بالخان ميرزا ويحكم بدخشان فرحب الشاه بمقدمه وخلع عليه وأهداه تاجاً من ذهب ونطاقاً مرصعاً وعدداً من الجياد ومبلغاً من المال ثم ولاه بدخشان وختلان وقلعة شادمان وجاء أيضاً بعض كبار علماء إيران وسادتها ومنهم الأمير نظام الدين عبد الباقي أحد أحفاد الملك نعمة آ ولي والأمير جمال الدين محمد الحسيني والقاضي عبد الرحمن ساوه فقدموا تبريكهم وتهنئتهم وشملهم الملك بعنايته.

وفي هذه السنة أوكل الحكم في ولاية مرو المهمة إلى دده بيك وفي ولاية هرات التي كانت بمثابة العاصمة بالنسبة لخراسان إلى حسين بيك ٢ وأوكلت أمور القضاء في خراسان وتعيين الصدور والقضاة في ولايات خراسان إلى الأمير غياث الدين محمد بن الأمير يوسف الذي كانت عائلته لسنين طوالاً محلاً لاحترام الخراسانيين.

ومع اقتراب أيام العيد قدمت إلى هرات عدة وفود من الهند سفراء من بلادهم إلى بلاط الملك الصفوي.

تنظيم الأمور في مازندران

كان آقا رستم روزافزون يستولي على ولاية ساري وبعض مناطق مازندران، وعندما استولى شيبك خان على خراسان أخذ رستم يلوذ به ويحتمي بقوته، حتى جاء الوقت الذي قتل فيه شيبك خان فاضطرب رستم اضطراباً شديداً وأصيب بالحمى ثم قضى نحبه بعد بضعة أيام.

وعندما بلغ الشاه إسماعيل خبر وفاة رستم روزافزون بعث الأمير سيف الدين المظفر إلى مازندران لجمع الضرائب المتخلفة خلال السنين الماضية. فلما دخل حدود مازندران خرج لاستقباله حاكم بارفروش (بابُل حالياً) الأمير نظام الدين عبد الكريم وهو من السادة الأشراف، وكان يدعي وراثته للحكم في هذه المناطق.

ومن جانب آخر قدم للاستقبال آقا محمد بن آقا رستم روزافزون وجلس الاثنان للمناظرة بحضور الأمير المظفر، فكان الأمير عبد الكريم يزعم أن الشرع يقضي بتوليه الحكم في جميع ولايات مازندران لأن آباءه وأجداده كانوا يحكمون هذه الولايات لقرون عديدة، وإن آقا رستم روزافزون خرج في السنين الأخيرة فاغتصب الحكم اغتصاباً. بينما كان آقا محمد روزافزون يطالب بخلافة أبيه في حكم ساري ونواحيها ولم تخلص مناظرتهما إلى نتيجة، فاصطحبهما الأمير المظفر معه إلى معسكر الشاه، فدخلوه في نواحي سمنان حينما كان الشاه عازماً على السير إلى العراق، فقدم الخصمان هداياهما إليه وعرضا أمرهما عليه، فشملهما بلطفه وعنايته وقرر إبقاء آقا محمد على ساري والمناطق التي كان أبوه آقا رستم حاكماً عليها فيما عين عبد الكريم حاكماً على باقي نواحي مازندران واشترط على الاثنين دفع الضرائب المتخلفة عن السنين الماضية إضافة إلى دفع الضرائب سنوياً، وتقرر بعد مداولات ومفاوضات طويلة أن يدفع الاثنان مبلغ ثلاثين ألف تومان عراقي سنوياً ثم توجها إلى مازندران برفقة الأمير المظفر لدفع الضرائب المتخلفة إليه.

وغادر معسكر القزلباش ولاية سمنان متوجهاً إلى قم، فأمضى الملك شتاءه فيها. وقدم عليه أيام إقامته فيها وفد مصر من قبل السلطان الغوري وكذلك سفراء الروم لتهنئته بفتح خراسان.

الأوضاع السياسية في إيران الصفوية

كان فتح خراسان يحظى بأهمية قصوى بالنسبة لإيران آنذاك، فقد بقيت إيران مجزأة لقرون عديدة وإذا كان اسم الدولة ومحلها في زمن السلاجقة والخوارزميين هو اسم إيران ومحلها، فإن إيران كانت في الحقيقة جزء من دولة مترامية الأطراف ذات شعوب وأقوام كثيرة، فمثلاً كانت امبراطورية ملكشاه السلجوقي تشمل سوريا وفلسطين وجميع أراضي الروم الإسلامية وتمتد من جانب الشرق إلى كاشغر وحدود الصين وحدود أفغانستان، وكان ملكشاه في الواقع يرى نفسه سلطان المسلمين دون منازع، ورغم أن مركزه هو إيران وأن اللغة الفارسية والعادات والتقاليد الإيرانية كانت تحظى بطابع رسمي إلا أن حدود إيران لم تكن مميزة وكذلك حدود الشعب الإيراني وإنما كان جزء من شعوب كثيرة كانت الامبراطورية العظمى تشتمل عليها، فكانت الأراضي الإيرانية تتعرض للتجزئة كلّما تعرّضت الدولة الكبرى للتجزئة.

وحينما ظهر الشاه إسماعيل اكتفى بالحدود الطبيعية الأصلية لإيران. ففي الشرق والشمال الشرقي كان نهر جيحون ونهر السند الحدود الطبيعية لإيران بعد إخضاع والي قندهار لسلطان الدولة الصفوية، وفي الحقيقة فإن إيران بوصولها إلى جيحون والسند قد استعادت حدودها الطبيعية التي كانت عليها في زمن الساسانيين، وهكذا الحال حينما امتدت حدودها في الشمال الغربي إلى مدينة دربند وجبال القفقاز وفي الغرب إلى السهول الممتدة على ضفتي شمال الفرات مثل قلعة كماخ ومدينة آمد وجميع نواحي ديار بكر التي يقطنها الأكراد والإيرانيون وكذلك وصلت حدود إيران في جنوب ديار بكر إلى أرض العراق وصحاري ولاية حلب وإلى الجنوب من ذلك في أراضي غربي القادسية والحدود الغربية لبابل القديمة، فهذه هي إيران في العصر الساساني وهكذا نرى الشاه إسماعيل أخذ يوسع بلاده سعياً منه للوصول إلى الحدود القديمة لإيران.

واندمجت إيران الغربية مع إيران الشرقية بفتح خراسان وأضحت دولة إيران الموحدة الكبرى.

وحين بلغت الدولة العثمانية ودولة مصر أخبار فتح خراسان، سعت الدولتان لتوثيق الروابط مع إيران القوية بحكم اقتضاء المصلحة السياسية.

ومن المعروف أن الدولة العثمانية أخذت تطمح للسيطرة على جميع البلدان الإسلامية بعد فتحها للقسطنطينية، ولكي تتمكن من تحقيق طموحاتها بدأت تكف يدها عن الجهاد في البلدان الأوروبية ثم وجهت جيوشها الجرارة المخيفة نحو البلدان الإسلامية.

ومن الطبيعي أن هذا التحول الكبير الذي طرأ على مخططات الدولة العثمانية سبب نقصاً كبيراً في شعبيتها ومكانتها في نفوس المسلمين، فقد أتاح انشغال العثمانيين بالمسلمين فرصة ثمينة للأوروبيين استعادوا فيها قواهم شيئاً فشيئاً حتى بات تقدم العثمانيين في أوروبا أمراً متعذراً بل بدأ هؤلاء يتراجعون عن المواقع التي فتحوها في قلب أوروبا.

وكان العداء مستحكماً آنذاك بين مصر والدولة العثمانية لوجود التنافس بينهما، ومن ثم كان قدوم سفراء الدولتين إلى بلاط الشاه إسماعيل في قم استمراراً لهذا العداء وهذا التنافس، فقد كانت كل دولة منهما تطمح إلى كسب إيران إلى جانبها. وبالإضافة إلى هذه الأسباب التي قدم السفراء من أجلها كان الوفد العثماني الذي وصل قم عام ٩١٧هـ يهدف إلى البحث في موضوع آخر، نحاول أن نتعرض له فيما يلي باختصار:

في الوقت الذي كان الشاه إسماعيل منصرفاً إلى قتال شيبك خان في خراسان، ظهر رجل في ضواحي أنقرة، كان أنصار الدولة العثمانية يسمونه شيطان قلي.

واسم شيطان قلي في الأصل هو نور علي ويلقب نفسه بشاه قلي وهو أحد مريدي الخانقاه الصفوي وأنصار الشاه إسماعيل، وقد نجح خلال فترة قصيرة ـ بعد دعوة الناس إلى نفسه ـ في جمع حشود عظيمة من أهالي تلك المنطقة، ومنهم الصوفيون والمتضررون من الدولة العثمانية. وتعاظم أمر شاه قلي حتى عجز الحكام المحليون ورؤساء المعسكرات المجاورة عن القضاء عليه فبعث السلطان بايزيد جيشاً بقيادة وزيره الأعظم علي باشا لإخماد حركة شاه قلي.

ودارت بين الطرفين معركة ضارية قتل فيها الوزير الأعظم وهزم جيشه، فأصيبت القوات العثمانية بالذعر ولم يجرؤ أحد بعد ذلك على قتال شاه قلي الذي باشر بشن الغارات على الولايات المجاورة ثم غادر الأراضي العثمانية بسلام ودخل الأراضي الإيرانية فالتحق بصفوف القزلباش. ومن الطبيعي أن تقوم الدولة العثمانية ببحث هذه القضية مع أركان الدولة الإيرانية.

وأما الوفد المصري فإن القدر الذي يعرف عنه هو أنه كان يحمل وثائق تظهر النزعة التوسعية لدى العثمانيين، ودعا إيران للاتحاد مع مصر عسكرياً وسياسياً بوجه الدولة العثمانية لأن مثل هذا الاتحاد سيكون فيه نفع الطرفين، فمن الممكن أن يوقف الدولة العثمانية عند حدها فيمنعها من التفكير بالاعتداء على جيرانها.

ورحبت إيران بهذه الدعوة، فأبرمت اتفاقاً بهذا الشأن مع مصر في أواخر عام ٩١٧ وبعثت بوفد إلى مصر لإتمام الاتفاق.

وفي الوقت الذي كانت قوات القزلباش تعسكر في قم عُلم أن السلطان بايزيد قد مات وخلفه ابنه السلطان سليم الذي باشر من فوره بقتل إخوانه وأولادهم واستطاع أحد أحفاد بايزيد وهو السلطان مراد الإفلات من قبضة عمه القاسي واللجوء إلى البلاط الإيراني.

وفي الوقت الذي كان فيه الشاه إسماعيل يمضي في قم شتاء عام ٩١٧ وربيع ٩١٨ كان يتابع أخبار حرب تركستان ونتائجها وقصة هذه الحرب كما يلي:

بعد أن استفحل أمر محمد خان الشيباني وقويت شوكته هاجم سمرقند فاضطر حاكمها الملك ظهير الدين محمد بابر إلى مغادرتها والانسحاب نحو فرغانه وأنديجان ولكن قوات الأوزبك واصلت زحفها فواصل هو انسحابه متخلياً عن ملكه في بلاد ما وراء جيحون فدخل بلخ ثم غادرها إلى كابل وأسس فيها حكومة صغيرة متخذاً منها عاصمة للحكم الجديد.

وفي الحقيقة فإن الملك ظهير الدين بابر كان من أليق أحفاد الأمير تيموربوركان بالحكم وأشدهم بأساً وعزيمة فلم تكن الهزائم المتكررة التي لحقت به لتثنيه عن عزمه أو لتحد من طموحاته، فقد أعاد الكرة وتوجه من فرغانه إلى سمرقند إلا أن قوة أعدائه أرغمته على الانسحاب فهاجم فرغانه ثم توجه إلى بلخ وكابل وتوجه في آخر المطاف إلى الهند فأسس فيها مملكة كبرى استمرت قروناً طويلة حتى قضى الانجليز عليها.

وعندما كان الشاه إسماعيل في هرات قدم عليه وفد الملك بابر محملاً بأنواع الطرائف والهدايا عارضاً الإخلاص والمودة وطلب خلال زيارته مساعدته للملك بابر في استعادة أراضي بخارى وسمرقند من الاحتلال الأوزبكي.

ولبى الشاه إسماعيل جميع طلبات الملك بابر بكل رحابة صدر، وأصدر أمراً بترك جميع الأراضي التي يستولي عليها الملك بابر في بلاد ما وراء جيحون ملكاً خالصاً له، وهكذا أعد الأخير في عام ٩١٧هـ جيشاً له من زابلستان وتوجه إلى ولاية بدخشان وكان عليها ابن عمه السلطان ويس الذي سارع إلى الالتحاق بابن عمه بجيشه، وسار الاثنان إلى قلعة شادمان وكان عليها اثنان من زعماء الأوزبك هما حمزة سلطان ومهدي سلطان فوقفا بقواتهما للدفاع عن القلعة ودارت بين الجانبين حرب هلك فيها القائدان الأوزبكيان واستولى الملك بابر على شادمان وختلان وقندز وبغلان ونعم الناس في هذه الولايات بحكمه العادل مرة أخرى.

وفي تلك الأثناء بعث الملك بابر بأخبار فتوحاته إلى الشاه إسماعيل وأخبره أنه في حال قدوم أحد أمراء القزلباش إليه على رأس فوج من المحاربين فستتم السيطرة على بلاد ما وراء جيحون جميعاً وتسحق أركان الأوزبك ويخطب في هذه البلاد باسم الشاه إسماعيل ويضرب النقد باسم الملك الصفوي العظيم.

وبادر الشاه إسماعيل فور وصول الطلب إلى إرسال أحمد بيك صوفي أوغلي وشاهرخ بيك أفشار على رأس عدد من المحاربين الأشداء إلى قلعة شادمان لتقديم المساعدة والمدد للملك محمد بابر.

ووصل أميرا القزلباش إلى الملك بابر في القلعة المذكورة فازداد ثباتاً وقوة وتحرك نحو سمرقند، وبلغ خبر تحركه حاكم سمرقند محمد تيمور سلطان وحاكم بخارى عبد الله خان فلم يجرؤا على المقاومة لا سيما بعد أن عرفا باصطحابه قوة من القزلباش فغادرا ولايتيهما وتوجها إلى تركستان فدخل الملك بابر سمرقند وسعى فيها لرفع المظالم عن أهلها وإحلال العدل والقسط بينهم، ثم خطب في يوم الجمعة باسم الأئمة الاثني عشر والشاه إسماعيل وقام بعدها بإرسال الولاة إلى بخارى وسائر الولايات الأخرى ثم حمّل أحمد بيك صوفي أوغلي وشاهرخ بيك بأنواع الهدايا النقدية والعينية وعدد من الجياد الثمينة إلى الشاه إسماعيل وأجازهما في العودة إلى بلادهما وفي غضون ذلك قدم إليه رسول البلاط الإيراني وهو محمد جان الذي كان يشغل في حكومة الأمير نجم

الثاني منصب (أيشيك آغايسي) أي رئيس التشريفات ولاقى محمد جان في بلاط الملك بابر معاملة مغايرة لما كان يتوقعه، فلما عاد من سمرقند إلى قم قدم تقريره بالواقع وكان الأمير نجم الثاني معتمداً على رسوله وواثقاً منه فأيد كلامه في حضور الشاه وتعهد بالسفر شخصياً إلى ما وراء جيحون وتسوية الأمور بما ينفع إيران.

وافق الشاه على الاقتراح وأمر عدداً من أمراء الدولة وأركانها مثل زين العابدين بيك وبادمجان بيك والخواجه كمال الدين محمود ساغرجي بمرافقة الوزير الأعظم في سفره. وشد الأمير نجم الرحال إلى خراسان فلما وصل مشارف جيحون بلغه أن سلاطين الأوزبك جمعوا شتاتهم بعد عودة القزلباش من سمرقند وتوجهوا من تركستان إلى سمرقند بجيش جرار فهزموا فيها الملك محمد بابر، فحمل أهله وذويه إلى قلعة شادمان وتحصن فيها، وانصرف الأوزبك إلى إحكام سيطرتهم على الولايات التي استولوا عليها ثم توجهوا إلى قلعة شادمان لمحاصرتها وكان الملك بابر قد أحكم تحصينها بمساعدة ابن عمه خان ميرزا فحفر خندقاً حولها وأقام المتاريس في أزقتها الداخلية، ثم بعث وراء حاكم بلخ بيرام بيك قرماني يستمده العون.

وبادر بيرام بيك قرماني من فوره إلى إرسال ثلاثمائة محارب من أبطال القزلباش تحت قيادة الأمير السلطان محمد الشيرازي، وكانت قوات الأوزبك قد بلغت ولاية خيابان حين بلغها وصول مدد من القزلباش فكفت عن الزحف ثم عادت أدراجها إلى سمرقند وبخارى.

وكان الأمير نجم خلال ذلك قد دخل خراسان فأقام فيها بضعة أيام واستقبل ساداتها وقضاتها وأشرافها وأعيانها الذين كان يتوافدون على معسكره باستمرار وأكرمهم وأبقاهم في مناصبهم ثم عزم على السير إلى بلاد الأوزبك لاستئصال شوكتهم ومن ثم أبقى معه الأمير غياث الدين محمد بن الأمير يوسف وهو سيد هرات وأحد كبار سادة خراسان وأبقى معه والي هرات حسين بيك وكذلك جمع في عسكره العديد من كبار قادة ولايات خراسان وزعمائها ثم توجه بهم إلى بلخ. فاستقبلهم واليها بيرام بيك قرماني استقبالاً عظيماً.

وعبر الأمير نجم نهر جيحون بعد إعداد السفن اللازمة وعسكر في ضفته الأخرى، وكان قد بعث الأمير غياث الدين محمد من بلخ إلى قلعة شادامان ليدعو الملك بابر إلى الانضمام إليه فقدم إليه الأمير غياث الدين في تلك الأيام وأخبره باقتراب الموكب البابري فسارع الأمير نجم الثاني وزعماء عسكره لاستقباله فالتقى الموكبان في المنطقة المعروفة باسم (بند آهنين)، وقدم كل منهما هدايا لصاحبه بمقتضى الأعراف المتداولة آنذاك ثم جلسا للمشاورة فاستقر رأيهما على السير لاحتلال مدن ما وراء جيحون.

وتجدر الإشارة هنا إلى بعض التغيرات التي طرأت على أخلاق الأمير نجم الثاني فهو بعد أن خلف الأمير نجم رزير كوزير أعظم ونائب للملك أخذ على عاتقه تدبير شؤون الدولة المترامية الأطراف فأحسن سياسة الرعية وتلبية حاجاتها بكل رحابة صدر وازدادت صلاحياته اتساعاً حتى فاق جميع الأمراء ورجال الدولة وبلغ من الثراء والعظمة والقدرة ما جعله في عداد زعماء العالم آنذاك، فمثلاً كان عدد حراسه خمسة آلاف فارس مدججين بالسلاح ويُذبح في كل يوم مائة خروف لمائدته الخاصة، إضافة إلى مظاهر عديدة يطول ذكرها.

ومن الطبيعي أن الإنسان حينما يصل هذا المستوى من الجاه والسطوة فإنه يصاب بالغرور ويستبد برأيه وهكذا كان حال الأمير نجم الثاني فقد نسي الهدف الذي قدم إلى خراسان وما وراء جيحون من أجله، فقد كان هدفه ـ كما أسلفنا ـ هو تقويم الملك بابر وإعادته إلى الاتحاد مع إيران إذا كان منصرفاً عنه.

وهكذا سار الأمير نجم نحو مدينة ترمذ محاطاً بمظاهر العظمة والأبهة فاجتازها وهاجم ولاية خزار وكان عليها أحد سلاطين الأوزبك واسمه السلطان آق فولاد ولم ير هذا الحاكم في نفسه القدرة على المقاومة فتصالح مع الأمير نجم ثم سلمه المدينة بعد أخذ العهود والمواثيق ولكن الأمير نجم أمر بحبسه مع جماعة من الأوزبك ثم ضرب أعناقهم وعفا عن سكان المدينة. ثم توجه نحو مدينة قرشي فبادر حاكمها شيخيم ميرزا إلى إحكام تحصين مدينته والاستعداد للدفاع عنها بعدما سمع بمصير السلطان آق فولاد.

وعمد الأمير نجم إلى توزيع قواته على أطراف المدينة ثم أمر بنقب حصنها ورميها بالمنجنيق وما زال بها حتى فتحها عنوة فأسر شيخيم ميرزا وقواته ثم أصدر أوامره بإبادة أهل المدينة.

وكان في المدينة بعض السادة فاعتصموا بالمسجد الجامع وتوسلوا بغياث الدين محمد ليتوسط لهم لدى الأمير نجم وفي نفس الوقت كان هناك جماعة من الجغتاي وهم القبائل المنسوبة إلى آل تيمور فتوسلوا بالملك بابر وأسرع الاثنان إلى الأمير نجم متوسلين به ليعفو عن السادة وأقوام الجغتاي، ولكن الأمير نجم كان قد بلغ به الغرور حداً أعمى بصيرته فرفض وساطتهما، وهكذا قتل شيخيم ميرزا بيك وما يقارب الخمسة عشر ألف من عساكر المدينة وأهاليها ومن بينهم الشاعر المعروف (السنائي).

وقد أحدثت مجازر مدينة قرشي ردة فعل عنيفة في نفوس قادة الجيش فساءت نظرتهم إلى الأمير نجم وتشاءموا من عاقبة حملاتهم القادمة.

توجه الأمير نجم إلى بخارى بعد فراغه من أمر قرشي وحين بلغ مشارفها سمع أن عبيد آ خان والسلطان جافي بيك وأكثر

جنودهما قد تحصنوا بالمدينة استعداداً للدفاع عنها، وفي نفس الوقت بلغه أن السلطان محمد تيمور والسلطان أبو سعيد عازمان على خوض الحرب بقوات سمرقند، فوجه الأمير لهما بيرام بيك فرماني وحينما سمع قائدا الأوزبك بقدوم بيرام بيك تراجعا إلى قلعة عجذوان وتحصنا بها، فأبلغ بيرام بيك الأمير نجم بالأمر.

وعلى الفور توجه الأمير نجم إلى عجذوان بكامل قواته فحاصرها، وعمد الأوزبك إلى أسلوب المناورات فكانوا يخرجون منهم جماعة في كل يوم فتأخذ بالكر والفر ثم تنسحب إلى داخل القلعة، ولم يتدبر الأمير نجم عاقبة أمره فأدام الحصار أربعة أشهر حتى نفذت المؤنة وعلف الحيوانات وأصبحت القوات في عسر من أمرها. فطلب بعض قادة الجيش من الأمير الانسحاب إلى حدود قرشي وخزار حتى انقضاء فصل الشتاء ليتسنى جمع المؤن وتوفير العلف مرة أخرى ثم العودة إلى عجذوان ومحاصرتها ولكن الأمير رفض طلبهم وألحوا هم في الطلب وما زالوا به حتى أقنعوه فوعدهم بالرحيل في اليوم التالي، وكان الأوزبك قد أدركوا مصاعب القزلباش وشحة مؤنهم وعلف حيواناتهم فوجدوا في ذلك فرصة سانحة للانقضاض على عدوهم ومن ثم خرجت طلائع جيشهم من بين الأشجار في يوم الثلاثاء، الثالث من رمضان عام ٩١٨هـ وهو اليوم الذي تقرر فيه الانسحاب ففوجئت قوات القزلباش بخروجهم، ولم ير الأمير نجم بداً من الدخول في الحرب فنظم قواته ووقف في قلبها وجعل الملك بابر في قواته لسد الثغرات التي ربما يحدثها الأوزبك في صفوف جيشه.

ودارت رحى الحرب فصرع بيرام بيك في الصدمة الأولى، فزاد مصرعه من حماس الأوزبك واشتدت حملاتهم ولم يكن أمراء القزلباش متحمسين للقتال مع الأمير نجم فلم يستمروا بالمقاومة ولاذوا بالفرار، فهرب الملك بابر بدوره إلى قلعة شادمان مصطحباً قواته التي أتى بها وتبعه الأمير غياث الدين محمد والخواجه كمال الدين محمود، وهرب حسين بيكّ وأحمد بيك صوفي أوغلي نحو آمو فعبراه واتجها إلى خراسان. وطفق الأوزبك يقتلون وينهبون وأسروا الأمير نجم فأمر عبيد آ خان بقتله وقتل أيضاً زين العابدين بيك وعدد كبير من أبطال القزلباش وقوات خراسان.

وتعقب الأوزبك فلول القزلباش فعبروا نهر آمو ودخلوا خراسان فعاثوا فيها فساداً وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها وهدموا العديد من أبنيتها.

وصلت أخبار هذه المآسي والنكبات الشاه إسماعيل في أصفهان فأمر بإحضار القوات. وتزامن ذلك مع ولادة ابنه البكر الأمير طهماسب ميرزا فأقام الاحتفالات وقدم الصدقات ثم توجه إلى خراسان.

لقد وجه الأمير نجم بغروره واستبداده برأيه لطمة قوية إلى الدولة الصفوية الفتية، فقد كان مقتل وزيرها الأعظم وتشرذم قواتها إهانة كبرى لحقت بكرامتها، إضافة إلى الخسائر الفادحة التي مني بها جيش القزلباش فبعد فرار قادة الجيش دون مقاومة منهم ولا قتال تشتتت قطعات الجيش ولاذت بالفرار على غير هدى.

واستغل سكان المناطق المختلفة الوضع الذي آل إليه مقاتلو القزلباش فحمل السلاح كل من يقدر منهم على ذلك واشترك في الغارة على شراذم القزلباش فوصل الأمر في بعض المناطق إلى تجريدهم حتى من ثيابهم وفي مناطق أخرى كانوا يقتلونهم بعد تجريدهم من ثيابهم ولم تقتصر هذه الحالة المأساوية على الجانب الآخر من نهر آمو بل تعدتها إلى أراضي خراسان ومنها حدود مرغاب وكذلك في أطراف ولاية بادغيس بالقرب من مدينة هرات حيث انبرت بعض طوائف التركمان والعشائر الأخرى إلى تجريد الهاربين من القزلباش من ثيابهم وقتلهم، ويمكن القول أن خسائر القزلباش التي لحقت بهم بعد الحرب فاقت تلك التي لحقت بهم في الحرب ذاتها. وربما كانت هزيمة عجذوان وشيوع أخبارها في البلدان المجاورة سبباً في تشجيع أعداء الدولة الصفوية ونهوضهم للقضاء عليها. ومن ذلك ما عزم عليه السلطان سليم من شن الحرب على إيران رغم انشغاله بالمشاكل الداخلية لبلاده وفراغه لتوه من القضاء على إخوته ومناوئيه.

ولم يكن السلطان سليم يحاول دخول الحرب وحده بل كان يحرض الحكام المجاورين لإيران عبر الرسائل المتكررة ويحضهم على شن الحرب على إيران فقد كان يحسب أن الملك الصفوي الشاب لن تقوم له قائمة بعد هزيمة عجذوان.

توجه الشاه إسماعيل إلى خراسان

لجأ بعض قادة القزلباش إلى هرات بعد هزيمتهم في عجذوان وتحصنوا بها وسعوا مع أهلها وأعيانها في إحكام تحصينها، وبعد أيام قدم السلطان جاني بيك بقواته إلى مشارف المدينة فحاصرها ثم أخذ بمهاجمتها فوقف أهلها للدفاع عنها بالنبال والأحجار والنار.

وكانت هرات عامئذٍ تفتقد إلى المؤن الكافية فأصابها الحصار بضيق شديد ولكنه لم يستمر فترة طويلة، حيث وقع بعد شهرين من الحصار خلاف بين جاني بيك سلطان وعبيد الله خان، فغادر الأول هرات بقواته في الثالث من محرم من عام ٩١٩هـ، ورحل إلى آمو ثم تبعه عبيد آ خان في نفس اليوم فتنفس أهالي هرات الصعداء وخرجوا من عزلتهم إلى مزارعهم ومراعيهم.

وإذا كانت هرات قد تابعت أخبار عبور جاني بيك سلطان لنهر آمو بارتياح فإنها كانت تتابع في نفس الوقت أخباراً محزنة مفادها أن السلطان تيمور عبر آمو بالاتجاه المعاكس وانضم إلى عبيد الله خان وهاجم الاثنان مشهد وسيطرا على الأراضي الممتدة من ولاية مرو وحتى نواحي اسفراين وضواحي سبزوار وبيتا العزم على السيطرة على جميع أراضي خراسان.

وأصيب أهالي هرات بالذعر لهذه الأخبار المشؤومة ورأى زعماء القزلباش أن لا طاقة لهم بصد هجوم الأوزبك خصوصاً بعد ما رأوه من قحط وضيق شديد في الحصار الأول ومن ثم غادر المدينة حسين بيك وأحمد بيك وسائر أمراء القزلباش الآخرين متوجهين إلى العراق عبر سيستان وكرمان وبادر بعض أنصار الأوزبك في المدينة فور خروج قوات الأوزبك إلى السيطرة على زمام الأمور فيها وكان على رأسهم الخواجة أبو الوفا فبعث الرسائل العاجلة إلى مشهد لدعوة السلطان تيمور إلى هرات ولبى الأخير الدعوة على عجل فقدم إلى المدينة وألقيت الخطبة باسمه.

وما كاد الأوزبك يأخذون بزمام الأمور حتى انبرى بعض السكان الجاهلين والمتعصبين من السنة قتلاً للشيعة ونهباً لأموالهم وما زال الأمر يشتد على شيعة هرات حتى توسل الأمير غياث الدين محمد بالخواجه علي صدر الخوارزمي فأقنع الأخير السلطان تيمور بضرورة منع أوباش المدينة من استغلال الأوضاع، ثم لقي بعض هؤلاء الأوباش جزاء أعمالهم فانتهت الفوضى وأعمال القتل والنهب.

وكانت أخبار هذه المآسي تدفع الشاه إسماعيل للإسراع أكثر في حركته نحو خراسان، وكان يعلم بندرة المؤن فيها فأمر قواته بالتزود بالمؤنة بما يكفي لثلاثة أشهر.

وسلك الشاه طريق كبود پنبد وفيروزكوه في حملته ثم حط الرحال في سهل بسطام فلحق به فيه سيف الدين المظفر الذي تخلف عنه في مازندران لجمع الضرائب.

ومن جانب آخر كان الشاه قد أمر بإحضار القوات من القبائل والولايات فحضرت في سهل بسطام واستعرضها.

وبعد انتهاء الاستعراض وإكمال التجهيزات العسكرية اللازمة تحركت قوات القزلباش إلى خراسان وسبقها حاكم شيراز السلطان خليل على رأس نخبة من القزلباش فكان يغذ السير بهم من قبيل الغروب وليلاً حتى بلغ مشارف مشهد ولما علم عبيد الله خان باقتراب طلائع القزلباش ورأى أن لا طاقة له بمقاومتهم جمع عدداً من أعيان مشهد وزعمائها وأرغمهم على الرحيل معه إلى مرو ولم يتوقف فيها بل عبر نهر آمو وتوجه إلى بخارى، وبلغت أخبار هربه السلطان تيمور في هرات وبلغه أيضاً قدوم طلائع القزلباش فلم يجرؤ على المقاومة فاقتدى بعبيد آ خان وأرغم عدداً من أعيان ووجوه هرات على الرحيل معه إلى سمرقند وكان من بينهم الأمير غياث الدين محمد والأمير السلطان محمود بن غياث الدين ونخبة آخرون ولكن الأمير غياث الدين أدرك في سمرقند أن السلطان تيمور يبيت له الشر فهرب بمساعدة مولانا نظام الذي كان يشغل منصب الصدارة في سمرقند ووصل قلعة شادمان فرحب به الملك بابر وكرمه ثم حمله إلى هرات.

وفي هرات حدثت نزاعات بين أنصار الصفويين وشخص يدعى أبو القاسم بخشي وكان أبو القاسم هذا قد شغل منصب نيابة السلطان تيمور لبضعة أشهر، فاستفاد من هذا المنصب وجمع في هذه الفترة القصيرة عدداً من الغلمان المسلحين وحينما هرب السلطان تيمور من هرات أعلن أبو القاسم نفسه حاكماً عليها ولكنه اصطدم بمعارضة عدد من زعماء المدينة المؤيدين للصفويين ولم يقو على مقاومتهم فخرج منها وجمع بعض القوات من القرى والمناطق المجاورة وحاصر المدينة وما زال الأمر يشتد على أهل هرات حتى قدمت طلائع القزلباش بعد ثمانية أيام من الحصار وكان على رأسهم بيري سلطان فدارت معركة بين الطرفين، وقف فيها أهالي هرات إلى جانب القزلباش فكانت الغلبة لهم وفي اليوم التالي قدم سيف الدين المظفر إلى هرات فباشر تنظيم الأمور وإقرار الأمن فيها.

نتف من أخبار القزلباش

بعد هزيمة عجدوان

بعد أن اجتاز عسكر القزلباش منطقة ساوه رأى الشاه اسماعيل ضرورة تعيين خلف للأمير نجم الثاني يكون جديراً بهذا المنصب الكبير، ومن ثم عين الأمير نظام الدين عبد الباقي بعد أن استخلفه الأمير نجم الثاني في غيبته الأخيرة ليشغل منصب الوزير الأعظم بالوكالة إلى جانب منصبه في الصدارة، وأوكل منصب الصدارة إلى مير سيد شريف.

وعندما وصل عسكر القزلباش (النك راد كان) على بعد اثني عشر فرسخاً من مشهد أمر الشاه بحط الرحال ثم شكل مجلساً من أركان الدولة للتحقيق في حوادث خراسان وكيفية انتصار الأوزبك فشمل التحقيق جميع القادة دون استثناء، فاتهم بعضهم بالتقصير وجلدوا أمام أعين القوات وعنف بعض آخر وعوتب آخرون ولكن كان لدده بيك شأن آخر فقد كان من أكثر غلمان الشاه القدماء احتراماً ويعد من أعيان الصوفية وكان حاكماً على مرو حينما بدأ الهجوم الأوزبكي فترك هذا الثغر المهم وهرب دون قتال ومن ثم كانت عقوبته غاية في القسوة والشدة حيث أمر الشاه بإلباسه زي النساء وإركابه على ظهر الجواد بصورة مقلوبة ثم الطواف به في طرقات المعسكر، وكانت هذه العقوبة لشخص بمستوى دده بيك إنذاراً جدياً للآخرين.

وفي نفس اليوم شمل الشاه الأشخاص الذين شملهم التأديب بعطفه فخلع عليهم وكساهم وأهداهم سيوفاً وأنطقة مرصعة ثم رفع من مقامهم فجعل البيك سلطاناً وجعل السلطان خاناً ومنهم زينل بيك الذي كان قد رفع في السابق إلى سلطان، رفع ثانية في ذلك اليوم إلى درجة خان ثم عين حاكماً على هرات. وبعد الفراغ من تأديب المقصرين ثم تكريمهم تحرك العسكر نحو مشهد لزيارة مرقد الإمام الرضا (ع) وحينما لاحت قبة المرقد الشريف عن بعد

ترجل الشاه وترجل معه العسكر وتوجه الجميع للزيارة والدعاء.

ثم غادر العسكر الصفوي مشهد متوجهاً إلى هرات فوصل حدود بادغيس وهناك قدمت شكاوى الأهالي الشيعة والجنود القزلباش إلى الشاه فعلم منها أن بعض قبائل البادية وتركمان مرغاب وكذلك بعض قبائل جهار أويماق كان لها دور في قتل العديد من أفراد القزلباش الهاربين من معركة عجدوان وعلم كذلك أن بعض قبائل مرغاب قد دخلت في طاعة الأوزبك دون إكراه أو إجبار، فثارت ثائرة الشاه واستشاط غضباً، ثم أمر بعد تعيين القبائل المقصرة بالسير لها وإبادتها فامتثل للأمر السلطان جوجي أحد قادة القزلباش الأشداء وأغار على تلك القبائل فأسال من دمائها أنهاراً ونهب أموالها، فكان تأديباً عنيفاً أتى ثماره على أفضل وجه، فكثيراً ما حدث في السنين التالية أن تعرضت خراسان لغارات الأوزبك دون أن يجرؤ أحد من تلك القبائل على مد يد العون لهم سواء في ذلك الشيعي أو السني.

وبعد الفراغ من تأديب القبائل غادر عسكر القزلباش بادغيس إلى منطقة بابا خاكي وهي قريبة من هرات فحطت الرحال فيها، وحين علم أهالي هرات باقتراب موكب الملك الصفوي أخذوا يتوافدون عليه لطرح شكاواهم ومعاناتهم فكان الملك يشملهم بعطفه ويحاول التخفيف عنهم. ثم أمر وزيره الأعظم الأمير نظام الدين عبد القاضي بالسير إلى هرات وتنظيم أمورها، فدخلها مصطحباً معه حاكمها الجديد زينل خان وباشر في دفع المظالم عن الناس وإعادة الأمور إلى مجاريها.

ومن الأمور الأخرى التي حدثت في تلك الأوقات إرسال شاهرخ بيك لفتح قندهار ولهذا الأمر قصة نحاول عرضها فيما يلي بإيجاز: بعد وفاة السلطان حسين ميرزا بايقرا استقل أحد زعماء دولته الجغتائية وهو الأمير ذو النون أرغون بولاية قندهار، ولما استولى بابرشاه على ولاية كابل وثبت أركان دولته فيها عزم على احتلال قندهار فلجأ ذو النون إلى الشاه اسماعيل حيث بعث بابنه شجاع بيك إلى هرات للقاء الشاه فيها، فالتقى الشاه، وقدم له آداب الطاعة والخضوع، ولكن الشاه اسماعيل أدرك أن القصد من ذلك هو إضاعة الوقت وتفويت الفرصة على بابر شاه ولذلك حينما بدأ رحلة العودة إلى العراق أمر حسين بيك حاكم خراسان بحبس شجاع بيك اختيار الدين في هرات حتى يتقرر مصير قندهار.

ومكث شجاع بيك في القلعة إلى حين ثم استعان ببعض أعيان هرات وأفلت من حبسه ليعود إلى قندهار. وبلغ حسين بيك خبر فرار شجاع بيك فغضب غضباً شديداً وأمر بحبس جميع الجغتائيين وأتباعهم الموجودين في هرات وكان هذا الأمر المتسرع سبباً في إلحاق الأذى بالعديد من الأبرياء وسبباً أيضاً فيما بعد بعزل حسين بيك من ولاية خراسان كما عزل من قبل من ولاية هرات.

وفي الوقت الذي كان جيش القزلباش يعسكر في بابا خاكي أمر الشاه اسماعيل شاهرخ بيك أفشار بالهجوم على قندهار بقوة من القزلباش وأوصاه بالتوجه لمساعدة ديو سلطان في محاصرة قلعة (اندخود) بعد فراغه من أمر قندهار.

وسار شاهرخ بيك إلى قندهار فلم يفلح في فتحها حيث تحصن فيها الأمير سلطان علي عم شجاع بيك فتوجه إلى قلعة اندخود فسمع في أثناء الطريق بفتحها وإبادة أهلها، فلحق بمعسكر القزلباش بالقرب من أصفهان وقدم تقرير أعماله للشاه اسماعيل.

وهكذا استقرت الأوضاع في خراسان وثبتت أقدام القزلباش في مدينتيها الرئيسيتين؛ هرات وبلخ حيث سيطر ديو سلطان على طخارستان سيطرة تامة وأرسى زينل خان دعائم النظام والاستقرار في هرات، وحينذاك بلغت الشاه اسماعيل أخبار من الحدود الغربية للبلاد تقتضي سفره إلى العراق، ومن ثم شد الرحال من بابا خاكي إلى طوس في أوائل عام ٩١٩هـ.

وفي طوس بلغت أنباء تفيد بتمرد بعض الجغتائيين وتعيينهم لأحد الأمراء التيموريين وهو السلطان محمد بايقرا بن الميرزا أبو الحسن بايقرا ملكاً في حدود ولاية نسا وأبيورد فسار إليهم الأمير نظام الدين عبد الباقي ومحمد بيك استاجلو فشتتا جمعهم وأهلكا منهم جماعة كثيرة ثم فرضا النظام في شمال خراسان وعادا للالتحاق بجيش القزلباش.

وأمضى الشاه اسماعيل شتاء عام ٩١٩هـ في أصفهان ثم توجه إلى همذان في بداية الربيع. وفي همذان وصلت أنباء مهمة عن تحركات الجيش العثماني توحي بأن السلطان سليم ينوي الهجوم على الموصل وبغداد عن طريق ديار بكر والجزيرة ولكن آخر الأخبار التي وصلت من ديار بكر كانت تفيد بتحرك السلطان العثماني بجيوش جرارة نحو آذربايجان.

بداية الحروب العثمانية ـ الإيرانية
وحقيقة معركة جالدران

ذكرنا فيما مضى أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يطمحون لبسط نفوذهم على الحرمين الشريفين وسائر البلاد الإسلامية ومنها إيران التي كانت تمثل عقبة كؤود أمام تحقيق الطموحات العثمانية لما كانت تتمتع به من قوة معنوية ومادية، ومن ثم كان السلطان بايزيد ينفق أموالاً طائلة للحصول بعض النفوذ في إيران.

وكان نفوذ الأسرة الصوفية يمتد إلى الأراضي العثمانية بل يؤثر حتى على بعض رجال وأعيان البلاط العثماني ولذلك بقيت الرغبة في احتلال إيران مجرد حلم بعيد طوال حياة السلطان بايزيد، ولكن بعد أن أقعده المرض وخلفه ابنه في العرش أخذ الأخير يراقب تعاظم شأن الشاه اسماعيل بكثير من القلق والريبة

وأدرك أن سكوته سينهي الأمل في تحقيق الحلم العثماني في التوسع لا سيما بعد أن تكشف للعيان اتحاد مصر وإيران بعد اعتزال السلطان بايزيد للعرش في عام ٩١٨هـ. بحيث ورد ذكر هذا الأمر صراحة في رسالة حاكم بعض مناطق كردستان الخواجه رستم إلى السلطان بايزيد.

وكان اتحاد مصر وإيران أمراً مفاجئاً بالنسبة للعثمانيين إذ لم يكونوا يتوقعون مثل هذا الاتحاد بعد اندلاع الحرب بين الشاه اسماعيل وعلاء الدولة ذو القدر التي تسببت في تعكير العلاقات بين مصر وإيران بل وصل الأمر إلى دعوة سلطان مصر الدولة العثمانية للاتحاد معه في سبيل القضاء على حكم الشاه اسماعيل، فقد ورد في رسالة رسمية بعث بها سلطان مصر إلى السلطان العثماني ما يلي:

«... وأما مسألة القضاء على فرق القزلباش الضالة في بلاد الشرق فهي في حكم البلاء العام ولذلك فإن جهادهم واجب على القريب والبعيد، ونحن عازمون على النهوض لجهادهم وقطع أيديهم عن رقاب الناس ولكنا نحتاج في ذلك إلى تأييد ودعم الآخرين وفي الحقيقة فإن التعاون في ذلك فرض على المسلمين لأن القزلباش أهل بدعة وضلال وهم أناس أشقياء وأشرار وجميعهم من الروافض الملعونين، وليس في قلوبهم أثر من الرحمة والشفقة فهم يقتلون العلماء والسادة ويهتكون أعراض الناس ونواميسهم وتصدر عنهم أمور لم تصدر من قبل عن جنكيز وتيمور...».

كتب هذه الرسالة السلطان المصري قانصو الغوري إلى السلطان العثماني في وقت كان قلقاً فيه من عمليات الشاه اسماعيل في ديار بكر ويخشى من القضاء على علاء الدولة ذو القدر ثم يباشر الاعتداء على المناطق الخاضعة للسلطة المصرية، ولذلك كان السلطان العثماني يدرك جيداً سبب حرص سلطان مصر على الإسلام واستغاثته بالآخرين في سبيل الحفاظ على بيضة الإسلام ومن ثم كان جوابه على الرسالة يتصف بكثير من اللاابالية حيث يقول في رده على الرسالة (إن الدولة العثمانية لا تملك إلا الدعاء).

وفي الحقيقة فإن الدولة العثمانية كانت ترغب كثيراً في استمرار الخلاف بين الدولتين الإيرانية والمصرية وتفضل الوقوف على الحياد إزاء مثل هذا الخلاف ولذلك كانت رسائل السلطان العثماني وأجوبته على رسائل السلطان المصري تخلو من الألفاظ القاسية بحق الإيرانيين بل ومن تأييد دعاوى تكفيرهم ورميهم بالإلحاد، لئلا يظهر دليل على عداء العثمانيين لإيران.

ومن الطبيعي أن مصر عندما يئست من تجاوب العثمانيين معها رأت أن تبادر إلى الاتحاد مع ملك إيران القوي قبل أن يتمكن العثمانيون من ذلك، وقد كان هذا الاتحاد في غاية الضرورة بالنسبة لمصر حيث كان علاء الدولة ذو القدر هو من أقوى حلفاء مصر قد تعرّض لضربات قوية من قبل القزلباش وربما كانت حملة أخرى كفيلة بالقضاء عليه مما يعني ضربة قاصمة لنفوذ مصر في المنطقة ولذلك كانت الوفود المصرية تحاول التوصل مع إيران إلى اتفاق يضمن بقاء ديار بكر على حالها.

وكان الاتفاق يقضي باحتفاظ القزلباش بالمناطق التي انتزعوها في ديار بكر من علاء الدولة ذو القدر واحتفاظ الأخير بالمناطق التي لا تزال خاضعة لسيطرته مع امتناع القزلباش عن الاعتداء عليها، ومع التوصل إلى هذا الاتفاق أخذت العلاقات الثنائية تتحسن بين علاء الدولة وإيران وأخذ علاء الدولة يتوسل السبل التي تقربه من الشاه اسماعيل، فمثلاً حينما سير السلطان سليم جيوشه للاعتداء على إيران كان فرسان علاء الدولة ينقضون من الخلف على المعسكرات العثمانية في الوقت الذي لم يطلب الشاه اسماعيل العون من علاء الدولة.

وعلى أي حال اعتزل السلطان بايزيد العرش في عام ٩١٨ وباشر السلطان سليم في عام ٩١٩ بتصفية إخوته وأولادهم فلما فرغ من أمرهم أمر بتجهيز الجيوش للهجوم على إيران.

أصدر في البداية أمراً بمنع دخول البضائع من الحدود العثمانية الشرقية واعتقال جميع التجار الشرقيين ومصادرة أموالهم ثم أصدر أمراً آخر يرغم بموجبه التجار العثمانيين أنفسهم على دفع ما بحوزتهم من بضائع مستوردة من الشرق إلى حكام ولاياتهم وفي حال المخالفة تصادر أموالهم ويعاملون معاملة جواسيس حرب.

وبعث السلطان سليم بسفرائه إلى أوروبا لإنهاء الخلاف مع إمبراطورية هنغاريا والمجر ليتفرغ لأمر إيران، ثم بدأ بتحريض جميع الحكام والملوك المجاورين لإيران بل تعدى ذلك إلى تحريض بعض زعماء إيران ذاتها.

ومن أبرز الملوك الذين شملهم التحريض عبيد الله خان في سمرقند فكان رده إيجابياً وبعث رسوله إلى السلطان سليم ليطلب منه إرسال المدفعية والأسلحة النارية الأخرى وعدد من محاربي (اليني جري) لمساعدته فاستجاب السلطان لهذا الطلب وأرسل ثلاثمائة مقاتل (يني جري) بالإضافة إلى عدد من المدافع والبنادق، فوصلت بخارى في أوائل عام ٩٢١[1].

وفي الثالث والعشرين من محرم عام ٩٢٠ خرج السلطان سليم على رأس قواته من مدينة أدرنه ثم عسكر بالقرب من اسطنبول في يوم الأربعاء التاسع والعشرين من صفر وبعد ذلك توجه إلى الأناضول.

وفي الثاني من جمادى الأولى وصل مدينة (ينكي شهر) فبعث من هناك أحمد باشا ومجموعة من قادة الجيش على رأس عشرين ألف مقاتل إلى سيواس. وبالقرب من مدينة قونية قدم أهالي لارنده إلى موكب السلطان محملين بالهدايا ومصطحبين معهم ثلاثة من القزلباش فاستجوب هؤلاء الثلاثة تحت التعذيب ثم قتلوا.

(١) التقارير التالية مترجمة عن صحيفة البلاط العثماني الرسمية.

وفي التاسع من جمادى، التحقت جميع القطعات العسكرية المجهزة بالموكب السلطاني بالقرب من سيواس فبلغ تعدادها أربعمائة ألف شخص.

وفي الخامس عشر من الشهر نفسه وضعت الأحمال والأثقال والخزائن والسجلات في قلعة سيواس للتخفيف عن العسكر ثم أمر السلطان بتوزيع الأسلحة على المقاتلين ومن هذا الموقع بدأت قوات (الييني زي) تحيط بالمقر السلطاني. وفي يوم ٢٠ وصلت الجيوش حدود أرزنجان وهي أول الأراضي الإيرانية فقدم حاكمها إلى المعسكر العثماني وأبدى استعداده لتزويده بالمؤن بشرط الحفاظ على سلامة المدينة وعدم الاعتداء عليها.

وفي يوم ٢٢ بلغ الزحف قلعة كماخ وكانت في غاية المنعة فوقف القزلباش للدفاع عنها فلم يتأخر الجيش لفتحها، بل واصل زحفه إلى الأمام، حتى وصل ضفاف الفرات في اليوم السادس والعشرين.

وفي يوم ٢٧ شن العثمانيون عدداً من الغارات على أطراف كماخ وبايبرد وعادوا بغنائم كثيرة. وفي العاشر من جمادى الثانية بدت للأنظار قوة من القزلباش يبلغ تعدادها ألفي مقاتل إلا أنها لم تكن مكلفة بالقتال كما يبدو حيث اختفت عن الأنظار على عجل.

وفي ٢٢ جمادى الثانية وصلت الجيوش العثمانية قرية خربة اسمها سرالله لو في حدود صحراء (الشكر) فعسكرت فيها، وحينئذ ثارت ثائرة قوات الييني زي فتمردوا احتجاجاً على طبيعة الموقع وعدم جدوى البقاء فيه، وصادف ذلك قدوم جاسوس اسمه الشيخ أحمد كان قد بعث به فرحشاد بيك آق قويونلو إلى الأراضي الإيرانية لمعرفة تحركات القزلباش ومخططات الشاه اسماعيل، وكان الشيخ أحمد يحمل أخباراً سارة حيث ذكر بأنه التقى بالشاه اسماعيل في منطقة أوجان وأخبره بأنه موفد إليه من قبل رؤساء التركمان وزعماء الروم للتأكيد له بأن جميع قبائل الروم والأناضول وأكثر أفراد الجيش هم من مريدي الأسرة الصفوية ويعتقدون بالخانقاه الصفوي فإذا نشبت الحرب بين الطرفين فإن جميع هؤلاء سيتفرقون عن السلطان العثماني ويلتحقون بالملك الصفوي ولذلك (والكلام للشيخ أحمد) فإن أهم واجب ينبغي على الشاه القيام به هو الإسراع بجيشه للقاء العثمانيين. ثم أكد الشيخ أحمد أنه رافق الشاه اسماعيل في حركته من أوجان حتى مدينة خوي وهناك أوصاه الشاه باللحاق بأنصاره لإخبارهم بقدومه وكونه عازماً على لقاء الجيش العثماني في صحراء جالدران.

وقد ساهمت هذه الأخبار إلى حد ما في إنهاء تمرد الييني زي وطمأنتهم. وفي اليوم الأول من رجب بدت طلائع قوات القزلباش فاستعدت القوات العثمانية للقتال ثم وصلها خبر يفيد بأن المسافة بين الجيشين لا تزال بعيدة ولذلك سيكون القتال في اليوم التالي.

وفي يوم الأربعاء الثاني من رجب اصطفت جيوش الطرفين في صحراء جالدران، وقسم الشاه إسماعيل جيشه إلى قسمين جعل أحداهما تحت إمرة والي ديار بكر محمد بيك استاجلو وجعل الثاني تحت قيادته المباشرة.

وانتشرت القوات العثمانية ثم بدأت الحرب فكثر القتل في صفوف الإيرانيين وشن الشاه اسماعيل حملة قوية على الجناح الأيسر فأمده السلطان بالمدفعية وبعض المقاتلين من جيشه الخاص وأطلقت المدفعية نيرانها سبع مرات ثم حل الغروب فتقهقر الإيرانيون وخلفوا وراءهم أشياء كثيرة غنمها العثمانيون.

وكانت خسائر الجانبين كبيرة حيث قتل من القزلباش نائب السلطنة مير عبد الباقي وحاكم بغداد خليفة الخلفاء وحاكم خراسان بيك وحاكم همذان السلطان على بيك ونقيب أشراف النجف محمد كمونة وعدد آخر من قادة القزلباش وزعمائهم بينما قتل من العثمانيين أمير الأمراء حسن باشا وحاكم موره حسن آغا وحاكم صوفيا (بلغاريا) مالقو أوغلي وأخوه حاكم سلستره توربيك وحاكم مقدونيا سليمان بيك وحاكم قونيا محمد بيك وحاكم قيصرية أويس بيك وحاكم نيكدة اسكندر بيك وحاكم أفلاق (يوغسلافيا حالياً) سنان بيك وعدد آخر من الحكام وقادة الجيش بالإضافة إلى عدد آخر جرح في المعركة ثم توفي في طريق العودة إلى البلاد العثمانية.

وفي تلك الليلة أمر السلطان سليم بتكريم المقاتلين الذين أبلوا في المعركة بلاء حسناً وأمر أيضاً بجمع الأسرى الإيرانيين أمام مقره وضرب أعناقهم.

وفي اليوم الثالث من المعركة لجأ إلى السلطان أحد أعيان القزلباش، اسمه الحاج رستم في خمسين من أتباعه فأمر السلطان بحبسهم على الفور ثم ضربت أعناقهم في اليوم التالي ثم لجأ شخص آخر اسمه خالد بيك في مائة وخمسين من أصحابه وأظهر الطاعة للسلطان فأمر بتجريدهم من السلاح وجمعهم في خيمة واحدة كضيوف في معسكره ثم أمر بقتلهم جميعاً.

وفي اليوم السادس عشر بعد نهاية الحرب خرج أهالي تبريز لاستقبال السلطان يتقدمهم العلماء والفضلاء والزهاد والعباد وفرشوا الطريق مسافة فرسخ بالسجاد والديباج وقدموا أنواع الهدايا والتحف الثمينة إلى السلطان، ثم دخل موكب السلطان تبريز ونزل في محلة سرخاب.

وفي اليوم الثامن عشر بعد نهاية الحرب والموافق ليوم الجمعة قدم السلطان إلى مسجد تبريز الجامع المسمى بمسجد حسن سلطان. فألقيت الخطبة باسمه وحينما ذكر الخطيب أسماء الصحابة والخلفاء الأربعة أجهش الحاضرون بالبكاء.

وفي اليوم الحادي والعشرين أمر أحمد بيك قابجي باشي

بالبحث عن أملاك وأموال القزلباش في تبريز ومصادرتها وفي هذا اليوم أيضاً أمر فوج من القوات العثمانية بترحيل الخراسانيين من تبريز إلى اسطنبول وهم: بديع الزمان ميرزا اليورپاني وجماعة من أعيان وتجار هرات وحرفييها كان الشاه اسماعيل قد حملهم إلى تبريز وأسكنهم في عاصمة ملكه. وألحق السلطان سليم بعض مشاهير تبريز بالخراسانيين الذين شملهم الترحيل إلى اسطنبول.

ومن الطبيعي أن مسألة إطعام جيش هائل كالجيش العثماني أمر في غاية الصعوبة لا سيما وأن الشاه اسماعيل كان قد أخلى جميع القرى والنواحي من المؤن والمواد الغذائية. ولذلك تقرر انسحاب الجيش العثماني في اليوم الخامس والعشرين من انتهاء معركة جالدران الموافق للأول من شهر شعبان عام ٩٢٠هـ. وحينما عبرت القوات نهر أرس وكان تيار الماء فيه على أشده غرق العديد من أفراد الجيش والدواب. ثم وصل الجيش مدينة نخجوان وكان أهلها قد أخفوا علامات القزلباش وتزيوا بزي أهل السنة، وبالرغم من ذلك صدرت الأوامر بالإغارة على المدينة ونهبها. ثم واصل الجيش رحلته فوصل ايروان بعد سبعة أيام وفي منتصف الليل صدرت الأوامر بالرحيل وفي نفس الوقت سمح للقوات بنهب المدينة، وفي اليوم التالي بلغت الجيوش قلعة تالين وكان أهلها قد تحصنوا فيها فأمر السلطان بقصفها بالمدافع فهدمت القلعة وأبيد أهلها.

وفي الرابع عشر من شهر شعبان تقرر الهجوم على برجستان، فقد طلب من حكامها إرسال المؤن ولم يصل منهم جواب بهذا الشأن، وفي الرابع والعشرين من الشهر بلغ المعسكر العثماني خبر يفيد بإرسال البرجيين ثلاثة آلاف رأس من الأغنام ولذلك انصرفوا عن التفكير في الهجوم وتحركوا نحو البلاد العثمانية.

وفي الحادي والعشرين من رمضان وصل المعسكر العثماني سفير الشاه اسماعيل مير عبد الوهاب فحبس فيه.

وفي الثامن من محرم عام ٩٢١ تمردت جماعة من الينى جري وهجمت ليلاً على منزلي أحمد باشا وپيري باشا فهدمتها.

وفي الخامس من شهر ربيع الأول عام ٩٢١هـ غادر السلطان سليم مدينة آماسيه لفتح قلعة كماخ، وكان فيها قوة من القزلباش متحصنين رغم انقطاعهم عن تبريز، وقاوموا مقاومة شديدة فأمر السلطان بدكها بالمدفعية ففتحت وقتل جميع من كان فيها، والجدير بالذكر أن هذه القلعة المحصنة لم يستطع أحد من الملوك فتحها لقرون طويلة.

ثم توجه السلطان لقتال علاء الدولة ذو القدر بعد فتح قلعة كماخ وكان علاء الدولة عاكفاً على زرع الخلافات والفتن ليستفيد هو من الوضع القائم ثم اتحد في آخر المطاف مع القزلباش.

ورأى علاء الدولة نفسه عاجزاً عن قتال جيوش العثمانيين الجرارة فرجح الانسحاب إلى المناطق الجبلية فأمر السلطان سليم سنان باشا بتعقبه

وفي التاسع والعشرين من ربيع الأول دارت معركة ضارية بين علاء الدولة وسنان باشا بالقرب من مدينة بسيان قتل فيها علاء الدولة وكان عمره تسعين عاماً وهزم جيشه ثم حمل رأسه إلى السلطان سليم. وعين السلطان علي بيك بن شهسوار حاكماً على المناطق التي كان عمه علاء الدولة حاكماً عليها والسبب في ذلك أن علي بيك وأباه شهسوار كانا إلى جانب الدولة العثمانية منذ بداية الأمر وحين أعدم سلطان مصر شهسوار في القاهرة لجأ ابنه علي بيك إلى السلطان العثماني.

وبعد مقتل علاء الدولة غادر السلطان سليم ولاية ديار بكر متوجهاً إلى اسطنبول.

واستطاع السلطان فتح حلب والشام ومصر في عامي ٩٢٢ و٩٢٣هـ. وفي عام ٩٢٤ قدم سفير الشاه اسماعيل إلى الشام للقاء السلطان فيها. وكان يحمل معه أنواع الهدايا والتحف بالإضافة إلى رسالة يهنئه فيها الشاه بفتح مصر ويقترح عليه المصالحة بين البلدين على أن يعترف الشاه بسلطان العثمانيين على جميع المناطق التي وصلت إليها جيوشهم، وإذا لم يكن السلطان سليم راغباً في ملكيتها فليسلمها إلى القزلباش مقابل مبلغ من المال.

وقد أثارت هذه المقترحات الشك والريبة في نفس السلطان فأمر حكام طرابلس وحماه وسلستره بجمع قواتهم على الفرات والتزام الحيطة والحذر، ثم غادر الشام متوجهاً إلى حلب فبلغه هناك أن الشاه اسماعيل موجود في نخجوان.

وفي الرابع والعشرين من ربيع الثاني عزم السلطان سليم على التوجه لقتال الشاه اسماعيل ثانية فغادر حلب بعد أن جعل على عسكرها پيري باشا وأمره بملازمة نهر الفرات وتوجه إلى اسطنبول على أن ينطلق منها إلى إيران، وكان قد أصدر في حلب أمراً بترحيل جميع سكانها الشيعة إلى اسطنبول وأمر كذلك بحبس جميع تجار الحرير والبضائع الإيرانية.

وفي مدينة اسطنبول أمر السلطان سليم بإعداد القطعات العسكرية والتجهيزات الحربية استعداداً للهجوم على جزيرة رودس ثم عقد مجلساً من زعماء الدولة وأعيانها لاستشارتهم بالأمر فاستقر رأي الجميع على ضرورة البدء بقتال الشاه اسماعيل قبل كفار رودس ومن ثم غادر السلطان اسطنبول إلى أدرنه على عجل لينصرف هناك إلى إعداد مستلزمات الحرب مع إيران.

وفي طريقه إلى ادرنه توقف في المحطة الأولى وهي المنطقة التي قاتل فيها أباه، وهناك ظهرت على صدره حبة تشبه اللؤلؤة ثم أخذت تكبر يوماً بعد آخر ويشتد ألمها حتى غطت جزءاً

كبيراً من بدنه ولم تجد معها أدوية الأطباء الماهرين وعلاجهم وأخيراً بعد أن أمضى واحداً وخمسين يوماً طريح الفراش فارق الحياة في سحر الاثنين الموافق للتاسع من شوال عام ٩٢٦. (إلى هنا انتهت تقارير الصحيفة الرسمية).

ويجدر بنا بعد ما أوردنا أقوال العثمانيين فيما يتعلق بمعركة جالدران وما سبقها وما تلاها أن نلقي نظرة على أحوال الملك الصفوي وجيش القزلباش ومعنوياتهم خلال المعركة. فقد كان الشاه اسماعيل حين وقوع المعركة لا يتجاوز الثامنة والعشرين من العمر وله خبرة طويلة في الحروب والفتوحات حيث بدأ نشاطاته العسكرية في سن الثالثة عشرة وكان المنتصر والفاتح في حروبه جميعاً، ولم تكن مكانته في النفوس تشبه مكانة الملوك في نفوس جنودهم ورعاياهم إنما كان يمثل بالنسبة لأتباعه المرشد الأكبر للطريقة الصوفية القويمة وقد كان هؤلاء الأتباع يبالغون في نظرتهم إليه بحيث يذكر أكثر المؤرخين أنه لو انتصر في معرجة جالدران لعدوه إمام الزمان والمهدي الموعود.

وقد كان الشاه اسماعيل في أواخر ربيع عام ٩٢٠هـ في همدان ينوي قضاء الصيف هناك، وفي أثناء ذلك قدم إليه رسول السلطان سليم يحمل رسالة منه يعلن فيها الحرب فقام الملك بتكريمه والإنعام عليه ثم أجازه في العودة إلى بلاده على عكس ما كان يقوم به السلطان سليم من حبس لسفراء الشاه اسماعيل وتعذيبهم وقتلهم في بعض الأحيان.

بادر الشاه اسماعيل فور وصول الرسالة إلى إرسال الرسائل السريعة إلى خان محمد استاجلو في ديار بكر يطلب منه متابعة تحركات قوات السلطان سليم وإبلاغه بالمعلومات أولاً بأول وإذا تيقن بأن السلطان ينوي الهجوم على إيران فعليه القيام بتجهيز قلاع آمد وكماخ وبعض القلاع الأخرى بالقوات الكافية ثم التوجه إلى آذربايجان بقوات مجهزة تجهيزاً كافياً، أما في حال انشغال السلطان سليم بفتح قلاع ومدن ديار بكر فإن ذلك دليل على انصرافه عن مهاجمة إيران واكتفائه بديار بكر ومن ثم طلب الملك من محمد استاجلو في هذه الحال أن يمكث بقواته في ولايته ويوافيه بالتطورات ليبعث له بالمدد.

وراقب خان محمد استاجلو تحركات الجيش العثماني الجرار فأدرك أنه عازم على مهاجمة إيران، حيث كان يجتاز القلاع الإيرانية الحصينة دون حرب أو تماهل وبرر محمد استاجلو لهذا الأمر حيث كان يعلم أن جيشاً جراراً بمثل هذا العدد سيواجه صعوبات جمة أثناء عبوره في أراضي وقرى جردت من المؤن وتحولت إلى خرائب لا تنفع في شيء، إضافة إلى قدرته على شن الحملات المباغتة على هذا الجيش أثناء الليل وأطراف النهار فيكبده خسائر كبيرة.

وكانت قوات القزلباش قد أخلت المناطق المسكونة من سكانها من بداية الحدود الإيرانية حتى حدود ولاية خوي وأخلت الأراضي الواقعة على امتداد الطريق بعرض عدة فراسخ من السكان ودمرت جميع خيراتها بحيث لا يمكن الاستفادة منها في شيء. ويذكر صاحب كتاب «أحسن التواريخ» أن خان محمد استاجلو التحق بالشاه اسماعيل واقترح عليه مهاجمة الجيوش العثمانية الجرارة أثناء الطريق لأنها لن تكون مستعدة للقتال حينئذٍ، وبذلك لا يتسنى لها الاستفادة من مدافعها العديدة ولا من حملة البنادق الاثني عشر ألف كما ينبغي ولكن الشاه اسماعيل رفض أخذ العدو على حين غرة قائلاً بأنه ليس لصاً ولا قاطع طريق ليفاجىء العدو بالهجوم ويلوث تاريخه بذلك.

وفي صبيحة الأربعاء الموافق للأول من رجب وصلت القوات العثمانية صحراء جالدران، وفي جانب من تلك الصحراء نصب فسطاط السلطان سليم على أحد التلال وعسكرت قوات القلب حول الفسطاط، واتخذت قوات الينى جري بمدفعيتها مواضعها في القلب، وربطت المدافع إلى بعضها لتكون سوراً حصيناً يحيط بالقوات ووقف حملة البنادق الاثني عشر ألفاً إزاء الفسطاط السلطاني ليكونوا رهن إشارة السلطان يوجههم حيثما يشاء حالما تقتضي الضرورة واتخذت قوات الجناح الأيمن مواضعها تحت قيادة القائد سنان باشا بينما كان القائد حسن باشا قائداً لقوات الجناح الأيسر.

وانقسمت القوات الإيرانية - حسب المؤرخين العثمانيين - إلى قسمين، قاد أحدهما الشاه اسماعيل وقاد الآخر خان محمد استاجلو بينما يذكر المؤرخون الإيرانيون أن القوات الإيرانية انقسمت إلى قلب وجناحين كان محمد استاجلو على الجناح الأيمن ودورميش خان على الجناح الأيسر بينما أخذ الشاه على عاتقه قيادة القلب، ولكن صاحب (أحسن التواريخ) يذكر بأن الوزير نظام الدين عبد الباقي والسيد محمد كمونه ومير شريف الدين علي كانوا في القلب تحت إشراف وتوجيه الشاه اسماعيل.

ويذكر العثمانيون أن الشاه اسماعيل شن في بداية الأمر هجوماً على قلب القوات العثمانية بنخبة من قواته ولكن المدفعية قتلت خيول المهاجمين فاضطروا إلى مهاجمة الجناح الأيسر ودارت هناك معركة طاحنة. ومن جانب آخر يذكر العثمانيون أن محمد استاجلو هاجم جناح سنان باشا فهزمه الأخير وتمكن أحد الجنود من قطع رأسه، ولكن الجناح الأيسر العثماني فقد قائده حسن باشا فاختل النظام فيه وأبلغ السلطان بالأمر فأمده بنصف مدفعيته الموجودة في القلب ومجموعة من حرسه الخاص وتضيف المصادر العثمانية أن الشاه اسماعيل فرّ من أرض المعركة مع حلول الغروب وتعقبه العثمانيون إلى مسافة محدودة ثم عادوا أدراجهم.

ومن الطبيعي أن المصادر العثمانية بالغت كثيراً في نقلها ولفقت الكثير من الأمور غير الصحيحة، ومن ذلك ما نقوله عن مقتل خان محمد استاجلو، والحقيقة أنه رأى الجناح الأيسر العثماني يختل نظامه ثم يهرب مقاتلوه بعد مقتل قائدهم حسن باشا فحاول اغتنام الفرصة والاقتداء بالشاه اسماعيل في مهاجمته للقلب، ولكنه ما كاد يدخل مدى المدفعية حتى أطلقت عليه حمم نارها فقطعته أرباً.

وأما الشاه اسماعيل فقد حمل على القلب فواجهته المدفعية بقصف شديد مركز فسقط العديد من جنوده ومنهم حسين بيك وعدد من المقربين إليه ولكن سقوطهم لم يثنه عن مواصلة الزحف فاستطاع الوصول إلى المدافع وقطع أحزمتها وسلاسلها التي تشدها إلى بعض ثم ضرب سبطانة المدفع الأول فأحدث فيها من الجانبين شرخاً مقداره أربعة أصابع (والجدير بالذكر أن هذا المدفع ظل محفوظاً في روسيا حتى أوائل الثورة الروسية) ثم أهلك عدداً من رجال المدفعية اليني جري.

وقام قائد الجناح الأيمن العثماني سنان باشا بضم بعض حملة البنادق إلى قواته ثم هاجم القلب وأطلق رماته نارهم بكثافة فأصيب جميع من كان في الصف الأول ومن بينهم الوزير نظام الدين عبد الباقي ومير شريف والسيد محمد كمونة وخلفا بيك وصاروپيره قورجي باشا وفي أثناء ذلك كان جيش شيراز يقف منفصلاً تحت قيادة والي شيراز خليل ذو القدر، وكان هذا يلاحظ اضطراب صفوف القلب وشدة الضغط عليه فلا يقدم على شيء رغم أنه بإمكانه الالتفاف حول العثمانيين وتوجيه ضربة قاسمة لهم، وشاهد في غمرة المعركة جموده السلطان خليل فبعث إليه من يأمره بالهجوم ولكنه ظل في جموده. وأما قوات خان محمد استاجلو فقد تولى قيادتها أخوه فروخان وراح يتقدم بها أمام الجناح الأيسر المتقهقر حتى أوغلت في تقدمها ولم يبق مع الشاه حين شارفت الشمس على المغيب إلا عدد من أفواج الجناح الأيسر والقلب.

وآذنت الشمس بالمغيب فعزم الشاه على إعادة النظر في قواته فأمر بإطلاق الصوت الخاص بالخانقاه الصفوي وكان من عادة أتباع هذا الخانقاه أنهم يلبون النداء حيثما كانوا فور سماعهم له، ولكن لم يستجب له هذه المرة إلا ثلاثمائة مقاتل وأما البقية الباقية فلم تستطع الخروج من طوق القوات العثمانية.

وأخيراً أخذ بعض ذوي الرأي والحكمة والتجربة بزمام جواد الشاه اسماعيل متوسلين به أن يخرج عن أرض المعركة مؤكدين عليه أن بقاءه سيضمن بقاء إيران وموته سيلحق بها هزيمة منكرة، وما زالوا به حتى أقنعوه وكما تذكر المصادر العثمانية فقد خرج من ساحة القتال بعد غروب الشمس، وتنبه بعض العثمانيين لخروجه فعزموا على تعقبه ولكن السلطان سليم أبى عليهم ذلك لأنه كان يحسب الأمر خدعة أراد القزلباش بها الإيقاع بالقوات العثمانية.

وبادر جيش شيراز إلى الانسحاب فور رؤيته انسحاب الشاه اسماعيل بعد أن ظل بعيداً عن خضم المعارك. وينقل الرواة أن جواد الشاه اسماعيل دخل مستنقعاً فلم يقو على الخروج منه وبذل جماعة من القزلباش جهداً كبيراً لإخراجه وفي ذلك دليل على عدم تعقب العثمانيين للشاه في انسحابه.

ومكث السلطان بعد انسحاب القزلباش يتردد في حيرته بعض الوقت، حتى عادت أفواج القزلباش التي كانت تتعقب فلول الجناح الأيسر العثماني معتقدة أن قواتهم أحرزت النصر، ولكنها فوجئت بانتظام صفوف العثمانيين فلم ير القزلباش جدوى من الدخول في المعركة مرة أخرى ولذلك بذلوا أقصى جهدهم لفتح ثغرة في صفوف العدو ثم أسرعوا في الابتعاد عن ساحة القتال وحينئذ تيقن السلطان سليم من عدم وجود خطة أو مكيدة في الأمر وإلا لما غادر الشاه بمن بقي معه دون أن يبلغ مقاتلي الجناح الأيمن بانسحابه ومن ثم أصدر أوامره بنهب معسكر القزلباش، ولم يكن فيه شيء ذو بال، ومما يجدر ذكره هنا أن بعض رجال البلاط العثماني أرادوا استرضاء سلطانهم فحملوا إليه امرأة كانت المرأة الوحيدة التي وجدوها في المعسكر وزعموا أنها زوجة الشاه اسماعيل زوراً وبهتاناً.

وحين اطمأن السلطان سليم إلى حقيقة الأمر أمر بضرب أعناق جميع الأسرى الإيرانيين وكذلك زعماء القزلباش الذين قدموا إليه في الأيام الأخيرة لطلب الأمان منه.

ودخل السلطان مدينة تبريز فمكث فيها أسبوعاً، راسل خلاله حكام لرستان وكردستان وپيلان ومازندران وغيرهم وطلب منهم السعي للإطاحة بحكم الصفويين.

وكما ذكرنا سابقاً أن السلطان سليم ذهب إلى المسجد الجامع في تبريز الموسوم بمسجد السلطان حسن لأداء صلاة الجمعة وخطب الخطيب ذاكراً الرسول والخلفاء الأربعة ثم بدأ بذكر ـ كعادته ـ الألقاب المتعارف عليها آنذاك مثل سلطان البرين وخاقان البحرين وغيرها وذكر بعدها اسم الشاه اسماعيل المظفر بدلاً من أن يقول السلطان سليم فهم جماعة من قادة الجيش العثماني بقتله فنهاهم السلطان عن قتله قائلاً: إنما هي عادة اعتادها لسانه فاتركوه.

وأخذ السلطان يستشير أصحابه طوال إقامته في آذربايجان حول البقاء فيها، وكانت حصيلة الآراء غير مشجعة على البقاء، لاحتمال أن يقوم الشاه اسماعيل بجمع قوات القزلباش ويحاصر بها ولاية تبريز ويقطع وصول المؤن عنها. وفي هذه الحال لن يكون مصير أربعمائة ألف مقاتل سوى الفناء والهلاك واقترح البعض أن يسمح السلطان بإعادة الجزء الأكبر من القوات إلى الأراضي العثمانية ويبقى معه مائة ألف مقاتل في تبريز. ولكن السلطان لم

يوافقهم على هذا الاقتراح لأنه قد رأى بأم عينه ما فعله القزلباش بأمراء وزعماء جيشه في معركة جالدران.

وإذن فإن بقاء جيش عرمرم في تبريز دون مؤونة أمر مستحيل، وخفض عدد القوات المرابطة في تبريز أمر يثير الرعب في نفس السلطان سليم، ولذلك فضل السلطان مغادرة تبريز على جناح السرعة وصرف النظر مؤقتاً عن السيطرة على الأراضي الإيرانية. وكان يتمنى أن يكون بمقدوره حرمان أرض القزلباش من خيراتها المادية والمعنوية، وعلى هذا السبيل أمر بترحيل أصحاب الحرف والفنون الخراسانيين إلى اسطنبول بعيالهم وأطفالهم، ورحّل معهم الميرزا بديع الزمان التيموري وبعث معهم فوجاً شديداً خشناً من جيشه لإيصالهم إلى تبريز قبل موكبه.

ولم يستطع هؤلاء الخراسانيون في اسطنبول صبراً، ففر بعضهم إلى تبريز مشياً على الأقدام وهلك آخرون في محل إقامتهم الجبرية لما لاقوه من جور وظلم واستطاع البعض الآخر الوصول إلى أوروبا.

وعلى أي حال فقد غادر الموكب السلطاني مدينة تبريز بعد أسبوع من الإقامة فيها، ورغم ادعائه بالاهتمام براحة الناس والمحافظة على حقوق الرعية لم يستطع مقاومة أطماعه وجشعه، فقد أظهر الأمان لمدينتي نخجوان وإيروان ثم أمر بالإغارة عليهما في منتصف الليل على حين غرة فباشر جنوده بنهبهما وإبادة أهلهما وحرق العديد من المنازل فيهما حتى تحولت إلى أكداس من الرماد والركام.

ومع اجتياز القوات العثمانية لإيروان اشتدت حاجتها إلى المؤن وأصبحت في عسر شديد من أمرها ووصل الأمر إلى موت العديد من أفرادها جوعاً إضافة إلى الخوف والرعب الذي يعاني منهما الجنود طوال أيام وليالي رحلة العودة وإضافة إلى هذه الصعوبات فاجأتهم موجة من البرد القارس.

أحداث ما بعد الحرب

أقام الشاه اسماعيل في وادي (پزين) في همذان بعد معركة جالدران وأمر من هناك بحشد القوات من جميع الولايات، وقد استقر رأيه على محاصرة آذربايجان من جهاتها الأربع وقطع المؤن عنها ما بقي فيها السلطان سليم ثم المباشرة بشن الغارات الخاطفة على القوات العثمانية. ثم بلغه خبر مغادرة السلطان لآذربايجان فتوجه إلى تبريز بأقصى سرعته ورأى مدى الخراب الذي أحدثه العثمانيون فيها فانصرف لإعمارها.

وبعد أن أهلكت معركة جالدران العديد من قادته ووزرائه وأركان دولته. اهتم بعد دخوله تبريز بانتخاب الأشخاص المناسبين لمناصب الدولة ومن ذلك تعيينه للميرزا شاه حسين الأصفهاني خلفاً لنظام الدين عبد الباقي بعد أن كان معاوناً له في حياته، وكان هذا الشخص لائقاً بهذا المنصب فانصرف لخدمة الناس والسهر على راحتهم وإقرار العدالة بينهم.

وكذلك عين الشاه أحد كبار سادات آذربايجان في منصب الصدارة خلفاً للأمير شريف الدين علي، والسيد المذكور هو الأمير شهاب الدين عبد آ بن السيد نظام الدين أحمد المعروف بلاله وهو رجل معروف بطهارته وعلمه وحسن سيرته ولكنه لم يحسن إدارة الأمور القضائية والدينية كما ينبغي، فعزله الشاه وعين مكانه الأمير جلال الدين محمد حسين الشيرنبي فأعطى الصدارة حقها من الكفاءة والجدارة وحسن التدبير.

وأمضى الشاه اسماعيل فصل الشتاء في تبريز، وخلال ذلك زوج قره خان أخا خان محمد استاجلو من أخته پيري خانم ابنة السلطان حيدر وبذلك عوضه بعض الشيء عن زعامة قبيلة الاستاجلو وحكومة ولاية ديار بكر، ثم غادر تبريز بقوات الأستاجلو متوجهاً إلى ديار بكر للتصدي فيها لاعتداءات القوات العثمانية على الأراضي الإيرانية في تلك المنطقة.

وأخذ الشاه يتنقل في حدود القفقاز وآذربايجان خلال ربيع عام ٩٢١ ويراقب تحركات العثمانيين. حيث كان السلطان سليم يهدد باستمرار بأنه سيهاجم إيران قريباً. وفي تلك الفترة أطلع بعض أركان الدولة الصفوية على تقارير تفيد بأن والي فارس السلطان خليل ذو القدر آخذ بمراسلة السلطان سليم خلسة متنكراً بذلك لكل العناية والمودة التي يوليهما إياه الشاه اسماعيل. ويجدر التذكير بأن سلوك السلطان خليل في معركة جالدران يؤيد كل الاتهامات التي كانت تنسب إليه. وثارت ثائرة الشاه الصفوي فأمر واحداً من أشجع رجاله وأشدهم بأساً يدعى سليمان ويسميه أصحابه (پورسليمان) بالسير إلى شيراز على عجل للقضاء على السلطان خليل ثم العودة إلى المعسكر الملكي دون التوقف في شيراز.

وغادر سليمان تبريز بأقصى سرعته فقطع المسافة الطويلة بين تبريز وشيراز في غضون أيام معدودة ودخل القلعة الحكومية في فارس فوجد السلطان خليل عاكفاً على الشرب والطرب واللهو يحيط به الأمراء والزعماء ورؤساء قبيلة ذو القدر. ويذكر صاحب حبيب السير أن سليمان دخل المجلس فجأة وحين رأى كثرة الحاضرين في المجلس أدرك أن إعلانه لأمر الشاه ربما يوقعه في ورطة يفقد فيها روحه فمن الممكن أن يتمرد السلطان خليل على الأمر الملكي ويصدر أوامره بقتل الرسول. ولذلك عمد سليمان إلى خطة باشر من فوره في تنفيذها، حيث اقترب من شخص السلطان خليل وهمس في أذنه قائلاً: لقد أمرني الشاه الصفوي بجلدك اثنتي عشرة جلدة ثم أعود أدراجي في يومي هذا فإذا نفذت الأمر في مجلسك هذا كان ذلك إهانة لك وحطاً من قدرك، فالأجدر بك أن تدخل دار خلوتك فأجلدك وأعود.

ورأى السلطان خليل اثنتي عشرة جلدة قليلة بحقه بعد كل المخالفات التي ارتكبها فنهض من مجلسه ودخل دار الخلوة وتبعه سليمان فأراه الأمر الملكي ثم بادر إلى قطع رأسه وحمله إلى المجلس وقرأ على الحاضرين الأمر الصادر بحق السلطان خليل، ثم أوكل أمور فارس إلى أحد المقربين من الحاكم المقتول ومعه جماعة أصحاب الحل والعقد من قبيلة ذو القدر، وغادر شيراز بعد ذلك في نفس اليوم حاملاً معه رأس السلطان خليل، وبعد وصوله المعسكر الصفوي، أصدر الشاه اسماعيل أمره بتعيين علي بيك ذو القدر حاكماً على ولاية شيراز وبعثه إليها.

معارك ديار بكر ونشاطات

سليم المعادية لإيران

ذكرنا آنفاً أن السلطان سليم مكث في آماسيه عدة أسابيع في عودته إلى الأراضي العثمانية عازماً على فتح القلاع الإيرانية الحصينة الموجودة في تلك المنطقة، ومن هذه القلاع قلعة كماخ التي يذكر المؤرخون أن فتحها كان أمراً عسيراً بالنسبة إلى سائر الملوك في الحقب المتعاقبة.

وكان أمر حراسة القلعة في الأصل على عاتق أحد أفراد قبيلة ورساق الموسوم بالسلطان يوسف إلا أنه كان قد التحق بمعسكر القزلباش خلال هجوم العثمانيين على تبريز وأوكل أمر الحراسة إلى أخيه وترك معه ثلاثمائة من أبطال ورساق.

وقدم السلطان العثماني إلى القلعة فشاهد تحصينها ومناعتها فأدرك أن فتحها لن يتم دون التضحية بخسائر جسيمة من جنوده، ومن ثم بعث صاحب أرزنجان سفيراً عنه إلى حارس القلعة وحمله رسالة أمان له ولأصحابه إن هو سلم القلعة، وفي خلاف ذلك سيكون مصير من في القلعة الموت المحتوم لأنه (السلطان) سيفتح القلعة حتى ولو اقتضى الأمر التضحية بنصف قواته.

وجمع الحارس أصحابه فعرض عليهم رسالة السلطان طالباً رأيهم في الأمر فكان رأيهم جميعاً عدم الاستسلام والطلب من السلطان أن يمهلهم حتى يتبينوا ما يؤول الوضع إليه في الولاية كلها، وما يستقر عليه رأي الدولتين.

وأبلغ السلطان سليم بطلبهم فاستشاط غضباً وأمر قوات الينى جري بالهجوم ومن ورائها قوة أخرى، فأحاط هؤلاء بالقلعة من جهاتها الأربع وكان عددهم يتجاوز الثلاثين ألفاً فاشتد زحامهم في أرض صغيرة وسقط العديد منهم في الخندق حتى امتلأ بهم بدلاً من الصخور والأحجار وعبر الآخرون على أجساد أصحابهم واستطاعوا تسلق سور القلعة وبرجها واشتد دفاع القزلباش عن قلعتهم حتى غُلبوا على أمرهم في آخر الأمر فتركوا القتال ولاذوا بالمسجد الجامع فحاصرهم العثمانيون منتظرين استسلامهم إلا إنهم خرجوا في الليل على حين غرة وانقضوا على العثمانيين وراحوا يقاتلون حتى أبيدوا عن آخرهم.

وبعد فراغه من قلعة كماخ أمر السلطان سليم سنان باشا بالسير على رأس جيش كبير للقضاء على علاء الدولة ذو القدر فالتقى الطرفان في مدينة بوستان ودارت رحى الحرب بينهما فقتل علاء الدولة ذو القدر وتفرق جيشه. وبعث سنان باشا إلى السلطان من يخبره بالنصر المؤزر ففرح فرحاً عظيماً وعين سنان باشا في منصب الوزير الأعظم ثم واصل رحلته إلى اسطنبول.

وفي تلك الأثناء دخل قره خان ديار بكر على رأس الفي مقاتل من قبيلة الاستاجلو. والجدير بالذكر أن السلطان سليم أوكل في الظاهر إدارة المناطق التي كانت خاضعة لعلاء الدولة إلى علي بيك بن شهسوار وقد ذكرنا سابقاً أنه لجأ إلى العثمانيين واحتمى بهم بعد أن قتل المصريون أباه في القاهرة. وقد ظل هذا الشخص يحظى باحترام العثمانيين ومودتهم حتى انقضت حاجتهم إليه فاستدعاه الوزير الأعظم العثماني فرهاد باشا بأمر من السلطان سليمان عام ٩٢٨ واستدعى معه أبناءه وأحفاده فلما دخلوا الفسطاط أمر جلاديه بالقضاء عليهم فخنقوهم جميعاً.

وعلى أي حال فقد قدم قره خان إلى ديار بكر وتوجه من فوره إلى مدينة ماردين التي كانت مركز الولاية ومقراً لخان محمد استاجلو، فأبلغ هناك أن بعض أعيان المدينة بعثوا وراء محمد باشا الذي عينه السلطان سليم حديثاً والياً على ديار بكر يستمدونه العون ويبلغونه استعدادهم لتسليم المدينة إلى الدولة العثمانية فأمدهم بستة آلاف مقاتل. فبادر قرة خان إلى التصدي لهم في ألفي فارس فشتت جمعهم وأهلك العديد منهم.

واستطاع قرة خان بعد هذه المعركة أن يبسط سلطانه على أكثر مناطق ولاية ديار بكر حتى عزم السلطان سليم مرة أخرى على فتح إيران ومصر في ربيع الأول عام ٩٢٢ فجهز جيشاً عظيماً وبعث إلى ديار بكر بعدة آلاف من المقاتلين وزودهم بالبنادق والمدافع لمساعدة محمد باشا، فقام الأخير بعد وصول المدد بحشد قواته في مدينة آمد فبلغت خمسة عشر ألف مقاتل ثم غادر المدينة متوجهاً إلى مدينة ماردين وكان فيها قرة خان على رأس قوة لا تتجاوز ربع عدد قوات الخصم فتصدى لمحمد باشا ببطولة ودارت بين الطرفين معركة طاحنة كان مقاتلو القزلباش خلالها يلقون بأنفسهم في قلب صفوف العدو دون مهابة أو وجل فيشتتونها وحدث عدة مرات أن فر العثمانيون أمام هجمات القزلباش وكان هؤلاء يعيدون تنظيم صفوفهم بعد كل هجوم ثم ينقضون ثانية وثالثة على العدو حتى آذنت الشمس بالمغيب فانسحب العثمانيون من أرض المعركة فأطلق قره خان - في غمرة فرحه - العنان لفرسه محاولاً اللحاق بمحمد باشا فأطلق أحد الجرحى العثمانيين عليه النار فأراده قتيلاً.

وحين أبلغت زوج قرة خان پري خانم بمصرع زوجها استدعت القوات على عجل ولم تكد تمضي ساعة واحدة على

الغروب حتى توجهت بجيش القزلباش نحو آذربايجان، وكان قادة الجيش على يقين من أن قوات العدو ستتعقبهم فهيأوا مائة بعير سريع لنقل پري خانم ومرافقيها بأقصى سرعة ممكنة إلى خارج منطقة الخطر.

وصمدت مدينة ماردين وبعض المدن الأخرى بوجه الهجمات العثمانية بعض الوقت بعد مقتل قره خان، إلا أنها استسلمت آخر الأمر وبذلك انتهت سيطرة الإيرانيين على ولاية ديار بكر نهائياً ـ والمدن التي استطاع العثمانيون الاستيلاء عليها في زمن السلطان سليم في ولاية ديار بكر هي ماردين وحصين وكيغا والموصل وعانه وحديثة وهيت وسنجار وجمشيزك وقلعة العمادية وحصن سوران وقلاع مهمة أخرى.

الشاه اسماعيل بعد معركة جالدران

تركت معركة ألدران وهزيمة جيش القزلباش فيها آثاراً كبيرة في حياة الشاه اسماعيل، إذ لم يسبق له أن هزم في معركة قبلها حتى أن عموم الناس كانوا يعتقدون أنه لا يهزم مطلقاً بل إن بعض القزلباش كان يعتقد أنه شبيه المهدي الموعود أو يرى فيه ممثلاً عن المهدي لأن كونه المهدي لا يتوافق مع المذهب الجعفري الذي يقول بأنه ابن الإمام الحادي عشر.

ومهما يكن الأمر فقد أدرك الشاه ورجاله أن المدافع والأسلحة النارية الأخرى قد خلقت وضعاً جديداً في عالم الحروب، فلم تعد قوة عضلات المحاربين ومهارتهم في القتال كافيتين لإحراز النصر. وكذلك فإن معركة جالدران قد أثبتت ضرورة تقديم السياسة وحسن التدبير على السيف، فلو كان الشاه ورجال حاشيته قد أصغوا لرأي القائد المحنك خان محمد استاجلو حينما اقترح اللجوء على شن هجمات مباغتة على القوات العثمانية خلال مسيرتها، لأحرزوا نتائج إيجابية عظيمة ولو كانوا قد قطعوا خطوط التموين من الخلف على هذه القوات الجرارة لوجهوا إليها ضربة قاصمة، كما حدث ذلك حينما لجأ الشاه طهماسب بن الشاه اسماعيل إلى هذه الخطة مع السلطان سليمان.

وليس ثمة شبهة أنه طالما كان هناك جيشان أحدهما قوي ويملك أسلحة متطورة والآخر ضعيف ولا يملك أسلحة خصمه فعلى الثاني أن يلجأ إلى أسلوب الكر والفر.

ومن الواضح أن السلطان سليم أدرك أنه إذا شن هجوماً آخر على إيران فإن الشاه اسماعيل سيلجأ إلى هذا الأسلوب في قتال القوات العثمانية التي لا طاقة له بمواجهتها، ولذلك ظل يتردد في شن هجمومه بين عام ٩٢١ وعام ٩٢٦ حتى وافته المنية.

وقد ظل الشاه اسماعيل بين عام ٩٢٠ وعام ٩٢٦هـ مرابطاً على الدوام في الحدود الغربية والشمالية الغربية لإيران واستدعى القوات الإيرانية من مختلف المدن والولايات وأبقاها في حالة تأهب مستمر بالقرب من الحدود العثمانية وعين قادة بارزين في قيادة قوات القزلباش فكلف حاكم بلخ السابق ديو سلطان بقيادة العمليات في حدود پرجستان وأمر السلطان جاپان بالمرابطة في شمال الموصل وحدود نصيبين للدفاع عن العراق في حال وقوع هجوم مفاجىء.

وقد استمر العثمانيون ببث الإشاعات المغرضة في الأراضي الإيرانية ولم ينقطع الجواسيس عن حمل رسائل السلطان سليم إلى بعض حكام الأقاليم الإيرانية فكان لهذه الإشاعات وهذه الرسائل دور كبير في إحداث الاضطرابات الداخلية في بعض المناطق الإيرانية وفي بعض الأحيان تمرد الحكام على الحكم الصفوي كما حدث في مازندران حيث نقض ملوك مازندران عهودهم ورفضوا دفع الضرائب. وانتدب الشاه اسماعيل دور ميش خان لإصلاح الأمور الداخلية والقضاء على المتمردين وإقرار الأمن العام الذي تزعزع إلى حد ما.

ودورميش خان هو الشخص الذي عارض اقتراح خان محمد استاجلو في شن الهجمات المباغتة على القوات العثمانية أثناء حركتها، وهو ابن عبدي بك الذي يعد من خلفاء الصوفية والمقربين للخانقاه الصفوي. وكان دورميش مقارباً للشاه اسماعيل في العمر ويرتبط معه بعلاقة قديمة ثم تتوجت هذه العلاقة بمصاهرته للعائلة الصفوية. إلا أن مكانته بين القزلباش تردت كثيراً بعد معركة جالدران لاتهامهم إياه بإدمان الخمرة والاعتراض على اقتراح خان محمد وهو في حالة سكر، ومع ذلك كان الشاه يوليه الرعاية والمودة ويوكل إليه الكثير من أمور الدولة عدا الأمور التي تتعلق بالحدود العثمانية فلم يشركه فيها.

وفي الوقت الذي كان فيه السلطان ينقل قواته باستمرار من مكان لآخر ويهدد بها الحدود الإيرانية كان الشاه لا يهدأ ليله ولا نهاره ويتنقل بين الولايات الحدودية صيفاً وشتاء حسب ما يفرضه عليه الجو، فتارة يرحل إلى الموصل وتارة إلى أردبيل وأخرى إلى وان وحدود تبليس أو في نخجوان وايروان وقارص وأردهان.

ولم يكن الشاه طوال السنوات الست التي كان يراقب خلالها تحركات العثمانيين غافلاً عن الإصلاحات التجارية والصناعية، فقد أشرف شخصياً على تأسيس وإكمال العديد من مصانع الجلود والحرير والسجاد والورق وغيرها في أصفهان وهمذان ورشت وبعض المدن المركزية، وكان بعض هذه المصانع ملكاً للدولة بينما كان البعض الآخر ملكاً خاصاً وبعبارة أخرى ممولاً من قبل الشاه أو مشتركاً بين الشاه وعدد من التجار.

وقد وقعت في إيران بعض الأحداث المهمة بين عام ٩٢٠ وعام ٩٢٦، نستعرض عدداً منها فيما يلي:

الصلح مع ملك شيروان: ـ أشرنا آنفاً إلى أن رسائل السلطان سليم ودعاته الذين كان يبعث بهم إلى الأراضي الإيرانية لنشر الإشاعات والتحريض ضد الحكم الصفوي أتت ثمارها إلى

حد ما، فقد استجاب حكام وملوك بعض الولايات التي ورثوا الحكم فيها ولم يكونوا راضين عن الحكومة الصفوية المتفردة بالحكم لدعوة السلطان سليم فتمردوا على الشاه اسماعيل ومن هؤلاء ملوك مازندران وپيلان وملك شيروان وظلوا على اتصال مستمر مع الدولة العثمانية ينتظرون منها تحقيق وعودها بشن حملة ثانية على الأراضي الإيرانية لتشملهم بعنايتها وحمايتها.

وكان ملك شيروان أكثر الملوك المتمردين اندفاعاً في تمرده، فقد كانت حدود بلاد شيروان أقرب إلى الأراضي العثمانية من سواها مما سهل عليه توطيد العلاقة مع البلاط العثماني.

واستمر ملك شيروان في تمرده وخروجه على سلطان الحكومة المركزية في إيران حتى عام ٩٢٣هـ، فقد حشدت معظم القوات الإيرانية في هذا العام في القفقاز والعراق وقامت قوات القزلباش القادمة من خراسان بقيادة حاكم بلخ السابق ديو سلطان بالهجوم على پرجستان والقضاء على أنصار الدولة العثمانية فيها، وأيقن ملك شيروان بأن دوره آت بعد پرجستان لا محالة، فأصابه الذعر وأرسل التاجر الخواجه محمد البادكوبه إلى البلاط العثماني وحمله بالهدايا، طالباً تحديد ما ينبغي عليه فعله، مع التأكيد على ذكر الاستعداد الكامل للشاه اسماعيل وحشده لقوات القزلباش ونجاحه في إخماد الفتن والاضطرابات الداخلية.

وأجابه السلطان سليم بتجديد وعوده بشن هجوم ثان على الأراضي الإيرانية ويحثه على التكاتف مع الملوك والأمراء الآخرين والاستعداد لمحاربة القزلباش ثم يطلب منه إبلاغه بالتطورات أولاً بأول.

وكان ملك شيروان قد سئم من وعود السلطان سليم ومماطلته طوال أربع سنوات، فأخذ يفكر في مصالحة الشاه اسماعيل. وكان أصحابه المقربون، من أمثال الخواجه محمد البادكوبه إي وابنه الخواجه محمود البادكوبه إي يبطنون التشيع ويخفون موالاتهم للخانقاه الصفوي فأشاروا عليه باتباع المذهب الشيعي والاتحاد مع الشاه اسماعيل وحذروه من مغبة التحالف مع السلطان سليم. واقتنع ملك شيروان الشيخ ابراهيم بآرائهم فبعث بسفرائه إلى نخجوان التي كانت آنذاك مقراً لقوات القزلباش وحملهم بالهدايا الثمينة ورسالة إلى شاه إيران يعترف فيها بتقصيره ونقضه للعهود ويعده في حال صفحه عنه أن يقوم بتصحيح جميع أخطائه ليصبح أحد الأتباع المخلصين ثم يذكر بأنه لم يكن مطلعاً على حقيقة المذهب الشيعي ويتمنى على الشاه أن يرسل له أحد علماء هذا المذهب ليحاججه ويستجلي معه حقيقة المذهب.

واستقبل الشاه رغبة شيخ شاه بترحيب شديد وبعث له نائب السلطنة ميرزا شاه حسين الذي كان في الواقع رئيساً للوزراء والمتنفذ الأكبر في شؤون الدولة وبعث برفقته الصدر الأمير جمال الدين محمد، وغادر هذان الشخصان اللذان كان أحدهما رئيساً للشؤون السياسية في البلاد والآخر رئيساً للشؤون الدينية والقضائية غادرا نخجوان متوجهين إلى شيروان فخرج شيخ شاه لاستقبالهما وأدخلوا عاصمته في كثير من الاحترام والتكريم وطمأنه نائب السلطنة إلى رضى الشاه عنه وترك له حرية الخيار في السفر إلى نخجوان للقاء الشاه أو عدمه ومن جانب آخر نجح الصدر في مهمته فعدل شيخ شاه وأفراد عائلته وجماعة من العلماء والأهالي عن مذهبهم السابق إلى المذهب الشيعي.

وانتهت مهمة نائب السلطنة والصدر بنجاح كبير، فدفع إليهما ملك شيروان شيخ شاه هدايا كثيرة وما تخلف من الخراج عن السنين الماضية، وحملهما رغبته في تزويج ابنته الوحيدة من الشاه اسماعيل وتزويج ابنه مظفر خان بابنة الشاه. وأبلغ الشاه بهذه الرغبة فقبلها، وبادر شيخ شاه إلى إرسال ابنه إلى معسكر الشاه محملاً بأنواع الهدايا الثمينة فاستقبله الشاه بالترحاب وأبقاه في بلاطه أسبوعاً ثم أقام له حفل زفاف كبير، ولكن زواج الشاه من ابنة شيخ شاه تأخر حتى شهر ذي الحجة عام ٩٢٩هـ. وهكذا توثقت الأواصر بين العائلتين.

تمرد ملوك مازندران: ـ ذكرنا آنفاً أن ثمة شخصين كانا يتقاسمان الحكم في الأجزاء الرئيسية من مازندران هما آقا محمد روز افزون والأمير عبد الكريم أحد السادات المرعشية المعروفين.

وإضافة إلى هذين الحاكمين كان هناك العديد من الحكام الثانويين سنعرض لذكر بعضهم فيما بعد. وقد دفعت تحريضات السلطان سليم من جانب وتحريضات ملك الأوزبك عبيد الله خان، من جهة أخرى أغلب حكام مازندران للخروج على طاعة الحكم الصفوي والتمرد عليه منذ عام ٩٢٠هـ. وعلم الشاه اسماعيل فيما بعد أن أحد الأسباب التي كانت تثير السلطان العثماني على إيران وتدفعه لمعاودة الهجوم عليها هو استمرار حكام المناطق الحدودية وشير علي بك شهسوار في مراسلته ومبالغتهم في تصوير استعدادات القزلباش وتهيؤ الشاه لشن هجومه على ديار بكر، ومن ثم أشار بعض ذوي الرأي على الشاه أن يترك القفقاز لعدة أشهر ويقدم إلى داخل الأراضي الإيرانية علـه بذلك يحد من أوهام السلطان ومخاوفه، واستجابة لهذا الرأي غادر الشاه نخجوان قبيل حلول شتاء عام ٩٢٣ متوجهاً إلى قم فأمضى فصل الشتاء فيها، وفي ربيع عام ٩٢٤ أمر دورميش خان بالتوجه لتأديب حكام مازندران، فتوجه الأخير في بادىء الأمر إلى آقا محمد وكان هذا قد نقل أمواله وذويه إلى قلعتين محكمتين هما قلعة كليس وقلعة أولاد واستعد للدفاع، واستطاعت قوات القزلباش فتح قلعة كليس خلال ثلاثة أيام ثم هاجمت قلعة أولاد.

ولم يستطع آقا محمد الاستمرار في المقاومة فأعلن استسلامه ثم خرج من القلعة بعد حصوله على الأمان فدخل عسكر

القزلباش وسلم مفاتيح خزائنه لدورميش خان، فاصطحبه الأخير معه وغادر إلى ساري. واختصر الأمير عبد الكريم الطريق فأرسل ابنه السلطان محمود خان إلى دورميش خان محملاً بألفي تومان نقداً وهدايا ثمينة أخرى ووعد بدفع جميع المبالغ المترتبة عليه في أقصر وقت ممكن في حال عودة الخان عن قتاله على أن يقوم بزيارة الشاه فيما بعد، وكان من عادة دورميش خان احترام السادات فرحب بقدوم السلطان محمود وقبل باقتراح أبيه الأمير عبد الكريم ثم كر راجعاً وفي أثناء رحلة العودة أخذ العديد من حكام الولايات يتوافدون عليه محملين بأنواع الهدايا الثمينة ومنهم الأمير سيد حسين هزار جريبي والملك كاوس والملك بهمن ورافقوا الخان في سفره إلى عراق العجم حتى وصلوا حدود أصفهان حيث كان المعسكر الأكبر فدعاهم الشاه اسماعيل إلى الاشتراك معه في الصيد.

حملات الاوزبك على خراسان

ذكرنا آنفاً مقدمات الاتحاد ما بين العثمانيين ودولة الأوزبك ونحاول فيما يلي الحديث عن نتائج هذا الاتحاد والتنسيق بين الدولتين:

كان ملك الأوزبك عبيد الله خان يتابع تحركات القوات العثمانية ويعلم باقتراب موعد هجومها على إيران، وحينما اقتربت من جالدران بعث برسالة إلى السلطان سليم يعلمه فيها بأنه حرض كل الطورانيين بين منغوليا وضفاف نهر جيحون وسيقوم بشن هجوم قريب على خراسان ثم يتمنى أن يلتقي أتراك المشرق مع أتراك المغرب في أصفهان وعلى ضفاف نهر (زاينده رود).

وفي أواخر رجب عام ٩٢١هـ أجاب السلطان سليم على رسالة عبيد الله خان يعلمه بانتزاعه جميع نواحي ديار بكر وحتى حدود كردستان من القزلباش وأنه رفض طلبهم في المصالحة رغم إلحاحهم في ذلك لعزمه على استئصال شوكتهم إلى الأبد.

وكان أمراء الأوزبك قد تفرقوا بعد مقتل شيبك خان واستقل كل منهم بولايته، إلا أن مساعي السلطان سليم أعادت توحيد صفوفهم ودعتهم للهجوم على خراسان فاحتلوا هرات وأحرزوا بعض التقدم في أماكن أخرى إلا أنهم لم يستطيعوا الصمود طويلاً بوجه صفوف القزلباش المنظمة تنظيماً جيداً، فأنهوا محاولاتهم في احتلال خراسان ثم انكفأوا راجعين إلى ديارهم. ولكن هزيمة القزلباش في اُلدران أعادتهم إلى التفكير في احتلال خراسان مرة أخرى فأخذوا يشنون الغارات عليها باستمرار ويقتلون وينهبون ويحرقون ثم يقفلون راجعين بعد أن تتصدى لهم قوة من القزلباش.

ومع حلول عام ٩٢٧ حشد عبيد الله خان قوات كبيرة من مختلف نواحي تركستان ثم سار نحو خراسان على رأس ثلاثين ألف مقاتل، فحاصر مدينة هرات وهي إذ ذاك عاصمة خراسان وكان حاكم خراسان في ذلك الوقت هو الابن الأكبر للشاه اسماعيل الأمير طهماسب ميرزا الذي لم يكن عمره يتجاوز العاشرة وكان الوصي عليه الأمير خان موصلو فسعى الأخير في تحصين هرات مستعيناً بعدد من زعماء القزلباش وأهالي المدينة فاستمر حصار الأوزبك لها عشرة أيام ثم يئسوا من فتحها وعادوا إلى بخارى، ومنذ ذلك الحين وحتى وفاة الشاه اسماعيل لم يحدث هجوم مهم من قبل الأوزبك على خراسان.

وفي عام ٩٢٥ حمل الجواسيس إلى معسكر القزلباش أخباراً مفادها أن القوات العثمانية تتقدم نحو الموصل ويبدو أنها تنوي الوصول إلى بغداد إضافة إلى وجود تحركات مريبة في معسكر القوات العثمانية المرابطة في حلب على ضفاف نهر الفرات مما يبعث على الاحتمال أنها تنوي دخول العراق. فأمر الشاه اسماعيل دورميش خان وزينل خان بالسير على رأس بعض قوات القزلباش لدعم القوات المرابطة في بغداد ثم توجه بدوره على رأس قوة كبيرة إلى بيستون فعسكر فيها واشتغل بالصيد ليكون قريباً من أرض العراق وليتخذ الإجراءات المناسبة في حال وقوع هجوم عثماني على بغداد. ولكن وصلت فيما بعد أخبار أخرى تفيد بأن القوات العثمانية وصلت بالقرب من الحدود العراقية ثم انكفأت راجعة.

عام ٩٣٠ وموت الشاه اسماعيل

كان الشاه يمضي شتاء هذا العام في نخجوان ثم عاد إلى أردبيل فتوقف فيها فترة قصيرة ثم توجه إلى سراب لينعم بخضرتها ويلهو بالصيد فيها ولكن المرض لم يمهله ليلهو وحاول الأطباء معالجته دون جدوى، حتى فارق الحياة في يوم الاثنين الموافق للتاسع عشر من رجب عام ٩٣٠هـ.

وقد خلف الشاه وراءه أربعة ذكور، أكبرهم الأمير طهماسب ميرزا الذي ولد عام ٩١٨هـ، وأقيمت الاحتفالات في جميع أنحاء إيران بمناسبة ولادته، وكانت ولادته أبنائه الآخرين في عام ٩٢٣هـ وهم الأمير سام ميرزا المكنى بأبي النصر والأمير رستم وأخيراً الأمير بهرام[1].

السيد اسماعيل بن كاظم الحسيني التنكابني

تتلمذ على عمه السيد محسن التنكابني وابن عمته السيد محمد بن الحسين التنكابني وعلى الحاج عبد الوهاب القزويني والسيد محمد صاحب الضوابط.

أجازه ابن عمته السيد محمد في سنة ١٢٩٣.

له «تبصرة الناظرين» أتمه سنة ١٢٨٨.

(١) مصدرنا الأساس في هذه الترجمة ما كتبه سلطان علي أصغر المشهور برحيم زاده صفوي في كتابه: (زندگاني شاه إسماعيل صفوي).

توفي بعد سنة ١٣٠٣[١].

الشيخ اسماعيل الأصفهاني بن الشيخ محمد باقر

توفي سنة ١٣٧١ في أصفهان ونقل جثمانه إلى كربلاء فدفن فيها.

كانت نشأته الأولى بأصفهان على علمائها قرأ المبادىء العلمية وجانباً من الفقه والأصول وغيرهما.

ثم هاجر إلى النجف الأشرف، فحضر أبحاث الميرزا حبيب الله الرشتي والميرزا حسين الخليلي الطهراني والمولى محمد كاظم الآخوند الخراساني.

سكن كربلاء سنتين ثم انتقل إلى الكاظمية فسكنها سنين وكان يتردد بينها وبين سامراء. ثم استقر في أصفهان.

كان إلى علمه زاهداً بعيداً عن الظهور. لا يخرج إلا لصلاة الجماعة ظهراً في مسجد الشاه[٢].

الشيخ اسماعيل المعزي بن محمد حسن معز الدين الأصبهاني

ولد سنة ١٣٠٩ بأصفهان وتوفي فيها سنة ١٣٦٣.

قرأ في أصفهان النحو والصرف عند الآخوند ملا عبد الرزاق الجزي الأصفهاني وميرزا أحمد الأصفهاني، والبلاغة عند الآخوند ملا محمد الكاشي، والفلسفة عند الميرزا محمد علي الكاشي، وكتب الفقه والأصول سطحاً عند الحاج ميرزا بديع والسيد محمد الشوشتري والسيد مهدي الدره اي. ثم تتلمذ في الفقه والأصول خارجاً على الشيخ مرتضى الريزي الأصفهاني والسيد محمد باقر الدرهْ اي.

ثم هاجر إلى النجف الأشرف، فتتلمذ في الفقه والأصول على المولى محمد كاظم الآخوند الخراساني والسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي وشيخ الشريعة الأصبهاني والشيخ محمد حسين الأصبهاني. ويقال إنه تتلمذ على الشيخ هادي الطهراني أيضاً.

ثم عاد من النجف إلى أصبهان بعد سنة ١٣٣٠ فلازم الآخوند الفشاركي.

وكان يدرس في المدرسة المعروفة بـ«المدرسة النورية» ويقيم صلاة الجماعة في المسجد المعروف بـ«مسجد سلام»، فتخرج من حلقات دروسه جماعة كبيرة من الطلاب وأفاضل الناشئين. ترك كثيراً من المؤلفات في الفقه والأصول[٣].

السيد اسماعيل بن محمد جعفر البيرجندي القائني الخراساني.

عالم رياضي، يقول في أول كتابه أنه بعد الفراغ من العلوم العقلية والنقلية بدأ في الثاني من شهر شوال سنة ١٢٢٧ بدراسة علم الرمل مع شدة اشتياقه بتحصيل العلوم الغريبة.

الشيخ اسماعيل بن محمد بن علي الساري الأوالي.

كتب محمد بن أحمد بن جعفر العسكري الأوالي لخزانة كتبه نسخة من كتاب «الاستبصار» في سنة ١٠٥١ ووصفه بـ«الشاب الأسعد الأرشد التقي النقي النبيه عمدة الصلحاء وتاج الفصحاء وصدر أهل التقى الراقي في العلوم أعلى من ارتقى الرضي المرضي. . .»[٤].

السيد اسماعيل الموسوي العظيمي الخوانساري

من علماء خوانسار الناشئين بها، كان عالماً فاضلاً يقيم الجماعة في المسجد الجامع، ودرس عنده جماعة من العلماء المقدمات الأدبية، منهم السيد أحمد بن رضا الخوانساري، وقد رأيت في قم بعض المخطوطات التي كان قد نسخها. توفي نحو سنة ١٣٦٠[٥].

السيد اسماعيل بن نجف الحسيني المرندي التبريزي.

توفي سنة ١٣١٨.

كان أكثر اشتغاله بالفقه وأصوله وقد عانى الشعر العربي في شبابه ولكنه لم يجده فتركه.

له «كعبة ومسجد الحرام» و«مشاهد متبركة در مدينة منورة» و«مصباح الهدى» و«مصباح اليقين في أصول الدين». وغير ذلك[٦].

السيد امداد علي بن أحمد علي الحسيني الواسطي الهندي

فاضل أديب حسن الإنشاء ذو اطلاع جيد بالأخبار والآثار، من أعلام القرن الثالث عشر.

ولعله هو المذكور في «الكرام البررة» ص ١٥٥ بعنوان: المولوي امداد علي بن أحمد علي بن قلندر علي الكيرانوي اللكهنوي.

له «روضة المصائب» و«مجالس الأحزان»[٧].

أورنك زيب بن محمد تقي بن فتح علي شاه القاجاري

كان بالإضافة إلى مقامه الفقهي والعلمي أديباً شاعراً بالعربية والفارسية يتخلص في شعره بـ«حسامي» ولكن شعره العربي ضعيف، كما كان يعرف بزيب العلماء ويوقع في تعاليقه على الكتب بابن حسام. والظاهر أنه عاش إلى أوائل القرن الرابع عشر.

من أساتذته السيد جعفر بن أبي إسحاق الدارابي الكشفي،

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.
(٧) السيد أحمد الحسيني.

وأقام للدراسة مدة في تبريز وقرأ الفقه بها على الشيخ عبد الرحيم كما التقى هناك ببعض الشخصيات الأوروبية وناظرهم في الشؤون الدينية.

له بالإضافة إلى ما في الذريعة «شرح القصيدة العينية للحميري» أتمه سنة ١٢٧١ و«الناصرية» شرح كبير على تلخيص المرام في معرفة الأحكام للعلامة الحلي[١]. وغير ذلك.

الميرزا بابا الأردبيلي

رأيت له حواشي قليلة على «حاشية معالم الأصول» لملا ميرزا الشيرواني في نسخة كتبت سنة ١٢٤٥ وذكر في آخرها مع دعاء «مد ظله العالي»، فهو من أعلام القرن الثالث عشر[٢].

ميرزا آقا بابا الأصبهاني. ثابت

أديب شاعر بالفارسية، من شعراء القرن الثالث عشر وكان يقيم بأصبهان ويتخلص في شعره بـ «ثابت»[٣].

آقا بابا الشيرازي

من أعلام العلماء بشيراز في أوائل القرن الثالث عشر.

كتب السيد نعمة آ بن محمد هادي الجزائري في شيراز مجموعة من رسائل أجداده في سنة ١٢١٣ ثم أهداها إلى صاحب الترجمة معبراً عنه بـ«المولى العالم العامل والمرشد الكامل الفاضل النحرير البارع في التحرير والتقرير غرة صباح الإقبال المبشر بالسعادة وقرة عيون العارفين ولسان أرباب الإفادة شمعة مجلس الفضل التي لا تحتاج إلى القط ولا يستغنى عنها في النهار وقنديل محراب الصلاح الذي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار...»[٤].

السيد باقر بن طاوس الحسيني النجفي

فاضل من أعلام القرن الحادي عشر، قابل نسخة من كتاب «درر اللآلي العمادية» لابن أبي جمهور الأحسائي، وأتم الجزء الأول في يوم الأحد ١٢ ذي القعدة سنة ١٠٦٣[٥].

الشيخ باقر بن كاظم

فاضل أديب شاعر له إلمام بالنجوم والفلك، من أعلام أوائل القرن الرابع عشر.

له «هيئة المفتاح»[١٠].

الشيخ باقر بن الشيخ محمد كاظم الطهراني القزويني النجفي الشهير بزركر

ولد في طهران سنة ١٢١٨ وتوفي في النجف الأشرف سنة ١٢٨٣.

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.

ذكر في أعيان الشيعة المجلد الثالث الصفحة ٥٣٨ ونضيف على ما هنالك ما يلي:

كان من أئمة الفتوى والتقليد أصولي محقق حكيم أخذ المقدمات وفنون الأدب وشطراً من السطوح على علماء طهران ثم هاجر إلى أصفهان وأخذ عن أعلامها ومنها توجه إلى قزوين وأخذ الفقه والأصول والتفسير من العلمين الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وشقيقه الشهيد الثالث المستشهد سنة ١٢٦٣ وتخرج في الحكمة والفلسفة على الشيخ ملا آغا الحكمي القزويني في المدرسة الصالحية بقزوين.

ثم هاجر إلى العتبات المقدسة في العراق والتحق بحوزة السيد ابراهيم القزويني صاحب الضوابط المتوفى سنة ١٢٦١ ومنها استقر في النجف الأشرف وأخذ عن الشيخ علي آل كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٢٥٣ والشيخ محمد حسن صاحب الجواهر المتوفى سنة ١٢٦٦ والشيخ مرتضى الأنصاري المتوفى سنة ١٢٨١ وكان أستاذه الأنصاري كثير الاعتناء به والإشادة بفضله وهو من أقران الملا الأشرقي والشيخ علي الكني الطهراني في الدرس ثم رجع إلى موطنه طهران فالتف حوله جمع كثير من طلاب العلوم والفضلاء وكان من أشد المعارضين للشيخية ثم عاد إلى النجف وجلس للتدريس والتأليف حتى توفي بها. وله مؤلفات في الفقه والأصول ورسالة في الرد على الشيخية أتباع الشيخ أحمد الأحسائي المتوفى سنة ١٢٤١ ورسالة في حدوث العالم.

وله أربعة أولاد أكبرهم الشيخ موسى تخرج في النجف الأشرف على والده والشيخ محمد حسن البرغاني الحائري والشيخ مرتضى الأنصاري ثم رحل إلى طهران سنة ١٢٨٨ وبقي بها إلى أن توفي. والشيخ هادي والشيخ محمد صالح وكانا من أكابر علماء طهران. وأما الشيخ محمد فهو أصغر الإخوان وكان من علماء النجف الأشرف وسافر إلى زيارة الإمام الرضا (ع) وبقي مدة في طهران وتوفي حدود سنة ١٣٣٠ هجرية[٦].

بدر التمام بنت أبو عبد آ الحسين بن محمد بن عبد الوهاب بن محمد بن الحسين بن عبيد آ بن القاسم بن عبد آ بن الوزير سليمان بن وهب الحارثي البكري الدباس البغدادي.

توفيت بعد سنة ٥٢٤.

أخذت العربية وفنون الأدب من أبيها أبي عبد آ الحسين المولود سنة ٤٤٣ والمتوفى عام ٥٢٤ من مشاهير شعراء الشيعة في بغداد ونهجت نهج أبيها في الأدب والشعر. ذكرها ابن الدمياطي في كتابه ذيل تاريخ بغداد وقال: (بدر التمام بنت الحسين بن محمد بن عبد الوهاب الدباس وكان والدها يعرف

(٦) السيد أحمد الحسيني.

بالبارع. وكانت شاعرة رقيقة الشعر...)[1] وذكرت في أعيان الشيعة المجلد الثالث ص ٥٤٦ في ترجمة مختصرة نقلاً عن الحافظ جلال الدين السيوطي في رسالته نزهة الجلساء في أشعار النساء المخطوطة الموجودة في دار الكتب الظاهرية بدمشق ثم قال وأبوها البارع بن الدباس شيعي شاعر مجيد ذكرت ترجمة في بابه والولد على سر أبيه[2].

ومن شعرها قولها:

جمالك بين الورى عاذري وذكرك في ليلتي سامري
ولا صح ودك لي إن سلوت ولا جال حبك في خاطري
أما لان قلبك يا هاجري ولا رق للمدنف الساهر

وقد أنشدت عبد الباقي بن عبد الواحد المغربي من شعرها الأبيات الآتية:

يبدو وعيدك قبل وعدك ويحول منعك دون رفدك
ويزور طيفك في الكرى فبحمد طيفك لا بحمدك
لم لا ترق لذل عبدك وخضوعه فيفي بعهدك

يقول عبد الحسين الصالحي: وآل البارع الدباس من أشهر بيوت الوزارة في بغداد نبغ منها شعراء أفذاذ وأدباء وأكابر وهم من الأسر الشيعية البغدادية كان جدهم القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد (جلوس ٢٥٦ ـ المتوفى ٢٧٩ هجرية) والمكتفي (جلوس ٢٧٩ ـ ٢٨٩هجرية) وكان بين ولدها وابن الهبارية مداعبات ومطردات أدبية مشهورة[3].

السيد بدر الدين بن أحمد بن إدريس الحسيني الأنصاري العاملي

مترجم في «أعيان الشيعة» ٣/٥٤٩، ونقول:

كتب نسخة من «شرح الألفية» للشيخ حسين بن عبد الصمد العاملي ببلدة تفليس لعشر خلون من جمادى الثانية سنة ١٠٢٦، وكتب الشيخ بهاء الدين العاملي له في آخرها إجازة حديث بتاريخ ثامن ذي القعدة من نفس السنة، وذكره بقوله:

«سيدنا الأجل الفاضل الزكي الذكي الألمعي ذي الفطنة النقادة والفطرة الوقادة والتحقيق الرائق والتدقيق الفائق شمس سماء السيادة وبدر فلك الإفادة وغرة سيماء الرفعة والنجابة...».

واستنسخ نسخة من كتاب «منتقى الجمان» وأتم كتاب الطهارة منها في ٢٥ شهر رمضان سنة ١٠١٧ بمكة المكرمة على نسخة شيخه ابن المصنف، فالشيخ محمد بن الحسن بن الشهيد الثاني من شيوخ السيد بدر الدين هذا[4].

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٢) ابن الدمياطي: ذيل تاريخ بغداد ج ١٩ ص ٢٦٦ بيروت دار الكتب العلمية.
(٣) أعيان الشيعة ج ٣ ص ٥٤٦ بيروت دار التعارف سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

بدر الدين الطبري

من أعلام القرن السابع أو الثامن. مشتغل بالنجوم والعلوم الرياضية متضلع فيها، ساح أطراف العالم ليجد أستاذاً كاملاً في هذه العلوم فلم يجد كما يصرح بذلك في مقدمة شرحه على «سى فصل». أديب فاضل قوي الكتابة بالفارسية جيد الإنشاء.

له «شرح سى فصل»[5].

بريهة بنت جعفر الكذاب بن الإمام علي الهادي (ع).

توفيت بعد سنة ٣١١.

من فواضل نساء عصرها لم أقف على تاريخ ولادتها ووفاتها ذكرها معظم كتب السير والأنساب ولم يتطرقوا إلى خصوصيات حياتها. أخذت العلم من أعلام أسرتها. تزوجها موسى المبرقع بن الإمام محمد الجواد (ع) وسكنت مع زوجها مدينة قم في محلة موسويان وكانت من أبرز النساء العلويات في عصرها عابدة زاهدة جليلة القدر عظيمة الشأن وكانت لها رياسة حتى توفيت بقم ودفنت في جوار قبر زوجها بالقرب من مرقد حمزة بن موسى بن جعفر[6].

بريهة بنت أبي علي محمد بن أحمد بن موسى المبرقع

توفيت حدود سنة ٣٢٥.

من فواضل نساء عصرها، من بيت علم ورياسة. لم أقف على تاريخ ولادتها ووفاتها ذكرها حسن بن محمد القمي المتوفى سنة ٣٧٨ في كتابه تاريخ قم ص ٢١٩ وقال: ولدت في قم وتوفيت بها وكان أبوها من أشراف العلويين في عصره بقم وتوفي بها ودفن في محلة موسويان قريباً من قبر حمزة بن موسى بن جعفر (ع) ثم توفيت بنته بريهة وأخواتها فاطمة وأم سلمة وأم كلثوم ودفن جميعاً عند أبيهن[7].

السيد بشر بن محمد المحمدي العلوي الصديقي الصادقي الموسوي الفخاري

فاضل أديب له اطلاع بالطب، من أعلام القرن الثاني عشر وكان من أهل البصرة.

له «شرح الرسالة الذهبية» كتبه سنة ١١٦٨[8].

بنت حسين علي خان الداغستاني اللكزي

توفيت حدود سنة ١١٧٠.

عالمة فاضلة أديبة شاعرة من شاعرات أصفهان. أخذت

(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.
(٧) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٨) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

المقدمات وفنون الأدب على أفاضل علماء أصفهان ثم نشأت على حب الأدب وطبعت نفسها على الشعر وكانت رقيقة النظم والنثر.

وهي من أسرة اللكزي بداغستان التي نبغ منها شعراء أفذاذ وأمراء أجلاء وقد نشأت وترعرعت في بلاط الصفويين بأصفهان وهي بنت عم الميرزا علي قلي خان الداغستاني اللكزي المولود في سنة ١١٢٤ والمتوفى سنة ١١٧٠ المتخلص ب(واله) صاحب كتاب رياض الشعراء الذي كان والياً من قبل الشاه صفي الصفوي على أيروان ومن أبرز رجال هذه الأسرة فتح علي خان بن الخاص الميرزا الداغستاني اللكزي وزير الشاه سلطان حسين الصفوي وخديجة سلطان بنت علي خان بن مهر علي خان الدغستاني اللكزي وغيرهم. وقد خلفت المترجم لها ديوان شعر صغير[١].

بنت الشاه طهماسب الصفوي

توفيت بعد سنة ٩٨٤.

أميرة عالمة فاضلة فقيهة من ربات البر والإحسان لم أقف على اسمها وتاريخ ولادتها ووفاتها. ولدت في قزوين وترعرعت في بلاط أبيها الشاه طهماسب الأول الذي تولى الملك سنة ٩٣٠ وتوفي سنة ٩٨٤ مر ذكرها في (أعيان الشيعة) فجاء عنها: (ابنة الشاه طهماسب الصفوي لا نعرف اسمها كانت عالمة فاضلة ألف جملة من العلماء لها رسائل في أصول الفقه وغيره).

أخذت العلم والفضل وفنون الأدب على أعلام علماء قزوين وكانت من فواضل نساء عصرها محبة للعلم والعلماء وكان بلاطها مجمع الفضلاء والفقهاء والشعراء وتدفع لهم رواتب شهرية ولها آثار ومآثر خيرية في قزوين، كما أصدر جمع من العلماء مؤلفاتهم باسمها[٢].

بهرام بن بهرام (شمس الدين) بن علي بن بهرام الأسترآبادي.

قرأ كتاب «غوالي اللآلي» على مؤلفه ابن أبي جمهور الأحسائي، فأجازه روايته في أسترآباد في السادس من شهر ذي الحجة سنة ٨٧٨[٣].

بهرام فره وشي

ولد سنة ١٣٤٨ في مدينة (أرومية) بمحافظة آذربايجان وتوفي سنة ١٤١٢.

درس في جامعات إيران ثم سافر إلى فرنسا لإكمال دراسته فنال شهادة الدكتوراه في تاريخ إيران القديمة ولغاتها، ثم عاد إلى إيران فكان مدرّساً في جامعاتها.

ألف كتاباً عن اللغة الفهلوية باسم (قاموس اللغة الفهلوية) يعد المرجع في معرفة هذه اللغة

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٣) الشيخ عبد الحسين.

بيبي سلطان خانم الخراسانية

توفيت بعد سنة ٩٠٧.

عالمة فاضلة محدثة شاعرة مجيدة لم أقف على تاريخ ولادتها ووفاتها إلا أن هناك بعضاً من شعرها مكتوباً في مشهد خراسان في يوم تاسوعاء سنة ٩٠٧ أخذت المقدمات وفنون الأدب والفقه والحديث على أفاضل علماء خراسان فنشأت على حب الأدب وطبعت نفسها على الشعر وأجادت في النظم وهي أخت الدرويش پنج المداح ذكر ديوانها شيخنا الأستاذ الآغا بزرك الطهراني في (الذريعة) المجلد التاسع ص ١٥٥ وقال كانت تسمى بيبي سلطان وهي أخت درويش پنج المداح يوجد شعرها بخطها في كتاب كنز السالكين كتبته في مشهد خراسان في يوم تاسوعاء عام ٩٠٧ هجرية ونسخة كنز السالكين هي مجموعة فيها إجازات العلماء من أواسط القرن التاسع إلى أواخر القرن العاشر كتبوها لأبي المعارف نجم الدين محمد المولود في ٨١٨ هجرية والمتوفى ٨٨٥ هجرية ثم لابنه سالك الدين محمد المولود في ٨٤٧ هجرية ثم لابنه كاشف الدين محمد الشهيد فى ٩١٠ هجرية والنسخة من مخطوطات مكتبة فخر الدين من طهران[١].

ثابت علي شاه

ولد سنة ١١٥٣ في السند وتوفي سنة ١٢٢٥.

من كبار علماء السند وشعرائها ومؤلفيها. وكان يجيد اللغة العربية التي درسها على مخدوم محمد إحسان. كما درس التفسير والحديث والفقه على مخدوم محمد مراد واعظ

جابر بن حيان

مرت ترجمته في موضعها من (الأعيان)، ومرت عنه دراسة في المجلد الثاني من (المستدركات).

وننشر هنا هذه الدراسة الموسعة المكتوبة بقلم الدكتور زكي نجيب محمود:

كان مسقط رأسه وتاريخ مولده موضع اختلاف ؛ « فهنالك ما يسوغ لنا الظن بأنه فارسيٌّ ولد في طوس من بلاد خراسان »[٢]ـ وهي مسقط رأس الفردوسي الشاعر الفارسي ـ لكن رواية أخرى تقول : أنه من طرسوس ، ورواية ثالثة تجعله صابئاً من حران[٣] ورواية رابعة يرويها « ليو الأفريقي » الذي أرّخ سنة ١٥٢٦ ميلادية لرجال الكيمياء في افريقيا فيقول : أن كبيرهم هو : « جابر » الذي هو يوناني اعتنق الإسلام وكانت حياته بعد زمن نبي الإسلام بقرن من الزمان ؛ وكذلك يرد اسم « جابر » مرة واحدة عند « ألبرت الكبير » منسوباً إلى مدينة اشبيلية ، لكن جابراً المقصود هنا هو

(١) السيخ عبد الحسين الصالحي.
(٢) Holmyard, E. J, Chemistry to the Time of Dalton : ص ١٥ في الفهرست لابن النديم ص ٥٠٠ : « وقد قيل أن أصله من خراسان ، والرازي يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة (أي الكيمياء) : « قال استاذنا أبو موسى جابر بن حيان » .
(٣) D'Herbelot, Bibliotheque Orientate : ص ٣٦٠ ـ نقلاً عن إسماعيل مظهر في كتابه : « تاريخ الفكر العربي » .

بغير شك جابر بن الأفلح الـذي عاش في اشبيليـة خلال القـرن الحادي عشر الميلادي وألَّف في علم الفلك[1]

أما صفة « الكـوفي » الذي يُنْعت بهـا في روايات كثيـرة[2] فليست تدل على مكان مولده ، ولكنها ترجـع إلى مقامـه فيها زمنـاً ـ وعلى كـل حال فليس الأمر مقطوعـاً فيهْ بـرأي ـ فيقول ابن النـديم : « وزعموا (أي الشيعـة) أنه كـان من أهل الكـوفة . . . وحـدثني بعض الثقات ممن تعـاطي الصنعة (أي الكيمياء) أنه كان ينزل في شـارع باب الشـام في درب يعرف بـدرب الذهب (وذلـك في الكـوفـة) وقـال لي هـذا الرجـل أن جـابـراً كـان أكـثر مقـامـه بالكوفة . . . لصحة هوائها »[3]. وتمضي الرواية فتقـول أنه قـد حدث بعـد وفاة جابر أن هدمت الـدُّور في الحي الذي كـان يسكنه ، فكُشِفت الأنقـاض عن الموضع الذي كان فيه منزله ، ووجد معمله ، كما وجد هـاون من الذهب بزن مائتي رطل ، وتقول الـرواية أن هـذا حدث في أيـام عز الـدولة ابن معـز الدولة ؛ والظاهر أن ما قد دعا جابراً إلى الإقامـة في الكوفـة زمنـاً ، هـو فراره من خـطر كان محـدقاً بـه في عهد هـارون الـرشيـد ، والقصـة ـ كـما يـرويهـا الجلدكي[4] ـ هيَ أنه : « قد أفضى بـأسرار صناعتـه إلى هارون الـرشيد وإلى يحيى البرمكي وابنيه : الفضل وجعفر ، حتى لقـد كان ذلـك سبباً في غنـاهم وثروتهم ؛ فلما ساورت الرشيد الشكوك في البرامكة ، وعرف أن غـرضهم هو نقل الخلافة إلى العلويين ، مستعينين على ذلـك بمالهم وجـاههم ، قتلهم عن آخرهم ، فاضطر جابر بن حيان أن يهرب إلى الكوفة خوفاً على حياته ، حيث ظل مختبئاً حتى أيام المأمون ، فظهر بعد احتجابه » .

وها هنا تنهض أمامنا نقطة أخرى من نقط الإختلاف عن حياة جـابر ، وهي تاريخ مولده ؛ فعلاقته بالبرامكة ـ في عهد هارون الرشيد ـ يكاد يكـون عليها إجماع ، فإذا ذكرنا أن البرامكـة قد لبثـوا يتمتعون بثقـة هارون الـرشيد سبعة عشر عاماً ، منذ ولايتـه سنة ٧٨٦ م حتى سنـة ٨٠٣ ـ قبل مـوته بستـة أعوام ـ تبين لنا خطأ التاريخ الذي ذكره حـاجي خليفة في « كشف الـظنون » من أنه قد توفي سنة ١٦٠ هـ (أي مـا بين سنتي ٧٧٦ و ٧٧٧ م) فلو فـرضنا أن ولاية هارون الرشيد قـد أدرجت جابـراً في صدر رجـولته ، كـانت ولادته حوالي ٧٥٠ م أو قبل ذلك ؛ وإذن فيمكن القول عـلى وجه يقـرب من اليقين أنـه عاش خـلال النصف الثاني من القـرن الثامن الميـلادي والجـزء الأول من القرن التاسع ؛ وعن ذلك يقول هوليـارد[5] الذي عنى بـدراسته : أن حيـاته امتدت خلال الشطر الأكبر من القرن الثامن .

وكـما اختلف الناس في حقيقتـه التاريخيـة ، واختلفوا في مـولده مكـانـاً وزمانـاً ، واختلفوا في اسمه ، فكـذلك اختلفـوا في أمره وإلى أي فئـة أو مذهب ينتمي : « فقالت الشيعة أنه من كبارهم . . . وزعم قوم من الفلاسفة أنه كان منهم ، وله في المنطق والفلسفة مصنفات ؛ وزعم أهل صناعة الذهب والفضة أن الرياسة انتهت إليه في عصره ، وأن أمره كان مكتوماً »[6] . وحقيقة الأمر ـ كـما سنرى في غضـون هذا البحث ـ أنـه كان الثـلاثة معـاً : فهو من الشيعـة مذهباً ، وهو من الفلاسفة جدلاً ، وهو من الكيمويين علماً ؛ ثم هو فوق هذا وهذا وذلك صوفيٌّ ، حتى لقد لصقت صفـة الصوفيـة باسمـه كأنما هي جزء منه ، فيُدْعى حيثما ورد ذكره جابراً بن حيان الصوفي .

وإن جـابـراً ليتصـل ذِكْـره بـالإمـام جعفـر الصـادق (٧٠٠ ـ ٧٦٥ م تقـريبـاً) الـذي كثيراً مـا يرد اسمـه في كتابـات جـابـر مشـاراً إليـه بقـولـه : « سيـدي » فهنالـك من يـزعم أنـه جعفـر بن يحيى البـرمكي ، لكن الشيعـة تقول ـ وهو القول الراجح الصدق ـ إنـه إنما عنى بـه جعفر الصـادق ؛ ونقول أنه مرجح الصـدق لأن جـابراً شيعي ، فـلا غرابـة أن يعترف بـالسيادة لإمـام شيعي ؛ هذا إلى وفرة المصـادر التي لا تتردد في أن جعفـراً المشار إليـه في حياة جابر ونشأته ، هو جعفر الصـادق ؛ فيذكـر حاجي خليفـة في كشف الظنـون جابراً مصحوباً بعبارة : « تلميذ جعفر الصادق »[7] ويقـول كارا دي فـو وهو يتحدث عن جابر : « ومُعلِّماه هما : خالد بن يـزيد بن معـاوية . . . وجعفـر الصـادق[8] » ، وفي مقدمـة كتاب « الحـاصـل » لجـابـر[9] يقـول هـو نفسـه : « . . . وقد سميته كتاب الحاصل ، وذلك أن سيدي جعفر بن محمـد (ص) قال لي : فما الحـاصل الآن بعـد هذه الكتب (الكتب التي ألفهـا جابـر) وما المنفعة منها ؟ . . . فعملت كتابي هذا وسماه سيدي بكتاب الحاصل . . . » . وواضح أن هذا التوقير كله لا يكون موجهاً إلى برمكيٍّ ـ إذ كان جابر ذا مكانة ممتازة في بلاط الخليفـة هارون الـرشيد ، وخـالط أسرة البرامكـة مخـالـطة الند للأنداد[10] ـ وإنما يوجَّه مثل هـذا التوقـير من شيعيٍّ إلى إمامـه . على أن صلة جـابر بجعفـر لا بد أن تكـون قصـيرة الأمـد ، لأن وفـاة جعفـر كـانت سنـة ٧٦٥ م ، وهو بعد مولد جابر بما لا يزيد عن عشرين عاماً .

منزلته في علم الكيمياء :

جـابر هـو كيمويُّ العـرب الأول ، فهـو أول من اشتهـر علم الكيمياء عنه[11] وهو أول من يستحق لقب « الكيمـوي » من المسلمين[12] والـظاهر أنـه قد أصاب من ارتفاع المكانة وضخامة الثراء وبُعـد الصيت ، ما جعله مـوضع التقدير آناً وموضع الحسد والإضـطهاد آنـا ؛ وأما التقـدير فهـو الذي أحـاط اسمـه بهالـة من الجلال أزاغت عن حقيقتـه أبصار الكـاتبين فيـها بعد ، حتى لتجد من يصفه منهم تارة بأنه : « ملك العرب » وتـارة أخرى بـأنه : « ملك العجم » وتارة ثالثة بأنه : « ملك الهند »[13] وقال عنه رسل الذي ترجم بعض مؤلفـاتـه إلى الإنجليـزيـة (لنـدن ١٦٧٨) أنـه : « أشهـر علماء العـرب

(٣) دائرة المعارف البريطانية ، مادة Geber .

(٤) فهرست ابن النديم ، ص ٤٩٨ ؛ وأخبار العلماء بـأخبار الحكـماء للقفطي ، ص ١١١ (طبعة الخانجي ١٣٢٦ هـ) .

(٣) الفهرست ، ص ٤٩٩ .

(٤) نهاية الطلب .

(٥) Holmyard, E. J, Chemistry to the Time of Dalton.

(٦) الفهرست ابن النديم ، ص ٤٩٩ .

(٧) كشف الظنون ، ص ٣٤٣ .

(٨) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « جابر بن حيان » .

(٩) نشر پول كراوس .

(١٠) Holmyard, E. J, Chemistry to the Time of Dalton : ص ١٥ .

(١١) حاجي خليفة ، كشف الظنون ص ٣٤٤ .

(١٢) Holmyard في كتابه المذكور ، ص ١٥ .

(١٣) إسماعيل مظهر ، تاريخ الفكر العربي (فصل خاص بجابر بن حيان) .

وفلاسفتهم »[١]، وقال عنه القفطي أنه : « كان متقدماً في العلوم الطبيعية بارعاً منها في صناعة الكيمياء ، وله فيها تآليف كثيرة ومصنفات مشهورة »[٢] وحسبنا أن الرازي يشير إليه في كتبه الخاصة بعلم الكيمياء بقوله : « قال استاذنا أبو موسى جابر بن حيان »[٣] .

لكنه مع ذلك لا بد أن يكون قد لقي من الإضطهاد والحسد ما يلقاه كثيرون ممن يَنْبُه ذكرهم في كل مكان وكل زمان ؛ وإلا فما الذي دفعه إلى : « التنقل في البلدان ، لا يستقر به بلد . خوفاً من السلطان على نفسه ؟ »[٤] وما الذي أطلق لسان القائل :

هذا الذي بمقاله غَرَّ الأوائل والأواخر
ما أنت إلا كاسرٌ كَذَبَ الذي سماك جابر[٥]

بل أن الحقد قد تخطى أبعاد الزمن ، حتى أدرك مؤرخاً للعلم في العصر الحديث ، أراد أن يضع جابر بن حيان في موضعه من تاريخ الكيمياء ، فاستكثر عليه أن يكون هو صاحب النظريات الكيموية ذات القيمة التي تنسب إليه في أوروبا ، فراح يشطر انتاجه شطرين : شطر فيه الدسم العلمي : نَسَبَه إلى مؤلف قال عنه أنه مجهول وأنه انتحل لمؤلفاته اللاتينية في العصور الوسطى اسم « جابر » ليحتمي بسمعته وشهرته ، وشطر فيه تفاهة وغثاثة هو الذي يجوز نسبته إلى جابر العربي ؛ أما هذا المؤرخ للعلم الذي أشير إليه ، فهو « برتلو »[٦] الذي زعم أنه حلل المؤلفات المنسوبة إلى جابر بن حيان في علم الكيمياء ، وبعض هذه المؤلفات عربي خالص ، وبعضها لاتيني وله أصل عربي ، وبعضها لاتيني ولا توجد له صورة عربية ؛ حلل « برتلو » هذه المؤلفات وزعم أن ثمة تفاوتاً في مادتها وفي أسلوبها يتطلب التفسير .

ويتخذ برتلو من كتاب « الخالص »[٧] لجابر بن حيان في ترجمته اللاتينية نموذجاً للجانب الناضج من المؤلفات التي تُنسب إلى العالم العربي ، ويقول أن دراسة هذا الكتاب تدل على أنه ليس ينتسب إلى أصل عربي ، لا في منهجه المتميز بأحكام السير في طريق الاستدلال حجة في أثر حجة أحكاماً من شأنه أن يجمع المادة العلمية في سياق موحد متسق ، ولا في الحقائق الواردة فيه ، ولا في مفرداته اللغوية ولا في الأشخاص الذين يُرْجَع إليهم في الفقرات المقتبسة ؛ كل هذه جوانب من الكتاب يراها برتلو قاطعة بأن الكتاب لا يرتد إلى أرومة عربية ؛ فعلى الرغم من أنه يشتمل ـ في رأي برتلو أيضاً ـ على طائفة من الكلمات والعبارات التي ربما تكون مستعارة من جابر العربي ، إلا أن المرجح هو أن الكتاب في جملته من عمل مؤلف لاتيني مجهول في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، لم يُرِدْ أن ينسب الكتاب إلى نفسه ، ونسبه إلى أشهر الأسماء المعروفة عندئذ في علم الكيمياء ، ألا وهو اسم « جابر » ليستفيد الكتاب شهرة بشهرة مؤلفه المزعوم .

ومضى برتلو يبحث في المخطوطات التي وجدها في باريس وفي ليدن ، والتي تشتمل على مادة الكيمياء تنسب إلى جابر بن حيان ، ثم انتهى إلى أنه على الرغم من أنه لا يجد ما يسوغ نسبتها إلى جابر ، إلا أنه لا يرتاب في أن مؤلفها عربي ، ألفها بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر الميلادي ـ في فترة سابقة على اتصال اللاتين بالعرب ـ فقد وجد هذه الرسائل تختلف أسلوباً عن كتاب « الخالص » الذي أسلفنا ذكره والذي قلنا عنه ، أنه يحتوي على مادة علمية تتسم بالتفكير المحكم ؛ ولماذا يقطع برتلو بأن هذه الرسائل المخطوطة ـ غير كتاب « الخالص » ـ من تأليف رجل عربي مسلم ؟ الجواب عنده هو أن لغتها غامضة ومهوشة ، وفيها نزعة مُشَبِّهة (أي تشبِّه الطبيعة بالإنسان) فضلاً عن اشتمالها على إشارات وابتهالات إسلامية ؛ ولا ينفكُّ مؤلفها يقول في سياق حديثه : أنه سيرسل الكلام في عير تحفظ ولا ألغاز ، ومع ذلك فلا نراه أبداً يذكر التفصيلات عن الموضوعات التي يعد قارئه بأنه سيكشف عنها الأسرار والأستار ؛ أن مؤلف هذه الرسائل ليأخذ بالمذهب القائل بأن لكل شيء كيفية ظاهرة وأخرى باطنة ، وأن الواحدة منها نقيض الأخرى ـ وهو المذهب الذي كان شائعاً بين الكتَّاب اللاتين في القرون الوسطى ـ لكنه لم يذكر شيئاً عن توليد المعادن بالكبريت والزئبق على النحو الذي يقال أن جابراً عُرِف به ؛ أضف إلى هذا كله أن مؤلف هذه الرسائل يختلف عن مؤلف كتاب « الخالص » في أن الأول لا يتردد في أن يجعل للنجوم تأثيراً في توليد المعادن ، على حين أن الثاني يرفض هذا المبدأ ـ واختصاراً ، فإن المستوى العلمي لهذه الرسائل ـ وهي الرسائل التي ينسبها برتلو إلى مؤلف عربي مَّا ـ والمستوى العلمي لكتاب « الخالص » ـ وهو الكتاب الذي ينكر برتلو نسبته إلى جابر العربي ـ مختلفان اختلافاً بعيداً ؛ مما يدل ـ في رأي برتلو ـ على أن الكتب الكيموية المكتوبة باللاتينية والتي طبعت منذ القرن الخامس عشر ، لا تنتسب إلى جابر العربي ، على الرغم من أنها تحمل على الغلاف ما يفيد بأن مؤلفها هو جابر .

ولست في الحقيقة أجد ما أعلق به على رأي برتلو بأن اسم جابر منحول على هذا الكتاب أو ذاك ، وأن المؤلف الحقيقي المجهول هو الذي انتحله ليشتد به أزراً ، أقول أني لا أجد ما أعلق به على هذا الرأي أفضل من عبارة ابن النديم التي أسلفت ذكرها ، والتي رد بها على القائلين بأن جابراً لم يكن له وجود ، وأن اسمه منحول على الكتب التي تنسب إليه ، وهأنذا أعيدها مرة أخرى : « أن رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب ، فيصنف كتاباً يتعب قريحته وفكره بإخراجه ، ويتعب يده وجسمه بنسخه ، ثم ينحله لغيره ـ أما موجوداً أو معدوماً ـ ضرب من الجهل ، وأن ذلك (العمل) لا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم ، وأي فائدة في هذا وأي عائدة ؟ » .

---

(١) Russell, R. Jabir Ibn Hayyan.
(٢) أخبار العلماء بأخبار الحكماء (طبعة الخانجي) ص ١١١ .
(٣) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٥٠٠ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٤٩٩ .
(٥) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ص ٣٤٣ .
(٦) Berthelot, La Chimie au moyen âge, t. III L'Alchimie Arabe, Paris 1893.
(٧) اسم الكتاب الذي يشير إليه برتلو هو Summa perfectionis ويقول هوفر Hoefer في كتابه تاريخ الكيمياء : إن كتاب « الخالص » هو الأصل الذي أخذ عنه الكتاب المعروف في العالم اللاتيني بالاسم المذكور ، مع أن برتلو يبني كلامه على أساس أن الكتاب ليس له أصل عربي معروف .

ومـاذا يجدينـا بعد هـذا التشكيك في شخصيـة جـابـر العـربي من قِبَـل برتلو ، أن يقول بـرتلو بعد ذلـك عن هذا الاسم ـ اسم جـابر ـ أنـه ينزل في تاريخ الكيمياء منزلة اسم أرسطو في تاريخ المنطق ؟ وهو بذلك يريد بـالطبـع أن يقول أنه أول من وضع لعلم الكيمياء قـواعد علميـة تقترن بـاسمه ، كـما كان أرسطو أول من وضع لعلم المنطق قواعده وأصوله ؛ أنه إذا كان برتلو قد وجـد تفاوتـاً في اسلوب الرسـائل التي تنسب إلى جـابر ، وفي مـادتها ، فليس التفسير الوحيد لهذا التفاوت أن يكون لهذه الرسـائل أكـثر من مؤلف واحد ؛ بـل يفسِّر هذه الـظاهـرة نفسهـا ، أن يفـرض وجـود التفـاوت بـين قـدرات الشخص الواحد في أوقات مختلفة .

يُنسَب إلى جابر بن حيان عدد كبير جداً من الكتب والـرسـائـل ، يقول في بعضها ما لا يقـوله في بعضهـا الآخر أحيـاناً ، وأحيـاناً أخـرى يلخص في بعضها ما قـد بسطه في بعضهـا الآخر ؛ قـال الجلدكي في نهاية الـطلب[2] : « إن من عـادة كل حكيم أن يُفـرِّق العلم كله في كتبه كلهـا ، ويجعـل لـه من بعض كتبه خواص يشير إليها بالتقدمة على بقية الكتب لما اختصوا به من زيادة العلم ، كـما خص جابـر من جميع كتبه كتـابـه المسمى بـالخمسـمائـة » وقـال الطغرائي في كتابه مفاتيح الرحمة[3] في وصف الـطريقة التي انتهجهـا جابـر في تأليفه لكتبه ، أنه يعرض مذهبه بصور مختلفة في كتبه المختلفـة ، أي أن المادة التي يعـرضهـا في هـذا الكتـاب هي نفسهـا المـادة التي يعـرضهـا في ذلـك ، والإختـلاف إنما يكـون في صورة العـرض وحدهـا ، فأحيـاناً يـطيل وأحيـاناً يوجز ؛ ومرة يصرح وأخرى يلجـأ إلى الرمـز ، وهكذا ، يقـول الطغـرائي : « انظر إلى هذا العالِم كيف يتلاعب بالناس ويُخرج هذه الصنـاعة الشريفـة في المعارض المختلفة ومغزاه واحد ، وكيف يُعرِّض مرة ويصرِّح أخرى » .

وسنعرض فيما يلي قائمة كاملة بكتبه ورسائله كما وردت في فهرست ابن النديم ، مثبتين أمام كل كتاب منها أو رسالة ما قد يفيد من الملاحظات ؛ على أن قائمة ابن النديم يعيبُها عيبان : فهي أولاً قد تثبت أسماء بغير مسميـات ، أعني أنها مجـرد عناوين لكتب غـير موجـودة ، وهي ثانيـاً قد تهمـل كتبـاً مـوجودة فعـلاً ؛ ومما تجـدر الإشارة إليـه هنا ، أن ثمـة مؤلفات بـالـلاتينيـة تُنسب إلى جابر بن حيان ، دون أن تكون هنالك مقابلاتها العربية ، وهذه هي التي قـال عنها « برتلو » ـ كما أسلفنا ـ أنها لمؤلف لاتيني انتحل لنفسه اسم جـابر وأخفى اسمـه الحقيقي ، وهي على وجـه العموم تمثـل مرحلة في علم الكيميـاء أكـثر تقدماً من المرحلة التي تصورها الأصول العربية المـوجودة والمنسـوبة إلى المؤلف نفسه ، أي إلى جابر .

وفيما يلي قائمة بأهم ما عرفناه من مؤلفاته[4] :

(١) كتاب الأحجار ، الجزء الثاني ، ص ١٦٤ من مختارات كراوس .
(٢) النص مأخوذ من كشف الظنون ، لحاجي خليفة ، ص ٣٤٥ .
(٣) النص مأخوذ من « مختار رسائل جابر بن حيان » نشر وتحقيق بول كراوس ، ص ٥٥٣ .
(٤) راجع : الفهرست لابن النديم ص ٥٠١ ـ ٥٠٣ .
Paul Kraus, Jabir Ibn Hayyan, t. I.
تاريخ الفكر العربي للأستاذ إسماعيل مظهر .

١ ـ كتاب اسطقس الأس الأول إلى البرامكة ، نقل بالـزنكوغـراف في الهند ١٨٩١ .

٢ ـ كتاب اسطقس الأس الثـاني إليهم ، نقل بـالزنكـوغراف في الهنـد ١٨٩١ .

٣ ـ كتاب الكمال ، وهو الثالث إلى البرامكة ، نقـل بالـزنكوغـراف في الهند ١٨٩١ .

٤ ـ تفسير كتاب اسـطقس ، لم يذكـره صـاحب الفهـرست ، وذكـره يوسف الياس سركيس في معجم المطبوعات العربية والمعربة ، على أنـه واحد من مجموعة أحد عشر كتاباً يضمها كتاب واحد « في علم الأكسير العظيم » .

٥ ـ كتاب الواحد الكبير ، منه نسخة بالقسم العربي من المكتبة الأهلية بباريس في المجموعة رقم ٢٦٠٦ .

٦ ـ كتـاب الواحـد الصغـير ، منـه نسخـة بـالمكتبـة الأهليـة ببـاريس بالمجموعة ٢٦٠٦ .

٧ ـ كتاب الركن ، والأرجح أنه هو بعينه كتاب الأركان ، وقد أخِذَت مقـطوعات منه في القسم السابع من كتاب « رتبـة الحاكم » للمجـريـطي ، ويقول هوليارد : إن كتاب « رتبـة الحاكم » نُسِب خـطأ إلى المجريـطي ، وقد ذكر جابر نفسه كتاباً له باسم كتاب الأركان الأربعة في كتابـه « نار الحجـر » ـ أما المجريـطي المشار إليـه فهو أبـو القاسم مسلمـة بن أحمد المجـريطي الـذي عاش في مدينة مدريد أيام الحكم الثاني (٩٦١ ـ ٩٧٦) [5].

٨ ـ كتاب البيان ، نقل بالزنكوغراف في الهند ١٨٩١ ، ومـوجود بـدار الكتب بالقاهرة ضمن مجموعة رقم ٥٨٣ ، ٦٣١ مع ملاحظات لهوليارد .

٩ ـ كتاب النور ، نقل بالزنكوغراف في الهند ١٨٩١ ، ومـوجود بـدار الكتب بالقاهرة ضمن مجموعة رقم ٥٨٣ ، ٦٣١ مع ملاحظات لهوليارد .

١٠/ ١٢ ـ كتاب التدابير ، وكتاب التـدابير الصغـير ، وكتاب التـدابير الثـالث ـ هذه الكتب الثـلاثة ورد ذكرها عنـد جابـر نفسه في المقـالة الثـانيـة والثلاثين من كتابه « الخواص الكبير »[6] .

١٣ ـ كتـاب الملاغم الجـوانية ، من مجمـوعة تسمى بـالمائـة واثنى عشر كتاباً ، ذكره كراوس .

١٤ ـ كتـاب الملاغم الـبرانية ، من مجمـوعة تسمى بـالمائـة واثنى عشر كتاباً ، ذكره كراوس .

١٥/ ١٦ ـ كتـاب العمالقـة الكبير وكتـاب العمالقـة الصغير ، ذكـرهمـا كراوس .

١٧ ـ كتاب الشعر ، منه نسخة بالمتحف البريطاني رقم ٧٧٣٢ .

(٥) إسماعيل مظهر ، تاريخ الفكر العربي .
(٦) پول كراوس ، مختار رسائل جابر بن حيان ، ص ٣٢٢ .

١٨ ـ كتاب التبويب ، منه نسخة بالمكتبة الأهلية بباريس بالمجموعة ٢٦٠٦ ، وذكره الطغرائي ، راجع المجموعة رقم ٨٢٢٩ بالمتحف البريطاني .

١٩ ـ كتاب الأحجار على رأي بليناس (بليناس هو أبولونيوس) نشره بول كراوس ، وهو أربعة أجزاء .

٢٠ ـ كتاب أبي قلمون ـ وأبو قلمون اسم لحشرة تأكل الذباب ، ذكره جابر في المقالة الرابعة والعشرين من كتابه : (الخواص الكبير) ـ مختار كراوس ص ٣١٨ .

٢١ ـ كتاب الباهر ، ذكره كراوس .

٢٢ ـ كتاب الدرة المكنونة ، مخطوط في المتحف البريطاني ضمن مجموعة ٧٧٢٢ .

٢٣ ـ كتاب البدوح ، وهي مجموعة أحرف : ب ، د ، و ، ح وهو طلسم يفيد السرعة والإنجاز .

٢٤ ـ كتاب الخالص ، ويرجح أنه هو الكتاب الذي ترجم إلى اللاتينية باسم (Summa Perfectionis) والذي أشار إليه « برتلو » بقوله أنه ليس من تأليف جابر العربي ، بل هو منسوب إلى اسم جابر على سبيل الإنتحال ، والمؤلف الحقيقي أوروبي .

٢٥ ـ كتاب القمر ، أي كتاب الفضة ، منه نسخة بمكتبة باريس مجموعة ٢٦٠٦ .

٢٦ ـ كتاب الشمس ، أي كتاب الذهب .

ذكرهما جابر في كتابه « الميزان الصغير » ، (مختار كراوس ص ٤٥٠) وقال عنها أنهما يشتملان على ما قد ذكر قبل ذلك في كتابه « الأصول » .

٢٧ ـ كتاب التركيب (أو التراكيب) منه نسخة بمكتبة باريس ضمن مجموعة ٢٦٠٦ .

٢٨ ـ كتاب الأسرار ، ويرجح أنه هو كتاب « سر الأسرار » المحفوظة منه نسخة بالمتحف البريطاني ـ مجموعة رقم ٢٣٤١٨ نمرة ١٤ ـ وأنه هو الذي ذكر منه الطغرائي عدة مقطوعات في عدة مواضع (راجع مجموعة المتحف البريطاني رقم ٨٢٢٩) وفي اللاتينية مخطوطة تنسب إلى جابر بنفس العنوان وهو (Secreta Secretorim) .

٢٩ ـ كتاب الأرض (أولى ، وثانية ، وثالثة ، ورابعة ، وخامسة ، وسادسة ، وسابعة) ولعله هو « أرض الأحجار » الذي طبعه برتلو نقلاً عن المخطوط الموجود في مجموعة ليدن رقم ٤٤٠ ، ومنه نسخة بمكتبة باريس مجموعة رقم ٢٦٠٦ .

٣٠ ـ كتاب المجردات ، ذكره جابر في المقالة الثالثة والثلاثين من كتابه « الخواص الكبير » (مختارات كراوس ص ٣٢٤) وهو يقول عنه : « إنا جردنا فيه جميع الأبواب التي ذكرناها في المائة والأثنى عشر كتاباً ، ومبلغ الأبواب التي فيه خمسة آلاف باب ، وهو قاعدة كتبنا المائة والاثنى عشر ، وبه تتمُّ وتصحُّ أبواب المائة والاثنى عشر كتاباً ، فاطلبه واعمل بما فيه فهو في نهاية الحسن والشرف لمن علم . . . فأما لمن جهل فمشقة وتعب وحسرة .

وعن هذا الكتاب نفسه يقول جابر أيضاً في المقالة الثامنة والثلاثين من كتابه : « الخواص الكبير » (مختارات كراوس ص ٣٢٧) : « . . . فيا لَكَ كتاب مثله في فك الرموز المستعصية . . . وهو من أمهات كتبنا التي لا يسع لأحد أن يجهله » .

٣١ ـ كتاب الحيوان ـ ويذكره الجلدكي منسوباً إلى جابر .

٣٢ ـ كتاب الأحجار ، نقل بالزنكوغراف في الهند ١٨٩١ .

٣٣ ـ كتاب ما بعد الطبيعة ، ذكره جابر في كتابه « إخراج ما في القوة إلى الفعل » (مختارات كراوس ص ٣١) .

وتمضي هذه القائمة ـ بذكر أسماء لكتب أخرى ـ حتى تبلغ ١١٢ ، وبهذا تتكون المجموعة المسماة باسم « المائة واثنى عشر » من مؤلفات جابر .

ويلي ذلك ـ فيما قد أورده ابن النديم ـ مجموعة أخرى مؤلفة من سبعين عنواناً تعرف باسم « السبعين » وهي معروفة في اللاتينية باسم (Liber LXX) ، نذكر منها :

٣٤ ـ كتاب الخمسة عشر ، وهو معروف في اللاتينية باسم (Liber XV) ومنه نسخة عربية في مكتبة كلية ترنتي باكسفورد رقم ٣٦٣ .

٣٥ ـ الروضة ، ذكره الجلدكي في الجزء الثامن من كتابه نهاية الطلب .

وتمضي قائمة ابن النديم فتذكر عشرة كتب يقول عنها أنها مضافة إلى السبعين المذكورة سابقاً .

ومن هذه العشرة المضافة نعرف :

٣٦ ـ الإيضاح ، نقل بالزنكوغراف في الهند ١٨٩١ .

وبعد ذلك تأتي قائمة بعشر مقالات تسمى بالمصححات نذكر منها :

٣٧ ـ مصححات سقراط ، ومنه نسخة بالمكتبة البودلية باكسفورد تحت رقم ١٤١٦ .

٣٨ ـ مصححات أفلاطون ، ومنه نسخة بالقسطنطينية بمكتبة راغب باشا ، مجموعة ٩٦ رقم ٤ .

ويتلو هذه المقالات العشر في قائمة ابن النديم عشرون اسماً ، ويلحق بها ثلاثة أخرى تتصل بها ؛ ونذكر من هذه الثلاثة كتاباً نعرفه هو :

٣٩ ـ كتاب الضمير ، منه نسخة بالمكتبة الأهلية بباريس ، بالمجموعة ٢٦٠٦ وذكره الجلدكي في الجزء الثاني من نهاية الطلب باسم « كتاب الضمير في خواص الأكسير » .

ثم يجيء بعد ذلك في قائمة ابن النديم مجموعة من سبعة عشر كتاباً ،

وكذلك تلحق بها ثلاثة كتب تتصل بها ، وأهم هذه المجموعة ، بل من أهم مؤلفات جابر على الإطلاق .

٤٠ ـ كتاب الموازين ، طبعة « برتلو » عن نسخة موجودة بليدن ، ويظن هوليارد أن هذا الكتاب هو المعروف في اللاتينية بعنوان (Liber de ponderibis artis) .

ثم تتوالى القوائم مجموعات مجموعات ، ويختم بقوله :

« قال أبو موسى : ألفت ثلاثمائة كتاب في الفلسفة ، وألفاً وثلاثمائة رسالة في صنائع مجموعة وآلات الحرب ، ثم ألفت في الطب كتاباً عظيماً ، ثم ألفت كتباً صغاراً وكباراً ، وألفت في الطب نحو خمسمائة كتاب . . . ثم ألفت كتب المنطق على رأي أرسطاليس ، ثم ألفت كتاب الزيج اللطيف نحو ثلاثمائة ورقة . . . ثم ألفت كتاباً في الزهد والمواعظ ، وألفت كتباً في العزائم كثيرة حسنة . . . وألفت في الأشياء التي يعمل بخواصها كتباً كثيرة ، ثم ألفت بعد ذلك خمسمائة كتاب نقضاً على الفلاسفة ، ثم ألفت كتاباً في الصنعة يعرف بكتب الملك ، وكتاباً يعرف بالرياض » .

من هذا يتبين أن الكتب والرسائل التي يظن أن جابراً قد ألفها كثيرة ، قد تحقق لنا وجود بعضها[1] ولم يتحقق لنا وجود بعضها الآخر ؛ وليس هذا البحث موضعاً لتفصيل كامل لما تحقق وما لم يتحقق ، كلا ولا في وسع كاتبه أن يؤدي في ذلك شيئاً أكمل مما أداه العاملون في هذا الميدان : « برتلو » و « هوليارد » و « كراوس » ـ فحسبنا أن نختم قائمتنا الموجزة بطائفة أخرى عن كتبه المهمة المعروفة :

٤١ ـ كتاب الزئبق ، طبعه « برتلو » في كتابين ، أحدهما عنوانه : كتاب الزئبق الشرقي ، والآخر باسم الزئبق الغربي ، نقلاً عن مخطوط في مكتبة ليون رقم ٤٤٠ ، وهناك أيضاً نسختان بالمكتبة الأهلية بباريس ، مجموعة رقم ٢٦٠٦ .

٤٢ ـ كتاب الخواص ، منه نسخة بالمتحف البريطاني رقم ٤٠٤١ ، وبالمجموعة رقم ٢٣٤١٩ ، نشر كراوس نخباً من كتاب « الخواص الكبير »[2] .

٤٣ ـ كتاب الإستتمام ، ذكر الطغرائي بعض مقطوعات من هذا الكتاب ، (مخطوطات المتحف البريطاني رقم ٨٢٢٩) وكذلك ذكره الجلدكي في كتابه نهاية الطلب ؛ ويقابل هذا الكتاب ما هو معروف في اللاتينية باسم : Liber La investigatione perfectioni .

٤٤ ـ كتاب الملك ، طبع « برتلو » هذا الكتاب عن نسخة بليدن رقم ٤٤٠ من المجموعة العربية ، وتوجد نسخة أخرى مختلفة في المكتبة الأهلية بباريس رقم ٦٠٥ ، وهاتان النسختان تختلفان عن نسخة نقلت بالزنكوغراف في الهند سنة ١٨٩١ ، ويرجع هوليارد أن هذا الكتاب نقل إلى اللاتينية ، وذكره بوريليوس Borrellius ـ راجع مخطوطات الجمعية الكيماوية بباريس رقم ١٦٥٤ ص ١٠٣ ؛ وكذلك ذكره كاريني بعنوان Rivista Sicula[3] وقد أشار جابر نفسه إلى هذا الكتاب في المقالة الثالثة والثلاثين من كتاب « الخواص الكبير » (مختارات كراوس ص ٣٢٦) .

٤٥ ـ كتاب التصريف ، وهو المعروف في اللاتينية باسم Liber mutatorium ، وقد ذكره جابر نفسه في عدة مواضع من كتبه الأخرى : ذكره في كتابه « إخراج ما في القوة إلى الفعل » (مختارات كراوس ص ٩٢) ، وفي كتاب الخواص الكبير (مختارات كراوس ص ٣٢٩) ، وفي كتاب التجميع (مختارات كراوس ص ٣٤٢) وفي كتاب الحاصل (مختارات كراوس ص ٥٣٧) . هذا إلى أن پول كراوس قد اختار من كتاب التصريف نخباً أثبتها في مختاراته ، ص ٢٩٣ ـ ٤٢٥ .

٤٦ ـ كتاب شرح المجسطي ، ترجمه جيرارد الكريموني Gerard of cremona ومنه مخطوطة باكسفورد في مكتبة كلية Gorpus Christi ، وأخرى بأكسفورد أيضاً في المكتبة البودلية ، وثالثة بمكتبة جامعة كيمبردج[4] .

٤٧ ـ كتاب الوصية ، منه نسخة بالمتحف البريطاني بالمجموعة ٧٧٢٢ ، وله ترجمة لاتينية بعنوان Geberi testamentum موجودة في كلية ترنتي بكيمبردج (مجموعة ٩٢٥ و ١٣٨)[5] .

٤٨ ـ كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل ، نشره پول كراوس في مختاراته ص ١ ـ ٩٧ .

٤٩ ـ كتاب الحدود ، نشره پول كراوس في مختاراته ، ص ٩٧ ـ ١١٥ .

٥٠ ـ كتاب كشف الأسرار ، منه نسخة بالمتحف البريطاني في المجموعة ٧٧٢٢ رقم ٥٤ ، ونسخة بمكتبة القاهرة ، ترجمه إلى الإنجليزية R. Stule عام ١٨٩٢[6] ـ وقد يسمى هذا الكتاب بأسرار الكيمياء .

٥١ ـ كتاب خواص اكسير الذهب ، منه نسخة بالمكتبة الأهلية بباريس مجموعة ٢٦٢٥ رقم ٦ ، وترجمه هوليارد إلى الإنجليزية .

٥٢ ـ كتاب الرحمة ، طبعه برتلو عن مخطوطة بمكتبة ليدن رقم ٤٤٠ ، ويذهب هوليارد إلى أنه من تأليف أبي عبد الله محمد بن يحيى ، وذكر فيه مقطوعات كثيرة عن جابر ـ غير أن جابراً أشار إلى هذا الكتاب على أنه كتابه ، وذلك في المقالة العشرين من كتابه الخواص الكبير ، إذ يقول : « . . . إني دُفعت إلى زمان . . . فيه طلاب هذه الصناعة (أي الكيمياء)

(١) لعل أكمل تحقيق هو الذي قام به پول كراوس في كتابه عن جابر بن حيان .

(٢) يقول هوليارد عن كتاب الخواص الكبير : إنه أهم كتب جابر في الكيمياء . (انظر كتاب هوليارد : تاريخ الكيمياء إلى عهد دولتين ، ص ١٦) .

(٣) تاريخ الفكر العربي ، إسماعيل مظهر .

(٤) تاريخ الفكر العربي ، إسماعيل مظهر .

(٥) تاريخ الفكر العربي ، إسماعيل مظهر .

(٦) تاريخ الفكر العربي ، إسماعيل مظهر .

كثير جداً . . . ووجدت قوماً خادعين ومخدوعين ، فرحمت الجميع وعملت لهم ما قد حكيته مجرداً في صدر كتابي الرحمة » (مختارات كراوس ص ٣١٤) .

٥٣ - كتاب التجميع ، نشره پول كراوس في مختاراته ص ٣٤١ - ٣٩٢ .

٥٤ - كتاب الأصول ، موجود في المتحف البريطاني بالمجموعة ٢٣٤١٨ رقم ١٣ ، وقد ترجم إلى اللاتينية بعنوان Liber Radicum وقد أشار إليه جابر عدة مرات في كثير من كتبه . قائلاً عنه : « إنه والله من نفيس الكتب » (مختارات كراوس ، ص ٧٤ ، ٣٢٢ ، ٣٤٢ ، ٤٥٠) .

ونكتفي بهذا القدر من مؤلفات جابر ، لأن غايتنا ليست هي الحصر الكامل المحقّق لهذه المؤلفات ، بل هي تقريب الصورة إلى القارىء عن هذا العالم العربي .

عالم ومنهجه

إيمانه بالعلم :

« والعلم » هنا مقصود به علم الكيمياء بصفة خاصة ؛ و« الكيمياء » مقصود بها الوسائل التي يستطيع بها الكيميائي أن يبدل طبائع الأشياء تبديلاً يحولها بعضها إلى بعض ، وذلك أما بحذف بعض خصائصها أو بإضافة خصائص جديدة إليها ، لأنه إن كانت الأشياء كلها ترتد إلى أصل واحد ، كان تنوعها راجعاً إلى اختلاف في نِسَب المقادير التي دخلت في تكوينها ، فليس الذهب - مثلاً - يختلف عن الفضة في الأساس والجوهر ، بل هما مختلفان في نسبة المزج ، فإما زيادة هنا أو نقصان هناك ، وما على العالم إلا أن يحلل كلاً منها تحليلاً يهديه إلى تلك النسبة كما هي قائمة في كل منها ، وعندئذ يرتسم أمامه الطريق واضحاً إذا أراد أن يغيِّر من طبيعة هذا أو ذاك ، لأن مدار التغيير هو - كما قلنا - حذف أو إضافة .

وكان رجال الفكر من هذا العلم فريقين : فأكثريةٌ تذهب إلى بطلانه واستحالته ، وقِلَّةٌ تؤكد إمكانه عند العقل وفي الفعل على حد سواء .

فمن المنكرين الشيخُ الرئيس ابن سينا الذي حاول في كتابه الشفاء أن يقيم الحجة على بطلانه ، وكانت حجته هي أن الصفات التي يقال عنها أنها إذا أضيفت هنا أو حذفت هناك تحولت الأشياء بعضها إلى بعض ، صفاتٌ محسوسة عَرَضية لا تمس جواهر الأشياء ، فليست هي بالفواصل الحقيقية التي تميز نوعاً من نوع ، وأما الفواصل الحقيقية فمجهولة ، فلسنا ندري ماذا في الذهب مما يجعله ذهباً ولا ماذا في النحاس ما يجعله نحاساً ، وإذا كان الشيء مجهولاً فكيف يُتاح لنا أن نوجده إيجاداً أو نفنيه إفناء ؟[1] .

وكان الفيلسوف الكندي كذلك من المنكرين لإمكان قيام هذا العلم ، وأقام إنكاره هذا على أساس أن الطبيعة قد انفردت - دون الإنسان - بأشياء محال على الإنسان أن يأتي بمثلها ، كما انفرد الإنسان - دون الطبيعة - بأشياء أخرى ، ومن الخلط بل من الخداع أن يحاول الإنسانُ فعلَ ما قد انفردت الطبيعة بفعله[2] ، فكما أنه محال على الطبيعة أن تصنع سيفاً أو سريراً أو خاتماً ، فكذلك محال على الإنسان أن يصنع ذهباً أو فضة أو نحاساً .

والظاهر أن أبا نصر الفارابي قد وقف موقفاً وسطاً بين إمكان علم الكيمياء واستحالته ، مستنداً في ذلك إلى أرسطو وموقفه من هذا الموضوع نفسه ، وخلاصة هذا الموقف الوسط ، هي أن تحوُّل الأشياء بعضها إلى بعض متوقف على نوع الصفات المراد حذفها أو اضافتها ، فإن كانت أعراضاً ذاتية تعذر التحول ، وأما إن كانت أعراضاً عرضية أمكن التحول ، هذا إلى أن إمكان التحول قد يكون مقبولاً من الوجهة الصورية النظرية ، لكنه عسير من الوجهة الفعلية العملية[3] .

لكن هناك فريقاً آخر هم أكثر إيماناً بما يستطيعه العلم ، ومن هؤلاء فخر الدين الرازي الذي عقد فصلاً في المباحث المشرقية يبين فيه إمكان علم الكيمياء ، ومنهم الشيخ نجم الدين ابن البغدادي الذي رد على ابن تيمية وزيَّف ما كان قاله عن استحالة علم الكيمياء ، ومنهم كذلك أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الذي تصدى للرد على الكندي في الموضوع نفسه ، وصنف الطغرائي كتباً يثبت فيها إمكان قيام هذا العلم ، ويرد على ما كان ابن سينا قد ذهب إليه من عدم إمكان ذلك[4] .

وعلى رأس المثْبِتين لعلم الكيمياء بالقول وبالفعل معاً ، هو جابر بن حيان الذي كان أول من اشتهر عنه هذا العلم ؛ فهو يتساءل في عجب : كيف يُظن العجز بالعلم دون الوصول إلى الطبيعة وأسرارها ؟ ألم يكن في مستطاع العلم أن يجاوز الطبيعة إلى ما وراءها ؟ فهل يعجز عن استخراج كوامن الطبيعة ما قد ثبتت قدرته على استخراج السر مما هو مستور وراء حُجبها ؟ وهو يستدرك هنا بقوله : إننا لا نطالب من لا علم له بالتصدي للكيمياء ، بل نطلب ذلك من ذوي العلم الذين استوفوا أركان البحث[5] ؛ ولعمري إن هذا القول من جابر لما نضعه في مقدمة الشروط التي نستوجب استيفاءها في كل باحث علمي ، كائناً ما كان موضوع بحثه ، وفي أي عصر جاء ؛ فلا يجوز لغير العلماء المختصين أن يقولوا ماذا يُستطاع وماذا لا يُستطاع في مجال البحث ؛ ويمضي جابر في حديثه عن إمكان العلم الكيمويِّ أو امتناعه ، فيقول أن أسرار الطبيعة قد تمتنع على الناس لأحد سببين ، فأما أن يكون ذلك لشدة خفائها وعسر الكشف عنها ، وأما أن يكون للطافة تلك الأسرار بحيث يتعذر الإمساك بها ، وسواء كان الأمر هو هذا أو ذلك ، كان في وسع الباحث العلميُّ أن يلتمس طريقاً إلى تحقيق بغيته ، فلا صعوبة الموضوع ولا لطافته ودقته مما يجوز أن تحول العلماء دون السير في شوط البحث إلى غايته[6] .

---

(١) كشف الظنون ، حاجي خليفة ، مجلد ٢ ، ص ٣٤١ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤١ - ٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٤١ .

(٥) جابر بن حيان ، كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل ، نشر كراوس ، ص ٧ .

(٦) المصدر السابق نفسه ، ص ٨ .

مصدر العلم :

أنّى لـلإنسـان أن يعلم العلم الـذي يعلمـه ؟ هـذا سؤال مـا أنفـك الفلاسفة يسألونه ويحاولـون عنه الجـواب : أفيكون في فـطرة الإنسان وطبعـه المجبول أن يهتدي إلى العلم من تلقاء نفسه لو واتته الـظروف المناسبـة ؟ ذلك ما أخذ به سقراط الـذي كان عـلى اعتقاد بـأن العلم كامن في الإنسـان ، ولا يحتاج إلا إلى من يحركه بالأسئلة الموجّهة ، فيخرج العلم من حالة الإضمار إلى حـالة الـظهور ، أو من حـالـة الكمـون إلى حـالـة العَلَن ، أو ـ بـالمُصـطلح الفلسفي ـ من حالة الوجود بالقوة إلى حالة الوجود بـالفعل ؛ ولـو كان الأمـر كـذلك لكـان التعلّم ضربـاً من ضروب الكشف عـما هـو خبيء في النفس ، وليس هو باكتساب شيء يأتي إلى نفس المتعلم من خـارجها ، ولكـانت عملية التعليم لا تزيد عـلى عملية التـوليد ، ويعـبر جابـر عن هذا الـرأي بقولـه أن المتعلّم عندئذ : « يكون مبتدعاً للأشيـاء من نفسه في أول الأمـر بطبـاعه »[1] لكنه لا يجعل هذه الصفة عامة في كل إنسان على حد سواء ، بل يقصرها على من يصفهم « بـالإعتدال » ـ والإعتـدال عنده معنـاه توازن العنـاصر التي منها يتكـون الشخص المعين ـ « فـالشخص المعتدل هـو الـذي يستخـرج الأشيـاء بطبعه ، ويقع له العلم بالبديهة في أول وهلة » ويستطرد جابر فيقـول نقلاً عن فـورفوريـوس[2] « إن من كان هـذا سبيله (هو) سقـراط الحكيم ؛ فإنهم لا يشكّون أن كثيراً من العلم وقع له بقليل الرياضة ، وأن ذلك بالطباع »[3] أي أن رياضة قليلة ، أو قلْ فاعلية وجهداً قليلين كانا يكفيان لتحريـك علم كثير في نفسه ، لأن العلم كامن هناك بالفطرة ، ينتظر ما يحركه فيتحرك .

العلم بـالفـطرة ـ إذن ـ أحـدُ المـذاهب المختلفـة في تفسـير التعلّم ؛ ومذهب آخر يقول أن العلم إنما يكون بالتلقين ، فما في فـطرة الإنسان علم لا بالقوة ولا بالفعل ، فهي ـ على حد العبـارة التي قالهـا الفيلسوف الإنجليـزي « جون لُكْ » (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) ـ تـولد صفحـة بيضاء ، ثم تـأتي العوامـل الخارجية عن طريق الحواس فتخط عليهـا آثارهـا ومن هذه الآثـار المخطوطـة يتكون علم الإنسان ، ومن بين هذه العوامل الخـارجية ـ بـل من أهمها ـ هـو المعلم ـ والوالدان هما بمثابة المعلمين ، فهؤلاء يلقنـون الناشيء بمـا يكوّن لـه نفسه على الصورة التي يريدونها له ؛ وفي ذلك يقول جـابر : « . . . (إن من يوكل إليـه أمر تكـوين الإنسان) يـدرس عليه جميـع العلوم وضروب الآداب وعلوم العُلْويّـات ، أو غير ذلـك مما يـراد من ذلك المكوَّن أن يكـون مـاهـراً فيه »[4] .

يذكر جابر هذين المذهبين في مصدر العلم ، المذهب القائـل بأن العلم لـدني ينبع من الفـطرة ، والمـذهب القـائـل إن العلم آت كله من الخـارج بالتحصيل والتلقين ، ثم يضيف إليهما مذهباً ثـالثاً يقـع بين بـين ، وذلك أن يكون في نفس المتعلم استعداد للتلقي ، ثم تجيء العوامل الخارجية فتستخدم

(١) جابر بن حيان ، كتاب التجميع (مختارات كراوس) ص ٣٧٦ ـ ٧ .

(٢) فيلسوف اسكندراني من مدرسة الأفـلاطونيـة الحديثـة ، عرف بشرحـه للمنطق الأرسـطي (٢٣٣ ـ ٣٠٤) .

(٣) كتاب التجميع في المختارات المذكورة ، ص ٣٧٧ .

(٤) التجميع (مختارات كراوس) ص ٣٧٥ .

ذلـك الاستعداد الفـطري ؛ فـالفـطرة ليست « علماً » ولكنهـا « تهيؤ » لقبـول العلم ، وإذن فلا بد في الأمر من داخل وخارج معاً ؛ وهذا هو بعينه ما يقوله القائلون بضرورة الوراثة والبيئة معاً في عملية التربية ؛ إلا أن جابراً يستخـدم لغة أخرى غير هذه اللغة ، فيعبر عن الحقيقة نفسها بقوله : « إن (العلم) لا يكون بالبديهة ، ولا بالتعليم من الصغر ، بـل يكون عـلى البديهـة »[5] ـ فهو يقول عن العلم إنه « بالبديهة » في الحالة التي يكون فيها موروثاً بالـطبع ، ثم يقول عنه إنـه « على البـديهة » حـين لا يكون المـوروث بالـطبع إلا استعـداداً فقط ، وعلى هذا الاستعداد تأتي المؤثرات من خارج ؛ وإن جـابراً ليختـار من هذه المذاهب الثلاثة مذهباً ، وهو هذا الذي يجمع بين الاستعداد والتلقـين ، مؤكداً أن : « النفس لا تكون عالمة أولاً بالضرورة »[6] أي أنها محال عليها أن تولد مزودة بالعلم كاملاً ، لكنهـا مستعدة للتقبـل بطبيعتهـا ، فهي : « قـادرة فاعلة جاهلة »[7] أول الأمر ، ثم تُراض بعد ذلك بفضل قدرتها وفاعليتهـا ، فيتحول الجهل علماً .

لكن ما مصدر التلقين عند جابر ؟ من ذا الـذي كشف له عن الحقـائق فتلقفها وتمثّلها بفطرته القابلة القادرة ؟ ها هنا نجده يصرح في أكثر من موضع بأن مصدر علمه هو النبيُّ وهو عليٌّ وهـو سيده جعفـر الصادق ومـا بين هؤلاء جميعاً من أبناء الأسرة الشريفة ؛ فهو يقول : « تأخـذ (من كتبي) علم النبي وعليٍّ وسيدي وما بينهم من الأولاد ، منقولاً نقلاً مما كان وهو كائن وما يكـون من بعد إلى أن تقوم الساعة »[8] وفي موضع آخر يقول : « فوالله ما لي في هذه الكتب إلا تأليفها ، والباقي علم النبي (ص) »[9] .

فما مؤدّى هذا ؟ مؤداه أن مصدر التلقين هـو الوحي ، ينـزل على النبي ثم يتـوارثه الخلفـاء من بعده ، وعن هؤلاء يكسب الكـاسبون . فليس العلم عقـلاً ولكنه نقـل ، ليس هـو بـالكشف المبتكـر الأصيـل بـالنسبـة إلى العـالِم الكاشف ، بل هو تنزيل من السماء ؛ وعلى هذا الضوء نفهم اسم « الكيميا » لماذا أطلق على مثل هذه الأبحـاث التي قام بهـا جابـر ؛ فهي لفظة معـربـة من اللفظ العبراني ، وأصله كيم يه ، ومعناه أنه من الله[10].

الأستاذ والتلميذ :

لهذا كان للأستاذ الذي ينقل العلم للمتعلم منزلة مقدسة عند جابـر ؛ وانا لننقل هنا مقالة كتبها في العلاقة بين الأستاذ والتلميذ[11]، ونعتقد أنها من الروائع في ميدان التربية ، ولن ندخـل على لفظها من التعـديل إلا بمقـدار ما يجعلها مناسبة لسمع القارىء الحديث ، قال :

فأما مـا يجب للأستـاذ على التلميـذ ، فهو أن يكـون التلميذ ليّنـاً قبولاً لجميع أقواله ، من جميع جوانبه ، لا يعترض عليه في أمر من الأمور . . . فان

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٧٧ .

(٦) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٧٧ .

(٧) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٧٨ .

(٨) المقالة الحادية والعشرون من « كتاب الخواص الكبير » ـ مختارات كراوس ، ص ٣١٥ .

(٩) المقالة الرابعة والعشرون من « كتاب الخواص الكبير » ، ص ٣١٧ .

(١٠) الصفدي في شرح لامية العجم ، أخذناه عن كشف الظنون ، مجلد ٢ ص ٣٤١ .

(١١) المقالة الأولى من « كتاب البحث » ـ مختارات كراوس ، ص ٥٠١ ـ ٥٠٥ .

ذخائر الأستاذ العالِم ليس يظهرها للتلميذ إلا عند السكون إليه ، وحمده غاية الحمد ، وذلك أن منزلة الأستاذ هي منزلة العلم نفسه ؛ ومخالف العلم مخالف الصواب ، ومخالف الصواب واقع في الخطأ والغلط ، وهو ما ليس يُؤثِره عاقل ؛ فإذا لم يكن التلميذ على هذا المقدار من الطاعة للأستاذ ، أعطاه الأستاذ قشور العلم وظاهره .

وليست أريد بطاعة التلميذ للأستاذ ، أن تكون هذه الطاعة في شؤون الحياة العملية الجارية ، بل أريدها طاعة في قبول العلم والدرس وسماع البرهان على أستاذه ، وحفظه ، وترك التكاسل والتشاغل عنه ؛ ذلك أن شؤون الحياة العملية لا قيمة لها عند الأستاذ الرَّبَّانيّ ، لأن الأستاذ هو كالإمام للجماعة التي هو قيِّم بها ، وكالراعي ، والسائس ، للأشياء التي يتولى صلاحها وإصلاحها ؛ فمتى عسرت عليه ، أو عسرت عن التقويم ، فامَّا أن يطَّرِحها وأما أن يتعبه تقويمها إلى أن تستقيم . . .

وينبغي للتلميذ أن يكون صامتاً للأستاذ ، كتوماً لسرِّه ، لأن التلميذ في هذه الحال كالأرض المزروعة التي يتخذها الإنسان لصلاح حاله : فان كانت تربتها طيبة استقر فيها البذر ، فأزكى وأينع ، وردَّ أمثال بذره ؛ وإن كانت تربتها فاسدة قبيحة ، هلك البذر فيها ولم يثمر إلا ما هو قليل النفع ، . . . وواجب التلميذ أيضاً أن يكون منقطعاً إلى الأستاذ دائم الدرس لما أخذ عنه ، كثير الفكر فيه ؛ فليس في وسع الأستاذ إلا أن يعلِّم تلميذه أصول العلم ، وعلى التلميذ بعد ذلك أن يروض نفسه على ما قد تعلَّم .

فأما ما يجب للتلميذ على الأستاذ فهو : أولاً ـ أن يمتحن الأستاذ قريحة المتعلم ؛ وأعني بالقريحة جوهر المتعلم الذي طُبع عليه ، ومقدار ما فيه من القبول ، والاصغاء إلى الأدب إذا سمعه ، وقدرته على حفظ ما قد تعلمه وعلى تذكُّره ؛ فإذا وجد الأستاذ تلميذه قَبولاً ، ذا أرض زكية ، وجوهر ترتضع فيه المعلومات كلما ارتسمت فيه ، أخذ يسقيه أوائل العلوم التي تتناسب مع قدرته على القبول ، وتتناسب مع سنّه وخبرته ؛ ولم يزل به يلقنه العلم أوَّلاً أوَّلاً ، وكلما احتمل الزيادة زاده ، مع امتحانه فيما كان قد تعلمه ؛ فإن كان حافظاً لما كان سقاه وغير مضيِّع له ، زاده في الشرب والتعليم ، وان وجده ينسى ويتخبَّل في حفظه ، أنقص له المقدار ، وعاتبه على ذلك عتاباً كالإيماء من غير إمعان في التصريح ؛ ثم امتحنه بعد ذلك ثانياً وثالثاً ؛ فإن وجده جارياً على ديدن واحد في النسيان ، هزَّه بالعتاب وأوجعه بالتقريع ، وبالغ في توبيخه .

ومن أوائل العلوم يتدرج الأستاذ بتلميذه من مرتبة إلى مرتبة حتى يصير في عداد الأستاذين ، الذين يجب عليهم للتلامذة مثل ما وجب له في أول أمره ؛ وإذا بلغ التلميذ إلى هذه المرتبة من العلم ومن رموزه وصغائره ولطائف ما فيه ، أصبح واجبه أن يُعلِّمه ، فإن لم يفعل ذكَّره أستاذه بذلك قبل أن ينتقل إلى تلميذ سواه ؛ والأستاذ الذي يغفل عن تلميذه يكون خائناً ، والخائن لا يؤتمن ، ومن لا يؤتمن لا يؤخذ عنه علم ، لأن العالِم لا يكون إلا صادقاً .

وبالجملة فإني أقول : إن سبيل الأستاذ والتلميذ أن يكونا متعاطفين بعضهما على بعض تعاطفَ قَبول ؛ وأن يكون التلميذ كالمادة ، والأستاذ له كالصورة ـ انتهت مقالة الأستاذ والتلميذ .

وإنه لمما يتصل بموضوع الأستاذ والتلميذ ما قد ذكره جابر في مواضع كثيرة جداً من الطريقة التي ينبغي للدارسين أن يتناولوا كتبه بها ، ونخص بالذكر في سياقنا هذا شروطه التي يشترطها على القارىء ، لأنها شروط منهجية سليمة في كل بحث علمي يرجع فيه صاحبه إلى النصوص والأصول والوثائق .

ذلك أن جابراً يشترط على الدارس أن يقرأ كل كتاب من كتبه ثلاث قراءات متتالية ، لكل قراءة منها هدف خاص : أما القراءة الأولى فللتثبت من صحة ألفاظ النص ومن معاني تلك الألفاظ ، وأما القراءة الثانية فلدراسة هذا النص ، لا من حيث معانيه المباشرة ، بل بغية الوصول إلى مدلولاته البعيدة الخفية ، فما أكثر ما يكشف تحليل النص عن معان ما كانت لتظهر لو وقف الدارس عند ظاهر اللفظ وحده ، دون الغوص إلى ما هو منطو في تضاعيفه وثناياه ؛ وأما القراءة الثالثة فهي لتبويب المعاني وتصنيفها لعلنا نجمع الشبيه إلى شبيهه ، أو نوازن بين المتباين منها ، تصنيفاً وموازنة من شأنهما أن يبلغا بنا الغاية المرجوة من موضوع الدراسة[1] .

على أن جابراً اشترط كذلك شرطاً للقراءة الدارسة الفاحصة ، هو أيضاً في صميم المنهج العلمي السليم ، إذ يشترط على الدارس أن يجمع كتبه كلها أولاً ، قبل أن يهمّ بقراءة بعضها ، لكي يضيف ما في كل كتاب منها إلى ما في الآخر[2] ، لأن الكتاب الواحد قد ينفرد بمعنى واحد لا يشاركه فيه غيره[3] وعندئذ يكون الاكتفاء بدراسة بعض كتبه دون بعض مؤدياً إلى تكوين فكرة مهوشة ناقصة عن مذهبه ؛ هذا فضلاً عن أن كل كتاب من كتبه ـ كما يقول هو نفسه ـ إنما يعدُّ شرحاً لبقية الكتب كلها ، وهو في ذلك يقول عن كتبه : « فإنَّا إنما نضرب المثل بعد المثل في المواضع على تفسير كتاب من كتاب في مسألة تمر بنا أو شيء مثل ذلك ، فإن قواعد هذه الكتب إنما هي أنَّا نذكر في كل كتاب خاصةً لجميعها ليست في غيره من الكتب ، وبعضها يشرح بعضاً »[4] .

تعريف الألفاظ :

لقد بلغت الدقة العلمية المنهجية بجابر مبلغاً بعيداً ، عندما أدرك في وضوح خطر تحديد المعاني الواردة في أي بحث علمي ، تحديداً يبين معالم الموضوع في حسم وجلاء ، ويساعد على استنباط الأفكار بعضها من بعض ؛ ولقد وضع في « الحدود » ـ أعني تعريف الألفاظ العلمية ـ كتاباً سنوجز مادته فيما يلي ، لكننا نسارع هنا إلى إثبات عبارة قالها في تقديره لقيمة كتابه هذا ، لأنه تقدير يدل على وعيه الشديد بأهمية الموضوع ، فيقول : « يا ليت شعري كيف يتم عمل لمن لم يقرأ كتاب الحدود من كتبنا فإذا قرأته يا أخي ، فلا

---

(١) المقالة الثانية والستون من « كتاب الخواص الكبير » ـ مختارات ، ص ٣٢٩ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٣٣١ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢٢ .
(٤) المقالة الرابعة والعشرون من « كتاب الخواص الكبير » ـ مختارات ، ص ٣١٨ .

تجعل قراءتك له مثل قراءة سائر الكتب ، بل ينبغي أن تكون قراءتك للكتب مرة في الشهر ، وأما « الحدود » فينبغي أن يُنظَر فيه كل ساعة ، وان إعطاء الحد أعظم ما في الباب »[١] ، وأنه في ذلك لعلى حق ، لأنك إذا أحسنت تحديد المعنى الذي تتحدث فيه ، قطعت بذلك شوطاً بعيداً من طريق البحث الموفق السديد .

يقول جابر في كتابه : « الحدود »[٢] إن الغرض بالحد هو الإحاطة بجوهر المحدود على حقيقته ، حتى لا يخرج منه ما هو فيه ، ولا يدخل فيه ما ليس منه ، فإذا ما حدَّد الموضوع تحديداً تاماً ، صار لا يحتمل زيادة ولا نقصاناً ؛ والتحديد التام إنما يكون بذكر الجنس الذي يندرج تحته النوع المراد تحديده ، ثم بذكر الفصل الذي يميز ذلك النوع من بقية الأنواع التي تندرج معه تحت جنس واحد .

وقد قيل في الحدّ إنه لا يحتمل الزيادة والنقصان ، لأنك إذا زدت من الحد أدى ذلك إلى نقصان المحدود ، كأن تضيف إلى حد الإنسان « بأنه حيوان ناطق » بحيث تجعله « حيوان ناطق يسكن جزيرة العرب » فعندئذ تنحصر دائرة المحدود في طائفة قليلة من الناس ، بعد أن كان المحدود هو الناس جميعاً ؛ وكذلك إذا انتقصت من الحد ، أدّى ذلك إلى زيادة المحدود ، كأن تقول في حد الحمار إنه حيوان ذو أربع قوائم ، فتنقص فصله المتمم لنوعه وهو النهاق ، وبهذا تتيح بهذا النقصان في الحدّ لكل ذي قوائم أربع الدخول في ذلك الحدّ ، ولا تجعله حداً مقصوراً على الحمار وحده ؛ لكن زيادة الحد لا تنقص من المحدود إلا إذا كانت زيادة تشمل بعض أفراد النوع دون بعضهم الآخر ، كأن تضيف إلى حد الإنسان عبارة « متكلم بالعربية » فيصبح : « الإنسان حيوان ناطق متكلم بالعربية » فالزيادة ها هنا تؤدي إلى نقصان المحدود ، أما إذا كانت الزيادة صفة شاملة للنوع كله ، أي أنها خاصة من خصائصه المميزة ، مثل إضافة كلمة « الضحاك » إلى حد الإنسان بحيث يصبح هذا الحد هو : « الإنسان حيوان ناطق ضحاك » فمثل هذه الزيادة لا تؤدي إلى نقصان المحدود ؛ وأما النقصان من الحدّ فهو مؤدٍّ إلى زيادة المحدود لا محالة على أي وجه جاء هذا النقصان منه ؛ وذلك لأن الحدّ مؤلف من الجنس والفصل الذي يميز النوع ويحُدّه ، فإذا أنقصنا من الحد أحد فصوله المميزة للنوع دخل في النوع ما ليس منه . . .

نعم إن جابر لم يزد شيئاً على ما قاله أرسطو في الحد (التعريف) ، ولكن حسبه ـ وهو العالم الطبيعي ـ أن ينتبه إلى ضرورة الأساس الذي ينبني عليه تحديد المعاني ، لكي يقيم عليه العالم بناءه العلمي في دقة منطقية ، وسنورد في موضع آخر من هذا الكتاب[٣] تصنيفه للعلوم وتحديده لها تحديداً يميزها بعضها من بعض ، كما قد صنع كل صاحب منهج في تاريخ الفكر .

رجل التجارب العلمية :

(١) الجزء الأول من كتاب الأحجار على رأي بليناس ـ مختارات ، ص ١٣٨ .
(٢) مختارات ، ص ٩٧ ـ ١٠٢ .
(٣) انظر الفصل الآتي .

لقد أسلفنا القول في رأي جابر عن مصدر العلم ماذا عساه أن يكون ؟ وهو أن مصدر العلم وحي أولاً ينزل على النبيّ (ص) ، ثم يتوارثه خلفاؤه من بعده ـ خلفاؤه المعترف بهم عند الشيعة ـ ثم يجيء التلقين من هؤلاء لمن رآوه من التلاميذ صالحاً للتعلم ؛ ومعنى ذلك بعبارة موجزة أن مصدر العلم أستاذ مؤهّل من جهة ، واستعداد فطري عند التلميذ من جهة أخرى .

والحق اني لا أعرف كيف أوفّق توفيقاً أطمئن إليه بين هذا الرأي في مصدر العلم الأول ـ وهو الوحي يأتي من الخارج ـ وبين منهجه التجريبي في بحوثه العملية ، وهو منهج نموذجي في دقته وفي حرصه على التثبت ؟ أيكون العلم عنده نوعين : فنوع تلقيني خاص بتحصيل الأحكام الشرعية وما إليها ، ونوع آخر كشفيٌّ علميٌّ تجريبي خاص بالعلم الطبيعي ؟ يجوز أن يكون الأمر كذلك ، لأنه في تصنيفه للعلوم[٤] قد قسم العلوم قسمين أساسيين : علم الدين وعلم الدنيا .

وأياً ما كان الأمر ، فلجابر منهجٌ تجريبي يصطنعه في بحوثه الكيمياوية ، جدير بالبسط والتحليل ؛ فهو حريص على أن يقصر نفسه على مشاهداته التي تجيء التجربة مؤيدة لها ، إذ قد تكون الظاهرة المشاهدة حدثاً عابراً لا يدل على إطراد في الطبيعة ؛ يقول جابر في رسم خطته العلمية : « يجب أن تعلم أنّا نذكر في هذه الكتب (يشير هنا إلى الكتب التي بحث فيها خواص الأشياء) خواص ما رأيناه فقط ـ دون ما سمعناه أو قيل لنا وقرأناه ـ بعد أن امتحنّاه وجربناه ؛ فما صح أوردناه وما بطل رفضناه ، وما استخرجناه نحن أيضاً وقايسناه على أقوال هؤلاء القوم »[٥] .

فهو في هذا النصّ يهتم اهتماماً خاصاً « بشهادة الغير » ـ سواء أكانت شهادة مقروءة أم مسموعة ـ هل يؤخذ بها في البحث العلمي أو لا يؤخذ بها ، فتراه لا يعتدّ بها إلا على سبيل التأييد لما يكون قد وصل إليه هو بتجاربه ؛ وهذا ولا شك إسراف منه في الحرص ، لأن العلم يستحيل أن يخطو في تقدم مطرد ما لم يأخذ اللاحقون عن السابقين علمهم ، وكل ما ينبغي التثبت منه هو أن نستيقن من أمانة أولئك السابقين الذين عنهم نأخذ ما نأخذه ؛ أما أن يقتصر العالِم على مشاهداته هو وحده وتجاربه هو وحده ، وألا يلجأ إلى أقوال غيره من العلماء إلا على سبيل الاستشهاد على صدر ما قد انتهى إليه هو نفسه من مشاهداته وتجاربه ، فذلك التزام لما ليس يلزم ، لكنه على كل حال التزام يكشف لنا عن مبلغ دقة هذا العالِم في منهج بحثه ؛ وإنك لتراه في مواضع أخرى يتخفف بعض الشيء من التزامه المنهجي هذا ، ويجيز لنفسه قبول النتائج العلمية التي ينقلها إليه الآخرون ، فهو في ذلك يقول ـ مثلاً ـ : « وما لم يبلغنا ولا رأيناه ، فإنّا من ذلك في عذر مبسوط »[٦] أي أن للعلم المحقق المقبول عنده مصدرين : فإما الرؤية بحاسته ، وإما رؤية الآخرين كما تبلغه ، ولا شك أنه يضمر شرطاً لهذا الذي يبلغه عن الآخرين ، وهو أن يكون هؤلاء الآخرون من الثقات المركون إلى أمانتهم العلمية .

(٤) انظر الفصل الآتي .
(٥) المقالة الأولى من « كتاب الخواص الكبير » ـ مختارات كراوس ، ص ٢٣٢ .
(٦) الجزء الأول من كتاب الأحجار على رأي بليناس ، مختارات ، ص ١٣٢ .

وهناك عبارة وردت في كتابه « الرحمة »(١) يصف بها تجربة أجراها ، وهي تدل على دقة ملاحظته ، قال ما معناه : كان لديَّ حجر ممغطس يرفع قطعة من الحديد وزنها مائة درهم ، وحفظته عندي زمناً طويلاً ، ثم جربته على قطعة أخرى من الحديد ، فلم يرفعها ، فظننت أن هذه القطعة الثانية من الحديد قد تكون أكبر وزناً من القطعة الأولى ، فوزنتها ووجدتها أقل من ثمانين درهماً ، ومن هنا استنتجت أن قوة الحجر الممغطس قد نقصت ، على الرغم من ثبات وزنه .

ويطلق جابر اسم « التدريب » على ما نسميه نحن اليوم « تجربة » ، وهو يجعل إجراء التدريبات (= التجارب) العلمية شرطاً أساسياً للعالم الحق : « فمن كان دَرِباً كان عالماً حقاً ، ومن لم يكن دربا لم يكن عالماً ، وحسبك بالدربة في جميع الصنائع أن الصانع الدرب يحذق ، وغير الدرب يعطل »(٢) .

على أن جابراً قد يذكر حقيقة مّا على أنها مستندة إلى تجربة أجريت ، على حين أن الخطأ فيها واضح ، كأن يقول مثلاً : « إن من أخذ ثوراً - وإن كان أحمر اللون فهو أجود - ثم أدخله بيتاً فطرح له من ورق الحاشاشيا ثم سدَّ عليه الباب الذي دخل منه ، وفتحت له في أعلاه أربع كوىً كما يدور البيت ، فترك الثور حتى يموت ويعفن ، تولَّد عنه زنبور النحل »(٣) والخطأ العلمي هنا واضح ، فحتى لو أعفيناه من خطأ القول إن حشرة ما تتولد من غير طريق نسلها الصحيح ، على اعتبار أن هذه الحقيقة العلمية - حقيقة كون الكائن الحي يستحيل أن يتولد إلا عن كائن حي ، ولا يتولد قط من غير الحي - أقول إننا لو أعفيناه من هذا الخطأ على اعتبار أن هذه الحقيقة العلمية ربما تكون قد كشفت في عصر لاحق لعصره ، فكيف نعفيه من الخطأ المنهجي في تفصيله للثور الأحمر في أداء هذه التجربة ؟ .

الاستنباط والاستقراء :

لكننا من قراءة نصوصه استطعنا أن نتلمس مذهبه في خطوات السير في طريق البحث العلمي ، وهي خطوات تطابق ما يتفق عليه معظم المشتغلين بالمنهج العلمي اليوم ؛ وهي تتلخص في ثلاث خطوات رئيسية : الأولى - أن يستوحي العالم مشاهداته فرضاً يفرضه ليفسر الظاهرة المراد تفسيرها ، والثانية - أن يستنبط من هذا الفرض نتائج تترتب عليه من الوجهة النظرية الصرف ، والثالثة - أن يعود بهذه النتائج إلى الطبيعة ليرى هل تصدق أو لا تصدق على مشاهداته الجديدة ؛ فإن صدقت تحول الفرض إلى قانون علمي يركن إلى صوابه في التنبؤ بما عساه أن يحدث في الطبيعة لو أنَّ ظروفاً بعينها توافرت .

فطريق السير إذن هو هذا : مشاهدات توحي بفروض ، ثم استنباط للنتائج التي يمكن توليدها من تلك الفروض ، ثم مراجعة هذه النتائج على الواقع ، وعندئذ فإما أن نقبل الفروض التي فرضناها أو نرفضها تبعاً لصدق نتائجها على الواقع ؛ ولقد اصطلح رجال المنطق على أن يطلقوا كلمة « الاستقراء » على مرحلتي المشاهدة الأولى والتطبيق الأخير ، لأن في كليهما لمسا للوقائع العينية واستقراء لها ؛ كما اصطلحوا على أن يطلقوا على مرحلة استنباط النتائج التي يمكن توليدها من الفروض ، اسم « الاستنباط » ، وهو عملية تتم في الذهن ؛ وهنالك من العلوم ما هو استنباطي صرف كالرياضة ، ومنها ما هو استنباطي استقرائي معاً كالعلوم الطبيعية .

أما التفكير الاستنباطي الذي هو رياضي في طبيعته ، فيعتمد على مفاهيم ذهنية يتسق بعضها مع بعض ، بغض النظر عن مطابقتها أو عدم مطابقتها لواقع قائم في العالم الخارجي ؛ وهو ضرب من التفكير لا مندوحة عنه في كل بحث علمي حتى لا يتقيد الباحث بحدود ما يقع له في خبرته الحسية المباشرة ؛ إذ ترى الباحث في تفكيره الاستنباطي العقلي الخالص ، يدير في ذهنه الأمر من كافة وجوهه ، فيربط فكرة بفكرة ويستخرج فكرة من فكرة وهكذا ، حتى إذا ما اهتدى بفضل هذه العمليات العقلية الداخلية إلى نتيجة يراها نافعة لو طُبِّقت ، فعندئذ يخرج إلى العالم الطبيعي الخارجي ليختبر صدق هذه النتيجة اختباراً يعتمد على الواقع المحسوس ، فإذا تبين صدقها أصبحت قانوناً علمياً أو نظرية علمية تستخدم في الجانب التطبيقي من حياة الإنسان العملية .

وكان التفكير الاستنباطي الصرف هو المنهج الوحيد الذي يُعتَدُّ به في العصور القديمة والوسيطة ، لأن التفكير عندئذ كان كله قائماً على أسس يفرضها العقل لنفسه فرضاً ، أو على أُسس يوحي بها إلى الإنسان إيحاء ، وما عليه في كلتا الحالتين سوى أن يستنبط النتائج من تلك الفروض المسلَّم بصدقها ؛ حتى جاءت النهضة الأوروبية وجاء معها العلم الطبيعي فعندئذ أحسَّ رجال المنهج الفكري بضرورة إضافة منطق جديد يضاف إلى المنطق الأرسطي الاستنباطي الذي كان قد رُسِم ليسد حاجة التفكير في عصره والعصر الذي تلاه ؛ أحس رجال المنهج الفكري أبان النهضة الأوروبية (القرن ١٦ - ١٧) بالحاجة الملحة إلى منهج استقرائي جديد يصلح لمعالجة الظواهر الطبيعية على أساس المشاهدة وإجراء التجارب .

ثم اندمج المنهجان آخر الأمر في منهج واحد وجد أن لا مناص من اصطناعه في كل بحث علمي منتج ، فلا بد من ملاحظة خارجية أولاً ، لنستوحيها فروضاً نفرضها ، ثم لا بد في الوقت نفسه من طريق الاستنباط نهجه داخل عقولنا لنولِّد من تلك الفروض التي فرضناها نتائج ننتفع بها في دنيا العمل والتطبيق .

أفليس من حق عالمنا العربيِّ جابر بن حيان علينا ، أن نسجل له بالفخر والإعجاب منهجاً فكرياً رسمه لنفسه في القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الميلادي ، وهو منهج لو كتب بلغة عصرنا ولو فصِّل القول فيه قليلاً ، لجاء وكأنه من نتاج العصر الحديث ؟ ذلك لأنه منهج اعتمد على الاستنباط والاستقراء معاً ، اعتماداً واعياً صريحاً ؛ فاقرأ - مثلاً - هذه الجملة الواحدة تجيء عَرَضاً في حديثه ليصف بها منهجه : « ... قد عملته بيدي وبعقلي من

(١) مأخوذة عن هوليارد في كتابه « الكيمياء حتى عهد دولتن » ص ١٧ - ١٨ .
(٢) من كتاب السبعين ، مختارات كراوس ، ص ٤٦٤ .
(٣) من كتاب التجميع ، مختارات كراوس ، ص ٣٦٨ .

قبل ، وبحثت عنه حتى صحّ وامتحنته فما كذب »(١) فها هنا قد أجمل صاحبنا كل ما نريده نحن من الباحث العلمي في كلمات قلائل رتبت أدق ما يكون الترتيب ؛ فعملٌ باليد أولاً ، وإعمال للعقل فيما قد حصلته اليد ، ثانياً ، حتى تنتهي منه إلى نظرية مفروضة ، ثم امتحان تطبيقي ـ ثالثاً ـ للفرض العقلي الذي فرضناه .

على أن الأمر عنده لا يقتصر على مثل هذه العبارات المقتضبة الموجزة المركّزة يصف بها منهجه ؛ بل إنه يفيض الكلام في ذلك إفاضة كافية في مواضع كثيرة من كتبه .

فانظر إليه ـ مثلاً ـ وهو يوضح لك كيف يمكن للعالم أن يبدأ بالتعريف العقلي لمفهوم مّا ، ثم يستنبط من هذا التعريف ما يريده من التفصيلات الخاصة بالعلم الذي يتعلق به ذلك المفهوم المعرَّف ، فيقول على سبيل المثال : إننا إذا ما بدأنا بتعريف « الإيقاع » بأنه تأليف عددي ، استطعنا أن نستخرج من هذا التعريف سلسلة من النتائج التي يلزم بعضها عن بعض ، والتي تضع لنا أسس العلم الموسيقيّ ؛ فالنتيجة الأولى لهذا التعريف هي أنه ما دام الإيقاع هو تأليف عددي فإنه لا بد أن يكون تأليفاً من حركة وسكون في مجال النطق والسمع ؛ ومن تأليف المتحرك والساكن تنتج نتيجة هي : أن أوزان الألفاظ تكون كذا وكذا ؛ أما في مجال الموسيقى ، فمن تعريفنا للإيقاع بأنه تأليف عددي ، ينتج أن هذا التأليف إما أن يكون فرداً في العدد أو زوجاً ؛ والزوج والفرد يأتلفان معاً على أربع صور : زوج زوج ، أو فرد فرد ، أو زوج فرد ، أو فرد زوج ؛ والعدد الفرد يكون مثل الواحد وأخواته ، والزوج مثل الاثنين وأخواتها ؛ ويتولد عن ذلك أربع طرائق في الموسيقى ، وهي التي يسمونها بالأسماء الآتية : ثقيل الأول ، وثاني الثقيل ، والرمل ، والهزج ؛ ثم إنهم ولّدوا كل واحد من هذه خفيفاً ، فصارت ثمانية ، وهي : خفيف ثقيل الأول ، وخفيف ثقيل الثاني ، وخفيف الرمل ، وخفيف الهزج ؛ ثم جُعل لكل واحد من هذه نسبةٌ في الأصابع ، فكان خلف هذه في الأصابع ، كخلف تلك في الحلق واللسان والشفتين ، إذ إنه قد يحدث من هذه الطرائق بالأصابع ساكنٌ ومتحرك ، كما حدث لنا في الحروف ساكن ومتحرك ، وبهذا تصبح لكل طريقة من طرائق الموسيقى الأربع ، أربع صور ، وربما فرقوا بينها بنقرة يسيرة فصارت ثمانية ، أي أن مجموع الصور كلها يكون عندئذ ثمانية في أربعة ، أعني أنه يكون اثنتين وثلاثين طريقة . . . وهكذا ـ كما يقول جابر نفسه في نهاية تحليله السابق ـ ينتج هذا كله من تعريفنا للإيقاع بأنه تأليف عددي(٢) .

إلى هذا الحد البعيد يمكن للمنهج الاستنباطي وحده أن يزودنا بحقائق العلوم ، على شرط أن نبدأ بتعريفات سديدة خصبة ؛ ولهذا ترى جابراً يعني أكبر العناية بتعريف العلوم ـ وسنبسط القول في ذلك في الفصل التالي ـ اعتقاداً منه أن التوفيق في تعريف أي علم شئت ، يضمن لنا إلى حد بعيد توفيقاً في الحقائق التي نحصل عليها من ذلك العلم ؛ فلا غرابة بعد هذا أن

(١) كتاب الخواص ، المقالة الثانية والثلاثون ، مختارات كراوس ص ٣٢٢ .

(٢) كتاب الأحجار على رأي بليناس ، ج ١ ، مختارات كراوس ، ص ١٣٨ ـ ١٤٠ .

نراه يختص « حدود » العلوم (أي تعريفاتها) بكتاب مستقل ، يقول عنه : « يا ليت شعري كيف يتم عمل لمن لم يقرأ كتاب الحدود من كتبنا ؛ فإذا قرأته يا أخي فلا تجعل قراءتك له مثل قراءة سائر الكتب ، بل ينبغي أن تكون قراءتك للكتب مرة في الشهر ، وأما الحدود فينبغي أن يُنْظر فيه كل ساعة ؛ وأن إعطاء الحد أعظم ما في الباب »(٣) .

وأما عن الجانب الاستقرائي من المنهج العلمي ـ وهو جانب يكاد يُنسَبُ كله لمناطقة أوروبا ابتداء من النهضة العلمية أبان القرنين السادس عشر والسابع عشر ـ فقد سبق ابن حيان إلى الكتابة بما يكفي وحده أن يضع هذا العالم بين أئمة المنهج العلمي ، فضلاً عن منزلته التي اكتسبها بقضاياه العلمية نفسها .

فالاستقراء ـ على خلاف الاستنباط ـ ينصبُّ على أشياء الوجود الخارجي ، ومداره هناك هو اتخاذ الحاضر شاهداً على الغائب ، فمن علمنا بطبيعة الضوء ـ مثلاً ـ نستطيع أن نتوقع ظواهر ضوئية معينة تحدث في المستقبل حين تتوافر ظروف معينة ؛ ومن علمنا باتجاه الريح ومقدار الضغط الجوي ودرجة الرطوبة في الهواء ، نستطيع أن نتوقع شيئاً عن نزول المطر أو عدم نزوله ، وهكذا ؛ وذلك أننا نحلل الظواهر التي تقع لنا في مشاهداتنا وتجاربنا تحليلاً يربط الجوانب المتلازمة في الوقوع ربطاً يتيح لنا أن نتوقع حدوث بعضها إذا رأينا أن بعضها الآخر قد حدث بالفعل .

فماذا يقول جابر بن حيان في المنهج الاستقرائي (دون أن ترد بالطبع كلمة « استقراء » في سياقه) ؟

يقول : إن المشاهَد يتعلق بالغائب على ثلاثة أوجه ، وهي : (أ) المجانسة ، (ب) مجرى العادة ، (جـ) الآثار(٤) ؛ وسنوجز القول فيما يلي عن الاستقراء القائم على المجانسة ، ثم نعقّب عليه بذكر الاستقراء عن طريق العادة ، ونأسف ألا نجد بين أيدينا ما قاله جابر عن الاستقراء عن طريق « الآثار » .

الاستدلال عن طريق المجانسة :

يقول جابر في ذلك ما مؤداه : ان الاستدلال بالمجانسة هو من قبيل حكمك على شيء ما إذا رأيت نموذجاً له ؛ كأن ترى ـ مثلاً ـ حفنة من قمح لتستدل بها على بقية القمح ما نوعها وما طبيعتها ؛ على أن الاستدلال على هذا الوجه ـ فيما يقول جابر ـ ليس ثابتاً ولا صحيحاً ؛ ومع ذلك فقد اضطر إليه بعض العلماء اضطراراً ، لكن جابراً يعترض على مثل هذا المنهج في التفكير ، لأن وجود النموذج لا يدل بذاته على وجود الكل الذي قيل إنه متمثل في النموذج المذكور ؛ ومن أمثلة الأخطاء التي وقع فيها من استخدم هذا المنهج ، خطأ الطائفة التي قالت إنه إذ كان في العالم نور وظلمة وخير وشر وحسن وقبيح ، فإنه يجب أن يكون خارج هذا العالم أيضاً نور وظلمة وخير

(٣) نفس المرجع ، ص ١٣٨ .

(٤) كتاب التصريف ؛ وإنه لمما يؤسف له أن المخطوط الموجود يقتصر على المجانسة ومجرى العادة ، وأما « الآثار » فقد انقطعت الرواية عن ذكرها ، انظر مختارات كراوس ص ٤٢٤ .

وشر وحسن وقبيح ، لأن ما في هـذا العالم من هـذه الأشياء كلهـا هو بمثـابـة العيِّنة التي تدل على ما هـو خاف عنـا في عالم الغيب ؛ يقـول جابـر : إن هذا الاستدلال لا يستقيم إلا إذا أثبتوا أولاً أن ما في هذا العالم هو جزء من كل ، وأما إذا لم يثبتوا ذلك امتنعت ضرورة النتيجة التي انتهوا إليها ؛ أفـلا يجوز أن يكون النور الذي في هذا العالَم هو كل ما هنالك من نـور ، والظلمـة هي كل ما هنالك من ظلمة ، وهكذا قل في الخير والشر والحسن والقبيح ؟ « ألا ترى أن الأنموذج لا يثبت عند من دُفع إليه كم من ذلك الجوهـر عند من أراه ذلـك الأنمـوذج ، بـل لا يثبت عنـده بعلم يقـين أن عنـده من ذلـك شيئـاً غـير مـا أراه[1] .

ولا يفوت جابراً هنا أن يَعرِّج بالحديث على كتبه ـ وهو كثيـراً ما يفـاخر بهـا ـ فيجعلها مثلاً تطبيقياً توضيحياً لمبدأ الاستدلال بطريق المجانسة ومدى ما يعرِّض صاحبه له من خطأ ، فيقول : إن من لم يقرأ كتبي كلها بكـل ما فيهـا من تفصيلات وتعليقات ، مكتفياً ببعضها دون الآخر ، قمين أن يكـوِّن فكرة خاطئة ؛ فمن قرأ كتابـين من كل فن من فنـون كتبي هو أعلم ممن قـرأ كتابـاً واحداً من كل منها[2] .

ويذكر جابرٌ اعتراضاً قد يوجَّه إليه في قـوله إن الجـزء لا يؤتمن في الحكم على الكل ، يذكر هذا الاعتراض ليردَّ عليه ؛ فقد يعترض معـترض بقولـه : إن الجـزء والكل أمـران متضايفـان لا يعقل أن يـوجد أحـدهما بغـير الآخر ، فمجرد قولك عن شيء أنه جزء يقتضي بالضرورة أن يكون هناك الكـل الذي يحتويه ، وكذلك مجرد قولك عن شيء أنه كـلٌّ يقتضي بالضرورة أن لـه أجزاء تدخل فيه ؛ لكن الاعتراض مردود بما يـأتي : هذا كله صحيـح على شرط أن يثبت لنا أن النموذج المقدَّم هو جـزء ، ومن أين يجيئنا هـذا اليقين إذا قـدِّم لنا شيء ما أنه ليس هو الجنس كله ، وليس جزءاً يندرج في جنس يضمه مع غيره من الأجزاء التي تجانسه ؟

الاستدلال المبني على جري العادة :

هذا هو الاستدلال الاستقرائي الذي يصل به صاحبـه إلى التعميم عن طريق مشاهدته لعدة أمثلة يراها متشابهـة في ناحيـة من نواحيهـا فيعمم عليها الحكم تعميماً يجعلها زمرة واحدة ، فكأنما يبني المستدل تعميمه في هـذه الحالـة على عادة يتعودها في مشاهداته ، إذ يتعود أن يـرى صفتين ـ مثـلاً ـ مقترنتـين دائماً ، فيتوقع بعد ذلك إذا ما رأى إحداهما أن يرى الأخرى ، وبطبيعة الحال لا يكون هذا التوقع قـائماً إلا عـلى أساس احتـمالي ، إذ ليس هناك مـا يمنع أن تجيء الحوادث على غير ما قد شهدها الإنسان في الماضي ، وعلى غير ما يتـوقع لها أن تكون ؛ وأنه لمما يستوقف النظر في هذا الصدد أن نرى تطابقـاً تامـاً بين ما يقوله جابر بن حيان في هذا الضرب من الاستدلال ، وما قالـه ديفد هيـوم في القرن الثامن عشر ، مما يعد أبـرز طابـع في فلسفته ؛ فكـلاهما ينبِّـه إلى أن الاستـدلال الاستقرائي قـائم على أسـاس « العادة » وحـدها ، وبـالتالي فهـو استدلال احتمالي لا تحتمـه الضرورة العقلية ؛ فليس فيـه بعبارة ابن حيـان : « علم يقين واجب اضطراري برهاني أصلاً ، بل (فيه) علم اقناعي يبلغ إلى أن يكون أحرى وأولى وأجدر لا غير »[3] .

ويمضي جابر بن حيان في الحديث عن الاستدلال الاستقرائي فيقـول ما معناه : إن الناس يكـثرون من استخدام هـذا الاستدلال ويستنـدون عليه في أمورهم أكثر مما يستندون إلى أي ضرب آخـر من ضروب الاستدلال ، لأنـه قياس واستقراء للنظائر واستشهـاد بها عـلى الأمر المطلوب إقامة الحجة عـلى صوابه ؛ وليس هذا الضرب من الاستدلال المبني على الشواهـد هو مـا يطلق عليـه في المصطلح المنطقي « بالـبرهان » ، إذ الـبرهان لا يكـون إلا في حالـة الاستنباط الذي نولِّد بـه النتيجة من مقـدماتهـا توليـداً يجعلها صريحة بعد أن كـانت مضمـرة في تلك المقـدمـات ، فـإذا كـانت المقـدمـات صحيحـة لـزم بالضرورة أن تكون النتيجة صحيحة كذلك ؛ فـالاستقراء والـبرهان ضربـان متعـارضـان : الأول احتـمالي والثـاني يقيني ، الأول يتفـاوت قـوة وضعفـاً « بحسب كثرة النظائر والأمثال المتشابهة وقلتها » ، والثاني لا تفـاوت فيه بـين قوة وضعف لأنه لا تفاوت في درجات اليقين ؛ ويقول ابن حيان : إن قوماً قد ظنوا أن (الاستقراء يمكن أن يكـون مؤدياً إلى علم بـرهاني يقيني ، وذلـك إذا اطردت النظائر المتشابهة اطراداً لا يشذُّ فيه مَثَلٌ واحد[4] .

ولهذا يرى ابن حيان أنه جدير بالقول المفصَّل ، حتى لا يختلط أمره في عقول الباحثين ، فيقول[5] : إن أضعف استـدلال من هذا القبيـل هو ذلـك الـذي لم يوجـد له إلا مثـال واحد نقيس عليـه حكمنا العـام ؛ « كرجـل قال مثـلاً : إن امرأة مَّا ستلد غلامـاً ؛ فسألنـاه عن الدليـل من أين علم ذلك ؟ فأجابنا بأن قال : من حيث إنها ولدت في العـام الأول غلامـاً ؛ ولم تكن تلك المرأة ولدت إلا ولداً واحداً فقط » . . هذه هي أضعف حالات الاستقـراء ؛ وأما أقوى حالاته فهي تلك التي نجد جميع ما في الوجود مطرداً فيها على مثـال واحد ، ولا نجد أبـداً ما يخـالف ، « كرجـل قال : إن ليلتنـا هذه ستنكشف عن يوم يتبعها ويكون بعقبها ؛ فسألناه من أين علم ذلك فأجـاب بأن قـال : من قِبَل أني لم أجد ليلة وإلا وانكشفت عن يوم »[6] تلكما هما أضعف الحالات وأقـواها بـين حالات التـدرج في القوة والضعف « وأمـا ما بـين هذين فقـوية وضعيفة في الدلالـة بحسب كثرة الـنظائر وقلتهـا ، وليس في هذا البـاب علمٌ يقين واجب » فإذا جـاز لنا أن نستشهـد في أمثال هـذه الحالات بحيث نحكم بالحاضر على الغائب ، فـما ذاك إلا « لما في النفس من الـظن والحسبان ، فـإن الأمـور ينبغي أن تجري عـلى نظام ومشـابهة ومماثلة ؛ فانـك تجد أكـثر الناس يُجْرون أمورهم على هذا الحسبان والظن ، ويكاد أن يكون ذلـك يقيناً ، حتى إنه لو حدث في يوم مَّا من السنة حادثٌ لترجو حدوث مثل ذلك الحادث بعينه في ذلك اليوم من السنـة الأخرى ؛ فـإن حدث في ذلـك اليوم بعينـه من هذه السنة مثل ذلك الحادث تأكد عندهم ذلك أن سيحدث مثله في السنة الثالثة ؛ وان حدث في السنة الثـالثة أيضـاً ، حتى إذا حدث ذلـك مثلاً عشر مـراراً في

(١) كتاب التصريف ، مختارات كراوس ، ص ٤١٦ .
(٢) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .
(٣) كتاب التصريف ، مختارات كراوس ، ص ٤١٨ .

(٤) المصدر السابق نفسه ، الصفحة نفسها .
(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ٤١٩ .
(٦) المصدر السابق نفسه .

عشر سنين ، لم يشكُّوا البتة في حدوثه في كل سنة تكون من بعد ، وإذا كان هذا مقدار ما يقع في النفس من هذا المعنى ، فما ترى يكون فيما لم يشاهَدْ قط إلا على ذلك الوجه ؟ »[1] كالمثل الذي أسلفناه لاستدلال المستدل بأن ليلتنا هذه ستنفرج عن يوم ؟ ـ هذا ما يقوله ابن حيان ، ولا بد هنا من تنبيه القارىء بقوة إلى نقطتين وردتا في كلامه هذا ، يُقَرِّبانه من رجال المنهج العلمي في العصور الحديثة ؛ أولاهما إشارته إلى مَيْل النفس البشرية إلى توقع تكرار الحادثة التي حدثت ، فكأنما الاستدلال الاستقرائي مبنيٌّ على استعداد فطري في طبيعة الإنسان ؛ وإنك لترى هذا المبدأ نفسه عند جون ستيوارت مل ؛ والنقطة الثانية هي كون درجة احتمال التوقع تزداد كلما زاد تكرار الحدوث ، وهي نظرية لها اليوم تفصيلات كثيرة ولا يتسع المقام هنا للأطناب في الشرح والتعليق .

ويضرب لنا جابرٌ مثلاً على استخدام الطريقة الاستقرائية السالف ذكرها ـ وهي الطريقة التي يوصَّلُ فيها إلى التعميم عن طريق اختبار عدد من الأمثلة الفردية المنتمية إلى النوع الذي نعمم الحكم على جميع أفراده ـ أقول إن جابراً يضرب لنا مثلاً على استخدام هذه الطريقة في البحوث العلمية التي وقعت فعلاً في تاريخ العلم ، والمثل الذي يضربه هو جالينوس[2] فيقول عنه : إن جالينوس مع تمكنه من العلم ، وتدرُّبه في النظر ، قد أخذ المقدمات التي بنى عليها علمه ، من الأمثلة الفردية التي وقعت له في خبرته ؛ ثم جعل هاتيك المقدمات بمثابة المبادىء الأولية العقلية التي يلزم قبولها ؛ حتى إنه قال في كتابه البرهان : إن من المقدمات الأوَّلة في العقل أنه إذا كان الصيف يتبعه الخريف لا محالة ، فإنه لم يكن إلا بعد خروج الربيع ؛ ويريد جالينوس بهذا أن يقول : إن تسلسل الأحداث كما يقع في المشاهدة حيناً بعد حين ، يصبح قانوناً مطرداً يمكن الحكم على أساسه ، حكماً لا يتقيد بزمان ؛ وها هنا يستطرد جابر في الحديث موجهاً النقد إلى جالينوس على نحو يشهد لجابر بدقة علمية منهجية ليس بعدها دقة ، إذ يقول : « وأنا أحسب أن هذه المقدمة (مقدمة أن الخريف إذا كان يعقب الصيف حتماً ، فما ذلك إلا لأن الصيف قد سبقه ربيع) ليست بصحيحة دون أن يصحَّ أن الأزمان لم تزل ولا تزال على مثل ما هي عليه ، فإذا لم يصح ذلك فإنه لا يؤمن أن يكون صيف لا يعقبه خريف ولم يتقدمه ربيع »[3] ومراد جابر بهذا القول هو أن تعاقب الفصول في المشاهدة وحدها لا يضمن لنا سلامة الحكم العام بتعاقبها دائماً ، إلا إذا كان في رؤوسنا فرض سابق مضمر ، وهو أن الزمن أزلي لم تكن له بداية ولن تكون له نهاية ، وهذا الفرض بطبيعة الحال ليس مستمداً من المشاهدة ، وإنما هو أوَّليٌّ في العقل ؛ وبغير هذا الفرض السابق ، لا يجوز الحكم الحتمي اليقيني الضروري بأن هذا الصيف سيسبقه خريف ، إذ قد يكون هذا الصيف هو آخر الزمان ؛ كما أنه لا يجوز الحكم بأن صيفاً ما في الماضي قد جاء حتماً بعد ربيع ، إذ ربما كان ذلك الصيف أول الزمان ولم يسبقه شيء .

وما يصْدقُ على هذا المثل يصدق على أمثلة أخرى كثيرة ، فهل يجوز منهجياً ـ مثلاً ـ أن أحكم على عالي الأفلاك بأنه هكذا كان دائماً ، ما دمت أنا وآبائي وجميع القدماء لم يزالوا يرونه مطرداً على هذه الصورة التي نراها ، « فقد رصد المنجمون قبل ألوف السنين ، فوجدوه على مثال واحد في أعظامه (= أبعاده وأحجامه) وحركاته »[4] ؟ كلا ، لا يجوز لنا ذلك إلا على سبيل الاحتمال المرجَّح لا على سبيل الضرورة واليقين ، إذ من أدرانا ألا يكون هذا الكون مسبوقاً بحالة تختلف عن الحالة المشاهدة ، بل من أدرانا ألا يكون الكون مسبوقاً بشيء على الإطلاق ؟ وخذ مثلاً آخر : هل يجوز لنا من الوجهة المنهجية أن نقول إنه ما دام الآدميون هم على الصورة التي نراها ، فمحال على إنسان أن يجيء على غير هذه الصورة ؟ كلا ، فليس هذا الحكم في وسعنا ما دامت خبرتنا مقصورة على بعض العالم دون بعضه ، وعلى فترة محدودة من الزمن دون بقية الزمن « فانه قد يمكن أن يكون موجوداتٌ تخالفُ حكمها في أشياء حكم ما شهدنا وعلِمْنا ، إذ كان التقصير عن إدراك جميع الموجودات لازماً لكل واحد منا »[5] .

وبعد هذه الأمثلة التي يسوقها جابر ، ينتهي بنا إلى المبدأ العام ، وهو أنه : « ليس لأحد أن يدَّعي بحق أنه ليس في الغائب إلا مثل ما شاهد ، أو في الماضي والمستقبل إلا مثل ما في الآن ، إذ كان مُقصَّراً جزئيّاً ، متناهيَ المدة والاحساس ؛ وكذلك لا ينبغي أن يستدل الإنسان على أن العالم لم يزل (= أزليٌ) من أنه لم يدرك أحد من الناس ابتداء كونه ؛ ولا على أنه لم يكن رجل إلا عن امرأة ورجل ، لأنه لم يدرك الأمر إلَّا كذلك ، من قِبَل أنه يمكن أن يكون وجود الناس متأخراً عن ابتداء كون العالم ، وأن يكون كون الإنسان الأول مخالفاً لما عليه الأمر في تكوين سائر الناس . . . »[6] .

وأحسب أن جابراً قد صور بهذه الفقرة السالفة حدود المنهج التجريبي أدق تصوير ، فمن المشاهَد لا يجوز الحكم على ما لم يشاهَد على سبيل الاحتمال ، لا علي سبيل اليقين ؛ لكنه إذا لم يكن من الجائز القطع بوجود الغائب على أساس الحاضر المشاهَد ، فكذلك ليس من الجائز إنكار وجود الغائب ما دام هذا الغائب لم يقع في نطاق الخبرة والمشاهَدة ؛ وإلا لا نحصر الإنسان في حدود حسِّه هو ، أو في حدود ما تناهى إليه خبره ؛ ولزمه أن ينكر وجود أشياء كثيرة وهي موجودة ؛ ففي العالم بلدان وأمم لم يحس أهلها بالتمساح قط ، إذا أخبرهم مخبر بأن ثمة حيواناً يحرك لحيته العليا عند المضغ ، وجب عليهم أن ينكروا الخبر ما داموا لم يشهدوا حيواناً كهذا ؟ كلا ؛ « فليس لأحد أن يدفع ويمنع وجود ما لم يشاهد مثله ، بل إنما ينبغي له أن يتوقف عن ذلك حتى يشهد البرهان بوجوده أو عدمه »[7] وأما أن يحكم الإنسان بعدم وجود شيء ما دام لم يَرِد عليه أو يُخْبَر به ، وأن يحكم ببطلان ما

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ .

(٢) طبيب من أبوين يونانيين ، عاش بين عامي ١٣٠ ـ ٢٠٠ ميلادية تقريباً . وقد ظل هو الحجة في الطب حتى القرن ١٦ .

(٣) كتاب التصريف ، مختارات كراوس ، ص ٤٢٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٢١ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٢١ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٤٢٢ .

(٧) المرجع السابق ، ص ٤٢٣ .

يُخبر به ما دام لم يقع له في مشاهداته المباشرة ، « فجهل بطريق الاستدلال ـ على ما قدّرنا ـ واضح »[١] .

إن الدهريين ليستندون في إنكارهم لخلق العالم إلى أن أحداً من الناس لم يشاهد قط عالَماً يُدرىء بتكوينه ، حتى يجوز لنا القول بأن عالَمنا هذا قد كان له بداية ؛ لكننا ـ على أساس المنهج الاستدلالي الذي شرحناه ـ نسألهم بدورنا : أولاً ـ لماذا لا يكون الإنسان قد خُلق بعد خلق الكون بدهر طويل ، بحيث لم يُتح له أن يشهد البدء ؟ وإذا سلمنا بذلك فهل يحق للإنسان أن يحكم بقدم وجود بدء للخلق ما دام مثل هذا البدء لم يقع في خبرته المباشرة ؟ وثانياً ـ افرض أن هنالك مدينة أو قصراً لا يذكر أحد متى بُنيَت تلك المدينة أو متى بني ذلك القصر ، أفنقول ـ إذن ـ إن المدينة أو القصر ليس لها أول له أول على غرار ما يقول الدهريون عن قِدَم العالَم ؟ فإذا قال الدهريُّ إنه في حالة المدينة أو القصر لا يقول بالقدَم ، لأنه قد شاهد المدن والقصور تُبنَى ابتداء ، فليس عليه من حرج أن يقيس على ما يرى ، فردُّنا عليه هو : على أي أساس تحكم بأن ما يشبه ما قد رأيته يكون عندك صواباً مع أنك لم تشهده ، وما ليس يشبه ما قد رأيته يكون عندك خطأ ؟ إنك في كلتا الحالتين لم تشاهد هذا الذي حكمت عليه بحكم مّا ، ووجود شبيهه في خبرتك أو عدم وجوده ـ ان دل على احتمال ـ فهو لا يدل على صدق ضروري لازم واجب يقيني محتوم .

إن من حق جابر علينا أن نسجل له هنا بهذا الذي أوردناه عنه في موضوع الاستقراء ، من أنه يؤدي إلى الحكم الاحتمالي فقط دون اليقين ، سبقاً لرجال المنهج العلمي في العصور الحديثة ، الذين أوشكوا اليوم ـ منذ « ديفد هيوم » ـ أن يكونوا على إجماع في هذا ؛ حتى لقد أصبح من أبرز الخصائص التي تميز العلم اليوم أنه احتماليُّ النتائج ما دام قائماً على أسس استقرائية ؛ وان رجال المنطق اليوم ليصطلحون على تسمية هذه المشكلة كلها « بمشكلة الاستقراء » ومؤداها : كيف نوفق بين أن يكون منهج العلم استقرائياً ، وأن تكون قضاياه مقبولة الصدق ؟

المنهج الرياضي في البحث العلمي :

إنه إذا كانت المشاهدة الاستقرائية وحدها غير مؤدية إلى يقين ؛ وجب علينا أن نلتمس مصدراً آخر لليقين إذا أردنا ؛ ومصدره ـ عند جابر ـ هو المبادىء العقلية التي تُدرَك بالعيان العقلي المباشر ، ثم ترتَّب عليها النتائج المستنبطة منها ؛ فأما المبادىء العقلية فلا برهان على صدرها لأنها مدرَكة إدراكاً مباشراً ، وأما النتائج فصدقها مضمون ما دام استنباطها من تلك المبادىء سليماً .

يقول جابر ما نصه : « إنه ينبغي أن تعلم أولاً موضع الأوائل والثواني في العقل ، كيف هي ، حتى لا شك في شيء منها ، ولا تطالب في الأوائل بدليل ، وتستوفي الثاني منها بدلالته »[٢] ـ وان هذا النص القصير الموجز ليرسم حدود المنهج الرياضي في تركيز واضح ؛ ولسنا نقصر « المنهج الرياضي » على العلوم الرياضية وحدها ، بل إنه منهج يُنتهج في أي بحث علمي آخر ما دام الباحث ينشد يقين النتائج ولا يكتفي بالنتائج الظنية ؛ وهو منهج يوصي به فلاسفة كثيرون ، وعلى رأسهم ديكارت في تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ، فلو شئت تلخيصاً للمنهج الديكارتي كله ، لما وجدت خيراً من هذا النَّص الموجز الذي أسلفناه عن جابر بن حيان .

يفرق جابر في النص المذكور بين ما أسماه « بالأوائل » وما أسماه « بالثواني » في العقل ؛ أما الأوائل فهي بطبيعة كونها أوَّلةً في العقل لا تكون مستنبطة من سواها ، وإلا لما كانت أوَّلة ولسبقها غيرها ، هو هذا الذي استنبطناها منه ؛ ولذلك فلا يطلب على صدق « الأوائل » برهان سوى حدسها حدساً صدقاً ومباشراً ، أو رؤيتها بالعيان العقلي رؤية مباشرة ؛ وأما « الثواني » فهي التي تأتي بعد ذلك عن طريق الاستنباط من « الأوائل » ؛ وهذه الثواني هي التي يطلب عليها الدليل ، ودليلها هو أن يردَّها الباحث إلى الأوائل التي جاءت الثواني منها نتائج لازمة عنها ؛ فهكذا تكون الرياضة ـ كالهندسة مثلاً ـ إذ تبدأ بمسلَّمات مفروضة الصدق ، ولا يطلب على صدقها برهان ، ثم تستنبط منها « النظريات » التي يكون دليل صدقها هو إرجاعها إلى المسلمات الأولية التي منها جاءت .

وإن رجال المنهج العلميّ ليختلفون ـ وما يزالون يختلفون إلى يومنا هذا ـ أي المنهجين أولى في البحث العلمي : الاستقراء الذي قصاراه نتائج محتملة الصدق ، أم الاستنباط الذي يضمن اليقين في النتائج ، على شرط أن تكون مقدماته يقينية ، ولا تكون المقدمات كذلك إلا إذا جاءت عن غير طريق الملاحظة الخارجية ، أي أنها تجيء عن طريق الإدراك الحدسيّ المباشر من الداخل ؟ أم أنه لا بد من الجمع بين هذا وذاك : فنلاحظ ظواهر الطبيعة أولاً ، ثم نحدس بالعيان العقلي فرضاً نفرضه لتفسير ما قد لاحظناه ، ثم نركن إلى الاستنباط في استخراج ما يلزم عن ذلك الفرض لزوماً عقلياً ؟ . . . ان لكل من هذه الاتجاهات مَن يناصره ؛ « ففرانسس بيكن » (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) مثلاً نصير للملاحظة الخارجية وحدها ؛ و « ديكارت » (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) نصير للاستنباط العقلي وحده ، و « جون ديوي » (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢) نصير للجمع بين الملاحظة الخارجية والاستنباط معاً .

وها هو ذا عالمنا العربي جابر بن حيان ـ فيما نرى ـ يضطر إلى الاستنباط والاستقراء معاً في منهجه ، وان يكن ـ فيما أظن ـ لا يجمع بينهما في عملية منهجية واحدة ، إذ يجعل لهذا موضعه ولذاك موضعه ؛ فبينما تراه يؤكد ضرورة الملاحظة الخارجية في تجاربه العلمية ـ كما أسلفنا القول في ذلك ، تراه من ناحية أخرى يبني مذهبه العلمي كله على أساس لو حللته لوجدته هو المنهج الرياضي الاستنباطي بعينه ، فحدوسٌ أولية يراها العقل رؤية مباشرة (أو يوحي بها إلى نبي ثم يتوارثها الخلفاء الشرعيون من بعده) ثم نتائج تلزم عن تلك الحدوس .

فليسَ الفرق بين المنهجين ـ في حقيقة الأمر ـ فرقاً سطحياً وكفى ، بل إنه ليضرب بجذوره إلى أعماق الفلسفة التي يصطنعها الباحث العلمي عن الكون : أهو يسير على اطرادات يجيء فيها تعاقب الأحداث أمراً واقعاً لكنه لا يهدف إلى شيء ، أم أنه يسير على خطة عقلية تستهدف غاية معلومة ؟ فإن كانت الأولى فما على العالِم إلا أن يلاحظ تعاقب الأحداث المطردة ويسجل

(١) المرجع السابق ، ص ٤٢٣ .

(٢) المقالة الأولى من كتاب الخواص الكبير ، مختارات كراوس ، ص ٢٣٤ .

ملاحظاته فتكون هي قوانين الطبيعة ؛ وإن كانت الثانية فالأمر أمر تحليل عقلي يرتد بنا إلى المبدأ الأول الذي عنه صدرت الظواهر كلها ؛ فها هنا في هذه الحالة الثانية تكون العلاقة السببية بين الظواهر علاقة ضرورية ، بمعنى أن المسبَّب يكون كامناً في السبب بالقوة ، ثم يخرج إلى الظهور بالفعل خروج النتيجة العقلية من مقدمتها الملزمة لها ، لا مجرد ظهور اللاحق الذي يلحق سابقه دون أن تكون بينهما أية رابطة باطنية داخلية تجعل طبيعة اللاحق منبثقة من طبيعة السابق .

ولست أشك في أن فلسفة جابر الكونية هي فلسفة عقلية تربط الأشياء بالروابط السببية الضرورية ، التي يكشف عنها التحليل العقلي ؛ فالسببية عنده هي سببية الكمون أو هي سببية المحايثة - كما تسمَّى أحياناً - هي السببية التي لا تجعل تلاحق السبب والمسبَّب أمراً عارضاً قد يكون وقد لا يكون ، بل تجعله أمراً ضرورياً محتوماً ؛ ما دام المسبَّب كان موجوداً في سببه بالقوة قبل ظهوره بالفعل ، فكأنما السبب يلد مسبَّبه ولادة طبيعية ؛ يقول جابر : « إن في الأشياء كلها وجوداً للأشياء كلها ، ولكن على وجوه من الاخراج »[1] وأظن أن دلالة هذه الجملة واضحة في أن الكون كله مترابط في وحدة واحدة ، فإذا رأيناه يتخذ ظواهر متعددة ، فهذه الظواهر يرتدُّ بعضها إلى بعض ويخرج بعضها من بعض ؛ والكل في النهاية يرجع إلى أصل واحد كان يحمل كل شيء في جوفه بالقوة ثم ظهر منه كل شيء بالفعل ؛ والعقل - دون مشاهدة الحواس - هو بالطبع ما يدرك هذه الرابطة بين الأشياء المختلفة في ظاهرها ، المتحدة في أصلها ومصدرها ؛ على أن الأشياء يخرج بعضها من بعض على صورة طبيعية أحياناً ، وعلى صورة مصطنعة مدبَّرة من الإنسان أحياناً أخرى ، وهذه الحالة الثانية هي مجال العلم ؛ أي أن التجارب العلمية في إخراج الأشياء بعضها من بعض إنما تحاكي الطبيعة فيما تؤدية من هذا الإخراج ؛ فيقول جابر في ذلك : « التدبير على القصد المستقيم (= التجربة العلمية السليمة) هو الذي يُخرج ما في قوى الأشياء ، مما هو لها بالقوة ، إلى الفعل ، فيما يخرج هو بطبعه ، وفيما لا يَخرج حتى يُخرج »[2] .

الاستنباط العقلي إذن ضروري لكي نستعين به على إدراك الروابط الضرورية بين الأشياء ؛ لكن الاستقراء أيضاً ضروري لكي نستعين بمنهجه على إجراء التجارب التي نحاكي بها الطبيعة في إخراج شيء من شيء ؛ فكيف نجمع بين المنهجين ؟

إن لجابر عبارة وردت في كتابه : « الأحجار على رأي بليناس »[3] أراها - مع شيء من الاجتهاد في التأويل - تصف لنا كيف يكون الجمع بين المنهجين في الطريقة العلمية ، وهذه العبارة هي : « ينبغي أن تُفرِد ما أخرجه لك الهجاء ، عما أخرجه لك الحدس ، لتطلب مثل ما أخرجه الحدس بالإضافة إلى الصورة ، ليصير لك الشكلان شكلاً واحداً » - فما معنى ذلك ؟

إن أحد المبادىء المنهجية عند ابن حيان مبدأ سنفيض القول فيه فيما بعد[4] ، وهو أن اسم الشيء دالٌ بحروفه على طبيعة ذلك الشيء ، وإذن فمن أحرف الهجاء التي منها تتركب أسماء الأشياء ، تستطيع أن تستدل على طبائع الأشياء التي على أساسها تجري تجاربك العلمية في إخراج الأشياء بعضها من بعض ؛ وهذا هو جانب واحد من البحث ؛ وأما الجانب الثاني فهو أن تستلهم الحدس العقلي ماذا عسى أن تكون طبيعة شيء معين تريد معرفة تركيبه ، فبالحدس العقلي وما ينبني عليه من استنباطات عقلية صرف ، يمكنك أن تعرف - مثلاً - طبيعة النحاس أو الذهب ، دون أن تلجأ إلى ملاحظة خارجية لخصائص هذين المعدنين ؛ وبهذا تتكامل عندك نتيجتان عما تريد العلم به : إحداهما جاءت عن طريق البحث في اسم هذا الشيء الذي تريد أن تحيط به علماً ، وما تدل عليه الأحرف المكنونة لهذا الاسم ؛ والأخرى جاءت عن طريق التفكير العقلي الباطني الخالص ؛ فإذا تطابقت النتيجتان كان بها ، وإلا فإذا اختلفتا فعليك أن تكمل النتيجة التي جاءت عن طريق البحث الظاهري بما قد دلت عليه النتيجة التي جاءت عن طريق التفكير الباطني ؛ أي أن الأولوية لحكم العقل ، فهو معيارنا الأخير في استقامة الأحكام التي تجيء عن طريق البحث في الظواهر بالملاحظة الخارجية .

فمهما يكن من قيمة البحث في الظواهر ، فلا مناص لنا من الرجوع آخر الأمر إلى ما يحكم به العيان العقلي لنهتدي به سواء السبيل ؛ وهذا العيان العقلي لا يكون لك ولي من أفراد الناس ، بل يكون بادىء ذي بدء وحياً يوحى به إلى نبيٍّ ثم يُتوارَث ؛ وبغير هذا السند نظل نتخبط أي يكون الحق وأين يكون الباطل ، فلشكوك - في رأي جابر - لا تنجاب « إلا بالعيان وبإقامة البرهان . . . وإقامة البرهان لا تكون إلا بالعيان . . . والعيان من أفعال الأنبياء »[5] وهذا هو بعينه ما يقوله حين يقول أيضاً : « فوالله ما لي في هذه الكتب إلا تأليفها ، والباقي علمُ النبيِّ »[6] .

من أخلاق العلماء :

لقد نثر ابن حيان في غضون مؤلفاته مبادىء يراها لازمة لكل من يتصدى للبحث العلمي ، فهي - إذا شئت - المنهج الخلقي للعلماء ؛ ومن هذه المبادىء انصاف الخصوم ؛ والانصاف يقتضي كذلك أن ينصف الباحث نفسه ازاء خصومه ، فليس من الانصاف الكامل أن توفِّي خصومك حقوقهم ثم تفرط في حق نفسك عندهم ، لأن المسألة بينك وبينهم مسألة حق يراد بلوغه ؛ فإذا كنت بصدد خصم علمي في فكرة بعينها ، فواجبك أن تعرض حججه كلها ، حجة حجة ، لا تترك منها شيئاً وأنت عامد ، ولا تضيف إليها من عندك شيئاً وأنت عامد ؛ ثم تذكر عن كل حجة ما لها وما عليها من وجهة نظرك ؛ يقول ابن حيان : « إن العالِم إذا كان منصفاً فإنه ليس يُنزل في الأقسام شيئاً إلا ذكره ، واحتج عليه وله ، وأخذ حقه من خصومه ، ووفَّاهم حقوقهم ، وإلا فقد وقع العناد حماقة وجهلاً »[7] .

(١) كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل ، مختارات كراوس ، ص ٤ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٧ .
(٣) مختارات كراوس ، ص ١٣٤ .
(٤) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب .
(٥) كتاب الخواص ، مختارات كراوس ، ص ٣٣٢ .
(٦) نفس المصدر ، ص ٣١٧ .
(٧) كتاب التجميع ، مختارات كراوس ، ص ٣٦٣ .

ومن المبادىء الخلقية للعالم أن يكون مثابراً دؤوباً غير يائس من الكشف عن الحقيقة المنشودة ؛ فما أكثر ما يقتضي البحث عناء شديداً ، قد لا يحتمله الباحث فينفضُّ عنه في قنوط ؛ لكن الذي يريد الإحاطة بعلم ما من جميع فروعه إحاطة تتيح له أن يتكلم في أصوله ، وجبت عليه - كما يقول جابر - المثابرة التي لا تعرف إلى اليأس سبيلاً ؛ ويستشهد جابر من هذا السياق بالآية الكريمة : ﴿ ولا تيأسوا من رَوْح الله أنه لا ييأس من رَوح الله إلا القوم الكافرون ﴾ وهو يوجِّه الخطاب إلى مولاه فيقول : وقد سمعت ما جاء به النبي (ص) في القنوط ، وأحذِّرك أن تصير إلى هذه الحال فتندم حين لا ينفعك الندم ، والله أعلم بأمرك ؛ . . . وحق سيدي عليه السلام إن لم تقبل لتكوننَّ مثل رعاع العامة السفلة الأجناد ، لعنهم الله أكثر مما قد لعنهم »[1] .

ويؤكد جابر لقارئه أنه لا نجاح في عمل علمي إلا إذا كان مسبوقاً بعلم ؛ فالتحصيل النظري أولاً ثم التجربة والتطبيق ثانياً ؛ نعم ان هذا التحصيل الكامل قد يقتضي تعباً وجهداً ، لكنه لا مناص من ذلك إذا أريد الوصول ، يقول : « اتعب أولاً تعباً واحداً ، واجمع ، وانظر ، واعلم ، ثم اعمل ، فانك لا تصل أولاً ، ثم تصل إلى ما تريد[2] .

ومبدأ آخر يوصي ابن حيان ، وهو - فيما أرى - أدخل في المبادىء التربوية منه في مبادىء المنهج العلمي في إجراء البحوث ؛ لكنه على كل حال طابع يميز جابراً ويصور لنا شخصيته تصويراً واضحاً ؛ ألا وهو التكتم والتخفي ؛ فواجب العلماء - في رأيه - أن يتكتموا علمهم ، فلا يكشفوه إلا في الظروف الملائمة وإلا للأشخاص الذين يستحقونه ويطيقونه ويستطيعون حمله بما يتفق وكرامته ؛ لأنك إذا صببت في إنسان علماً أكثر مما يطيق ، كنت كمن يضع في إناء أكثر مما يسع فيذهب الأمر هباء ، لا بل إنك لتزهق ذلك الإنسان وتحرقه بما تحمِّله إياه من علم يعجز عن حمله : « ولولا أنني أمرت أن أعطي الناس بقدر استحقاقهم لكشفت من نور الحكمة ما يكون معه الشفاء الأقصى ؛ ولكني أمِرت بذلك لما فيه من الحكمة ؛ لأن العلم - يا أخي - لا يحمله الإنسان إلا على قدر طاقته وإلا أحرقه ، كما لا يقدر الإناء والحيوان أن يحمل إلا بقدر طاقته وملئه ، وإلا فاض ، ورجع بالذل والعجز »[3] .

روى الجلدكي في شرح المكتسب عن جابر بن حيان رواية[4] تبين وجهة نظر ابن حيان في وجوب تكتم العالم حتى يصادف الظروف المواتية ، وذلك أن تلميذاً أراد التعلُّم والأخذ عنه ، فماطله جابر وراوغه ؛ فلما أصر التلميذ ولم يتحول عن طلبته ، قال جابر : « إنما أردت أن أختبرك وأعلم حقيقة مكان الإدراك منك ، ولتكن من أهل هذا العلم على حذر ممن يأخذه عنك ؛ واعلم أن من المفترض علينا كتمان هذا العلم ، وتحريم إذاعته لغير المستحق من بني نوعنا ، وأن لا نكتمه عن أهله ، لأن وضع الأشياء في محالها من الأمور الواجبة ، ولأن في إذاعته خراب العالم ، وفي كتمانه عن أهله تضييع لهم » .

ونختم حديثنا عن منهج ابن حيان بموجز لهذا المنهج يضغطه في عشر نقط[5] ، هي :

١ - على صاحب التجربة العلمية أن يعرف علة قيامة بالتجربة التي يجريها .

٢ - على صاحب التجربة العلمية أن يفهم الارشادات فهماً جيداً .

٣ - ينبغي اجتناب ما هو مستحيل وما هو عقيم .

تجب العناية باختيار الزمن الملائم والفصل المناسب من فصول العام (في هذه الفقرة إشارة إلى اعتراف جابر بتأثير النجوم ومواضعها في البحوث العلمية كما سيرد ذكر ذلك مفصلاً في هذا الكتاب) .

٥ - يحسن أن يكون المعمل في مكان معزول .

٦ - يجب أن يتخذ الكيموي أصدقاءه ممن يثق فيهم .

٧ - ولا بد أن يكون لديه الفراغ الذي يمكِّنه من إجراء تجاربه .

٨ - وأن يكون صبوراً كتوماً .

٩ - وأن يكون دؤوباً .

١٠ - وألا تخدعه الظواهر فيتسرع في الوصول بتجاربه إلى نتائجها .

تصنيف العُلوم

إنه لما يتصل اتصالاً وثيقاً بالمنهج عند العالم الفيلسوف أو عند الفيلسوف العالم ، أن يصنف العلوم تصنيفاً يبين حدودها والعلاقة القائمة بينها ؛ وان الأمر هنا ليحتاج إلى نظرة واسعة شاملة تنظر إلى المعرفة الإنسانية جملة واحدة ، فلئن كان المختص في علم واحد ملماً بأطراف علمه وحدوده ، فهو لا يشمل بنظرته ما وراء هذا العلم المعين من علوم أخرى ، لا بد أن تكون على صلة به بعيدة أو قريبة ، ما دام العالم عالَماً واحداً ؛ ولعل هذا الفرق بين النظرة المحدودة بحدود علم واحد ، والنظرة الشاملة للعلوم جميعها في علاقاتها بعضها ببعض ، أقول لعل هذا الفرق بين النظرتين هو أبرز ما يميز نظرة العلم الصرف من نظرة الفلسفة ؛ فالفلسفة دائماً تعنى بالتفكير العلمي في عصرها ، أعني أنها لا تختلف عن العلم أصلاً وجوهراً ، وأما موضع الاختلاف بينهما فهو درجتا التخصيص أو التعميم . فالعلم الواحد يختص بموضوع واحد ، والفلسفة تحلل لتصل إلى القاعدة العميقة التي تشترك فيها العلوم كلها ، وعنها تتفرع ؛ وبديهي أن تكون هذه القاعدة المنشودة غاية في التعميم ، ما دامت تغض النظر عن الاختلافات النوعية جميعاً ، وهي الاختلافات التي تفرق بين علم وعلم .

فلا تكاد تجد في تاريخ الفلسفة فيلسوفاً لم يتناول علوم عصره

(١) المقالة الرابعة والعشرون من كتاب الخواص الكبير ، مختارات كراوس ص ٣١٧ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٣) كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل ، مختارات كراوس ، ص ٤٧ .

(٤) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٥) Holmyard, E. J, Chemistry to the Time of Dalton ص ١٧

بالتصنيف ، ولئن اختلف الفلاسفة في تصنيفهم للعلوم ، فذلك راجع - فضلاً عن اختلافاتهم في وجهة النظر - راجع إلى اختلاف العلوم نفسها عصراً بعد عصر ، فلا وجه للغرابة - إذن - أن نجد تصنيف جابر لعلوم عصره مشتملاً على جوانب لا نقرّها نحن اليوم بين العلوم المعترف بها في عصرنا .

ردف ابن حيان بين ثلاث كلمات فجعلها بمعنى واحد ، وهي « العلم » و« العقل » و« النور » ؛ ولو فهمنا كلمة « النور » بمعنى الاشراق العقلي الذي يتيح للإنسان أن يدرك حقيقة ما بعيانه العقلي المباشر ، أي أنه يدركها بحدسه الصادق ولقانته - وقد استعمل ديكارت كلمة « النور » في مسألة الإدراك بهذا المعنى ، فهو استعمال مجازي قريب إلى الأذهان - أقول إننا لو فهمنا كلمة « النور » بمعنى « الحدس » الصادق المهتدي بطريق مباشر إلى الحقيقة المدرَكة ، لكانت الكلمات الثلاث المترادفة عنده هي : « الحدس » و« العقل » و« العلم » ؛ ولهذه المرادفة مغزى بعيد ، إذ تدل على أن العلم عند ابن حيان عملية عرفانية صرف ، تكشف عن حقائق موجودة قائمة ، ولا تخلق ما ليس موجوداً ولا قائماً ؛ أو إن شئت فقل إن العلم عنده عملية فيها إدراك ولكن ليس فيها إرادة ونزوع إلى فعل ؛ أي أن العلم ليس من شأنه أن يغيِّر شيئاً ، فالعالَم هناك بعناصره وكيفياته منذ الأزل ؛ فكما تنير مصباحاً في غرفة مظلمة فتكشف بضوء المصباح عن أثاث الغرفة دون أن تضيف إليه شيئاً أو أن تغير من أوضاعه شيئاً ، فكذلك علم العالِم إزاء الكون وموجوداته ، فهو « نور » يكشف لصاحبه عما هنالك وكفى ، وهذا يقتضي أن يتساوى موقفان : موقف تكون الحقائق التي تنكشف لنا مما يمكن أن يتحول إلى فعل ، وموقف آخر لا تكون الحقائق المكتشفة فيه مما ينفع في تغيير الأشياء .

والحق أن قد لبثت الفلسفة طوال العصر القديم والعصر الوسيط ، تنظر إلى الحقيقة من جانبها العرفاني الإدراكي الصرف ، فيكفي الإنسان أن « يعرف » ما هنالك ، بغض النظر عن طبيعة هذه المعرفة من حيث علاقتها بجانب الإرادة الفاعلة النشيطة ؛ حتى جاء عصر النهضة الأوروبية ونادى فرانسس بيكن بدعوته القوية نحو أن يكون « العلم قوة » - وهذه عبارة بيكن - قاصداً بذلك أن يقصر كلمة « العلم » بمعناها الصحيح على ما يزوِّد الإنسان بالقدرة على الفعل ، وإذا لم يكن للمعرفة التي نحصِّلها أو نكشف عنها هذه القابلية ، فليست هي عنده من العلم في شيء - وغني عن البيان أن المدرسة البرگماتية المعاصرة تعدُّ تلبية لدعوة بيكن هذه .

ونعود إلى عالمنا الفيلسوف جابر بن حيان ، ونقول إنه رادف بين : « العلم » و« العقل » و« النور » (= الحدس الصادق) ؛ أي أنه لا يشترط في العلم أن يكون قابلاً للتطبيق والفعل[1] ، وهذه هي عبارته بنصها : « العلم نور ، والعقل نور ، فالعلم عقل ، والنور عقل ؛ كل واحدة من هذه يمكن أن تكون مقدمة ، ويمكن أن تكون وسطاً ، فتقول : كل علم عقل ، وكل عقل نور ، فالنتيجة كل علم نور ؛ وكذلك إذا قُدِّم العقل وجعل العلم وسطاً ، كان كذلك (يعني أنك تستطيع أن تقول كل عقل علم وكل علم نور) فالنتيجة كل عقل نور) وكذلك إذا قدِّم النور وجعل العلم وسطاً ، فكان : كل نور علم ، وكل علم عقل ، فالنتيجة كل نور عقل »[2] .

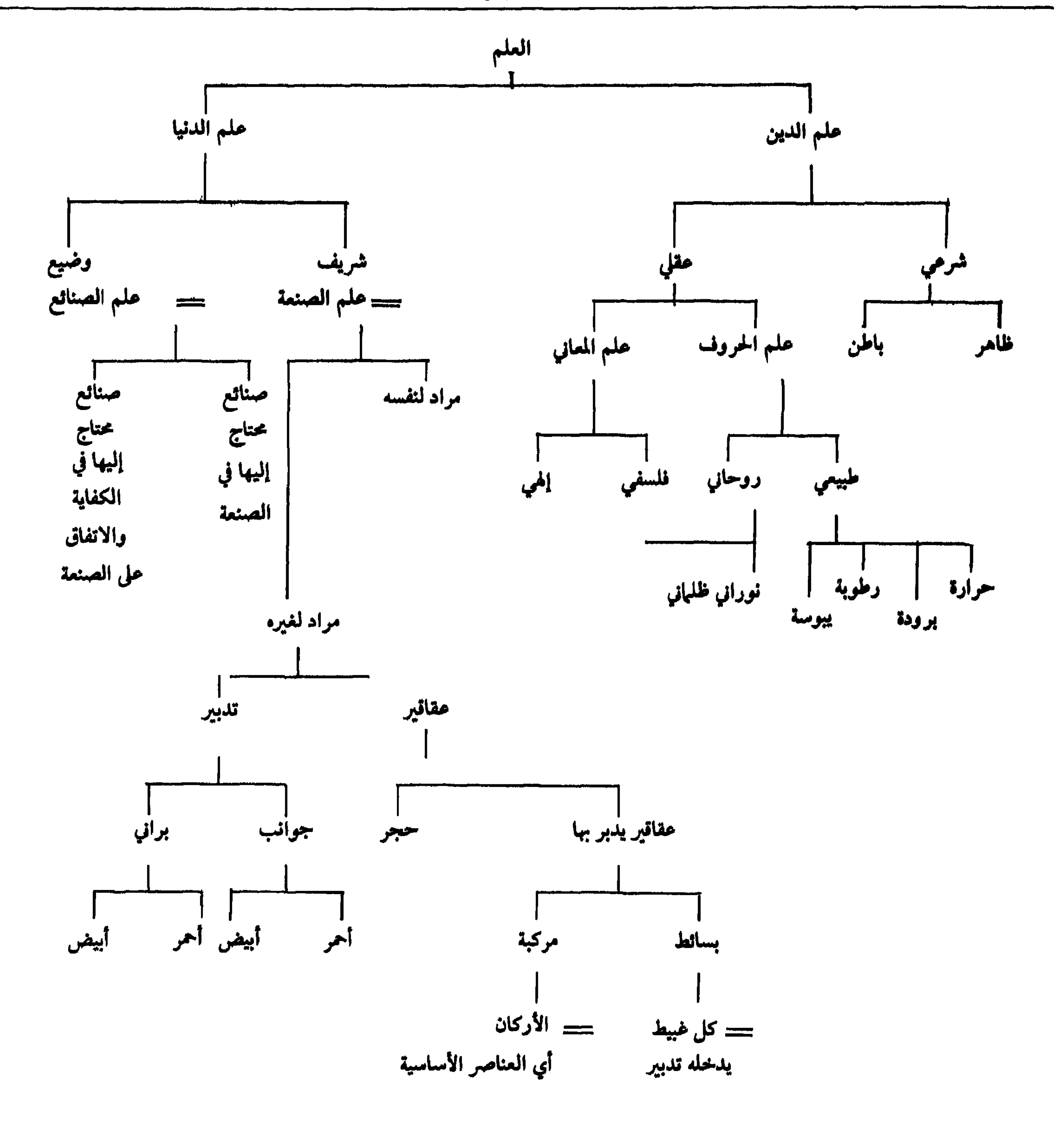
وفيما يلي مخطط بالعلوم كما يصفها جابر بن حيان ، استخرجناه من أقواله ، وسنعقِّب عليه بتعريفاته لهذه العلوم علماً علماً ، مع ملاحظة أنه يقدم لكل علم تعريفين ، لأنه ينظر إلى كل علم من زاويتين : فتعريف العلم منظوراً إليه من ناحية الطريق التي يُعَلَّم بها ، وتعريف آخر للعلم نفسه منظوراً إليه من حيث هو علم قائم بذاته ، سواء وُجد من يتعلمه أو لم يوجد ؛ بعبارة أخرى ، التعريف الأول لكل علم هو تعريف له في علاقته بالإنسان الذي يحصِّله ، أي أنه تعريف له من الناحية التربوية ، وأما التعريف الثاني فهو تعريف للعلم المعيَّن في حدوده الموضوعية المستقلة عن الإنسان[3] .

---

(١) لكن جابراً أراد أن يعرِّف « علم الدنيا » قال عنه : إنه العلم بما يجلب النفع ويدفع الضرر - راجع فقرة ٢٠ وما بعدها في هذا الفصل .

(٢) كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل ، مختارات كراوس ، ص ٤٨ .

(٣) تصنيف العلوم وتعريفها واردان في : « كتاب الحدود » وهو من المختارات التي نشرها پول كراوس .



تعريفات العلوم:

١ ـ علم الدين :

أ ـ التعريف من طريق التعليم :

هو صور يتحلى بها العقل ليستعملها فيما يرجو الانتفاع به بعد الموت ؛ وليس يعترض على هذا طلبُ رئاسة الدنيا ، ولا إعظام الناس له من أجلها ، ولا الحيلة عليهم بإظهارها ؛ لأن كل ذلك ليس هو لها بالذات ، لكن بطريق العَرَض .

ب ـ تعريف علم الدين في ذاته :

هو الأفعال المأمور بإتيانها للصلاح فيما بعد الموت .

٢ ـ علم الدنيا :

أ ـ هو الصور التي يقتنيها العقل والنفس ، لاجتلاب المنافع ودفع المضار قبل الموت ؛ وإنما قلنا في هذا الحد : « يقتنيها العقل والنفس » لأن من المنافع والمضار أشياء متعلقة بالشهوة ، وهي من خواص النفس ؛ فعلم هذه مقصور على النفس ، إذ كان العقل عدواً للشهوة ؛ ومنها أشياء متعلقة بالرأي ، فعلمها مقصور على العقل ، فلذلك احتجنا في الحدِّ إليهما .

ب ـ هو جميع ما في عالم الكون من الحوادث ، الضارة والنافعة ، بأي وجه كان ذلك فيها[١] .

٣ ـ العلم الشرعي (من علوم الدين) :

أ ـ هو العلم المقصود به أفضل السياسات النافعة ديناً ودنيا ، لما كان من منافع الدنيا نافعاً بعد الموت ؛ وإنما خصصنا هذا النوع من منافع الدنيا لأن ما لم يكن من منافعها هذه حاله ، ولا تَعَلُّق له بالدين ، فلا يدخل في هذا التعريف .

ب ـ هو السنن المقصود بها سياسة العامة على وجه يصلحون فيه صلاحاً نافعاً في عاجل أمرهم وآجله .

٤ ـ العلم العقلي (من علوم الدين) :

أ ـ هو علم ما غاب عن الحواس ، وتحلى به العقل الجزئي من أحوال العلة الأولى وأحوال نفسه ، وأحوال العقل الكلي والنفس الكلية والجزئية ، فيما يُتَعَجَّل به الفضيلة في عالم السكون ، ويُتَوَصَّل به إلى عالم البقاء .

ب ـ هو الجوهر البسيط القابل لصور الأشياء ذوات الصور والمعاني على حقائقها ؛ كقبول المرآة لما قابَلَها من الصور والأشكال ذوات الألوان والأصباغ .

٥ ـ علم الحروف (من الجانب العقلي في علوم الدين) :

أ ـ . . . .

ب ـ هو الأشكال الدالّة بالمواضعة على الأصوات المقطَّعة تقطيعاً يدل بنظمه على المعاني بالمواطأة عليها .

٦ ـ علم المعاني (معاني الكلمات ، وهو من الجانب العقلي في علوم الدين) :

أ ـ هو العلم المحيط بمباحث الحروف الأربعة ، أي الكلمات الأربعة ، وهي : هل ، ما ، كيف ، لِمَ (الهَلِّيَّة ، والمائية ، والكيفية ، واللِّمِّيَّة) ـ أعني هو العلم الذي يحيط بالأشياء من حيث أصلها وصفاتها والهدف المقصود من وجودها .

ب ـ هو الصور المقصود بالحروف إلى الدلالة عليها .

٧ ـ علم معاني الحروف الطبيعي :[٢]

أ ـ هو العلم بالطبائع الخاصة التي تدل عليها حروف الكلمات ، إذ أن كل كلمة دالة على طبيعة مسماها بالأحرف التي ركبت منها .

ب ـ هو الإحاطة بالوسائل التي نستحدث بها كائنات ذوات طبائع معينة .

(١) لاحظ أنه لا يفرق بين علوم الدين وعلوم الدنيا من حيث أن كليهما يراد به النفع ، بل الفرق بينهما هو فقط في زمن الانتفاع متى يكون : فعلوم الدنيا لما قبل الموت ، وعلوم الدين لما بعد الموت .

(٢) يتحدث هنا ابن حيان عن علم معاني الحروف ، فيقسمه قسمين : قسم طبيعي وآخر روحاني ؛ مع أنه لم يكن في تصنيفه قد قسمه هذه القسمة ، بل قسمه إلى ما هو فلسفي وما هو روحاني ؛ أما القسمة إلى ما هو طبيعي وما هو روحاني ، فكان قد جعلها لعلم الحروف لا لعلم المعاني .

٨ ـ علم معاني الحروف الروحاني :

أ ـ هو العلم بالأشكال المؤتلفة من النور والظلمة .

ب ـ الروح هو الشيء اللطيف الجاري مجرى الصورة الفاعلة .

٩ ـ العلم النوراني (وهو أحد فرعي علم الحروف الروحاني) :

أ ـ هو العلم بحقيقة النور الفائض على الكل .

ب ـ النور هو الجوهر الذي يُكسب جميعَ الأشياء بياضاً مشرقاً بالممازجة ، بحسب قبول تلك الأشياء ، على اختلافها في القبول .

١٠ ـ العلم الظلماني (وهو الفرع الآخر من فرعي علم الحروف الروحاني) :

أ ـ هو العلم بما هو ضد للنور ، وكيفية تضاده ، وعلة ذلك التضاد ؛ ولا نقول هو العلم بطبيعة ذلك الضد ، لأن العلم بأحد الضدين هو في الوقت نفسه علم بالآخر في الجملة .

ب ـ الظلمة هي عدم النور من الأشياء العادمة له أو العادمة لأثره ؛ وهي الأشياء التي يقال لها ظلمانية ؛ وأما الأشياء القابلة للنور فيقال لها نورانية[٣] .

١١ ـ علم الحرارة (وهو أحد الفروع الأربعة التي يتفرع إليها علم الحروف الطبيعي) :

أ ـ هو العلم بالحرارة في جوهرها وفي أثرها وفي سبب حدوثها .

ب ـ الحرارة هي غليان الهيولى ، وهي حركتها في الجهات كلها[٤] .

١٢ ـ علم البرودة (وهو ثاني الفروع الأربعة لعلم الحروف الطبيعي) :

أ ـ هو العلم بها من حيث جوهرها وأثرها وسبب وجودها .

ب ـ البرودة هي حركة الهيولى من محيطها إلى مركزها[٥] .

١٣ ـ علم الرطوبة (وهو ثالث الفروع لعلم الحروف الطبيعي) :

أ ـ هو العلم بجوهرها وخاصتها وسبب حدوثها ؛ ولم نقل هنا هو العلم بأثرها ، لأن الرطوبة منفعلة لا فاعلة .

ب ـ الرطوبة هي مادة الحرارة في حركتها ، وغذاؤها المحيي لها .

١٤ ـ علم اليبوسة :

(٣) لو عبرنا عن هذا الكلام بلغة حديثة لقلنا : إن العلم في بحثه لظواهر الضوء ، يدرس الأجسام التي تمتص الضوء والأجسام التي تعكسه .

(٤) قوله أن الحرارة هي حركة الهيولى يوافق قول العلم الحديث في ماهية الحرارة ، إذ هي حركة الذرات ، فتزداد درجة الحرارة بازدياد سرعة الذرات وتقل درجة الحرارة ببطء الذرات في حركتها .

(٥) لا حاجة بنا إلى تنبيه القارىء إلى أن العلم القديم كله ـ عند اليونان وفي العصور الوسطى ـ كان علماً كيفياً ، على خلاف العلم الحديث الذي يزيد اهتمامه بالجانب الكمي ؛ فقد كانت « البرودة » حقيقة قائمة بذاتها مستقلة عن « الحرارة » لاختلافهما في الكيف ؛ أما اليوم فالبرودة هي درجة من درجات الحرارة ، ولا اختلاف بين الطرفين إلا في الكم وحده ، وقل هذا نفسه بالنسبة إلى « الرطوبة » و« اليبوسة » .

أ ـ هي العلم بجوهرها وخاصّتها وسبب حدوثها ؛ ولم نقل هنا أيضاً أنه العلم بأثرها ، لأن اليبوسة ـ كالرطوبة ـ منفعلة لا فاعلة .

ب ـ اليبوسة هي المفرِّقة بين الأشياء المجتمعة تفريقاً طبيعياً ؛ وإنما قلنا تفريقاً طبيعياً لئلا يلتبس عليك بتفريق الصناعة ؛ لأنّا قد نقطع الشيء بالسكين فنفرق بين أجزائه ، وليس السكين يبوسة ، ففي مثل هذه الحالة يكون التفريق منسوباً إلى الصناعة لا إلى الطبيعة .

١٥ ـ العلم الفلسفي (وهو أحد فرعي علم معاني الحروف) :

أ ـ هو العلم بحقائق الموجودات المعلومة .

ب ـ الفلسفة هي العلم بأمور الطبيعة وعللها القريبة والبعيدة .

١٦ ـ العلم الإلهي (وهو الفرع الآخر من فرعي علم معاني الحروف) :

أ ـ هو العلم بالعلة الأولى وما كان عنها بغير واسطة ، أو بوسيط واحد فقط .

ب ـ هو علم ما بعد الطبيعة من النفس الناطقة والعقل والعلة الأولى وخواصها[١] .

١٧ ـ علم الشرع (علم الدين ينقسم قسمين : عقلي وشرعي ، وقد كان حديثنا من رقم ٤ إلى رقم ١٦ منصرفاً إلى أقسام علم الدين العقلي ، وننتقل الآن إلى القسم الشرعي ـ انظر أيضاً رقم ٣) :

أ ـ هو العلم بالسنن النافعة ـ إذا استُعمِلتْ على حقائقها فيما بعد الموت وقبله ـ من الأشياء النافعة فيما بعد الموت .

ب ـ . . . .

١٨ ـ علم الظاهر (وهو أحد فرعي علم الشرع) :

أ ـ هو العلم بالسنن كما يدركها عامة الناس في الطبيعة والعقول والنفوس .

ب ـ هو علم أولئك الذين يؤلفون عامة الناس .

١٩ ـ علم الباطن (وهو الفرع الآخر من فرعي علم الشرع) :

أ ـ هو العلم بعلل السنن وأغراضها التي تليق بالعقول الإلهية .

ب ـ هو الغرض المستور المراد بالظاهر .

إلى هنا انتهينا من فروع علم الدين ، وننتقل إلى علم الدنيا وفروعه ـ راجع فقرة ٢ .

٢٠ ـ علم الدنيا :

أ ـ هو العلم بالنافع والضار ، وما جلب المنافع منها أو أعان فيه ، ودَفْعَ المضار منها أو أعان على ما تدفع به[٢] .

ب ـ . . . .

٢١ ـ علم الدنيا الشريف (وهو ما يسمى بعلم الصنعة) :

أ ـ هو العلم بما أغنى الإنسانَ عن جميع الناس في قوام حياته الجيدة . وهو العلم بالأكسير .

ب ـ الشريف هو المستغنى عن غيره فيما تحتاج إليه الأشياء بعضها إلى بعض .

٢٢ ـ علم الدنيا الوضيع (وهو ما يسمى بعلم الصنائع) :

أ ـ هو العلم بما يوصل إلى اللذات والمنافع وحفظ الحياة قبل الموت ؛ فهو العلم بما يحتاج إليه الناس في منافع دنياهم .

ب ـ الوضيع هو المحتاج إلى غيره حاجةً تقتضي تفضيله عليه .

والصنائع هي الآلات الموصلة إلى استغناء الإنسان بنفسه عمن سواه في المكاسب من جهة غير معتادة .

وعلم الدنيا الشريف محتاج في تحقيقه إلى علم الدنيا الوضيع ، لأن هذا الأخير هو الوسائل الموصلة إلى أهداف ذاك .

٢٣ ـ علم الأكسير (وهو علم مراد لنفسه) :

أ ـ هو العلم بالشيء الذي تُجرىَ عليه التجارب ، وهو الذي يصبغ جوهراً مّا من الجواهر الذائبة الخسيسة ، ويحوله إلى جوهر ذائب شريف .

ب ـ . . . .

٢٤ ـ علم العقاقير (وهو علم مراد لغيره) :

أ ـ هو العلم بالأحجار والمعادن المحتاج إليها في بلوغ الأكسير والوصول إليه .

ب ـ العقاقير هي الأجسام التي تُجرَى عليها التجارب .

٢٥ ـ علم التدابير (وهو أيضاً علم مراد لغيره) :

أ ـ هو العلم بالأفعال المغيِّرة لأعراض ما حلّت فيه إلى أعراض أخرَ أشرف منها وأسوق إلى تمام الأكسير .

ب ـ التدابير هي الأفعال المَقصود بها بلوغ المراد لنفسه من الصنعة .

٢٦ ـ علم الحجر (وهو واحد فرعي علم العقاقير) :

أ ـ هو العلم بالشيء الذي يراد تبديل أغراضه ليصير اكسيراً .

---

(١) هذه تفرقة دقيقة بين العلم الإلهي والفلسفة ؛ فالعلم بالعلة الأولى (الله) هو علم إلهي لا فلسفة ، وأما الفلسفة فتقتصر على العلم بالأشياء المخلوقة ، أي العلم بالطبيعة ؛ بعبارة أخرى فإن البحث في العلاقات بين كائنات الطبيعة فلسفة ، وأما البحث فيما وراء الطبيعة فمن العلم الإلهي لا من الفلسفة .

(٢) هذه نظرة عملية براغماتية إلى العلم ، لا تتفق مع وجهة نظره العامة التي شرحناها في أول هذا الفصل ، ومؤداها أن العلم هو مجرد الكشف عن الحقائق بغض النظر عن الإستفادة منها ؛ ويزول التناقض الظاهر إذا تذكرنا أنه حين يعرِّف العلم بصفة عامة فإنما يصوغ التعريف على نحو يصلح لعلوم الدين وعلوم الدنيا معاً ؛ على أنه إذا كان العلم مجرد كشف عرفاني ادراكي ، فذلك لا يقتضي منطقياً ألا تجيء مرحلة تطبيقية بعد ذلك .

ب ـ الحجر هو الجوهر المطلوب منه الغنى عن الغير من وجه شريف غير معتاد .

٢٧ ـ علم العقاقير الداخلة في تدبير هذا الحجر (وهو الفرع الآخر من فرعي علم العقاقير) :

أ ـ هو العلم بالجواهر المعدنية ذوات الخواص التي تغير أعراض هذا الحجر المراد تغيرها .

ب ـ . . . .

٢٨ ـ العلم الجواني (هو أحد فرعي علم التدابير) :

أ ـ هو العلم بالشيء الذي تجرى التجارب عليه من داخل ، ليتحول من حالة إلى حالة .

ب ـ الجواني هو ما تقع عليه التجربة من جوانب الشيء مجتمعةً بقصد الوصول إلى غاية ما يمكن الوصول إليه .

٢٩ ـ العلم البراني (وهو الفرع الآخر من علم التدابير) :

أ ـ هو العلم بالتجارب التي تُجرىَ على الشيء في ظاهره .

ب ـ البراني هو الشيء إذا نُظرَ إلى جوانبه مُفرداً بعضها عن بعض في أول الأمر ، وهو لا يوصلنا إلى آخر ما يمكن للصنعة أن تصل إليه ؛ وفي هذه الحالة نكون على علم بما سيصير إليه أمره قبل أن يصير إليه .

٣٠ ـ علم الأحمر الجواني (وهو أحد فرعي العلم الجواني) :

أ ـ هو العلم بما يصبغ الفضة ذهباً على صورة كاملة .

ب ـ الصبغ الأحمر هو ما كان غائصاً منه في الأجساد الذائبة ، وهو أما أحمر وأما أصفر وأما مسكيّاً بين الصفرة والحمرة .

٣١ ـ علم الأبيض الجواني (وهو الفرع الآخر من العلم الجواني) :

أ ـ هو العلم بما يصبغ النحاس فضة على صورة كاملة .

ب ـ الصبغ الأبيض هو الغائص في الأجساد الذائبة وهو أما أبيض خالص ، وأما أغبر ، وأما أحمر كمد .

٣٢ ـ علم الأحمر البراني :

أ ـ هو العلم بما يصبغ الفضة ذهباً على صورة ناقصة .

ب ـ . . . .

٣٣ ـ علم الأبيض البراني :

أ ـ هو العلم بما يصبغ النحاس فضة على صورة ناقصة .

ب ـ . . . .

٣٤ ـ علم الأكسير الأحمر (وهو أحد فرعي علم الأكسير) :

أ ـ هو العلم بما يصبغ الفضة ذهباً بحكم طبيعته .

ب ـ الأكسير التام هو الصابغ للجوهر الذائب صبغاً ثابتاً وذلك بتحويله من نوع إلى نوع أشرف منه .

٣٥ ـ علم الأكسير الأبيض (وهو الفرع الآخر من علم الأكسير) :

أ ـ هو العلم بما يصبغ النحاس أو الرصاص فضة بحكم طبيعته .

ب ـ الأكسير الأبيض التام هو الصابغ للنحاس فضة بيضاء جامعة لخواص الفضة بأسرها .

٣٦ ـ علم العقاقير البسيطة :

أ ـ هو العلم بما لم يدخله تدبير الصنعة .

ب ـ . . . .

٣٧ ـ علم العقاقير المركبة :

أ ـ هو العلم بما دخله تدبير الصنعة .

ب ـ . . . .

٣٨ ـ علم البسيط الغبيط :

أ ـ هو العلم بما كان على خلقته الأولى التي هو بها هو هو .

ب ـ البسيط الغبيط هو ما لا تدبير فيه من تدابير الصنعة .

٣٩ ـ علم الأركان (أي عناصر التركيب) :

أ ـ هو العلم بالعناصر التي إذا دبِّرت تدبيراً يجمعها ما تكون الأكسير .

ب ـ الشيء المركب هو ما دخله التدبير مع غيره .

تلك هي صنوف العلم ـ الديني والدنيوي ـ عند جابر بن حيان ، وحدودها التي تميزها بعضها من بعض ؛ ونستطيع أن نلخص الأمر تلخيصاً نضع به النقاط البارزة أمام أنظارنا ، فنقول أنه :

أولاً : يفرق بين ما هو علم ديني وما هو علم دنيوي على أساس زمن لإنتفاع بالثمرة ، فإن كان هذا الإنتفاع بعد الموت كان علماً دينياً ، وإن كان قبل الموت كان علماً دنيوياً .

وثانياً : هو يميز في علوم الدين بين علم يقوم على النصّ قياماً مباشراً ، وعندئذ أما أن تأخذ النص بظاهره وأما أن تأخذه بتأويلاته الخفية الباطنة ، وعلم يقوم على الأحكام العقلية التي يقاس فيها موضوع الحكم على شيء سواه ؛ وها هنا لا بد لنا من منطق يدقق النظر في الكلمات والجمل ، لأن العَقل مداره قضايا وأحكام ، وهذه مؤلفة من كلمات ، والكلمات مؤلفة من أحرف .

ثالثاً : يجعل جابر علم الصنعة (أي علم الكيمياء) قطب الرحى في علوم الدنيا ؛ وكأنما هو يقسمه قسمين : نظري وعملي ؛ فالنظري منه هو الذي يقصر عليه اسم « علم الصنعة » .

وأما العملي فهو الذي يسميه « علم الصنائع » ويقصد بها الوسائل التجريبية التي لا بد منها في علم الصنعة ؛ ولب اللباب في علم الصنعة هذا

(علم الكيمياء) هو أن نصل إلى المادة الصابغة التي تحيل الفضة ذهباً أو تحيل النحاس فضة وهكذا .

على أننا نجد لابن حيان تصنيفاً آخر للعلوم(١) ، إذ يصنفها سبعة أصناف ، يجعل علم الصنعة واحداً منها ؛ وهي :

١ ـ علم الطب ، ٢ ـ علم الصنعة ، ٣ ـ علم الخواص ، ٤ ـ علم الطلسمات ، ٥ ـ علم استخدام الكواكب العلوية ، ٦ ـ علم الطبيعة ، ٧ ـ علم الصور وهو تكوين الكائنات .

ويفيض ابن حيان القول في كل علم من هذه العلوم السبعة المختلفة ، ليبين في كل علم منها أقسامه الفرعية ووسائله وأهدافه وما إلى ذلك .

فتراه ـ مثلاً ـ يقسم علم الطب قسمين أساسيين : نظري وعملي ، ثم يقسم كلًّا من القسمين قسمين : أحدهما يعني بالعقل أو بالنفس ، والآخر يعني بالجسم ؛ وعند حديثه على طب الجسم يلجأ إلى تحليل الجسم إلى عناصره ، وتشريحه إلى أعضائه في استفاضة وأطناب مما لا يتسع المقام لذكره مفصَّلاً(٢) ؛ فمن قبيل كلامه في التشريح قوله : « الإنسان مركب من أربعة وثمانين ألف قطعة كبار وصغار ، وجميعها يقال لها أما عظم وإما عضل وإما عصب وإما شريان وإما وتر وإما ليف وإما غضروف وإما عظام سمسمانية يقال لها السُّلامَى في لغة العرب وإما ظفر وإما جلد . . . » ثم يمضي في ذكر أجزاء كل من هذه الأقسام(٣) .

ويقول كذلك إن الأعضاء الرئيسية في الإنسان أربعة : الدماغ والقلب والكبد والأنثيان (؟) ، والأخلاط في بدن الإنسان أربعة أنواع : البلغم ويقابل الدماغ ، والصفراء وتقابل الكبد ، والدم ويقابل القلب ، والسوداء وتقابل الأنثيين (؟) .

وهذه العلل بدورها تقابل العناصر الرئيسية الأربعة : الماء ، والنار ، والهواء ، والأرض ؛ فالماء للدماغ ، والنار للقلب ، والهواء للكبد ، والأرض للأنثيين (؟) .

والعناصر الأربعة بدورها تقابل الكيفيات الأربع : الرطوبة للماء ، والحرارة للنار ، والبرودة للهواء ، واليبوسة للأرض ؛ على أن هذه الكيفيات الأربع هي في الحقيقة مركبات ، كل منها مركب من عنصرين أساسيين على الوجه الآتي :

البرودة + الرطوبة = ماء .
الحرارة + اليبوسة = نار .
الحرارة + الرطوبة = هواء .
البرودة + اليبوسة = أرض .

وصحة الجسم هي في اعتدال هذه الأشياء كلها في مزاج متزن .

وفي أقسام الدماغ يقول جابر أنها ثلاثة : الأول هو المُسامِت للوجه ويقال له بيت الخيال ، والأوسط وهو بيت الذِّكْر ، والثالث في مؤخرة الدماغ ويقال له بيت الفكر ؛ وأي هذه فسَد فسَد ذلك الشيء المحدود به ؛ حتى يفسد الخيال والفكر والذكر(٤) .

وهكذا يتناول جابر أجزاء الجسم التي ذكرها أول الأمر مجملة فيحللها إلى أقسام والأقسام إلى أقسام فرعية وهكذا .

ويمثل هذه الإفاضة يتحدث عن بقية العلوم السبعة : علم الصنعة ، وعلم الخواص ، وعلم الطلسمات ، وعلم استخدام الكواكب العلوية ، وعلم الطبيعة ، وعلم الصور ، مما سيرد ذكره في مواضعها المناسبة في هذا الكتاب .

سرّ اللغة وسحرها

اللغة والعالم :

سؤال طرحه الفلاسفة على أنفسهم طرحاً صريحاً أو مُتَضَمَّناً ، وما يزالون يطرحون إلى يومنا هذا ؛ وهو هذا : إلى أي حد نستطيع أن نستدل طبيعة العالم الخارجي من طبيعة اللغة التي نتحدث بها عن ذلك العالم ؟ ها نحن أولاء قد أنشأنا لأنفسنا مجموعة ضخمة من رموز ـ هي الكلمات ـ واتفقنا معاً على الطريقة التي نبني بها هذه الرموز فتكون جُملاً مفهومة ينطق بها المتكلم فيفهم عنه السامع ؛ وواضح أن هذه المجموعة الرمزية الضخمة ـ وهي تختلف باختلاف الجماعات البشرية ، إذ أن لكل جماعة منها لغتها الخاصة بها في عمليات التفاهم بين أبنائها ـ واضح أن هذه المجموعة الرمزية الضخمة ـ أعني اللغة ـ ليست هي نفسها الأشياء التي جاءت تلك الرموز لترمز إليها ؛ فليست « كلمة » حبز هي الخبز نفسه الذي يؤكل ، ولا « كلمة » الماء هي الماء الذي يروي الظمأ ؛ فالرمز اللغوي شيء والمرموز إليه شيء آخر ؛ وإذا ما تكاملت لدينا لغة للتفاهم ، كان لدينا جانبان مختلفان هما : هذه اللغة من ناحية ، ثم العالم الخارجي الذي نتحدث عنه بهذه اللغة من ناحية أخرى ، أقول أن هذه الثنائية بين رموز اللغة وبين أشياء العالم الخارجي المرموز إليها برموز اللغة ، هي من الوضوح بحيث لم تكن تستدعي منا ذكراً وتوضيحاً ؛ ولكن ما ظنك وهذه الحقيقة الواضحة كثيراً ما تحتاج إلى لفت الأنظار إليها ، ثم هذه الأنظار لا تلتفت إلا بعد جهد شديد ؟ فكأنما اللغة هواء شفاف لا يحجب الأشياء التي وراءه ، فنحسب ألَّا هواء بيننا وبين تلك الأشياء .

ونعود بعد هذا إلى سؤالنا الأول : إلى أي حد نستطيع أن نستدل طبيعة العالم الخارجي من طبيعة اللغة التي أنشأناها لنرمز بها إلى ذلك العالم ؟ في هذا يختلف الفلاسفة ـ أو معظمهم ـ فينقسمون ازاءه فئات ثلاثاً :

١ ـ فريق يستدل خصائص العالم من خصائص اللغة ؛ فإن كان تركيب الجملة ـ مثلاً ـ لا يكون إلا بتوافر جانبين ، هما : المسند إليه من جهة والمسنَد من جهة أخرى ، فلا بد أن تكون أشياء العالم على هذا النحو من التأليف ، فيكون لكل شيء جوهره من جهة والخصائص التي تطرأ على ذلك

(١) كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل ، مختارات كراوس ، ص ٤٨ .
(٢) المرجع السابق من ص ٥١ إلى ص ٦٠ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٥٥ ـ ٥٦ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٥٦ .

الجوهر من جهة أخرى ؛ وكذلك إذا كان في اللغة كلمات مختلفة النوع ، فلا بد أن تكون مسمياتها مختلفة أيضاً ؛ فهنالك - مثلاً - أسماء جزئية وأسماء كلية ، فلا بد أن يكون في العالم الخارجي ما يقابل هذه وتلك ، ففيه كائنات جزئية ، وفيه أيضاً كائنات كلية ؛ وهذا هو بعينه ما دعا أفلاطون إلى افتراض وجود عالم بأسره لهذه الكائنات الكلية - أسماه بعالم الأفكار أو بعالم المُثل - إلى جانب عالمنا هذا الماديّ الذي كل ما فيه أفراد جزئية . . . هكذا تستطيع أن تمضي في مفردات اللغة وفي طرائق تركيبها ، فتستدل من كل مفرد لغوي ومن كل تركيب ماذا ينبغي أن يكون مقابلاً له في عالم الأشياء ؛ وفريق الفلاسفة الذين يرتكزون على طبيعة اللغة ليفهموا طبيعة العالم هم : أفلاطون ، واسبينوزا وليبنتز ، وهيجل ، وبرادلي[1] وسنرى أن عالمنا الفيلسوف جابر بن حيان هو من هذه الزمرة .

٢ - وفريق ثان من الفلاسفة يذهب إلى أن الإنسان محال عليه أن يجاوز بعلمه حدود كلمات اللغة إلى حيث العالم الخارجي في ذاته ، وإن شئت أن تفهم وجهة نظر هذا الفريق فحاول أن تنقل إلى من شئت أمراً تريد أن تحيطه به علماً ، كأن تقول له - مثلاً - « إن الورقة بيضاء » تجد أنك تشرح له كلمة بأخرى ، وهذه بثالثة فرابعة وهلم جرا ، أي أنك ستظل مع زميلك حبيس الكلمات التي تتفاهمان بها ، ولا وسيلة أمامكما تخرجان بها من سجن الكلمات إلى حيث « البياض » الخارجي الذي يصف الورقة ، فما بالك إذا أردت لزميلك أن يعرف - مثلاً - أنك خائف أو حزين أو نشوان أو عاشق ولهان ؟ مجاوزة اللغة هنا إلى الحقيقة المرموز إليها باللغة أمر محال ؛ وخلاصة الرأي عند هذا الفريق الثاني من الفلاسفة هي أن أي معرفة وكل معرفة - حتى المعرفة العلمية - إنما هي معرفة كلمات لغوية لا أكثر ولا أقل ، ومن هذا الفريق أولئك الذين يُسَمَّون بالاسميين في تاريخ الفلسفة ، مثل وليم أوكام في العصور الوسطى (١٢٩٠ - ١٣٤٩ تقريباً) ومثل باركلي في العصور الحديثة (١٦٨٥ - ١٧٥٣) ومثل طائفة من جماعة الوضعيين المنطقيين في الفلسفة المعاصرة .

٣ - وفريق ثالث من الفلاسفة يذهب إلى أن الإنسان في وسعه أن يدرك حقيقة مًا غير كلمات اللغة التي يتكلمها ، ويعتقد هذا الفريق أن مثل هذه الحقيقة يستحيل على اللغة أن تعبر عنها ، ومع ذلك ترى مدركيها يكتبون عنها ويتكلمون على الرغم من اعترافهم بأن الكتابة والكلام لا يجديان في نقلها إلى القارىء أو إلى السامع ، اللهم إلا على سبيل الإيحاء ؛ وهؤلاء هم المتصوفة والفلاسفة الذين يأخذون بالإدراك الحدسي مثل برجسون .

ولسنا في هذا المقام بصدد تحليل هذه الآراء الثلاثة في اللغة ، ودلالتها أو عدم دلالتها على حقيقة الواقع الخارجي الذي هو من طبيعة غير طبيعة اللغة ؛ ولكن الذي يعنينا هنا هو أن نضع جابراً في موضعه من مذاهب الفلسفة اللغوية ؛ فهو من القائلين بأن طبيعة اللغة بأحرفها ، كلماتها وجملها تشف عن طبائع الأشياء ؛ فدراسة الاسم هي في الوقت نفسه دراسة للمسمى ، كما سنرى تفصيلاً فيما بعد .

يقول ابن حيان : « إن تركيب الكلام يلزم أن يكون مساوياً لكل ما في العالم من نبات وحيوان وحجر »[2] ؛ ولو حللنا هذه العبارة تحليلاً وافياً ، لكشفت لنا وحدها عن وجهة نظر منطقية تحدد موقف ابن حيان إزاء اللغة وعلاقتها بعالم الأشياء : وهو موقف جد شبيه بفرع من فروع المنطق الحديث الذي يأخذ به فتجنشتين[3] وبرتراند رسل وغيرهما من فلاسفة التحليل في عصرنا الحاضر ؛ ومؤداه أن كلمات اللغة هي ضرب من التصوير ؛ بل أنها قد كانت تصويراً فعلياً في بعض الكتابات القديمة ؛ ولئن اخترعت أحرف الهجاء تيسيراً لتركيب الصور التي تصور بها الأشياء ، لسهولة حلّها وجمعها في صور لا نهاية لعددها ، فإن ذلك لم يسلب من الكتابة قوتها التصويرية ؛ فلا فرق من حيث الجوهر بين أن ترسم شجرة وترسم طائراً على أحد فروعها ، وبين أن تكتب هذه العبارة : « الطائر على الشجرة » ؛ فهذه العبارة - لو أمعنت فيها النظر - هي « صورة » - فكلمة « الشجرة » تنوب عن صورة الشجرة ، وكلمة « الطائر » تنوب عن صورة الطائر ، وكلمة « على » تنوب عن العلاقة التي تصل الطائر بالشجرة لو صورناها بصورة تعكس الواقع عكس المرآة ؛ وما دامت الكتابة في حقيقتها « تصويراً » للواقع ، وجَبَ أن نحاسب المتكلم أو الكاتب على هذا الأساس ، فنطالبه - منطقياً - بأن يرسم بكلامه صوراً للواقع ، والكلام الذي لا يرسم مثل هذه الصور لا يكون ذا معنى ولا يقوم بمهمة الكلام التي خُلِق الكلام أساساً من أجلها ؛ ولو كانت لنا اللغة المنطقية الكاملة لوجدنا تراكيبها - كما وَرَدَ في عبارة ابن حيان السالف ذكرها - « مساوية لكل ما في العالم من نبات وحيوان وحجر » .

محاورة أقراطيلوس :

كان من أهم الأسس التي اعتمد عليها جابر بن حيان في فهمه للطبيعة ، أساس اللغة وتحليلها ؛ فعن طريق معرفتنا بالحروف والكلمات وما لها من طبائع وخصائص ، نعرف طبائع الأشياء وخصائصها ؛ ولم تكن هذه الفكرة وليدة جابر ، بل إن لها لجذوراً قديمة تضرب في أعماق الماضي حتى تصل إلى عصور السحر والكهانة ، حيث لم تكن الكلمات والحروف رموزاً اصطلح عليهااتفاقاً ، بل كان بها مشاركة في طبيعة الأشياء التي يُرمز إليها بها ؛ وعن طريق الاسم تستطيع أن تفعل بالمسمّى ما شئت مستعيناً بوسائل معينة .

فلئن كنا اليوم قد فرغنا تماماً من مشكلة اللغة : أهي مجرد رموز متفق عليها اصطلاحاً ، أم هي ذات طبيعة تشارك بها طبيعة الأشياء ، فلم يكن الأمر كذلك فيما مضى ، بل كان للموضوع وجهتان من النظر ، سجلهما أفلاطون في محاورة « أقراطيلوس » بصفة خاصة ، كما تعرض لهما في محاورات أخرى ، مثل ثيتاتوس وطيماوس ؛ وعلى الرغم من أن جابر بن حيان قد نسّق الموضوع تنسيقاً فريداً خاصاً به ، من وجهة النظر التي أخذ بها في أمر اللغة ودلالتها على الأشياء ، إلا أننا لا نشك في أن التراث الفلسفي اليوناني قد كان معروفاً يؤثر في الفكر الإسلامي بطريق مباشر حيناً وغير مباشر حيناً آخر .

---

(١) Russell, B. On Inquiry into Meaning and Truth ص ٣٤١ .

(٢) كتاب الميزان ، مختارات كراوس ، ص ٤٤٩ .

(٣) Wittgemstein, L. Tractatus Logico. Philosophicus .

وفيما يلي موجز لمحاورة أقراطيلوس ، التي عرفها العرب منقولة بترجمة حنين بن إسحاق عن الصورة المشروحة التي تناولها بها جالينوس ؛ وللفارابي في كتابه عن فلسفة أفلاطون تعليق على محاورة أقراطيلوس هذه ؛ إذ يقول إن أفلاطون قد : « فحص . . . هل تلك الصناعة هي صناعة علم اللسان ، هل إذا أحاط الإنسان بالأسماء الدالة على المعاني على حسب دلالتها عند جمهور تلك الأمة التي لها ذلك اللسان . . . يكون قد أحاط علماً بجواهر الأشياء ، وحصل لها بها ذلك العلم المطلوب ، إذ كان أهل هذه الصناعة يظنون بأنفسهم ذلك ، فيبيّن أنه لا تعطي هذه الصناعة ذلك العلم أصلاً . . . وهذا في كتابه المعروف بأقراطلس »[1] .

وموضوع محاورة أقراطيلوس (أو أقراطلس) هو نشأة اللغة : هل الأسماء دالة على مسمياتها « بطبيعتها » وبحكم خصائص نابعة من الرمز اللغوي نفسه تجعله ملائماً للشيء المرموز إليه به ، أم أنها تكتسب قوتها الدلالية بحكم « الإتفاق » الذي يصطلح عليه الناس في عملية التفاهم ؟ فإن كانت الأولى ، كان لا مندوحة لنا عن اسم معين للشيء المعين ، وإن كانت الثانية كان أمر الإختيار متروكاً لنا ، وكان الأمر جزافاً .

يأخذ أقراطيلوس بوجهة النظر الأولى ، ويأخذ هيرموجنيس ـ في المحاورة ـ بوجهة النظر الثانية ؛ فيقول أقراطيلوس بأنه ما لم نطلق على الشيء اسمه الصحيح الطبيعي الوحيد ، فنحن بمثابة من لا يسميه اطلاقاً ، حتى لو اتفق الناس جميعاً على اسم يختارونه له ويطلقونه عليه ؛ فيرد هيرموجنيس بأن أي اسم يتفق أصحاب اللغة على اطلاقه على شيء ما كان اسماً له وليس في طبائع الأشياء ما يحتم اسماً دون اسم سواه ؛ ويُسأل سقراط عن رأيه في هذا النزاع ، فيقول أنه ليس خبيراً باللغة واستعمالها الصحيح ، ولو أدلى في الأمر برأي فسيكون رأياً مستمداً من البداهة الفطرية .

الحق أن هذا الإختلاف في وجهة النظر إلى اللغة ، إن هو إلا وجه من عدة وجوه لإختلاف أكبر وأوسع ، يُقابَلُ فيه بين « الطبيعة » من ناحية و « الأوضاع الإجتماعية » من ناحية أخرى ، وهو اختلاف شمل عصر بركليس في يونان القديمة شمولاً لم يكد يترك مسألة إلا أدخلها في هذه المقابلة : أيستند الإنسان في حياته الأخلاقية والسياسية والفكرية إلى فطرة الطبع ، فتحكمه قوانين الطبيعة كما تحكم كل شيء ، أم يستند إلى تقاليد المجتمع وأوضاعه كائنة ما كانت ؟

على أن الهدف الرئيسي للمحاورة ليس هو نشأة اللغة ، بل هو المهمة التي تؤديها ؛ فلو كانت اللغة تؤدي مهمتها على الوجه الأكمل لوجب أن تلتزم قواعد وأصولاً ، مع أننا لو أخذنا بوجهة النظر القائلة أن اسم الشيء هو ما يصطلح الإتفاق عليه جزافاً ، لأدّى بنا ذلك إلى موقف تُسلَب فيه اللغة من أصولها وقواعدها الثابتة ، مما لا يتفق مع حقيقتها كما هي قائمة فعلاً .

لقد بدأ هيرموجنيس عرض رأيه ـ في المحاورة ـ في شيء من الإسراف ، فبالغ في قوله أن اللغة جزاف واعتساف ، قائلاً أنه لو أراد هو أن يطلق اسماً على شيء ما ، أصبح هذا الاسم اسماً للشيء عنده هو ، حتى لو خالف به كل المتحدثين باللغة ، فلو أطلق اسم « حصان » على ما قد اتفق بقية الناس على تسميته « إنساناً » لأصبحت كلمة « حصان » هي الاسم الصحيح في لغته هو الخاصة ، كما أن اسم « إنسان » هو الاسم الصحيح للكائن نفسه عند سائر الناس .

وهنا تنشأ مسألة شائكة ، وهي : الاسم جزء من جملة ، والجملة من الجمل تكون أما صادقة وأما كاذبة ؛ فهي صادقة إذا حكَت عن واقع حقيقي ، وكاذبة إذا كانت على خلاف ذلك ؛ لكننا إذا قلنا عن الجملة الواحدة أو عن الفكر المؤلف من عدة جمل إنه اما صادق وأما كاذب ، فكذلك ينبغي أن تكون الحال بالنسبة إلى كل جزء من أجزاء الجملة ؛ فكل جزء من أجزاء جملة صادقة لا بد أن يكون بدوره صادقاً ؛ فكيف يكون الصدق أو الكذب بالنسبة إلى الكلمة الواحدة إلا إذا افترضنا بأن هنالك من الكلمات ما هو صحيح بطبيعته وما هو مغلوط بطبيعته ؟ وأن سقراط ليدلي في هذا الموضع من المحاورة برأي سديد ، إذ يقول : أن اللغة نشاط « اجتماعي » فهي في أساسها أداة للتفاهم بين عدة أفراد في مجتمع واحد ؛ فلو أطلقتُ أنا وحدي اسماً على شيء مّا ، ثم زعمت أنه الاسم الصحيح بالنسبة لي ، على الرغم من اختلافه عما قد تواضع الناس عليه في تسمية ذلك الشيء ، لما أدت اللغة عندئذ مهمتها الإجتماعية ؛ وبهذا جاز لنا أن نقول عن اسم مّا أنه باطل حين نقصد بالبطلان أنه يعوق عملية التفاهم .

على أن هذا الرأي يُبطل أن تكون الأسماء من وضع فرد واحد يضعها لإستعماله الخاص ، لكنه لا يُبطل أن تكون الأسماء من وضع جماعة بعينها ، وأنه لا فرق بين اتفاق واتفاق ، فلا فرق بين لغة اليونان ولغة الهمج ، ما دامت كل منهما اتفاقاً يسري بين أبنائها ؛ وإن تعدد اللغات في شعوب الأرض لهو وحده دليل كاف على أن اللغة إن لم تكن مقصورة على اصطلاح الفرد الواحد بينه وبين نفسه ، فهي اصطلاح تصطلح عليه كل جماعة على حدة .

لكنه إذا كانت أسماء الأشياء مرهونة بأي اتفاق شاءت الجماعة أن تتواضع عليه ، فليس الأمر كذلك بالنسبة لحقائق الأشياء ذاتها ؛ نعم أن بروتاجوراس قد ذهب إلى أن حقيقة أي شيء هي أمر نسبي يختلف من شخص إلى شخص حسب طريقة إدراك الشخص المعين للشيء ، لكننا نغضُّ النظر الآن عن مثل هذا الرأي ، ونقرر أن حقائق الأشياء ثابتة ، وليست هي بالأمر المرهون باتفاق الناس واصطلاحهم ؛ لكن أليست ضروب الفاعلية الإنسانية هي من بين الأشياء ؟ وإن كانت كذلك ، ألا يكون لها « طبيعة » خاصة بها و « حقيقة » ثابتة لها ؟ إننا إذا أردنا أداء فعل معين يحقق هدفاً معيناً ، لم يكن لنا الإختيار في طريقة أدائه ولا في الأداة التي نستخدمها في فعله ؛ بل يتحتم علينا أن نراعي طبيعة الشيء الذي نصبُّ عليه الفعل ، كما نراعي نوع الأداة المستخدمة ، فشقُّ الخشب مثلاً له طريقة خاصة وأداة خاصة ، وهكذا ؛ لكن « الكلام » عن الأشياء ، وإطلاق « أسماء » على الأشياء هو ضرب من الفاعلية ولا شك وإذن فليس هو متروكاً لنزواتنا وأهوائنا ، بل هو ملزم باصطناع طريق خاص وأداة خاصة ، فإذا أسمينا

---

(١) منقول عن كتاب « جابر بن حيان » لبول كراوس ، جزء ٢ ، ص ٢٣٨ .

شيئاً ، تحتم علينا أن نراعي طبيعة ذلك الشيء وأن نراعي في الوقت نفسه طبيعة الأداة - أي الاسم الذي نطلقه - حتى تتفق الطبيعتان معاً .

إن المادة الخامة التي نصوغ منها الكلمات هي الحروف والمقاطع ؛ فلتكن هذه المادة الخامة ما تكون ، ما دامت تمكننا من صياغة الكلمة التي تصلح أداة للشيء الذي تسميه ؛ فالأمر هنا شبيه بالنجار يصنع مغزلاً لغزّال ، فعليه وهو ينجر الخشب أن يضع نصب عينيه طبيعة الغزل لكي تجيء الأداة صالحة لها ، وله أن يتخذ أي مادة يختار ، ما دام هذا الهدف نصب عينيه ؛ وكذلك الأمر في اللغة ؛ فواضعها له الحق في اختيار ما شاء من الحروف والمقاطع ، ما دام يضع نصب عينيه طبيعة الأشياء التي توضع اللغة لها ؛ وهذا يفسر تعدد اللغات ، مع اشتراكها جميعاً في كونها لغات طبيعية تتفق مع طبائع الأشياء ؛ كما يفسر تفاوت اللغات في قوة الأداء ، فأكملها هي أقربها إلى مسايرة الأشياء على طبائعها الحقيقية - وأذن فقد كان أقراطيلوس على صواب في وجهة نظره عن اللغة ، وكان هيرموجنيس على خطأ .

الحروف وطبائع الأشياء :

كان عالمنا الفيلسوف جابر بن حيان على نفس الرأي الذي عبر عنه أقراطيلوس ، من أن اللغة مسايرة للطبائع ؛ فهو في ذلك يقول : « انظر إلى الحروف كيف وضعت على الطبائع ، إلى الطبائع كيف وضعت على الحروف ، وكيف تنتقل الطبائع إلى الحروف والحروف إلى الطبائع »[1] - والمعنى واضح ، فلكل حرف ما يقابله من طبائع الأشياء .

ولا يقف جابر - بالطبع - عند هذه التعميمات التي لا تفيد كثيراً ، بل يوغل في التفصيل الذي سنورد بعضه ونهمل بعضه مضطرين لضيق المقام ؛ ونسبق ترتيب الكتاب لنقول في هذا الموضع أن موجودات الطبيعة هي أما حيوان وأما نبات وأما حجر ، وهذه مركبة كلها من العناصر الأولية الأربعة : النار والهواء والماء والأرض ، وكل عنصر من هذه العناصر يتألف من اتحاد اثنتين من الكيفيات الأربع : الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ؛ فمن الحرارة واليبوسة معاً تتكون النار ، ومن الحرارة والرطوبة معاً يتكون الهواء ، ومن البرودة واليبوسة معاً تتكون الأرض ، ومن البرودة والرطوبة معاً يتكون الماء ؛ فإذا عرفنا أي الحروف دال على هذه الكيفية أو تلك ، عرفنا بالتالي الحروف الدالة على العناصر الأربعة ، وعرفنا أخيراً الحروف الدالة على مختلف الطبائع : ويقسم جابر الحروف الثمانية والعشرين إلى مجموعات أربع ، يجعل كل مجموعة منها مقابلة لإحدى الكيفيات الأربع على الوجه الآتي :

الحرارة : ا هـ ط م ف ش ذ .

البرودة : ب و ي ن ص ت ض .

اليبوسة : ج ز ك س ق ث ظ .

الرطوبة : د ح ل ع ر خ غ[2] .

على أن هذا تقسيم كيفي للطبائع من جهة وللحروف التي تقابلها من جهة أخرى ، ولكنه لا بد إلى جانبه من معرفة كمية للمقادير التي تتفاوت بها هذه الكيفيات في تركيبها للأشياء ، وما يقابلها من دلالات كمية للحروف المختلفة ، فما كل حرف ككل حرف آخر في قوته ، ونترك التفصيل في هذه النقطة الآن لنعود إليها عند الحديث على نظريات ابن حيان في علم الكيمياء .

وقد أسمى جابر كتابه الذي أخذ يوازي فيه بين الحروف والطبائع « كتاب التصريف » تشبهاً بما يسميه النحويون تصريفاً ، إذ لا فرق في حقيقة الأمر بين تصريف الكلمات وتصريف طبائع الأشياء ، حسب النظرية التي نحن الآن بصدد بسطها ؛ فلو شاء العالِم أن يحول شيئاً ما ليصيِّره شيئاً آخر فليدرس الأسماء وتصاريفها أولاً ، لينتج له من هذه الدراسة كيف يكون طريق السير في تحويل الأشياء بعضها إلى بعض ؛ يقول جابر أنه لما كان « الكلام كله على الحروف ، ولا كلام إلا بتأليف الحروف ، لم يكن بد من أن يقع في الطبائع مثل ذلك ، فحقيق أن يكون تصريف الطبائع كتصريف الحروف »[3] .

قلنا ان الأصل الذي تكونت منه الموجودات كافة هو الكيفيات الأربع : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ؛ لكن هذه الكيفيات محال أن تقوم الواحدة منها على حدة بمعزل عما عداها ، ولذلك كان لا بد من اتحادها اثنتين اثنتين على الأقل ؛ فالحرارة لا تكون وحدها أبداً ، بل لا بد أن تمتزج بها أما اليبوسة وبهذا تتكون النار ، وأما الرطوبة وبهذا يتكون الهواء ، وكذلك البرودة لا تكون وحدها أبداً ، بل لا بد أن تمتزج بها أما اليبوسة وبهذا تتكون الأرض ، وأما الرطوبة وبهذا يتكون الماء - فما الذي يقابل هذا في اللغة ؟ يقابله أن الحرف الواحد المعزول عما عداه محال على النطق[4] ويكون في حكم المعدوم من الناحية اللغوية ، « فنحن لا نقدر أن نتكلم بحرف واحد حتى نضيفه إلى حرف آخر ، كذلك لا يمكننا وزن طبع واحد إلا باضافته إلى طبع آخر ليتبين »[5] « فكما أن الشيء الواحد لا يكون على أقل من عنصرين (من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة) أو ثلاثة ، ولا يكون على واحد . . . (فكذلك) قولنا كلمة ما مثل محمد وجعفر وغير ذلك من الأسماء ، لا يكون إلا بتراكيب الحروف ، وقد تكون كلمة من حرفين وثلاثة وأكثر من ذلك وأقل ، إلا أن كلمة لا تكون من حرف واحد . . . لأنه لا تكون كلمة أقل من حرفين : حرف النطق وحرف الإستراحة ، فقد وجب أن يكون تركيب

(١) كتاب التصريف .

(٢) كتاب التصريف ، مختارات كراوس ص ٣٩٧ - لاحظ أن طريقة اختيار هذه المجموعات هي أنه أخذ للحرارة الحرف الأول والخامس والتاسع والثالث عشر وهكذا ؛ وللبرودة الحرف الثاني والسادس والعاشر والرابع عشر وهكذا ، ولليبوسة الحرف الثالث والسابع والحادي عشر والخامس عشر وهكذا ، وللرطوبة الحرف الرابع والثامن والثاني عشر والسادس عشر وهكذا ، وترتيب الحروف هو : ا ب جـ د ، هـ و ز ، ح ط ي ، ك ل م ن ، س ع ف ص ، ق ر ش ت ، ث خ ذ ، ض ظ غ .

(٣) كتاب التصريف ، مختارات كراوس ص ٣٩٣ .

(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٥) كتاب الحاصل ، ١٩٦ .

الحروف كتركيب الطبائع في سائر الموجودات »[1] ويقول جابر أيضاً : « كما أن النحويين يعالجون تصريف الكلمات فيردونها إلى أحرفها التي منها نشأت ، فكذلك للفلاسفة تصريف خاص بهم »[2] إذ هم يردون الأشياء إلى بسائطها ؛ فعلم النحو وعلم الطبيعة يتبعان منهجاً علمياً واحداً .

ولا أحسبني أسرف في التأويل والتخريج إذا قلت أن هذا المنهج بعينه هو الطابع المميز لإحدى مدارس المنطق المعاصرة ـ وهي مدرسة برتراند رسل المعروفة باسم « الذَّرِّية المنطقية » وخلاصتها أن العالم الطبيعي من ناحية يقابله عالَم اللغة من ناحية أخرى ، وأنه إذا كان علم الطبيعة الذري قد فتت الأشياء وحللها إلى ذرات ، كل ذرة منها مكونة من كهارب ، فعلم المنطق الذري هو الذي يقابله في عالَم اللغة ، وأذن فالطريق الصواب هو أن يفتت اللغة ويحللها إلى ذرات بسيطة ، يستحيل تحليلها إلى ما هو أبسط منها على الرغم من أن كل ذرة منها قد تكون مؤلفة من أكثر من مقوم واحد ، وهذه الذرات المنطقية هي ما يسمونه بالقضايا البسيطة أو القضايا الذرية ـ لكن حذار أن نفهم كلمة « الذرة » وكلمة « الذرِّي » هنا بالمعنى المادي وإلا لفاتنا فهم الطبيعة والمنطق المعاصرين ، كما يفوتنا أيضاً فهم جابر على حد سواء ؛ إنما الذرة والذرية هنا معناهما لا مادي ؛ فالذرة في علم الطبيعة الحديث قوامها طاقة ، وكذلك القضايا الذرية في منطق برتراند رسل لا يوصل إليها إلا بالتجريد فهي لا ترد في الحديث والكتابة أبداً ، لأن كل ما يرد في الحديث والكتابة قضايا مركبة يمكن تحليلها بالعقل وحده إلى البسائط التي منها تتكون ، وكذلك الأمر في فلسفة جابر بن حيان ؛ فهو ذري بالمعنى الحديث لكلمة الذرة وكلمة الذرية ، لا بمعنى الذرة عند ديمقرطيس مثلاً ، وهو المعنى الذي يجعل من الذرة جسماً ذا حيز وأبعاد ؛ فيكفي أن تتذكر أن جابراً يُحلِّل الطبيعة إلى كيفيات أربع : الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ، وأن هذه الكيفيات أمور مجردة لا وجود للواحدة منها في الطبيعة وجوداً مفرداً ، أقول أنه يكفي ذلك لتعلم أنه حين يرد الطبيعة إلى بسائطها فلا يرتد إلى بسائط مادية بالمعنى الضيق لهذه الكلمة ؛ وكذلك حين يحلل اللغة التي هي القسيم المقابل للطبيعة ، فإنما يحللها إلى أحرف ، والحرف الواحد ـ كما أسلفنا ـ مستحيل على النطق وهو مفرد وحده ، ولا وجود له من الناحية اللغوية ، إلا على سبيل التجريد العقلي .

فهنالك أشياء في عالم الطبيعة ، ثم تَصَوُّرٌ لها ولعناصرها في العقل ، ثم النطق تعبيراً عما قد تصوره العقل ، ثم كتابة هذا الذي نطقنا به ؛ أربع خطوات في مرحلة واحدة ، أو أربع حلقات في سلسلة واحدة ؛ كل حلقة منها تعيد مضمون الحلقة السابقة في صورة أخرى ، لكن جوهر المضمون واحد ، وأذن فمسافة الخلف ليست بعيدة بين الشيء الخارجي في طبيعته ، بين الكلمة المنطوقة أو الكلمة المكتوبة الدالة على ذلك الشيء في طبيعتها ؛ يقول جابر : « إن الأشياء كلها تقال على أربعة أوجه : الأول منها أعيان الأمور وذواتها وحقائقها ، كالحرارة في ذاتها والبرودة في ذاتها ، وإن كانا غير موجودين لنا ، ثم تصوُّر ذلك بالعقل . . . ثم النطق به . . . وذلك يتقطيع الحروف . . . ثم كتابتها »[3] ، ويقول أيضاً في هذا المعنى نفسه : قالت الفلاسفة بأن الكتابة دالة على ما في اللفظ المنطوق ، واللفظ دال على ما في الفكر ، وما في الفكر دال على ماهية الأشياء[4] .

ميزان الحروف :

لو بلغت اللغة حد كمالها المنطقي ـ هكذا قال جابر بن حيان ، وهكذا يقول رودلف كارناب أمام الوضعية المنطقية اليوم[5] ـ لجاءت مفرداتها مقابلة تمام المقابلة لما في الطبيعة من أشياء بما لها من صفات وما بينها من علاقات ، بحيث لا تدل الكلمة الواحدة إلا على مقابل طبيعي واحد ، كما أنه لا يقابل الشيء الواحد في الطبيعة إلا كلمة واحدة في اللغة ، فعندئذ لا نجد كلمة تدل على أكثر من مسمىً واحد ، كما لا تجد شيئاً واحداً يشار إليه بإحدى كلمتين على حد سواء ؛ في مثل هذه اللغة الكاملة منطقياً لا يكون ازدواج معنى ولا يكون غموض . وفي هذا نفسه يقول جابر بن حيان : « إن المسمَّى للأشياء بهذه الأسماء قد ترك أشياء كثيرة بلا أسماء البتة ، وسمى أشياء كثيرة باسم واحد ، وسمى شيئاً واحداً بأسماء كثيرة ، فقال في السيف : السيف والصمصام والباتر والحسام وأمثال ذلك ؛ وجعل في الأول كاسم العين دالاً على معان كثيرة ، كالعين المبصرة وعين الماء وعين الشمس وأمثال ذلك »[6] .

ويلاحظ جابرٌ أن اللغة كما هي قائمة لا تجعل الأسماء وفاق المعاني وبقدر عددها ، إذ يزيد فيها مقدار المعاني على مقدار الأسماء زيادة كبيرة .

وإن جابراً ليتصور الأمر على نحو ما يتصوره فلاسفة التحليل في عصرنا هذا ، إذ يشترط ـ لكي يكون للكلام معنى ـ أن يكون له مقابل في الطبيعة ؛ فهو يقول : « الأشياء كلها تنقسم قسمين : أما نطق وأما معنى (أما كلام وأما مدلولاته) والكلام الذي لا معنى تحته فلا فائدة فيه »[7] .

بل أنه كذلك ليتفق مع فلاسفة التحليل المعاصرين في حقيقة بالغة الأهمية ، ألا وهي أن رجل الفكر العلمي والفلسفي لا يعنيه من اللغة إلا ما كان منها ذا قسيم مقابل في جانب الطبيعة الخارجية ، أعني أن يكون مخبراً بخبر ما عن شيء ما في العالم الخارجي ؛ وذلك لأن من اللغة تركيبات ينطق بها صاحبها لا لينبىء سامعه بنبأ عن أشياء الدنيا المشتركة بينهما ، بل ليعبِّر له عن حالة وجدانية تضطرب بها نفسه من داخل ، كأن يتوجع أو يتمنى أو أن يأمر وينهى ؛ والحق أن رجال المنطق العقلي منذ نشأ هذا المنطق لم يفتهم أن

---

(١) كتاب التصريف ، ٩٥ ب ـ هذه الفكرة موجودة في التراث الفلسفي اليوناني ؛ فهي مشروحة بإسهاب في محاورة ثيتالتوس (فقرة ٢٠١ ب ، وفقرة ٢٠٨ هـ) ففيها يرد القول بأنه لا يمكن النطق إلا بمقطع مؤلف من حرفين أو عدة حروف ؛ وأن الحروف المفردة لا تنطق ولا تُعرف « فكما أن العناصر الأولى التي منها صنعنا وصُنعت الأشياء كلها لا تكون معقولة وهي فرادى فكذلك الأمر في الكلمات » ـ وكذلك يشبِّه أرسطو حروف الكلمات بالعناصر الأولية في الطبيعة . (ميتافيزيقا ١٠٤١ ب) .

(٢) كتاب التصريف .

(٣) كتاب التصريف ، ١٤٠ ب وما بعدها .

(٤) كتاب الخمسين ، ١٣٤ أ وما بعدها .

(٥) ولد سنة ١٨٩١ ، وهو استاذ بجامعة لوس انجلس بامريكا ، ومن أهم كتبه : Philosophy and Logical Syntax .

(٦) كتاب السر المكنون ، ٥٤ ب وما بعدها .

(٧) كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل ، مختارات كراوس ، ص ٨ .

يضعوا هذه الحدود التي تفرق بين ما هو فكر وما ليس هو بفكر ، حين قالوا أن وحدة الفكر هي « القضية » والقضية هي ما يجوز أن يُقضى فيها بحكم عليها إما بأنها صادقة وإما بأنها كاذبة ؛ وبطبيعة الحال لا يكون الصدق أو الكذب ذا معنى مفهوم إلا إذا وصف به نبأ يقرر به صاحبه تقريراً مّا عن شيء ما ، أما إذا تمنّى أو أمَر أو نهى أو صرخ صرخة ألم أو ضحك ضحكة مسرور ، فليس هذا مما يقال عنه أنه صدق أو كذب ؛ وبعبارة مختصرة ، لا يكون الكلام تفكيراً علمياً وفلسفياً إلا إذا كان أحكاماً على أمور الواقع ، وأما ما كان منه تعبيراً عن ذات النفس من داخل فهو أدب وفن وليس علماً ولا فلسفة .

هذا المعنى نراه في قول جابر عن أقوال اللغة إنها مما لا تدخل في اختصاص الفلاسفة إذا كانت أمراً أو نهياً أو طلباً أو تمنياً أو ما إلى ذلك ؛ وأما إذا كانت تحمل خبراً ففيها عندئذ الفائدة العظمى « وقد ينقسم القول إلى المبتدأ والخبر ؛ وأما الخبر فهو الذي فيه الفائدة العظمى . . . وهو الذي يحتمل الصدق والكذب ، وفيه تُدْفَنُ العجائب من الكلام ، من المحال والحق ؛ ومن لم يحسن يقين الأخبار ، ويقايس بعضها ببعض ، فإنه عَريٌّ من علم الفلاسفة والفلسفة . . . »[١] .

« ونقول أيضاً في الشعر والبلاغة الخطيبة ، أنه لا فائدة من علومنا فيها ، ولكنها نافعة في مواضع أُخَر من ترتيب الحروف نفسها »[٢] .

وهذه تفرقة من جابر بن حيان كانت وحدها تكفي لنحييه عالماً فيلسوفاً له من دقة التحليل والتمييز ما يحاول بلوغه أصحاب مدرسة التحليل المعاصرة التي ينتمي إليها كاتب هذا البحث .

نعود فنقول أنه لو بلغت اللغة حد كمالها المنطقي ، لجاءت كلماتها مساوية لأشياء العالم الخارجي ، ثم لجاءت أحرف الكلمات مقابلة لطبائع تلك الأشياء ـ ونحن نتكلم الآن بلسان ابن حيان ـ فلا زيادة فيها ولا نقصان ؛ لكن الذي يحدث فعلاً في اللغة القائمة المتداولة هو أنها بعيدة عن هذا الكمال ، فكلمات زادت حروفها عن الأصل المطلوب ، وكلمات أخرى نقصت حروفها عن الأصل المطلوب ؛ وإذن فالخطوة الأولى التي يتحتم علينا البدء بها ، إذا أردنا أن نستشف طبائع الأشياء الخارجية من أسمائها في اللغة ، هي أن تسقط الزوائد من الكلمة إن كان فيها زوائد ، أو أن نضيف النواقص إن كان فيها ما هو محذوف .

لكننا لكي نحذف أو نضيف ، ينبغي أولاً أن نستوثق من أصول الكلمات ما هي ، ومن الأحرف الزائدة ما هي ؛ فأما الأحرف الزائدة فهي عشرة ، وهي الهمزة ، واللام ، والياء ، والواو ، والميم ، والتاء ، والنون ، والسين ، والألف ، والهاء ـ وهي حروف يجمعها قولك : « اليوم تنساه » .

ويفصل جابر القول في هذه الأحرف الزائدة فيقول[٣] : « أما الميم واللام فمخصوص بهما الاسم ، واللام يصحبها الألف وهما للتعريف . . . وتزاد اللام أيضاً في « الذي » . . . أما الميم فإنها تزاد في مَكْرُم ومُستَضْرَب وما شاكل ذلك . . .

وأما الهمزة فتزاد في أحمد وأفضل وهما اسمان ، وفي أحْسَنَ وأكرَمَ وهما فعلان ؛ وإنما نريك ذلك ـ وليس مقصدنا تعليمك النحو ـ لأن من الأحجار والعقّار والحيوان ما يقع اسمه كالاسم وما يقع اسمه كالفعل ، فنريك الحروف التي هي زائدة في الأفعال وزائدة في الأسماء ، أو زائدة في الأسماء وأصلية في الأفعال ، أو أصلية في الأسماء وزائدة في الأفعال ، ليُحكم على كل شيء بحكمه ، والياء تزاد في « يَعمَلُ »[٤] وهو اسم ، وفي « يَضْرِب » وهو فعل ، والواو تزاد في « جوهر » وهو اسم ، وفي « حوقَلَ » وهو فعل ، والتاء تزاد في « تنضُبُ » وهو اسم ، وفي « تضرب » وهو فعل ، والنون تزاد في « نرجس » وهو اسم ، وفي « نضرب » وهو فعل ، والسين تزاد في « مُسْتَضْرَبُ » وهو اسم ، وفي « اسْتَضْرب » وهو فعل والألف تزاد في « مُضارِب » وهو اسم ، وفي « ضارَبَ » وهو فعل والهاء تزاد في « قائمة » وهو اسم ، وفي « ارْمِهْ » وهو للموقف .

ويضرب لنا جابر أمثلة كثيرة لأسماء مواد يراها هامة في تركيب الدواء ، ليبين لنا أيها نعدّه أصيلاً لا زيادة فيه ، وأيها فيه الزيادة حتى نعمد إلى حذفها قبل أن نحسب ميزان الحروف ، وهو ما نستدل به على طبيعة الدواء المستخرج من المادة المحسوب قدرها بهذا الميزان ؛ ومن قبيل كلامه في هذا الباب قوله[٥] : « ينبغي أن تعلم أن الأثمد سالمٌ ما لم تدخله الألف ولام التعريف ، وكذلك الأبهل من النبات ؛ فأما الأقاقيا فتُسقط الألف الثانية والأخيرة ؛ فينبغي أن يوزن على أنه أ ق ق ى ؛ وأما النحاس والأنزروت فإنهما سالمان إذا سقط منهما الألف ولام التعريف ، وكذلك الذهب والكبريت ، وأما الفضة فتحذف منها كذلك تاء التأنيث . . . الخ » وبعد أن يذكر لنا جابر قائمة طويلة من الأسماء على هذا النحو ، يختم الحديث بقوله : « ولولا أن يطول الكتاب ويسخف ، لأثبتنا فيه ـ كما أثبتنا في كتاب النبات وكتاب الأحجار وكتاب الحيوان ـ من تعديد ما فيها من أنواعها كلها ، ولكن مِلْنا إلى التخفيف وقد علّمناك وجه القياس فيه »[٦] .

هو ـ بالطبع ـ إذ يقرر الأحرف الزائدة في الكلمة ، فإنما يقرر ذلك بعد معرفة مبنى الكلمة في أصلها واشتقاقها ؛ ففي الذهب والفضة ـ مثلاً ـ يقول : « . . . فمعلوم أن الذهب أصل إذ هو بريء من (الزوائد) وصار هجاء الفضة (فضّ) إذ الهاء إنما دخلت للتأنيث ولا ذكر لها »[٧] وعن البنية الأصلية للكلمات يقول : « ومبنى الكلام المنطوق به كله على ثلاثة أوضاع : ثلاثي كقولك جَمَل ، ورباعي كقولك جعفر ، وخماسي كقولك

---

(١) كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل ، مختارات كراوس ، ص ٩ ـ ١٠ .
(٢) نفس المرجع ، ص ١١ .
(٣) الجزء الأول من كتاب الأحجار على رأي بليناس ، مختارات كراوس ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .
(٤) « يعْمَل » و« تنضُب » ليسا من الأسماء المألوفة لنا اليوم .
(٥) نسوق هنا أمثلة قليلة ، فارجع إلى التفصيل في « الجزء الأول من كتابه الأحجار على رأي بليناس » ـ مختارات كراوس ص ١٤٦ ـ ١٥٤ .
(٦) نفس المرجع ، ص ١٥٤ .
(٧) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

جحمرش . . . أما الثلاثي فإنه ينقسم من قِبَل طبعه اثني عشر قسماً ، وهي : أما فَعِل متحرك العين ، كقولك مَلِص ، وأما فُعْل ساكن العين كقولك بُعْد ، وأما فَعَل كقولك جَمَل ، وأما فِعْل كقولك مِلْك ، وأما فُعَل كقولك جُرَذ ، وأما فَعُل كقولك سَبُع ، وأما فَعْل كقولك ضرْب (. . . جزء محذوف من المخطوط . . .) هذا من الفُعِل ، ولم يرد شيء من الأسماء على وزنه ؛ وأما فِعُل فليس ينطق به ، فذلك في الثلاثي .

« وأما الرباعي فإنه ينقسم على خمسة أنواع وهي : أما فَعْلَل كقولك جعفر ، وأما فِعْلِل كقولك زِبْرِج ، وأما فُعْلُل كقولك صُبْرُج ، وأما فِعْلَل كقولك دِرْهَم ، وأما فِعَلّ كقولك قِمَطْر ، فهذا في الرباعي » .

« والخماسي يكون على أربعة أمثال ؛ وهي : فَعْلَلِل مثل جحمرش ، وعلى فَعَلَّل مثل خزَعْبل ، وعلى فِعْلَلّ مثل جِردَحْل ، وعلى فُعَلِّل مثل قُذَعْمِل »[1] .

فقد تتفاوت أسماء الأشياء في عدد حروفها ، لكن أصولها تكون على واحد من الأوضاع الثلاثة السالف ذكرها ، يقول جابر : « إنه لا يخلو الشيء المحتاج إلى معرفة وزنه من أن يكون على حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة أو ثمانية أو تسعة أو عشرة ؛ وما أقل ما يقع شيء من العشرة أو التسعة ، ولكنا ذكرناه استظهاراً واحتراساً من ذم الطاعنين أن ذلك إنما عملناه على حسب الهوى والعادة ، ولسنا نفعل ذلك في علم من العلوم ، ولكن على ما يوجبه حكم النظر وصحة التفتيش والقياس الغير مضطرب ولا مشوب بإهمال النظر . . . »[2] ـ وفي هذه الفقرة ما يدل على دقة جابر وعلى حرصه في البحث والنظر ؛ ويهمنا أن نلفت نظر القارىء إلى دفعه عن نفسه نقيصة الجري في بحثه العلمي على حسب الهوى والعادة ، وإلى التزامه صحة التفتيش والقياس الذي لا يتعرض للخطأ والإهمال .

على أن حروف الكلمة الكاشفة عن طبيعة مُسمّاها ، لا تتكافأ في قوتها ولا في مقدارها ؛ فمن الحروف ما يدل على ظاهر الشيء ومنها ما يدل على باطنه ؛ وكذلك من الحروف ما يقابل في الوزن أكثر من غيره ؛ يقول جابر : « . . . إن في الحروف الواقعة على الأدوية وغيرها من الثلاثة الأجناس (النبات والحيوان والحجر) ما ينبىء عن باطنه ولا ينبىء عما في ظاهره ؛ وفيها ما هو بالعكس مثل أن ينبىء عما في الظاهر ولا يدل على الباطن ؛ وفيها ما يوجد جميعاً فيها ؛ وفيها ما يدل على ما فيها (ظاهراً وباطناً) وزيادة تحتاج إلى أن تلقّى ويُرمَى بها ، كما يحتاج الناقص إلى أن يتم ويُزَيَّد . . . . »[3] .

هذا من حيث دلالة الحروف على الأشياء ظاهراً ، أو باطناً ، أو ظاهراً وباطناً معاً ، أو ظاهراً وباطناً معاً مضافاً إليهما زيادة يستغنى عنها ، أو محذوفاً منها ما يستوجب الإضافة لتكمل للشيء طبيعته ؛ وأما تفاوت الحروف في موازينها فالكلام فيه طويل عريض ، لأن أساس الصنعة عند جابر هو ضبط هذا الميزان لحروف الكلمة ، لكي ينضبط بالتالي ميزان المادة التي يتناولها

بالتحويل والتركيب في تجاربه ؛ وحسبنا في هذا الموضع أن نقول أنه يقسم الحروف سبع مجموعات تندرج في موازينها ، ويطلق على كل مجموعة منها اسماً يدل على منزلتها[4] وذلك على النحو الآتي :

١ ـ مرتبة : ا ب ج د .
٢ ـ درجة : هـ و ز ح .
٣ ـ دقيقة : ط ى ك ل .
٤ ـ ثانية : م ن س ع .
٥ ـ ثالثة : ف ص ق ر .
٦ ـ رابعة : ش ت ث خ .
٧ ـ خامسة : ذ ض ظ غ .

على أن كل حرف في إحدى المنازل يساوي ما تحته أربع مرات ، فالألف تساوي الهاء مكررة أربع مرات ؛ والهاء تساوي الطاء مكررة أربع مرات ، وهكذا ؛ وكذلك الياء تساوي الواو مكررة أربع مرات ، والواو تساوي الياء مكررة أربع مرات ، وهكذا ، وعلى هذا المنوال قِسْ بقية الحروف[5] .

ولقد يفيدنا أن نسبق ترتيب السياق في هذا الكتاب فنقول في هذا الموضع أن الأعمدة الأربعة في القائمة التي أسلفناها هي التي تقابل الكيفيات الأربع في الطبيعة :

فالحرارة يقابلها : ا هـ ط م ف ش ذ .
والبرودة يقابلها : ب و ى ن ص ت ض .
واليبوسة يقابلها : ج ز ك س ق ث ظ .
والرطوبة يقابلها : د ح ل ع ر خ غ .

وستكون لنا عودة إلى هذه الكيفيات عندما نتحدث عن الطبيعة ومقوماتها في الفصلين التاليين .

اختلاف اللغات :

إذا كانت الكلمة من كلمات اللغة دالّة بذاتها على طبيعة مسماها ، بحيث يكفي أن تحسب حساب حروفها لتعرف مم يتركب ذلك المسمى ، فإن سؤالاً ينشأ لنا على الفور ، وهو ما يأتي : إن لغات الناس المختلفة شعوبهم مختلفة ، فليس اللسان العربي هو اللسان الناطق وحده على هذه الأرض ، بل أن هنالك إلى جانبه لساناً للفرس وآخر للروم وهلم جرا ، فأيُّ الكلمات في هذه اللغات المتباينة يكون هو الدالُّ على طبيعة المسمى ؟

وقد كان محالاً بالطبع أن تفوت هذه المشكلة على عالِم مثل جابر بن حيان ؛ فتناولها بالبحث في كتابه « الحاصل »[6] إذ يعرض المشكلة بقوله : « إنّا نجد الأشياء باللغات المختلفة تختلف ، وإذا وجد اختلافها في الكتب ، وجب اختلاف ما علّمناك (أي ما قد وَرَد في كتبه السابقة على كتاب

(١) كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل ، مختارات كراوس ، ص ١٢ ـ ١٣ .
(٢) كتاب الحاصل ، مختارات كراوس ، ص ٥٢٤ .
(٣) الجزء الأول من كتاب الأحجار على رأي بليناس ، مختارات كراوس ، ص ١٣٢ .
(٤) الجزء الثاني من كتاب الأحجار على رأي بليناس ، مختارات كراوس ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .
(٥) كتاب الخواص الكبير ، المقالة الأولى ، مختارات كراوس ، ص ٢٣٩ .
(٦) راجع مختارات كراوس ، ص ٥٣٥ ـ ٥٣٨ .

الحاصل » وانتقض الأصل الذي رتّبناه على الطبائع قياساً بها . . . » .

ويمضي جابر بعد ذلك يعرض على قارئه أسماء الأحجار الرئيسية بلغات مختلفة ، فيقول : « إنّا نجد الأحجار السبعة التي هي قانون الصنعة يعبّر عنها باللغة العربية أنها الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزيبق والأسرب ؛ ووجدنا يعبّر عنها باللسان الروميّ ما يوجب نقض الأول أو نقض بعضه وائتلافه مع بعض في حروف وأشخاص لا في أنواع وأجناس ؛ وذلك أني وجدتها يعبّر عنها بأن يقال للذهب رصافي ، وللفضة اسمى ، وللنحاس هركيا ، وللحديد سيداريا ، وللرصاص قسدروا ، وللزيبق برسري ، وللأسرب رو ؛ وهذه بينها وبين العربي بون ليس باليسير ، أما لطول كلامها وكثرة حروفها ، وأما لاختلاف مواقع الحروف بين نطق العرب بالسين والرومي بها ، ولعلل أخَر مما جانس ما ذكرناه ؛ ووجدت هذه الأحجار باللسان الإسكندراني تخالف الاثنين ـ أعني العربي والرومي ـ أيضاً ؛ وكان هذا أزيد في إيقاع الشك في نفوس المبتدئين والمتعلمين ، وذلك أني وجدتهم يسمون الذهب قربا ، والفضة كوما ، والنحاس جوما ، والحديد ملكا ، والرصاص سلسا ، والزيبق خبتا ، والأسرب قدرا ؛ ووجدت هذه أيضاً ربما وافقت الشيء من ذلك في الخاص لا في العام ؛ ووجدت الفارسي أيضاً يخالف الثلاثة بأسرها ؛ وذلك أني وجدتهم يدعون الذهب زر ، والفضة سيم ، والنحاس رو ، والحديد آهن ، والرصاص أرزيز كلهي ، والزيبق جيبا ، والأسرب بلبل (هذه الكلمة الأخير غير واضحة في المخطوط) .

« ولقد تعبتُ في استخراج الحميريّ تعباً ليس بالسهل ، لأني لم أر أحداً يقول أنه سمع من يقرأ به فضلاً عن أن أرى من يقرأ به ، إلى أن رأيت رجلاً له أربعمائة سنة وثلاث وستين سنة (؟!) فكنت أقصده ، وعلّمني الحميري ، وعلمني علوماً كثيرة ما رأيت بعده مَن ذكرها ولا يحسن شيئاً منها ـ قد أودعتها كتبي في المواضع التي تصلح أن أذكرها فيها ـ وذلك إذا سمعتنا نقول : « قال الشيخ الكبير » فهو هذا الشيخ ؛ وإذا قرأت كتابنا المعروف بالتصريف ، فحينئذ تعرف فضل هذا الشيخ وفضلك أيها القارىء والله أعلم أنك أنه هو . . . »[1] .

« ولنعد الآن إلى غرضنا الذي كنّا به وأقول : إني وجدت الحميريّ أيضاً أشد خلفاً لسائر اللغات مما تقدم وذلك أني جدت الذهب في لغتهم ـ على ما علّمني الشيخ ـ يدعى أوهسمو ، والفضة هلحدوا ، والنحاس بوسقدر ، والحديد بلهوكت ، والرصاص سملاخر ، والزيبق حوارستق ، والأسرب خسحدعز ؛ فيا ليت شعري كيف يصل العالم من كتب الفلاسفة في علم الموازين إلى إيضاح هذا الخلف ؟ . . . » .

لقد أوردت هذا النص الطويل لأبيّن به كيف أن جابراً لم يغفل عن مشكلة تعدد اللغات ، ولأبين في الوقت نفسه منهجه العلمي في تقصّي الأمور ، فقد أراد أن يعلم إلى أي حد تتشابه اللغات المختلفة وإلى أي حد تتباين في تسميتها للشيء الواحد المعين كالذهب مثلاً ، فاستعرض العربية والرومية والإسكندرانية والفارسية والحميرية ؛ بل أنه بالنسبة إلى هذه الأخيرة لما لم يجد أحداً يعرفها راح يسعى حتى وجد الشيخ الذي قصّ علينا قصته .

وقد انتهى البحث بجابر إلى أحد حلّين : أولهما هو : « أن تمتحن الأدوية والعقاقير في العربي ، ثم في الفارسي ، ولسان لسان مما ذكرناه . . . فأيها صحّ فالزمه في سائر تدبيراتك » . والحل الآخر هو أن يعمل في كل عمل بلسانه .

أما الحل الأول فمقتضاه ألا يقصر الباحث نفسه على لغة واحد ، بل يختار من مختلف اللغات مجموعة الأسماء التي تدل التجارب على أنها دالّة على طبائع مسمياتها دلالة واضحة ؛ فلا ضير على العالِم في هذه الحالة أن يستعمل للذهب ـ مثلاً ـ اسمه العربي ، ثم يستخدم للنحاس أو الرصاص اسمه الفارسيّ أو الرومي ؛ وأما الحل الثاني فمؤداه أن يلتزم الباحث لغة واحدة بحذافيرها في شتى أبحاثه ، وسيجد أن كل لغة مكتفية بذاتها في الدلالة على طبائع الأشياء ، لأن حقائق الأشياء ثابتة لا تتعدد بتعدد اللغات ، لكن جابراً يروي الرأي الثاني نقلاً عن فيلسوف لم يذكر اسمه ، ثم يرفضه ، لأنه يرى أنه ما دامت كلمات اللغات المختلفة مختلفة البنية ، فلا يعقل أن تكون كلها على حد سواء في الدلالة على حقائق الطبيعة ، وهذي هي عبارة جابر في ذلك : « وسمعت بعض الفلاسفة من فلاسفة زماننا يقول في ذلك الوجه أن يُعمل في كل عمل بلسانه ؛ وليس القول كما ظن هذا الرجل ، إذ كان الحق لا يكون في وجهين مختلفين »[2] .

وخلاصة القول أن الرأي عند ابن حيان في اللغة هو أنها نتاج ظهر بالطبع لا بالإتفاق العرضي ، ولهذا فهي ذات دلالة أصيلة على حقائق مسمياتها ؛ فهو يقول : « . . . وهل ذلك (أي كلمات اللغة) بالإصطلاح على ما جاء واتفق أو بقصد طبيعي نفساني ؟ وهل ذلك عَرَضٌ أو جوهر ؟ فأقول : القول بأنها وضع واصطلاح وعرَض خطأ ، لأنه جوهر بالطبع لا بالوضع ، لكنْ بقصد نفساني ، لأن الأفعال النفسانية جوهرية كلها . . . فالحروف التي هي هيولى الكلام ابتداع نفساني »[3] ؛ ويقول أيضاً : « إذا كان قد ظهر أن لكل شيء موجود فعلاً مّا ، فليعلم أن للإنسان خاصّة أكثر الأفعال وأكبرها ؛ فليعلم ضرورةً أن عمله واستخراجه علم المنطق والنحو والهندسة والطب والنجوم ـ وإن كان موضوع كثير منها باطلاً ـ فإن جميع ذلك حق ؛ وغير مدافع أن الكلام وتأليف الحروف وعمل أشكالها من تأليف الإنسان ، إلا أنها قد وقعت بالطبع . . . فغير شك إذن أن الكلام ونظم الحروف له طبع ما ، إذ كان كل موجود له طبيعة ما ، وهذا موجود »[4] .

(١) اعتقد أنه يقصد بقوله : « أيها القارىء » سيده جعفر الصادق الذي طالما يوجه إليه الخطاب .

(٢) كتاب الحصال ، مختارات كراوس ، ص ٥٣٨ .

(٣) كتاب الخمسين ، مقالة ١٤ ، ورقة ٢١٣ ب وما بعدها (پول كراوس هامش ص ٢٥٦) .

(٤) كتاب السر المكنون ، ورقة ١٥٤ وما بعدها (پول كراوس هامش ص ٢٥٧) قارن الجزء الأخير من الفقرة المذكورة بما جاء في هذا المعنى في محاورة أقراطيلوس التي لخصناها لك في « ب » من هذا الفصل ، وستجد التشابه تاماً .

فلسفة الكون

مراحل الكون :

يرى جابر أن أول ما كان في الأزل هو العناصر الأولية الأربعة : الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ؛ فهذه هي « أوائل الأمهات البسائط » كما يسميها ؛ ثم طرأت على هذه البسائط حركة وسكون ، فتكون منها تركيبات منوعة ، ولولا الحركة والسكون لظلت تلك الأصول الأولى مستقلاً بعضها عن بعض ، كل منها خالص لنفسه وقائم برأسه ؛ لكن الحركة والسكون وحدهما لا يكفيان لخروج هذه الكائنات التي نراها من حيوان ونبات وحجر ، بل لا بد كذلك من مبدأ الكمية يدخل في عملية الامتزاج ، لأن الأشياء إن تشابهت في خروجها أساساً من تلك الأمهات الأربعة ، فهي تعود فتختلف حيواناً ونباتاً وحجراً باختلاف المقادير التي تدخل في تكوينها من كل عنصر من العناصر الأولية ، فقد تزيد الحرارة هنا وتقل هناك ، وقد تزيد اليبوسة في شيء عنها في شيء آخر ، وهكذا ، وإذن فمراحل الوجود على وجه الاجمال هي : كيفيات ، فحركة وسكون ، فكمية ، بهذا الترتيب .

فليس يذهب جابر مع الذاهبين إلى أن تلك العناصر الأولية الأربعة قد سبقها إلى الوجود هيولى خلو من الكيف ـ وهو المذهب الأرسطيُّ ـ ثم جاءت العناصر الأربعة فروعاً متفرعة عن الهيولى الخالصة ، بأن اكتسبت تلك الهيولى الساذجة كيفية مَّا فصارت حرارة ، وكيفية أخرى فصارت برودة ، وكيفية ثالثة فصارت يبوسة ، وكيفية رابعة فصارت رطوبة ؛ ويقول أنصار هذا المذهب ـ كما يرويه عنهم جابر ـ أن الهيولى اكتسبت أول ما اكتسب الأقدار الثلاثة : الطول والعرض والعمق ؛ فصارت الهيولى بهذه الأبعاد الثلاثة جسما ذا ثلاثة أبعاد ؛ وبعدئذ خُلقت فيه الكيفيات الأربع المذكورة فنشأت طبائع الأشياء وأركان الخليقة ؛ ثم تركبت هذه الطبائع الأربع ، وامتزج بعضها ببعض ، فكانت منها جميع هذه الأشخاص والأشباح الموجودة في العالم.

يعرض جابر هذا المذهب موجزاً ليتناوله بالنقد، مقيماً الدليل على استحالة أن يكون قد سبق الأصول الأربعة شيءٌ خلو منها ؛ وإلا فكيف يجوز عند العقل أن يكون نفس المصدر الذي نشأت عنه النار هو الذي خُلِق منه الماء ؟ ان هيولى الشيء هو ما قد تركَّب منه ذلك الشيء ، فهل يتركَّب الماء والنار ـ وهما ضدان ـ من هيولى واحدة ؟ يقول جابر مخاطباً أصحاب الرأي القائل بأن أصل العالم هيولى لا كيف لها : لقد زعمتم أن أولى مراحل الخلق طينة أزلية لم تكن جسماً ، ولا كانت موصوفة بصفة مما توصف به الأجسام ، وزعمتم أن تلك الطينة هي أصل الأشياء وعنصر البرايا ؛ ومحال علينا أن نتصور بخيالنا هذه الطينة ولا أن نعقلها ؛ ثم قلتم إن المرتبة الثانية هي أن قد اتخذت تلك الطينة الأزلية أبعاداً ثلاثة ، فصارت بها جسماً ، لكنه جسم غير موصوف بشيء من حر أو برد أو رطب أو يابس أو لون أو طعم أو رائحة أو حركة أو سكون ، لأن هذه كلها كيفيات ، والكيفيات لم تكن قد طرأت عليها بعد ؛ وهذا أيضاً شيء غير معقول ؛ ثم زعمتم أن الكيفيات الأربع قد حدثت بعد ذلك ، وأعني بها : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ؛ ومنها نشأت الطبائع الأربع التي هي النار والهواء والماء والأرض ؛ لكن هذا القول هو بمثابة قولنا إن شيئاً خرج من لا شيء ؛ فهل كان يجوز أن يخلق الماء من نفس الشيء الذي خلقت منه النار؟ انكم إذا أجبتم بالايجاب كنتم تجيبون بما هو محال؛ وذلك أن كل شيء ركِّب منه شيء فهو هيولى لما تركَّب منه ؛ فمن أمثلة ذلك قولنا إن نطفة الإنسان هيولى الإنسان ونطفة الحمار هيولى الحمار ، وإنا لنزعم أنه محال أن تقبل نطفة الإنسان صورة الحمار ، لأنها ليست بهيولى لها ؛ وكذلك محال أن تقبل نطفة الحمار صورة الإنسان ؛ فوجب على هذا القياس أن يكون الشيء الذي يقبل صورة النار هو هيولى لها ـ فمحال أن يقبل صورة الماء وأن يكون هيولى له .

ويستطرد ابن حيان في مخاطبة أصحاب مذهب الهيولى الواحد ، فيقول عنهم إنهم قالوا : إنَّا نجد الماء يستحيل فيصير ناراً ، فيكون الجوهر الحامل لكيفياته وحالاته هو نفسه الجوهر الحامل لكيفيات النار وحالاتها ؛ فما جاز على الأول جاز على الثاني ، والذي تغيَّر في الحالتين هو الأعراض ؛ فكذلك الهيولي القديم واحد ، وهو حامل لكيفيات الماء وحالاته ان حدثت فيه ، وحامل لكيفيات النار وحالاتها ان هي حدثت فيه ؛ نقول إنهم إن قالوا ذلك قلنا : إن الماء ليس يستحيل دفعة واحدة فيصير ناراً ، بل هو يتدرج في ذلك ، فيتحول أولاً إلى بخار ، ثم يصير البخار هواء ، ثم يتحول الهواء فيصير ناراً ، فلو قال قائل : إن الماء يستحيل هواء فيصير ناراً ، لأهمل بذلك مرحلة البخار التي ينتقل خلالها من حالة الماء إلى حالة الهواء ، فيصبح قوله غير معقول ؛ وهكذا قولكم ـ يا أصحاب مذهب الهيولى ـ كان يكون معقولاً لو أنكم جعلتم الماء والنار يصدران عن هيولى بسيط أزلي على النحو المتدرج الذي أسلفناه ؛ لكنكم لم تقولوا ذلك ، بل قلتم : كان يجوز أن يكون الهيولى الذي استحوذت عليه طبيعة الماء وحالاته ، تستحوذ عليه ـ بدلاً منها ـ طبيعة النار وحالاتها بغير استحالات متوسطة فيما بين الماء والنار ، وهذا خلاف المعقول .

ويمضي ابن حيان في تفنيد دعوى أصحاب مذهب الهيولى ، فيقول : إنهم إن زعموا أن الهيولى القديم ـ قبل أن يكتسي بالصور ويكتسب الطبائع ـ كان شيئاً له القوة على قبول حالات النار وكيفياتها بجانب من جوانب تلك القوة ، وبجانب آخر يقبل حالات الماء وكيفياته وبثالث يقبل حالات الهواء وكيفياته ، وبرابع يقبل حالات الأرض وكيفياتها . . ان زعموا ذلك عن الهيولى القديم ، كانوا بهذا الزعم قد أثبتوا للخليقة أربعة عناصر أزلية قديمة ، وهي مختلفات القوى ، وبطل قولهم إن العنصر الأول واحد ليس بمختلف .

وتسألهم : هل يجوز انحلال الأشياء إلى الهيولى القديم كما تركَّبت منه ؟ فان قالوا : لا يجوز هذا ، سألناهم : ولِمَ لا يجوز؟ فان قالوا : إن ذلك بطلان الأشياء ورجوعٌ بها إلى الإليِّ البسيط الذي لا تركيب فيه ، قلنا : وما ضركم أن تقولوا إن الأشياء تعود إلى الأزليِّ البسيط الذي لا تركيب فيه ويبطل هذا العالم ؟

ومما يدل على فساد قولهم بأن أول الخلق هيولى بسيط لا كيف فيه ، أن الفلاسفة قد بينوا لنا استحالة وجود جوهر عطلاً من الأفعال كلها ـ الطبيعية منها والصناعية ـ بحيث يكون ذلك الجوهر غير ذي فعل في نفسه أو في غيره ؛ مع أن الهيولى التي زعم هؤلاء القوم أنه أزلي بسيط ، وأنه الجوهر الأول ، هو في الحقيقة عطل من الأفعال كلها ـ الطبيعية والصناعية وهو أمر مستحيل على البرهان العقلي ، كما أنه بالبداهة مستحيل أيضاً على الاثبات بطريق الإشارة .

فإذا كان هذا هكذا ، انتهينا إلى الرأي الذي نأخذ به ، وهو أن الأصل الأول هو الطبائع الأربع : الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ؛ فهذه لم تنفعل لشيء سبقها فيما عدا الباريء جل ثناؤه .

تقسيمات رباعية :

من هذه الأصول الأربعة الأولى : الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة نشأت أربعة عناصر ، وذلك باجتماع تلك الأصول بعضها ببعض اثنين اثنين ؛ فقد اجتمع الحار واليابس فنشأت النار ، واجتمع الحار والرطب فنشأ الهواء ، واجتمع البارد واليابس فنشأت الأرض ، واجتمع البارد والرطب فنشأ الماء ؛ على أن هذه العناصر الأربعة إنما يتفاوت ترتيبها علواً وسفلاً على الوجه الآتي : فالنار أعلاها ، ويتلوها الهواء ، ثم الماء ، وأخيراً الأرض .

وفصول السنة أربعة تقابل تلك العناصر الأربعة ، فالصيف يقابل النار ؛ والربيع يقابل الهواء ، والشتاء يقابل الماء ، والخريف يقابل الأرض .

وفي بدن الإنسان أخلاط أربعة تقابل العناصر الأربعة ، فالصفراء تقابل النار وزمانها القيظ ، والدم يقابل الهواء وزمانه الربيع ، والبلغم يقابل الماء وزمانه الشتاء ، والسوداء يقابلها الأرض وزمانها الخريف ـ وسيكون لتحديد الأزمان الملائمة لكل من هذه الأخلاط الأربعة شأن في العلاج الطبي للأمراض التي تطرأ على هذا الجزء أو ذاك ، كما سنرى عندما نتعرض لأهمية التحديد الزمني عند جابر ـ والتحديد الزمني للظاهرة إنما يتقرر بأوضاع النجوم في أفلاكها .

وللإنسان كذلك أعضاء رئيسية أربعة ، هي : الدماغ والقلب والكبد والأنثيان (؟) ؛ يقابل كلّ عضو منها جانباً خاصاً من التقسيمات الرباعية السالفة الذكر ؛ فالقلب في الأعضاء يقابل الصفراء في الأخلاط ، ويقابل القيظ في الفصول ، ويقابل النار في العناصر ، والنار بدورها مؤلفة من الحرارة واليبوسة وهما من البسائط الأولية ؛ والدماغ في الأعضاء يقابل البلغم في الأخلاط ، ويقابل الشتاء في الفصول ، ويقابل الماء في العناصر ، والماء بدوره مؤلف من البرودة والرطوبة وهما من البسائط الأولية ؛ والكبد في الأعضاء يقابل الدم في الأخلاط ، ويقابل الربيع في الفصول ، ويقابل الهواء في العناصر ، والهواء بدوره مؤلف من الحرارة والرطوبة ، وهما من البسائط الأولية ؛ والأنثيان في الأعضاء ، يقابل السوداء في الأخلاط ، ويقابل الخريف في الفصول ، ويقابل الأرض في العناصر ، والأرض بدورها مؤلفة من البرودة واليبوسة وهما من البسائط الأولية .

« هذه هي بنية العالم والطبيعة والإنسان ، فكان العالم ضرورةً إنساناً ، والإنسان جزءاً صغيراً بالإضافة إلى العالم » هكذا يقول جابر تعليقاً وتلخيصاً لهذه التقسيمات الرباعية ، وهو قول بالغ الأهمية في تحديد فلسفته الكونية ، إذ يبيِّن نزعته المشبِّهة ـ التي تشبِّه العالَمَ بالإنسان ـ وهي نزعة تجعل الكون إنساناً كبيراً ، وتجعل الإنسان كوناً صغيراً ، فكل الجانبين يصور الآخر ، كأنما هما خريطتان لشيء واحد ، اتفقتا في طريقة التصوير واختلفتا في مقياس الرسم وحده ؛ يقول كارادي ڤو في مقالته عن جابر : « إن المذهب الموجود في مؤلفاته ـ وفي كتابه الرحمة بصفة خاصة ـ وهو كتاب لا شك في نسبته إلى جابر ـ هو مذهب موغل في إسقاط الصفة البشرية على الطبيعة ، أو ان شئت فقل إنه موغل في بث الحياة في الطبيعة ؛ فهو يعدُّ المعدن كائناً حياً ، ينمو في حضن الأرض مدة طويلة ـ آلاف السنين ـ متحولاً من الحالة الناقصة ـ حالة الرصاص ـ إلى الحالة الكاملة ـ حالة الذهب ؛ ومهمة الكيميا أن تعجل عملية التحول ؛ إنك لترى جابراً يستخدم عن المعادن ألفاظاً مأخوذة من الحياة البشرية ، كالتوالد والزواج والتلقيح والتربية ، كما يستخدم عنها لفظتي الحياة والموت ؛ فالعناصر الأرضية الغليظة « ميتة » والخفيفة اللطيفة « حية » ، وعنده أن كل جسم كيمويٍّ روح بدن ، ومهمة الكيموي أن « يخلِّص » الواحد من الآخر ، لكي يبث في الجسم روحاً تلائمة » .

وعلى ذكر الغلظة واللطافة في تمييز الأجسام ، نعود إلى تقسيماتنا الرباعية فنقول إن الأخلاط الأربعة في الجسم الإنساني : الدم والصفراء والبلغم والسوداء ، تختلف سرعة وبطئا ودقة وغلظاً ؛ فللدم السرعة والغلظ معاً ؛ ألم نقل إنه يقابل في العناصر الهواء ، والهواء مؤلف من بسيطين أولين هما الحرارة والرطوبة ؟ ثم أليست صفة الحرارة هي السرعة وصفة الرطوبة هي الغلظ ؟ إذن فللدم هاتان الصفتان الرئيسيتان : السرعة أخذها من حرارته ، والغلظ أخذه من رطوبته ؛ وعلى هذا النحو قل إن البلغم يتصف بالبطء والغلظ معاً ، لأن البلغم يقابل الماء ، والماء مزيج من برودة ورطوبة ، والبرودة بطء والرطوبة غلظ ؛ والصفراء سرعة ودقة معاً ، لأنها تقابل النار ، والنار مزيج من حرارة ويبوسة ، والحرارة سرعة واليبوسة دقة أجزاء ؛ وأما السوداء فبطء ودقة معاً ، لأنها تقابل الأرض ، والأرض برودة ويبوسة ، والبرودة بطء واليبوسة دقة أجزاء ؛ ولهذه الخصائص شأن كبير في علم الطب عند ابن حيان (٣) .

وليست العناصر الأربعة سواء لا بالنسبة إلى وضعها من الكون ولا بالنسبة من الفاعلية ؛ فلقد أسلفنا القول إنها في وضعها درجات متدرجة : النار في أعلى ويتلوها الهواء فالماء والأرض ؛ ونضيف هنا أن الحرارة والبرودة فاعلان ، وأما اليبوسة والرطوبة فمنفعلان ، بمعنى أن الحرارة تصبُّ فعلها على اليبوسة فتنتج النار ، والبرودة تصب فعلها على الرطوبة فينتج الماء ؛ وكذلك تصبُّ الحرارة فعلها على الرطوبة فينتج الهواء ، وتصب البرودة فعلها

على اليبوسة فتنتج الأرض[١] . ونوضح هذا بالجدول الآتي :

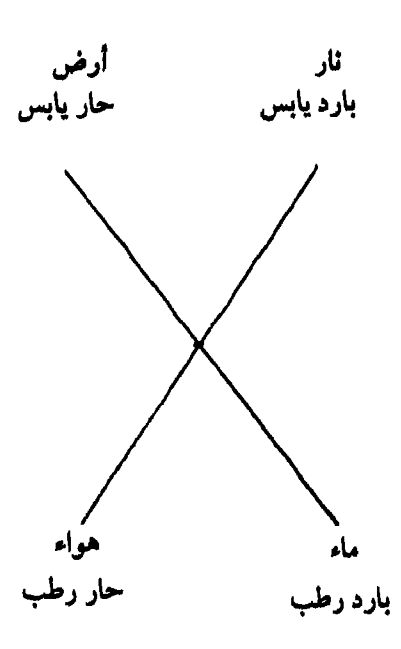
الحرارة فاعلة واليبوسة منفعلة = النار .

الحرارة فاعلة والرطوبة منفعلة = الهواء .

البرودة فاعلة واليبوسة منفعلة = الأرض .

البرودة فاعلة والرّطوبة منفعلة = الماء .

فبين المركبات الأربعة ، النار والهواء والأرض والماء تقابل بعضه ناقص وبعضه تام : فبين النار والأرض تقابل ناقص لأنهما مشتركتان في اليبوسة ومختلفتان في أن النار حارة والأرض باردة ؛ وكذلك بين الماء والهواء تقابل ناقص ، لأنهما مشتركتان في الرطوبة ومختلفتان في أن الماء بارد والهواء حار ؛ أما الأرض والهواء فبينهما تقابل تام لأنهما مختلفتان في كل شيء ، فالأرض باردة والهواء حار ، والأرض يابسة والهواء رطب ؛ وكذلك بين النار والماء تقابل تام ، فالنار حارة والماء بارد والنار يابسة والماء رطب ، ونوضح هذا بالرسم الآتي :



ولما كان الهواء والماء والنار والأرض مركبات ، كل مركّب منها مؤلف من عنصرين أوليين ، كان في مستطاع المجرِّب أن يقيم التجارب ليردَّ كل مركب منها إلى عنصريه البسيطين ؛ فالماء ـ مثلاً ـ برودة ورطوبة معاً ، فإذا أردنا أن نطرح منه رطوبته لنستبقي برودته وحدها ، أمكن ذلك بتجربة نجريها على الوجه التالي : « وجه التدبير أن تلقي الماء في القرعة وتترك في القرعة شيئاً فيه يبس شديد قوي ، كالكبريت وما جانسه ، فإن الرطوبة نشفتها اليبوسة والحرارة ، ويُحرق ما فيه من الرطوبة ، فتبقى البرودة مفردة »[١] وهكذا نستطيع أيضاً أن نتصرف أزاء الحار اليابس ، فننبذ حرارته ونستبقي يبوسته ، أو ننبذ يبوسته ونستبقي حرارته ، حسب حاجتنا فيما نجريه من تجارب علمية .

وعلى الطبائع الأولية الأربع يتوقف كثير من الصفات ، بحيث يكفينا العلم ببعض جوانب شيء ما لنستدل جوانبه الأخرى ، ما دامت صفاته وليدة طبيعته الأولى ، فلو عرفنا هذه استنتجنا تلك ، ولو عرفنا تلك استنتجنا هذه ؛ مثال ذلك أن تلحق صفة الخفة بالحار واليابس ، وصفة الثقل بالبارد والرطب ؛ والحرارة يلحقها العلوُّ كالنار تتجه دائماً إلى أعلى ، والبرودة يلحقها الهبوط إلى أسفل ، كالحجر يتجه دائماً إلى أسفل ، والرطوبة يلحقها الحركة الأفقية فلا هي إلى أعلى ولا هي إلى أسفل ، كالماء ينساح عَرْضاً ، فلو ترك إلى طبيعته لما علا ولا هبط ، بل ركد في سطح مستو ، واليابس شأنه أن يتغلغل في دواخل الأشياء ، كالهواء يتسلل خلال دقائق الشيء ـ فنستطيع ـ إذن ـ أن نقول إن الطول من توابع الحرارة ، والقِصَر من توابع البرودة ، والعَرْض من توابع الرطوبة ، والعمق من توابع اليبوسة[١] .

الفلك وجرم الفلك :

أما الفلك فهو الإطار الخارجي للكون ، وأما جِرْمُهُ فهو ما يملأ ذلك الإطار ؛ والإطار الخارجي ـ عند جابر ـ هو الأوليات الأربعة : الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ، وعلى أساسها تتركب الأشياء بشتى صنوفها ؛ لكن هذه الأوليات الأربعة نفسها ـ كما قدمنا ـ ليست بمنزلة واحدة في إطار الكون ؛ بل فيها اثنان فاعلان هما : الحرارة والبرودة ، واثنان منفعلان هما : اليبوسة والرطوبة ؛ فصوِّر لنفسك كرة تدور على محور ، يكنْ سطح الكرة بمثابة الحرارة ، ويكنْ المحور بمثابة البرودة ؛ فإذا ما دارت الكرة نتج عن دورانها يبوسة ورطوبة ، وبهذا تتكامل الأوليات الأربعة[٢] ، أعني يتكامل « الفلك » أو إن شئت فقل يتكامل الإطار .

وبعدئذ يجيء ما يملأ ذلك الإطار ، وأول ذلك هو الأركان الأربعة التي أسلفنا لك القول فيها ، وهي : النار والهواء والماء والأرض ؛ ولا يفوت جابراً هنا أن ينبِّه إلى أن « الفَلَك » ـ أي الإطار الأول ـ ليس بذي مادة في ذاته ، فهو كالمفاهيم الهندسية : الدائرة والخط والنقطة ، كلها تصورات عقلية ، فالدائرة هي ما يحيط بغض النظر عن الجرم الذي تحيط به ، والخط طول بلا علاض ولا جسم بغض النظر عن طبيعة الشيء الذي يمتد خطًّا ، والنقطة شيء يتصوره العقل لا الحواس ، لأنها هي ما ليس له أبعاد ، وليس فيما تحسه الحواس شيء بغير أبعاد ؛ فكما نقول عن الدائرة إنها تحيط بلا جسم ، فكذلك نقول عن الفلك ـ الذي هو الأوليات الأربعة ـ أنه هو الذي يحيط بالكون دون أن نذكر ماذا عسى أن تكون طبيعة هذا الكون المحوط .

على أنه لا مندوحة لنا من افتراض وجود « جوهر » مًّا ، ليكون هو نواة التكوين ؛ فكأنما هذا الجوهر هو بمثابة طبيعة خامسة تضاف إلى الطبائع الأولية الأربع ؛ « فالجوهر هو القابل لكل شيء ، وهو الذي في كل شيء ، ومنه كل شيء ، وإليه يعود كل شيء كما خلقه بارئه تعالى ربنا ومولانا ، جعله في كلٍّ وكلٌّ إليه راجع »[٣] .

وما نكاد نبدأ في تصور هذا الجوهر كيف يتشكل ويتعيَّن في صور

معلومة ، حتى نرانا ملزمين بالضرورة العقلية أن نفرض قيام ضروب من التشكل والتّعين ، هي التي نسميها بالمقولات ، والتي قسمها أرسطو إلى عشرة ؛ فهل بوسعك أن تتصور شيئاً يتخذ شكلاً معيناً دون أن تفرض أنه لا بد أن يكون ذا كم معلوم ، وذا كيف معلوم ، وذا زمان يحدث فيه ، وذا مكان يتخذ حيّزه في أبعاده ، وذا علاقات متصلة بسواه ، وذا لواحق تتبعه ، وذا وضع يتخذه ، وذا فعل يصبُّه على غيره ، وذا انفعال يتلقى به فعل غيره عليه ؟ هذه إذن هي المقولات العشر التي تفرض نفسها على العقل فرضاً ، إذا أراد هذا العقل أن يتصور أن شيئاً مّا سيطرأ عليه تشكُّل وتعيُّن .

ويحدد جابر المراد بهذه المقولات ؛ فأما الجوهر فهو ـ كما أسلفنا ـ الشيء القابل للتشكل على أي صورة ، فيه كل شيء ومنه كل شيء يتركّب ، وإليه ينحلُّ كل شيء ؛ فلئن اختلف الحيوان والنبات والجماد في خصائص تميزها ، فهي كلها مشتركة في جوهر واحد يدرك بالعقل لا بالحس ، « فليس يمكن أحداً لمسُه ، ولا إذا مسه وجد له لمساً ، ولا يقدر أن يأخذ منه شيئاً بيده »[1] .

هذا الجوهر من شأنه أن يحمل الصفات الأولية : يحمل الحرارة أو البرودة أو اليبوسة أو الرطوبة ، ولئن كانت هذه الصفات الأولية تجريدات وليست أجساماً إلا أنها ذوات وزن ، وأما الجوهر فهو جِرْم وذو وزن ـ نعم أن هنالك من الفلاسفة من يدرجون الجوهر مع الأوليات ويجعلونها بلا وزن ، لكن « هذا كلام مَن لم يستغرق في العلم حق استغراقه ، وإنما نظر فيه صفحاً »[2] « فإنه قد وجب الآن على التحقيق أن للحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة أوزاناً وأن للجوهر وزناً ، لا بد من ذلك ، وإلا فوجب أنَّا إذا جمعنا ما لا يُرى ولا يوجد ـ مثلاً في الحرارة واليبوسة ـ إلى ما لا يُرى ولا يوجد ، ولا وزن لأحد منهم ، لم يكن منه شيء ؛ وكذلك إذا جمعنا لا شيء إلى لا شيء كان من الجمع لا شيء ؛ وكذلك لو جمعنا ما لا يوجد ولا يرى ولا وزن له ـ وهو مثل البرودة واليبوسة ـ إلى ما لا يوجد ولا يرى ولا له وزن ، كان منه شيء لا يرى ولا يوجد ولا له وزن ، وبطل سائر تلك المحمولة عليه ، لأن قولنا : لا يوجد ولا يرى ولا وزن له ، إنما هو حدُّ اللاشيء »

ويمضي ابن حيان في حديثه هذا فيقول : إننا إذ نقول عن الطبائع الأولية أنها لا توجد وعن الجوهر أنه لا يوجد ، فما ذاك إلا لأن كلاً منها لا يوجد منفرداً ، ولا يُرى منفرداً ؛ وإذا حسبنا أنه لا وزن له ، فذلك للطافته ودقته ؛ وأما أن نسمع فلا سفة يُعْدِمون هذه الأشياء وزنها ووجودها ورؤيتها فذلك قول منهم بلغ من الخطأ أقصاه .

وأما الكمية فهي الحاصرة المشتملة على كل ما تقوله عن المقدار العددي لشيء مّا ، وعن الأعداد بصفة مطلقة ، كأن تقول : إن عدداً مساوٍ لعدد ، أو إن عدداً مخالف لعدد ، مع تطبيق هذا التساوي والاختلاف العدديين على الأوزان والمكاييل وما إلى ذلك .

وأما الكيفية فهي التي تتناول الشيء من حيث كونه طويلاً أو قصيراً ، منحرفاً أو قائماً ، حاراً أو بارداً ، وسائر ما فيه من صفات ، فلئن كان الكم منوطاً بمقداره ، فالكيف منوط بأوصافه ، فإذا سألناه عن الأول سألنا بكلمة : كم ؟ وإذا سألنا عن الثاني سألنا بكلمة : كيف ؟ فإذا سألت عن إنسان : كم هو ؟ كان الجواب : هو واحد ، أو سألت كم يكون وزنه ؟ قيل لك إنه كذا وكذا رطلاً ؛ أما إذا سألت عنه بقولك : كيف هو ؟ كان الجواب : هو يقوم ويقعد ويتكلم ويضحك وهو أسمر أو أبيض وأسود أو أحد الألوان ، وله شعر وله جلد وله عروق . . . فما كان من صفة دخل تحت الكيفية ، وما كان من مقدار دخل تحت الكمية .

« وأما الزمان فهو الذي يُقْطَع به من حال إلى حال ، مثل أن تكون قاعداً فأنت في زمانك قاعد ثم تقوم ، فذلك الذي منه ابتداء قيامك من جلوسك هو الزمان ، وهو واحد ما دمت قائماً ، وإذا جلست فهو أيضاً زمان وأنت فيه ؛ والزمان واحد » ، فليس اختلاف أزمنة الحوادث في الأشياء المختلفة بمقتضى التعدد في الزمان من حيث طبيعته ، إذ هو زمان واحد وفيه يحدث التغير من حال إلى أخرى ؛ وللزمان كم وكيف : فكميته هي التي يجاب بها عن مثل سؤالنا : كم مقدار ما كان زيد قاعداً ؟ وأما في الكيف فهو أن تقول : كان الزمان حاراً أو بارداً ؛ ولذلك وجب أن نقدم الكم والكيف على الزمان والمكان .

« وأما المكان فهو الذي ليس يخلو شيء من أن يكون في مكان بتة » فلا مندوحة للشيء عن أن يكون في موضع ما حتى يتاح له أن يحمل هذه الصفة أو تلك .

وأما النبات « فالقول فيه كالقول في الحيوان » وهو حلقة وسطى بين الحيوان في طرف والحجر في طرف آخر ؛ أما أنه كالحيوان فذلك من حيث أن له نفساً وجوهراً وحرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة ، وكلها محصورة في مكان وفي زمان ؛ فلا ينقصه إلا العقل الذي خصصنا به القسم الشريف من الحيوان ، وأعني به الإنسان ؛ « فكل موجود ذو نفس ، وليس ذا عقل » .

هذا ما يقوله جابر عن النبات في كتاب التصريف ، لكنّا نراه في كتاب آخر ، هو كتاب التجميع يقول قولاً آخر ، إذ يقول ما معناه أن النبات فيه ما في الحيوان من جوانب « إلا شيئين ، فإن النبات غير محتاج إليهما ، وهما النفس والعقل »[2] وهو في كتاب التجميع يعقد موازنة بين الحيوان والنبات من حيث تفصيل الأعضاء في كل منهما : ففي النبات الورق والثمر واللحاء كما أن في الحيوان العظام والعروق واللحم وغير ذلك ، ولعله أراد بالموازنة أن يبين أن الدماغ في الحيوان لا يقابله شيء في النبات ، مما يستلزم أن نخص الحيوان بالنفس وحدها أو بالنفس والعقل معاً ، ولا نجعل هذه الصفة للنبات .

(١) كتاب التصريف ، مختارات كراوس ، ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ .
(٢) كتاب التجميع ، مختارات كراوس ، ص ٣٨٠ .

وكذلك يوازن بين النبات والحيوان من حيث الطبائع[٣] ، وها هنا يجد تشابهاً بينهما ، في أن كلاً منهما ينقسم ثلاثة أقسام في مراحله التطورية ، وهي : الأوّل ، والبليد ، والذكي - وهو تقسيم قريب الشبه جداً بما نجده عند كثيرين من الفلاسفة الذين يقسمون الكائنات الحية الشاعرة على أساس درجة الإدراك مثل الذي نراه عند ليبنتز واسپينوزا ، فهنالك نجد المرحلة الأولى هي مرحلة اللاشعور ، وهي المرحلة التي تتمثل في النبات مثلاً ، ثم مرحلة الشعور ، وهي التي تتمثل في الحيوان ، ثم مرحلة الشعور بالذات ، وهي التي تتمثل في الإنسان الذي يشعر ويكون على وعي بأنه شاعر - ونعود إلى جابر في تقسيمه للحيوان والنبات إلى : أوّل ، وبليد ، وذكي ؛ وها هنا نجد لمحة منهجية رائعة ، حين يقول ما معناه : انني لم أقسم النبات إلى هذه الأقسام الثلاثة لمجرد علمي بأن الحيوان ينقسم إليها ، بل إنني قسمته إلى هذه الأقسام لأنني وجدته كذلك ، ومعنى هذا أن جابراً لا يقيم أحكامه العلمية على تأمل ، بل يقيمها على تجربة ، وأياً ما كان الأمر ، فالتقابل هنا تام بين الحيوان والنبات : الأوّل في الحيوان كالأول في النبات ، والبليد هنا كالبليد هناك ، وكذلك الذكيّ ؛ وبليد النبات عنده هو الذي يبقى برهة من الزمان يسيرة ثم يذهب ، كما قد نجد في الحيوان مثل ذلك ؛ ولم يضرب لنا جابرٌ من النبات أمثلة تحدد ماذا يعني بالجانب الذكي منها .

وأما الحجر - أي الجماد - فهو ينقسم ثمانية أنواع ؛ وكل واحد من تلك الأنواع الثمانية ينقسم ثلاثة أقسام[٢] ، وذلك على الوجه الآتي :

أ - متحجّر ، منسحق ، غير ذائب .

ب - متحجر ، غير منسحق ، غير ذائب .

ج - متحجر ، غير منسحق ، ذائب .

د - متحجر ، منسحق ، ذائب .

هـ - غير متحجر ، غير منسحق ، غير ذائب .

و - غير متحجر ، غير منسحق ، ذائب .

ز - غير متحجر ، منسحق ، غير ذائب .

غير متحجر ، منسحق ، ذائب .

ويعتقد جابر أن المركبات الثلاثة : الحيوان والنبات والحجر ، تتفاوت صعوبة تكوينها على هذا الترتيب نفسه ، فالحيوان أسهلها والنبات وسط بين السهولة والصعوبة والحجر أصعبها جميعاً .

بنية الكون :[٣]

إنه ينبغي أن نتصور دائرة لا نهاية لآخرها ، ذات صلة مباشرة بأول طبقة من طبقات الأشياء الداخلة فيها ، فهذه الدائرة هي ما يسميه الفلاسفة بالعلة الأولى ؛ وهي علة فاعلة ، تتصف بأنها قادرة على العقل ، وأنها عاقلة ، وأنها لا تعقل إلا الصواب ، والخير ، والعدل ، وما فيه للنفس فرح وراحة وأمثال ذلك ؛ إلى ما لا آخر له مما توصف بها هذه الدائرة . . . ولو قلنا هذا المعنى بعبارة أقرب إلى إفهامنا ، كانت العلة الأولى لا متناهية ، فاعلة ، تدرك الحق ، وتفعل الخير ، وتخلق الجمال ؛ فهي عاقلة - لا بمجرد قابليتها واستعدادها ، بل هي عاقلة بالفعل ، والعقل عندها مداره قِيَمُ الحق والخير والجمال : فالحق في أنها لا تدرك إلا الصواب ، والخير في أنها لا ترى ولا تفعل إلا الخير والعدل ، والجمال في أنها لا تفعل إلا ما يعود على النفس بالنشوة والفرحة والراحة .

ودون هذه الدائرة دائرة أخرى لها الإدراك العقلي لكن ليس لها القدرة على الفعل ، فهي تعلم ولا تعمل ، هي تتصور الأمور كلها باطنها وظاهرها ، جليلها ودقيقها ، عامها وخاصها ، لكنها لا تخلق ولا تحرّك .

وفي جوف هذه الدائرة الثانية دائرة ثالثة ؛ وهي - على خلاف الثانية - تعمل ولا تعلم ، فهي فاعلة قادرة ، لكنها جاهلة ؛ فالدائرة الثالثة تساوي الأولى في فعلها وفي قدرتها ، لكنها تختلف عنها في أنها جاهلة والأولى عاقلة ؛ وتختلف الثالثة عن الثانية في الوجهين معاً : العلم والفعل ؛ فالثانية ذات علم والثالثة جاهلة ، والثانية عاطلة عن الفعل والثالثة فاعلة ؛ وهذه الدائرة هي النفس .

وفي داخل دائرة النفس دائرة رابعة ، لا تعلم ولا تجهل ، ولا تفعل ولا تنفعل ، وهي عالم الجوهر - عالم الهباء المنثور - الذي منه بنية هذا العالم ، وهو الذي يسميه قومٌ بالهيولي (انظر شكل ٢ ، ٣) .

وبعد تصورنا لهذه الدوائر التي يحتوي بعضها على بعض : الدائرة الأولى وفي جوفها دائرة العقل ، وفي جوف هذه دائرة النفس ، وفي جوف هذه دائرة الجوهر ، لنتصور أيضاً أن الزمان والمكان قائمان في جوانب هذه الدائرة الأخيرة ؛ وفي جوفها - أعني في جوف دائرة الجوهر - فلنتصور دائرة أخرى ، هي دائرة العناصر البسائط ، وهي الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ؛ أما كيف تُرَتَّبُ هذه العناصر داخل دائرة الجوهر فأمر مختلف عليه ، فطائفة تقول إن دائرة الجوهر تنقسم بخطين متقاطعين إلى أربعة فيكون كل ربع منها مقاماً لواحد من العناصر الأربعة ، كما يتضح من الرسم الآتي :

وطائفة ثانية تذهب إلى أن دائرة الجوهر تضم في جوفها أربع دوائر منفصل بعضها عن بعض ، وكل دائرة منها تمثل واحداً من العناصر الأربعة ، كما يتضح من الرسم الآتي :

وطائفة ثالثة تقول إن داخل دائرة الجوهر دوائر ، الأوسع منها تضم في جوفها الأضيق ، وهكذا ، بحيث تكون أوسعها دائرة الحرارة - وهي أحد العنصرين الفاعلين : الحرارة والبرودة - وتليها دائرة العنصر الذي هو منفعل الحرارة ، وأعني به اليبوسة ، ثم تليها دائرة ثالثة هي دائرة العنصر الفاعل الثاني ، وهو البرودة ؛ وأخيراً تجيء دائرة رابعة للعنصر المنفعل للبرودة ،

(١) نفس المرجع ، ص ٣٨١ .

(٢) كتاب التصريف ، مختارات كراوس ، ص ٤٠٢ .

(٣) كتاب التصريف ، مختارات كراوس ، ص ٤٠٦ - ٤١٤ .

وهي الرطوبة ؛ وبهذا تكون الصورة على النحو الآتي :

وفي داخل دائرة الرطوبة دائرة أخيرة قيل عنها إنها خلاء ، وقيل إنها ليست خلاء ، ويفضِّل جابر أن يختار لها الفرض الأول .

وأما النفس التي هي الدائرة الثالثة بعد دائرة المبدأ الأول ودائرة العقل ، فانها قد تشبثت بالدائرة التي دونها ، وهي دائرة الجوهر تشبثاً جعلهما شيئاً واحداً مرئياً ، وهو أول ما انفعل من أشياء ، ويعدُّ بدءاً للعالم المحسوس .

هكذا تكون بنية الكون كما يتصورها جابر بن حيان : دوائر يحوي بعضها بعضاً ؛ فدائرة العلة الأولى ، تتلوها من الداخل دائرة العقل ، وهذه تتلوها من الداخل دائرة النفس ، وهذه تتلوها من الداخل دائرة الجوهر ، وهذه تتلوها من الداخل دوائر للعناصر الأربعة ، وأخيراً تجيء دائرة خلاء ؛ ولقد اتخذ الكون شكل الدائرة لأن الدائرة أكمل الأشكال الهندسية ، وما جاء على صورتها يكون قليل الآفات وغير هالك إلا أن يشاء الله صانعُه أن يهلكه ؛ وهو الذي فوق العلة الأولى وتحت مركز الدائرة الصغرى من هذا العالم ، ولذلك كان هو الأول والآخر .

ولا أحسبني بحاجة إلى ذكر الشبه التام بين هذا التصور للعالَم وبين الصورة التي تصورها أفلاطون ـ مؤسس الأفلاطونية الحديثة في الاسكندرية أبان القرن الثالث الميلادي ـ فمن الله الواحد انبثق العقل ، ومن العقل انبثقت نفس العالم وهي ليست مجسدة ولا قابلة للانقسام ؛ ولهذه النفس مَيْلان ، فتميل علواً إلى الواحد الأسمى ، وتميل سفلاً إلى عالم الطبيعة ، ومن امتزاجها بالجوهر وما ينحصر فيه من عناصر أربعة تكونت الكائنات الحسية .

فعل البُروج والكواكبُ

البروج والكواكب :

فلك البروج قطعة واحدة منقسمة بطبيعتها اثني عشر قسماً ، كل قسم منها ينقسم بدوره ثلاثين قسماً ، فيصبح مجموع الأجزاء ثلاثمائة وستين جزءاً ؛ وان هذا الفلك بأجزائه هذه ليسير بالنسبة إلى ساكن الأرض من المغرب إلى المشرق بحركة خفيفة ؛ ويعلوه فلك آخر ، هو الأثير ، وهو يتحرك في اتجاه مضاد لاتجاه فلك البروج ، إذ يتحرك من المشرق إلى المغرب ؛ ثم يأتي فلك ثالث هو ما يسمى بفلك الكواكب المتحيرة ، التي تسلك مسارات يحتوي بعضها على بعض ، وأوسعها مداراً هو زحل ، وأصغرها مداراًهو القمر[1] ، وفيما بين هذا وذاك يكون المشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد على هذا الترتيب بادئاً من زحل ومنتهياً إلى القمر .

أما البروج الاثنا عشر فهي : الحمل ، الثور ، الجوزاء ، السرطان ، الأسد ، السنبلة ، الميزان ، العقرب ، القوس ، الجدي ، الدلو ، الحوت ـ وان الراصد من سكان الأرض ليرى الشمس في سيرها تقيم في كل برج من هذه الأبراج الاثني عشر ثلاثين يوماً على وجه التقريب ، كما يرى زحل مقيماً في كل برج ثلاثين شهراً ، والمشتري مقيماً في كل برج عاماً ، والمريخ مقيماً في كل برج أربعين يوماً ، ومثله عطارد والزهرة ، وأما القمر فيقيم في كل برج يومين ونصف يوم[2] .

وإن هذه البروج الاثني عشر لتنقسم مجموعات أربعاً على أساس الطبائع الأربع ، وذلك على الوجه الآتي :

١ ـ الحمل ، الأسد ، القوس . . .

بروج نارية حارة يابسة ، تندرج في حرارتها هابطة من الحمل إلى القوس .

٢ ـ الثور ، السنبلة ، الجدي . . .

بروج أرضية باردة يابسة ، تندرج في برودتها على هذا الترتيب .

٣ ـ الجوزاء ، الميزان ، الدلو . . .

بروج هوائية حارة رطبة ، تندرج في رطوبتها على هذا الترتيب .

٤ ـ السرطان ، العقرب ، الحوت . . .

بروج مائية باردة رطبة ، تندرج على هذا الترتيب .

والكواكب السبعة موزعة على هذه البروج ، فلكل من الشمس والقمر برج واحد ، أما الشمس فبرجها الأسد ، وأما القمر فبرجه السرطان ؛ وتبقى عشرة بروج لخمسة كواكب ، لكل كوكب منها برجان ، أحدهما على يمين الشمس والقمر ، والآخر على يسارهما ، وذلك على الوجه الآتي :

المريخ برجه الحمل ، والعقرب .

زحل برجه الدلو ، والجدي .

الزهرة برجها الثور ، والميزان .

المشتري برجه الحوت ، والقوس .

عطارد برجه الجوزاء ، والسنبلة .

وإن الكواكب السبعة لتختلف في مقدار الحرارة التي تستمدها من الشمس باختلاف قربها منها أو بعدها عنها ؛ فالشمس هي التي تمدُّ الكواكب كلها بالحرارة والنور ، ولذلك كانت الكواكب كلها على درجة من الحرارة صغيرة أو كبيرة ، برغم أنها تنقسم بين الطبائع الأربع : الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ؛ إذ إن منها ما ينتمي إلى البرودة ـ مثلاً ـ مع كونه مزوداً بقليل من حرارة الشمس .

لهذا جُعلت الشمس وسطاً بين الكواكب لتصل حرارتها إلى الكوكب الأول والكوكب الأخير على تفاوت في الدرجة ، ولولا الشمس وأمدادها لسائر الكواكب بشيء من الحرارة يقل أو يزيد ، لبطل وجود الفلك بسبب البرد الذي لا حرارة فيه .

(١) كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل ، مختارات كراوس ، ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٨ .

والذي يلي الشمس في الحياء هو المريخ ، لأنه أولاً حار بطبعه ، وهو قريب من الشمس ثانياً ، فأعطته الشمس من الحياء الجزء الأكبر ؛ ثم يلي ذلك المشتري ، فهو دون المريخ في الحياء لبعده عن الشمس ، على أنه أقوى حماء من زحل ، إذ يقع المشتري وسطاً بين حماء المريخ وبرودة زحل ؛ فزحل أقل الكواكب حرارة لأنه أبعدها عن الشمس ، ولما كانت الحرارة والحركة قرينين ، والبرودة والسكون متلازمين ، كان زحل أشد الكواكب سكوناً لأنه أقلها حرارة .

وأما الزهرة فتكاد تقرب في الحياء من المريخ ، وكذلك عطارد يكاد يقرب من المشتري ؛ وكذلك يقرب القمر من زحل في درجة البرودة ، لأنهما هما الطرفان .

خواص النجوم وأفعالها :

إنه إذا كانت ظواهر الطبيعة مرتبطة في حدوثها بأزمنة معينة ؛ كان لا بد لدراسة كل ظاهرة من تحديد زمنها الملائم لحدوثها ؛ لكن تحديد الزمن مرهون بوضع الأرض بالنسبة إلى أجرام السماء ، وإذن ينتج عن هذا نتيجة طبيعية لازمة ، وهي أن ثمة علاقة ضرورية بين أوضاع النجوم من جهة ومختلف الظواهر الطبيعية من جهة أخرى ؛ والأمر بعد ذلك أمر ملاحظة دقيقة وتصنيف من شأنهما أن نصل بكل جرم سماوي مجموعة الظواهر التي تقترن بظهوره ، وفيما يلي ما يقوله ابن حيان في تلازم الظواهر الطبيعة والكواكب ؛ وأساس التلازم هو طبيعة الكوكب وما تستتبعه من أحداث تلائمها :

١ - زحل ، وهو بارد يابس ، بطيء الحركة :

فمما يتفق وطبيعته سواد اللون وحدّة الطبع وسرعة الانحلال ، والطعوم الحامضة والمرة ، والوباء ، وظهور ما في بطن الأرض إلى ظهرها من نبات الجبال والعشب ، والأحجار السوداء والزرقاء والخضراء ، ومن المعادن : الأسربُ والماسُ والرمل والزجاج ، ومن البحار : ما كان منها نتنا يؤوي السلاحف ، والجمال ، والجاموس ، والفيلة ، وكبار الدواب العسيرة الحركة البطيئة السير ، ذوات الفطنة ؛ ومن النبات : كبار الشجر والنخيل ، وما يطول زمانه ويقل نوعه ويكثر التفافه وتشتد صلابته ، وكثيراً ما يكون شجراً بغير نفع للإنسان[1] .

٢ - المشتري ، وهو حار رطب نيّر مشرق .

ومما يتفق وطبيعته ما كان من البلاد ساطع النور ، يكثر فيه اللون الأصفر والدرّي الصافي من الأخضر ، والأبيض الناصع والأحمر الخفيف ، والطعوم الطيبة ، والروائح الزكية المعتدلة ، والطعوم الحلوة ؛ وتتفق مع طبيعته كثرة الزهر والحجارة ذوات اللون الأصفر والأحمر الرقيق ، كالرصاص والبلور ، واللؤلؤ ، والدر ؛ ومن الحيوان : الإنسان والقردة والكلاب والثعالب ؛ ومن الأشجار ما كان منها معتدلاً في طبيعته كالتين والنبق والفاكهة الكبيرة[2] .

(١) كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل ، مختارات كراوس ، ص ٤٢ - ٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٣ .

٣ - المريخ :

ويتفق وطبيعته الحمراء والحادّة ، وتكثر فيه الذبائح وفورة الدم كالشياه والماعز والسُّخلان وما يُذْبَحُ ويُسلخ ويعذب ؛ ومن المواد : الكبريت والمغنيسيا والياقوت الأحمر ؛ ومن الأشجار : الحادّة والحرّيفة ، ومن الصناعات : الامارة وقيادة الجيوش ، وصناعات الجلادين والحدادين والوقادين وكل عمل يتصل بالنار[3] .

٤ - الشمس :

يتفق معها الأشياء المشرقة النّيرة ، والمُلْك ، ونشوء العالم ، وما فيه من نفس وماء وحياة ؛ ومن الأشجار : اللوز والجوز والأشياء الدهنية كالزيتون والصنوبر ، ومن الحيوان : الغزلان والأُسْد ، ومن الحجارة : الذهب والياقوت والورْد ؛ والشمس أكثر الكواكب فعلاً في العالم[4] .

٥ - الزهرة :

يوافقها الأشياء ذوات الحسن والجمال ، وبخاصة من النساء ، وكذلك يوافقها اعتدال الأمور ورقة القلوب ؛ ومن الحجارة : النحاس ، ومن الأشجار : الرياحين والفاكهة الطيبة ، ومن ظواهر المجتمع : الطّيب والعنبر والمسك ، ومن الأشجار : الكافور والصندل[5] .

٦ - عطارد :

من لوازمه الحب والدعابة وسرعة الحركة ، والانطباع بكل طبع والعدول إلى كل مذهب وقول ؛ ويوافقه من الناس والحيوان : أهل الجبل ، والثعالب ، وكل ذي مكر وحيلة ، كالمحتالين واللصوص ؛ ومن الأشجار : الصفصاف ، والأشجار ذوات الأثر اللطيف في الأدوية والعقاقير ، ومن الحجارة : الزيبق والأدهان الصافية ؛ ومن الصناعات : الأشياء الدقيقة العسيرة كالكتابة والهندسة وعلوم الصُّوَر وجميع الأجهزة اللطيفة الدقيقة[6] .

٧ - القمر :

ويوافقه الكذب والنميمة والظلم والسرعة وقلة الصبر على حال واحدة ؛ ومن الأشياء : الظلمة والماء والجواهر السوداء الرطبة الخسيسة كالطين والحمأة والفضة ؛ ومن الناس : المراءون والمصابون كالعميان وغير ذلك من ذوي العاهات ؛ ومن الأشجار : الحشيش وبعض السموم ؛ ومن الأيام : أشرها وأقبحها يوم الاثنين ، وذلك لأنه يقابل الشهوة وجوانب النقص ؛ فالأول الكامل هو الواحد ، وأما الثاني فهو للناقص العاجز ، ولهذا ترى يوم الاثنين هو يوم الأسفار ، ويوم الفتن ، ويوم الآفات[7] .

تفاعل البروج والكواكب :

لقد مرَّ بنا أن للبروج خصائص وللكواكب خصائص ؛ وإذا قلنا

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٤ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٤٤ - ٤٥ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٤٥ .
(٦) المرجع السابق ، ص ٤٦ .
(٧) المرجع السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ .

البروج والكواكب فقد قلنا أيام السنة وشهورها وفصولها ؛ ونحن الآن ذاكرون فعل البروج والكواكب مجتمعين ، لأنه قد يكون الكوكب الواحد ذا أثر معين وهو في برج معين ، وذا أثر آخر وهو في برج آخر ؛ وقد أسلفنا لك القول بأن لكل كوكب من الكواكب السبعة ـ فيما عدا الشمس والقمر ـ برجين يظهر فيهما على دورة فلكه .

١ ـ فإذا وقع كوكب حار يابس في برج حار يابس ، نتج عن اجتماعهما : ثوران النيران ، وإحراق القيظ ، وجفاف الشجر والنبات ، ويبس الأشياء وارتفاع حرارتها ، وثوران الصفراء في الأجسام ، واحتراق الألوان وسمرة الصغار الذين هم في الأرحام وسوادهم ، ونقص المياه ، وتجمد الماء والأرض ، وهبوب الرياح الوبيئة المحرقة والمتلونة ، كالرياح الحمراء والصفراء وتلهُّب البحر ، وانعقاد الأحجار الشريفة كالكبريت والياقوت[1] .

٢ ـ وإذا وقع كوكب حار رطب في برج حار رطب ، نتج عن اجتماعهما اعتدال الزمان والدم ، وازدهار الشجر ، وصفاء السماء والرياح ، وإشراق الألوان ؛ وترعرع الحيوان والنبات ؛ فالفصل عندئذ هو فصل الربيع[2] .

٣ ـ وإذا وقع كوكب بارد يابس في برج بارد يابس ، نتج عن اجتماعهما فصل الخريف ، وفيه يكون هبوب الرياح السوداوية ، وغلبة السوداء في أبدان الحيوان ، وجفاف الأرض ، وانعقاد المياه واستحالتها إلى عناصر أرضية ، وكثرة المواشي الكبار كالجمال والفيلة والجاموس[3] .

٤ ـ وإذا وقع كوكب بارد رطب في برج بارد رطب ، نتج عن اجتماعهما فصل الشتاء والبرد ؛ فتهب الرياح الباردة ، ويثور البحر ، ويخرج ما في جوف البحار إلى سطحها ؛ وتلين الأرض وتتحول الأشياء بانحلالها[4] .

٥ ـ وإذا وقع كوكب حار يابس في برج رطب بارد ، نتج عن اجتماعهما الصواعق والبروق والرعود والرياح مع مطر قليل وغيم كثير ـ هذا إذا كانت الغلبة للكواكب على البروج ؛ أما إذا كانت الغلبة للبروج على الكواكب ، فعندئذ تكثر الأمطار وتقل البروق والرعود والصواعق وتكثر الزلازل ، فإذا اعتدلا اعتدل الزمان وتكافأت الطبائع كماً وكيفاً ، وهنا يكون ظهور الأنبياء[5] .

٦ ـ وأخيراً إذا وقع كوكب حار رطب في برج بارد يابس ، كان الزمان أصلح زمان للفلاسفة والعلماء[6] .

طبائع البلدان :

البلدان لا تشذ عن بقية كائنات الطبيعة في تأثرها بالعناصر الأولية ، وبمواضع النجوم ومختلف البروج ؛ وفي تقسيم البلدان على هذه الأسس ، يقول جابر إن الناس قد انقسموا في ذلك فريقين ، ثم انشعب أحد الفريقين شعبتين :

١ ـ أما الفريق الأول فقد قسم البلاد أربعة أقسام على أساس الطبائع الأربع المركبة ، لأن البلدان في رأيهم هي صنيعة هذه الطبائع التي هي : النار والهواء والماء والأرض ، فإن صح هذا يكون التقسيم كما يلي : فالمغرب من فعل الحرارة ، والمشرق من فعل البرودة ، والشمال من فعل اليبوسة ، والجنوب من فعل الرطوبة ـ وإنَّا لنلاحظ هنا عدم اتساق في القول ، فبعد أن قرر جابر أن الطبائع المتحكمة في البلدان هي الطبائع الثواني المركَّبة : النار والهواء والماء والأرض ، راح من فوره يقسمها على أساس الطبائع الأوائل البسائط ، وهي : الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ؛ مع أن كل واحد من الطبائع المركَّبة ـ كما أسلفنا القول مراراً ـ مؤلف من طبيعتين بسيطتين ، فالنار مؤلفة من الحرارة واليبوسة معاً ، والهواء مؤلف من الحرارة والرطوبة معاً ، والماء مؤلف من البرودة والرطوبة معاً ، والأرض مؤلفة من البرودة واليبوسة معاً .

٢ ـ وأما الفريق الثاني فينشعب شعبتين : إحداهما تقسم البلاد حسب الكواكب السبعة ، والأخرى تقسمها حسب البروج الاثني عشر :

أ ـ فان قسمت حسب الكواكب ، كان تقسيمها كما يلي :

١ ـ زحل يقابل المشرق كله وأقاصي البلاد ومواضع البرد الغالب .

٢ ـ المشتري يقابل مواضع الشمال حيث الاعتدال .

٣ ـ المريخ يقابل المغرب والحماء واستدامة طلوع الشمس .

٤ ـ الشمس تقابل المواضع الطاهرة المحرقة .

٥ ـ الزهرة تقابل المواضع المعتدلة .

٦ ـ عطارد يقابل البلاد المتقلبة المتغيرة من طبع إلى طبع .

٧ ـ القمر يقابل المواضع المظلمة وبطون الأرض .

ب ـ وان قسمت البلاد حسب البروج ، كان التقسيم كما يلي :

١ ـ الحمل يقابل البلاد المعتدلة .

٢ ـ الثور يقابل المواضع التي تكثر فيها الحرب .

٣ ـ الجوزاء تقابل الفيافي .

٤ ـ السرطان يقابل مواضع الماء والبخار .

٥ ـ الأسد يقابل مواضع الاحراق والحرارة .

٦ ـ السنبلة تقابل مواضع الصحارى والعمارة (؟) .

٧ ـ الميزان يقابل الأماكن الواقعة بين المدن .

٨ ـ العقرب يقابل الأنهار الكبار .

ويكتفي جابر بذكر هذه الثمانية ، ثم يقول : وعلى مثل ذلك تكون الأربعة الباقية على سبيل التجربة[7] ـ وأيسر نقد نوجهه لجابر في تقسيماته

(١) المرجع السابق ، ص ١٦ ـ ١٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٧ ـ ١٨ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٨ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٩ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٢٠ .
(٦) المرجع نفسه ، ص ٢١ .
(٧) كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل ، مختارات كراوس ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .

هـذه ، أنه لا يـراعي فيها ثبـات الأساس الـذي يقوم عليـه التقسيم ، فمثلاً يجعل البلاد المعتدلة قسماً ، والمواضع التي تكثر فيها الحرب قسماً آخر ، كـأنما الحرب لا يجوز لها أن تكثر في البـلاد المعتدلـة ؛ وكذلـك يجعل البـلاد الحارة قسماً ، والبلاد ذوات الأنهار الكبيرة قسماً آخر ، كأنما الأنهار الكبيرة لا يجوز أن تجري في البلاد الحـارة ، وهكذا ـ لكننـا معنيُّون أولاً وقبـل كل شيء بعـرض علم جابر وفلسفته عرضاً يقدم للقارىء صورة الواقع كما وقع .

علم الكيمياء

جابر العلم :

جَـبَّرَ الشيءَ يجبره فهـو جابـره ، إذا أعاد تنـظيمَ الشيء وأصلح فاسـده وقوَّم بناءه ؛ ولقد قيل أن جابر سمي باسمه هذا ، لأنه هو الذي أعـاد تنظيم العلم الطبيعي وأعاد بناءه على نحو ما كان عليه عند أرسطو ، قبـل أن يصيبه الفساد بامتزاجه بالسحر في العصور الوسطى .

كـان أرسطو أول من دعـا في إصرار إلى أن تكون المشـاهدة والتجـربـة أسـاس علمنا بـالطبيعـة ؛ وذهب الزمن بـالمعلم الأول ، وبقيت بعده آثـاره وذكراه ، فلقي من العصور الوسطى إجلالاً هو به جدير ، لكن عوامـل كثيرة فعلت في عقول الناس فعلهـا ، حتى لقد تنـوسيَ اللبـاب الـذي من أجله كان شيخ الفلاسفة الأقدمين حقيقاً بالتقدير والتوقـير ، وبقيت القشور دون لبـابها تحـظى بالنصيب الأوفـر من إجلال النـاس لمعلمهم الأول ؛ فنشأت أرسـطيَّةٌ مـزيَّفة سلَّطت عـلى العقول ، وبعـد أن كانت الفلسفـة الأرسطية في روحها الحقيقيـة حافـزاً إلى العلم الصحيح ، أصبحت بـديلتها الـزائفة حـائلاً دون الوصول إلى ذلك العلم الصحيح ، وقيداً يقيد أصحاب الفكر فلا يخلِّي بينهم وبين الحركة الطليقة الحرة ـ ولبثت الحال على هذا النحو في أوروبا حتى قامت النهضة في القرن السادس عشر .

كان أرسطو ـ ومعـه آخرون من فـلاسفة اليـونان الأقـدمين ـ لا يـأخذ بالرأي القائل أن الطبيعة تنحلُّ إلى وحدات صغيرة هي الذرات ، وهو الرأي الذي كان قد ذهب إليه ديمقـريطس وأتبـاعه ، إذ كـان الرأي عنـد أرسطو في ذلـك هو أن المـادة الأولية ويـطلق عليهـا اسم الهيـولى ـ قـد اكتسبت صـوراً أربعاً ، هي الكيفيات الأربع : الحرارة والبرودة واليبوسـة والرطـوبة ، فنشأ عن ذلك أربعة أجسام بسيطة ، هي النار والهواء والمـاء والتراب ؛ ومن هـذه تتألف سائر الأشياء ؛ وإنما نشأت الأجسام الأربعة البسيطة بالتقـاء الكيفيات الأربع الأولى اثنتين اثنتين : فالنار حرارة ويبوسة ، والهواء حرارة ورطوبة ـ إذ الهـواء ضرب من بخـار المـاء ـ والمـاء بـرودة ورطـوبـة ، والـتراب بـرودة ويبوسة[1] ؛ على أن الأجسام المركبة في الطبيعة تتـألف من الأجسام البسيـطة مجتمعـة دائماً ؛ فـما من شيء إلا وفيه النـار والهواء والمـاء والتراب بـدرجات ؛ فهي كلها على درجـة من الحرارة معينـة ، ويتغلغل فيهـا الهواء ، وهي كلهـا أيضاً مشتملة على ماء وهو الذي يجعلها قابلة للتشكيل ، ثم هي كلها مشتملة على أرض ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فما دام كل شيء قابلاً للصيرورة والتحول ، فإنه لا بد أن يكون مشتملاً على أضداد ؛ لأنـه لو كـان ـ فرضـاً ـ مؤلفـاً من حرارة مـطلقة فقط ، لما كان هنـالك سبيـل إلى تحولـه إلى ما ليس بحرارة ؛ إذ من أين يأتيه ما ليس فيه ؟ فوجـود النار ـ وهي حـرارة ويبوسـة ـ يقتضي بالضرورة وجود ضدها وهو الماء ـ لأنـه برودة ورطـوبة ـ كـما أن وجود الأرض ـ وهي برودة ويبوسـة ـ يقتضي بالضرورة وجـود ضدهـا وهو الهـواء ـ لأنه حرارة ورطوبة ؛ فحسبك أن تقول عن شيء أن فيـه أرضاً ومـاء ، لتقول ضمناً أن فيه كذلك الضدين الآخرين ، وهما الهواء والنـار ، ما دمت تعـترف لذلك الشيء بإمكان التحـول والتغير ؛ ومن هنـا لزم أن نقـول عن كل جسم مركب أنه يشتمل على كل الأجسام البسيطة في آن معاً[2] .

فلما انتقل مركـز العلم إلى الإسكندريـة بعد أفـول نجمه في اليـونان ، امتزج العلم النظري بـالروح التصـوفية السـائدة هنـاك ، فكان أن امـتزجت الكيمياء بالسحر امتزاجاً عاق تقدمها ـ في أوروبا ـ أبان العصـور الوسـطى ؛ لكن ظهـور الإسـلام في الشرق الأوسط ، وغـزو العـرب لمصر وسـوريـا وفـارس ، قد غـيَّر من الموقف ؛ إذ : « نفض المسلمـون الأولون عن أنفسهم كثيراً من الألغاز الصبيـاني الذي كـانت مدرسـة الإسكندريـة قد أدخلتـه على العلم ؛ وقاموا بتنقية الجو العقلي ـ لفترة من الزمن ـ فكانوا باحثين عن المعرفة يشتعلون حماسة وجداً . . . فترجمت كتب لا عدد لها من اليونانية ، وخصوصاً في حكم هـارون الرشيـد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) والمأمـون (٨١٣ ـ ٣٣) وظهـرت الكيمياء بنصيبنا من العناية في غمرة هذه الحماسة الشاملة للعلوم . . . على أن جابر بن حيان هو الجدير بأن يُعدّ أول من يستحق لقب الكيمياوي .

« كانت فلسفة جابر ـ شـأنه شـأن جميع المسلمـين ـ أرسطيَّـة مُعدَّلـة ؛ ونظريته في تكوين المادة هي نفسها ـ في جوانبها الهامة كلها ـ نظرية أرسطو ؛ ولم تكن عبقـرية جـابر تـرضى له بـالإستسلام للتـأمل العقيم المنقـطع الصلة بالواقع المشاهَـد ؛ فآثـر ـ كما آثر كثيرون من المسلمـين الذين جـاءوا بعده ـ الـعمل على شـطح الخيال ؛ فجـاءت آراؤه ـ عـلى وجـه الإجمـال ـ واضحـة ودقيقـة ؛ والإضـافـات التي أضـافهـا إلى الكيميـاء هي التي سـوَّغت بحق ـ لقيمتهـا ـ أن يُنعَتَ باسم « جـابر » لأنـه هو الـذي « جَبَّر » العلم ـ أي أعـاد تنظيمه ـ وأقامه على أساس ثابت »[3] .

الوجود بالقوة والوجود بالفعل :

الوجود بالقوة والوجود بالفعل فكرتان تـرتدان إلى أرسـطو : وذلك أن أرسـطو إذ ردَّ الـوجـود والمـوجـودات إلى مبـدأين أسـاسيـين همـا : الهيـولى والصورة ، أي المادة التي منهـا يصنع الشيء والشكـل الوظيفيُّ الـذي تكتسبه المـادة لتصبح ذلـك الشيء ، فقد تصـور المادة الأوليـة مستعدة أن تكـون أي شيء ، فهي تتلقى الصـورة التي تنطبـع بها لتتعـيَّن بفضل تلك الصـورة شيئاً فعلياً معيناً ؛ كقطعة الخشب غـير المصنوع فيهـا استعداد أن تكـون منضدة أو مقعداً ، حسب الصورة التي يخلعها عليها النجار ، واذن فقطعـة الخشب فيها منضدة « بالقوة » وفيها مقعد « بالقوة » ، لكنها تصبح منضدة « بـالفعل » أو

(١) كتاب الكون والفساد لأرسطو ، ٣٣٠ ب ـ ويلاحظ أن جابر بن حيان قد أخذ عن أرسطو رأيه هذا ، كما أوضحنا بالتفصيل في الفصل الخامس ، وفي غيره من الفصول السابقة .

(٢) المرجع السابق ، ٣٣٤ (ب) ، ٣٣٥ (أ) .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦ .

مقعداً « بالفعل » حين تتم صناعتها وتشكيلها .

وكل فيلسوف يأخذ بفكرة قابلية تحول الأشياء بعضها إلى بعض فهو يأخذ تبعاً لذلك بفكرة الوجود بالقوة والوجود بالفعل ؛ لأنك إذا قلت أن هذه ارض قد تتحول نباتاً ، فقد قلت في الوقت نفسه أن النبات موجود في الأرض « بالقوة » وينتظر الظروف المواتية ليصبح نباتاً موجوداً « بالفعل » ؛ وكذلك الرجُل الذي سيخرج من طفل مّا ، موجود في الطفل « بالقوة » حتى إذا ما اكتمل الرجل تكويناً ، أصبح رجلاً موجوداً « بالفعل » وهكذا ؛ والفكرة الأساسية عند عالمنا الفيلسوف جابر بن حيان ، هي أن العناصر يتحول بعضها إلى بعض - كما سنذكر تفصيلاً فيما بعد - فالنحاس - مثلاً - قد يتحول بتدبير المدبِّر ذهباً ، ومعنى ذلك أن الذهب كان موجوداً في النحاس « بالقوة » حتى إذا ما خرج منه أصبح الذهب موجوداً « بالفعل » .

ويشرح جابر هذين النوعين من الوجود ، بقوله : « الشيء الذي هو بالقوة هو الذي يمكن أن يكون وجوده في الزمان الآتي المستقبل ، كقيام القاعد وقعود القائم »[1] فالقاعد قاعد بالفعل لكنه قائم « بالقوة » لأن فيه استعداداً أو قدرة على أن يحيل قعوده قياماً ؛ وكذلك القائم قائم بالفعل ، لكنه قاعد « بالقوة » لأن فيه استعداداً أو قدرة على أن يحيل قيامه قعوداً ؛ ويمضي جابر في الشرح فيقول : « الشيء الذي بالقوة ، ما هو فيه هو الذي يمكن أن يأتي منه الشيء الذي بالفعل . . . كما نمثل لك أن الفضة التي لا فرق بينها وبين الذهب إلا الرزانة والصفرة يمكن أن تصير ذهباً ؛ فللفضة - بالقوة - أدنى قبول للرزانة حتى تصير في قوام الذهب ، ولها أدنى قبول للصفرة حتى تكون بلون الذهب ؛ ولو لم يكن ذلك لها بالقوة لم يتأتَّ ذلك عنها في الفعل . . . وكما أن للنار أن تصير هواء بالقوة ، وللهواء أن يصير ماء بالقوة ، وللماء أن يصير أرضاً بالقوة ، فللنار أن تصير أرضاً بالقوة ، لأن « أ » إن كانت في بعض « ب » ، و « ب » في بعض « جـ » ، و « جـ » في بعض « د » ، فـ « د » في بعض « أ » ضرورة ، « أ » في بعض « د » - هذا ما لا شك فيه ؛ وكذلك ما يستوعب الكليات إذا عُكس هذا القول - لا عكساً منطقياً ، بل عكس التناقض والتقابل - فإنه يكون : (أ) في كل (ب) ، (ب) في كل (جـ) ، (جـ) في كل (د) ، فـ (ا) - ضرورة - في كل (د) »[2] .

أما الوجود بالفعل فيقول عنه جابر : « الشيء الذي بالفعل هو الموجود في الزمان الحاضر من سائر الأفعال الكائنة ، كقعود القاعد وقيام القائم »[3] - أي أن الموجود وجوداً فعلياً هو الشيء كما هو كائن في اللحظة الحاضرة ؛ فالقاعد قعوده يكون موجوداً بالفعل ، والقائم قيامه يكون موجوداً بالفعل ، وهكذا .

ولا يكون الشيء موجوداً بالفعل إلا إذا كان من قبل ذلك موجوداً بالقوة ثم ظهر ؛ وهنا ينشأ هذا السؤال الهام : هل كل ما هو موجود بالقوة سيخرج حتماً إلى وجود بالفعل ؟ أم أن من بينه ما هو خارج ، ومن بينه ما هو ممتنع الخروج ، وما هو ممكن الخروج ، فربما خرج إلى الفعل وربما لبث على كمونه ؟ .

هذا سؤال هام لأنه يحدد مدى ما يستطيع العالِم أن يتناوله بالتحويل في تجاربه العلمية ، حتى لا يحاول المستحيل ، وحتى لا ييأس مما هو ممكن ؛ وقد أجاب ابن حيان عن السؤال إجابة دقيقة شاملة موجزة ؛ إذ يقول إن الأشياء انقسمت قسمين : فهي إما بسيطة وإما مركبة ؛ على أن كل ما نراه في الطبيعة من أشياء هو من قبيل المركَّبات ، وتركيبها يكون على درجات : فمنها مركَّب أول ، ومنها مركَّب ثان ، ومنها مركَّب ثالث أو مركَّب المركَّب .

فأما العناصر الأولية البسيطة فمحال أن يخرج كل ما فيها بالقوة إلى وجود بالفعل ؛ وذلك لأن العنصر البسيط هو بحكم بساطته هذه غير متناه ، وهو لذلك غير فان - فالذي يتناهى إلى حدود معينة ويجوز عليه الفساد والفناء هو المركَّب - فإذا كان أمر العنصر البسيط هو كما ذكرنا ، فليس كل ما فيه بالقوة خارجاً إلى الفعل ، إذ لو حدث ذلك لصار إلى انتهاء ؛ وقد قلنا أنه غير متناه .

وأما المركَّب : الأول والثاني والثالث ، فهو الذي يجوز عليه الخروج كله من القوة إلى الفعل ؛ فجميع ما في الطبيعة يمكن خروج كل ما فيه من حالة الكمون إلى حالة العَلَن ؛ أما ما يسمى بالمركَّب الأول ، فهو الطبيعة على إطلاقها ، وأما المركَّب الثاني فهو النار والهواء والأرض والماء ، وأما المركَّب الثالث - أي مركَّب المركَّب - فهو الأجناس الثلاثة : الحيوان والحجر والنبات[4] .

فمتى يمتنع خروج كائن من كائن آخر ؟ يجيب جابر بقوله : « إن الأشياء التي يمتنع ويعسر خروجها من القوة إلى الفعل على ضربين ، إما أن يُرام من الأشياء ما ليس فيها بالقوة . . . وإما أن يرام من الأشياء ما فيها بالقوة ولكن عَسُرَ خروجه إلى الفعل . . . كالذي يروم خروج الماء من النار من أول وهلة . « فإن هذا (أي الماء) وإن كان لها (أي للنار) بالقوة ممتنع ، إلا أنهم عملوه على ترتيب . . . فأما أن يكون ذلك من أول وهلة فلا ؛ وكذلك القائم القاعد بالقوة - ولكن بعد تقضِّي زمان القعود وانتهائه بحركة القاعد للقيام ، وحركة الإرادة ، وأمثال ذلك .

« وإذ قد بان ذلك ، فإن في الأشياء كلها وجوداً للأشياء كلها ، ولكن على وجوه من الإستخراج ؛ فإن النار في الحجر كامنة لا تظهر ، وهي له بالقوة ؛ فإذا زُنِدَ أوريَ فظهرتْ ؛ وكذلك الشمع في النحل ؛ ولو أخذنا مائة ألف نحلة أو ألف كوِّ نحل ، ثم عصرناها وطبخناها ودبَّرناها تدبيرنا للعسل الذي فيه الشمع ، لم يخرج منه دانق شمع ، ولكن النحل إذا تغذى غذاء معتدلاً ، وعُملت له الكُوَى التي يأوي إليها ، وعَمِلَ العسل ، واجْتُنِيَ ذلك العسل ، خرج منه الشمع » .

(١) كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل ، مختارات كراوس ، ص ٢ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٣ .
(٣) نفس المرجع ، ص ٣ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٤ - ٥ .

« فقد وضح من هذا القول أن التدبير على القصد المستقيم هو الذي يخرج ما في قوى الأشياء ـ مما هو بالقوة إلى الفعل ـ فيما يَخْرُج هو بطبعه ؛ وفيما لا يخرج حتى يُخْرَج » .

« لأن في قوى الأشياء ما يخرج بغير تدبير مدبِّر ، ولكن الطبيعة علة خروج الطلع وخروج الرياحين البرية التي لا تعالَجُ بالسُّقْى واللُّقاح وأمثال ذلك ، فتخرج من القوة إلى الفعل بأنفسها وفي زمانها ـ وأما غير ذلك مما عِلَّتُه إخراج التدبير للأشياء (فهو محتاج إلى تدبير طريقة لإخراجه) »[١] .

في هذا النص الدقيق الواضح نجد فلسفة الكيمياء كلها عند ابن حيان ؛ وأساسها هو أن الكيمويَّ يحذو حذو الطبيعة في تكوينها للأشياء ، وكل الفرق هو أن الطبيعة تعمل من تلقاء نفسها ، وأما الكيمويُّ فيعمل عمله بتجربة مدبَّرة ؛ لكن كل ما تؤديه الطبيعة من عمليات تحويل الأشياء بعضها إلى بعض ، هو في مستطاع الكيموي أن يؤديه ؛ غير أن الأمر يحتاج من الكيموي إلى تبصُّر وحذر ، فقد لا يكون التحويل ممكناً بضربة واحدة ؛ بل يتطلب خطوات متدرجة تنتهي آخر الأمر إلى النتيجة المطلوبة ؛ ولو أتقن العالِم دراسة موضوعه وما يحتاج إليه من خطوات في عملية تحويله ، لأمكنه لا أن يحاكي الطبيعة في فعلها فقط ، بل أن يعمل ما تعمله الطبيعة في وقت أقصر ؛ إذ قد يتطلب تكوين الذهب في حضن الطبيعة آلاف السنين ؛ لكن الكيموي في مستطاعه أن يعمل العملية نفسها في فترة وجيزة ـ ويلخص جابر في فلسفته الكيموية هذه في جملة واحدة تَرِدُ في « كتاب السبعين » يقول فيها : « في قوة الإنسان أن يعمل كعمل الطبيعة »[٢] لا فرق في ذلك بين حجر ونبات وحيوان وإنسان ، وسنذكر تفصيل ذلك في حينه .

فلعلنا بعد هذا نفهم مراد جابر عندما عَرَّف الكيمياء بقوله : « حَدُّ الكيمياء إظهار ليس في أيس . . . إذ « ليس » عندهم عدمٌ و « أيس » عندهم وجود ـ وكذلك الكيمياء إنما هي إعطاء الأجسام أصباغاً لم تكن لها »[٣] ؛ ولئن كنا نألف في كلامنا اليوم أن نسمع وأن نستخدم كلمة « ليس » لندل بها لى نفي شيء عن شيء ، كأن نقول ـ مثلاً ـ ليس القمر مضيئاً ، فلسنا نألف مقابلتها الدالَّة على إيجاب ، وهي كلمة « أيس » التي تشير إلى وجود شيء وجوداً فعلياً ، فضوء القمر حين يضيء « أيس » ، وهذا القلم في يدي الآن « أيس » وهكذا ؛ ومهمة الكيمياء هي أن توجد في الشيء صفة ليست قائمة فيه بالفعل (وإن تكن طبعاً قائمة فيه بالقوة وإلا لما أمكن إخراجها من العدم) .

الأكسير :

قلنا أنه كما جاز للطبيعة أن تحول الأشياء بعضها إلى بعض ، فتتحول الأرض والماء نباتاً ، ويتحول النبات في النحل شمعاً وعسلاً ، ويتحول الرصاص في جوف الأرض ذهباً وهكذا ، فكذلك يمكن لعالم الكيمياء أن يحاكي الطبيعة في صنيعها بتجارب يصطنعها فيؤدي بها نفس الذي تؤديه الطبيعة ، ولكنه يؤديه في مدة أقصر ؛ فإذا اهتدى العالِم إلى الوسيلة التي يخرج بها شيئاً من شيء كانت تلك الوسيلة هي الأكسير .

فالأمر في معالجة شيء مًا معالجة تردُّه إلى ما يراد ردُّه إليه ، هو كالأمر في معالجة المريض ، يركَّب له الدواء الذي يردُّه من حالة المرض إلى حالة الصحة ، بإضافة ما ينقصه أو بحذف ما قد يزيد عليه ؛ وبهذه الإضافة أو الحذف نحصل على التوازن لما كان قد اختل توازنه ؛ وبديهي أن يكون للدواء صفة مضادة للصفة التي جاوزت حدها نقصاً أو زيادة ، فهو الذي يزيد ما قد نقص ويُنقص ما قد زاد ؛ وهكذا يفعل عالِم الكيمياء أزاء المعدن الذي يريد تحويله : يعطيه « الدواء » الذي يكسبه توازناً من شأنه أن يجعل منه معدناً آخر ، هو المعدن المقصود ، « فالدواء » في هذه الحالة هو ما يسمى بالأكسير .

وواضح أن مثل هذا التحويل من حالة قائمة إلى حالة أخرى مطلوبة ، يتوقف على علم العالِم علماً كاملاً بعناصر التركيب في كلتا الحالتين ، فيعلم مم يتركب الشيء المراد تحويله وكيف يتركب ، كما يعلم مم يتركب الشيء المراد الحصول عليه وكيف يتركَّب ؛ وهذه هو ما يسمَّى عند جابر بالموازين ـ وسنتحدث عنها في فقرة تالية ـ وإن نظرية جابر في الأكسير وفي الميزان لهي موضع الأصالة الحقيقية التي تُنسب إليه في علم الكيمياء[٤] .

وهو يشتق الأكسير الذي يستخدمه في عملياته الكيموية من أنواع الكائنات الثلاثة مفردة ومجتمعة ؛ فتراه يقول : إن ثمة سبعة أنواع من الأكسير : ١ ـ أكسير يُشتق من المعادن ، ٢ ـ أكسير يشتق من الحيوان ، ٣ ـ أكسير يشتق من النبات ، ٤ ـ أكسير يشتق من امتزاج المواد الحيوانية والنباتية معاً ، ٥ ـ أكسير يشتق من امتزاج المواد المعدنية والنباتية معاً ، ٦ ـ أكسير يشتق من امتزاج المواد المعدنية والحيوانية معاً ، ٧ ـ أكسير يشتق من امتزاج المواد المعدنية والنباتية والحيوانية معاً[٥] .

ونكتفي في هذه الفقرة بذكر وجه واحد من أوجه التحويل الذي يقوم به الكيمويُّ ، وهو تحويل المعادن بعضها إلى بعض ، فعلى أي أساس يكون ذلك ، وكيف ؟ .

المعادن الرئيسية سبعة : الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزيبق والأسرب[٦] ، وهي التي تكوِّن « قانون الصنعة » ـ كما يقول جابر ، أي أن عليها تتوقف قوانين علم الكيمياء ؛ غير أن هذه المعادن السبعة نفسها قد تكونت في جوف الأرض من معدنين أساسيين ، هما الكبريت والزيبق ، فهذان المعدنان إذ يمتزجان بنسب مختلفة يتكون منها بقية المعادن المذكورة ؛ فكأنما هذه المعادن لا تتباين إلا في الكيفيات العرضية التي طرأت نتيجة للنسبة التي مزج بها الكبريت والزيبق في باطن الأرض ؛ على أن الكبريت والزيبق تتفاوت طبيعتاهما باختلاف تربة الأرض التي نشآ فيها ، وباختلاف الكواكب

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٦ ـ ٧ .

(٢) كتاب السبعين ، مختارات كراوس ، ص ٤٦٣ .

(٣) الجزء الثاني من كتاب الأحجار على رأي بليناس ، مختارات كراوس ، ص ١٤٠ ـ ١ .

(٤) Kraus, Paul, Jabir Ibn Hayyan : الجزء الثاني ، ص ٣ .

(٥) الجزء الثالث من كتاب الأحجار على رأي بليناس .

(٦) كتاب الحاصل ، وفي مواضع أخرى كثيرة من كتبه الأخرى . (والأسرب هو القصدير) .

(أي المقومات الزمنية) التي أحاطت بتكوينها ؛ مثال ذلك أن يكون جزء الأرض الذي فيه نشأ الكبريت أو الزيبق معرضاً لحرارة الشمس ؛ فقد يجيء الكبريت نقياً لطيفاً ، وهو ما يسمى بكبريت الذهب ، لأنه هو الكبريت الذي إذا ما مزج معه الزيبق في مركّب واحد سليم التوازن في مقاديره ، نتج عن امتزاجهما الذهب ؛ فلأن اتزان عناصر المزج في الذهب قد جاء على أتمه تراه يقاوم النار ، فلا تقوى النار على إحراقه كما تحرق سائر المعادن[1] .

ونعود إلى المعادن السبعة الرئيسية التي هي مدار علم الكيمياء : (وقد تسمى بالأحجار السبعة) : الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزيبق والقصدير ؛ فنقول : إن نظرية جابر هي أن كل معدن من هذه المعادن يُظهر في خارجه كيفيتين من الكيفيات البسيطة الأربع (الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة) ويُخفي في باطنه الكيفيتين الأخريين ؛ وبالكيمياء نستطيع إظهار الباطن وإخفاء الظاهر فيتحول المعدن القائم معدناً آخر ؛ ولو قلنا هذا الكلام نفسه بعبارة أخرى ، قلنا : إن لكل معدن من هذه المعادن صفتين موجودتين بالفعل ، وصفتين أخريين موجودتين فيه بالقوة ، فلو استخرجنا ما هو موجود بالقوة إلى موجود بالفعل ، تبدّل المعدن معدناً آخر[2] .

والقائمة الآتية تبين لكل معدن صفتيه الظاهرتين وصفتيه الباطنتين :

اسم المعدن	صفتاه الظاهرتان	صفتاه الباطنتان
الذهب	حار، رطب	بارد، يابس
الفضة	بارد، يابس	حار، رطب
النحاس	حار، يابس (أقل يبوسة من الحديد).	بارد، رطب
الحديد	حار، يابس جداً (صلب)	بارد، رطب (رخو)
الرصاص	بارد، يابس (قليل اليبوسة جداً).	حار، رطب (صلب)
الزيبق	بارد، رطب (رخو)	حار، يابس (صلب)
القصدير	بارد، رطب (رخو)	حار، يابس (صلب)

ومعنى هذا أن كل معدن يشتمل في جوفه على معدن آخر يناقضه في صفاته ؛ فالفضة من داخل هي نفسها الذهب من خارج ، فلو أخرجنا ما هو مكنون في باطن الفضة إلى ظاهرها ودسسنا ظاهرها في باطنها ، كان لنا بذلك معدن الذهب ؛ فإذا أراد الكيموي تحويل الفضة إلى ذهب ، كان عليه أولاً أن يزيح برودتها الظاهرة لتخرج بدلها الحرارة الكامنة ، ثم يزيح ـ ثانياً ـ يبوستها الظاهرة لتخرج بدلها الرطوبة الكامنة ، حتى إذا ما اجتمع في الظاهر حرارة ورطوبة معاً كان ما بين أيدينا ذهباً .

(١) كتاب الإيضاح .

(٢) كتاب السبعين ، المقالة ٣٢ .

ولو أجرى الكيموي تجاربه على قطعة من الحديد ـ مثلاً ـ ظاهرها حرارة ويبوسة شديدة ، فله أن يزيح اليبوسة وحدها إلى الداخل لتخرج مكانها الرطوبة ، وبذلك يصبح الظاهر حرارة ورطوبة ؛ أي أن المعدن يصبح ذهباً ؛ أو أن يزيح الحرارة الظاهرة إلى الداخل لتخرج مكانها البرودة الكامنة ، وبذلك يصبح الظاهر برودة ويبوسة ، أي أن المعدن يصبح فضة ؛ أو أن يزيح الحرارة واليبوسة الظاهرين كليهما ، ليخرج مكانهما البرودة والرطوبة الكامنان فيكون الناتج زئبقاً (أو قصديراً حسب درجة الليونة أي درجة الرطوبة التي تظهر) .

وبنفس الطريقة يمكن ردُّ أي معدن إلى أي معدن آخر ، وبصفة خاصة يمكن رد أي معدن إلى ذهب ، إذ ما علينا لكي نحول معدناً مّا إلى ذهب إلا أن نجعل الكيفيتين الظاهرتين هما : الحرارة والرطوبة ؛ فإن كان المعدن المراد تحويله نحاساً ـ وظاهر النحاس حرارة ويبوسة ـ كان أمامنا كيفية واحدة هي التي نحتاج إلى دسِّها في الداخل ليخرج ضدها من الداخل فيحل محلها ، فالنحاس والذهب يشتركان في الحرارة ، ويختلفان في أن الذهب رطب والنحاس يابس ، فإذا أخرجنا للنحاس رطوبته الدفينة فيه ، كان ذهباً .

أما إن كان المعدن المراد تحويله رصاصاً ، فها هنا نجد التضاد بين الرصاص والذهب في الكيفيتين معاً ، فالرصاص بارد والذهب حار ، والرصاص يابس والذهب رطب ، فعندئذ علينا أن نعالج الصفتين جميعاً ، فندخلهما إلى الباطن ، ليخرج مكانهما الضدان وبذلك يصير الرصاص ذهباً ـ وهكذا .

وأود أن أعيد هذا الذي قلته في تحويل المعادن بلغة جابر نفسه ، كما ساق الموضوع في المقالة الثانية والثلاثين من كتاب السبعين ؛ قال « . . . لا يخلو كل موجود أن يكون فيه طبعان ـ فاعل ومنفعل ـ ظاهران ، وطبعان ـ فاعل ومنفعل ـ باطنان[3] . . . ولذلك سهل عليهم وقرب ردُّ الأجسام إلى أصولها في أقرب مدة ، وهو أن يقلبوا الطبائع في الأجسام ، فيجعلوا الباطن ظاهراً ، والظاهر باطناً ؛ فأما الحديد فإن ظاهره فاسد وباطنه فاسد ، لأن ظاهره حديد ، وهو فاسد عند الفضة والذهب ، وباطنه زيبق وهو فاسد عندهما أيضاً[4] ؛ فإذا قلبوا الحديد إلى الزيبقية صار ظاهره بارداً رطباً وباطنه حاراً يابساً ، فأظهروا حرارته وأبطنوا برودته ، فصار الظاهر حاراً رطباً وذلك

(٣) نذكر القارىء بأن الطبعين الفاعلين هما : الحرارة والبرودة ، وأن الطبعين المنفعلين هما : اليبوسة والرطوبة

(٤) ظاهر الحديد حار يابس صلب ، وباطنه بارد رطب رخو ؛ والمقصود بقوله إن ظاهره فاسد وباطنه فاسد كذلك عند الذهب والفضة ، هو أنه لا ظاهره ولا باطنه يساوي في الطبائع ظاهر الذهب أو الفضة ؛ فظاهر الذهب حار رطب وهو مختلف عن ظاهر الحديد وباطنه معاً ؛ وظاهر الفضة بارد يابس وهو أيضاً مختلف عن ظاهر الحديد وباطنه معاً ـ ويلاحظ أن باطن الحديد (أي البرودة والرطوبة الرخوة) مساو لظاهر الزيبق ، فلو قُلِب الحديد باطناً لظاهر لنشأ لدينا زيبق ، ولم ينشأ لنا لا ذهب ولا فضة ؛ فلو أريد استخراج أحد هذين من الحديد ، تم ذلك على خطوتين ، فيحول الحديد إلى زيبق أولاً (أي أن يكون ظاهره بارداً رطباً) ثم بعد ذلك أما أن نبطن برودته ونظهر حرارته بحيث يكون الظاهر حاراً رطباً (وهذا ذهب) وأما أن نبطن رطوبته ونظهر يبوسته بحيث يكون الظاهر بارداً يابساً (وهذا فضة أو رصاص) .

ذهب ، وصار باطنه بارداً يـابساً وذلـك فضة أو رصـاص ؛ لأن منهم من قال إن باطن الذهب رصـاص ومنهم من قال أن بـاطنه فضـة وهي قولـة حسنة ، ونحن نذكر ذلك كله وكيف يُقْلَب فاعرفْه .

« إن الأصـل في ذلك أن تعلم أولاً أن من هـذه الأجسام مـا ينبغي أن تُبْطِنَ عنصريه الظاهرين وتُظْهِرَ عنصريه الباطنين حتى يكمل ويصير جسماً غير فـاسد عـلى ما يـراد من ذلك ـ وهـو سرُّهم ـ وبعض هذه الأجسـام ينبغي أن يُستخرج له عنصر من باطنه فيظهر ، ويُبْطـن فيه ضـد ذلك العنصر ، ونحن نذكر ذلك لتعرفه .

« إن الأسرب (الرصاص) بارد يابس في ظاهره رخو جداً ، وهـو حار رطب في بـاطنه صلب ؛ ومعنى رخـو وصلب أن كـل جسم خلقـه الله تعـالى باطنُه مخـالف لظاهـره في اللين والقساحـة ؛ والدليـل على ذلـك أنه إذا قُلبت طبائعه فرجع ظاهره باطناً وباطنه ظاهراً إن كان رطباً قَسَحَ ، وإن كان قاسحاً ترطَّب ، فهذا ما في الأسرب من الكلام .

« وأمـا القلعي (القصـديـر) فـإن أصله المـتركب عليـه أولاً الأربـع طبائع : فظاهره بارد رطب رخو ، وباطنه حار يابس صلب . . . فإذا أبطنت ظاهره ، وأظهرت باطنه قَسَحَ فصار حديداً . . .

« وأما الحديد فأصله المتكـون عنه الأربـع طبائـع ، وخصَّ ظاهـره من ذلـك بالحـرارة وكثرة اليبس ، فبـاطنـه إذن عـلى الأصـل بـارد رطب ، وهـو كـذلك ، وهـو صلب الظاهـر رخـو البـاطن ؛ ومـا في الأجسـام أصلب منـه ظاهراً ، فكذلك رخاوة باطنه على قدر صلابة ظاهره على الأصـل ؛ وكذلـك يكون بالتدبير إذا قُلبت أعيانه ؛ والذي على هذا المثال الزيبق[1] ؛ فإن ظاهره (أي ظاهر الحـديد) حـديد وبـاطنه زيبق ؛ فـالوجـه في صلاحـه أن تنقص يبـوسته فـإن رطوبتـه تظهـر فيصـير ذهبـاً ، لأن رطـوبتـه إذا ظهـرت بـطنت يبوسته . . . أو فانقص حرارته فإن برودته تظهر وتبطن الحرارة بظهور البرودة فيصير فضة يابسة ، أو فانقص يبوسته قليلاً فإنه يصير فضة لينة ؛ فهذا مـا في الحديد من الوصف والحدّ .

وأمـا الذهب فحـار رطب في ظاهـره بارد يـابس في باطنـه ، فردُّ جميـع الأجساد إلى هذا الطبع فإنه طبع معتدل . . .

« وأما طبع الزهرة (النحـاس) الذي هي عليـه فالحرُّ واليبس ، وهو دون الحـديـد ، لأن أصله حـار رطب ذهب ، فلما لحقـه اليبس في المعـدن أفسده ، فاقلع يبسه فإنه يعود إلى طبعه[2] .

« وأما الزيبق فإن طبعه البرد والرطـوبة في ظـاهره والـرخاوة ، وبـاطنه حـار يابس صلب بـلا شك ؛ فـظاهره زيبق وبـاطنه حـديد ، كـما أن بـاطن الحديد زيبق وظاهره حديد ؛ فـإن أردت نقل الـزيبق إلى أصله ، فالـوجه أن تصيِّره أولاً فضة ، وهو أن تُبطن رطوبته وتُـظهر يبـوسته ، فـإنه يصـير حينئذ فضة ، وقد تمت المرتبة الأولى ، فـإن أردت تمام ذلـك فاقلب الفضـة كما هي حتى يـرجع ظـاهرهـا باطنـاً وباطنها ظاهـراً في الـطبيعتـين جميعـاً : الفـاعلة والمنفعلة ، فيكون ظاهرها حـاراً رطباً ذهبـاً ، وباطنهـا بارداً يـابساً حـديداً ، فهذا ما في الزيبق[3] .

« وأمـا الفضـة فـأصلهـا الأول ذهب ، ولكن أعجـزهـا الـبرد واليبس فأبطنت في باطنها الذهب فظهر الطبع الذي غلب فصار ظاهرها فضة وباطنها ذهباً ؛ فإن أردت ردها ذهباً فابطن برودتها فإن حرارتها تظهر ، ثم أبطن بعـد ذلك اليبس فإن الرطوبة تظهـر وتصير ذهباً ؛ فهذا مـا في الأجسام كلهـا من التدابير والسلام » .

هذه مقالة بأسرهـا نقلناهـا لك بنصِّهـا عن جابـر بن حيان ، لأنها في صناعته أساس ومحور ؛ فالأساس ـ كما ترى ـ هـو أن الطبـائع الـرئيسية لشتى المعادن ـ بل للكائنات كافة ـ هي أربع : الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ، فلو عرفتَ طبع الشيء الذي تريد أن تحصل عليه ، كان في وسعك أن تلتمسه بتحويل طبائع المادة التي بين يديك حتى ترتدَّ إلى الطبع المقصـود ؛ وهو كـلام بعيد عما تألفه آذاننا اليوم ؛ لكننا لو أردنا أن نسبغ عليه من الألوان مـا يقرِّبـه إلى مفاهيمنا العلميـة اليوم ـ وليس هـذا بالأمـر الضروري في تاريـخ الفكر ، فليس عالِم الأمس مسؤولاً أمام عالِم اليوم مهما يكن بينهما من اختـلاف بعيد ، لكنه لولا عالِم الأمس لما كان عالِم اليوم ـ أقول برغم ذلك إننا لو أردنا أن نسبغ عـلى نظريـة جابـر ـ وهي نظريـة العلم القديم كله ـ لـوناً يقـربها إلى عقـولنـا اليوم ، لما كان علينا إلا أن نتذكر أساس النظرية الطبيعية في عصرنا الراهن ، وهو أن كل ما تحويه الطبيعة من أشياء مركب من ذرات ، ومهما اختلفت هذه الذرات في أوزانها ، فمادتها الخامة مؤلفة من ثـلاثة أصـول : الالكترونـات ، والبروتونات ، والنيوترونات ؛ أما الأولى فمشحونـة بشحنة كهـربية سـالبة ، وأما الثانية فمشحونة بشحنة كهربية موجبة ؛ وأما الثالثة فمتعادلة كهربيّاً ومن هذه الأصول الثلاثة يتـألف كل شيء ، حتى ليجـوز من الوجهـة النظريـة أن تحول العناصر بعضهـا إلى بعض إذا عرفت كيف تـزيد هنـا وتنقص هناك من هـذه الأصول الأوليـة ، حتى تحصل عـلى النسب المـطلوبـة التي منهـا يتكـون الشيء المقصود ؛ فلو كان ابن حيان قد تكلم بلغة الحرارة والـبرودة ، وعلماء هـذا العصر يتكلمون بلغـة الكهارب السـالبة والموجبة ، فقـد يكون الفـرق أقـرب مما نتـوهم ، إذا ترجمنـا الحرارة إلى معنـاها الحقيقي ، وهـو الحركـة ، فالحرارة حركة سريعة في الذرات و البرودة حركة بطيئـة ؛ فإذا كـانت الحرارة والبرودة ـ أو أن شئت فقل إذا كانت درجات الحـرارة المتفاوتـة هي في الحقيقة درجات من الحركة متفاوتة ، ثم إذا كانت هذه الحركة بدرجاتها المتفـاوتة هي طاقة ـ إن لم تكن الطاقة الكهربية بذاتها ـ فيمكن تحويلها إلى طـاقة كهـربية ، إذن فيكاد يتشابه القولان في الطبيعة : القول الذي يقـول أن الأصول الأوليـة للأشياء حركة بدرجاتها المتفاوتة ؛ والقول الذي يقول أنها كهـرباء ـ ولم نـذكر الـرطوبـة واليبوسـة من الطبائع الأربع التي أخـذ بهـا جـابـر ، لأنهما صفتـان

(١) أي أن باطن الحديد مساو لظاهر الزيبق : باطن رطب رخو .

(٢) أي أن تحويل النحاس إلى ذهب يقتضي أن تزيل عنه يبوسته لتحل محلها ليونة ، فيصبح الظاهر حاراً رطباً وهي صفات الذهب .

(٣) أي أن تحويل الزيبق إلى ذهب يقتضي السير في مرحلتين .

منفعلتان ، أي أنها تتفرعان عن الصفتين الفاعلتين اللتين هما : الحرارة والبرودة .

ولا يقتصر الأكسير ـ تحويل الكائنات ـ على المعادن عند جابر ، بل أن الأمر عنده ليمتد إلى الكائنات جميعاً ؛ فلا فرق بين ردّ النحاس إلى ذهب ، وبين ردّ المريض إلى إنسان سليم البدن ، فكلتا الحالتين تحويل للطبائع الفاسدة القائمة إلى طبائع سليمة ؛ ومن هنا كانت العلاقة وثيقة بين الكيمياء والطب ، فالأولى معالجة المعادن الخسيسة لترد معدناً نفيساً : والثاني معالجة الأبدان المريضة لترتد صحيحة ، وأساس العمل في الحالتين واحد ـ هو ما يطلق عليه اسم « الأكسير » .

وسأذكر فيما يلي شيئاً مما يرويه جابر عن نفسه فيما كان يؤديه في تطبيب المرضى :

قال مخاطباً سيِّده[١] الذي كثيراً جداً ما يوجه إليه الخطاب :

« وحق سيدي لقد خلصت به (أي بالأكسير) من هذه العلة أكثر من ألف نفس ، فكان هذا ظاهراً بين الناس جميعاً في يوم واحد فقط » .

« ولقد كنت يوماً من الأيام بعد ظهور أمري بهذه العلوم ، وبخدمة سيدي عند يحيى بن خالد[٢] ـ وكانت له جارية نفيسة لم يكن لأحد مثلها جمالاً وكمالاً وأدباً وعقلاً وصنائع توصف بها ؛ وكانت قد شربت دواء مُسهِّلاً لعلّة كانت بها ، فعنف عليها بالقيام ثم زاد عليها ، إلى أن قامت ما لم يكن من سبيل مثلها الخلاص منه ، ولا شفاء له ، ثم ذرعها مع ذلك القيء ، حتى لم تقدر على النفَس ولا الكلام البتة ؛ فخرج الصارخ إلى يحيى بذلك ، فقال لي : يا سيدي ما عندك في ذلك ؟ فأشرت عليه بالماء البارد وصبِّه عليها ، لأني لم أرها ولم أعرف في ذلك الشفاء للسموم ولقَطْعه مثل ذلك ؛ فلم ينفعها شيء بارد ولا حار أيضاً ؛ وذلك أني كمدت معدتها بالملح المحمَّى، وغمرت رجليها ؛ فلما زاد الأمر سألني أن أراها ، فرأيت ميتة خاملة القوة جداً ؛ وكان معي من هذا الأكسير شيء ، فسقيتها منه وزن حبتين بسكنجبين صِرْف ـ مقدار ثلاث أواق ـ فوالله وحق سيدي لقد سترتُ وجهي عن هذه الجارية ، لأنها عادت إلى أكمل ما كانت عليه في أقل من نصف ساعة زمانية ؛ فأكبَّ يحيى على رجليَّ مقبِّلاً لهما ، فقلت له : يا أخي لا تفعل ؛ فسألني فائدة الدواء ، فقلت له : خذ ما معي منه ، فلم يفعل ؛ ثم أنه أخذ في الرياضة والدراسة للعلوم وأمثال ذلك إلى أن عرف أشياء كثيرة ، وكان ابنه جعفر أذكى منه وأعرف » .

« وكانت لي جارية فأكلت زرنيخاً أصفر ـ وهي لا تعلم ـ مقدار أوقية ، فيما ذكرتُ ، فلم أجد لها دواء بعد أن لم أترك شيئاً مما ينفع السموم إلا عالجتُها به ، فسقيتُها منه وزن حبة بعسل وماء ، فما وصل إلى جوفها حتى رمت به بأسره وقامت على رسمها الأول . . . » .

---

(١) كتاب الخواص الكبير ، المقالة السادسة .

(٢) هو يحيى بن خالد البرمكي .

« وكنت يوماً خارجاً من منزلي قاصداً دار سيدي جعفر[٣] صلوات الله عليه ، فإذا أنا بإنسان قد انتفخ جانبه الأيمن كله ، واخضرَّ حتى صار كالسلق ـ لا بالمثال ولكن بالحقيقة ـ وإذا قد بدت الزرقة منه في مواضع ؛ فسألت عن حاله فقيل لي : أفعى نهشته الساعة فأصابه هذا ؛ فسقيته وزن حبتين بشدة في سقيه بماء بارد فقط ، لأني خفت أن يتلف سريعاً ، فوالله العظيم لقد رأيت لونه الأخضر والأزرق وقد حالا عما كانا عليه إلى لون بدنه ؛ ثم ضَمُرَتْ تلك النفخة حتى لم يبق منها شيء البتة ، وتكلم وقام وانصرف سالماً لا علة به . . . » .

الخواص والموازين :

دراسة خواص الأشياء ـ حيَّة كانت أو جامدة ـ أمر لا مندوحة عنه للعلم كله ، فمهما تكن طبيعة الجسم المراد تغييره ، ومهما تكن طبيعة الجسم المراد الحصول عليه ، فلا مناص للعالم من معرفة تحليلية يعرف بها نقطة البدء ونقطة الإنتهاء . وإلا لجاء عمله خبطاً على غير هدى ؛ ولقد أفرد ابن حيان لدراسة الخواص أكثر من كتاب ، أهمها كتابه « الخواص الكبير »[٤]ـ فيقول جابر في المقالة الأولى من كتاب الخواص الكبير أن جملة كتبه التي كتبها في الخواص واحد وسبعون كتاباً ، « منها سبعون كتاباً ترسم الخواص ، ومنها كتاب واحد يعرف بخواص الخواص ، وهو أشرف هذه الكتب » .

« والخاصيَّة كلمة شاملة للأسباب التي تعمل الأشياء الوحيَّة السريعة بطباعها ؛ وإن فيها نوعاً آخر يعمل للأشياء بإبطاء ، وإنها قد تنقسم أقساماً : فمنها ما يكون تعليقاً ، ومنها ما يكون شرباً ، ومنها ما يكون نظراً ، ومنها ما يكون مُسامَتةً ، ومنها ما يكون سماعاً ، ومنها ما يكون شماً ، ومنها ما يكون ذوقاً ، ومنها ما يكون لمساً . . . »[٥] . ويضرب لنا جابر الأمثلة لهذه الأنواع المختلفة فيقول عن « التعليف » أن العنكبوت إذا عُلِّق على صاحب حمى الربع (؟) أبرأه بإبطاء ، والذراريح تفعل مثل ذلك ، فإذا جُمعا وعُلِّقا على صاحب الحمى ، أبرآه سريعاً ، وكذلك مما يعمل بالتعليق « البيوت التسعة »[٦] التي فيها خمسة عشر من العدد كيف قُلبت ، فهي نافعة لتيسير الوضع للحبالى ، وهذه هي صورة « البيوت التسعة » :

٢	٩	٤
٧	٥	٣
٦	١	٨

ويضرب مثلاً على « المشروب » فيقول : أن السقمونيا يخرج الصفراء ، كما يضرب المثل على خواص « النظر » فيقول : إن الأفعى البلُّوطيّ الرأس إذا رأى الزمرد الخالص عمي وسالت عينه لوقتها وحيّاً

---

(٣) هو جعفر الصادق .

(٤) يقول هولميارد إن : « كتاب الخواص الكبير » هو أهم مؤلفات جابر ـ راجع ص ١٦ من كتاب « الكيمياء إلى عهد دولتن » .

(٥) كتاب الخواص الكبير ، المقالة الأولى .

(٦) إخراج ما في القوة إلى الفعل ، مختارات كراوس ، ص ٧٥ ـ وقد ذكر جابر اسم « البيوت التسعة » بغير شرح ، فشرحناه .

سريعاً ؛ وأفاعٍ بوادي الخَزْلَخ إذا رأت أنفسها ماتت وإذا رآها الناس ماتوا ، وكذلك جميع الحيوان ؛ والصنّاجة - وهي الدابة العظمى - لها عينان كأعظم ما يكون من الخلجان ، يكون مقدار كل عين منها ومدار حماليقها نحو فرسخ ، فتعمد هذه الأفاعي لتقتلها خاصة ، فتوافي هذا الوادي من بلاد دواخل التبّت ، فترفع أحداقها إلى أدمغتها حتى لا تنظر إليها ، فتقصدها هذه الأفاعي لتنهشها ، فتقابلها بأعينها وهي صافية فتنظر إلى صورتها فتموت ، فتأكلها تلك الدابة ؛ ولقد خُبِّرتُ أن وزن الأفعى منها نحو خمسين ألف رطل .

وأما عن « المسامّة » فيقول جابر : إن الكلب والضبعة العرجاء إذا سامّت فيئها فيئه (أي إذا جاء ظلها عمودياً على ظله) والكلب على سطح الجبل سقط سريعاً من غير مهلة حتى تأكله ؛ وأما « السماع » فإن الحيات والأفاعي وغير ذلك إذا سمعن صوت البومة هربن من وطنهن ؛ وأما « الشم » فإن الأسد والحمار - خاصة من جميع الحيوان - إذا أُخِذ من منيّ الأنثى منهما شيء وطلي به ثوب أو لحم أو جسد إنسان أو غير ذلك وشُمِّمَ لأحدهما منيُّه بعينه ، يتبع الشامُّ له أي وجه توجّه إليه ؛ وأما « الذوق » فالزاج والزيبق يفلج اللسان إذا وقع عليه ، والسموم وأفعالها وأمثال ذلك مما لا يحصى تعداده ؛ وأما « اللمس » فجبهة الأرنب البحري إذا لمست لحم الإنسان فتّقته »[١] .

ويحدد لنا جابر معنى « الخاصية » تحديداً يكاد يجعل هذه الكلمة مرادفة لما يسمّى في الفلسفة بالماهيّة ؛ فهو يقول : إن « الشيء الخاصيّ هو الذي يفعل الشيء بعينه ما يفعله - بكلام أهل الجدل »[٢] وهو يريد بهذه العبارة أن يقول : أن خاصيّة الشيء هي الوظيفة التي يؤديها ، فخاصية الحصان هي مجموعة الوظائف العضوية التي يؤديها الحصان ولا يؤديها حيوان سواه ، وإذن فخاصية الحصان هي « صورة » الحصان - بالمعنى الأرسطيّ لكلمة « صورة » - أو هي الماهية التي تجعل الحصان هو ما هو ؛ ولهذا ترى ابن حيان يستمر في عبارته السابقة فيقول عن الشيء الخاصيّ أيضاً : إن « لوجوده ما يوجد فعله معه - بكلام أهل المنطق » - فهاتان عبارتان يردف إحداهما بالأخرى ، مستمداً الأولى من مصطلح أهل الجدل ، ومستمداً الثانية من مصطلح أهل المنطق - كما يقول - والمعنى فيهما واحد ، وهو أن خاصية الشيء هي فعله ، فلا وجود لها بغير وجود هذا الفعل ، ولا وجود لهذا الفعل بغير وجودها ؛ ويزيدنا جابرٌ تعريفاً بالشيء الخاصيّ فيقول في السياق نفسه : « والشيء الخاصيّ لا يجوز أن يحول عن حاله على مرور السنين » وهذا بديهي ما دامت خاصية الشيء هي ماهيته ، وهي جوهره ، وهي صورته ، وهي وظيفته ؛ فمحال أن يبقى الشيء وتزول خصائصه الجوهرية التي أكسبته حقيقته ووضعته موضعه الصحيح بين سائر الأشياء .

ويمضي ابن حيان في كلامه عن الخاصيّ فيقول : إن « الشيء اليسير منه هو الفاعل على مثل الشيء الكثير منه ، ولكن القول في الكمية على مقدار ذلك ، كوزن الحبّة من المغناطيس تجذب اليسير من الحديد ، وكالرطل يجذب على قدره ؛ والأكثر فيه القوة التي يجذب بها ما جَذَبَ الأصغرُ لقلة كميته ودخولها في كميته ، وليس ذلك في الأصغر لقلته ، وإن ليس كمية الأكثر داخلة في كمية الأقل » - هذا نص نافذ ومفيد ، وهو يحتاج إلى بعض التوضيح لإلتواء عبارته اللفظية ؛ فمؤداه أن العنصر المعين ذو فعل معين لا يتغير من حيث نوع الفعل بتغير الكمية التي تأخذها منه ، فالمغناطيس - مثلاً - يجذب الحديد ، ولا فرق في ذلك بين مغناطيس كثير ومغناطيس قليل ، فالفعل واحد في نوعه ، وكل الفرق هو أن المغناطيس الكثير يجذب قطعة كبيرة من الحديد ، والقليل يجذب قطعة صغيرة ، على أن الكثير يفعل فعل القليل أيضاً ، والعكس غير صحيح ، أي أن القليل لا يفعل فعل الكثير .

إن هذه الأقوال التي أسلفناها ، والتي حاول بها جابر أن يحدد معنى « الخاصية » عندما نزعم أن للشيء المعين « خاصية » معينة ، إنما تنصرف إلى ما هو ذاتي في طبيعة الشيء ، ولا تنصرف إلى صفات أخرى قد يطلق عليها هي أيضاً اسم « الخواص » لكنها قد تكون سريعة الزوال أو بطيئته ؛ ولهذا نرى ابن حيان يذكر لنا في موضع آخر[٣] ثلاثة أنواع للخواص ، هي :

١ - سريع الزوال ، ويسمى حالاً .

٢ - بطيء الزوال ، ويسمى هيئة .

٣ - ذاتي فيما هو فيه .

فالتحديدات السالفة ، مقصود بها النوع الثالث ، أي ما يكون ذاتياً في الشيء ، وليس المقصد بها حال الشيء ولا هيئته .

وهنا يورد جابرٌ عبارة أراها بالغة الأهمية في وصف الروح المنهجية عنده ؛ وهي[٤] :

« الخاصية تابعة لعملها . . . لأن الخواص لا تتفق في جوهرين مختلفين بوزن واحد ، ولكنها إذا اتفقت في جوهرين أو جواهر عدة كان حدها مثل الجوهر الأول سواء في الكيفية وجميع الحدود ، لأنه من الممتنع وجود جوهرين حَدُّهما حدان مفردان يقال عليهما خاصية واحدة . . . لأن المستحدَّيْن بحد واحد متفقان في الجوهرية والعرضية » .

« الخاصية تابعة لعملها » - هذا هو بعينه المبدأ الذي تدور عليه الفلسفة البراجماتية المعاصرة كلها ، وهو تعريف موجز لما يسمونه اليوم « بالتعريف الإجرائي » ؛ ومعناه أنك إذا أردت أن تعرِّف كلمةً ما ، وجب أن ينحصر التعريف في مجموعة الأفعال التي يسلك بها الشيء المسمى بتلك الكلمة ؛ فلا فائدة للعلوم إذا الأنت عَرَّفت كلمة بكلمات ، وهذه بسواها ؛ لأنك عندئذ ستدور في كلمات ، ولا تجاوزها إلى حيث الطبيعة الواقعة ؛ فأولاً - إذا لم يكن للكلمة مدلولها الخارجي الذي يكون ذا عمل يؤدّى ، فالكلمة عندئذ تكون لغواً لا يدخل في مجال العلم ؛ وثانياً - لو كان لهذه الكلمة مدلولها الخارجي ، ثم أردنا تحديد معناها تحديداً لا يدع مجالاً

(١) أثبتنا هذه الأشياء التي لا شك في مجافاتها لروح العلم التجريبي الذي عرف به جابر ، وذلك لنرسم صورة صحيحة للرجل من شتى نواحيه .

(٢) كتاب الخواص الكبير ، المقالة الأولى .

(٣) كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل ، مختارات كراوس ، ص ٧٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٣ - ٧٤ .

للإختلاف بين مختلف الباحثين ، وجب أن يكون أساس التحديد هو السلوك المشاهَد للشيء الذي أطلقت عليه تلك الكلمة ، فإذا اتفقنا على أن ذلك السلوك هو ا ب جـ د ، كانت ا ب جـ د هي ما يحدد الكلمة المراد تحديدها ؛ فإذا اختلف اثنان في معناها كان الفيصل بينهما هو ما يشاهدانه معاً من الجانب الأدائي للشيء ؛ ومعنى هذا كله هو أن « العمل » يأتي في المشاهدة أولاً ، وبعد ذلك يجيء علمنا بحقيقة الشيء الذي كان من شأنه أن يؤدي ذلك العمل ؛ وثالثاً ـ لو اختلفت عبارتان لفظيتان في مضمونهما ، لكن « العمل » الذي تنطوي عليه إحداهما هو نفسه « العمل » الذي تنطوي عليه الأخرى ، لوجب أن تكون العبارتان مترادفتين في المعنى مهما بدأ في ظاهرهما من تباين ، لأن العمل الواحد لا يصدر عن شيئين مختلفين جوهراً ؛ والعكس صحيح أيضاً ، وهو أنه محال علينا أن نصرف معنى واحداً إلى شيئين مختلفين في الجانب الأدائي ، لأنه ما دام الأداء قد اختلف ، فقد اختلفت خاصية الشيء المؤدِّي ـ وهذا كله متضمن في عبارة جابر بن حيان التي أسلفناها :

أ ـ فالخاصية تابعة لعملها .

ب ـ الخاصية الواحدة (أي العمل الواحد) لا يكون في شيئين مختلفين .

جـ ـ إذا اتفق شيئان في خاصية واحدة (أي في عمل واحد) كانا في الحقيقة شيئاً واحداً من حيث جوهرهما .

د ـ إذا كان لشيئين تعريفان مختلفان ، فمحال أن يتحدا في فعل واحد .

هـ ـ إذا كان لشيئين تعريف واحد ، كان الشيئان متفقين في الخصائص ، أي فيما يحدثانه من أثر .

تلك لمحات عن خصائص الأشياء وحدودها ؛ وعلى أساس هذه الخصائص تنبني موازين الأشياء ، وميزان الشيء هو الحكم عليه لا من حيث كيفه بل من حيث مقداره ؛ وبغير معرفة المقادير ، ينسدُّ طريق العمل أمام العالِم الذي يتناول الأشياء بتدبيره وتصريفه .

ولعل فكرة « الميزان » أن تكون أدق وأعسر وأهم فكرة لجابر بن حيان ، وسأحاول هنا عرضها عرضاً مبسطاً أتخلص فيه من التفصيلات التي تعقِّد الفهم ولا تفيد كثيراً في رسم الصورة العامة التي نحاول أن نقدمها عن جابر .

يقول جابر ـ على سبيل الإجمال ـ : إن « العلة الأولى هي العقل ، والعقل هو العلم ، والميزان هو العلم ، فكل فلسفة وعلم فهو ميزان ، فكأن الميزان جنس ، والفلسفة فرع ينطوي تحته ، هي وكل ما يتصل بها من فروع »[1] ـ ومعنى ذلك أن المبدأ الأول الذي يجوز لنا أن نتصور كل شيء آخر متفرعاً عنه ، لكننا لا نتصور ما هو أسبق منه ، هو العقل ؛ فلولا وجود العقل بادىء ذي بدء ، لما كان كون ؛ وإذا كان هذا هكذا ، فكل شيء في العالم إنما يسير وفق مبادىء العقل ، وليس الأمر متروكاً للمصادفة العمياء ؛

(١) كتاب الخواص الكبير ، المقالة الثانية .

« فالعلة الأولى هي العقل » والعقل والعلم اسمان مترادفان على مسمًى واحد ، فما تسميه عقلاً هو نفسه ما يصح أن تسميه علماً ، لأن العلم عقل جُسِّد وتبلور في قوانين تسير عليها الطبيعة ؛ وما كانت هذه القوانين لتصاغ إلا إذا عرفنا طبائع الأشياء ومقدار هذه الطبائع في كل شيء على حدة ، ومن هنا كان « الميزان هو العلم » ، لولا أن كلمة « ميزان » أعم من كلمتي علم وفلسفة ، لأن كل حَصْر لمقادير الأشياء ميزان ، وبعض هذه المقادير يندرج تحت عمل الفيلسوف وبعضها يندرج تحت عمل العالِم ؛ « فكأن الميزان جنس ، والفلسفة فرع ينطوي تحته ، هي وكل ما يتصل بها من فروع » ـ وفي هذا المعنى نفسه يقول جابر في موضع آخر : « إن قواعد الفلسفة هي قواعد الميزان ، أو بعض قواعدها قواعدُ الميزان »[2] أي أن عمل الفيلسوف إما أن يجيء متطابقاً مع العلم بالموازين تطابق المتساويين ؛ وإما أن يكون علم الموازين شاملاً للفلسفة بجانب منه دون جانب .

وخشية أن يختلط أمر « الميزان » في الأفهام ، بسبب تعدد معاني هذه الكلمة ، قال ابن حيان مُنَبِّهاً : إن هنالك نوعين من الميزان ، فهو إما ميزان للطبائع ، وإما ميزان وزنيّ ؛ فأما ميزان الطبائع فهو العلم الذي نعلم به كم من الطبع الفلاني (الحرارة ، البرودة ، اليبوسة ، الرطوبة) موجود في الكائن الفلاني ؛ هل تغلب عليه الحرارة أو البرودة ، واليبوسة أو الرطوبة ؟ فإن كانت الحرارة غالبة عرفنا أن البرودة فيه مستكنة مستَبْطنة ، وإن كانت البرودة غالبة عرفنا أن الحرارة فيه هي المستكنة المستبطنة ، وكذلك قل في صفتي اليبوسة والرطوبة ؛ وما دمنا قد عرفنا أي الطبائع قد غَلَبَ فظَهَرَ ، وأيها قد انكمش فاختفى ، فإن طريق العمل ينفتح أمامنا لإجراء التجارب التي نحول بها الجسم على أي نحو أردنا ، فنقلل من حرارته لنزيد في برودته ، أو نقلل من صلابته لنزيد من ليونته ، وهكذا ؛ وسنذكر بعد قليل لمحة من وزن هذه الطبائع بمقادير كمية متفاوتة كيف يكون .

هذا هو ميزان الطبائع ، وأما « الميزان الوزنيُّ » فهو أن يكون مقدار الوزنين في الميزان مقداراً واحداً ؛ على أن « للميزان الوزني » معنى آخر ، وهو أن يتماثل الشكلان ، فإن كان أحدهما مدوراً كان الآخر مدوراً كذلك ، أو مسطحاً كان مسطحاً .

ومن معاني الميزان كذلك أن يُحَلِّل الشيء المركب المخلوط إلى عناصره التي منها ركِّب وخُلط ، وفيها يقول جابر : « أما موازين الأشياء التي قد خُلطت مثل أن يُخلط زجاج وزيبق على وزن مَّا . . . فإنَّ في قوة العالِم في الميزان أن يكوِّن لك كم فيه من الزجاج وكم فيه من الزيبق ؛ وكذلك الفضة والذهب ، والنحاس والفضة ؛ أو ثلاثة أقسام أو أربعة أو عشرة أو ألف إن جاز أن يكون ذلك ؛ فإنَّا نقول : إن هذا من الحِيَل على تقريب الميزان وهو حسن جداً ، ولو قلت أنه كالدليل على صحة هذا العلم ـ أي علم الموازين ـ لكنت صادقاً . . . »[3] .

(٢) كتاب الخواص الكبير ، المقالة الأولى .

(٣) كتاب الأحجار على رأي بلنياس ، الجزء الثاني .

ويسوق لنا جابرٌ مثلاً كيف نصنع « الميزان الوزني » وكيف نستخدمه، وفي أي البحوث العلمية تستخدمه ، وسأثبت هنا قوله بنصه لدلالته أولاً على دقته التجريبية ، وثانياً على سداد منهجه للوصول إلى نتائج علمية في موضوع كالوزن النوعي للمعادن ، وما أشبهه بعالِم اليوم إذ يثبت تجاربه فيصف أجهزته التي استعان بها ، ثم يصف الطريقة التي استخدمها بها ، بالإضافة إلى النتائج التي يوصل إليها ؛ قال جابر في استخراج الوزن النوعي للذهب والفضة :

« فاستعمل ميزاناً على هيئة الأشكال ، ويكون بثلاث عُرًى خارجة إلى فوق ، واعمل بهذه الكفتين كعمل الموازين ، أعني من شدِّك بها الخيوط وما يحتاج إليه ؛ ولتكن الحديدة الواسطة التي فيها اللسان في نهاية ما يكون من الإعتدال حتى لا يميل اللسان فيها أولاً ـ قبل نصب الخيوط عليها ـ إلى حَبَّة من الحبات ، ويكون وزن الكفتين واحداً وسعتهما واحدة ومقدار ما يملؤهما واحداً ، فإذا فرغتَ من ذلك على هذا الشرط ، فلم يبق عليك كثير شيء ؛ ثم شدَّ الميزان كما يُشَدُّ سائر الموازين ، ثم خذ إناء فيه ما يكون عمقه إلى أسفل نحو الشبر أو دونه أو أكثر كيف شئت ؛ ثم املأه ماء قد صُفِّيَ أياماً من دَغْله وقَذَره وما فيه ـ كما تصفَّى البنكانات[1] ـ ثم اعمد إلى سبيكة ذهب أحمر خالص نقي جيد ، ويكون وزنها درهماً ، وسبيكة فضة بيضاء خالصة صرفاً ، ويكون وزنها درهماً ؛ ويكون مقدار السبيكتين واحداً ، ثم ضع الذهب في إحدى الكفتين والفضة في الأخرى ، ثم دَلِّ الكفتين في ذلك الماء الذي وصفنا إلى أن تغوصا في الماء وتمتلئا من الماء ؛ ثم اطرح الميزان ، فإنك تجد الكفة التي فيها الذهب ترجح عن الكفة التي فيها الفضة ، وذلك لصغر جرم الذهب وانتفاش الفضة ، وذلك لا يكون إلا من اليبوسة التي فيها ، فاعرف الزيادة التي بينهما بالصنجة . . .

« وكذلك يقاس كل جوهرين وثلاثة وأربعة وخمسة وما شئت من الكثرة والقلّة ، مثل أن تعرف النسبة التي بين الذهب والنحاس ، والفضة والنحاس ، والذهب والنحاس والرصاص ، والفضة والرصاص والنحاس ، والفضة والذهب والرصاص . . . وكذلك إن شئت واحداً واحداً ، وإن شئت اثنين اثنين ، أو ثلاثة ثلاثة أو كيف أحببت »[2] .

وبعد أن استطردنا قليلاً في الحديث عن المعاني المختلفة « للميزان » نعود إلى « ميزان الطبائع » لنفصِّل فيه القول تفصيلاً لا نستوعب به كل شيء ، لكنه يكفي لتقديم فكرة عن هذا الركن الهام من كيمياء جابر بن حيان .

لقد سبق لنا أن ذكرنا ـ عند الحديث عن الحروف وأوزانها ـ أن تحليل الاسم دالٌّ على طبيعة المسمى ، فتحليل كلمة « ذهب » ـ مثلاً ـ دالٌّ على طبيعة الذهب العينيِّ الذي سمِّي بذلك الاسم ؛ لكن كيف يكون تحليلنا للاسم لنستدل به على طبيعة مسماه ؟

ليست الحروف كلها سواء في المنزلة ، بل منزلاتها متفاوتات القيمة ؛

(١) كتاب الأحجار على رأي بليناس ، الجزء الثاني .

(٢) البنكان كلمة فارسية الأصل ، ومعرَّب « بنكان » هو « فنجان » .

ويقسم جابر هذا السُّلَّم سبعة أقسام ، وكان يستطيع أن يكتفي بأقل من ذلك ، كما كان يستطيع أن يزيد من هذه الأقسام ، لكنه يرى أن السبعة الأقسام تحقق قدراً من الدقة العلمية يكفل سلامة النتائج ؛ وهو يطلق على هذه المنازل المتدرجة الأسماء الآتية ، بادئاً من أعلاها إلى أدناها : المرتبة وجمعها مراتب ، الدرجة وجمعها دَرَج ، الدقيقة وجمعها دقائق ، الثانية وجمعها الثواني ، الثالثة وجمعها الثوالث ، الرابعة وجمعها الروابع ، والخامسة وجمعها الخوامس ؛ وحروف الأبجدية تنقسم إلى هذه الأقسام السبعة على هذا النحو :

أ ، ب ، جـ ، د المراتب .
هـ ، و ، ز ، ح الدَّرَج .
ط ، ى ، ك ، ل الدقائق .
م ، ن ، س ، ع الثواني .
ف ، ص ، ق ، ر الثوالث .
ش ، ت ، ث ، خ الروابع .
ذ ، ض ، ظ ، غ الخوامس .

على أن كل هذا التقسيم يتكرر بأسره أربع مرات ، تسمَّى أولاها بالمرتبة الأولى ، وثانيتها بالمرتبة الثانية ، وثالثتها بالمرتبة الثالثة ، ورابعتها بالمرتبة الرابعة ؛ وفي كل مَرْتبة من هذه المراتب الأربع تقسم الحروف أربع مجموعات ، كل مجموعة منها سبعة أحرف ، لتقابل الطبائع الأربع : الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة :

فالحرارة يقابلها دائماً : أ هـ ط م ف ش ذ .
والبرودة يقابلها دائماً : ب و ى ن ص ت ض .
واليبوسة يقابلها دائماً : ج ز ك س ق ث ظ .
والرطوبة يقابلها دائماً : د ح ل ع ر خ غ .

وما دامت هذه المجموعات مقسمة على هذا النحو ، تتكرر أربع مرات ، هي المراتب الأربع ، فمعنى هذا هو أن الحرف الواحد ، مثل حرف « ذ » ـ مثلاً ـ تختلف قيمته باختلاف موضعه ، لأن موضعه قد يكون في مرتبة أولى ، فتكون له قيمة معينة ، وقد يكون في مرتبة ثانية فتكون له قيمة أخرى ، وقد يكون في مرتبة ثالثة فتكون له قيمة ثالثة ، وقد يكون في مرتبة رابعة فتكون له قيمة رابعة .

وفيما يلي قوائم أربع ، لكل مرتبة من المراتب الأربع قائمة ، تبين موازين الحروف المختلفة في كل حالة منها[3] :

١ ـ المرتبة الأولى

مرتبة		درهم ودانق	ب	درهم ودانق
درجة	هـ	نصف	و	نصف

(٣) كتاب الأحجار على رأي بليناس ، الجزء الثاني .

دقيقة ط دانقان ى دانقان

درهم درهم

ثانية ونصف ونصف

م دانقان ن دانقان

ثالثة ف دانق ص دانق

ونصف ونصف

رابعة ش دانق ب دانق

خامسة ذ قيراط ض قيراط

ج درهم د درهم

ودانق ودانق

ز نصف ح نصف

درهم درهم

ك دانقان ل دانقان

ونصف ونصف

س دانقان ع دانقان

ق دانق ر دانق

ونصف ونصف

ث دانق خ دانق

ظ قيراط غ قيراط

الحرارة البرودة اليبوسة الرطوبة

٢ ـ المرتبة الثانية

مرتبة أ ٣ $\frac{١}{٢}$ درهم ب ٣ $\frac{١}{٢}$ درهم

درجة ه ١ $\frac{١}{٢}$ درهم و ١ $\frac{١}{٢}$ درهم

دقيقة ط ١ $\frac{١}{٤}$ درهم ى ١ $\frac{١}{٤}$ درهم

ثانية

ثالثة م درهم ن درهم

ف ٤ $\frac{١}{٢}$ دانق ص ٤ $\frac{١}{٢}$ دانق

رابعة

ش $\frac{١}{٢}$ درهم ت $\frac{١}{٢}$ درهم

خامسة ذ ١ $\frac{١}{٢}$ دانق ض ١ $\frac{١}{٢}$ دانق

ج ٣ $\frac{١}{٤}$ درهم د ٣ $\frac{١}{٢}$ درهم

ز ١ $\frac{١}{٢}$ درهم ح ١ $\frac{١}{٢}$ درهم

ك ١ $\frac{١}{٤}$ درهم ل ١ $\frac{١}{٤}$ درهم

س درهم ع درهم

ق ٤ $\frac{١}{٢}$ دانق ر ٤ $\frac{١}{٢}$ دانق

ث $\frac{١}{٢}$ درهم خ $\frac{١}{٢}$ درهم

ظ ١ $\frac{١}{٢}$ دانق غ ١ $\frac{١}{٢}$ دانق

الحرارة البرودة اليبوسة الرطوبة

٣ ـ المرتبة الثالثة

٥ درهم ٥ درهم

مرتبة أ ب

٥ دانق ٥ دانق

درجة هـ ٢ $\frac{١}{٢}$ درهم و ٢ $\frac{١}{٢}$ درهم

دقيقة ٢ درهم ى ٢ درهم

ط

١ قيراط ١ قيراط

ثانية م ١ درهم ن ١ درهم

٤ دانق ٤ دانق

ثالثة ف ١ درهم ص ١ درهم

١ $\frac{١}{٢}$ دانق ١ $\frac{١}{٢}$ دانق

رابعة ش ٥ دانق ب ٥ دانق

خامساً ذ ٢ $\frac{١}{٢}$ دانق ض ٢ $\frac{١}{٢}$ دانق

٥ درهم ٥ درهم

ج د

٥ دانق ٥ دانق

ز ٢ $\frac{١}{٢}$ درهم ح ٢ $\frac{١}{٢}$ درهم

٢ درهم ل ٢ درهم

ك

١ قيراط ١ قيراط

١ درهم ع ١ درهم

س

٤ دانق ٤ دانق

ق ١ درهم ١ درهم

ر

١ $\frac{١}{٢}$ دانق ١ $\frac{١}{٤}$ دانق

ث ٥ دانق خ ٥ دانق

ض ٢ $\frac{١}{٢}$ دانق غ ٢ $\frac{١}{٢}$ دانق

الحرارة البرودة اليبوسة الرطوبة

٤ ـ المرتبة الرابعة

٩ درهم ٩ درهم

مرتبة أ ب

٢ دانق ٢ دانق

درجة هـ ٤ درهم و ٤ درهم

دقيقة ط ٣ $\frac{١}{٣}$ درهم ى ٣ $\frac{١}{٣}$ درهم

٢ درهم ٢ درهم

ثانية م ٤ دانق ن ٤ دانق

المرتبة	الحرف	الوزن	الحرف	الوزن
ثالثة	ف	٢ درهم		٢ درهم
			ص	
		١ درهم		١ درهم
رابعة	ش	٢ دانق	ت	٢ دانق
خامسة	ز	٤ دانق	ض	٤ دانق
		٩ درهم		٩ درهم
	ج		د	
		٢ دانق		٢ دانق
	ز	٤ درهم	ح	٤ درهم
	ك	$\frac{1}{3}$ ٣ درهم	ل	$\frac{1}{3}$ ٣ درهم
		٢ درهم		٢ درهم
	س	٤ دانق	ع	٤ دانق
	ق	٢ درهم	ر	٢ درهم
		١ درهم		١ درهم
	ث	٢ دانق	خ	٢ دانق
	ظ	٤ دانق	غ	٤ دانق
	الحرارة	البرودة	اليبوسة	الرطوبة

وعلى سبيل التطبيق الموضح لإستخدام هذه القوائم ، نقول : أفرض أن الكلمة التي تزيد وزنها هي كلمة « ذهب » ، فانظر في حرف « ذ » أين يقع من الكلمة ؟ تجده يقع في مرتبة أولى ، فراجع قائمة المرتبة الأولى تجد حرف « ذ » يساوي قيراطاً ؛ وانتقل إلى الحرف الثاني من الكلمة وهو « هـ » فراجع قائمة المرتبة الثانية تجد حرف « هـ » يساوي درهماً ونصف درهم ؛ ثم انتقل إلى الحرف الثالث من الكلمة ، وهو « ب » ، فراجع قائمة المرتبة الثالثة تجد حرف « ب » فيها يساوي خمسة دراهم وخمسة دوانيق ، وإذن فكلمة « ذهب » تزن قيراط + درهم ونصف درهم + خمسة دراهم وخمسة دوانيق .

خذ مثلاً آخر ، كلمة « فضة » ، فابدأ بحذف الأحرف الزوائد وهي : التاء ، فيبقى لك منها « ف ض ض » (فضّ) : « الفاء » مرتبة أولى تساوي دانقاً ونصفاً ، « والضاد » مرتبة ثانية تساوي دانقاً ونصفاً ، والضاد مرتبة ثالثة تساوي دانقين ونصفاً ؛ اجمع هذه المقادير يكن لك وزن الفضة .

ويحذرك جابر أن « لا تعط المرتبة الأولى ولا شيئاً من أجزائها ما قد حُكِمَ به للمرتبة الثانية ولأشياء من أجزائها ، لئلا يدخل بعض في بعض »[1] .

هذه صورة مبسطة غاية التبسيط لطريقة الحساب التي يوزن بها شيء ما ، تمهيداً لتحويله إلى شيء آخر ، أو لتحويل شيء آخر إليه ـ لا فرق في هذا بين جماد ونبات وحيوان .

ويلخص هولميارد[2] نظرية جابر في طبيعة المعادن تلخيصاً موجزاً ومفيداً ـ فيقول : إن جابراً قد تقدم تقدماً واضحاً على النظريات العلمية التي خلَّفها اليونان ، وعلى الصوفية الملغزة التي تركتها مدرسة الإسكندرية ؛ فللمعادن ـ عنده ـ مقومان : « دخان أرضي » و « بخار مائي » ، وتكثيف هذه الأبخرة في جوف الأرض ينتج الكبريت والزيبق ، واجتماع هذين يكوِّن المعادن ، والفروق بين المعادن الأساسية ترجع إلى فروق في النسب التي يدخل بها الكبريت والزيبق في تكوينها ؛ ففي الذهب تكون نسبة الكبريت إلى الزيبق نسبة تعادل بين هذين العنصرين ، وفي الفضة يكون العنصران متساويين في الوزن ؛ أما النحاس ففيه من العنصر الأرضي أكثر مما في الفضة ، وأما الحديد والرصاص والقصدير ففيها من ذلك العنصر أقل مما في الفضة ؛ ولما كانت المعادن مكونة من مقومات مشتركة ، فإن تحويل بعضها إلى بعض يصبح أمراً مستطاعاً ، وعندما يقوم الكيموي بهذا التحويل فإنه يؤدي في وقت قصير ما تؤديه الطبيعة في وقت طويل ، ولهذا يقال أن الطبيعة تستغرق ألف عام في صناعة الذهب ؛ على أن جابراً ـ فيما يظهر ـ لم يأخذ نظرية الكبريت والزيبق هذه مأخذاً حرفياً ، بل فهمها على أنها صورة تقريبية لما يحدث ، إذ هو يعلم علماً تاماً بأن الزيبق والكبريت العاديين إذا خُلطا ومُزجا لم ينتجا معدناً ، بل أنهما عندئذ ينتجان كبريتور الزيبق الأحمر ؛ ولهذا فالكبريت والزيبق اللذان تتكون منهما المعادن ليسا هما الكبريت والزيبق المألوفين ، بل هما عنصران افتراضيان يكون الكبريت والزيبق المألوفان أقرب شيء إليهما .

وإن جابراً ليسوق في هذا الصدد ملاحظات تدل على إلمامه بالنظرية الذرية القديمة التي أخذ بها ديمقريطس وأتباعه ؛ ولو نظرنا إلى ملاحظاته تلك على أنها تعبر عن رأيه في طبيعة التفاعل الكيموي لألفيناها جديرة بالذكر ، بل لوجدناها على درجة مذهلة من الدقة والوضوح .

يقول جابر ما معناه : إنه حين يتحد الزيبق والكبريت ليكونا عنصراً واحداً ، فالظن هو أنهما يتغيران تغيراً جوهرياً أثناء تفاعلهما ، وأن شيئاً جديداً ينشأ عن ذلك التفاعل ، لكن الأمر على حقيقته هو غير ذلك ، ذلك أن الزيبق والكبريت كليهما يحتفظان بطبيعتهما ؛ وكل الذي حدث هو أن أجزاء كل منهما قد طرأ عليهما من التهذيب ما قرَّبها من أجزاء الآخر تقريباً جعلهما يبدوان للعين كأنما هما متجانسان ؛ لكننا لو أوتينا الجهاز العلمي الملائم الذي نفصل به أجزاء أحدهما عن أجزاء الآخر ، لتبين أن كلاً منهما قد ظل محتفظاً بطبيعته الأصلية الثابتة ، فلم يطرأ عليه تحول ولا تغير ، فمثل هذا التغير والتحول محال عند الفلاسفة الطبيعيين .

وإن علم الكيمياء ليسجِّل كشوفاً هامة ، فهو مكتشف « الماء الملكي » Aqua Regia ، و « زيت الزاج » ـ حامض الكبريت ـ Sulphuric Acid ، و « ماء العقد » Nitric Acid ، و « حجر جهنم » ـ نترات الفضة ـ[3] Nitrate of Silver ؛ ويرجح أنه هو الذي ركَّب الزرنيخ ، وحجر الكحل من الزرنيخ ، والأثميد Ithmid ، وهي ما يرمز إليه في علم الكيمياء بالصيغ

(١) كتاب الأحجار على رأي بليناس ، الجزء الثاني ، مختارات كراوس ص ١٦٥ .
(٢) Holmyard, E. J. Chemistry to the Time of Dalton ص ١٨ .
(٣) دائرة المعارف الإسلامية .

الآتية على التوالي : ا س٢ س٢ ، ا س٢ س٢ ، س ب٢ س٢[١] .

تكوين الحيوان :

الرأي عند جابر بن حيان هو أن العالِم الكيمويَّ في مستطاعه أن يحول أي كائن إلى أي كائن آخر ، ما دامت هـذه الكائنـات من المركّبات وليست هي من العناصر الأولية البسيطة ؛ فليس الأمر بمقصور على تحويل معدن إلى معدن وحجر إلى حجر ، بل أنه ليتعدى ذلك إلى عالَمي النبات والحيوان بغير استثناء الإنسان نفسه ؛ وكل الفرق بين حالة وحالة هو في طريق السير في التجارب التي نجريها للتحويل ؛ فما يخرج من الحجر يرتد إلى حجر بطريق مباشر ، أما ما يخرج من النبات أو الحيوان فلا يرتد نباتاً ولا حيواناً إلا إذا مرّ أولاً بمرحلة الحجرية[٢] ؛ أي أنك إذا أردت تحويل كائن حي إلى كائن حي آخر ، كان لا بد في ذلك من تحويل الكائن الحي المراد تحويله إلى جماد خال من الحياة أولاً ـ أي إلى حجر ـ ثم بعد ذلك تُجرَى التجارب التي تعيد تشكيل هذا الجماد على الصورة التي تكسبه الحياة على النحو المطلوب .

ولعل أغرب ما في هذا الموضوع هو محاولة جابر صناعة الإنسان على أي صورة شاء ، وموضع الغرابة عندي هو أن يصدر هذا عن رجل يعتقد في ديانة تجعل خلق الإنسان من شأن الله وحده ؛ فلا بد أن يكون ثمة وجه لتبرير ذلك عند جابر ولكني لا أراه ؛ وما أقرب الشبه بين الأحلام التي ساورت جابراً في زمانه من حيث محاولته خلق تكوينات حية شاذة عن الكائنات المألوفة ، أقول ما أقرب الشبه بين هـذه الأحلام وبين ما قد تحقق هذه الأيام من « تطعيم » الحيوانات بعضها ببعض ، فيركّبون أعضاء حيوان في جسم حيوان آخر وهكذا ؛ فانظر ـ مثلاً ـ إلى جابر وهو يحدثنا عن الطريقة التي يمكن بها أن ننقل وجه رجل إلى جسم جارية ، أو أن ننقل بها عقل رجل إلى جسم صبيٍّ صغير[٣] .

ويعرض جابرٌ عدة مذاهب في تكوين الكائن الحي ـ بما في ذلك الإنسان ـ فمنها :

١ ـ مذهب يجعل التكوين قائماً على أساس آليٍّ ، وذلك بتكوين الأجزاء ، ثم حلّها وتركيبها على النحو المراد[٤] .

٢ ـ ومذهب يلجأ إلى طريقة التعفين ؛ وذلك بأن يوضع المثال المراد التكوين على صورته ، في جوف دائرة مصنوعة من نحاس ومملؤها ماء ؛ ثم توضع دائرة النحاس في دائرة من الطين ، إلى آخر تفصيلات التجربة[٥] .

٣ ـ ومذهب يرى أن روح الكائن الحي لا يتولد إلا من الهواء ؛ وأصحاب هذا الرأي يجعلون المثال المراد التكوين على صورته ، في دائرة معدنية مثقوبة ثقوباً كثيرة ، وتكون فارغة ، ثم يضعونها في دائرة نحاسية مملوءة ماءً ، وتوضع هذه الأخيرة بدورها في دائرة من طين ، وتوقد عليها النار الخ[٦] .

٤ ـ ومذهب يقول أنه لا تكوين إلا بالمنيِّ داخل الصنم ؛ فيوضع منيُّ الحيوان المطلوبة صورته في جسم من طين ؛ فإذا أريد ـ مثلاً ـ صنع إنسان ذي جناح ، وضعنا منيَّ الطائر صاحب ذلك الجناح في العجينة المصنوعة الخ[٧] .

٥ ـ وطائفة ترى أن التكوين بالعقاقير والميزان[٨] وأحسب أن عالِمنا جابراً بن حيان هو من هؤلاء[٩] .

٦ ـ وطائفة ترى أنه يكون باستخدام دم الجنس المراد التكوين على مثاله[١٠] .

ويفيض جابر القول في صنوف الحيوان كيف تُصْنع ، مما لا نرى موجباً لذكره مفصَّلاً ؛ وحسبنا أن نشير إلى أن التقسيم الرباعي هو دائماً أساس الصناعة عنده ؛ فالحيوان ـ كغيره من الكائنات ـ منه ما تغلب عليه الحرارة ومنه ما تغلب عليه البرودة ؛ فما تغلب عليه الحرارة يكون ذكياً سريعاً ، وما تغلب عليه البرودة يكون بطيئاً بليداً ؛ ويمكن تصنيف الحيوان على الفئات الأربع المعروفة : النار والهواء والماء والأرض ؛ فمنها ما هو في طبيعته أقرب إلى طبيعة النار ، ومنها ما هو أقرب إلى طبيعة الهواء ، وهلم جرا .

ويهمنا الإنسانُ من بقية الحيوان ، فهو ـ على وجه الإجمال ـ من صنوف الحيوان التي تندرج تحت طبيعة الهواء ؛ ففيه عقل ونفس وبدن ، بالعقل يفهم ، وبالنفس يتحلى بصفات مثل الكرم والبخل والعلم والجهل وما إلى ذلك ، وأما البدن فهو مصنوع من العناصر الأربعة المعروفة ؛ ولما كانت الجوانب المميزة للإنسان مقرها الدماغ ، كان الأصل الذي منه يتكون هو الدماغ ؛ والدماغ ثلاثة أقسام : قسم للخيال ، وقسم للفكر ، وقسم للتذكر[١١] .

ويضع جابر قاعدة عامة لتكوين الحيوان وانحلاله ، وهي : « أن ما يتولد من شيء مَّا ، يكون هذا الشيء قوامه » فلو وضع في طبيعة تضاد طبيعته هَلَك ؛ ويتناول جابر عدداً كبيراً من صنوف الحيوان فيصف لكل حيوان أنسب ظروف لتوليده ، فالحيات تتولد من الشّعر الموضوع في زجاج ؛ والعقارب من التراب وعكر الدِّبْس ؛ والزنابير من اللحم كثير التخريم ، أعني اللحم الميت ، والدود من اللحم الذبيح ، والبق من نخين الخل ، والذباب من الأشياء الحلوة ، وهكذا . . . ملاحظات يجمعها جابر ولو كان أدق تحليلاً لملاحظاته ، لردَّ هذه الظروف التي يتولد فيها هذا الحيوان أو ذاك

(١) هولميارد ، الكيمياء إلى عهد دولتن ، ص ٢٠ .
(٢) كتاب السر المكنون الجزء الأول .
(٣) كتاب التجميع ، مختارات كراوس ، ص ٣٤٤ .
(٤) نفس المرجع ، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٦ .
(٥) نفس المرجع ، ص ٣٤٧ .
(٦) نفس المرجع ، ص ٤٣٨ .
(٧) نفس المرجع ، ص ٣٤٩ .
(٨) نفس المرجع ، ص ٣٤٩ .
(٩) نقول ذلك ، مع علمنا بأن جابراً يقول في ختام الموضوع : « وينبغي لك أيها المتعلم أن تعلم أن جميع هذه الوجوه حق أنَّها مُحِيل به » .
(نفس المرجع المذكور ، ص ٣٥٠) .
(١٠) نفس المرجع ، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ .
(١١) نفس المرجع ، ص ٣٧١ ـ ٣٧٢ .

إلى عواملها الأولية ؛ فكأني به قد أكتفي بتسجيل المشاهدات الشعبية السائدة بين عامة الناس ، فلم يتميز منهم بدقة العلماء .

جَدل الفيلسوف

الفلسفة وقواعدها :

كان جابر بن حيان فيلسوفاً يصطنع جدل الفلاسفة ، بالإضافة إلى كونه عالماً يؤسس علمه على مشاهدات وتجارب ؛ وهو يصرح بما يفيد أن مثله الأعلى من بين الفلاسفة الأقدمين هو سقراط ، إذ يصفه بأنه : « أبو الفلاسفة وسيدها كلها »[1] كما يقول عنه في موضع آخر[2] : إنه مثال الإنسان المعتدل ، مع تعريفه للشخص المعتدل بأنه هو الذي يستخرج الأشياء بطبعه ، ويقع له العلم بالبديهة في أول وهلة .

إن جابراً ليؤمن بقيمة الفلسفة إيماناً يجعل الفلسفة عنده شرطاً لا مندوحة عنه لإرتقاء الإنسان في مدارج العقل ، حتى لتختلط عند جابر طائفة الفلاسفة بطائفة الأنبياء ، فهؤلاء من أولئك وأولئك من هؤلاء ؛ يقول : « إنه ليس براق من أغفل صناعة الفلسفة ، ولكنه راسب مضمحل إلى أسفل دائماً »[3] وكذلك يقول : « إن الشرع الأول إنما هو للفلاسفة فقط ، إذ كان أكثر الفلاسفة أنبياء كنوح وإدريس وفوثاغورس وثاليس القديم وعلى مثل ذلك إلى الأسكندر »[4] .

ويلخص جابر أصول التفكير الفلسفي في المبادىء الآتية :[5] .

١ ـ إن الأشياء لا تخلو من أن تكون قديمة أو محدثة .

٢ ـ والقديمة المحدثة لا تخلو من أن تكون مرئية أو غير مرئية .

٣ ـ والمرئي وغير المرئي لا يخلو من أن يكون مركَّباً أو بسيطاً .

٤ ـ وإن جزء المركَّب ليس هو كمثل المركب ولا يحكم به عليه ، وإن جزء البسيط كالبسيط وحكمه حكمه .

٥ ـ وإن كان عِظَم فإنه متجزىء إلى ذاته (بهذا يعني جابرٌ أن كل بُعْد من الأبعاد يتجزأ إلى أجزاء من نوعه ، فالجزء من الخط خط ، والجزء من السطح سطح ، والجزء من الجسم ذي الأبعاد الثلاثة جسم ذو أبعاد ثلاثة) .

٦ ـ لا يكون تركيب إلا من جزءين ، ولا يكون تركيب الجزءين إلا بمركِّب لهما (ومعنى ذلك أن وجود الأشياء المركبة يستلزم وجود التي تصل الأطراف بعضها ببعض) .

٧ ـ كل مركب لا بد من أن يكون ذا جهات .

٨ ـ ولا يُتَصوَّر في العقل أنه يمكن أن يكون عِظَمٌ لا نهاية له ، فإن ذلك سخف ، ولا ينبغي أن ينازَعَ فيه ولا يمارى ، فإنه مسلم في العقول السليمة ، وهي توجب ذلك .

٩ ـ وأيضاً فإن المسافة التي لا نهاية لها لا يمكن أن تُقْطَعَ في زمان ذي نهاية البتة .

١٠ ـ وأيضاً فإنه لا يمكن أن يكون شيء لا نهاية له ـ لا جِرْماً ولا فعلاً ولا قوة .

أ ـ وأيضاً فإنه لا يمكن أن يكون لجرم لا نهاية له قوةٌ ذات نهاية ، لأن ذلك يكون كالقائم القاعد في حالة واحدة .

ب ـ ولا يمكن الجرم الذي لا نهاية له أن يتحرك بكله أو ببعضه .

جـ ـ وينبغي أن تعلم بالضرورة أن العلة قبل المعلول بالذات .

د ـ وأنه لا يمكن أن يكون ذات ما لا يكون لا علة ولا معلول .

هـ ـ وأيضاً فإنه لا يمكن أن يرتفع عن جرم مركَّب صفة وضدها لا واسطة بينهما ، ولا أن يحكى أيضاً (أي أن ذلك ممتنع في الأعيان وفي الأذهان في آن معاً) .

و ـ وأيضاً فإنه لا يمكن أن يكون الفعل للشيء بالقوة أبداً ، ولا يُتَصَوَّر .

ز ـ الذي لم يزل لا يبطل ولا يضمحل (أي أن الكائن إذا كان أزلياً غير ذي بداية زمنية ، كان أبدياً لا يطرأ عليه تغير ولا يزول) .

ح ـ ولا يمكن أن تكون الحياة لجرم إلا بالنفس .

ط ـ ولا يمكن أن يكون جرم قابلاً للنفس بالفعل لا يكون حياً .

١١ ـ لا يمكن أن يدخل جرم على جرم إلا ومكانها جميعاً أكبر من مكان أحدهما .

أ ـ وأيضاً أنه لا يمكن فراغ من جرم (أي أن المكان الخلاء محال) .

ب ـ وأنه لا يمكن أن تكون الأجرام كوامن بعضها في بعض ، فإذا حدث بعضها من بعض كان حدوثها لعلة غير الكمون .

تلك هي المبادىء الفلسفية العقلية الأولية ، التي لا يكون فكر سليم إلا في حدودها .

الوجود واحد مطلق :

ليس يخضع الوجود المطلق لما تخضع له الموجودات الجزئية المتناهية من اندراج تحت المقولات ؛ فهو مُنَزَّه عن الكم والكيف والمكان والزمان والفعل والإنفعال وغير ذلك مما تتميز به الأشياء ؛ فإذا فرضنا جدلاً أن الواحد المطلق متصف بما تتصف به الكائنات الجزئية ، انتهينا إلى تناقض :

١ ـ الجوهر :

فلو فرضنا أن ثمة وجودين ، فلن يخلو هذان الوجودان من أن يكونا :

---

(١) كتاب التجميع ، مختارات كراوس ، ص ٣٨٩ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٣٧٧ .
(٣) كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل ، مختارات كراوس ، ص ٣٧ .
(٤) كتاب البحث ؛ المقالة الخامسة .
(٥) كتاب الخواص الكبير ، المقالة الأولى .

أما ـ أ ـ جوهرين .

وأما ـ ب ـ عرضين .

وأما ـ جـ ـ أحدهما جوهراً والآخر عرضاً .

وأما ـ د ـ كل واحد منهما أو أحدهما جوهراً وعرضاً .

وأما ـ هـ ـ كل واحد منهما أو أحدهما لا جوهراً ولا عرضاً .

لكنهما لو كانا :

أ ـ جوهرين بلا أعراض ، وجب أن تكون الأعراض مُحْدَثة ، إذ هي موجودة ، وإن كانت موجودة مُحْدَثة ، فلا يخلو الأحداث من أن يكون نابعاً من الجوهرين أو صادراً عن غيرهما .

فإن كان من غيرهما ، فقد أصبحت الأصول ثلاثة أو أكثر ـ وفي الأصول الثلاثة ما في الاثنين من تناقض ـ ، وإن كان الأحداث منهما ، فيكون فيهما ما ليس فيهما ، إذ المحدثات أعراض وهما جوهران بلا أعراض ـ وإذن فافتراض وجود جوهرين افتراض فاسد ، والحق واحد .

ب ـ ولو كانا عرضين ، فالعَرَض لا يقوم إلا في غيره ، وكل ما لم يقم إلا في غيره ، وكان غيرها هذا معدوماً فهو أيضاً معدوم ؛ إذن فالعرضان الأوّلان معدومان ؛ لكننا فرضنا أنهما وجودان ، فكأننا وصفنا المعدوم بالوجود ، وهو من أشنع المحال .

جـ ـ ولو كان أحدهما جوهراً والآخر عرضاً ، فالعرض لا يقوم بذاته ، ويحتاج إلى غيره ليكون قوامه به ؛ ولا بد أن يكون غيره هذا جوهراً ، وإذن يكون في الأصل جوهران وعَرَض وفي ذلك من التناقض ما أوضحناه في « أ » .

د ـ ولو كان كل واحد منهما أو أحدهما جوهراً وعرضاً ، لكان ـ بحكم كونه عرضاً ـ متناهياً مُحْدَثاً ؛ وهو مما يتنافى مع كونه جوهراً .

هـ ـ ولو كان كل واحد منهما أو أحدهما لا جوهراً ولا عرضاً ، لكان ذلك محالاً ، لأن جميع المقولات أما جواهر وأما أعراض ؛ فإذا فرضنا أنهما من المحسوسات وليسا من المقولات ، كانا معدومين ، لكننا فرضنا أنهما موجودان ، فكأننا فرضنا أنهما موجودان معدومان معاً ، وهو من أشنع المحال(١) .

٢ ـ الحركة والسكون :

إذا فرضنا أن ثمة وجودين لا وجوداً واحداً ، فلا يخلو هذان الوجودان من أن يكونا :

أما ـ أ ـ متحركين .

وأما ـ ب ـ ساكنين .

وأما ـ جـ ـ أحدهما متحركاً والآخر ساكناً .

وأما ـ د ـ كل واحد منهما أو أحدهما متحركاً ساكناً .

لكنهما لو كانا :

أ ـ متحركين فهما متناهيان ، لأن المتحرك يقتضي أن يكون محدوداً بشيء سواه ؛ وبهذا يكون هنالك أكثر من الاثنين اللذين فرضنا وجودهما .

ب ـ ساكنين ، فلا حركة ، لامتنع امتزاج العناصر بعضها ببعض ـ لأن الامتزاج يقتضي الحركة ـ وإذن فلا عالم لأن العالم نتيجة مزاج ، لكن العالم موجود .

جـ ـ أحدهما متحركاً والآخر ساكناً ، كان المتحرك متناهياً ، وكان تناهيه إلى شيء سواه أو أكثر من شيء ؛ وإذن فيكون الموجود أكثر من اثنين .

وكذلك يكون الساكن منهما مواتاً لا فعل له ؛ ويكون معنى هذا أن الكائنات ذوات الأنفس ميتة ، وهو محال(٢) .

د ـ أحدهما متحركاً وساكناً معاً ، فلن يخلو ذلك من أن يكون ذلك في لحظة واحدة بعينها ، أو في لحظتين مختلفتين ؛ ومحال أن يجتمع الحركة والسكون في وقت واحد ، ومحال كذلك أن يتحول السكون في وقت ما إلى حركة في وقت آخر ما لم يكن هناك شيء يحرِّك ؛ ففي كلتا الحالتين تناقض(٣) .

٣ ـ الحياة والموت :

لو فرضنا وجود كونين ، فلا يخلو الكونان من أن يكونا :

أما ـ أ ـ حَيَّيْن .

وأما ـ ب ـ ميتين .

وأما ـ جـ ـ أحدهما حياً والآخر ميتاً .

وأما ـ د ـ كل واحد منهما حياً ميتاً .

لكنهما لو كانا :

أ ـ حيين ، وليس في الوجود سواهما ، لامتنع الموت ، لكن الموت موجود ، فكأننا نقول أن الموت معدوم موجود ، وهو محال .

ب ـ ميتين ، وليس في الوجود سواهما ، لامتنعت الحياة ، لكن الحياة موجودة ، فكأننا نقول أن الحياة معدومة موجودة ، وهو محال .

جـ ـ أحدهما حياً والآخر ميتاً ، فلا يخلو الميت من أن يكون يقبل الحياة من الحي أو لا يقبلها منه :

١ ـ فإن كان لا يقبلها منه ، فليس يصير حي إلى الموت البتة ، لأنه لا موات في جوهره ؛ فموت الحي إذن معدوم ، لكن موت الحي موجود ، فكأننا قلنا عن الموجود أنه معدوم .

٢ ـ وإن كان الميت قابلاً للحياة ، فلا يخلو قبوله هذا من أن يكون دائماً أو غير دائم :

أ ـ فإن كان دائماً ، كان الموجود حَيَّيْن حياة دائمة ، فلا موت ، مع أن الموت موجود .

ب ـ وإن كان غير دائم ، فلا يخلو ذلك من أن يكون إما من ذاته وإما

---

(١) كتاب الخواص الكبير ، المقالة الثانية .

(٢) كتاب الخواص الكبير ، المقالة ١٧ .

(٣) نفس المرجع ، المقالة ٢٥ .

من الحي ؛ فإن كان من ذاته فقد حدث في الأزلي ما لم يكن فيه ، إذ تكون بمثابة من يقول عنه أنه في أزليته كان قابلاً للحياة وغير قابل لها ؛ أي أنه يحمل الضدين وهو محال ؛ وأما إن كان ذلك من الحي ـ لا من ذاته ـ فكأن الحي يفعل ما يمنع الحياة وهو محال .

د ـ ولو كان كل واحد من الكونين الأولين حياً ميتاً معاً ، فلا يخلو أن يكون ذلك أما في الكل وأما في أحد أجزائه ؛ فإن قلنا : أنه حي ميت في جزء دون جزء ، كان بين الجزء الحي والجزء الميت من الكون الواحد ، ما يكون بين الكونين اللذين يكون أحدهما حياً والآخر ميتاً ؛ وأما إن كان ذلك في الكل ، فلن يخلو ذلك من أن يكون هذا في وقت واحد ، أو في وقتين مختلفين :

١ ـ فإن كان الكون الواحد حياً ميتاً في وقت واحد ، كان هذا محالاً .

٢ ـ وإن كان حياً ميتاً في وقتين مختلفين ، اقتضى ذلك أن يتحول الكائن الأزلي إلى صفة لم تكن فيه ، إذ لو كان في أزليته حياً ثم تحول ميتاً ، أو كان ميتاً ثم تحول حياً ، لحدث له ضد ما كان له في الأزل ، وهو محال(١) .

٤ ـ الزمان :

إذا فرضنا وجود كونين ، فليس يخلو الكونان الأزليان من أن يكونا :

أما ـ أ ـ دائمين .

وأما ـ ب ـ لا دائمين .

وأما ـ جـ ـ أحدهما دائماً والآخر لا دائماً .

وأما ـ د ـ كل واحد منهما دائماً ولا دائماً .

لكنهما لو كانا :

أ ـ دائمين ، وكل دائم غير فان ، وما لم يكن فانياً فليس بمتغير ، وكل ممتزج متغير ، إذن لكان المزاج ـ أي مزج العناصر ـ معدوماً ، لكنه موجود ، فكأننا نقول عن المزاج أنه معدوم موجود معاً ، وهو محال .

وإذا فرضنا أن حالة المزج هي التي كانت قائمة في الأزل ، لوقعنا في تناقض ، لأن العناصر لكي تمتزج ، لا بد لها أن تكون قبل مزجها منفردة صرفة ، فالمزاج يأتي بعد الصِّرفيَّة ، وإذن فكأننا نقول أن المزاج أزليٌّ والصِّرفيَّة قبله ، وبهذا نجعل الأزلي مسبوقاً بشيء سواه ، وهذا محال .

ب ـ غير دائمين وهما أزليان ؛ فكأننا نقول عما هو أزلي أنه يبطل ويضمحل ، مع أن ذلك محال على الأزلي ؛ وبهذا نكون كمن يقول عن الأزليينْ أنهما يفنيان وأنهما دائمان ، وهو محال .

جـ ـ أحدهما دائماً والآخر غير دائم ، وجَبَ فيما هو دائم منهما ما ذكرناه في حالة الفرض بأن الكونين دائمان ، ووجَبَ كذلك فيما هو دائم منهما ما ذكرناه في حالة الفرض بأن الكونين غير دائمين .

د ـ كل واحد منهما ـ أو أيهما ـ دائماً وغير دائم ؛ فقد وجَبَ أن الأزلي

(١) كتاب الخواص الكبير ، المقالة الثانية .

يتحول إلى ما ليس من صفاته ، وهذا محال(٢) .

٥ ـ الفعل :

إذا كان هذا العالم مزيجاً من كونين قديمين لم يكن في الوجود سواهما ، وإذا كان امتزاج العناصر بعضها ببعض نتيجة حدثت عنهما ؛ وإذا كان هذا الحدوث هو فعلهما ، فلا يخلو الكونان من أن يكونا :

أما ـ أ ـ كل واحد منهما يفعل المزاج في صاحبه .

وأما ـ ب ـ أحدهما فقط هو الذي يفعل المزاج في صاحبه .

وأما ـ جـ ـ لا يفعل أيٌّ منهما المزاج في صاحبه .

فلو كان :

أ ـ كل منهما يفعل المزاج في صاحبه ، فلا يخلو الأمر من أن يكون هذا الفعل منهما أزلياً أو مُحْدَثاً .

١ ـ فإن كان أزلياً ، كان المزاج أزلياً ؛ والمزاج هو العالَم بما فيه من كائنات ، إذن فالعالَم أزلي ، وذلك رأي باطل .

٢ ـ وإن كان المزاج مُحْدَثاً ، كان ذلك بمثابة القول بأن شيئاً نشأ عن لا شيء ، وهذا محال .

وكذلك إذا كان فعلهما المزاجَ مُحْدَثاً ، فليس يخلو الأمر من أن يكون : إما أنهما يتفاعلان في وقت واحد ، وإما أن أحدهما سبق بفعله فعل الآخر :

١ ـ فإن كان فعلُهما المزاجَ معاً وفي دفعة واحدة ، فكل واحد منهما مازجٌ صاحبه وممزوج صاحبه ؛ والمازجُ غير الممزوج ؛ إذن فكل منهما غير نفسه وغير صاحبه في آن معاً ، وهذا محال .

٢ ـ وأما إن كان أحدهما سبق الآخر بفعله ، فلا يخلو السابق من أن يكون قد استنفد قوته الفاعلة فوقف فعله ثم بدأ الآخر يفعل ؛ أو أن يكون السابق لم تتناه قوته الفاعلة ، وفَعَلَ الآخر معه في وقت واحد .

فإن قلنا أن السابق قد تناهت قوته قبل أن يبدأ الآخر فعله ، فقد قلنا بالتالي أن اللامتناهي قد أصبح متناهياً وهذا باطل ؛ وأما إن قلنا إن الثاني بدأ فعله في نفس الوقت الذي كان الأول فيه ماضياً في فعله ، لزم عن ذلك ما أسلفناه ، وهو أن يكون كل منهما فاعلاً في غيره ومنفعلاً بغيره ، أي أنه غير نفسه وغير صاحبه في آن واحد (غير نفسه لأنه ينفعل فيتغير عما كان ، وغير صاحبه لأنه فاعل فيه وصاحبه منفعل به) وهذا باطل .

ب ـ أما إن كان أحدهما فقط يفعل المزاج في صاحبه ، فلا يخلو هذا الفعل من أن يكون إما أزلياً وإما محدثاً :

١ ـ فإن كان أزلياً كان المزاج أزلياً ، وكان العالَم أزلياً كذلك ، وهذا باطل(٣) .

(٢) كتاب الخواص الكبير ، المقالة الثانية .

(٣) يقول ابن حيان في هذا السياق أن أزلية العالم ـ أي قِدَم العالم ـ هو مذهب سقراط ؛ وهو مذهب يرفضه ابن حيان كما رفضه معظم فلاسفة العصور الوسطى من مسلمين ومسيحيين ، لأنه يتنافى مع القول بأن الله خلق العالم .

٢ ـ وإن كان ذلك الفعل محدثاً ، فمعنى ذلك أنه كان مسبوقاً بحالة لا فعل فيها ، ثم جاء الفعل من عدم ، مع أن الفعل وجود ـ والفعل هنا هو الطبيعة ـ فكأننا نقول أن الطبيعة وجدت من عدم ، وهذا باطل .

جـ ـ فإن لم يكن أيٌّ منهما يفعل المزاج في صاحبه فلا فعل ، مع أن المزاج فعل ، إذن فإذا لم يكن فعل فلا مزاج ؛ ولما كان العالم مزاجاً ، فلا عالم ، لكن العالم موجود ، وهذا تناقض[1] .

٦ ـ الإنفعال :

إذا كان هذا العالم مؤلفاً من كونين ، فلا يخلو الكونان من أن يكونا :

وإما ـ أ ـ مركّبَيْن .

واما ـ ب ـ لا مركبين .

واما ـ جـ ـ أحدهما مركباً والآخر لا مركباً .

وأما ـ د ـ كل واحد منهما مركباً لا مركباً ، أو أحدهما كذلك .

لكنهما لو كانا :

أ ـ مركبين ، كانا قابلين للإنحلال إلى ما قد ركّبا منه ، وإن كانا منحلّيْن إلى ما ركّبا منه كانا دائريْن ؛ وإن كانا دائريْن فقد سبقهما وقت لم يكونا فيه كائنين ، وسيلحقهما وقت لن يكونا فيه كائنين ، وإذن فهما محدثان ، مع أنهم زعموا أنهما قديمان فكأنهم بذلك يقولون : أنهما قديمان محدثان ، وهو محال .

ب ـ لا مركبين ، فلا انفعال لهما ـ لأن البسيط غير المركّب غير قابل للتغير ـ فإذا كانا لا انفعال لهما فلا تركيب منهما ، وإذا كانا لا تركيب منهما فلا مزاج منهما ، وإذا كانا لا مزاج منهما ـ وليس سواهما شيء ـ فلا مزاج البتة أي أن المزاج يكون معدوماً ، مع أن العالم بما فيه مزاج ، وبهذا يكون العالم معدوماً مع أنه موجود ، فكأننا نقول أن المعدوم موجود ، وهو محال .

جـ ـ وإذا كان أحدهما مركباً والآخر لا مركباً ، وجب في المركّب ما قد أسلفنا ذكره في حالة أن يكون الكونان مركبين ، ووجب في اللامركّب إما أن يكون هو الذي ركّب المركّب وأما لا يكون :

١ ـ فإن كان هو الذي ركّبه ـ وإذا لم يكن هناك غيرهما ـ فالمركّب مُحْدَث ، والمركّب أزلي ، وإذن فالأزلي واحد وبطل القول أنه اثنان .

٢ ـ وإن لم يكن هو الذي ركّب المركّب ـ وإذا لم يكن هناك غيرهما ـ كان المركّب هو الذي ركّب ذاته ، ولا يخلو الأمر من أن يكون ركّب ذاته بصفة كونه موجوداً ، أو أن يكون ركّبها بصفة كونه معدوماً :

أ ـ فإن كان ركّبها بصفته موجوداً ، إذن فقد كان موجوداً قبل أن يركّب ذاته ، فلا معنى لتركيبها .

ب ـ وإن كان ركب ذاته وهو غير موجود ، كان معنى ذلك أن ما هو غير موجود ذاتٌ ، والذات هي ذات ذلك المعدوم ، وهو محال .

(١) كتاب الخواص الكبير ، المقالة الثانية .

جـ ـ أو يكون كل واحد منهما مركّباً لا مركّباً ـ أو أحدهما كذلك ـ فأيما كان منهما كذلك فلا يخلو من أن يكون كذلك بالكم أو بالزمان (أي أنه يكون كذلك أما دفعة واحدة ، وأما على وقتين متعاقبين فآنا هو مركّب وآنا هو غير مركّب) :

١ ـ فإن كان كذلك بالكم (أي أن بعضه مركب وبعضه الآخر غير مركب) وجب في بعضه المركب ما وجب في الكل المركب (وقد أسلفنا ذلك) ووجب في بعضه اللامركب ما وجب في الكل اللامركب (وقد أسلفنا ذلك أيضاً) .

٢ ـ أما إن كان كذلك بالزمان (أي أنه آنا مركب وآنا غير مركب) كان معنى ذلك أن شيئاً أزلياً هو أسبق من شيء أزلي آخر ، وهو محال[2] .

٧ ـ العلم :

إذا كان العالم مؤلفاً من كونين ، فلا يخلو الكونان من أن يكونا :

اما ـ أ ـ أن يحيط كل واحد منهما علماً بذاته .

وإما ـ ب ـ ألا يحيط أي منهما علماً بذاته .

وإما ـ جـ ـ أن يكون علم أحدهما محيطاً بذاته ، وعلم الآخر غير محيط بذاته .

وإما ـ د ـ أن يكون علم كل منهما محيطاً بذاته وغير محيط بذاته .

لكنهما لو كانا :

أ ـ بحيث يحيط علم كل منهما بذاته ، لكانا متناهيين ، لأن العلم يحيط بهما ، وإذا كانا متناهيين فهما محدودان ، وما حَدُّهما غيرهما ـ سواء كان غيرهما جرماً أو عدماً ـ فهما إذن أكثر من اثنين .

ب ـ لا يحيط علم الواحد منهما بذاته ، فقد جهلا ذاتهما ، وإذن فلا فرق بين أن يقال عنهما أنهما لا متناهيان أو أنهما متناهيان .

جـ ـ أحدهما يحيط علمه بذاته والآخر لا يحيط علمه بذاته ، لوجب في الذي يحيط علمه بذاته ما وجب في « أ » ووجب في الذي لا يحيط علمه بذاته ما وجب في « ب » .

د ـ ولو كان علم كل منهما محيطاً بذاته وغير محيط بها ، فلا يخلو أن يكون هذا الإجتماع في وقت واحد أو في وقتين ؛ فإذا كان في وقت واحد كان اجتماع النقيضين محالاً ، وأما إذا كان في وقتين ، وجب في إحاطة العلم بالذات ما وجب في « أ » ، وفي حالة عدم إحاطة العلم بالذات ما وجب في « ب »[3] .

٨ ـ التناهي :

أنه لا يخلو الكونان من أن يكونا ؛

أما ـ أ ـ متناهيين .

وأما ـ ب ـ لا متناهيين .

(٢) كتاب الخواص الكبير ، المقالة الثانية .

(٣) كتاب الخواص الكبير ، مقالة ١٧ .

وأما ـ جـ ـ أحدهما متناهياً والآخر لا متناهياً .
وأما ـ د ـ كل واحد منهما متناهياً لا متناهياً .

لكنهما لو كانا :

أ ـ متناهيين ، فهما محدودان ، وإن كانا محدودين فحادُّهما غيرهما ـ جرماً كان أو عدماً ـ وبهذا تبطل الأثنينية لأن الموجود يصبح أكثر من اثنين .

ب ـ وإن كانا لا متناهيين فلا مكان لهما ، وإن كان لا مكان لهما فلا ذهاب لهما في جهة من الجهات ، وبالتالي فلا حركة لهما ، وإن كان لا حركة فلا امتزاج ؛ ولما كان العالم مؤلفاً من مزاج وإذا لم يكن امتزاجٌ فلا عالَمَ ؛ وبهذا يصبح العالم معدوماً ، لكنه موجود .

جـ ـ وإن كان أحدهما متناهياً والآخر لا متناهياً ، كان المتناهي محدوداً ، وما حَدُّه غيرُه ، وبهذا يكون الموجود أكثر من اثنين ؛ وكان اللامتناهي بغير أطراف ، وما لا أطراف له لا فراغ منه ، وما لا فراغ منه لم يدع مجالاً لغيره ، أي أنه يكون قائماً وحده ، وبهذا أيضاً يبطل الفرض بوجود اثنين .

د ـ وإن كان كل منهما متناهياً ولا متناهياً ـ أو كان أحدهما كذلك ـ فلن يخلو الأمر من أن يكون ذلك في وقتين مختلفين أو في وقت واحد :

١ ـ فإن كانا كذلك في وقتين مختلفين ، كان الكائن الأزليُّ مشتملاً على ضدين ، وهو محال .

٢ ـ وإن كان ذلك في وقت واحد ، كان الأزليُّ أيضاً على حالين متضادين في وقت واحد وهو محال[1] .

٩ ـ الإتصال والإنفصال :

ليس يخلو الكونان من أن يكونا :

أما ـ أ ـ متصلين .
وأما ـ ب ـ منفصلين .
وأما ـ جـ ـ متصلين منفصلين .
وأما ـ د ـ لا متصلين ولا منفصلين .

لكنهما لو كانا :

أ ـ متصلين ، فهما ذات واحدة ، وبطلت الأثنينية .

ب ـ منفصلين ، ففاصلهما الحاجزُ بينهما هو شيء غيرهما : وبهذا يصبح الموجود أكثر من اثنين[2] .

جـ ـ متصلين منفصلين ، فلا يخلو ذلك من أن يكون في جهة واحدة منهما ، أو في جهتين :

١ ـ فإن كان في جهتين ، وجَبَ في الجهة التي فيها الإنفصال وجود ثالث كما بينا في « جـ » .

٢ ـ وإن كان في جهة واحدة ، فلا يخلو من أن يكون ذلك في وقت واحد أو في وقتين ، وهنالك تناقض في كلتا الحالتين كما بينا في مواضع كثيرة سابقة .

د ـ لا متصلين ولا منفصلين ، فهما بكونهما لا متصلين يصبحان ثلاثة بإضافة الحاجز بينهما ، كما بينا في « ب » ؛ وبكونهما لا منفصلين يصبحان واحداً لا اثنين ، كما بينا في « أ »[3] .

١٠ ـ الكيف :

إذا فرضنا وجود كونين : أحدهما منيراً من الأزل والآخر مظلماً من الأزل ، فلا يخلو الأمر من أن يستمد الكونان النور والظلام أما من ذاتيهما وأما من غيرهما :

أ ـ فإن كان من غيرهما ، فلا يخلو من أن يكون الذي منه النور هو الذي منه الظلام ، أو يكون الذي منه النور غير الذي منه الظلام ، وعلى أي فرض من الفرضين ، فسيكون هنالك ثالث ورابع ، وتبطل الأثنينية كما تبطل أزلية الكونين ، لأن « الأوَّل » عندئذ لا يصبح « أوَّلاً » .

« هذه أوَّلة في العقل » أعني بديهية أولية يقبلها العقل بفطرته ولا تحتاج إلى برهان وما دمنا قد سلمنا بها لزم أيضاً أن نسلِّم بأن لكل شيء طباعه الأصلية الموجودة فيه منذ الأزل ، والتي لا تحتاج إلى ردِّها إلى أصل أسبق منها في الوجود .

ب ـ أما إن كان مصدر النور نوراً ومصدر الظلام ظلاماً ، فلا يخلو من أن يكون كل واحد منهما صِرْفَ الطبيعة ـ أي نوراً صِرْفاً وظلاماً صِرْفاً ـ أو أن يكون كل واحد ، منهما مشوب الطبيعة :

١ ـ فإن كان كل واحد منهما مشوب الطبيعة ، كانت طبيعته قد خالطتها طبيعة أخرى غيرها ، أي أنه ممزوج ، ومزجه أزلي ، مع أن المزج يقتضي أن تتحد الطبيعتان بعد أن كانتا متباينتين ، فكأننا نقول بهذا أن أزلاً قد جاء بعد أزل أسبق منه ، وهو تناقض[4] .

٢ ـ (لم يذكر جابر تحليل الفرض الثاني ، وهو أن يكون النور والظلام غير مشوبين ، أي أن يكون النور نوراً صرفاً والظلام ظلاماً صرفاً) .

١١ ـ الكم :

لا يخلو الكونان من أن يكونا :

أما ـ أ ـ كليين .
وأما ـ ب ـ جزئيين .
وأما ـ جـ ـ أحدهما كلياً والآخر جزئياً .
وأما ـ د ـ كل واحد منهما أو أحدهما كلياً جزئياً .
وأما ـ هـ ـ كل واحد منهما أو أحدهما لا كلياً ولا جزئياً .

---

(١) كتاب الخواص الكبير ، المقالة ١٥ .
(٢) مثل هذا التحليل هو من الأسس التي بنى عليها « برادلي » ـ الفيلسوف الإنجليزي الحديث ـ منطقه بأن الكون واحد ـ راجع كتابه « المظهر والحقيقة » .
(٣) كتاب الخواص الكبير ، مقالة ١٧ .
(٤) كتاب الخواص الكبير ، المقالة الثانية .

لكنهما :

أ ـ إن كـانا كليين فلهما أجـزاء ، وإن كـانت لهـما أجـزاء فلكـل جـزء أطراف ، وإذن فهذه الأجـزاء محدودة بحـدود ، وكل مـا كان محـدود الأجزاء فهو محدود الكل ، والمحدود متناه إلى غيره ، وإذن يكون مع الكونين غيرهما ، لكننا فرضنا وجودهما وحدهما ولا شيء غيرهما ، وهذا محال .

ب ـ إن كـانا جـزئين فلهـما كلاّن ، أو كـلٌ واحدٌ يجمعهـما ، وعلى أي الحالتين وجَبَ ما قد وجب في الكل كما بينا في « أ » .

جـ ـ وإن كـان أحدهمـا كلياً والآخـر جزئيـاً ، ولم يكن ثمة سـواهمـا ، فالجزء منهما هو جزء الكل ، والكـل منهما هـو كلٌ للجـزء ، فهما ـ إذن ـ ذات واحـدة ، أحدهمـا جزء من الكـل ، ومتى أفرِدَ الجـزء صار مـا بقي من الكل جزءاً أيضاً ، فيكون الكل كلا جزءاً من جهة واحدة ، وهذا محال .

د ـ وإن كـان كل منهـما جزئيـاً كلياً ، فـأمـا أن يكـون ذلـك من جهـة واحدة ، أو من جهتين مختلفتين :

١ ـ فإن كان من جهتين مختلفتين فهو جزء لما هو أكثر منه ، كـل لما هـو أقل منه ، وهذا يجعله لا متناهياً من جهة ومتناهياً من جهة أخرى ، كما يجعل هناك لا متناهياً أكثر ىن لا متناه آخر ، وهو محال .

٢ ـ وإن كان ذلك من جهة واحدة ، فهو كل وجزء معاً وهذا محال .

هـ ـ وإن كانا ـ أو كان أحدهما ـ لا كلياً ولا جـزئياً ، فقـد ثبت جرم لا كل له ولا جزء ، وهذا محال[1] .

١٢ ـ الكمون والظهور :

ونختم بهـذه الفقرة مختـاراتنا من أمثلة الجـدل الفلسفي عند جـابـر بن حيان ، وهو كله جدل أراد به إثبات الواحدية وإنكار التعدد ؛ فلو كـان العالم مشتملاً على أجناس كثيرة وأنواع كثيرة ، فلا يخلو ذلك من أن يكون :

أمـا أن بعض الأشياء كـامنـة في بعضهـا الآخـر ، كـالجنين يكمن في النـطفة ، والشجـرة كامنـة في الحبَّـة وهكـذا ؛ وأمـا أن يكـون ظهـور بعض الأجناس إبداعاً وخلقاً من عدم .

فأما الفرض الأول فيتقضى إنكار وجـود الخالق الـذي يخلق الكون من عدم ، لأنه فرض يحيل الأمر إلى تطور يـرتد إلى الـوراء حلقة بعـد حلقة حتى تنتهي إلى طبـائع أوليـة ؛ وأمـا الفـرض الثـاني فيجعـل فـاصـلاً بـين سلسلة الكـائنات المتـطور بعضها من بعض ، وبـين الخالق الـذي أنشأهـا بعد أن لم تك ؛ ويحدثنا جابر بأن الرأي الأول هو قـول « المنانيَّـة » ، وأما الـرأي الثاني فهو الذي يأخذ هـو به ويقيم عليـه البرهـان ، « فأهـل الإبداع هم القـائلون بالتوحيـد ، والمبطلون قـولَ المنانيَّـة وغيرهم ممن قـال بقولهم في كمـون بعض الأشياء في بعض »[2] .

(١) كتاب الخواص الكبير ، المقالة الثانية .

(٢) كتاب الخواص الكبير ، المقالة الخامسة والعشرون .

القديم والمحدث :

الله خالق وهو أزلي ، والطبيعة مخلوقـة وهي حادثـة ، فعلى أيـة صورة يجـوز لنا أن نتصـور الصلة بين الخـالق والمخلوق ، بين القـديم والمحـدث ؟ يجيب ابن حيان عن ذلك بما معناه[3] :

اعلم أن الكلام في القديم والمحـدث ـ عافـاك الله ـ من أصعب الأمور عنـد جلَّة الفلاسفـة وقدمـائها ، ولـو قلتَ أن أكـثرهم مـات بحسرتـه لكنت صادقاً ؛ فأرباب هذا العلم هم أشد النـاس تعظيـماً لعلمهم هذا وصيـانة لـه وحفـظاً عن غير مستحقِّـه ؛ وإن يكن تحصيله سهـلاً عليهم يسيـراً لـديهم ، لأنهم يدركون الحقيقة بالشهود المباشر ، ويفيضون بها فيضاً ، فلا يحتاجون في ذلك إلى أعمال فكر في إقامة الدليل على مـا قد أدركـوا ، ولا إلى استعمال لفظ في التعبير عما قـد أدركوا[4] ؛ غـير أنهم وإن كانـوا كذلـك في شهودهم للحق وإدراكهم لـه ، فإن علمهم لا ينتقـل إلى سواهم إلا إذا كـان هؤلاء في منزلـة قريبة من منزلتهم ؛ فليس الناس في إدراك الحق سـواء ، بل منهم من يحتـاج إلى واسطة ، ومنهم من يتصل بالحق صلة مباشرة لا واسطة بينه وبينه .

وإذا أدركنـا « القـديم » استـطعنـا أن نـدرك خصـائص المحـدث بالإستدلال ، لأن القديم والمحدث ضدان ، والعلم بأحـد الضدين هـو علم بـالضد الآخـر ؛ فطريق الفكـر هو من القـديم إلى المحـدث ، نـدرك الأول إدراكـاً مبـاشـراً ثم نستـدل الثـاني منـه ، وليس العكس كـما ظن « جهلة المتكلمـين » في هذا البـاب ، إذ استدلـوا على الغـائب (القديم) بـالشـاهـد (المحدث) على بعـد ما بينهـما ؛ فكأنهم استشهـدوا بالجزء على وجـود الكل برغم ما في هذا المنطق من فساد[5] .

إن أخصَّ صفة « للقديم » هو الوجود الذي يستغنى بـه عن الفاعـل ، أي أنه وجود بغير موجد ؛ وذلك لأنه موجود وجوداً أزلياً ؛ ولـو كـان موجـوداً بفعل فاعل لكان هذا الفاعل أسبق منه وجـوداً ، وأي كائن يتقـدمه غـيره في الـوجود يكـون محدثـاً وغير أزلي ؛ لكنـه إذا كان الـوجـود صفـة من صفـات القديم ، فهو كذلك صفـة من صفات المحـدَثات ؛ بـل أن وجود المحـدثات ليس عرَضاً ، بل هو وجود بالضرورة أيضاً ؛ وذلك لأن الآثـار تكون شبيهـة بمؤثـرها ، وإذا كـان الأمـر كـذلـك ، وجب الـوجـود للمحـدَث عن وجـود القديم ، والفرق بـين الوجـودين هو أن وجـود القديم يستغني عن الفـاعل ، ويكون علة لوجود غيره ، وأما وجود المحدث فهو يحتـاج إلى فاعـل يكون علة لغيره .

ومن خواص القديم أيضاً أن تكون جميع المحدَثات من فعله وأثره ، إذ لا بد لجميعها من انتهاء إليه ورجوع إلى كونه علة لها ـ أما قريبـة وأما بعيـدة ـ

(٣) كتاب القديم .

(٤) أحسب أن جابراً يريد بهذا أن يقول : أن إدراك « القديم » (المبدأ الأزلي الأول) لا يكون عن طريق التفكير الفلسفي القـائم على البرهان والقيـاس ، بل يكـون عن طريق الإدراك الصوفي .

(٥) في هذا تأييد لقولنا بأن جـابراً يجعـل وسيلة إدراك الله هي الحدس الصـادق الذي عُـرِف به المتصوِّفة ، لا الإستدلال القياسي الذي يتميز به تفكير الفلاسفة والمتكلمين .

فليس للقديم سوى هاتين الخاصتين ، وهما في الحقيقة واحدة ، وذلك أن الوجود له هو الصفة التي بها أوجد آثاره ، أي أن وجوده تضمَّن أن يكون علة لوجود المحدثات .

ولما حدثت الطبيعة عن الجوهر الأول ـ وهو العلة الأولى ـ حدث عنها شيئان ضدان : هما الحركة والسكون ؛ أما الحركة فهي من الطبيعة محيطها ، وأما السكون فهو منها المركز ، لهذا كان بين الحركة والسكون ما بين المحيط والمركز من تباعد وتضاد ؛ ولهذا التباين بينهما تباينت صفاتهما : فللمحيط الصفاء والخير والحسن والجمال والنور والبهاء ، ومن ثم فهو أقرب جوانب الطبيعة إلى الله ، والفرق بينهما هو أن الجوهر القديم لم يكن محتاجاً إلى الحركة ، وأما الكائنات التي هي في محيط الطبيعة فمحتاجة إلى الحركة ؛ وإنما تحركت حركتها لمنفعة الإنسان ، الذي خلق بطبعه مفتقراً إلى اجتلاب المنافع ودفع المضار ؛ ففي الإنسان شهوة ترغب في شيء وتنفر من شيء .

على أن الإنسان يسير بشهوته في أحد طريقين : فأما هي شهوة يشتاق بها أشياء خسيسة ، وأما هي شهوة يتطلع بها إلى ما هو صاف رفيع ؛ ولكي يجعل الجوهر القديمُ طريقاً مفتوحة أمام شهوة الإنسان أن تتجه إلى الصفاء والخير ، فقد جعل في الأفلاك شوقاً ، حتى يمكن الإتصال بين المتجانسين : وأعني بهما الشوق عند الإنسان والشوق عند الأفلاك ، ليتصل الشوق بالشوق ، ويغلب أحدهما الآخر ، لأن في أحدهما حركة وفي الآخر سكوناً ، والحركة تغلب السكون .

وإذا وصَّلَ الإنسانُ نفسَه بالأعلى ، بلغ من العلم غايته ، « فوحق سيدي أنه لغاية العلم ، ولو شئت لبسطته فيها لا آخر له من الكلام ؛ ولكن هذه الكتب ـ يا أخي ـ معجزات سيدي ، وليس ـ وحقه العظيم ـ يظفر بما فيها من العلم إلا أخونا ؛ فأما من سواه من إخواننا الذين لم ندَّخر هذا من أجلهم ، ولا صنفناه لهم ، فإنما يظفر منها بما ظهر من علومنا فيها ، وصنائعنا التي صنعناها وأودعناها إياها ؛ وأما غير هؤلاء من الأضداد والسفلة والأرذال والسفهاء المظلمي النفوس الأقذار العقول فما يزيدهم الله بها عمىً وضلالة وجهلاً وبلادة . . . » .

بين العلم والخرافة

فعل الطلاسم :

الطِّلَّسْمات عند جابر علم من العلوم المعترف بها . بل أنها لعلمٌ ذو أهمية بالغة ، لأنه بالطِّلَّسم يُخرج العالِم ما يريد إخراجه من أشياء كانت كوامن ، وظهورها مرهون بفعل الطلسم الفعَّال ؛ وإنما يتم فعل الطلسمات عن أحد طريقين : فأما عن طريق المماثلة وأما عن طريق المقابلة .

والمماثلة هي مشاكلة الأشياء بعضها إلى بعض ، كمماثلة الكبريت للنار ؛ والمقابلة هي مباينة الأشياء بعضها لبعض ، وبُعدها عنها ومنافرتها لها ؛ والمثيل إنما يُستخدم لإستجلاب مثيله ، وأما المقابل فيستخدم لإبعاد مقابِله ؛ والإستجلاب والأبعاد كلاهما فعل الطلسمات .

والمماثلة والمقابلة تكونان في طبائع الأشياء الأولية : الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ؛ فالحرارة تماثلها حرارة وتقابلها برودة ، واليبوسة تماثلها يبوسة وتقابلها رطوبة ؛ وليست هذه الطبائع الأربع من منزلة واحدة ، بل أن منها اثنتين فاعلتين هما : الحرارة والبرودة ، واثنتين منفعلتين هما : اليبوسة والرطوبة ، وذلك لأن الحرارة أسبق منطقياً من اليبوسة ، والبرودة أسبق منطقياً من الرطوبة .

فالمماثلة بين الأشياء تكون على مرتبتين :

١ ـ مماثلة في الكيفيتين الفاعلتين ، وهي أقوى من المماثلة التي تكون في الكيفيتين المنفعلتين ؛ أي أنه لو كان عندنا شيئان : أحدهما حار يابس والآخر حار رطب ، كان هذان الشيئان متماثلين في الحرارة ، وهي كيفية فاعلة ؛ ولذلك فالتماثل بينهما أقوى مما يكون بين شيئين : أحدهما حار يابس والآخر بارد يابس ، إذ المماثلة هنا تكون في اليبوسة التي هي كيفية منفعلة .

٢ ـ الأشياء التي تتماثل بالطرفين معاً ـ الفاعل والمنفعل ـ أقوى مماثلة من الأشياء التي تتماثل بطرف واحد ؛ فالنسبة بين شيئين : أحدهما حار يابس والآخر حار يابس كذلك ، هي أوثق عُرىً وأمكن صلة من النسبة بين شيئين : أحدهما حار يابس والآخر حار رطب ، ومن النسبة بين شيئين آخرين : أحدهما حار يابس والآخر بارد يابس .

وكذلك قُلْ في المقابلة ، فهي أيضاً على مرتبتين :

١ ـ فالأشياء التي تتقابل بالكيفية الفاعلة أقوى مباينة من الأشياء التي تتقابل بالكيفية المنفعلة ؛ فالتباين بين الحار اليابس والبارد اليابس أشد وأقوى وأمكن من التباين بين الحار اليابس والحار الرطب .

٢ ـ والأشياء التي تقابل بالطرفين معاً ، يكون التباين بينهما أقوى وأمكن من الناحية التي تتقابل بطرف واحد ؛ فالتباين بين شيئين : أحدهما حار يابس والآخر بارد رطب ، أبعد من التباين الذي يكون بين الحار اليابس من جهة والبارد اليابس من جهة أخرى ، أو بين الحار اليابس من جهة والحار الرطب من جهة أخرى[1] .

قلنا أن الطلسمات يكون فعلها أما استجلاباً واستكثاراً لما يراد استجلابه واستكثاره ، وأما نفياً وإبعاداً لما يراد نفيه وإبعاده .

وطريق الإستجلاب هو المماثلة ، وطريق الأبعاد هو المقابلة ؛ فإذا أردت استجلاب شيء ، كالعقارب والحيات والضفادع والسمك والناس والوحوش ، كان عليك أن تماثل بين صفة الشيء المطلوب وبين الكواكب والبروج ، وأما إذا أردت أن تُبْعد شيئاً كأن تطرد عن مدينة ما كل ما فيها من عقارب أو حيات أو ضفادع الخ ، كان عليك أن تباين بين الشيء المراد إبعاده وبين الكواكب والبروج ؛ فللكواكب والبروج طبائع أسلفناها لك في حينها[2] ، وكذلك لكل شيء طبائعه ، وإنما تكون المماثلة والمباينة بين هذه الطبائع وتلك ، إما مباشرة وإما بوساطة عُقَّار يُعَد لذلك .

(١) كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل ، مختارات كراوس ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .
(٢) راجع الفصل السادس .

فالمماثلة بين البروج تكون بين أولها وخامسها وتاسعها وهكذا على الصور الآتية :

١ ـ الحمل	٥ ـ الأسد	٩ ـ القوس . . . حارة يابسة
٢ ـ الثور	٦ ـ السنبلة	١٠ ـ الجدي . . . باردة يابسة
٣ ـ الجوزاء	٧ ـ الميزان	١١ ـ الدلو . . . حارة رطبة
٤ ـ السرطان	٨ ـ العقرب	١٢ ـ الحوت . . . باردة رطبة

والمقابلة بين البروج تكون بين أولها وسابعها ، وثانيها وثامنها . وهكذا ، على الصورة الآتية :

الحمل ضد الميزان .

الثور ضد العقرب .

الجوزاء ضد القوس .

السرطان ضد الجدي .

الأسد ضد الدلو .

السنبلة ضد الحوت .

ونسوق فيما يلي أمثلة للمماثلة والمقابلة :

أ ـ المماثلة :

١ ـ تريد استجلاب الأسد إلى مدينة من المدن ، فليكن الرصد إلى برج حار يابس ، ويكون في ذلك البرج نجمٌ حار يابس كذلك ؛ والبروج الحارة اليابسة هي ـ كما قدمنا ـ الحمل والأسد والقوس ، والكواكب الحارة اليابسة هي : الشمس والمريخ والزهرة وعطارد .

٢ ـ تريد استجلاب السمك إلى ماء في مكان معين ؛ فالرصد عندئذ يكون إلى برج بارد رطب ، ويكون في ذلك البرج نجم بارد رطب . . .

ويضاف إلى فعل البروج والكواكب أدوية تؤخذ اما من الحيوان وأما من النبات وأما من الحجر ، لكن المأخوذة من الحيوان والنبات تجف وتتحول فيبطل عملها ، وأما المأخوذة من الحجر فثابتة ؛ فعلينا أن نختار الحجر الذي يناسب طبعُه طبعَ البروج والكواكب من حرارة ويبوسة وبرودة ورطوبة .

ب ـ المقابلة :

١ ـ تريد أن تطرد العقارب من موضع مّا ، فما دامت العقارب باردة الطبع ، فيجب أن يكون الرصد إلى برج حار وإلى كوكب حار ، وأن يكون الدواء المستخدم من حجر حار .

٢ ـ تريد أن تطرد الأفاعي ، والأفاعي حارة ، فيجب أن يكون البرج بارداً والكوكب بارداً والحجر الذي تأخذ منه الدواء بارداً[١] .

(١) المرجع السابق ، ص ٨٠ ـ ٨٤ .

هكذا « تُسَلِّط » على الشيء المستجلَب ما يماثله فيظهر ، وعلى الشيء المُبْعَد ما يقابله فيختفي .

وهنا نذكر قصة طريفة يرويها جابر مفسِّراً بها كلمة « طِلَّسْم » كيف جاءت ؟

قال جابر يروي عن شيخ له : « . . . يا جابر ! فقلتُ : لبيك يا مولاي ؛ فقال : أتدري لم يسمى الطِّلَسْم طِلَّسْماً ؟ قلت : لا والله يا مولاي ما أدري ؛ فقال : فكِّر فيه ، فإنه من علمك ؛ ففكرت فيه سنة فلم أعلم ما هو ؛ فقلت : لا والله يا مولاي ما أدري ما هو ، فقال : لولا أني غرستك بيدي وأنشأتك أولاً وآخراً إلى وقت هذا ، لقلت أنك مظلم ؛ ويلك اقْلِبْه ! فقلت : نعم يا مولاي ، فإذا معناه مُسَلَّط من جهة الغلبة والتسليط ؛ فخررت ساجداً ، فقال : لو كان سجودك لي ـ وجَدُّك ـ لكنت من الفائزين ؛ قد سجد لي آباؤك الأولون ؛ وسجودك لي يا جابر سجودك لنفسك ؛ أنت والله فوق ذلك ؛ فخررت ساجداً ، فقال : يا جابر ، والله ما تحتاج إلى هذا كله ، فقلت : صدقت يا مولاي ، فقال : قد علمنا ما أردتَ ، وعلمتَ ما أردتُ . . . فاشرح هذا في كتابي إخراج ما في القوة إلى الفعل ؛ فالطِّلَّسْم ـ عافاك الله ـ مُسَلَّطٌ في فعله ، قاهر غالب بموازاة المماثلة والمقابلة »[٢] .

طبيب البحر :

ذلك ما يقوله جابر في الطلسمات وكأنما ليس هو جابراً الكيموي العالِم المدقق في مشاهداته وتجاربه ؛ فانظر إلى قصة أخرى يرويها جابرٌ في الطب والعلاج :

زعم بعضهم أن حيواناً في البحر ، جبهته من حجر أصفر ؛ فإذا صيد ذلك الحيوان ـ وهو على خلقة الإنسان ـ وذبحه ذابح وأخذ من الحجر الذي في جبهته قيراطاً فالقاه على عشرة أرطال قمراً ، قلّبه شمساً . . . وهذا الحيوان يعرف بطبيب البحر ، وذلك أنه إذا مرض كائن حيٌّ ، وجئناه بذلك الحيوان البحري فمسحنا على موضع العلة منه مرتين أو ثلاثاً بالحجر الذي في جبهته ، عَرِق المريض وبرىء من مرضه وعاد سليماً ؛ ولقد عُرف عن « طبيب البحر » أنه إذا صيد ، لبث يلتمس الوسيلة التي تعيده إلى الماء . . . ولقد رأيت قوماً من البحرانيين الملجَّجين العلماء ، وسألتهم عن « طبيب البحر » فإذا أمره أشهر مما كنت أظن ؛ وضمنوا إليَّ أن يُروني إياه ؛ فلما أن لججنا في البحر وصلنا إلى جزيرة تدعى سنديات ، إذا نحن بجماعة من « أطباء البحر » فقلت : اعملوا الحيلة في صيد واحد منها ؛ وألقينا الشبكة ، وحصرناهم ، فوقع واحد منهم فيها ؛ فلما لم يجد لنفسه مخلصاً ، جعل يلطم ـ كلطم المرأة ـ على خدَّيه شديداً ، وتبينت جبهته ، فإذا هي حجر يلمع ، فأخذته ، فإذا هي جارية حسناء ، كأحسن ما يكون من الصور ؛ فبنيت له بيتاً في المركب وحبسته فيه ؛ وعرض لبعض أهل المركب تشنُّج . فأخرجتُه ـ أي طبيب البحر ـ ومررت به على ذراعي المتشنج وساقيه ، فأبرأه

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٩ ـ ٨٠ .

لوقته ؛ ورآه غلام معي ، فعشقه ، ولم يزل يلحّ فيه ، إلى أن خفتُ عليه الهلكة منه ؛ فجعلته معه في البيت ، فصبر الغلام معها على ذلك ، وزاوجها ، وأحبلها ، فولدت غلاماً ، وتربّى ، إلا أن خلقته كخلقة الإنسان ؛ وفي جبهته شيء يلمع ، ليس كالأمّ ؛ فلم أر شيئاً قط أعجب من أمره ، فلما أن كبر الصبي ورأيت ميل الأمّ إليه ميلاً عظيماً ، وهي مع ذلك لا تتكلم مع طول المدة بكلمة واحدة ، أكثر من الهمهمة شيئاً لا صوت له إلا خفيٌّ جداً ، أبئنا أن ترمي بنفسها في الماء ؛ فجعلت تدخل وتخرج ، وللمركب جوانب عالية ليس تلحق أن تظفر منها ؛ فلم تزل تؤانسنا وترتقي من موضع إلى موضع ، حتى إذا وثقت بأنّا أمِنّاها صعدت ورمت بنفسها في الماء ، فجزع الغلام - زوجُها - عليها ، فأخذ الغلام ابنه معه ، وهو مع ذلك لا يتكلم ؛ فلما أن سرنا بعد ذلك ، وقعنا في شدة عظيمة لا فُرجة لها فإذا نحن بالطبيب - طبيب البحر - جالس على الماء ، ليس منه شيء غائصاً ؛ وإذا هي تومىء بالسلام ، فأومأ الناس إليها كلهم ؛ وأقبل القوم يقولون لها : ما الحيلة ؟ وقوم يدعون ، وقوم يبكون ، وكل قوم في فن من الفنون ؛ فأومأتْ إليهم بشيء من الأشياء ، فإذا الغلمان قد ألقوا الأناجر ، وإذا الأناجر لا تثبت ، إلى أن ثبت منها ثلاثة أناجر ؛ وإذا البحر قد انقلب ، وإذا هي سمكة قد فتحت فمها والماء يدخل إليها كأعظم ما يكون من البحار ؛ وإذا نحن قد توهّمنا أن شق فمها الأعلى جبلٌ عظيم في البحر ، قد أخذ البحرَ من أوله إلى آخره ، فلم نشك حين رأيناها أنها تطبق فمها علينا فنكون في بعض أضراسها إلى أن كفى الله تعالى ، ثم انفلت الصبي فوقع إلى الماء ، فلما أن كان من غد ، ظَهَرَ ، فإذا جبهته قد صارت حجراً ؛ فلم أزل إلى أن صِدْت من الأطباء ثلاثة ، فأخذت جبهة واحد وألقيته ، فنظرت إلى صَبْغِه ، ففكرت حينئذ في قدرة الباريء عزَّ وجلَّ كيف عدل هذا الموضع من هذا الحيوان بما لم يمكن أحداً من الناس - أو كلهم لو اجتمعوا على ذلك ما قدروا عليه ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين ؛ فناديت أن لا إله إلا أنت سبحانك ؛ ربنا وتعاليت عما يقول المبطلون[1] .

ابتهال العلماء :

أتريد أن تكون باحثاً عالماً ؟ إذن فهاك وصية يراها جابرٌ كبيرة النفع للسالكين في سبيل العلم - علم الموازين وتركيب الطبائع على الجوهر تركيباً من شأنه أن ينتج لنا كل ما أردناه من كائنات ؛ يقول جابر في ذلك :

إني كنت آلفت سيدي[2] - صلوات الله عليه - كثيراً ، وكنت لَهِجاً بالأدعية وبخاصة ما كان يدعو به الفلاسفة ، وكنت أعرضه عليه ، وكان منها ما استحسنه ، ومنها ما يقول عنه : الناس كلهم يدعون بهذا وليس فيه خاصّيّة ؛ فلما أكثرت عليه علّمني هذا الدعاء ، وهو من جنس دعاء الفلاسفة ، بل أنه لا فرق بينه وبين ما يدعو به الفلاسفة ، غير أنه قد اختار من دعاء الفلاسفة أجزاء ، وأضاف إليه أجزاء ، وقال لي : لا يتم لك الأمر إلا به ؛ وعندي أنه لا يتم لأحد ممن قرأ كتبي خاصة إلا به ، إن أزل صورة الشيطان عن قلبه وترك اللجاج واستعمل محض الإسلام والدين والنية الجميلة ، أما ما دام الشيطان يلعب به ، ويَؤزُّه قصداً ، فليس ينفعه شيء ، وذلك أن اللجاج ليس هو من الشيطان وحده ، إنما هو من فساد النية ، فاتق الله يا هذا في نفسك ، واعمد إلى ما أوصيك به . . . وهذه هي الوصية :

ابدأ بالطهر ، بأن تفيض على بدنك ماء نظيفاً في موضع نظيف ؛ ثم تلبس ثياباً طاهرة نظيفة ، لا تمسها امرأة حائض ، ثم تستخير الله ألف مرة ، وتقول في استخارتك : اللهم إني أستخيرك في قصدي ، فوفقني وأزغ الشيطان عني ، إنك تقدر عليه ولا يقدر عليك ؛ فإذا قلت ذلك ألف مرة ، عمدت إلى موضع طاهر نظيف ، وابتدأت فكبّرت الله وقرأت الحمد وقلْ هو الله أحد مائة مرة ، وركعت وسجدت ، ثم قمت وصليت مثل ذلك ، ثم تشهدت وسلّمت ، ثم قرأت في الركعتين الثانيتين مائة مرة إذا جاء نصر الله والفتح ، وإذا سلمت أعدت مثل الركعتين الأوليين ، وقرأت قل هو الله أحد مائة مرة ، ثم أعدت اثنتين أخرى بإذا جاء نصر الله والفتح ، ثم صليت ركعتين أخريين ، وهما تمام العشر ، وقرأت سورة سورة ، ثم أتممت صلاتك ؛ وإياك أن تكلم أحداً في خلال ذلك ، ويشغلك شاغل ؛ وأحرى المواضع بك الصحاري الخالية حتى لا يكلمك أحد البتة ، ثم اجلس وقل بعد أن تمد يديك إلى الله تعالى : اللهم إني قد مددتها إليك طالباً مرضاتك ، وأسألك ألا تردهما خائبتين ؛ وتبدأ وتقول : اللهم أنت أنت ، يا من هو هو ، يا من لا يعلم ما هو إلا هو ، اللهم أنت خالق الكل ، اللهم أنت خالق العقل ، اللهم أنت واهب النفس النفسانية ، اللهم أنت خالق العلة ، اللهم أنت خالق الروح ، اللهم أنت قبل الزمان والمكان وخالقها ، اللهم أنت فاعل الخلق بالحركة والسكون وخالقها ، اللهم إني قصدتك فتفضّل عليّ بموهبة العقل الرصين ، وإرشادي في مسلكي إلى الصراط المستقيم ، اللهم بك ، فلا شيء أعظم منك ، نَوِّرْ قلبي وأوضح لي سبيل القصد إلى مرضاتك ، اللهم إني قصدتك ونازعتني نفساي : نفسي النفسانية نازعتني إليك ، ونفسي الحيوانية نازعتني إلى طلب الدنيا ، اللهم فيك ، لا أعظم منك ، يا فاعل الكل ، صَلِّ على محمد عبدك ورسولك وعلى آله وأصحابه المنتجبين ، وأَهْدِ نفسي النفسانية إلى ما أنت أعلم به من مرادها منها ، وبلِّغ نفسي الحيوانية منك غاية آمالها فتكون عندك ، إذا بلّغتها ذلك فقد بلّغتها الدنيا والآخرة ، أنه سهل عليك ؛ اللهم إني أعلم أنك لا تخاف خَلَلاً ولا نقصاناً يوهنك برحمتك وكرمك ، هب لي ما سألتك من الدنيا والآخرة ؛ اللهم يا واهب الكل فاجعل ذلك في مرضاتك ولا تجعله فيما يُسخطك ؛ اللهم واجعل ما يرزقني عوناً على أداء حقوقك وشاهداً لي عندك ، ولا تجعله شاهداً عليّ ولا عوناً على طلب ما يعرضك عني ؛ اللهم يا خالق الكل أنت خلقت قلبي ، وأنت خلقت الشيطان ولعنته بما استحقّه وأمرتنا أن نلعنه ، فاصرفه عن قلب وليّك أنت ، وأعِنّي على ما أقصد له من كيت وكيت - واذكر حاجتك في هذا الموضع - فإذا فرغت من سائر ما تريده فعفّر خدَّيْك على الأرض ، ثم قل في تعفيرك : خضَع وجهي الذليل الفاني لوجهك العزيز الباقي ، قلْه عشر مرات ، ثم اجلس مليّاً ، وقم فتوجّه وكبِّر واقرأ الحمدُ وسورة ألم نشرح لك صدرك ، واقرأها في الركعة الثانية ، فإذا سلّمت قل :

---

(1) كتاب السبعين ، مقالة ٦٠ .

(2) المقصود هو جعفر الصادق .

أقصد ولا أرجو غيرك ؛ اللهم لا تضيِّع زمام قصدي ورجائي لك ، إنك لا تضيِّع أجر المحسنين ، وإنك تقضي ولا يُقضى عليك ، قد وعدت الصابرين خير الجزاء فيك ، ولأصبرنَّ بك لما خَفَّفْت عني وصَبَّرْتني على امتحانك ؛ اللهم قد وعدت بعد العسر يسراً ، اللهم فامْحُ أوقات العسر واجعلها زيادة في أوقات اليسر ، واجعل ذلك حظاً من الدنيا وحظوظاً من الآخرة ؛ اللهم إنَّ وسيلتي إليك محمد وصفوة أهل بيته ، آمين آمين آمين .

قال سيدي لي في ذلك : إن الله عزَّ وجلَّ أكرم من أن يتوسل إليه إنسان بنبيِّه فيرده خائباً ؛ فإذا تمت ذلك فصدِّق في أثره درهمين وثلثين ، واجعله أربعة أقسام ، كل قسم أربعة دوانيق ؛ فأول من يلقاك ممن يقبل الصدقة فاعطه قسماً ، وكذلك الثاني والثالث والرابع ، فإن الله تعالى يحمدك العاقبة في سائر أمورك ، ويزجر الشيطان عن وجهك ، واقصد لما أنت تشتهيه ، فإنك ترى فيه الرشد . . . ويرزقك الله قريباً إن شاء الله .

الميرزا جعفر بن أحمد الأنصاري القراة داغي.

ذكره أخوه في مقدمة رسالته «تاريخ قم»، وقال ما ترجمته: إنه من جملة أكابر العصر الأفاضل، وقلما وجدت من المعاصرين مثله في الكمالات النفسانية، توفي في طريق الحج بقرية «الغاب» على ثلاث مراحل من مدينة حلب ودفن أولاً في حلب بمشهد رأس الحسين (ع) ثم نقل إلى النجف الأشرف.

توفي قبل سنة ١٢٨٤ التي ألف فيها الرسالة المذكورة[١].

الشيخ جعفر بن أحمد بن الحسن المكي.

قرأ عليه السيد عز الدين حسن بن حمزة الحسيني النجفي كتاب «إرشاد الأذهان» للعلامة الحلي. فأجازه مصرحاً في الإجازة بأنه قرأه على الشيخ زين الدين علي بن الحسن الأسترآبادي.

وهو من أعلام القرن التاسع[١].

جعفر بن إمام الدين الطهراني.

سمع قراءة سيف الدين محمد الخادم بن مخدوم الحسيني، نسخة من كتاب «الأربعون حديثاً» للشهيد الأول، وأجازه فيها بمشهد الرضا (ع) في شهر رمضان المبارك سنة ٩٦١ وقال فيها: «فقد سمع من لفظي الأديب اللبيب الفاضل الكامل صاحب المناقب الجليلة والمطالب الجميلة الألمع الذي - يظن كأن قد رأى وقد سمع - سمي إمامنا السادس. . . وهو الذي في الخُلق والشيمة وحسن السريرة ليس له ثاني. . . فكنت أنا قارئاً وهو سامع مع تحقيق وتفتيش وتنقيب وتصحيح تناسب فهم أهل الفضل والذكاء. . .»[٣].

(١) السيد أحمد الحسيني.

(٢) السيد أحمد الحسيني.

(٣) السيد أحمد الحسيني.

الشيخ جعفر بن عباس الكلبايكاني.

كتب تقرير أبحاث أستاذه الرشتي الأصولية وقرأه وصححه الأستاذ كما يبدو من بعض النسخ المخطوطة التي هي شبيهة الأسلوب بكتاب «بدائع الأفكار» مع تقديم وتأخير في مقاصد الكتاب الخمسة وتغيير في بعض العبارات.

له «أصول الفقه»[٤].

جعفر الفراهي

صحح الميرزا عبدآ أفندي نسخته من كتاب «أمل الآمل» على نسخة المؤلف التي كانت عند الفراهي هذا، وصرح أنه من تلامذة الحر العاملي وبيته في مشهد الرضا (ع) في «محلة هار باغ»[٥].

الشيخ جعفر بن الشيخ الميرزا علي رضا بن الميرزا محمد حسن بن الميرزا محمد سميع بن الميرزا محمد بن لطف علي خان الطالشي الرشتي

ولد في كربلاء سنة ١٣١٠ كما حدثني به وتوفي بها سنة ١٣٩٧.

من مشاهير علماء الحائر الشريف محقق أصولي كلامي أخذ المقدمات وفنون الأدب على جماعة من الأفاضل منهم الشيخ محمد سعيد الفارسي والشيخ محمد مهدي الحائري وتتلمذ في الحكمة والفلسفة على الشيخ نعمة آ الدامغاني والشيخ موسى الكرمانشاهي وأخذ الرياضيات والهيئة عن الشيخ محمد مهدي الكشميري ثم تفقه على الميرزا علي الشهرستاني ثم تصدر للتدريس وعكف عليه طلاب العلوم واشتهر أمره وكان من أبرز مدرسي المقدمات والسطوح في كربلاء وعميد المدرسة الهندية وقد تخرج عليه جمع غفير من علماء وفضلاء الحائر الشريف وانتهى إليه كرسي التدريس.

وكان آل الرشتي من زعماء الحوزة العلمية في الحائر الشريف هاجر جدهم الميرزا محمد حسن من بارفروش إلى كربلاء في النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة وكان من أفاضل التجار، وجدهم الأعلى لطف علي خان كان من زعماء قبيلة طالش وهي من العشائر الكبيرة في گيلان. كان ولد المترجم له الشيخ الميرزا علي رضا الرشتي المتوفى سنة ١٣١٩ من فحول العلماء ومن تلامذة السيد الميرزا علي نقي الطباطبائي الحائري. ومن أعلام هذا البيت شقيق المترجم له الشيخ مهدي الرشتي الذي أخذ سطوحه عن الميرزا يحيى الزرندي وتخرج في الفقه والأصول على السيد الميرزا هادي الخراساني وهذا البيت الجليل هم أخوال

(٤) السيد أحمد الحسيني.

(٥) السيد أحمد الحسيني.

الأسرة العلوية المعروفة بآل الوهاب من خدمة الروضة الحسينية.

ترك المترجم له مؤلفات وحواشي منها رسالة في الرياضيات، رسالة في الهيئة، حواشي على حاشية ملا عبد الله في المنطق، كما أن له حواشي على الكتب الأدبية ومن آثاره في كربلاء المكتبة الجعفرية العامة التي أسسها في المدرسة الهندية في كربلاء وهي من أهم وأشهر مكتبات العراق تحتوي على مجموعة من أنفس المخطوطات ونوادر المطبوعات ولا تزال تعرف باسم (المكتبة الجعفرية) كما ساهم في ثورة العشرين بزعامة الميرزا محمد تقي الشيرازي على الانجليز[١].

الشيخ جعفر بن كمال الدين البحراني الأوالي.

مترجم في أعيان الشيعة ٤/١٣٦، ونقول:

يفهم من مجموع الأبيات الأولى من أرجوزته، «الكامل في الصناعة» أنه ولد سنة ١٠١٤، وكان آباؤه كلهم من مواليد البحرين، وجده عيسى كان حاكم قلعة «السلاق» جزيرة صغيرة بين «سماهيج» وجزيرة «ابن متوج» غطاها الماء.

كان بارعاً في التجويد والقراءة، وتتلمذ فيه على سديد الدين يوسف البلقيني وقد قرأ عليه في الرباط الداودية المتصل بالحرم الشريف سنة ١٠٤٣، وعلى الشيخ جمال الدين حسن بن علي البحراني الكراني والفاضل الرضي بن يوسف السبزواري البيهقي ووالده الشيخ كمال الدين البحراني.

ومن أساتذته في العلوم الأخرى الشيخ بهاء الدين العاملي والسيد ماجد البحراني والأسترآبادي والسيد نور الدين بن علي بن أبي الحسن العاملي والعلائي.

أجيز في القراءة من أستاذه الفاضل الرضي السبزواري، وأجاز فيها لتلميذه السيد علي خان الشيرازي صاحب السلافة.

له «الكامل في الصناعة» أرجوزة طويلة في التجويد أتم نظمها سنة ١٠٦٩[٢].

السيد جعفر بحر العلوم بن باقر.

ولد في النجف سنة ١٢٨٩ وتوفي فيها سنة ١٣٧٧.

توفي أبوه وهو طفل صغير، فنشأ برعاية عمه السيد علي بحر العلوم.

وبعد قطع المراحل العلمية المتداولة في الحوزة النجفية. حضر الأبحاث عند أعلام النجف كالسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي والمولى محمد كاظم الآخوند الخراساني والسيد محمد بحر العلوم.

كان عالماً جليلاً أديباً راوية لسير العلماء الأعلام، ذا إطلاع واسع بالأحداث التاريخية والوقائع الإسلامية، فطناً مستحضراً لمتون الأخبار والروايات.

وكان من هواة الكتب، فكوّن مكتبة عامرة فيها كثير من نفائس المطبوعات والمخطوطات، زاد فيها بعده ولده السيد هاشم وبعد وفاة السيد هاشم عطلت المكتبة وأغلقت أبوابها[٣].

آقا جعفر اللاهيجاني الجيلاني

ولد في مدينة «لاهيجان» من مدن جيلان، وشب ونشأ بها وتوفي هناك، أقام مدة بأصبهان وتتلمذ على أعلامها في العلوم الدينية، ومنهم آقا أحمد المازندراني البيد آدبادي.

وصفه بعضهم في مجموعة تضم رسائل متفرقة نسخها اللاهيجاني بأنه «من فحول الحكماء الإلهيين وأفاضل العلماء المتبحرين...» وتاريخ هذه الكتابة سنة ١٢٨٢ وقد كتبت بعد وفاته[٤].

جلال الدين همائي بن الميرزا أبو القاسم محمد نصير المتخلص ب(طرب) بن هما الشيرازي.

ولد سنة ١٣١٧ في أصفهان وتوفي فيها سنة ١٤٠٠.

درس على أبيه القرآن وديوان حافظ الشيرازي، ودرس على الميرزا عبد الغفار الأدب العربي والعروض والمعاني والبيان والبديع ونهج البلاغة ومقامات الحريري. وفي سنة ١٣٢٧ دخل مدرسة (قدسية) فدرس فيها الصرف والنحو والمنطق والحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا والتجويد.

ثم درس على أبيه أهم الدواوين الفارسية كالشاهنامة وكليات سعدي وغير ذلك، ثم دخل مدرسة (نيم آورد) سنة ١٣٢٨ وسكن فيها مدة عشرين سنة إلى سنة ١٣٤٨ حيث درس على السيد محمد باقر الدرجه إي الفقه والأصول والحديث. ودرس على السيد محمد كاظم الكروندي الأصفهاني الأدب العربي وشرح النظام وعلى الشيخ علي اليزدي مغني اللبيب واللمعة والمطول ودرس على الملا عبد الكريم الگزي شرائع الإسلام والمكاسب والفقه والأصول. ودرس على الميرزا أحمد الأصفهاني كتاب نجاة العباد في الفقه وشرح الباب الحادي عشر في علم الكلام، وعلم الرجال والدراية، كما تتلمذ على السيد محمد صادق الخاتون آبادي والسيد مهدي الدرجه إي.

أما الفلسفة في كتاب الأسفار وكتاب الشفاء وغيرهما فدرسها على الشيخ محمد الخراساني والشيخ أسد آ الحكيم القمشة إي

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.

والحاج الملا عبد الجواد آد آذينداِي. كما درس الطب على الميرزا أبو القاسم ناصر حكمت الأحمد آبادي. وقد أجيز بالاجتهاد والرواية من كبار العلماء ومنذ عام ١٣٤٨ قام بتدريس الأدب العربي والفقه والأصول والمنطق والفلسفة وعلم الكلام والحديث والدراية لتلاميذه الكثيرين وقد استمر في تدريسه سنين طويلة.

وبعد أن استولى رضا شاه بهلوي على القرش في إيران أجبر المترجم له على خلع زيه الديني حيث دخل في وزارة التعليم وشرع في التدريس في الثانويات في أصفهان وتبريز وطهران، ثم في الجامعة أستاذاً للأدب الفارسي والعربي. كما درّس الفقه في كلية الحقوق مدة ١٢ سنة.

واستمر في نشاطاته الثقافية حتى بعد إحالته إلى التقاعد[١].

السيد جمال الدين الحسيني المحدث

قرأ نسخة من كتاب «كشف الغمة» للأربلي وكتب عليها تعاليق مختصرة جداً دالة على فضله واطلاعه في العلوم الأدبية. ولعله كان من أعلام القرن الثالث عشر[٢].

الشيخ جمال الدين بن محمد حسن بن محمد جعفر النائيني النجفي

ولد بنائين ونشأ في كنف والده ودرس الأوليات عنده، ثم هاجر إلى النجف الأشرف فتتلمذ على الشيخ موسى الخوانساري والميرزا حسين النائيني، وانقطع إلى الأخير فأصبح من حواشيه وكتب له بعض رسائله ومكاتيبه بخطه الجيد، وبعد وفاته عاد إلى موطنه نائين واشتغل بالشؤون العلمية والدينية وأسس مدرسة علمية بها أسماها «المدرسة العلمية الجعفرية».

كان هادئاً حسن السمت طيب الأخلاق زاهداً عازفاً عن الزخارف، لم أر منه شيئاً يشينه طول معاشرتي له.

أجازه رواية الشيخ آقا بزرك الطهراني.

له «الاجتهاد والتقليد» و«قاعدة لا ضرر» و«حاشية المكاسب» و«رسالة في الترتيب» و«تقرير أبحاث النائيني» الأصولية.

توفي بنائين في الرابع عشر من شهر محرم سنة ١٣٩٧ ودفن في مقبرة خاصة بالمدرسة الجعفرية[٣].

السيد جلال الدين بن علي بن الحسن الحسيني الحائري.

قرأ عليه الشيخ شمس الدين أحمد بن شمس الدين رسالة «الألفية» للشهيد الأول فكتب له إنهاءاً وإجازة في آخرها. وهو من أعلام القرن العاشر[٤].

(١) الشيخ محمد رضا الأنصاري.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.

السيد جليل بن عباس الموسوي الحسيني الطارمي

مترجم في «نقباء البشر» ص ٣٠٧ ونقول:

كان في بداية أمره في قزوين مشتغلاً بالتحصيل والتدريس. وانتقل منها إلى طهران نحو سنة ١٢٩٠ حيث كان مقيماً بها في مدرسة الصدر سنة ١٢٩١.

له «قواعد جليلة منطقية» و«قواعد جليلة نحوية» و«تحفة الطالبين» و«تبصرة الأدباء» وألف الأخيرين سنة ١٢٩١[٥].

السيد جواد بن علي رضا الحسيني الرضوي القمي الطاهري

صرح بأن اسمه الحقيقي «محمد تقي» في مواضع من كتابه «مقاليد الأحكام»، وأضاف إلى ألقابه «الطاهري» ولا نعلم وجهه.

أقام سنين بالنجف الأشرف لتحصيل العلم، وهو من تلامذة الشيخ مرتضى الأنصاري حين بدأ بتأليف كتابه «المقاليد» سنة ١٢٦٦ كما صرح بذلك أيضاً في آخر كتابه المذكور.

أهدى إليه المولى فيض آ الدربندي كتابه «التحفة الجوادية في الرد على الصوفية» وقال عنه في مقدمته «المولى الأعظم والسيد الأجل الأكرم ثمرة الدوحة العلوية ونور الحديقة الفاطمية سيد المجتهدين وظهير الإسلام والمسلمين الداعي إلى سبيل الرشاد ومن هو للدين عميد وعماد...». ويبدو من هذا الكتاب أن السيد جواد كان شديد الوطأة على الصوفية بالغ الاهتمام بإظهار مخازيهم[٦].

الشيخ جواد الشاه عبد العظيمي بن مهدي

ولد سنة ١٢٧٥ في مدينة الري (مشهد عبد العظيم الحسيني)، نشأ نشأته الأولى في الري وعلى أفاضلها أخذ المقدمات العلمية لا سيما على والده الذي كان من وجوه علماء طهران والري ثم سكن مشهد الرضا وفيها توفي سنة ١٣٥٥.

ذهب المترجم إلى العتبات المقدسة في العراق لإكمال الدراسة، فأقام بالنجف الأشرف سنين متتلمذاً في الفقه والأصول على السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي والمولى محمد كاظم الآخوند الخراساني والميرزا محمد حسن الآشتياني وشيخ الشريعة الأصبهاني والحاج ميرزا حسين الخليلي وغيرهم.

ثم عاد من النجف إلى مسقط رأسه «شاه عبد العظيم» وتولى بعض شؤون مزار السيد عبد العظيم، وفوضت إليه إدارة موقوفات كثيرة تعود إلى المزار وبقيت هذه الموقوفات بعده تحت تصرف أولاده وأحفاده.

وهو من أسباط المولى علي الكني، ولذا كان يعرف بـ«الحاج مجتهد الكني».

(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.

ترك بعض المؤلفات الفقهية وكتاب (مزارات طهران) وكتاباً في الأنساب[١].

جبار باغجيربان

ولد سنة ١٣١٢ وتوفي سنة ١٣٨٧.

يعد مؤسس مدارس الصم والبكم في إيران وأول من ألف قصص الأطفال وأول من أسس روضة الأطفال. وكان شغله الشاغل: الأطفال وطريقة تربيتهم الصالحة، طيب القلب محباً للأطفال ساعياً في شؤونهم ورفع مستوى ثقافتهم، دؤوباً لا يعرف الكلل والملل.

أسس أول روضة للأطفال في مسقط رأسه (تبريز) وذلك عام ١٣٤٥ وكان بين أطفالها ثلاثة من الصم والبكم فأثارت حالتهم إشفاقه، وكانت معالجتهم شبه مستحيلة فتغلب على ذلك بصبره وإخلاصه، فكتب لهم القصص وصوّر لهم الصور واخترع لهم لغة تختص بهم، ووضع ألف باء الصم والبكم المعمول بها اليوم في جميع أنحاء إيران. وفي العام ١٣٥٢ أسس أول مدرسة للصم والبكم في طهران، وحاول دؤوباً تذليل العقبات التي تواجههم، فوضع لهم مناهج دراسية تختص بهم مرفوقة بالصور التعليمية. كما اخترع أول جهاز للسمع يوضع داخل أذن الأصم فيسمع، وهذا الجهاز هو الذي قام العالمان الأمريكيان: الدكتور أرل كولارد، والدكتور فرد آلن بعد ثلاثين سنة. بتطويره وإنتاجه، وهو المستعمل اليوم في جميع أنحاء العالم.

كما أسس جمعية سماها جمعية رعاية الأطفال الصم والبكم، وسعى لمجانية تعليم الاطفال لا سيما الصم والبكم منهم [٢].

الميرزا حاتم بن نظام الملك النظام الملكي.

يبدو أنه كان من أصحاب الاجتهاد والرأي في الفقه وهو من أعلام أواخر القرن الحادي عشر ويبعد أنه بقي إلى سنة ١١٠٤ المستنسخ فيها نسخة من كتابه «ضياء الثقلين» كما في الذريعة ١٥/ ١٢٣، لأنه ألف كتابه المذكور بعد مضي أيام الشباب وقد رأيت نسخة منه قرئت على المولى محمد باقر المجلسي فكتب في حواشيها بلاغات بخطه[٣].

حبيب الله حسن علي الأصبهاني.

قرأ على المولى محمد باقر المجلسي بعض مجلدات كتابه «بحار الأنوار» فكتب له إنهاء في آخر المجلد الخامس بتاريخ عاشر ذي القعدة سنة ١٠٩٥ وفي آخر المجلد السادس بتاريخ ربيع الأول سنة ١٠٩٦ وقال في الثاني منها «أنهاه المولى الفاضل الصالح الرابع التقي المتوقد الذكي...»[٤].

الشيخ حبيب الله بن زين العابدين القمي الزيواني.

يبدو سن مقدمة كتابه «شرق الشمسين» أنه استفاد علمياً من علماء قم وطهران، وهو أديب شاعر بالفارسية[٥].

الشيخ حبيب الله بن محمد حسين حكيم باشي.

ولد في مدينة مشهد سنة ١٨٧٧م وتوفي في مدينة كاشمر سنة ١٩٦١م.

نشأ في مشهد وعلى علمائها درس المقدمات الأدبية وسطوح الفقه والأصول.

ثم ذهب إلى العتبات المقدسة بالعراق وبقي بها ست عشرة سنة متتلمذاً على علمائها الأعلام.

ثم جاء إلى مدينة «كاشمر» إحدى مدن خراسان وأقام بها مشتغلاً بالوظائف الدينية والإرشاد والهداية ومتفرغاً للشؤون الاجتماعية وقضاء حوائج الناس.

انتقلت إليه من والده أملاك كثيرة، فبنى مسجداً.

انتخب عضواً في البرلمان الإيراني عن خراسان في الدورة الثانية، وكان من المجتهدين الخمسة المشرفين على القوانين الصادرة من المجلس. وبعد انتهاء سنتين مدة هذه الدورة انتخب ثانية عن كاشمر إلا أنه آثر الابتعاد عن السياسة وعاد إلى أعماله الدينية مهتماً بالتدريس[٦].

الشيخ حسام الدين بن درويش علي الحلي النجفي

مترجم في «رياض العلماء» ١/ ١٣٧ و«أعيان الشيعة» ١٠/ ١٠٥، ونقول:

قرأ عليه يحيى بن الأعرج الحسيني كتاب «المختصر النافع» فأجازه في آخره في الثامن من شهر رمضان سنة ١٠٣٢.

الميرزا حسن بن إبراهيم الأصبهاني.

مترجم في «نقباء البشر» ص ٣٧٨ ونقول:

كان يصلي جماعة في مسجد ذي الفقار بأصبهان. وكان من أعلام المدرسين خارجاً في الفقه والأصول يحضر درسه ثلة ممتازة من أفاضل الطلبة.

أجيز رواية من جماعة من المشايخ الأجلاء. ومنهم الميرزا حبيب آ الرشتي والآخوند ملا لطف آ المازندراني والسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي والمولى محمد كاظم الآخوند الخراساني

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) الشيخ محمد رضا الأنصاري.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.

وقد ذكر هؤلاء الشيوخ في إجازته للسيد أحمد الصفاني الخونساري التي كتبها في شهر شعبان سنة ١٣٢٣.

ذكر الصفاني في إجازته لابنه السيد مصطفى الصفائي الخونساري، شيخه هذا وعبر عنه بـ«المولى الأجل العالم الأكمل الزاهد الورع الخشن في ذات آ الأغا ميرزا حسن...». وقد كتب تقريراته الأصولية في التعادل والترجيح والاستصحاب وحجية المظنة والفقهية في البيع[١].

الشيخ ميرزا حسن النوري بن الشيخ ابراهيم.

ولد سنة ١٣٤٣ بمدينة همذان وتوفي سنة ١٤١١.

كان يعد من فضلاء حوزة قم العلمية وكان له نصيب وافر في هداية الشباب حيث كان مرشداً روحياً لرابطة طلاب مدارس قم.

هاجر من بلدته إلى قم لإكمال دروسه فحضر على أعلامها كالسيد البروجردي والسيد الطباطبائي.

قام بجمع جميع آثار أستاذه السيد البروجردي في الفقه والأصول والحديث وعلم الرجال فبلغت ٢٠ مجلداً وهي قيد الطبع.

كان شاعراً رقيقاً وكان له خط جميل[٢].

الشيخ حسن بن أحمد بن محمد بن علي بن سنبغة العاملي.

مذكور في أعيان الشيعة ٦/٥، ونقول:

يبدو أنه كان ذا صلة وثيقة بآل الشهيد الثاني وكتب لهم أو لنفسه عدة من مؤلفاتهم، فقد رأيت نسخة من كتاب «معالم الدين وملاذ المجتهدين» للشيخ حسن بن زين الدين الشهيد كتبها المترجم في سنة ١٠٠١. ولعله كان من تلامذة بعضهم وقرأ عندهم شيئاً من العلوم لم نطلع عليها[٣].

حسن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن سليمان بن فضل الماروني، عز الدين.

أتم كتابة نسخة من كتاب «تحرير الأحكام» للعلامة الحلي في يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٨١٧ وقرئت عليه هذه النسخة، وتوفي بعد سنة ٨٥٣ التي كتب فيها طعمة بن أحمد الجابري نسخة أخرى من نفس الكتاب ونقل فيها صورة خطه مع الدعاء له بـ«أدام آ أيامه» مصرحاً أن المترجم له شيخه. (انتهى)[٤].

(٧) السيد أحمد الحسيني.
(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) الشيخ محمد رضا الأنصاري.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.

هذا ما كتبه لنا السيد أحمد الحسيني. وقد حرنا أمام هذه النسبة: (الماروني)، فإلى أي (مارون) ينتسب هذا الرجل؟.

إن صفة (ماروني) ـ كما نعلم ـ لا يوصف بها أحد خارج لبنان والموصوفون بها في لبنان هم المنتمون إلى المذهب المسيحي المعروف نسبة إلى القديس (مارون) الذي يرجعون إليه.

وهناك في لبنان من يوصف بالماروني نسبة إلى قرية (مارون الراس) الواقعة في أطراف جبل عامل قرب الحدود الفلسطينية. وهي قرية سكانها من الشيعة.

وكل ما عرفناه عن هذا الرجل هو ما تقدم ذكره. فهل هو عاملي من قرية مارون الراس ونزح إلى العراق وضاعت أخباره فلم يعرف منها إلا هذا الخبر؟ لعل في الباحثين المنقبين من يعثر على تفاصيل تنير لنا أمر هذا الرجل.

السيد حسن الميرجهاني الطباطبائي.

ولد سنة ١٣١٩ في قرية (محمد آباد) بمحافظة أصفهان في أسرة معروفة بالفضل والتدين وتوفي سنة ١٤١٣ في أصفهان ودفن في مقبرة المجلسي.

درس دراسته الأولى على كل من الشيخ محمد علي حبيب آبادي والشيخ علي اليزدي. ثم على السيد أبو القاسم الدهكردي والسيد فتحي الدزفولي. وبعد ذلك هاجر إلى النجف الأشرف فدرس على أعلامها ثم لازم مرجع عصره السيد أبو الحسن الأصفهاني وصار من خواصه وطلابه المعتمدين لديه.

وبعد وفاة السيد الأصفهاني عاد إلى إيران وأقام في مدينة (مشهد) ملازماً مكتبة الإمام الرضا (ع) متابعاً مخطوطاتها تحقيقاً وبحثاً ودرساً، كما كان يتولى التدريس..

ولتدهور صحته عاد إلى أصفهان حيث توفي فيها.

ترك من المؤلفات: روائح النسمات في شرح دعاء السمات، مستدرك نهج البلاغة مع شرحه والتعليق عليه، حياة السيدة الزهراء (ع)، حياة الإمام الحسن (ع)، رسائل في الجبر والأسطرلاب والرياضيات والطب القديم والكيمياء، ديوان شعر باللغة الفارسية، ديوان شعر باللغة العربية، كتاب في الأنساب، وغير ذلك. على أن من أهم ما كتبه: كتاب في كشف الآيات القرآنية.

وقد كان خطاطاً جميل الخط يضرب المثل بخطه النستعليق. وكانت له صلات وثيقة بأهل العرفان من أمثال الشيخ حسن علي الأصفهاني والحاج آقا جان[١].

(١) فاضل بهزاديان.

حسن التسليم الأصبهاني، صدر الأفاضل

شاعر بالفارسية له ديوان يزيد على خمسة آلاف بيت يتخلص فيه بـ«تسليم»، وقد كان ينظم في العربية أيضاً أبياتاً قليلة[٢].

الشيخ حسن التنكابني

رأيت له صحيفة أدبية تدل على فضله في الشعر والأدب الفارسي، في مجموعة ميرزا أبي الحسن الجيلاني الرودباري، كتبها في المدرسة الفخرية بطهران سنة ١٢٨٧[٣].

الحسن بن الحداد العاملي

قرأ عنده محمد بن الحسن بن محمد الغزنوي كتاب «شرائع الإسلام» فكتب له إنهاء في آخر الجزء الأول منه بتاريخ ٢١ محرم سنة ٧٣٩[٤].

الحسن بن الحسين بن علي الشيلدي

من الأعلام الرواة في أواخر القرن السادس ولعله بقي إلى أوائل القرن السابع، يروي عن القاضي أشرف الدين صاعد بن محمد بن صاعد البريدي الآبي، ورأيت نسبته أو لقبه منقطعاً مضبوطاً في سند كما ذكرته[٥].

الحسن بن الحسين

كتب نسخة من كتاب «تحرير الأحكام» للعلامة الحلي وأتمها في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٧٢٨، ثم قابلها على نسخة المؤلف وأتم المقابلة سنة ٧٢٩.

لعله تاج الدين السرابشنوي أو ابن معانق المذكوران في «الحقائق الراهنة» ص ٣٨ـ ٣٩[٦].

السيد حسن بن حمزة بن محسن الحسيني الموسوي النجفي

مترجم في «رياض العلماء ١/ ١٨٢ و«الضياء اللامع» ص ٣٠، ونقول:

قرأ على الشيخ جعفر بن أحمد المكي كتاب «إرشاد الأذهان» للعلامة الحلي، فأجازه على النسخة قائلاً: «قرأ عليّ السيد المولى العالم العامل مفخرة آل طه ويس الفائق على أقرانه سلالة آبائه المعصومين السيد عز الدين حسن بن السيد السعيد الطاهر السيد حمزة بن المولى النقيب الطاهر أبي القاسم محسن. . . قراءة مهذبة مرضية تشهد بفضله وغزارة علمه وسأل في أثناء قراءته وتضاعيف مباحثه عما استشكل عليه من فقه الكتاب فبينت له ذلك بياناً شافياً وأوضحت له إيضاحاً كافياً. . .».

أقول: صحح السيد عز الدين هذه النسخة المذكورة وقابلها وعلق عليها بخطه تعاليق فقهية جيدة[٧].

الشيخ حسن الخطيب القاري السبزواري

فاضل أديب شاعر بالفارسية منشىء، أصله من سبزوار وأقام بمشهد الرضا (ع)، وكان له منصب الخطابة وقراءة القرآن والإقراء في الروضة الرضوية، خطب في مسجد گوهر شاد أكثر من أربعين سنة، وهو من أعلام القرن الحادي عشر.

له «مطالع الأسرار في شرح مشارق الأنوار» أتمّهُ سنة ١٠٩٠[٨].

حسن الحسيني الآملي، نظام الدين

فاضل أديب شاعر بالفارسية والعربية يتخلص في شعره بـ«حسن»، من أعلام أواخر القرن الثامن، كتب نماذج من شعره باللغتين في المجموعة المعروفة بـ«جنك تاج الدين أحمد وزير» في شعبان سنة ٧٨٢[٩].

الشيخ حسن بن داود الأسترآبادي

مذكور في «رياض العلماء» ١/ ٣٣٠ بعنوان الشيخ حسن بن محمود الأستر آبادي، وفي «الروضة النضرة» المخطوط بعنوان حسن الأسترأبادي بن محمود «داود خ ل)، ونقول:

انتقل منه إلى محمد الأردبيلي كتاب «شرائع الإسلام» فوصفه في الصفحة الأخيرة من النسخة بقوله: «انتقل من مولى الأنام وشيخ الإسلام الفاضل العالم الأورع الأتقى الشيخ حسن بن شيخ محمد داود الأسترآبادي الخادم بالمشهد المقدسي». وفي نفس الصفحة ختم صاحب الترجمة الدائري بهذا السجع «المحتاج إلى رحمة آ الملك المعبود حسن بن محمد داود»[١٠].

الشيخ حسن بن سليمان العاملي

من أعلام القرن الثاني عشر الدارسين في النجف الأشرف، أجازه الشيخ محمد بن أحمد الجزائري النجفي برواية جميع مقروءاته ومسموعاته ومؤلفات والده في يوم الأحد ٢٩ ربيع الثاني سنة ١١٦٤، وصرح في الإجازة بأن العاملي قرأ عليه علم الحديث والدراية والفقه.

قال عنه «فقد قرأ علي الولد الأعز. . . فرأيته بحمد الله جيد الفطرة ذكي القريحة بالغاً حد الكمال والفضل. . .»[١١].

(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.
(٧) السيد أحمد الحسيني.
(٨) السيد أحمد الحسيني.
(٩) السيد أحمد الحسيني.
(١٠) السيد أحمد الحسيني.
(١١) السيد أحمد الحسيني.

الشيخ حسن اللنگراني بن مشكور

ولد سنة ١٢٧٧ في قرية الوادي من توابع (لنگران) وتوفي في النجف سنة ١٣٦١.

قضى أيام طفولته في لنگران، ثم انتقل إلى مدينة أردبيل حيث درس عند علمائها المقدمات العلمية، ثم هاجر إلى تبريز وقرأ السطوح عند الميرزا جولد آقا الملكي التبريزي والميرزا فتاح التبريزي وغيرهما.

ثم انتقل إلى النجف الأشرف لتكميل دراساته العالية، فحضر على أعلامها الأساتذة سنين طويلة وكتب تقريراتهم في الأصول والفقه، ومنهم الشيخ هادي الطهراني والحاج ميرزا حبيب الله الرشتي وشيخ الشريعة الأصفهاني والفاضل الشرابياني وكان أكثر استفاداته من الميرزا الرشتي حيث حضر أبحاثه خمس عشرة سنة ولازمه إلى حين وفاته.

وبعد طي المراحل العلمية استقل في التدريس والإفادة فقهاً وأصولاً، مع ورع وتقوى وانزواء واشتغال بنفسه وابتعاد عن الخلطة إلا ما تقتضيه الضرورة القصوى.

ترك حواشي على الكتب الدراسية وغيرها وكثيراً من الكتابات المبعثرة. ومن مؤلفاته: الملهمات الغروية في أحكام الحج، يناقش فيه صاحب الجواهر كثيراً.

يروي عنه السيد شهاب الدين المرعشي النجفي والشيخ محمد علي الأردوبادي. ويروي هو عن الميرزا حسين الخليلي والسيد محمد علي الشاه عبد العظيمي والسيد حسن الصدر والشيخ آقا بزرك الطهراني[1].

الحافظ حسن بن شجاع بن محمد بن الحسن التوني، تاج الدين

حافظ للقرآن الكريم تجويداً وترتيلاً، أخذ القراءة على أستاذين ماهرين في الفن، وأقرأ كثيراً من القارئين ودرّس لهم التجويد والقراءة.

وصف على بعض مؤلفاته المكتوبة في عصره بـ«المولى الأعظم الأعلم وحيد الدهر وفريد العصر مولانا تاج الملة والدين...».

كان حياً في سنة ٨٥٣ التي كتب فيها بعض آثاره.

له غير ما هو مذكور في الذريعة «ترجمة المفيد في علم التجويد» و«الرسالة الحرفية» و«تجويد فاتحة الكتاب» و«الدراية في الوقوف والآية»[2].

(١) السيد أحمد الحسيني.

(٢) السيد أحمد الحسيني.

الشيخ حسن علي الأصفهاني بن الآخوند ملا علي أكبر

ولد سنة ١٢٧٩ في أصفهان وتوفي في مشهد الرضا سنة ١٣٦١.

نشأ في كنف والده وتعلم منه المبادىء الأولية إلى الحادية عشرة من سني حياته، ورعى تربيته الروحية إلى هذا السن الميرزا محمد صادق المشهور بالرياضات الشرعية والسير والسلوك.

وفي شبابه قرأ العلوم الأدبية والعلوم الرياضية كالحساب والهيئة وغيرهما عند الآخوند الكاشي، وقرأ العلوم العقلية والفلسفة الإلهية عند الميرزا جهانگيز خان القشقائي.

ثم هاجر إلى النجف الأشرف، وتتلمذ بها في العلوم الدينية على كبار أساتذتها، وكان أكثر تتلمذه على السيد مرتضى الكشميري الأخلاقي المعروف.

ثم انتقل إلى مشهد الرضا (ع) وأقام به إلى آخر حياته.

كان يدرّس الفقه في شرح اللمعة ويدرس التفسير وأحياناً الهيئة والحساب وغيرهما من العلوم الرياضية[3].

الشيخ حسن علي بن محمد بن محمد الشريف الشيرواني

أصله من قم وكان يسكن بطهران ويعرف بالشيرواني، وهو من أعلام أوائل القرن الرابع عشر، والظاهر أنه كان يشتغل بالوعظ والخطابة، ويقول إنه وقف عمره على خدمة أحاديث أهل البيت (ع).

له «منتخب المواعظ» بدأ به في سنة ١٣١٧[4].

السيد حسن محمد الموسوي الكاشاني

فاضل متتبع، اشتغل بالخطابة والوعظ وإرشاد المؤمنين منذ كان في الخامسة عشرة من عمره، والظاهر أنه من أعلام أوائل القرن الرابع عشر.

له «منهج الواعظين ومسلك الراشدين» و«ينابيع الحياة في موارد الآيات».

الشيخ حسن بن مرتضى (نظام الدين) بن جواد بن هادي، شيخ الإسلام الرشتي

مذكور في الكرام البررة ص ٣٥٤ وقال إنه توفي بعد ١٢٧٠.

قال في الذريعة ١٣/٣١: نزيل المشهد الرضوي في خراسان وشيخ الإسلام بها.. وتوفي بعد الثلاثمائة.

أقول: ألف كتاب «شجرة طوبى» سنة ١٢٩٨ و«السؤال

(٣) السيد أحمد الحسيني.

(٤) السيد أحمد الحسيني.

والجواب» سنة ١٢٩٩، ووصف بـ«الكاظمي» لأنه نشأ بالكاظمية في كنف أبيه وتوفي بها كما نقل عن تكملة أمل الآمل للسيد الصدر، ولا نعلم لماذا وصف بـ«الحلي»:

له نشاط في التأليف والتصنيف، ألف رسائل وكتباً في مختلف العلوم تدل على سعة اطلاعه وتتبعه.

الميرزا حسن بن عبد الله بن محمد باقر بن محمد علي النوري

عالم محقق جليل، من أعلام النجف الأشرف في النصف الأول من القرن الرابع عشر، وكان يميل إلى الشيخ أحمد الأحسائي وهو كثير التعظيم له في كتاباته.

له «اللآلي المنثورات في تفسير بعض الآيات» و«أصول الفقه» أتم بعض مباحثه في سنة ١٣٠٣[١].

الشيخ حسن بن عبد الله الكرماني الكوهبناني

فاضل أديب عارف بالعربية، شيخي كثير الولاء للحاج كريم خان الكرماني وابنه الحاج محمد خان الكرماني. وهو من أعلام أوائل القرن الرابع عشر.

له «ترجمة ديوان الحاج كريم خان الكرماني» إلى الفارسية وأتمه سنة ١٣٠٢[٢].

الميرزا حسن بن عبد الله النوري.

فقيه من أعلام النجف الأشرف في النصف الأول من القرن الرابع عشر، وكان جل تلمذته في الفقه على الشيخ عبد الله المازندراني وكتب تقريراته الفقهية.

له «شرح شرائع الإسلام»[٣].

الشيخ حسن عبد الهدى المراغه إى

كتب نسخة من كتاب «منافع الأحباء» للسيد فتح الله بن محمد رضا المرعشي التستري في سنة ١٢٦٥ وكتب في آخره تقريضاً عليه يدل على فضله وتمكنه من العلوم الأدبية، وقد ذكر فيه اسم بعض أساتذته محي من النسخة.

الشيخ حسن بن علي بن رمضان البحراني الكراني، جمال الدين.

قرأ عليه الشيخ جعفر بن كمال الدين البحراني التجويد في سنة ١٠٣٤، وقال عنه في هامش أرجوزته «الكامل في الصناعة»: كان أورع أهل زمانه، وأقربهم من التقرب إلى الله تعالى بالطاعات في الآنات والساعات، وكان وحيداً في التجويد والعلم والورع بلا خلاف[٤].

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.

السيد حسن بن علي محمد الحسيني الرودباري القزويني.

فاضل متتبع عارف بالحديث، أصله من «رودبار» من توابع جيلان وسكن بمدينة قزوين، ولعله من أعلام القرن الثالث عشر.

له «مجمع الهدى»[٥].

الميرزا حسن بن فرج الله بن ملا حسن اليزدي

ولد بمدينة يزد في سنة ١٣٢٤ ونشأ برعاية والده ملا فرج الله اليزدي الذي كان من العلماء الأفاضل، وقرأ في مسقط رأسه مقداراً من مقدمات العلوم الدينية.

وبعد أن شب هاجر إلى أصبهان وأتم بها السطوح الفقهية والأصولية وقرأ جانباً من دروس الخارج.

ثم ذهب إلى قم وأقام بها سنين فحضر في الأبحاث الفقهية والأصولية على الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي وكتب من تقريراته كتاب الصلاة ودورة من الأصول.

وبعد ذلك ذهب إلى النجف الأشرف فتتلمذ على الشيخ ضياء الدين العراقي فقهاً وأصولاً وكتب من تقريراته كتاب البيع ودورة من الأصول.

درّس سنين كتابي «الكفاية» و«المكاسب» ثم خارج الفقه والأصول، وكان حسن التقرير جداً، يتسم بالهدوء في أبحاثه ودروسه لين العريكة مع تلامذته، كما أنه كان طيب الأخلاق مع اتزان ووقار في معاشراته محبوب القلوب بين العلماء والأفاضل.

له بالإضافة إلى ما ذكرنا من تقريرات أبحاث أستاذيه كتاب (الرهن) توفي بالنجف يوم الخميس ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٧٩.

السيد حسن بن محمد الطباطبائي، نياز

فاضل أديب كاتب شاعر بالفارسية، من أعلام القرن الثالث عشر وكان من الخطباء، يتخلص في شعره «نياز»[٦].

الشيخ حسن العلامي بن محمد صادق الأصبهاني

ولد سنة ١٣٠٥ في مدينة كرمانشاه وتوفي فيها سنة ١٣٩٤.

قرأ المقدسات العلمية والسطوح وجانباً من خارج الفقه والأصول على جماعة من أعلام علماء كرمانشاه.

ثم ذهب إلى النجف الأشرف، وأدرك أبحاث المولى محمد كاظم الآخوند الخراساني سنتين. وبعد وفاته حضر على الميرزا حسين النائيني والشيخ ضياء الدين العراقي واختص بالثاني فكان من تلامذته النابهين.

ثم عاد إلى كرمانشاه بعد أن قطع المراحل العلمية بتفوق في

(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.

النجف، وأقام فيها مشتغلاً بالتدريس وتربية نفر من الفضلاء، وأقام الجماعة في المسجد المعروف بمسجد الأتراك.

كان محققاً بارعاً في الفقه والأصول، جامعاً للعلوم الدينية الأخرى متبحراً فيها، كثير القراءة في الكتب المنوعة[١].

السيد حسن بن ولي الله بن هداية الله القائني

ولد في «قائن» وهاجر إلى النجف الأشرف لطلب العلم، ومن شيوخه الشيخ محمد العاملي حفيد الشهيد الثاني. وقابل نسخة من كتاب «منهج المقال» للأسترآبادي على نسخة شيخه المذكور في سنة ١٠٤٢ وكتب فيها قيود رجالية مفيدة.

ولعله المذكور في الروضة النضرة بعنوان «المير سيد حسن القائني الهنوي»[٢].

الحسين بن أبي القاسم بن الحسين بن محمد العودي الأسدي الحلي، شرف الدين، أبو عبد الله

نسخ ابنه أحمد بن الحسين بن العودي في مجموعته التي كتبها سنة ٧٤٠ـ ٧٤٢ بعض آثاره ووصفه فيها بـ«الشيخ الإمام العالم الفاضل الكامل المتقن المحقق المدقق العلامة شرف الدين».

له «رد مسألة في إثبات المعدوم» التي كتبها المحقق الحلي، و«أصول الدين» رسالة مختصرة.

أقول: المترجم هنا هو المذكور في رياض العلماء ٢/ ١٨٢ بعنوان «الحسين بن نصير الدين موسى»، فيكون أبو القاسم كنية لنصير الدين موسى وذكر هنا بعنوان أنه اسمه، ولعله لأنه كان معروفاً هكذا[٣].

الشيخ حسين بن أبي القاسم النيسابوري

فاضل فقيه، كان له منصب إمامة الجمعة بنيسابور، تتلمذ على علماء النجف الأشرف ومن أساتذته بها الحاج ميرزا حبيب الله الرشتي.

له «تقرير أبحاث أستاذه الرشتي» سنة ١٢٩٣[٤].

الشيخ حسين بن أحمد التوشي المازندراني

أصله من «بارفروش» وبها نشأ، وقد ولد نحو سنة ١٢٧٨، وتنقل لاكتساب العلوم والمعارف الدينية بين طهران ومازندران، وسافر في سنة ١٣٠٦ لزيارة العتبات المقدسة بالعراق. كان من الخطباء الواعظين.

له «مجمع المصائب» بدأ بتأليفه سنة ١٣٠٨[٥].

الحسين بن أردشير بن محمد بن الحسن الاندراأوذي الطبري، نجم الدين، أبو عبد الله.

مترجم في «الأنوار الساطعة» ص ٤٦، ونقول:

كتب نسخة من كتاب «النهاية» للشيخ الطوسي وأتمها في يوم الثلاثاء ١٥ ربيع الأول سنة ٦٨١، ثم قرأ الكتاب على العلامة الحلي فأجازه في ربيع الثاني سنة ٦٨١ وجمادى الثانية من نفس السنة، وقال في الإجازة الأولى «قرأ علي الشيخ العالم الفقيه الفاضل الكبير الزاهد المحقق العلامة نجم الملة والدين عز الإسلام والمسلمين... قراءة مهذبة تدل على فضله وتنبىء عن علمه...»[٦].

حسين بيدار التبريزي

فاضل أديب شاعر بالفارسية والتركية والعربية كان يتخلص في شعره بـ«بيدار» وأكثر شعره في العرفان ومدائح المعصومين عليهم السلام ومراثيهم وشعره العربي ضعيف ملحون.

له «ديوان شعر» كتبه سنة ١٣١٢[٧].

السيد حسين بن جعفر الحسيني البيدگلي

من علماء «بيدگل» من توابع مدينة كاشان.

رأيت كتباً وقفها عنه معز الدين بن ضياء الدين البيدگلي على علماء وطلبة بيدگل، ووصفه في الوقفيات على النسخ بقوله «السيد السعيد النجيب العالم العامل الكامل الفاضل الصالح المتقي...».

والظاهر أنه من أعلام النصف الثاني من القرن الثالث عشر[٨].

الشيخ حسين بن الحسن المشغري العاملي الشامي

مذكور في أعيان الشيعة ٥/ ٤٧٩ ورياض العلماء ٢/ ٤٥ ونقول:

أجاز المولى أبا تراب المشهدي في آخر نسخة من كتاب «خلاصة الأقوال» للعلامة الحلي بمشهد الرضا (ع) في العشر الثالث من المائة الحادية عشرة.

وقد جاور مدة البيت الحرام وكان بمكة المكرمة في سنة ١٠٣٢ حيث تملك بها نسخة من كتاب «الفصول المختارة»

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.
(٧) السيد أحمد الحسيني.
(٨) السيد أحمد الحسيني.

للشريف المرتضى وكتب ذلك على الورقة الأولى منها.

وكتب مولانا محمد علي الكشميري مجموعة فيها كتاب «إيضاح الاشتباه» و«خلاصة الأقوال» ثم عارضهما وذاكرهما مع أستاذه صاحب الترجمة فأجازه بعدهما بإجازتين في سنة ١٠٣٨.

ويبدو من مجموع الإجازات التي كتبها لتلامذته أن له إجازات عديدة من مشايخه ولكن لم نجد التصريح باسمهم فيما كتب[١].

السيد حسين بن الحسن الحسيني الأردبيلي

من أعلام أردبيل في القرن العاشر، هاجر شخص إلى تلك المدينة في سنة ٩٧٣ واتصل بالسيد حسين هذا وسأله كثيراً من المسائل الفقهية جمعها في كتاب أسماه «تحصيل المراد مما استصعبت من عبارات الإرشاد وذكر أن السيد له مؤلفات كثيرة نسخها لنفسه، ووصفه بـ«سيد المحققين، سند المدققين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، نائب الأئمة المعصومين، سلالة الأئمة الطاهرين، نتيجة العلماء المجتهدين...»[٢].

الشيخ حسين بن حسن الجيلاني

قابل كتاب «كشف الغمة» على عدة نسخ منها نسخة الشيخ علي بن عبد العالي المحقق الكركي وكتب في هوامشه تعاليق يسيرة تدل على فضله ودقته، ولعله كان من أعلام القرن الثاني عشر[٣].

حسين بن حسين بن حسن الأصبهاني، جلال [الدين] القاري.

فاضل له إلمام بالقراءات، أديب شاعر بالفارسية.

له «إيضاح المعاني في شرح حرز الأماني»[٤].

السيد حسين الحسيني القزويني المعروف بالحاج سيد جوادي

توفي سنة ١٣٥٢ في قزوين.

ينتهي نسبه إلى مير سيد حسين بن ابراهيم بن معصوم الحسيني القزويني المعروف بالسيفي نسبة إلى دعاء «الحرز اليماني» المعروف بـ«السيفي» لا الحلة السيفية، أستاذ السيد محمد مهدي بحر العلوم وصاحب كتاب «معارج الأحكام في شرح شرائع الإسلام».

جده الأعلى مير فصيح بن أولياء القزويني هو أول من هاجر من تبريز إلى قزوين وبقي أحفاده بها حتى اليوم.

وعرف هذا البيت بـ«الحاج سيد جوادي» نسبة إلى السيد جواد بن السيد حسين المذكور المتوفى سنة ١٢٧٨.

ونشأ في هذا البيت جماعة من العلماء نجد أسماءهم في طيات الصكوك والاسناد المكتوبة بمدينة قزوين.

ولد المترجم في قزوين وبها نشأ نشأته الأولى، وقرأ المبادىء والسطوح على علمائها الأعلام.

ثم هاجر إلى النجف الأشرف، فتتلمذ في الفقه والأصول على الشيخ محمد حسن المامقاني والمولى محمد كاظم الآخوند الخراساني والسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي وشيخ الشريعة الأصبهاني والفاضل الشرابياني والشيخ محمد طه نجف ثم عامد إلى مسقط رأسه قزوين وأقام بها حتى وفاته. ترك مؤلفاً في الإمامة وآخر في القضاء والشهادات[٥].

السيد حسين بن دلدار علي بن محمد معين الرضوي النقوي النصير آبادي

مذكور في «الكرام البررة» ص ٣٨٧، ونقول:

رأيت إجازة منه مبتورة الأول لبعض العلماء كتبها في يوم الخميس ليلتين خلتا من جمادى الثانية سنة ١٢٦٢، ذكر فيها أنه:

قرأ في مبدأ التحصيل على والده، ثم اشتغل بأمر منه لأمراض اعترته على أخيه السيد محمد النقوي في المعاني والبيان والعلوم العقلية والدينية ومما قرأ عليه كتابه «السيف الماسح» و«سلم العلوم» وشرحه للسند يلوي، ثم عاد على القراءة على والده فقرأ عليه شطراً من كتابه المعروف «عماد الإسلام» وجملة من كتب الحديث كأصول «الكافي» وفروع «المنتقى» وبعض «شرح الأربعين حديثاً» للشيخ بهاء الدين العاملي.

يروي عن والده بلا واسطة، وعن أخيه السيد محمد عن والده[٦].

السيد حسين بن رضا الحسيني الأصبهاني

من العلماء القاطنين بمدينة أصبهان في النصف الأول من القرن الرابع عشر، وهو فقيه أصولي متبحر، أنجز بعض رسائله في شهر ذي الحجة سنة ١٣٢٠ وتوفي بعد سنة ١٣٣٠ التي كتب بها وصيته.

الظاهر أنه غير المترجين في نقباء البشر ص ٥٧٩ـ ٥٨٥.

له «كتاب البيع» و«حاشية فرائد الأصول» وكتابات فقهية وأصولية متفرقة[٧].

السيد حسين بن محسن الموسوي الزنجاني

أديب فاضل من علماء مدينة «زنجان»، كتب تقريضاً على كتاب «تبيان البيان في قواعد القرآن» للشيخ محمد حسن الزنجاني في خامس شهر رجب سنة ١٣١١[٨].

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.
(٧) السيد أحمد الحسيني.
(٨) السيد أحمد الحسيني.

حسين بن محمد (شمس الدين) بن علي الطبسي، كمال الدين.

من تلامذة الشيخ إبراهيم بن سليمان القطيفي، ومما قرأه عليه رسالة «الألفية» للشهيد الأول وحواشيها وكتاب «شرائع الإسلام»، وأجازه في الأخير بتاريخ أوائل شهر صفر سنة ٩٢٨، ومما قاله في الإجازة:

«أنهاه قراءة وبحثاً وإيضاحاً المولى الأجل الفاضل المهاجر إلى جوار أئمة الهدى (ع) في طلب العلم للنجاة ونيل الثواب والفضائل المستشعر للتقوى والفواصل ومجتنب الفواحش والرذائل.. أنهاه قراءة وبحثاً يشهد بحسن فهمه وكمال تدبره ورياضة فطنته وكان يسأل في أثناء القراءة عما يشتبه عليه ويبهم لديه فألقي إليه الجواب على الوجه الذي يركن إليه...»[1].

الشيخ حسين بن محمد بن عبد النبي بن سليمان بن أحمد البارباري السِّنْبَستي البحراني

مذكور في «الكواكب المنتثرة» المخطوط، ونقول:

يروي عن الشيخ عبد الله بن علي البلادي البحراني والشيخ حسين بن محمد بن جعفر الماحوزي والشيخ ناصر بن محمد الجارودي.

ويروي عنه جماعة، منهم الشيخ حسين بن عبد الله البحراني، أجازه بإجازة مبسوطة في سادس ذي الحجة سنة ١١٧٩.

ووجدت بعد إجازة له نقلاً عن بعض تلامذته: أنه توفي ليلة الأربعاء ١٨ صفر سنة ١١٩٢ ودفن في المزار المعروف بـ«بابالنكي» في مقبرة اصطهبانات وبنى وراثه عليه قبة سميت بالحسينية[2].

السيد حسين بن محمد الزيدي الحسني.

فاضل لعله من أعلام القرن الحادي عشر، نسبته إلى زيد بن علي بن الحسين (ع) وليس بزيدي المذهب، فإن كتابه البصائر في تاريخ المعصومين الأربعة عشر (ع).

له «بصائر الموحدين»[3].

حسين بن محمد علي (المستوفي) الأنصاري الأصبهاني المتخلص بثمر

أديب كاتب عارف ببعض اللغات الأجنبية شاعر بالفارسية يتخلص فيه بـ«ثمر»، كثير الشكوى من مجتمعه وعصره ويظهر اليأس من إصلاحهم.

له «تاريخ جنك شرق أقصى» أتم بعض مجلداته في سنة ١٣٢٩، وغيره من المؤلفات الكثيرة نظماً ونثراً[4].

الميرزا حسين بن محمود الطبيب الأهري.

ملك نسخة من حاشية المولى محمد صالح المازندراني على معالم الأصول في خامس شهر شعبان سنة ١٢٩٥، وكتب عليها تعاليق قليلة تدل على فضل فيه وعلم وتبحر في أصول الفقه.

كان والده مشتغلاً بالطب ويلقب بـ«الطبيب» و«الحكيم»، أما هو فقد كان ممحضاً بالعلوم الدينية[5].

الميرزا حسين بن هادي بن أبي القاسم التبريزي

من تلامذة ميرزا شفيع ثقة الإسلام التبريزي، متأثر شديد التأثر بآراء الشيخ أحمد الأحسائي ومتحمس للركن الرابع، ويبدو أنه كان مشتغلاً بالخطابة والوعظ في مدينة تبريز وتوفي بعد سنة ١٣٠٣.

له «الناطق بالحق» ألفه سنة ١٣٠٠[6].

ابن سينا الحسين بن عبد الله

مرت ترجمته في (الأعيان)، ثم مرت عدة دراسات عنه في (المستدركات) وننشر عنه هنا بحثاً بقلم الدكتور لبيب بطرس:

تبين لنا أن في نصوص الأدب العربي وثائق تتناول التربية الصحية والأخلاقية والرياضية وغيرها. لكنها لم تحظ بعد بالكشف عنها وتقويم معطياتها واستنتاج الثقافة التي عرفها العرب في زمانهم. كما أن الباحثين في هذا الأدب لم يصنفوا. ويبوبوا، ويفهرسوا، بالطريقة العلمية المطلوبة، محتويات المجلدات العديدة التي تركها الفلاسفة والعلماء العرب ونحن الذين نعمل في حقل التربية الرياضية في مختلف مراحل الحضارة وجدنا أن الطبيب والفيلسوف الشهير ابن سينا كان أيضاً رجل تربية وتوجيه صحي ورياضي واجتماعي، لا تقل أبحاثه في هذا المجال عن أعمال أبو قراط وفلاسفة الإغريق في زمانهم.

وجدنا عند ابن سينا في كتابه الشهير «القانون في الطب» نصاً تناول فيه الرياضة والصحة البدنية في مختلف نواحيها. واستندنا في تحليلنا لهذا النص إلى طبعة بولاق (القاهرة) ١٩١٦، وسنتناوله بالبحث والتقويم بعد التعريف بالمؤلف وآثارة باختصار.

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن حسن بن علي بن سينا. وعرف عند الأوروبيين باسم Avicenne. ولد سنة ٩٨٠م في «أفشنه» بالقرب من بخارى وتوفي سنة

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.

١٠٣٧ في همذان. وعندما انهارت الدولة السامانية، رحل ابن سينا عن بخارى إلى خوارزم ثم إلى جرجان، فأقام عند الفيلسوف أبي محمد الشيرازي الذي اشترى له منزلاً في جواره. وفي هذا المنزل وضع ابن سينا عدداً من مؤلفاته، وباشر في كتابة «القانون في الطب».

ثم توجه ابن سينا إلى همذان، فأقام فيها تسع سنوات، يتعهد معالجة المرضى، وعالج أميرها شمس الدولة، فشفاه. وكان شفاء الأمير سبباً في انطلاق شهرة ابن سينا في الطب، فعينه الأمير وزيراً عنده. وفي سنة ١٠٣٧ توفي في همذان بسبب المرض، وهو في السابعة والخمسين من العمر. وله في المدينة ضريح تذكاري ومكتبة كبرى تحمل اسمه.

كان ابن سينا على جانب كبير من الذكاء والتوقد الذهني، وترك العديد من الكتب والرسائل، أهمها في المنطق، وعلم النفس، والفلسفة، والأخلاق، والطب، والشفاء، والحكمة. أعماله في الفلسفة والطب كانت مرتكزاً للعلوم والآداب في العصور الوسطى ومهيئة لعصر النهضة. كتابه «القانون في الطب» ترجم إلى اللاتينية وشاع في أوروبا واستمرت نصوصه تدرس في جامعاتها حتى القرن السابع عشر. تأثر بالفلسفة اليونانية، لا سيما فلسفة «الواقع» Realism التي وضعها أرسطو، وهي تعتمد على العلم والمنطق. ويقال أن ابن سينا بلغ من الشهرة في زمانه ما بلغه أرسطو في عصر الإغريق.

الروح والجسم

اعتقد ابن سينا بخلود الروح، وأنها لا تموت بموت الجسم، وهي لا تقبل الفساد أصلاً. وأن الجسم لا يكون من دون الروح، بينما على العكس، فالروح تستطيع أن تعيش بمعزل عن الجسم، ومتى انفصلت الروح عن الجسم يفنى هذا الأخير ويصبح شبحاً.

ووجد ابن سينا أن الروح هي صورة الجسم تمكنه من الظهور بمظهره الذاتي، ومن القيام بأعماله وواجباته.

ورأى أن الجسم يحتاج إلى الروح لكي يعيش، بينما الروح لا تحتاج إلى الجسم بشيء. ولا يقوم جسم إلا إذا اتصلت به روح خاصة به. بينما الروح هي هي سواء اتحدت بالجسم أم لم تتحد. ولا يوجد جسم من دون روح، لأن الروح مصدر حياة الجسم، وهي تقوده في أعماله وترشده في أفعاله وتصرفاته. وفي اعتقاد فيلسوفنا، أنه باتحاد الروح والجسم، تقوم الروح بوظيفتين أساسيتين: قيادة الجسم، وإدراك المحسوسات وتفهمها.

القانون في الطب

كتاب «القانون في الطب» لابن سينا هو من أشمل الكتب الطبية في القرون الوسطى التي اعتمدها العالم في الشرق والغرب. إنه موسوعة تبحث في مواضيع عدة، في وظائف الأعضاء، وعلم الأمراض (باثولوجيا)، ووسائل المداواة، والوصفات الطبية، وتركيب الأدوية... وفي الكتاب شروحات عن الإلتهابات، والآلام العصبية، وأمراض الجلد، والسكتة القلبية، وعقاقير تنشيط القلب، وكان ابن سينا يعتقد أن للجسم مناعة طبيعية ضد الأمراض إذا كان سليماً، قوياً، وهو كشف أن الحالات النفسية (فرح، حزن، خوف، قلق) تؤثر في سير المرض سلباً أو إيجاباً.

خصص ابن سينا القسم الثالث من كتابه «القانون في الطب» للتحدث في شؤون الرياضة البدنية وأنواعها وأشكالها. وهذا القسم يقع في ١٧ فصلاً وهو يمهد لذلك بالقول في «تدبير الأطفال»: «يجب أن يكون وكد العناية مصروفاً إلى مراعاة أخلاق الصبي، فيعدل، وذلك بأن يحفظ، كي لا يعرض له غضب شديد أو خوف شديد أو غم... وأن ينشأ من الطفولة حسن الأخلاق، ويصير ذلك له ملكة لازمة».

ووجد ابن سينا «أن الغضب يسخن جداً، والغم يجفف جداً، والبلادة ترخي القوة النفسية. ففي تعديل (موازنة) الأخلاق حفظ لصحة النفس والبدن جميعاً». في هذا المنحى نجد ابن سينا يماشي فلسفة سقراط وأفلاطون في ضرورة حفظ التوازن عند الإنسان، روحاً

مفهوم الرياضة

تناول ابن سينا في الفصول السبعة عشر شؤون الرياضة وأنواعها، ووقت البدء بها وتوقيتها، وشؤون التدليك، والإستحمام، والغذاء، وتقوية الأعضاءالضعيفة، ومعالجة التعب العضلي، ورياضة المتقدمين في السن. وهو يقول في الفصل الأول «جملة القول في الرياضة»: «لما كان معظم تدبير حفظ الصحة هو أن يرتاض الإنسان، ثم تدبير الغذاء، ثم تدبير النوم، وجب أن نبدأ بالكلام في الرياضة، فنقول: الرياضة حركة إرادية تضطر إلى التنفس العظيم المتواتر والموفق لاستعمالها على جهة اعتدالها في وقتها، به غناء عن كل علاج تقتضيه الأمراض المادية والأمراض المزاجية التي تحدث عنها، وذلك إذا كان سائر تدبيره موافقاً صواباً. وبيان هذا هو أنّا كما علمت مضطرون إلى الغذاء، وحفظ صحتنا هو الغذاء الملائم لنا، المعتدل في كميته وكيفيته، وليس شيء من الأغذية بالقوة يستحيل بكليته إلى الغذاء بالفعل، بل يفضل عنه في كل هضم..».

ثم تناول ابن سينا(في الفصل الثاني) أنواع الرياضة فقال.. «الرياضة منها ما هي رياضة يدعو إليها الإشتغال بعمل من الأعمال الإنسانية، ومنها رياضة خالصة(صرف) وهي التي تقصد لأنها

رياضة فقط، وتتحرى منها منافع الرياضة ولها فصول. فإن من هذه الرياضة ما هو قليل، ومنها ما هو كثير، ومن هذه الرياضة ما هو شديد، ومنها ما هو ضعيف، ومنها ما هو سريع، ومنها ما هو بطيء، منها ما هو حثيث أي مركب من الشدة والسرعة، ومنها ما هو متراخ، وبين كل طرفين معتدل موجود».

أنواع الرياضة

ينبّه ابن سينا في مدخل «تدبيرالأطفال» إلى ضرورة تربية أخلاق الطفل في جو من الفرح والإبتهاج والثقة بالنفس، بعيداً عن الغضب والغم والخوف. في هذا الموقف نجد أنه يوافق أفلاطون الذي يركز على التربية التأسيسية للطفل(بروبيديا propidia). وهو كان ينصح أن تحتضن المربية الطفل وتغني له بحنان لكي ينام مثلاً، لأنه يجب أن يبقى في مزاج هادىء، ومن الضرر أن تبدأ نفس الطفل بالتبرم والغضب منذ الصغر. لذا، يجب إحاطته بجو من الفرح والسعادة، (القوانين، ٧٩٠).

ويوضح ابن سينا بأن الرياضة تحتاج إلى التنفس الكبير والدائم وأن هذا التنفس يفيد في علاج بعض الأمراض. ويذكر أن الإعتدال في كمية الغذاء وأنواعه الملائمة ضروري. وهو يقسم النشاط البدني إلى نوعين: رياضة طبيعية تنتج عن الأعمال التي يقوم بها الإنسان أثناء حركته اليومية، ورياضة متخصصة يقصد بها التمارين والألعاب، التي منها ما هو شديد، أو ضعيف، سريع أو بطيء، أو معتدل.

ثم يتعمق ابن سينا في أنواع الألعاب التي عرفها في زمانه، في القرن الحادى عشر. فيذكر المصارعة ويسميها «المباطشة» أحياناً، والملاكمة ويسميها «الملاكزة» والمشي السريع والركض والوثب الطويل ويسميه «الطفر» والرمي بالقوس والتدافع والترافس ويسميه «الزفن» والقفز إلى الشيء للتعلق به والمثاقفة بالسيف والرمح وركوب الخيل والجمال والعجاجيل والعماريات و«الخفق» باليدين، وهو أن يقف الإنسان على أطراف قدميه ويمد يديه قدماً وخلفاًويحركهما بسرعة». ويذكر من الرياضات القوية الميدانية أن يشد الإنسان عدوه (أى خصمه)في الميدان الى غاية، ثم ينكص راجعاً مقهقراً». ومن الألعاب ايضاً يذكر مجاهدة الظل، أي ملاحقة ظل الشخص، و«الزج» أي حبسس الشخص، واللعب بالكرة الكبيرة والصغيرة، واللعب بالصولجان، الذي هو شبيه «الغولف» والطبطاب شبيه «البايسبول»، واشالة الحجر أي رفع الثقل. كما يذكر انواعاً من الرياضة الترفيهية المهدئة، مثل التأرجح في الأرجوحات، والنزهة في البحر في الزوارق والسماريات وهي نوع من المراكب.

ثم يدخل ابن سينا في تفاصيل المصارعة، ويقول: «المباطشة أنواع، فمن ذلك أن يشبك كل واحد من الرجلين يده على وسط صاحبه ويلزمه ويتكفل كل واحد منهما أن يتخلص من صاحبه وهو يمسكه. وأيضاً أن يلتوي بيديه على صاحبه. يدخل اليمين الى يمين صاحبه واليسار الى يساره ووجهه اليه ثم يشيله(يحمله) ويقلبه، ولا سيما هوينحني تارة وينبط أخرى. ومن ذلك المدافعة بالصدرين، ومن ذلك ملازمة كل واحد منهما عنق صاحبه يجذبها الى اسفل، ومن ذلك ملاواة الرجلين، والشغزبية(حركة لقط رجل المصارع) وفحج(فتح) رجلي صاحبه برجليه، وما يشبه هذا من الهيآت(المسكات) التي يستعملها المصارعون».

هذا النوع من المصارعة هو بلا شك المصارعة الحرة التي يسمح فيها بمهاجمة كافة اقسام الجسم.

ثم يتطرق فيلسوفنا الرياضي الى بعض الألعاب والتمارين في الركض والوثب، فيقول: «ومن الرياضات السريعة، مبادلة رفيقين مكانيهما بالسرعة، ومواترة طفرات (تتابع وثبات) إلى الخلف يتخللها طفرات (وثبات) إلى قدام بنظام وغير نظام. ومن ذلك رياضة المسلتين، وهو أن يقف إنسان موقفاً ثم يغرز عن جانبيه مسلتين في الأرض بينهما باع (مسافة)، فيقبل عليهما ناقلاً المتيامنة منهما (التي إلى اليمين) الى المغرز الأيسر، والمتياسرة (التي الى اليسار) الى المغرز الأيمن، ويتحرى أن يكون ذلك أعجل ما يمكن».

شروط ممارسة الرياضة

يقول ابن سينا إن لكل عضو في الجسم ما يخصّه من الرياضة، ويذكر مثلاً على ذلك رياضة لتمرين الصوت والبصر، والسعة الهوائية للصدر. وهو ينبه إلى أن يرتاض الشخص وجسمه دافىء وحار نسبياً، وهذا طبعاً لكي لا يصاب بالتمزق. ويقول إنه وجد بأن البدن يجب أن تفرّغ منه الفضلات من الإمعاء، والبول من المثانة، قبل المباشرة بالرياضة. وكذلك يجب أن تكون «الكيموسات»، ومفردها «كيموس» (Kimos) باليونانية، أي ما يتركه الغذاء في الجسم، قد أنهى دوره وانهضم الطعام. ولكن لا يجوز ممارسة الرياضة والمعدة خالية تماماً. ويقول: وأما الصدر وأعضاء التنفس فتارة يراض بالصوت الثقيل العظيم، وتارة بالحاد ومخلوط بينهما... والصدر يراض بالنفخ مع حصر النفس... وما كان من الرياضيات اللينة، مثل الترجيح (التأرجح) فهو موافق لمن أضعفته الحميات (ارتفاع الحرارة) وأعجزته عن الحركة... وأما ركوب العجل والوجه إلى خلف فينفع ذلك من ضعف البصر وظلمته نفعاً شديداً. وأما ركوب الزواريق (الزوارق) والسفن، فينفع من الجذام (مرض تآكل أعضاء الجسم. ولعله السرطان)، والسكتة، وبرد المعد ونفختها، وذلك إذا كان بقرب الشطوط... وأما أعضاء الغذاء (المعدة والجهاز الهضمي) فرياضتها تابعة لرياضة سائر البدن. والبضر يراض بتأمل الأشياء الدقيقة والتدرج أحياناً في النظر إلى المشرفات برفق. والسمع يراض بتسمع

الأصوات الخفيفة، وفي الندرة بسماع الأصوات العظيمة... وينبغي أن يحذر المرتاض وصول حمية الرياضة إلى ما هو ضعيف من أعضائه».

ويجد ابن سينا أن «وقت الشروع في الرياضة يجب أن يكون عندما يكون البدن نقياً، وليس في نواحي الأحشاء والعروق (الأوعية الدموية) كيموسات خامة، رديئة، تنشرها الرياضة في البدن، ويكون الطعام الأمسى قد انهضم في المعدة والكبد والعروق». ويؤكد أنه «إذا أوجبت رياضة شديدة، فبالأحرى أن لا تكون المعدة خالية جداً، بل يكون فيها غذاء قليل، أما في الشتاء فغليظ، وأما في الصيف فلطيف. ثم أن يرتاض ممتلئاً خير من أن يرتاض خاوياً، وأن يرتاض حاراً أو رطباً خير من أن يرتاض والبدن بارد أو جاف، وأصوب أوقاته الاعتدال. وربما أوقعت الرياضة حار المزاج يابسه في أمراض، فإذا تركها صح. ويجب على من يرتاض أن يبدأ فينقص الفضول من الإمعاء ومن المثانة ثم يشتغل بالرياضة.

التمرين والعلاج الطبيعي

بعد ملاحظة فوائدها العامة في الجسم بصورة ملموسة، ومع تركيز انتباه رجال الطب والصحة على الرياضة البدنية وما يتصل بها من علوم باتحاد علم التدريب الرياضي وعلم الطب العام، برزت الرياضة كمادة علاجية في الطب الطبيعي، الفيزيولوجي. كل ذلك منذ أن وجد الفلاسفة غايتهم في الرياضة البدنية وسيلة فاعلة في حفظ صحة المواطن. ونحن نلاحظ أن الثقافة الإغريقية، بين القرنين الخامس والرابع ق.م. كانت ثقافة جسم وثقافة عقل على السواء، وبرزت عندهم، ليس فقط كوسيلة لتقوية العضلات وإحراز البطولات. بل أيضاً كمادة أساسية في العلوم الطبية، خصوصاً الطب العلاجي والوقائي، مع معلمي الرياضة الذين «قرنوا مهنة الرياضة إلى مهنة الطب» كما قال أفلاطون في «الجمهورية» (الثالث ٤٠٦) وكان أبو قراط (٤٦٠ـ ٣٧٧ق) أول من خص هذا الموضوع بأبحاثه الواسعة ووضع الأسس العلمية للرياضة العلاجية.

التدليك الصحي والرياضي

في كتابه «القانون في الطب» وبعدما تناول الرياضة البدنية كمادة لتقوية الجسم، عالج ابن سينا مواضيع صحية متممة للرياضة، تتعلق بشؤون التدليك والاستحمام والغذاء وغيره وهو ركز على التدليك، واعتبره ضرورياً لتليين العضلات وتدفئتها قبل القيام بأي تمرين بدني. وقال إن «التدليك ينعش الغريزة ويوسع المسام... وأن يكون بشيء خشن، ثم يتمرّخ (يمسح) بدهن عذب، ثم يدرج التمريخ (المسح) إلى أن يضغط العضو ضغطاً غير شديد الوغول (بالعمق). ويكون ذلك بأيد كثيرة ومختلفة أوضاع الملاقاة، ليبلغ ذلك جميع شظايا العضل (أوتار العضل)، ثم يترك، ثم يؤخذ المدلوك بالرياضة». أي أن هذا التدليك يسبق فترة ممارسة الرياضة.

ونصح ابن سينا بأن يكون التدليك قرب انتصاف النهار في فصل الربيع، وصباحاً في فصل الصيف، ومساء في الشتاء بعد التدفئة. ويقول (في الفصل الرابع) إن التدليك له أهداف وطرائق عدة): «الدلك منه صلب فيشدد، ومنه ليّن فيرخي، ومنه كثير فيهزل، ومنه معتدل فيخصب... ومن الدلك ما هو خشن أي بخرق (قطع) خشنة، فيجذب الدم إلى الظاهر سريعاً، ومنه أملس، أي بالكف أو بخرق ليّنة فيجمع الدم».

ووجد ابن سينا أن الهدف من التدليك هو تقوية الأبدان الرخوة والضعيفة وزيادة حجمها، وتليين الأبدان الصلبة، القاسية. وبأن التدليك قبل الرياضة يبدأ ليناً ثم يُشدد، وهو ما يسميه تدليك الاستعداد للرياضة، ويقول عنه أيضاً «دلك الاسترداد، وهو بعد الرياضة». وهذا الدلك يجب أن يكون رقيقاً، معتدلاً، لتليين الجسم إذا أصيب بالبرد والانقباض أو من كثرة الفضلات في الجسم.

وفي رأي طبيبنا الفيلسوف أن التدليك يمكن أن يتخلل تمارين الرياضة على جولات، ومن فوائده أيضاً أنه «يجفف البدن ويمنع الرطوبة عن السيلان في المفاصل». وكتب يقول أيضاً: «الغرض من الدلك، تكثيف الأبدان المتخلخلة وتصليب اللينة. ومن الدلك دلك الاستعداد وهو قبل الرياضة، ويبدأ ليناً ثم إذا كان يقوم إلى الرياضة شدّد. ومنه دلك الاسترداد وهو بعد الرياضة، ويسمى الدلك المسكن أيضاً، والغرض منه تحليل الفضول المحتبسة في العضل مما لم يستفرغ بالرياضة».

وأضاف يقول إن «دلك الاسترداد (في نهاية الرياضة) كأنه جزء آخر من الرياضة، يجب أن يبدأ أولاً بالدهن وبالقوة. ثم يمال به إلى الاعتدال، ولا يقطع على عنفه»، أي أنه ينتهي تدريجاً. ويذكر أن التدليك يكون باستعمال «طلاء زفتي» وربما هو زيت النفط الأسود، بينما الإغريق كانوا يستعملون زيت الزيتون المتوافر لديهم. ووصف استعمال دهون بعض النباتات، مثل الأشنة، والخطمي، والفاشر، والقثاء.

الحمامات الصحية

رأي ابن سينا أن الحمامات هي للإفادة من حرارة لطيفة وترطيب معتدل. يكون الاستحمام بصب الماء العذب والاغتسال سريعاً والخروج ويجب أن لا يبادر المرتاض إلى الحمام ليستريح بالتمام... جميع المستحمين يجب أن يتدرجوا في دخول الحمامات ولا يقيموا في البيت الحار إلا مقدار ما لا يكرب، فيريح بتحليل الفضول (الفضلات) وإعداد البدن للغذاء». وتابع قائلاً: «من أراد

التهزيل (التنحيف وخفض الوزن) يجب أن يستحم على الجوع ويكثر القعود في الحمام. وأما الذي يريد حفظ الصحة فقط يجب أن يدخل الحمام بعد هضم ما في المعدة والكبد». وأخرج ابن سينا فوائد الحمام والحالات التي يجب أن يمتنع فيها الشخص عن الاستحمام. فقال أنه للاغتسال بالماء البارد يجب أن لا يكون الشخص مصاباً بتخمة أو قيء أو إسهال أو نوازل كالنزلة الصدرية أو ارتفاع في الحرارة، بل في «وقت يكون فيه بدنه نشيطاً». وقد يكون ذلك باستعمال الماء الحار لتقوية البشرة وحصر الحرارة. وهو يفضل أن يكون الماء معتدل البرودة. وإذا كان الحمام بعد الرياضة «يجب أن يكون قبله الدلك، أشد من المعتاد، والدهن على العادة. وتكون الرياضة بعد الدلك والتمريخ (المسح) معتدلة وأسرع من المعتاد، قليلاً قليلاً، ثم يسرع بعد الرياضة في الماء البارد»، وأما إذا كان الشخص مصاباً بالشحوب فيجب أن يستحم بحمامات حارة ويدلك بأدهان حارة، لطيفة، مع رياضة الاسترداد.

الغذاء وتدبير المأكول

وجد ابن سينا أن البقول والفواكه هي ملطّفة ومحرقة للدم، والطعام الغليظ مثقل للجسم. ونصح بأن يكون الغذاء من مثل اللحم، خصوصاً لحم الجدي والعجاجيل الصغار والحملان، والحنطة المنقاة من الشوائب، المأخوذة من زرع صحيح لم يصبه آفة. والشيء الحلو الملائم للمزاج، والشراب الطيب الريحاني». ورأى أن أفضل الفواكه المغذية هو التين والعنب النضيج والتمر.

وقال فيلسوفنا الصحي «إن من به تخمة» فإن الصبر على الجوع يملأ المعدة أخلاطاً حديدية رديئة. ويجب أن يؤكل في الشتاء الطعام الحار» وفي الصيف الطعام البارد أو القليل السخونة». ثم توسع في شؤون الطعام وهضمه ومشكلة التخمة التي تؤدي إلى وجع المفاصل والكلى والربو وضيق النفس... وهو نصح بالمشي الخفيف قبل العشاء، وبالنوم على الجهتين، اليمنى واليسري» مع وضع وسادة على السرير بحيث يميل الجسم إلى أسفل للمساعدة على عملية الهضم. (الفصل السابع).

التعب العضلي وعلاجه

عالج ابن سينا (في الفصلين ١٢ و١٤) مشكلة التعب العضلي، وذكر أن أسبابه كثرة الفضلات الرقيقة، الحادة، و«أخلاط رديئة انتشرت في العروق». ومنه ثلاثة أنواع، التمددي، والورمي، والقروحي. «التعب التمددي يحس صاحبه كأن بدنه قدر رض، ويحس بحرارة وتمدد ويكره الحركة. وأما الإعياء الورمي، فهو أن يكون البدن أسخن من العادة وشبيهاً بالمنتفخ حجماً. وأما الإعياء القروحي فهو حالة يحس بها الإنسان من بدنه كأنه قد أفرط به الجفاف واليبس، وهو يحدث من الإفراط بالرياضة».

معالجة هذا التعب، حسب ابن سينا، تكون بالدلك الكثير واللين، ثم باستعمال «رياضة الاسترداد» أي الرياضة الخفيفة كما في إنهاء فترة تدريب. وفي الدلك تستعمل دهونات مثل الشبث والبابونج وغيرهما، تحت أشعة الشمس. ويكون الاستحمام بالماء الفاتر، المائل إلى السخونة، مدة طويلة، ثم تكون التغذية بالمرطبات. إن «كل إعياء يكون سببه الحركة يجب توقفها، ثم نستعمل رياضة الاسترداد لتدفع الحركة المعتدلة المواد إلى الجلد ويحللها الدلك».

رياضة الشيوخ

لم ينس ابن سينا التطرق إلى رياضة المتقدمين في السن، فقال: «تختلف رياضة المشايخ بحسب اختلاف حالات أبدانهم وبحسب ما يعتادهم من العلل، وبحسب عاداتهم في الرياضة. فإن كانت أبدانهم على غاية الاعتدال وافقهم الرياضات المعتدلة... كالارتياض بالمشي وركوب الزوارق». أما إذا كانوا مصابين بآفة في الرجلين استعملوا الرياضات الفوقانية، كالمشايلة، ورمي الحجارة، ورفع الحجر».

والتدليك للمشايخ حسب الشيخ الرئيس «يكون معتدلاً في الكيف والكم، غير متعرض للأعضاء الضعيفة أصلاً... وهم ينفعهم الحمام مع الدلك».

كان الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا الطبيب الرياضي البارز والموجه الصحي الشهير في العصور الوسطى عند الشرقيين وفي بلاد الغرب، وبقيت تعاليمه تدرس في معاهد أوروبا حتى القرن السابع عشر، كما نقل كتابه «القانون في الطب» إلى مختلف اللغات. وهو تفرّد بذكر بعض الألعاب والتمارين التي كان يمارسها العرب في زمانه، وتعمّق في معارج الرياضة البدنية مؤكداً أن الأعضاء تستفيد من هذه التمارين، وحتى الضعيفة منها يمكن أن تقوى بالرياضة المستمرة.

ووجد ابن سينا أن التدليك جزء آخر من الرياضة، وتوسع في شرح طرق تطبيقه، واعتبر الاستحمام بالماء وسيلة علاجية، وهو في هذا المنحى فضّل العلاج الفيزيائي الطبيعي على أية وسيلة أخرى.

ولا شك في أن ابن سينا كان مطلعاً وملماً بعلوم وفلسفات الإغريق في هذا المجال، وهو اطلع عليها عن طريق ما ترجمه عن اليونانية الأدباء العرب المسيحيون أمثال يحيى بن البطريق ويوحنا بن ماسويه وحنين بن إسحاق وقسطا بن لوقا الذين عاشوا بين ٨٠٠-٩٠٠ ميلادية، أي قبله بنحو ١٧٥ سنة. ولا شك أيضاً في أن ابن سينا أضاف إلى المعلومات القديمة الكثير من تعاليمه الجديدة وخبرته كطبيب فيزيائي معالج.

الشيخ حسين بن عبد علي بن محمد بن علي البهبهاني

فاضل جامع لأطراف العلوم، رأيت منه كتابات متفرقة في

شرح أحاديث ومسائل فقهية تدل على تضلعه، بعضها بتاريخ رابع ذي القعدة سنة ١١٥٣ كتبها في بهبهان[١].

حسين علي تالپور بن ميرنور محمد خان

توفي في بلده حيدر آباد سنة ١٢٩٥

من علماء وشعراء الهند، وممن اضطهدهم الإنكليز وعذبوهم وسجنوهم. ترك من المؤلفات: مناقب علوي، وشاهد الإمامة، وديوان شعر بالأردوية والفارسية وغير ذلك.

حسين بن علي رضا الشيرازي، كمال الدين

أصله من «بازرگان» من توابع شيراز، وتجول في شبابه ببلاد الهند، وهو عالم فاضل له اطلاع في الحديث والكلام وغيرهما، وهو من أعلام القرن الحادي عشر[٢].

حسين بن علي الأصبهاني، كمال الدين

فاضل جامع للعلوم، من أعلام القرن الحادي عشر.

له «جامع الفوائد» شرح لغز لوامع رباني[٣].

السيد حسين بن كمال الدين بن الأبزر الحسيني الحلي

مذكور في أعيان الشيعة ١٣٨/٦، ونقول:

قرأ عليه الشيخ ابراهيم بن الحاج علي السكري الحلي كتاب «الاستبصار» فأجازه رواية في عدة مواضع من النسخة منها في آخر كتاب الحج بتاريخ يوم الاثنين ١٨ ذي القعدة سنة ١٠٤١، وتوقيعه في كل المواضع «حسين بن كمال الدين الأبزر الحسيني الحلي».

وقرأ عليه الشيخ عبد العالي بن محمد بن علي الجزائري كتاب «خلاصة الأقوال» للعلامة الحلي، فأجازه في آخر نهار ٢٧ رجب سنة ١٠٤٩[٤].

السيد حسين الرضوي الكاشاني بن هبة الله بن محمد.

ولد سنة ١٢٩١ في كاشان وتوفي فيها سنة ١٣٨٥.

نشأ في كاشان وعلى علمائها قرأ العلوم المتداولة والعلوم العقلية والرياضية، ومنهم السيد محمد العلوي البروجردي وملا حبيب آ الشريف الكاشاني والميرزا محمد حسين الكاشاني والملا محمد حسين النظنزي الكاشاني والحاج السيد فخر الدين الكاشاني والميرزا أبو القاسم الكاشاني.

وفي سنة ١٣١٣ سافر إلى مشهد الرضا (ع) للدراسة، وكان يحضر على السيد علي اليزدي الحائري والآخوند ملا عباس السبزواري.

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.

وبعد ثلاثة أشهر ارتحل إلى طهران ثم كاشان ثم أصفهان، وبقي فيها سنة وشهرين، وحضر على الآخوند ملا محمد الجوشقاني في الفلسفة والكلام وبعض دروس نصوص الحكم وعلى المولى جهانكيرخان القشقائي في الفلسفة، وعلى الميرزا أبو الهدى الكلباسي في علم الرجال والسيد أبو القاسم الدهكردي في الفقه والميرزا محمد صادق نائب الصدر في الأصول والفقه والمير محمد تقي المدرس في الأصول والشيخ محمد تقي آقا نجفي الأسفهاني وأخيه الشيخ محمد علي الأصبهاني.

ثم ذهب إلى شيراز وأقام بها سنة ونصف السنة، فحضر درس الميرزا ابراهيم المحلاتي في الفقه والأصول والآخوند ملا عبد الله الزرقاني في شرح المنظومة.

ثم ذهب إلى «لار»، فحضر بها بحث السيد عبد الحسين التستري في الفقه.

وبعد هذا التطواف ذهب إلى النجف الأشرف وأقام بها قريباً من عشر سنوات متتلمذاً في الفقه والأصول على المولى محمد كاظم الآخوند الخراساني والسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي والشيخ عبد الله المازندراني وشيخ الشريعة الأصفهاني والسيد مرتضى الكشميري والسيد مصطفى الكاشاني والحاج ميرزا حسين الخليلي.

ثم تجول في البلاد الهندية وعاد من طريق كراتشي وحيدر آباد السند إلى إيران، فمر على كرمان ومدن خراسان حتى وصل إلى مسقط رأسه كاشان سنة ١٣٥٢ حيث أقام بها بعد هذه الرحلة العلمية الطويلة.

فتفرغ في مسقط رأسه للعلم بحثاً وتدريساً وتأليفاً، وإقامة الجماعة وإرشاد المؤمنين.

يروي عنه السيد عزيز الله أمامت الكاشاني والسيد شهاب الدين النجفي المرعشي، أجازه في ١٥ شوال سنة ١٣٥٥.

له من المؤلفات: (١) الاسكندرية، في النحو (٢) الأصول المعتبرة (٣) بهجة التنزيل في التفسير والتأويل (٤) حاشية تحرير القواعد المنطقية (٥) حاشية رياض المسائل. وغير ذلك[٥].

الشيخ حسين بن عيثان الأحسائي البحراني.

فاضل أديب شاعر عاش في أوائل القرن الثالث عشر، من شعره قوله في حل لغز كتبه بعض بالفارسية:

سألت فاسمع يا عظيم الشان	من الحقير نجل ابن عيثان
عن اسم رب العزة المنان	من ليس في الخلق له مداني
تبارك الله العلي السبحاني	عن الحلول وعن المعاني
ليس بعبد بل ولا مهان	وليس رباً موجد الأكوان
فالرب ذات الملك الرحمن	تقدس الباري عن المكان
هذا الذي يفهمه السبحراني	نجل محمد حسين الجاني

(٥) السيد أحمد الحسيني.

تم صلاة الله ذي الإحسان على النبي المصطفى العدناني
وآله من حبهم أغناني عن كل خلاني وعن أعواني(١)

حمزة بن الحسين

من تلامذة السيد محمد حسين بن عبد الباقي الخاتون آبادي بأصبهان، كما صرح بذلك في أول شرحه على إجازة أستاذه الميرزا هداية الله المشهدي، حيث صاحب أستاذه في سفرته التي زار بها الأمام الرضا (ع) في سنة ١٢١٨ واستنسخ الإجازة ثم شرحها، وقال: صنفت كتباً متعددة في الصرف والنحو والتجويد والفقه والدعاء وغيرها وبلغت تأليفاتي بحضور السيد الأيد مخدومي سلطان العلماء فحسنها وأجودها بألطافه [كذا]. .

قال الخاتون آبادي في تقريظه على شرح الإجازة: «لقد أحسن وأجاد العالم الموفق والفاضل الصالح المؤيد صاحب الأخلاق المرضية مهبط فيوض الرحمة آخوند ملا حمزة من أجلاء الطلبة والمحصلين وكان متردداً عندي في أكثر الأوقات وحاضراً عند مجمع درسي ومباحثي في أغلب الزمان. . .».

له شرح الإجازة.

حمزة بن قربان (آقا مراد) بن صفر بن القاسم البارفروشي المازندراني

فاضل مدرس في العلوم الأدبية، سكن «بارفروش» من نواحي «الاباد» من قرى مازندران، يلقب بالخليل، وهو من أعلام أوائل القرن الرابع عشر.

له «ذروة التصنيف في حل غوامض التصريف»(٢).

السيد حيدر الآملي

مرت ترجمة له في (الأعيان). ونشر أحمد زين الدين هذه الدراسة عنه، وهي ما نأخذه هنا كما مر حديث عنه في (المستدركات) مع تعليقنا عليه، والذي يلفت النظر هو ما ذكره الكاتب من أن الآملي في كتابه (جامع الأسرار) يقول إن الصوفية (الحقة) ينسبون خرقتهم إلى الإمام علي (ع) وأولاده، أما الإمام فأورثها لتلميذه كميل بن زياد. . . إلى آخر ما قال.

وقد عرفت في زيارة لي لمدينة(ورامين) في إيران جماعة صوفية قليلة العدد يسمون أنفسهم (الكميلية) منتسبين إلى كميل بن زياد ما فصلته فيما كتبته عن ورامين في (دائرة المعارف الإسلامية الشيعية) في بحث (ورامين)، ولا أعيد ذكره هنا، فليرجع إليه القارىء. قال بزين الدين.

لعل اسم حيدر الآملي من الأسماء المجهولة لدى الباحثين العرب والمسلمين ولم يحظ بما يناسب مكانته في الفلسفة والتصوف. ومنذ ولادته عام ٧١٩هـ في آمل من أعمال خراسان (إيران) إلى اليوم، لم يرد ذكره إلا لماماً، وفي عدم ضئيل من كتب التراجم والتاريخ(٣). حين أن مؤلفاته ورسائله تربو على اثنين وعشرين مؤلفاً جميعها في علوم التصوف والفلسفة(٤) وأهم هذه الكتب مخطوط «جامع الأسرار ومنبع الأنوار» كانت تحتفظ به خزانة الكتب ـ دائرة الهند في لندن تحت الرقم: أربري ١٣٤٩. وكشف عنه المستشرق الفرنسي الكبير هنري كوربان (١٩٠٥ـ ١٩٧٨) ونشره عبر المركز الفرنسي الإيراني للأبحاث(٥) وخصه بسلسلة من المحاضرات ألقاها على طلاب قسم علوم الأديان في السوربون وفي حلقة «Eranos» في سويسرا وشكلت طروحات الآملي الهيكل العام لكتابه المعروف «تاريخ الفلسفة الإسلامية» خاصة في الجزء عن التشيع وهو جوهر الكتاب، ولكتابه الآخر بالفرنسية «En Islam Iranien» (في مجلدين) وحاط كوربان مؤلفات هذا الفيلسوف بالرعاية. وحاول من خلال منهجيته «الظواهرية» أن يفسر نشأة الفكر الفلسفي لدى الشيعة، ويتعاطف مع هذا النزوع الشيعي في الفلسفة، إلى درجة أن دفعت أحد الباحثين العرب وهو الدكتور علي سامي النشار إلى اتهام كوربان بانه كان شيعياً أكثر من الشيعة(٦).

يمكن، بالعودة إلى الصفحات القليلة التي تركها حيدر الآملي

---

(١) السيد أحمد الحسيني.

(٢) السيد أحمد الحسيني.

(٣) نذكر: المكنون، ومجالس المؤمنين ٢، ومعجم المؤلفين ٤، والقواعد الرضوية، وريحانة الأدب، وأعيان الشيعة ٢، وروضة الجنات، وطرائق الحقائق، والذريعة إلى تصانيف الشيعة.

(٤) مؤلفات الآملي كما وردت في لائحة المحقق عثمان يحيى زميل هنري كوربان:

١ ـ كتاب مجمع الأسرار ومنبع المعبود.
٢ ـ رسالة الوجود في معرفة المعبود.
٣ ـ رسالة المعاد في رجوع العباد.
٤ ـ كتاب الأصول والأركان في تهذيب الأحباب والإخوان.
٥ ـ رسالة العلم وتحقيقه بطريق الطوائف الثلاثة.
٦ ـ رسالة العقل والنفس.
٧ ـ رسالة الأمانة الإلهية في تعيين الخلافة الربانية.
٨ ـ رسالة الحجب وخلاصة الكتب.
٩ ـ رسالة الفقر وتحقيق الفخر.
١٠ ـ رسالة الأسماء الإلهية وتعيين المظاهر لها في الأشخاص الإنسانية.
١١ ـ رسالة النفس في معرفة الرب.
١٢ ـ رسالة اسرار الشريعة وانوار الحقيقة.
١٣ ـ رسالة الجدول الموسومة بمدارج السالكين في مراتب العارفين.
١٣ ـ نقد النقود في معرفة الوجود.
١٥ ـ نهاية التوحيد في بداية التجريد.
١٦ ـ منتهى المعاد في مرتقى العباد.
١٧ ـ رسالة التنبيه في التنزيه.
١٨ ـ أمثلة التوحيد وأبنية التجريد.
١٩ ـ رسالة كنز الكنوز وكشف الرموز.
٢٠ ـ كتاب تعيين الأقطاب والأوتاد.
٢١ ـ المحيط الأعظم والطود الأشم في تأويل كتاب آ العزيز المحكم.
٢٢ ـ نص النصوص في شرح الفصوص.

أما كتاب «الكشكول فيما جرى آل الرسول» فيبدي هنري كوربان شكوكاً في نسبته إلى الآملي، لأن الكتاب ظهر عام ٦٢٥هـ، أي عندما لم يكن الفيلسوف تجاوز الخامسة عشرة من عمره.

(٥) للكتاب نسخ عديدة في مكتبات النجف وطهران.

(٦) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الجزء الثاني: الدكتور علي سامي النشار، ص ٢٩٦.

عن سيرته الشخصية، التمييز بين حقبتين في حياته.

الأولى: الحقبة الإيرانية وهي التي تكونت أثناءها شخصية حيدر بن علي بن حيدر العبيدي الحسيني الآملي العلمية والاجتماعية. تفرغ لتحصيل عقائد مذهبه وجميع مراتب العلوم المتعلقة بها من المعقول. والمنقول وتنقل طلباً للعلم والاستزادة منه بين بلدته آمل وخراسان وأستراباد وأصفهان. وخصه الملك فخر الدولة كما يقول «بالكرامة والجلالة، وجعلني من أقرب أصحابه وندمائه ثم من أخص خواصه ثم من أعظم نوابه وحجابه» ثم طلبه غيره من الملوك والأمراء وعاش في بحبوحة ورغد عيش «حتى غلب في باطني دواعي الحق وكشف الله لي فساد ما أنا فيه من الغفلة والجهل. وظهر لي ضلالي عن طريق الحق... فناجيت ربي في السر وطلبت منه الخلاص عن الكل، وحصل لي شوق تام إلى الترك والتجريد، والتوجه إلى حضرة الحق بقدم التوحيد... فتوجهت لزيارة جدي رسول الله والأئمة المعصومين بنية الحج»[1].

والحقبة الثانية هي الحقبة العراقية التي تبدأ من وصوله إلى العتبات المقدسة عام ٧٥١هـ حتى عودته ثانية إلى بلده مروراً بمكة المكرمة ولبسه «الخرقة» الصوفية، وما أجراه على نفسه من صنوف المجاهدات والاشتغال بالرياضة والخلوة والطاعة والعبادة. ويورد الآملي في هذا المقام تفاصيل حلمين، أحدهما: أنه رأى نفسه في المنام أن جسمه مدد على الأرض، وهو ميت ملفوف بالكفن الأبيض بينما هو يتفرج ويعجب كيف أنه واقف، وكيف هو ميت مرمي!

وفي مثل هذا الحلم نموذج للحالة الشعورية الداخلية التي تنتاب الآملي بعدما انقطع عن زمنه الدنيوي، ليتكرس كلياً لخدمة الحق الإلهي. فالحلم رمز للتخلي والتضحية بالنفس لينذرها في سبيل هدف سام. والموت هو «البذرة المدفونة» في الأرض العذراء. «الموت الرمزي» موت الشخصية القديمة من أجل بلوغ الولادة الروحية الجديدة. وهو ما يسمى في عمليات المسارة «initiation» المولود مرتين[2].

وهو منذ الآن لن يعمل أو يكتب إلا ما يأمره به آ تعالى» فيضع تأويله للقرآن المسمى «المحيط الأعظم والطود الأشم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم» بأمر من «الحق تعالى» كما يقول. كذلك كتابه «جامع الأسرار ومنبع الأنوار» وغيرهما.

وهو إذ يحرر كتبه بالفارسية والعربية يبغي غرضاً واحداً «إيصال المعنى خالصاً لله»[3] لذلك لا يهتم بما يغشى أسلوبه من

(١) المقدمة العربية لكتاب «جامع الأسرار» لعثمان يحيى ص ٤٢ ـ ٤٤.

(٢) «كتابات معاصرة»: دلالات ميتولوجية برسم الأنتربولوجيا: أحمد زين الدين. العدد (٣) ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٣) جامع، ص ٦١٢.

ركاكة أو ضعف أو أخطاء، ولا ينسب ذلك إلى الجهل، بل إلى الغرض الذي يأخذ بمجامع لبّه، وهو الخلوص إلى الباري.

كان لمؤلفات هذا الفيلسوف المغمور، في حقبة ما قبل الحكم الصفوي في إيران الدور نفسه الذي لمؤلفات الملا صدر الدين الشيرازي فيما بعد ولا يمكن للباحث أن يفهم العديد من التصانيف الإسلامية الشيعية في العهد الصفوي إلا بالرجوع إلى الآملي. وظهر الآملي في الحقبة الثالثة الممتدة من نصير الدين الطوسي، حتى النهضة الصفوية في إيران، وصبغت هذه المرحلة الشديدة الخصوبة بتأثير ابن عربي (٦٢٨هـ ١٢٤٠م) على الفكر الشيعي وأحصى الباحث عثمان يحيى أكثر من مئة وخمسين شرحاً لكتاب «فصوص الحكم» لابن عربي منها ثلاثون شرحاً لإيرانيين. وشرح للآملي: «نص النصوص في شرح الفصوص». وأدى هذا الشرح وسائر كتب الآملي إلى إدماج آراء ابن عربي الصوفية في ثنايا الفكر الشيعي الاثني عشري. وقدم حيدر الآملي بتمثله نظرية ابن عربي صياغة توليفية تجمع منهج الذوق والحدس إلى منهج النظر والبرهان. وتوحدد بين التنزيل والتأويل، وبين الشريعة والحقيقة. وتتجلى سمات هذه التوفيقية في كتاب «جامع الأسرار ومنبع الأنوار» واشتهر بهذا الكتاب حتى أن معظم المصنفين كانوا يلقبونه بصاحب جامع الأسرار. وهو محصلة الأصول والعقائد الجامعة بين طائفتي الشيعة والصوفية. وبكلام أدق، هو محاولة لربط التصوف والعلوم الكشفية بالتراث الشيعي الأمام أي بالمورد والأصل والأساس. فالطائفتان في رأيه على خلاف «مع أن مأخذهم واحد، ومشربهم واحد، ومرجعهم إلى واحد»[4]. ويرى إلى أن نسبة الصوفية إلى الشيعة كنسبة الظاهر إلى الباطن، أو ما يسميه الشريعة إلى الحقيقة. والآملي بتنكبه أمر الصوفية إنما يأخذ بيد الشيعة الإمامية الاثني عشرية لتستدرك ما فاتها من حقائق الصوفية المحتجبة عن بعض الأذهان. ويكشف من جهة أخرى، للمتصوفة عن تصوراتهم الباطلة، أو قصورهم في الوصول إلى حقيقة الأئمة المعصومين ودورهم. وكتابه «جامع الأسرار...» يتوسل بالبرهان العقلي والدليل النقلي ليبين أن جماعة الصوفية هم الشيعة الحقيقيون والمؤمنون الممتحنون» وحملة الأسرار الإلهية وحفظتها. واسم الشيعة شامل للكل: أهل الظاهر وأهل الباطن. وما المؤمن الذي امتحن آ قلبه للإيمان في سياق الحديث المأثور عن الأئمة[5] الاصنف خاص من الشيعة هم الصوفيون القائمون بباطن علوم الأئمة. أما المؤمن دون وصف، فهو الشيعي مطلقاً القائم بظاهر علومهم والصوفية على طريقة أهل السنة وإن كانوا فرقاً كثيرة لكن الفرقة الحقة، هي الفرقة الموصوفة بهذه

(٤) جامع، ص ٤.

(٥) «أمرنا صعب مستصعب، لا يحتمله إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو مؤمن امتحن آ قلبه للإيمان».

الأوصاف، أي بحمل أسرارهم. على ما ينبغي.

ويصف الطائفتين بأنهما حاملتا أسرار الأنبياء والأولياء ظاهراً وباطناً «فالشيعة قاموا بحمل أحكامهم وأسرارهم بحسب الظاهر والشريعة، والصوفية قاموا بحمل أسرارهم وحقائقهم بحسب الباطن والحقيقة»[1]. فكان الشيعة هم ظاهر الصوفية والصوفية هم باطن الشيعة. وبهذا «كمال الشريعة التي لا تقوم إلا على الوجهين معا. وكل واحد منهما يحتاج إلى الآخر، وإن لم يعرف صاحبه، لأن كل ظاهر أن لم يكن مستنداً إلى الباطن فهو كفر، وكل باطن إن لم يكن متمسكاً بالظاهر فهو زندقة. أما مقام الكاتب فهو الجمع بين المقامين، أي ما يسميه المقام المحمدي.

وما دام أقطاب الصوفية في رأي الآملي يسندون علومهم وطريقتهم إلى الأئمة المعصومين، فلا ينبغي أن يحكم أحد (من الشيعة) ببطلان مذهبهم واعتقادهم. فالقرابة الشيعية الصوفية تقوم إذن على وحدة الإسناد بين الاثنين، أول ما يسمى بمصطلح الحداثة «السلطة المرجعية الواحدة» والولاية الصوفية مؤسسة على الولاية/ الإمامة عند الشيعة.

اختط الآملي في كتاباته طريقاً كانت معبدة من قبل، هي طريق التوحيد بين منهجي الظاهر والباطن أو النظر والذوق. وكان سبقه السهروردي في القرن الرابع، إلى القضاء على هذا الفصم المنهجي بحسب تعبير الدكتور حسن حنفي، فوحد بين حكمة الفلاسفة وكشف الصوفية في منهج واحد، هو الذي عرضه في حكمة الإشراق وتنازع هذان المنهجان معاً الحضارة الإسلامية. وكل منهما يود أن يعتبر نفسه ممثلاً لها ومعبراً عن جوهرها[2].

والآملي عاش عصراً ترسخت فيه أصول التصوف على أيدي ابن عربي ومريديه وأتباعه، ولمعت أسماء ابن الفارض والبسطامي والحلاج والجنيد والشبلي وابن سبعين، واكتمل أيضاً عقد علم الكلام والفلسفة بمجهودات ابن سينا وابن رشد.

ما هو جديد الآملي إذن؟

التوفيقي

الخصوصية الآملية هي في هذا النهج التوفيقي بالذات بين منهج الاستدلال النظري والبرهاني ومنهج الحدس والرؤية الباطنية والمكاشفة، مطبقاً لأول مرة على صلب عقيدته الشيعية الإمامية الاثني عشرية. فالسهروردي وإن أرجع أصول التصوف على غرار جميع المتصوفة، وخاصة ابن عربي إلى الإمام علي، إنما فعل من باب العرف والاشتمال والعموم. دون أن يخوض في التفاصيل والخصوصيات. هذا الحقل الفارغ هو الذي تحرك داخله الآملي مستفيداً من تراث أسلافه المتصوفة ومع إقراره بفضل هؤلاء وأسبقيتهم، كان أميناً على أصول التراث الشيعي، وبالتحديد على المنظومة الكلامية الشيعية المتمثلة بأعمال الطوسي وابن بابويه وابن مطهر الحلي والشيخ المفيد، وأرائهم في الذات والصفات والجبر والتفويض، وفي التقية والعصمة. كما هو أمين على أصول التراث الصوفي وتصوراته ومصطلحاته. وحريص على الأخذ بالروايات والأخبار الشيعية والصوفية التي لم يأخذ بها أصحاب المنهج الذوقي إذ اكتفوا بالقلب أو الحدس معيناً يستقون منه العلم مباشرة. دون حاجة إلى رواية أو نقل وعلى رأسهم ابن عربي الذي صاغ لازمة تشابه في الظاهر اللازمة الروائية قائلاً: «عن قلبي عن ربي أنه قال».

وإذ سبق الإسماعيليون الآملي في التنظير للولاية والنبوة، وهما الموضوعان الأساسيان اللذان دار عليهما كلامه وكلامهم، فإن مهمة الآملي كانت عسيرة ومزدوجة فهو من طرف، عليه المنافحة عن المتصوفة أمام الشيعة الاثني عشرية الذين لا يقرون بصحة عقيدتهم، ويتهمونهم بالكفر والزندقة، وهو من طرف آخر، مضطر أثناء مقاربته أصول الطائفة المتصوفة وبيان وجوه الشبه، أو الأحرى مناحي التكامل بين الطائفتين، إلى أن ينبه أو يزيل التأويلات الخاطئة لدى الإسماعيليين والزيدية وسائر الغلاة. والتي ينسبها عدد من المتصوفة والمسلمين إلى الشيعة الإمامية. وهذه المهمة المزدوجة هي التي تمنح كتابات الآملي سمة متفردة خاصة حتى ليعد صاحب السبق في بناء نظرية صوفية شيعية على يدي اثني عشري.

كذلك كان عليه أن يرد على خروج بعض أقطاب التصوف عن المفاهيم الشيعية، خاصة على أستاذه ابن عربي في مسألة الولاية المطلقة والولاية المقيدة، التي سنتناولها فيما بعد. معلناً في خاتمة كتابه «جامع الأسرار..» أن الغرض من الكتاب بل وصيته الشخصية[3] «أن يصير الشيعة صوفية والصوفية شيعية»[4] رغم صعوبة الأمر وخطورته.

إذن نسبة المتصوفة إلى الشيعة لم يكن أمراً بديهياً في الأذهان، إلا في وقت متأخر. ولو كانت هذه النسبة معروفة تفاصيلها ودقائقها على الأقل. إلا ما كان شائعاً ومتداولاً عن أسناد الخرقة الصوفية إلى الإمام علي، لما تصدق الآملي لكتابة «جامع الأسرار...» مدفوعاً بحافز التوفيق بين الطائفتين والمنافحة عن الصوفية أمام الشيعة، وعن الشيعة أمام الصوفية. متجشماً عناء البحث والتنقيب لإبراز وحدة المنبع والمصدر والهدف.

(١) جامع، ص ٥١٥.

(٢) حكمة الاستحراق والفينومينولوجيا: الدكتور حسن حنفي ص ١٧٢، من ضمن «الكتاب التذكاري: شهاب الدين السهروردي».

(٣) سمي الخاتمة «الوصية» وفي هذا دلالة تغني عن أي شرح.

(٤) جامع، ص ٦١١.

«جامع الأسرار...» هو بحث في عمق الصلة بين الاثنين، وفي الأسانيد الواحدة الموحدة. وأول هذه الأسانيد هو أن الصوفية «الحقة» وفق وصفه، ينسبون خرقتهم إلى الإمام علي وأولاده وأولاد أولاده. أما الإمام فأورثها لتلميذه كميل بن زياد النخعي ثم الحسن البصري فالصادق ثم إلى أولاده المعصومين واحداً بعد آخر، وصولاً إلى صاحب الزمان المهدي المنتظر الذي يضمه الآملي إلى مذهب الصوفية «فهو الآن على مذهبهم موجود» وهو قطب الوجود وإمام الوقت، وصاحب الزمان»[(١)].

وثمة غير حيدر الآملي من يؤصل لسلسلة لباس الخرقة الصوفية فيرفعها إلى النبي أو جبريل أو حتى الله تعالى[(٢)]. والخرقة تعتبر رمزاً للتخلي والفقر واعتزال الدنيا ويرى المستشرق غولد تسيهر في كتابه «العقيدة والشريعة» بوحي من ربطه التصوف بتأثيرات هندية «أن الخرقة رمز للاندماج في الجماعة الصوفية، تشبه طريقة الاندماج في جماعة «البيكشو» الهندية التي تتم بتسلم الثوب ومعرفة القواعد والآداب التي يتحتم على المريد اتباعها»[(٣)].

بيد أن الآملي الذي لا يساوره أدنى شك في إسناد أصل الخرقة وأصول الصوفية إلى أمير المؤمنين بترتيب معين، يضعف خبر العوام عن رفع الخرقة إلى الله جل شأنه. ويرى أن ما هو موسوم بالخرقة الصوفية عند العامة ليس في حقيقة الأمر إلا «سر الولاية» عند الخواص. وعلاقة الخرقة الصورية المسماة في الفارسية «هزار ميخ» بسر الولاية، ليست إلا علاقة مجازية لتفهيم أهل الظاهر وأهل الصورة.

رتب الآملي كتابه على ثلاثة أصول واثنتي عشرة قاعدة. وجعل كل أصل مشتملاً على أربع قواعد. وفي هذا الترتيب سر للخواص. وهذا السر يدور حول رمزية العدد (١٢) تماماً، كما كان حاله مع تأويل القرآن سباعياً بمقتضى الحديث الوارد «إن للقرآن ظهراً وبطناً، إلى سبعة أبطن».

يرى الآملي أن أولى الخطوات في طريق العرفان كتمان سر الربوبية. لأنه جل جلاله لم يودع الأمانة إلا عند أهلها، ولم يأذن بها إلا إلى صاحبها فالتقية الشائعة عند الشيعة، عدم إفشاء أصول المذهب تتخذ لديه معنى باطنياً فتصبح حفظاً للأسرار الربانية، وصوناً لها من عبث الجهلة. أما التقية بمعناها الظاهري المتداول فهي إن كانت كتماناً لعلوم الشريعة، وإخفاء لأصولها، كانت كفراً. بل إشهارها أولى والقيام بها أوجب.

(١) نفسه: ص ٢٢٣.

(٢) نذكر ابن أبي الحديد وابن مظهر الحلي ومحمد باقر الخوانساري وابن أبي جمهور الأحسائي وابن ميثم البحراني.

(٣) العقيدة والشريعة: غولد تسيهر ص ١٤٦.

وإذ يشتمل كتابه على بحث التوحيد وتوابعه ولوازمه دون سواه فباعتباره سر الأسرار أو السر الأعظم. وفي هذا المقام يرى «أن الوجود كله واقع على التوحيد، مشتمل على مراتبه وأن جميع الموجودات مجبولة عليه، مخلوقة لأجله، وأن جميع الأنبياء والأولياء (ع) ما بعثوا إلا لإظهاره ودعوة الخلق إليه. وأن مدار جميع الكمالات وأساس جميع المقامات ـ ظاهراً وباطناً ـ منوطة به وبمراتبه، وأن علمه خلاصة العلوم كلها من الرسمية والحقيقية، وأنه أصل الدين والإسلام، وسبب الجنة والنار»[(٤)].

وبما أن القاعدة الأولى هي بداهة التوحيد، فإن تعريفه وهو مدار القاعدة الثانية، يصطدم بصعوبة التعبير عنه بعبارة أو تعريفه بإشارة. فالعبارة في طريق معرفته حجاب، والإشارة على وجه إشراقه نقاب.

يلزم عن هذه الصعوبة، صعوبة أخرى هي اختلاف العلماء على تقسيم التوحيد إلى أقسام ومراتب وفروع. والتقسيم [وهو القاعدة الثالثة في الأصل] إن كثر بحسب العبارة واعتباراتها، وطال بسبب الإشارات واختلافاتها، راجع إلى قسمين: التوحيد الألوهي، أي توحيد العوام (الظاهر) والتوحيد الوجودي، أي توحيد الخاصة (الباطن). وإليهما يضيف توحيداً ثالثاً هو توحيد الحق ذاته بذاته، دون أن يزيد لأن غرضه في بيان التوحيد، هو التوحيد المخصوص بالعباد والسالكين. وبإزاء التوحيد الألوهي يضع الشرك الجلي، ويقابل بين التوحيد الوجودي والشرك الخفي.

ويسهب الآملي في شرح القاعدة الرابعة من الأصل الأول، وهي تشتمل على كيفية التوحيد وتفصيله، وعلى معرفة الذات والصفات والأفعال، وبيان الفواعل التي هي الأسماء، والقوابل التي هي المظاهر، وبيان السعادة والشقاوة في الدارين، وعدا ذلك من الأسرار.

وهو إذ يبين وجوه التوحيد، يدير الكلام على التوحيد الوجودي دون التوحيد الألوهي لينبه الأذهان إلى ما يخالط الأول من مفاسد ومهالك وإفراط وتفريط، ليس أقلها الإباحة والحلول والاتحاد والتعطيل والتشبيه والكفر والزندقة والإلحاد.

وبعد أن يعرّف التوحيد الذاتي (الذات) والصفاتي (الصفات) يعرّج على التوحيد الفعلي (الأفعال). وبما أن فعل آ تعالى وتوحيده الأفعالي، أي ما يسميه التنزل من حضرة الذات إلى حضرة الأسماء والصفات، صدور الموجودات عنه، فإنه ظهر أولاً بصورة الحقيقة الكلية المسماة «بالإنسان الكبير» المخلوق على صورته. وهو «آدم الحقيقي» مقابل «آدم الصوري» وهذه الحقيقة ذات أسماء كثيرة بحسب اعتباراتها منها: النور والهباء والمادة

(٤) جامع، ص ٤٩ ـ ٥٠.

الأولى والعقل الأول والروح والقلم. ثم ظهر تعالى بصورة حقيقة أخرى هي النفس المسماة «حواء الحقيقية» إزاء «حواء الصورية». وهي أيضاً ذات أسماء كثيرة منها النفس الكلية واللوح المحفوظ والكتاب المبين. وعدا ذلك من الأسماء بحسب اعتباراتها أيضاً[١]. ثم ظهر بواسطة هاتين الحقيقتين بصورة كل موجود في الوجود من العقول والنفوس والأفلاك والاجرام والعناصر والمواليد. فآ بحسب حديث قدسي ينقله الآملي عن المتصوفة، الذين يشتهرون بترداده:

«كان كنزاً مخفياً، فأحب أن يعرف فخلق الخلق»[٢]. والكنز المخفي في التعريف الصوفي هو الهوية الأحدية المكنونة في الغيب، وهو أبطن كل باطن[٣] أما اصطلاح «الإنسان الكبير» فهو وإن كان من مفردات الصوفية والغنوصية من قبل، في حقيقة الأمر ذو جذور دينية آرية قديمة. في الميثولوجية الإيرانية كيومرث «Gayomart». في الابستاق: «كيا ـ مرتن] والفكرة الفيداوية (الهندية) المناظرة له هي الإنسان الأول الكوني «بوروسا» وفي الصين هو «بان ـ كو» وأبدع الغنوص اليهودي (القبالا) فكرة «آدم علائي» أو «آدم قدمون» على أنه «عين الوجود» وتطورت فكرة الإنسان الأول في الفلسفة اليونانية المتأخرة إلى نظرية «اللوغوس» أو «كلمة آ» الحية. وفي المسيحية ظهرت. فكر يسوع «آدم الجديد»[٤].

«الإنسان الكبير» كما يعرّفه الآملي في كتابه الآخر «رسالة نقد النقود في معرفة الوجود» هو الإنسان الحقيقي، القائم به الوجود. والإنسان الكبير لآدم وذريته هو كآدم لذريته. أي كما كانت ذرات أولاد لآدم في ظهره بالقوة، وكما ظهرت تلك الذرات من صلبه بواسطة نكاحه الصوري لحواء ووصوله إليها، كذلك ظهرت تلك الذرات من صلب «الإنسان الكبير» بواسطة نكاحه المعنوي للنفس الكلية ووصوله إليها[٥].

يتأصل هذا التصور في أعماق عقيدة الغنوصيين حول نشأة الكون من سلسلة متعاقبة من أزواج روحية ذكرية وأنثوية. تبدأ بالزوج الأول (الذكر) واللوغوس أو الكلمة (الأنثى) وتتدرج عبر توالد أزواج أخرى حتى يكتمل بناء الكون[٦].

غير أن المصطلح يغتني هنا بمدلولات جديدة مشبعة بالمضمون الفلسفي الإسلامي المتهلين، مثل الظهور بالقوة والممكن والنفس الكلية. أي بمدلولات متحللة من رموزها وعلائقها وارتباطاتها الأحيائية القديمة، ومنبعثة من خلال مركب تخييلي وروحي وعقلي.

(١) نفسه، ص ١١٤ ـ ١٤٥.

(٢) يذكره ابن خلدون في مقدمته: ص ٤٧١.

(٣) معجم المصطلحات الصوفية. الدكتور عبد المنعم الحفني ص ٢٢٦.

(٤) «كتابات معاصرة». «دلالات ميتولوجية برسم الأنثروبولوجيا: أحمد زين الدين. العدد (١١) ص ١٢٠.

(٥) نقد النقود: ملحق بجامع الأسرار: ص ٦٦٢.

(٦) La gnose. par H. Leisegange. p. 7-46.

وهذا التصور عينه لفكرة الخلق، اتخذ في القرن السابع عشر في أوروبا سمات «شبه بيولوجية وعلمية». إذ كان العالم الطبيعي الهولندي شوامردام (١٦٣٧ـ ١٦٨٠) يتصور أن جراثيم جميع البشر الممكنين في كل الأزمان منذ بدء الخليقة حتى الآن، موجودة في صلب آدم أو في حقو حواء. وكي ينتج الشبيه شبيهه دائماً، ويستمر النوع من خلال التعاقب، يجب أن تخلق جراثيم الأفراد التي تشكل النوع دفعة واحدة في صورة نهائية، وفقاً للنموذج نفسه[٧].

وفي سياق نظرته يرى الآملي أن ظهور الحق (الله) في صور الموجودات هو بعينه ظهور الواحد في صور الأعداد. والواحد ذو خواص يشابه الحق بها، لذلك يعطي وجود كل عدد واسمه في ظهوره بصورته. كذلك الحق يعطي وجود كل موجود واسمه في ظهوره بصورته. ومن تكرار الواحد ينشأ العدد، كذلك من فيض الباري تنشأ الخلائق وكما أن الاثنين أول عدد ينشأ من تكرار الواحد، كذلك العقل الأول موجود فاض من وجود الباري ثم تسلسلت الفيوضات: النفس من الثلاثة والطبيعة من الأربعة والهيولى من الخمسة والجسم من الستة والفلك من السبعة والأركان من الثمانية والمولدات من التسعة، ومن العشرات المعادن ومنه المئات النبات ومن الألوف الحيوان.

وفي جوابه عن حكمة تخصيص الشيعة أئمتهم باثني عشر، يرى الآملي أن قوام الوجود وأنواع الموجودات وأجناسها، تقع بحسب طبيعة العدد والمقدار. ومن حكمة الباري أن تكون الأشياء كلها على ما هي عليه من الأعداد والمقادير. وفي نظر أرباب التحقيق (المتصوفة) إن المطابقة قائمة بين عالم المعنى وعالم الصورة. وحتى تكون المطابقة صحيحة وجدوا خصوصية في العدد اثني عشر. وهو أنه يمثل بروج الفلك الاثني عشر[٧] ومن خصوصية هذا العدد أيضاً أن الأئمة والأوصياء في جميع الأزمان لا يزيدون ولا ينقصون عن اثني عشر عدداً.

والعدد اثنا عشر كما دلت عليه الدراسات الأناسية المعاصرة ذو مدلول مقدس في المنظومة الرمزية للأعداد، وغالباً يكون ذا خواص خفية وسحرية. مثله مثل العدد سبعة والعدد أربعين. وكانت بلاد ما بين النهرين تخصص بالآلهة بعض الأرقام المقدسة. وعموماً كان انتظام الخلق والمخلوقات على مدرج عددي، وهو ما يأخذ به الآملي من تصور فيثاغوري[٨] وعكف بعض المعاصرين الشيعة (الدكتور أبو زهراء النجدي) على الوجه الإعجازي العددي في القرآن الكريم فأحصى فعل يعصم ومشتقاته اثني عشرة مرة. وهو عدد يطابق عدد الأئمة المعصومين.

(٧) منطق العالم الحي: فرنسوا جاكوب، ترجمة علي حرب ص ٦٢ ـ ٦٤.

(٨) علي حرب ص ٦٣ ـ ٦٤.

أما عن لزوم العصمة عند الأئمة، فيرى فيه صاحب «جامع الأسرار» ضرورة من ضرورات علة تكليفهم لأنهم لو لم يكونوا معصومين من فعل المقابح والمعاصي. لما أمن الناس مفسدتهم وفسقهم أو اتهامهم بفعلها. ولكانوا هم (الأئمة) أحوج إلى اللطف من الناس، ولم يقبل الناس قولهم ولم يطاوعوهم فكانوا مخلين بالواجب.

وفي مقابل قول الآملي بالعصمة، آثر أقرانه من المتصوفة السنيين استخدام عبارة «الحفظ» بدل «العصمة». فقالوا إن الأنبياء معصومون والأولياء محفوظون. والفرق بين المحفوظ والمعصوم، أن هذا لا يلم بذنب البتة، والمحفوظ قد تحصل منه هنات، وقد يكون له في الندرة زلات ولكن يكون له أسرار. كما يبين القشيري في «لطائف الإشارات»[1] لكنه في موضع آخر لا يلبث أن يستدرك قائلاً: «إعلم أن من أجل الكرامات التي تكون للأولياء التوفيق للطاعات والعصمة من المعاصي والمخالفات»[2].

وفي مسألة القضاء والقدر يفترق الآملي عن بعض المتصوفة السنيين فيأخذ بالفكرة الإمامية الاثني عشرية «لا جبر ولا تفويض» أي أن جميع الأفعال صادرة عن الله تعالى، لكن كل فعل منسوب إلى محله الخاص (الصادر منه ذلك الفعل) وفعل العبد منسوب إليه[3]، حين راعى بعض المتصوفة من السنة الموقف الأشعري فأبطل القول «بخلق الأفعال» وأخذ بموقف الجبر فنسب جميع الأفعال القبيحة والحسنة إلى الله تعالى[4].

ويرى الآملي إلى أن هذا الفهم يبطل الثواب والعقاب والجنة والنار. والآملي يتحاشى في هذا المقام، أن يذهب مذهب غيره من المتصوفة الذين يسقطون التكاليف والفروض الدينية عن أنفسهم. ويرون فيها معنى رمزياً وباطنياً منزهاً عن الحسي.

وفي ما يسميه الآملي الأصل الثاني يقصر حديثه على الاستشهاد بكلام الله تعالى وكلام الأنبياء وكلام الأولياء وكلام العلماء وهو أقصر فصول كتابه «جامع الأسرار».

أما في الأصل الثالث والأخير فيتناول الآملي في القاعدة الأولى الفروق ما بين الشريعة والطريقة والحقيقة. وفي نظره أنها «أسماء مترادفة صادقة على حقيقة واحدة باعتبارات مختلفة[5] والشريعة اسم موضوع للسبل الإلهية، مشتمل على أصولها وفروعها، ورخصها وعزائمها، وحسنها وأحسنها. والطريقة هي الأخذ بأحوطها وأحسنها وأقومها. وكل مسلك يسلك الإنسان أحسنه وأقومه يسمى طريقة، قولاً كان أم فعلاً أم صفة أم حالاً. وأما الحقيقة، فهي إثبات الشيء كشفاً أو عياناً أو حالة أو وجدانا.

ولهذا قيل: «الشريعة أن تعبده، والطريقة أن تحضره، والحقيقة أن تشهده»[6] فالشريعة تختص بالأقوال والطريقة بالأفعال والحقيقة بالأحوال.

والشرع في رأي الآملي، هو غير الشريعة، بل هو شامل للكل «لأن الشرع كاللوزة الكاملة المشتملة على اللب والدهن والقشر. فاللوزة بأسرها كالشريعة، واللب كالطريقة والدهن كالحقيقة[7]».

وهذه الثمرة التي يمثل بها الآملي طبقات الشرع، هي من الدلالات الرمزية على الأساسي والجوهري المحتجب داخل قشرته الخارجية الصلبة. واقتبست الصوفية اليهودية (الحاسيدية والقابالا) متأخرة هذا الرمز، بعد أن استبدلت به الجوزة لتطلقه على كلام التوراة. لأن كل كلمة تدل على معنى يزداد عمقاً. كلما ابتعدنا عن ظاهر معناها. ومن طريق المشابهة سميت حلقة المتصوفين) «بنواة الجوزة»[8].

هذه المراتب الثلاث التي يصنفها الآملي مقتضيات مراتب أخرى، هي مثابة الأصل لها. فالشريعة من اقتضاء الرسالة، والطريقة من اقتضاء النبوة، والحقيقة من اقتضاء الولاية. والمسلم الحقيقي في نظره، من يقوم بالأركان الثلاثة ورعاية حقوقها. «وحقيقة الشرع في جميع الأزمنة والأمكنة كانت واحدة، وكانت منزهة عن الاختلاف والتغاير، وإن كانت مختلفة الأوضاع والأحكام بحسب المراتب والأشخاص»[9].

الشرع إذن في رأي الآملي اسم جامع للمراتب كلها. وإذا كانت المرتبة الأولى للعوام فالثانية للخواص والثالثة لخاصة الخواص.

ويقيس على هذه المراتب الإسلام والإيمان والإيقان (اليقين). كذلك الوحي والإلهام والكشف، ثم الاقوال والأفعال والأحوال. وحيث لا يجوز في رأيه إنكار الشريعة التي هي مرتبة من مراتب الأنبياء، كذلك لا يجوز إنكار الطريقة التي هي مرتبة من مراتبهم ودرجة من درجاتهم. وكذلك الحقيقة التي هي أعلى منها شرفاً ومرتبة. ومن يقوم بأداء هذه المراتب مجتمعة أو منفردة، هو على طريق قويم ودين مستقيم.

تعريف

وفي ضوء تقسيمه الثلاثي، يفصل الآملي في القاعدة الثانية

(٢) الجزء الثاني ذكره الدكتور محمد عابد الجابري في «بنية العقل العربي»، الطبعة المغربية ص ٢٦١.

(٣) جامع، ص ١٤٧ ـ ١٥٠.

(٤) بنية العقل العربي: ص ٢٦٤.

(٥ و(٦) جامع، ص ٢٤٤.

(٧) La Kabbale et sa symbolique, par G. Gscholem, p 67, 101.

(٨) جامع، ص ٢٤٨.

(٩) معجم اللاهوت الكتابي: ص ٥٢٩ ـ ٥٣٢.

القول عن النبوة والرسالة والولاية. فيعرّف النبوة بأنها الأخبار عن الحقائق الإلهية، أي معرفة ذات الحق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه. وهي على قسمين: نبوة التعريف ونبوة التشريع. أما الأولى فهي الأنباء عن معرفة الذات والأسماء والصفات. والثانية جميع ذلك، مع تبليغ الأحكام والتأديب بالأخلاق والتعليم بالحكمة والقيام بالسياسة. وتختص هذه النبوة بالرسالة. والنبوة إما مقيدة، وهو ما تقدم تعريفه، وإما مطلقة وهي النبوة الأصلية الحقيقية الحاصلة منذ الأزل والباقية إلى الأبد. وصاحب هذا المقام هو الموسوم بالخليفة الأعظم وقطب الأقطاب وآدم الحقيقي وغير ذلك.

أما الولاية فهي قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه «وذلك بتولي الحق إياه». حتى يبلغه غاية القرب والتمكين»[١].

وللولاية أيضاً اعتباران: الإطلاق والتقييد أو العام والخاص.

والولاية مقيدة أو خاصة، من حيث استنادها إلى الأنبياء والأولياء.

والولاية المطلقة بهذا المعنى باقية أبداً، بينما الرسالة والنبوة التشريعية تنقطعان بانقطاع النشأة الدنيوية. وهذه الولاية المطلقة ثابتة للحقيقة المحمدية بالأصالة.

وهو القائل «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين». ولأمير المؤمنين بالوراثة وبعده لأولاده المعصومين.

وكما أن خاتم النبوة لا يكون إلا واحداً هو النبي محمد (ص) كذلك خاتم الولاية المطلقة هو الإمام علي، بينما خاتم الولاية المقيدة لمهدي آخر الزمان.

يتوخى الآملي في كلامه هذا تأسيس الرسالة على النبوة وتالياً على الولاية (نبوة المعرفة والإلهام والعرفان) تماماً كما فعل قبلاً أستاذه ابن عربي. وكما قسم بنفسه النبوة إلى مقيدة ومطلقة، ليترك للولاية. «حكم الأول والآخر والظاهر والباطن» [في «فتوحاته» في أكثر من موضع وإشارة] والولاية لما تنقطع بل هي مستمرة في شخص الأولياء.

والشخص الذي تكون له النبوة يكون نبياً، وكذا الرسالة تكون للرسول والولاية للولي. ثم إن كل رسول يكون نبياً، ولا يكون كل نبي رسولاً (مثل أنبياء العهد القديم). كما أن كل نبي يكون ولياً، ولا يكون كل ولي نبياً. ولا يكون نبياً إلا وتكون ولايته مقدمة على نبوته، كما لا يكون رسولاً إلا وتكون نبوته مقدمة على رسالته.

(١) نفسه، ص ٢٧٩.

فالولاية كما يصفها الآملي باطن النبوة، والنبوة باطن الرسالة. وكل واحدة منهما أشرف وأعظم من الأخرى[٢] فمرتبة الولاية أعظم من مرتبة النبوة، ومرتبة النبوة أعظم من مرتبة الرسالة. والمراد أن مرتبة الرسالة دون مرتبة النبوة، ومرتبة النبوة دون مرتبة الولاية، كما أن الشريعة دون الطريقة والطريقة دون الحقيقة.

فروق

لكن الآملي ينبه «إن الولاية وإن كانت في الحقيقة أعظم من النبوة، والنبوة أعظم من الرسالة، لكن ليس الولي أعظم من النبي. ولا النبي أعظم من الرسول. لأن للنبي مرتبة الولاية، وفوقها مرتبة النبوة، وكذلك للرسول مرتبتان الرسالة والنبوة فلا تحصل المساواة بينهم أصلاً. والمراد بأن الولاية أعظم من النبوة، هو أن طرف الولاية في الشخص المعين يكون أعظم من طرف نبوته، وطرف نبوته أعظم من طرف رسالته. والنبوة بالنسبة إلى الرسالة كذلك. مثل نبينا (ص) فإنه كان ولياً ونبياً ورسولاً، وكان طرف ولايته أعظم من طرف نبوته، وطرف نبوته أعظم من طرف رسالته. وكذلك جميع الرسل»[٣].

يحاول الآملي في التفاتته إلى الفروق الدقيقة بين الولاية والنبوة، وإيضاحه معنى امتياز الولاية على النبوة، قطع الطريق على فئتين من الناس: إحداهما المتصوفة من السنة الذين كانوا يرون أن الشيعة يفضلون الولاية على النبوة، أو على الأقل يساوون أو يطابقون بين المقامين. والفئة الأخرى فريق من الحشوية أو من مجسمة أهل خراسان يقولون إن الأولياء أفضل من الأنبياء[٤] كذلك كثير من الغلاة والباطنيين.

وبرغم أن الآملي يرجع في تقسيمه بين النبوة والولاية إلى ابن عربي الذي يلقبه بالشيخ الكامل، إلا أنه وهو الحريص على ربط التصوف بأصوله الشيعية الاثني عشرية، بنقض أقوال أستاذه محيي الدين بن عربي في مسألة الشخصين اللذين يقومان مقامي الولاية المقيده والولاية المطلقة. أما الأولى فيعقد ابن عربي لواءها لشخصه. والثانية بنسبها إلى عيسى بن مريم (ع). وهو في رأيه الولي بالنبوة المطلقة في زمان هذه الأمة، حيل بينه وبين نبوة التشريع والرسالة فينزل آخر الزمان وارثاً خاتماً... لا ولي بعده.

في حين يرى الآملي أن الإمام علي هو ولي مطلق وخاتم الأولياء بأسرهم، وما ظهر ولي بعده إلا وكان مظهراً من مظاهره وخليفة من خلفائه. والولاية المطلقة المخصوصة بعلي كانت سارية في جميع الأنبياء سراً، حتى ظهر الرسول إلى عالم الشهادة

(٢) نفسه، ص ٢٨٥.
(٣) نفسه، ص ٢٨٧.
(٤) بنية العقل العربي.

جهراً وظهر علي معه كذلك[1] وهو الذي أخبر على مثال خبر الرسول: «كنت ولياً وآدم بين الماء والطين». وإذ ينسب ابن عربي هذه الرواية إلى عيسى، يردها الآملي إلى الإمام علي. وينعته بأنه أعلم من عيسى بعلوم القرآن وبأسرار النبي[2].

وينقل روايات تساوي بين الإمام واثني عشر نبياً، ويفضله على أولي العزم من الرسل. ويبين بالأدلة النقلية والعقلية أن حقيقته وحقيقة النبي واحدة. بل هو يهزأ في موضع ما بادعاء ابن عربي أن كتابه «فصوص الحكم» [سبق أن شرحه الآملي] أعطاه إياه النبي في النوم، وهو ينقل عنه بلا زيادة ولا نقصان «وحاشى أن يأمر النبي بأمثال ذلك»[3].

أما الولاية المقيدة التي ينسبها ابن عربي إلى نفسه، فيردها الآملي للمهدي. فهو أحق من غيره لأنها ختم الولاية المحمدية التي تحصل من الإرث المحمدي، لا الولاية التي تحصل من سائر الأنبياء. إلا أن الآملي لا يغمط شيخه حقه فيرى أنه «وإن كان ناقصاً في هذا الموضع فهو كان كاملاً في غيره»[4].

في الفصل الثالث والأخير يتناول الآملي مسألة الوحي والإلهام والكشف، فيرى أن الوحي يكون خاصاً وعاماً والخاص يكون بواسطة الملك وهو مخصوص بالرسل وأولي العزم ويسميه الوحي الجلي. والذي يكون بغير واسطة هو خاص بالأنبياء (الوعي الخفي).

أما الوحي العام فمشترك بين الحيوانات والجمادات والإنسان والشياطين.

والإلهام يقسمه أيضاً إلى خاص وعام فالخاص مخصوص بالأولياء والأوصياء، يكون بواسطة وغير واسطة. فالذي بالواسطة يكون بصوت خارج عن الشخص، يسمعه ويفهم منه المعنى المقصود. والإلهام بغير واسطة يكون بقذف المعاني والحقائق في قلوب الأولياء دفعة أو تدريجاً [5].

أما الإلهام العام فيكون بسبب أو بدونه، ويكون حقيقياً وغير حقيقي. فالذي يكون بسبب ويكون حقيقياً هو بتسوية النفس وتحليها بالأخلاق المرضية والأوصاف الحميدة موافقاً للشرع ومطابقاً للإسلام. والذي يكون بغير سبب ويكون غير حقيقي يكون لخواص النفوس واقتضاء الولادة والبلدان كما يحصل للبراهمة والرهبان. «ولهذا احتجنا بعد الأنبياء والرسل إلى الإمام والمرشد للتمييز بين الإلهامين الحقيقي وغير الحقيقي، وبين الخاطر الإلهي الرحماني والخاطر الشيطاني النفساني»[6].

أما الكشف للأنبياء، والأولياء فداخل تحت الوحي والإلهام. والكشف اصطلاحاً «هو الإطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية، وجوداً أو شهوداً. وهو معنوي وصوري. ويعني بالصوري ما يحصل في المثال من طريق الحواس الخمس، وذلك أن يكون من طريق المشاهدة أو من طريق السماع: «صلصلة الجرس» و«دوي النحل»، أو على سبيل الملامسة. وأنواع الكشف الصوري تتعلق بالحوادث الدنيوية أولاً. أما الأولى فلا يلتفت إليها أهل الكشف ولا يتوقفون عند الأمور الدنيوية «ويعدونها من قبيل الاستدراج والمكر بالعبد»[6]. أما المكاشفات المعنوية فتكون أعلى مرتبة وأكثر يقيناً لجمعها بين الصورة والمعنى. ولها مراتب بارتفاع الحجب كلها أو بعضها دون بعض.

أما الكشف المعنوي المجرد من صور الحقائق والحاصل من تجليات الاسم العليم فهو ظهور المعاني العينية والحقائق الغيبية وله مراتب، أولاها ظهور المعاني في القوة المفكرة من غير استعمال المقدمات وترتيب القياسات ويسمى بالحدس. ثم ظهور المعاني في القوة العاقلة المستعملة للفكرة وتسمى بالنور القدس. ثم ظهور المعاني في مرتبة القلب ويسميه المشاهدة القلبية. ثم ظهور المعاني في مرتبة الروح وينعته بالشهود الروحي ثم ظهور المعاني في مرتبة السر ثم ظهورها في مرتبة الخفي وهي أعلى المقامات.

يقسم الآملي العلوم إلى رسمي اكتسابي، وإرثي إلهي. فالأول علم مسموع يكون بالتعليم الإنساني على التدريج والعلم الثاني علم مطبوع تحصيله بالعلم الرباني بالتدريج وغير التدريج.

ويرتب المسلمين إلى أقسام ثلاثة: إسلام أهل البداية أو الإسلام الأول، وإسلام أهل الوسط وهم أهل استدلال وبرهان وتنزيه عن الشرك الجلي. أما إسلام أهل النهاية فهم أهل التوحيد والكشف والشهود. وهو الإسلام الحقيقي المسمى بالدين القيم الذي كان عليه الأنبياء والأولياء والكمل.

أما إيمان أهل البداية فتصديق مشوب بالشك والشبهة والمعارضة والإشكال. وهو قابل للزيادة والنقصان.

وإيمان أهل الوسط، تصديق ما جاء به النبي من التوحيد والعدل والنبوة والإمامة. وإيمان أهل النهاية تصديق مجموع ذلك من حيث الكشف والشهود والذوق والعيان، مع محبة الموجد وشوق إلى حضرته العالية.

(١) جامع،

(٤١) نفسه، ص ٤٠٢.

(٢) نفسه، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠.

(٣) نفسه، ص ٤٤٧.

(٥) جامع، ص ٤٥٥.

(٦) نفسه، ص ٤٥٦.

(٧) نفسه، ص ٤٦٥.

واليقين مراتب ثلاث أيضاً أدناها علم اليقين، وأعلاها حق اليقين، وأوسطها عين اليقين. وكلها على العكس من مراتب الإسلام والإيمان مخصوصة بأهل النهاية، ويمكن أن يجمعها شخص واحد «أما علم اليقين فهو ما كان بشرط البرهان، وعين اليقين ما كان بحكم البيان، وحق اليقين ما كان ينعت العيان»[١].

وفي هذا التقسيم لا يأتي الآملي بجديد لأنه من التقسيمات الصوفية الشائعة. وهو يأخذ بتعريف هذه المصطلحات بحرفها. ومن المفارقات أن يتخذ أيضاً معاصر هو الدكتور محمد عابد الجابري التقسيم عينه. أي البيان والبرهان والعرفان لتشريح بنية العقل العربي وأنظمته المعرفية[٢].

كان الآملي تلميذاً نجيباً للتيار الصوفي الإسلامي بمختلف تفريعاته واتجاهاته وأبعاده، وتمثل مفرداته واصطلاحاته. وحرر النص القرآني على غرار شيخه ابن عربي، من سطوة التفسير الحرفي، وأطلقه في فضاء التذوق الجمالي والخيالي الحر المبدع. فالحقيقة لدى العرفاني ليست معرفة ناجزة مكتملة ومغلقة ولكنها انفتاح على المعنى = المعين الثر الدفاق الذي لا ينضب. المعنى الذي لا يقبض عليه ولا يمتلك، لأنه لا تستنفده علائق الإسناد والحمل.

وإذا كان المعنى الظاهر أو الحرفي للنص القرآني في متناول من يمتلك ناصية اللغة العربية، فإن المعنى المستور يتطلب مجاهدة ومشقة لارتفاع حجبه والكشف عنه. فالمعنى المستور «أشبه بالعيون والأنهار المركوزة في تخوم الأرض، المستورة بالأحجار الصلبة والمعادن الشديدة، فإذا ارتفعت الموانع والحجب، ظهرت المياه وجرت على الأرض جريانا أبدياً لا انقطاع لها. كذلك القلب إذا رفعت الموانع عنه طلعت منه العلوم»[٣]. فتحصيل العلوم الحقيقية لا يتم إلا بهذا الحفر الداخلي، أي بهذه المجاهدة والمكابدة الروحية وترويض الجسد والسلوك للتغلب على الحس والشهوات.

واحتمالية كهذه لا ضابط لها، تعد من منظور الفكر الأوروبي الحديث رهاناً خاسراً بالطبع. فالفلسفة عنده كما العلوم الوضعية تعمل على الكشف عن المعنى النهائي والأخير للظواهر والأشياء، وعن الفكرة المنظمة لمعرفة تعي ذاتها وحدودها[٤]. ولعل مغامرة البحث عن المعنى التي تسم النص الصوفي وسيرة أصحابه هي التي تدفع بعض المستشرقين، ومن بينهم طبعاً هنري كوربان وتلميذه كريستيان جامبيه، وقبلهما ماسينيون، إلى دراسة آثار المتصوفة من أمثال السهروردي وابن عربي والآملي وغيرهم.

(١) نفسه، ص ٦٠٣.

(٢) المقصود كتابه: بنية العقل العربي.

(٣) جامع. ص ٥٢١.

(٤) La Logique des orientaux, par Christian Jambet, p 106.

يبقى السؤال عن مكانة الآملي ومشروعية طروحاته التوفيقية في مضي سبعة قرون على وفاته. هل كانت رهاناً خاسراً هي الأخرى؟

لا نرى جواباً دقيقاً في هذا المجال، ذلك أن الآملي لم يعرف من قبل على نطاق واسع، حتى في صفوف طائفته. ويمكن الاستناد إلى رأي غير مباشر لرجل دين شيعي. رأى في تصديره لكتاب هنري كوربان «تاريخ الفلسفة الإسلامية» الذي استوحي فيه كاتبه آراء حيدر الآملي: أن التصوف مدرسة مستقلة عالمية تسربت إلى الشيعة بعدما غزت العالم الإسلامي كله، ولا يختص بالتشيع تبعاً ولا سنداً، كذلك ثنائية الشريعة والحقيقة غير واردة عند المسلمين بمختلف فرقهم المعروفة»[٥].

بهذا يعضد رأي عدد كبير من المستشرقين أن التصوف الإسلامي كان بتأثيرات فارسية أو هندية أو يونانية. ويتفق مع رأي بعض القدماء مثل ابن خلدون الذي يعد التصوف «من العلوم الشرعية الحادثة في الملة»[٦].

وهو إذ لا يشكك في استشهاد كوربان بكتب الباحثين من الفقهاء والفلاسفة والصوفية، ومن بينهم بالطبع حيدر الآملي، فهو يتحفظ عن إسناد هذه الآراء إلى مذاهب المؤلفين، واعتبارها جزءاً من عقائد تلك المذاهب. فالثابت لديه أننا لا نستطيع أن ننسب الأبحاث التي أبدعها العلامة تيار ذو شادران إلى الكنيسة الكاثوليكية، ولا يجوز لنا أن نحاسب المذهب الحنفي بما نجده في كتاب «فصوص الحكم» لابن عربي.

ويبدو أن المقصود من فحوى الكلام أن الفئة التي يمكن أن يصدر عنها أصول أي مذهب هي الفقهاء دون غيرهم من الفلاسفة والعلماء. وهم المخولون الشرعيون للنطق باسم طوائفهم. أما جهود الآملي وسائر المتصوفة والعرفانيين الشيعة فهي في مقام التجاذب..

تعليقنا على مقال أحمد زين الدين

أول ما ألاحظه هو عد الأستاذ زين الدين للآملي في عداد الفلاسفة، وذلك في مفتتح قوله حيث قال: لا... ولم يحظ بما يناسب مكانته في الفلسفة والتصوف.

ثم قال: «في حين أن مؤلفاته ورسائله تربو على اثنين وعشرين مؤلفاً جميعها في علوم التصوف والفلسفة» ويذكر الكاتب أن المستشرق الفرنسي الكبير هنري كوربان (١٩٠٥ـ ١٩٧٨، كشف عن كتابه المخطوط: (جامع الأسرار ومنبع الأنوار) وحاضر عنه في السوربون وسويسرا. وإن طروحات الآملي شكلت الهيكل

(٥) تاريخ الفلسفة الإسلامية: هنري كوربان، ترجمة حسن قبيسي ونصير مروة، انظر المقدمة للسيد موسى الصدر، ص٢٤.

(٦) مقدمة ابن خلدون، ص ٤٦٧.

العام لكتابه المعروف (تاريخ الفلسفة الإسلامية)، خاصة في الجزء عن التشيع وهو جوهر الكتاب.

وحاط كوربان مؤلفات هذا الفيلسوف بالرعاية وحاول من خلال المنهجية (الظواهرية) أن يفسر نشأة الفكر الفلسفي لدى الشيعة، ويتعاطف مع هذا النزوع الشيعي إلى درجة أن دفعت أحد الباحثين العرب هو الدكتور علي سامي النشار إلى اتهام كوربان بأنه كان شيعياً أكثر من الشيعة» (انتهى).

وإنني أضيف إلى ما ذكره الأستاذ «زين الدين عن كوربان - أضيف إلى ذلك أن كوربان كان متخصصاً بالفلسفة الإسلامية، ودراسته كانت منصبة على هذه الفلسفة، وقد عني منها بالجانب الشيعي المتأخر الذي أهمله الباحثون الذين اقتصروا في دراستهم على الفلاسفة المسلمين الأوائل ووقفوا عند زمن معين لم يتجاوزوه، في حين أن الفسلفة الإسلامية ازدهرت بعد ذلك أي ازدهار، وكان هذا الازدهار على أيدي فلاسفة شيعة هم في أغلبهم إيرانيون.

ولما كان موضوع اختصاص كوربان هو الفلسفة الإسلامية كلاً لا بعضاً محدداً بزمن، لذلك تابع دراسته موصلاً المتقدمين بالمتأخرين فعني بهم وكتب عن هؤلاء المتأخرين، وأخذوا حيزاً مهماً في دراساته عن الفلسفة الإسلامية وهم كما قلنا شيعة، ومن هنا وصف كوربان بأنه: «متخصص بالفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامي لا سيما الفكر الشيعي».

ويبدو أنه هو قد رضي بهذا الوصف، وحاول أن يجدد فلسفة شيعية خاصة، وأن يعيدها إلى جذور أبعد مما كان بين يديه عمن عني بدراستهم من المتأخرين من أمثال محمد باقر الداماد، ومحمد صدر الدين الشيرازي، فكان أن اعتقد أن هذه الجذور تنتهي فيما تنتهي إليه إلى حيدر الآملي، فأدخله في عداد الفلاسفة. «وخصه بسلسلة من المحاضرات، حتى شكلت طروحاته الهيكل العام لكتابه الفلسفة الإسلامية».

وإذا كان كوربان قد حاضر عن الآملي في السربون وفي سويسرا فإن محاضراته هذه لم تكن الوحيدة فقد حاضر سنة ١٩٦٢ في جامعة طهران عن محمد صدر الدين الشيرازي، كما كان قد سبق له المجيء لإيران سنة ١٩٤٥ لإكمال دراساته عن الفيلسوف الإشراقي الشهيد شهاب الدين السهروردي بعد أن أمضى سنتين في تركيا في إعداد قسم من كتابات السهروردي وإذا كنت لم أطلع على ما كتبه كوربان بلغته الفرنسية، فإنني أستنتج من خلال قول الأستاذ زين الدين، أن كوربان حاول من خلال مؤلفات الفيلسوف، الآملي أن يفسر نشأة الفكر الفلسفي لدى الشيعة» وأن كوربان رأى أن هناك نشأة مستقلة للفكر الفلسفي لدى الشيعة، وأن من قواعد هذه النشأة هي أفكار الآملي في مؤلفاته.

وهنا أخطأ كوربان خطأ مزدوجاً: أولاً باعتباره الآملي فيلسوفاً، ثم - وهذا الأهم - بفصله بين الفكر الفلسفي الشيعي، والفكر الفلسفي غير الشيعي، في حين أن لافكران فلسفيان في الإسلام، بل هناك فكر فلسفي إسلامي واحد، وفلاسفة مسلمون لهم مناهجهم التي كان الغرض الأكبر لهم فيها هو أن يزودوا العالم بنظرية تامة عن وحدة الكون، ترضي الذهن كما ترضي الدين، ولذلك حاولوا أن يوفقوا بين الجانب الأخلاقي والروحي للعلم وبين جانبه الفلسفي.

وكانت رسالتهم موجهة لا إلى المسلمين وحدهم بل إلى الإنسانية بأسرها، ألا وهي رسالة الفهم والتعاطف وحث الإنسان على البحث عن حل لألغاز الكون، ودعوته إلى تعميق معرفته لذاته، بحيث يستشعر في جوانبه ثقة في آ وثقة في نفسه.

الجذور التي ينتهي إليها، والمنابع التي يستقي منها: الكندي وابن سينا والفارابي، الفلاسفة الشيعة هي نفس الجذور التي ينتمي إليها، والمنابع التي يستقي منها ابن باجة وابن رشد الفيلسوفان غير الشيعيين. والذين عارضوا الفلسفة، والذين عضدوها لم يقسمها أحد منهم إلى فكرين، ولم ينسبها إلى مذهبين.

أما أن تكون طروحات الآملي شكلت الهيكل العام لكتاب كوربان: تاريخ الفلسفة الإسلامية خاصة في الجزء عن التشيع وهو جوهر الكتاب «كما ذكر الأستاذ زين الدين، فذلك كما قلت من أوهام كوربان أو أخطائه، لا فرق، لأن طروحات الآملي ليست طروحات فلسفية، بل هي طروحات صوفية لا تصح أن تشكل هيكلاً عاماً لكتاب عن تاريخ الفلسفة، وأن تتخذ أساساً للحديث عما سماه كوربان: الفكر الفلسفي الشيعي.

إن الآملي صوفي قبل كل شيء وبعد كل شيء. والبحث يجب أن يتركز عن موقعه من الصوفيين، وهو موقع متميز لا يشبه أي موقع.

الآملي مولع بالأئمة من آل البيت مخلص في ولائه لهم، معجب بهم، ثم استهوته النزعات الصوفية بكل ما فيها من شطحات لا تتلائم مع تعاليم الأئمة وتوجيهاتهم فكاد أن يضيع، ولكنه وهو المؤمن الصلب الإيمان لم يضع، أو بالأحرى هذا ما بدا له، فأراد المواءمة بين ولائه للأئمة وبين تصوف الصوفية، فكان أن أخذ بشيء جديد، لا يأخذ به التشيع ولا تأخذ به الصوفية فخلق تصوفاً شيعياً، أنكره عليه الشيعة وأنكره عليه الصوفيون.

وهذا عين ما قاله عنه الأستاذ زين الدين. وهو يتحدث عن كتابه (نصوص الحكم): «وأدى هذا الشرح وسائر كتب الآملي إلى إدماج آراء ابن عربي الصوفية في ثنايا الفكر الشيعي».

وحدثت في هذه الحال المفارقة الطريفة: وهي أنه أحرج كلاً من الشيعة والصوفيين، فالشيعة وقد عرفوا ولاءه المخلص

للأئمة من آل البيت وتأسيه بهم، عز عليهم أن يتنصلوا منه، ولكنهم عرفوا أيضاً صوفيته المناقضة لآرائهم فكبر عليهم أن يقبلوه على علاته. وهذا هو علة ما لاحظه الأستاذ زين الدين من مرور مجامعهم الرجالية بسيرته ذاك المرور السريع[1].

وكذلك كان الأمر مع الصوفيين الذين أحرجتهم أراؤه كما أحرجت الشيعة فهو منهم، ولكنه في الوقت نفسه ليس منهم.

ويقول الأستاذ زين الدين وهو يتحدث عن آراء الآملي الصوفية: «لا يرى الآملي أن أولى الخطوات في طريق العرفان كتمان سر الربوبية...».

ثم يكمل الأستاذ زين الدين كلامه قائلاً: «فالتقية الشائعة عند الشيعة عدم إفشاء أصول المذهب تتخذ لديه معنى باطنياً فتصبح حفظاً للإسرار الربانية» إلى آخر ما قال...

إن هذا المفهوم للتقية هو مفهوم خاطيء فالتقية: هي إن يحافظ المرء على عرضه أو نفسه أو ماله عند الخوف، بإظهار غير الحقيقة. لا عدم إفشاء أصول المذهب، فأصول المذهب ليست سراً يحاول أصحابه عدم إفشائه، بل هي أظهر من كل ظاهر إن التقية مبدأ إنساني وتشريع إسلامي قرآني، وهي ليست عند الشيعة وحدهم، بل هي عند الناس أجمعين فما أحد يخاف على نفسه وعرضه وماله إذا أظهر حقيقته، إلا ويكتم هذه الحقيقة. وهي تشريع إسلامي قرآني، فالقرآن يقول في سورة آل عمران: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون الله ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة».

وقد جرى تطبيق عملي للتقية في عهد النبي محمد (ص) وبأمر منه، وذلك عندما عذب القرشيون (ياسر) وزوجته سمية، والدي عمار حتى قتلا في التعذيب وولدهما عمار ينظر. فلما حل عليه الدور في التعذيب لم يتركوه حتى نال من النبي (ص) وسبه وذكر آلهتهم بخير. فلما أتى النبي (ص) في المدينة بعد نجاته من الموت، قال: ما وراءك يا عمار؟ قال: شر يا رسول الله، ما تُركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. فقال النبي: فكيف تجد قلبك؟ فقال اجد قلبي مطمئناً بالإيمان فقال: فإن عادوا فعد (راجع حلية الأولياء ـ ١٤٠) وتفسير الطبري ٤ـ ١١٢ وغرائب القرآن لنظام الدين النيسابوري على هامش الطبري ٤٣ـ ١١٨ وتفسير القرطبي ١٠ـ ١٨٠).

وإنما اشتهرت نسبة التقية إلى الشيعة لكثرة ما أخيفوا على الأنفس والأعراض والأموال، وأوضح مثال على عمل غير الشيعة بالتقية وأخذهم بها: الفتوى التي أصدرها الفقيه المغربي أحمد بن بو جمعة المغراوي الوهراني ووجهها إلى من بقي من المسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة وانتهاء الحكم الإسلامي في أسبانيا كلها.

يقول أحمد في فتواه:

... مؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام آمرين به من بلغ من أولادكم، إن لم تخافوا دخول شر عليكم من أعلام عدوكم بطويتكم.

ويستطرد قائلاً: وإن أكرهوكم في وقت الصلاة على السجود للأصنام وحضور صلاتهم فأحرموا بالنية وانووا صلاتكم المشروعة وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله. وإن أجبروكم على شرب خمر فاشربوه لا بنية استعماله، وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه، وكذا أن أكرهوكم على محرم، وإن أكرهوكم على زواج بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، ناكرين ذلك بقلوبكم.

ثم يقول:

وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التورية والألغاز فافعلوا، ولتكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك.

ويقول الأستاذ زين الدين وهو يتحدث عن الآملي:

«وهو من طرف آخر مضطر أثناء مقاربته أصول الطائفة المتصوفة وبيان وجوه الشبه أو الأحرى مناحي التكامل بين الطائفتين إلى أن ينبه ويزيد في التأويلات الخاطئة، لدى الإسماعيليين والزيدية وسائر الغلاة». أغلب الظن أن الكاتب يقصد بالإسماعيليين هنا، (الفاطميين)، فإن كان الأمر كذلك فقد أخطأ في الجمع بين الإسماعيليين والزيدية من جهة وبين الغلاة من جهة أخرى، فلا الإسماعيليون الفاطميون ولا الزيدية من الغلاة، ولا لهؤلاء ولا لهؤلاء تأويلات خاطئة.

لقد انشق عن الفاطميين من عرفوا بالنزاريين، أو الإسماعيليين النزاريين، وخالفوا الفاطميين في اطراد سير الخلفاء ثم خالفوا المسلمين أجمعين في كل شيء ثم عاد فريق منهم، في العقيدة إلى الحظيرة الإسلامية ما عدا تسلسل الأئمة، وظل الفريق الآخر على ما كان عليه من الانشقاق في كل شيء في العقيدة والإمامة وظلوا يحملون اسم الاسماعيليين حتى اليوم. وزالت

---

(١) مما ينبغي الإشارة إليه هنا أنه كتب «أجوبة المسائل المهنائية» المعروفة: «المسائل المدينات» للعلامة الحلي وأتمها في سفرة ذي القعدة سنة ٧٦٢، وكتب له فخر الدين ابن العلامة إجازة روايتها عنه هي والده في أواخر ربيع الآخر سنة ٧٧١، وقال في الإجازة «وقد أجزت لمولانا السيد الإمام العالم العامل المعظم المكرم أفضل العلماء وأعلم الفضلاء الجامع بين العلم والعمل شرف آل الرسول مفخر أولاد البتول سيد العترة الطاهرة ركن الملة والحق والدين...».

وقد ذهب بعض الباحثين على تعدد السيد حيدر الآملي في القرن الثامن، ولكننا نعتقد أنه واحد واختلاف الألقاب أو النسبة إلى البلد أو عدم النسبة لا تعني تعدد الشخص.

الدولة الفاطمية وزالت معها إسماعيليتها السليمة، ما عدا قلة قليلة يعيش معظمها اليوم في الهند لكن لا باسم الإسماعيليين بل باسم (البهرة).

فإن كان الكاتب يقصد بكلمة (الإسماعيليين)، الإسماعيليين الذين انشقوا في كل شيء وظلوا يحملون اسم الإسماعيليين، فإن ما أورده عنهم صحيح، وإن كان يقصد غير ذلك، يكون قصده خطأ.

حيدر بن أحمد بن حيدر

قرأ عنده التمولى محمد بن الحسين «حاشية آداب البحث» للأمير أبي الفتح، وذكره في مقدمة حاشيته على هذه الحاشية بكل احترام وتعظيم، ويبدو أنه كان من أساتذة المعقول في عصره. ولعله من أعلام القرن الثالث عشر(١).

حيدر بن علي بن محمد شفيع الأصبهاني

كتب تعاليق على نسخة من كتاب «الصافي» للفيض الكاشاني، وهي تدل على فضل فيه وسعة اطلاع، وانتهى نقل النصف الأول منها إلى نسخة رأيتها في يوم الثلاثاء الحادي عشر من شهر رجب سنة ١١١٨، فالمترجم له من أعلام القرن الحادي عشر(٢).

خداوردي بن القاسم الأفشاري

مذكور في رياض العلماء ٢/ ٢٣٥، ونقول:

قرأ عليه الميرزا حسين كتاب «الأربعون حديثاً» للشيخ حسين بن عبد الصمد العاملي في أربعين يوماً وأكمله في عاشر شهر شوال سنة ١٠٣١، وقد ذكره التلميذ بعنوان «أفصح المتكلمين وأورع المتورعين شيخ الإسلام والمسلمين وارث علوم الأولين والآخرين...»(٣).

خسرو

أديب شاعر بالفارسية جيد الشعر، من أعلام القرن العاشر، أتم كتابة نسخة من كتاب «أخلاق محسني» للمولى حسين الكاشفي في شهر صفر سنة ٩٦٤ وكتب في آخرها أبياتاً من شعره في سنة ٩٧٣(٤).

خضر عباس الصالحي

توفي سنة ١٩٨٣م في بغداد عن خمسين سنة من عمره.

درس في دار المعلين الريفية. تخرج منها وزاول التعليم في عدة مدارس حتى استقر في بغداد كان أديباً شاعراً متمكناً من اللغة العربية. أصدر سنة ١٩٦٢ ديواناً شعرياً باسم (ضباب الحرمان) لم يحتو على كل شعره، فله العديد من القصائد التي نظمها بعد طبع الديوان. وكانت له مساهمات شعرية فيما كان يقام في مدينة كربلاء من حفلات عمرت بها كربلا فترة من الزمن خلال سنوات ١٩٥٠ و١٩٦٠ كما نشرت أشعاره في الصحف لا سيما مجلة العرفان ومجلة الأديب.

فمن شعره قوله:

لم يبق لي في الأسى خلٌ يواسيني ... ولا رفيق من الآلام يحميني
ولي شعور كلفح النار متقد ... ينير في مزهري أشجى التلاحين
وما الغناء الذي يشدو به وتري ... خلف الظلام سوى آهات محزون
أعيش في عزلة كالقبر موحشة ... ومخلب اليأس بالحرمان يدميني

وقوله في رثاء الحسين

ذكراك من نار ونور ... ستظل مفخرة الدهور
تضفي على الدنيا سناً ... ينساب من دمك الطهور
وتصب في مقل الدجى ... قبساً من الفجر المنير
ويظلله اليأس الرهيب ... تشع بالأمل الكبير
تجلو الحقائق والرؤى ... من كل بهتان وزور
وتثير هاجس شاعر ... جم العواطف والشعور
سأمان أوغل في الظلام ... وبات في النفس البهير
أذكى به هول المصاب ... مرارة الألم المثير
وبمسمعيه صدى الكفاح ... يرن مشبوب الزئير
هذا الحسين الهاشمي ... يهب للأمر الخطير
في حومة الشرف المنيع ... يصول كالليث الهصور

يتدفق الأحساس، بالإيمان منقطع النظير
حملت يداه الشعلة الحمراء تحرق كل نير

يا ابن الرسول تحية ... غراء تنضح بالعبير
من شاعر يلوي الضلوع ... على عواصف من سعير
يهفو إلى غده المسجى ... في دياجير الحفير
تطغى به لجج الأسى ... فيعيش في صمت القبور
ويعب أقداح الكآبة ... من فم الدمع الغزير
تجري دماء الصفوة ... الأبرار كالسيل الغمير

وهوى الحسين على الرغام فيا له من مستجير
ويزيد بين الغيد والغلمان بمرح في القصور

يلهو بأوتار المجون ... ويحتسي جام الخمور
يا ابن الرسول أثرتها ... حرباً على الجيش المغير
وسحقت أغلال العدى ... بنضالك الدامي المرير

مزقت ليل الظلم والطغيان في يوم النفير

يا ابن الرسول ولم تزل ... ذكراك في طي الصدور

---

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.

وكـــأنهـــا أغـــرودة عـذراء تـطـفـح بـالـعـطـور
ما كربلاء سوى نشيد العز جلجل في الثغور
يشدو به الأحرار إن عصفت أعاصير الدهور
فيها انطوت مأساتك الكبرى على مر العصور

الشيخ خلف بن عبد علي بن أحمد بن ابراهيم بن أحمد بن صالح بن أحمد بن عصفور بن أحمد بن عبد الحسين بن عطية بن شبية، آل عصفور الأوالي البحراني.

مترجم في أعيان الشيعة ٦/ ٣٣٠ وأنوار البدرين ص ٢٠٤ ونقباء البشر ص ٥٠٠ ونقول:

كتب له محمد علي بن جعفر بن حسين الكازروني الكربلائي المجلد الأول من كتاب «ذخيرة المعاد» للمحقق السبزواري، وأتم هو مقابلته في يوم الخميس ٢٢ رمضان المبارك سنة ١١٩٧ وكتب عليه تعاليق يسيرة ولكنها تدل على تبحره في الفقه وتتبعه وتحقيقه.

قرأ جملة من مجلدات «بحار الأنوار» وعلق عليها بعض التعاليق وقد رأيت المجلد الثاني منه وفيه خطه وإمضاؤه وتوقيعه.

وأتم مع الشيخ محمد بن شمس الدين الطريحي مقابلة كتاب «وسائل الشيعة» في يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي القعدة سنة ١١٩٨، وفي آخره إجازة منه للطريحي المذكور.

وقد أجاز هو للشيخ محمد الطريحي أيضاً على جملة من الكتب فالإجازة بينهما مدبجة.

من آثاره العلمية رسالة في «ولاية الموصى إليه في التزويج»[١].

خير النساء بنت الشيخ محمد جعفر بن الشيخ سيف الدين الأسترآبادي الطهراني.

ولدت في كربلاء حدود سنة ١٢٤٠ وتوفيت سنة ١٣٢٥ في طهران

أخذت المقدمات والعربية وفنون الأدب على أبيها الشيخ محمد الأسترآبادي المعروف بشريعتمدار المتوفى سنة ١٢٦٣ وأخيها الشيخ علي آل شريعتمدار المتوفى سنة ١٣١٥ ولما بلغت سن الرشد زفوها إلى الشيخ محمد تقي الكاشاني الطهراني المتوفى سنة ١٣٢١ ثم هاجرت مع زوجها إلى قزوين والتحقت بحوزة (قرة العين) في المدرسة الصالحية وتخرجت عليها وعندما هاجرت قرة العين في سنة ١٢٥٩ إلى كربلاء كانت هي مع زوجها من المرافقين إلى العراق وسكنت مدة في كربلاء ثم في النجف ثم استقرت في طهران حتى وفاتها وكانت من فواضل نساء عصرها ترتقي المنبر خطيبة واعظة لتدريس النساء في طهران.

وهي من أسرة آل شريعتمدار من أشهر البيوت العلمية في طهران وكربلاء التي بزغ بدرها في أواخر القرن الثاني عشر ومطلع الثالث عشر للهجرة ونبغ منها علماء أعلام، وهم من ذرية الشيخ سيف الدين الأسترآبادي أحد أعلام القرن الثاني عشر وكان والدها الشيخ محمد جعفر بن الشيخ سيف الدين المولود في سنة ١١٩٨ والمتوفى سنة ١٢٦٣ من مشاهير العلماء وهو مذكور في المجلد التاسع ص ٢٠٥ من أعيان الشيعة وعمها الشيخ أحمد المتوفى سنة ١٢٨٥ من أكابر علماء عصره وشقيقها الشيخ علي آل شريعتمدار المتوفى سنة ١٣١٥ من أشهر المؤلفين في عصره وخلفت المترجم لها ثلاثة بنين وهم الشيخ محمد صادق والشيخ محمد رضا والشيخ محمد علي كلهم من العلماء الأفاضل الذين كانت لهم الصدارة في طهران بعد وفاة أبيهم الشيخ محمد تقي الكاشاني الطهراني المتوفى سنة ١٣٢١ والمترجم في المجلد التاسع من أعيان الشيعة ص ١٩٣-١٩٤ وقد استدركنا على ترجمته في مستدركات أعيان الشيعة[٢].

داوُد بن الحسين (الحاج قاضي) السبزواري الخراساني، ملا باشي

مترجم في «نقباء البشر» ص ٧١٢، وجاء ذكره واسم والده في «سفرنامه خراسان وكرمان» لأفضل الملك هذا ملخص ما قاله فيه وما وجدته في بعض المجاميع المخطوطة:

ولد سنة ١٢٧٠ في قرية من قرى سبزوار، ونشأ برعاية والده الذي كان من الأشراف وانحدر من بيت شريف لهم الرئاسة والزعامة المحلية.

عالم جليل جامع لأطراف العلوم العقلية والنقلية، أديب بارع في العربية وآدابها وكتب مقامات وقصص تدل على تبحره في الأدب، له شعر بالعربية والفارسية، ذو أخلاق فاضلة حسن المعاشرة مع تواضع وأريحية. توفي سنة ١٣٢٥.

له «ترجمة كلستان محمد» و«مجموعة متفرقات» وغيرهما[٣].

السيد داود بن مخدوم بن داود الحسيني التفرشي.

عالم عارف متبحر في العلوم العقلية، شاعر بالفارسية يتخلص فيه بـ«عارف». من رجال القرن الثاني عشر[٤].

الأمير دوست محمد بن حبيب الله الحسيني المازندراني الأسترآبادي

مترجم في رياض العلماء ٢/ ٢٧٤، ونقول:

(١) السيد أحمد الحسيني.

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٣) السيد أحمد الحسيني.

(٤) السيد أحمد الحسيني.

كانت له عناية بنسخ الكتب وّمقابلتها وتصحيحها، ومن الكتب التي رأيتها بخطه الجزء الأول والثاني من كتاب «مسالك الأفهام» قابله وصححه على خط الشهيد وأتم ذلك في أواخر ربيع الأول سنة ١٠٨٠ في مشهد الرضا (ع)[1].

الأمير ذو الفقار

كتب له بدر الدين بن قطب الدين الجزائري الصيمري نسخة من كتاب «معالم الأصول» أتمها في خامس شهر رجب سنة ١٠٦٠، ووصفه في آخرها بـ«السيد الجليل والأمير النبيل قدوة السادات العظام وخاصة القادات الكرام عين نوع الإنسان وإنسان العين مشيد أساس العلم واليقين ورافع لواء الشريعة والدين ملاذ أكابر المؤمنين وخير الفضلاء المدققين الواثق بحبل الله المتين شيخ الإسلام والمسلمين سلالة الأئمة الأطهار ونتيجة الأتقياء الأبرار السيد السند أمير ذو الفقار...»[2].

ومعلوم أن هذا السيد غير المولى ذو الفقار الأصبهاني.

له «إثبات الواجب» صنفه سنة ١١٧٠.

ذور الفقار الأصبهاني، كمال الدين

مترجم في أعيان الشيعة ٦/ ٤٣٢ ونقول:

هو من تلامذة المولى محمد باقر المجلسي، المتقدمين لديه، وكانت له مكتبة كبيرة فيها كتب نفيسة استفاد منها معاصره الميرزا عبد الله أفندي الأصبهاني في كتابه المعروف «رياض العلماء» وصرح باسمه في مواضع كثيرة بعنوان «المولى ذو الفقار»، ويبدو من مجموع القرائن أنه كان عالماً فاضلاً متتبعاً له اطلاع واسع في الكتب والمؤلفين.

نقل المجلسي رسالة عن بعض تلامذته أرشده فيها إلى كتب ينبغي أن تلحق بالبحار، وكتب المجلسي في صدرها «خاتمة فيها مطالب عديدة لبعض أذكياء (أزكياء) تلامذتنا...». وحسب بعض المعلقين على البحار وأرباب التراجم أنه يعني الميرزا عبد آ أفندي، ولكني رأيت مجموعة للأفندي أكثرها بخطه نقل فيها فهرس مجلد إجازات البحار، ولما وصل إلى هذه الجملة كتب تحتها بخطه «وهو المولى ذو الفقار المعاصر».

لقب نفسه في بعض كتاباته بـ«كمال الدين»[3].

ذو الفقار العقدائي التفتي

أصله من «عقدا» وسكن «تفت» وهما من توابع مدينة يزد، وهو من أعلام القرن الثالث عشر، ولعله كان من الواعظين والخطباء.

له «ذخيرة الواعظين»[4].

السيد راحت حسين الرضوي بن السيد ظاهر حسين الرضوي المبرقعي المنتهي نسبه إلى موسى المبرقع ابن الإمام محمد الجواد (ع) المنتهي نسب السادة الرضوية إليه.

مرت له ترجمة في المجلد الرابع من (المستدركات) وننشر هنا عنه بعض التفاصيل:

ولد في قرية «كوبالبور» من مضافات «جهيره سارن» من مقاطعة بهار من الهند سنة ١٢٩٧. وتوفي فيها سنة ١٣٧٦.

نشأ طفلاً في مسقط رأسه وبدأ بتعلم القراءة والكتابة وهو في الخامسة من عمره، وأول دراسته للغة العربية وآدابها كانَ في الخامس من شهر رجب سنة ١٣١١.

تتلمذ في العلوم الآلية الأدبية على ابن خاله المولوي السيد سخاوت حسين وابن عمه المولوي السيد أمير حسين، ثم على المولوي السيد حسن الكهجوي في قرية «كهجوه» والسيد محمد ضامن في قرية «حسين آباد».

وفي السابع عشر من شهر شوال سنة ١٣١٢ انتقل إلى «مظفر آباد» حيث بقي بها إلى سنة ١٣١٥ ساكناً في غرفة بأحد المساجد، واشتغل في علوم المنطق والفلسفة والسطوح العالية على والمولوي السيد عابد حسين والمولوي السيد محمد مهدي والتجويد والحساب على المقرىء الميرزا محمد.

وفي سنة ١٣١٥ ذهب إلى «بدهن بوره» ففوض إليه التدريس بالمدرسة الإيمانية، وتتلمذ خلال ذلك على المولوي السيد نظير حسين والملوي حسن في علم التفسير والحديث والطب القديم.

ثم ذهب إلى مدينة «لكهنو» وسكن بمدرسة «سلطان المدارس»، فتتلمذ في الفقه والأصول والحديث على السيد محمد باقر الرضوي الكشميري والسيد ظهور الحسن، ورتب بتلك المدرسة في أيام الجمعة مجلساً كان يعلم الطلبة آداب البحث والمناظرة ويمرنهم على ذلك. كما أنه كان يدرس بها شرح النفيسي في الطب.

وفي سنة ١٣٢٤ نال شهادة الطب وأذن في تدريس كتاب القانون لابن سينا من أستاذه السيد أمير حسن الحكيم، واشتغل بعض الوقت بمعالجة المرضى في مطب الشيخ عابد علي الطبيب.

وفي شهر ذي القعدة سنة ١٣٢٤ توجه إلى العتبات المقدسة بالعراق وهو ابن سبع وعشرين سنة، واستقر بالنجف الأشرف حيث أعاد قراءة كتب السطوح بها على أساتذتها، فقرأ شرح اللمعة والقوانين عند الميرزا محمد علي الرشتي والسيد حسن الرشتي والسيد محمد ابن العلامة الطباطبائي اليزدي، وبعض كتاب الرياض والتهذيب عند السيد الحاج آقا حسين الطباطبائي

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.

البروجردي، وبعض الرسائل والمكاسب عند الشيخ ابراهيم الأردبيلي والسيد أبو الحسن الأصبهاني والسيد أحمد سبط الشيخ الأنصاري، ومقداراً من كتاب الكفاية والتهذيب والدراية عند الآقا محمد حسين البارفروشي، ورجال الأسترآبادي وخاتمة المستدرك عند الشيخ علي الگونابادي.

أما خارج الفقه والأصول فقد تتلمذ في الفقه ثلاث سنوات على الشيخ علي الگونابادي ثم كانت جل استفادته فيها على السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي والمولى محمد كاظم الآخوند الخراساني وشيخ الشريعة الأصبهاني.

وفي سنة ١٣٢٦ سافر إلى الهند لوفاة والده، وعاد إلى النجف في سنة ١٣٢٧، فبقي بها إلى شهر صفر سنة ١٣٣٤ وعاد إلى موطنه في سنة ١٣٣٤.

كتب مؤلفاته باللغات العربية والأردوية والفارسية، طبع بعضها في حياته ولا يزال معظمها مخطوطاً عند أحفاده وفي بعض المكتبات الهندية.

ومن مؤلفاته تفسير للقرآن باللغة الأرودوية وكتب فقهية وأصولية ورجالية[١].

السيد راشد بن علي بن خلف بن عبد المطلب الموسوي المشعشعي الحويزي

أديب شاعر له فضل وعلم قتل سنة ١١٠٠ مع جماعة من إخوانه وعشيرته في حادثة جرت بينهم وبين بعض الأعراب أشير إليها في رياض العلماء ٤/٧٧ من شعره هذا البيت:

أخذنا أحاديث الظبا عن عيونها وما كل م أملت عيون الظبايروى[٢]

السيد ربيع بن شرف جهان بن أبي الصلاح بن جعفر الحسني الأردستاني

من تلامذة السيد ميرزا علاء الدين محمد، وكتب نسخة من كتاب «نهج البلاغة» أتمها في ليلة الأحد ١٨ جمادى الآخرة سنة ١٠٧٤ وكتب في هوامشها كثيراً من إفادات أستاذه المذكور على الكتاب، ومجموع الهوامش المدونة فيها تدل على فضل وحسن ذوق لصاحب الترجمة[٣].

رجب علي بن محمد صالح بن علي نقي الطوسي الأصبهاني

فاضل محدث من تلامذة الشيخ أحمد الأحسائي ولكنه لم يتوغل في المصطلحات الغريبة كما توغل فيه أستاذه المذكور، وهو من أعلام القرن الثالث عشر.

له «الأربعون حديثاً»[٤].

---

(١) السيد أحمد الحسيني.

(٢) السيد أحمد الحسيني.

(٣) السيد أحمد الحسيني.

الحاج آقارحيم أرباب

ولد سنة ١٢٩٧ وتوفي سنة ١٣٩٦.

مرت له ترجمة موجزة، في المجلد الأول من «المستدركات» ونعيدها هنا مضافاً إليها ما لم يذكر هناك:

كان آباؤه من أعيان قرية جرمهين، إحدى القرى المعروفة في لنجان من توابع أصفهان، وكانوا من أصحاب المزارع والعقارات، ولذلك كانو يلقبون بالأرباب.

درس الحاج رحيم المقدمات في المكاتب ثم انتقل إلى أصفهان فدرس فيها الفقه والأصول على الحاج ميرزا بديع درب الإمامي والآقا السيد محمد باقر الدرجة إي والسيد أبي القاسم الدهكردي ودرس الأدب على السيد محمود الگليشادي.

ولكن يبقى أكبر أساتذته، هو الآخوند الكاشاني الذي درس عليه الفقه والأصول والكلام والفلسفة والرياضيات والهيئة، ويعتبر الخليفة الأول للآخوند الكاشاني وأقرب طلابه إليه.

كان الحاج رحيم أرباب يسلك سبيلاً وسطاً بين الأصولية والاخبارية، وقد كان أستاذاً كبيراً في الرياضيات والهيئة والنجوم بالإضافة إلى تدريسه الحكمة والفلسفة.

وهو بارع في الخط، ومن نماذج خطه، ما هو موجود في حواشي تفسير الطوسي (الطبعة الحجرية) ونموذج تعليقاته الرياضية في حواشي كتاب منهاج معادن التجنيس.

رسول الهمداني

عالم بالرياضيات والفلك، كتب ولده الحاج محمد حسين الهمداني أن والده كان وحيداً بعلم النجوم في همذان وتوفي خامس شهر رمضان المبارك سنة ١٢٩٠ وهو في السبعين من عمره[٥].

الحاج رضا قلي المشهدي

من سكنة مشهد الرضا (ع) كما صرح بذلك في بعض ما كتبه، وهو عالم محدث جليل له اهتمام بكتب الحديث مقابلة وتصحيحاً.

أتم مقابلة نسخة من كتاب «من لا يحضره الفقيه» في يوم الحادي عشر من جمادى الثانية سنة ١٠٦٥ بمشهد الرضا، وله عليها بعض التعاليق الدالة على فضله ودقته.

وقابل المولى محمد زمان بن فوج أحمد السمناني نسخة من كتاب «إكمال الدين» على نسخة صاحب الترجمة وأتم المقابلة بالمشهد في غرة ربيع الأول سنة ١١٠٢ معبراً عنه بالفاضل الكامل[٦].

رضا مشايخي بن عبد الحسين

ولد عام ١٣٢٦ في طهران وتوفي سنة ١٤١٠ فيها.

---

(٥) السيد أحمد الحسيني.

(٦) السيد أحمد الحسيني.

درس في معهد دار الفنون ثم أرسل في بعثة دراسية إلى بلجيكا فدرس أربع سنوات وتخرج مهندساً للطرق. ولما عاد إلى إيران عمل في وزارة الطرق ثم أختير رئيساً لهيئة سكك حديد إيران.

يعتبر من المترجمين البارعين، وقد قام بترجمة الكتب الآتية إلى اللغة الفارسية.

(١) الاعترافات لجان جاك روسو (٢) الجمهورية لأفلاطون (٣) الأخلاق لأرسطو (٤) العلم والدين لبرتراند راسل[١].

أبو المجد الشيخ رضا بن الشيخ محمد حسين بن الشيخ محمد باقر بن الشيخ محمد تقي بن محمد رحيم بيك الأيوان كيفي الرازي الأصبهاني المعروف بالمسجد شاهي.

ولد في النجف الأشرف في المحرم سنة ١٢٨٧ وتوفي في أصبهان سنة ١٣٦٢ ودفن في تخت فولاذ في مقبرة جده الشيخ محمد تقي.

مرت ترجمته في مكانها من (الأعيان) ونعيدها هنا بتفاصيل أوسع.

أصله من عشيرة «استاجلو»[٢]، وجده الأعلى الحاج محمد رحيم بيك المتوفى سنة ١٢١٧ انحدر من هذه العشيرة وقيل هو أول من سكن أصبهان.

كان آباء أبي المجد من العلماء المشاهير والفضلاء «ذوي الأقدار والمكانة، كما أن أمه العلوية (السيدة ربابة سلطان بيكم) بنت السيد محمد علي المعروف بآقا مجتهد بنت السيد محمد باقر الأصبهاني المعروف بحجة الإسلام الشفتي من بيت السيادة والشرف الجامعين للعلم والفضيلة، وأم أبيه العلوية بنت السيد صفدر الدين العاملي، وأم جده الشيخ محمد باقر هي (نسمة خواتون) بنت الشيخ جعفر الجناجي النجفي صاحب كتاب «كشف الغطاء».

أبوه الشيخ محمد حسين الأصبهاني المتوفى سنة ١٣٠٨ من وجوه تلامذة السيد محمد حسن الشيرازي.

وجده الشيخ محمد باقر الأصبهاني المتوفى سنة ١٣٠١ من أعاظم علماء أصبهان الفقهاء في عصره.

وجده الأعلى الشيخ محمد تقي الأصبهاني المتوفى سنة ١٢٤٨، معروف بالتحقيق في الفقه والأصول، وهو صاحب الكتاب المعروف «هداية المسترشدين في شرح معالم الدين».

قال الشيخ آقا بزرك الطهراني:

آل صاحب الحاشية بيت علم جليل في أصفهان، يعدّ من أشرفها وأعرقها في الفضل، فقد نبغ فيه جمع من فطاحل العلماء ورجال الدين الأفاضل، كما قضوا دوراً مهماً في خدمة الشريعة، ونالوا الرياسة العامة لا في أصفهان فحسب بل في إيران مطلقاً. والمترجم له ـ الشيخ محمد رضا ـ آخر عظماء هذه الأسرة الذين دوّى ذكرهم واجتمعت الكلمة عليه، وفيهم اليوم علماء وفضلاء وأجلاء لكن لا يقاسون بصاحب العنوان ومن سبقه...».

نشأ نشأته الأولى في النجف وتعلم القراءة والكتابة فيها.

وفي التاسعة من عمره ذهب به أبوه إلى أصبهان، فقرأ النحو وكتاب «نجاة العباد» و«معالم الأصول» و«شرح اللمعة» على السيد ابراهيم القزويني، و«الرسائل» و«الفصول» وعلم العروض والحديث على أبيه وآخرين.

وفي شهر ذي الحجة من سنة ١٣٠٠ عاد إلى النجف بصحبة أبيه وجده الشيخ محمد باقر الأصبهاني، ودرس بها على علمائها الأعلام، فتتلمذ في الفقه والأصول على الميرزا حبيب الله الرشتي والحاج آقا رضا الهمداني والمولى محمد كاظم الآخوند الخراساني والسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي والسيد إسماعيل الصدر وشيخ الشريعة الأصبهاني.

ولما هبط النجف السيد محمد الفشاركي الأصبهاني مهاجراً من سامراء صحبه ولازمه فاستفاد منه كثيراً، وكان كثير الثناء عليه بحيث كان يعتقد بأن استفادته منه على قصر المدة فوق ما حصل عليه من الآخرين، وبعد وفاة أستاذه هذا لم يدرس عند شيخ آخر.

وأخذ علو الحديث والرجال والدراية عن الميرزا حسين النوري صاحب «المستدرك» والسيد مرتضى الكشميري.

وقرأ العلوم الرياضية وجانباً من علم الفلسفة على الميرزا حبيب آ الطهراني الشهير بذي الفنون.

وتخرج في الأدب والشعر على شاعر عصره السيد جعفر الحلي، وساجل كبار شعراء العراق حتى برع في الشعر العربي ونظم فيه.

وقال الشيخ آقا بزرك الطهراني أيضاً:

«جدّ في الاشتغال في دوري الشباب والكهولة حتى أصاب من كل علم حظاً، وفاق كثيراً من أقرانه في المعقول والمنقول.

«كان مجتهداً في الفقه، متبحراً في الأصول، متضلعاً في الفلسفة، خبيراً بالتفسير، بارعاً في الكلام والعلوم الرياضية. وله في كل ذلك آراء ناضجة ونظريات صائبة في الأدب والشعر وقد ولع بالقريض فصحب فريقاً من أعلامه يومذاك، كالسيد جعفر الحلي ـ وكان تخرجه عليه كما حدث به ـ والسيد إبراهيم

---

(١) الشيخ محمد رضا الأنصاري.

(٢) منْ المشاير القزلباشية الكبيرة التي كانت في بداية الدولة الصفوية، وكان قوادها اليد اليمنى للشاه إسماعيل الأول.

الطباطبائي والسيد محمد سعيد الحبوبي والشيخ عبد الحسين الجواهري والشيخ هادي آل كاشف الغطاء والشيخ جواد الشبيبي والشيخ محمد السماوي وغيرهم. عاشر هؤلاء الأفذاذ زمناً طويلاً ونازلهم في سائر الحلبات والأندية الأدبية النجفية، حتى برز بينهم.

وكان حلو المعشر ظريف المحضر كثير المداعبة جميل المحاورة يرصد النكتة ويجيد النادرة، ومع تلك المكانة العلمية والشهرة لم تكن حالته المادية على ما يرام».

أقول: إن هذا العالم النحرير الذي اعترف بفضله وفضيلته عارفوه كان يعاني الفقر والإعواز ويشكو قلة ما في يده، ويتضجر إلى خلص أصدقائه مما يمسه من آلام الحاجة، وربما يبث ذلك في شعره ونثره.

في أصبهان

بعد أن استحصل العلم في الحوزة العلمية بالنجف الأشرف أكثر من ثلاثين سنة عزم في سنة ١٣٣٣ على العودة إلى أصبهان للمضايقات والفتن التي كان يصيبه طرف منها بسبب قيام الحرب العالمية الأولى، فخرج من العراق بصحبة الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي إلى «سلطان آباد» حيث بقي الشيخ الحائري بها وأمّ المترجم أصبهان، فوصلها في يوم الثلاثاء غرة شهر محرم سنة ١٣٣٤.

قوبل في أصبهان بحفاوة وإكبار وحصل له ما كان لأسلافه الأعلام من الزعامة الدينية والمكانة الروحية، وقام مقام والده في سائر الوظائف الشرعية، من الإمامة والتدريس ونشر الأحكام وتمهيد قواعد العلم.

وكان يقيم صلاة الجماعة في المسجد المعروف بـ«مسجد نو».

وفي سنة ١٣٤٤ ذهب إلى قم وبقي بها مدرساً نحو سنة واحدة ثم عاد إلى أصبهان.

نظرة في شعره

عالج في شعره أغراضاً إخوانية أكثر من غيرها، فقد مدح أناساً كان يكبرهم، وأكثر هؤلاء ذكراً في شعره وجوه علماء آل كاشف الغطاء وجماعة من معاريف شعراء عصره ممن كان له بهم صلات ودية ومساجلات شعرية. وربما هجا أناساً اصابته منهم آلام روحية، ولكن بأبيات قليلة ذات محتوى مقذع.

وبعد إخوانياته تأتي المعاني الأخرى التي طرقها في شعره في مقاطع قصيرة لا تتجاوز الأبيات.

فمن شعره قوله في شكوى الزمان:

ليلُ الشباب إذ غدا مُفارقي ... لاح صباح الشيب في مفارقي
لا أستعير الغصن للقدّ ولا ... أشبه الخدود بالشقائق
أصبو إلى الدنيا وأدري أنها ... معشوقة تمطل وعدَ العاشقِ
فلستُ بالذليل لما أدبرت ... ولا على إقبالها بالواثقِ
ما شمتُ برقاً قط إلا خائباً ... وما رأيتَ ضوءَ برقٍ صادق
فليقطعني معشري فإنني ... قطعتُ منهم قبلهم علائقي
ما القرب في الأنساب نافع إذا ... تباعد الأرحامَ في الخلائقِ
كم عارض منهم رجوت سيبه ... فلم أصب منه سوى الصواعق
لا غرو إن حرمته فإن ذا ... جزاء من يأمل غير الخالق
ليس ابن عمي مانع الرزق ولا ... عمي من دون الإله رازقي
أعضل داء قلة الحظّ فكم ... أعيا دواه كل طب حاذق
فكم ترى مقصّراً في حلبةٍ ... أوهمه الحظ بوهم السابق
يا نفس لي من الإباء شيمة ... فصاحبيني مرة أو فارقي
لا رجعت كفي إلي بعد ما ... لحاجةٍ مُدَّت إلى الخلائق
إني امرؤ لا اليسر يطغيني ولا ... العسر عن الجود تراه عائق
لي سيفٌ[1] عزم ما نبا قطّ ولا ... نجاره فارق يوماً عاتقي

وهو في مؤلفاته العلمية يجدّ في أن يعطي صورة واضحة عما يريد البحث عنه، فيبتعد سعياً وراء المعنى عن المحسنات الظاهرية للجمل والتعابير، تلك المحسنات التي توجب تعقيداً يكلف القارىء مزيداً من الجهد في فهم المقصود.

أما نثره في رسائله إلى إخوانه الأدباء، فهو على طريقة القدماء ملتزم بالسجع ومقيد بالصنائع البديعية واختيار المواد اللغوية المحتاجة في استكشاف معنى بعض موادها إلى الرجوع إلى معاجم اللغة والمصادر الأدبية.

وهذه الطريقة لا تخلو عن التعقيد في تركيب الجمل وطنطنة في الألفاظ، إلا أن أبا المجد لتمكنه من علم اللغة وطول دراسته لآدابها يظهر فيما يكتبه كأن الألفاظ جاءت طيعة لقلمه موضوعة في مواضعها اللائقة بها.

واليك فيما يلي قطعة من رسالة كتبها إلى صديقه الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء:

«يا من ذكرني حين نسيني بقية الأصحاب، وسلك معي طريق الوفاء مذ جفاني الأخوان والأتراب، كيف أطيق أن أؤدي شكر جميلك بلسان القلم، وأنت المعجز للعرب الفصحاء فكيف بالأعجم الأبكم، وقد وصلت القصيدة المزرية بعقود الجمان، فقلت: سبحان من خلقك وعلمك البيان. امتثلت أمرك برد الجواب مع علمي بأني لست من فرسان هذا الميدان، ولو أصبحتُ من نابغة بني ذبيان، ولكني رأيت امتثال أمرك من الفرض الواجب، فجئت بأبيات أرجو من فضلك العفو عن جميعها، فلولا اشتمالها على مدحك لقلت: كلها معايب. وكيف يبلغ حضيض الأرض ذرى كيوان، أم كيف يقابل بصغار الحصى غوالي الدر والمرجان.

مع معاصريه من الأدباء والشعراء

كانت له مكانته بين أدباء العراق عامة وشعراء النجف الأشرف خاصة، يحضر محافلهم الأدبية ويساجلهم نظماً ونثراً عندما تبتعد الديار ويفصل بينهم الزمان.

ولقد حفظت الدواوين الشعرية بعض القصائد والمقطوعات التي أنشدها الشعراء في الثناء على فضله وعلمه وخلقه.

من ذلك قول صديقه السيد جعفر الحلي من قصيدة:

إني اختبرت بني الورى فرأيتهم ... أن الوفاء بهم أقل قليل
وأرى بأجيال الزمان تنازلا ... وأشد منها في التنازل جيلي
لا عولت نفسي عليهم إنني ... بعد الإله على (الرضا) تعويلي
مولى يلوذ الخائفون بظله ... والآملون تفوز بالمأمول
خلق الإله يمينه مبسوطة ... للبطش والتنويل والتقبيل
يا من حمى دين النبي بفكرة ... تمضي مضاء الصارم المصقول
ما زلت تنطق بالصواب كأنما ... يوحي إليك لسان جبرائيل
شابهت أهليك الكرام بمجدهم ... والشبل أشبه في أسود الغيل
شيدت مجدهم وفزت بعزهم ... ضعفاً وهم كانوا أعز قبيل
بشرى (الغري) فإنها بك أصبحت ... وجنابها في المحل غير محيل
فكأنها مصر وأنت خصيبها ... ويداك تعرب عن مجاري النيل
- بيتك فهو كعبة أنعم ... تسعى العفاة له بكل سبيل

ومن قصيدة للسيد علي العلاق كتبها له مراسلاً:

يا مُهر لا تسأم فعند الـ ... ـصبح يحمد منه مسرى
ولسوف ترضى بالرضا ... ملكاً أعار العدل كسرى
ندب يرى حبس الندى ... فقراً وبذل المال وفرا
بحر يزجي السحب للنا ... ئي ويقري الوفد درا
وإذا تكلم خلته ... ليثاً بأجمته هزبرا
قد شاد بنيان المعا ... لي فاطمأن بها وقرا
نشرت فضائله فشعـ ... ـت في سماء المجد زهرا
وجرت أنامله فسحـ ... ـت في ثرى العافين تبرا
وشدت محامده فطبـ ... ـق نشرها الملوين عطرا

شيوخه في رواية الحديث
والمجازون منه

١- شيخ الشريعة الأصبهاني. ٢- السيد حسن الصدر الكاظمي. ٣- الميرزا حسين النوري. ٤- الشيخ محمد باقر البهاري الهمذاني. ٥- السيد محمد بن المهدي القزويني الحلي. ٦- السيد حسين بن المهدي القزويني الحلي.

وكتب إجازات مبسوطة لبعض المستجيزين منه آحال اليهافي بعض إجازاته المختصرة، وبلغت إجازاته للعلماء والأفاضل إلى أكثر من مائة إجازة حديثية، وقد أجاز بعض هؤلاء أيضاً بإجازات اجتهادية[1].

(١) السيد أحمد الحسيني.

السيد رضي الدين بن علي أكبر بن عبد الكريم بن أحمد بن نعمة الله الموسوي القزويني

من وجوه علماء قزوين النابهين، كان يهوى الكتب ويسعى في جمعها وقد تجمعت لديه مكتبة لا بأس بها رأيت بقاياها عند حفيده الخطيب السيد علي أصغر فحول القزويني بقزوين، ويظهر أنه كان يستخدم بعض من يستنسخ له ما أراد من الكتب ثم يقابلها ويصححها بنفسه توفي بعد شهر رمضان المبارك من سنة ١٢٧٧، إذ قابل في هذا الشهر بعض الكتب وأوقف ورثته مقداراً من كتبه بوصية من بعد وفاته في نفس السنة.

له «أصول الفقه» و«أنوار الهداية» و«الوظائف» فقه مبسوط جداً[2].

السيد رضي الدين بن يوسف السبزواري البيهقي

شيخ الحفاظ بمشهد الرضا (ع). تتلمذ عليه في القراءة الشيخ جعفر بن كمال الدين البحراني وذكره في أول أرجوزته «الكامل في الصناعة» مصرحاً بأنه يروي عنه كتاب «النشر» للجزري وهو يرويه عن والده الشيخ يوسف عن الشيخ شمس الدين محمد الشامي عن الشيخ عماد الدين القدسي عن الجزري صاحب النشر[3].

رفيع الدين الطباطبائي المشهور بالميرزا رفيعا النائيني

ولد سنة ٩٩٨هـ الموافقة للسنة الثالثة من سلطنة الشاه عباس الأول- ولد في زواره، وبعد عمر مبارك استمر ٨٥ عاماً فارق الحياة، ودفن في مدينة أصفهان.

يعد الميرزا رفيعا من مشاهير الفلاسفة، إضافة إلى كونه متبحراً في الحديث، وآية ذلك شروحه على أصول الكافي والصحيفة السجادية. والملفت للإنتباه أن بحوثه الكلامية والفلسفية تشتمل على مواضيع استند فيها إلى الروايات. وهو بذلك إنما يضفي على البحوث العقلية جمالاً وروعة بتطعيمها بكلام الأئمة (ع).

ومن الميزات الأخرى لهذا العالم، قدرته في التفسير وعلى الرغم من عدم وجود أثر مستقل له في التفسير، إلا أن التدقيق في بحوثه الكلامية والفلسفية تدلنا على استنتاجاته العميقة من آيات القرآن.

وقد عدّه أكثر أصحاب التراجم في عداد الفقهاء، وذكرت بعض المصادر أن له نظريات وآراء فقهية خاصة، وعلى سبيل المثال يرى الوجوب التخييري في صلاة الجمعة، ذكر ذلك الميرزا علي رضا التجلي في تعليقه على رسالة المحقق السبزواري،

(٢) السيد أحمد الحسيني.

(٣) السيد أحمد الحسيني.

حيث ذكره في عداد الفقهاء الذين يرون هذا الرأي.

من أساتذة الميرزا رفيعا الشيخ البهائي والمولى عبد آ الشوشتري ومير أبو القاسم الفندرسكي، ومن تلامذته العلامة المجلسي والشيخ الحر العاملي، وقد أثنى عليه هؤلاء.

مؤلفاته

١ـ الشجرة الإلهية: رسالة باللغة الفارسية تحتوي على بحوث عميقة كتبت بأسلوب عميق وصعب نسبياً في المسائل العقيدية الشيعية، ومن وجهة النظر الكلامية والفلسفية. ويلاحظ خلال البحوث الفلسفية والكلامية لهذا الكتاب بحوث في التفسير. ومن الميزات المهمة لهذه الرسالة اشتمالها على أسئلة وشبهات يمكن أن يطرحها العدو والصديق تليها أجوبة دقيقة وعميقة لهذه التساؤلات. كتبت هذه الرسالة باسم الشاه صفي (شاه سليمان الصفوي) وكان الفراغ منها في التاسع من ربيع الأول عام ١٠٤٧ هـ. وقد جاء في مقدمتها: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله أجمعين». وجاء في سبب تأليفها بقلم المؤلف: «... أما بعد، لما كان أعظم نعمة يختص بها الإنسان هي العلوم الدينية والمعارف اليقينية التي هي السبيل إلى نيل النجاة والفلاح في النشأتين وذلك بتعلمها وتعليمها، وتكون السبيل إلى الخسران العظيم والعقاب الأليم بتضييعها وكتمانها، من هنا كتب في ذلك العبد القليل البضاعة الكثير المعاصي محمد حيدر الملقب برفيع الدين الحسيني الطباطبائي، بأسلوب ينتفع به المبتدىء والمتقدم في الدراسة. وقد أسميت هذه الرسالة بالشجرة الإلهية، وجعلتها مشتملة على مقدمة وثمانية مواضيع».

تشتمل هذه الرسالة على مقدمة في فصلين، يليها بحث في إثبات واجب الوجود في بضعة أسطر، ثم بحث في سبعة فصول حول الصفات الثبوتية لله. الفصل الأول في علم الباري سبحانه والفصل الثاني في قدرته جل شأنه، والفصل الثالث في كونه تعالى حياً، والفصل الرابع في عظمته، والفصل الخامس في كونه ـ سبحانه ـ سميعاً وبصيراً، والفصل السادس في كونه متكلماً، والفصل السابع في كون واجب الوجود أزلياً أبدياً. ثم يأتي بعد ذلك البحث الثالث في سبعة فصول أيضاً، تدور حول الصفات السلبية لله. أما البحث الرابع فهو في عشرة فصول تبحث الأفعال وتوحيد الأفعال.

رأسي أبو القاسم رفيعي المهرآبادي، وهو من الفضلاء المعاصرين، نسختين خطيتين لهذه الرسالة، حُرِّرت إحداهما في عام ١٠٦٧هـ والأخرى في عام ١٠٧٣هـ. وثمة ثلاث نسخ لهذه الرسالة في مكتبة كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية في مشهد بالمواصفات التالية:

١ـ الشجرة الإلهية: تاريخ الانتهاء من التأليف التاسع من ربيع الآخر عام ١٠٤٧ وتلحق بها رسالة ثمرة الشجرة الإلهية، وكذلك رسالة باسم حدائق الصالحين تأليف الشيخ البهائي. حررت الرسالة الأولى والثانية بخط النستعليق في يوم الجمعة ٢٢ ذي الحجة عام ١٠٩٢هـ بقلم محمد معصوم بن علي رضا الحسيني.

٢ـ النسخة الثانية: محفوظة تحت رقم ٥٩ في مجموعة موجودة في المكتبة أولها رسالة الشجرة الإلهية للميرزا رفيعا.

٣ـ النسخة الثالثة: تشتمل على الشجرة الإلهية وثمرة الشجرة، وهي محفوظة في المكتبة تحت رقم ١٣٣٧.

وكذلك ثمة نسخة منها في المكتبة المركزية في جامعة طهران محفوظة تحت رقم ١٥٩ وهي وقف علي أصغر حكمت.

وقد انبرى السيد عبد الله النوراني وهو أحد الفضلاء المعاصرين لتصحيح النسخة المذكورة، وطبعت في نشرة (جاويدان خرد) وهي نشرة جمعية الفلسفة في إيران.

٢ـ ثمرة الشجرة الإلهية: وهي ملخص للشجرة الإلهية، وفي الواقع هي مكملة لبحوثها. وتبدأ بالعبارة التالية: بسم الله الرحمن الرحيم، هو المستعان، الحمد لله الذي بالإلهية لجميع ما سواه، المتفرد بالربوبية لقاطبة ما عداه...» وتنتهي بالعبارة التالية: «والسلام على خير البشر وخاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين. تحريراً في شهر ذي الحجة الحرام سنة سبعين وألف هجرية».

تبدأ الرسالة بتوضيحات الكاتب، ثم تليها المقدمة في بابين، ويأتي البحث الأول في ثمانية فصول، تدور حول التوحيد والصفات الجمالية لله، ثم يأتي البحث الثاني في أربعة فصول حول صفات الجلال الإلهية. والبحث الثالث في خمسة فصول حول الأفعال، ثم البحث الرابع في أربعة فصول حول بعثة الأنبياء والرسل، يليه البحث الخامس في ستة فصول عن الإمامة. وفي الخاتمة يتناول بحثاً عن المعاد الجسماني.

وكما ذكرنا فإن نسخة من هذه الرسالة محفوظة في مكتبة كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية في مشهد مع الشجرة الإلهية. وتوجد نسخة منها في مكتبة جامع گوهرشاد تحت رقم ٥٥٢ بالمواصفات التالية: قطع رقعي، خط النستعليق، محررة في عام ١٢٣٨ هـ.ق.

وثمة نسخة أخرى منها في المكتبة المركزية لجامعة طهران تحت رقم ٤٠٣٣ بخط النستعليق، محررة في عام ١٠٧٠ بالقطع الرحلي، وقد سقطت بداية هذه النسخة.

صحح هذه النسخة السيد عبد الله نوري، وطبعت في كتاب «عامري نامه» عام ١٣٥٣هـ.ش.

٣ـ شرح أصول الكافي: يوجد هذا الشرح الذي يبدو أنه لم يكتمل، في مكتبة مدرسة الشهيد المطهري في طهران، حيث تحفظ منه ثلاث نسخ تحت الأرقام التالية: ١٦٩٧، ١٦٩٨ و٣٣٨٠. وفي فهرست المكتبة الرضوية يوجد تعريف لنسخة خطية لهذا الشرح، جاء فيه: كتب الميرزا رفيعا شرحاً عربياً على الكافي أسماه «القوله». يحتوي على العديد من التحقيقات إلا أنه لم يكمله. حيث تنتهي نسخة المكتبة الرضوية بالحديث الشريف: «إنكم لا تكونون صالحين حتى تعرفوا» المذكور في باب «معرفة الإمام والرواية» ويظهر من ذلك أن المؤلف لم يكمل كتابه.

بداية الكتاب: «الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله الطاهرين قوله المحمود له نعمته المعبود لقدرته لما كان انعامه باعثاً لأن يحمد وشكراً لما وقع وحبساً لما يقع وقدرته على ما يشاء...» وينتهي الكتاب بالعبارة التالية: «وحيث قال يتقبل الله من المتقين».

توجد في مكتبة كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية في مشهد مجموعة تحت رقم ١٤٢٢ رابع كتاب فيها هو شرح الكافي للسيد الأمير رفيع الدين الطباطبائي. وجاء على ظهر الصفحة الأولى من هذه النسخة بقلم تلميذ الميرزا رفيع الأمير معصوم القزويني (المتوفى عام ١٠٩١هـ) ما يلي: «... وبعد فهذه تعليقات دقيقة وتدقيقات أنيقة متعلقة بإيضاح المقصود وتبيين المرام وإبداء الاحتمالات في الأحاديث المروية عن أهل بيت العصمة (ع) في نبذ من أصول الكافي...» ثم يتحدث عن شخصية المؤلف الذي كان هو تلميذاً له.

ويبدأ هذا الشرح أو الحاشية بما يلي: «بسملة قوله المحمود لنعمته المعبود لقدرته. لما كان إنعامه تعالى باعثاً لأن يحمد شكراً لما وقع. تبدأ هذه النسخة من الأول حتى شرح حديث (عرض ما بين صنعاء إلى ايله) من باب ما فرض الله عز وجل ورسوله من الكون مع الأئمة (ع) من كتاب الحجة في أصول الكافي ولم يكمل المؤلف هذه النسخة». مواصفاتها: خط النستعليق. اسم المدوّن مجهول ـ ١٩ سطر.

٤ـ حاشية الصحيفة السجادية: كتب العديد من علماء الشيعة حواشي وشروحاً على هذا الكتاب القيّم، من هؤلاء العلماء السيد نعمة الله الجزائري، والسيد علي خان الحسيني الشيرازي صاحب كتاب (سلافة العصر) وهو من المعاصرين لرفيعا. وكذلك الفقيه المحدث المعاصر للشاه عباس الأول بديع الزمان الهرندي القهبايي. ولم يتسن لي الإطلاع على النسخة الخطية لرسالة الميرزا رفيعا في هذا المجال، إلا أن أصحاب التراجم نسبوا له هذا الأثر القيم.

٥ـ شرح حديث حدوث الأسماء: وهي رسالة كتبها باللغة العربية، تبدأ بالعبارة التالية: «قال (ع) الله تعالى خلق أسماء بالحروف غير متصوف... [في أكثر النسخ] أسماء بلفظ الجميع وفي بعضها أسماء بالأفراد». وتنتهي بـ«ويستوي فيه صحة التعبير عنه بهاء، هذه من إفادات الميرزا رفيعا والسلام على من اتبع الهدى ولعنة الله على أعدائهم إلى يوم الدين» هذه النسخة محفوظة في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي تحت رقم ١١ بالمواصفات التالية: خط نسخ بدون اسم المحرر، ١٩ سطر كتبت العناوين بالخط الأحمر.

٦ـ حاشيته على شرح الإرشاد للمحقق الفقيه الملا أحمد بن أحمد بن محمد الأردبيلي (المقدس الأردبيلي).

٧ـ حاشيته على شرح إرشاد الأذهان للعلامة الحلي. وفي التعليق على هذا الكتاب يذكر الشيخ آقا بزرك الطهراني في كتاب الذريعة: من كتب الميرزا رفيعا شرح إرشاد الأذهان للعلامة الحلي، ويطلق عليه اسم الحاشية.

٨ـ حاشية على مختلف العلامة. ٩ـ حاشية على مدارك الأحكام، ١٠ـ حاشية على شرح العين لميرك البخاري، ١١ـ حاشية لشرح إشارات الخواجه نصر الدين الطوسي، ١٢ـ حاشية لشرح مختصر الأصول للحاجبي، ١٣ـ رسالة في أقسام التشكيك والحقيقة. ١٤ـ رسالة في شبهة الاستلزام. ١٥ـ أجوبة المسائل بشأن العبادات، كتبها باللغة الفارسية. ١٧ـ حاشية على قواعد العلامة الحلي[1].

رفيع الدين (محمد رفيع) بن علي أصغر التبريزي، نظام العلماء

مذكور في نقباء البشر ص ٧٨٧، ونقول:

أتم تأليف كتابه (الفوائد النظامية) في سنة ١٢٧٧ في قرية «أصغر آباد» وصرح في آخره أنه في تلك السنة قد مضى من عمره سبعة وعشرون عاماً. تكون ولادته في سنة ١٣٥٠.

له غير كتبه المذكورة في الذريعة «الفوائد النظامية»[2].

السيد مير رفيع بن السيد مير علي بن السيد مير عبد الباقي بن السيد مير محمد صالح بن السيد مير محمد زمان الطالقاني الأصل القزويني المولد والمنشأ

ولد في قزوين حدود سنة ١٢٠٠ وتوفي بها سنة ١٢٧٢ حكيم متأله وطبيب حاذق وأصولي محقق وفقيه متبحر أخذ المقدمات وفنون الأدب على أفاضل رجال أسرته ثم أكمل السطوح على علماء قزوين ومنها هاجر إلى أصفهان وأخذ الحكمة والفلسفة

(١) غلام رضا كلي زواره.

(٢) السيد أحمد الحسيني.

عن الآخوند ملا علي النوري المتوفى سنة ١٢٤٦ ثم توجه إلى العراق قاصداً الحوزة العلمية الكبرى فحضر في النجف الأشرف على الشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء المتوفى سنة ١٢٢٨ وبعد مدة استقر في كربلاء وتخرج في الفقه والأصول على السيد علي الطباطبائي صاحب الرياض المتوفى سنة ١٢٣١ ونجله السيد محمد المجاهد المتوفى سنة ١٢٤٢ وأجيز من مشايخه فرجع إلى موطنه قزوين واشتهر في الطب وكان من أكابر الأطباء الحاذقين وشغل كرسي التدريس للعلوم العقلية والفلسفة العالية لا سيما الطب في المدرسة الصالحية وهو أبو الأسرة آل الرفيعي التي هي من مشاهير الأسر العلمية القزوينية التي بزغ بدرها في أفق قزوين في أواخر القرن الحادي عشر ومطلع القرن الثاني عشر للهجرة فإن جدها الأعلى محمد زمان الطالقاني القزويني المتوفى سنة ١١١٠ الآتي ذكره من علماء عصره في قزوين وكان أول من نزح من طالقان وسكن قزوين واشتهر هذا البيت باسم المترجم له الذي أصبح اسمه عنوان هذه الأسرة وخلف خمسة أولاد كلهم من العلماء وهم ١ـ السيد مير هبة الله المتوفي سنة ١٣٢٠ صهر الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري على بنته العالمة الفاضلة ربابة[1] ٢ـ السيد مير عبد الباقي. ٣ـ السيد مير إبراهيم المعروف بالسيد خليل المتوفى سنة ١٣٣٩ والد السيد أبو الحسن الرفيعي القزويني المتوفى سنة ١٣٩٦[2] ٤ـ السيد مير شفيع المتوفى سنة ١٣٢٥ ٥ـ السيد مير يحيى.

ترك المترجم له بعض الرسائل الفلسفية والعرفانية والطبية كلها موجودة في مكتبة المحامي السيد حسين نجل السيد مير هبة الله الرفيعي القزويني سبط الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري في طهران[3].

الدكتور رمّال بن حسن رمّال

ولد في بلدة الدوير (جبل عامل) سنة ١٩٥٢ م وتوفي سنة ١٩٩١ في مدينة غرونوبل بفرنسا ونقل جثمانه إلى بلدته الدوير فدفن فيها.

ظهر نبوغه في مادتي الرياضيات والفيزياء منذ بداية دراسته. وعندما تقدم لنيل شهادة البكالوريا ـ القسم الثاني فرع الرياضيات عام ١٩٦٩ في حيث كان تلميذاً في ثانوية البر والإحسان الرسمية جاء ترتيبه الأول في لبنان في علامة الرياضيات عندها وفرت له «الجمعية الخيرية الشيعية للتوجه والتخصص العلمي» منحة لإكمال دروسه في فرنسا.

ونظراً إلى تفوقه نال منحة من الجامعة الفرنسية وكان يتنافس على النجاح مع حفيد العالم أنشتاين. وعام ١٩٧٧. نال رمال شهادة الدكتوراه الحلقة الثالثة في الفيزياء الإحصائية ثم شهادة دكتوراة دولة عام ١٩٧٩، مما أهله لشغل منصب أستاذ في جامعة غرونوبل الفرنسية ثم بدأ يعمل باحثاً في أهم مؤسسة للأبحاث في فرنسا هي «المركز الوطني للأبحاث العلمية».

وعام ١٩٨٨ عين مديراً لمختبر فيزياء الإحصاء في المركز إثر تقليده وساماً علمياً رفيعاً هو الميدالية الفضية للأبحاث العلمية تقديراً لأبحاثه التي جعلت منه عالماً على المستوى الدولي

شارك رمال في الكثير من المؤتمرات العلمية في ألمانية وبلجيكا وأميركا. وفي الفترة الأخيرة كانت أبحاثه تتمحور على الطاقة المزدوجة وحصر أشعة الشمس الممغنطة في بؤرة ضيقة. وقبل ثلاثة أيام من وفاته كان لوزير البحث العلمي الفرنسي لقاء معه بهدف وضع برامج مستقبلية للأبحاث التي سيقوم بها.

وأعطت الصحافة الفرنسية والإعلام الفرنسي الدكتور رمال حقه وكانت وفية لما حققه ويحققه.

وفي عام ١٩٨٤ كانت تتحدث عنه كأصغر باحث علمي في العالم. واعتبرت مجلة «الوبوان» الفرنسية أنه بعد سنوات سيحكم فرنسا مع عشرين آخرين هو على رأسهم.

ناقش رمال أطروحته في الفيزياء النووية والرياضيات أمام ١٦ عالماً فرنسياً أثار دهشتهم مما دفع رئيس الوزراء الفرنسي آنذاك جاك شيراك إلى الاجتماع معه.

ورأس العالم اللبناني البعثات العلمية الفرنسية إلى الخارج. واعتمدت نظريته في التدريس في الجامعات الفرنسية. وترك أبحاثاً مهمة في علوم تخزين الكهرباء ودرجة الحرارة المنخفضة والمغناطيس.

ورثته جريدة الحياة قائلة:

العالم اللبناني رمال الذي اختارته المجلة الفرنسية النافذة «الوبوان» أخيراً من بين ١٠٠ شخصية بوصفها رجالات العام ٢٠٠٠، قضى نحبه بعد ظهر الجمعة الفائت في مدينة غرونوبل بسكتة قلبية مفاجئة، في المختبر العلمي التابع لـ«مركز الأبحاث الخاص بالحرارات المنخفضة». وتأخر نشر خبر الوفاة، بتوافق بين أخوي الراحل المقيمين في فرنسا وإدارة المركز، لترتيب المعاملات، ومن بينها تكريم الفقيد في فرنسا ونقل جثمانه تالياً إلى لبنان.

وقال الدكتور بيار مونسو، مدير المركز، إن المركز سينظم بالتعاون مع هيئات علمية وجامعية فرنسية عدة غداً في صالة «بوليفوتا» في مدينة غرونوبل احتفالاً علنياً بكرم فيه الفقيد ويعدد خصاله مثل مجهوداته العلمية. وسينقل جثمانه الأحد المقبل إلى

(١) انظر مستدركات أعيان الشيعة ج ٤ ص ١٠٤ ـ ١٠٥.
(٢) انظر مستدركات أعيان الشيعة ج ٣ ص ٧.
(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

لبنان لدفنه في مقبرة العائلة في الدوير (جبل عامل)

«الخسارة كبيرة» يؤكد الدكتور مونسو، خصوصاً أن الفقيد لم يكمل بعد عامه الأربعين «خطفه الموت وهو في ذروة نشاطه العلمي». أراد الدكتور مونسو من ذلك الإشارة إلى البحوث العلمية الكثيرة التي نشرها الراحل في المجلات العلمية المتخصصة في السنوات الأخيرة، وإلى الميدالية الفضية التي خصه بها «المركز الوطني للبحوث العلمية» (وهو أرفع مؤسسة علمية فرنسية في ١٩٨٨ وإلى الشهرة المبكرة التي عرفها، خصوصاً أن المجلة العلمية «علوم البحث» وصفته في ١٩٨٤ كـ«أصغر باحث في العالم».

من هو هذا العالم الكبير الذي مات فتياً؟

ذاع صيته منذ عام ١٩٦٩ حين حل في المرتبة الأولى في امتحانات البكالوريا ـ قسم الرياضيات في لبنان. نجح في الحصول على منحة علمية من الجمعية الإسلامية الشيعية للتخصيص والتوجيه العلمي»، والتحق بجامعة غرونويل لدرس الفيزياء وفي ١٩٧٧ حصل على شهادة الدكتوراه (حلقة ثالثة) في الفيزياء الإحصائية، وفي ١٩٨١ على دكتراه الدولة في التخصص العلمي نفسه. وكان عين في ١٩٧٩ أستاذاً في جامعة غرونويل، ومديراً في المختبر العلمي الذي تابع فيه بحوثه حتى وفاته.

وتوصل العالم رمال إلى وضع نظرية جديدة على تخزين الكهرباء وإنتاج قوة مغناطيسية فائقة القوة. تقوم نظريته على تعطيل أية مقاومة كهربائية في الأجسام بحيث تزيد بالتالي طاقتها زيادة مذهلة، كما تمكنه من تخزين الطاقة أو من إنتاج مغنطيسات شديدة القوة. إلا أن نشاط رمال في مجال نقل الحرارة وتمديدها لم يمنعه أبداً من إجراء بحوث اختبارية في مجال الحرارة المنخفضة كذلك ويعتبر من أهم الاختصاصيين العالميين في علم التكاثف الكهربائي، أي تجميع الأشعة في مساحة ضيقة.

عُرف عنه انصرافه الشديد إلى العمل والبحث، حتى أن الكثير من معارفه في غرونوبل، ومن اللبنانيين، لم يكن يتوصل إلى لقائه إلا مصادفة، وفي أوقات متباعدة.

ونشر فيما يلي، نص المقدمة التي كتبها الأساتذة J.C. Anglès d'auriac, B. Douçot, j. M. Caillard.

للمجلد الثالث العدد الثاني/ شباط ١٩٩٣ لمجلة Journal physique الفرنسية، المتخصصة والتي تصدرها الجمعية الفيزيائية الفرنسية، بدعم وزارة البحث والفضاء (DIST)، والمركز الوطني للحبث العلمي (C.N.R.S). وقد خُصص هذا العدد تكريماً لذكرى رمّال رمّال.

ولد رمّال رمّال في لبنان عام ١٩٥٢. أتمّ دراسته الثانوية في بيروت عام ١٩٦٩ حيث حاز بتفوق على شهادة البكالوريا الرسمية، القسم الثاني، فرع الرياضيات في أيلول من العام نفسه، فتوجّه إلى غرونبل (Grenoble) جنوب فرنسا حيث التحق بالجامعة العلمية والطبية لغرونوبل (Université Scientifique et Médicale de Grenoble USMG).

في العام ١٩٧٣ أنهى بتفوق شهادة الجدارة في الرياضيات البحتة، وفي العام ١٩٧٤ أنهى شهادتي الجدارة في الرياضيات التطبيقية والفيزياء من الجامعة نفسها.

بعد ذلك، اختار رمّال التخصص في الفيزياء، دون أن ينسى أبداً ميلاً جامحاً للرياضيات. وجاءت أطروحته للدكتوراه (الحلقة الثالثة) في العام ١٩٧٧ «بعض مسائل الاسترخاء في الزجاج» «Quelques problèmes de relaxation dans les verrs» لترسم بداية مهنته كفيزيائي. ويُعتبر عمله هذا مدخلاً ومقاربة فيزيائية للمشاكل التجريبية. وحتى في أعماله الأكثر تصورية، أظهر رمّال أهلية وبراعة تربط الأعمال التصورية بالتجربة.

وتتجلى قدراته على العمل وثقافته العملية في أطروحة الدكتوراه دولة «Mécamique statistique des verres de spins: frustration et méthodes numériques» «الميكانيكا الإحصائية لزجاج السبن: إحباط وطرق عديدة».

ما إنْ أنهى شهادة الدبلوم في الدراسات العليا في مادة الديناميكا الحرارية (Thermodynamique) حتى بدأ رمّال التدريس في جامعة غرونوبل USBG بصفة أستاذ مساعد ومشارك، ثم عمل باحثاً فأستاذ أبحاث في المركز الوطني للحبوث العلمية CNRS وفي مركز الأبحاث في درجات الحرارة المتدنية جداً CRTBT في غرونوبل Centre de recherches sur les très basses températures, (Grenoble) كما شغل منصب مكلّف بالأبحاث في معهد المعلمين العالي (ENS Ecole Normale Supérieure).

وأمضى حوالي السنتين زائراً في جامعات أميركا وكندا.

ومنذ العام ١٩٨٨، وحتى وفاته، شغل منصب مدير الأبحاث في CRTBT غرونوبل، وأعطى دروساً ومحاضرات في غرونوبل وخارجها، منها:

- مدرسة المغناطيسية في هوش ـ فرنسا ـ Lécole de Magnétisme de Houchs.

- جامعة جيلو (Geilo) النروج (Norvège).

- جامعة شربروك Sherbrook كندا ـ جامعة بنسلفانيا (الولايات المتحدة الأميركية).

وشارك في تحضير وتنظيم عدة مؤتمرات علمية، كما وضع

ما يقارب المئة عمل بين تقرير ومقال حول فيزياء المادة المكثفة. وقد توّج المركز الوطني للبحوث العلمية - غرونوبل - جهوده وأبحاثه بميداليتين: برونزية (١٩٨٤)، وفضية (١٩٨٨).

وكم من مرّة وجده زملاءه، عند الصباح الباكر، مفترشاً الأرض، نائماً بضع ساعات بعد ليلة أمضاها في كتابة أطروحته، بعناية وإتقان فائقين. وتطورت فاعليته كباحث تطوراً في غاية التنوع والقدرة، وقد أوجز ذلك بنفسه حين كتب قائلاً:

«منذ بداية مهتني كفيزيائي، كرّست نفسي لأعمال نظرية، يتعلق بعض منها بنشاطات تجريبية لمركز الأبحاث في درجة حرارة متدنية جداً CRTBT من النماذج الظاهراتية (Phénoménologiques) إلى النماذج المجرّدة (Abstraites)، ثلاثة مواضيع رئيسية نوجز معظم أعمالي: نُظم مشوشة Systèmes, désordonnés، ونماذج ملائمة (تقطير percolation، تمركز Localisation، إحباط frustration، . . .)، نماذج قابلة للتكامل (modèles intégrables) ومسائل معقّدة في الميكانيكا الإحصائية، ومنذ فترة وجيزة: النُظم المترابطة بقوة (systèmes fortement correlés) والتشوش الكمي (les chaos qantique). هذه المواضيع تتقاطع مع المجالات الكبرى التقليدية في فيزياء المادة المكثفة والفيزياء النظرية، وهكذا، تطرقت إلى مسائل عن المغناطيسية وعن خصائص الموصلات الفوقية supraconductivité أي ظاهرة بعض المعادن التي تنعدم فيها المقاومة الكهربائية حين تبلغ درجة معيّنة من الحرارة)، وكذلك عن الفيزياء المجهرية (microphysique) وعن التحول من حالة إلى أخرى (transition de phase).

، كما يجب التخصيص بالذّكر دراسة البنيات غير المنظمة (structures fractales) حيث عُرضت عدة مسائل فيزيائية، وكذلك شبكات الموصلات الفوقية réseaux de supraconducteurs) والشبكات الطبيعية، réseaux normaux)، وأيضاً المسائل المعقّدة والقياس المتناهي الدقة والـ(ultramétricité) الذين شكلوا الجانب الأكثر ابتكاراً من عملي.

وقد استعملت تقنيات متنوعة، فرضتها طبيعة المسائل المعروضة: تقنيات مبعثرة (techniques perturbatives)، تقنيات تحليلية ومجموعات عديدة.

عاملاً في مختبر ذي اهتمامات تجريبية، استطعت التفاعل مع باحثين مختبرين متعددين من مركز الأبحاث على درجة حرارة متدنية جداً CRTBT حول مواضيع متنوعة. وفي هذا الإطار، استطعت تكوين فريق صغير من منظّرين شباب، سرعان ما أصبح جذاباً، معروفاً ومزوّداً بوسائل حساب خاصة». . .

أبحاثه عن زجاج «السبن» تظهر أساليبه ومقارباته. فقد كان صاحب تطويرات شكلية وتصورية متعددة (développements formels et conceptuels) بالوقت نفسه، مع باحثين مختبرين، برنامج قياس يعتمد على الأثر المغنطيسي - الحرغري (effet magnéto-calorique). وفي العام ١٩٧٦ بدأ أبحاثه حول الخصائص غير العادية (الشاذة) للزجاج: التحوّل الشبزجاجي (transition vetreuse) وخصائص الزجاج في درجات حرارة متدنية (≥ 1k درجة كلفن)، وبرهن أن هذه الخصائص غير العادية تعكس مسألة حركية (cinétique)، ووضع نموذجاً ظاهراتياً سمح بتفسير الخصائص الملاحظة التي تعود إلى ارتخاء في الحجم، إلى enthapie، وخاصة إلى قياس الحرارة النوعية، وفيما بعد، كثر استعمال هذا النموذج في تحليل الآثار الدينامية في زجاج السبن.

وفي أبحاثه عن خصائص الزجاج على درجة حرارة متدنية، تطرق رمّال إلى عدة مواضيع، منها: انتقال الحرارة ومشكلة الانتشار الطبقي diffusion sectrale. وأثمرت أبحاثه عن خصائص جديدة للزجاج.

ويجب ذكر دراسته حول أصفار لي ويانغ Lee et Yan لدالة التقسيم (fonction de parition) لنماذج من الميكانيكا الإحصائية، وكذلك للصُوّرية العددية الأولى (premières simulation numériques) التي كان الرائد في تحقيقها.

وقد تطرق إلى تصور القياس المتناهي الدقّة، وعرّفه أنه «تحديد كمية quantifier البنيات المتدرّجة، عبر مفهوم المسافة بين نقطتين». وهذا التصور معروف منذ القدم في الرياضيات، لكن ظهوره في الفيزياء يعود إلى حل باريزي (parisi) لنموذج الحقل الوسط (SK) لزجاج السبن. وكان رمّال بين الأوائل في معرفة أهمية هذا التصوُّر في نظرية زجاج السبن، ومسائل معقدة أخرى. وكانت مشاركته فعليّة وفعّالة في تحليل الخصائص الديناميكية، في البنيات الدقيقة القياس.

وجاءت دراسة البنيات المتناهية الصغر (جزء من بليون) الاصطناعية (شبكات موصلات فوقية، وشبكات طبيعية) امتداداً طبيعياً لعمله على الأجسام ذات الأشكال غير المنتظمة (fractals)، وقد خصّص وقتاً وجهداً كبيرين في دراسة التداخل الكمي (interférences quntiques) في تلك البنيات، حيث يتنسق بشكل مذهل أثر الفوضى (désordre)، والإحباط (frustration) الناجم عن الحقل المغناطيسي. وتقديراً لهذه الأبحاث، قلّده المركز التربوي للبحوث العلمية CNRS غرونوبل ميدالية فضية في العام ١٩٨٨.

بالإضافة إلى الأبحاث التي كان يجريها في تلك الفترة، اهتم

أيضاً بشكل خاص بالنماذج الكاملة للذوبان (Les modèles exectement solubles). كما درس مثل نموذج Potts وأظهر أهمية لأرقام Tutte-Baraha. وإعجابه الدائم بظهور الأرقام الجذرية (rationnels) أدى به إلى استخلاص معنى تكميم (quntification)، مواصلة (cnductance)، هول (Hall)، يربطها بحالات معيّنة في الهندسة الطبيعية للتجارب.

واهتم اهتماماً بالغاً بمشاكل الموصلات الفوقية، على درجة حرارة مرتفعة، واقتنع بضرورة إعادة النظر بمجموعة المفاهيم الأساسية في فيزياء الصلب (Physique du solide)، المرتبطة بنظريات مبعثرة (Perturbatives)، ضعيفة التجميع.

وكان يشعر دائماً بضرورة تطوير نظريات الفرميون، ذي التفاعل القوي على الشبكة fermions en forte interaction sur réseau. وهذا يظهر جلياً في عنوان المدرسة الصيفية التي كان مكلّفاً بإعدادها في هوش ـ فرنسا ـ والذي أطلق عليه اسم «Fermions en forte interaction sur réseau».

وكان يعتقد أن تقاطع مستويات الطاقة في نماذج هوبار (Hubbard) يمكن أن تكون السبب في فشل وصف المسائل عن طريق مسائل فرمي (Fermi). وفي هذا المجال، فرضت دراسة التشوش الكمي نفسها، مما دعاه إلى تحديد برنامج عمل يقضي، من ناحية، بدراسة وسائل تكميم تتناول أفكاراً هندسية غير تبادلية (non-commutative)، ومن ناحية ثانية، بإجراء دراسات عددية مفصّلة حول الخصائص الطيفية لنماذج Hubbard ذات القياس المحدود. وقد بذل أقصى جهوده لتأمين وسائل القياس الضرورية لمشروع بحثه الذي ـ كما كتب قبل وفاته ـ تتفرع منه مواضيع عديدة ومهمّة، ينوي التعمق في دراستها.

إنّ رؤيته الواسعة للفيزياء تترافق مع إرادة أكيدة بالالتزام الحسيّ. بصفته مستشاراً في المختبر الذي يعمل فيه، لم يقتنع رمّال بفكرة إدارة المختبر بشكل عادي ومحصور، بل كان يريد تفعيل وتنفيذ مشاريع سياسة علمية. وما لم يستطع تحقيقه على صعيد مختبره، باشره مع فريق المنظّرين، الذي أسسه، والذي كرس له نفسه جسداً وروحاً.

حياة رمّال تشرّف مهنة الباحث التي تتطلب جمع الصفات الفكرية مع إرادة وقوة شخصية. فالبحث لا يكون بالمؤسسات، بل بالكائنات الإنسانية. وفقدان رمّال يعتبر فقدان كائن مميّز، باعتراف من زملائه، والذين عملوا معه، وواكبوه في حياته وأعماله

روح الأمين بن محمد (شمس الدين) بن رضا الحسيني المختاري النائيني

مترجم في رياض العلماء ٣١٧/٢ وأعيان الشيعة ٣٧/٧ ونقول:

عالم فاضل ذو اطلاع واسع بالفلسفة والكلام، من أعلام أواخر القرن الحادي عشر والنصف الأولى من القرن الثاني عشر. له «تحفة سليماني»[١].

السيد ريحان الله بن جعفر الموسوي الدارابي البروجردي المعروف بالكشفي

مذكور في نقباء البشر ص ٧٩٠، ونقول:

كان في النجف الأشرف بتاريخ الثاني عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٢٨٩ كما جاء ذلك ضمن مسودات كتابه «فاكهة الفقهاء»، ومن أساتذته فيها الشيخ مرتضى الأنصاري، وقد تخرج عليه جماعة من عيون الفضلاء وشيوخ العلم كالسيد حسين الكوهكمري والميرزا حبيب الله الرشتي والميرزا محمد حسن الشيرازي وأضرابهم. من مؤلفاته غير المذكورة في الذريعة «البصائر» و«تشخيص المصاديق»[٢].

زين العابدين بن علي الهمذاني

فاضل من أعلام القرن الثالث عشر: حسن الخط في النستعليق، جيد الذوق في النقش والتذهيب، كتب نسخة من كتاب «تاريخ وصاف» في همذان في شهر شعبان سنة ١٢٤٥ بأمر من الأمير محمد مهدي ملك الكتاب، وكتب في آخره مقطوعة نثرية في عدة أسطر تدل على فضله وتمكنه من الإنشاء والأدب الفارسي[٣].

السيد زين العابدين بن محمد باقر الحسيني

عالم فاضل، من أعلام أوائل القرن الحادي عشر، استكتب نسخة من كتاب «إرشاد الأذهان» للعلامة الحلي في هراة، فكتبت له كما جاء بخطه في آخرها بتاريخ شوال سنة ١٠٠٨[٤].

السيد زين العابدين بن محمد تقي الحسيني الأصبهاني

قابل وصحح نسخة من كتاب «الاستبصار» على نسخة العلامة محمد باقر المجلسي ووالده المولى محمد تقي المجلسي، وأتم المقابلة ونقل الحواشي بأصبهان في شهر محرم سنة ١١٣٢، وصرح في آخرها بتتلمذه لدى المجلسي الثاني فقال: «شيخنا ومقتدانا وأستاذنا ومن به أستنادنا...»[٥].

الشيخ زين العابدين بن مسلم البارفروشي المازندراني

مترجم في نقباء البشر ص ٨٠٥، ونقول:

كان تحصيله في «بارفروش» من توابع مازندران، وهاجر إلى العتبات مع أستاذه سعيد العلماء في سنة ١٢٥٠[٦]، وقرأ في كربلاء على السيد ابراهيم الطباطبائي صاحب «الضوابط» الفقه والأصول وفي

---

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.

النجف الأشرف على الشيخ محمد حسن صاحب «الجواهر» الفقه. ذكر ما هذا مختصره في أول رسالته العملية الفارسية[١].

زين الدين بن محسن

قرأ نسخة من «حاشية الألفية» للشهيد الثاني، فكتب تقريظاً لها بعبارات رائعة تدل على فضله وتقدمه في الأدب والعلم، ولعله من أعلام القرن الثاني عشر أو الثالث عشر[٢].

زين العابدين البافقي

كان من العلماء الساكنين في يزد، اختار بعض الحواشي على كتاب «الكافي» دالة على فضل فيه واطلاع بعلوم الحديث، أول هذه التعاليق كتبت في يزد سنة ١٢١٧[٣].

زينة بنت الشيخ آغا محمد إمام الجمعة ابن الشهيد الثالث النجفية المولد البرغانية الأصل القزوينية المسكن.

ولدت في النجف الأشرف حدود سنة ١٢٥٣ وتوفيت بقزوين سنة ١٣٣٣.

عالمة فاضلة فقيهة متكلمة حافظة للقرآن الكريم وعالمة بتفسيره أخذت المقدمات والعلوم الأولية وفنون الأدب على أمها قرة العين وتفقهت على أبيها المتوفى سنة ١٢٩٦ وجدها الأمي الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ ثم لازمت أمها في السفر والحضر وأخذت عنها الكثير ولا سيما العلوم العقلية وعندما بلغت سن الرشد زفوها إلى أحد أعيان أسرة آل أفشار من الأسر المعروفة في قزوين ولم يحضرني اسم زوجها ورزقت منه أولاداً ذكوراً وإناثاً.

وهي من فواضل نساء عصرها تتصف بالعقل الراجح والتدبير والدين والصلاح شغلت كرسي التدريس والفتوى والإمامة في جناح خاص بالنساء في المدرسة الصالحية بقزوين وكانت ترتقي المنبر ولها مقدرة على الخطابة والوعظ وكانت كثيرة الزهد والورع والتقوى وقد رافقت أمها عندما سجنت في دار (كلانتر) في طهران وعاشت معها إلى آخر لحظات حياتها وكانت تؤكد أن أمها قتلت على مذهب الشيعة وأن التلفيقات التي نسجها أعداؤها والبلاط الإيراني وما كانوا يتقولون به عليها ويلصقون بها التهم ليس له نصيب من الصحة بل أرادوا من أقاويلهم هذه اتخاذها وسيلة لقتلها وإن أمها كانت ضحية جهل بعض البلهاء وضحية أعدائها وإن أخوة المترجمة الشيخ ابراهيم والشيخ اسماعيل والشيخ إسحاق كانوا كلهم من علمائنا الأعلام وفقهائنا المتبحرين[٤].

وقد عاصرها والدي العلامة الورع وذكرها في كتابه الغرر والدرر، كما ترجم لها أكثر المؤرخين والمستشرقين في ترجمة أمها قرة العين دون أن يتطرقوا إلى حياتها[٥].

تركت بعض المؤلفات والرسائل والحواشي على الكتب الفلسفية والكلامية والرسائل الفقهية منها رسالة في الحيض، ورسالة في الحج وغيرهما[٦].

السيد سعيد بن علي بن سعيد بن الحسين الحسيني التكابني

كتب نسخة من «عدة الأصول» للشيخ الطوسي وقابلها وصححها في سنتي ١٣١١ـ ١٣١٢، ويبدو منها كمال فضله ودقته العلمية[٧].

السيد سلطان بن حسن بن سلطان الحسيني العلوي الشجري القمي النجفي

مذكور في الضياء اللامع ص ٦٢، ونقول:

فقيه من أعلام القرن التاسع، كتب عدة كتب فقهية وغيرها غير التحرير المذكور في الضياء، ومنها كتاب «قواعد الأحكام» للعلامة الحلي الذي أتمه في منتصف ربيع الثاني سنة ٨٢١، وقرأ الكتاب على زين الدين علي بن الحسين الأسترآبادي فأجازه فيه في سنة ٨٢٣.

وكتب أيضاً نسخة من «جوامع الجامع» للطبرسي، ثم قرأه على السيد جعفر بن أحمد ملحوس الحلي فكتب في آخره إنهاء في يوم الخميس ٢١ جمادى الآخرة سنة ٨٣٨[٨].

سلطان محمد البيار جندي

أديب شاعر بالفارسية فاضل، ولعله من شعراء القرن الحادي عشر ومن سكنة مشهد الرضا (ع)[٩].

سلطان خانم بنت الشيخ محمد حسن بن الشيخ محمد صالح البرغاني القزويني الحائري

توفيت حدود سنة ١٣٣٦

عالمة فقيهة محدثة حكيمة بصيرة بالكلام حافظة للقرآن الكريم وعالمة بتفسيره وتأويله أخذت المقدمات وفنون الأدب على أبيها وسائر رجال أسرتها وكانت تمتاز منذ الصغر بذكاء مفرط ونبوغ مبكر، تفقهت على أخيها مدرس الطف الشيخ الميرزا علي تقي الحائري آل الصالحي وحضرت في الحكمة والفلسفة العالية على أخيها الأكبر الشيخ الميرزا العلامه الحائري ولما بلغت سن الرشد زفوها إلى السيد الميرزا شفيع شيخ الإسلام العاملي الأصل

---

(١) كان سعيد العلماء مقيماً بكربلاء قبل هذا التاريخ، فلعله كان ذهب إلى مازندران في هذه السنة وعاد ومعه تلميذه المازندراني.

(٢) السيد أحمد الحسيني.

(٣) السيد أحمد الحسيني.

(٤) انظر أعيان الشيعة ج ٣ ص ٤٠٢ ومستدركات أعيان الشيعة ج ٢ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٥) انظر أعلام النساء عمر رضا كحاله ج ٤ ص ١٩٣ الطبعة الثالثة بيروت مؤسسة الرسالة عام ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

(٦) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٧) السيد أحمد الحسيني.

(٨) السيد أحمد الحسيني.

(٩) السيد أحمد الحسيني.

القزويني المولد والمنشأ[١]. ورزقت منه السيد حسين والسيد حسن والسيد مرتضى والسيد بهاء الدين، كلهم من أفاضل العلماء في قزوين وخاصة السيد مرتضى الذين انتهى إليه كرسي الفتوى والتدريس في المدرسة الصالحية بقزوين وهو سبط الشيخ محمد صالح البرغاني القزويني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ تصدرت للتدريس في المدرسة الصالحية وكان يحضر درسها جمع من أفاضل نساء قزوين وكانت ترتقي المنبر وتملك صوتاً جهورياً ومقدرة كبرى على الوعظ والخطابة والبيان[٢].

سلطان محمود بن غلام علي الطبسي

مترجم في «رياض العلماء» ٢٥/٤٥٦ و٥/٢٠٣، وفي «الروضة النضرة المخطوط، ونقول:

كان له اهتمام بكتب الأدب والعلوم الإسلامية، فلخص طائفة منها في كتيبات صغيرة كتب نسخة من كتاب الاستبصار في سنة ١٠٦٧، ثم قابلها وأتم المقابلة في الثاني والعشرين من شهر محرم سنة ١٠٨٤، وعليها تعاليق جيدة منه.

كتب اسمه في بعض الأمكنة «سلطان محمود» وفي بعضها «محمود». له «مختصر شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد، و«مختصر الاشباه والنظائر النحوية» للسيوطي و«مختصر الأذكار بالمسائل الفقهية»[٣].

الشيخ سليمان بن أبي القاسم الكاشاني

من علماء كاشان في أوائل القرن الرابع، متبحر في مختلف العلوم والفنون له يد طولى في التفسير والحديث.

دفن في مقبرة شيحان من مدينة كاشان.

له «تفسير القرآن الكريم»[٤].

السيد سليمان بن داود بن حيدر بن أحمد بن محمود الحسيني الحلي

مذكور في «الكرام البررة» ص ٦٠٧، ونقول:

أديب محدث طبيب، رأى عنده الميرزا محمد بن عبد النبي النيسابوري في الحلة منتصف جمادى الأولى سنة ١٢٠٤ كتاب «المنثور والمنظوم» ووصفه بما ذكرناه[٥].

سليمان بن محمد الجيلاني التنكابني

فاضل متتبع ذو إطلاع وخبرة بالعلوم الإسلامية العقلية منها والنقلية وأديب له شعر بالعربية والفارسية، من أعلام أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر.

أصله من جيلان وسكن أصبهان للدراسة والتحصيل، وكتب بعض في تقريض رسالته في «العلم» ما نصه: «العارف العالم القدوسي مظهر العلم والعرفان المصدق للطف الملك المنان المولى المعظم المفخر فريد العصر والزمان والوحيد في الدوران مولانا سليمان...»

له «شرح الصحيفة السجادية» و«الحركة والسكون والزمان» و«منظومة في العوامل» و«آداب المؤمنين وأخلاقهم» أتمه في أواخر ذي الحجة سنة ١٠٩٨، و«التوحيد» و«العلم» و«الرحمة» و«المعاد»[٦].

الأمير شاهرخ ابن الأمير تيمور الگورگاني المعروف بتيمورنك

مرت ترجمته في المجلد التاسع من (الأعيان) ونضيف إلى ترجمته ما يلي، مكتوباً بقلم محمد آصف فكرت:

نتعرض في هذا المقال باختصار لذكر حادثة تاريخية مهمة جرت في القرن التاسع الهجري، وهي كساء الكعبة على يد الخراسانيين..

وفي الحقيقة فإن تاريخ كسوة الكعبة في زمن الجاهلية وحتى عهد الخلفاء، موضوع طالما تعرض لبحثه المؤرخون والمحققون ويمكن مطالعته بالرجوع إلى المصادر المختصة، ونحن لا نقصد الإطالة في هذا المقال ومن ثم نقتبس بعض العبارات من صبح الأعشى لتكون مقدمة مختصرة لبحثنا.

ينقل القلقشندي عن كتاب أخبار مكة للأزرقي بأن أسعد الحميري (تُبّع) هو أول من كسا الكعبة [في العصر الجاهلي].

وكذلك ينقل القلقشندي عن ابن أبي مليكة ما خلاصته: كانت الكعبة في زمن الجاهلية تُكسى بأقمشة متنوعة، حيث كان الكساء يهيأ في ذلك العصر بصورة جماعية وتعاونية أو يتساعد القبائل فيما بينها على تهيئته، حتى اقترح تاجر يدعى أبو ربيعة بن عبد آ بن عمرو بن مخزوم، الذي كان يتردد على اليمن في تجارته، أن يتعهد هو بكساء الكعبة لعام وتتعهد قريش جميعها به لعام، فما زال الأمر كذلك حتى توفي أبو ربيعة.

وفي زمن الرسول (ص) استُعيض عن النطع الذي كان يستخدم في العصر الجاهلي بالأقمشة اليمنية. واستمر الخلفاء بإكساء الكعبة بأنواع الأقمشة بعد وفاة الرسول (ص).

كانت الألوان المستخدمة في كساء الكعبة طوال هذه السنين هي الأبيضْ أو الأحمر حتى كان عهد العباسيين الذين كانوا يتخذون من الملابس السوداء لباساً وشعاراً رسميين لهم، فكسوا الكعبة بكساء أسود.

(١) انظر ترجمة آل شيخ الإسلام العامليين القزوينيين في المجلد الخامس من مستدركات أعيان الشيعة.
(٢) الشيخ عبد الحسين الصالح.
(٣) السيد أحمد الحسيني.
(٤) السيد أحمد الحسيني.
(٥) السيد أحمد الحسيني.
(٦) السيد أحمد الحسيني.

وعندما استولى ملوك مصر على الحجاز احتكروا إكساء الكعبة بينهم، ولكن ظل لون الكساء أسود.

أما الحادثة التي سنعرض للحديث عنها في مقالنا هذا، فقد حدثت في أواسط القرن التاسع الهجري في زمن ملوك مصر (الملك الأشرف إلى الملك الظاهر) وحاكم خراسان أو حسب تعبير المؤرخين العرب (ملك الشرق) شاهرخ ميرزا بن الأمير تيمور پورپان.

آلت الحكومة إلى شاهرخ بعد وفاة الأمير تيمور في ٨٠٧هـ، فاتخذ من هرات عاصمة له، وكان يطمح منذ أوائل عهده إلى إكساء الكعبة، وحسب قول عبد الرزاق السمرقندي صاحب مطلع السعدين فقد «كان بهمته العالية يطمح دائماً إلى إكساء الكعبة ولم يكن ذلك ممكناً دون إذن سلطان مصر».

يذكر المؤرخون المصريون أنه في الرابع والعشرين من المحرم عام ٨٣٣ دخل القاهرة رسول ملك الشرق (ملك خراسان) وهو يحمل رسالة ملك الشرق إلى الملك الأشرف، وقد ضمن شاهرخ رسالته ثلاثة مضامين:

أولاً: يطلب من ملك مصر كتابين هما:

١ـ شرح صحيح البخاري للحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني.

٢ـ تاريخ السلوك لدول الملوك لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي.

والأمر الثاني هو إيفاء نذر شاهرخ لإكساء الكعبة (ابن تغري بردي ١٤/ ٣٣٦).

والأمر الثالث اقتراح بإسالة ماء العيون إلى مكة (المقريزي ٨/ ٨١٨، ابن أياس ٢/ ١٢٧).

يذكر ابن تغري أن الملك الأشرف لم يعن بأي من طلبات شاهرخ، ولكن ابن أياس يقول بأن السلطان بعث إلى شاهرخ بشرح صحيح البخاري وتاريخ المقريزي ولكنه رفض تلبية طلب شاهرخ في إرسال كسوة الكعبة وإسالة ماء العيون إلى مكة بقوله: توجد لكسوة الكعبة أوقاف خاصة وليس ثمة حاجة إلى أحد من الملوك في ذلك، وبشأن العيون قال: يوجد في مكة العديد من الآبار والعيون ولا حاجة إلى إقامة عيون أخرى (بدايع الزهور، ٢/ ١٢٧) ويتحدث ابن حجر قائلاً: أعد له ثلاثة مجلدات من كتاب فتح الباري في شرح البخاري (أنباء الغمر، ٨/ ٤٩).

وفي الرابع والعشرين من رمضان من نفس تلك السنة دخل القاهرة رسول شاهرخ ويدعى هاشم شريف وهو يحمل رسالة ملك الشرق إلى سلطان مصر التي كانت خالية من البسملة والختم وفي صدارتها: ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل... إلى آخر السورة (ابن حجر ٨/ ٢٠٤).

ضمن شاهرخ رسالته تهديداً صاعقاً للملك الأشرف وطعناً به (المقريزي ٤(٢)/ ٨٣٣) وأرفقها بهدية. فرد السلطان عليها بجواب مناسب ورأى ابن أياس أن الرد الحاد للسلطان كان مناسباً ويقول (من دق الباب سمع الجواب) (بدائع الزهور ٢/ ١٣٤). وفي ٢٩ من جمادى الآخرة عام ٨٣٦ وصلت رسالة أخرى إلى القاهرة من شاهرخ يحملها عتابه ويخاطب الملك الأشرف بلقب الأمير، ويضمنها عبارات تهديد خشنة، وفي معرض حديثه عن هذه الرسالة يقول المقريزي بأن هذه الرسائل تكررت ولكن دون جدوى (سلوكه ٤/(٢)/ ٨٨٧). ويذكر ابن تغري بردي في هذا المضمار أن صمود وثبات الملك الأشرف بوجه طلبات شاهرخ كان أهم عمل له طوال فترة حكمه بعد فتحه لقبرص. ويعتقد ابن تغري أن الملك الأشرف بصموده في الاحتفاظ بحق إكساء الكعبة ومنعه لشاهرخ من القيام بهذا العمل قد حفظ حرمة مصر وحرمة حكام مصر إلى يوم القيامة (النجوم الزاهرة، ١٤/ ٣٦٨)، ولكن القرائن تشير إلى أن الملك الأشرف كان يداري ملك الشرق في نفس الوقت الذي يرفض طلباته ويمتنع عن تحقيقها، ويبدو أنه أرسل في هذه السنة (٨٣٦هـ.) بعض الهدايا إلى خراسان.

بعد ثلاثة عشر شهراً من السفر بين هرات وهرمز ومكة وصل رسول شاهرخ مصر برسالته المؤرخة في ذي الحجة عام ٨٣٦هـ في يوم الخميس الواقع في السابع والعشرين من المحرم الحرام عام ٨٣٨هـ، وفي الرسالة أخبر شاهرخ الملك الأشرف بوصول هداياه وفي مقابل ذلك بعث له بهدايا مع رسوله إيفاء السيد تاج الدين علي وهو أحد أشراف شيراز، وقد أعفي هذا الرسول من تقبيل الأرض في حضرة الملك الأشرف لشرفه وسيادته.

وفي هذه الرسالة ورد تأكيد شاهرخ على نذره إكساء الكعبة وتعليق الكساء من داخلها ثم يطلب من الملك الأشرف أن يبعث برسول إلى خراسان لاستلام الكساء.

وفي السادس من صفر من نفس تلك السنة عقد الملك الأشرف مجلساً لدراسة نذر شاهرخ، اجتمع فيه قضاة المذاهب الأربعة، ثم طرح الملك مسألة نذر شاهرخ في كسوة الكعبة وطلب رأي الحاضرين، وكان جواب قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفي أن هذا النذر لا ينعقد.

وفي العشرين أو الثاني والعشرين من صفر عام ٨٣٨ سير الملك الشريف تاج الدين من القاهرة إلى خراسان وبعث معه سفير شاهرخ المدعو اقطوه الموسوي المؤيدي المهماندار، وحمل اقطوه هذا معه هدية السلطان ورسالته الجوابية للملك شاهرخ.

كتب الملك الأشرف في رسالته رفضه لطلب شاهرخ في إكساء الكعبة وذكر له بأن هذا الأمر يتعلق بملوك مصر وتهيأ نفقة ذلك من أوقاف خاصة بهذا الشأن، ثم يشير على شاهرخ بأنه إذا ما

أراد الوفاء بنذره فليبع الكسوة التي أعدها للكعبة ويتصدق بثمنها على فقراء مكة فإن ثوابها حينئذ سيكون أكبر ويعم نفعها أناساً أكثر (المقريزي ٤ (٢)/ ٩٢٧ـ ٩٢٨، ٩٣٢) ابن تغري بردي ١٥/ ٢٩ـ ٥٠، ٥٢ـ ٥٣).

يذكر ابن حجر في حوادث عام ٨٣٨هـ أن السيِّد الشريف تاج الدين بن عبد الله الحسيني الشيرازي وصل في المحرم الحرام إلى بلاط الملك الأشرف محملاً برسالة وهدية من الملك شاهرخ لطلب الإذن من إكساء الكعبة.

ثم يضيف ابن حجر بعد أن يعدد الهدايا إن تاريخ هذه الرسالة هو ذو الحجة عام ٨٣٦ وأنه قابل السيد تاج الدين ثم يثني عليه ويصفه بالتواضع ويذكر أن زوجته هي ابنة السيد الشريف الجرجاني صاحب التصانيف ويثني على ابنه الذي كان معه وهو في الثلاثين من عمره ويقول بأنه رجل فاضل.

وفي ذكره للاستفتاء يقول ابن حجر إن السلطان أراد الاعتذار لئلا يفتح الباب في إكساء الكعبة لملوك آخرين. ثم ينتقد قضاة مصر وأجوبتهم اللامسؤولة ويقول إن بعض هؤلاء القضاة كان يجيب دون أن يُسأل ورأى بعضهم أن هذا العمل غير جائز لأنه يبطل الوقف، وكتب آخرون إن هذا العمل غير جائز لأنه يتحكم بسلطان مصر.

يقول ابن حجر إنه في الواقع اعتذر بنفس جواب السلطان وهو عدم فتح الباب للآخرين وبالتالي فتح باب العداء (أنباء الغمر ٨/ ٢٩/ ٣ـ ٣٣٠).

في الرابع من شوال عام ٣٣٨ وصلت القاهرة رسالة تهديد من الملك شاهرخ، ينتقد فيها منع دخول التجار إلى ميناء جدة، ثم يذكر فيها أنه قادم إلى القدس الشريف (المقريزي ٤(٢)/ ٩٤٩).

وصل الأمير اقطوه وتاج الدين الشريف إلى هرات وقدم الأول رسالته ثم عاد إلى القاهرة فدخلها في الثامن والعشرين من جمادى الثانية وفي صبيحة اليوم التالي وصل القاهرة رسول شاهرخ الشيخ صفا، فاستقبل هذا وأكرمت وفادته وخصصت له دار للإقامة فيها.

في يوم السبت الواقع في الثامن من رجب من عام ٨٣٩ استقبل الملك الأشرف الشيخ صفا، فأخذ الشيخ يقرأ بصوت عال والملك يصغي إليه. وقد ورد في الرسالة دعوة الملك الأشرف إلى إلقاء الخطب وضرب النقد في مصر باسم شاهرخ وعندما وصل الشيخ إلى هذا الموضع أخرج خلعة أتى بها من خراسان ليرتديها ملك مصر وأخرج معها تاجاً. وكانت الرسالة تحتوي على ألقاب وعبارات أفقدت السلطان الأشرف صبره فأمر بتمزيق الخلعة وتأديب الشيخ صفا بضربه ضرباً مبرحاً، ثم ألقي به في ذلك اليوم البارد في بركة الاسطبل وراحوا يغرقونه في الماء لعدة مرات حتى كاد يشرف على الهلاك. ويذكر ابن تغري أنه لم ير السلطان غاضباً كذلك اليوم. ثم استدعى السلطان الشيخ صفا وحمله جواباً خشناً شديداً ليحمله إلى مرسله. ومن جملة أجوبة السلطان قوله: إذا كان شاهرخ ينصبني والياً على مصر فأنا لا أقبل به عاملاً على أصغر قرية من بلاده، ثم أمر بإخراج الشيخ ومرافقيه من مصر عن طريق البحر. فذهب هؤلاء إلى مكة وأمضوا بقية عامهم فيها وأدوا مراسم الحج ثم عادوا إلى هرات (المقريزي ٤(٢) ٩٢٩، ابن تغري بردي ١٥/ ٧٣ـ ٧٤).

امتدح ابن تغري بردي عمل سلطان مصر هذا، أي ضربه لرسول شاهرخ وتمزيقه لخلعته وعد ذلك أفضل وأجمل وأعظم أعمال الملك الأشرف طوال فترة حكمه، ثم يقول إن شاهرخ لم يبد أي رد فعل وظل طوال حياته خائفاً من ملوك مصر. ولكن سوف نرى أن ابن تغري بردي نفسه يذكر فيما بعد كيف كان سلطان مصر يتوجس الشر من شاهرخ في السنين التالية.

لم يمتد عمر الملك الأشرف بعد هذه الحادثة طويلاً، حيث قضى نحبه في عام ٨٤١هـ (ابن تغري بردي ١٥/ ٢١٠) ثم خلفه ابنه الملك العزيز ولكنه لم يستمر في الحكم طويلاً، حيث خلع وجلس على العرش بدلاً عنه الملك الظاهر.

استقبل الملك الظاهر رسول شاهرخ الذي قدم من هرات في يوم الخميس الواقع في الثاني عشر من جمادى الآخرة عام ٨٤٣، وقد ذكر شاهرخ في رسالته أنه سمع باعتلاء الملك عرش مملكة مصر فأحب أن يعرف مدى صحة الخبر (ابن تغري بردي ١٥ـ ٣٣٦ـ ٣٣٧).

يذكر المؤرخون الخراسانيون قصة لطيفة بشأن وصول الملك الظاهر إلى عرش مصر وعلاقته مع بلاط خراسان، ومن ضمن الذين نقلوا القصة عبد الرزاق في مطلع السعدين وخواندمير في حبيب السير بعبارات مشابهة لعبارات الأول. ومفاد رواية الإثنين هو كما يلي:

عندما كان الملك الظاهر يشتغل حارساً في زمن الملك الأشرف رأى في المنام أن شاهرخ أقامه فأجلسه على العرش الملكي. ثم يذهب هذان المؤرخان بعيداً في تفصيل الرؤيا وطموح الملك الظاهر في الوصول إلى عرش مصر، كل ذلك بعبارات متكلفة مصطنعة، وهما يعتقدان أن هذا هو السبب في مبادرة الملك الظاهر عند تسلمه السلطة إلى إرسال أحد خاصة امرائه المدعو جيجكتوقا سفيراً إلى شاهرخ.

وصل جيجكتوقا هرات في عام ٨٤٣هـ وتشرف بعد ثلاثة أيام بتقبيل أنامل الخاقان المعظم شاهرخ ورحب به شاهرخ وسأله عن حال ملكه ثم أجلسه إلى جانبه الأيمن مع كبار رجال بلاطه، وفي ذلك اليوم أقاموا مأدبة كبيرة استخدموا فيها آنية من الذهب الأحمر، واستضاف جيجكتوقا جميع الأمراء وقدموا له هدايا ثمينة.

وفي هذه المرة طلب علماء مصر مجموعة من الكتب من الخراسانيين حيث ذكر لهم جيجكتوقا أن الملك الظاهر يطلب خمسة كتب مهمة من مكتبة هرات وهي: ـ

١ـ تأويلات حجة أهل السنة والجماعة، تأليف الشيخ أبي منصور الماتريدي.

٢ـ التفسير الكبير للرازي.

٣ـ شرح التلخيص الجامع للخواجة مسعود البخاري.

٤- شرح الكشاف لعلاء الدين البهلوان.

٥- الروضة في المذهب الشافعي.

يذكر خواندمير أنه على الرغم من وجود هذه الكتب في مكتبة هرات إلا أن الأوامر صدرت بإعادة كتابة الكتب الخمسة بخط جميل ثم سلمت إلى جيجكتوقا، فعاد هذا إلى مصر محملاً بالهدايا القيمة بالإضافة إلى خمسين ألف دينار.

واستلم كل من غلمان جيجكتوقا الخمسين ألف دينار إضافة إلى فرس وخلعة. وكتب شاهرخ إلى حكام أصفهان وشيراز ويزد وكاشان أن يكرموا وفادة هؤلاء وينعموا عليهم.

رافق جيجكتوقا في عودته إلى مصر حسام الدين مبارك شاه البروانجي (خواند مير ٣/ ٤٢٧- ٤٢٨ عبد الرزاق، نسخة خطية)، ولكن رواية المقريزي تفيد بأن رسول شاهرخ مبارك شاه توفي في يوم الأحد الواقع في الثالث عشر من ربيع الآخر عام ٨٤٤ قبل أن يصل القاهرة. ويضيف المقريزي أن مبارك شاه رجل عالم فاضل.

قدم ابنه الخواجة كلان (أو الخواجه كلال) بعد وفاته إلى الملك الظاهر محملاً بهدية ورسالة من السلطان شاهرخ، حيث وصل هو ومرافقوه القاهرة في السادس والعشرين من ربيع الثاني عام ٨٤٤هـ فتزينت هذه المدينة لقدومهم وخرج ابن سلطان مصر مع جماعة من الأمراء لاستقبال الرسل الخراسانيين ويصف ابن تغري بردي والمقريزي يوم دخول السفراء القاهرة باليوم المشهود ويذكرون بأن هذه الرسوم والاحتفالات لم يسبق لها مثيل في القاهرة.

قرأ الرسل رسالة شاهرخ التي تتضمن السلام لسلطان مصر وتهنئته بجلوسه على العرش، ثم قدموا هداياهم وهي: مائة قطعة من الفيروز وإحدى وثمانين قطعة حرير وعدداً من الثياب والجلود والمسك وثلاثين بعيراً خراسانياً وأشياء أخرى بقيمة خمسين ألف دينار.

ارتدى الرسول الخراساني في الثامن والعشرين من ربيع الآخر خلعة السفارة، وخلعته هذه من الحرير ذي الوجهين مع تطريز بالذهب يبلغ وزنه خمسمائة مثقال. وكانت فرسه مزينة بالذهب وحذاؤه كذلك. وتسلم مرافقوه هدايا قيمة (السلوك ٤(٣)/ ١٢١١؛ النجوم الزاهرة، ١٥/ ٣٤٢- ٣٤٤)، ولكن الخواجة كلال قضى نحبه في القاهرة في التاسع من جمادى الأولى من نفس تلك السنة، فدفن خارج باب النصر ثم نقل بعد فترة هو وأبوه إلى القدس فدفنا هناك (السلوك ٤(٣)/ ١٢٣١).

وفي عام ٨٤٧ سافر السيد محمد الزمزمي من هرات إلى مصر لطلب الإذن من الملك الظاهر في إكساء الكعبة، ويبدو أن الأخير وافق، إذ تعهد بأنه سيبذل كل ما بوسعه لتحقيق ذلك حينما يبعث شاهرخ بكسوة الكعبة (خواند أمير، ٣/ ٣٦٢؛ عبد الرزاق نسخة خطية).

ويذكر السخاوي بأن الملك الظاهر أذن لشاهرخ أن يفي بنذره، الذي كان قد عقده قربة إلى الله، على أي نحو يريد.

وحسب رواية صاحب مطلع السعدين فإن مهمة السفارة كسوة الكعبة إلى الحجاز القيت في هرات عام ٨٤٨ على عاتق الشيخ نور محمد الأبهري.

بينما يذكر خواند مير أن الشيخ نور الدين محمد المرشدي وشمس الدين محمد الأبهري هما اللذان انيطت هذه المهمة بهما ويذكر السخاوي أن (قاضي الملل)، العالم المشهور كان بين الموفدين ويبدو أن المقصود بقاضي الملل هو نفس شيخ الإسلام المرشدي.

وأما كسوة الكعبة فقد كانت مهيأة في يزد ثم حملت إلى هرات وحفظت في خزانة العاصمة. وفي هذه السنة حمل الرسل هذه الكسوة وتحركوا صوب مصر، وعندما وصل هؤلاء إلى الشام أكرم أمراء الشام وأعيانها وفادتهم، وعندما دخلوا مصر في يوم الخميس الواقع في الخامس عشر من شعبان عام ٨٤٨ خرج لاستقبالهم جماعة من المقربين للملك الظاهر وخواصه.

حط السفراء الخراسانيون رحالهم في القاهرة. في دار جمال الدين الأستادار الواقعة في محل بين القصرين. ويذكر السخاوي وابن تغري أن عدد مرافقي السفراء الخراسانيين يصل إلى المائة شخص أو يزيدون، ومن بينهم عجوز من نساء تيمور لنك قادمة لأداء فريضة الحج.

التقى هذا الوفد بسلطان مصر الملك الظاهر في يوم الاثنين الواقع في الحادي عشر من رمضان عام ٨٤٨. وكان السلطان قد أمر بتزيين المجلس وإجراء رسوم خاصة تكريماً لهم، ووردت هذه الرسوم بالتفصيل في كتابي السخاوي وابن تغري.

وأمر السلطان بحمل ما كان مع السفراء ومن ضمنه كسوة الكعبة إلى مكان أمين، ليكون في مأمن عن تطاول الآخرين، ثم استقبل السفراء بكل حفاوة واحترام، ثم أنشأ السفراء يقرأون رسائلهم.

ولكن - حسب رواية ابن تغري - عندما عاد هؤلاء السفراء إلى محل إقامتهم هجم عليهم جماعة من المماليك يبلغ عددهم ثلاثمائة شخص فنهبوا كل ما كان معهم من كتب قيمة وذهب وحجر كريم وحرير ومسك وجلود، ويذكر ابن تغري أن قيمة الأشياء المنهوبة عشرون ألف دينار.

وفي مطلع السعدين يذكر عبد الرزاق، أن هؤلاء السفراء تأخروا يوماً عند الحضور إلى بلاط الملك، فتناقل الناس خبراً مفاده أن الملك أمر باعتقالهم، ويضيف عبد الرزاق في عرضه لتلك الحادثة فيقول: لم يسلم من النهب إلا صناديق كسوة الكعبة التي يذكر السخاوي بأن عددها تسعة صناديق.

وفي رواية عبد الرزاق: عندما سمع السلطان بالخبر، أصيب باضطراب عظيم وقال: لقد آذى المخربون أصحابي.

وفي آخر المطاف هب اثنان من الأمراء المصريين لمساعدة السفراء الخراسانيين: هما يل خواجه أو (يلخجا) واينال العلائي الدوادار الكبير ومعهما حاجب الحجاب الأمير تنبك فأنقذوهم من مخالب المهاجمين.

اعتذر السلطان للسفراء وأرجع إليهم ما عثر عليه من الأموال المنهوبة ثم قدم لهم أكثر مما فقدوه.

وعوقب المماليك المهاجون وقطعت حقوق وأرزاق بعضهم، ويذكر السخاوي في كتابه «التبر المسبوك» أن المماليك الذين ارتكبوا هذه الجريمة، عوقبوا بأن يسيروا حفاة في شوارع القاهرة والمنادي ينادي من ورائهم أن هذا جزاء من يتعرض لحجاج بيت الله.

ثم بعث سلطان مصر الملك الظاهر بكسوة الكعبة والسفراء الخراسانيين مع الحجاج المصريين الذين توجهوا إلى مكة، وفي يوم عيد الأضحى كسيت الكعبة من الداخل بهذه الكسوة.

يذكر السخاوي بأن كل هذه المشقات التي تحملها الملك الظاهر لم تثن شاهرخ عن التوجه إلى الشام، حيث توجه إليها في السنة التالية، ولكن لم يمهله الأجل. ثم يضيف السخاوي قائلاً: الأعمال بالنيات.

لم يذكر خواند مير شيئاً عن حوادث القاهرة وهو يقول «عندما وصل السفراء إلى مكة، نالوا سعادة الطواف بالركن والمقام ثم كسوا بيت الملك العلام بالكسوة التي حملوها بحضور الأشراف والحكام وخدام البيت. وكان الفضل في إنجاز هذا العمل العظيم يرجع إلى اهتمام الخاقان العظيم. ثم عزم حضرة الشيخ وجناب المولوي على السير إلى خراسان بعد فراغهم من أداء المناسك وآداب حج الإسلام، فقطعوا المسافات الشاسعة حتى وصلوا دار السلطنة في هرات وفازوا بملازمة الخاقان وتشرفوا بشرح الأحداث له».

السيد شرف الموسوي بن عبد الله

ولد في قرية (التُوَيْثِير) بالأحساء سنة ١٣١٢هـ، وبها نشأ وترعرع وتوفي سنة ١٤٠٩ في قرية القارّة بالأحساء ونقل جثمانه إلى المدينة حيث دفن في البقيع.

كان خطيباً بارعاً وواعظاً معروفاً، خصوصاً أيّام شبابه، حيث صعد المنبر الحسيني في معظم دول الخليج، وفي البصرة ونواحيها، وسوق الشيوخ وغيرها وقد خطب في الأحساء والبصرة سنين عديدة، وكان منبره غنيّاً بالوعظ والتاريخ والأدب والسيرة المباركة لأهل البيت (ع).

كما كان شاعراً أديباً، وله ديوان لم يطبع يضمّ معظم أشعاره، ويغلب على شعره رثاء أهل البيت ومديحهم.

قال في مدح أمير المؤمنين عليّ (ع) من قصيدة:

طَابَ قَلْبِيْ بِحَيدرٍ وولاه ... هو نور الهدى وحامي حماه
قيل لي فامتدحه قلت مجيباً ... أي مدح يرقى لقدس علاه
أي لب يطيق وصف علي ... وعلي جاز الثريا علاه
حير العقل كنهه ولكم قد ... ضل قوم طريقهم حين تاهوا
كم له من مكارم ليس يحصيـ ... ـها عداداً إلا الذي أولاه
هو قد خص بالبتول ولولا ... ه لما خص بالبتول سواه
هو باب لحطة من أتاه ... طالباً للثواب طاب رجاه
وبيوم الغدير كم قد أبان الـ ... ـمصطفى من مآثرٍ في علاه
رافعاً ضبعه وما زال حتى ... قلد المسلمين فرض ولاه
أكمل الله دينه بعلي ... حين تمت على الورى نعماه
يا أمير الورى وخير أمير ... وقرين الهدى وسامي ذراه
أنت بدر الكمال نور جلال ... الله في أرضه ونور سماه
أنت ذاك الكرار في الحرب يا من ... كان يوم الحروب قطب رحاه
أنت جدّلت بالحسام ابن ود ... وعلى الأرض قد أسلت دماه
ثم خلفته على الأرض ملقى ... وكفيت الإسلام شر أذاه
أنت قطب الحرب الكمي ولولا ... ك لها القطب ما استدار رحاه
يا أخا المصطفى برغم عداه ... وأبا الأوصياء من أبناه
نلت فخراً وسؤدداً وفخاراً ... يعجز الواصفون عن إملاه
يا وليد البيت الحرام ومن طا ... ب به البيت حين حل فناه
أنت شمس تكسو العوالم نوراً ... أنت بدر عم الوجود ضياه

وله يرثي السيد ناصر الأحسائي، المتوفى سنة ١٣٥٨ من قصيدة:

علامة العلماء (ناصر) ... ملة الإسلام غائب
فلتبك عين الشرع حيث ... الدين منهد الجوانب
ولتبك أعيننا دماً ... صباً كمنهل السحائب
فخر الأماجد من له ... ألقت أعنتها النجائب
ومن المرجى بعده ... للجود في يوم المساغب
من للمدارس والعلوم ... وللمساجد والمحارب
من للرعية بعد راعيها ... وقد بقيت سوائب
يا واحداً ترك الخلا ... ئق بين نادبةٍ ونادب
لا زال قبرك روضة ... وعليه ماء الغيث ساكب
يا ميتة في بلدة (الأحساء) ... ذكرك غير ذاهب

الشيخ شعبان بن مهدي الجيلاني

ولد سنة ١٢٧٥ في (ديوشل) إحدى قرى مدينة رشت التي تبعد عنها مسافة ثمانية فراسخ وتوفي في النجف سنة ١٣٤٨.

أصل أسرته من خراسان، وهاجر جده عبد الوهاب إلى جيلان فسكن في بعض قراها وتناسل أولاده بها، وينسبون إلى قرية (ديوشل)، ثم انتقل إلى لاهجان سنة ١٢٨٧ وأخذ الأوليات العلمية عن بعض علمائها كالميرزا حسين المدرس وغيره.

وفي سنة ١٢٩٣ انتقل إلى قزوين، فقرأ جانباً من الفقه وأصوله على الشيخ عبد الوهاب البهشتي والسيد علي القزويني صاحب «حاشية القوانين».

وفي سنة ١٣٠٢ هاجر إلى العتبات المقدسة في العراق فسكن النجف الأشرف وتتلمذ على أعلام علمائها، كالميرزا حبيب آ الرشتي والمولى محمد الفاضل الأيرواني والشيخ محمد حسن المامقاني والمولى محمد الفاضل الشرابياني والشيخ عبد الله المازندراني وآخرين كما تتلمذ في كربلا سنة ١٣٠٩ على الشيخ زين العابدين المازندراني مدة قليلة.

وفي النجف التف حوله جماعة من فضلاء رشت ونفر من أفاضل الحوزة، فاشتغل بالتدريس خارجاً وتخرج عليه كثير من الفضلاء. وكان يقوم بأمور جملة من تلامذته وغيرهم مما تأتيه من الأموال.

اتسعت شهرته شيئاً فشيئاً حتى أصبح من مشاهير علماء النجف في عصره، ورجع إليه الناس بالتقليد وطبعت رسالته العملية لمقلديه ثماني مرات، وترك بعض المؤلفات الفقهية[١].

صادق القاموسي بن عبد الأمير

ولد في النجف سنة ١٣٤١ وتوفي سنة ١٤١٣.

درس في النجف علوم اللغة العربية والفقه والأصول، وتعاطى التجارة في النجف ثم انتقل إلى بغداد حيث عمل في الإتجار بالكتب، فكانت مكتبته منتدى الأدباء والشعراء.

كان شاعراً أديباً فطناً ولم يجمع شعره في ديوان، وكان مجاله الندوات والاحتفالات في النجف، والنشر في الصحف.

شعره

قال في بعض المناسبات:

سيري وإن طال المسير وأجهدا ... فلرب سار يحمد المسرى غدا
ما ضرَّ بالغابات أن طريقها ... وعر إذا شرفت وطابت مقصدا
ولرب شاخصة تنال ودونها ... حجب من التقوى تبعدها مدى
هل غير أن تتحملي وعثاءها ... جهداً وتنتهجي الطريق الأبعدا
أو غير أن تهبي الحوادث عزمة ... شماء لم تفتر ولن تترددا
وتجابه الغمرات أبرق ليلها ... بالثائرات عواصفا أو أرعدا
فلسوف يسفر عنك فجر هادياً ... ولسوف يبزغ منك نجم مرشدا
ولسوف يصدر عنك جيل ناهض ... ورد الثقافة فاستسيغت موردا
ولسوف تفترعين أعظم هامة ... مجداً وتحتجزين أسمى مقعدا
ولسوف يعلم خابطون بأنهم ... كانوا على عمه وكنت على هدى
باركت يومك وهو أول عهده ... بالسير سمحاً والطريق معبداً
ورثيت أمسك وهو أجدر بالثنا ... وأحق لولا أن أغور فأنجدا
مشت السنون ثقيلة خطواتها ... مشي المكبل جهده أن يقعدا
وأناخ ليل يشمخر بأنه ... أرضى نؤوماً ان أغاظ مسهَّدا
وأطل فجر كاد ـ لو لم تزده ... تلك النجوم البيض ـ يطلع أسودا
آمنت بالأشراق أول نوره ... خيط وينسجه الصباح إذا بدا
يا حلوة الثمرات اخرج زرعها ... شطأ فآزره فشب ووردا
يهنيك ـ والاسلام أجدر بالهنا ـ ... إن الجهود الكثر لم تذهب سدى
إن أثمرت في منتجين تصاغروا ... عدداً فقد كثروا بذلك حسدا
ومحصلين زهت بهم شرفاتها ... زمناً وراحوا يعمرون المسجدا
ومهذبين كفاهم أن احرزوا ... منها الطريف ثقافة والمتلدا
فالآن أم الواقعية نزرة ... وأبا الحقيقة نادر أن يولدا
يا باعث الإخلاص غضاً يافعاً ... وممثل الإيمان شيخاً يقتدى
ومجهز الإصلاح جيشاً جاهداً ... ومحمل النهضات ثقلاً مجهداً
سر تتبعك على الجهات ضمائر ... ألقت وقد خلصت ـ إليك المقودا
سر تلقه نصراً تحققه السما ... وعلا يخلده النضال وسؤددا
لا يقعدنك عن جهادك قاعد ... متأملاً أو واقف مترددا
سر لا يرعك إذا التقى بك حاطب ... جلب الوقود، لقد أمنت الموقدا
لا بد للصهباء من سكر فان ... لم تستخفك شادياً فمعربدا
سر يهتدي بهداك ركب تائه ... جهل المصير فما استقر وما اهتدى
رام البقاء مع المقيم فراعه ... شبح الشقاء محذراً ومهددا
ورأى السعادة في العبور فصده ... موج بأثباج الرذيلة أزبدا
فنوى الإقامة في الطريق فلم يرح ... في الرائحين ولا مع الغادي اغتدى
يا واضع الحجر البليغ حديثه ... إن ألجم الثغر الصريح وقيدا
قم صفه للعلم الشريف مؤسساً ... وارفعه بالعمل الصحيح مشيدا
واذخره للأجيال كنزاً نافعاً ... واحفظه للأبطال رمزاً مخلدا
لم يحو أوراقاً تذوب كما ادعوا ... لا بل حوى مقلا سهرن وأكبدا
إني ـ وإن قصرت يداي ولم تكد ... تجدي سعيد أن مددت لهم يدا

وقال في ذكرى عيد الغدير:

أيطربني ماضٍ بعدلك زاهر ... وقد ملأ الدنيا من الظلم حاضر
وتفرحني الذكرى وما زلت خاضعاً ... لأمر الألى قدماً عليك تآمروا
ويؤنسني أن يحشد الناس موسم ... وقد عرضت للبؤس فيه مناظر
بألوان شتى ما أثارك منظر ... حزين الرؤى إلا وهالك آخر
ويعجبني أن يجمع العيد شملنا ... وقد فرقت بين القلوب العناصر
وأن تتبارى بالسواد محافل ... وأن تتجلى للولاء مظاهر
وقد زحزحت عن قصدها كل غاية ... وكادت تعرى منه حتى الظواهر
فلم يبغ إلا للرياء خشوعها ... ولم تعل إلا للظهور المنابر
لك الله يا دنيا الشعائر أخرجت ... مقاصدها عما تريد الشعائر
وهل سرني أن توسطت جمعكم ... وراح يحييني لسان وخاطر
وفي القلب آهات كبحت جماحها ... على أن ميدان الإثارة عامر
على الرغم مني تستكين شقائق ... ولو هدرت دارت عليها الدوائر
أقامت عليها المرهبات عيونها ... فلم تدر من أي الجهات تحاذر
وأدت بنات الفكر حتى نفرنني ... وحتى جفتني الأمهات الحرائر
وكيف ثبت الصالحات محافل ... وقد بنيت وسط الشعور مخافر
تباركت يا يوم الغدير وللهدى ... سنا واضح لو أحسن البحث حائر
تعاليت دستوراً به العدل دولة ... وقدست سلطاناً به الحق آمر
وخلدت نهجاً تستضيء بنوره ... عقول وتستوحي سماه مشاعر
قرأتك (نصاً) تستشف سطوره ... سناً و(حديثاً) يصطفيه التواتر
فما هالني إلا ختول مؤوّل ... وما راعني إلا جهول مكابر
فقدتك عيداً ضيعته سياسة ... وألغاه سلطان من الحكم جائر
بحثتك تأريخاً تناغيه دعوة ... وعتها عصور كالنجوم زواهر
رأت عزها وقفاً عليه فجاهدت ... تسر به حيناً وحيناً تجاهر
أعدته للبقيا عقول ثواقب ... وحاطته بالرعيا عيون سواهر

(١) السيد أحمد الحسيني.

إلى أن بنت فوق السماكين مجدها ... وسدت بمن حطى علاها الشواغر
فيا لك عهد خلدت فيه أمة ... تناهبها - لولا هداك - التناحر
أقول لمحجورين بعلو صفيرهم ... بأنهم بحر من العلم زاخر
أرونا اللثالي المخبئات فما اغتنى ... فقير بأن البحر فيه جواهر
أبا العدل - والدنيا يقيم حماتها ... ويقعدها بحث عن العدل دائر
تجوب بطون الأرض بحثاً فما ادعى ... به وارد إلا تحداه صادر
فمؤتمرات نظمتها مصالح ... ومقترحات صدرتها أوامر
تخط دساتيراً وتمحو نظيرها ... جزافا وكادت أن تجف المحاير
ومن عجب أن يستغل لبحثه ... سحاب بأنواع القذائف ماطر
تحاول تحرير الشعوب وقد طفت ... لتسليحها هذي الذئاب الكواسر
وما العدل إلا أن تموت مطامع ... خساس وإلا أن تصح ضمائر
أبا العدل يوم المصلحين كأمسهم ... عصيب وليل المستضامين عاكر
إذا لم يسر في الناس سيرك مصلح ... أمين على نشر العدالة قادر
فلا يصلح الدنيا عتاد وقوة ... وإن حاطت الست الجهات العساكر
وأني وقد ساويت في الحق (قنبراً) ... تقاسمه ما تقتني وتشاطر
وما بت مبطاناً وفي الناس جائع ... ولو شئت ألهاك الغني والتكاثر

السيد صادق بن محمد حسين الحسيني

فاضل متبحر في الفقه وأصوله، من أعلام القرن الثالث عشر، والظاهر أنه من الدارسين في العتبات المقدسة بالعراق.

له «سرائج الأظلام في بيان خفايا الأحكام» و«مالك الأفهام إلى شرائع الأحكام» أتمه سنة ١٢٥٣[١].

السيد صادق الحسيني الرشتي

توفي سنة ١٣٥٤ في مدينة رشت ودفن في قم

كان في أوائل نشأته العلمية بمدينة «رشت» حيث درس على أساتذتها المقدمات والسطوح.

وبعد ذلك هاجر إلى النجف الأشرف، فبقي بها سنين متتلمذاً على الحاج ميرزا حبيب الله الرشتي والشيخ زين العابدين المازندراني والسيد حسين الكوهكمري. وغيرهم من الأعلام، وكان أكثر استفاداته العلمية من الأول منهم.

واستفاد في علوم الحديث والرواية من الحاج ميرزا حسين النوري صاحب كتاب «مستدرك الوسائل».

ثم عاد من النجف الأشرف إلى مدينة «رشت مرجعاً لأهلها في أمورهم الدينية والاجتماعية ترك حواشي أصولية وفقهية.[٢]

صاعد بن محمد بن صاعد البريد الآبي، القاضي أشرف الدين.

مذكور في رياض العلماء ٣/ ١٥ والثقات العيون ص ١٣٨ وغيرهما ونقول:

في سند حديث ذكره تلميذه الراوي عنه الحسن بن الحسين بن علي الشيذي وقال: «أخبرني الأجل الإمام العالم الزاهد العابد

(١) السيد أحمد الحسيني.
(٢) السيد أحمد الحسيني.

الأفضل الأكمل الأفصح مجد الدين شرف الإسلام أفصح الأنام وأفضل أهل الأيام فخر العلماء شمس الأئمة لسان المتكلمين سيف المناظرين أبو العلاء صاعد بن الأجل العالم المحترم عفيف الدين مجد الإسلام محمد بن صاعد.

وذكر أن صاعداً يروي عن أبي جعفر محمد بن أبي نصر بن محمد بقم[٣].

صالح بن محمد بن محمد صالح القائني الهروي

أصله من «قائن» وولد في «هراة» وسكن في باختر (كرمانشاه)، طبيب جال البلاد لمعرفة الوسائل الطبية والأدوية المعمولة في عصره، ولم يقتنع بما شاع عند الأطباء من دون تجربة للنافع منها والضار.

كان له اطلاع بالعلوم الدينية من التفسير والحديث وغيرهما، وهو أديب فاضل كاتب شاعر بالفارسية، من أعلام أواخر القرن الثاني عشر.

له «تحفة الصالحين» و«عمل صالح» و«منظومة في الطب»[١].

السيد صبغة الله بن السيد جعفر بن أبي إسحاق الموسوي الدارابي البروجردي المعروف بالكشفي.

ولد في النجف الأشرف حدود سنة ١٢١٨ وتوفي في كربلاء سنة ١٢٨٥ ذكر في أعيان الشيعة المجلد السابع ص ٣٨٣ ونضيف على ما هنالك ما يلي: حكيم متأله فقيه متبحر مفسر محقق أصولي متكلم.

أخذ المقدمات وفنون الأدب على أفاضل علماء النجف الأشرف ثم تخرج في السطوح على والده السيد جعفر الكشفي المتوفى سنة ١٢٦٧ وفي حدود سنة ١٢٣٨ استقر مع والده في قزوين وأخذ الفلسفة العالية، عن حوزة الملا آغا الحكمي القزويني والفقه والأصول عن الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وشقيقه الشهيد الثالث المستشهد في سنة ١٢٦٣ ثم عاد إلى العتبات المقدسة وحضر في كربلاء على السيد إبراهيم القزويني صاحب الضوابط المتوفى سنة ١٢٦٢ وبعد وفاة أستاذه التحق بحوزة الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر المتوفى سنة ١٢٦٦ في النجف الأشرف ثم لازم الشيخ مرتضى الأنصاري وكان من أرشد تلامذته تصدر للتدريس والفتوى في كل من كربلاء والهند حيث سافر في عام ١٢٧٠ إلى الهندى وتصدر للتدريس والفتوى في لكهنو.

ثم رجع إلى كربلاء مواصلاً نشاطه العلمي حتى توفي بها. وآل الكشفي من أشهر الأسر العلمية البارزة في كل من بروجرد وكربلاء وطهران وتبريز. أصلهم من بروجرد وقد سكنوا كربلاء في أوائل القرن الثالث عشر للهجرة نبغ فيهم علماء أعلام وحكماء متألهون. ومؤسس كيان هذا البيت الجليل السيد جعفر العلوي الموسوي الدارابي

(٣) السيد أحمد الحسيني.

البروجردي المعروف بالكشفي المولود سنة ١١٨٩ والمتوفى سنة ١٢٦٧ وهو من أكابر العلماء وقد خلف اثني عشر ولداً من عدة زوجات ومنهم المرتجم له.

ترك المترجم له مؤلفات منها: ١ـ كتاب بصائر الإيمان في تفسير القرآن في ثلاثة مجلدات. ٢ـ مفتاح المفاتيح ويقال مفاتيح الكلام في شرح درر النظام وهو شرح الدرة في الفقه للسيد مهدي بحر العلوم المتوفى سنة ١٢١٢ وقد أهداه إلى السيد محمد بن السيد دلدار على أيام إقامته في لكنهو في سنة ١٢٧٠ وصورة المكتوب هكذا: [هذا كتاب مفاتيح الكلام في شرح درر النظام تصنيف أقل العلماء والسادات النجفي العلوي صبغة الله بن جعفر الموسوي في سفر هندوستان في بيت السلطنة لكهنو حسب إرشاد القبلة والكعبة الملقب بسلطان العلماء، جناب مولوي سيد محمد دام إقباله في رجب ١٢٧٠].

وغير ذلك من مؤلفات ورسائل[١].

صديقة بنت الشيخ علي نقي بن الشيخ الحسن بن الشيخ محمد صالح البرغاني القزويني الحائري آل الصالحي.

ولدت في كربلاء سنة ١٣٠٣ وتوفيت بها سنة ١٣٥٠ ودفنت في الصحن الحسيني الشريف فاضلة فقيهة حافظة للقرآن الكريم عالمة بتفسيره وتأويله زاهدة عابدة جليلة القدر أخذت المقدمات وفنون الأدب عن أفاضل نساء أسرتها وحفظت القرآن في أوائل عمرها وتفقهت على والدها مدرس الطف الشيخ الميرزا علي نقي الحائري والشيخ عيسى آل الشهيد الثالث ولما بلغت سن الرشد زفوها إلى السيد غلام حسين المجابي القزويني.

تصدرت لتدريس الفقه والتفسير وعلوم القرآن في قزوين وكان يحضر حلقة درسها جمع من فاضلات النساء وبعد وفاة زوجها رجعت إلى كربلاء في حدود سنة ١٣٤٤ وتصدرت للتدريس وكانت كثيرة العبادة شديدة الورع تصوم أكثر أيام السنة وكان زوجها مع فضله يستفسر منها في حل بعض المسائل العلمية وتفسير المشكل والمتشابه من آيات القرآن الكريم، ورأيت من مؤلفاتها تفسير قرآن لم يتم ولم يخرج من السواد إلى البياض ورسالة في المسائل النسائية[٢].

الشيخ صفر علي الأشرفي

مترجم في الكرام البررة ص ٦٧٢ ونقول:

فاضل متتبع، له اطلاع واسع بالعلوم العقلية والفلسفة جامع للعلوم الإسلامية، يميل إلى العرفان له «شرح دعاء كميل»[٣].

صفر علي الرشتي

عالم فقيه محقق، من أعلام النصف الثاني من القرن الثالث عشر، كان يقيم في قزوين وهو مدرسها المعروف.

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٣) السيد أحمد الحسيني.

ومعلوم أنه غير المولى صفر علي اللاهيجاني المذكور في الكرام البررة ص ٦٧٢، إذ توفي المذكور قبل سنة ١٢٦٤ وتوفي مترجمنا بعد سنة ١٢٧٥.

له «أصول الفقه» ألفه سنة ١٢٧٥[١].

الشيخ ضياء الدين العراقي بن محمد

اسمه «علي» ولكنه عرف بضياء الدين ولم يشتهر باسمه.

مرت له ترجمة في موضعها من (الأعيان)، ونذكر ترجمته هنا بتفصيل أكثر:

ولد في «سلطان آباد» المعروفة بـ«أراك» (عراق) سنة ١٢٧٨ وتوفي في النجف سنة ١٣٦١ نشأ في ظل رعاية أبيه المولى محمد الكزازي العراقي الذي كان من أفاضل العلماء بتلك المدينة وتوفي سنة ١٣٠٠.

قرأ مقدمات العلوم وكتب السطوح على أبيه ولفيف من فضلاء عصره في أراك وبعض البلدان العلمية الأخرى بإيران.

ثم هاجر إلى النجف الأشرف، فأدرك أبحاث السيد محمد الفشاركي الأصفهاني. وبعده حضر دروس الميرزا حسين الخليلي والمولى محمد كاظم الآخوند الخراساني والسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي وشيخ الشريعة الأصبهاني ونظرائهم من أساتذة الفقه والأصول وبقية العلوم الإسلامية.

وكان في أيام التحصيل معروفاً بالذكاء ودقة النظر، موصوفاً بين أقرانه وخاصة بين تلامذة الآخوند الخراساني بالعبقرية العلمية، وقد حظي باحترام أساتذته وتقديرهم، ونظر إليه النابهون من أهل العلم بعين الإكبار وهو بعد في دور التلمذة.

اشتغل بالتدريس في الفقه والأصول في حياة أستاذيه الكاظمين، والتف حوله لفيف من الطلبة الشبان وأقبلوا على درسه ومحاضراته إقبالاً جعلته من المدرسين الممتازين، وذلك لما كان يمتاز به من حسن الإلقاء وعذوبة المنطق ووضوح البيان، فلا تعقيد في محاضراته ولا التواء فيما يبديه من الأفكار العلمية.

استقل بالتدريس بعد وفاة أستاذه الآخوند الخراساني في سنة ١٣٢٩، وذاع اسمه في الأوساط العلمية العالية وقرن بكبار المدرسين وأجلاء العلماء، وعرف بالتحقيق والتدقيق وإصالة الرأي وغزارة المادة والفكر الصائب، وكان مجلس درسه مفضلاً على غيره من كبار المدرسين، ولا سيما في علم أصول الفقه الذي اشتهر به وتفوق في مبانيه ومباحثه.

درّس أكثر من ثلاثين سنة في الفقه والأصول، وتخرج عليه مئات من المجتهدين الأفاضل والعلماء الأكابر وأصحاب الرأي والفتوى، وأصبحت آراؤه حجة في المشاكل العلمية وقوله الفصل عند أهل الحل والعقد، وهو يعتبر من المجددين في علم الأصول بما ابتكر من آراء سديدة ونظريات صائبة رشيدة.

(١) السيد أحمد الحسيني.

كان في مجلس درسه يمثل الحرية الفكرية بأجلى مظاهرها، يقبل على مناقشات تلامذته ويشجعهم على البحث والنقاش لتتبلور أفكارهم العلمية وتنضج آراؤهم وتخرج من الجمود.

كتب كثير من أفاضل تلامذته تقريراته الفقهية والأصولية، وطبع منها كتاب «بدائع الأفكار» للميرزا هاشم الآملي وكتاب «نهاية الأفكار».

ومن تلاميذه الذين اشتهروا بعده ورجع الناس إليهم، كل من السيد محمد تقي الخوانساري والسيد عبد الهادي الشيرازي والسيد أبو القاسم الخوئي والسيد محسن الحكيم والسيد علي الكاشاني اليثربي والشيخ عبد النبي العراقي والشيخ محمد تقي الآملي والميرزا حسن اليزدي والشيخ محمد نقي البروجردي وغيرهم.

رجع إليه في التقليد جماعة كبيرة من الإيرانيين وبعض العراقيين، وأول رسالة طبعت له تعليقته على رسالة الشيخ عبد الله المازندراني.

وكان مقامه العلمي وشهرته التدريسية في الأوساط تقتضي تقدمه على أكثر معاصريه في المرجعية وتقليد المقلدين، ولكن عدم تصديه لأمور العامة وانقطاعه إلى التدريس وتمحضه في شؤون البحث والتحقيق، أوجبت عدم تقدمه في هذا الميدان التقدم المنتظر لأمثاله من العلماء.

ترك من المؤلفات حاشية جواهر الكلام وحاشية فرائد الأصول وحاشية كفاية الأصول وحاشية المكاسب وحجية القطع (رسالة) وروائع الأمالي في فروع العلم الإجمالي، طبع بالنجف سنة ١٣٦٦ وشرح تبصرة المتعلمين، طبع بقم والشرط المتأخر (رسالة) وقاعدة الحرج وقاعدة لا ضرر والقضاء والبيع، طبع بالنجف سنة ١٣٤٥ واللباس المشكوك ورسلة ومقالات الأصول، طبع بالنجف سنة ١٣٥٨[١].

طاهر خوشنويس التبريزي بن عبد الرحمن

أشهر خطاط إيراني في القرن الرابع عشر الهجري على الإطلاق ـ ولد عام ١٣٠٧هـ في إحدىٰ قرى ناحية قراجه داغ بآذربايجان ثم هاجر مع أسرته إلى مدينة تبريز عام ١٣١٠هـ كان أبوه من علماء الدين، بدأ دراسته بقراءة القرآن وحفظه وعمره ٥ سنوات ثم في السابعة من عمره شرع بقراءة النحو والصرف واللغة والأدب ثم استمر في تعلم الفقه، وكان من صغره يهوىٰ الخط والكتابة فبدأ يتمرن في كتابة الخط دون أن يدرس على معلمٍ حيث كان يقلد خطوط مشاهير

(١) السيد أحمد الحسيني.

الخطاطين ويستمر على ذلك حتى يجيده، واستمر على هذه الوتيرة إلى أن أقر جميع أساتذة الخط وفنانوه بتفوقه في كتابة خط النسخ. ونظراً لجودة خطه فقد طبع له أول كتاب بخطه بالطبعة الحجرية وعمره لم يتجاوز ٩ سنوات وحينما بلغ عمره ١٣ سنة شرع بكتابة نسخةٍ من المصحف الشريف حيث استمر في كتابته أربع سنوات، وحينما بلغ عمره ١٧ سنة اندلعت في إيران ثورة المشروطة فاختير معلماً في عدة مدارس شعبية منها مدرسة (الفيوضات) و(الرشدية) و(مموريال) لتعليم الخط للطلاب فاستمر في التعليم مدة ١٥ سنة وبعد هذه الفترة استمر في سلك التعليم الحكومي مدة ٣٥ عاماً حيث كان المعلم الأول لتعليم الخط في مدارس تبريز الحكومية. وأخيراً في عام ١٣٧٦هـ أحيل على التقاعد حيث كان قد بلغ عمره ٧٠ عاماً. ثم في عام ١٣٩١هـ هاجر إلى طهران وقضىٰ بقية عمره فيها. وقد قامتوزارة الثقافة الإيرانية عالم ١٣٩٦هـ بتكريمه حيث أقامت له احتفالاً رائعاً في مبنى المكتبة الوطنية بتبريز، ثم قامت الوزارة بطبع كتابٍ حول حياته وآثاره.

توفي عام ١٣٩٧ في طهران.

قام بكتابة عشرات الكتب والرسائل خلال حياته ولكثرة هذه الأعمال فإنه يصعب على المتتبع حصرها. وأهم الكتب التي كتبها بخط يده وطبعت مرات عديدة وبعضها عشرات المرات وفي ملايين النسخ مثل القران ومفاتيح الجنان هي:

القرآن الكريم ـ معالم الأصول للشهيد الثاني ـ خلاصة النحو ـ نفثة المصدور ـ الصراط المستقيم ـ ذخيرة المعاد ـ صراط المنعمين ـ مفاتيح الجنان ـ بحر المعارف ـ ديوان ـ أبواب الجنات ـ رباعيات الخيام ـ كفاية الأصول ـ حاشية الأردبيلي على كفاية الأصول ـ مصباح الفقيه ـ جامع المقدمات ـ تهذيب المنطق للتفتازاني ـ الألفية لابن مالك ـ منتهى الآمال ـ تبصرة المتعلمين ـ هداية الطالب إلى أسرار المكاسب ـ گلستان سعدى ـ كتاب شواهد السيوطي ـ الصحيفة السجادية مع ترجمتها[١].

السيد طالب بن محمد طالب المازندراني

ولد في «مشهد سر» من أعمال مازندران، وكتب بعض الأحاديث وكتاب «اللهوف» للسيد ابن طاوس في سنة ١١١٩.

فاضل أديب شاعر بالفارسية. وشعره الذي رأيته في المرائي[٢].

(١) الشيخ محمد رضا الأنصاري.

(٢) السيد أحمد الحسيني.

الشيخ علي البازي بن حسين :

ولد في النجف سنة ١٣٠٥ وتوفي سنة ١٣٨٧ .

اشتهر بما كان ينظمه من المقطعات الشعرية مؤرخاً بها وفيات المشاهير وغير ذلك من بعض الأحداث . وقد أصدر كتاباً سماه (أدب التاريخ) كتبت عنه وعن مؤلفه مجلة (الموسم) ما نأخذه هنا بنصه :

كتاب (أدب التاريخ) لمؤرخ العراق وشاعره الراحل الشيخ علي البازي وقد كتبه بخطه في فترات مختلفة من حياته ، والكتاب عبارة عن مقطوعات شعرية تنتهي عادة بالبيت الذي يُؤرخ للحدث على حساب الجمل ، وهي طريقة استعملها القدماء وظلت تستعمل حتى قرننا الحالي وان قل استعمالها الآن ، وتعتبر من الفنون الأدبية التي شاعت عند الفرس والترك والهند والسند أيضاً وما زال استعمالها شائعاً لديهم وهذا التاريخ ليس مقتصراً على الشعر فقط بل هو معروف في النثر أيضاً ، والبحث عن تاريخ الفن يحتاج إلى بحث طويل ليس هذا محله .

كما أن نظم التاريخ ليس عملية سهلة . . . إنه فن قائم بذاته وموهبة خاصة ، والذين اتقنوه قلة نادرة وقد لا يتمكن أمهر الشعراء من نظمه ، واشتهر في العراق المعاصر جمهرة من الشعراء في نظم هذا اللون من الفنون ، ومنهم الحاج عبد المجيد الحلي العطار الذي لُقب بناسخ التواريخ لبراعته في هذا الفن وهو أستاذ صاحبنا الشيخ علي بن حسين بن جاسم بن نصيف البازي الكوفي مؤلف (أدب التاريخ) الذي نحن بصدده الآن ، والشيخ البازي من مواليد محلة الحويش بالنجف سنة (١٣٠٥ هـ - ١٨٨٨ م) وفيها نشأ وأخذ المقدمات على الشيخ عباس أفندي والسيد باقر القزويني والشيخ عبد الأمير الفلوجي ودرس أيضاً في بعض المدارس الدينية النجفية . انتقل إلى طويريج (قضاء الهندية) واتصل بالسادة القزاونة وكانوا أدباء المنطقة وفضلاءها فاستفاد من خبرتهم العلمية والأدبية ، واشتهر البازي منذ صغره بنظم الشعر بنوعيه القريض والعامي وعرف بنشاطه الواسع في المجالات الأدبية ومشاركاته في أغلب المناسبات الدينية والإجتماعية والسياسية في العراق ونادراً ما كانت تفوته مناسبة إلّا ونظم فيها قصيدة أو مقطوعة أو ذكرها بأدبه التاريخي .

وبعد سنين قضاها في طويريج نزح إلى (الكوفة) واستقر بها طيلة حياته حتى نسب إليها وحسب عليها .

وله مؤلفات منها :

١ - وسيلة الدارين ديوان شعر جمع فيه المراثي والمدائح الحسينية بالشعر الشعبي له ولمعاصريه من الشعراء طبع في جزئين - النجف .

٢ - ديوان البازيات (شعر شعبي) ثلاثة أجزاء - مخطوط .

٤ - تسلية الواله : شعره المنشور في المجلات والصحف العربية .

٥ - ملحمة ثورة العشرين - قصيدة طويلة عن تاريخ ثورة العشرين .

٦ - أدب التاريخ : عبارة عن ديوان يضم المئات من التواريخ الشعرية التي نظمها البازي خلال حياته في مختلف المناسبات الدينية والوطنية وفي الأفراح والاتراح ، وهو سجل حافل لتواريخ مهمنة للعراق خاصة وللوطن العربي والإسلامي عامة . وإليك نماذج من تواريخ الوفيات .

قال مؤرخاً وفاة السيد حسين بن السيد معز الدين السيد مهدي القزويني في ٢٦ ذي الحجة ١٣٢٥ هـ :

بعد الحسين الندب كهف الورى   هل يجدها النوح وصفق اليدين
عليه أملاك السما اعولت   وانفجرت دمعاً له كل عين
يا ناعياً تاريخه (قل به   اذهلها فقد الامام الحسين)

وقال مؤرخاً وفاة الشيخ حمادي آل نوح الحلي - في الحلة سنة ١٣٢٥ :

بكتك محافل الأدباء يا من   لها قد كنت بالآيات توحي
قوافي الشعر ارّخنا (حداداً   تنوح على افتقادك يابن نوح

وقال مؤرخاً وفاة الشيخ محمد طه نجف في النجف ١٣٢٣ :

أثكل الدين لّما غاب عنه الزعيم
حجة الله طه والصراط القويم
قد رزينا فأرخ (فيه رزءاً عظيم)

وقال مؤرخاً وفاة السيد هادي بن السيد ميرزا صالح القزويني النجفي في طويريج ١٤ ربيع الأول ص ١٣٤٧ :

الله أيّ مصيبة قد عمت الـ . . .   . . . ـدنيا اسىً والروح قام ينادي
جلّت وجلّ الخطب في تأريخها   (وبكى له الشرع الشريف الهادي)

وقال مؤرخاً وفاة السيد هادي آل مگوطر بالشنافية سنة ١٣٤٢ :

مذ غيب الهادي لدى افتقاده   عنّا اسىً خبا ضياء النادي
يا ناعي الايمان والتقوى معاً   ارخت (قل غاب الزعيم الهادي)

وقال مؤرخاً وفاة الشيخ كاظم سبتي السهلاني الخطيب في النجف ١٣٤٢ :

مات الخطيب العلم الفرد الذي   قد فاق كل ناثرٍ وناظم
ومنبر السبط بكى وا أسفاً   تاريخه (من بعد فقد الكاظم)

وقال مؤرخاً عام ارسال السلطان عبد الحميد العثماني الجيوش بقيادة القائد أحمد فيضي باشا لنجدة أمير حائل عبد العزيز ابن الرشيد في حربه مع ابن سعود ، وكان الجيش العثماني قد عسكر في النجف أياماً :

ابن السعود مد عصى مليكه بنجده
فيضي له أرخته غادرنا بجنده

وقال مؤرخا قيام الحكم الدستوري النيابي في عهد السلطان عبد الحميد سنة ١٣٢٦ :

قد نقم الشعب على نظامه   ذاك الذي عبد الحميد نظمه
وشعبه على انقلاب حكمه   ثار عليه ارخه فأرغمه

وقال مؤرخاً موقعة (الشعيبة) التي خاضها المجاهدون العراقيون منضمين إلى الجيش العثماني في الهجوم على الإنكليز المعسكرين في الشعيبة قرب البصرة وفشل ذلك الهجوم :

حـرب الـشـعـبـيـة لمـا مـنـهـا رجـعـنـا بـخـيـبـة
مـقـاصـد الخـصـم أرخ تـأكـدت في الـشـعـبـيـة

الشيخ علي محمد بن حسين الهمداني الخوانساري أصلاً والمتخلص بأسير ثم آزاد والمشهور بآزاد الهمداني :

ولد في همدان سنة ١٣٠٢ وتوفي بها في سنة ١٣٦٥ .

من أعلام الأدب وفحول الشعراء المتفننين ، محقق كاتب .

أخذ المقدمات والعلوم العربية وفنون الأدب على أفاضل علماء همدان ثم تخرج في الفقه والأصول والفلسفة على أعلام همدان وطهران وتولع بالأدب والشعر وتلقاهما بجد واتقان ونبغ فيهما . وكان يتخلص في أوائل عمره (بأسير) ثم استبدل به (آزاد) لذا عرف بآزاد همداني ، وكان يتقن اللغة الفرنسية والإنجليزية وله بعض المقالات والبحوث نشرت في مجلة أرمغان الطهرانية وله مؤلفات مخطوطة ومن آثاره المطبوعة الجزء الأول من كتابه (عشق وأدب يا داستان حكيم أبو القاسم فردوسي) ، وطبع ديوانه الذي يحتوي على حوالي ثلاثة آلاف بيت مع مقدمة مفصلة بقلم كيوان سميعي في طهران عام ١٣٥٦ هجرية شمسية . ذكره جماعة من المؤرخين منهم صاحب كتاب بزرگان همذان في الجزء الثاني صفحة ٢٧٤ وخانبابا مشار في : مؤلفين كتب چاپي الجزء الرابع صفحة ٥٧٧ وغيرهم .

السيد علي بن السيد دلدار علي غفران مآب

ولد سنة ١٢٠٠ في لكهنو (الهند) وتوفي سنة ١٢٥٩ في كربلا .

درس أولاً في لكهنو ثم سافر العراق فتابع دراسته في كربلا ، وزار خراسان ثم عاد إلى كربلا فكان من أساتذته فيها السيد كاظم الرشتي الذي أجازه .

من مؤلفاته : ترجمة وتفسير للقرآن ، ورسالة عن فدك ، ورسالة في القراءة ، الرد على الأخبار بين .

السيد الدكتور علي بلگر أمي بن زين الدين خان

ولد في قضاء لكهنو (الهند) سنة ١٢٦٨ وتوفي سنة ١٣٢٩ .

هو من أسرة هندية عريقة وكان جده المولوي كرم حسين سفيراً لدولة (اود) وكان عالماً جليلاً ، ووالده زين الدين خان كان جامعاً بين العلوم القديمة والحديثة وكان من كبار موظفي الإدارة الحكومية ، وعندما تقاعد استقر في حيدر آباد .

درس المترجم أولاً العربية والفارسية والعلوم الإسلامية والأدب الإنكليزي ، ثم درس بعد ذلك اللغة السنسكريتية ، وألمّ بالألمانية واللاتينية والفرنسية والبنغالية والمرهيتية والتلنگية والكجراتية والهندوسية .

حصل على شهادة بي أي) من (بتنه) ودرس الحقوق وفاز بشهادتها . وفي سنة ١٨٨٧ م طلبه سالار جنك في حيدر آباد وأخذه إلى لندن حيث نال هناك شهادة الدكتوراه في علم (طبقات الأرض) عكف على مطالعة كتب الفلسفة والتاريخ ، وتجول في بريطانيا وفرنسا وأسبانيا وألمانيا وإيطاليا . كما نال بعد ذلك شهادة الدكتوراه في الحقوق من جامعة كلكته في الهند .

وفي خلال وجوده في حيدر آباد كان من عوامل تطورها العلمي وقد أسس فيها (مؤسسة العلوم والفنون) ، كما كانت له جهود في تطوير جامعة علي گر .

من مؤلفاته : تمدن العرب ، تمدن الهند ، انتخاب تاريخ الهند ، طلسم أعضاء الإنسان فضلاً عما نشر من بحوث ودراسات كثيرة .

علي الهاشمي السنجاني

ولد في سنجان من قرى مدينة أراك (إيران) وكان من ضحايا انفجار المكتب المركزي للحزب الجمهوري الإسلامي في طهران سنة ١٩٨١ م .

كانت دراسته الأولى في قريته ، ثم بدأ بتلقي العلوم الإسلامية في نفس القرية على الشيخ عطا الله السنجاني ، ثم انتقل إلى أراك لمتابعة الدراسة في مدرسة الحاج محمد إبراهيم . وبعد فترة دراسية غادرها إلى الحوزة العلمية في مدينة قم حيث أكمل دراسته فيها .

عرف خطيباً مناضلاً على منابر أراك وقم وطهران والمدن الشمالية ، مما أدى إلى اعتقاله من قبل السلطات . ثم منع من الخطابة لعدة سنين .

وكان شاعراً ترك العديد من القصائد .

علي أكبرسياسي

المحقق والمؤلف والأستاذ الجامعي ولد عام ١٣٣٤ وتوفي ١٤٠١ في طهران درس بها ثم سافر إلى فرنسا وحصل على الدكتوراه من جامعة السوربون وعاد إلى إيران فصار أستاذاً في كلية الحقوق والعلوم السياسية ثم رئيساً لجامعة طهران .

كان يعد من الوجوه العلمية والثقافية في إيران وقد ألف أكثر من ١٢ كتاباً في مواضيع مختلفة لعلم النفس والاجتماع والأخلاق والأدب والشعر والقانون حاز على دكتوراه فخرية من عدة جامعات أوروبية[1] .

علي أكبر شهابي

ولد في مدينة بيرجند سنة ١٣٢٨ هـ وتوفي عام ١٤٠٨ هـ درس العلوم الإسلامية في مسقط رأسه ثم في مدينة مشهد ثم صار معلماً بمدارس طهران وثانوياتها وأخيراً انتقل إلى جامعة طهران حيث كان يدرّس اللغة العربية ثم تقلد منصب مدير دائرة الأوقاف . حصل على الدكتوراه في العلوم الإسلامية . له مؤلفات عديدة منها : آثار محمد بن جرير الطبري ، أصول الصرف ، أصول النحو ، ترجمة كتاب تعبير الرؤيا لابن سينا ، حياة الشاعر نظامي - وغيرها[2] .

السيد علي شاه الرضوي بن صفدر شاه

ولد سنة ١٢١٧ في لكهنو وتوفي فيها سنة ١٢٦٩ .

درس أولاً على والده وزار العراق سنة ١٢٣٩ فمكث فيه سنة ثم عاد إلى وطنه فسكن في فرخ آباد . وفي أواخر سنة ١٢٤٠ عاد إلى العراق للدراسة في النجف وكربلا فكان من أساتذته الشيخ مرتضى الأنصاري والشيخ موسى والشيخ علي آل كاشف الغطاء والسيد مهدي الطباطبائي والشيخ محمد حسن

---

(١) الشيخ محمد رضا الأنصاري

(٢) الشيخ محمد رضا الأنصاري .

صاحب الجواهر ، وبقي في العراق اثنتي عشرة سنة عاد بعدها إلى فرخ آباد . وفي سنة ١٢٥٢ عاد إلى لكهنو .

من مؤلفاته : معيار الأحكام في شرح شرائع الإسلام ، كفاية المستفيد في مباحث الاجتهاد والتقليد ، تحقيق الصواب في مباحث الاستصحاب ، كاشف القناع عن حجية الإجماع ، كاشف الغمة في أصالة براءة الذمة ، الفوائد العلوية في المسائل الفقهية ، حجية المراسيل ، رسالة في تداخل الأسباب .

علي بن طيفور

توفي سنة ١١٠٠ في الهند .

كان عالماً فاضلاً من سكان حيدر آباد الدكن (الهند) وكان السلطان قطب شاه كثير الاحترام له .

كان مؤلفاً مكثراً ، ألف في الأخلاق والقانون والحديث والفقه ، ومن مؤلفاته : تحفة قطب شاهي ، تحفة ملكي ، ترجمة عيون أخبار الرضا ، ترجمة كتاب الشيخ الصدوق .

الشيخ أبو الحسن بن الشيخ ملا علي البروجردي الطهراني .

توفي حدود سنة ١٢٩٥ .

من أكابر الفقهاء ومراجع التقليد في طهران . أخذ المقدمات على أفاضل علماء عصره وحضر السطوح على والده ملا علي البروجردي وتخرج في الفقه والأصول على ملا محمد صالح البرغاني وشقيقه الشهيد الثالث البرغاني ثم حضر في الحكمة والفلسفة على الملا آغا الحكمي القزويني وسكن طهران وانتهت إليه الرياسة الدينية . وكان والده ملا علي البروجردي من أجلاء العلماء وأكابر الفقهاء ، صاهر الميرزا أبو القاسم القمي صاحب القوانين المتوفى سنة ١٢٣١ على ابنته ورزق منها الآغا جمال الدين البروجردي والد الآغا منير البروجردي ذكره شيخنا الأستاذ آغا بزرگ الطهراني في طبقات أعلام الشيعة[1] وترجم له مفصلاً الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة في كتابه المآثر والآثار ووصفه بأنه من كبار علماء العصر القاجاري سكن طهران في محلة (سرتخت) وكان يقيم الجماعة في مسجد (سرتخت) وله شهرة واعتبار عظيم[2] وكان نجل المترجم له الآغا جلال الدين من فحول علماء طهران وقام مقام والده[3] .

الشيخ علي بن الشيخ عبد الله بن الشيخ علي الستري البحراني :

قتل مسموماً في بندرلنگه الإيراني سنة ١٣١٩ ودفن هناك . ذكره في أعيان الشيعة (المجلد الثامن صحيفة ٢٦٨) في ترجمة مختصرة ونزيد على ذلك ما يلي :

فقيه متبحر أصولي محقق أديب شاعر .

ولد ونشأ في البحرين وأخذ المقدمات وفنون الأدب على أفاضل علماء البحرين ثم تخرج في الفقه والأصول على والده كما كان شريكاً في البحث مع الشيخ أحمد بن صالح آل طعان والسيد ناصر آل أبي شبانة حتى بلغ درجة

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

سامية في العلم والفضل ثم هاجر في حياة والده من البحرين إلى عمان وسكن مدينة مطرح من بلاد عُمان وتصدر كرسي الفتوى والإمامة وسائر الأمور وكان من مراجع التقليد في تلك النواحي واهتدى به كثير من الضالين في عمان لا سيما الطائفة المعروفة بـ (الحيدر آبادية) فكانوا أصحاب جهل وتهاون بالدين وعلى أثر بعض الشغب غادر عمان إلى بندرلنگه من موانيء إيران على خليج فارس وتصدر للرياسة والزعامة الدينية ذكره الشيخ علي البلادي البحراني في أنوار البدرين ووصفه قائلاً : (العالم العامل والمجتهد الكامل المحقق المجاهد لأعداء الدين والمرابط في سبيل الله في الثغر الذي يلي إبليس القوي اللعين . العالم الرباني الشيخ علي بن الشيخ عبد الله بن الشيخ علي الستري البحراني انتقل من البحرين وسكن مسقط ثم سكن لنجة في أواخر عمره وبها توفي كان رحمه الله تعالى من العلماء الأعلام والفقهاء الكرام والنقاد الكرام العظام ومن رؤساء أهل النقض والابرام والإجتهاد التام ومن نظر إلى مصنفاته وتحقيقاته عرف صدق ما قلناه وحقيقة ما ذكرناه ، انتقل من البحرين وسكن مطرح في زمان والده وهدى الله به أهل تلك الديار ولا سيما الطائفة المعروفة بالحيدر آبادية فكانوا ببركاته ذوي معرفة ودين وثبات ويقين بعد أن كانوا أصحاب جهل وتهاون بالدين وأقام بها مدة مديدة في غاية الاعزاز والإكرام مشتغلاً بالتصنيف والعبادة والمطالعة والتأليف متصدياً لأجوبة المسائل وإيضاح الدلائل ، ثم بعد تلك حدثت قضية أوجبت خروجه منها وسكن بلدة لنجة من توابع إيران إلى أن أدركه الأجل المحتوم . . . وسمعت من بعض المطلعين إنه مات شهيداً مسموماً ولعنة الله على الظالمين . . .) .

ترك المترجم له مؤلفات كثيرة تدل على مكانته العلمية وغزارة علمه وجامعيته في جميع العلوم . من مؤلفاته كتاب لسان الصدق في الرد على كتاب ميزان الحق لبعض النصارى طبع في الهند ثم أعيد طبعه في مصر ، كتاب (قامعة أهل الباطل) في الرد على بعض المحرمين لتعزية الحسين عليه السّلام ، كتاب (منار الهدى) تعرض فيه لنقض كلام ابن أبي الحديد المعتزلي وللرد على كلام القوشجي في شرح التجريد ، كتاب (الأجوبة العلية للمسائل المسقطية) وقد جمعها تلميذه وابن أخته الشيخ أحمد بن محمد البحراني ، رسالة عملية في الطهارة والصلاة لعمل مقلديه ، رسالة في التوحيد ، رسالة في التقية وأحكامها ، رسالة في المتعة ، رسالة في الفرق بين الإسلام والإيمان وتحقيقهما ، رسالة في نفي الإختيار في الامامة عقلاً ونقلاً ، رسالة في وجوب الاخفات بالبسملة ، أجوبة مسائل ، ديوان شعر[2] .

الشيخ زين الدين أبي الحسن علي بن عبد الجليل البياضي .

كان حياً في رجب سنة (٥٤٤ هـ) مر ذكره في أعيان الشيعة ج ٨ ص ٢٦١ ونزيد على ما هناك ما يلي :

كان من علماء الشيعة وأكابر المتكلمين فيهم مناظر مجادل محقق لم أقف على تاريخ ولادته ووفاته ، أخذ العلم والحديث على أفاضل علماء عصره ثم هاجر إلى مدينة الري وتصدر للتدريس والفتوى وتخرج عليه جماعة منهم الشيخ منتجب الدين بن بابويه الذي قرأ عليه مصنفاته وكذلك روى عنه الشيخ مسعود بن محمد بن الفضل الرازي في رجب سنة (٥٤٤ هـ) كما جاء في الإجازة الكبيرة لبني زهرة الحلبيين ووصفه تلميذه منتجب الدين بن بابويه

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

قال : (الشيخ زين الدين علي بن عبد الجليل البياضي المتكلم نزيل دار النقابة بالري .

ورع ، مناظر له تصانيف في الأصول منها الإعتصام في علم الكلام ، والحدود ، ومسائل في المعدوم والأحوال شاهدته وقرأت بعضها عليه)[١] .

ونقل نص العبارات الحر العاملي في كتابه أمل الآمل[٢] وميرزا عبد الله الأفندي الأصفهاني في رياض العلماء[٣] ونقل نص العبارات الأردبيلي الحائري في كتابه جامع الرواة[٤] ووصفه العلامة الحلي في الإجازة الكبيرة لبني زهرة الحلبيين (بالشيخ زين الدين ضياء الإسلام أبي الحسن علي بن عبد الجليل البياضي . . .) وقال شيخنا في طبقات أعلام الشيعة (ويروي عنه في بلد الري في أول رجب (٥٤٤ هـ) الشيخ مسعود بن محمد بن أبي الفضل الرازي المجاور لمشهد أمير المؤمنين (عمل ليلة الرغائب . . .)[٥] .

السيد الإمام الرئيس ضياء الدين علي بن السيد علي الحسيني الأفطسي آل زبارة البيهقي .

كان حياً في سنة ٥٦٣ .

كان شاعراً فحلاً في اللغة الفارسية والعربية ومن أكابر علماء الشيعة في بيهق أخذ العلم والفنون الإسلامية على أفاضل مدينة بيهق وأولع بالشعر والأدب وله نظم بالعربية والفارسية . ذكره ابن فندق المتوفى عام ٥٦٥ في كتابه تاريخ بيهق ووصفه : (بالسيد الإمام الرئيس الزاهد ضياء الدين علي من مفاخر مدينة بيهق صاحب السجايا الحميدة والأخلاق الكريمة . . .) ثم ذكر قسماً من شعره ونقل عنه شيخنا في طبقات أعلام الشيعة في ترجمة شقيقه السيد بهاء الدين محمد الحسيني الأفطس الزبارة البيهقي المتوفى سنة ٥٤٩[٦] ولم يذكره في ترجمة مستقلة .

والمترجم له من أسرة آل الزبارة من أعرق الأسر العلمية العلوية في بيهق نبغ منها علماء وشعراء ونقباء منهم المترجم له وله ديوان بالعربية وديوان بالفارسية ومن شعره في وصف تفاحة :

أهدى إلي بهاء الدين من لطف	تفاحة قطفت من خد مهديها
وجدت طيب سجاياه العذاب إذا	شممتها وغدت للروح تحييها
مهما نظرت إليها قلت من عجب	سبحان خالقها سبحان باريها[٦]

السيد أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن هبة الله بن أبي الحسن علي بن أبي جعفر محمد الحسيني الزباري البيهقي من أحفاد أبي جعفر أحمد بن محمد الزبارة بن عبد الله المفقود بن الحسن المكفوف بن الحسن الأفطس بن علي الأصغر بن الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السّلام .

كان حياً في سنة ٥٥٨ .

من العلماء وأعيان السادات العلويين نقيب الطالبيين في بيهق . أخذ العلم والفنون الإسلامية على أفاضل مدينة بيهق وانتهت إليه الرياسة والفتوى والزعامة الروحية والإجتماعية . وكانت نقابته بعد وفاة أخيه الأكبر السيد ركن الدين حسن نقيب بيهق المتوفى سنة ٥٤٣ وقد أهدى إلى المترجم له أبو الحسن علي بن زيد البيهقي المعروف بابن الفندق المتوفى سنة ٥٦٥ شرحه على نهج البلاغة وقال في أوله : (وخدمت بهذا الكتاب خزانة كتب الصدر الأجل السيد العالم عماد الدولة والدين جلال الإسلام والمسلمين ملك النقباء في العالمين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن هبة الله الحسيني - إلى قوله : - وإذا ذكرت الأئمة والعلماء فهو سيدهم وهمامهم . . .) . ووصفه في كتابه تاريخ بيهق قائلاً : (السيد الأجل الكبير العالم عماد الدين ملك الطالبية أبو الحسن علي . . .) وألف البيهقي أيضاً بأمر المترجم له كتاب (لباب الأنساب) وشرع فيه في جمادى الآخرة وفرغ منه في شهر الصيام سنة ٥٥٨ وكان المترجم له معه يومئذ في بيهق فعرفنا حياته إلى هذا التاريخ . خلف ثلاثة أولاد كلهم من العلماء والفضلاء وهم السيد جلال الدين عزيز وتاج الدين محمد وركن الدين الحسن وأم السيد عزيز هي بنت جمال الدين الحسن بن علي البيهقي من أحفاد علي بن حمزة الكسائي النحوي الكوفي أحد القراء السبعة المتوفي سنة ١٨٩[٧] .

الشيخ علي زين ابن الشيخ محمد

ولد سنة ١٨٧٥ م في قرية (قليا) في البقاع الغربي بلبنان وتوفي فيها سنة ١٩٦٣ م .

تعلم القراءة والكتابة في مدرسة القرية ولم تمكنه ظروفه المادية من إكمال تعليمه ، ولكنه كان ذكياً طموحاً إلى المعرفة فاستفاد من معاشرة العلماء والأدباء والشعراء والمطالعة المتواصلة ونظم الشعر على السليقة بدون دراسة لقواعد النحو ، كما نظم الأزجال باللهجة المحكية .

كان في منطقة البقاع الغربي ذا منزلة اجتماعية يرجع إليه في المشاكل والمنازعات ، وكان بيته في (قليا) ملتقى الضيوف .

الشعر

قال في رثاء صاحب (أعيان الشيعة) من قصيدة :

لنواك وجه الدين قاتم	اسفاً وثغر الخلد باسم
لا حيلةً إلا الدموع	المستهلات السواجم
والناس بين مطأطىء	رأساً عليك وبين واجم
يتحدثون بمأتم	انساهم قاضي المآتم
لاغروا أن شمل الأسى	شرق الأعارب والأعاجم
فلأنت حاكم شرعةٍ	خضعت لفتواك المحاكم
يا قبلة الأنظار أن	تاه الدليل عن المعالم

ياقبة الشرق التي	قامت على أرسى الدعائم
يا محسنٌ أنت الأمين	ابن الأمين سليل هاشم
لك بين أعمار الورى	عمرٌ بطيب الذكر دائم
هرم الزمان من السنين	وأنت موفور العزائم

(١) منتجب الدين بن بابويه الرازي : الفهرست : تحقيق الدكتور جلال الدين المحدث ص ٧٩ .

(٢) انظر أمل الآمل : تحقيق السيد أحمد الحسيني ج ٢ ص ١٩١ الطبعة الأولى (١٣٨٥ هـ) .

(٣) انظر رياض العلماء تحقيق السيد أحمد الحسيني ج ٤ ص ٨٦ - ٨٧ قم .

(٤) الشيخ محمد الأردبيلي الحائري : جامع الرواة ج ١ ص ٦٨٨ .

(٥) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٦) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٧) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

وطالبه الدكتور أديب رحال صاحب جريدة (المرج) ببدل الاشتراك بالجريدة فكتب إليه :

إلى الأديب أمير العلم والعمل من المحب رئيس المفلسين علي
جواب صدقٍ قضت فيه مطالبة بقيمة بقيت عندي من البدل
فالمال عندي بحقٍ لست أنكره ولا أقابله بالمطل والحيل
وما خللت بوعدٍ أو معاملةٍ ولا أحب حياة النفس بالخلل
إنّ الذي عن طريق الدفع أوقفني توقف الناس عن دفع الدراهم لي
كم كنت في الزمن الماضي أقدم للأخوان والخل مالي حين كنت ملي
فيا فتى المرج يا نعم الأديب ويا طبيبه المبريء العاني من العلل
صبراً فنفسك في وسعٍ ونفسي في ضيق تبيت من الأفلاس في وجل
وعن قريبٍ إذا ما الله ساعدني أقدم البدل المطلوب بالعجل

علي بن محمد الايادي التونسي

كتب محمد اليعلاوي بحثاً عن (شعراء أفريقيين عاصروا الدولة الفاطمية) ، بدأه بالحديث عن (علي الايادي) . ونحن نأخذ هنا بعض ما كتبه ، مشيرين إلى أن ما طمس ذكر الايادي وغير الايادي ، هو أن الذين جاءوا بعدهم غلبت عليهم النعرات المذهبية فتجاهلوهم ، وقد مر معنا مثال لذلك فيما تقدم من الدراسات مثل ترجمة (أحمد بن الجزار وغيرها) .

قال محمد اليعلاوي :

بدأنا بعليّ التونسيّ لأنّه هو الذي نعرف عنه أنه عاصر حقّاً ابن هانيء شاعر المعزّ الفاطميّ . بهذه المعاصرة يشهد الخبر الذي ورد في العمدة[1]

« . . . ولما وصل أبو القاسم (محمد) بن هانيء إلى افريقية هجاه الشعراء ،
« فقال لا أجيب منهم أحداً إلا أن يهجوني عليّ التونسيّ ، فاني أجيبه . فلمّا
« بلغ قوله عليّاً ، قال : أما أني لو كنت الأم الناس ما هجوته بعد أن شرّفني
« على أصحابي وجعلني من بينهم كفؤاً له » .

ونحن نستنتج أن عليّاً هذا كان شاعراً مشهوراً بالقيروان في منتصف القرن الرابع ، وإن شهرته تجاوزت القيروان إلى بقيّة عواصم المغرب وحتّى إلى الأندلس . ذلك أن محمد بن هانيء دخل افريقيّة ، أي القيروان أو عاصمة المعز ، صبرة / المنصوريّة ، حوالي سنة ٩٦٤/٣٥٣ ، وكان قادماً من المسيلة حاضرة الزاب الجزائري . فإذا كان له ، عند مقدمه إلى القيروان ، علم بمكانة الايادي ، فهذا يعني أنّ شهرة الأياديّ تجاوزت البلاط العبيديّ[2] والقيروان .

ولا غرابة أن ينتشر صيته فيصل على الأقلّ إلى المسيلة واقليمها فالايادي أصيل تلك الجهة ، على الرغم من دعوته بـ « التونسيّ » ، أي المولود بمدينة تونس آنذاك . و « اياد » هذه التي يُنسب إليها ليست بالضرورة قبيلة « اياد بن نزار » جدّ العرب العدنانيّين ولا قبيلة قسّ بن ساعدة الايادي . وإنما هي فرع من قبيلة « الأثباج » التي كانت نازلة بجبال « المعاضيد » شمالي شطّ الحضنة والمسيلة . والأثباج ، مثل زغبة ورياح ، بطن من بني هلال[3] .

وقد يعني هذا الانتساب أن بعض فروع بني هلال كانت قد استقرت بالمغرب قبل الزحف الهلاليّ بكثير . ومهما يكن من أمر ، فالايّاديّ مشترك بين الجزائر وتونس ، مثل ابن هانيء نفسه . وقد وصف هذه الجبال التي يرجع إليها نسبة الأوّل ، وذلك حين عرض لمقتل أبي يزيد الخارجيّ ، ومعلوم أنّ صاحب الحمار قد اعتصم في نهاية أمره بجبل « كيانة » ، في مجموعة جبال المعاضيد ، ومنها أخذ وقتل .

ثورة صاحب الحمار

ونرى هنا أن نوجز أحداث صاحب الحمار ، ثم ننقل ما ذكره الكاتب التونسي محمد اليعلاوي عن مواقف بعض فقهاء القيروان من هذه الثورة ومواقف بعض الشعراء وكيف أن أولئك الفقهاء . آثروا مناصرة الخوارج الصفرية الذين يكفرون علياً بن أبي طالب وعثمان بن عفان ، ويكفرون جميع المسلمين ممن لم يعتنق عقيدتهم ، آثر أولئك الفقهاء مناصرتهم وقاتلوا الفاطميين معهم :

أبو يزيد هذا الملقب بصاحب الحمار ، هو مخلد بن كيداد من معتنقي مذهب الخوارج . كان في أول أمره معلماً للأولاد وكانوا يتصدقون عليه ولزم مسجداً يعلم فيه الأطفال وليس جبة صوف وعلى رأسه قلنسوة صوف وفي عنقه سبحة ، وصارت له جماعة يعظمونه ويسمعون منه ، وذلك من أيام الخليفة الفاطمي الأول (المهدي) ، ولم يزل على ذلك إلى أن اشتدت شكيمته وقويت شوكته فنشر غاراته في بلاد البربر .

وفي أيام الخليفة (القائم) نزار عظم أمره وأفسد البلاد وحصر (باغاية) و (قسطيلية) وفتح (مجانة) وهناك أهدي له حمار أشهب كان يركبه ودخل به بلاد تونس ونهب (الأربص) فغر الناس إلى جامعها فقتلهم فيه وافتض أصحابه فيه الابكار . وأرسل القائم جيشاً لحراسة بلاد باجة فسمع به أبويزيد فرحل إليه وجعل كل ما مر على مكان أفسده وسبى حريمه ، والتقى جيش القائم فهزمه الجيش أولاً ، وعاود معه القتال ثانياً فهزم الجيش ودخل أبو يزيد مدينة باجة بالسيف وأباحها ثلاثاً وحرق ديارها وسبى نساءها وعبث بالأطفال الرضع وفعل بأهلها العجائب فخافته جميع القبائل وأتوه طوعاً وكرهاً . وبعث جيشاً إلى مدينة تونس فخرج إليه التونسيون فهزموه ، ووقعت فتنة بتونس فكاتب أهل تونس أبا يزيد فأمنهم وولى عليهم رجلاً منهم . وتوالت أحداثه سجالاً حتى نزل على أربعة أميال من القيروان ومن الغد نزل في شرقي (رقادة) في مئة ألف بين فارس وراجل وزحف إلى القيروان فهزم أهلها ودخلت البربر القيروان فنهبوا وافسدوا . وأتاه الخبر أن عسكراً قادم من نحو (القائم) فنادى في القيروان : من تخلف عن الجهاد معي حل دمه وماله ، فنفر معه خلق كثير والتقى مع عسكر القائم فانهزم هذا العسكر حتى بلغ المنهزمون المهدية . وبعث سراياه إلى البلاد والحصون التي بها على البحر وأخذ جميع ما فيها من أقوات وسلاح . وفتح مدينة (سوسة) وحرق المنازل وسبى النساء ومثل بالناس بقطع الأيدي والأعضاء وشق فروج النساء

(١) ابن رشيق : العمدة ، نشر عبد الحميد ج ١ ص ١١١ .

(٢) لم تقتصر العصبية على العصور الماضية ، بل هي لا تزال مستمرة حتى هذا العصر ، فهؤلاء الكتاب تأبى عليهم العصبية أن يسموا الفاطميين باسمهم فينعتونهم بالعبيديين ح) .

(٣) انظر الفصل الذي كتبه ب . ماسيارا ، عن « المسيلة من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر » بـ « نشرة الجمعية التاريخية والجغرافية لجهة سطيف » (بالفرنسية) سنة ١٩٤١ ص ١٨٣ . وانظر كذلك فصل هـ . ر . إدريس عن « بني هلال » بدائرة المعارف الإسلامية الطبعة الجديدة .

ويقر بطونهن وفرت الناس إلى القيروان حفاة عراة ومات الناس جوعاً وعطشاً ونهب مدينة تونس . وفي سنة ٣٣٣ أمر القائم بحفر خندق على أرباض المهدية . ونزل أبو يزيد قريباً من المهدية ونهب ما حولها وخرج إليه جيش القائم فهزمه أبو يزيد ومضى إلى الخندق ، وهاجم المهدية من البحر ، وبلغ مصلى العيد ولم يبق بينه وبين المهدية الارمية سهم . ثم قويت نفوس أهل المهدية وتحاموا واقتتلوا قتالاً شديداً فازالوا أبا يزيد وأصحابه عن البلد ، وأتته جميع القبائل من طرابلس ونفوسة والزاب وأقاصي المغرب . وكان عامة جنده من البربر .

وحاصر المهدية أشد حصار ومنع عنها الداخل والخارج وهاجمها مرتين ، وفي المرة الثالثة انهزم عنها وقتل من أصحابه خلق كثير ، وظل على حصارها فلقيت الشدائد حتى أكل أهلها الميتة والكلاب والدواب .

وفي سنة ٣٣٤ وقع اختلاف في عسكر أبي يزيد فتفرقت جموعه ولم يبق معه إلا ثلاثون رجلاً فرجع إلى القيروان . فأرسل القائم عمالاً إلى البلاد وأخرجوا عمال أبي يزيد .

ثم قوي عزمه مرة أخرى وأتته البربر من كل فج فبعث عسكراً إلى مدينة تونس فدخلها بالسيف في ١٠ صفر سنة ٣٣٤ وانتهبوا وسبوا النساء والأطفال وقتلوا الرجال وهدموا المساجد .

وتوفي القائم والمعارك متواصلة سجالاً والمدن تنهب وتسبى وتقتل وتولى بعده (المنصور بالله) إسماعيل سنة ٣٣٤ فلما استوثق له الأمر جد في قتال أبي يزيد فازأله عن مدينة سوسة بعد معارك فانهزم أبو يزيد إلى القيروان والتحق به المنصور فكانت بينهما حروب تبادلا فيها النصر والهزيمة إلى أن حلت الهزيمة النهائية بأبي يزيد وأسر فمات بعد أسره بأربعة أيام آخر المحرم سنة ٣٣٥ .

ما ذكره اليعلاوي
وهو يترجم للشاعر
أبي القاسم الفزاري

نأخذه هنا على طوله لما له من علاقة بالأيادي وهجائه للفزاري ، ولما فيه من دلالات على الحياة وأطوارها في تلك الأيام .

قال اليعلاوي عن الفزاري :

ترجم له حسن حسني عبد الوهاب[٤] فقال إنه ولد بالقيروان ونشأ بها وان اسمه محمد بن عبد الله ، وأن أباه كان عاملاً للفاطميين على خراج الساحل الافريقي فهرب بالمال إلى مصر الاخشيدية . ويقول أبو العرب في طبقاته أنّ جدّه (إبراهيم ؟) هو « الفزاري المقتول على ما شهد عليه به من التعطيل (و) كان من أهل الجدل « والمناظرة[٥] » . ويورد القفطيّ في ذيل ترجمة الفزاريّ الأب ، البيتين اللذين هجا بهما (علي بن) محمد (الايادي) التونسيّ ، أبا القاسم الفزاريّ ملمّحاً إلى زندقة جدّة وخيانة أبيه .

ويضيف ح . ح . عبد الوهاب في ترجمته أنّه مدح أبا يزيد الخارجيّ حين تغلّب على القيروان ، ثمّ مدح المنصور الفاطميّ حين ظفر بأبي يزيد ، بقصيدة طويلة اشتهرت باسم « القصيدة الفزاريّة » (انظر نصّها فيما يلي) ، وقد استهلّها بذكر مائة علم من أعلام العرب وأسيادهم وأجوادهم . وقال إنّه توفي سنة ٣٤٥/٩٥٦ م .

ولا نعرف عنه إلى جانب هذه المعلومات القليلة ، إلّا ما رواه المالكي في رياض النفوس وما نقله عنه ابن ناجي في معالم الإيمان . ويظهر من هذين الكتابَيْن في طبقات فقهاء القيروان وزهّادها وعبّادها وصلحائها أنّ أبا القاسم الفزاري كان أميل إلى أهل السنّة منه إلى الشيعة ، وأنّه ، لئن مدح المنصور العبيديّ ، فمُكْرَهاً ، ليكفّر عن مدحه لأبي يزيد حين دخل القيروان سنة ٣٣٣ .

وإنّما حُمِلَ أبو القاسم على مدح الخارجيّ حملاً ، لأنّ الرأي العامّ السني بالقيروان كان يفضّل بين الشرّين ، شرّ الاباضيّة الصفريّة ، وشرّ الشيعة ، أخفّهما وهو ملذهب الخوارج . فلذلك أفتى بعض فقهاء القيروان ، وهو « أبو الفضل عبّاس الممسي » بوجوب الخروج مع أبي يزيد وقطع دولة بني عبيد » لأنّ الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الإسلام . . . « وبنو عبيد ليسوا كذلك لأنّهم مجوس زال عنهم اسم المسلمين » ، فلا تتوارثوا « معهم ولا تتناسبوا . . . »[٣] ولم يقتصر أبُو الفضل الممسيّ على الافتاء ، بل شارك بنفسه في حرب الفاطميّين مع أبي يزيد ، ولقي حتفه بمعركة الوادي المالح سنة ٣٣٣ صحبة خمسة وثمانين صالحاً من صلحاء القيروان . ورثاه أبو القاسم الفزاري .

وحتّى هذا المدح لأبي يزيد لم يكن مدحاً بقدر ما كان فخراً بالقيروان وعلمائها ، وينبئنا صاحب رياض النفوس عن بركة الفقيه « أبي إسحاق السبائيّ » قائلاً :

« . . . ومن إجابة دعوة أبي إسحاق (السبائيّ) أنّ أبا القاسم الفزاري الشاعر كان قد هجا بني عبيد في أيّام أبي يزيد . فبعد قتله (قتل أبي يزيد) طلبه السلطان (طلب الفزاري) لقتله ، فلجأ إلى السبائي ، وهو فَرِقٌ خائف ، فقال له : أنت تعلم ما يراد بي . فقام أبو إسحاق فدخل خزانته وأقبل يدعو ويقول كلاماً بعضه يُفْهَمُ وبعضه لا يُفْهَم ، ثمّ قال لأبي القاسم : امض اشتَرِ غَداءك وادخل الحمّام ثمّ امْضِ إليه ، فلن ترى شيئاً تخافُه . قال أبو القاسم : فخرجت من عنده ففعلت ما أمرني به من الغَداء ودخول الحمّام ووثِقَتْ نَفْسي بقوله ودعائه . ثمّ مضَيْتُ إلى السلطان (المنصور الفاطميّ) فدخلت عليه فقال بعضُ مَنْ في مجلِسِهِ : يأمرك السلطانُ بأن تنشد بعضَ ما قلتَ في أيّام أبي يزيد . فترفّعتُ عن ذلك وخِفْتُ ، فقال : أَنْشِدْها وَلَكَ الأمَانُ ، (قال) فأنشدته القصيدَةَ الرائيّة . . . (انظر نصّها فيما يأتي) قال المالكي : فلمّا فرغ من إنشادها ، لم يعرض له اسماعيل (المنصور) بسُوْء . . . فعافاه الله تعالى من شرّه بدعاء الشيخ السبائي »[٦] .

من القصيدة الرائيّة :

عجبت لفتنة أعمت وعمت	يقوم بها دعي أو كفور
تزلزلت المدائن والبوادي	لها وتلونت منها الدهور
وضاقت كل أرض ذات عرض	ولم تغن المعاقل والقصور
فنجى القيروان وساكنيها	إلاه دافع عنها قدير

---

(٤) ح . ح . عبد الوهاب : مجمل تاريخ الأدب التونسي ١٩٦٧ ص ٩٦ ، وهو طبعة منقحة من « المنتخب المدرسي من الأدب التونسي » .

(٥) طبقات أبي العرب نشر ابن أبي شنب ص ٢٢٠ .

(٦) المالكي : رياض النفوس ج ٢ مخطوط القاهرة عدد ١١٦ ورقة ١٤٢ ب .

(٦) يقول حسن الأمين : لم يعافه الله بدعاء الشيخ السبائي ، وإنما عافاه بتسامح الفاطميين وحلمهم وحسن سيرتهم .

أحاط بأهلها علماً وخبراً … وميز ما أكنته الصدور
وجللهم بعافية وأمن … وأسبل فوقها ستر ستير
وأنبت جلة العلماء فيها … بحار لا تعاد لها بحور
ومنها سادة العلماء قدماً … إذا عدوا، وليس لهم نظير
وفيها القوم عباد خيار … فقد طاب الأوائل والأخير
شعارهم التقى والخوف ليلاً … على أقدامهم غيب حضور
كأنهم لخوف الله موق … أقامهم إلى البعث النشور
بلاد حشوها علم وحلم … وإسلام ومعروف وخير
هم افتكوا سبايا كل أرض … وفادوا ما استبد به المغير
كفيناهم عظائمها جميعاً … فزالت عنهم تلك الشرور
وسكنا قلوباً خافقات … أمات عروقها ضرٌ ضرير
وآوينا وآسينا وكنا … لهم أهلاً وأكثرهم شطير
فبات طعامنا لهم طعاماً … هناك، ودورنا للقوم دور
وكان لنا ثواب الله ذخراً … وتم لشكرنا منهم شكور
ولولا القيروان وساكنوها … لغاب طعامهم والملح رير
كأن القيروان وهم عراة … حفاة، محشر فيه المصير
فهل للقيروان وساكنيها … عديل حين يفتخر الفخور؟
عراق الشرق بغداد وهذي … عراق الغرب بينهما كثير
ولست أقيس بغداداً إليها … وكيف تقاس بالسنة الشهور؟
بلاد تقصف العظماء قصفاً … إذا ما رامها منهم غدور
بلاد خطها أصحاب بدرٍ … وتلك اختط ساحتها أمير
بناها المستجاب وقد دعا … في جوانبها دعاء لا يبور
بناها كل بدري كريم … كأن صفا وجوههم بدور
هم صلوا بمسجدها براحاً … وليس له جدار مستدير
وهم وضعوا له اسا متيناً … فقدست المواضع والصخور
وقادهم الأذان إليه حتى … أضاءهم من المحراب نور
ولم يسبقهم ملك ظلوم … لتأسيس ولا ملك كفور
وأصحاب النبي له بناة … فلا عصيان فيه ولا فجور
أقاموا شطر قبلتها سويا … إلى البيت العتيق فلم يجوروا
وإن عراصه لمقدسات … مباركة وتربته طهور
بها حلق العلوم لها دوي … يجاوبها الكتاب المستنير
ألا أبلغ معاشر ليس عندي … لهم غدر ولا فيهم غدير
نحب صلاحهم وهم غضاب … علينا، إن ذا جور كبير
ضمائرهم مراض واجمات … علينا لا أفاق لهم ضمير
ولا ذنب لنا إلا لأنا … سلمنا حين عمهم الثبور

قال المالكي في كتابه (رياض النفوس) : ثمّ مضى فيها حتّى انتهى إلى قوله منها :

وليس لنا كما لهم حصون … ولا جبل أعاليه وعور
ولا سور أحاط بنا ولكن … لنا من حفظ رب العرش سور
ولا نأوي إلى بحر وإنا … إذا قضي القضا تنحى النحور
ولكنا إلى القرآن نأوي … وفي أيماننا البيض الذكور
عقائق كالبوارق مرهفات … بها تحمى الحرائم والثغور
وسمر في أعاليهن شهب … بها ظمأ، مواردها النحور
لنا شيب جحاجحة ليوث … وشبان غرانقة صقور
وكلهم شديد البأس جلد … جريء قلبه ثبت وقور
وإنا بعد من خوف وأمن … نحب إذا تشعبت الأمور
رسول الله والصديق حباً … به ترجى السعادة والحبور
وبعدهما نحب القوم طرا … وما اختلفوا فربهم غفور
ألا بأبي وخالصتي وأمي … محمد البشير لنا النذير
سأهدي ما حييت له ثناءً … مع الركبان ينجد أو يغور

ويعلق محمد اليعلاوي على القصيدة بما يلي ، مصراً على تسمية الفاطميين ببني عبيد :

هذا القصيد المطوّل ليس فيه هجاء لبني عبيد ولا مدح للخارجيّ ، وإنّما القسم الأوفر منه ، وهو الأهمّ ، مدح قويّ للقيروان وأهلها . فلذلك لم يرو الدبّاغ من الرائيّة إلّا هذا القسم الذي احتلّ ثلثي القصيدة . فبعد المقدّمات الحكميّة يأتي الفخر بالقيروان وساكنيها . وفي القسم الأخير تعرّض خفيف للعبيديّين ، يقتصر على بيان الفرق المذهبيّ بينهم وبين أهل القيروان في ناحية معيّنة ، وكأنّها رمز وهي موقف هؤلاء وأولئك من الصحابة .

فليس إذن في القصيدة ما يستوجب النقمة من الخليفة الفاطميّ على الشاعر ، ولذلك أمّنه وجازاه . وليس للقصيدة من قيمة إلّا تاريخيّة مذهبيّة إذ نقف من خلالها على مدى الحذر والاحتراز الذي لازمه أهل القيروان أزاء أبي يزيد .

على أنّ أبا القسم الفزاري لم يلازم دائماً هذا الحياد أزاء الفاطميّين ، فلقد روى المالكي له أبياتاً أخرى فيها تهجّم عنيف على معتقدات الشيعة واتّهام لهم بالمروق عن الدين[1] .

ومن شعر الفزاريّ المتصل بالفاطميّين مدحته في المنصور العبيديّ بعد أن أمّنه مع كافّة أهل القيروان . وهي قصيدة ذات ثلاثة وستّين بيتاً خصّص ثلاثة وثلاثين منها لاستعراض أجواد العرب وشجعانهم ومشاهير رجالاتهم في الجاهليّة . وكأنّ القصيدة اشتهرت بهذه الإشارات التاريخيّة أكثر منها بمعانيها المدحيّة ، فسمّيت لشهرتها « القصيدة الفزاريّة » . وهي لا تزال مخطوطة ، ومعها تعريف بالأعلام المذكورين في القصيدة ، وتلخيص لبعض بطولاتهم المعروفة في أدب « أيام العرب » ، وهذا الشرح الذي تخلّل الأبيات مجهول المؤلف .

والقصيدة بشرحها توجد مخطوطة بالمتحف البريطاني[2] وبمكتبة برلين[3]

وقد ذكر اليعلاوي القصيدة بكاملها ، ونحن نأخذ منها هنا ما له علاقة بمدح الخليفة الفاطمي :

ولا كان قعقاع بن ثور إذا اجتبى … جليساً له مد سيق بين الأقدام[4]
بأمنع مني في جوار خليفة … عطوف على أهل البيوتات راحم
كريم الأيادي والمساعي نمت له … أبوة صدق من ذؤابة هاشم
شريف الأقاصي والأداني مقدم … إذا ما عددنا فضل أهل المكارم

---

(١) أعرضْنا عن ذكر هذه الأبيات لبذاءتها وتفاهتها (ح)
(٢) عدد ٣٧٥٢ شرقي .
(٣) عدد ٨٥٧٧ من فهرست أهلورات .
(٤) القعقاع بن عمرو التميمي

لـه من إمـام المـرسلين وصنـوه ... عـلي، معـال ثـابتـات الـدعـائم
معال هي الفخر الصحيح ، وغيرها ... مـعـالي فـخـار بـين واه وسـالم
ومن ذا يقيس الشمس في رونق الضحى ... إلى كـوكب في غيهب الليل عائم؟
سـأشكـر آلاء الإمـام ومن يـنم ... عن الشكر أو يسأم فلست بسائم
ومـا عـذر مشحـوذ اللسـان مثقف ... يرى الشكر في الانعام ضربة لازم؟
أبيت أمـير المؤمنـين سـوى التي ... يـزيـد سنـاء ذكـرهـا في المواسم
تقى ونـدى مـا بـين حلم ونجـدة ... وعفـوا وإمضـاء عـلى كـل ظـالم
وكـذبت أطماع البغـاة فـادبـروا ... لأعقـابهم مـا بـين خـاز ونـادم
رجـوا من فسـاد الملك مـا عـودتهم ... أمـانـيـهـم، والله لـيس بـنـائـم
فصب عـليهـم محصـدات كـأنها ... شـآبيب قطروا كيف العـين ساجم
ولـولا حـذار من عقـابـك ارجعـوا ... فعافوا وعـاف الناس ضر الأشائم
وإني لأرجـو منـك أجـراً يعـزني ... عـلى رغم مجدوع المعـاطس راغم
ولا شيء إلا في يـد الله، إن قضى ... بهـا يسرت من كف أغلب هاشمي
ومـد بهـا الـوهـاب نفسـاً كـريمـة ... مـعـمودة بـذل اللهى والمكـارم
فمـثلي يـبقى شكـره وثـناؤه ... ومثلك يـرجى لـلأمـور الجسـائم
يغني بهـا الـركبـان في كـل بلدة ... وتحدى بها خوص الركاب السواهم

عود إلى الايادي

ويتابع اليعلاوي الحديث عن الايادي قائلاً :

ولا نعرف عن مولـد الايـاديّ شيئـاً سـوى مـا ذكـره حسن حسني عبـد الوهـاب ثمّ الشاذلي بـويحيى من أنّه « نشأ وتربّى بمدينـة تـونس » وأنّـه عمّر طويـلاً ؛ أمّا وفـاته ، فقـد أرّخها عبـد الوهـاب بسنة ٩٧٦/٣٦٥ وهي السنة التي مات فيهـا المعزّ الفـاطميّ . أمّا الشـاذلي بويحيى فـيرى أنّ الايـاديّ عاش مدّة بعد المعزّ ، ولم يذكر هذان المؤلّفان مكان وفاتـه ، وإن كنّا نستنتج ضمنياً من عبارة ابن رشيق في « قراضة الذهب »[1] أنّ الشاعر قد يكون توفّي بـالقـاهـرة حيث كـان التحق بـالمعزّ بعـد أن لاقى في طـريقـه إليـه الأهـوال والصعاب .

وقـد عاصر الايـادي خلفاء بني عبيـد الأربعـة : المهـديّ ٩٣٤/٣٢٢ والقـائم (٣٣٤ = ٩٤٦(والمنصـور ٩٥٣/٣٤١ ثمّ المعزّ . تشهـد بـذلـك المقـطوعات التي سنوردها من شعـره ، كما تشهـد بأنـه خدمهم ومـدحهم . فلذلك نستغرب أن يضيع شعره فلا تصلنا منه إلا نتف مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ . فإذا كان من شعرائهم الرسميين ، كما سيكـون ابن هانىء ، فلماذا لم يعملوا عـلى حفظ شعره كـما حُفظ شعر ابن هـانىء ؟ وإذا كان شعـره ، كما قـال ابن شرف، هو«المـورد العذب، ولفـظه هـو اللؤلؤ الـرطب، وهـو بحتـريّ الغـرب ، يصف « الحسام فـيروق الأنـام ، ويشبّب فيعشق ويحبّب ، ويمـدح فيمنح أكثر ممّا « يمنح . . . »[2] ، فلماذا لم يصلنا منه هـذا الوصف للحسام ، ولا هذا الغزل ولا هذا المديح ؟ ثمّ لماذا لم تذكره كتب الطبقات والـتراجم كما ذكرت غيره ؟ هذا كتاب « رياض النفوس » للمالكيّ ، على كثرة من ذكـر من شعـراء مناهضـين للعبيديّـين أو مناصرين لـدعـوتهم ، لم يتعـرّض لـه قطّ .

(١) ابن رشيق : قراضة الذهب في نقد أشعار العرب تحقيق الشـاذلي بويحيى تـونس ، ١٩٧٢ ص ١٠٢ .

(٢) ابن شرف : المقـامة النقـدية ضمن ذخـيرة ابن بسـام ج ٣ ص ١٦٥ وقـد سماه « علي بن العباس » وانظر كذلك مسائل الانتقاد نشر شارل بلا ، الجزائر ١٩٥٣ ص ٩ .

وكذلك ابن فضـل الله العمريّ ، في مختاراته من شعـراء الجانب الغـربيّ كما يقول ، لم يذكـره . وإنّما تعـرّض إلى سميّ له ، عـليّ (بن يوسف) التـونسي الـذي عاصر أمـراء بني زيـري المنصـور وبـاديس والمعزّ (بـين ٣٧٣ و ٤٠٦ للهجرة) ، ممّا جعل الرواة يخلطون بينه وبين شاعرنا علي الايادي ، نظراً لأنّ كُلا من العليَّيْن مدح منصوراً ومعزّاً .

ومهـما يكن من سبب لخمول ذكـره وفقـدان شعـره[3] ، فـإنّ الأبيـات القليلة التي يتناقلها منه الرواة تشهد له ببراعة فـائقة في تصريف وجوه الخيال في شعـره الوصفيّ : وصف قصر البحـر بالمنصوريّة ووصف أسطول القائم ووصف الخيل .

ونسـوق الآن ما عـثرنا عليه من شعر عـلي بن محمد الايـادي ، مرتّبـاً حسب الإمكـان تـرتيبـاً تـاريخيّـاً ، ونـذكـر أثـر كـلّ مقـطوعـة المصـادر التي استقيناهامنهـا ، ونعلّق عليها كلّما أمكن التعليق . وإنّ عملنا هنا لا يتجـاوز الجمع والترتيب والتوضيح أحياناً ، فلا كشف فيه ولا اكتشـاف في شأن هـذا الشاعر ، من مصادر مخطوطة أو مجهولة .

المقطوعة الأولى :

« . . . ومثل هذا جرى لعليّ التونسيّ الاياديّ ، فإنه قال قصيدته :

جـادتـك صـادقـة المخـائـل ... طـوع الجـنـائـب والخـمائـل
مـرهـاء ذانـيـة الـربـاب ... تـكـاد تـلمس بـالأنـامـل . . .

يخاطب بها أبـا القاسم عبـد الله (القائم) وابنـه إسماعيـل (المنصور) ويحضّـه على الخـروج من حصار المهـديّة إلى قتـال أبي يزيـد ، وهي مشهـورة « بالمغرب . . . » .

المصدر :

قراضة الذهب تحقيق الشاذلي بويحيى ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

تعليق :

أورد ابن رشيق هـذين البيتـين ضمن استشهـاده عـلى السرقـات الشعريّة ، أو السلخ في المعاني أو التوارد في الخواطر ، وأردفهما بالبيتـين اللذين نظمهما الشاعر الشاميّ السريّ الرّفّاء (تـ ٣٦١ هـ/٩٧٢ م) فسلخ فيهما بيتي الاياديّ .

ولا يستبعد أن تكون أشعار المغاربة معروفة في الشرق في ذلك العهد ، وخصوصاً بعد فتح مصر والشام للدولة الشيعيّة ابتداء من سنة ٩٦٩/٣٥٨ . وإذا عُرفت أشعار المغاربة في الشرق ، فلا غرابـة أن تروى وتسلخ وتسرق . وقد أردف ابن رشيق هذا الشاهد على تأثّر المشارقة بالمغاربة بمثال آخر ، وهـو قصيـد لعـليّ الايـاديّ نفسـه ، نسبـه المشـارقـة إلى الـوأواء الـدمشقي (تـ ٩٩٥/٣٨٥) .

وقد كان شعراء المشرق يأملون من الفـاطميّين رفـدهم ، والدليل على هذه الرغبة في خدمة الدولة الافريقيّة ما روي عن عـزم المتنبّي في التحوّل إلى

(٣) السبب الوحيد هو تشيعه وعصبية من ذكرهم وعصبية غيرهم (ح) .

القــيروان ، أو ، وهــو أوضــح ، القصيــدة التي بعث بهــا الصنَــوْبَــريّ (تـ ٣٣٤/٩٤٥) إلى أمير الزاب جعفر بن حمدون [١]

المقطوعة الثانية :

. . . لّما انتقل الإمام المهديّ بـالله من رقّادة إلى المهـديّـة التي سمّاهـا باسمه فكانت كما قال عليّ بن محمّد الايادي :

دار مــلك سـمـيـت مـهـديـة ... فـبـه تـعـرف مـا طـال الأبـد

« جرى بين رجاله من الكتاميّين الخ . . . » .

المصدر :

سيرة الأستاذ جوذر نشر محمد كامل حسين وعبد الهادي شعيرة ـ القاهرة بدون تاريخ ص ٣٧ .

التعليق :

ليس من الضروريّ أن يكـون هـذا البيت نُـظم في زمن المهـديّ بالذات ، فربّما انـدرج ضمن قصيد استعرض فيه الايـادي تاريخ الأئمة . وإلى هذا الراي نميل ، إذا قابلنا هذا البيت بالأبيات التي تعرّض فيها الايادي إلى مقتـل أبي يزيـد وهي أبيات من نفس الـوزن وعلى نفس الرويّ . ويقـول صاحب سيرة الأستاذ جوذر ـ وجـوذر هو أحـد كبار الموظّفين في بـلاط المعزّ ـ « . . تعرف « القلعة » بـ « كيانة » وهي في الـوصف كما قـال علي بن محمد الايادي يصفها ويذكر اللعين أبا يزيد ونزوله منها :

«فـارتقى الملعـون من خيفـتـه ... في ذرى أعيط عـال مصعـد [٢]

في ذرى خـلقـاء مـلسـاء عـلى ... ذلـك المعقـل ليست بصـدد [٣]

معـقـل مـن فـوقـه الـله ومـن ... تحتـه المنصـور في جيش معـد

فـارتقى المنصـور بـالسيف لـه ... يـوم طعـن كشـآبيـب الـبرد

واثـقـاً بـالله في غـربـتـه ... مـن بـني أحمـد نـاء مـنـفـرد

فـإذا مخـلد في كـف الـردى ... مـوثق الجيـد بحبـل مـن مسـد

قـد رمتـه الحـرب عن غـاربهـا ... واهـي الـركن ذليـل المستـنـد

كـنـفـيض أخـرجـتـه أمـه ... لـيس إلا نـبض عـرق وجـسـد

فـأوى مـن كـرم المنـصـور في ... كـنـف رحـب وخـفض ورغـد

طـلبـاً مـنـه لـتبـقـى روحـه ... وبـقـاء الـروح أشفـى للكـمـد

فـأبى الله سـوى اعـجـالـه ... وعـذاب الله لـلجـسـم أهـد

فـنـضـا عـنـه أديـمـاً دنـسـاً ... كـان قـد اسرف فـيـه ومـرد

كـأديـم الـتـيس لـمـا لم يـطب ... ريحـه جـرد مـنـه فـانـجـرد

وحـشـاه سـالخـوه سـعـفـا ... مـالـئـاً بـين كـعـوب وكـتـد

ثـم رقـاه عـلى مـسـتـحـصـد ... بـاسـق أجـرد مـا فـيـه أود»

المصدر :

سيرة الأستاذ جوذر ، النصّ العربيّ ص ٤٨ ـ ٤٩ والـترجمة الفـرنسيّة لماريوس كانار ، الجزائر ١٩٥٨ ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(١) ديوان الصنوبري ، نشر إحسان عباس بيروت ١٩٧٠ ص ٢٨ وفي شأن هـذه القصيـدة راجع مسائل الانتقاد ص ٣٧ .

(٢) القصر الأعيط هو الشامخ المنيف .

(٣) والخلقاء : المستوية الجبين ولعله يعني صعـوبة الصعـود إليها . وليست بصـدد قد تعني : ليست بقريبة المنال .

التعليق :

هذه المقطوعة تلفت الانتباه إلى الأمور التالية :

١ ـ البيت الثالث قد يشعرنا بعبارته « في جيش مَعَدّ » بأنّ أبـا تميم معد ابن المنصور ، وهو المعزّ لدين الله فيما بعد ، كان آنذاك ، أي في سنة ٣٣٦ ، وليّ العهد للمنصور . وهذا يخالف ما ذهب إليه ابن عـذاري من أنّه لم يـرتق إلى ولاية العهد إلاّ سنة ٣٤٠ ، أي عاماً واحداً قبل وفاة المنصور وارتقائه هو الخـلافة . وفهمُنـا لعبارة « معـدّ » هـو الـذي يحملنـا عـلى هـذا التـأويـل ، فـ « معـدّ » هو اسم المعـزّ ، ولا نفهم الكلمة كـما فهمهما مـاريوس كـانـار في تـرجمته للسيرة ، « جيش مُعـدّ » اسم مفعـول من أعـدّ ، أي جيش كـامـل العدّة .

ومن هذا نتطرّق إلى تأويل آخر : وهو أنّ القصيدة قد نـظمت في عهد المعزّ ، لا في خلافة المنصور ، وأنّها في الحقيقة استعراض لتـاريخ الأئمّـة منذ بـداية خـلافتهم بالمغـرب ، فلذلك ورد تـأسيس المهـديّـة في البيت الـسـالف الذكر . ولو عثرنا على القصيدة كاملة ، لوجدنا فيها أيضاً عرضاً لخلافة القائم وخلافة المعزّ .

٢ ـ التصوير « الواقعي » لنهاية أبي يزيد الفظيعة : قتله ، ثمّ سلخه ، وحشو اهابه بالتبن ، ووضعه على فرس يطوف به في أنحاء البلاد . وقد أجاد الايـادي في تصوير هذا التشفّي من الثائر ، وربّمـا أفادنـا بشيء اختلف فيـه المؤرّخـون ، وهو مـوت مَخْلَد بُعَيْدَ أسره بقليـل ، فلم يرسله المنصـور حيّاً إلى المهديّة كما يقول بعضهم ، بـل نفهم من البيت العاشر أنّ الخليفـة أسف لهذا الموت السريع الذي منعه من التنكيل بعدوّه كما يريد ، فانتقم من جثّته .

المقطوعة الثالثة :

. . . وقـال عَـلي بن محمـد الايـادي يمـدح المعزّ ويصف دار البحـر بالمنصوريّة (الحصري) .

. . . وقال يصف القصر الذي أنشأه المنصور بصبرة (المنصورية) سنة ٣٣٧ (ح .ح . عبد الوهاب) .

ولـمـا استطال المجد واستولت البنى ... عـلى النجم، وامتد الـرواق المروق

بـنى قبـة لـلملك في وسط جنـة ... لهـا منظر يـزهى بـه الـطرف مـونق

بمشوقة الساحات، أمـا عراصهـا ... فخضر، وأمـا طيرهــا فهي نـطق

تحـف بقصر ذي قـصـور كـأنمـا ... تـرى البحر في أرجـائـه يتـدفق [٤]

لـه بـركـة للماء مـلء فضـائـه ... تخب بقـطريها العيـون وتعنق [٥]

لهـا جـدول ينصب فيهـا كـأنـه ... حسام جلاه القيـن بالأرض ملصق

لهـا مجلس قـد قـام في وسط مـائهـا ... كـما قام في فيض الفـرات الخـورنق

كـأن صفـاء المـاء فيهـا وحسنـه ... زجـاج صفت أرجـاؤه فهـو أزرق

إذا بث فيها الليل أشخـاص نجمه ... رأيت وجـوه الـزنـج بـالنـار تحـرق

وإن صافحتها الشمس لاحت كأنها ... فـرنـد عـلى تـاج المعـز ورونق

كـأن شرافـات المقـاصر حـولهـا ... عـذارى عليهن المـلاء المنـطق

يذوب الجفاء الجعد عن وجه مـائها ... كما ذاب آل الصحصحان المرقرق . . » [٦]

(٤) عبارة زهر الاداب . . . في أرجائه وهو متاق .

(٥) الخبب والعنق ضربان من سير الدواب .

(٦) الآل : السراب/ والصحصحان : الأرض الجرداء الملساء والجفاء : الزبد المتراكم [المادة جفا] .

المصدر :

الحصري : زهر الآداب ، نشر علي محمّد البجاوي ـ القاهرة ١٩٥٣ ج ١ ص ١٨٩/١٩٠/ح .ح . عبد الوهاب : مجمل . . . ص ٩٧ .

وإلى هذه القصيدة يمكن أن نضيف ثلاثة أبيات نقلها صاحب « كنز الدرر » في القسم السادس الخاصّ بالفاطميّين :

« . . . وقد كانت الأيام خرساً فأصبحت — لها ألسن بالشكر لله تنطق
فما بعد هذا للوسائل ملجأ — ولا للمنى في غيره متعلق
فقد وضعت تلك المواعيد حملها — تماماً ، وكانت قبل ذلك تطلق . . . »

وهي أبيات من نفس الوزن والرويّ وهي بدون شك جزء من القسم المدحيّ للقصيدة نفسها . وقد ذُكِر في المرجع نفسه بيتٌ آخر لا نخاله من نفس القصيدة ، لأنّ القافية فيه مؤسّسة الرويّ ، أي تضمنّت ألفاً يفصلها عن الرويّ حرف متحرّك ، في حين أنّ الأبيات السالفة الذكر ليست مؤسسة . ويمكن اعتبار هذا البيت مقتطعاً من هذه القصيدة ، شريطة أن نغضّ الطرف عن هذا العيب في القافية ، وهو ما يسمّى بـ « سناد التأسيس » .

« . . . كأن ملوك الأرض حول بساطه — كواكب في ضوء النهار غوارق »

المصدر :

الدواداري : كنز الدرر ، ج ٦ : الدرّة المضيّة في أخبار الدولة الفاطميّة ، القاهرة ١٩٦١ ج ١١٨ .

التعليق :

١ ـ عبارة الحصري في تقديم الأبيات أدقّ من عبارة ح .ح . عبد الوهاب . فالعلاّمة التونسي ، وقد كان مؤرخاً مهتمّاً بالمعالم الحضاريّة خاصة ، أراد أن يشعر القارىء بأن المنصور هو الذي شيّد القصر ، فغُمُضَ قصدُه إذ قد يتوهّم القارىء أن الايادي أنشد القصيدة للمنصور لا للمعز . والبيت العاشر لا يدع مجالاً للشك في أنّه قصيد مهدي إلى المعزّ .

٢ ـ وإنّا لنستغرب وجود هذا الوصف للقصر عند الايادي ، مع خلوّ شعر ابن هانىء منه ، والحال أنّ ابن هانىء كان الشاعر الرسميّ للدولة المشيد بمجدها الناعي على خصومها . فهل يعني هذا أنّ محمد بن هانىء كان متفرّغاً للناحية المذهبيّة أو « السياسيّة » كما نقول اليوم ، فلا اهتمام له بالاحتفالات والمواكب والبلاطيّات ؟ لا نستبعد هذا الانصراف ، خصوصاً إذا تذكّرنا أنّه كثيراً ما وصف قصور بني حمدون حين كان عندهم بالمسيلة .

٣ ـ وانّ وصف الايادي لهذا القصر ، على جماله ، لا يخلو من دقّة : فهذه البركة عظيمة واسعة ، وربما كانت على شكل مستطيل ، إذا ما فهمنا عبارة « قُطْرَيْهَا » (البيت ٥) على أنّهما قطران متقاطعان كما في المربّع أو المستطيل . وكان في وسطها بناء صالح للجلوس وتسريح النظر ، على شكل ما يلاحظ اليوم في « فسقيّة » الأغالبة الكبرى بالقيروان . ثمّ إنّ هذه البركة منقورة في ساحة فسيحة محاطة بالأشجار وكانت تضاء بالقناديل ليلاً ، وعلى حوضها تفتح أو تشرف أبواب الغرف . ولا شيء يمنع من تخيّل هذا القصر على شكل دائرة محيطة بالبركة ، تفتح جميع مقاصيره على البركة . بهذا النظام تشعرنا عبارة « قبّة » في البيت الثاني . ولعلّ المعاينة على المكان تؤيّد وصف الايادي ، ولا سيّما في شكل البركة ذات القطرين [1] .

٤ ـ وفي الجانب المدحيّ ، نلاحظ أنّ المعاني التي اهتمّ بها الايادي هي رغد العيش في كنف المعزّ ، فعبّر عن هذه السعادة بصورة المرأة الحبلى بالمواعيد الطيّبة ، وقد وضعت حملها ، أي حقّقت الأماني . ولا نجد حديثاً عن شرعية الإمام ، ولا عن توفيقه وهديه .

المقطوعة الرابعة :

وقال علي بن محمّد الايادي يصف أسطول القائم, فأجاد ما أراد :

« أعجب لأسطول الإمام محمد — ولحسنه وزمانه المستعذب
لبست به الأمواج أحسن منظر — يبدو لعين الناظر المتعجب
من كل مشرفة على ما قابلت — اشراف صدر الأجدل المتنصب
دهماء قد لبست ثياب تصنع — تسبي العقول على ثياب ترهب
من كل أبيض في الهواء منشر — منها ، وأسحم في الخليج مغيب
كملاءة في البر يقطع شدها — في البحر أنفاس الرياح الشذب
محفوفة بمجادف مصفوفة — في جانبين دوين صلب صلب
كقوادم النسر المرفرف عريت — من كاسيات رياشه المتهدب
تحتثها أيدي الرجال إذا ونت — بمصعد منه بعيد مصوب
خرقاء تذهب إن يد لم تهدها — في كل أوب للرياح ومذهب
جوفاء تحمل موكباً في جوفها — يوم الرهان وتستقل بموكب
ولها جناح يستعار يطيرها — طوع الرياح وراحة المتطرب
يعلو بها حدب العباب مطارة — في كل لج زاخر مغلولب
تسمو بأجرد في الهواء متوج — عريان منسوج الذوائب شوذب
يتنزل الملاح منه ذؤابة — لو رام يركبها القطا لم يركب
فكأنما رام استراقة مقعد — للسمع إلا أنه لم يشهب
وكأنما جن ابن داود هم — ركبوا جوانبها بأعنف مركب
سجروا جواحم نارها فتقاذفوا — منها بالسن مارج متلهب
من كل مسجور الحريق إذا انبرى — من سجنه انصلت انصلات الكوكب
عريان يقدمه الدخان كأنه — صبح يكر على الظلام الغيهب
ولواحق مثل الأهلة جنح — لحق المطالب فائتات المهرب
يذهبن فيما بينهن لطافة — ويجلن فعل الطائر المتغلب
كنضائض الحيات رحن لواعباً — حتى يقعن ببرك ماء الميزب
شرعوا جوانبها مجادف أتعبت — شأو الرياح لها ولما تتعب
تنصاع من كثب كما نفر القطا — طوراً وتجتمع اجتماع الربرب
والبحر يجمع بينها فكأنه — ليل يقرب عقرباً من عقرب
وعلى مراكبها أسود خلافة — تختال في عدد السلاح المذهب
فكأنما البحر استعار بزيهم — ثوب الجمال من الربيع المعجب

المصدر :

الحصرى : زهر . . . ص١٠٠٣ .

ابن الأبّار : الحلّة السيراء ، القاهرة ١٩٦٣ ج ١ ص ٢٨٥ (ذكر منها بيتين لا غير) .

---

(١) انظر ما كتبه جورج مارسي عن قصور المنصورية في كتابه عن « الفن الإسلامي » ، باريس ١٩٢٦ ج ١ ص ١١٩ .

المقري : نفح الطيب نشر احسان عبّاس ببيروت ١٩٦٨ ج ٤ ص ٥٧ .

ح.ح. عبد الوهاب : مجمل . . . ص ٩٨ .

التعليق :

١ ـ هذه القصيدة البديعة معروفة ، على الأقلّ في قسمها الوصفيّ هذا ، قد درسها الشيخ الشاذلي النيفر في بحثه عن الأساطيل الحربيّة في الأدب بمجلّة الثريّا التونسيّة[1] وقد ضاع القسم المدحيّ منها . ولا شكّ ، إذا اعتبرنا أنّها موجّهة إلى القائم الخليفة الثاني ، أنّها أقدم مقطوعة لدينا من شعر الايادي .

٢ ـ يلفت انتباهنا وصفُ الشاعر للون المراكب : فهي سوداء مطليّة بالقطران ، ولذلك سمّاها ابن هانيء « القاريات السود » (انظر القصيدة ١٣ من ديوانه ، نشر المرحوم زاهد علي الإسماعيلي الحيدر آبادي) . وكذلك وصف آلات الاحراق التي تُطلِق ما اصطُلِحَ عليه في القديم بـ « النار اليونانيّة » (feu grégeois) وهي موادّ كيماويّة ملتهبة تقذف على السفن المعادية فتحرقها ، وقد كان لهذا السلاح شأن كبير عند الفاطميّين ، وبفضله ملكوا زمام البحر طيلة القرن الرابع / العاشر وقطعوا سبل الروم فيه ، كما يقول ابن هانيء . لكنّ الايادي لا يصف هذه المراكبَ في حالة حرب ، إذ لا ذكر للروم في الأبيات ، ولعلّه يصف استعراضاً بحرياً بمناسبة عيد من الأعياد : ذاك ما يُشْعِرُ به البيت ٢٥ .

٣ ـ لفظ « المتطرّب » في البيت ١٢ قد يعني الشخص الذي يوكل أمر القيادة إليه بدليل قوله « طوع راحته » ، وكذلك يوكل إليه أمر تنشيط الضاربين بالمجاذف ، فلعلّه كان ينقر على طبل بايقاع موزون يتّبعه الجاذفون في تصعيد المجاذيف وتصويبها . وهذه المراكب لا تسير بقوّة المجاديف فقط ، بل بقوّة الرياح أيضاً .

٤ ـ لقد وصف ابن هانيء الأسطول الفاطميّ كثيراً ، ولكنّه لم يبلغ درجة الايادي في دقّة الملاحظة ، وحسن الايحاء واختيار الصور اللطيفة المعجبة .

المقطوعة الخامسة :

وأقب من لحق الجياد كأنه ... قصر تباعد ركنه عن ركنه [2]
لبست قوائمه عصائب فضة ... وغدت بسمر صفا المسيل ودكنه
وكأنما انفجر الصباح بوجهه ... حسناً أو احتبس الظلام بمتنه
قيد العيون إذا بصرن بشخصه ... ورضا القلوب إذا اصطلين بضغنه
متسيطر بالراكبين كأنه ... باز تروح به الجنوب لوكنه
يستوقف اللحظات في خطرانه ... بكمال خلقته ودقة حسنه
حلو الصهيل تخال في لهواته ... حاد يصوغ بدائعا من لحنه
متجبر ينبي بعتق نجاره ... إشراف كاهله ودقة أذنه
ذو نخوة شمخت به عن نده ... وشهامة طمحت به عن قرنه
وكأنه فلك إذا حركته ... جار على سهل البلاد وحزنه
قد راح يحمل جعفر بن محمد ... حمل النسيم لوابل من مزنه

(١) الثريا ، سنة ١٩٤٤ ، العدد ٩ ، ص ١٢
(٢) الأقب من الخيل : الضامر البطن

المصدر :

زهر الآداب ص ٣١٤ .

ح.ح. عبد الوهاب : تاريخ . . . ٩٨ .

تعليق :

الأمير جعفر هو أحد أبناء القائم ، وهو حينئذ أخ للمنصور . وهذه الأبيات جزء من مدحة ، قطعه الحصري في البيت الأوّل من المديح .

المقطوعة السادسة :

« من مدائح المنصور لما أظهر أبوه القائم بأمر الله بيعته في سنة ٣٣٤ ، فقال التونسي :

أما والقنا الظمآن حلقة مغرم ... وجرد المذاكي والصفيح المقوم
وشهباء من نسج الحديد كأنما ... تكلله تحت العجاج بأنجم
مسومة راحت رواحاً وأربحت ... لإدراك ثأر أو لاحراز مغنم
لقد سن إسماعيل سنة جده ... لكل فصيح في البلاد وأعجم
وقلد حق المسلمين بحقه ... فتمت به النعمى على كل مسلم
وكان بحمد الله أمنا لخائف ... وعزا لمغلوب وغيثا لمعدم
فيا بهجة الدنيا بأيامه ابهجي ... ويا بيضة الملك اسلمي ثم اسلمي
ويا جمرة الحرب العوان قد انبرى ... لك البحر زهواً فاخمدي أو تضرمي
وقد قام بالدنيا وبالدين فاستوت ... أمورهما من هاشم خير قيم
من الفاطميين الذين إذا انتموا ... إلى المجد غطى رأسه كل منتم
مليك إذا سل السيوف على العدى ... دجا الليل أو تروى السيوف من الدم
بديهته فينا كفكرة غيره ... إذا هو أمضى الأمر لم يتندم
فنعم ملاذ المسلمين وكهفهم ... إذا ما خطوب الدهر جاءت بصيلم
ونعم خطيب الناس في كل فيصل ... إذا الخطب فيه سد باب التكلم

المصدر :

الدواداري : الدرّة المضيّة . . . ص ١١٧ .

مقطوعات متفرقة

المقطوعة السابعة :

طيف يزورك من حبيب هاجر ... أهلاً به وبطيفه من زائر
شق الدجى وسرى فأمعن في السرى ... حتى ألم فبات بين محاجري
يحدو به هيف القوام المنثني ... نحوي وسالفة الغزال النافر
لله درك من خيال واصل ... أسرى فانصف من حبيب هاجر
عللت علة قلب صب هائم ... وقضيت ذمة فيض دمع قاطر

المصدر :

الحصري : زهر . . . ص ٧٠٣ .

الشريف المرتضى : طيف الخيال ، نشر حسن الصيرفي وإبراهيم الأبياري ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٤٩ .

مجهول

في هذا المضمار نفسه ، أي التشفّي من أبي يزيد ، أورد ابن حمّاد مقطوعتين لشاعر لم يذكر لنا اسمه : وقال بعض الشعراء في سلخ أبي يزيد :

أمـا الـنـفـاق فـقـد نـسـخ | وأبـو الـكـبـائـر قـد سـلـخ
كـان الـفـويـسـق مخـلـد | قـرداً، ولـكـن قـد مـسـخ
لـو قـد رأيـت محـلـة | وبـنـو الحـدايـة تـصـطـرخ
لـرأيـت مـا عـقـد الـلـعـين | بـلـطـف ربـك قـد فـسـخ

وقال من قصيدة :

فـسـلـخـتـه مـن جـلـده | وحـشـوتـه حـشـو المـزاود
وضربـتـه مـثـلاً يـسـير | في الأقـارب والأبـاعـد
وردت بـه أطـماعـه | وظـنـونـه شر المـوارد

المصدر :

ابن حمّاد : أخبار . . . ص ٣٦/٣٥ .

التعليق :

في نقـل الشريف المرتضى (٣٥٥ - ٤٣٦) هـذه الأبيات دليـل عـلى انتشار شعر المغاربة بالمشرق منذ القرن الرابع ، أي في مدّة الايادي نفسه .

المقطوعة الثامنة :

أمـا أنّـه لـولا الخيـال المـراجـع | وعاص يرى في النـوم وهو مطاوع
لأشفق واستحيى من النـوم والـه | يرى بعد روعات الهوى وهو هاجع

المصدر :

الحصري : زهر . . ص ٧٠٣ .
الشريف المرتضى : طيف الخيال ص ٣٤٨ .

المقطوعة التاسعة :

مـسـح الـظلام بـعـرفـه يـده | ومشى فـقـبـل وجـهـه الـبـدر

المصدر :

الحصري : زهر . . . ص ٣١١ .

المقطوعة العاشرة :

. . . أخـذه علي بن محمّد الايادي وقـال فـأحسن السرقـة ولـطف في الأخذ :

بـالجـزع فـالخبتـين أشـلاء دار | ذات لـيـال قـد تـولت قـصـار
بـانـوا فـباتت أنفـا بـعـدهـم | وإنمـا الـنـاس نفـوس الـديـار

المصدر :

زهر الآداب ص ٦٨٤ .

تعليق :

ولكنهما ينسبان إلى ابن هانىء في بعض مخطوطات ديوانـه ، وقد أثبتهما الناشر زاهد عـلي في آخر ديـوان « تبيين المعاني في شرح ديـوان ابن هـانىء » القاهرة ١٣٥٢ ص ٨١٢ .

المقطوعة الحادية عشرة :

وله من زهرية :

نـم بـالـروض خـفـق الـريـاح | واقـتـدح الشرق زنـاد الصـبـاح
وأخجـل الـورد شعـاع الضحى | وابـتـسمت فـيـه ثـغـور الأقـاح
وقـام في الـدوح لـنعي الـدجى | حمـائم تـطـربـنـا بـالـصـيـاح
مـذ ولـد الصبح ومـات الـدجى | صـاحت فلم نـدر غنى أم نـواح
ويـوم دجـن حجبت شمـسـه | وأشرقـت في لـيـلـه شـمـس راح
فـما ظـنـنـا الـصـبـح إلا دجى | ولا حـسـبـنـا الليـل إلا صبـاح

المصدر :

ح.ح. عبد الوهاب مجمل . . . ص ١٠١ .

التعليق :

لا نـدري أين استقى ح.ح. عبد الـوهاب هـذه الأبيات ، فـإنّه عـلى عادته لم يذكر مراجعه .

المقطوعة الثانية عشرة :

قال محمّد التونسيّ يهجو أبا القاسم الفزاريّ :

دعـي فـزارة مـن لـؤمـه | إلى طـلـعـة الـلؤم مـا أسـبـقـه
أب هـارب بـخـراج الإمـام | وجـد قـتـيـل عـلى الـزنـدقـة

المصدر :

الزبيديّ : طبقات النحويّين واللغويّين القاهرة ١٩٥٤ ص ٢٧٢ .
القفطي : ابناه الرواة ج ٢ ترجمة عدد ٥٣١ .

التعليق :

١ - لا نستبعد أن يكون محمّد التونسيّ هو صاحبنا عليّ الايـاديّ ، نظراً لانتمائه إلى الفـاطميّين ، ولمناهضة الفـزاري لهم . ثمّ إنّ المصادر لا تـذكـر شاعراً « تونسيّاً » غير صاحبنا علي الايـاديّ وعلي بن يوسف ، وهو متـأخّر عن الفزاريّ وعن الايـاديّ .

هذا ما وصلنا إليه في جمعنا لأبيات علي بن محمد الايادي التونسي شاعر الفاطميّين ، وقـد عاصر محمـد بن هانىء وعـاش بعده . وليس في وسعنـا أن نقول إنّ هذا هو كلّ شعره ، فقد تكشف الأيّـام عن أبيات أخـرى في مخبئات المخطوطات .

وبعـد هذا ، ننبّـه إلى خـطأ من ابن ظـافـر الأزدي صـاحب « بـدائـع البداءة » فقد نسب إلى الايادي قصيدة مشهورة النسبة إلى ابن هانىء ، وهي القصيدة السادسة والعشرون من ديوانه « تبيين المعاني . . . » فقال ابن ظـافر « وهذا المعنى مأخـوذ من قول عـلي بن التونسيّ الايـاديّ من قصيدتـه الطائيـة المشهورة ألؤلؤ قطر هذا الجوّ أمْ نقط . . . »[1] .

شعراء آخرون

وعدا عن علي بن محمد الايادي فقد ذكر كـاتب المقال محمـد اليعلاوي عدداً من الشعراء الشيعة .

الدكتور علي بدر الدين بن مصطفى

ولد في بلدة النبطية بجبل عامل سنـة ١٩٠٩ وتوفي فيهـا سنة ١٩٨٦ م تلقى دراسته الابتدائية في النبطية ، والثانوية في (الأنـترناشيـونال كـولج) في

(١) ابن ظـافر الأزدي : بـدائع البـداءة ، تحقيق محمـد أبو الفضل إبـراهيم ، القـاهرة ١٩٧٠ ص ٧٢ .

بيروت وانتقل بعدها إلى الجامعة الأمريكية في بيروت ومنها نال شهادة الدكتوراه في الطب سنة ١٩٣٨ م فرجع إلى بلدته النبطية سنة ١٩٣٩ م طبيباً أديباً شاعراً ، وأثناء اشتداد الحرب الأهلية اللبنانية انتقل إلى عمان حيث كانت تسكن فيها أبنته وزوجها . وفي سنة ١٩٨٢ عاد إلى النبطية وبقي فيها حتى وفاته .

شعره

نظم سنة ١٩٢٧ هذا الموشح بعنوان : الصيف والذكرى .

حبذا الأصال والصبح الجميل والدراري تزدهي في الأفق
ونسيم الروض مشتاقاً عليل أذبل الزهر وغضّ الورق

* * *

أتُنّ في الأرض تذكو نارها أم شواظٌ من جواها مستعرْ؟
لم يعد فيها نضيرٌ يُجتلى أخضر الثوب فهل من مدّكر؟
نضب الماء فهل تزهو الحصى بعدهُ وهي كدُرّ منتثر؟
قم وعز الروض في أزهاره والروابي بسناها المحتضر
يبس العود الذي ماس على شاطىء النهر ببشرٍ مستمرْ!

* * *

حبذا الأحلام أحلام الصبا وليالي الأنس فوق الهضب
وشعاع الشمس من فوق الربى يتدلى كخيوط الذهب

* * *

أقفر الوادي فلا النهر به جارياً بين حنين الزهر
ينعق البوم على إطلاله بدل الحسون فوق الشجر
يصرخ الضفدع في أرجائه والغراب السوء فوق الحجر
ليس فيه ناضراً غير الفضا صافحته نسمات السحر
أين ذاك الورد فيّاح الشذا ليس من عينٍ ولا من أثر!

* * *

هل يعود الظلُّ في الدوح ظليل فيغني الطير فوق الغُصُنِ
حسب هذي الورق في الأيك هديل أسعديها يا عهاد المزن

* * *

هذه الساحات أودى حسنها نازعاتٍ لرداها الأخضرِ
شفّها الحرّ فباتت من شجى رثّة الثوب بلونٍ أصفرِ
كم سقاها الغيث ليلاً وضحىً وحباها بالنمير الكوثر
داعبتْ أعشابها ريح الصبا فبكتْ درّاً بليلٍ مقمرِ
وإذا الصبح تدانى سافراً نفحتها بأريج العنبر

* * *

عندليب الروض يبكي فصلهُ نائحاً وهو حبيس القفصِ
وحمام الأيك يرثي خلّهُ نائباً عنه شديد الغصص

* * *

حقلنا بالأمس وضاح السنا رافلٌ في مطرف من سندس
هشّمتهُ اليوم نيران السما فمضى فيه أنيس المجلس

يا سقيط الطل هذا ربعنا حيثه بالله تحت الحندس
كم بدا النسرين فيه نافحاً ورَنّتْ فيه عيون النرجس
ثم يحلو حنظل العيش على نغم العود وعذب الأكؤوس

* * *

الحصّادُ فيه قاطعاً سنبلات كنّ عنوان الربيع
منجل الحصاد اسلم لامعاً فيك يزهو شرف القدر الرفيع!

* * *

يا رعى الله خياماً بينها كم قضينا من عهود الطرب
في ظلال التين كم نحنا أسى وفضضنا من أماني عُرُب
نجتني الأثمار أثمار الهنا يانعاتٍ لا نرى من نصب
الماء فراتاً سائغاً من ينابيع بصدر الهضب
حولها الأطيار ظمأى ترتوي كجنودٍ في خميسٍ لجب

* * *

شجر الزيتون في أفيائه ضربتْ أطناب بدوٍ رُحُل
عيشهم طلقٌ فمن أدوائهِ أطلقوا: فالصفو فوق الأرحلِ

* * *

حبذا الراعي على قيثاره شادياً في ظل صخرٍ شاهق
يرقب الأفق ويرثي نفسه في هواه لحبيبٍ مارق
نادباً إخلاصهُ في حُبّهِ ووفاه في الوداد الصادق
هجروه قانعاً في عيشه في البراري ذا جبينٍ عارق
يذكر الأحباب ساروا فهو في مقلةٍ عبرى وقلبٍ خافق

* * *

حبذا جلساتنا بين الكروم نتهادى لاقتطاف العنب
حبذا البدر تغشيه الغيوم فيقينا من عيون الرّقب

وقال وهو في عمان سنة ١٩٧٩ م يصف أحداث لبنان :

الحرب تدمير البلاد نتاجها وحصادها الأموات والأيتامُ
العنف والإرهاب قدح زنادها يتلوهما النفّاخ والضرام
هي جنّةٌ في الحالتين شعارها قتلُ البريء شريعة ونظام
قد تخذل الكفوء الكمي بدايةٌ لكن نصر الصابرين ختام
إن ريم نصرٌ للبلاد مؤزّرٌ فالأصل رايٌ لا قناً وسهام
للحق صوتٌ إن تغافل هادىءٌ فإذا استُثير فقاصفٌ هزام
وله لسان إن تسامح واخزٌ فإذا أُهين فصارمٌ صرام
وكذا الشعوب حماتها أبطالها فإذا استكانوا استأذب الظلام

* * *

إن التفاوت في الحياة شريعة لا يستوي ذَنَبٌ بها وسنام
فإذا تساوى الناس في ملكاتهم لم يبق لا قيم ولا قمام
لكن إذا الأخلاق زعزع صرحها حسدت على ذؤبانها الآجام
عشق المناصب للتحكم قاتل شهدت بفاسد رأيه الأنام
أعدى العداة إلى النفوس غرورها فهو العدو القاصم الهجّام
خير الجهاد جهاده هو أولٌ ثم الغداة معاركٌ وصدام

المال إن تملكه عبدٌ خيّرٌ — وإذا تملّك سيدٌ ظلّام
جشع النفوس يحط من عليائها — وينوشها الأذلال والإسقام
ولغير مجدٍ في الهزاهز أمةٌ — حجوا وصلوا للدولار وصاموا

* * *

لا تعبدوا ربّين . رب واحدٌ — يحيى العظام بكم وهنّ رمام
الله خالقكم ومالك أمركم — السرمديُّ الدائمُ القيّام
فإذا أردتم عزّةً وكرامةً — فهو العزيز الواهب الكرّام
منهُ الحياة رخاؤها وصفاؤها — منه الحيا والخير والإنعام
الخوف منه شجاعةٌ ومناعةٌ — وصيانةٌ وسلامةٌ وشكام

* * *

حبّ الظهور يكاد يقتل أهلهُ — إن التغابي لا الغباء سلام
قصرت موازين القضاء فطاولت — زهر النجوم جنادل ورغام
والكون زلزل دينه فتحكمت — بمصيره الأتباع والأزلام
الموبقات كواسرٌ وقشاعمٌ — والصالحات حمائم ويمام
والكفر وعيٌ والفساد تمدنٌ — وغنى اللصوص براعة وتمام
والحلم ضعفٌ والجريمة قوّةٌ — والصدق عجزٌ والكذوب همام
والبخل عقلٌ والسخاء سذاجةٌ — والحب عارٌ والحلال حرام
والقتل مجدٌ والسلام مذلّةٌ — والعيش لهوٌ والحياة مدام
والعهر فنٌّ والعفاف تخلفٌ — والفوق تحت والوراء أمام

* * *

لبنان أدمت قلبهُ وفؤاده — فتنٌ لهنّ تأججٌ وضرام
ملكٌ على كل الملوك متوّجاً — بجماله وسناته قوّام
من رفرف الجوزاء فضل ردائه — ومن السهى الأردان والأكمام
والتاج من زحلٍ فرائد درّهِ — والدرّ يجهل قدرهُ الفحّام
تتبادل الأرواح نخب جباله — يسقيه لامارتين والخيّام
في وجنتيه للمجرّة ملثمٌ — منه تشبع ثغرها اللثّام
إن سيم خسفاً في المقام أماجدٌ — وجدوا الملاذ برحبه فأقاموا
اليوم أصبح والغراب دليله — لا راحة فيه ولا استجمام
قدياره محتلةٌ وأموره — محتلةٌ وجموعهُ أقسام
مأساته للناظرين عجائبٌ — وغرائبٌ للسامعين زنام
وبنوه منهم لُسَّعٌ وأساودٌ — هذي تفحُّ وذاك صلٌّ سام
وتراثه نهب وسامق مجده — قفر وزهراء الربوع رجام
بلدٌ به عصفت أعاصير الهوى — تنتاشه الأرزاء والآلام
ما غاب أعلام البلاد وإنما — غاب الهدى واستبعد الأعلام
واستبدل الفجّار خوف فجورهم — بالصالحين وسيطر الإجرام
واستضعف الأبرار أرباب الحجى — واختير للأمر الخطير غلام

* * *

لبنان والملأ المقدس شاهد — في المشرقين محبةٌ وسلام
ضجّت ملائكة السماء لرزئه — وملوك نفط المشرقين نيام
تتحكم الشهوات في أحلامهم — ووراء كل محكّم حكّام
فعلى البصائر والعيون غشاوةٌ — خُتِمت وضاع الختم والختّام
لبنان في دنيا المحافل باقة — فيها الأقاحي العاطرات ضمام
لم يأت ذنباً غير أن ولاته — خدعوا وأثخن فيهم الإيهام
لزموا مقاليد الأمور كأنما — بخلت بأفضل منهم الأرحام
وكأنما الغيد الحسان عواقرٌ — وكأنما الصيد الكماة عقام

* * *

لبنان هاروت وماروت به — سحرا وذامت سحره الأهرام
قد أودع الرحمن فيه سرّه — وكأنه ذات العماد (إرام)
أدواؤه استشرت وعزّ دواؤها — ومصائب تترى عليه جسام
بلدٌ تمتّع بالرخاء سفيهه — جهلاً وناء بحمله الحلام
بلدٌ تسبب أهلهُ بخرابه — إن السكوت عن الآثام إثام

* * *

يا أيها الفلك المدار تلطفاً — قف إن دورك يقتضيه ختام
كيف احتملت على الزمان مظالماً — صعقت بها من حولك الأجرام
أم كيف أمكنك المسير وهذه — أوزار كوكبك الصغير ضخام
كبرت ذنوبٌ خاض في غمراتها — لا توبة يوماً ولا استندام
كانت خفافيش السياسة داءه — سهل الدوا لو أخلص الحكام
يسعون للتخفيف من آلامه — خاب الرجاء وزادت الآلام
قل للسماء تفطّري وتناثري — كسفاً فأرضك للفساد مقام
وارجع وقل للأرض يا أرض اخجلي — إن السماء محبّةٌ ونظام

* * *

من قال قد شهد الجحيم فقائلٌ — صدقاً فلا وهمٌ ولا إيهام
أجواؤه للقاذفات مسارحٌ — وبقاعه للراجمات طعام
حتى المقابر بعثرت وتطايرت — تشكو الهوان رمائمٌ وعظام
في كل بيتٍ للدموع مغاسلٌ — بسيلها لشهيده استحمام
هلعٌ وتشريدٌ وعيش أنكدٌ — فيه سواء علقمٌ وأدام
بدل الخمائل والرياض استزرعت — جثث وأشلاء هناك وهام
ألقت عليه النائبات بثقلها — واستأثرت بكيانه الأسقام
المرضعات عن الرضيع ذواهلٌ — والناس أيقاظ العيون نيام
والباكيات النائحات ثواكلٌ — والقوم من فرط الأسى أصنام
تلك الربى بالأمس كان يزينها — الآس والريحان والنمام
ومروج زهرٍ كالنجوم يحفّها — شيحٌ ورندٌ عاطرٌ وبشام
أضحت هشيماً للقذائف لقمةً — يذكي لظاها المدفع اللقام

* * *

في ذمة التاريخ شعبٌ آمنٌ — كرمتْ به الأحساب والأرحام
أعيادهُ وقد استحلن مآتماً — فيها مراسيم العزاء تقام
أما المرابع فيه فهي بلاقعٌ — أما الحياة فرمة وحطام
لا يأتلي والقلب فيه غائمٌ — في كل يومٍ أفقهُ غيّام
بعد الأحبة والصحاب تقرحت — أجفانه وعدا العيون منام
ويكاد يختنق التياعاً بعدما — سُدَّت عليه منافذٌ ومسام
اليأس قتّالٌ وما من كاشفٍ — إلا الرجاء لحدّهِ ثلّام
سرّ السعادة في الحياة عقولنا — يُجلى بها الإشكال والإبهام
والعدل كافل كوننا فإذا انتفى — لم يبق إلا الواحد العلام

السيد علي حيدر الطباطبائي بن مصطفى حسين اللكهنوي

ولد سنة ١٢٧٥ في لكهنو (الهند) وتوفي فيها سنة ١٣٥٢ .

درس في لكهنو ثم اختاره واجد علي شاه لتعليم أولاده ، وعين أستاذاً في المدرسة الملكية ، ثم مشرفاً على المكتبة الآصفية ، ثم ناظراً على شؤون الآداب في دار الترجمة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد . وكان يجيد العربية والفارسية .

من مؤلفاته : شرح ديوان امرىء القيس باللغة الأردوية ، شرح تشريح الأفلاك ، ترجمة تاريخ الطبري إلى اللغة الأردوية ، تاريخ أوروبا ، شرح ديوان غالب ، ديوان شعر باللغة العربية وآخر بالفارسية وثالث بالأردوية ، مختصر تاريخ الأدب ، وغير ذلك .

الشيخ علي النجفي الكاشاني

ولد عام ١٣٠٠ بمدينة كاشان وكان والده الشيخ مهدي النجفي من علماء كاشان المبرزين ومن تلاميذ الآخوند الخراساني . درس المترجم له في كاشان ثم هاجر إلى النجف الأشرف مدة ١٠ سنوات حيث درس عند كبار علمائها كالسيد محسن الحكيم والسيد عبد الهادي الشيرازي ـ ثم رجع من إيران وصار مدرساً في حوزة قم العلمية ولكنه بعد ثلاث سنوات عاد إلى مسقط رأسه وتصدى للدرس والوعظ والإرشاد وقد أقام في كاشان مجلس درس لتفسير القرآن ـ كان عالماً بالعلوم الإسلامية كالفقه الأصول والحديث والرجال والأدب وعلم الكلام وعلم النجوم والهيئة ـ توفي عام ١٤٠٥ هـ له تأليفات عديدة تزيد على ٣٠ مجلداً[١] .

الشيخ مجد الدين أبو الخطاب ويقال أبو الفضل عمر بن الحسن بن علي بن محمد الجُمَيْل بن فرح بن خلف بن قومس بن مزلال بن مَلّال بن بدر بن أحمد بن دحية بن خليفة بن فروة الكلبي المعروف بذي النسبين الأندلسي البلنسي الحافظ :

ولد في ذي القعدة سنة ٥٤٤ وتوفي في يوم الثلاثاء الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٣٣ بالقاهرة ودفن بسفح المقطم .

من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء في عصره وأئمة الحديث ، مؤرخ كبير نحوي متبحر ، لغوي متضلع كانت أمه بنت أبي عبد الله بن أبي البسام موسى بن عبد الله بن الحسين بن جعفر الكذاب ابن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السّلام فلهذا كان يكتب عن نفسه (ذو النسبين) ويقصد به دحية الكلبي والحسين ويكتب أيضاً (سبط أبي البسام) .

قرأ على علماء الأندلس وطاف في أكثر مدن الأندلس ولقي بها علماءها ومشايخها وأخذ الحديث من فحول المحدثين بها ثم هاجر منها إلى بر العدوة ودخل مراكش واجتمع بفضلائها ثم ارتحل إلى تونس ومنها إلى البلاد المصرية ثم توجه إلى الشام واستقر في بغداد وسمع الحديث من بعض أصحاب ابن الحصين وارتحل إلى واسط وأخذ الحديث من أبي الفتح محمد بن أحمد بن الميداني ثم توجه إلى عراق العجم ومازندران وخراسان وكل ذلك لطلب الحديث والإجتماع بأئمة الحديث والأخذ عنهم ، وسمع الحديث في أصفهان

(١) الشيخ محمد رضا الأنصاري .

من أبي جعفر الصيدلاني وفي نيشابور من منصور بن عبد المنعم الفراوي وقدم إلى مدينة إربل في سنة ٦٠٤ وهو متوجه إلى خراسان فوجد صاحبها السلطان مظفر الدين بن زين الدين مولعاً باحتفالات مولد النبيّ (ص) فألف بإربل كتابه (التنوير في مولد السراج المنير) لملكها مظفر الدين المذكور وقرأ عليه بنفسه وسمعناه على الملك المعظم في ستة مجالس آخرها في جمادى الآخرة سنة ٦٢٥ ودفع له السلطان المذكور ألف دينار .

ولي قضاء دانية وقال صاحب الشذرات عن تاريخ الإسلام لابن شهبة عينه الملك الكامل رئيساً لدار الحديث الكاملية بالقاهرة وانه كان يثلب علماء المسلمين ويقع في أئمة الدين هذا وقد عزله الملك الكامل عن دار الحديث في القاهرة ورتب مكانه أخاه أباعمرو عثمان بن الحسن الكلبي الذي كان أسن منه وكان حافظاً للغة العرب قيماً بها . . .[١] .

وولي المترجم له قضاء دانية مرتين ورحل إلى تلمسان وحدث بتونس وهاجر إلى المشرق في دولة بني أيوب وكان كثير الوقيعة في علماء العامة وأئمة الحديث فاعرض بعض معاصريه عن كلامه وهجاه ابن عنين لتشيعه وكذبه بعضهم في انتسابه إلى (دحية) .

ذهب شيخنا الإمام الطهراني إلى تشيعه وذكره في طبقات أعلام الشيعة ووصفه (. . . كان عارفاً باللغة والنحو وأخذ الحديث في البلاد الأندلسية ثم رحل إلى مراكش ومنها إلى مصر ثم الشام والعراق وبغداد وواسط وعراق العجم ومازندران وخراسان وما والاها وألف بأربل كتابه (التنوير في مولد السراج المنير) لملكها مظفر الدين بن زين الدين سمعناها على الملك في ٦٢٦ هجرية . . . أقول : وقد دفن الملك الكردي هذا بالكوفة قرب المشهد في سنة ٦٣١ هجرية . . .) .

ذكره جمع من المؤرخين والمحققين وأرباب القلم منهم صاحب نفح الطيب في ج ١ ص ٣٦٨ وميزان الإعتدال في ج ٢ ص ٢٥٢ ووصفه ابن خلكان (. . . من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقناً لعلم الحديث النبوي وما يتعلق به عارفاً بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها واشتغل بطلب الحديث في أكثر بلاد الأندلس الإسلامية ولقي بها علماءها ومشايخها ثم رحل منها إلى بر العُدوة ودخل مراكش واجتمع بفضلائها ثم ارتحل إلى إفريقية ومنها إلى الديار المصرية ثم إلى الشام والشرق والعراق . . .) .

ووصفه السوطي فقال (. . . من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقناً لعلم الحديث وما يتعلق به عارفاً بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها سمع الحديث ورحل وله بنى الكامل دار الحديث الكاملية بالقاهرة وجعله شيخها حدث عنه ابن الصلاح وغيره . . .) .

ترك المترجم له مؤلفات منها كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب مطبوع ، وكتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس مطبوع ، الآيات البينات ، كتاب نهاية السؤل في خصائص الرسول ، كتاب التنوير في مولد السراج المنير ، كتاب تنبيه البصائر ، كتاب علم النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين ، كتاب العلم المشهور في فضائل الأيام والشهور ، كتاب في أسماء الخمر ، وغيرهما من المصنفات والمؤلفات .

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

عمرة ويقال البيضاء ويقال اسماء بنت النعمان بن بشير الأنصارية :

استشهدت سنة ٦٧ على التشيع .

أديبة متكلمة شاعرة في عصرها ذات جمال وحسن عرفت بالأمانة وحفظ العهد والوفاء ، عفيفة دينة متورعة سكنت دمشق كما ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق ولما بلغت سن الرشد تزوجها المختار ابن أبي عبيدة الثقفي وكانت ثائرة من المطالبين بدم الحسين عليه السّلام متفانية في محبة آل البيت عليهم السّلام . ولما قتل المختار تتبع مصعب بن الزبير أصحابه بالكوفة فقتل صبراًلمن الناهضين معه سبعة آلاف رجل كلهم خرجوا للطلب بدم الحسين عليه السّلام : ثم بعث مصعب على حرم المختار ودعاهن إلى البراءة منه ففعلن إلا اثنتين إحداهما أم ثابت بنت سمرة بن جندب الفزاري وثانيتهما عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاري : قالتا : كيف نتبرأ من رجل يقول ربي الله وكان صائماً نهاره قائماً ليله : قد بذل دمه لله ولرسوله (ص) في طلب قتلة ابن بنت رسول الله وأهله وشيعته فامكنه الله منهم حتى شفى النفوس . . .) فسجنهما مصعب وكتب إلى أخيه عبد الله بن الزبير بخبرهما فكتب إليه عبد الله إن رجعتا عما هما عليه وتبرأتا منه وإلا فاقتلهما : فعرضهما مصعب على السيف فرجعت أم ثابت بنت سمرة بن جندب الفزاري ولعنته وتبرأت منه وقالت لو دعوتني إلى الكفر مع السيف لا قررت ، أشهد أن المختار كافر : وأبت عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصارية وقالت : (شهادة أرزقها ثم أتركها : كلا أنها ميتة ثم الجنة والقدوم على الرسول وأهل بيته عليهم السّلام ، اللّهم أشهد أني متبعة نبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته . . .) فأمر مصعب بقتلها فأخرجت ليلاً إلى ما بين الحيرة والكوفة وقتلت صبراً على يد بعض الشرط يدعى مطر من آل قفل من بني تيم فكانت تنادي يا أبتاه يا أهلاه يا عشيرتاه ياعترتاه فسمعها بعض الأنصار وتقدم أخوها أبان بن النعمان بن بشير الأنصاري فأتى فلطم القاتل وقال : يا ابن الزانية عذبتها وقطعت نفسها قطع الله يمينك فلزمه حتى رفعه إلى مصعب في الكوفة فقال مصعب خلوا سبيل الفتى فأنه رأى أمراً فظيعاً . . .

وقد رثاها الشعراء منهم عمر بن أبي ربيعة المخزومي قائلاً :

إنّ من أعجبِ العجائب عندي	قتل بَيضاء حُرّةٍ عُطبول
قتلت هكذا على غيرِ جُرمٍ	إن لله درّها من قتيلِ
كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا	وعلى المحصنات جَرُّ الذيول

وأنشد سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري في ذلك من قصيدة :

أتاني بأن الملحدين توافقوا	على قتلها لا جُنّبوا القتل والسّلب
فلا هنأت آل الزبير معيشة	وذاقوا لباس الذل والخوف والحرب
كأنهم إذ أبرزوها وقطّعت	بأسيافهم فازوا بمملكة العرب
ألم تعجب الأقوام من قتل حرةٍ	من المحصنات الدين محمودة الأدب
من الغافلات المؤمنات بريئة	من الذم والبهتان والشك والكذب

ومن شعرها قولها تخاطب أخاها إبان بن النعمان :

أطال الله شأوك من غلام	متى كانت مناكحنا جذام
أترضى بالأكارع والذنابي	وقد كنا يقر بنا السنام

ذكرها أحمد بن أبي يعقوب المتوفى سنة ٢٩٢ في كتابه تاريخ اليعقوبي وأسماها أسماء بنت النعمان وقال (. . . وأخذ أسماء بنت النعمان بن بشير امرأة المختار بن أبي عبيد فقال لها ما تقولين في المختار بن أبي عبيد قالت أقول أنه كان تقياً نقياً صواماً قال يا عدوة الله أنت ممن يزكيه فأمر بها فضربت عنقها وكانت أول امرأة ضربت عنقها صبراً . . .)[1] .

غلام حسين مصاحب

ولد في مدينة نائين سنة ١٣٣٠ وتوفي عام ١٣٩٩ هو من عائلة عريقة في نائين منذ أيام الصفويين . يعد من رجال العلم والأدب البارزين في العقود الأخيرة بإيران ـ اهتم بالدراسات الرياضية ونشر مجلة رياضية . وله كتابات عديدة في مجال علم الرياضيات الحديثة والقديمة ويعد أحد ناشري الرياضيات العصرية في الجامعات الإيرانية وقام بتحقيق ونشر كتاب (الجبر والمقابلة للخيام) كما أنه كان عالماً بقواعد اللغة الفارسية وله فيها آراء صائبة وقد وضع قواعد عامة لوضع تعابير جديدة تواكب تطور اللغة الفارسية مع تطور الحياة والعلم .

حصل على الدكتوراه في الرياضيات من جامعة كمبريج عام ١٨٣٠ م وقد طبعت رسالته في الدكتوراه من قبل القسم الفلسفي في تلك الجامعة عام ١٩٥٠ م . قام بتأليف موسوعة باللغة الفارسية هي (دائرة المعارف فارسي) المشتهرة باسمه بـ (دائرة المعارف مصاحب)[2] .

الدكتور غلام حسين اليوسفي :

ولد في مدينة مشهد سنة ١٣٤٨ وتوفي سنة ١٤١١ .

درس دراسته الأولى في مشهد ، ودراسته الجامعية في طهران كان من كبار محققي إيران وأدبائها ، أمضى ما يقارب الثلاثين السنة استاذاً في جامعتي طهران ومشهد ، وأدى خدمات جلّى للثقافة والأدب الفارسيين .

ترك مؤلفات منها : الشاعر فوخي السيستاني ، أبو مسلم الخراساني ، رسالة من أهل خراسان ، زيارة لأهل القلم ، أوراق غصن في أحضان الهواء ، النفوس النورانية ، العين النورانية ، كما قام بتحقيق عدة كتب فارسية ، وترجمة كتب إلى هذه اللغة ، وكان يجيد اللغة العربية وبعض اللغات الأجنبية .

السيد غلام علي بن السيد نوح الحسيني الواسطي البلكرامي ويقال آزاد أو آزاد بلكرامي المتخلص في شعره بآزاد والملقب بحسام الهند وينتهي نسبه إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السّلام .

ولد في مدينة بلكرام من بلاد الهند يوم الأحد ٢٥ صفر سنة ١١١٦ وتوفي في مدينة أورنك آباد سنة ١١٩٩ ودفن بها .

من أعاظم شعراء الشيعة المعروفين في الهند وأكابر المؤرخين في عصره ، مؤلف مكثر محقق خبير نبغ في أكثر العلوم والفنون الإسلامية وخاصة في الشعر والأدب ولكثرة نظمه في مدح رسول الله ومناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام لقب بحسام الهند . هاجر جده من مدينة واسط في العراق إلى الهند وسكن في مدينة بلكرام . قرأ المقدمات وفنون الأدب

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٢) الشيخ محمد رضا الأنصاري .

الفارسي على السيد طفيل محمد الحسيني البلكرامي وأخذ اللغة العربية وفنون الشعر العربي والفارسي وعلوم الشريعة والسيرة النبوية وأسانيد الحديث على جده من جهة الأم السيد عبد الجليل البلكرامي وحضر في علوم العروض والقوافي وبعض فنون الأدب على خاله السيد محمد بن السيد عبد الجليل البلكرامي وأخذ العرفان والتصوف من مرشده السيد لطف الله الحسيني الواسطي البلكرامي المتوفى سنة ١١٤٣ حتى بلغ درجة سامية في العلم والفضل والإجتهاد . وكان جامعاً لشتى العلوم الإسلامية والشعر والأدب . وفي رجب سنة ١١٥٠ ترك أهله وعياله حاجاً فتوجه إلى مدينة سرّة الهندية ومنها ركب البحر متوجهاً إلى الحجاز ووصل إلى جده في ١٩ محرم سنة ١١٥١ وبعد أربعة أيام واصل سفره إلى مكة المكرمة وفي ٢٥ صفر وهو يوم مولده وصل إلى المدينة المنورة والتحق هناك بحوزة الشيخ محمد حياة السندي المدني وقرأ عليه صحيح البخاري حتى أجازه شيخه المذكور أن يروي عنه الصحاح الستة وسائر مقروآته وفي موسم الحج من تلك سنة توجه إلى مكة المكرمة حاجاً وصحب في مكة الشيخ عبد الوهاب الطنطاوي المصري المتوفى سنة ١١٥٧ وبعد موسم الحج وفي أواخر شهر ربيع الآخر ذهب إلى بلدة الطائف وزار فيها قبر عبد الله بن العباس ثم رجع إلى مكة المكرمة وفي شهر جمادى الأولى من نفس السنة ركب الباخرة من جده إلى الهند ووصل إلى بلدة سرّة في الثاني من جمادى الثانية ثم توجه إلى بلكرام عند أهله وعياله في ٢٧ من جمادى الثانية ثم اعتكف في تكية العارف الشاه مسافر العجدوائي المتوفى سنة ١١٢٦ والمدفون بها بطلب من الشاه محمود المتوفى سنة ١١٧٥ وقام بالوعظ والارشاد للصوفية هناك سبعة أعوام وفي سنة ١١٥٩ استدعاه الأمير النواب نظام الدولة ناصر جنك بن النواب نظام الملك آصفجاه فأجابه المترجم له وأكرمه النواب إكراماً عظيماً وفي سنة ١١٦١ توفي نظام الملك آصفجاه فتسلم مقاليد الدولة ولده نظام الدولة ناصر جنگ وانتهت إليه رياسة حكومة الدكن فعزز المترجم له وآزره وكان من أقرب المقربين إليه ، كما تصدر كرسي التدريس والفتوى إلى آخر حياته في بلدة أورنگ آباد حتى توفي ودفن فيها . وذكر المترجم له جمع من المؤرخين وأرباب القلم في تراجم مختصرة ، منهم خير الدين الزركلي في كتابه الاعلام قال (غلام علي آزاد بن السيد نوح الحسيني الواسطي : مؤرخ عالم بالأدب من أعيان الهند مولده في بلكرام ووفاته في أورنك آباد . . .) ونقل عنه عمر رضا كحاله في معجم المؤلفين ج ٨ ص ٤١ وذكره السيد حسن الأمين في الموسوعة الإسلامية قال : (آزاد بلكرامي شاعر صوفي هندي نظم بالعربية والفارسية اسمه الكامل مير غلام علي بن السيد نوح الحسيني الواسطي البلكرامي وهو إلى شاعريته مؤرخ وناثر باللغتين الفارسية والعربية من مؤلفاته العربية مآثر الكرام في تاريخ بلكرام ، وسبحة المرجان في آثار هندستان طبع في بومبي سنة ١٣٠٣ هجرية ١٨٨٦ م وفي الفارسية منتخبات شعرية ، خزانة عامرة ، ويد بيضاء .

وقد أرخ للصوفيين بكتاب روضة الأولياء وهو تراجم لمشايخ الصوفية كما أرخ لغير الصوفيين في كتاب مآثر الأمراء كما ترك ثلاثة دواوين شعرية باللغة العربية ولد سنة ١٧٠٤ وتوفي سنة ١٧٨٦) م وذكره يوسف اليان سركيس في معجم المطبوعات العربية والمعربة الجزء الأول صفحة أولى .

يقول عبد الحسين الصالحي : ترجم لنفسه مفصلاً في كتابه خزانة عامرة بالفارسية صفحة ١٢٣ فما بعد وفي كتابه الثاني سبحة المرجان في آثار هندستان بالعربية الذي نقلنا عنها تلخيص هذه الترجمة .

ويقول في سبحة المرجان عن وجه تسميته بـ (آزاد) أنه عرض اسمه آزاد على الشيخ عبد الوهاب الطنطاوي الذي لازمه حين موسوم الحج في مكة المكرمة ويروي لنا القصة هكذا (. . . وصحبت الشيخ عبد الوهاب الطنطاوي المصري وهو المتوفى سنة ١١٥٧ هجرية نور الله مضجعه وجعل روض النعيم مرتعه واقتبست جذوات من النيران العلوية وأخذت عنه فوائد جمة من الأحاديث النبوية وذكرت يوماً من الأيام عند الشيخ الهمام أن شعراء الفرس والهند وضعوا طريقة حسنة حيث يختارون لأنفسهم اسماً ويذكرونه في أواخر منظوماتهم ويجعلونه فصوصاً في خواتم مرقوماتهم والاسم هو المسمّى بالتخلّص عند الشعراء الفارسيين لأنهم يتخلصون عند ذكره عن عرض الكلم على الموازين والسرّ في ذلك أن الاسم الأصلي ربما لا تسعه التفاعيل فيختارون جوهرة يمكن أن ترصع بها الجلاجل ، ثم عرضت على الشيخ تخلصي بآزاد وهو الفائض عليّ من حضرة المبدأ الجواد فسأل الشيخ عن معناه واستدعى كشف الظلام عن سناه فقلت معنى آزاد العبد المحرر فخاطبني الشيخ يا سيدي أنت من عتقاء الله فاستبشرت بهذه الكلمة العليا وترقبت من نفسه المبارك بركة عظمى . . .) ومما يجدر ذكره هنا أن أسرته من الأسر العلوية الحسينية وجميع عائلته وأخواله هم من السادة العلويين الشيعة في بلدة بلكرام كما أن اسمه غلام علي من الأسماء الشيعية الفارسية التي لا يستعملها غير الشيعة . وجميع مؤلفاته وأشعاره المعروفة في مناقب ومدائح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام كل ذلك يدل على تشيعه . ونقل أيضاً في مؤلفاته عن مشايخ الشيعة وكتبهم مثل صحيفة الرضا وتفسير العسكري وغير ذلك من كتب الشيعة المعتمدة ولم يصرح بمذهبه في مؤلفاته إلا في كتابه سبحة المرجان المطبوع عام ١٣٠٣ هجرية ووصف نفسه قائلاً : (. . . الفقير غلام علي بن السيد نوح الحسيني نسبا الواسطي أصلاً والبلكرامي مولداً ومنشأ والحنفي مذهباً والچشتي طريقة . . .) هذا في النسخة المطبوعة ولم أقف على نسخة خط المؤلف ولكن المظنون ما ذكرناه وتدل مؤلفاته وأشعاره أنه شيعي كما ذكر شيخنا الأستاذ الإمام الرازي جميع مؤلفاته في أبواب الذريعة إلى تصانيف الشيعة[٣] وصرح في الجزء الثاني عشر صفحة ٢٣٥ من الذريعة حين ذكر كتابه سند السعادات في حسن خاتمة السادات الفارسي المطبوع في بمبئي عام ١٣٠٨ هجرية قال (وان في كتابه هذا شواهد لتشيعه . . .) .

ترك المترجم له مؤلفات بالعربية والفارسية طبع قسم منها فمن مؤلفاته بالعربية المطبوعة ثلاثة دواوين فرغ من جمعها في عام ١١٨٧ هجرية ، ديوان فارسي ، ضوء الدراري في شرح صحيح البخاري من أوله إلى آخر كتاب الزكاة ، تسلية الفؤاد يحتوي على قصائد بالعربية وتراجم للعلماء ، حظيرة الجنان ، دلگشانامه منظومة فارسية في شرح وقايع المختار بن أبي عبيد الثقفي آخذ ثارات الحسين عليه السّلام ، توجد نسخته في المتحف البريطاني ، خزانة عامرة فارسية في تراجم الشعراء الذين نالوا الصلات من الملوك والأمراء في الإسلام وقد الفه لابن أخيه أولاد محمد بن غلام امام ترجم فيها ما يقرب من مئتي شاعر وترجم نفسه في آخر حرف الألف ص ١٢٣ إلى ص ١٤٥ وأورد قصيدته في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام التي أشار فيها إلى اهتدائه إلى باب العلم ورفضه اختيار خليفة غيره من بين الستة أهل الشورى بقوله : ـ

بـر در شهر نبى رحـل أقامت ريختم	تابرايم از طفيل آنجناب ازششدري
شـاه عالم پـرور اظل عنـايت كسـترا	جانب درگاه أقدس كرد بختم رهبرى

طبع في الهند في ٤٦٢ صفحة بقطع كبير ، سبحة المرجان في آثار هندستان عربي مطبوع عام ١٣٠٣ هجرية ذكر علماءها وسائر أحوالها مرتب على أربعة فصول ترجم نفسه في ص ١١٨ إلى ص ١٢٣ ، سند السعادات في حسن خاتمه السادات فارسي مطبوع في بمبئي سنة ١٣٠٨ هجرية قال شيخنا الأستاذ آقا بزرك الظهراني وفي كتابه هذا شواهد لتشيعه ،الاشكال، شفاء الغليل،نقد اشعار المتنبي ، مآثر الكرام في تاريخ بلكرام ، تذكرة خزانة عامرة وهو في شعراء إيران والهند ، سروازاد ، روضة الأولياء في تراجم مشايخ الصوفية ، مآثر الأمراء[١] .

الشيخ فتح الله بن الشيخ صادق بن الشهيد الثالث البرغاني القزويني آل الشهيدي

ولد في قزوين سنة ١٣٠٠ وتوفي بها سنة ١٣٧٧ .

من رجال الفتوى والتقليد فقيه متبحر وأصولي محقق . أخذ المقدمات والسطوح على أفاضل رجال أسرته في المدرسة الصالحية بقزوين منهم شقيقه الشيخ ميرزا هداية الآتي ذكره ثم توجه إلى أصفهان وأخذ هناك الحكمة والفلسفة ومنها قصد الحوزة العلمية الكبرى في النجف الأشرف والتحق بحلقة الآخوند الملا محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية والسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي صاحب العروة الوثقى ورجع إلى موطنه قزوين وتصدر للتدريس والفتوى والتف حوله جميع من أهل الفضل وتخرج عليه جماعة من الأعلام له مؤلفات منها كتاب الفقه من الطهارات إلى الديات ومؤلفات أخرى كلها بخطه هي اليوم من مخطوطات مكتبة سبطه الدكتور مهدي الشهيدي من المحققين المعاصرين في إيران وأساتذة جامعة طهران[٢] .

فاطمة بنت الشيخ محمد صالح بن الشيخ الملا محمد الملائكة بن الشيخ محمد تقي بن الشيخ محمد جعفر بن الشيخ محمد كاظم البرغاني القزويني :

توفيت حدود سنة ١٢٩٥ .

من ربات الفصاحة والبلاغة والأدب سريعة البديهة فصيحة بصيرة بالكلام عالمة فاضلة حافظة للقرآن الكريم عارفة بتفسيره ، نحوية .

أخذت الصرف والنحو والمنطق والكلام عن أختها قرة العين وتفقهت على والدها الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وعمها الشهيد الثالث المستشهد سنة ١٢٦٣ وتخرجت في الفلسفة على الشيخ الملا آغا الحكمي القزويني وأخيها الشيخ الميرزا عبد الوهاب البرغاني القزويني وأخذت العرفان والحديث عن عمها الشيخ الملا علي البرغاني ، ولما بلغت سن الرشد زفوها إلى ابن عمها الشيخ عبد الحسين البرغاني القزويني[١] فرزقت منه ولداً هو الشيخ رضا شيخ الإسلام وتصدرت كرسي التدريس في قسم النساء من المدرسة الصالحية بقزوين ، وكانت تباحث مع زوجها وسائر رجال أسرتها في المسائل الفقهية والأصولية والفلسفية وتستنبط الأحكام الشرعية وتفتي في المسائل العلمية ولها من المؤلفات مجموعة من فتاواها وبعض

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

الحواشي على الكتب الفلسفية والفقهية ورسالة في الإرث ورسالة في الحيض موجودة في مكتبة أحفادها في قزوين[٣] .

فتح علي شاه القاجاري

لما قتل « آقا محمد خان قاجار » في مدينة « شوشي » في القفقاس كان ابن أخيه ولي عهده في طهران . وولي عهده هذا هو ابن « حسين علي خان قاجار » المعروف بلقب « جهان سوز » (حارق الدنيا) ، ابن « محمد حسن خان قاجار » بن « فتح علي خان قاجار »[٤] ولما ولد ولي العهد هذا سمي « فتح علي » باسم جده . ولذلك عرف في أوساط الأسرة باسم « بابا خان » ، إذ هو سمي أبيهم الأعلى . ثم اشتهر بهذا الاسم بين العموم .

فلما بلغه نبأ مقتل عمه تولى منصب الملك باسم « فتح علي شاه » في يوم السبت ٢١ ذي الحجة سنة ١٢١٢ هـ . وتوفي يوم الخميس ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٥٠ هـ . فيكون قد ملك سبعة وثلاثين عاماً وخمسة أشهر وتسعة أيام بالحساب الهجري القمري . وكانت ولادته سنة ١١٨٥ هـ . فيكون عمره يوم تولى الملك سبعة وعشرين عاماً ، وعمره حين توفي أربعة وستين عاماً .

ترك « آقا محمد خان » لابن أخيه دولة مستقرة في الظاهر ، إذ كان قد أخضع كل المتمردين . ولكن الواقع أن ما أجمه من حروب شديدة وما أراقه من دماء غزيرة في داخل بلاده وفي حدودها ، قد أوغر عليه صدوراً كثيرة . ولذلك كانت ممارسة الملك مهمة صعبة على ابن أخيه وخليفته « فتح علي شاه » . فقاسى الشدائد من الأحداث الداخلية والخارجية ، شدائد امتدت على كل المدة التي قضاها في الحكم ، وأوقعها به أولئك الذين نكل بهم عمه فأصبحوا أعداء له ولأعقابه من بعده .

وكان أشدها عليه الاحتفاظ بالإيالات الواقعة في القفقاس في الشمال الغربي من إيران . فإن المجازر الرهيبة التي أوقعها عمه في « كرجستان » قد أغضبت على إيران كل النصارى المقيمين في تلك النواحي من نهر « أرس » وجعلتهم يخشونها ويحذرونها . ووضعت في يد صقالبة[٥] الشمال ذريعة للتوسع ، بحجة أنهم مضطرون إلى حماية أهل ملتهم نصارى تلك الأقاليم من تعدي الإيرانيين عليهم .

في غرة المحرم سنة ١٢١١ هـ ، إذ قام « آقا محمد خان » بالغزوة الثانية لكرجستان أقام ابن أخيه هذا في العاصمة وسلمه زمام أمور الدولة . ومع ذلك فإنه لما قتل في نواحي نهر « أرس » قامت في وجه « فتح علي شاه » مصاعب ثقيلة وهو يريد تولي المنصب الملكي الذي هو إرث له . وأهم هذه

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٤) يوم كان « الشاه طهماسب الثاني الصفوي » يحاصر « الملك محمود السبستاني » في مدينة مشهد في خراسان ، كان « نادر قلي أفشار » (نادر شاه) لا يزال ضابطاً من قواد جيش الشاه الصفوي هذا . وكان « فتح علي خان قاجار » من رؤساء هذا الجيش أيضاً . وكان « نادر قلي أفشار » يرى في « فتح علي خان قاجار » منافساً له قد يعترض تطلعاته إلى الحكم في المستقبل . فقتله في أثناء هذا الحصار سنة ١١٣٩ هـ . ق بموافقة « الشاه طهماسب » في ضاحية مشهد المعروفة باسم « خواجة ربيع » .

(٥) الصقالبة selaves هم عند مؤرخي العرب الشعوب السلافية القاطنة بين جبال الأورال والبحر الأدرياتيكي في أوربا الشرقية والوسطى . وهم فرعان : صقالبة الشمال : الروس والروس البيض والبولونيون . وصقالبة الجنوب : الصرب والكرواتيون والسلوفاكيون والبلغاريون .

المصاعب كان الاختلافات العائلية التي أوجدها ما عرف عن « آقا محمد خان » من غدر ونقض للعهود ونكران للجميل ، حتى أنه غدر بأرحامه الأدنين . وقد ظلت هذه الخلافات راسخة في العائلة القاجارية المالكة بعد ذلك ، فما اعتلى العرش واحد منهم إلا نازعه إياه غير واحد من القاجاريين .

ملك « فتح علي شاه » وهو شاب في السابعة والعشرين من عمره . ومع ذلك كانت تنقصه أهم خصال الشبيبة من شجاعة وجرأة . كانت فيه كل معائب عمه « آقا محمد خان » دون حسناته من حسن تدبير وشجاعة . كان ، كعمه ، محباً للمال ، بل أنه فاق عمه في هذه الصفة . فقد كان عمه لا يتأخر في تأدية ما يترتب عليه من نفقات لتجهيز الجيوش وأعطيات الجنود . أما « فتح علي شاه » فكان على العكس ومن أهم أسباب انكساره مرتين في محاربته للروس بخله على جنوده ، حتى إنه امتنع عن إمدادهم بالطعام والعلوفة وهم في ميدان الحرب . وكان يتوقع أحياناً أن تشارك إنكلترا في تأدية نفقات حربه هذه !

روى أحد رجال « فتح علي شاه » أن ولي عهده قائد جيشه في محاربة الروس « عباس ميرزا » كان يحتاج إلى معدن الرصاص لصنع طلقات البنادق ، وأبوه يبخل عليه بالمال لشراء الرصاص . وقال له مرة : إن ثمن الرصاص غال، وتوفير الرصاص اللازم لعتاد الجيش يقتضي ميزانية ضخمة . فلماذا لا تأمر بجمع الرصاص الذي يسقط على الأرض في ميدان الحرب ، وإعادة صهره وصنعه ؟ . .

وزاد في جبن « فتح علي شاه » الطبيعي اعتقاده بالخرافات ، كاختصاص نجموم بالسعود وأخرى بالنحوس ، وتوسله بالطلاسم والسحر لقضاء الحاجات . ومن ثم كان أبعد شيء عن الحزم والصبر على الشدائد ، وخير ما يدل على روحيته أنه كان يرى نفسه أجمل رجل في الدنيا وأكثر رجال الدنيا جاذبية . وأوضح سند لهذه الدعاوى هو أنه أوعز في أواخر حياته إلى رئيس مكتبه الخاص « الميرزا تقي علي آبادي » ـ وكان شاعراً كاتباً ـ بكتابة رسالة في شرح حاله تطابق دعاواه تلك . فكتب رسالة صغيرة بالإنشاء المتكلف الذي كان متداولاً في ذلك الزمان وسماها « شمائل الخاقان » . وأمر جماعة من الخطاطين بكتابة نسخ كثيرة عنها زخرفت وذهبت . ولا تزال نسخ منها تباع حتى اليوم عند الوراقين . وبعد موته نقشت هذه الرسالة بخط جميل على صفحة حجر من المرمر ونصبت على قبره في مدينة « قم » . وفي هذه الرسالة عكسوا جميع انكساراته الحربية فجعلوها انتصارات وفتوحاً .

نساء « فتح علي شاه » وأبناؤه

ومن معائبه الدالة على سقوط همته وانصرافه عن أمور المملكة الجدية إلى شهواته الشخصية الخاصة أنه تزوج بأكثر من ألف امرأة ، منهن ثمان وخمسون ومائة امرأة ذكرت أسماؤهن في كتب التاريخ . وولدت له هذه النساء اثنين وستين ومائتي ولد ما بين صبي وبنت . مات منهم في حياته تسعة وخمسون ومائة ، وترك بعد وفاته ثلاثة ومائة ولد ، منهم سبعة وخمسون ذكور وستة وأربعون أناث . وفي مدة ٤٧ سنة ، وهي مدة ما بين زواجه الأول ووفاته ، بلغت عدة نسله إلى ألفي نسمة ما بين ابن وحفيد ، مات أكثرهم في حياته .

ونساؤه من أعراق مختلفة ، من تركمان وكرج وأكراد وأتراك وشراكسة وغيرهم . ولم يكن بين أبنائه ألفة ولا مخالطة ، يعيشون كالغرباء بعضهم عن بعض . بل كانت بينهم عداوات ومنافسات ، والبلاط لا ينفك يضج بالخلافات والمنافسات على ولاية العهد . خلافات ومنافسات تمتد حتى تشمل نواحي المملكة من أدناها إلى أقصاها . وينقسم المختلفون إلى فريقين ، فريق يستنصر بالروس وفريق يستنصر بالإنكليز . فيكون لذلك أوخم العواقب في شؤون البلاد .

وكان أكفأ أبنائه وأشجعهم وأنزههم « عباس ميرزا » نائب الملك وولي العهد . ولم يكن أكبر أبنائه . ولذلك كان من هم أكبر منه من إخوته يرون أنهم أحق بولاية العهد . وكان « عباس ميرزا » هذا قائد جيوش أبيه في جميع الحروب المهمة التي خاضها . وكان إخوته يسعون إلى إسقاط منزلته وإذلاله في البلاط . حتى أنهم كان يرضيهم أن يتغلب الأجنبي العدو عليه ليصلوا إلى هذه الغاية . وكانوا يتوسلون بمختلف الوسائل ليمنعوا وصول المال إلى جنوده ويقطعوا المدد عنه ليعجزوه في ميدان الحرب ويقضوا عليه . وهذه الحقائق مذكورة في جميع المستندات التي وصلت إلينا عن تاريخ تلك الحقبة .

نصب « فتح علي شاه » أبناءه حكاماً على مختلف نواحي إيران ، ومنها النواحي الحدودية الحساسة ، في المغرب والجنوب والجنوب الغربي والجنوب الشرقي . ولم يقتصر شرهم على ما كان بينهم من خصومة وأن كلاً منهم لا يألوا جهداً في الكيد للآخر بكل نوع من أنواع العرقلة في العمل والفتنة . بل كانوا أيضاً يعصون أوامر الحكومة المركزية . وكانت هذه السيرة تؤدي ، بالضرورة ، إلى إضعاف إيران في مواجهة جيرانها والأجانب بصورة عامة ، وتسهل على أعدائها طريق الوصول إلى مقاصدهم . فكانت أيام ملك « فتح علي شاه قاجار » أسوأ ما مر بإيران من عهود . ولم يسبق أن فقدت إيران أجزاء مهمة من أرضها بقدر ما فقدته في تلك الحقبة .

الأوضاع الخارجية

وزاد الأمر سوءاً أيام تملك « فتح علي شاه » أن أنظار الدول القوية اتجهت يومئذ إلى ثروات آسيا وإفريقيا ، فاندفعت إليها تستعمر أرضها أو تستولي عليها بعنوان الحماية ، وليس في القارتين قوة مادية ولا معنوية تستطيع مقاومة الطامعين .

في شمال إيران لا تنفك الإمبراطورية الروسية الواسعة تزداد سعة وقوة يوماً فيوماً . وفي غرب إيران اتفقت دول أوروبا كلها على الأمبراطورية العثمانية حتى قضت عليها واستولت على تركتها . وفي شرق إيران لا تنفك قبضة انكلترا تزداد استحكاماً وقوة على شبه القارة الهندية . ودول العالم الكبرى ، ولا سيما روسيا وفرنسا والنمسا ، تتطلع أنظارها إلى ثروات الهند الضخمة المنقادة لكل طامع ، ولا تنفك تتحرى كل وسيلة لتقصير يد انكلترا عنها ، وإيران جارة الهند والطريق الطبيعية لأوروبا ، ولا سيما روسيا وفرنسا ، للوصول إليها . فروسيا تسعى جهدها إلى تقليص أرض إيران لتزداد قرباً من الهند ، وفرنسا تأمل أيضاً بأن تجعل من أرض إيران طريقها إلى الهند . وانكلترا تسعى ما استطاعت إلى توسيع الفاصل ما بين مستعمرات روسيا والهند ، وتقوية استقلال أفغانستان لتبقى حاجزاً يصد عن الهند .

وفي الجنوب لم يكن لإنكلترا بد من أن تجعل العرب القاطنين في أطراف الخليج خاضعين لحكومة الهند ، لكي تطمئن إلى سلامة طريق الهند من تلك النواحي .

هذا ولإيران في الهند نفوذ ثقافي وأخلاقي وحضاري راسخ ، بدأ من القرن الهجري الخامس ، من زمن السلطان محمود الغزنوي . حتى أن اللغة الفارسية ظلت مدة ثمانية قرون اللغة الرسمية لجميع الحكومات التي قامت في الهند . بل إن اللغة الفارسية كانت هي الرابطة بين طوائف الهند المختلفة . وهي طوائف يستقل كل منها بلغة خاصة لا تفهمها الطوائف الأخرى . وبينها أيضاً تباين في العقائد الدينية . ولم يكن بينها من جامعة غير اللغة الفارسية . بل ظلت اللغة الفارسية اللغة الرسمية للحكومة الإنكليزية في الهند إلى سنة ١٨٥٠ م الموافقة ١٢٦٦ هـ إذ استطاع الإنكليز يومئذ إبطالها وإحلال اللغة الإنكليزية في محلها . فكان هذا الوضع يعد أيضاً في جملة العوامل التي تضطر الطامعين في الهند إلى إضعاف إيران لإضعاف نفوذها الفكري في الهند .

هذه الأوضاع العالمية جعلت إيران يومئذ ميداناً حامياً للمنافسات القائمة بين دول أوروبا ، ولا سيما إنكلترا وروسيا . وبلاط « فتح علي شاه » العاجز يتأرجح بين مختلف الاتجاهات . ولم يتهيأ لإيران يومئذ رجال أكفياء يستطيعون النهوض بالمسؤوليات المترتبة على ما يدبر لإيران من دسائس متنوعة وراء الستار . و « عباس ميرزا » ابن « فتح علي شاه » ونائبه وحده من كان أهلاً لذلك لما أوتي من مواهب فطرية . وقد هيأ يوم كان نائباً عن الملك في تبريز بضعة رجال أكفياء بإرشاداته وتوجيهاته . أشهرهم « الميرزا عيسى الفراهاني » المعروف بلقب « القائمقام » ولقب « الميرزا الكبير » وابنه « الميرزا أبو القاسم » المعروف أيضاً بلقب « القائمقام » وكان كاتباً شاعراً اتخذ لنفسه اسماً مستعاراً هو « ثنائي » . ولكن ما حيلة هذين الرجلين العظيمين وسط هذا الخضم من الدسائس والفتن ؟ ! وأدت تلك الأوضاع المتردية إلى نتائجها المشؤومة .

واتفق أن قام في أوروبا ، أيام ملك « فتح علي شاه » ، رجال عظماء غيروا مصير العالم المتمدن وجعلوا الدنيا بأسرها لعبة قدراتهم السياسية والعسكرية وحولت خطط « نابليون » الأول أمبراطور فرنسا و « بولس » و « الإسكندر » أمبراطوري روسيا والأمير « مترنيخ » رئيس وزراء النمسا دولاً أقوى من إيران إلى دول عاجزة . فكيف بإيران . وهذه حال ساستها وحكامها ؟ ! وفي تلك الأيام ، في القرن التاسع عشر الميلادي الموافق للقرن الثالث عشر الهجري ، فقدت إيران أكثر من ثلث أرضها في جهة الشمال الشرقي والشمال الغربي والشرق والغرب .

مقتل الحاج محمد إبراهيم كلانتر

ومن الأحداث الداخلية المهمة التي وقعت أيام تملك « فتح علي شاه » إقدامه على قتل « الحاج محمد إبراهيم كلانتر » الشيرازي . فقد سبق أن كان هذا في مبدأ أمره وزير « لطف علي خان زند » . ولكنه واطأ في السر « آقا محمد خان قاجار » وانحاز إلى القاجاريين ينصرهم على الزنديين . وقد بلغ من نصرته لهم أن عده بعض المؤرخين العامل الأول في إسقاط الزنديين وإيصال القاجاريين إلى منصب الملك[1] .

وقد كافأه « آقا محمد خان » بعد تملكه بمنحه لقب « اعتماد الدولة » ونصبه في مقام الصدر الأعظم . وبعد مقتل « آقا محمد خان قاجار » وتملك « فتح علي شاه » في سنة ١٢١٢ هـ أبقاه هذا في منصبه ، منصب الصدارة العظمى . وأصبحت شؤون البلاد الإدارية والمالية في عهدته يتصرف بها على هواه . وقد توسل بمنصبه وسلطاته هذه إلى جمع ثروة ضخمة والتمكن من نفوذ واسع . فنصب أقرباءه وأصدقاءه حكاماً على مختلف نواحي إيران ، وأطلق أيديهم ينهبون الناس ويكنزون المال ويقاسمونه ما ينهبون ، حتى ضاق « فتح علي شاه » به ذرعاً . فعزم على التخلص منه .

من أجل ذلك أصدر « فتح علي شاه » سنة ١٢١٥ هـ ، وكان قد مضى على تملكه ثلاث سنوات ، أمراً سرياً بأن يعتقل في وقت واحد كل حاكم عينه « الحاج محمد إبراهيم » في ولاية من الولايات ، فاعتقلوا وسجنوا . وفي يوم اعتقالهم نفسه اعتقل « الحاج محمد إبراهيم » في طهران فأعمي ثم قتل . وكان بين المعتقلين أبناؤه وإخوته فقتلوا بعضهم وأعموا آخرين . وكذلك فعلوا بجماعة من مريديه . وصادروا أموالهم .

وبعد مقتل « الحاج محمد إبراهيم » الشيرازي ، نصب « فتح علي شاه » في منصب الصدارة العظمى « الميرزا محمد شفيع القديمي » المازندراني . وكان امرءاً مستقيماً أميناً جاداً ذكياً . وكان له نشاط واسع في توجيه السياسة الإيرانية الخارجية .

غرور فتح علي شاه

كان « فتح علي شاه » مستبداً برأيه لا يستشير أحداً في قراراته . وكثيراً ما كان يغضبه أن يشير عليه أحد برأي يخالف رأيه . وكل أعمال الدولة يجب أن توافق هواه الخاص . وأعظم ما منيت به إيران يومئذ من مصائب إنما كان جهل هذا الشاه بكل ما يقتضيه منصبه من أمور ، خصوصاً الأوضاع العالمية - وتعقيدات ذلك الزمان السياسية ، التعقيدات التي بلغت حداً بعيداً من الغموض والتشعب . وإلى هذا غرور فيه يصرفه عن تحري الحقائق واستشكافها فلا يرى في نفسه حاجة إلى ذلك . وخير دليل على ذلك تلك الكتابة التي أمر بنقشها على قبره ، فقد جعل فيها من انكساراته الفاحشة انتصارات وفتوحاً ووصف نفسه بكل جمال باطني وظاهري ، وجعل من نفسه موجوداً كاملاً . ولذلك لم يكن يرى لأحد رجحاناً عليه بشيء . حتى إنه لم يكن يرى نفسه أقل من « نابليون » . ويرى جميع ملوك العالم أدنى منه مكانة .

وكان « فتح علي شاه » يعالج السياسة الخارجية ويعامل الدول الكبرى ، أي روسيا وانكلترا وفرنسا والدولة العثمانية ، ويدخل ميادين الحرب بمثل هذا الغرور والجهل . فلا يتصور أن دولة من هذه الدول تستطيع التغلب عليه ، أو أنه يمكن أن يرتكب خطأ ما .

وكان كعمه وسلفه « آقا محمد خان » محباً للمال . يقبض يده عن بذل المال حتى في تجهيز الجيش وأشد حالات الحرب حاجة إلى المال . وبعد كل من الحربين اللتين وقعتا بين روسيا وإيران ، وانهزم فيهما « فتح علي شاه » كان حديثه في مفاوضات الصلح كله يدور على طلب إنقاص مقدار الغرامة التي تطلبها روسيا من إيران ، ولم يتحدث قط عن إنقاص مقدار الأرض التي تحتلها روسيا من إيران ! وسيأتي ذكر معاهدة انعقدت بين إيران وانكلترا . وفي هذه المعاهدة مادة تقضي بأن تمنحَ انكلترا إيران مقداراً من المال في كل شهر إذا وقعت حرب بين روسيا وإيران . وقد نقضت انكلترا هذه المعاهدة . وصار هذا النقض موضوعاً لمذاكرات بين إيران وانكلترا دامت بضع

(١) راجع تفاصيل هذه الواقعة في ترجمة « لطف علي خان زند » وترجمة « آقا محمد خان قاجار » .

سنوات ، لم يكن « فتح علي شاه » يشكو فيها من شيء إلا رفض انكلترا تأدية المال الموعود !

ومثل هذا الشاه كان من الطبيعي أن يحشد في بلاطه المتملقين . ومن أجل أن يعفي نفسه من الإنعام عليهم بشيء من ماله الخاص كان يطلق يدهم على الناس يسلبون منهم ما يشاؤون ، وهم يخدعونه ويضللونه بالتملق ، ويزينون له سيئاته ويجلعونها في عينيه حسنات !

كانت إيران قد أصبحت ، من جهة الشمال والجنوب والشرق ملعب السياسة الأوروبية ومحط أنظار الطامعين الأجانب . وكانت المحافظة عليها تقتضي رجالاً من أهل الشجاعة والفداء والتدبير والإطلاع على وقائع السياسة العالمية . وكان « فتح علي شاه » وكل رجال بلاطه تعوزهم هذه الصفات .

وكان أعظم خطر تتعرض له إيران يأتيها من ناحية شمالها الغربي والقفقاس ـ فقد كان نصارى تلك النواحي لا ينفكون يزدادون حقداً على إيران ، يوماً بعد يوم ، خصوصاً بعد غارات الشاه « عباس الصفوي » و « نادر أفشار » و « آقا محمد خان قاجار » . فلما توسع الصقالبة الروس وزال ما يفصل بينهم وبين تلك النواحي وأصبحوا جيراناً لأهلها ، وعرفوا ما في نفوسهم من حقد على إيران اتبعوا سياسة خاصة أفادتهم كثيراً وألحقت بإيران أضراراً عظيمة . وأعلن أمبراطور روسيا نفسه رسمياً حامي نصارى القفقاس . وكانت النتيجة أن خرجت تلك النواحي الغنية من إيران .

وبالإجمال كان « فتح علي شاه » في كل تصرفاته وحروبه لعبة السياسات الأجنبية . وكان عهده بداية عهد الانحطاط وأشد أشكال الفساد في تاريخ إيران .

اختلاف إيران وروسيا

من أزمنة تاريخية قديمة إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ونهاية القرن الثاني عشر الهجري ظلت حدود إيران الطبيعية من جهة الشمال الغربي جبال القفقاس .

وفي القرن الميلادي الثالث قدمت من تركستان الصينية طوائف من الأتراك الرحل واحتلت شيئاً فشيئاً السواحل الشمالية والغربية من بحر الخزر . وأقامت وراء نهر « جيحون » ووراء جبال القفقاس ، مجاورة إيران . وظلوا في إيران . وظلوا في أماكنهم تلك يجاورون أيضاً أقواماً من الأوروبيين عرفوا باسم « الصقالبة » (السلاف) إلى القرن الهجري الرابع ، إذ دخلوا إلى إيران من جهة الشرق . وفي القرن الهجري الثامن دخلوها من جهة الغرب .

كان الصقالبة يتقدمون إلى السواحل الشمالية الغربية من بحر الخزر ومصب نهر « الفولغا » ويطردون الأتراك نحو الجنوب ، نحو أرض إيران . وفي تلك الحقبة تواجه الإيرانيون والروس . وذكر اسم الروس في تاريخ إيران أول مرة في سنة ٢٩٨ هـ الموافقة سنة ٩١١ هـ إذ قطع جيش روسي بحر الخزر على أسطول من ست عشرة سفينة وأغار على « طبرستان » ووقعت معركة بينهم وبين الإيرانيين .

ومن ذلك التاريخ إلى أواخر القرن السابع عشر الميلادي والقرن الحادي عشر الهجري قام الروس ببضع هجمات على نواحي مختلفة من إيران ، لم تؤد إلى احتلالهم شيئاً من أرض إيران ، ولا جرّت وراءها ذيولاً .

وفي سنة ١٦٦٨ م الموافقة ١٠٧٩ هـ وقعت مجاعة في نواحي نهر « الدنيبر » من روسيا ، فهاجرت جماعة كبيرة من أهلها إلى نواحي نهر « الدون » . وهناك جندهم أحد القوزاق ، واسمه « ستانغورازين » وأخذ يغير بهم على سواحل بحر الخزر ويحتلها شيئاً فشيئاً . إلى أن أغار في ربيع تلك السنة من طريق البحر على سواحل إيران بين « دربند » و « باكو » .

فأمر « الشاه سليمان الصفوي » الثاني[1] حاكم « جيلان » أن يصده . ودافع أهالي ذلك الإقليم دفاعاً شديداً وردوه على أعقابه ، بعد أن كان عسكره قد وصل إلى أبواب مدينة « رشت » . وانتقم « ستانغورازين » لهزيمته بإيقاع مذبحه عظيمة بأهالي مدينة « فرح آباد » من أعمال مازندران . وكان الإيرانيون قد جهزوا أسطولاً لمقاومته فتمكن من إغراقه في سنة ١٦٦٩ م الموافقة سنة ١٠٨٠ هـ ولكنه لم يعد بعدها إلى التعدي على أرض إيران .

وفي مطلع القرن الثامن عشر الميلادي كان قياصرة روسيا يحادون أرض إيران بسبب إجلائهم الأتراك الغربيين المقيمين وراء جبال القفقاس وإخضاع من بقي منهم لحكمهم ، بعد أن ظل هؤلاء الأتراك مدة قرون يفصلون الإيرانيين عن الصقالبة الروس .

وكانت أرمينيا و « كرجستان » موضع نزاع حربي طويل بين الملوك الصفويين والملوك العثمانيين . ولكنهما كانتا ، في الغالب ، تتبعان إيران وتؤديان الخراج إليها . وكانت تحكم « كرجستان » سلسلة من الأمراء النصارى قد تخلقوا بأخلاق المدنية الإيرانية ، حتى إن أكثرهم كانت أسماؤهم إيرانية . بل كانوا يبعثون بأبنائهم وأقربائهم إلى أصفهان يقيمون فيها . وكان كثير من بناتهم متزوجات بأمراء من الصفويين .

وأول من عزم على التسلط على إيران من قياصرة روسيا هو « بطرس الكبير » . فقد كان يريد الاستيلاء على ممتلكات العثمانيين والتسلط على إيران . وكانت خطته الأساسية هي جعل روسيا مركز الاتصال بين آسيا وأوروبا . فبعد أن جعل دول البلطيق تابعة له أراد أن يفتح طريقاً إلى بحار آسيا . وبعد أن حارب الدولة العثمانية في سنة ١٧١١ م الموافقة سنة ١١٢٣ هـ اتجه نحو إيران . وكان الشاه « سلطان حسين الصفوي »[2] العاجز أضعف من أن يصد « بطرس الكبير » عن الفتح .

وأرسل « بطرس الكبير » في سنة ١٧١٥ م الموافقة سنة ١١٢٧ هـ « آتيمي فولنسكي » سفيراً له إلى إيران . وأعطته وزارة الخارجية القيصرية بياناً مكتوباً بالمطالب التي عليه أن يتحراها في إيران ويزود الوزارة بمعلومات عنها . ولما أطلع « بطرس الكبير » على هذا البيان أضاف إليه بخطه هو نفسه أشياء أُخرى . وكان ما طُلب منه هو كسب معلومات دقيقة عن طرق المواصلات البرية والبحرية والنهرية الحربية والمدنية بين كل المدن والمرافىء وغيرها ، والأوضاع العامة لكل النواحي ، وأي الأنهار الكبير يصب في بحر الخزر ، وكل ما يتعلق بالقلاع والحصون وأحوال الطرق ولا سيما إقليم « جيلان » ، وأمثال ذلك .

---

(١) ملك من ٣ ربيع الثاني سنة ١٠٧٧ هـ إلى ١٣ ذي الحجة ١١٠٥ هـ .

(٢) تولى الملك بعد أبيه « الشاه سليمان الصفوي » في ١٤ ذي الحجة ١١٠٥ هـ . وخلعه محمود الأفغاني في ١١ المحرم سنة ١١٣٥ هـ (راجع ترجمته) .

وأنـذر « بطرس الكبير » الملك « واختانـغ » ملك « كرجستـان » بـأن يطلعه على أوضاع أرمينيا ، إذ أراد أن يعلن نفسه رسمياً حامي نصارى « كرجستان » وأرمينيا . إذ كان هذان الإقليمان يتعرضان أحياناً لغزوات العثمانيين وأذاهم ، وكذلك كانوا أحياناً يستاؤون من سلوك الإيرانيين بسبب ما بين الفريقين من اختلاف في الدين .

في هذه الأثناء استولى الأفاغنة على أصفهان عاصمة إيران ، وخلع « محمود أفغان » الشاه « سلطان حسين الصفوي » عن العرش في ١١ المحرم سنة ١١٣٥ هـ ونصب نفسه ملكاً على إيران .

فلما بلغ هذا الخبر إلى « بطرس الكبير » عزم على غزو إيران بحجة أنه يريد حماية الملك الصفوي . وفي شهر صفر وشهر ربيع الأول سنة ١١٣٥ هـ الموافق شهري أيار وحزيران سنة ١٧٢٢ م سار عن طريق نهر « الفولغا » إلى « تيجني نغفورود » ومنها إلى « حاج طرخان » . ومن هناك سار عن طريق البر والبحر إلى مدينة « دربند » وكانت من أرض إيران . وكان جيشه يتألف من اثنين وعشرين ألف راجل وتسعة آلاف فارس من جنوده ، ومعهم عشرون ألفاً من القوزاق وعشرون ألفاً من « الكالموك » (شعب من المغول) وثلاثون ألفاً من التتر وخمسة آلاف ملاح . فهذه ستة آلاف ومائة ألف جندي .

ومن أين لإيران التي بلغ من ضعفها يومئذ أن تجرأ عليها حتى الأفاغنة فقضوا عليها ، أن تقاوم هذا الجيش العرمرم . فلم يلق جيش « بطرس الكبير » غير مقاومة يسيرة قام بها الجنود المحليون من أهل أذربيجان و« جيلان » . ثم لم يلبثوا أن انهزموا . وفتح أهالي « دربند » أبوابها وسلموا للفاتح . ولكن « بطرس الكبير » لم يلبث أن تراجع عنها إلى « حاجي طرخان » خوفاً من مجاعة متوقعة . وفي طريق تراجعه بنى قلعة سماها « الصليب المقدس » .

ومع ذلك أرسل « بطرس الكبير » فرقة من عسكره لفتح « جيلان » وفي شهر تشرين الثاني سنة ١٧٢٢ م الموافق شهر صفر سنة ١١٣٥ هـ استسلمت مدينة « رشت » . وفي شهر تموز سنة ١٧٢٣ م الموافق صفر ١١٣٥ هـ ، استسلمت « باكو » .

وفي شهر أيلول سنة ١٧٢٤ م الموافق شهر المحرم سنة ١١٣٧ هـ عقدت في « سان بطرسبورغ » معاهدة بين وفد إيراني رسمي وبلاط بطرس الكبير تقضي بأن يتعهد القيصر بمساعدة الشاه الصفوي « طهماسب الثاني » وإنجاده بقوة عسكرية بشرط أن يسلم الشاه إلى الدولة الروسية نواحي « دربند » و « باكو » وولايات « جيلان » و « مازندران » و « أستراباد » .

فبعد أن خلع « محمود أفغان » الشاه « سلطان حسين الصفوي » عن العرش في ١١ المحرم سنة ١١٣٥ هـ . نصب جماعة من رجال البلاط الصفوي الشاه « طهماسب الثاني » ملكاً على إيران في ٢٠ المحرم من تلك السنة . وقد آل أمره إلى أن خلعه « نادر شاه أفشار » في ١٤ ربيع الأول سنة ١١٤ هـ . وكان الشاه « طهماسب » هذا يتوسل بكل إنسان وكل شيء ليتمكن من مقاومة الأفاغنة . وكان في جملة وسائله إلى هذه الغاية تلك المعاهدة التي عقدت بينه وبين « بطرس الكبير » . ولكن ظهور « نادرشاه » حرم البلاط الروسي من أن يستفيد شيئاً منها .

وقد حمل عجز البلاط الإيراني في تلك الحقبة وتقدم الروس في القفقاس وأذربيجان مسلمي تلك النواحي على الاستنجاد بالبلاط العثماني . بل إن دولة « كرجستان » المسيحية قبلت في سنة ١٧٢٢ م الموافقة سنة ١١٣٥ هـ وصاية الدولة العثمانية عليها وصاية اسمية .

ومع ذلك فإن النواحي التي كان « بطرس الكبير » قد اقتطعها من إيران في سواحل بحر الخزر الغربية ظلت في يده . بل إن البلاط العثماني اعترف في المعاهدة التي عقدها بينه وبين روسيا في شهر حزيران سنة ١٧٢٤ م الموافق شهر رمضان سنة ١١٣٦ هـ بأن تلك النواحي هي جزء من أرض روسيا . .

وكانت سواحل بحر الخزر الشرقية معدودة أيضاً من أرض إيران . وقد أراد « بطرس الكبير » توسعة مجال حكمه إلى تلك النواحي أيضاً . فبعث في مطلع سنة ١٧١٦ م الموافق شهر المحرم سنة ١١٢٨ هـ . بجيش صغير من ثلاثة آلاف جندي من أعراق مختلفة بقيادة شركسي اسم « كنياز الكساندر بيكوفنش تشركاسكي » إلى تلك النواحي ، وأمره ببناء قلعتين إحداهما عند مصب نهر « جيحون » السابق والأخرى في مكان المدينة المعروفة اليوم باسم « كراسنوفودسك » . ثم مفاوضة بعض الخانات الحاكمين هناك على مخالفة روسيا وإعطائها بعض الامتيازات في بلادهم . وأمره بتحري أوضاع الطرق المؤدية إلى الهند .

ولكن هذا الرسول لم يوفق في مهمته . فقد تحالف عليه بدو تلك النواحي وأهل « خيوه »[1] وقطعوا الطريق على عسكره وانتهى أمره إلى أن جردوا عسكره من سلاحهم وأسروهم وكانوا قد أذنوا لـ « كنياز ألكساندر بيكوفنش تشركاسكي » هذا بدخول « خيوه » بما هو سفير لروسيا . ولكنهم ضربوا عنقه وعلقوا رأسه على بوابة المدينة .

وانتقم « بطرس الكبير » من هذا العمل بأن ألقى بسفير حاكم « خيوه » الذي في « سان بطرسبورغ » في السجن سنة ١٧٢٠ م الموافقة سنة ١١٣٢ هـ . وظل في السجن إلى أن مات .

وكان احتلال تلك النواحي من الصعوبة بحيث صرف « بطرس الكبير » النظر عن العودة إلى محاولة احتلالها . وكذلك انصرف عنها خلفاؤه من بعده إلى مدة خمسين ومائة سنة من ذلك التاريخ لم يقدموا فيها على عمل من هذا القبيل .

وظلت روسيا بعد « بطرس الكبير » سبعين عاماً لا تعتدي على أرض إيران . وكان ما يوقفها عن التعدي هو الرعب الذي أوقعته حروب « نادر شاه » بجيران إيران .

وفي عهد « كاترين الثانية » ، بعد الحرب الثانية التي وقعت بين روسيا والدولة العثمانية ، ولم تبلغ فيها روسيا إلى ما كانت ترجوه من القضاء على العثمانيين ، وجعل شعوب البلقان النصرانية أتباعاً لها ، ونصب نفسها حامية لهم ، وضع رجال البلاط الكاتريني خطة أخرى لبلوغ غايتهم .

---

(١) مدينة في جمهورية أوزبكستان على حافة صحراء قراقورم . تشتهر بصناعة السجاد وبآثارها الإسلامية من العصور الوسطى . أصبحت في أواخر القرن السادس عشر الميلادي عاصمة خانية خيوه التي خلفت مملكة خوارزم . احتفظت باستقلالها حتى سنة ١٨٧٣ م حينما أصبحت محمية روسية . ضمت نهائياً للإتحاد السوفييتي سنة ١٩٢٠ .

ويومئذ كان « بلاتون زوبوف » قائد جيش الفرسان وعشيق الأمبراطورة مطلق اليد في التصرف بشؤون الدولة . وقد عزم على إرسال أخيه « فاليريان » ليستولي على إيران ، ويقيم روابط بين روسيا والهند . وبعد أن يحتل مدن إيران ويقيم في كل منها حامية عسكرية ، يغير منها على بلاد العثمانيين في آسيا الصغرى . وفي أثناء ذلك يجتاز الجنرال الروسي « الكساندر سوفوروف » البلقان إلى استانبول . ومن ناحية أخرى يدخل الأسطول الروسي مضيق البوسفور ويحاصر العاصمة العثمانية من البحر .

وفي أواخر شهر شباط سنة ١٧٩٦ م الموافق شعبان سنة ١٢١٠ هـ . سار « فاليريان زوبوف » من « سان بطرسبورغ » ، وأعطى وعداً بأن يكون في شهر أيلول من تلك السنة الموافق ربيع الأول سنة ١٢١١ هـ . في أصفهان . ولكن حل شهر أيلول و « فاليريان زوبوف » لا يزال يفصله عن حدود إيران ستة كيلومترات تقريباً يكلفه قطعها مشقات عظيمة لوعورة الطريق . فأرسلوا إليه من « سان بطرسبورغ » مهندساً فرنسياً اسمه « دوفالون » ومعه ما يلزم من خرائط جغرافية وأوامر لينظر في أمره . وتبين بعد النظر والتحقيق والتدقيق أنهم إنما يتبعون خطة خيالية واهية . ولذلك توقف عن متابعة السير ومكث في « باكو » ، إلى أن توفيت الأمبراطورة « كاترين » الثانية في شهر أيلول سنة ١٧٩٦ م الموافق جمادى الأولى سنة ١١٢١ هـ . وخلفها على العرش ابنها « بولس » ، فبادر فوراً إلى الأمر بتراجع الجيش الروسي عن إيران .

كان « هرقل » ملك كرجستان » قد وضع بلاده في حماية « كاترين الثانية » ، وكان حاقداً على دولة إيران بعد الحرب التي شنها عليه « آقا محمد خان قاجار » سنة ١٢٠٩ هـ وكان هذا الوضع في جملة الأسباب التي حملت « كاترين الثانية » على محاولة غزو إيران . وكان « مرتضى قلي خان قاجار » أخو « آقا محمد خان » هارباً منه لاجئاً إلى « كاترين » إذ كان لا يأمن أخاه على نفسه . وكان له أثر في تحريض الأمبراطورة الروسية على تجهيز هذا الجيش لغزو إيران .

ولم ينتج عن تجييش هذا الجيش وإرسال « فاليريان زوبوف » في تلك المهمة سوى شيء واحد هو زيادة ما بين البلاط الروسي والبلاط الإيراني من عداء ، فبدأ « فتح علي شاه » ملكه وهو خائف من روسيا . وأدى ذلك إلى نشوب حربين كبيرتين بين الدولتين .

فتح علي شاه ونابليون الأول

يقول المؤرخ الإيراني سعيد نفيسي : كما يعد مؤرخو أوروبا احتلال السلطان « محمد الفاتح » العثماني لاسطنبول في سنة ١٤٥٣م و ٨٥٧ هـ واقعة من أهم وقائع تاريخ أوروبا ويرون أن مصير هذه القارة قد تغير في تلك السنة ، يمكن القول إن دخول « نادر شاه » إلى « دهلي » عاصمة الهند في سنة ١١٥٢ هـ و ١٧٣٩ م وإخضاعه ملك الهند البابري كان من أهم حوادث تاريخ آسيا وأن مصير آسيا تغير في تلك السنة .

كانت الثروات الهندية الضخمة المكتنزة من ألوف السنين قد تسامعت بها كل دول العالم . ولكن لم يكن أحد يجرؤ على غزو الهند والتفكير في امتلاكها . ولكن الهزيمة الشديدة التي مني بها « محمد شاه » الهندي من « نادر شاه » كشفت الغطاء وعلم الناس أن الاستيلاء على الهند ليس أمراً مستحيلاً .

ومن ذلك اليوم بقي في أذهان دول أوروبا الكبرى أمل الاستيلاء على الهند ، وأقدم على هذا العمل الجريء من وجد نفسه منها قادراً عليه[1] .

وكان الفرنسيون أول من حاول فتح الهند من الدول الأوروبية في سنة ١٥٠٣ م الموافقة سنة ٩٠٨ هـ وبعدهم الانكليز في سنة ١٦٠٠ م الموافقة سنة ١٠٠٨ هـ .

وبعد نجاح الإنكليز وتقدمهم في الهند وخيبة فرنسا وقصور يدها عنها لم يقطع الفرنسيون أملهم من الهند . وكانت روسيا أيضاً تطمع فيها ولذلك ظل موضوع الاستيلاء على الهند يشغل الساسة الفرنسيين والروس زماناً طويلاً . وإذ كانت الطريق البرية الطبيعية للوصول إلى الهند تتصل بإيران فقد اهتمت دول أوروبا ولا سيما من كان منها طامعاً في الهند اهتماماً خاصاً بإيران من مطلع القرن التاسع عشر الميلادي والقرن الثالث عشر الهجري . وكان هذا الاهتمام سبباً في إيقاع إيران في مصائب وبلايا طاحنة .

وفي سنة ١٨٠٤ م الموافقة سنة ١٢١٩ هـ اعتلى « نابليون بونابرت » عرش فرنسا . وقد خطرت له فكرة جريئة جداً هي أن يغزو الهند من طريق إيران . وكان قد سمع بغزو « آقا محمد خان » لبلاد « الكرج » واحتلال « تفليس » وما أوقعه بها . وكان يتصور أن خليفته سيكون على مشاكلته موفقاً في ميادين الحرب .

ويوم نوى « نابليون » أن يستعين بإيران لإنفاذ خطته الجريئة كان « فتح علي شاه » مشغولاً بالحرب الأولى التي وقعت بين إيران وروسيا ودامت أكثر من عشر سنوات . دامت من سنة ١٨٠٣ م الموافقة سنة ١٢١٨ هـ إلى ١٢ تشرين الأول سنة ١٨١٣ م الموافق ٨ شوال سنة ١٢٢٩ هـ .

ولما أحس « فتح علي شاه » العاجز في هذه الحرب بأنه لا قبل له بقيصر روسيا « الإسكندر الأول » وجنوده ، وسمع بفتوحات « نابليون » الأول واختلافه والقيصر الروسي ، عزم على الاستنجاد به لمحاربة « الإسكندر » . فكتب في سنة ١٢١٩ هـ إلى « نابليون » رسالة بالإنشاء المتكلف المتداول في تلك الأيام المزوق بالكنايات والاستعارات . وطلب منه أن يغير على روسيا في الربيع القادم ، إذ يكون هو في ذلك الوقت قد مضى إلى محاربتها ، وبذلك يستطيعان متحالفين إيقاف روسيا عند حدها .

وقد قوت هذه الرسالة فكرة « نابليون » القديمة ، فكرة التقرب من إيران لجعلها طريقه إلى غزو الهند . فعزم على إقامة رابطة بين إيران وفرنسا ، وأرسل إلى إيران سفيراً هو مستشرق شاب اسمه « آميده جوبير » ومعه رسالة منه إلى « فتح علي شاه » مؤرخة في ١٦ شباط سنة ١٨٠٥ م الموافق ١٦ ذي القعدة سنة ١٢١٩ هـ . ثم أتبعه بسفير آخر هو ضابط عسكري اسمه « روميو » ومعه رسالة أخرى مؤرخة في ٣٠ آذار سنة ١٨٠٥ م الموافق آخر ذي الحجة سنة ١٢١٩ هـ .

---

(١) ألف المؤرخ الفرنسي « جان يونير » كتاباً اسمه « أبطال إيران المجهولون في محاربة روسيا القيصرية » ، وقد ترجم « ذبيح الله منصوري » هذا الكتاب إلى الفارسية . وفي هذه الترجمة استطرد المترجم إلى ذكر هذه الكلمة وعلق عليها بقوله :

« قبل نادر شاه غزت عدة دول أوروبية بلاد الهند . أولها البرتغال ثم هولندا ثم فرنسا ثم إنكلترا » .

على أن « سعيد نفيسي » نفسه ذكر بعد هذه الكلمة أن كلاً من فرنسا وإنكلترا غزت الهند في تاريخ سابق لتاريخ غزو « نادر شاه » لها .

دخل « فتح علي شاه » الحرب الأولى التي وقعت بين إيران وروسيا في شهر رمضان سنة ١٢١٨ هـ . دخلها وهو مغتر بما سبق من انتصارات « آقا محمد خان » في « كرجستان » يحسب نفسه كفيئاً لها . ولكنه لم يلبث أن تبين أنه أضعف من أن ينهض بمثل هذا العبء . ومن أجل ذلك استنجد بنابليون .

كانت رغبة إيران ورغبة فرنسا في التصادق والتقارب فيما بينهما متساويتين ، بسبب ما لابس أوضاع كل منهما من ظروف .

فنابليون عازم على غزو الهند وطرد الإنكليز منها . وقد تبين له عجزه عن غزوها من طريق البحر ، وأن طريقة البرية إليها إنما هي إيران ، ولا طريق غيرها . ولذلك غير خطته السابقة ووضع خطة جديدة لغزو الهند من طريق إيران . وهذا يقتضيه التقرب إلى إيران ومصادقتها .

وإيران ترى نفسها محتاجة إلى المعونة لاسترداد « كرجستان » وقد سلبتها منها روسيا وجعلتها ولاية روسية . وهي آيسة من مساعدة الإنكليز ، فتوجهت إلى فرنسا . ومن الطبيعي أن يلقى هذا التوجه هوى في نفس « نابليون » . وبهذا يتضح أن سياسة « نابليون » في معاملته لإيران إنما كانت جزءاً من خطته لاحتلال الهند ، وكذلك كانت سياسته في معاملته لروسيا ، جزءاً من خطته لاحتلا الهند . وقد تغير التخطيط بهذه الخطة ثلاث مرات ، وأخرج على ثلاثة أوجه ، بمقتضى تغير الحوادث .

فقبل ذلك ، حين تبين لنابليون ، أنه غير قادر على غزو الهند من طريق مصر ، ارتأى أن يحالف روسيا ليتيسر له العبور إلى حدود الهند من جهاتها لقربها من هذه الحدود . ففاوض قيصر روسيا « بولس الأول » في هذا الموضوع واتفقا سنة ١٨٠١ م على احتلال « أفغانستان » والنواحي الشرقية من إيران وغيرها بجيش من الروس والفرنسيين وبهذا الاحتلال يقفون على حدود الهند ثم ينطلقون إلى داخلها فيخرجون الإنكليز منها . ويبقى ما احتل من الأرض خالصاً لروسيا . وفي مقابل ذلك تؤيد روسيا احتلال الفرنسيين لمصر والبحر الأبيض المتوسط . وفاوضت الدولتان النمسا للحصول على موافقتها على هذه الخطة في مقابل إطلاق يدها في المستعمرات التي للعثمانيين في أوروبا ، وهي الصرب وبلغاريا والبوسنه وغيرها .

ولكن حدث قبل إنفاذ هذه الاتفاقات أن قتل « بولس الأول » قيصر روسيا في شهر نيسان سنة ١٨٠١ م ، وخلفه « الكساندر الأول » . وخضع هذا لإرادة رؤساء عسكره ، إذ أرادوه أن يتخلى عن صداقة فرنسا ، ويستبدل بها معاهدة صداقة بين روسيا وإنكلترا . وكان رؤساء العسكر هؤلاء من الأغنياء وكبار الملاكين ، وبينهم وبين الإنكليز معاملات تجارية رابحة . وبهذا اتخذ تخطيط « نابليون » وجهاً آخر .

ففي سنة ١٨٠٥ م وضعت الحرب التي نشبت بين فرنسا وروسيا إيران وفرنسا كلتيهما في مقابل عدو مشترك لهما ، فازداد « نابليون » عزماً على محالفة إيران . وتبودلت السفارات بفينه وبين « فتح علي شاه » ، وانتهت مفاوضاتها إلى عقد معاهدة صداقة عرفت باسم « معاهدة فينكن شتاين » بين إيران وفرنسا في ٤ أيار سنة ١٨٠٧ م الموافق ٢٥ صفر سنة ١٢٢٢ هـ . وقدمت إلى إيران ، بمقتضى هذه المعاهدة ؛ بعثة عسكرية فرنسية برؤسها الجنرال « غاردان » لتدريب الجيش الإيراني وتقويته . وكان تخطيط « نابليون » هذا الجديد يقضي بتقوية هذا الحلف بالسعي إلى إدخال الدولة العثمانية فيه .

ولكن هذا التخطيط لم يلبث أن اتخذ وجهاً آخر . فبعد شهرين من عقد معاهدة « فينكن شتاين » ، و « غاردان » لا يزال في طريقه لم يصل بعد إلى إيران ، عقد « نابليون » والقيصر الروسي معاهدة صلح بينهما في مدينة « تيلسيت » في « بروسيا » الشرقية . وأصبحت مهمة « غاردان » في إيران إيقاع الصلح بين إيران وروسيا بدلاً من مساعدة إيران على روسيا ، والسعي إلى تسالم الدولة العثمانية وإيران وروسيا بدلاً من السعي إلى إدخال الدولة العثمانية في الحلف الإيراني الفرنسي المقاوم لروسيا . ثم الحصول على معاونة الروس والإيرانيين لنابليون في شق طريقه إلى الهند .

وقبل أن يقرر « نابليون » التقرب إلى « فتح علي شاه » كانت انكلترا قد قامت بمسعى مماثل . ففي سنة ١٨٠٠ م الموافقة سنة ١٢١٥ هـ أوعز البلاط الإنكليزي إلى شركة الهند الشرقية بإرسال سفير من قبلها إلى إيران . فأرسلت « السير جان ملكوم » - وهو مؤلف كتاب تاريخ إيران - وشرع بمفاوضة البلاط الإيراني في هذا الموضوع . وإذ رأوا الكلام وحده لا يكفي لإقناع « فتح علي شاه » فقد ارتأوا إقناعه بالإرهاب ، وذلك باحتلال إحدى جزر الخليج . ولكنهم لم يلبثوا أن عدلوا عن هذا الرأي إلى رأي آخر ، هو الرشوة . فبذل « السيرجان ملكوم » لـ « فتح علي شاه » وحاشيته مقادير ضخمة من المال والهدايا بلغت أكثر من مليوني روبية . وحصل الإنكليز منه على وعد بأن لا يقدم على عمل يضر بمصالحهم . ولكنه أقدم بعد ثلاث سنوات على محاربة روسيا . وإذ وجد نفسه عاجزاً فقد استنجد بفرنسا غافلاً عما بينها وبين إنكلترا من خصومة ومنافسة . وبذلك جلب على نفسه غضب الإنكليز .

سفيرا « نابليون » في إيران

بعث « نابليون » المستشرق « آميده جوبير » سفيراً إلى إيران في ١٦ شباط سنة ١٨٠٥ م الموافق ١٦ ذي القعدة سنة ١٢١٩ هـ . وكان هذا السفير يتقن التركية والعربية . وسبق له أن رافق « نابليون » إلى مصر . وكان يومئذ يحرر لنابليون ما يلزمه من أحكام ورسائل باللغة العربية . وله اطلاع واسع على أحوال العالم الإسلامي ، وأحوال البلاد الروسية ، ولذلك كان خير من يقوم بهذه المهمة من الفرنسيين .

سافر « جوبير » من فرنسا قاصداً إيران عن طريق تركيا . وأمرته دولته بالسفر متنكراً ، إذ كانت مهمته سرية ، ويخشى أن تمنعه الدولة العثمانية وخصوم فرنسا من متابعة سفره إذا عرفت شخصيته . وسار لا يعوقه مانع إلى أن بلغ أرض كردستان العثمانية . فلما وصل إلى مدينة « بايزيد » من تلك الديار ، اعتقله الباشا العثماني الذي كان حاكماً عليها من قبل الدولة العثمانية . اعتقله من غير أن يبين له سبب اعتقاله وألقى به في السجن على حالة مزرية . ويتضح من اعتقاله وسجنه بهذه الكيفية أن يداً خفية دبرت هذه المؤامرة عليه ، هي يد الذين يرون في سفره ومهمته هذه ضرراً يصيبهم . وقد ظل هذا التاعس في السجن إلى أن مات باشا « بايزيد » . وحينئذٍ استطاع بمنتهى المشقة أن يوصل خبراً عن حاله إلى « عباس ميرزا » ابن « فتح علي شاه » ونائبه وولي عهده ، وكان حاكماً على أذربيجان . فقام البلاط الإيراني بمساعي كثيرة حتى استطاع إنقاذ « جوبير » من الموت وجلبه إلى إيران .

ولما انقطعت أخبار « جوبير » عن « نابليون » ، وهو معتقل في

السجن ، بادر « نابليون » إلى إرسال سفير آخر إلى إيران ، هو ضابط عسكري اسمه « روميو » في أوائل تشرين الأول سنة ١٨٠٥ م الموافقة أوائل رجب سنة ١٢٢٠ هـ . ومعه هدايا ورسالة إلى « فتح علي شاه » مؤرخة في ٣٠ آذار سنة ١٨٠٥ م الموافق آخر ذي الحجة سنة ١٢١٩ هـ يطلب مساعدته على سوق جيش إلى الهند ، وجعل طريق هذا السفير على بغداد .

فلما وصل « روميو » إلى طهران تلقاه البلاط الإيراني بالترحيب والاحترام . ولكن حدث بعد بضعة أيام من وصوله أن مات موتاً فجائياً من غير مرض أصابه . ولم يستطع أحد أن يعرف سبب موته ، سوى الحدس بأن الذين رأوا في قدومه إلى طهران ضرراً ينالهم قد بادروا إلى القضاء عليه . ودفن السفير في مقبرة تقع خارج طهران في الجنوب .

أما السفير الأول « جوبير » فإنه ، بعد أن تخلص من سجنه ، سار قاصداً طهران عن طريق أذربيجان . وكان « فتح علي شاه » يومئذ في « السلطانية » فذهب « جوبير » إليها . ودخل على « فتح علي شاه » في ١٤ شوال سنة ١٢٢٠ هـ الموافق ٥ تموز سنة ١٨٠٦ م .

معاهدة « فينكن شتاين »

وأقام « جوبير » في إيران مدة شهر تقريباً . ودعا « فتح علي شاه » إلى محالفة فرنسا ، وأتم مهمته السياسية على أحسن وجه . واقترح مشروع معاهدة بين الدولتين أرضى به الحكومة الإيرانية . وتقرر أن يصحب معه في عودته سفيراً عن إيران إلى بلاط « نابليون » لتوقيع المعاهدة هناك .

وأمر « فتح علي شاه » حاكم قزوين « الميرزا محمد رضا خان » بالسفر مع « جوبير » إلى فرنسا وأرسل معه رسالة وهدايا إلى « نابليون » .

وفي ٢٥ صفر سنة ١٢٢٢ هـ . الموافق ٤ أيار سنة ١٨٠٧ م دخل السفير الإيراني على « نابليون » في معسكره في « فينكنشتاين » في بولونيا حيث كان مشغولاً بمحاربة « البروسيين » . ووقعت المعاهدة في ذلك التاريخ . ويومئذ كان «نابليون» مشغولاً بمحاربة الحلف الرباعي الأوروبي المؤلف من بروسيا وروسيا وانكلترا والسويد لمقاومة « نابليون » وقمعه[1] .

وتقضي هذه المعاهدة بأن تؤيد فرنسا استقلال إيران . وتعترف بأن « كرجستان » هي من أملاك صاحب الجلالة ملك إيران . وأن يبذل صاحب الجلالة أمبراطور فرنسا وملك ايطاليا (نابليون) كل مساعيه لتجلو روسيا عن « كرجستان » وأرض إيران ، وأن يرسل « نابليون » إلى بلاط إيران سفيراً فوق العادة من قبله مع بضعة سكرتارية . وأن يهيء لإيران ما تحتاج إليه من المدافع الصحراوية والبنادق والحراب على أن تكون أسعارها مساوية لأسعارها في أوروبا . وأن يرسل إلى إيران من تحتاجه من العسكريين والمهندسين الحربيين لتنظيم الجيش الإيراني وأسلحته وقلاعه حسب النمط المتبع في أوروبا .

وتقضي المعاهدة أيضاً بأن يتعهد صاحب الجلالة ملك إيران بقطع العلاقات السياسية والتجارية التي بين بلاده وبين إنكلترا . وأن يبادر فوراً إلى إعلان الحرب على تلك الدولة ، وأن يعاملها من هذه الساعة معاملة الخصم . وبناء على هذا يتعهد صاحب الجلالة ملك إيران باستدعاء سفيره الذي أرسله إلى بمباي . وأن يطرد في الفور قناصل الشركة الإنكليزية وممثليها وموظفيها الآخرين من إيران ومرافىء الخليج ، وأن يصادر كل البضائع الإنكليزية ، وأن يصدر حكماً قاطعاً إلى ولاياته بقطع كل رابطة مع الإنكليز ، سواء أكانت في البر أم في البحر . وكلما اتحدت إنكلترا وروسيا على حرب فرنسا وإيران فإن فرنسا وإيران تتحدان أيضاً عليهما . ويتعهد شاه إيران بأن يبذل كل نفوذه لحمل الأفاغنة على محالفته على إنكلترا . وحين تتيسر له الطريق في تلك النواحي يسوق جيشاً إلى محاربة الإنكليز في ما يحتلونه من أرض الهند . ويمنح شاه إيران كل التسهيلات اللازمة للسفن الفرنسية التي ترد إلى مرافىء الخليج ، ويسمح للعساكر التي يبعث بها أمبراطور فرنسا إلى ما تحتله إنكلترا من أرض الهند ، بالمرور من أرض إيران . وتعقد بين إيران وفرنسا معاهدة تجارية .

وكان توقيع هذه المعاهدة دليلاً واضحاً على غباء «فتح علي شاه» وجهله . فقد أقدم على معاداة انكلترا وتحدي روسيا بلا تحفظ ، وهما الدولتان القويتان ، وإيران على ما هي عليه من ضعف . وذلك من أجل وعد وعده نابليون بأن يعينه على استعادة « كرجستان » وغيرها من النواحي التي استولت عليها روسيا . هذا وإنكلترا وروسيا قائمتان في جوار إيران ، وفرنسا على ذلك البعد الشاسع منها ، ولا طريق لها إلى إيران !

ولم يحصل من هذه المعاهدة نتيجة عملية لأن مضامينها كانت أوهاماً وخيالات . ولكنها ألحقت بإيران ضرراً سياسياً كبيراً إذ زادت انكلترا عداء على عداء لإيران .

البعثة العسكرية الفرنسية

نتيجة عملية واحدة فقط ترتبت على هذه المعاهدة . وهي إرسال بعثة عسكرية فرنسية إلى إيران لتنظيم الجيش الإيراني وتدريبه .

وإذا كانت هذه المعاهدة تقضي بأن يرسل « نابليون » سفيراً من قبله إلى إيران . فقد اختار لهذه المهمة الجنرال « كلود ماتيو كونت دو غاردان » . وعهد إليه أيضاً برئاسة البعثة العسكرية المطلوبة .

وكانت تتألف من خمسة عشر سياسياً وأربعة عشر عسكرياً . وتظهر الأوامر الخطية التي أمر « نابليون » رئيس البعثة بالعمل بها أن فرنسا كانت في تلك الأيام تضع إيران في المنزلة الأولى من الأهمية في موضوع المنافسة بينها وبين إنكلترا وروسيا

وكانت مهمة « غاردان » إنفاذ مقتضيات معاهدة « فينكنشتاين » . ولكنه كان مأموراً أيضاً بأوامر سرية هي تهيئة خطة تمكن اثني عشر ألف جندي فرنسي أو خمسة عشر ألفاً من اجتياز أرض إيران لغزو الهند ، وأن يطلب من إيران وضع جزيرة « خارك » الواقعة في الخليج في تصرف فرنسا لتستفيد منها في تحركات الأسطول الفرنسي ، وكانت له مهمات أخرى هي :

---

(١) كان نابليون و « بولس » قيصر روسيا قد وضعا خطة لغزو الهند عن طريق القفقاس وإيران . وعقدا بينهما اتفاقاً تعهد فيه القيصر بإرسال جيش من خمسين ألف جندي إلى إيران والسيربه ، بمساعدة من إيران ، إلى الهند من طريق مدينة « هرات » ، وكانت يومئذ لا تزال تابعة لإيران .

وفي سنة ١٨٠١ م الموافقة سنة ١٢١٦ هـ ، قبل أن يقيم « نابليون » رابطة بينه وبين إيران ، قتل القيصر « بولس » وخلفه « الإسكندر الأول » . ورفض هذا القيصر الحلف المعقود بين سلفه وبين نابليون ، وانحاز إلى الدول المخالفة لنابليون .

وبذلك قطع نابليون أمله من مساعدة روسيا له . وعقد هذه المعاهدة بينه وبين إيران لتكون وسيلته إلى تسيير جيشه من أرضها إلى غزو الهند .

١ ـ تهيئة الجيش الإيراني على نمط يعطيه شكل جيش أوروبي . وإنشاء مصنع للمدافع .

٢ ـ تطمين « فتح علي شاه » إلى أن « نابليون » سيستمر في مساعدته إلى أن يتغلب على قيصر روسيا تغلباً قاطعاً ، وتصبح القفقاس كلها ملكاً لإيران .

٣ ـ التحقيق في مسالك إيران وتعيين الطريق التي يمكن للجيش الفرنسي أن يسلكها إلى الهند .

وكان في مقدمة الصعوبات التي اعترضت « غاردان » في مهمته تقلب « فتح علي شاه » بين الآراء المختلفة . بين ساعة وساعة ، وبطء المواصلات بين إيران وفرنسا . ولا طريق بينهما غير طريق تركيا . وقطعها يستغرق ، في المعدل ، مدة شهرين من الزمان . وصعوبة أخرى هي التفاوت العظيم بين عقلية الإيرانيين ، ولا سيما المسنين الذين تتألف منهم حاشية البلاط ، ومفاهيمهم وبين عقلية الفرنسيين ومفاهيمهم . وقد بلغ هذا التفاوت بحيث كان يصعب كثيراً على الإيرانيين أن يتبينوا أوضاع فرنسا ويفهموها .

والوصف الذي عرف « فتح علي شاه » به « نابليون » بسفيره الذي وقع معاهدة « فينكنشتاين » يصح نموذجاً بسيطاً لهذا التفاوت . عُرف السفير الإيراني بأنه « العالي الجناب الشهم النصاب[1] الميرزا محمد رضا خان السفير فوق العادة حاكم قزوين وزير[2] الأمير محمد علي ميرزا » . وعُرف المندوب الفرنسي الذي وقع المعاهدة باسم فرنسا بأنه « المسيو هوغ برنار ماره الوزير المشاور حامل وسام اللجيون دونورو وسام سنت أوبر » ! !

ويوم قدم « روميو » السفير الأول المبعوث من قبل « نابليون » إلى بلاط « فتح علي شاه » أراد الإنكليز أن يبعثوا الريب في نفس « فتح علي شاه » فأطلعوه على وقائع الثورة الفرنسية ومقتل « لويس السادس عشر » وخلع العائلة الفرنسية المالكة . وقد أرابت هذه المعلومات « فتح علي شاه » وأفزعته ، وهو يملك في بلد من آسيا ، حيث لا عهد للناس بنظام حكومي من غير الملكية الاستبدادية المطلقة .

وقد اضطر « روميو » يومئذ إلى إطالة الحديث في الجواب على أسئلة « فتح علي شاه » وبيان أسباب تلك الوقائع ، وشرح الجرائم والأخطاء التي نسبت إلى « لويس السادس عشر » ، وإيضاح ما حصلت عليه فرنسا بعد الثورة وفي عهد « نابليون » من عظمة وقوة ، ليطمئن خاطر « فتح علي شاه » .

وكان « فتح علي شاه » حريصاً على إخفاء ضعفه بالتظاهر بالقوة والمقدرة . وإذا احتاج إلى أحد أظهر نفسه بمظهر القادر على مبادلة نفع بنفع لا بمظهر المفتقر إلى المعونة . من ذلك أنه يوم ورد « جوبير » سفير « نابليون » إلى طهران عرض عليه يوماً ما يملكه من الجواهر لينبهه إلى غناه ويكسب إعظامه له . وحين أرسل سفيره « الميرزا محمد رضا » القزويني إلى « نابليون » أمره بأن يخفي عن « نابليون » خوفه من روسيا ، وأن يظهره على العكس ، قادراً على أن يضطلع بحربها وحده . وأن تكليف « نابليون » هو أن يشارك في

(١) النصاب : الأصل .

(٢) « وزير » كانت تستعمل بمعنى : مساعد .

هذا الأمر مشاركة مساوية لمشاركته . وأن إيران قادرة على المساعدة في غزو الهند ، وأن عملها العسكري لا يقتصر على مهاجمة الهند من طريق « كابل » و « قندهار » ، بل إن الجنود الإيرانيين سينضمون إلى الجنود الفرنسيين حين يصلون بالسفن إلى أحد مرافىء الخليج . ومن هناك يسير الجيشان معاً إلى الهند .

وصل الجنرال « غاردان » ومرافقوه إلى طهران يوم ١٢ رمضان سنة ١٢٢٢ هـ . الموافق ٤ كانون الأول سنة ١٨٠٧ م . وشرعوا في عملهم في تلك السنة . فانشأوا مصنعاً للمدافع وغيرها من الأسلحة في أصفهان[3] . وأنشأوا مراكز لتدريب الجيش الإيراني .

انقلاب في سياسة « نابليون »

اعترضت الجنرال « غاردان » أيام إقامته في طهران صعوبتان . إحداهما منافسة انكلترا الشديدة له ، منافسة ظاهرة أحياناً خفية أحياناً أخرى ، ومظاهرة بعض رجال البلاط المتنفذين للإنكليز . والصعوبة الأخرى هي تغير ما بين فرنسا وروسيا من معاملات سياسية ، من الخصومة إلى المصالحة . وهو تغير يؤثر بالضرورة تأثيراً سلبياً على العلاقات التي أريد لها أن تقوم بين فرنسا وإيران بمقتضى معاهدة « فينكنشتاين » .

استغرقت رحلة الجنرال « غاردان » ستة أشهر تقريباً حتى وصل إلى طهران . وفي هذه المدة انقلبت السياسة ما بين فرنسا وروسيا رأساً على عقب . ففي ٢ تموز سنة ١٨٠٧ م الموافق ٢٦ ربيع الثاني سنة ١٢٢٢ هـ ، و « غاردان » لا يزال في طريقة ما بين فرنسا واستانبول ، أراد « نابليون » أن يطلق قياصرة الروس يده في مقاومة انكلترا فصالح روسيا بمعاهدة عقدت في مدينة « تيلسيت » في « بروسيا » . وبهذه المعاهدة نقض « نابليون » وعوده التي وعد بها إيران في معاهدة « فينكنشتاين » . ولما وصل « غاردان » إلى إيران لم يكن الإيرانيون قد علموا بنبأ تصالح فرنسا وروسيا .

وبعد وصول « غاردان » بمدة قليلة عقد معاهدة أخرى بين فرنسا وإيران وقعها هو عن فرنسا ووقعها الصدر الأعظم « الميرزا شفيع » عن إيران تقضي بأن تبيع فرنسا لإيران مقداراً من البنادق ، وأن تمدها بفريق من خبراء بعض الصناعات المدنية . ووقعت المعاهدة في ٢١ كانون الثاني سنة ١٨٠٨ م الموافق ١٢ ذي القعدة سنة ١٢٢٢ هـ . ولكن هذه المعاهدة لم ينتج عنها شيء ولم تحصل إيران على البنادق الموعودة ولا جاء إليها الخبراء المطلوبون .

كانت معاهدة « تيلسيت » شؤماً على إيران . لأن الروس ، وقد ظلوا مدة من السنين يحتفظون بقواهم محتشدة في الحدود الأوروبية خوفاً من « نابليون » واستعداداً للدفاع عن أنفسهم ، قد أمنوا جانب « نابليون » بعد هذه المعاهدة ، وتفرغوا لمتابعة فتوحاتهم ، وأخذوا يعدون تجهيزاتهم الحربية على حدود القفقاس .

وقعت الحرب الأولى بين إيران وروسيا في سنة ١٢١٩ هـ وانتهت إلى

(٣) لا يزال بعض هذه المدافع موجوداً اليوم . وهي منصوبة في بعض الأماكن العامة بما هي من الآثار . ومنها مدفع عرف باسم « مدفع اللؤلؤ » . وكان أشهر هذه المدافع ، وهو منصوب اليوم في حديقة نادي الضباط . وكان قبل ذلك منصوباً في أحد شوارع طهران . وصار للعامة يومئذ اعتقاد به أن له أثراً في قضاء الحاجات ونوال المرام فينذرون له النذور .

معاهدة « گلستان » في ٢٩ شوال ١٢٢٨ هـ . الموافق ١٢ تشرين الأول سنة ١٨١٣ م .

ووقعت الحرب الثانية سنة ١٢٤٢ هـ وشهر آب سنة ١٨٢٦ م وانتهت إلى معاهدة « تركمان شاي » في ٥ شعبان سنة ١٢٤٣ هـ . الموافق ١٠ شباط سنة ١٨٢٧ م .

وبهذا تكون الحرب الأولى قد طالت أكثر من تسع سنوات . والثانية ستة أشهر تقريباً .

ويوم قدم الجنرال « غاردان » إلى طهران في ٢٥ رمضان سنة ١٢٢٢ هـ . الموافق ٤ كانون الأول سنة ١٨٠٧ م كانت الحرب الإيرانية الروسية الأولى لا تزال مستمرة . ولكنها متقطعة تتخللها هدنات . وفي أول المدة التي قضاها « غاردان » في إيران كانت هدنة . ولكن الحرب عادت فاستؤنفت و « غاردان » لم يغادر إيران بعد . وظاهر أن استئنافها حدث حين أمضيت معاهدة « تيلسيت » وعاد البلاط الروسي خلي البال من جهة أوروبا متمكناً من متابعة حروب القفقاس وهو مطمئن الخاطر .

فلما استؤنفت الحرب طلب سفير إيران في باريس من الحكومة الفرنسية أن تباحث « الكونت تولستوي » . سفير روسيا في باريس بما ينفع إيران . ولكن الحكومة الفرنسية تجاهلت ما تعهدت به لإيران في معاهدة « فينكنشتاين » وامتنعت كلياً عن محادثة الحكومة الروسية في هذا الشأن .

ومن جهة أُخرى ، إذ عُرِف في إيران نبأ إمضاء معاهدة « تيلسيت » وإنشاء علاقات صداقة بين فرنسا وروسيا طلب المسؤولون في طهران من الجنرال « غاردان » بما هو سفير فرنسا في إيران ، أن يباحث المارشال « غودو فيتش » قائد الجيش الروسي وحاكم « كرجستان » ويقنعه بالإنصراف عن الحرب . فأجاب « غاردان طلبهم وقام بمساع في هذا السبيل ولكنه لم يتوصل إلى نتيجة .

وهكذا لم تحصل إيران من معاهدة « فينكنشتاين »ومهمة« غاردان» على شيء من النفع السياسي ، بل أضرت بها ضرراً سياسياً كبيراً . وما حصلت عليه منها هو تدريب الجنود الإيرانيين وإنشاء صناعة المدافع والبنادق في إيران .

وساطة غاردان بين إيران وروسيا

كانت الحكومة الروسية القيصرية قد أرسلت إلى طهران في ٢٥ ذي القعدة سنة ١٢٢٠ هـ . الموافق ١٤ شباط سنة ١٨٠٦ م قبل ورود « غاردان » إلى إيران بسنتين تقريباً ، سفيراً لها فوق العادة اسمه « أستفانوف » يقترح على الحكومة الإيرانية إيقاع الصلح بين إيران وروسيا . وكان ذلك قبل إمضاء معاهدة « تيلسيت » بسبعة عشر شهراً تقريباً . وظاهر أن روسيا كانت يومئذ بحاجة إلى هذا الصلح لتستطيع حشد كل قواها العسكرية في أوروبا ، ولا تكون مضطرة إلى الاحتفاظ بقوى لها على حدود القفقاس . ولذلك كانت مضطرة إلى مسالمة إيران .

ولكن الحكومة الإيرانية كانت موغودة بمحالفة « نابليون » تنتظر قدوم السفير الفرنسي مغترة بهذه المحالفة تحسب أنها ستمكنها عن قريب من استرداد ما خسرته من أرضها . فأخذت تماطل السفير الروسي « استفانوف » وتدافعه حتى يئس فعاد إلى بلاده في ٢٦ المحرم سنة ١٢٢١ هـ . الموافق ١٦ نيسان سنة ١٨٠٦ م . وبعد شهرين من سفره وصل السفير الفرنسي « جوبير » إلى طهران . وفي ذلك التاريخ استؤنفت الحرب بين إيران وروسيا .

وكانت الحكومة الإيرانية تنتظر قدوم الجنرال « غاردان » كما تنتظر الفرج السماوي . ولذلك تلقته ، لما وصل ، بالإكرام والابتهاج والمودة ، وبالغت في ذلك كثيراً ، وأجابته إلى كل شيء طلبه . وكان استقبالها للبعثة الفرنسية أشبه بالعيد والمهرجان .

وصلت البعثة في آخر شهر تشرين الثاني سنة ١٨٠٧ م الموافق رمضان سنة ١٢٢٢ هـ إلى مدينة قزوين قادمة من تبريز . وقد اضطرت إلى المكث في قزوين لا يؤذن لها بمتابعة السفر إلى العاصمة طهران إلا بعد أربعة أيام من وصولها . وقد ذكر « شارل نيكولا بارون فابويه » أحد أعضاء البعثة في مذكرات له علة هذا التأخير . ويتبين مما ذكره بعض ما كان يُتملق به الشاه يومئذ من ألقاب وصفات ، ويتبين بعض أحوال « فتح علي شاه » . وما ذكره هذا الفرنسي صحيح يعرفه كل من له إطلاع على تأريخ ذلك العهد وما كان عليه « فتح علي شاه » من إيمان بالخرافات . قال « فابويه » : « إن صاحب الجلالة الملك البادشاه قبلة العالم قطب الدنيا ظل الله وصاحب ثلاثين أربعين لقباً أُخرى نسيتها ، نظر في حركة الكواكب فرأى أن أعضاء السفارة الفرنسية إذا دخلوا طهران في يوم غير اليوم الرابع من كانون الأول أصابهم النحس . . . » .

ووصلت البعثة الفرنسية إلى طهران في اليوم الرابع من كانون الأول سنة ١٨٠٧ م الموافق ٢ شوال سنة ١٢٢٢ هـ . وكانت جماعة كبيرة من الرسميين قد خرجت إلى استقبالهم . وحين دخلوا طهران تجمع جمهور كبير من الأهالي لمشاهدتهم . حتى أن « فتح علي شاه » أرسل مهرجي البلاط يلعبون في موكب الاستقبال ، وتحول استقبالهم إلى « كرنفال » . كتب « فابويه » في مذكراته أن المهرجين كان كل منهم يرتدي تباناً (شورت) قصيراً وسائر بدنه عار من اللباس ، يرقصون ويهرجون ورئيسهم يحمل بيده نبوتاً كبيراً يلعب به .

ووصف « فابويه » هذا « فتح علي شاه » لما دخلوا عليه بعد بضعة أيام بأنه كان غارقاً في الجواهر من مفرقه إلى قدمه ، قد زين نفسه بما يساوي الملايين منها . والتاج الذي على رأسه والعضاد[1] الذي على يسراه من أغلى النفائس ، ولحيته ، وكانت تعد يومئذ أجمل لحية في إيران ، تصل إلى ركبتيه .

وبعد خمسة عشر يوماً من وصول « غاردان » إلى طهران وقع « فتح علي شاه » على معاهدة « فينكنشتاين » في ٢٠ كانون الأول سنة ١٨٠٧ م الموافق ١٠ شوال سنة ١٢٢٢ هـ . وطرد الإنكليز الذين كانوا في إيران واستدعى سفيره الذي في بمباي . وكان توقيع « فتح علي شاه » على هذه المعاهدة بعد توقيع « نابليون » على معاهدة « تيلسيت » بخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً . . . ولم يكن خبر معاهدة « تيلسيت » قد وصل إلى إيران يومئذ وبعد أيام أمضيت اتفاقية شراء الأسلحة من فرنسا واتفاقية تجارية . وسلمت جزيرة « خارك » التي في الخليج إلى الفرنسيين .

---

(١) العضاد (بكسر العين) ما يشد على العضد من حرز أو حلية .

والظاهر أن القيصر الروسي طلب من « نابليون » في أثناء مفاوضات الصلح في «تيلسيت» أن لا تقدم فرنسا في إيران على عمل يضر بروسيا، بل تسعى إلى التقريب بين إيران وروسيا . والذي يدل على ذلك هو أن « نابليون » أمر ، فور إمضاء معاهدة « تيلسيت » ، الجنرال « غاردان » بالتوسط بين إيران وروسيا . وهكذا جعلت فرنسا من نفسها وسيطاً بين الدولتين بدلاً من أن تكون عوناً لإيران في مقاومتها لروسيا حسب تعهداتها في معاهدة « فينكنشتاين » . ولكن وساطة « غاردان » لم تأت بنفع إذ أصرت روسيا على الاحتفاظ بما احتلته من أرض وأصرت إيران على استعادته منها .

بل يظهر من رسالة أرسلها المارشال « غراف فودافيتش » قائد الجيش الروسي في القفقاس إلى الجنرال « غاردان » أن نابليون لم يقتصر على التخلي من مساعدة إيران وإخلاف مواعيده لها ، بل وعد الروس أيضاً بمساندتهم على إيران ، وأنه أمر سفيره في طهران بتأييد المطالب الروسية لا المطالب الإيرانية !

كان « غاردان » يسعى إلى إيقاع الصلح بين إيران وروسيا بواسطة « نابليون » . وكانت إيران أيضاً ترى أن هذه الوساطة هي آخر الدواء . أما روسيا فكانت ترفض هذه المداخلة . وكان ما يحمل البلاط القيصري على هذا الرفض أمران أساسيان . أحدهما أنه لم يكن يقبل أن يتخلى عما احتلته روسيا من أرض القفقاس بوجه من الوجوه ، والآخر أنه لم يكن مطمئناً إلى « نابليون » . وهو متيقن أن محالفته له غير ثابتة ـ وقد تحقق ظنه هذا فيما بعد سريعاً ـ وكان الروس يرون أن خير وسيلة إلى تقليل نفوذ « نابليون » في إيران وجعلها آيسة من مساعدته وصرفها عن محالفته هي أن لا يدخلوه في أمر الصلح بينهم وبين إيران وأن يسارعوا إلى القضاء على إيران ويرتاحوا من همها . فإذا نازلهم « نابليون » مرة أخرى تفرغوا له ولم يشغلهم شاغل من إيران ، ولا اضطروا إلى الاحتفاظ بجيش كبير على حدودها لا يقدرون على الاستفادة منه في ميادين الحرب الأوروبية . ولذلك صدر أمر قاطع إلى المارشال « غودافيتش » أن يرفض مصالحة إيران ولو كان الواسطة « غاردان » ، وأن يكون القول الفصل للروس وحدهم .

قطع علاقات إيران بفرنسا

انتهت مهمة الجنرال « غاردان » في إيران إلى الخيبة . فمن جهة إخلاف « نابليون » وعده لإيران . ومن جهة أخرى كان إنشاء مصنع المدافع في أصفهان قد أهم الإنكليز وأهم الروس لأنه يقوي إيران ، وهم يسعون إلى إضعافها . فبذلوا جهدهم في مقاومة هذا العمل ، بواسطة عملاء لهم من الإيرانيين . من ذلك ما فعله حاكم أصفهان ووزير مالية « فتح علي شاه » من تحريض العمال الإيرانيين على تخريب العمل والامتناع عنه وإخفاء الأدوات اللازمة للعمل ، وتضليل « فتح علي شاه » بتقارير كاذبة عن قصور الخبير الذي يتولى إنشاء المصنع ، مع أن هذا الخبير كان جاداً مخلصاً ماهراً في عمله . وقد صبر على ما لقيه من الأذى صبراً كريماً .

وفي أول شهر تشرين الأول سنة ١٨٠٨ م الموافق شعبان سنة ١٢٢٣ هـ . كان قد صنع عشرين مدفعاً . فأمره « فتح علي شاه » بإرسالها إلى طهران . فأرسلها واستغرق مسيرها من الوقت خمسة أسابيع ، في طريق موحلة غير ممهدة . وكانت الخيول أحياناً لا تقوى على جرها بسبب ذلك فيستعينون بأهل القرى الواقعة على طريقهم لإخراجها من الوحل وتخليصها مما يعترض طريقها من عراقيل أخرى .

فلما وصل بها الخبير الفرنسي إلى العاصمة قوبل بفتور من الشاه وغيره ، بخلاف ما كان يقابل به في السابق . وتبين أن البعثة العسكرية الفرنسية قد سقطت من الاعتبار السابق الذي كان لها عند الشاه وسائر الإيرانيين . واعترض الشاه على بعض الصنعة في هذه المدافع . ثم وضعت المدافع في مستودع وأغلق بابه . يقول هذا الخبير : بعد ذلك أصبحت وكأني لم أصنع شيئاً بعد سنة من العمل ! وبذلك توقع هذا الخبير أنه سيضطر قريباً إلى مغادرة إيران .

بعد ذلك انقطعت العلاقات بين فرنسا وإيران ولم يبق بينهما أخذ ورد إلى زمن « محمد شاه قاجار » . وغادر الجنرال « غاردان » إيران في ٢٣ نيسان سنة ١٨٠٩ م الموافق ٨ ربيع الأول سنة ١٢٢٤ هـ . من غير أن تطلب منه الحكومة الإيرانية مغادرة بلادها ومن غير أن يستدعى من باريس . وغادرها أيضاً سائر أفراد البعثة . وبدأ عهد جديد من التقارب بين إيران وانكلترا .

ويظهر من رسالة أرسلها « نابليون » إلى « فتح علي شاه » أن « نابليون » بادر ، بعد خروج « غاردان » من إيران ، إلى إخراج السفير الإيراني أيضاً من باريس . ورسالة « نابليون » هذه مؤرخة في ٢٣ أيار سنة ١٨١٠ م الموافق ١٨ ربيع الثاني سنة ١٢٢٥ هـ ولم يدم قيام تلك العلاقات بين فرنسا وإيران أكثر من أربع سنوات وبضعة أشهر ، وذلك من أواخر سنة ١٢١٩ هـ الموافقة سنة ١٨٠٥ م إلى سنة ١٢٢٤ هـ . الموافقة سنة ١٨٠٩ م .

وقد أتم « غاردان » أعمالاً مهمة في تنظيم الجيش الإيراني فقرر للجندي الأدوات اللازمة له ، غير السلاح ، يحملها في أسفاره الحربية . وأقام مصنعاً للمدافع في أصفهان . ووضع مخططاً لإنشاء حاميات عسكرية ثابتة دائمة في المدن ، وبدأ بإنشائها فأقام ثكنة في « دامغان » قطعت دابر قطاع الطرق في تلك النواحي ، وتهيأ لمتابعة إنشاء الثكنات في أماكن أخرى . ورأى لزوم إنشاء طرق معبدة لتسهيل التحركات العسكرية وتسيير عربات المدافع . ولكن « فتح علي شاه » ، مع اقتناعه بلزوم إنشاء هذه الطرق ، كان يرفض الإنفاق عليها ويقول إن نفقاتها يجب أن تبذل من المال الذي تقرر أن يعطيه إياه « نابليون » . وإنشأ « غاردان » أيضاً ، في جملة إصلاحاته ، المطبخ العسكري السيار في الجيش الإيراني .

وجميع هذه الإصلاحات لم يكن « غاردان » قادراً على تحقيقها لولا مساعدة « عباس ميرزا » له . فقد كان هو الذي يوفر المال اللازم لها ، حتى أنه باع كل جواهره الخاصة وأنفق ثمنها على هذه الإصلاحات .

وقد قبل « عباس ميرزا » بكل الاقتراحات التي طرحتها البعثة العسكرية الفرنسية، ما عدا اقتراح واحد هو حلق اللحى فقد اقترح المدربون الفرنسيون أن يحلق الجنود الإيرانيون لحاهم أو أن يقصروها ، لأن اللحية الطويلة تعوق حركات الجندي في الحرب . وحين تكون الحرب وجهاً إلى وجه إذا كان الجندي ملتحياً وتمكن عدوه من القبض على لحيته أعجزه عن المحاربة . ولكن « عباس ميرزا » أجابهم بأن رجال إيران يصعب عليهم حلق لحاهم .

واتفق يوماً أن انفجرت قنبلة في يد أحد المدفعيين فلم تصبه بأذى سوى أنها أحرقت لحيته . فأخذه المدربون الأوروبيون إلى « عباس ميرزا » وقالوا له

هذه نتيجة إطلاق المدفعيين للحاهم ! عندئذ أمر « عباس ميرزا » بأن يحلق المدفعيون لحاهم أو يقصروها . فكانوا أول من مارس حلق اللحى من الجيش الإيراني . ثم تبعهم سائر أصناف الجند شيئاً فشيئاً .

وكان الجنود الإيرانيون يلبسون معاطف طويلة كالجبة . فاقترح « غاردان » أن تستبدل بها السترة القصيرة لأن المعطف الطويل يعوق حركة الجندي في الحرب . فلقي معارضة شديدة ، إذ رأى الناس في السترة القصيرة شكلاً قبيحاً من اللباس ، بل عدوا لبسها أمراً مخجلاً وخلاعة . فتنازل « غاردان » عن اقتراحه ، واستعاض عنه باقتراح أن يرفع الجندي طرفي الذيل من المعطف ويعلقهما بالحزام الذي على الخصر فتسهل حركته . وهكذا أصبح لباس الجندي الإيراني يشبه لباس « الفراك » . ولكن الإيرانيين عادوا فأذعنوا شيئاً فشيئاً حتى قبلوا بإلباس عسكرهم الزي العصري المناسب لحركات الجند الحربية .

وما استفادته إيران من البعثة العسكرية الفرنسية هو :

١ ـ تنبه الإيرانيين إلى حاجتهم إلى اقتباس الفنون العسكرية الغربية .

٢ ـ إدخال الرياضة البدنية في برنامج التدريب العسكري .

٣ ـ إنشاء مدرسة حربية لتخريج الضباط .

٤ ـ تعبيد بعض الطرقات .

٥ ـ إطلاع المتخصصين الإيرانيين على أسرار صناعة المدافع .

٦ ـ تعليم الإيرانيين صناعة البارود الحديث .

٧ ـ تعود الجنود على حلق لحاهم .

٨ ـ إلباس الجيش لباساً موحداً جميلاً عملياً .

ولكن ، بعد رحيل البعثة الفرنسية عن إيران أغلقت المدرسة الحربية ،وعطل مصنع المدافع في أصفهان .

عودة العلاقات بين إيران وانكلترا

بعد عقد معاهدة الصلح بين قيصر روسيا و« نابليون » في « تيليست » قل اهتمام « نابليون » بالتودد إلى إيران . وبعد التقارير التي تلقاها من « غاردان » بشأن سوق جيشه إلى الهند من طريق إيران تبين له أن سلوك هذه الطريق ليس سهلاً كما كان يتصور .

فقد كان يخيل إليه أنه قادر على تذليل الصعاب التي تعترض طريقه إلى الهند كما ذلل الصعاب التي اعترضته في فتوحاته في أوروبا ، وأنه قادر على أن يعبر إلى الهند كما عبر إليها قبله محمود الغزنوي وتيمورلنك ونادر شاه من صحارى إيران وأفغانستان . ولكن تقارير « غاردان » نبهته إلى فروق الزمان والمكان بين عهد وعهد وبين بلد وبلد . فكانت هذه التقارير سبباً في عدول نابليون » عن غزو الهند أو أنها كانت من أهم الأسباب في عدوله .

وفي سنة ١٨٠٩ م الموافقة سنة ١٢٢٤ هـ غادرت بعثة الجنرال « غاردان » الفرنسية أرض إيران عائدة إلى بلادها .

وفي شهر ربيع الثاني سنة ١٢٢٤ هـ الموافق حزيران سنة ١٨٠٩ م عادت إيران إلى إقامة علاقات بينها وبين انكلترا بعد أن يئست من مساعدة « نابليون » لها ، وكانت قد قطعت ما بينها وبين انكلترا من علاقات إرضاء لنابليون وإجابة إلى طلبه . وأرسلت إنكلترا سفيراً لها إلى طهران هو « السير هرفورد جونز » . وأرسلت إيران سفيراً لها إلى لندن هو « الميرزا أبو الحسن خان الشيرازي » .

معاهدة ١٢٢٤ هـ

وقبيل ذلك كان « عباس ميرزا » قد اضطر ، بعد تصالح « نابليون » والقيصر وانقطاع أمله من مساعدة فرنسا ، إلى الالتجاء إلى انكلترا يطلب العون منها على روسيا . وانتهت مساعيه إلى عقد معاهدة بين إيران وانكلترا في ٥ المحرم سنة ١٢٢٤ هـ الموافق ١٩ آذار سنة ١٨٠٩ م .

وهذه المعاهدة تقضي ، في جملة ما تقتضي به ، أن تبطل إيران كل معاهدة معقودة بينها وبين دولة أوروبية . وأن تمنع إيران كل جيش أوروبي من المرور بأرضها إلى الهند . وإذا هاجم جيش أوروبي إيران فإن انكلترا ترسل إليها جيشاً لمساعدتها أو تمنحها المال والسلاح اللازم لها ، وتضع أيضاً في تصرفها مدربين للجيش الإيراني وعمالاً . وإذا وقعت حرب أو خلاف آخر بين إيران ودولة أوروبية ، ثم أرادتا الصلح فإن انكلترا تبذل كل جهدها لإيقاع الصلح ورفع الخلاف . فإن تعذر ذلك بادرت انكلترا إلى إمداد إيران بالجند أو المال والسلاح ، ويستمر الإمداد ما دامت الحرب قائمة . وأن تساعد إيران انكلترا بجيشها إذا وقع اعتداء على الهند من جهة أفغانستان . وقضت المعاهدة أيضاً بمنح انكلترا امتيازات أخرى في الخليج وجزيرة « خارك » .

ووقعها عن الجانب الإيراني « الميرزا محمد شفيع » الصدر الأعظم و « الحاج محمد حسين خان أمين الدولة » وعن الجانب الإنكليزي « السير هرفورد جونز بريج » سفير انكلترا في طهران .

سفير آخر

وفي سنة ١٨١٠ م الموافقة سنة ١٢٢٥ هـ عينت انكلترا « السير غور أوزلي » سفيراً لها في إيران . فغادر بلاده قاصداً إيران في شهر تموز من تلك السنة . وصحبه سفير إيران في انكلترا « الميرزا أبو الحسن الشيرازي » ومعه ثمانية من موظفي السفارة الإيرانية .

وبعد مغادرتهم الشاطىء الإنكليزي حملتهم السفينة أولاً إلى « ريو دي جانيرو » عاصمة البرازيل . وإذ كان ذهابهم إليها أمراً مستغرباً ، فالبرازيل لا تقع على طريقهم إلى إيران ، فقد قيل يومئذ إن الرياح خالفت طريق سفينتهم وحملتهم اضطراراً إلى البرازيل وهو قول يعرف بطلانه كل من له إطلاع على أحوال الملاحة والبحار .

والسبب الحقيقي هو أن البرتغاليين كانوا قد جعلوا من « ريو دي جانيرو » عاصمة للبرتغال ـ والبرازيل يومئذ ملك للبرتغال ـ لأن « نابليون » كان قد احتل اسبانيا في سنة ١٨٠٨ م وأصبح جيشه قريباً من البرتغال . وخشي نائب ملك البرتغال « جوان » الذي أصبح فيما بعد الملك « جوان السادس »[1] من هجوم يقوم به عليه « نابليون » . فنقل مقر حكمه إلى « ريو دي جانيرو » وجعلها عاصمة للبرتغال ، وأقام حكومة في البرازيل

(١) لم تكن البرتغال يومئذ قد نصبت لها ملكاً .

باسم « حكومة البرتغال الحرة » ، واعترفت بها انكلترا رسمياً وأعطتها مساعدات مالية .

وكان السفير الإنكليزي « السير غوار أوزلي » مضطراً إلى الاجتماع بنائب الملك البرتغالي فقصد إلى «ريو دي جانيرو» قبل إيران ، وصحبه في هذه الرحلة السفير الإيراني وموظفو سفارته لا لشيء سوى أن أعمال السفير البريطاني اقتضت أن تكون طريقهم على البرازيل . وهؤلاء الإيرانيون التسعة ، السفير وموظفوه ، هم أول من دخل أمريكا من الإيرانيين ، إذ لا نعهد أحداً قبلهم دخلها من إيران .

وكان مع السفير الإنكليزي بعثة من الضباط العسكريين وهي أول بعثة عسكرية انكليزية وفدت إلى إيران لتدريب الجيش الإيراني . وكانت تتألف من مائة رجل تقريباً ، بعضهم جاء من انكلترا وبعضهم التحق بالبعثة من الهند حين وصولها إليها . وكان يرؤسها ضابطان برتبة مقدم (ميجر) ، أحدهما المقدم «دارسي» للمشاة والفرسان والآخر المقدم « أستين » للمدفعية . ثم رفعت درجتهما إلى رتبة عقيد . وقد توفي « أستين » في إيران وهو يقوم بمهمته .

وغادر السفيران الإيراني والإنكليزي « ريو دي جانيرو » في ٢٥ أيلول سنة ١٨١٠ م مبحرين إلى « بمباي » في الهند ، فبلغوها في شهر كانون الأول سنة ١٨١١ م الموافقة سنة ١٢٢٦ هـ ثم أبحروا منها إلى إيران .

وحمل السفير الإنكليزي إلى « فتح علي شاه » هدايا غالية . وأهداه عربة ملكية صنعت في إنكلترا خصوصاً له . ولما أرادوا نقلها إلى مسكنه ضطروا إلى حملها على الأيدي بسبب ضيق طرقات المدينة . واضطروا إلى هدم زوايا وجدران من أبنية ليوسعوا لها الفضاء اللازم لمرورها . فلما وصلوا بها إلى المسكن استعرضها « فتح علي شاه » ثم أجروها بضع دورات في ساحته . ثم خلع « فتح علي شاه » حذاءه ودخل فجلس فيها وطلب نارجيلة رأخذ يدخنها في مجلسه ذاك . بعد ذلك أذن للناس إذناً عاماً بدخول المسكن بمشاهدة العربة . فلم يبق في طهران رجل ولا امرأة ولا طفل إلا جاء لمشاهدتها .

ولكن « فتح علي شاه » لم يتخذ هذه العربة لركوبه ولا اتخذها ولي عهده « عباس ميرزا » لتعذر مرورها من معابر المدينة لضيقها عنها . ومن جهة أخرى كان يرى أن ركوبها يحط من شأنه وشأن ولي العهد .

معاهدة سنة ١٢٢٧ هـ

نسخت معاهدة سنة ١٢٢٤ هـ بمعاهدة أخرى أكثر تفصيلاً بين إيران وانكلترا وقع عليها في ٢٩ صفر سنة ١٢٢٧ هـ الموافق ١٤ آذار سنة ١٨١٢ م ، ووقع عليها عن إيران « عباس ميرزا » وعن انكلترا « السيرغور أوزلي » سفير انكلترا في إيران .

وهي تقضي أيضاً بأن تلغي إيران كل معاهدة عقدت بينها وبين دولة أوروبية . وأن تمنع إيران كل دولة أوروبية من عبور أرضها إلى الهند . وتقضي أيضاً بأن تتعهد إيران بحماية طريق الهند في نواحي « خوارزم » و « تترستان » و « بخارى » و « سمرقند » وغيرها . وإذا اعتدت دولة أوروبية على إيران أسعفت انكلترا إيران بما يلزمها من جند . فإن تعذر على انكلترا إرسال جيش للدفاع عن إيران منحتها مساعدة مالية سنوية قدرها مائتا ألف تومان . وتبقى المساعدة العسكرية أو المالية جارية ما دامت الحرب قائمة . وإذا وقعت حرب أو نزاع بين إيران ودولة أوروبية ثم أرادتا الصلح فإن انكلترا تبذل كل ما تقدر عليه من جهد لإيقاع الصلح . فإن تعذر الصلح قامت انكلترا بمساعدة إيران بالمال أو بالسلاح على نحو ما تقدم . وإذا وقعت حرب بين أفغانستان وانكلترا فإن إيران ملزمة بمساعدة انكلترا مساعدة عسكرية . أما إذا وقعت حرب بين أفغانستان وإيران فإن انكلترا غير ملزمة بمساعدة إيران على أفغانستان . وتعهدت انكلترا أيضاً أن تضع في تصرف إيران ما هي بحاجة إليه من الضباط العسكريين لتدريب الجيش الإيراني .

ولكن إيران لم تحصل على فائدة من هذه المعاهدة في محاربتها للروس ، إذ نكثت انكلترا تعهداتها . وكل ما وفت به في تعهداتها هو أنها أرسلت جماعة من ضباطها العسكريين مستشارين ومدربين للجيش الإيراني في الظاهر . ومهمتهم ، في الواقع ، كانت تعويق الجيش الإيراني عن التقدم في الحرب .

أصل الخلاف الإيراني الروسي

الآمال التي علقتها إيران على « نابليون » والوعود التي استغفل بها « نابليون » البلاط الإيراني ، والأضرار التي وطنت إيران نفسها على تحملها إلى أقصى حدود الإمكان من أجل استرضاء « نابليون » ، كل ذلك لم ينفع إيران بشيء يعينها على إزالة ما بينها وبين روسيا من خلاف . لا بل زاد في شدة هذا الخلاف !

فمن جهة كان اغترار الإيرانيين بـ « نابليون » ووعوده يحملهم على التصلب في معاملة الروس فيرفضون مصالحتهم . ومن جهة أخرى أغضب الروس انصراف الإيرانيين عن مفاوضتهم مباشرة واستهانتهم بما عرضته عليهم روسيا من اقتراحات بشأن الصلح ، وتوسلهم إلى ذلك بطرف آخر .

أما أصل الخلاف بين إيران وروسيا فهي تنازعهما على بلاد « كرجستان »[١] . وهذه البلاد إقليم خصب نضر يقع في سفوح جبال القفقاس على السواحل اليمنى من البحر الأسود . وأهله من العرق الآري سكنوه من عهود قديمة . وورد ذكرهم في أقدم مستندات تأريخ إيران .

وفي الأزمنة القديمة كان هذا الإقليم يقسم إلى ثلاثة أقسام . أحدها « إيبري » والآخر « كولخيدا » والآخر عرف باسم بلاد « الآلانيين » وهؤلاء « الآلانيون » كانوا من الفرع الآري الإيراني . وكانوا شجعاناً محاربين . سماهم الإيرانيون « آلاني » وسماهم الأوروبيون « آلباني » وسماهم الأرامنة « أغوانيان » . وفي أوائل العهد الإسلامي غير العرب كلمة « آلان » بكلمة « ألران » . وشيئاً فشيئاً صارت كلمة « ألزان » تلفظ في الفارسية والعربية « أران » . و « أران » اليوم هي جمهورية آذربيجان التي كانت تعرف باسم أذربيجان السوفياتية وتقع في شمال نهر « أرس » .

وقد شارك الكرجيون في حروب مهمة خاضها الملوك « الهخامنشيون » . ولما أخذت الأمبراطورية الرومانية تتوسع نحو آسيا الغربية صارت تقترب شيئاً فشيئاً من « كرجستان » . وفي عهد « الأشكانيين » أصبحت « كرجستان » مثل « أرمينيا » موضع نزاع بين إيران والرومان .

وفي القرن الميلادي الخامس تزوج أحد ملوك « كولخيدا » المسمى

(١) هي المعروفة اليوم باسم جورجيا .

« زاتوس » بامرأة مسيحية وتنصر . ومن ذلك اليوم دخلت النصرانية « إلى كرجستان » . والكنيسة الكرجية شعبة خاصة من النصرانية ولها طقوس خاصة بها قريبة من الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية . وفي عهد « الساسانيين » ظلت تلك النواحي متداولة بين الإيرانيين والرومان ، تارة بيد هؤلاء وتارة بيد هؤلاء .

وكانت آخر غزوات الأباطرة البزنطيين لـ « كرجستان » في سنة ٦١٧ م الموافقة للسنة الهجرية السادسة ، إذ غزاها « هرقل » الأمبراطور المعروف وضمها إلى أملاكه . ولكن العرب لم يلبثوا أن غزوها وضموها إلى أملاك الخلفاء . وفي نهاية القرن الهجري الثاني استولت سلالة « بغرات » الأرمنية المالكة في أرمينيا على « كرجستان » وظلت تحكمها مدة طويلة إلى القرن الهجري الخامس إذ استولى السلاجقة على إيران . وبعد ذلك استولوا أيضاً على « كرجستان » . وبعد سقوط السلاجقة استولى عليها الأتراك . ولكن الصليبيين إذ استولوا على القدس سنة ٤٩٣ هـ أنجدوا نصارى « كرجستان » فتمكن هؤلاء من طرد الأتراك ، وقامت على الحكم سلالة من الملوك ملكت مستقلة إلى سنة ٦٠٩ هـ .

بعد ذلك استولى المغول على « كرجستان » . ثم غزاها « تيمورلنك » ست مرات ، من سنة ٧٨٠ إلى سنة ٨٠٥ هـ وبعد سقوط التيموريين استقلت « كرجستان » مرة أخرى ، وقامت فيها ثلاث دول كل منها مستقلة عن الأخرى ، وذكرت هذه الدول في المصادر الفارسية بأسماء « كارتيل » و « كاخت » و « إيرت » . ويظهر من هذا أن أمراء « كرجستان » كانوا على خلاف فيما بينهم لم يوفقوا إلى الاتحاد .

وإذ كان الأتراك قد قضوا على الأمبراطورية البيزنطية ، فقد فقد ملوك « كرجستان » هؤلاء سندهم القوي الذي كان يحميهم . وإذ كانوا يخشون الأتراك فقد اضطروا إلى الالتجاء إلى دولة قوية تكون أرحم بهم . ولذلك جعل ملوك « كرجستان » في القرن الحادي عشر الهجري من أنفسهم أتباعاً للملوك الصفويين . وقد ساندهم هؤلاء الملوك ، ولا سيما « الشاه عباس الأول » ، مساندة فعالة وحموهم من تعديات الأتراك .

ومع ذلك كان الكرجيون لا ينفكون يتطلعون إلى الاستقلال . وإذ كان الروس يومئذ قد امتد مجال حكمهم حتى صار قريباً من « كرجستان » وطالت قوتهم أيضاً أوروبا الشرقية ، وكان مذهبهم في النصرانية قريباً من مذهب الكنيسة الكرجية ، وشرعت مواصلات بين روسيا و « كرجستان » ، فقد حمل ذلك ملوك « كرجستان » على طلب المساعدة من روسيا .

من ذلك مساعدة طلبها « إيفان الثاني » ملك « كاخت » في سنة ١٥٥٨ م الموافقة سنة ٩٦٥ هـ . من « إيفان فاسيليوفيتش » الرابع ملك روسيا . وبعدها طلب ملك آخر من ملوك « كرجستان » اسمه « الكساندر » من « باريس غادنوف » قيصر روسيا أن يساعده في مقاومة « الشاه عباس الصفوي » . وفي سنة ١٦١٩ م الموافقة سنة ١٢٠٨ هـ أرسل « يتمرواز » ملك « كرجستان » بعثة من قبله إلى بلاط « ميخائيل فيدور وفيتش » أول قياصرة أسرة « رومانوف » لمثل هذه الغاية .

ومن ذلك الحين دأبت روسيا على التدخل في شؤون « كرجستان » وأخذ أهلها يخرجون شيئاً فشيئاً من طاعة إيران . وفي القرن الثامن عشر الميلادي والثاني عشر الهجري ، وإيران يومئذ واهنة مستضعفة في الحكم الصفوي المتداعي ، تولى حكم « كرجستان » الملك المقتدر « واختانغ الرابع » ، وألغى ما لإيران من حقوق في « كرجستان » .

والأحداث التي وقعت في إيران في نهاية الحكم الصفوي وفي عهد الأفشاريين والزنديين جعلت الكرجيين يبتعدون أكثر فأكثر عن إيران ويزدادون قرباً من روسيا يوماً فيوماً . ومن العام ١٠٢٤ إلى العام ١١١٥ هـ ، أي مدة تسعين عاماً ، كان كل ولاة « كرجستان » يرسلون إليها من قبل البلاط الصفوي ويحكمون فيها باسمه .

ومن عام ١١١٥ ـ أخذ أمراء « كرجستان » يستقلون شيئاً فشيئاً . وعزموا على منع إيران والعثمانيين من التدخل في شؤونهم والتصرف بأرضهم . والطريق التي سلكوها إلى هذه الغاية هي الدخول في رعاية بلاط القياصرة . وقد زاد من تمكنهم من إنفاذ هذه الخطة تبلبل الأوضاع في إيران الذي استمر من عزل « السلطان حسين الصفوي » في ١١ المحرم سنة ١١٣٥ هـ إلى تملك « آقا محمد خان » سنة ١١٦٣ هـ أي مدة ثلاثين سنة تقريباً .

وفي هذه المدة سعى ملوك « كرجستان » أولاً إلى طلب الحماية لهم من بعض دول أوروبا الغربية . وكان منهم « لويس الخامس عشر » ملك فرنسا . ولكنهم لم يحصلوا على نتيجة فلم يبق لهم من حيلة غير التوسل بروسيا . وكانت روسيا ، بعد « بطرس الكبير » قد أصبحت من القوة بحيث لم يبق من طريق أمام « كرجستان » غير وضع نفسها في حماية القياصرة .

وفي سنة ١٧٤٤ م الموافقة سنة ١١٥٧ هـ حكم على مملكة « كاخت » الملك « هراكليوس الثاني » ابن « تيموراز الثاني » . وفي سنة ١٧٦٢ م الموافقة ١١٧٥ هـ ضم إليها أيضاً مملكة « كارتيل » . ولما تملك سُلّمت « كرجستان » إلى روسيا . وقد عاش هذا الملك إلى سنة ١٧٩٨ م الموافقة سنة ١٢١٣ هـ . وبعد وفاته ملك « كيورجي الثاني عشر » ، ويسميه الإيرانيون « جرجين » (بالجيم المصرية) ، إلى سنة ١٨٠٠ م الموافقة سنة ١٢١٥ هـ وملك بعده « إيفان الثاني عشر » إلى سنة ١٨٠١ م الموافقة سنة ١٢١٦ هـ .

كان « هراكليس الثاني » ملك « كارتيل » و « كاخت » شديد الميل إلى روسيا وكانت معاصرته « كاترين الثانية » أمبراطورة روسيا راغبة في فصل الولايات الواقعة في شمال نهر « أرس » عن إيران .

وكان وزيرها ـ وهو عشيقها أيضاً ـ « الفيلد مارشال فاتمكين » جاداً في تحقيق هذا الأمر ، يسعى إليه بين سكان تلك الولايات ، ولا سيما الولايات التي أكثر سكانها من النصارى . أما الولايات التي أكثر سكانها من المسلمين والولايات التي مسلموها أقلية يعتد بها فكانوا لا يقبلون الانفصال عن إيران .

وكان « فاتمكين » يهيء نفسه ليكون ملكاً على تلك الولايات بعد فصلها عن إيران ، حتى انه هيأ شعار مملكته ، المملكة المأمولة هذه ! ولكنه لم يوفق إلا في تحقيق استقلال تلك الولايات استقلالاً ظاهرياً وجعلها خاضعة لسيطرة « كاترين » الثانية في الواقع .

وفي ٢٤ تموز سنة ١٧٨٣ م الموافق ٢٣ شعبان سنة ١١٩٧ هـ . عقدت معاهدة بين « كرجستان » وروسيا في قلعة « غورغيسك » عند حدود القفقاس ، وقعها عن الجانب الروسي « الفلد مارشال فاتيمكين » مندوب

« كاترين الثانية » ، ووقعها عن الجانب الكرجي الأمير « باغراتيون » مندوب « هراكليوس » ملك « كرجستان » ولهذه المعاهدة أهمية خاصة في تاريخ العالم . لأن ملك « كرجستان » وضع دولته بمقتضاها في حماية الأمبراطورية الروسية . وهي أول دولة في تاريخ العالم توضع في حماية دولة أخرى . وقد اقتدت دول أوروبا بعد ذلك بهذه السابقة ، فوضعت دول في حماية دول أخرى .

وتصرح المادة الأولى من هذه المعاهدة بأن ملك « كرجستان » لا يعد من الآن فصاعداً « والي » هذه الدولة بل « حليف » روسيا . ومعنى ذلك أن ملك « كرجستان » ، وهو تابع لإيران من أربعمائة سنة وعنوانه الرسمي من قبل الملوك الإيرانيين هو « والي كرجستان » ، قد أصبح من الآن فصاعداً تابعاً للقياصرة الروس .

بعد ست سنوات من إمضاء هذه المعاهدة وقعت الثورة الفرنسية في سنة ١٧٨٩ م الموافقة سنة ١٢٠٣ هـ وقد أفزعت هذه الثورة كل ملوك أوروبا وأوقعتهم في الهلع والرعب . ومنهم « كاترين الثانية » أمبراطورة روسيا التي اعتلت العرش من سنة ١٧٦٢ م الموافقة سنة ١١٧٥ هـ إلى سنة ١٧٩٦ م الموافقة ١٢١٠ هـ ولذلك رأت « كاترين » أن الوقت غير مناسب للقيام بفتوحات في القفقاس ، خصوصاً أنها كانت قد فرغت حديثاً من حربها الثانية التي وقعت بينها وبين تركيا في ١٧٩١ م الموافقة سنة ١٢١٥ هـ وعليها أن تريح عسكرها .

في سنة ١٧٩٦ م الموافقة سنة ١٢١٠ هـ ، قبل وفاة « كاترين » ببضعة أشهر ، كان « فلاتون زوبوف » هو المتصرف الآمر الناهي في شؤونها وشؤون الدولة . وقد وضع هو وأخوه « فاليريان زوبوف » خطة جريئة . وقبل « زوبوف » كان « فاتيمكين » هو المتصرف بشؤون الأمبراطورية الروسية . وكان يسعى إلى إثارة نصارى البلقان على العثمانيين وضم البلاد الأوروبية التي يسيطر عليها العثمانيون إلى روسيا . ولكن « زوبوف » كان أبعد تطلعاً منه . فقد كان يريد احتلال إيران والوصول إلى حدود الهند والحصول على طريق إلى البحار الدافئة .

كانت خطة « فاليريان زوبوف » هي الاستيلاء على إيران وإقامة حاميات في مختلف مدنها . ثم يغزو أرض العثمانيين من طريق آسيا الصغرى فيخضعهم . ومن جهة أخرى يغزو القائد العسكري المعروف « سوفاروف » اسطنبول من طريق البلقان . وفي أثناء هذه الأعمال يحاصر الأسطول الروسي اسطنبول من البحر ، وتقرر أن تكون قيادة الأسطول بيد « كاترين » نفسها .

وفي آخر شهر شباط سنة ١٧٩٦ م الموافق شعبان سنة ١٢١٠ هـ . سار « فاليريان زوبوف » من « بطرسبورغ » آملاً أن يصل إلى أصفهان في شهر أيلول من تلك السنة ، أي بعد سبعة أشهر ، على أن يسير الجنرال « كارساكوف » بعشرة آلاف جندي إلى احتلال « تفليس » من طريق القفقاس ، ويسير « زوبوف » بعشرين ألف جندي من ساحل بحر الخزر حتى يلتقي بالجنرال « كارساكوف » ثم يسيران معاً إلى أصفهان . وهما يتوقعان أن لا يتعرض لهما أهالي « دربند » و « دربند » و « بادكوبا » بالمقاومة . والظاهر أن البلاط الروسي لم يكن على إطلاع على أوضاع إيران الداخلية . ويحسبون أن أصفهان لا تزال عاصمة لإيران ، فإذا استولوا عليها سلمت إيران إليهم .

وحل شهر أيلول الذي جعله « زوبوف » موعداً لاحتلال أصفهان ، وجيشه لم يصل بعد إلى حدود إيران . فأرسلوا إليه من « بطرسبورغ » مهندساً اسمه « دوفلان » ومعه خرائط جغرافية وأوامر عسكرية ليساعده في مهمته . ولكن « كاترين الثانية » توفيت في ١٧ تشرين الثاني من تلك السنة الموافق ١٦ جمادى الأولى سنة ١٢١٨ هـ و « زوبوف » لا يزال في « بادكوبا » . وخلفها ابنها « بولس » فتوقف عن متابعة الغزو وألغى خطة « زوبوف » .

وقبل هذه الوقائع بلغ خبر الحلف الكرجستاني الروسي إلى « آقا محمد خان قاجار » ، فعزم على مهاجمة تلك النواحي . وكان هذا الوقت مناسباً له ، إذ كانت « كاترين » ملكة روسيا مرعوبة من الثورة الفرنسية . وقد أوقفها هذا الرعب عن إنجاد الكرجيين حين بلغها نبأ عزو « آقا محمد خان » « كرجستان » .

وكان ملك « كرجستان » قد خلع طاعة إيران من اليوم الذي ظاهره فيه البلاط الروسي . وشجع عصيانه هذا جماعة آخرين من أمراء تلك النواحي من نهر « أرس » ، وأكثرهم يحكومنها بالوراثة فخلعوا طاعة إيران أيضاً وحالفوا « هيراكليوس » .

وبدأ « آقا محمد خان » عمله في أواخر سنة ١٢٠٩ هـ بإقامة معسكر عظيم في أطراف طهران متكتماً لا يخبر أحداً بما ينويه . فلما اكتمل له ما أراده من تجهيز الجيش بادر إلى تسييره من طهران لا يخبر أحداً بوجهة سيره . وسار من طريق « أردبيل » إلى جسر « خداآفرين » المعقود على نهر « أرس » ، وكان « إبراهيم خليل » حاكم « قراباغ » قد خربه . فأعاد « آقا محمد خان » بناءه وقطع النهر عليه . ثم أرسل فرقة من جنده لاحتلال إقليم « طاش » . وسار هو قاصداً أرمينيا . فقتل جماعة من أهلها وأسر جماعة . ثم سار بعشرة آلاف جندي إلى قلعة « فناه آباد » فحاصرها . ولكنه لم يستطع استخلاصها من « إبراهيم خليل خان » حاكم « قراباغ » الذي ظل مسيطراً على تلك النواحي من سنة ١١٧٧ إلى سنة ١٢٢١ هـ فانصرف عنها قاصداً إلى « تفليس » .

فلما وصلها تلقاه « هراكليوس » في خارجها ، ودارت بينهما رحى حرب طاحنة . وفي أثناء ذلك هبت رياح شديدة مخالفة لعسكر « هراكليوس » ، وكان يتألف من الكرجيين والأرامنة ، وعجز عن الثبات فعاد إلى المدينة .

وخرج من بوابة أخرى من بوابات المدينة أربعمائة فارس من الشركس كانوا يحالفون « هراكليوس » ووصلوا إلى وراء الفسطاط الذي فيه « آقا محمد خان » وقطعوا بعض أطنابه . ولكن « آقا محمد خان » لم يتحرك من مكانه وأمر حرسه من البندقيين (حملة البنادق) المازندرانيين بإطلاق الرصاص عليهم فقتلوا جماعة من أولئك الشركس وفر من سلم منهم .

وإذ رأى « هراكليوس » أن لا قدرة له على المقاومة فقد عاد إلى « تفليس » وحمل زوجته ، واسمها في المصادر الإيرانية « ده فال » ، وأخته وابنته ، وانطلق بهن إلى إقليم « كاخت » و « كارتيل » .

ولما انتهت الحرب أمر « آقا محمد خان » بقتل سبعين رجلاً من رؤساء عسكر « كرجستان » . ثم دخل مدينة « تفليس » وأمر جنده بالإغارة والقتل . فكانت واقعة رهيبة فظيعة . وذكر المؤرخون الإيرانيون أن عدد من

أسرهم الجنود الفاتحون بلغ خمسة عشر ألفاً بين رجل وامرأة من جميع الأعمار. هذا غير من قتل وغير ما نهب. وأنهم كانوا يقيدون أيدي القسيسين ويلقون بهم في نهر « أرس »[1] ، فيغرقون . وأنه أحرقوا الكنائس وخربوا البيوت ونهبوا كل شيء في المدينة .

وظل « آقا محمد خان » في تفليس « تسعة أيام بعد هذه الغارة الفظيعة وما سفك فيها من دماء ونهب من أموال . ثم سار من « تفليس » إلى « كنجة » . ومنها سار إلى « شروان » ، وهو ماض في غاراته وغزواته . ثم عاد إلى إيران من طريق « دشت مقان » .

ومع أن « كرجستان » كانت يومئذ محمية روسية وكان على روسيا أن تمدها بنجدة عسكرية بمقتضى معاهدة « غورغيوسك » فإن روسيا أخلفت وعدها وتركت « كرجستان » تقاوم وحدها . وبذلك سقطت معاهدة الحماية تلك من تلقاء نفسها . وبعد مدة قليلة عاد « جيورجي الثاني عشر » ملك « كرجستان » الجديد فعقد في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٧٩٩ م الموافق ٢٤ جمادي الآخرة سنة ١٢١٤ هـ . معاهدة بينه وبين « بولس » قيصر روسيا جدد فيها المعاهدة السابقة ، وتعهدت روسيا فيها بأن تستدرك ما أهملته في الحرب الماضية فتمده بنجدة عسكرية إذا وقع اعتداء عليه .

وبعد عودة « آقا محمد خان » من هذه الحملة قام « فاليريان زوبوف » بتسيير جيشه قاصداً إنفاذ خطته التي مر ذكرها آنفاً . وحين بلغ هذا الخبر إلى « آقا محمد خان » كان مشغولاً بالحرب في خراسان وما وراء النهر . ثم ، لما بلغه نبأ موت « كاترين » وعودة « زوبوف » ، حمله هذا الخبر العزم على غزو « كرجستان » مرة أخرى . فذهب إلى طهران وجهز جيشاً سار به في شهر ذي القعدة سنة ١٢١٢ هـ في نفس الطريق التي سلكها في المرة السابقة ، أي طريق «أردبيل» حتى بلغ ساحل نهر «أرس» . وكانوا قد خربوا الجسر المعقود عليه كما فعلوا أول مرة . فأصلحه وعبر إلى الشاطىء الآخر وأغار بعشرة آلاف فارس على قلعة « فناه آباد » . واضطر « إبراهيم خليل خان » هذه المرة إلى الفرار إلى إقليم « شكي » و « لكزستان » واحتل « آقا محمد خان » القلعة . وفي تلك الغزوة عند هذه القلعة قتل « آقا محمد خان قاجار » ليلة السبت ٢١ ذي الحجة سنة ١٢١٢ هـ بيد خادمة « صادق خان » الكرجي والفراش « خداداد » . وكان قد أمر بقتلهما في صباح اليوم التالي بسبب فقدان شيء من الدراهم . فانسلا ليلاً إلى مضجعه وهو نائم فقتلاه[2] .

يقول « سعيد نفيسي » في كتابه « تاريخ إيران الاجتماعي والسياسي » إن المؤرخين الإيرانيين لم يعرفوا السبب الأصلي الذي جعل « كاترين الثانية » التي حدثت هذه الواقعة في زمانها تحجم عن إنجاد « هراكليوس » . وينقل عن « السيرجان ملكوم » وهذا ينقل عن أحد أبناء « كرجستان » أن « هراكليوس » استنجد مراراً بالجنرال « غودافيتش » ، وكان هذا يقيم مع جيش على بعد ستة منازل من « تفليس » مأموراً بمساعدة أهل ذلك الإقليم . ولكنه لم يجب « هراكليوس » إلى طلبه استهانة منه بـ « آقا محمد خان » وجيشه ، إذ كان يعتقد أن ما يتناقله الناس عن قوته مبالغ فيه . ولذلك لم يكن « غودافيتش » يتوقع أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه .

ولكن « السيرجان ملكوم » ، بعد أن ينقل هذا الكلام ، يرى أن الأصح هو أن « غودافيتش » كان يقيم في قلعة « غورغيوسك » وجنده يتفرقون في نواحي « الجبل الأسود » (قراداغ) ، وجمعهم وإرسالهم إلى « تفليس » يستغرق ثلاثة أسابيع أو أربعة . ولذلك لم يستطع إنجاد « هراكليوس » في الوقت المناسب . ويحتمل « السيرجان ملكوم» سبباً آخر . هو أن « هراكليوس » نفسه كان راغباً عن تدخل الجيش الروسي في هذه الحرب ، إذ كان يخشى من استيلائه على بلاده ، وكان يرى أن في قوته الكفاية لصدّ « آقا محمد خان » عن بلاده .

ومهما كانت الحال فإن « كاترين » عزمت ، بعد هذه الواقعة ، على الانتقام . ويومئذ كان « مرتضى قلي خان قاجار » أخو « آقا محمد خان » في روسيا هارباً من أخيه هذا بعد أن هزمه في حرب وقعت بينهما . وكانت « كاترين » تريد أن تستعين به للقضاء على « آقا محمد خان » . وكان القصد من تجييش جيش « فاليريان زوبوف » هو الوصول إلى تحقيق هذا الانتقام . ومع أن روسيا عادت فتوقفت عن تسيير هذا الجيش فإنها حصلت منه على فائدة كبيرة . فقد اقتطعت من إيران نواحي « دربند » و « بادكوبا » و« طالش » و « شماخي » و « كنجة » .

بدء الحرب بين إيران وروسيا

لم تحصل إيران على فائدة من الحروب التي شنها « آقا محمد خان » على « كرجستان » وكان لهذه الحروب حصيلة واحدة هي أنها زادت في شقاء أهل ذلك الإقليم من جهة وحركت روسيا إلى القيام بأعمال ألحقت بإيران أضراراً عظيمة من جهة أخرى .

مات « هراكليوس الثاني » ملك « كرجستان » في سنة ١٧٩٨ م الموافقة سنة ١٢١٣ هـ بعيد مقتل « آقا محمد خان » . واعتلى « فتح علي شاه » عرش إيران في ٢٤ ربيع الأول سنة ١٢١٢ هـ .

وكان لـ « هراكليوس » بضعة أبناء أكبرهم اسمه « جيورجي » وعرف في المصادر الإيرانية باسم « جرجين » (بالجيم المصرية) . وقد خلف أباه في الملك . إلا أن أحد إخوته ، واسمه « الكساندر » خرج عليه وطلب الملك لنفسه . ويظهر أنه كان مخالفاً لتبعية « كرجستان » لروسيا . ولذلك كان يأمل بأن تؤيده إيران وتساعده في الوصول إلى العرش . فحضر إلى بلاط « فتح علي شاه » وشارك الإيرانيين في الحرب التي وقعت بعد ذلك بين إيران وروسيا وظل مقيماً في إيران إلى أن توفي في طهران ، ودفن في الكنيسة القديمة الواقعة في خارج بوابة شاه عبد العظيم .

ولم يطل ملك « جيورجي » كثيراً فمات في ٢٨ كانون الأول سنة ١٨٠٠م الموافق ١٠ شعبان سنة ١٢١٥ هـ في تقليس . وطلب ابنه « داود » الملك لنفسه . ولكن « جيورجي » كان ، قبل موته قد عقد في سنة ١٧٩٩ م الموافقة سنة ١٢١٤ هـ معاهدة بينه وبين قيصر روسيا « بولس » تقضي بأن يكون القيصر الروسي هو ملك « كرجستان » وأن يكون لأعقاب « جيورجي » عنوان « نائب الملك » فيها .

وبعد مدة قليلة قتل رجال البلاط الروسي القيصر « بولس » ونصبوا مكانه على العرش ابنه « ألكساندر الأول » في ٢٤ آذار سنة ١٨٠١ م الموافق

---

(١) ذكر سعيد نفيسي في كتابه « تاريخ إيران الاجتماعي والسياسي أن النهر الذي يمر في « تفليس » اسمه « كور » لا « أرس » وأن المؤرخين الإيرانيين أخطأوا في تسميته .

(٢) راجع ترجمة آغا محمد خان قاجار في مكانها من المستدركات .

٩ ذي القعدة سنة ١٢١٥ هـ . وكان « بولس » قبيل مقتله قد أصدر في ١٨ كانون الثاني سنة ١٨٠١ م الموافق ٣ رمضان سنة ٢١٥ هـ . مرسوماً باعتبار « كرجستان » جزءاً من امبراطوريته . وذكر في هذا المرسوم أن أعيان « كرجستان » قد طلبوا منه أن يقبل بهذا الأمر . ولذلك أمر عساكره باحتلالها . وعلى هذا تكون « كرجستان » قد أصبحت إحدى ولاياته قبل جلوس « ألكساندر الأول » بشهرين وبضعة أيام .

كان سكان تلك البلاد في نواحي نهر « أرس » ، من مسلمين وأرامنة وكرج من قديم الزمان يختلط بعضهم ببعض ولم تكن الحدود بين « كرجستان » و « أرمينيا » وبلاد المسلمين ، وهي « كنجة » و « إيروان » و « نخجوان » و « داغستان » و « شروان » ثابتة متميزة . وكلما استولى ملك من ملوكها أغار على بلاد آخر واقتطع قسماً مما يجاوره منها فضمه إلى ملكه . فطوراً ملوك الكرج وطوراً ملوك الأرمن . وغالب التفوق كان للملوك المسلمين فإذا ذكرت « كرجستان » يومئذ لا تعرف الحدود التي ينتهي إليها مجالها . وكذلك « أرمينيا » . ولذلك كان وضع يد روسيا على « كرجستان » يومئذ يطال أيضاً بعض النواحي المجاورة .

ولم يغير موت « كاترين » و « هيراكليوس » و « جرجين » و « آقا محمد خان » شيئاً من أوضاع « كرجستان » . فظل الكرج غير راضين عن إيران . والبلاط الروسي يطمع فيها وفي ما يجاورها من النواحي . ويوم استدعى القيصر « بولس » عسكره من « كرجستان » وأوقف محاربة إيران ، لم تعين الحدود بين الفريقين بمعاهدة ، وظلت هذه الحدود مبهمة ، وظل كل من الفريقين على ما كان عليه من دعاوى ومطامع .

وفي ١٥ أيلول سنة ١٨٠١ م الموافق ٧ جمادى الأولى سنة ١٢١٦ هـ ، أي بعد ثمانية أشهر تقريباً من صدور مرسوم القيصر « بولس » ، أصدر القيصر « ألكساندر الأول مرسوماً آخر باعتبار « كرجستان » جزءاً من أرض روسيا ، بل أنه في هذه المرة أغفل ذكر « نيابة الملك » في كرجستان » . ودخل الجيش الروسي إلى ذلك الإقليم وتحول إلى ولاية من ولايات روسيا . وفرضت عليه اللغة الروسية وقوانين روسيا وعاداتها ورسومها . ومن عارض هذا العمل من الكرج اعتقل وقضي عليه . وأجاب الروس على اعتراض إيران بجواب قاس عنيف .

وبعد صدور هذا المرسوم الثاني بالحاق « كرجستان » بالأمبراطورية الروسية أرسلت الحكومة الروسية الجنرال « تيتسيانوف » إلى «تفليس » حاكماً على « كرجستان » .

ظل « فتح علي شاه » من مبدأ تملكه إلى مدة خمسة أشهر أو ستة أشهر مشغولاً بما قام في وجهه من فتن وثورات داخلية ، غير قادر على أن يقوم بعمل يقتضيه ما كان يقع في تلك النواحي من نهر « أرس » . فلم يلق جيش القيصر مقاومة في « كرجستان » سوى ما كان يقوم به « إسكندر » بن « هيراكليوس » الذي نازع أخاه على الملك من تحريض الناس في أطراف « كرجستان » على مقاومة الدولة الروسية المحتلة . ووقعت حوادث مقاومة في ناحية « قراباغ » وامتدت إلى داخل « كرجستان » .

وأرسل القيصر كتيبتين من العسكر بقيادة الجنرال « كوليسكوف » والجنرال « لازاروف » إلى « تفليس » لإخماد هذه الثورة ، فأوقعا في المقاومة هزيمة كبيرة .

ونقل «نفيسي» عن «عبد الرزاق بيك مفتون الدنبلي» مؤرخ بلاط « فتح علي شاه » أن الجنرال « تسيتسيانوف » أسر « ده ده فال » زوجة « جرجين » بعد وفاة زوجها وأسر بعض أبنائها وأرسلهم إلى العاصمة الروسية . وكان قبل ذلك قد أرسل إلى « ده ده فال » الجنرال « لازاروف » ليدعوها إلى السفر إلى العاصمة الروسية . فلما اقترب منها طعنته بسكين كانت تخفيها فقتلته . ولذلك أسرها « تسيتسيانوف » وأرسلها إلى العاصمة . وذكر لك المؤرخ أيضاً أن ابنها الأمير « تيموراز » فر من « كرجستان » ولجأ إلى إيران .

واقتضت استراتيجية « تسيتسيانوف » في احتلاله إقليم « كرجستان » أن يحتل أيضاً ناحية « كنجة » وناحية « إيروان » . فأرسل إلى « جواد خان قاجار » حاكم « كنجة » من قبل إيران ، يطلب منه أن يرسل إليه خراج تلك الناحية السنوي فبادر الحاكم إلى إخبار البلاط الإيراني بما طلبه منه « تسيتسيانوف » . فأرسلت إليه الحكومة الإيرانية من طهران جيشاً ينجده . ولكن ، قبل وصول هذه النجدة ، كان « تسيتسيانوف » يحاصر « كنجه » في شهر كانون الأول سنة ١٨٠٣ م الموافق رمضان سنة ١٢١٨ هـ .

وعجز الحاكم عن الدفاع ووقع خلاف بينه وبين أحد رؤساء عسكره . وخانه أرامنة « كنجة » فسلموا إلى الروس . وفي فجر الأول من شوال من تلك السنة هجم الروس على قلعة المدينة ودارت معركة استمرت ثلاث ساعات وقتل فيها « جواد خان » حاكم « كنجه » وأحد أبنائه ، واحتل العسكر الروسي المدينة ، وأوقع بأهلها مذبحة عظيمة . بل إنهم غيروا اسمها فسموها « اليزابت بول » باسم « اليزابت بتروفنا » بنت « بطرس الكبير»[1] .

وفي أيام تلك الواقعة كان « فتح علي شاه » مشغولاً بحرب في خراسان . وفي نفس اليوم الذي فتح فيه مدينة « مشهد » وصله خبر سقوط مدينة « كنجة » بيد الروس . وكانت هذه الواقعة مبدأ سلسلة من الحروب بين إيران وروسيا دامت مدة عشر سنوات تقريباً وانتهت بمعاهدة عرفت باسم « معاهدة گلستان » .

وبعد قليل من هذه الواقعة نشب الخلاف بين روسيا و « نابليون » . وارتأى « نابليون » أن يتقرب من إيران ليشغل بها روسيا . وأمل « فتح علي شاه » أن يتغلب على روسيا ويسترد منها ما اغتصبته من أرض إيران بمعاونة « نابليون » له .

وكانت روسيا غير قادرة على أن تحشد في القفقاس من الجند أكثر مما حشدته ، إذ كانت مضطرة إلى إبقاء قسم كبير من جيشها في أوروبا لمحاربة « نابليون » . ولذلك لم تكن قادرة على القيام بحملة حاسمة في الجبهة الإيرانية .

وأدرك البلاط الإيراني شيئاً فشيئاً أنه عاجز عن المقاومة ، وأن صلاح أمره أن لا يشتد في المحاربة ،وكان أميل إلى أن يتوصل إلى غايته بوساطة من « نابليون » .

(١) ملكت على روسيا من سنة ١٧٤١ إلى سنة ١٧٦٢ م الموافقة سنة ١١٥٤ ـ ١١٧٦ هـ . وفي مطلع الانقلاب البلشفي أعاد الروس إلى تلك المدينة اسمها الأول « كنجة » . ثم غيروا اسمها فسموها « كيروف آباد » باسم أحد زعماء الانقلاب « كيروف » .

وبسبب وضع البلدين ، إيران وروسيا ، العسكري هذا كان أكثر الوقائع من تلك الحرب التي دامت عشر سنوات ، يقتصر على مناوشات محلية متقطعة ضيقة المجال ، إلى أن أمنت روسيا جانب « نابليون » وأصبحت خلية البال من جهة أوروبا . وعندئذ حشدت كل قواها العسكرية في القفقاس . وسيأتي تفصيل ذلك .

غزو « إيروان »

لما بلغ « فتح علي شاه » نبأ احتلال الروس لمدينة « كنجه » جهز في ٢٨ ذي القعدة سنة ١٢١٨ هـ جيشاً وجعل قيادته العامة لابنه « عباس ميرزا » نائب الملك ، وكان أكثر إخوته كفاءة . وارتأى « فتح علي شاه » أن يذهب بنفسه إلى أذربيجان ليكون قريباً من ميدان الحرب ، وينجد المحاربين بمدد عند اللزوم . وسار « عباس ميرزا » بجيشه من تبريز في الرابع عشر من شهر صفر سنة ١٢١٩ هـ قاصداً إلى « إيروان » . وعسكر على شاطىء نهر « زنجي » .

وكان الجنرال « تسيتسيانوف » قد سار ، بعد احتلاله « كنجه » ، قاصداً « إيروان » . فوصل إلى قربها يوم الأحد ١٩ ربيع الأول سنة ١٢١٩ هـ . وأراد احتلال مدينة « إتشميازين » التي فيها مركز الجاثليق الأرمني وتعد أهم مركز ديني للأرمن . فلما بلغ ذلك إلى « عباس ميرزا » سار إليه بفرقة من عسكره وهاجمه بالقرب من « إتشميازين » . ووقعت بين العسكرين جولات من الحرب دامت ثلاثة أيام لم ينتصر فيها أحد منهما على الآخر . فتركا القتال وعاد كل منهما إلى معسكره ، وقد قتل جماعة وأسر آخرون من الطرفين . وكان بين من أسرهم الإيرانيون جماعة من القوزاق والروس .

ويومئذ كان على « إيروان » حاكم اسمه « محمد خان قاجار » ، وكان قد انحاز إلى الروس . فلما رأى أنهم لم يتقدموا في هذه الحرب أراد أن يصانع الإيرانيين . فأرسل إلى المعسكر الإيراني رسالة يطلب فيها حضور الوزير « الميرزا محمد شفيع » إلى قلعة « إيروان » لمفاوضته . فذهب إليه وأعلن الحاكم له بطاعته لحكومة إيران وأرسل ابنه مع هدايا إلى « عباس ميرزا » ، وتعهد بأن لا يعصي له أمراً .

ولما بلغ ما فعله حاكم « إيروان » إلى الجنرال « تسيتسيانوف » بادر إلى مفاجأة الجيش الإيراني بالهجوم عليه ، واستؤنفت الحرب مرة أخرى .

وفي هذه الأثناء تمرد بعض من كان في الجيش الإيراني من فرسان « شمس الدين لو » والقوزاق ، وأغاروا على مؤخرته . ووقعت البلبلة في جيش « عباس ميرزا » وفر جنوده منهزمين . وبذلك خلت الطريق أمام « تسيتسيانوف » فدخل إلى « إيروان » وجعل من مسجدها معسكراً له ونصب عليه المدافع مواجهة للقلعة حيث يقيم الحاكم « محمد خان قاجار » وشرعت الحرب بينهما .

واضطر « عباس ميرزا » إلى الذهاب إلى أبيه « فتح علي شاه » وكان يقيم في « السلطانية » بالقرب من « زنجان » فروى له تفاصيل الوقائع . فأرسل « فتح علي شاه » نجدة من الجنود الخراسانيين بقيادة « إسماعيل بيك » الدامغاني ، وسار هو أيضاً في أثرهم حتى التحقوا بمعسكر « عباس ميرزا » على بعد ثلاثة فراسخ من « إيروان » فحمل بهم « عباس ميرزا » على المدينة ودارت الحرب في مقابل مسجد « إيروان » إلى الليل .

وفي الصباح نبه « محمد خان قاجار » حاكم المدينة « فتح علي شاه » إلى أن حراس القلعة هم من الأرمن ويخشى أن ينحازوا إلى الروس لما بينهم وبين الروس من رابطة الدين . فبعث « فتح علي شاه » بجماعة من جنده إلى القلعة فاحتلوها .

ورأى « تسيتسيانوف » أن يبيت جيش « فتح علي شاه » . ولكن « حسن خان يوزباشي » قائد طليعة الجيش الإيراني علم بقراره فأخبر به « فتح علي شاه » ، فاستعد له وهيأ جنوده للمقاومة وقبيل الفجر ، إذ اقترب الروس منهم ، دارت معركة شديدة . ولكن الروس لم يحصلوا على فائدة فتفرقوا منهزمين . وتتبعهم العسكر الإيراني إلى أن أمرهم « فتح علي شاه » بمحاصرتهم ومنع وصول الطعام إليهم .

ووقعت أيضاً معركتان في مكانين آخرين انهزم الروس فيهما . وفي إحداهما فقد الروس أربعة آلاف جندي بين قتيل وأسير . وأمر « فتح علي شاه » ببناء منارة إلى جانب المعسكر من رؤوس القتلى منهم .

بعد هذه الواقعة سار الجنرال « تسيتسيانوف » في أول ربيع الثاني سنة ١٢١٩ هـ عائداً إلى « تفليس » . إذ كان فصل الشتاء قريباً . وتتبعه الجنود الإيرانيون عدة مرات فأسروا منه وغنموا . وعلى هذا النحو انتهت حرب تلك السنة .

ثم نصب « فتح علي شاه » حكاماً على تلك النواحي . ومنهم « محمد خان قاجار » أقره على عمله السابق حاكماً على « إيروان » وأعاد إليه ابنه الذي كان قد أرسله رهينة إلى « عباس ميرزا » . وسار فتح علي شاه » بعد ذلك من تبريز عائداً إلى طهران فوصلها في ١٤ رجب سنة ١٢١٩ هـ . ومعه « عباس ميرزا » .

حروب سنة ١٢٢٠ هـ

بعد ذلك استبقى « فتح علي شاه » ابنه « عباس ميرزا » في معيته في طهران مدة . وفي ربيع سنة ١٢٢٠ هـ أرسله إلى أذربيجان ليتابع محاربة الروس . وأرسل معه « القائمقام الميرزا عيسى الفراهاني » مساعداً ومشاوراً . وكان هذا من رجال بلاطه العارفين الخبيرين بشؤون الحكم ..

وغادر « عباس ميرزا » طهران في ١٤ صفر سنة ١٢٢٠ هـ وفي ٢٤ صفر من تلك السنة لحق به « فتح علي شاه » وأقام في « السلطانية » . ومن هناك أرسل بعض الأمراء والحكام إلى بعض النواحي من أذربيجان لاستكمال تدابير « عباس ميرزا » العسكرية . ثم ذهب إلى « أوجان » في ١٣ ربيع الأول من تلك السنة .

وهناك بلغ إلى « فتح علي شاه » خبر بأن « إبراهيم خليل خان » حاكم « قراباغ » بالإرث من سنة ١١٧٧ هـ قد خلع طاعة إيران وحالف روسيا . فأمر ابنه « عباس ميرزا » بأن يبدأ بمحاربته ويستولي على قلعة « فتاه آباد » . فلما علم « إبراهيم خليل خان » بذلك أرسل إلى « تسيتسيانوف » ـ وكان في « كنجه » ـ ليستنجد به فأرسل إليه هذا فرقة عسكرية لنجدته . وبعث « عباس ميرزا » جيشاً بقيادة « إسماعيل خان » الدامغاني إلى حربه . والتقى الجيشان على بعد أربعة فراسخ من جسر « خدا آفرين » الذي على نهر

« أرس » . ووقعت حرب بينهما ، وكاد الإيرانيون ينهزمون لولا أن خف « عباس ميرزا » . لما علم بذلك ، إلى نجدتهم ، فحميت بينهم حرب شديدة انهزم فيها الروس وجنود « قراباغ » وفروا إلى « شوشي » . وكان فرارهم شاقاً لاضطرارهم إلى سلوك أرض مكتظة . بالشجر . وتعقبهم « عباس ميرزا » إلى « آق أغلان » وغنم منهم كثيراً . ثم نصب من قبله أحد رجاله على « آق أغلان » وعاد إلى « فناه آباد » ليحاصرها .

وفي أثناء عودته التقى بالروس وأعوانهم من الكرج في عدة مواضع ووقعت بينه وبينهم معارك شديدة انتصر فيها « عباس ميرزا » ورجاله كلها .

وقد مر أن « محمد خان قاجار » حاكم « إيروان » كان قد خان ودخل في طاعة الروس ، ثم أعلن بالتوبة وأرسل ابنه رهينة عند « عباس ميرزا » ، فعفا عنه « فتح علي شاه » وأعاد إليه ابنه وأقره على عمله السابق في حكومة « إيروان » .

ولكن هذا الحاكم عاد فنقض توبته ودخل في طاعة الروس مرة أخرى . فسار إليه « إسماعيل خان شام بياتي قاجار » حاكم مدينة « خوي » بأمر من « فتح علي شاه » ، واستطاع أن يحتل قلعة «إيروان» ويعتقل هذا الحاكم .

الحرب في « جيلان » وبحر الخزر

في سنة ١٢٢٠ ، والجيش الإيراني مشغول بمحاربة الروس وعساكر « تسيتسيانوف » في أذربيجان وصل إلى المسؤولين الإيرانيين خبر بوقوع أحداث في « جيلان » .

فقد أراد الجنرال « تسيتسانوف » وكان يقيم في « كنجة» أن يشغل الجيش الإيراني بجبهة أخرى . فعهد إلى واحد من أمهر ضباطه اسمه « شيفت » أن يقوم بحملة على « جيلان » بمساعدة أسطول بحر الخزر . وأنزلت اثنتا عشرة سفينة روسية قوة عسكرية على ساحل البحر في أرض « طالش » ، ومنها شنت حملة على مرفأ « أنزلي » . وإذ كان المحافظون على المرفأ غير قادرين على المقاومة لعدم التكافؤ بينهم وبين المغيرين ، فقد اضطروا إلى الفرار إلى « رشت » . واحتل العسكر الروسي « أنزلي » لا يلقى مقاومة . ومنها سار قاصداً إلى « رشت » .

ولكن «الميرزا موسى منجم باشي » اللاهيجي حاكم « جيلان » جهز جيشاً ، وأقام استحكامات عسكرية له في « فيره بازار » وتصدى للمغيرين بالمقاومة ، ونشبت بينهما معركة شديدة قتل فيها من الروس ألف جندي ، وفر من سلم منهم راجعاً على أعقابه إلى « أنزلي » ومنها أبحروا على السفن التي جاؤوا عليها عائدين إلى روسيا ، ولم تستفد روسيا من هذه الحملة شيئاً .

حروب أخرى

وكان الجنرال « تسيتسيانوف » قد اضطر إلى إنجاد أحد قواده في إحدى المعارك . فاضطر لذلك إلى الخروج من « كنجة » بالنجدة المطلوبة . فلما عرف « فتح علي شاه » بخروجه أمر « عباس ميرزا » بمهاجمة « كنجة » فهاجمها واحتلها ، ولكن الروس تحصنوا في قلعتها ، وكانت مؤونتهم كافية لحصار طويل على حين كان سكان المدينة تعوزهم المؤونة فاضطر إلى حمل فريق منهم إلى تبريز وغيرها لتوفير المؤونة لهم . ووقعت بينه وبين الروس معارك في نواحي أخرى انتصر فيها . ولكنها كانت حرباً غير حاسمة .

وفي إحدى هذه الوقائع تعرض « عباس ميرزا » لكمين إقامة كرجيون من أتباع الروس ، وأطلقوا عليه رصاصة أصابت (جزمته) ولم تؤذه .

ثم عاد « فتح علي شاه » إلى طهران وذهب « عباس ميرزا » إلى تبريز ، وأرسل « محمد خان قاجار » حاكم « إيروان » الخائن إلى طهران إلى بلاط أبيه .

احتلال الروس لقلعة « شوشي »

ورأى « تسيتسيانوف » أن الجند الإيرانيين قد تركوا الميدان خالياً بسبب فصل البرد . فعزم على احتلال قلعة « شوشي » مقر حاكم ولاية « قراباغ » ، وكان حاكمها يومئذ « إبراهيم خليل خان » . فطلب منه « تستيسيانوف » أن يريه القلعة حيث يسكن الحاكم وأن يكون ضيفاً عليه وكانت خدعة منه . ولكن الحاكم صدقه ودعاه إلى القلعة ، فدخلها وأقام فيها أربعمائة جندي يحتلونها ، وبذلك وضع يده عليها وخرجت من يد « إبراهيم خليل خان » ، ثم سار منها إلى « كنجة » .

ويومئذ أرسل حكام « قبة » و « دربند » و « بادكوبا » رسالة إلى « عباس ميرزا » قالوا فيها إن العقيد الروسي « شيفت » المذكور آنفاً لا بد من أن يغير ، وهو عائد من « جيلان » ، على « باكو » . فيجب إرسال نجدة تصده عنها . فأرسل « عباس ميرزا » فرقة من الفرسان والمشاة لهذه الغاية .

وأرسى العقيد « شيفت » أسطوله في مقابل « باكو » ودارت معركة شديدة بينه وبين العسكر الإيراني ، ثبت فيها « حسين قلي خان » حاكم « بادكوبا » بكل شجاعة ، واستطاع أن يغرق بضع سفن من الأسطول الروسي ضرباً بالمدافع . ثم نزل العسكر الروسي إلى الساحل وهجموا على المدينة . ودامت الحرب بضعة أيام رأى العقيد « شيفت » بعدها أن النصر غير متيسر له ، فعاد بجنده إلى السفن ، ورحل عن المدينة .

من جهة أخرى سار « تسيتسيانوف » من « كنجة » قاصداً إلى « شروان » . فأرسل « مصطفى خان الشرواني » حاكم « شروان » خبراً بذلك إلى « عباس ميرزا » . فأرسل هذا إليه نجدة بقيادة « بيرقلي خان قاجار» . فلما وصلت النجدة إلى شاطىء نهر « كر » على بعد اثني عشر فرسخاً من « شروان » وصل إلى قائدها « بيرقلي خان قاجار » خبر بأن « مصطفى خان الشرواني » حاكم « شروان » قد دفعه الخوف إلى مفاوضة الجنرال « تسيتسيانوف » على الصلح وأنه قد اجتمع به . وأن « تسيتسيانوف » قد سار ، ومعه « مصطفى خان الشرواني » قاصداً إلى « باكو » للانتقام من « حسين قلي خان » حاكم « بادكوبا » وهازم العقيد الروسي « شيفت » . وأن العقيد « شيفت » قد التحق به بمن بقي معه من جنوده .

ولما بلغت هذه الأخبار إلى « عباس ميرزا » بادر إلى إرسال « حسين قلي خان » مع جماعة من الجند إلى « باكو » وأتبعه بنجدات أخرى من الفرسان والمشاة والمدافع . ثم لحق بهم ، وكان في تبريز ، في ٢٢ ذي القعدة سنة ١٢٢٠ هـ . عن طريق « أردبيل » . وفي « أردبيل » وصلته تقارير بأن قواد جنده قد استقروا في أماكنهم الإستراتيجية متهيئين . ووصله خبر أيضاً بأن الجنرال « تسيتسيانوف » يكابد من مشقات كثيرة بسبب شدة البرد وقلة الزاد .

مقتل « تسيتسيانوف »

أما واقعة مقتل « تسيتسيانوف » قائد الجيش الروسي فقد حدثت على هذا النحو :

لما اقترب تسيتسيانوف » من « باكو » اشتد برد الشتاء وهطلت أمطار وثلوج كثيرة . ونفق كثير من دوابه التي تنقل مدافعه وأعوزه الطعام والعلوفة ، فوقع في مضيقة لا يدري ما يفعل . ووقع « مصطفى قلي خان » الشرواني و«حسين قلي خان قاجار» المكلفان بالدفاع عن « باكو » في مثل ما وقع فيه « تسيتسيانوف » من ضيق . وانتهى أمر الطرفين المتحاربين إلى أن تقرر أن يجتمع « حسين قلي خان » و « تسيتسيانوف » في خارج المدينة للتفاوض على إيقاع الهدنة . ولكن « حسين قلي خان » كان قد بيت أمراً للغدر بخصمه « تسيتسيانوف » . فقد تقرر أن يرافقه في هذا الاجتماع ثلاثة من رجاله ، وكان منهم ابن عمه « إبراهيم خان قاجار » . فواطأه على اغتيال « تسيتسيانوف » في أثناء الاجتماع فلما جلسوا للمفاوضة كان مجلس « إبراهيم خان قاجار » وراء الجنرال « تسيتسيانوف » . وفيما الجنرال و«حسين قلي خان قاجار » يتبادلان الحديث ، أشار هذا إلى « إبراهيم خان » إشارة متفقاً عليها بينهما ، فأطلق من بندقية كانت في يده على ظهر « تسيتسيانوف » رصاصة مرقت من صدره فوقع قتيلاً وقتلوا مرافقيه أيضاً . ثم احتزوا رأسه وأرسلوه إلى طهران . وكان قتل « تسيتسيانوف » في شهر ذي الحجة سنة ١٢٢٠ هـ بهذه الخدعة . ولم يجد جنده بداً من العودة إلى قواعدهم .

نتيجة الحروب الأولى

هذه الحروب الأولى التي دامت إلى آخر سنة ١٢٢٠ هـ لم تنته إلى نتيجة حاسمة . وقد اشتركت فيها نخبة من الضباط الروس المجربين . واشتهر في إيران أن « مرتضى قلي خان قاجار » آخا « آقا محمد خان قاجار » كان يساعد الجيش الروسي هذا في السر في بلاد القفقاس . وكان قد خاصم أخاه ثم فر خوفاً منه إلى روسيا لاجئاً وأقام في « بطرسبورغ » من سنة ١٢١١ هـ .

والنتيجة المهمة التي ترتبت على هذه الحرب هي مقتل الجنرال الأمير « تسيتسيانوف » . وبعد مقتله وقعت حادثة مهمة أخرى هي أن « جلاسينوب » أحد قواد الجيش الروسي حاصر مدينة « دربند » . وبعد حرب وقعت بينه وبين القائد « علي خان » استطاع أن يحتل تلك المدينة . وقد ألحق الاحتلال الروسي لمدينة «دربند» بإيران ضرراً جسيماً . ولا يقتصر الضرر على أن هذه المدينة هي بوابة بحر الخزر بل يتعداه أيضاً إلى أن سواحلها المرتفعة مشرفة إشرافاً كاملاً على أذربيجان و « مقان » . وهي مركز عسكري مهم جداً لمن يحاول الاستيلاء على تلك النواحي .

سياسة إيران في هذه الأحداث

في كل هذه الحروب اقتصرت وسيلة إيران في منازلة الروس على القوى العسكرية التي لها في القفقاس ، وتحريض الأعيان من مسلمي تلك النواحي على مقاومة الروس بقواهم العسكرية الخاصة وأحياناً ببذل أموالهم الخاصة . وكانت عدتها للحصول على معونتهم هي اندفاعهم إليها بما يفرقهم عن الروس من اختلاف في العرق وفي الدين فقط ، من غير أن تمدهم بشيء من المساعدة .

ولكن لما اشتدت الأمور ، اضطر « عباس ميرزا » نائب الملك إلى الخروج من تبريز بعشرين ألف مقاتل وعبور نهر « أرس » إلى تلك النواحي . إلا أنه لم يصنع شيئاً ، وكان يلقى الهزيمة في أكثر محارباته . وامتدت هذه الحروب إلى سنة ١٢٢٨ هـ ووقعت فيها مناوشات ، منها الكبير ومنها الصغير ، في نواحي مختلفة مما وراء نهر « أرس » . هذا وبلاط طهران لا ينفك يوالي التجهيزات العسكرية وإرسالها إلى نواحي القفقاس ، والمعارك تنشب هنا وهناك . ولكن النتائج كانت ، بوجه الإجمال ، خسارة على إيران .

ومع ذلك فإن « فتح علي شاه » كان مغروراً مطمئناً إلى أنه متغلب على الروس لا محالة ! ولذلك ارتكب خطأ لا يرجى إصلاحه ، إذ رفض كل طلب للصلح تقدمت به روسيا إلى إيران ، وكان يجيب أحياناً على مثل هذا الطلب بأجوبة قاسية غليظة ، لجهله بأوضاع العالم العامة والأمور السياسية والعسكرية في ذلك العصر .

من ذلك أن الفتوحات التي حصل عليها « نابليون » في سنة ١٢٢٠ هـ الموافقة سنة ١٨٠٦ م حملت روسيا على إلقاء السلام إلى إيران لتطمئن من جهتها ، وتتفرغ لمعالجة أمورها في أوروبا فأرسلت في ٢٥ ذي القعدة سنة ١٢٢٠ هـ الموافق ١٤ شباط سنة ١٨٠٦ م من قبلها سفيراً إلى طهران اسمه « استيفانوف » ، يعرض الصلح على إيران . ولكن البلاط الإيراني لم يعتن به ولا اهتم باقتراحه . وكان لممثلي « نابليون » في بلاط « فتح علي شاه » أثر كبير في حمله على اتخاذ هذا الموقف وأقام ذلك السفير الروسي في طهران مدة شهرين اثنين ويوم واحد لا يحصل على نتيجة . فغادر طهران في ٢٦ المحرم سنة ١٢٢١ هـ الموافق ١٦ نيسان سنة ١٨٠٦ م عائداً إلى بلاده . وكل ما حصل عليه هو وعد من « فتح علي شاه » بأنه يتوقف عن المحاربة ما توقفت عنها روسيا .

ويتضح من هذا أن إيران ذهبت في هذه المنازعات ضحية السياسة الفرنسية ومنافعها . فقد كان صلاح أمر « نابليون » في أن تكون قوى روسيا متفرقة بأن يبقى فريق من جيشها مرابطاً في القفقاس في وجه إيران لا يشارك في حروب أوروبا . وبذلك تضعف مقاومتها لـ « نابليون » فيتمكن من التغلب عليها . ولذلك حرض البلاط الإيراني على رفض المصالحة . وإنقاد البلاط له متبعاً خطة فجة واهية ، لجهله بالأوضاع العالمية وجهله بما عليه روسيا القيصرية من قوة عسكرية ، وضيع الفرص المؤاتية وأصبح آلة طيعة بيد « نابليون » . وكانت نتيجة ذلك أن تصبح إيران في كل حرب تخوضها أضعف من سابقتها وأكثر خسارة لأرضها .

الجهاد

مع شروع البعثة العسكرية الانكليزية بتدريب الجيش الإيراني شرع السفير الإنكليزي « السير غور أوزلي » بمساعي لإيقاع الصلح بين الشاه والقيصر ، بموافقة كل من إنكلترا وروسيا .

وكان السفير الإنكليزي يقيم في تبريز إذ كانت السنة المتبعة يومئذ أن يقيم سفراء الدول الأجنبية في تبريز بعد تقديم أوراق اعتمادهم إلى « فتح علي شاه » في طهران .

وكان من القواد العسكريين الذين أرسلتهم روسيا إلى محاربة إيران قائد مقتدر هو الجنرال « كوتليارفسكي » . وفي ٢٠ تشرين الأول سنة ١٨١٢ م

الموافق ١٣ شوال سنة ١٢٢٧ هـ هاجم هذا الجنرال « عباس ميرزا » وهو معسكر عند « أصلان دوز » وشاركه في هذا الهجوم « مهدي خان » حاكم « قراباغ » الإيراني - وكان قد انحاز إلى الروس - ومعه ألفا فارس من القراباغيين .

وأوقع « كوتليارفسكي » بجيش « عباس ميرزا » هزيمة نكراء . فاضطر « فتح علي شاه » في سنة ١٨١٢ م الموافقة سنة ١٢٢٧ هـ ، وكان يقيم في « السلطانية » ، إلى طلب الصلح بواسطة السفير الإنكليزي « السير غور أوزلي » وقام هذا بمفاوضة الجنرال « رتيشتشوف » القائد العام للجيش القيصري الذي في « كرجستان » وحاكم الأقاليم الإيرانية المحتلة العسكري ممثلاً للقيصر ومفاوضة « عباس ميرزا » ولي العهد ممثلاً للشاه . ولكن هذه المفاوضات لم تأت بنتيجة إيجابية ، إذ أصرت إيران على استرداد كل الأقاليم التي احتلتها روسيا ، وأصرت روسيا على التمسك بها وإلحاقها بأرضها . ووقعت في أثناء ذلك مناوشات حربية أخرى انتهت إلى هزيمة الإيرانيين .

ويومئذ طرح موضوع إعلان الجهاد للبحث . وقد روى المؤرخ الفرنسي « جان يونير » هذا الأمر في كتابه « أبطال إيران المجهولون في محاربة روسيا القيصرية »[1] على هذا النحو ، ننقله ملخصاً :

قبل حضور السفير الإنكليزي « السير غور أوزلي » إلى السلطانية إجابة لطلب « فتح علي شاه » حضر إلى إيران جماعة من علماء الدين الشيعة المقيمين في النجف وكربلاء وسامراء وغيرها من بلاد العراق .

وسبب حضورهم هو أن جماعة من مسلمي الولايات التي احتلتها روسيا في شمال إيران قدموا إلى العراق وشكوا إلى المراجع الدينية فيه ما يلقاه مسلمو تلك الولايات من جور الجنرال الروسي « رتيشتشوف » حاكم تلك الولايات العسكري . ومن ذلك منعهم من إقامة شعائرهم الدينية ، وإجبارهم على الخضوع لقوانين مذلة جائرة .

فارتأى « الشيخ محمد حسين النجفي » وغيره من مراجع الدين العراقيين مباحثة مراجع إيران في موضوع إعلان الجهاد . فحضروا إلى إيران لهذه الغاية . وحضر معهم من كان قد هاجر إليهم من مسلمي القفقاس .

وحين وصولهم إلى طهران كان « فتح علي شاه » قد عاد إليها حديثاً من « السلطانية » بعد تلك المفاوضات الطويلة بينه وبين السفير الإنكليزي . فاستقبلهم استقبالاً حسناً ، وأكرم مثواهم . ووافقهم على إصدار فتوى بالجهاد وأرسل « الشيخ محمد حسين النجفي » رسائل إلى رجال الدين المقيمين في الولايات يطلب منهم إصدار فتوى بوجوب الجهاد ، فأجابوه بالإيجاب .

وكان « فتح علي شاه » يعلم أن استصدار فتوى بالجهاد من العلماء أمر ممكن . ولكنه كان يعلم أيضاً أن إنفاذ هذه الفتوى أمر صعب . فالإيرانيون ، وإن كانوا لا تنقصهم الشجاعة والثبات والفداء ، ينقصهم المال والسلاح والعلم بفنون الحرب ، إذ لم يسبق أن تلقنوا تربية عسكرية حسب الأصول الحديثة . فهم لذلك غير قادرين على معاركة الجيش الروسي المدرب المسلح بالأسلحة الحديثة . ومع ذلك فإن موافقة رجال الدين على الإعلان بالجهاد أفادت « فتح علي شاه » فائدة اجتماعية وسياسية . فقد قوت مكانته في الداخل من جهة ، ووضعت ، من جهة أخرى ، في يده سلاحاً دبلوماسياً هو التهديد بالجهاد في مفاوضاته السياسية للصلح .

ولم يكن في يد « فتح علي شاه » سوى وسيلة وحيدة للتغلب على الروس واسترداد الأقاليم الإيرانية التي احتلوها ، وهي تجنيد رجال العشائر ، إذ كانوا أكفاء لهذا الأمر . وهذا شيء اعترف به الإنكليز والروس كلاهما . وذلك لما كان يتحلى به رجال العشائر من حماسة وشجاعة فائقة وصبر على الشدائد . وفي أحد تقارير الجنرال « غاردان » إلى « نابليون » وصف رجال العشائر الإيرانية بأنهم أحسن جنود الدنيا ، واعترف بأنهم أفضل من العسكر الفرنسي . هذا مع التنبيه إلى شدة اعتزاز الفرنسيين بعسكرهم واعتقادهم بأن لا جندي فوق الجندي الفرنسي .

ولكن تجنيد رجال العشائر يحتاج إلى المال . ولم يتمكن « فتح علي شاه » من توفير المال اللازم ، إما لشحه وإما لفقره .

وبدأ التجنيد للجهاد . وخرجت أول كتيبة من المجاهدين من طهران وسارت إلى قزوين لتتخذ طريقها من هناك إلى الولايات المحتلة . وإذ كان « فتح علي شاه » غير حاضر لبذل نفقات المجاهدين فقد أوعز إلى حاكم قزوين بإرجاعهم منها وإخبارهم بأن الشاه يتعهد بأن يخرج بتدابيره العسكرية « رتيشتشوف » من القفقاس ويريح مسلميها من شره ، فأعادهم الحاكم من قزوين . وأقنع « فتح علي شاه » الشيخ محمد حسين النجفي بالانصراف عن الجهاد وذلك بوعده له بأن يجند رجال العشائر لحرب « رتيشتشوف » ، فهم أكفأ لها من رجال المدن . وبذلك توقف « الشيخ محمد حسين النجفي » عن تجنيد الناس للجهاد . ولم يكن « فتح علي شاه » ، في الواقع عازماً على تجنيد رجال العشائر ، ولكنه وعد بهذا الوعد ليجعله وسيلة إلى صرف الأنظار عن إعلان الجهاد .

هذه خلاصة ما ذكره « جان يونير » عن قضية الجهاد التي طرحت يومئذ للبحث . أما « سعيد نفيسي » فلم يأت في كتابه « تاريخ إيران الاجتماعي والسياسي » على ذكر « الشيخ محمد حسين النجفي » ولا ذكر قضية إرجاع المجاهدين من قزوين . وأورد بحث موضوع الجهاد هذا على هذا النحو نقلاً عن مؤرخين إيرانيين . وننقل كلامه هنا ملخصاً :

أفتى المجتهدون يومئذ بأن أحكام الجهاد تجري على هذه المحاربة . وزيد في ألقاب الشاه وألقاب ولي العهد لقب « الغازي » و « المجاهد في سبيل الله » . وأرسل ولي العهد « عباس ميرزا » و « الميرزا عيسى الفراهاني » المعروف بلقب « القائمقام » ولقب « الميرزا الكبير » ، بعد استئذانهما « فتح علي شاه » ، اثنين من العلماء إلى النجف لاستفتاء المرجع الديني « الشيخ جعفر النجفي » وغيره من المجتهدين في موضوع الجهاد هذا .

فكتب « الشيخ جعفر » أن محاربة روسيا في هذه الأيام جهاد واجب على الجميع . وكتب غيره من مجتهدي العراق أيضاً مثل هذه الفتوى . وقد جمع « الميرزا عيسى الفراهاني » فتاوى المجتهدين هذه في رسالة خاصة .

وقام الوعاظ على منابر أذربيجان يحرضون الناس على الجهاد . وأقبل الناس على التطوع له . وقدر عدد المتطوعين للجهاد في أذربيجان بمائة ألف تقريباً .

---

(١) ترجمه إلى الفارسية « ذبيح الله منصوري » ، وما ننقله هنا هو عن هذه الترجمة .

هـذه خلاصـة ما ذكـره « سعيد نفيسي » . والـظاهر أن هـذه الحـركـة الجهادية لم تأت بنتيجة عملية .

معاهدة « كلستان »

بعـد الهزيمـة التي أوقعها الجنـرال « كـوتليـارفسكي » بجيش « عبـاس مـيرزا » في ٢٠ تشريـن الأول سنـة ١٨١٢ م المـوافـق ١٣ شـوال سنـة ١٢٢٧ هـ ، وخيبة المفاوضـات التي قام بهـا السفير الإنكليـزي « السير غـور أوزلي » اضطر « فتح عـلي شاه » في سنـة ١٨١٣ م الموافقـة سنة ١٢٢٨ هـ ، وقـد زحمتـه تلك الشـدائـد والأحـداث ، إلى إرسـال « أبـو الحسن خـان الشـيرازي » إلى « قرابـاغ » للحصول عـلى الصلح . والتقى هـذا بـالجنـرال « رتيشتشوف » في محلة « كلستان » في المعسكـر الروسي عنـد نهر « زيوه » من « قراباغ » . ووقعا معاهدة صلح بين إيران وروسيا في ١٢ تشرين الأول سنـة ١٨١٣ م الموافق ٢٩ شوال سنـة ١٢٢٨ هـ . وعرفت هـذه المعاهـدة بـاسم « معـاهـدة كلستـان » . وحضر تـوقيعهـا السفـير الإنكليـزي « السير غـور أوزلي » .

وبهذا انتهت تلك الحروب التي لم تحصل إيران منها على غـير الخسارة ، ودامت أكـثر من عشر سنوات ، من سنـة ١٢١٨ إلى سنة ١٢٢٩ هـ ، إلى أن لجأ البلاط الإيراني إلى إنكلترا لاخراجه من هذا المأزق .

وتقضي هذه المعاهدة بأن ما كان في يد إيران من أرض في هذا التاريـخ هو لإيران . وأن ما احتلته روسيا من أرض هو لروسيا . ويتعهد الطرفان بأن يبقى عسكـر كل منهـا حيث كان يـوم إمضاء هـذه المعاهـدة ، لا يتجـاوزه . ويكـون ما بـين العسكرين هـو الحدود الفـاصلة بين إيـران وروسيـا ، إلى أن تعين ، فيما بعد ، الحدود تعييناً دقيقاً واضحاً بين البلدين .

وكان هذا الإبهام في الحدود وفي مقتضيات معاهدة« كلستان » سبباً في تخطي إيران لهذه المعاهدة وادعائها الغبن ، وإقدامهـا على محـاربة روسيـا مرة ثانية . وكل ما حصل في هذه المعاهدة من فائدة هو إقامة سلام موقت متزلـزل مدة ثلاث عشرة سنة ، من ذلك التاريخ إلى سنـة ١٢٤٢ هـ . . . الموافقـة سنة ١٨٢٦ م ، بين إيران وروسيا .

ويتبين من هذه النتيجة أن أكثر أعمال الإنكليز إتقاناً في هـذه الوسـاطة إنما كان إبقاؤهم أصل الاختلاف قائماً بين الـدولتين غـير محسوم وتـرك الحدود على وضع مبهم لتبقى الطريق إلى حرب أخرى مفتوحة دائماً .

بعـد ذلك أرسلت إيـران « أبو الحسن خـان » الشيرازي سفيـراً لها إلى « بطرسبورغ » مع هدايـا نفيسة . ودخـل على القيصر رسميـاً في ٢٠ كانـون الأول سنة ١٨١٥ م الموافق ١٨ المحرم سنة ١٢٣١ هـ باحتفال فخم .

وفي سنة ١٨١٦ م الموافقة سنة ١٢٣١ هـ عزل القيصر الروسي الجنرال « رتيشتشـوف » عن منصب القائـد العام لجيش « كـرجستـان » ، ونصب في مكانه الجنـرال « الكسيس بتروفيتش يـرمولـوف » . وعهد إليـه أيضاً بسفـارة روسيا في إيران . وفي ١٧ نيسان سنة ١٨١٧ م الموافق آخر جمادى الأولى سنة ١٢٣٢ هـ دخل على « فتح علي شاه » في « السلطانية » ، إذ كان يومئـذ مقيماً هناك . وحمل السفير هذا إلى الشاه هدايا نفيسة .

مقدمات الحرب الإيرانية الروسية الثانية

تصالُح إيران وروسيا الذي اقتضته معاهدة « كلستـان » المعقودة بينهـما سنة ١٢٢٨ هـ لم يكن تصالحاً مستقراً . ولم يـدم أكثر من ثـلاثة عشر عـاماً . لقد ظلت الحدود بين الدولتين مبهمة . ولـو أنها بينت بخط حدودي معـين لما بقي مجال للخلاف ، واستقر الوضع استقراراً إن لم يكن دائماً فإلى مـدة طويلة على الأقل . وقد تعمد الإنكليز ، وهم واسطة انعقـاد تلك المعاهـدة ، جعل هذا الخلل فيها ليبقى الوضع بين الدولتين قابلاً للخلاف دائماً .

وكـان هذا التـدبير من جملة التـدابير التي اتخـذتها إنكلترا لإبقـاء إيران ضعيفة ، إذ يصرفها إنشغـالها بـالخلاف عن التقـوي ، فلا يُخشى منهـا هجوم على الهند أو مساعدة منها لغيرها على الهجوم . ومن أجل ذلك أيضاً سـاعدت انكلترا عـلى اقتـطاع « هـرات » وقسم من إقليم « سيستـان » من إيـران ، وضمهـا إلى أفغانستـان . واقتطعت أيضـاً منها قسـماً من إقليم « بلوجستان » وضمته إلى الهند ، وهـو اليوم تـابع للبـاكستان . وهـذه النواحي كـانت دائماً جـزءاً من إيـران . وبـاقتـطاعهـا أبعـدت إنكلترا إيـران عن حـدود الهنـد وأضعفتها . وظروف إيران كلها تضطرها إلى الرضوخ للسيطرة الإنكليزيـة . وبذلك أمنت إنكلترا جانبها ، وأصبحت طريق الهند مصانة في يدها .

وطـريق الهند هـذه هي الجنوب من أفغـانستان الـواقع في شـمال الهنـد « الباكستان » ، وما يتصل به من نواحي آسيا المركزية . وكلها كانت في تلك الحقبة خاضعة للسيطرة الإنكليزية .

وهذه النواحي كانت ، من أزمنة قـديمة ، أسهـل الطرق لغـزو الهند . فالإسكندر المقدوني غزا الهند سنة ٣٢٧ قبل الميلاد من طريق آسيا المـركزيـة وأفغانستان . ومنهـا غزاهـا العرب سنـة ٦٥٩ م الموافقـة سنة ٣٩ هـ وفتحـوا إقليم « الملتان » و « السند » . ومنها غزاها « ناصر الدين سبكتكين » مؤسس الأسرة الغزنوية المالكة في إيران . وبعده سلكها أيضاً ابنه « محمود الغزنوي » إلى الهنـد ، واستمـر غـزوه لهـا من سنـة ٣٩٠ إلى سنة ٤١٨ وفتـح الملك « محمد بن سام الغوري » مدينة « لاهور » الهندية سالكاً هذه الطريق . وغزا « جـلال الـدين فـيروز شـاه الخلجي » الهنـد سنـة ٨٦٩ هـ من طـريق أفغانستان . وغزاها من هذه الطريق الملك الأفغاني « شيرشـاه سوري » سنة ٩٤٧ هـ ومنهـا غـزا الهنـد « تيمـورلنـك » في سنـة ٨٠٠ هـ . ومثله الأمـير التيمـوري «ظهير الدين بابـر » غزاهـا من هذه الـطريق في ١٥ شعبـان سنة ٩٣٧ هـ . وغـزا « نادر شـاه » الهند في سنة ١١٥٢ هـ من هـذه الـطريق . وغـزاهـا « أحمـد خـان دراني الأبـدالي » ملك الأفغـان سبـع مـرات من سنة ١١٦١ هـ إلى سنة ١١٨٠ هـ .

لقد غزيت الهند من قبل شتى الفـاتحين ، من زمن الإسكنـدر المقدوني إلى نهاية القرن الثاني عشر الهجري ، ثلاثاً وثـلاثين مـرة . وكلهم غزاهـا من طريق آسيا المـركزيـة وأفغانستـان هذه . وبهـذا يثبت أن أحسن الطرق لغـزو الهند إنما هو النواحي الواقعة في شمالها . ولـذلك أراد « نـابليون » أن يغـزوها أيضاً من هذه الـطريق . ومأأكـثر ما سعى قيـاصرة روسيا إلى احتـلال أقاليم آسيا المركزية ليقتربوا ، ما أمكنهم الاقتراب ، من حدود الهند .

وتضمـنت خـطة إنكلترا للسيطرة عـلى هـذه الـطريق صرف إيـران عن التفرغ لتقوية نفسها بإشغالها بالخلافات الواقعة بينها وبين روسيا .

كان الصقالبة الروس ، من يوم عرفوا في التاريخ إلى هذا اليوم ، لا ينفكون يتزايد عددهم ويذيبون في عرقهم الأعراق الأخرى المجاورة لهم ، بسرعة عجيبة ، مثل على ذلك أن عدة الفنلنديين كانت في القرن الميلادي التاسع عشر أضعاف عدة الصقالبة الروس . والفنلنديون اليوم لا تتجاوز عدتهم ثلاثة ملايين ونصف المليون تقريباً في مقابل ثلاثة وثلاثين ومائة مليون صقلبي روسي .

وقد ذادوا من جهة الشمال والجنوب جيرانهم عن أرضهم واستولوا عليها واقتربوا في هاتين الجهتين من البحر إلى أقصى ما يستطيعون ، تساورهم أمنية القياصرة القديمة ، أمنية الوصول إلى البحار الدافئة . ومن أجل ذلك سعوا إلى توسيع مجال حكمهم في غرب بحر الخزر وشرقه . ولم يكن يعوقهم من جهة الشرق عائق مهم . فعبروا نهر « جيحون » و « سيحون » بسرعة ، وتقدموا نحو آسيا المركزية حتى بلغوا حدود تركستان الصينية من جهة وحدود « تركمانستان » من جهة أخرى وتوقفوا عند سواحل نهر « جيحون » و « مرغاب » و « أترك » .

أما في جهة غرب بحر الخزر فكان يصدهم عن التقدم عائق عظيم ، هو جبال القفقاس الشاهقة الصعبة ، الجبال التي كان القدماء يعتقدون أنها آخر الدنيا ويسمونها « جبل قاف » . ومع ذلك فسرعان ما اجتازوها وتقدموا حتى بلغوا ساحل نهر « أرس » ، متذرعين بدعوى أنهم يريدون حماية نصارى « كرجستان » . وأقاموا في حدود إيران لا يشغلهم عنها شيء سوى ما وقع بينهم وبين « نابليون » من مناوشات متقطعة ، امتدت من سنة ١٨٠٥ م إلى سنة ١٨١٤ م (١٢٢٠ - ١٢٢٩ هـ) . بل كانوا ، حتى في هذه السنوات التسع ، لا ينفكون يمدون قواهم التي على حدود إيران بحشود جديدة مستريحة من الجنود كلما توقفت المناوشات بينهم وبين « نابليون » أو دخلوا معه في الصلح .

كان محالاً أن تنجح خطة « نابليون » الفجة المهوّسة ، خطة الهجوم على الهند من طريق إيران وبمساعدتها . وتبين « فتح علي شاه » أنه كان مخدوعاً بأمله بأن يتفوق على روسيا بسبب انشغالها أحياناً بمناوشات حربية في غرب أوروبا . فلما حلت سنة ١٢٢٨ هـ حتى كان قد أيس من « نابليون » كلياً . وكانت إنكلترا يومئذ قريبة من روسيا . فلم يجد بداً من الرضا بمعاهدة « كلستان » . ولكنه كان لا ينفك يرجو أن يتمكن من محاربة روسيا واسترداد الأقاليم التي فقدها بمقتضى معاهدة « كلستان » . وكان الإنكليز يشجعونه على ذلك ، بل إنهم وعدوه بالمساعدة . وغايتهم أن تستسلم إيران ، بهذا الأمل ، إليهم كلياً ، إذ لم يكن « فتح علي شاه » يجد يومئذ من يرجو مساعدته غيرهم . وبذلك تطمئن إنكلترا إلى أنها قطعت الطريق على كل هجوم محتمل على أفغانستان والهند .

انتهت الحرب الإيرانية الروسية بعقد معاهدة « كِلستان » في ٢٩ شوال سنة ١٢٢٨ هـ الموافق ١٢ تشرين الأول سنة ١٨١٣ م . وبدأت الحرب الثانية في ١٠ ذي الحجة سنة ١٢٤١ هـ الموافق ١٦ تموز سنة ١٨٢٦ م .

وما بين الحربين انقضت ثلاث عشرة سنة وشهر واحد وأحد عشر يوماً تسالمت فيها إيران وروسيا على ما كان يبدو في الظاهر . ولكن البلاط الإيراني كان في هذه المدة لا ينفك يهيء في السر أحياناً وفي العلن أحياناً لحرب أخرى . ولم تكن روسيا غافلة عن ذلك ، بل كانت تراقب أوضاع إيران مراقبة كاملة في جزئياتها وكلياتها .

وكانت روسيا في تلك الحقبة قد ارتفع شأنها في أنحاء العالم ، بعد أن ألحقت بنابليون تلك الهزيمة الشنعاء في مقاومتها له في هجومه عليها سنة ١٢٢٧ هـ الموافقة سنة ١٨١٢ م .

وكانت إيران قد أنهكتها الحروب الداخلية ، ثم الحرب الأولى التي وقعت بينها وبين روسيا ، وطالت متتابعة تسع سنوات . ولم ينفعها بشيء استنجادها بفرنسا ثم إنكلترا . فأوضاعها الداخلية ، المعنوية والمادية ، مختلة مشوشة ، على حين كانت روسيا في أوج اعتزازها وانتصارها ، ولا مانع يحول بينها وبين التمدد إلى أرض آسيا .

وكان ولي العهد « عباس ميرزا » بفطانته وما حنكته به التجارب يرى مسالمة روسيا واجتناب محاربتها ، إذ لا قبل لإيران بها وبقوتها ، ولن تعود محاربتها على إيران بغير الضرر . إلا أن أباه « فتح علي شاه » كان يصر على الحرب ولا دافع له إلى هذا الإصرار غير الغرور . فاضطر ابنه إلى التسليم برغبته وهو غير مقتنع .

وفي جملة ما غر « فتح علي شاه » بالنصر أن قيصر روسيا « الكساندر » كان قد توفي في ١٨ ربيع الثاني سنة ١٢٤١ هـ الموافق أول كانون الأول سنة ١٨٢٥ م وخلفه ابنه « نيقولا الأول » . وذلك قبل نشوب الحرب الثانية بسبعة أشهر وستة عشر يوماً . وحسب « فتح علي شاه » أن هذا القيصر ليست له كفاءة أبيه وقوته . وسواء أكان الأمر كذلك أم لم يكن فإن أوضاع إيران الداخلية لم تكن مؤاتية ، بوجه من الوجوه ، لدخولها في الحرب .

من ذلك مثلاً وضع « فتح علي شاه » العائلي . فقد كان أبناؤه متعادين متخاصمين . وكان « عباس ميرزا » يتفوق عليهم كلهم بما تحلى به من فضل ومعرفة وبصيرة وشجاعة وعزة نفس . ولكن إخوته كانوا يقاومونه بدلاً من أن يساندوه ويعاونوه . حتى إنهم كانوا يسعون إلى منع وصول الإمدادات إليه ، الإمدادات المالية والعسكرية التي يحتاج إليها وهو في جبهة الحرب ، ليوقعوه في الهزيمة فينحط مقامه في أعين الناس والبلاط ، وقد يؤدي ذلك إلى خلعه من ولاية العهد وإحلال آخر منهم في مكانه . وقد خسر « عباس ميرزا » كثيراً من المعارك لحجب إخوته وأعوانهم المعونة عنه .

ومن ذلك تلاعب كبار موظفي الضرائب والشؤون المالية في الولايات بالأموال ، وتسلطهم على الناس باختراعهم عناوين مختلفة لضرائب وهمية يسلبون بها أموالهم بالغصب والإكراه .

ومن ذلك فساد طريقة التجنيد ، إذ ظلت في عهد « فتح علي شاه » كما كانت في عهد الصفويين . فقد كان اعتماد جيشه في الدرجة الأولى على رجال العشائر البدوية من كل الأعراق . وذلك بأن تهيء كل طائفة منهم جماعة من الجنود الفرسان والمشاة تكون عدتها بحسب عدة أفراد الطائفة ، وتكون لوازم تهيئتها على نفقة الطائفة ، ومن ذلك تجهيزهم بالسلاح والخيول . ويأتي في الدرجة الثانية من الأهمية الفلاحون والقرويون من أهل النواحي الكثيرة السكان ، يتطوع بعض شبانها في الجيش براتب نزر .

وكان هذا الجيش يقع على المدنيين وقوع البلاء . فحيثما حل رجاله أكرهوا الناس على إعطائهم الطعام وعليق دوابهم ورعوا زروعهم .

ومن ذلك ابتعاد هوى الناس عن القاجاريين ، إذ كانوا حديثي عهد بهم لم يعتادوا على حكمهم بعد . وعهدهم بالصفويين والافشاريين والزنديين غير بعيد . ولكل من هذه الأسر الثلاث مريدون كثيرون ، يعدون القاجاريين غاصبين .

ولذلك ظلت الأسرة القاجارية المالكة مدة طويلة لا تعتمد على مناصر غير بدو عشيرتها ، بدو القاجاريين سكان الخيام . ولكن حتى هذه القبيلة تفرقت كلمتها ، منذ البداية ، بسبب فتك « آقا محمد خان » بأخوته ، وما أوقعه بفريق منها من أذى ، فتعادى أفرادها وتنابذوا ودبت بينهم الفتن . ودام هذا الخلاف إلى زمن « محمد شاه قاجار » حفيد « فتح علي شاه » وخليفته في الملك ، فقد خرج عليه إخوته ونازعوه الملك ، وكذلك خليفته من بعده « ناصر الدين شاه » خرج عليه إخوته ونازعوه الملك .

وكان كثير من رؤساء القاجاريين حكاماً على نواحي مختلفة من الولايات الواقعة في جنوب القفقاس شمالي نهر « أرس » . فلما اقترب الغزو الروسي من تلك النواحي انحاز أولئك الحكام القاجاريون إلى الروس ودخلوا في طاعتهم ، ولم يثبت على المقاومة منهم سوى حاكم « كنجه » . وكان المسلمون من سكان تلك النواحي ، وهم من أشد المسلمين تمسكاً بالإسلام ، يجهلون الأسباب الحقيقية في انكسار إيران ، فعدوا أولئك الحكام الخونة مسؤولين عن وقوعهم في أيدي الروس يتحكمون فيهم ، وساء ظنهم بالقاجاريين عموماً .

أقام « آقا محمد خان قاجار » عرش أسرته هذه على أساس من القتل والقسوة والفظاظة والتعدي . وكانت أوضاع إيران الاقتصادية والاجتماعية في زمانه وبعد زمانه مختلة مشوشة ، قد ضعضعتها تجهيزات الجيوش المتتابعة ، من يوم وفاة « كريم خان زند » إلى نهاية الحرب الإيرانية الروسية الأولى ، أي مدة خمس وثلاثين سنة متتابعة .

وكان لـ « عباس ميرزا » ثلاثة إخوة أكبر منه ، وهم « محمد علي ميرزا دولت شاه » ويكبره بسبعة أشهر وثلاثة أيام . و « محمد قلي ميرزا ملك آرا » ويكبره بثلاثة أشهر ويومين . و « محمد ولي ميرزا » ويكبره بشهرين وأربعة أيام . ولكن « فتح علي شاه » اختار « عباس ميرزا » دونهم لولاية العهد امتثالاً لوصية أوصاه بها عمه « آقا محمد خان » وهي أن يكون ولي العهد قاجاري الأب والأم ليحظى بتأييد القاجاريين عمومة وخؤولة . وكان « عباس ميرزا » كذلك ، أما إخوته هؤلاء فكانوا لأمهات غير قاجاريات . وكان لـ « فتح علي شاه » أيضاً أصهار يتولون مناصب مهمة في الدولة .

وكان لكل من أبنائه في ولايته جيش مسلح خاص به . وكانوا كلهم يحسدون « عباس ميرزا » ، لا على ولاية العهد وحدها ، بل لأن أباه عهد إليه أيضاً بولاية أذربيجان أهم وأوسع ولايات إيران . وكانوا كلما تقرر أن ينجدوه في محاربته لروسيا بعسكر أو تقرر أن يشاركوا في نفقات الحرب بقسط من عائداتهم أحجموا عن الاستجابة . حتى كان السبب في كثير من انكسارات العسكر الإيراني في الحربين انقطاع المدد العسكري عنه وخلو يده من المال . وكان عليه وحده أن ينفق على تجهيز الجيوش من عائدات أذربيجان .

معاهدة سنة ١٢٢٩ هـ[1]

بعد انقضاء سنتين وشهرين واثنين وعشرين يوماً على عقد المعاهدة الثانية ، معاهدة سنة ١٢٢٧ هـ ، بين إيران وإنكلترا ، عقدت بين الدولتين معاهدة ثالثة في ١٢ ذي الحجة سنة ١٢٢٩ هـ الموافق ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٨١٤ م ، ووقعها عن إيران « الميرزا محمد شفيع » الصدر الأعظم و « الميرزا الكبير القائمقام » و « الميرزا عبد الوهاب نشاط معتمد الدولة » ، ووقعها عن إنكلترا المستر « هنري إليس » القائم بأعمال السفارة الإنكليزية في طهران .

وهذه المعاهدة لا تفرق ، بوجه الإجمال ، عن المعاهدة السابقة المعقودة بين إيران وإنكلترا في ٢٩ صفر سنة ١٢٢٧ هـ الموافق ١٤ آذار سنة ١٨١٢ م بشيء إلا شيئاً واحداً هو أنها قيدت مساعدة إنكلترا لإيران في حالة نشوب حرب بينها وبين دولة أوروبية بشرط لا تتضمنه المعاهدة السابقة .

ففي المعاهدة السابقة تلتزم إنكلترا بمساعدة إيران مساعدة عسكرية أو مالية في حالة وقوع حرب بينها وبين دولة أوروبية بلا قيد ولا شرط . وفي المعاهدة الثالثة الجديدة تلتزم إنكلترا بمساعدة إيران إذا كانت الدولة الأوروبية

---

(١) كانت المعاهدات التي تعقد بين إيران والدول الأجنبية تصاغ بأسلوب متكلف بالاسجاع والكنايات والاستعارات والأوصاف المبالغ فيها إلى درجة الإفراط . وهذا نموذج من مقدمة إحدى المعاهدات المعقودة بين إيران وإنكلترا نثبته بياناً للعقلية التي كانت دارجة بين الناس يومئذ .

« أين خجسته أوراق دسته كليست كه أزكلزاربي خاروفاق رسته ، وبدست اتفاق وكلاى حضرتين سنيتين بهيتين برسم عهد نامه مفصل برطبق صدق وخلوص بيوست مى كردد » .

لاحظ السجع في : خجسته . دسته . رسته . بيوسته . كلزار . بي خار . وفاق . اتفاق . طبق . صدق :

وترجمتها : هذه الأوراق المباركة وردة قد نمت في روضة الوفاق التي لا شوك فيها ، تتداولها يد الاتفاق ، يد وكلاء الحضرتين السنيتين البهيتين، مرسومةً معاهدةً مفصلةً طبق الصدق والخلوص الدائمين .

وهذا نموذج آخر في وصف السفير الإنكليزي المفاوض :

« عالي جاه ، رفيع جايكاه ، عزت وفخامت همراه ، شهامت وصداقت اكتناه ، فكان ودرايت آكاه ، دولت خواه ، بلا اشتباه ، سفيربي نظير ، روشن ضمير ، صايب تدبير ، عمدة الأعاظم المسيحية الخ » .

وهذه ترجمته : العالي الجاه ، الرفيع المقام ، رفيق العزة والفخامة ، مكتنه الشهامة والصداقة ، من عنده الفطانة والدراية ، مريد الخير بلا اشتباه ، السفير الذي لا نظير له ، المضيء الضمير ، الصائب التدبير ، عمدة الأعاظم المسيحية الخ » .

وهذا نموذج في وصف مفاوض إيراني :

« أمير الأمراء الكرام ، مؤتمن الحضرة العليا السامية ، أمين الدولة البهية السنية ، قوام العزة والنباهة ، نظام الجلالة والنبالة الحاج محمد حسين خان » .

وهذا وصف ملك الإنكليز في مقدمة إحدى المعاهدات :

« الملك الشهير السعيد ، سلطان العدل ، من شعاره نشر المكارم ، صدر أرائك الملك والسلطان ، مشرف فلك الجلالة والسعادة ، الأمير الباذل العادل السخي ، عاهل إنكلترا والهند الذي بلاده جاه الفلك في مجمع الممالك الفسيح المسالك ، أدام الله تعالى أيام ملكه الباهرة » .

وهذا وصف شاه إيران في مقدمة تلك المعاهدة :

« الحضرة العليا ، من قدرته القدر وهمته القضاء ، سماء الحشمة ، عادل الدنيا، الأمير المكرم ، مُعان الفلك ، الملك الأعظم ، ذو الطالع السعيد ، مالك رقاب الأمم ، غوث الإسلام والمسلمين ، عوذ الملة والدين ، بطل الماء والطين ، ملك الدولة المباركة ، دولة إيران وطوران ، الجم الاقتدار ، لا زالت مشارق إقباله تتداولها مطالع كواكب الإجلال » .

هي البادئة بالحرب لا إيران . فإن كانت إيران هي البادئة بالحرب فلا شيء على إنكلترا .

وهذا الشرط يعفي إنكلترا من كل مساعدة لإيران . والسبب هو أن الدولة الأوروبية التي يحتمل أن تحارب إيران إنما هي روسيا لا غيرها من الدول الأوروبية . وإذ كانت روسيا قد رضيت بما احتلته من أرض إيران وقنعت بما ربحته من معاهدة « كلستان » فإن إنكلترا مطمئنة إلى أنها لن تحارب إيران يقيناً ، ولن تكون هي البادئة بالحرب إذا وقعت .

وإذ كانت إيران هي الخاسرة في معاهدة « كلستان » ، ولا تنفك مستاءة لما اغتصب من أرضها ، تسعى جهدها إلى استرداده ، فلا بد من أن تكون هي ، لا روسيا ، البادئة بالحرب إذا وقعت . فإذا حدث ذلك كانت إنكلترا غير ملزمة بمساعدتها ، وتركت الدولتين تتعاركان . وفي تعاركهما إضعاف لهما كليهما . وهذا ما تريده إنكلترا .

الاستعداد للحرب

إلى نهاية ثلاث سنوات من التوقيع على معاهدة « كلستان » لم يتحدث أحد في موضوع تعديلها . وكان « عباس ميرزا » قد أيس من الروس . فاضطر إلى تغيير نهجه السياسي وأخذ يتقرب من الإنكليز . وزاد في ابتعاده عن الروس أن السفير الروسي « يرمولوف » لم يعترف بولايته للعهد ، وأخذ يواطىء عليه أخاه « محمد علي ميرزا » ويعده بمساعدة روسيا له للوصول إلى العرش بعد وفاة « فتح علي شاه » . وانقاد له « محمد علي ميرزا » وأصبح طوع يديه . وجاهر « عباس ميرزا » بمعاداته للروس علانية . وشرع بتهيئة وحدات عسكرية منظمة مجهزة ، يساعده على ذلك الإنكليز ، وهو يأمل أن يستعيد ، في مستقبل قريب ما ألحق بروسيا من أقاليم إيرانية بمقتضى معاهدة « كلستان » أو استعادة معظمها على الأقل . وكان يرجو أن يحصل على مساعدة من إنكلترا إذا وقعت حرب بين إيران وروسيا من أجل ذلك .

وفي ٢٠ كانون الثاني سنة ١٨١٦ م الموافق ١٩ ربيع الأول سنة ١٢٣١ هـ سلم « أبو الحسن الشيرازي » سفير إيران في روسيا وزير الخارجية الروسي « الكونت نسلرود » مذكرة طلب فيها عقد معاهدة جديدة بين إيران وروسيا ، معاهدة تفصل ما أجمل وتوضح ما أبهم في معاهدة « كلستان » . وطلب إعادة الأقاليم الإيرانية التي استولت عليها روسيا إلى إيران ، أو إعادة بعضها ، على أن تؤدي إيران إلى روسيا ما تكلفته من مال نفقات الحرب .

وأيد السفير الإنكليزي في « بطرسبورغ » المطلب الإيراني . ولكن وزير الخارجية الروسي رده رداً قاسياً ، وعد تأييده تدخلاً في شؤون روسيا غير مقبول .

ورد الوزير الروسي على طلب السفير الإيراني بأن روسيا إنما استلحقت تلك الأقاليم لأن أهلها أنفسهم رغبوا في الدخول في طاعتها . ومع ذلك فإن القيصر قد أمر سفيره في إيران « الجنرال يرمولوف » بإعادة النظر في الحدود بين إيران وروسيا . وبعد وصول تقريره تعطي روسيا جوابها القطعي في هذا الموضوع .

ولكن السفير الروسي « الجنرال يرمولوف » ظل مصراً على إبقاء الحدود بين الدولتين على ما قررته معاهدة « كلستان » ، وظل « عباس ميرزا » مصراً على استرداد الأقاليم المفقودة ، جاداً في إقامة تجهيزات عسكرية بلغت من القوة والتنظيم إلى حد أهم السفير الروسي وشغل خاطره . وكان هذا السفير موقناً أن إيران مقدمة على الحرب لا محالة . وكانت تقاريره إلى البلاط الروسي تحذر دائماً من ذلك . ولكن القيصر وسائر المسؤولين الروس كانوا يخالفونه في هذا الرأي ولا يكترثون بتقاريره ، مطمئنين إلى أن إيران لن تقدم على الحرب . وكانوا أيضاً لا يريدون حرباً إذ كانوا قانعين بما حصلوا عليه من أرض إيران .

وفي سنة ١٨٢٥ م الموافقة سنة ١٢٤١ هـ توفي « الكساندر الأول » أمبراطور روسيا ، وخلفه أخوه « نيقولا الأول » . وفي سنة ١٨٢٦ م الموافقة سنة ١٢٤١ هـ أرسل هذا القيصر إلى إيران سفيراً له فوق العادة اسمه « الأمير منشيكوف » ، وأرسل معه هدية ثمينة للشاه . واستقبله الشاه في « السلطانية » .

واتفق أن كان « عباس ميرزا » قد حصل ، قبيل وصول « منشيكوف » ، على موافقة أبيه « فتح علي شاه » على إعلان حرب ثانية على روسيا .

ولكن « منشيكوف » ومثله القيصر « نيقولا الأول » ، كان غافلاً عن احتمال وقوع الحرب ، مطمئناً إلى جنوح إيران إلى السلام . وكان من مظاهر ذلك تلك الهدية الثمينة التي حملها معه من القيصر إلى الشاه . وكان من مظاهره أيضاً موضوع الأحاديث التي بدأ بها « منشيكوف » محادثته للشاه . فقد تحدث إليه في موضوع الصلح القائم بين الدولتين . ونبهه ، بالالتماس ، إلى لزوم إرسال مندوب عن الشاه إلى القيصر لتهنئته بالتاج وتعزيته بوفاة أخيه القيصر السابق . ولكن « فتح علي شاه » تلقى كلامه غير مكترث به .

عودة إلى موضوع الجهاد

كانت الأنباء يومئذ لا تنفك متواصلة عما يرتكبه الروس من ظلم وتعد على مسلمي الأقاليم الإيرانية التي احتلوها . ووصلت أنباء عن ذلك إلى العراق . فكتب المرجع الديني « السيد محمد الأصفهاني »[1] وكان يقيم في كربلاء ، رسالة إلى المسؤولين في بلاط « فتح علي شاه » قال فيها إن مجاهدة روسيا هي اليوم فرض واجب ، فما هو رأي ملك المسلمين ؟

وكان « فتح علي شاه » راغباً عن الإفتاء بالجهاد ، ومثله ولي العهد الأمير « عباس ميرزا » لعلمهما بأنه غير ممكن عملياً ، ولكنه كان يخشى غضب العامة وانحرافها عنه إذا خالف رأي رجال الدين ، إذ كانت العامة منقادة لهم ترى وجوب طاعتهم ومخالفة مخالفيهم . فلم يجد « فتح علي شاه » بداً من مسايرتهم فأجاب على رسالة « السيد محمد الأصفهاني » برسالة قال فيها : نحن لا ننفك دائبين على تذكر واجب الجهاد المبارك . وقد وضعت نفسي في سبيل نشر الدين وإعزاز الشريعة .

فلما وصلت الرسالة إلى « السيد محمد الأصفهاني » بادر إلى الحضور إلى إيران ، ووصل إلى طهران في شهر شوال سنة ١٢٤١ هـ . فاستقبله الأمراء والعلماء استقبالاً حافلاً بالاحترام والمودة . وأكرم « فتح علي شاه » مثواه .

وأرسل « السيد محمد الأصفهاني » إلى علماء إيران رسائل يدعوهم

(١) هو الذي عرف بعد ذلك باسم السيد محمد المجاهد (راجع ترجمته في مكانها من الأعيان) .

فيها للحضور إلى طهران ، وتحريض الناس على الجهاد وتجنيدهم لـه . وتبرع « فتح علي شاه » بثلاثين ألف تومان من ماله الخاص لنفقات المجاهدين .

وفي يـوم الجمعـة ١٧ ذي القعـدة سنـة ١٢٤١ هـ اجتمـع العلماء في معسكر الشاه في « مرج السلطانية » ، وكان اجتماعهم هذا بعد وصول السفير الروسي « منشيكوف » إلى « السلطانية » بسبعة أيام . وحصل اجتـماعهم وهو لا يزال في « السلطانية » .

ورأى العلماء في هـذا الاجتماع أن من تخلف عن مجـاهدة الـروس فقـد عصى الله واتبـع الشيـطان . وأيـد الشـاه وولي العهـد وكبـار رجـال الـدولـة كلامهم ، إلا « الميرزا عبد الوهاب معتمد الدولة » أحد كبار رجـال البلاط ، و « الحاج أبو الحسن خان الشيرازي » سفير إيران في روسيـا ـ كان قـد أصبح يومئذ وزيراً للشؤون الخارجية ـ فإنهما خالفا قرار العلماء ، لعلمهما بـأن الإفتاء بالجهاد لن يأتي بنتيجة غير الاضرار بإيران وأنه يجري بأسلوب مرتجل لا تبصر فيـه ولا يقوم عـلى قاعـدة صحيحة من تبـين الأمر الـواقع والمعـرفة السيـاسية والاطلاع على أصول الحرب . وكان رأيهما أن محـاربة روسيـا على هـذا النحو مضرة بإيران ، وقد أثبتت الوقائع بعد ذلك صحـة رأيهما . ولكن المجتهـدين أرسلوا إليهـما رسالـة عنيفة فيهـا تهديـد ووعيد ، قـالوا فيهـا : لقـد ضعفت عقيـدتكما . وإلا فكيف تعـدان مجاهـدة الكفار أمـراً مكروهـاً ؟ فاضـطرا إلى السكوت عن المعارضة والاستسلام للفتوى .

وأجمع علماء الدين على الإفتاء بفتوى مكتوبة بأن تكليف الشاه الشرعي هو ترك مصالحة روسيا ومداراتهـا ، وإعلانها بـالعداوة لـما يقوم بـه الروس في الأقاليم المحتلة من تعد على الأعراض وسخـرية بـالإسلام ، وهي أمـور تعد عـاراً وتستلزم النزاع والحـرب . وأن ملك المسلمين ، بمـا هو مفـروض عليه إطاعة أحكام أئمة الدين ، ومثله كل المسلمين ، يجب عليه وعليهم الجهاد . وكل تساهل في هذا الأمر كفر وضلالة .

وقام السفير الروسي بمباحثة رجال الـدولة في هـذا الموضـوع وحاول أن يثنيهم عن العزم على الحرب فلم يصغوا إليـه . واتفق يومئـذ أن اجتاز بعض الحـاميات العسكـرية الـروسية القـائمة عـلى الحدود في الشـمال حدودهـا إلى الأرض المعـدودة يومئـذ من أرض إيران . فـزاد ذلك في غضب رجـال الدين وإصرارهم على الجهاد . وزار السفير الروسي علماء الـدين وحاول أن يقنعهم بالتخلي عن الجهاد فلم يقبلوا .

واستـدعى « فتح عـلي شـاه » السفـير الـروسي ، وطلب منـه مغـادرة إيـران . وأهدى إليـه وإلى مرافقيـه بعض التحف وزوده المال الـلازم لسفـره وعين أحد كبـار رجال البـلاط لمرافقتـه والقيام بـواجب ضيافتـه حتى يبلغ إلى « تفليس » . وسـافـر السفـير الـروسي يـوم الجمعـة ٢٤ ذي القعـدة سنـة ١٢٤١ هـ . وكان ذلك بداية الحرب الثانية بين إيران وروسيا .

وبعـد وقوع الحـرب تبين النـاس عجـز المحـاربـين الإيـرانيـين ووقـع عسكرهم في مضيقة عـظيمة من قلة الـزاد والعلوفة وكـثر فيه القتـل والأسر ، وعم الخراب والرعب ، واتضح لهم أن الإقدام عـلى هذه الحـرب كان خبـطاً وجهلاً وغباء ، واستاؤوا من « السيد محمد الأصفهاني » بمـا هو أحـد المسببين للحـرب ، وأهانـوه[1] . وفي أثناء ذلـك مرض . فخـرج من تبريـز قـاصـداً

(١) لما وصل « السيد محمد الأصفهاني » المعروف بلقب « المجاهد » هـذا إلى إيران ، استقبله

قـزوين . ولكنه تـوفي في الطريق ، وقيـل إنه تـوفي في قزوين في أواخـر سنة ١٢٤١ هـ أو أوائل سنة ١٢٤٢ هـ . ونقل جثمانه إلى كربلاء فدفن فيها .

رواية أخرى

وروى الفـرنسي « جان يـونير » في كتـابه « أبـطال إيران المجهـولون في محاربة روسيا القيصرية »[2] حركة الجهاد هذه على هذا النحو :

قبيل الحرب الثانية التي وقعت بين إيران وروسيا نهض عالم آخر[3] من علماء الشيعة القاطنين في بلاد ما بين النهرين إلى المناداة بالجهاد . وكـان سبب نهوضه هو أيضاً شكوى مسلمي القفقاس ممـا يلقونـه من جور الـروس عليهم وإذلالهم لهم . ويـومئذ كـان الجنرال « رتيشتشـوف » قد عـزل من حـاكمية القفقـاس وحل محله في هـذا المنصب الجنرال « يـرمـولـوف » . وكـان يـوقـع بمسلمي القفقاس من الأذى والظلم ما كان يوقعه بهم سلفه . فشكوا أمـرهم إلى « السيـد محمد » مـرجع تقليـد الشيعة في بـلاد ما بـين النهرين . فـأرسل « السيد محمد » رسائل إلى علماء الدين في مختلف الولايات الإيرانية يدعـوهم فيهـا إلى إنقاذ مسلمي القفقـاس مما يقـع عليهم من اضطهـاد فأجـابوه بـأنهم حاضرون للجهاد .

عندئذ عزم « السيد محمد » على الحضـور من العراق إلى إيـران . فسار إليها ومعه جماعة من العلماء . وكانت له شهرة ونفوذ واسعان ، فخرج النـاس إلى استقباله في الحدود بين إيران والعراق ، وبلغ بعضهم إلى « كرمانشاهان » يستقبلونه عندها . وهيأ « فتح علي شاه » له ولرفاقه العلماء ضيافة تليق بمقامـه في طهران .

ويوم حضر قبل ذلـك « الشيخ محمـد حسين النجفي » إلى إيـران لهذه الغاية كان « فتح علي شاه » راغبـاً عن إصدار فتـوى بالجهـاد . ولكنه تـظاهر بالقبول لأن نهوض العلماء إلى الجهاد ينفعه سياسياً .

أما يوم حضر « السيد محمد » ورفـاقه من العلماء إلى طهـران فقد كـان « فتح علي شاه » غير راغب في الجهاد ، لا في الباطن ولا في الظاهر ، إذ كـان غير مستعد لبذل نفقات الجهاد .

وقد جعلته معاهدة « كِلستان » التي انتهت إليها الحـرب الأولى شديـد

النـاس استقبالاً عـظيماً . وأحيط أيـام إقامتـه فيها ، قبـل الحرب ، بكـل مظاهـر التبجيل والإجلال . وبعد وقوع الحرب انقلب أمـره إلى الضد . قـال « مهدي بـامداد » في تـاريخه « شرح حال رجال إيران » :
لما وصل السيـد المجاهـد إلى قزوين قـادماً من العـراق اندفـع الناس الجهـلاء إلى استقبالـه استقبالاً فخماً . ولم يكن أولياء الأمور والموجهون من العلماء أقل منهم جهلاً بأمور السيـاسة والحرب . وبلغ الأمر إلى أن السيد محمد المجاهد تـوضأ يوماً في حـوض « مسجد الشـاه » الـذي في قزوين . فلما أتم وضـوءه أقبل العـوام الذين هم كـالأنعام بـل أضل سبيـلاً على الحوض يحملون من مائه إلى بيوتهم يحفظونه ذخيرة للتبرك والاستشفاء !
ثم انكشفت حقيقة هذه الحرب وتبين أنها لم تكن غير كارثـة تقع عـلى إيران . وكـانت أكثر عائلات إيران قد أصيبت بقتل بعض أفرادها في هذه الحرب . ولذا نقم الناس على السيـد محمد نقمة شديدة ، بما هو من مسببيها والمحرضين عليها ، حتى اضـطر الشاه إلى حمـايته . ولولا ذلك لقطعه الناس إرباً .
وذكر آخرون من المؤرخين غير « مهدي بامداد » شيئاً من هذا القبيل .

(٢) تـرجم هذا الكتـاب إلى الفارسيـة « ذبيح الله منصـوري » وننقل هـذا البحث ملخصاً عن ترجمته هذه .

(٣) الأول هو « الشيخ محمد حسين النجفي » وقد مر ذكره .

النفور من الحرب ، فهو يتجنب الوقوع في حرب جديدة ، وقد كانت الحرب الأولى تكلفه كل الدخل القومي . ولم تكن إيران يومئذ تنظم مخصصات مالية عامة سوى رواتب موظفي الدولة وموظفي الجيش . بل كانت مخصصات موظفي الدولة تقتصر على رواتب موظفي البلاط والحراس الليليين ، وبعض موظفي الحكومة الآخرين . والبعض الآخر من هؤلاء الموظفين كانت عائدات عملهم ما يعطيهم إياه أصحاب المعاملات أجراً على إتمام معاملاتهم ، ولا رواتب لهم .

وكان حكام الولايات والإيالات لا يتناولون راتباً . لا بل كانوا هم يؤدون المال إلى « فتح علي شاه » بدلاً من أن تؤدى إليهم رواتب . وإلا لم يحصلوا على مناصب الحكم . ودخلهم مما يسلبونه من الناس . بل كان أبناء « فتح علي شاه » أنفسهم ، وأكثر حكم الولايات في أيديهم ، لا يحصلون على منصب الحكم ما لم يؤدوا مالاً إلا أبيهم .

ولم يكن على « فتح علي شاه » من تكليف مالي مهم سوى تكليف واحد هو مخصصات الجيش . وكانت هذه المخصصات محتملة في أيام السلم . أما في أيام الحرب فكانت تصبح باهظة .

ويمكن القول إن ما اضطر « فتح علي شاه » إلى بذله من مال نفقة للحرب الأولى بينه وبين القيصر كان هو همه الأصلي لا ما خسره من أرضه في تلك الحرب !

فإذا تحققت الدعوة إلى الجهاد عملياً وسار المجاهدون إلى أذربيجان ووصلوا إلى شمال نهر « أرس » ليحاربوا الجنرال « يرمولوف » فلا بد من أن يدخل « فتح علي شاه » في الحرب إذ كان « فتح علي شاه » يعلم أن المجاهدين لن يثبتوا في وجه الروس ، لأنهم ينقصهم العتاد الحربي والتدريب العسكري والدراية بفنون الحرب ، وأن « يرمولوف » سيتعقبهم متقدماً في أرض إيران إلى أبعد مما في يده منها ، وحينئذ يضطر « فتح علي شاه » إلى ملاقاته بالجيش النظامي وتحمل نفقات مالية ثقيلة .

وجميع المستندات التاريخية التي حصلنا عليها تدل على أن « فتح علي شاه » كان ، بعد معاهدة ، « كلستان » راغباً عن محاربة القيصر .

فلما وصل « السيد محمد » وعلماء الشيعة المقيمون في بلاد ما بين النهرين إلى طهران استدعى « فتح علي شاه » ابنه « عباس ميرزا » من أذربيجان ، حيث كان يقيم ، إليه في طهران ، وباحثه في موضوع الإعلان بالجهاد . فكان رأي « عباس ميرزا » إرجاع « السيد محمد » ورفاقه إلى العراق وصرف النظر عن الجهاد ، لأنه سيؤدي إلى حرب شديدة بينه وبين القيصر ، حرب لا يعرف إلى أين تنتهي . فأمر « فتح علي شاه » ابنه ولي العهد بالذهاب إلى « السيد محمد » وإقناعه بأن الصلاح في صرف النظر عن الجهاد .

فذهب « عباس ميرزا » إلى منزل « السيد محمد » وعقد جلسة طويلة معه ومع العلماء الذين يرافقونه . وبرهن لهم في حوار طويل بالأدلة المنطقية وحساب الأرقام أن القيام بالجهاد أمر متعذر ، وأنهم يقدمون على مغامرة لن تعود على إيران بغير الضرر . وأفهمهم أنه وأباه موافقان على الجهاد مؤمنان بوجوبه على كل مسلم . فهذا أمر لا خلاف فيه . ولكن في إعلان الجهاد صعوبة لا يمكن تذليلها ، وهي توفير المال اللازم لنفقة المجاهدين . وبين لهم « عباس ميرزا » بالحساب أن إيران عاجزة عن توفير هذا المال . وقال : لو أن الشاه كان مستطيعاً توفير هذا المال لما احتاج الأمر إلى الإفتاء بالجهاد لأن هذا

المال ، لو توفر ، لكفى لتجهيز رجال العشائر ، وكان هؤلاء الرجال أكفياء للحصول على النصر . وشبه « عباس ميرزا » حالة إيران المالية بالقياس إلى حالة روسيا برجل فقير معدم يقاس بتاجر ثري .

ولكن « السيد محمد » أصر على وجوب القيام بمجاهدة روسيا وظل مقتنعاً بالتمكن منه ، مستنداً إلى اعتبارات حماسية خيالية . واتهم « فتح علي شاه » بالخوف . فأجابه « عباس ميرزا » بقوله إن عنيت بالخوف الخوف من الجرح أو الموت برصاصة أو ضربة سيف أو طعنة رمح فأنت مخطىء . فلا أبي ولا أنا ولا جنودي نهاب الموت . نعم أبي يخاف من أن يوصلنا هذا الأمر إلى أصعب الشرين ، إذ يصبح إفلاسنا الجزئي كلياً ! وما أجبرنا على قبول معاهدة « كِلستان » لم يكن الخوف من الموت بل كان الفقر ! ولو توفر لنا المال لواصلنا تلك الحرب التي دامت عشر سنوات تسعين سنة أخرى . ولكن أعوزنا المال فعجزنا عن تهيئة نفقات الحرب . وكنا أحياناً نعجز عن إيصال الطعام إلى الجنود . واتفق مرة أن ظلت وحدة كبيرة من وحداتنا العسكرية خمسة أيام بلا طعام ، إذ عجزنا عن تهيئة المال اللازم لشراء الكفاف لها من الطعام ، فضلاً عن الأسلحة والمهمات الحربية الأخرى ! وعدنا امبراطور فرنسا بالمساعدة ولم يف بوعده . ووعدنا سفراء إنكلترا كذلك بالمساعدة ولم تف إنكلترا بهذا الوعد ، وآل أمرنا إلى أن فرضت معاهدة « كِلستان » علينا فرضاً !

ومع كل ما عرضه « عباس ميرزا » من أدلة وبراهين على أن الإعلان بالجهاد أمر غير عملي ولا نتيجة له غير الإضرار بإيران ، فإنه عجز عن إقناع « السيد محمد» ورفاقه بالعدول عنه . وانتهت تلك الجلسة الطويلة إلى نتيجة سلبية . وظل « السيد محمد » ورفاقه من العلماء مصرين على متابعة العمل للجهاد . وساء ظنهم بالشاه وولي عهده ، واتهموهما بمواطأة القيصر وموافقته . بل بلغ الأمر إلى رميهما بالمروق من الدين والارتداد ! وكانت تهمة جائرة باطلة . فقد كان « فتح علي شاه » وابنه « عباس ميرزا » مسلمين صادقين مواظبين دائماً على إقامة شعائر الإسلام . وهذا أمر أجمع عليه الخاص والعام .

وعاد « عباس ميرزا » إلى زيارة « السيد محمد » ورفاقه مرة ثانية . فقد أمره أبوه بأن يطلب منهم العودة إلى العراق ، فذهب إليهم لهذه الغاية . واستغرقت المذاكرة بينه وبينهم مدة طويلة ، وتبين بعدها أن « السيد محمد » راغب عن العودة .

والإنصاف يقتضي القول بأن إصرار « السيد محمد » ورفاقه العلماء على الجهاد وتصلبهم في الثبات على عزمهم على المجاهدة أمر يستحق الإعجاب . إذ كان دافعهم إلى ذلك رسوخ إيمانهم وإخلاصهم لله ، وإن كانوا غافلين عن التفكير في عواقب هذا الجهاد ، أي شيء تكون ؟

وكان الخاصة يعلمون أن الناس لا يستطيعون الذهاب إلى الجهاد ، إذ لا أحد يستطيع تهيئة نفقاتهم . أما العامة فكان تفكيرهم طفولياً فجاً يستسهلون الجهاد ويظنونه أمراً مستطاعاً . فلما تبين لهم أن « فتح علي شاه » وابنه « عباس ميرزا » يخالفان الإفتاء بالجهاد لم يجد واعلة لذلك سوى أنهما قد واطآ القيصر وانحازا إليه ، وخليا بينه وبين مسلمي القفقاس بتسلط عليهم . وكانوا يقولون لو صدرت فتوى بالجهاد في الحرب الأولى لما خسرت إيران ما خسرته من ولايات الشمال . ولو صدرت هذه الفتوى اليوم لاستطاع

الإيرانيون استرداد ما خسروه .

وأول فوج خرج إلى الجهاد كان من مدينة زنجان . ثم خرج الفوج الثاني من مدينة قزوين . وكانا يقصدان إلى تبريز . وخرج فوج آخر من طهران متخذاً طريقه إلى أذربيجان . ولم يمنع « فتح علي شاه » خروجهم ، إذ لو فعل لقاتلوه . هذا مع علمه بأن كيفية خروجهم لا تقوم على أصل من أصول المحاربة وأن مصيرهم إلى الخيبة .

وكان ما حملوه من الزاد لا يكفيهم غير بضعة أيام . وبعضهم كان يحمل مالاً ، ولكن أكثر طريقهم كان في الصحراء والمنازل العامرة بعيد بعضها عن بعض فلا يستطيعون شراء ما يحتاجون إليه في وقت الحاجة إليه . وقد لا يجدون في المنازل حين يبلغونها ما هم بحاجة إليه . وكان سلاحهم السيوف ، وبعضهم كان يحمل البنادق والطبنجات . وبعضهم مشاة وبعضهم فرسان . ولم يلتزموا في سيرهم القواعد العسكرية المتبعة في مثل هذا السير ، إذ كانوا يجهلونها . مثلاً حين أظلهم المساء في أول يوم من مسيرهم لم يفطنوا إلى أن من الممكن أن يكون العدو كامناً لهم فيبيتهم ويقضي عليهم . ولو فطنوا إلى ذلك لما عرفوا انتخاب المكان المناسب لحط الرحال والمبيت .

وكان الوقت خريفاً فحمّ كثير منهم بسبب النوم في العراء والتعرض لبرد الهواء . فعاد فريق إلى بلده وتابع فريق سيره وهو محموم .

ولم يكونوا يعلمون أين هو ميدان الحرب ، متوقعين أن يعلموا به بعد وصولهم إلى تبريز .

وقاسى الطهرانيون خاصة من المصاعب أكثر مما قاسى القزوينيون والزنجانيون . إذ كان هؤلاء معتادين على تحمل البرد مستعدين لما يلزم للوقاية ، بسبب برودة المناخ في إقليمهم . أما الطهرانيون ، وإقليمهم يعد ، نسبياً ، إقليماً حاراً ، فقد غفلوا عن الاستعداد لما يلزم للوقاية من البرد من أغطية وملابس . وحين وصل من أدام السير منهم إلى قزوين للالتحاق بمجاهديها كان هؤلاء قد غادروها إلى زنجان ، في طريقهم إلى تبريز . فتوقف فريق منهم في قزوين لعجزهم عن متابعة السفر . وتابع فريق سيره إلى زنجان . ولكنهم لم يلبثوا أن ندموا إذ كانوا كلما تقدموا في السير ازداد الطقس برداً ، وهم على ما هم عليه من قلة الزاد وفقدان الملابس والأغطية التي تقيهم البرد . وتبينوا أن هذا السفر ليس على ما كانوا يتصورون من السهولة ، وأنه سفر يتعذر على المرء أن يقوم به إذا لم يتهيأ له بما يلزم من أسباب الوقاية من البرد .

وكان عدد المرضى من الطهرانيين يزداد يوماً فيوماً ، ولما وصل المجاهدون إلى زنجان اشتد البرد إلى درجة عجز فيها الطهرانيون ، حتى الذين سلموا منهم من المرض ، عن متابعة السير ، لفقدانهم كل وسيلة من وسائل السفر في ذلك الإقليم البارد .

وكما كانت إدامتهم السفر إلى تبريز أمراً صعباً كانت عودتهم إلى طهران كذلك أيضاً . وفيما هم مترددون بين إدامة السفر إلى تبريز والعودة إلى طهران ثلجتهم السماء حتى قطعت الطرق ، وأصبحوا عاجزين عن سلوك كلا الطريقين ، طريق تبريز وطريق طهران . هذا والفصل لا يزال خريفاً فكيف إذا حل فصل الشتاء ؟ !

وكان مجاهدو قزوين وزنجان قد وصلوا قبل ذلك إلى تبريز ، وبعد الثلج اضطروا إلى التوقف فيها . واضطر مجاهدو طهران إلى التوقف في زنجان .

وكان هذا العذاب نتيجة الخبط الذي ارتكبه المجاهدون لجهلهم بفنون الحرب . فقد كان عليهم أن يتريثوا حتى انقضاء أيام البرد وذوبان الثلوج . فالسفر في تلك الأقاليم الباردة كان يتوقف في ذلك الفصل ، فصل البرد ، ولا يقوم به غير القوافل التي تضطر إلى حمل الأثقال في كل فصول السنة . بل كان العسكر القيصري نفسه وعسكر « فتح علي شاه » نفسه يتوقفان في أيام حرب العشر السنوات الماضية عن التحارب في هذا الفصل . فكيف تستطيع هذه الأفواج الثلاثة من المجاهدين التي خرجت من قزوين وزنجان وطهران ، أن تحارب في هذا الفصل ، وهي مجردة من وسائل السفر الضرورية وأدوات الحرب ، جيش القيصر المجهز بكل ما يلزمه من الوسائل ، المستقر في شمال نهر « كور » وجنوبه ؟ !

وانقطع مجاهدو قزوين وزنجان في تبريز ، لا طعام لهم ولا مسكن ولا وقود فأسعفهم حاكم تبريز ، بأمر من « عباس ميرزا » بما يحتاجونه من ذلك ، وانقطع مجاهدو طهران في زنجان ، وكان حاكمها عاجزاً عن إسعافهم فأسعفهم بعض الأثرياء والأعيان . ولولا ذلك لقضوا جوعاً وبرداً .

على هذا النحو توقف سير المتطوعين للجهاد من أهل المدن الثلاث ، زنجان وقزوين وطهران ، إذ أوقفهم البرد عن متابعة السير إلى جنوب نهر « كور » والإغارة على جيش القيصر . وبعد ذوبان الثلوج وانفتاح الطرق كانت حماسة المتطوعين أقل منها يوم خروجهم من بلدانهم . وتقرر أن يستأنفوا سيرهم بعد عيد النوروز في فصل الربيع .

وكما كان متوقعاً عند « فتح علي شاه » و « عباس ميرزا » أرسل القيصر إلى « فتح علي شاه » مذكرة عد فيها سماحه بخرج المجاهدين من المدن الثلاث إلى أذربيجان خرقاً لمعاهدة « كِلستان » أرسل القيصر هذه المذكرة ، والمتطوعون لا يزالون منقطعين في تبريز وزنجان والثلج لم يذب بعد .

وأجاب « فتح علي شاه » على مذكرة القيصر بأن الناس تتملكهم مشاعر دينية قوية ولا يستطاع صدهم عن الخروج إلى الجهاد .

ولكن القيصر لم يقبل بهذا الجواب ، وقال : لا يعقل أن يخرج محاربون من بلادك بدون موافقتك وإذن منك . ولو شئت منعهم لامتنعوا .

والحق أن « فتح علي شاه » لم يكن قادراً على منع أولئك المتطوعين من الخروج إلى الحرب . بل كان راغباً عن محاربة القيصر مريداً لمسالمته . وفوق هذا كان القيصر هو البادىء فقد كانت حامياته ، قبل خروج المجاهدين ، لا تنفك تخترق ، بين الفينة والفينة ، الحدود التي قررتها معاهدة « كِلستان » وتغير على الأرض التي كانت تعد من إيران حسب مقتضيات تلك المعاهدة . ويوم عد القيصر خروج المتطوعين الإيرانيين خرقاً لمعاهدة « كِلستان » كان أولئك المتطوعون منقطعين في تبريز وزنجان لم يقدموا على عمل حربي ، على حين كانت حاميات القيصر تتعدى الحدود أحياناً كما ذكرنا . ومع ذلك فقد جعل القيصر خروج المتطوعين الإيرانيين ذريعة له إلى استئناف الحرب وسير جيشاً بقيادة الجنرال « أريستوف » إلى أذربيجان ، مدعياً أن « فتح علي شاه » هو البادىء بالحرب ، إذ سمح للمتطوعين بالخروج إلى الجهاد !

عندئذ عاد « فتح علي شاه » ، وهو يرى « أريستوف » يسير إلى تبريز

ليحتلها ويحتل غيرها من نواحي أذربيجان ، لا يستطيع الوقوف مكتوف اليدين عازفاً عن الدفاع . فخرج من طهران ، كارهاً ، إلى أذربيجان ليكون قريباً من ميدان الحرب ، وعهد بقيادة الجيش الإيراني إلى « عباس ميرزا » .

لقد أقدم « فتح علي شاه » على هذه الحرب اضطراراً لا اختياراً . وليس صحيحاً ما ذكره بعض المؤرخين الشرقيين من أن « فتح علي شاه » وجد نفسه ، بعد صدور الفتوى بالجهاد وخروج الناس في بعض المدن إلى الجهاد ، عند مفترق طريقين : إما أن يمنع الناس من الجهاد وإما أن يمضي إلى محاربة القيصر ، فاختار الثانية . وهو لو استطاع منع الناس من الخروج إلى الجهاد لفعل . ولكنه كان يرمى حينئذ عند الجمهور بالكفر والمروق من الدين . (انتهت رواية « جان يونير » عن موضوع الجهاد) .

بداية الحرب الثانية

ونقل « سعيد نفيسي » عن المؤرخين الإيرانيين والأجانب ما خلاصته :

لم تنجع محادثات السفير الروسي « الأمير منشيكوف » لرجال الدولة الإيرانية على ترك الخلاف . وكذلك محادثاته للمجتهدين وعلماء الدين ظلت بلا فائدة . وضيق إصرار هؤلاء الأمر على « فتح علي شاه » وأجبره على الحرب . واضطر إلى استدعاء السفير الروسي وأبلغه ما أجمع عليه العلماء والرؤساء من رأي ، وطلب منه العودة إلى بلاده وأتحفه ومرافقيه بهدايا وأعطاه مالاً لنفقات السفر ، وعهد إلى أحد رجال الدولة بمرافقته ورعايته بالضيافة والخدمة إلى أن يبلغ به إلى « تفليس » . وغادر السفير « السلطانية » يوم الجمعة ٢٤ ذي القعدة سنة ١٢٤١ هـ ، ووصل إلى « تفليس » في أول أيلول سنة ١٨٢٦ م الموافق شهر صفر سنة ١٢٤٢ هـ .

وكان « عباس ميرزا » قد حضر ، قبيل سفر السفير الروسي ، من تبريز إلى « السلطانية » ليعارض مساعي هذا السفير إلى تحقيق الصلح ، ويهيء الأسباب لإخراجه من إيران . وبعد ذهاب السفير من « السلطانية » أرسلت فوراً فرق العسكر الأولى ، وكانت قد جمعت قبل ذلك في « السلطانية » ، إلى ميدان الحرب ، وتبعها على الأثر رجال الدين المتطوعون للجهاد . وخرجت أول فرقة بعد ذهاب السفير بعشرة أيام . ولحق بها « عباس ميرزا » بعد سبعة عشر يوماً من ذهاب السفير .

وكان العقلاء من رجال الدولة الإيرانية يرون أن قرار الحرب هذا لا يقوم على قاعدة صحيحة معقولة ، وأنه سيفضي بإيران إلى كارثة محتومة ، وأن « عباس ميرزا » ، مع كل ما اتصف به من حصافة وتجربة وتعقل ، قد ارتكب خطأ جسيماً بإقدامه على الحرب . وأن الخلاص من معاهدة « كلستان » ، أو ، على الأقل ، إيقاف روسيا عما ترتكبه أحياناً من تجاوز للحدود التي عينتها تلك المعاهدة ، لا يتسنى لإيران بالحرب ، لأن روسيا أقوى منها كثيراً .

وكان من هؤلاء المعارضين الشاعر الكاتب « الميرزا عبد الوهاب معتمد الدولة » المعروف باسمه المستعار « نشاط » ، وكان من كبار رجال بلاط « فتح علي شاه » . وكان من المعارضين أيضاً « أبو الحسن خان الشيرازي » وزير الشؤون الخارجية . ولكن هياج الغوغاء وتحريكهم من قاصري الرأي ومن أصحاب المصالح الخاصة غلب على التعقل وحسن التدبير وأرهب العقلاء المعارضين فاضطروا إلى السكوت والتسليم .

الحرب الإيرانية الروسية الثانية

وكانت أول واقعة من وقائع الحرب الإيرانية الروسية الثانية إقدام « حسين خان » حاكم « إيروان » في ٢٢ ذي الحجة سنة ١٢٤١ هـ الموافق ٢٨ تموز سنة ١٨٢٦ م ، على اختراق الحدود التي عينتها معاهدة « كلستان » بخمسة آلاف من جنده واحتلال بعض ما في يد الروس من أرض . ولم يكن العسكر الروسي الذي في القفقاس متهيئاً للحرب ، إذ لم تكن الحكومة الروسية تتوقع إقدام إيران على الحرب ، مخالفة بذلك توقعات سفيرها وقائد عسكرها في إيران الجنرال « يرمولوف » .

وعلى حين كان « عباس ميرزا » ورجاله يعدون عدتهم للحرب كان القيصر الروسي يعد عدته لتوطيد الصلح القائم بينه وبين البلاط الإيراني بمقتضى معاهدة « كلستان » ويرسل « الأمير منشيكوف » سفيراً له فوق العادة إلى « فتح علي شاه » يحمل إليه الهدايا والتحيات ، ويلتمس منه إرسال وفد لتهنئته بالملك وتعزيته بأخيه . وقد حدث أول إقدام لإيران على الحرب وهذا السفير لا يزال في إيران . ومن أجل ذلك كله لم يكن الجيش الروسي يومئذ متهيئاً للحرب ، فانهزم بضع مرات في أوائل الحرب ، وتأخر إعلان روسيا للحرب رسمياً ثلاثة أشهر وثلاثة أيام ، فنشر هذا الإعلان في موسكو يوم ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٤٢ هـ الموافق ١٦ تشرين الأول ١٨٢٦ م .

وأخذت الحرب تشتد يوماً فيوماً ، والروس لا ينفكون يتراجعون منهزمين . ودخل جيش « عباس ميرزا » إقليم « قراباغ » واحتل مدينة « كنجه » ، وحاصر مدينة « شوشي » في أول شهر آب سنة ١٨٢٦ م الموافق ٢٦ ذي الحجة سنة ١٢٤١ هـ . ولكن الجنرال « يرمولوف » عاد فأرسل جيشاً لاسترداد « كنجه » . والتقى هذا الجيش بالجيش الإيراني ، وعليه « محمد ميرزا » ابن « عباس ميرزا » ، بالقرب من « كنجه » . فلم يقو الجيش الإيراني على الثبات للمدفعية الروسية ، ففر « محمد ميرزا » وتبعه جيشه منهزماً وأصبح احتلال « كنجه » ميسوراً للروس .

وفي أثناء ذلك أمدت موسكو « الجنرال يرمولوف » بأحد نوابغها العسكريين ، هو الجنرال « إيفان فيدور وفيتش فاسكيفيتش » ، وفوضت إليه القيام بكل عمل يراه صالحاً ، حتى عزل « يرمولوف » إذا اقتضى رأيه عزله . ووصل « فاسكيفيتش » هذا إلى القفقاس في ١٠ أيلول سنة ١٨٢٦ م الموافق ٧ صفر سنة ١٢٤٢ هـ . وفي ١٧ أيلول الموافق ١٤ صفر من تلك السنة تسلم القيادة ودخل ميدان الحرب .

ووقع أول لقاء بينه وبين الجيش الإيراني في نواحي « كنجه » . فأوقع « فاسكيفيتش » بالإيرانيين الهزيمة وغنم مقداراً من الذخائر وأسر جنده ألفاً من الجنود الإيرانيين . ووقعت مناوشات أخرى انتصر فيها الروس وقتلوا ألفي جندي تقريباً من الإيرانيين ، واحتلوا ناحية « قراشاي » حيث كان يعسكر « عباس ميرزا » . وأرسل « فاسكيفيتش » إلى القيصر « نيقولا الأول » نبأ هذا النصر .

وقد وقعت حرب « كنجه » هذه قبل ثلاثة أيام من نشر إعلان الحرب على إيران في موسكو . وحصل النصر للجيش الروسي بعد عشرة أيام من نشره .

وكان هذا النصر أول انتصار يحرزه القيصر بعد تملكه . فأرسل إلى

« فاسكيفيتش » يشكره برسالة عاطفية حماسية ، ويحرضه على احتلال « إيروان » وأهدى إليه سيفاً مرصعاً مكتوباً عليه « من أجل كسر الإيرانيين في اليزابيتوبول » .

وبعد انكسار العسكر الإيراني في « كنجه » أخذت أموره تزداد سوءاً يوماً فيوماً . ووقعت في ميدان الحرب مجاعة تأثر بها العسكر الروسي أيضاً .

وكان بين ضباط الجيش الروسي الكبار جماعة من أهل القفقاس الأصليين ، وأكثرهم من الكرج والأرمن ، وبعضهم من المسلمين ، وقد دخل كل أولئك في الجيش الروسي بعد احتلاله لتلك النواحي ، حتى إنهم غيروا أسماءهم بأسماء روسية ووصلوا بها لاحقة « أوف » التي تأتي في آخر أسماء الأعلام الروسية . وإذ كان هؤلاء الضباط يعرفون الألسنة المحلية ، ومنها اللسان التركي أكثر الألسنة تداولاً في تلك النواحي ، فقد أنس بهم الأهالي ، وكان هذا الأمر من جملة أسباب تقدم الروس .

وفي ١٧ أيلول سنة ١٨٢٦ م الموافق ١٤ صفر سنة ١٢٤٢ هـ فك « عباس ميرزا » الحصار عن مدينة « شوشي » وتراجع عنها . وفي ٣٠ أيلول وأول تشرين الأول سنة ١٨٢٦ م الموافق ٢٧ و٢٨ صفر سنة ١٢٤٢ هـ تراجع « عباس ميرزا » في نواحي « أصلان دوز »وفرمشاتاته، متفرقين في الجبال ، ولم يبق معه من جيشه غير الفرسان .

ومع حلول فصل الشتاء توقفت العمليات الحربية ما عدا مناوشات متقطعة قصيرة . وفي أثناء ذلك أمرت القيادة الروسية أحد ضباطها اسمه « مادانوف » بمهاجمة مدينة « أهر » . فسار إليها . وفي أثناء سيره خرب كثيراً من القرى الواقعة في طريقه وأسر بضعة آلاف من العائلات ونهب مخازن الطعام ، لا يلقى معارضة حتى قارب « أهر » .

ويفيد تقرير كتبه « فاسكيفيتش » إلى القيصر أن « عباس ميرزا » كان قد جمع يومئذ خمسة آلاف جندي من المشاة فأمرهم بالمسير إلى « أهر » . ولكنهم تمردوا على أمره ، وأعلنوا بأنهم باقون في مكانهم . وأخذوا يتحدثون فيما بينهم بأنهم يأملون بالتسليم بلا حرب . وكان السكان المحليون يشجعونهم على ذلك .

وكذلك وقع خلاف بين الجنرال « يرمولوف » والجنرال « فاسكيفيتش » . وكان الأول يسعى إلى إبعاد الثاني عن القفقاس وإعادته إلى روسيا . فأرسل القيصر رئيس أركانه العامة « ديبيتش » إلى القفقاس للتحقيق في هذا الخلاف ، ووصل هذا إلى «تفليس» في ٤ آذار سنة ١٨٢٧ م الموافق ٥ شعبان سنة ١٢٤٢ هـ .

وجاء في المصادر الروسية أن رسولاً من قبل حاكم « إيروان » العسكري وصل إلى « تفليس » مع وصول « ديبيتش » إليها ، وكان يحمل رسالة من حاكم « إيروان » إلى الجنرال « يرمولوف » يبلغه فيها أن الإيرانيين يريدون المهادنة . وأن رسولاً آخر من قبل وزير الشؤون الخارجية الإيراني وصل حاملاً رسالة موجهة إلى وزير الخارجية الروسي « الكونت دونسلرود » وفيها أنه مفوض كل التفويض بعقد معاهدة صلح بين إيران وروسيا . ولكن سرعان ما رفض « ديبيتش » هذا الاقتراح ، لأنه اشترط تسليم القلاع القائمة على حدود إيران إلى روسيا ، واشترط أيضاً أن ترتهن روسيا من إيران قسماً من أرضها ، يعين فيما بعد ، لتضمن وفاء إيران بما تتعهد به في معاهدة الصلح ولكن المندوب الإيراني رد بأن « عباس ميرزا » اضطرته تعديات موظفي روسيا في الحدود إلى مهاجمة الأرض الروسية ، ولم يكن بادئاً بالحرب . فقطع « ديبيتش » كلامه ورد عليه بغلظة قائلاً : إن لم تعترف إيران بخطإها فلن يقبل الأمبراطور اقتراح الصلح . وختم كلامه بقوله : إن يكن هذا شأنكم فلا مباحثة بيننا بعد اليوم !

وانتهى تحقيق « ديبيتش » في موضوع اختلاف « يرمولوف » و « فاسكيفيتش » إلى أن أمر القيصر بعزل « يرمولوف » وإسناد القيادة العسكرية العامة في القفقاس إلى « فاسكيفيتش » ، فتسلم منصبه هذا في ٩ نيسان سنة ١٨٢٧ م الموافق ١٢ رمضان سنة ١٢٤٢ هـ .

وبهذا التغيير ازدادت أمور إيران سوءاً . إذ كان القائد الجديد أعرف من سلفه بالفنون العسكرية وأوفر منه نشاطاً لأنه أصغر منه سناً . وكان ، إلى ذلك ، مقرباً من القيصر « نيقولا » لا يرد له قولاً .

وفي ٢٥ نيسان سنة ١٨٢٧ م الموافق ٢٨ رمضان سنة ١٢٤٢ هـ احتل الروس مدينة « إتشميادزين » من ولاية « إيروان » ، وكان الإيرانيون قد أخلوها في اليوم السابق . وهذه المدينة فيها أعظم كنائس الأرمن وهي مركز جاثليقهم . وواصل الروس تقدمهم في الولاية .

وفي هذه الأثناء أنشأ الروس في معسكر « فاسكيفيتش » مكتباً للنظر في الأمور المدنية والعلاقات الخارجية . وفي ٥ أيار سنة ١٨٢٧ م الموافق ٨ شوال سنة ١٢٤٢ هـ كتب « الكونت نسلرود » وزير خارجية روسيا إلى « فاسكيفيتش » يبلغه تعيين أحد مستشاري الدولة رئيساً لهذا المكتب وإسناد أمور العلاقات الخارجية إليه ، وأن رئيس المكتب هذا مأمور بعمل ما يلزم لدعوة إيران إلى المفاوضة . وأوصاه برفض تدخل الإنكليز في مفاوضات الصلح . وكان الكاتب الروسي المعروف « غريبايدوف » أحد أعضاء هذا المكتب الذين قدموا إلى معسكر « فاسكيفيتش » لهذه الغاية . وهو ابن أخت « فاسكيفيتش » .

وفي ذلك التاريخ ، أي ٥ أيار سنة ١٨٢٧ م الموافق ٨ شوال سنة ١٢٤٢ هـ ، كان « فاسكيفيتش » قد عزم على محاصرة مدينة « إيروان » . وفي ٩ أيار الموافق ١٢ شوال من تلك السنة كان الجيش الروسي قد احتل ما حول المدينة من جهة الشمال وجهة الشرق .

وفي ٨ تموز الموافق ١٣ ذي الحجة من تلك السنة دخل الجيش الروسي ولاية « نخجوان » وحاصر قلعة « عباس آباد » . وقدم « عباس ميرزا » و « فتح علي شاه » من تبريز بجيش كثيف إلى تلك النواحي ، وعسكرا في مدينة « خوي » .

ودارت عدة معارك انتهت إلى هزيمة الإيرانيين واحتل الروس قلعة « عباس آباد » ، وهي عمدة الدفاع عن مدينتي « إيروان » و « نخجوان » . وفي أول شهر تشرين الأول سنة ١٨٢٧ م الموافق ١٠ ربيع الأول سنة ١٢٤٣ هـ احتلوا قلعة « سردار آباد » من ولاية « نخجوان » واحتلوا أماكن أخرى ، وقتلوا كثيراً وأسروا كثيراً من الجند ومن رؤساء العسكر وأسروا بعض رجال العائلة المالكة .

وفي ١٢ تشرين الأول الموافق ٢١ ربيع الأول من تلك السنة احتلوا

مدينة « إيروان » . وأسروا من الجند المدافعين ثلاثة أفواج وغنموا كثيراً من المعدات الحربية وغيرها . وخربت كل بيوت المدينة تقريباً وامتلأت الطرق بجثث القتلى من الجند الإيرانيين . وأمر « فاسكيفيتش » بتحويل أحد مساجد المدينة إلى كنيسة تذكاراً لهذا النصر . واستغرقت الحرب لاحتلال قلاع « عباس آباد » و « سردار آباد » و « إيروان » ثلاثة أشهر .

وبفتح « إيروان » علا صيت « فاسكيفيتش » وأصبح أشهر قائد عسكري في روسيا . وأنعم عليه القيصر بكثير من الامتيازات . ومن ذلك الإنعام عليه بلقب درج عليه الروس ، وهو نسبة من يفتح فتحاً عظيماً إلى البلد الذي يفتحه . وقد أنعم على « فاسكيفيتش » بلقب « إيروانسكي » ، أي « الإيرواني » .

احتلال تبريز

كان « الكونت نسلرود » وزير خارجية روسيا قد أمر الجنرال « فاسكيفيتش » أن يقترح الصلح على إيران بعد أول انتصار مهم يحصل عليه .

وبعد احتلال الروس لقلعة « سردار آباد » ، وقبل احتلالهم لمدينة « إيروان» أمر « فتح علي شاه » ابنه « عباس ميرزا » أن يبادر إلى مصالحة الروس ويتخلى لهم عن ولايتي « نخجوان » و « إيروان » ، إذ كان قد أيس من النصر .

ولكن « عباس ميرزا » خالف أباه فلم يطلب المصالحة ، إذ كان فصل الشتاء قريباً ، وهو يأمل أن يعوق برد أذربيجان الشديد تحركات الروس فتطول حرب « إيروان » ، وكذلك كان يقوم بتحريض أهالي النواحي التي احتلها الروس وراء نهر « أرس » على الثورة . وقد نجح في إثارة الداغستانيين ، ولكن الروس أخمدوا ثورتهم بسرعة . وكان لا يزال مخدوعاً بمواعيد الإنكليز مع كل ما بدا منهم من إخلاف للمواعيد . ويجدر بالذكر أن السفير الإنكليزي وأعضاء سفارته وفريق من الضباط الإنكليز الذين كان لهم في الظاهر عنوان المستشارين في الجيش الإيراني ، كانوا يرافقون « فتح علي شاه » و « عباس ميرزا » في مختلف ميادين الحرب ويحرضونهما على متابعة الحرب ورفض المصالحة .

ولما فتح « فاسكيفيتش » مدينة « إيروان » أصبح مستعداً لوقف الحرب . وأبلغ الروس الدولة الإيرانية أنهم حاضرون للصلح بشرط أن تؤدي إليهم إيران غرامة حربية مقدارها عشرون مليون روبل . ولكن « عباس ميرزا » تباطأ لا يرد بجواب صريح .

عندئذ عزم « فاسكيفيتش » على احتلال مدينة « تبريز » ، ثم طهران ، والقضاء على الدولة الإيرانية . وفي شهر تشرين الأول سنة ١٨٢٧ م الموافق شهر ربيع الأول سنة ١٢٤٣ هـ تحركت ثلاثة جيوش روسية من ثلاث نواحي مختلفة ، أحداها خرج من « إيروان » بقيادة « فاسكيفيتش » ، قاصدة تبريز من طرق مختلفة .

وكانت الأوضاع الداخلية في النواحي التي احتلها الروس والنواحي التي يحتلونها ، وهم يقصدون إلى تبريز ، سيئة جداً . وقد وجد الروس في اختلال هذه الأوضاع عوناً كبيراً لهم على التقدم .

كانت عمدة الأعمال التجارية والصناعية يومئذ بيد الأرمن وكان الأرمن يحقدون على الإيرانيين لما كانوا يلقونه من ظلم أيام تجبيش الجيوش على يد الموظفين الإيرانيين . وكانت عدة أولئك الأرمن يومئذ تقدر بستين ألفاً في أذربيجان . وكانوا يعاونون الروس إذ كانوا على دينهم من جهة ، ويكرهون الإيرانيين من جهة أخرى .

وكان أتراك أذربيجان تجمعهم بأتراك روسيا آصرة القرابة والقومية واللغة . وكان أكثرهم يتعاطى الفلاحة ، ومحاصيلهم لا تنفك عرضة للإغارة والآفات الزراعية على مدى سبعة عشر عاماً من الحروب ، من عهد « آقا محمد خان » إلى اليوم . فهم لذلك ، لا ينفكون متذمرين ناقمين . والأكراد تفرقهم عن موظفي الدولة القاجارية الذين كانوا يتولون شؤونهم فوارق مذهبية . فهم حاقدون ناقمون . وقد استطاع « عباس ميرزا » ، بشق النفس ، أن يجند منهم كتيبة فرسان . ولكنهم لم يفيدوه بشيء في الميدان . وكانوا يولون الأدبار عند أول فرصة ، وينهبون ، وهم في طريق الفرار ، كل ما تقع عليه أيديهم ، ثم يأوون إلى خيامهم في منازلهم .

وفي ١٩ تشرين الأول سنة ١٨٢٧ م الموافق ١٨ ربيع الأول سنة ١٢٤٣ هـ احتل « أريستوف » أحد قادة تلك الجيوش الثلاثة مدينة « مرند » .

وكانت تبريز على حال في منتهى السوء من التشويش والاختلال . فقد عجز حاكمها العسكري « اللهيار خان آصف الدولة » عن تجنيد الناس للحرب إذ عصوا أمره لا يذعنون له . فتوسل إلى حملهم على الطاعة بالإرهاب ، وذلك بالإقدام على عمل فظيع . وهو أنه أمر بالتقاط جماعة من المارة في الطرقات ، وقطع آذانهم وأنوفهم وإبهامهم في كل ميدان من ميادين المدينة ، ففعلوا بهم ذلك بلا ذنب أذنبوه . ومع ذلك ظل الناس على عصيانهم لا يذعنون له .

وقام أحد رجال الدين اسمه « آقامير فتاح » على المنبر فخطب قائلاً : إذ أن العسكر الإيراني لم يستطع الثبات ، لا في ميدان الحرب ولا وراء أسوار سردار آباد وإيروان ، فليس واجباً على أبناء هذه المدينة أن يذهبوا إلى الحرب . وخطب في يوم آخر وشرح في خطبته ما قام به القاجاريون من ظلم وسلب ونهب .

وكان « السيد محمد الأصفهاني المجاهد » الذي أفتى بالجهاد ، وقد مر ذكره ، قد حضر إلى تبريز ليشارك في الحرب . فلما اقترب الروس من تبريز خرج مع جماعة متجنداً لحربهم . ولكنه لم يلبث أن وقع في الحيرة واختلطت عليه الأمور وتداخلت إذ وجد أن ممارسة الجهاد بالفعل غير الإفتاء به بالنظر فهو لا يدري ما يفعل . ثم مرض فعاد قاصداً إلى قزوين ، وقضى نحبه في الطريق ، وقيل في قزوين . وحمل جثمانه إلى كربلاء فدفن فيها .

وفي صباح ٢٣ تشرين الأول سنة ١٨٢٧ م الموافق ٢٢ ربيع الأول سنة ١٢٤٣ هـ وصلت طليعة الجيش الروسي الذي يقوده « أريستوف » ، وكانت بقيادة المقدم « فانكراتيف » ، إلى ظاهر تبريز ، فخرج جماعة من الأهالي يستقبلونه ، ودخل المدينة سلماً ، وقوبل بالهتاف له ومظاهر الترحيب به ، واحتل المراكز العسكرية واستولى على مستودعات الأسلحة ومصانعها . وبعد بضع ساعات وصل الجيش كله ودخل المدينة على إيقاع الموسيقى العسكرية .

وكان حاكم المدينة العسكري « اللهيارخان » قد اختبأ في خرابة . فعثر عليه أحد قوزاق البحر الأسود وعرفه وقبض عليه وجاء به إلى « أريستوف »[1] . وفي ذلك اليوم نفسه عبرت بقية الجيش الروسي ، وكانت متوقفة في « جلفا » وراء نهر « أرس » هذا النهر ودخلت أذربيجان .

وفي تلك الأيام ألصقت بالعالم الديني « ميرفتاح » تهمة الخيانة والارتشاء ، مع أنه لم يصنع شيئاً سوى أنه اختار أهون الشرين ، وحفظ دماء الناس من أن تهدر عبثاً في معركة لا تحصل إيران منها على غير الخسارة .

مساعي الصلح

وفي أواخر تشرين الأول الموافقة أواخر ربيع الأول من تلك السنة ذهب سكرتير السفارة الإنكليزية « كامفبل » وحاكم تبريز « فتح علي خان » إلى « فاسكيفيتش » ، وكان لا يزال في « نخجوان » ، يقترحان عليه الدخول في مفاوضات للصلح . وقد أحسن « فاسكييفيتش » استقبال السكرتير الإنكليزي ، ولكنه أبلغه أنه يستقبله بما هو ضيف لا بما هو مفاوض ، وأنه يرفض تدخله في هذا الأمر ، والمفاوضة تكون بينه وبين رسول « عباس ميرزا » فقط . وطلب هذا من « فاسكييفيتش » بلهجة استغاثة ، أن يوقف تقدم الجيش الروسي ، على أن يصله في أقرب وقت رسول من الشاه نفسه يحمل معه القسط الأول من الغرامة الحربية التي سبق أن طلبها شرطاً للمصالحة .

ولكن « فاسكييفتش » رفض اقتراحه وقال له إنه سائر إلى « مرند » وحين يصل إليها تكون شروطه للمصالحة أصعب .

وفي ٢٨ تشرين الأول سنة ١٨٢٧ م الموافق ٢٧ ربيع الأول سنة ١٢٤٣ هـ دخل « فاسكييفيتش » إلى مدينة « مرند » . وهناك بلغه نبأ بأن « عباس ميرزا » ذهب إلى « خوي » وأن عسكره في « قراداغ » قد شتتهم العسكر الروسي . وبلغه أيضاً نبأ تسليم تبريز .

وفي ذلك اليوم حمل إليه رسول من « عباس ميرزا » رسالة يطلب فيها الاجتماع به للمذاكرة في موضوع الصلح . وكان سكرتير السفارة الإنكليزية يرافق رسول « عباس ميرزا » هذا ، ولكنه لم يكن طرفاً في الحديث . وأجاب « فاسكييفيتش » على طلب « عباس ميرزا » برسالة قال فيها : في تبريز فقط يمكن أن نتلاقى لا في غيرها . وقال أيضاً : ليقم عباس ميرزا في (خوي) مطمئناً ، وأنا آمر جندي بأن لا يضايقوه بشيء .

وفي اليوم التالي حمل « فتح علي خان » حاكم تبريز رسالة أخرى من « عباس ميرزا » إلى « فاسكييفيتش » ، فالتقى به وهو في طريقه إلى تبريز . وكان مضمون هذه الرسالة كمضمون الأولى . ولكن « فاسكييفيتش » رفض الملاقاة وزاد على ذلك أنه أصبح لا يرضى بمقدار الغرامة التي سبق أن طلبها ، وأنه يطلب زيادتها بمقدار عينه .

وتفيد المصادر الروسية أن انهزامات « فتح علي شاه » المتتالية نفرت الأذربيجانيين منه ، فأعلنوا بمخالفته جهاراً من ذلك أن حاكم « مراغة » أرسل يومئذ ابنه « رضا قلي خان » إلى « أريستوف » في تبريز ، قاطعاً مسافة ١٦٧ كيلو متراً ، يعرض عليه تسليم مدينة « مراغة » إلى الروس . فأجابه « أريستوف » بأن على أبيه أن يعلن أولاً بدخوله في طاعة الدولة الروسية ويطلق ٤٢ أسيراً روسياً محتجزين في نواحي « مراغة » منهم ٢٢ أسيراً برتبة ضابط . فبادر الخان حاكم « مراغة » فوراً إلى السير بجماعة من جنده وتعقب الجنود الإيرانيين فاستخلص الأسرى الروس منهم وحملهم إلى تبريز وسلمهم إلى « أريستوف » .

وفي ٣١ تشرين الأول الموافق ٣٠ ربيع الأول دخل « فاسكييفيتش » إلى تبريز ، فاحتفل الناس بقدومه بمظاهر الابتهاج والفرح ونثروا الزهر ونحروا الذبائح في طريقه . وزاره « ميرفتاح » وأعطاه رسائل بعث بها إليه حكام « مراغة » و « أهر » و « أردبيل » و « خوي » يعرضون عليه تسليم مدنهم إلى الروس .

وبعد بضعة عشر يوماً من احتلال تبريز استشار الروس مخاتير المدينة في تعيين مقادير الضرائب وكيفية توزيعها على المكلفين ، وأتم الروس هذا العمل حسب ما أشار به المخاتير . ولكن الأهالي لم يعجبهم ترتيب الضرائب هذا وأغلقوا متاجرهم وتجمهروا في الساحات العامة وهددوا بالثورة . فقام « مير فتاح » بزيارة « فاسكييفيتش » وأعلمه أن من حرك الناس للاعتراض إنما هم موظفو الدولة الإيرانية وجباتها ، لأن الترتيب الجديد يضر بمصالحهم الخاصة ، وسلم إليه لائحة بأسماء المحرضين ، فاعتقلوا وسجنوا . وعندئذ سكن الناس وعاد الهدوء إلى المدينة .

ويجدر بالذكر أن الحالة النفسية والفكرية التي كان عليها الإيرانيون يومئذ كان لها أثر كبير في فتور الناس عن المقاومة وميلهم إلى الاستسلام . فقد كانت إيران منهكة بحروب وفتن متواصلة طالت عليها أكثر من مائة عام ، من انقراض الدولة الصفوية إلى زمن « فتح علي شاه » . فبعد عهد زاهر بالقوة والعظمة نعمت به إيران أيام حكم الصفويين تداولتها سلسلة من فجائع القتل والخراب والإرهاب وسوء السياسة والانشقاقات الداخلية . فلما آل الأمر إلى القاجاريين بلغت الحال مبلغاً عظيماً من السوء ، خصوصاً أيام حكم « فتح علي شاه » وحروبه الطويلة الخاسرة ، وما أوقعته بإيران من إذلال وإضعاف . وفوق هذا كان الإيرانيون يكرهون القاجاريين ويعدونهم غرباء مغتصبين . بل كانوا لا يزالون يحنون إلى عهود الصفويين ويعطفون عليهم ويرون أنهم كانوا أحق بالحكم من غيرهم لأنهم من السلالة النبوية ، وأنهم قد غصبوا حقهم . ويرون أن ما مني به « فتح علي شاه » من هزائم وانكسارات إنما كان عقاباً إلهياً ! ولذلك جعل الناقمون على الأسرة القاجارية ، ولا سيما موظفيها ، يوم دخل الروس أذربيجان ، من خيانتهم لهذه الأسرة نوعاً من الاستقامة والصلاح !

كان « عباس ميرزا » قد فر إلى ناحية « سلماس » من أذربيجان ، ينتظر جواب « فاسكييفيتش » على طلبه للصلح . ويستفاد من المصادر الروسية التاريخية أن جماعة من حكام الإقليم الإيرانيين عرضوا يومئذ على « فاسكييفيتش » أن يسلموا إليه « عباس ميرزا » ، ولكنه رفض وفضل أن يبقيه طليقاً ليكون ممثل إيران في مفاوضات الصلح لعقد الميثاق الذي ينوي فرضه على إيران .

وفي أواخر شهر تشرين الأول سنة ١٨٢٧ م الموافقة أوائل جمادي الأولى سنة ١٢٤٣ هـ عسكر « عباس ميرزا » في ناحية « أرومية » قرب نهر « غازي

(١) ظل « اللهيارخان آصف الدولة » هذا مدة من الزمن أسيراً عند الروس . ثم دخل في خدمتهم وأصبح موظفاً عندهم .

شـاي » . ويـومئـذ عـرض حـاكم « أرومية » وحـاكم « خـوي » عـلى « فاسكييفيتش » أن يسـلما إليه . بل عرضا عليه أن يعاوناه عـلى قطع دابـر ما تبقى من جند « عباس ميرزا » .

وأرسـل إليـه رؤسـاء العشـائـر في نـواحي أخرى رسـلاً من قبلهم ، وبعضهم حضروا بـأنفسهم ، يؤذنونـه بـأنهم حـاضرون للتسليم إليـه . وهب البـداة من سكـان الخيام في أذربيجـان يشغبـون عـلى الحكـومـة الإيـرانيـة ويقاومونها ، حتى قطعوا الطريق بين طهران وأذربيجان .

وأرسـل القيصر الروسي إلى « فـاسكييفيتش » أمراً بـالاكتفاء بـاحتلال ولايتي « نخجـوان » و « إيروان » وجعـل « أرس » الحد الفـاصـل بـين مـا احتلته روسيا وأرض إيران . وأمره أيضاً بأن لا يخالف خصوم القاجاريين ولا يسعى إلى إسقـاطهم من الحكم مـراعـاة لمـا تعهـدت بـه روسيـا في معـاهـدة « گلستـان » من المحافـظة على منصبهم في الملك والإبقـاء عـلى ولايـة العهـد لعباس ميرزا . ولـذلك لم يـطلب « فاسكييفيتش » من أحـد من حكام تلك النواحي ولا من البداة سكان الخيام ولا أهل المدن أن يساعدوه بالخروج عـلى دولتهم وخيانتها .

وعهد « فاسكييفيتش » إلى أحد ضباطه بإدارة الأعـمال في أذربيجان ، وأقـام معه مجلسـاً استشاريـاً يعـاونـه ، مؤلفـاً من أربعـة ضبـاط من الـروس و « ميرفتاح » و « فتح علي خان » حاكم تبريز السابق .

وفي يـوم ٢ تشرين الثاني سنة ١٨٢٧ م المـوافق ١٢ ربيـع الثـاني سنـة ١٢٤٣ هـ حضر إلى تـبـريـز ، بـلا إعـلام سـابق ، « الميرزا أبـو القـاسـم القائمقام »[1] مدير أعـمال « عباس الميرزا » ، مرسلاً من قبل ولي العهـد ، لمباحثة « فاسكييفيتش » في أمر الصلح ، وهو مفوض إليه تفويضـاً مطلقـاً أن يقدم على كل ما يراه مناسباً .

محادثات الصلح

ولكن « فاسكييفيتش » حصر المحادثة في خط محدود وعلى نحو معين لا تحيد عنه . وهـو أنـه حـوّل القـائمقـام إلى رئيس المكتب السيـاسي الـروسي « أوبريسكو » ، وكان يقيم على بعـد سبعة كيلو مـترات ونصف الكيلومتر من تبريز ، لمباحثته ووضع قرار بالمصالحة على أساس ثلاث مواد ، هي :

١ ـ أن تتخلى إيران لروسيا عن ولاية « إيروان » وولاية « نخجوان » .

٢ ـ أن تجلو إيران عن ناحية « طالش » وتسلمهـا إلى روسيا . وكـانت هـذه النـاحيـة قـد اقتـطعت من إيـران وألحقت بـروسيـا بمقتضى معـاهـدة « گلستان » . ولكن إيران عادت فاحتلتها في أول الحرب الثانية .

٣ ـ أن تؤدي إيران إلى روسيا سبعة ملايين ونصف المليون تومان ، أي ما يساوي ثلاثين مليون روبل فضة ، غرامة حربية .

وعين « فاسكييفيتش » مدداً تؤدي فيها هذه الغرامـة أقساطـاً ، على أن يبقى الجيش الـروسي محتلاً أذربيجـان إلى أن يؤدي آخر قسط من الغـرامـة . وعندئذ يجلو الروس عن أذربيجان ، وإلا ظلت في أيديهم .

وعاد « القائمقـام الميرزا أبـو القاسم » إلى « عبـاس ميرزا » وكـان في « خوي » ، يحمل شروط « فاسكييفيتش » للصلح . فأجابه « عبـاس ميرزا » برسالة وافق فيها على تلك الشروط . وعين يوم ٤ تشرين الثاني سنة ١٨٢٧ م الموافق ٢٤ ربيع الثـاني سنة ١٢٤٣ هـ موعداً لملاقاتـه في بلدة «دهخوارقـان» .

وحـدث في أثنـاء ذلـك أن فـرقـة من الجيش الـروسي سـارت إلى مـدينـة « شبسـتر » فخف « عبـاس مـيرزا » إلى الخروج من « خـوي » والسير إلى « شبستر » لملاقاة الروس سلماً . وفور خروجه من « خوي » بادر حاكمهـا إلى الـذهاب إلى تـبريز ودخـل عـلى « فـاسكييفيتش » فسلم إليـه مفـاتيـح قلعـة « خـوي » وأخـبره أن فيهـا قـدراً وافـراً من الغـلال والمـدافـع وجميـع لـوازم المدفعية . فأقره « فـاسكييفيتش » على عمله في حـاكمية « خـوي » ، وأرسل من قبله ضابطاً روسياً حاكماً عسكرياً عليها ، ومعه فوج من العسكر .

خرج « عباس مـيرزا » من « خوي » قـاصداً « شبسـتر » في صباح ١٧ تشرين الثـاني سنة ١٨٢٧ م المـوافق ٢٧ ربيع الثـاني سنة ١٢٤٣ هـ ، ومعـه خمسون ومائة من رجاله . فأرسل القائد الروسي فرقـة من جنوده لاستقبـاله ، وحياه حين وصوله بطلقات مدفعية .

وفي ذلـك اليـوم نفسـه وصـل « فسكيبفيتش » إلى « دهخـوارقـان » واستقبله فيها « خسروميرزا » ابن « عباس ميرزا » ، وكان في السادسة عشرة من عمره . وفي اليوم التالي أرسل « فاسكييفيتش » من قبله الجنرال «الكونت سـوشتيلين » مـع بضعـة ضبـاط إلى « عبـاس مـيرزا » ليصحبـوه إلى دهخوارقان » . وفي كل هذه الـوقائـع بالـغ الروس كثيراً في الاحتفال بـولي العهد الإيراني وتكريمه والتقرب إليه بالعبارات المعسولة . ويـذكر أنه قال لهم يومئذ « إني لأعجب أن أكون ضيفاً عليكم وأنا في هذه الأرض ! . . . » .

وفي اليـوم التـالي بـدأت المـفـاوضـات بـين « عبـاس مـيرزا » و « فاسكييفيتش » . وقبل « عباس ميرزا » بكـل ما طلبه الروس ، حتى إنـه قـال لمفـاوضـه : « إن لـم يُعنِّ قيصر روسيـا فـلا بـد لي من الفـرار إلى أرض العثمانيين ، إذ أني سقطت من كل اعتبار في نظر الناس » . ثم قال : « أو أفر إلى الهند وأسلم نفسي إلى الإنكليز ! » .

ومع ذلك فإن محادثات «دهخوارقان» لم تصل إلى نتيجة حاسمة . فعاد « عباس ميرزا » إلى طهران ، يرافقه السفير الإنكليزي لمتابعة مساعي التمهيد للصلح وأرسـل « فاسكييفيتش » معـه جماعـة من عسكـره يشيعونه بمظاهـر الاحترام إلى أول طريق طهـران . وحين ودعـه قال لـه : لن يتوقف عسكـرنا عن التقدم ما لم توضع الغرامة بين يديه !

وفي ٢٧ كانون الثـاني سنة ١٨٢٨ م المـوافق ١٠ رجب سنة ١٢٤٣ هـ احتـل الروس مـدينة « أروميـة » سلماً وفتحت لهم أبواب قلعتهـا . وفي الأثناء دخلوا أيضاً مـدينة « مـراغة » ونـواحيها سلماً . وأقـروا عليها حـا[كمها] الإيراني « جعفر قـلي خان » ، وكـان قد سبق أن أعلن الـروس بولا[ئه] وخلت جميـع النواحي من جنـوب أذربيجان الغـربي من العسكـر الإي[راني] ورحلت بقية قليلة من جنود « عباس ميرزا » إلى زنجان ساعة اقتراب الروس من « مراغة » .

وفي ٦ شبـاط سنـة ١٨٢٨ م المـوافق ٢٠ رجب سنـة ١٢٤٣ هـ دخـل الروس مدينة « أردبيل » بـلا مقاومـة . وظلت قلعتها ثـابتة لا تسلم ، وكـان على حاميـة القلعة اثنـان من أبناء « عبـاس ميرزا » . ومـع أن أباهمـا كان قـد

(١) هـو ابن « الميرزا عيسى » المعـروف بلقب « القائمقـام » ولقب « الميرزا الكبـير » ، وقـد مـر ذكره . وقد خلف أباه هذا في منصب مدير أعمال « عباس ميرزا » . وكانـا كلاهمـا من كبار رجال الدولة .

أمرهما بتسليم القلعة فإنهما خالفا أمره. ولكنهما أرسلا إلى قائد الجيش الروسي المحتل أنهما حاضران للتسليم ، إلا أنهما يطلبان منه التظاهر بأنه يحاصر القلعة مدة ثلاثة أيام يطلق فيها على القلعة قنابل يقتصر في حشوها على البارود فقط فتشتعل ولا تؤذي ، ليصونا بذلك سمعتهما العسكرية ، فيقال إنهما قاوما ثم اضطرا إلى التسليم مكرهين . ولكن القائد الروسي رفض القيام بتمثيل هذه المسرحية ، وأطلق على القلعة ثلاث قنابل صغيرة ، فبادر الأخوان إلى الاستسلام فوراً .

ونهب العسكر الروسي المخطوطات النفيسة التي في مكتبة مزار « الشيخ صفي الدين الأردبيلي » ، وأرسلها « فاسكييفيتش » مع مفاتيح قلعة أردبيل إلى القيصر .

وطالت بعد ذلك المذاكرات والمراسلات في موضوع مقدار الغرامة حتى تبين الروس أن إيران لا تستطيع أن تؤدي إليهم أكثر من خمسة ملايين تومان ، تعادل عشرين مليون روبل فضة . وفي أثناء ذلك وقعت حرب بين العثمانيين والروس . وأراد العثمانيون تقوية الإيرانيين على الروس بإمدادهم بالرجال والسلاح ، ولكن الوقت كان فات . ومع ذلك كانت هذه الحرب من الأسباب التي حملت الروس على التعجيل بإيقاع الصلح بينهم وبين إيران .

بيد أن الروس ، مع ذلك ، واصلوا تقدمهم وعبأ « فاسكييفيتش » عسكره ، وأرسل فرق العمال والمهندسين يشقون الطرق اللازمة لمسير عسكره إلى طهران .

معاهدة « تركمان شاي »

عندئذ بادرت الحكومة الإيرانية إلى إرسال أول قسط من الغرامة وسلمته إلى الجيش الروسي في ١٣ شباط سنة ١٨٢٨ م الموافق ٢٧ رجب سنة ١٢٤٣ هـ . وأرسل « عباس ميرزا » ، وكان في طهران ، إلى « فاسكييفيتش » أن الشاه أمره بالمسير إلى تبريز لعقد معاهدة صلح على أساس الشروط التي أملاها الروس في اجتماع « دهخوارقان » السابق ، وأنه قادم إلى تبريز قريباً .

فأرسل « فاسكييفيتش » رسولاً من قبله إلى ملاقاة « عباس ميرزا » واصطحابه إلى « تركمان شاي » . وهي قرية كبيرة تقع على بعد اثنين وأربعين كيلومتراً من مدينة « ميانة » . وقد اختارها « فاسكييفيتش » لتكون محلاً للمفاوضة لأسباب استراتيجية .

وأعد الجنرال « سوشتيلين » ما يلزم من الوسائل لإقامة ضيافة فخمة ناس ميرزا . وكانت هناك تلة كبيرة جداً لعظام قتلى من الجنود الروس قتلوا ١٨٢٦ م (١٢٤٢ هـ) ، فدفنها « سوشتيلين » ونصب على مدفنها صليباً

ي ١٩ شباط سنة ١٨٢٨ م الموافق ٣ شعبان سنة ١٢٤٣ هـ وصل « عبا ميرزا » وثلاثة من رجال الدولة إلى « تركمان شاي » ، وبدأت المقاوضا

وفي صف الليل ما بين ٢١ و٢٢ شباط سنة ١٨٢٨ م الموافق ٥ و٦ شعبان سنة ١٢ هـ ، وهو وقت يعده المنجمون الإيرانيون مناسباً للعمل ، وقع الطرفان ا اي والروسي على معاهدة الصلح . وأطلقت طلقة ومائة طلقة مدفعية إيذاناً للناس بإيقاع الصلح .

ومن جملة ما قضت به هذه المعاهدة اقتطاع ولاية « إيروان » وولاية « نخجوان » من أرض إيران وإلحاقها بأرض روسيا . وأن تؤدي إيران إلى روسيا غرامة حربية مقدارها خمسة ملايين تومان تساوي عشرين مليون روبل فضة . وأن يكون لسفن روسيا التجارية حق حرية الملاحة في بحر الخزر . ولا يسمح به لغيرها من السفن الحربية . ونصت المعاهدة أيضاً على أن تتعهد روسيا بالاعتراف بأن ولاية عهد إيران لعباس ميرزا ولأعقابه من بعده . وعقدت بينهما أيضاً معاهدة تجارية .

مقتل « غريبايدوف »

أول سفير لروسيا في إيران ، بعد عقد معاهدة « تركمان شاي » ، هو الكاتب الروسي « الكساندر سرغييفيتش غريبايدوف » . وهو ابن أخت « فاسكييفيتش » . وكان يقيم في إيران في أثناء الحرب موظفاً عند خاله . وبعد التوقيع على معاهدة « تركمان شاي » في إيران أرسل « فاسكييفيتش » نسختها الأصلية معه إلى « بطرسبورغ » ليوقع القيصر عليها . وبعد التوقيع عينه القيصر سفيراً لروسيا في إيران ، فعاد إليها ومعه نسخة المعاهدة الموقع عليها . ووصل إلى طهران في الخامس من شهر رجب سنة ١٢٤٤ هـ الموافق ١١ كانون الثاني سنة ١٨٢٩ م .

وكان في معاهدة « تركمان شاي » بند موضوعه استرداد أسرى الحرب والهاربين اللاجئين من دولة إلى دولة ، سواء أكان الأسر واللجوء قبل الحرب أم في أثنائها . وقد وقع خلاف بين إيران وروسيا على تفسير هذا البند وتطبيقه . خلاف استمر سبعة عشر عاماً تقريباً إلى أن حل باتفاقية جديدة .

ويوم أصبح « غريبايدوف » هذا سفيراً لروسيا في إيران بلغ هذا الخلاف أقصى درجاته . فقد كانت عادة ذلك الزمان أن يُسترق الأسرى . وكان بين هؤلاء نساء من الأرمن ونصارى « كرجستان » ، منهن مسترقات ومنهن من تزوجن مكرهات بإيرانيين ولهن منهم أبناء . وكان أولئك الأسرى من الكرج والأرمن يرغبون في العودة إلى ديارهم وأهلهم . وكان « غريبايدوف » يرى أن ذلك من حقهم بمقتضى البند الخاص بالأسرى من معاهدة « تركمان شاي » . ويسعى جاهداً إلى استخلاصهم .

ويوم كان « غريبايدوف » في قزوين في طريقه إلى طهران عائداً من روسيا توقف هناك يريد استخلاص من في قزوين من الأسرى الأرمن والكرج وإعادتهم إلى بلادهم . ولكن المستفيدين من استبقاء هؤلاء الأسرى في الأسر والعبودية عارضوه وقاوموه ، حتى خشيت الحكومة الإيرانية من أن يصيبوه بأذى ، فبادرت إلى إخراجه من قزوين حفظاً له .

وفي طهران عاود مساعيه فلقي معارضة شديدة وتعذر على الأسرى أن يفوزوا بأمنيتهم . ولجأ فريق منهم من الأرمن والكرج إلى السفارة الروسية . وشاع بين الناس أن امرأتين أرمنيتين كانتا قد تزوجتا من إيرانيين وولدتا منهما أولاداً ، فأرسل « غريبايدوف » من انتزعهما عنوة من بيت الزوجية وحملهما إلى السفارة الروسية .

وقد نشط بعض رجال الدين إلى تحريض الناس وإثارتهم على السفير متذرعين بهذه الإشاعة . ومن هؤلاء المحرضين واحد اسمه « الميرزا مسيح الأسترأبادي » حرضوهم على مهاجمة السفارة الروسية فهاجموها .

فهب « غريبايدوف » إلى الدفاع . وكان المدافعون معه بضعة رجال من الإيرانيين كانوا حراساً للسفارة وفرقة من القوزاق جاء بهم معه من روسيا وعدتهم من عشرين إلى ثلاثين قوزاقياً ، وموظفو السفارة . ووقعت بين المهاجمين والمدافعين معركة حامية في يوم الجمعة ٣٠ كانون الثاني سنة ١٨٢٩ م الموافق ٢٤ رجب سنة ١٢٤٤ هـ .

وقتل برصاص الحرس ستة رجال من المهاجمين . فحملهم الناس ووضعوا كل قتيل منهم في مسجد من مساجد طهران . فضج رجال الدين بالاستنكار . وهجم ثلاثون ألفاً تقريباً من الرجال على السفارة الروسية فحاصروها وأخذوا يرمون المدافعين عنها بكل ما تصل إليه أيديهم ، حتى الحجارة والأخشاب .

ولما بلغ الخبر إلى « فتح علي شاه » بادر إلى إرسال فرقة من ألفي جندي لحماية السفارة . ولكنهم وصلوا بعد فوات الأوان . فقد كان موظفو السفارة ، وعدتهم خمسة وثلاثون ، قد قتلوا إلا واحداً منهم هو السكرتير الأول . ولم يبق حياً من القوزاق غير اثنين . وكان « غريبايدوف » نفسه قد قتل أيضاً بحجر وقع على صدغه . قتل ولما يمض على وصوله إلى طهران غير سبعة عشر يوماً . وحمل جثمانه إلى « تفليس » فدفن فيها .

سفارة « خسرو ميرزا »

وأثار مقتل السفير « غريبايدوف » غضب الدولة الروسية ، ولقد همت بأن تستأنف حرباً ثالثة على إيران ، لولا أنها كانت قد شرعت حرباً على الدولة العثمانية .

وبعد سبعة أشهر من تلك الواقعة أرسل « عباس ميرزا » أحد أبنائه « خسرو ميرزا » من طريق « تفليس » إلى « بطرسبورغ » للاعتذار إلى القيصر عن تلك الفتنة . وحمله رسالة إلى القيصر من « فتح علي شاه » ورسالة منه . ورافقه في هذه السفارة بعض الكبار من رجال الدولة ومنهم الكاتب الشاعر « محمد خان » المعروف باسم « فاضل خان الغروسي » .

وفي أثناء سير هذه البعثة في طريق القفقاس التقت بالشاعر الروسي الكبير « بوشكين » وهو مجند في جيش « فاسكيفيتش » ذاهب إلى محاربة العثمانيين . وقد نظم « بوشكين » قصيدة في موضوع التقائه هذا بالشاعر الإيراني «فاضل خان» في هذه الرحلة . وقد أعجب القيصر الروسي بشمائل الأمير الإيراني الشاب « خسرو ميرزا » حتى إنه أعفى إيران من تأدية القسط الأخير من الغرامة الحربية إكراماً له .

الحروب الإيرانية العثمانية

وفي عهد « فتح علي شاه » وقعت أيضاً حروب بين إيران والدولة العثمانية . حروب كانت امتداداً لما استحكم من عداء بين الدولتين من مطلع عهد الصفويين .

ولهذا الاختلاف عدة أسباب . منها اهتمام إيران بوضع مدينة بغداد ، وهي وسائر العراق يومئذ في حكم العثمانيين . فإن من يسيطر على هذه المدينة يسيطر على النجف وكربلاء وسامراء والكاظمية . وهي مدن مقدسة عند الإيرانيين . وهم يتطلعون إلى أن تكون إدارة شؤونها في أيديهم ، وما أكثر ما سعى « نادر شاه » إلى احتلال بغداد والسيطرة على مزارات العراق . ولما وصل القاجاريون إلى الملك ظلت هذه الأمنية تساورهم . وكانت أحد الأسباب في وقوع ثلاث حروب بين إيران والدولة العثمانية ما بين سنة ١٢٢١ وسنة ١٢٣٨ هـ .

ومن تلك الأسباب أن الحدود بين إيران والعراق في ناحية « السليمانية » من كردستان ظلت غير معينة من زمن « نادر شاه » . وكان تعيين حاكم « السليمانية » و « شهرزور » من إقليم « كردستان » في عهدة والي بغداد العثماني بشرط حصوله على موافقة إيران على من يختاره لهذا المنصب .

وفي سنة ١٢٢٠ هـ نشب خلاف بين إيران ووالي بغداد على منصب حكومة هذه الناحية ، إذ عزل الوالي حاكمها الذي ترتضيه إيران ونصب في مكانه حاكماً لا ترتضيه على « السليمانية » و « شهرزور » .

ولهذا السبب نشبت في ذلك الإقليم حرب بين الدولتين في سنة ١٢٢١ هـ . وهي أول حرب نشبت بينهما في عهد « فتح علي شاه » .

وكان قائد الجيش الإيراني « محمد علي ميرزا دولت شاه » ابن « فتح علي شاه » ، وله من العمر يومئذ ثمانية عشر عاماً . وعلى قيادة الجيش العثماني « علي باشا » حاكم بغداد وابن أخته « سليمان باشا كهيا » .

وقد أوقع الإيرانيون في هذه الحرب بالعثمانيين هزيمة نكراء وقتلوا منهم ثلاثة آلاف وأسروا ألوفاً . وكان من الأسرى « سليمان باشا كهيا » أحد قائدي الجيش العثماني ، وقد أرسله « محمد علي ميرزا دولت شاه » إلى طهران . وتعقب الإيرانيون العثمانيين حتى اقتربوا من فسطاط « علي باشا » نفسه .

عندئذ قام « علي باشا » بتوسيط المرجع الديني الشيعي « الشيخ جعفر » النجفي عند « محمد علي ميرزا » لإيقاع الصلح . فاستجاب له « محمد علي ميرزا » وأطلق أكثر من أربعة آلاف أسير عثماني من الأسر . ثم سافر « الشيخ جعفر » إلى طهران وشفع للقائد الأسير « سليمان باشا كهيا » عند « فتح علي شاه » فشفعه وأطلق أسيره .

وفي سنة ١٢٢٢ هـ توفي « علي باشا » والي بغداد ، فنصب « فتح علي شاه » في مكانه أسيره الطليق « سليمان باشا كهيا » وأعاد الحاكم المعزول الذي ارتضته إيران إلى منصبه حاكماً على « شهرزور » و « السليمانية » . وفي تلك السنة توفي أيضاً السلطان العثماني « سليم خان الثالث » وخلفه « مصطفى خان الرابع » ، ووافق هذا على تعيين « فتح علي شاه » لذينك الحاكمين في ذينك المنصبين . وأرسل « فتح علي شاه » مندوباً عنه إلى العاصمة العثمانية لتهنئة السلطان الجديد . ودام الصلح بعد ذلك بين إيران والدولة العثمانية خمس سنوات .

حرب سنة ١٢٢٧ هـ

في سنة ١٢٢٣ هـ تولى الملك السلطان « محمود خان الثاني » العثماني . وكانت إيران يومئذ مشغولة بمحاربة روسيا . فأرسل السلطان العثماني هذا وفداً إلى إيران ، وفيه جماعة من كبار رجال البلاط ، لتمكين الصلح والتفاهم بين الدولتين .

ووصل الوفد إلى طهران في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٢٦ هـ . وتم الاتفاق بين الفريقين على أن يكون لإيران وحدها حق اختيار حاكم

« شهرزور » . وأن يكون حاكماً على بغداد من ترتضيه الدولتان كلتاهما لهذا المنصب . وأن يعامل الزوار الإيرانيون في البلدان العراقية المقدسة بالحسنى . وأن يكون بين الدولتين ائتلاف في مخاصمتهما لروسيا . وأن تراعي كل منهما مصالح الأخرى إذا عقدت معاهدة بينها وبين روسيا .

ولكن الدولة العثمانية لم تلبث أن نقضت كل هذه العهود ، إذ عينت على بغداد والياً بدون موافقة إيران . وأقدم هذا الوالي في سنة ١٢٢٧ هـ على عزل حاكم « شهرزور » الذي عينته إيران . وعقد العثمانيون معاهدة صلح بينهم وبين روسيا أضرت بإيران .

عندئذ أمر « فتح علي شاه » ابنه « محمد علي ميرزا » بأن يعيد حاكم « شهرزور » المعزول إلى منصبه . وكان هذا العمل بداية للحرب . وقبل وقوع القتال أرسل « محمد علي ميرزا » رسولاً من قبله إلى بغداد لمباحثة الوالي التركي ، واسمه « عبد الله باشا » في أمر هذه المخالفات . ولكن الوالي حجبه ولم يسمح له بالدخول عليه . وفي شهر شعبان سنة ١٢٢٧ هـ سار الجيش الإيراني قاصداً مهاجمة بغداد ، ووقعت معارك في أماكن مختلفة من طريق سيره ، انهزم فيها الأتراك ، وأصبح احتلال الإيرانيين لبغداد أمراً وشيكاً سهلاً .

عندئذ لجأ « عبد الله باشا » إلى « الشيخ جعفر النجفي » يوسطه عند « محمد علي ميرزا » ويعلن بقبوله لمطالبه ، ويناشده الإسلام أن يوقف القتال الجيشين المسلمين . وعلى هذا النحو خدع الوالي العثماني « محمد علي ميرزا » فتوقف عن المحاربة وعدل عن مهاجمة بغداد وهو قادر على احتلالها بحرب يسيرة . وفي أثناء ذلك قبل الوالي بإعادة حاكم « شهرزور » المعزول إلى منصبه .

وبعد إقرار الصلح أقدم « أسعد باشا » ابن « سليمان باشا كهيا » الذي مر ذكره على قتل الوالي العثماني « عبد الله باشا » . وعُين « أسعد باشا » هذا سنة ١٢٢٨ هـ . في مكانه والياً على بغداد بموافقة إيران . وبعد مفاوضات قام بها مندوبون عن الدولتين في طهران وفي اسطنبول ، قبلت الدولة العثمانية بكل مقترحات إيران بشأن حكومة « شهرزور » وبغداد ومعاملة الزوار الإيرانيين والخلافات الحدودية . وعاد مندوبو إيران بعد آخر جلسات هذه المفاوضات من اسطنبول إلى طهران في أواخر ذي الحجة سنة ١٢٢٩ هـ .

حرب سنة ١٢٣٦ ـ ٣٨ هـ

وفي سنة ١٢٣٦ هـ تجدد الخلاف بين إيران والدولة العثمانية . وكان سببه أن والي « بايزيد » و « موش » العثماني حرض أحد رؤساء العشائر الإيرانية القاطنة قريباً من الحدود العثمانية أن يرحل برجال قبيلته إلى الأرض العثمانية ، ففعل . ولما أراد موظفو الدولة الإيرانية منعه من الرحيل تدخل الجيش العثماني المقيم في نواحي « وان » وساعده على الرحيل .

ومن جهة أخرى لجأ إلى معسكر « عباس ميرزا » رجل اسمه « صادق بيك » وقال إنه ابن « سليمان باشا كهيا » الذي مر ذكره ، وأنه هارب من والي بغداد ، وكان الوالي عليها يومئذ « داود باشا » .

وأرسل والي « أرضروم » العثماني إلى « عباس ميرزا » يطلب منه أن يسلم إليه هذا اللاجىء ومن معه من الرجال ، ووعد بأن لا يمسهم بسوء . فأجابه « عباس ميرزا » إلى طلبه وأرسل إليه « صادق بيك » ورجاله . ولكن والي « أرضروم » نقض وعده وقتل « صادق بيك » ورجاله كلهم .

واستلزمت هذه الحوادث نشوب حرب جديدة بين إيران والدولة العثمانية . وبدأت هذه الحرب في شهر ذي الحجة ، نهاية سنة ١٢٣٦ هـ . بدأت من أذربيجان و « كرمانشاهان » ، إذ هاجم الجيش الإيراني الأتراك في نواحي مختلفة من « بايزيد » و « أرضروم » وغيرها . ووقعت عدة معارك انتصر الإيرانيون فيها كلها ، وغنموا كثيراً من السلاح والعتاد ، وقتلوا وأسروا كثيراً من الرجال . وفي معركة واحدة وقعت عند « توبراق قلعة » ، وكان الإيرانيون يحاصرونها ، قتل الإيرانيون أربعة آلاف جندي من الأتراك ، واحتلوا القلعة .

وكان من جملة ما احتله الإيرانيون مدينة « بايزيد » نفسها . دخلها « عباس ميرزا » وخطب « الميرزا أبو القاسم القائمقام » فيها باسم « فتح علي شاه » . وما حل شهر صفر من سنة ١٢٣٧ هـ حتى كان الجيش الإيراني قد احتل ، في جملة ما احتل ، ثماني قلاع من أمهات القلاع العثمانية . وأرادت الدولة العثمانية استرضاء « عباس ميرزا » فعزلت والي « أرضروم » الذي نقض وعده له بقتل « صادق بيك » ورجاله بعد أن أمنهم .

وفي الجبهة العراقية هزم « محمد علي ميرزا » في شهر المحرم سنة ١٢٣٧ هـ الجيش التركي في نواحي « شهرزور » حتى ألحقه بكركوك . ثم احتل سامراء ، وسار إلى بغداد فحاصرها ، وكان الوالي عليها يومئذ « داود باشا » . فتوسل هذا بالمرجع الديني الشيعي الشيخ موسى » ابن « الشيخ جعفر النجفي » (صاحب كشف الغطاء) الذي مر ذكره ، وأرسله شفيعاً إلى « محمد علي ميرزا » . ولكن حدث حينئذ أن توفي « محمد علي ميرزا » وفاة فجائية ، وهو في معسكره القائم إلى جانب طاق كسرى في ضاحية بغداد . وظل سبب موته مجهولاً .

وقامت الدولة العثمانية بتجديد دفاعها فأرسلت جيشاً من سبعين ألف مقاتل إلى « أرضروم » لاسترداد البلاد التي احتلها الجيش الإيراني . ودارت معارك طاحنة في نواحي مختلفة انتصر الإيرانيون فيها كلها . وما حل شهر شوال من سنة ١٢٣٧ هـ حتى كان المعسكر التركي بجميع ما فيه من معدات وعتاد قد وقع في يد الجيش الإيراني . ولم يبق من العسكر التركي غير عشرين ألفاً ارتدوا على أعقابهم .

وأراد قادة الجيش الإيراني متابعة الحرب ، ولكن « عباس ميرزا » رفض متابعتها إذ كان جيشه متعباً يحتاج إلى الاستراحة . وأقام معسكره في سهل « خالباز » المونق .

وكان « الميرزا تقي خان الفراهاني » يومئذ من كتاب « الميرزا أبو القاسم القائمقام » . و « الميرزا تقي » هذا هو الذي عرف بعد ذلك باسم « الأمير الكبير » و « الأتابك » ، وأصبح الصدر الأعظم لناصر الدين شاه . وقد اختاره « عباس ميرزا » لسفارته عند العثمانيين . فأرسله إلى « أرضروم » لمباحثة ممثلي الدولة العثمانية في موضوع الصلح .

ولما بلغ نبأ هذه الفتوحات إلى « فتح علي شاه » عزم على أن يتم ما بدأه « محمد علي ميرزا » في جبهة بغداد . فجهز جيشاً سيره لاحتلال « شهرزور » وبغداد . ولكن وقع في جيشه وباء الهيضة « الكوليرا » وقضى على نصف عسكره . وكان ينوي أن يزور العتبات المقدسة في العراق ، فعدل عن عزمه

وعاد إلى طهران . ثم وصله خبرٌ بأن « محمد أمين رؤوف باشا » قائد الجيش التركي العام حاضر للصلح ، وأن ممثلين للدولة العثمانية سيحضرون إلى طهران في ربيع السنة القادمة للمفاوضة .

معاهدة الصلح

وفي مطلع سنة ١٢٣٨ هـ بدأ في طهران و « أرضروم » تفاوض الدولتين لإيقاع الصلح بينهما . وفي ١٩ ذي القعدة سنة ١٢٣٨ هـ ثم في « أرضروم » الاتفاق بين « الميرزا تقي خان الفراهاني » ممثل إيران و « محمد أمين رؤوف باشا » ممثل الدولة العثمانية على معاهدة للصلح ووقعا عليها . ثم أرسلت إلى السلطان العثماني « محمود خان الثاني » فوقع عليها . ووقع عليها « فتح علي شاه » في ربيع الثاني سنة ١٢٣٩ هـ .

ومع أن إيران كانت هي المنتصرة في هذه الحرب فإنها لم تحاول أن تفرض على الدولة العثمانية في هذه المعاهدة ما يفرضه الغالب على المغلوب في العادة . وكل ما حصلت عليه إيران من هذه المعاهدة هو تعهد الدولة العثمانية بأن تعامل الدولة الإيرانية والأفراد الإيرانيين بالإنصاف وبما تقضي به القوانين المرعية بلا إجحاف ولا تعد . وقبلت إيران بأن تجلو عن الأرض التي احتلتها من أرض العثمانيين وصرفت النظر عن المطالبة بتعويض عن خسائر في هذه الحرب !

إيران وأفغانستان

لما تملك القاجاريون كان أعقاب « نادر شاه أفشار » لا يزالون يحكمون في خراسان . ثم قضى « آقا محمد خان » على آخر عقب منهم « شاهرخ شاه » حفيد « نادر شاه » ، وبذلك سيطروا على خراسان وأصبحوا جيران أمراء أفغانستان .

وقد أصبحت الأرض المجاورة لأفغانستان من مطلع القرن الهجري الثالث عشر محلاً لتنافس قوى مختلفة . تنافس لا ينفك يتزايد يوماً فيوماً . فالإنكليز يسعون جهدهم ليكون لهم التقدم على غيرهم في أفغانستان واستمالتها إليهم للمحافظة على مستعمراتهم في الهند وصيانتها من تعدي الروس . والروس في آسيا المركزية لا ينفكون يقتربون أكثر فأكثر من الهند . وأسهل الطرق إلى الهند هو أفغانستان . ومن أجل ذلك كان الروس مضطرين إلى المسارعة إلى الوصول لحدود أفغانستان والتسلط على عموم آسيا المركزية ، ولا بد لهم من سلوك طريق « مرو » و « بلخ » و « هرات » للوصول إلى غايتهم هذه . ودولة إيران تعد « هرات » جزءاً من أرضها ، تسعى إلى الاستعانة بالروس لتصونها من الوقوع في يد الأفاغنة ، أي يد الإنكليز في الواقع . لقد ظلت ناحية « هرات » إلى تلك الحقبة دائماً جزءاً من أرض إيران . والإنكليز لا يرتاحون إلى ما لإيران من نفوذ فيها . وقد دأب الإنكليز في كل مدة حكم القاجاريين على إضعاف إيران كلياً لئلا تستطيع أن تكون عوناً للروس عليهم ولا تستطيع الاستفادة من نفوذها في أفغانستان فتحتفظ بناحية « هرات » .

ومن سنة ١٢٠٧ هـ إلى سنة ١٢١٥ هـ كان المسيطر على أفغانستان « زمانشاه الدراني » . وكان سفاحاً ، وكان يعادي الإنكليز . وفي سنة ١٢٠٩ هـ ، إذ كان « آقا محمد خان قاجار » قد قضى على أسرة « نادر شاه » وملكها في خراسان ، نقل « زمانشاه » إلى أفغانستان « نادر ميرزا » ابن « شاهرخ شاه أفشار » وأجاره عنده .

فلما قتل « آقا محمد خان » جهز « زمانشاه » جيشاً لمساعدة « نادر ميرزا » وأرسله معه إلى خراسان . وفي سنة ١٢١٣ هـ استولى « نادر ميرزا » على مدينة مشهد ، وساعده فريق من رؤساء خراسان . وفي سنة ١٢١٤ هـ . سار « فتح علي شاه » بنفسه يسوق جيشاً إلى خراسان لمحاربته . فلم يستطع « نادر ميرزا » مقاومته ، واستسلم إليه . وانتهى أمر « نادر ميرزا » إلى أن اعتقله في سنة ١٢١٧ هـ . « محمد ولي ميرزا » حاكم خراسان وأرسله إلى طهران . فأمر « فتح علي شاه » بقطع لسانه ويديه فقطعت . ومات على أثر إيقاع هذه العقوبة به .

وفي أثناء هذه الحوادث كان « محمود ميرزا » أخو « زمانشاه » يحرض الناس في نواحي «قندهار» و « هرات » على الثورة على أخيه هذا ، إذ كانت بينهما خصومة ونزاع على الملك . وبعد مقتل « آقا محمد خان » أخرج « زمانشاه » أخاه « محمود ميرزا » من « هرات » ، فخرج هذا قاصداً إلى طهران لاجئاً إلى فتح علي شاه » ، فوصلها في شهر رمضان سنة ١٢١٢ هـ . وأقامه « فتح علي شاه » في « كاشان » . وفي السنة التالية طلب « محمود ميرزا » من « فتح علي شاه » أن ينصبه حاكماً على « هرات » . فأجابه إلى طلبه وأمر فريقاً من رؤساء خراسان بمساعدته .

وسار « محمود ميرزا » إلى « هرات » ، ووقعت بينه وبين جيش أخيه « زمانشاه » مناوشات ، انفض بعدها الأفاغنة عن « محمود » ، فعاد إلى إيران يطلب المدد من « فتح علي شاه » وأعانه رؤساء خراسان ، حتى استطاع في سنة ١٢١٦ هـ أن يتولى حكومة « هرات » . وظل حاكماً عليها من قبل « فتح علي شاه » إلى سنة ١٢١٨ هـ .

أما « زمانشاه » فقد أعمي في سنة ١٢١٥ هـ . وقصرت يده عن العمل ، ووقعت منازعات بين من خلفوه في الحكم و « محمود ميرزا » حاكم « هرات » ، واستطاع « شجاع الملك » المعروف باسم « شاه شجاع » أن ينتزع « هرات » من « محمود ميرزا » . ثم استعادها هذا بمساعدة رؤساء خراسان . واستمرت المنازعات بين الفريقين إلى سنة ١٢٢٤ هـ . إذ استولى « محمود ميرزا » على « هرات » و « قندهار » . وفي سنة ١٢٣٢ هـ انتزعت منه واستولى عليها آخرون وظلت في يدهم إلى سنة ١٢٤٥ هـ وفي تلك السنة كان « محمود ميرزا » يحكم على القسم الغربي من أفغانستان بمساعدة من إيران .

وقد شغلت الحرب التي وقعت بين إيران وروسيا من سنة ١٢٤١ هـ إلى سنة ١٢٤٣ هـ إيران عن تدبير أمورها في أفغانستان ، ولذلك خرج عليها « كامران ميرزا » ابن « محمود ميرزا » في سنة ١٢٤٥ هـ وعلا شأنه . وفي سنة ١٢٤٩ هـ ، إذ كان « عباس ميرزا » ولي العهد قد سوى الأمور في أذربيجان بعد انتهاء الحرب الروسية الإيرانية ، أمر « فتح علي شاه » ابنه هذا بالسير إلى قمع « كامران ميرزا » . فسار حتى وصل إلى مشهد . . وهناك نصب ابنه « محمد ميرزا » الذي وصل بعد ذلك إلى منصب الشاه وأصبح « محمد شاه » ، وابنه الآخر « خسرو ميرزا » ، ومعهما فريق من رؤساء خراسان ، على قيادة الجيش وأمرهم بالسير إلى « هرات » لفتحها . وكانت عدة هذا الجيش أكثر من خمسة وثلاثين ألف جندي . وتخلف « عباس ميرزا » في مشهد .

وحاصر الجيش الإيراني « هرات » . وبعد مقاومة يسيرة أيقن « كامران ميرزا» بالهزيمة ، فاستنجد بالإنكليز الذين في الهند . فخفوا إلى نجدته ودخلوا ميدان الحرب معه علناً .

وفي هذه الأثناء مرض « عباس ميرزا » ، وهو في مشهد . وكان طبيبه المعالج إنكليزياً . ولم يكن مرضه صعباً ، ولكنه توفي به في يوم ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٢٤٩ هـ ، وهو في الثامنة والأربعين من عمره فاضطر ابناه إلى فك الحصار عن « هرات » وعادا بجيشهما إلى إيران .

وفي سنة ١٢٥٧ هـ ، في زمن ملك « محمد شاه قاجار » حاول الإيرانيون مرة ثانية فتح « هرات » وحاولوه مرة ثالثة في سنة ١٢٧٣ هـ في زمن ناصر الدين شاه ، وأوشكوا في كلتا المرتين أن يفتحوها . ولكن منعهم من فتحها تدخل الموظفين الإنكليز .

نهاية فتح علي شاه

بدا « فتح علي شاه » في آخر حياته منكسراً متهدماً . وقد وقع عليه موت ابنه وولي عهده « عباس ميرزا » بنازلة عظيمة ، فلم يعش بعده غير سنة وتسعة أيام ، وقبل موته بسنة أمر ببناء قبر له في الصحن القديم من مقام السيدة المعصومة في مدينة قم .

وفي ٩ جمادى الأولى سنة ١٢٥٠ هـ سافر من طهران إلى أصفهان فوصلها في الرابع عشر من ذلك الشهر . وفي يوم الخميس ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٥٠ هـ توفي في قصر « هفت دست » ، وهو من عمارات الصفويين قائم في محلة « سعادت آباد » خارج أصفهان ، وله من العمر ست وستون سنة . وبعد أربعة عشر يوماً من وفاته نقل جثمانه من أصفهان إلى قم في الثالث من شهر رجب ، ودفن في القبر الذي كان قد أمر ببنائه .

ولد « فتح علي شاه » ليلة الخميس ١٨ شوال سنة ١١٨٥ هـ وملك ثماني وثلاثين سنة وخمسة أشهر .

وكان قد نصب حفيده « محمد ميرزا » ابن « عباس ميرزا » ولياً للعهد بعد وفاة أبيه . فتولى هذا الملك بعد وفاة جده وقاسى صعاباً كثيرة حتى تمكن من اعتلاء السرير .

وكان « فتح علي شاه » قد أمر فريقاً من أدباء بلاطه بكتابة سيرة حياته فكتب أحدهم رسالة بعنوان « شمائل الخاقان » وكتب آخر رسالة بعنوان « ملوك الكلام » ونقش ما تضمنته تلك الكتابات من سيرته على بلاطة نصبت على قبره ، وفيه شعر ونثر كثير ، بأسلوب متكلف من الكنايات والاستعارات والتشابيه والمبالغات . وكُتب ما كتب بتوجيه منه . ومن هذه الكتابات يتبين رأي « فتح علي شاه » في نفسه . فهو ، في نظر نفسه ، إنسان يعلو على كل إنسان . وقد قلب فيها ما مني به من هزائم وخيبات إلى انتصار ونجاح !

تنبيه

ـ في ص ١١٢ من كتاب سعيد نفيسي الجزء الأول في أوائلها أن إيستفانوف غادر طهران يوم ٥ محرم سنة ١٢٢٢ هـ الموافق ١٦ آوريل سنة ١٨٠٧ م . وفي ص ١٢١ من الكتاب يقول إنه غادرها في ٢٦ محرم سنة ١٢٢١ هـ الموافق ١٦ آوريل سنة ١٨٠٦ م . وفي ص ١١١ من الكتاب يقول إن « إيستفانوف » جاء إلى طهران في ٦ ذي الحجة سنة ١٢٢١ هـ الموافق ١٦ فوريه سنة ١٨٠٧ م . وفي ص ١٢١ من الكتاب يقول إن « إيستفانوف » جاء إلى إيران في ٢٥ ذي القعدة سنة ١٢٢٠ هـ الموافق ١٤ فوريه سنة ١٨٠٦ .

ـ في آخر ص ١١٦ من كتاب سعيد نفيسي الجزء الأول يقول إن نابليون وقع على معاهدة تيلسيت مع روسيا في ٢ تموز سنة ١٨٠٧ م الموافق ٢٦ ربيع الثاني سنة ١٢٢٢ هـ ، وفي ص ١٨٢ من الكتاب يقول إن هذه المعاهدة وقعت في ١٩ أيلول ١٨٠٧ م الموافق ٢ رجب سنة ١٢٢٢ هـ .

ملا فرخ ناظم الهروي :

ولد سنة ١٠١٦ في مدينة هرات وتوفي سنة ١٠٨٣ .

كان شاعراً ، مدح في شعره النبي (ص) والأئمة عليهم السّلام ، ونظم قصة يوسف وزليخا .

له قصائد في مدح الشاه عباس الصفوي ووصف مدينة هرات .

طبع ديوانه مرتين : سنة ١٢٨٦ في مدينة لكهنو بالهند . وسنة ١٣٢٢ في طشقند .

فريدون گرگاني

من المترجمين في إيران حيث قام بترجمة مجموعة كبيرة من الكتب الهامة إلى اللغة الفارسية منها ـ التلمود وبعض روائع طاغور وأبو الكلام آزاد وغيرهم ـ درس في رشت وطهران وبريطانيا توفي عام ١٣٩٩[1] .

فضولي البغدادي

مرت ترجمته في المجلد الثامن من (الأعيان وننشر هنا كلمة عن كتاب صدر عنه بعنوان :

(فضولي البغدادي أمير الشعر التركي القديم)

هذه أوسع وأعمق دراسة للثقافة الإسلامية والأدب العربي والفارسي والتركي في القرن العاشر الهجري ، تدور حول فضولي البغدادي ذلك الشاعر الكاتب العالم الذي يعتبر مفخرة لتركيا والعراق وإيران لأنه كان ينظم وينشر بالتركية والفارسية والعربية ، ودراسة شعره ونثره دراسة للأدب الإسلامي في أوج كماله ، وتبصرة بالاتجاهات الفكرية والروحية في العالم الإسلامي .

وقد قام الدكتور حسين مجيب المصري الذي يعتبر من أكبر المشتغلين بالدراسات الإسلامية في العالم العربي بتأليف هذا الكتاب وقد وفى هذا الشاعر حقه من دراسة بيئته وحياته وعقليته ونفسيته وعبقريته . وتناول بالبحث والتحليل كل ما نظم من شعر وكتب من نثر وألف من كتب في التركية والفارسية والعربية ، معتمداً على مخطوطات ومطبوعات في ثلاث لغات شرقية وخمس أوروبية .

وفي الكتاب فصول تؤرخ المجتمع العراقي في فترة من الزمن ضاعت أخبارها ، كما يحوي نصوصاً تركية وفارسية تجعل منه مرجعاً أدبياً حتى لمن لا

(١) الشيخ محمد رضا الأنصاري .

يقرأون العربية . ولا يستغني عنه أديب ولا باحث يريد أن يحيط علماً بما بين الشعوب الإسلامية من صلات تاريخية وثقافية ، ويطلع على اتجاه جديد في التراث الإسلامي على أوسع نطاق .

الشيخ قاسم الرجبي الإسلامي الطهراني

اغتيل في الخامس عشر من شهر رمضان سنة ١٤٠٠ في طهران .

أتم دراسته الابتدائية في طهران ثم هاجر إلى مدينة قم فتابع الدراسة عند السيد محمد تقي الخونساري والسيد الكاشاني . ثم عاد إلى طهران حيث تولى التدريس في مدرسة خان مروي متابعاً في الوقت نفسه دراسته عند الشيخ أحمد الاشتياني فعني بدراسة الفلسفة الإسلامية حتى برع فيها ، وكان يوالي الخطابة التوجيهية مما يتعارض مع اتجاه السلطة ، فقبض عليه وسجن وعذب ثم اغتيل رمياً بالرصاص .

ارك العديد من المؤلفات بين مخطوط ومطبوع ، منها : ايضاح المطالب في شرح المكاسب ، وشرح رسائل الأنصاري ، وشرح الكفاية ، وشرح منظومة السبزواري ، وشرح المعالم ، وحجية الخبر الواحد ، من البعثة حتى الرحلة ، نار الثورة ، النظام الروحاني والسياسي في الإسلام . وغير ذلك .

قرة العين بنت الشيخ صالح البرغاني

قيل إن اسمها (فاطمة) ، وقيل (تاج زرين) ، وقيل (طاهرة) ، ولما كان اسمها موضع خلاف ، وكانت قد عرفت بلقبها (قرة العين) ، لذلك ترجمناها في حرف القاف .

وننشر عنها هنا كلمتين : الأولى مستوحاة مما اشتهر عنها في إيران ، والثانية مستوحاة من حياتها العراقية ، ثم آراء أخرى فيها :

ولدت في قزوين سنة ١٢٣٣ وقتلت سنة ١٢٦٨ .

هي ابنة الشيخ صالح البرغاني أحد كبار المجتهدين في إيران وقد مرت له ترجمة مفصلة في (الأعيان) ثم في (المستدركات) ، كما مر حديث مفصل في (المستدركات) عن آل البرغاني .

نشأت في قزوين وحفظت القرآن في أوائل عمرها وأخذت الفقه والأصول والحديث والتفسير عن والدها وأعمامها وأخويها الميرزا عبد الوهاب والشيخ حسن وتخرجت في الحكمة والفلسفة والعرفان على ملا آغا الحكمي والأخوند يوسف الحكمي وأخذت الأدب والشعر عن أمها آمنة بنت الشيخ محمد علي القزويني .

اشتهرت - كما تقدم - بلقب « قرة العين » . وقيل في سبب هذا التلقيب إنها تتلمذت على أبيها وغيره من أفراد أسرتها ، وكانت أسرة علمية ، فلما أتمت تحصيلها كانت امرأة فائقة الفضل ، قد بلغت درجة عالية من المعرفة في الآداب واللغة والفقه والأصول والكلام والتفسير وشرح آثار أئمة الإسلام ومعارفهم . واشتهرت بالفصاحة والبلاغة وجمال البيان في النثر والشعر بالفارسية والعربية . فرعاها أبوها بكل محبة واحترام ، وجعل يخاطبها بـ « قرة عيني » .

وقيل غير ذلك . وهو أنها بعد أن دخلت هي وأخت وعمة لها وأسرة الحاج ميرزا عبد الوهاب أحد كبار المجتهدين في العقيدة الشيخية ، حصلت بينهم وبين السيد كاظم الرشتي تلميذ الشيخ أحمد الأحسائي وخليفته مراسلات وصلات . وطلب السيد كاظم الرشتي من علماء الشيخية أن يؤلفوا رسائل في إثبات عظمة الشيخ أحمد الأحسائي وعصمته . فكتب كل منهم رسالة ضمنها ما عنده من اطلاعات في هذا الموضوع . وكتبت « قرة العين » أيضاً رسالة . فلما قرأها السيد الرشتي أعجبته وسر بما فيها من إحاطة علمية وسعة نظر وقوة بيان ، فلقبها بـ « قرة العين » وجعل يخاطبها بهذا اللقب دائماً . ويبدأ رسائله إليها بكلمة « يا قرة عيني » .

وأفاض مفتي بغداد السيد محمود شكري الألوسي ، وقد أوقفت في بيته مدة شهرين بأمر من والي بغداد ، في مدحها في ترجمته لأحوالها ، وذكرها باسم « هند » لا « فاطمة » ، وقال إن السيد كاظم الرشتي خاطبها باسم « قرة العين » في الرسالة التي أرسلها إليها ، ومن ثم أصبح هذا الاسم لقبالها واشتهرت به .

وزوجها أبوها بالشيخ محمد ابن أخيه الشيخ محمد تقي ، وكان أيضاً من علماء قزوين وفقهائها . وكانت « قرة العين » مع فضائلها ومعلوماتها فائقة الجمال أيضاً . ولها من زوجها هذا ولدان ذكران وبنت .

وامتدت ذيول الخلافات والمشاجرات الشديدة التي وقعت في كل ناحية من إيران والعراق بين علماء الشيخية والمجتهدين الأصوليين إلى قزوين وأصبح الحاج ميرزا عبد الوهاب وأبناؤه وأقاربه وأتباعه المحامين عن الشيخ الأحسائي المقتدين به . وكان الشيخ محمد تقي البرغاني قد خالف الشيخ الأحسائي مخالفة شديدة وأصبح من أعدى أعدائه . وتبعه على ذلك ابنه الشيخ محمد زوج « قرة العين » ، فوقع بين الزوجين خلاف شديد أدى إلى طلاق الزوجة وعودتها إلى بيت أبيها ، ولها منه ثلاثة أولاد . وبعد قليل أرسلت أولادها إلى أبيهم وسافرت إلى كربلاء لتلاقي السيد كاظم الرشتي وتستفيد من محضره . فلما وصلت إلى كربلاء كان الرشتي قد فارق الحياة . فأقامت مدة في كربلاء . ويقال إنها ، بواسطة ما نشأ بينها وبين عائلة السيد الرشتي من صداقة وصلة ، أقامت في منزله حلقة تدريس ، وأن جماعة كانوا يحضرون درسها . وقد فعلت ذلك أسوة بجماعة من كبار أصحاب الرشتي كانوا قد أخذوا ينشرون دعوته في كربلاء ونواحي إيران .

في هذه الأثناء تعالى من شيرزا ادعاء الميرزا « علي محمد » أنه « الباب » وتبعته جماعة . وكثر الحديث في هذا الموضوع ، خصوصاً بين علماء الشيخية وتلاميذ السيد كاظم الرشتي ، من مصدقين لما ادعاه الميرزا « علي محمد » الشيرازي ومن مكذبين له . واشتهر أن قرة العين كانت ممن صدقه من الشيخيين ، وأصبحت من أشهر أتباعه وأشد دعاته حماسة وأبعدهم تقدماً . وباحثت كثيراً من العلماء وناظرتهم في هذا الموضوع . وكاتبت كثيراً من علماء إيران ، خصوصاً أباها وعمها واجتهدت في دعوتهم إلى اتباع الميرزا « علي محمد » الشيرازي .

وحملت دعوتها الحماسية فريقاً من علماء الشيخية كالملا « حسن جوهر » و « السيد علي الكرماني » وفريقاً من العلماء الأصوليين كالشيخ محمد حسن النجفي وغيرهم من مجتهدي كربلاء على تحريض الناس عليها وظهرت أوائل الخصومة . فأمر والي بغداد حاكم كربلاء بتوقيفها وتوقيف « الملا علي البسطامي » قطعاً للفتنة فاوقفا مُدة . ثم نفاها هي وأصحابها إلى إيران سنة ١٢٦٣ هـ .

وفي أيام إقامتها في كربلاء خاطبها الميرزا « علي محمد » في إحدى

رسائله ـ أو ألواحه حسب اصطلاح البابيين ـ بلقب « الطاهرة » . ولكن غلب عليها لقب « قرة العين » .

ولما وصلت إلى إيران أخذت تدعو الناس إلى العقيدة الجديدة بكل جرأة في البلاد التي كانت تمر بها وهي في طريقها إلى قزوين . فأثارت ضجة شديدة . ولما وصلت إلى قزوين تضاعفت الخلافات بينها وبين أسرتها ، خصوصاً عمها حماها وابنه زوجها . فقد كانت مناقضة الشيخ ملا محمد تقي وابنه الشيخ محمد تقتصر على الشيخ الأحسائي والسيد الرشتي وأتباعهما . وها هي تمتد اليوم إلى البابية والبابيين ، وتزداد حدة .

وكان من أخلص أتباع « قرة العين » تاجر ثري معتبر من تجار قزوين اسمه « آقا هادي » . وكان شديد التعصب فدائياً للبابية . ويقال إنها هي التي حرضته على قتل عمها الشيخ محمد تقي ، فقتله في محراب المسجد وهو في الثمانين من عمره سنة ١٢٦٣ هـ . وبذلك ازداد النزاع حدة . ولا يستبعد أن يكون اتهامها بالتحريض على قتل عمها يراد به إيجاد حجة لاعتقالها كما حدث بعد ذلك إذ اعتقلت الحكومة « قرة العين » واعتبرتها المسبب الأصلي لقتل الشيخ محمد تقي البرغاني ، وأوقفت في دار الحكومة مدة . وإذ رأى البابيون أن حياتها في خطر ، قاموا بجهود ومساعي شاقة لإطلاقها من التوقيف حتى استطاعوا ، بواسطة « آقا هادي » قاتل عمها نفسه ، من الفرار بها من قزوين إلى طهران ، ورافقها في هذا الفرار « آقا هادي » أيضاً . فلما وصلوا في طريقهم إلى قرية « بدشت » فقد « آقا هادي » هذا وضاع أثره ولم يعرف عنه شيء بعد ذلك قط .

وأقامت « قرة العين » في طهران مدة قليلة . ثم غادرتها قاصدة إلى خراسان يصحبها جماعة من البابيين المخلصين لعقيدتها ، إلى أن وصلت إلى قرية « بدشت » ، وكانت قد أصبحت محل تجمع البابيين ، فتوقفت فيها . وهناك أخذت ترقى المنبر وتخطب سافرة .

وكان عدد البابيين المجتمعين هناك واحداً وثمانين . منهم الحاج محمد علي قدوس والميرزا حسين البهاء . وطالت مذاكراتهم ومباحثاتهم ومناظراتهم مدة عشرة أيام . ووقع في هذه المدة نزاع بين « قرة العين » والحاج محمد علي قدوس على الرياسة ، إذ ادعى كل منهما أنه هو المقدم على الآخر ليكون رئيس جماعة البابيين وإمامهم ، وسعى كل منهما إلى استمالة الجماعة إليه .

وانقسم البابيون المجتمعون في « بدشت » إلى ثلاث فرق . فرقة ترى أن « قرة العين » هي المفترضة الطاعة . وفرقة تبعت الحاج محمد علي قدوس . وفرقة ساء ظنها بهذا الاجتماع وبالإمامين المتنازعين فاعتزلتهم جميعاً ونفضت يدها من البابية وعاد كل من أفرادها إلى موطنه . وكان هذا أول شقاق حصل بين البابيين . وفوق هذا انتشرت بين الناس شائعات كثيرة عن « قرة العين » وتناولتها أقوال .

ثم انتهت القضية إلى التفاهم والاتحاد والمصالحة ، وذلك بوصول رسالة من « علي محمد » الباب ـ أو نزول آية عليه حسب تعبير أتباعه ـ تقول : « ماذا أقول في حق نفس سماها الله الطاهرة » . وركب الإمامان ، « قرة العين » وقدوس ، كلاهما في هودج وسارا ، مع أصحابهما ، يقصدون مازندران .

فلما وصلوا إلى قرية تدعى « نيالا » في أواسط شعبان سنة ١٢٦٣ هـ تلقاهم خمسمائة من أهاليها حملوا عليهم ونهبوا كل أموالهم وفرقوهم شذر مذر . واتجه الحاج محمد علي قدوس نحو « بابُل » ، وانطلقت « قرة العين » في قرى مازندران وقصباتها تنشر دعوة الباب بين الناس .

وإذ كان أقاربها وجماعة آخرون من مخالفيها وأعدائها يريدون قتلها اضطرت إلى الابتعاد ، وذهبت مع الشيخ « أبو تراب الاشتهاردي »[1] إلى نواحي « نور » ومنها إلى « بابُل » . فلما علم الناس بقدومها هب رجال الدين إلى مقاومتها ، وكان أشدهم في ذلك « الآخوند الملا سعيد سعيد العلماء بارفروشي » . وكانت تعلم أنهم إن ظفروا بها آذوها ونكلوا بها فتوارت عن الأنظار ، ثم ذهبت إلى نواحي « نور » . وهناك لم تلبث أن سمعت بأن البابيين قد اجتمعوا في قلعة الطبرسي ، وأن حرباً تدور بينهم وبين قوات الدولة . فعزمت على العودة إلى « بابُل » لتلتحق من ثم ببابيي قلعة الطبرسي .

فلما وصلت كانت القلعة محاصرة بعسكر الدولة حصاراً كاملاً . وعرفها رجال الدولة فاعتقلوها وأرسلوها مخفورة إلى طهران . وهناك أوقفت في بيت « محمود خان نوري » رئيس شرطة طهران . وكان جماعة من البابيين ، ما بين رجل وامرأة ، مسجونين فيه أيضاً . ووضعت « قرة العين » في الطبقة الفوقانية من المنزل ومنعت منعاً باتاً من ملاقاة أحد من الناس .

وظلت « قرة العين » سجينة في ذلك البيت حوالي خمس سنوات ، من سنة ١٢٦٤ هـ إلى سنة ١٢٦٨ هـ ، وهي السنة التي نجا فيها ناصر الدين الشاه من محاولة اغتيال البابيين له بإطلاق الرصاص عليه في محلة « نياوران » ، وصدر أمر بقتل البابيين قتلاً جماعياً . وجاء جماعة من موظفي الدولة فأخرجوا « قرة العين » من بيت رئيس الشرطة متظاهرين بأنهم يريدون نقلها إلى بيت الميرزا « آقا خان نوري » الصدر الأعظم ، فأركبوها على فرس وذهبوا بها إلى « باغ ايلخاني » (البستان الإيلخاني) الواقع في طهران ، وهناك خنقوها وألقوا جثتها في بئر وطمروا البئر بالتراب .

ولدت « قرة العين » من زوجها ابن عمها الشيخ محمد صبيين هما الشيخ إسماعيل والشيخ إبراهيم ، وبنتاً . وثلاثتهم على خلاف عقيدة أمهم يتبعون عقيدة أبيهم وجدهم . والصبيان سلكا مسلك رجال الدين في الزي والدرس .

ويوم كانت « قرة العين » مقيمة في كربلاء عارضها فريق من البابيين ورفضوها . ويوم كانت مقيمة في قزوين و « بدشت » عارضها أيضاً جماعة منهم وخالفوها مخالفة شديدة . وشكوها إلى الباب « علي محمد » ، وكان مسجوناً في « ماكو » ، في رسائل كثيرة أرسلوها إليه . ولكن كان يأمرهم بموافقتها ومساعدتها ويفيض في الثناء عليها وبيان عظمتها في كل أجوبته على رسائلهم .

---

(١) الشيخ أبو تراب الاشتهاردي كان في أول أمره من علماء الشيخية ، ومن تلاميذ السيد كاظم الرشتي وخواصه . اشتهر بالزهد والتقوى . أقام في كربلاء مدة طويلة ، ثم ذهب إلى مشهد فتزوج بأخت « الملا حسين بشرويه » المعروف بـ « باب الباب » ، وكان هذا أيضاً في أول أمره شيخياً ومن تلاميذ السيد الرشتي . ثم عاد الاشتهاردي إلى كربلاء ، فأدخله « الملا علي البسطامي » في العقيدة البابية وأصبح من أشد المناصرين للميرزا علي محمد الشيرازي ، يرافق البابيين ويناصرهم في « بدشت » ومازندران وقلعة الطبرسي وغيرها . ثم عاد إلى كربلاء واشتغل بتعليم الأطفال .

وينسب إلى « قرة العين » هذان البيتان من الشعر وترجمتها :

أنت والملك والجاه الإسكندري
وأنا والرسم والمذهب القلندري[1]
فإن يكن ذاك خيراً فأنت له أهل
وإن يكن هذا شراً فأنا له أهل

قرة العين

- ٢ -

قال الدكتور علي الوردي :

شغل المجتمع العراقي في السنوات الأخيرة من ولاية نجيب باشا بحديث امرأة عجيبة تدعى « قرة العين » إذ هي أسفرت عن وجهها ، وارتقت المنبر ، وخطبت وجادلت ، فكان ذلك أول حدث من نوعه في تاريخ العراق ، وربما في تاريخ الشرق كله ، طيلة قرون عديدة . ونحن الآن إذ نريد دراسة تاريخ المجتمع العراقي في تلك الآونة بحسن بنا التعرف إلى شخصية هذه المرأة ومبلغ تأثيرها في العراق ثم في إيران .

ولدت هذه المرأة في قزوين عام ١٨١٤ م ، وقد سميت بـ « زرين تاج » وهو اسم فارسي بمعنى « التاج الذهبي » لأنها كانت ذات شعر أشقر ، وكانت أسرتها من الأسر الدينية المعروفة في قزوين ذات جاه ومكانه تدعى بـ « آل البرغاني » ، وقد برز فيها علماء مجتهدون لهم شأن كل منهم الملا محمد صالح الذي هو والد قرة العين ، والملا محمد تقي الذي هو أحد أعمامها ، وكان الملا محمد تقي هذا كبير علماء قزوين في ذلك الوقت .

تميزت قرة العين بجمالها الفتان وذكائها المفرط ، وقد بدأ نبوغها بالظهور منذ صباها الباكر قيل إنها كانت تحضر دروس أبيها وعمها التي كانت يلقيانها على الطلبة ، فكان يوضع لها ستار لتستمع إلى الدروس من ورائه ، وسرعان ما أخذت تشارك في المجادلات الكلامية والفقهية التي تثار بين رجال أسرتها ، وكثيراً ما كان أبوها يظهر سفه قائلاً : « لو كانت ولداً لكانت أضاءت بيتي وخلفتني » . وذكر أخوها عبد الوهاب في وصف ذكائها المفرط فقال : « انا جميعاً من أخوة وأولاد عم ما كنا نقدر أن نتكلم في حضرتها لأن علمها كان يرعبنا ، وإذا تصادف وتكلمنا عن مسألة فانها كانت تتكلم عنها بكل وضوح واتقان على البداهة حتى نعلم أننا أخطأنا السبيل ونتركها ونحن متحيرون »[2] .

كان أهل قزوين في ذلك الحين كأهل كربلاء منقسمين إلى فريقين متنازعين : « بشت سري » و « بالأسري » أي شيخيين وخصوم الشيخين . وكان هذا الانقسام قد سرى إلى بيت قرة العين فكان عمها الكبير الملا محمد تقي من خصوم الشيخيين بينما كان عمها الآخر الملا علي من الشيخيين . وقد نشأت قرة العين في هذا الجو الفكري المفعم بالجدل ، ولا شك أنها استطاعت أن تستوعب بذكائها الشيء الكثير من ذلك الجدل وتنتفع به .

عندما بلغت قرة العين الرابعة عشرة من عمرها زفت إلى ابن عمها الملا محمد بن الملا محمد تقي ، ولم تمض على ذلك سوى مدة قصيرة حتى قرر الزوج الهجرة إلى العراق لطلب العلم ، فسافر معاً إلى كربلاء ونزلا في دار تعود للأسرة في محلة « الخيمگاه » وهي الدار التي لا تزال قائمة يسكنها بعض أسرة البرغاني وقد زارها كاتب هذه السطور منذ عهد قريب .

مكث الزوجان في كربلاء ثلاث عشرة سنة تقريباً رزقا فيها بولدين هما إبراهيم وإسماعيل ، والظاهر أن حياتهما فيفي كربلاء لم تخل من خصام ومناقرة ، فهي أخذت تميل إلى السيد كاظم الرشتي الذي كان يرأس الشيخيين يومذاك ، بينما كان زوجها يميل إلى « البالاسري » . وربما كان الخصام بين الزوجين في بدايته بسيطاً ثم صار يشتد ويتعقد مع الأيام .

عاد الزوجان إلى قزوين في عام ١٨٤١ م ، ورزقا هناك بولد ثالث سمياه « إسحاق » وكانت عودتهما ايذاناً باستئناف الخصام والمناقرة بينهما من جديد . فقد أصدر والد زوجها فتوى أعلن فيها تكفين الشيخيين بينما هي ازدادت من جانبها ولعاً بالعقائد الشيخية وتعلقاً بالسيد كاظم الرشتي .

وشرعت قرة العين تكاتب الرشتي تستفسر منه عن بعض المعاني الغامضة في كتاباته ، ثم قررت أخيراً أن تترك زوجها وأولادها وتهاجر إلى كربلاء لتكون قريبة من الرشتي وتنضم إلى حوزته العلمية .

وفي عام ١٨٤٣ م سافرت قرة العين إلى كربلاء ، وكانت حينئذٍ في التاسعة والعشرين من عمرها وفي قمة نضوجها ، وحين وصلت إلى كربلاء فوجئت بأن الرشتي الذي جاءت من أجله كان قد توفى قبل أيام قليلة فاصيبت بخيبة الأمل وشاركت في مأتمه[3] .

اعتناقها الدعوة البابية :

تجمع المصادر البابية والبهائية على أن قرة العين كانت من أوائل الذين اعتنقوا الدعوة البابية حيث أصبحت من « حروف الحي » الثمانية عشر ، وأنها اعتنقت الدعوة يوم كان الباب لا يزال في شيراز يدعو إلى نفسه سراً . وهذا أمر يصعب علينا تصوره إذ كيف استطاعت قرة العين أن تعلم بالدعوة وهي في كربلاء وتقتنع بها دون أن تتصل بالباب أو تعرف عنها شيئاً .

أوردت المصادر البهائية في هذا الشأن روايتين مختلفتين ، فقد جاء في أحد تلك المصادر وهو كتاب « تذكرة الأوفياء » : أن قرة العين عندما وصلت إلى كربلاء بعد وفاة السيد كاظم الرشتي انقطعت إلى العبادة والتضرع في انتظار الموعود الذي كان الرشتي قد تنبأ بقرب ظهوره ، وفي ذات ليلة رأت في منامها شاباً يلبس رداءاً أسود وعمامة خضراء وهو في السماء رافعاً يده بالدعاء ويتلو بعض الآيات ، وبعد حين وصل إليها تفسير من الباب لسورة يوسف فوجدت فيه إحدى الآيات التي سمعت الشاب يتلوها في المنام ، فأدى ذلك بها إلى التصديق بدعوة الباب[4] .

أما كتاب « الكواكب الدرية » فيروي القصة بشكل آخر إذ يقول : بينما كان تلاميذ السيد كاظم الرشتي قد انتشروا في البلاد يبحثون عن الموعود انقطعت هي للرياضة والتبتل وهجرت تناول المطبوخات ، وكانت كل أوقاتها مصروفة في الترقب والانتظار . وفي ذات يوم كتبت رسالة إلى الملا حسين البشروئي تقول فيها : « إذا وفقتم للقاء طلعة الموعود فلا تحرموني من موافاتي بذلك النبأ ، ولا تضنوا عليّ بالسعادة ، فإن للأرض من كأس الكرام

---

(١) القلندر : يقصد به الدرويش .

(٢) محمد زرندي (مطالع الأنوار) ترجمة عبد الجليل سعد ـ القاهرة ١٩٤٠ ـ ص ٦٣ ـ ٦٦ .

(٣) إن هذه المعلومات عن قرة العين حصلت عليها من مصادر مختلفة ، وقد استفدت بصورة خاصة من كتاب مخطوط بقلم عبود الصالحي عنوانه « قرة العين على حقيقتها وواقعها » .
وبما يجدر ذكره أن هذا الكاتب هو من أسرة البرغاني ومن أقرباء قرة العين .

(٤) محمد زرندي (المصدر السابق) .

نصيباً » ، فوصلت رسالتها إلى الملا حسين أثناء وجوده في شيراز فقدم الرسالة إلى الباب ، فأدخل الباب اسمها في عداد « حروف الحي » وكتب توقيعاً بذلك . ولما جاء الملا علي البسطامي إلى العراق موفداً من الباب اتصلت قرة العين به واستفهمت منه عن تفاصيل الدعوة مما جعلها تزداد إيماناً بها(١) .

المرحلة الأولى :

تشير القرائن إلى أن الدعوة البابية أخذت تكتسب الاتباع في كربلاء تدريجياً ، وكانوا كلهم من الشيخيين ، غير أنهم كانوا يلتزمون التقية والتكتم ولا يعلنون عن مذهبهم الجديد أمام الناس ، ولم يكن من المسموح لهم في أول الأمر أن يذكروا اسم الباب أو يعينوا شخصه بل كانوا يتحدثون عنه بطريق الرمز والإشارة ، وكثيراً ما كانوا يطلقون عليه اسم « الذكر » عند الحديث عنه .

والظاهر أن قرة العين حين اعتنقت الدعوة البابية كانت كغيرها من اتباع الدعوة تلتزم التقية ، ولكنها أخذت تنشط في الاتصال بالناس لتمهيد الأذهان نحو قبول الدعوة الجديدة . قيل إنها كانت في تلك المرحلة من حياتها تلقي الدروس الدينية في منزلها ويجتمع إليها عدد كبير من الطلبة والمستمعين ، فكانت تجلس في غرفة صغيرة وراء باب عليه ستار ، ويجتمع الطلبة والمستمعون في غرفة أخرى واسعة ، وهي تتحدث إليهم من وراء الستار .

كانت قرة العين تملك صوتاً جهورياً ومقدرة كبيرة على الكلام والجدال ، فأحدثت في المجتمع الكربلائي هزة عنيفة وأصبح اسمها على كل لسان ، وصار الناس نساء ورجالاً يتناقشون ويتجادلون في الأفكار الجديدة التي كانت تطرحها قرة العين في دروسها المنزلية .

وفي شهر آب من عام ١٨٤٦ م انتقلت قرة العين مع حاشيتها إلى الكاظمية ، ويقال في سبب هذا الانتقال أن خلافاً حدث بينها وبين كبير الشيخيين المرزا محمد حسن جوهر فقررت الابتعاد عنه والذهاب إلى بلدة أخرى تستطيع أن تنفرد فيها من غير معارض تخشى بأسه .

استقبلت قرة العين في الكاظمية استقبالاً حافلاً وكان على رأس المحتفين بها أولاد السيد عبد الله شبر ، فنزلت أول الأمر في ضيافتهم ، ثم تحولت بعدئذٍ إلى دار السيد صادق الكشفي وهو من خدمة الجوادين وكانت داره معدة لنزول الزوار الشيخيين فيها . وأخذت قرة العين تلقي الدروس في الكاظمية على منوال ما كانت تفعل في كربلاء ، وزادت على ذلك فصارت تصعد المنبر أحياناً فتذهل السامعين بقوة حجتها وحسن القائها .

وذاع صيتها في بغداد فأخذ الكثير من سكانها ، من الشيعة وغيرهم ، يفدون إلى الكاظمية لسماع دروسها ومحاضراتها . روى لي أحد المسنين من أهل الكاظمية نقلاً عمن شهد قرة العين أثناء مكوثها في الكاظمية فقال إن الكثير من الناس حضروا حلقات درسها وصلّوا وراءها ، وكانوا إذا استمعوا إليها وهي تتكلم يكادون يذهلون عن أنفسهم من شدة تأثرهم بها .

يبدو أن قرة العين لم تكن متزمتة في حجابها على النمط الشديد الذي اعتادت عليه نساء عصرها ، وهي ربما كانت تلتزم بالسفور الذي تبيحه الشريعة الإسلامية وهو إظهار صفحة الوجه والكفين من غير زينة ، فكانت تجالس الذين تثق بهم من أصحابها وتحادثهم وهي مكشوفة الوجه ، غير أن هذا النوع من السفور لم يكن يستسيغه الناس في تلك الأيام فأثار ضجة لدى العامة ورجال الدين وأخذوا يتقولون عليها ويلصقون بها التهم الشنعاء .

كان الناس في تلك الأيام قد اعتادوا أن يربطوا بين عفة المرأة وشدة حجابها ، فكلما كانت المرأة أشد حجاباً كانت في نظرهم أعظم عفة وأكمل خلقاً . ولهذا أخذ خصوم قرة العين يتهمونها بالتحلل الخلقي ، ولا تزال هذه التهمة لاصقة بها حتى اليوم . سألت ذات مرة أحد المسنين من أهالي الكاظمية عما يعرف عنها ، ولم يكد الرجل يسمع سؤالي حتى فاجأني بقوله إنها كانت « كذا وكذا » مما لا يستحسن ذكره . وليس هذا الجواب بالأمر المستغرب من رجل عاش في بيئة الحجاب الشديد وآمن به إيماناً مطلقاً .

يقول صاحب كتاب « الكواكب الدرية » : أن سفور قرة العين تلقاء صحبها وتلاميذها أثار خلافاً بين رجال الدين وقام بينهم الجدال والشقاق على قدم وساق ، وعندما سألوا التلاميذ عن ذلك أجابوا بأن الوجه والكفين لم تكن عورة في نظر الدين الإسلامي وجاؤوا بدليل الحج حيث أن أزواج النبي لم يسترن الوجه والكفين رغم الازدحام العظيم أثناء موسم الحج ، ولكن هذا الجواب المؤيد بالشواهد لم ينه المشكلة بل استشرى الخلاف والجدال بين الناس(٢) .

المرحلة الثانية :

مكثت قرة العين في الكاظمية زهاء ستة أشهر ، ثم عادت إلى كربلاء في شهر شباط من عام ١٨٤٧ م بمناسبة زيارة الأربعين التي حلت في الثامن من ذلك الشهر . وبعودتها إلى كربلاء دخلت مرحلة جديدة من حياتها ، ونكتفي من كلام الدكتور الوردي عن سيرتها بهذا المقدار ونختم قوله بما قاله عن رأيه بها .

إني أعتقد على أي حال أن قرة العين امرأة لا تخلو من عبقرية وهي قد ظهرت في غير زمانها أو هي سبقت زمانها بمئة سنة على أقل تقدير ، فهي لو كانت قد نشأت في عصرنا هذا وفي مجتمع متقدم حضارياً لكان لها شأن آخر وربما كانت أعظم امرأة في القرن العشرين (انتهى) .

رأي الألوسي

ويقول محمود شكري الألوسي كما نقلت ذلك جريدة المنار اليومية الصادرة في ١٩٦٧/٤/٢١ في الصفحة السادسة : إني رأيت لديها من الفضل ما لم أره في كثير من الرجال وهي ذات عقل وأدب وفريدة حيازة وصيانة وقد لقبها السيد كاظم الرشتي بـ (قرة العين) ولم أرها ترفع التكاليف ـ أي الفرائض الدينية كما يتهمها أعداؤها ـ مع أنها بقيت في بيتي نحو شهرين . (انتهى) .

ويقول الألوسي أيضاً في (مختصر التحفة الاثني عشرية) ص ٢٤ : فقيل إنها كانت تقول بحل الفروج ورفع التكاليف بالكلية ، وأنا لم أحس منها بشيء من ذلك مع أنها حبست في بيتي شهرين وكم من بحث جرى بيني وبينها رفعت فيه التقية من البين . . (انتهى) .

---

(١) عبد الحسين آواره (الكواكب الدرية) ترجمة أحمد فائق رشد ـ القاهرة ١٩٢٤ ـ ج ١ ص ١١٠ ـ ١١١ .

(٢) المصدر السابق ـ ص ١٨٩ .

رأيان آخران

ويؤكد نجلها الأكبر الشيخ إبراهيم البرغاني الذي اجتمع بها أكثر من مرة في أواخر أيام حياتها وهي مسجونة في دار رئيس الشرطة بطهران أنها كانت صائمة وتقضي أكثر أوقاتها بقراءة القرآن والدعاء والصلاة ، وأنها قتلت وهي على الإسلام .

ويقول المستشرق الفرنسي (نيكلا) في كتابه (المذاهب) نقلاً عن نساء ورجال بيت رئيس الشرطة الذي كانت قرة العين مسجونة فيه ، والذين اجتمع بهم بعد قتل قرة العين بقليل ، أنهم أجمعوا أنها كانت تتوضأ وتصلي وتقرأ الدعاء »[1] .

رسالة عمها للاستفسار عنها

يقول الدكتور علي الوردي في كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) الجزء الثاني ، الصفحة ١٧٢ طبع بغداد سنة ١٩٧١ ، وهو ما أخذنا عنه كلام الدكتور الوردي المتقدم .

يقول الدكتور الوردي :

عندما وصل الخبر إلى قزوين بأن قرة العين محبوسة في بغداد اهتم له عمها ووالد زوجها الملا محمد تقي البرغاني فأرسل إلى أحد أرباب النفوذ في كربلاء يكلفه بالتوسط لدى الحكومة في إطلاق سراحها . وقد سافر هذا الرجل إلى بغداد ليسعى في هذا السبيل ، ثم كتب إلى الملا محمد تقي رسالة يذكر له فيها نتائج مسعاه . والرسالة محفوظة بنصها الفارسي في مكتبة الأستاذ عبد الحسين الصالحي في قزوين . وهذا تعريبها بقلمه .

المعروض لكم :

إن عمدة المطالب سلامة وجودكم وبقاء عمركم ، حفظكم الله سبحانه من كل مكروه أرضي وسماوي . . . ووفقتم بتوفيقه تعالى أرجوه أن يثبتكم على الصراط المستقيم والطريق الأقوم .

سيدي الجليل . . . أخي المعظم !

في الوقت الذي كان حضرات السادة متوجهين - وقبل يومين - في خصوص إرسال كريمة أخي المبجل وشيخنا المعظم ، فقد بذلت جهدي - كاملاً - وسعيت لارسالها - مع خير الحاج والمعتمرين الحاج علي أكبر ، ولهذه الغاية سافرت إلى بغداد متوجهاً إلى دار مفتي بغداد اليوم معالي السيد محمود الألوسي أفندي ، فوجدتها هناك مع ثلاث نساءٍ أخريات وجارية ، فطلب إليّ معالي السيّد المفتي شرح حالها ، وبيان قصتها . .

فقلت : نعم ! انها امرأة مستورة ، وهي في كمال الورع والتقوى ، وقد اعترتها بعض الوساوس الشيطانيّة ، وتمكنت منها ، وسيطرت على دماغها وأفكارها . وكان للوسط الديني الذي تعيشه ، أثرٌ بالغ في ذلك كله ، حيث إنها تعيش بين أحضان الورع والتقىٰ ، وفي بيت العلم والتقدس .

كما سألني معالي السيد المفتي عن تاريخ حياة والدها ، وحالاته . . .

فقلت : إنه اليوم رجل إيران الأوحد في العلم والورع . وقد أثر كلامي في نفس معالي المفتي ، فقال لي : سأطلب من معالي الباشا خلاصها والاعتذار لها عن كل ما حيك حولها ، وذهابها إلى أهلها . .

(١) ص ٤٧٨ من الترجمة الفارسية المطبوعة ١٣٢٢ هـ . ش .

هذا مع أنها كانت - سابقاً - قد ذكرت للمفتي أن جميع التهم الموجهة إليها غير صحيحة ، فكان المفتي قائلاً لها : إذن فما هذه الأضابير والمناشير التي أخرجت من دارك ؟ فقالت حينئذٍ في جوابه : - لو أخرج من دار معاليكم كتب التوراة والإنجيل فهل أنّ ذلك يدلّ علىٰ أنكم معتنقون التوراة والإنجيل ؟

مع أن هذه الكلمات التي ذكرت من قبلها لم تكن بعيدة عن القواعد العلمية ، وإنما الفساد و (التهم) قد نشأت من جانب الآخوند ملاّ حسن گوهر - كما سمعت ذلك - والعلم عند الله .

. . . وهي الآن محترمة ومفرزة في دار معالي السيد المفتي ، وأنا في هذا اليوم (الجمعة) الموافق لليوم الثامن من شهر ربيع الثاني ، ذاهب إلى بغداد ، لأجل العمل الجاد في خلاصها وهي مكدرة الخاطر من طرف الملاّ حسن گوهر .

وإنّ كلماتها - في الظاهر - لم تكُ خارجة عن القواعد العلمية ، والضوابط الشرعية ، فهي كما قالت ؛ في جملة كلامها : إنني امرأة مسلمة ، ومؤمنة بالله العظيم ، والنبي الكريم (ص) وأئمّة الهدىٰ من بعده . وإنني أدين بمذهب الاثني عشريّة مذهب محمد (ص) فبأيّ دليل هم اتهموني ؟ !

كما أن حضرات الأعيان ، وعلماء بغداد - قاطبة - يحترمونها أيّما احترام ، ويكنّون لها كلّ تقدير ، وإنّ ما قالوه وأشاعوه عندكم فهو باطلٌ ومحض اختلاق . إنها في كمال العزة والتجلة والإكرام ، ولتوضيح الحقيقة حرّرتَ الرسالة .

وإن شاء الله تعالى وبحوله وقوته سأنقلها إلى داري الخاصة ، بأي حال من الأحوال وأرسلها إليكم مع حضرات السادة ، إن شاء الله ، فليكن خاطركم طيباً ومرتاحاً . (انتهى) .

أقول : يبدو من مجمل ما تقدم أن (قرة العين) أخذت أول الأمر بالشيخية ثم بالبابية ، وأنها في آخر أمرها عادت إلى أصولها الإسلامية .

الشيخ قوام الدين محمد بن محمد البحراني .

توفي حدود سنة ٦٠٠ .

من أكابر علماء الشيعة وفحول المحدثين أخذ العلم عن جماعة منهم السيد أبو الرضا فضل الله الراوندي الحسيني الكاشاني وهو يروي عنه وتخرج على صاحب الترجمة جماعة من العلماء منهم الشيخ أحمد بن صالح القسيني المجاز منه كما في إجازة الشهيد الثاني للحسين بن عبد الصمد ذكره شيخنا في طبقات أعلام الشيعة وكان المترجم له معاصراً للشيخ راشد بن إبراهيم البحراني المتوفى سنة ٦٠٥ هجرية من أكابر علماء عصره وشريك المترجم له في الرواية .

قياس آق گون

الفاضل ، أمام مسجد الحاج حسين في أغدير بتركيا ، مؤلف كتاب « الإمام الثاني عشر » المطبوع في أنقرة ، عام ١٩٧٦ م .

كريم خان زند :

« كريم خان زنـد » بن « إيناق » . و « زنـد » طائفـة من قبيلة « لور » الإيـرانية الأصـل كان مسكنهـا في إقليم « ملايـر » من نـواحي « همـذان » . ويقول أبناؤهـا إن سبب تسميتها بهـذا الاسم هو أن « زردشت » أودع كتـابه المقـدس المسمى « زنـد » عنـد طـائفتهم وعهـد إليهـا في حفـظه ، فسميت باسمه .

وتاريخ خـانات هـذه الطائفـة غامض إلى أواخـر حكم الأسرة الصفويـة ، إذ اشتهرت أسماء من كان يترأسها من الخانات . ومنهم « إيناق » أبـو « كريم خان زند » . وكل ما بلغته من الشهرة والأهميـة إنما بلغتـه أيام ظهـور « كريم خان » . فإنه تغلب على منافسيه ثم سعى حتى وصل إلى منصب الملك .

في أيام حروب « نادر شاه » كانت قبيلة «زند» تسكن في منزلها القـديم « مـلايـر » . وظلت في حقبـة تلك الفتن المتـواصلة عصيـة عـلى العثـمانيـين والأفاغنة لا تخضع لهم . فلما خلع نادر شاه « طهماسب شاه » الثاني الصفـوي عن العرش رحّل قبيلة « زند » مع من رحّل من قبائل « بختيار » و « أفشـار » وغيرهم إلى خراسـان وأسكنهم فيها وأسكن قبيلة « زنـد » في وادي « جز » . ولكن هذه القبائل عادت إلى مساكنها القديمة بعد مقتل « نـادر شاه » ، ومنهم قبيلة « زنـد » ، وكان يـترأسها يـومئذ الأخـوان « بداق » و « إينـاق » ، وقـد عادت إلى « ملاير » . وبعد وفاة هذين الأخوين الرئيسين انتهت رئاسـة قبيلة « زند » إلى « كريم » و « صادق » ابني « إيناق » .

وفي سنـة ١١٦١ هـ خرج « إبـراهيم خان » ابن أخي « نـادر شـاه » ـ وكان يومئذ حاكماً على أصفهان والقسم المركزي والشمالي من إيران ـ على أخيه « علي عادل شاه » ، وكان يقيم في مشهد ، وقصده بالحرب . فالتحق « كريم خان » وأخوه بـالخارج ومعهـما جماعـة من الفرسـان وأصبحوا بعض جنـده . وبعـد مدة قليلة أصبحـا موضـع عنايتـه واهتمامـه فأنعم عليهـما كليهـما بلقب « خان » ، وأرسلهما إلى « أراك » وأوكل إليهما تنظيم أمور الطرق .

وتغلب « إبراهيم خان » على أخيه فأعمى عينيه ونصب نفسه شاهـاً في مكانه . إلا أن « إبراهيم خان » لم تـطل مدة ملكـه . فقد حـاربه « شـاهرخ شاه » حفيد « نادر شاه » وغلبه ثم قتل .

وفي سنـة ١١٦٤ هـ كان سلطان « شـاهرخ شـاه » حفيد « نـادر شاه » على حال شديدة من الزعزعة والإضطراب .

وكـان أحد خـانات قبيلة « بختيـار » وطغاتهم ، واسمـه « علي مـردان خـان » يسعى إلى الحصـول عـلى العـرش لنفسـه ، وقـد سيـطر عـلى أرض البختياريين إلى حد « خوزستان » . ورأى في اختلال أحوال « شاهـرخ شاه » وضعفه فرصة للوصول إلى مقاصده ، فخرج من مساكن قبيلته بجيش قاصداً احتلال أصفهان . وكان حاكماً عليها خان آخر من خـانات « بختيـار » اسمه « أبو الفتح خـان » ، عينه في هـذا المنصب « إبراهيم خـان أفشار » يـوم كان خـارجاً عـلى أخيه « عـلي عادل شـاه » ـ وبعد مقتـل « إبـراهيم خـان » أقـره « شاهرخ شاه » في منصبه . ووقعت بينهـما حرب انتهت بهـزيمة « عـلي مردان خـان » . فاستنجـد هذا « كـريم خان زنـد » لصداقـة قديمـة كانت بينهـما ، فأجاب طلبه والتحق به مع جيش عدته بين ثلاثة آلاف وأربعـة ،لاف جندي من عسكره وهاجما « أبو الفتح خان » مرة ثانية فتغلبا عليه . ولكن جماعـة من أهـل الرأي أشـاروا عليهم ، ثلاثتهم ، بـالإتفاق ، وأن يختـاروا أحـد أبنـاء

الأسرة الصفـوية لمنصب الشـاه ، ويتقاسمـوا فيما بينهم إدارة أمـور المملكة ، ففعلوا . واختاروا « الميرزا أبو تراب » سبط الشاه « سلطان حسين » الصفوي لمنصب الشاه وسموه « الشاه إسماعيل الثالث » ، وكان في الثامنة من عمره . وقيل في الثامنة عشرة . وكان ذلك في سنة ١١٦٤ هـ . واتفقـوا على أن يبقى « أبـو الفتح خـان » في منصبه السـابق حاكماً على أصفهـان ، ويكون « عـلي مردان خان » في منصب « نـائب السلطنة » (نـائب الشاه) و « كـريم خان » قائد الجيش .

إلا أن حكام همذان وكـردستان رفضـوا الدخـول في طاعـة هذه الهيئة الثـلاثية واستخفـوا بها . فسـار إليهم « كريم خـان » ، بما هـو قـائـد الجيش العام ، لإخضاعهم . وتم له النصر عليهم .

ولكن « علي مردان خان » نقض عهد « كريم خان » وهو غائب في هذه الغـزوة ، فقتل « أبـو الفتح خـان » وعين بختيـارياً آخـر من قبله حاكماً على أصفهـان . ثم سار إلى شـيراز وحمل معـه إليها الشـاه « إسماعيـل الثالث » ، قـاصداً احتـلال إقليم فارس والقضـاء على منـافسه الآخـر « كريم خـان » . ولكن هذا سبقه إلى الحرب وهزمه في معركة وقعت بينهما في محلة تعـرف باسم « سر آب كرن » . ففر إلى « كرمانشاه » ، تاركـاً وراءه الشاه « إسـماعيل » ، فالتحق هذا بكريم خان . وكـان ذلك في سنـة ١١٦٥ هـ . وازدادت مكـانـة « كريم خان » رفعة وعلا شأنه بـانحياز الشـاه إليه . وجعـل من نفسه وكيـلاً للشاه فعرف من ذلك التاريخ باسم « الوكيل » .

أما « علي مردان خان » فإنه لما وصل إلى « كرمانشاه » أخذ يتهيـأ لقصد « كريم خان » بحرب أخرى فأعد جيشـاً وعثر عـلى رجل زعم أنـه ابن الشاه « سلطان حسين » الصفوي فنصبه شاهـاً وجعل من نفسـه نائبـاً له . والتقى الجيشـان في ناحيـة « بيل آور » ، فـانهزم « عـلي مـردان خـان » وقتـل الشـاه المزعوم . وكانت عاقبـة « علي مـردان خان » هـذا أن قتله رجل من شجعـان الزنديين اسمه « محمد خان زنـد » في سنة ١١٦٨ هـ . وكـان « محمد خـان » هذا متمرداً على « كريم زنـد » ومن رجال « عـلي مردان خـان » . ثم أراد أن يصالح « كريم زند » ويتدارك ما فرط منه فأغمد خنجره في بطن « علي مردان خان » وقتله وبادر تائباً إلى « كريم خان » فقبله وعفا عنه ورفع مكانته .

وكان لـ « كريم خان » خصم آخر هـو « محمد حسن خـان قاجـار » ، وهو أبو « آغا محمد خان قاجـار » مؤسس ملك الأسرة القاجـارية في إيـران . وكان يقيم في « جرجان » . فسار إليه « كريم خان » سنة ١١٦٥ هـ ، ولكنـه عجز عن التغلب عليـه . وفي أثنـاء العـراك بـين الخصمـين خـرج الشاه « إسماعيل » الشاب من عسكر « كريم خان » والتحق بمعسكـر « محمد حسن خان » ، فقال « كريم خان » : « غـدر بنا الشـاه وفر ! » . وقيـل إنه قـال : « خان الشاه الخبز والملح وفر ! » .

وعـاد « كـريم خـان » إلى أصفهـان ، وقـد وقـع في جيشـه قـدر من الخسارات . واستأسد « محمد حسن خان » بعد هذا النصر . فخرج في سنة ١١٧١ هـ من مازندران قاصداً حرب « كريم خـان » ، ووقعت بينهما معـركة في « كلون آباد » في نواحي أصفهان ، انهزم فيها « كريم خان » أيضاً . فسار منهـا إلى شيراز وتحصن فيهـا ، فتتبعه « محمـد حسن خان » إليهـا وحاصره ، ودام حصاره لشيراز مدة أربعين يوماً . ووقع بين رؤساء عسكر « محمـد حسن خان » شقاق وخلاف ، وأخذ عسكره ينفضون عنه ، فاضطر إلى فك الحصار

والإنصراف عن شيراز خوفاً من أن يؤسر ، فغادرها وعاد إلى « استرآباد » . ولكن « كريم خان » لم يمهله إذ بادر فوراً إلى إتباعه بجيش مجهز يقوده « الشيخ علي خان زند » أفضل قواده ، فتبعه إلى مازندران وجرجان ، وظل « كريم خان » في طهران . ووقعت بين الجيشين معركة خفيفة قصيرة في مازندران ، قتل فيها « محمد حسن خان » ، فاحتز « الشيخ علي خان » رأسه وأرسله إلى طهران إلى « كريم خان » .

وكان من الأفشاريين أمير أسمه « فتح علي خان أفشار آرشلو » طلب الملك لنفسه بعد مقتل « نادر شاه » ، وأصبح منافساً لـ « كريم خان زند » . وتحارب الخصمان في سنة ١١٧٤ هـ وسنة ١١٧٥ هـ في أذربيجان . ووقعت الحرب الثانية في « قرة شمن » ، فتغلب « فتح علي خان » وأوقع في معسكر « كريم خان » هزيمة شديدة ، وتفرق جنده هاربين حتى بلغوا في فرارهم إلى قزوين وطهران وأصفهان . ولكن « كريم خان » لم ييأس فعاود تجهيز جيشه وسار إلى أذربيجان وتلاقى الجمعان في « قرة شمن » في ذي القعدة سنة ١١٧٥ هـ ووقعت معركة انهزم فيها « فتح علي خان » ، فلجأ هارباً إلى قلعة « أرومية » وتهيأ للدفاع . وواطأ سراً « إبراهيم خان البغايري » أحد رؤساء عسكر « كريم خان » كما واطأ أيضاً « شهباز خان اليككي »[1] آمر البندقيين[2] الذين من إقليم فارس في جيش « كريم خان » ، وواطأ أيضاً « الملا مطلب الكربالي » ، على أن يقضوا على الوكيل ضرباً بالسيف والرصاص . ولكن رجلاً اطلع على هذه المؤامرة فأخبر بها الوكيل « كريم خان » فاعتقلهم ثلاثتهم . وبعد التحقيق وثبوت التآمر عليهم قتلهم وأرسل رؤوسهم إلى « فتح علي خان » .

ثم سار « كريم خان » إلى « أرومية » حيث تحصن « فتح علي خان » . فحاصرها تسعة شهور فوقع فيها الغلاء والمجاعة حتى اضطر « فتح علي خان » إلى التسليم ، فذهب في شهر شعبان سنة ١١٧٦ هـ إلى إصطبل الوكيل طالباً عفوه ، فعفا عنه ودخل إلى أرومية فاتحاً .

وأقام « فتح علي خان » عند الوكيل « كريم خان » محترماً مكرماً مقدماً على كل الأمراء ، لا يتقدم عليه غير « آزاد خان » الأفغاني ، وكان هذا قد سبق أن حارب « كريم خان » ثم استسلم إليه أيضاً فعفا عنه وأكرمه . ولكن « فتح علي خان » لم يلبث ، بعد مدة ، أن أخذ يقوم بأعمال ودسائس يقصد بها الإيقاع بالوكيل « كريم خان » . وعلم هذا بنواياه ومقاصده فأمر بقتله فقتل في سنة ١١٧٧ وقيل ١١٧٨ هـ .

وكان للوكيل « كريم خان » منافس آخر شديد المراس هو « آزاد خان الهوتكي الغليجائي » الأفغاني . كان هذا الخان يعد من أمراء عسكر « نادر شاه » ، حضر معه أكثر محارباته . وبعد مقتل « نادر شاه » كان أحد الذين طلبوا الملك لأنفسهم . احتل أذربيجان . وحارب « كريم خان » سنة ١١٦٦ هـ بين كردستان وكرمانشاه . وحاربه سنة ١١٦٧ هـ في ناحية « بروجرد » . فتغلب عليه في أول الأمر ، واحتل ، علاوة على أذربيجان ، كردستان وقزوين وطهران وأصفهان وشيراز ، واضطر « كريم خان » إلى الفرار والتواري . ولكن « كريم خان » عاد فهزمه ، فتراجع إلى أذربيجان وأقام في « أرومية » مقر حكومته .

(١) نسبة إلى « يكك » إحدى عشائر إقليم فارس .

(٢) المحاربون بالبنادق .

وحارب « محمد حسن خان قاجار » سنة ١١٦٩ هـ « آزاد خان » هذا في أذربيجان فهزمه واضطره إلى الفرار ، فلجأ إلى أرض العثمانيين ثم إلى كرجستان . وفي سنة ١١٧٥ هـ ، إذ كان « كريم خان » في أذربيجان ، في مدينة أرومية ، جاءه « آزاد خان » مستسلماً فاستقبله « كريم خان » استقبالاً حسناً وبذل له غاية الرعاية والإحترام وقدمه على جميع رجاله من الرؤساء والعسكريين ، وظل عنده على هذا المقام إلى أن توفي « كريم خان » .

وفي سنة ١١٧٧ هـ استغل والي بغداد العثماني اضطراب الأوضاع الداخلية في إيران فأغار على قبيلة « بني كعب » في « خوزستان » بتحريض من « المولى مطلب المشعشعي »[3] ، إذ كانت بين المشعشعيين والكعبيين خصومة ومنافسة . وأراد الوالي أيضاً التوسع في الإغارة إلى أبعد من ذلك . فبعث هذا الوضع « كريم خان » على الإهتمام بقضية « خوزستان » ، بعد أن فرغ من تسوية قسم من شؤون إيران الداخلية . فأخضع عشيرة « آل كثير » في نواحي « شوشتر » و « دزفول » ، وحقق فيها أمناً واستقراراً . ثم عزم على إخضاع قبيلة « بني كعب » ففر رئيسها « الشيخ سلمان » من « الفلاحية » إلى « جزيرة الخضر » (عبادان) ثم ركب البحر متابعاً فراره .

ورأى « كريم خان » أن الوضع يقتضيه احتلال البصرة . فجهز جيشاً بقيادة أخيه « صادق خان » وأرسله إلى البصرة فاحتلها بعد أن تكبد قدراً كبيراً من الخسائر[4] . ولم تستفد إيران شيئاً من احتلال البصرة ولا عاد عليها هذا الاحتلال بغير الضرر .

بعد أن نظم « كريم خان » الأمور المتعلقة بمجال حكمه ذهب في سنة ١١٧٩ هـ إلى شيراز ، وأقام فيها إلى سنة وفاته . وتقدمت شيراز وعمرت في هذه المدة ، وأقيمت فيها الأبنية الفخمة بأمر الوكيل . وكانت عاصمة الزنديين .

تسمى في مدة حكمه بلقب « وكيل الرعايا » أو « وكيل الدولة » . ودام حكمه ثلاثين سنة وثمانية أشهر واثني عشر يوماً . وتوفي في الثالث عشر من شهر صفر سنة ١١٩٣ هـ في شيراز .

ونشب النزاع على خلافته بين الزنديين ساعة وفاته . وبلغ النزاع بينهم إلى أن أهملوا دفنه ثلاثة أيام ، انشغلوا فيها بالإقتتال فيما بينهم . وهو ملقى على وجه الأرض . وبعد أن تمكن « زكي خان زند » ، وهو أخو « كريم خان » لأمه وابن عمه ، من قتل رؤساء الزنديين دفنه في قبر كان قد بناه في شيراز لنفسه في حياته .

وفي سنة ١٢٠٦ هـ ، إذ تغلب « آغا محمد خان قاجار » على الزنديين وقضى على ملكهم ، ودخل إلى شيراز دفعه حقده على « كريم خان زند » إلى أن أمر بنبش قبره وإخراج عظامه منه ثم نقلها من شيراز إلى طهران وأمر بدفنها في عتبة مسكنه الخاص ، وهو قصر كان قد بناه « كريم خان » لنفسه . وأراد « آغا محمد خان قاجار » من ذلك الإنتقام من هذا الخان الجليل القدر بعد موته بجعل رأسه في كل يوم تحت قدميه كلما اجتاز هذه العتبة . ويقال

(٣) آل « المشعشعي » أو « الموالي » أسرة كانوا حاكمين في « خوزستان » . و « المولى مطلب » هذا أحد رؤسائهم وحكامهم .

(٤) لما توفي « كريم خان » سنة ١١٩٣ هـ ترك « صادق خان » البصرة وعاد إلى شيراز ليخلف أخاه في الحكم .

إنه فعل مثل ذلك بعظام « نادر شاه أفشار » أيضاً . ولما ملك « فتح علي شاه قاجار » أمر بإخراج عظام « كريم خان » من هذه العتبة ، فأخرجت وأرسلها إلى النجف فدفنت فيها .

بعد وفاة « كريم خان » تناوب سبعة من الزنديين على الملك في قسم من إيران مدة ستة عشر عاماً ، من سنة ١١٩٣ هـ إلى سنة ١٢٠٩ هـ ، قضوها في المصاعب والمشقات والحروب وسفك الدماء والإقتتال حتى أفنى خاناتهم بعضهم بعضاً .

حكمت هذه الأسرة مدة سبعة وثلاثين عاماً . منها سنوات سلطنة « كريم خان » فقط كانت أيام اقتدار وسيطرة تامة لها ، وذلك من سنة ١١٧٢ هـ إلى سنة ١١٩٣ هـ سنة وفاته . وبعد وفاته تولى أمرها خانات فاسدون كانوا هم أنفسهم أول من بدأ استئصالها واقتلاع جذورها . ولما انتصر « آغا محمد خان قاجار » عليهم وقتل آخر ملوكهم « لطف علي خان » أمر بقتل كل من بقي حياً من هذه الأسرة من خانات ورعية ، فقتلوا جميعاً إلا واحداً منهم اسمه « عبد الله خان » أبقوا عليه رعاية لقرابته من أحد رجال « آغا محمد خان » .

كان « كريم خان زند » شجاعاً متسامحاً عطوفاً مولعاً بالعمارة . وكان ضخم البنية قوي الجسم . يمارس أعماله بجنان ثابت ورجولة قوية . وبعد وفاته كان كل ما ترك في خزانته من نقد ستة آلاف تومان . وكان يعامل الناس ، من جميع القوميات والملل والمذاهب ، بالمساواة والعدل ، لا يفرق بين أحد من أتباعه ، سواء في ذلك المسلم وغير المسلم . وكانت له إقامة في « جلفا » ، وهي قصبة أكثر سكانها من النصارى الأرمن . فكان يبذل جهده في المحافظة على أموالهم وصيانة كرامتهم ، وتمكينهم مما يلزمهم من أمور يختصون بها ، غير ناظر إلى طريقتهم ودينهم بل إلى حاجاتهم ومطالبهم .

ونقل عن « فتح علي شاه » أنه قال : « كان كريم خان بسيط اللباس . يدخل الحمام مرة في كل شهر فيبدل كل ألبسته حتى الحذاء . وقماش لباسه من القُطن . ولم يكن يتزين بالجواهر والشارات الملكية . وشال رأسه ونطاقه عتيقان ، بل قد يكون فيهما أحياناً تمزق . يرتدي العباءة . يسهر الليل إلى الصبح لاهياً . وفي الصباح يغفو ساعتين أو ثلاثاً . ويجلس في كل يوم جلوساً عاماً مرتين ، مرة في الصباح ومرة في العصر » .

وأما ما كان من أمر الشاه « إسماعيل الثالث » فإنه بعد أن فر من معسكر « كريم خان » سنة ١١٦٥ هـ والتحق بمعسكر « محمد حسن خان قاجار » أقامه هذا في « ساري » عند « محمد خان قوينلو » محافظ مازندران وظل هناك مدة ست سنوات ، أي إلى سنة ١١٧١ هـ ، فلما أخلى « محمد حسن خان قاجار » مازندران في تلك السنة وتراجع عن لقاء جيش « كريم خان » إلى « استراباد » حمل معه الشاه « إسماعيل الثالث » إليها ، وكان هذا الشاه ، بصورة عامة ، يتنقل من معسكر إلى معسكر بين الأمراء المتحاربين ، فمن رآه الأقوى انحاز إليه . إلى أن كانت سنة ١١٧٢ هـ ، وقد قتل « محمد حسن خان قاجار » ، فاضطر مجبراً إلى الإلتحاق بالوكيل « كريم خان » . وفي سنة ١١٨٠ هـ كان « كريم خان » قد فرغ من تنظيم أموره فأسكن الشاه « إسماعيل » في « آباده » وعين له مخصصات لنفقاته . وكان إذا كتب إليه التزم بالرواسم المقررة في مخاطبة الشاهات مثل التوقيع بكلمة « العبد الأحقر كريم » .

وتوفي الشاه « إسماعيل » بعد ست سنوات من إقامته في « آباده » . فطلى « كريم خان » رأسه بالطين على عادة اللوريين في الحداد ، وأقام له مأتماً .

وأما الشاه الآخر « شاهرخ أفشار » حفيد « نادر شاه » ، وكان مجال حكمه خراسان ، وظل يحكم إلى سنة ١٢١٠ هـ ، فإن « كريم خان » وخلفاءه لم يتعرضوا له بسوء رعاية منهم لحقوق جده « نادر شاه » . بل كانوا أحياناً يبذلون له العون .

الشيخ لطف الله العاملي :

مرت ترجمته في موضعها من المجلد التاسع ونزيد عليها هنا ما ذكره في الجزء الرابع من (رياض العلماء) ثم ما كتبه عباس اقبال الآشتياني.

ما جاء في الرياض :

كان مولده في ميس من قرى جبل عامل وقد توجه في أوائل عمره منها إلى زيارة مشهد الرضا عليه السّلام وأقام به مدة ، وكان يشتغل فيه بتحصيل العلوم .

إلى أن يقول : وقد تخلص من مخمصة مجيء الأوزبكية إلى تلك الروضة المقدسة وتوجه إلى خدمة ذلك السلطان (عباس الصفوي) ، وكان يدرس بقزوين برهة من الزمان ، ثم انتقل منها بأمر ذلك السلطان إلى أصفهان .

ويقول عنه أيضاً : وكان له عدة أولاد ذكور وإناث ، وأكبرهم سناً ومكاناً الشيخ جعفر . وكان له بنتان : تزوج باحداهما الأميرزا حبيب الله ، الصدر المعروف ، وحصل له منها الوزير الجليل آميرزا مهدي وأخوه آميرزا علي رضا شيخ الإسلام باصبهان : وتزوج بالثانية السيد آميرزا محمد مؤمن العقيلي الاسترآبادي . وقد تولد منها أولاد ذكور عديدون معروفون في عصرنا هذا .

كلمة عباس إقبال الآشتياني :

لا شك أن مسجد الشيخ لطف الله هو واحد من أجمل الآثار العمرانية في أصفهان ، حيث يشد المشاهد إليه بجماله وإبداع الفنانين الذين أضفوا عليه آيات الزينة والجمال .

يقوم هذا المسجد في الضلع الشرقي لميدان(نقش جهان) بإزاء بناية (عالي قاپو) أو «دولتخانه» ، ويندر أن يكون له نظير في أقطار الأرض ، لزخارفه وفسيفسائه داخل وخارج القبة ، وللخطوط التي بلغت غاية الروعة ، بيد علي رضا التبريزي العباسي .

بدأ العمل بهذا المسجد بأمر من الملك عباس الأول عام ١٠١١ هـ أي في نفس العام الذي أمر فيه ببناء ساحة (نقش جهان) والأسواق الأربعة المحيطة به ، واستمر العمل فيه حتى عام ١٠٢٨ .

والهدف الرئيسي الذي أراده الملك في بنائه لهذا المسجد والمدرسة المجاورة هو تهيئة محل تدريس ومركز إقامة وإمامة للشيخ لطف الله العاملي ، الذي إشتهر آنذاك بتقواه وزهده وجلالة قدره ، وكان الملك يجله ويعظمه كثير التعلق به .

ونقصد في هذه المقالة الإشارة باختصار إلى حياة الشيخ لطف الله ، وعلاقاته مع بعض المشاهير من علماء عصره ليتسنى للقارئين الإحاطة بإلمامة موجزة عن حياة هذا الشخص الذي اشتهر هذا المسجد العظيم باسمه ، وليقفوا على بعض أوضاع الحوزة العلمية في عصر الشيخ التي عاشت أفضل أدوار حياتها في زمن الدولة الصفوية .

في نوروز عام ١٩٤١ كنت في أصفهان ، وخلال شرائي لبعض الكتب ، حصلت على مجموعة تحتوي على بعض النسخ الخطية وموضوعها جميعاً الحديث والرجال . كانت هذه المجموعة في السابق من ممتلكات الشيخ لطف الله العاملي ، حيث لا يزال أثر خطه وختمه باقياً على ظهر الورقة الأولى .

وقد كتب الشيخ فهرستاً لهذه المجموعة على ظهر هذه الورقة كالآتي :

« هذه مجموعة مشتملة على مناسك الحج وجزء من رسالة الحساب للشيخ بهاء الدين محمد سلمه الله وأربعين حديثاً جمعها الأمير فيض الله[1] في أحوال العامة ، وحواش على بعض المتون الفقهية للملا عبد الله التستري ، وكتبت أنا على أوائلها حواشي وأنا الفقير إلى الله لطف الله العاملي الميسي ، ورسالة في العمل بخبر الآحاد وكتاب شرح الدراية للشهيد الثاني وحواشي للشيخ بهاء الدين محمد سلمه الله تعالى على الأثني عشرية للشيخ حسن[2] قدس سره . وأجزاء من اختيار الرّجال (كذا) للملا عناية بهلكوه بايه اى[3] . والجزء الأول من كتاب الكشي في الرجال والجزء الثاني منه أيضاً في معرفة الرجال والثالث والرابع والخامس منه أيضاً» .

وفي ذيل هذه العبارات ، بعد إسم كتاب ملا عبد الله الشوشتري ، هناك ختمان ، من المسلّم به أنهما بخط الشيخ لطف الله العاملي ، وهما عبارة عن هذه الكلمات : «ثقتي بلطف الله تقيني» .

وموضوع رسالة ملا عبد الله الشوشتري هذه ، كما يتضح من المقدمة ، هو حواش وتعليقات لهذا المؤلف على الرسالة الإثني عشرية في الصلاة ، تأليف الشيخ جمال الدين الحسن بن زين الدين العاملي (٩٥٩ - ١٠١١) ابن الشهيد الثاني وهو صاحب كتاب المعالم .

وقد دون الكاتب العبارات التالية في آخر هذه الرسالة : « كتب هذه الرسالة الفقير إلى الله الغني حسن بن آل براق الحسني في بلدة أصفهان للأخ والمؤاخي لوجه الله الطيب الطاهر الفاضل العالم العامل التقي النقي الرضي المرضي شيخ الإسلام والمسلمين شيخ لطف الله العاملي عامله الله بلطفه وزاد في شرفه في أواخر شهر ربيع الأول سنة ألف واثني عشر من الهجرة النبوية على مشرّفها السلام والتحية » .

يتضح من هذه العبارة ، أن رسالة الملا عبد الله الشوشتري هذه ، قد دونها كاتب بعينه في أصفهان للشيخ لطف الله ، في تاريخ أواخر ربيع الأول عام ١٠١٢ .

ويبدو جلياً أن هذه المجموعة المذكورة أعلاه ، والتي هي في حوزة كاتب هذه السطور في الوقت الراهن ، كانت عائدة في يوم ما للشيخ لطف الله العاملي ، الإمام والمدرس المعروف في عهد الملك عباس ، والله وحده يعلم كم يد تداولتها بعد وفاته عام ١٠٣٢ حتى الآن وكم يد سوف تتداولها فيما بعد .

يوجد ضمن هذه المجموعة - كما يظهر الفهرست الذي وضعه الشيخ لطف الله - رسالتان ، من تأليف شخصين من كبار العلماء المعاصرين للشيخ لطف الله ، واحدة من تأليف الشيخ بهاء الدين محمد العاملي أي الشيخ البهائي المعروف (٩٥٣ - ١٠٣٠) ، حيث يذكر الشيخ اسمه في هذا الفهرست مع الجملة الدعائية « سلمه الله » ، والأخرى من تأليف الملا عبد الله بن حسين الشوشتري (المتوفى عام ١٠٢١) وهو من العلماء الزاهدين العابدين في عصر الملك عباس الكبير ، ومن مشايخ ملا محمد تقي المجلسي الأول ومير مصطفى التفرشي مؤلف كتاب نقد الرجال .

على الرغم من أن الشيخ لطف الله قد اكتفى في فهرسته بذكر اسم ملا عبد الله الشوشتري مجرداً ، وقد عرض أراء مخالفة لأرائه الفقهية في الحواشي والتعليقات ، إلا أنه لم يخرج عن حد الأدب وأشار إلى اسمه بالجملة الدعائية « دام ظله » .

تظهر التواريخ أن العلاقة بين الشيخ البهائي والشيخ لطف الله ، كانت غاية في الصفاء والمودة ، وكان الشيخ البهائي يعتقد بعلم الشيخ لطف الله ، ويحث الناس على الرجوع إليه في المسائل الفقهية[4] إضافة إلى كون الشيخ البهائي من المشايخ الذين منحوا الإجازة للشيخ لطف الله وقد أجازه رسمياً في جمادى الأولى عام ١٠٣٢ لرواية قسم كبير من مؤلفاته بخطه[5] .

ولكن يبدو أن العلاقة بين الشيخ لطف الله ومعاصره الآخر الملا عبد الله الشوشتري لم تكن على ما يرام ، إذ كان ثمة خلاف في المسائل العلمية بينهما . وقد كتب صاحب (عالم آراي عباسي) ونقل عنه مؤلفا رياض العلماء ومستدرك الوسائل قوله : كانت بين الشيخ لطف الله العاملي ومير محمد باقر الداماد (المتوفى سنة ١٠٤٠) من جهة والملا عبد الله الشوشتري من جهة أخرى مناقشات دائمة في الأمور العلمية والاجتماعية ، وظلت الأمور بينهم على حالها حتى آخر عمر ملا عبد الله . حتى كان يوم السبت ٢٥ محرم عام ١٠٢١ حين كان الملا عبد الله على فراش الموت ، عاده المير داماد والشيخ لطف الله ، فقبل الملا عبد الله رأسي وعنقي خصميه العلميين وعاملهما بفرح وسرور ثم فارق الحياة في صبح اليوم التالي .

تشير الأدلة المتوفرة لدينا ، أنه غالباً ما كانت المناقشة بين ملا عبد الله والشيخ لطف الله تقترن بالأدب والاحترام ، بينما لم تكن تقترن بذلك في

(١) المقصود بالأمير فيض الله ، هو العالم الشهير في الفقه والأصول السيد الأمير فيض الله بن عبد القاهر الحسيني التفرشي ، وقد كان من تلامذة الملا أحمد الأردبيلي ، وقد توفي في مشهد في رمضان عام ١٠٢٥ ودفن فيها ، وترك وراءه بعض المؤلفات .

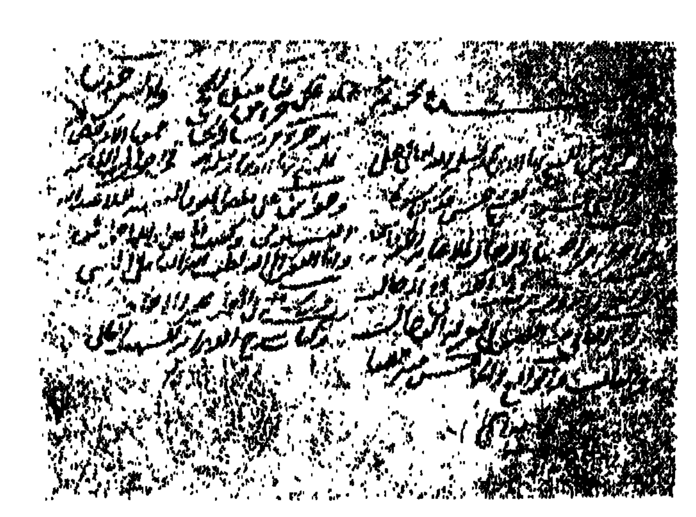
(٢) المقصود هو الشيخ جمال الدين أبو منصور حسن العاملي ابن الشيخ زين الدين الشهيد الثاني الذي أشير إلى حياته في بعض هذه المقالة .

(٣) ملا عناية الله بن شرف الدين علي الكوه بايه اي الأصفهاني ، من علماء الرجال ومن تلامذة الشيخ البهائي والمحقق الأردبيلي والملا عبد الله الشوشتري ومن العلماء المشهورين في عهد الملك عباس الكبير (٩٩٦ - ١٠٣٨) ، وقد أتم كتاب اختيار رجال الكشي في أصفهان ، في محرم من عام ١٠١١ ، وله كتاب آخر في ترتيب كتاب الرجال للنجاشي .

(٤) روضات الجنات ص ٥١٩ ، ورياض العلماء القسم الأول ، المجلد الثالث (نسخة خطية) في أحوال الشيخ لطف الله وأمل الآمل ، القسم الأول (خطي) .

(٥) بحار الأنوار (كتاب الإجازات) ج ٢٦ ، ص ١٣٠ - ١٣١ ، وكتاب الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج ١ ، ص ٢٣٨ .

بعض الأحيان بين الملا عبد الله والميرداماد[1] .



صورة خطّ الشيخ لطف الله

ولكن مثل هذ المنافسات والخصومات قد انتهت ـ كما أشرنا آنفاً ـ بوفاة الملا عبد الله ، وربما كان إغماضه وسروره في حال احتضاره ، قد بدل المناقشات والمجادلات السابقة إلى صلح وصفاء ، بحيث أمَّ الميرداماد جموع العلماء الذين قدموا لتشييع جنازة الملا عبد الله ، في صلاتهم عليه[2] .

وكان الملا عبد الله الشوشتري خائفاً في فترة من الفترات من الملك عباس الكبير ، فلجأ إلى الحرم الرضوي في مشهد ، وعندما دخل الملك مشهد عام ١٠٠٩ ذهب للقاء الملا عبد الله ، ثم اصطحبه ، معززاً مكرماً معه إلى أصفهان ، وحظي في أصفهان بنفوذ واسع في البلاط ، بحيث دعا الملك في عام ١٠١٧ لوقف جميع أملاكه الشخصية باسم المعصومين الأربعة عشر ، وتوزيع عائدتها السنوية على السادات ، وكذلك أشار عليه ببناء مدرستين في أصفهان إلى جانب ميدان نقش جهان ، واحدة لدرسه وإقامته والثانية لدرس وإقامة الشيخ لطف الله العاملي . ولا تزال مدرسة الملا عبد الله قائمة إلى جانب البوابة القيصرية في الضلع الشمالي لميدان نقش جهان ، بينما آلت مدرسة الشيخ لطف الله ـ التي كانت ملتصقة بالمسجد ـ إلى الخراب .

وأما الشيخ لطف الله بن عبد الكريم بن إبراهيم ، فهو في الأصل من أهالي ميس من قرى جبل عامل وعائلته من فقهاء الإمامية ، إذ كان أبوه وجده الأعلى وابنه قد اشتهروا بهذا العنوان .

وفي الفترة التي كان الملوك الصفويون يسعون جاهدين فيها لترويج أحكام المذهب الشيعي ، وتشجيع وإكرام فقهاء هذا المذهب ، سافر الشيخ لطف الله الميسي العاملي إلى إيران كما فعل جمع كبير آخر من فقهاء البحرين وجبل عامل ، وسكن في بادىء الأمر في مشهد المقدسة ، وكان إذ ذاك في مقتبل عمره ، فدرس في هذه البقعة المقدسة على علمائها ، ومنهم الملا عبد الله الشوشتري[3] ، ثم عينه الملك عباس الكبير خادماً للحرم الرضوي ، ومكث فيها حتى حدثت فتنة الأزبك ، واستيلائهم على مشهد .

لاذ بعد ذلك بالفرار ولجأ إلى قزوين واشتغل بالتدريس فيها . ثم استقدمه الملك عباس من قزوين إلى أصفهان ، حيث بنى له في عام ١٠١١ مسجداً ومدرسة في جانب ميدان نقش جهان ـ حملا اسمه ، ليكونا محلاً لتدريسه وإقامته وإمامته ، وكما أسلفنا فإن العمل فيهما استغرق حتى عام ١٠٢٨ ، وحين الفراغ من العمل بهذين البناءين ، أمر الملك عباس بإنشاء مسجد جديد في الجزء الجنوبي للميدان ، وهذا المسجد هو (مسجد الشاه) .

وبعد أن اكتمل العمل في مدرسة ومسجد الشيخ لطف الله وأصبحا مهيأين للصلاة وللتدريس ، أقام هذا الرجل الجليل في المدرسة وباشر فيها وفي المسجد بالتدريس وإمامة المصلين وخصص له الملك مبلغاً معيناً لشؤون حياته .

وكان للشيخ بعض الآراء والاعتقادات الخاصة به في المسائل الفقهية والفتاوى الشرعية ، وينقل صاحب رياض العلماء أنه كان يناقش علماء عصره حول بعض هذه المسائل بغير حق ، ومنها اعتقاده بوجوب إقامة صلاة الجمعة في حال غياب صاحب الزمان ، وكان يقوم شخصياً بإقامة هذه الصلاة في مسجده واستمر على عمله هذا ، وكان مقلدوه يتبعونه في ذلك .

كانت مؤلفات الشيخ منحصرة في الحواشي والتعليقات التي كان يكتبها على بعض الكتب الفقهية التي صنفها العلماء السابقون لعهده وفي الرسائل التي كان يرد فيها على الفتاوى الدينية للمعاصرين . ولم يكن الشيخ لطف الله محروماً من العلوم الأدبية ، بل كان ينظم الشعر في بعض الأحيان .

يذكر مؤلف كتاب مجمل التواريخ[4] بأن وفاة الشيخ لطف الله كانت في عام ١٠٣٢ ، أي في نفس السنة التي استولى فيها الملك عباس على بغداد ، وكذلك يورد صاحب (عالم آراى عباسي) تاريخ وفاته في ذيل حوادث نفس هذه السنة ١٠٣٢ ويقول : « مرض الشيخ لطف الله الميسي العربي الجبل عاملي في أوائل هذه السنة ، قبل السفر إلى دار السلام بغداد في أصفهان ، ثم توفي »[5] .

وينقل الميرزا عبد الله الأفندي في كتاب رياض العلماء عن (عالم آراي عباسي) نفس مضمون هذه الجملة ويقول : كانت وفاة الشيخ في أوائل عام ١٠٣٢ ، قبيل فتح بغداد ، وكان تاريخ فتح قلعة بغداد يوم الأحد الثالث والعشرين من ربيع الأول عام ١٠٣٢ .

ويذكر صاحب (عالم آراي عباسي) مقطوعة شعرية لتحديد سنة وفاة الشيخ لطف الله . وعلى أي حال فإن المادة التاريخية التي يذكرها صاحب هذا الكتاب لتحديد عام الوفاة تختلف مع السنة التي يحددها نفس هذا المؤلف وهي سنة ١٠٣٢ بسنة واحدة ، ويتضح ذلك من خلال حساب الجمل لعبارة « شيخ لطف الله » .

---

(١) عالم آراي عباسي صفحة ٦٠٨ ورياض العلماء في ترجمة أحوال الملا عبد الله الشوشتري وكذلك مستدرك الوسائل الجزء الثالث ، ص ٤٠٥ .

(٢) مستدرك الوسائل ص ٤١٥ الجزء الثالث ، (عالم آراي عباسي) ص ٦٠٨ .

(٣) هو شهاب الدين عبد الله بن محمد الشوشتري ، أستاذ الشيخ لطف الله ، وقد وقع أسيراً بيد الأزبك عام ٩٩٧ في مشهد ، واستشهد على أيديهم في بخارى ، ولا ينبغي الخلط بينه وبين الملا عبد الله بن حسين الشوشتري الذي مر ذكره آنفاً ، الذي توفي عام ١٠٢١ والذي كان في خلاف مع الشيخ لطف الله ، ويطلق بعض المؤلفين على شهاب الدين عبد الله القمي الشهيد الثالث .

(٤) يعتبر هذا الكتاب المختصر في غاية الفائدة ، فهو تاريخ مجمل ولكنه يفصل تاريخ الصفوية ، ويحتوي على معلومات هامة جداً ، ولم يتسن لي معرفة مؤلفه ، ولكنه ألف في عصر الملك عباس الثاني .

(٥) (عالم آراي عباسي) ص ٧١٠ .

ومهما كانت الحقيقة ، فليس مهماً كثيراً الاختلاف في سنة واحدة ، وإن كنت أرجح أن يكون التاريخ الحقيقي للوفاة هو ما صرح به مؤلف مجمل التواريخ وصاحب (عالم أرا) وهو ١٠٣٢ .

تعليق الأستاذ محمود شهابي
على المقال

كان هذا المقال قد نشر في مجلة (يادگار) فعلق عليه الأستاذ محمود الشهابي بما يلي :

١ ـ وردت في صفحة ٥٥ ، السطر الخامس العبارة التالية : « وفي تاريخ جمادى الأولى ١٠٣٢ أجازه الشيخ البهائي رسمياً . . . » وكانت هذه العبارة غامضة بالنسبة لي ، بسببين :

١ ـ لأن الشيخ البهائي ـ قد توفي عام ١٠٣٩ ، كيف يكون قد أجاز الشيخ لطف الله عام ١٠٣٢ .

ربما حدث خطأ مطبعي بين ٣٢ و٢٣ ، ولكن حتى هذا التاريخ لا يتوافق مع ما ورد في كتاب الذريعة ، إذ يحدد تاريخ أخذ الإجازة في عام ١٠٢٠ .

ثانياً : وبما أن الذريعة هي إحدى المصدرين الذين اعتمدهما الكاتب في مقاله ، فإنها تحدد شهر شوال لأخذ هذه الإجازة ، وإذا كان الكاتب قد اعتمد في تحديد الشهر على البحار الا ي هو مصدره الثاني ، فقد كان ينبغي أن يشير إلى هذا الاختلاف الموجود ين المصدرين .

ومن جانب آخر ، فلو فرا نا ـ جدلاً ـ أن العام الـذي حدده الكاتب صحيح ، فإن شهر جمادى الأ لى غير صحيح إذ كان من عام ١٠٣٢ ، إذ ورد في صفحة ٥٩ ، في السـ لمرين ١٢ ـ ١٣ من نفس هـذه المجلة العبارة التالية : « . . . كانت وفاة شيخ في أوائل عام ١٠٣٢ ، قبيل فتح بغداد ، وكان تاريخ فتح قلعة بغدا يوم الأحد الثالث والعشرين من ربيع الأول عام ١٠٣٢ » .

رد الأشتياني

١ ـ فيما يخص عام ١٠٣٢ ، فإن الحق مع الأستاذ الشهابي ، حيث طبع عام ١٠٣٢ خطأ بدلاً من عام ١٠٢٢ ، وبعد مراجعتي للمصادر المعروفة ، أدركت أني كنت قد أخطأت في تحديد جمادى الأولى عام ١٠٢٢ تاريخاً لإجازة الشيخ البهائي للشيخ لطف الله ، فقد كانت نسخة بحار الأنوار ، المجلد السادس والعشرون تالفة وغير واضحة . والصحيح هو ما ذكره المؤلف القدير لكتاب الذريعة ، أي شوال عام ١٠٢٠ .

لطف علي خان زند :

« لطف علي خان زند » آخر ملوك سلسلة « زند » التي حكمت في إيران . ابن « جعفر خان زند » الأكبر . كان من أشجع شجعان إيران ، حتى ضربت بشجاعته الأمثال . ولد سنة ١١٨٠ هـ . ملك ست سنوات ، من سنة ١٢٠٣ هـ إلى سنة ١٢٠٩ هـ ، قضاها مشغولاً بمحاربة « آغا محمد خان قاجار » وغيره من الأعداء ، حتى اعتقل عند قلعة « بم » في ولاية « كرمان » في الرابع من ربيع الثاني سنة ١٢٠٩ هـ بوسيلة من الغدر والنذالة ، وحمل إلى « آغا محمد خان قاجار » . فبدأ هذا الرجل الفظ بإعماء عيني الأسير بيده ، ثم أرسله وهو على هذه الحال الفجيعة إلى طهران . وبعد قليل أمر « آغا محمد خان » الميرزا « محمد خان قاجار » حاكم طهران بقتل هذا الأمير المقدام الوسيم فقتله ودفن في مقبرة الشريف العلوي « زيد » في طهران .،

بعد وفاة « كريم خان زند » سنة ١١٩٣ هـ خلفه على العرش الشاهاني ابنه الأكبر « أبو الفتح خان » في تلك السنة نفسها . ولكن ملكه لم يدم غير سبعين يوماً إذ خلعه عمه « صادق خان » عن العرش ، وبعد بضعة أيام أعماه وتملك مكانه في نفس السنة .

ثم عين « صادق خان » ابنه الأكبر « جعفر خان » ، وهو أبو « لطف علي خان » ، حاكماً على أصفهان ، وكان لـ « جعفر خان » هذا أخ لأمه اسمه « علي مراد خان » ، وكان حاكماً قبله على أصفهان من قبل « أبو الفتح خان » ومكلفاً ، مع عمله هذا ، بتنظيم الأمور في طهران أيضاً ، فكان يتردد بين المدينتين ، وقد أناب عنه أحد رجاله حاكماً على أصفهان . فلما علم « علي مراد خان » بما جرى في العاصمة شيراز من تغييرات ، وكان في طهران ، غادرها مسرعاً إلى أصفهان . وعلم « جعفر خان » بمسير أخيه هذا فخشي أن يقع أسيراً في يده ، فغادر أصفهان إلى شيراز وحمل معه حاكم أصفهان المعزول .

ودخل « علي مراد خان » أصفهان وجهز جيشاً عهد بقيادته إلى ابن عم له اسمه « صيد مراد خان » وأرسله إلى شيراز لمحاربة « صادق خان » ، وأرسل هذا أيضاً جيشاً نحو أصفهان لملاقاته ، وعهد بقيادته إلى ولديه « حسن خان » و « علي قلي خان » . والتقى الجيشان في محلة « كوشك زر » سنة ١١٩٤ هـ ، فانهزم جيش « صادق خان » وتفرق جنده . وتابع « علي مراد خان » تقدمه نحو شيراز ، واستطاع في سنة ١١٩٥ هـ أن يستميل إليه أخاه لأمه « جعفر خان » ابن « صادق خان » المذكور ـ وكان في شيراز ـ فتخلى عن أبيه والتحق بمن معه من الجند بأخيه لأمه « علي مراد خان » .

وتوالت مناوشات وحروب بين المتنازعين انتهت إلى انتصار « علي مراد خان » ودخوله إلى شيراز فاتحاً في شهر المحرم سنة ١١٩٦ هـ ، فقتل « صادق خان » وأبناءه واعتلى العرش الشاهاني في تلك السنة . ونصب « صيد مراد خان » والياً على إيالة فارس ، ونصب أخاه لأمه « جعفر خان » والياً على كردستان . وظل « علي مراد خان » مالكاً إلى وفاته سنة ١١٩٩ هـ .

واعتلى العرش بعده في تلك السنة أخوه لأمه « جعفر خان » المذكور ، وهو أبو « لطف علي خان » . وظل في الحكم أربع سنوات قضاها في الإقتتال الذي كان لا ينفك ناشباً بين الخانات الزنديين ، إلى أن قتله هؤلاء الخانات في شيراز ليلاً في ٢٢ ربيع الثاني سنة ١٢٠٣ هـ . قتلوه ضرباً بعصي المكانس والنبابيت والحجارة . ثم قطعوا رأسه ، وفي الصباح ألقوا برأسه من باب القلعة التي يسكنها إلى الخارج .

في سنة ١٢٠٢ هـ كان « جعفر خان » قد أرسل ابنه « لطف علي خان » لإخضاع بعض الخانات المتمردين في إقليم « لار » في جنوب إيران . وهو يومئذ في الثانية والعشرين من عمره . وأنعم عليه بلقب « جهان باني » (أي : الملك الأعظم) . وتم له فتح إقليم « لار » وعين عليه حاكماً من قبله . ثم عاد إلى شيراز . وفي سنة ١٢٠٣ هـ أرسله « جعفر خان » مرة ثانية

لإخضاع حاكم « كله دار » وبعض شيوخ العرب من سكان « بندر عسلويه » وغيره فقام بالمهمة وتم له النصر .

ويلغه نبأ مقتل أبيه وهو في نواحي « كله دار » . فبادر يريد العودة فوراً إلى شيراز ليخلف أباه على العرش . ولكن « صيد مراد خان زند » والي فارس كان قد نصب نفسه خليفة للشاه القتيل . ثم دبر مؤامرة يثبت بها منصبه ، فاستطاع أن يستميل إليه رؤساء عسكر « لطف علي خان » . فأراد هؤلاء اعتقال « لطف علي خان » وهو في « كله دار » وتسليمه إلى « صيد مراد خان » ، وكادوا ينجحون في خطتهم . ولكن ما كان أروع ما أبدت فطرة « لطف علي خان » من مهارة وجرأة وسرعة خاطر إذ بادر إلى الإصطبل فاعتلى صهوة جواد بلا سرج ولا لجام وطار به إلى « بوشهر » ونجا من هذه التهلكة . وفي مدة قليلة لا تتجاوز شهرين أو ثلاثة كان قد استطاع تجهيز جيش من « بوشهر » وأطرافها ، وسار به إلى شيراز .

فلما علم « صيد مراد خان » بمسير « لطف علي خان » إليه جهز جيشاً وعهد بقيادته إلى أخيه « شاه مراد خان » وأرسله إلى ملاقاته لرده عن شيراز . ولكن رؤساء هذا الجيش اتفقوا فيما بينهم على خذل قائدهم هذا فاعتقلوه في « دالكي » وقيدوا رجليه وغلوا يديه بالزنجير وحملوه ، وهو على هذه الحال ، إلى « لطف علي خان » ، وكان في « برازجان » الواقعة بين شيراز و « بوشهر » وسلموه إليه ، فقتله في الحال . وانضم جنده عن طيب خاطر إلى جيش « لطف علي خان » . ثم تابع سيره إلى شيراز .

وقبل أن يصلها كان أعيان إقليم فارس ورؤساء الزنديين قد قرروا التخلص من « صيد مراد خان » لأنه حصل على العرش اغتصاباً فثاروا عليه ، وحاصروه في القلعة وأبقوه سجيناً فيها . ثم أرسلوا إلى الأمير الشاب « لطف علي خان » رسالة شرحوا له فيها واقع الحال فوصلته وهو في « كازرون » ، فخف منها مسرعاً إلى شيراز ودخلها في ١٢ شعبان سنة ١٢٠٣ هـ . فاستقبله الأهالي استقبالاً حافلاً تعالت فيه أصواتهم بالتحايا والصلوات . وبعد يومين ، في ١٤ شعبان ، احتل القلعة وقتل « صيد مراد خان » وأقاربه . ومن كان منهم أقل ذنباً اكتفى بإعمائه .

وإذ كان « الحاج إبراهيم كلانتر »[1] الشيرازي قد قام بخدمات كبيرة من أجل انتصار « لطف علي خان » فقد كافأه هذا بنصبه وزيراً له .

اعتلى « لطف علي خان » العرش الزندي وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، يتجلى في عنفوان الزهو والشباب . وقد أمضى حياته على صهوة الجواد وفي ميدان الحرب . ويعد من أجمل وأشجع وأشقى شاهات إيران . هذا الشاه الشاب لم يسترح لحظة واحدة من سنة ١٢٠٣ هـ ، وهي بداية حكمه ، إلى سنة ١٢٠٩ هـ ، وهي سنة انطفاء حياته . وانتهى أمره إلى أن غدر به رجال من حلفائه فوقع في قبضة الخان السفاح « آغا محمد قاجار » . وبلغ من الكفاءة والشجاعة بحيث لم يستطع أن يسكت عن تمجيده أعدى أعدائه « آغا محمد خان قاجار » هذا . وذلك أن ابن أخيه « بابا خان » القاجاري الذي أصبح فيما بعد « فتح علي شاه » ولد له مرة ، في قصبة « نوا » خمسة أبناء في ظرف تسعة أشهر ، فسماهم « محمد علي ميرزا » و « محمد قلي ميرزا » و « محمد ولي ميرزا » و « عباس ميرزا » و « حسين علي ميرزا » . وسمع بذلك عمه « آغا محمد خان » فقال : يا ليت أحدهم كان « لطف علي خان » !

كانت عادة المؤرخين الإيرانيين أن يتملقوا الحكم القائم ، لفقدان حرية الكلام وسيطرة الحكام المستبدين ، فهم يسكتون عن ذكر الحقائق مراعاة لهم وخوفاً منهم ، ومع ذلك فإنهم وصفوا « لطف علي خان » في عهد حكم أعدائه بأنه « رستم القدرة » و « الهزبر الشجاع » و « أسد غابة البطولة » .

بعد أن اطلع « آغا محمد خان قاجار » على أحداث شيراز عزم على فتحها والقضاء على حكم « لطف علي خان » . فجهز جيشاً كامل التجهيز وجعل في قيادته اثنين من أشهر رؤساء العسكر القاجاريين ، وسار به إلى ولاية فارس سنة ١٢٠٣ هـ . ولكنه ، مع ذلك ، لم يستطع أن يصنع شيئاً . وتبين له أنه لن يتيسر له التغلب على « لطف علي خان » بالحرب . فعدل عنها إلى طريقة أخرى ، كدأبه دائماً في مثل هذه الحال ، وهي طريقة الدسيسة والتآمر . فقام في السر ، بمفاوضة حاشية « لطف علي خان » ومشاوريه ومكاتبتهم ، ولا سيما وزيره « الحاج إبراهيم » حتى تمكن من استمالتهم إليه ، واتفقوا على خطة انتهت إلى القضاء على « لطف علي خان » .

وانصرف « آغا محمد خان » عن شيراز عائداً إلى طهران . ولكنه أبقى في ولاية فارس كتيبة من ثلاثة آلاف جندي جعل في قيادتها « مصطفى خان دولو » ، وهو من أشهر قواده العسكريين ، ليمنع « لطف علي خان » من التقدم نحو أصفهان .

وفي سنة ١٢٠٤ هـ عاود « آغا محمد خان » عزمه على احتلال فارس والاستيلاء على شيراز ، فسار إليها . فلما علم « لطف علي خان » بذلك ذهب إلى مشايخ البنادر ورؤساء الأقاليم الصحراوية المجاورة يستمدهم فأجابوه وحصل على ما طلبه . ولكن أعيان شيراز وأهل النفوذ فيها ، ورأسهم « الحاج إبراهيم » وزير « لطف علي خان » ، ممن كانوا على صلة سرية بـ « آغا محمد خان » ، قاموا في غياب « لطف علي خان » بمراسلة « آغا محمد خان » وأشاروا عليه بتأجيل غزو شيراز إلى وقت آخر لأن الأوضاع غير مؤاتية . فسمع لهم وعاد إلى طهران .

وكان نزاع لا ينفك قائماً بين « آغا محمد خان » وإخوة له ، وبينهم حروب . ومنهم أخ له اسمه « مرتضى قلي خان » سبق أن خرج عليه ثم انهزم فلجأ إلى روسيا . وفي سنة ١٢٠٥ هـ عاد من روسيا وهاجم « جيلان » ، وكانت في يد « آغا محمد خان » ، فاحتلها في تلك السنة ، وذهب جيشها المدافع بين قتيل وأسير وجريح وفار . وعلم « لطف علي خان زند » بما يقاسيه « آغا محمد خان » من مثل هذه المشاكل فاغتنمها فرصة ورأى أن الوقت مناسب ليقوم بعمل . فسار بجيش من شيراز قاصداً احتلال أصفهان . فلما علم « آغا محمد خان » بتحركه أرسل ابن أخيه ولي عهده « بابا خان » (الذي أصبح بعد وفاته « فتح علي شاه ») ، وكان سنه حوالي العشرين ، بجيش من خمسة آلاف فارس وجعل على قيادته أفضل قواده « مصطفى خان دولو قاجار » للدفاع عن أصفهان وذود « لطف علي خان » عنها .

وكان النصر في هذه الحرب محققاً للطف علي خان لما كان عليه من شجاعة وما اكتسبه في المحاربة وقيادة العسكر من مهارة وتجربة وتفنن . ولكن غفلته عما دبره وزيره « الحاج إبراهيم » الشيرازي من تآمر عليه وما وضعه من خطة للغدر به ، ومواطأته « آغا محمد خان قاجار » في السر عليه ، أوقعه في الخيبة .

كان « عبد الرحيم خان » أخو « الحاج إبراهيم » الأكبر هو المدبر الأول لشؤون عسكر « لطف علي خان » ، وكان أخ له آخر اسمه « محمد علي خان » قائداً لفوج المشاة . وكانا هما وسائر رؤساء العسكر في جيش « لطف علي خان » يأتمرون بأوامر « الحاج إبراهيم » السرية ، متعاهدين على إنفاذها . وفي ساعة معينة ثاروا على « لطف علي خان » وأحدثوا في معسكره شغباً وأطلقوا الرصاص على فسطاطه . فراعته هذه المفاجأة غير المتوقعة . وإذ رأى نفسه معرضاً للإعتقال ، بادر إلى امتطاء حصانه ، ومعه بعض رجاله وفر قاصداً شيراز ليحتمي في داخل سورها المحكم ، وهو يحسب أنها لا تزال في يده . ولكن وصله ، وهو ماض في الطريق ، خبر بأن « الحاج إبراهيم » قد استولى على شيراز وسجن الخانات الزنديين ، وجرد حاميتها العسكرية من السلاح . ومضى « مصطفى خان » قائد جيش « آغا محمد خان » بأقصى ما يستطيع من سرعة في أثر « لطف علي خان » يتعقبه ليعتقله ، ولكنه عجز عن اللحاق به ، فعاد يائساً إلى معسكره .

وهكذا وجد « لطف علي خان » نفسه مبتلى بسياسيين داهيتين مخططين ، هما « الحاج إبراهيم » الشيرازي من جهة و« آغا محمد خان قاجار » من جهة أخرى . ولم تنفعه شجاعته الفائقة وإقدامه الذي قل نظيره ، إذ كان لا يزال شاباً قليل الخبرة بالسياسة . وقد جهد في محاولة الإستيلاء على شيراز فلم يقدر . فاضطر إلى الذهاب إلى الخليج . وعهد « آغا محمد خان قاجار » بنيابة حكومة فارس إلى « الحاج إبراهيم » .

وأراد « الحاج إبراهيم » أن يكون في مأمن من « لطف علي خان » مصاناً من تعرضاته فطلب من « مصطفى خان دولو قاجار » قائد الجيش القاجاري ، وكان معسكراً في « آباده » ، أن ينقل كتيبته المؤلفة من ثلاثة آلاف جندي إلى شيراز للمحافظة عليها ، ففعل . وإذ بدا لهم أن هذا المقدار من الجند غير كاف لصد « لطف علي خان » إذا تعرض لهم فقد أشار « الحاج إبراهيم » على « آغا محمد خان » بإمدادهم بالخمسة الآلاف فارس الآخرين الذين كانوا بقيادة « جان محمد خان قاجار دولو » ، ففعل .

وأما « لطف علي خان » فإنه تهيأ وأعد نفسه للحرب في مدة قليلة جداً ، وعاد إلى شيراز بمن جمعهم من المحاربين ، وأقدم على محاصرة المدينة مع أنها كانت مجهزة بقوى عظيمة . ونشبت معركة عارمة دامت أسبوعاً كاملاً . وانتهت بتراجع « لطف علي خان » وجنده ، فانصرف إلى « زرقان » إحدى نواحي الأهواز ، وتحصن فيها .

وكان « الحاج إبراهيم » يرى ، بماله من نظر دقيق ، أن التغلب على « لطف علي خان » بمن عنده من جند وقواد أمر غير ممكن ، وأن لا بد من قدوم « آغا محمد خان » نفسه بجيش أحسن تجهيزاً للتغلب عليه . فعمل « آغا محمد خان » برأيه فجهز جيشاً سار به إلى فارس في سنة ١٢٠٦ هـ .

وكان « لطف علي خان » على يقين من أنه لن يستطيع أن يصنع شيئاً بهذه القلة من رجاله في مقابل هذا العسكر الجرار ، عسكر « آغا محمد خان » . فقرر المغامرة بأخذهم تبييتاً لعله يحصل على نتيجة ، وخرج من « زرقان » على هذه النية . وخرج « آغا محمد خان » بجيشه فوصل إلى « أبرج » وعسكر فيها . وهناك بلغه في الخفاء أن « لطف علي خان » تحرك من « زرقان » عازماً على تبييته . فبادر إلى إرسال قطعة من جنده بقيادة « إبراهيم خان » الدامغاني أحد رؤساء عسكره ، لتلاقي « لطف علي خان » وتكون مقدمة للجيش القاجاري ، ولبث هو يراقب الحوادث متيقظاً حذراً .

فلما التقيا لم يلبث « لطف علي خان » أن بادر « إبراهيم خان » بهجمة صاعقة ، فقتله وقتل جماعة من جنده وأسر جماعة وتشتت الباقون ، مع أن إبراهيم هذا كان معدوداً من مشاهير الشجعان المحاربين .

ولما حل الظلام تابع « لطف علي خان » حركته إلى معسكر عدوه ، فلما وصله سار تواً إلى فسطاط « آغا محمد خان » فلما اقترب منه وقعت ضجة شديدة في المعسكر وشمله الذعر ، وتراكض الجند رعباً يفرون منه إلى كل الجهات وهمّ كل منهم أن ينجو بنفسه ، وأوشك « آغا محمد خان » نفسه أن يؤسر ويقتل ويتم الفتح للطف علي خان .

وإذا برجل اسمه « الميرزا فتح الله الأردلاني » ، وكان في معسكر « آغا محمد خان ، وكانت له معرفة سابقة بلطف علي خان » يعدو نحوه ويبشره بالفتح . وقال له أيضاً إن « آغا محمد خان » قد فر . وأشار عليه بوقف الحرب والإمتناع عن الإغارة على معسكر العدو لأن ذلك يزيد في خسائره . فصدق « لطف علي خان » ، وهو لا يزال غراً في السياسة ، كلامه وأمر عسكره بوقف الحرب والكف عن الإغارة والقتل إلى الصباح[1] .

فلما أصبح الصباح تعالى صوت الأذان من معسكر « آغا محمد خان » فتبين أن قصة فراره كانت كذباً ، وأنه لا يزال مقيماً في مكانه ، وظهر لـ « لطف علي خان » ما أوقع نفسه فيه من خبط وخطأ ، ففر متجهاً إلى كرمان ، فلا أقل من أن تبقى في يده هذه المدينة !

ولكن حاكم كرمان « الميرزا أبو الحسن خان »[1] منعه من دخولها . ومع ما بذله من جهد كبير للتمكن من دخولها فإنه ارتد عنها خائباً ، واضطر إلى الذهاب إلى قصبة « راور » مركز ناحية « راور » من محافظة كرمان . فنازله حاكم تلك الناحية ، « الميرزا محمد خان الراوري » ليمنعه من دخولها ، ويكون ذلك له يداً عند القاجاريين . ووقع بينهما نزاع عسكري انتهى باضطرار « لطف علي خان » إلى التراجع ، والإنصراف عنها من طريق « صحراء لوط » إلى مدينة « طبس » الواقعة في إقليم خراسان شمالي كرمان . فاستقبله حاكمها « الأمير حسن خان »[1] استقبالاً طيباً وبقي ضيفاً عليه مدة شهرين بلغ في إكرامه فيها غاية الإكرام ، ثم اختار من رجاله ثلاثمائة فارس وضعهم في تصرفه .

ومع قلة هذا العدد من المحاربين فإن « لطف علي خان » لم ينصرف عن محاربة « آغا محمد خان » ومعاودة الكفاح لاسترداد ما فقده من سلطان وتاج وسرير ، فتوجه سائراً إلى يزد وفارس . وفي يزد تلقاه بالحرب « علي نقي خان بافقي » ، وكان جنده عشرة أضعاف جند « لطف علي خان » . ومع ذلك أوقع « لطف علي خان » فيه هزيمة شديدة ، واضطره إلى الفرار والتحصن في قلعة المدينة . ثم بادر « لطف علي خان » ، لا يبطىء ، إلى المضي نحو شيراز لاحتلالها . وعلم « الحاج إبراهيم خان » والي إيالة فارس من قبل « آغا محمد خان » بمسير « لطف علي خان » هذا فأهمه هماً شديداً . فأرسل إلى « آغا محمد خان » تقريراً أوضح له فيه ما يلزم من أمور وأطلعه على مجرى الحوادث ، وطلب منه المدد . فجهز « آغا محمد خان » ثمانية آلاف فارس وجعل على قيادتهم ابن خالته رئيس الحرس « حسين خان قوانلو » المعروف بلقب « دوداغ » ، أي « الأشفه »[1] ، وأرسلهم إلى شيراز مدداً

له . ثم أتبعهم بثلاثة آلاف جندي ألحقهم بهم لمساعدتهم .

وحارب « لطف علي خان » بعصابته القليلة جيش « آغا محمد خان » الجرار في بضع معارك بذل فيها جهوداً خارقة ، ولكنها انتهت بهزيمته إذ فترت نفوس رجاله وانحطت معنوياتهم بسبب ما رأوه من تقدم « آغا محمد خان » تقدماً مطرداً ، فعاد أدراجه مرة ثانية إلى « طبس » إلى « الأمير حسن خان » الشيباني . وكان هذا يدرك ، بما له من تجربة وحنكة أن أمر « لطف علي خان » ، وهو على هذا الوضع ، مدبر ، وأن الإقبال مع « آغا محمد خان » في كل مكان . وأراد السلامة لنفسه وتجنب الوقوع في الشر فقال لـ « لطف علي خان » : خير لك أن تستنجد بمن هو أقوى مني . وأقوى رجال اليوم هو « تيمورشاه »[1] ملك أفغانستان . فهو أقدر على إنجادك مني ومن غيري فاقتنع « لطف علي خان » بكلامه وسار إلى « قندهار » . فلما بلغ إلى « قاين » وصله نبأ وفاة « تيمورشاه » فانصرف عن المضي إلى أفغانستان ومكث في « قاين » .

وفيما هو هناك متحير متردد لا يدري ما يفعل ولا إلى أين يذهب وصلته رسالة من « جهانكير خان » حاكم « بم » (ولاية كرمان) ورسالة من « محمد خان أفغان » حاكم « نرماشير » (ولاية كرمان) أن أقدم إلينا وسنبذل لك الأرواح والأموال . وكان لهذين الخانين وسائر خانات كرمان ثار عند « آغا محمد خان » . فقبل « لطف علي خان » ، وهو في حيرته وتيهه ، طلبهما وسار بمن معه من رجال إلى « نرماشير » و « بم » . فاستقبله ذانك الخانان بالإكرام والإعظام ، ووضع كل منهما كتيبة من خمسمائة فارس في أمرته وسارا معه بهم إلى مدينة كرمان ، ففتحها سنة ١٢٠٨ هـ . وفي اليوم الثاني من فتحها نودي به شاهاً وخطب باسمه وضرب النقد باسمه .

وكان « آغا محمد خان » عازماً على السير إلى خراسان في تلك السنة فلما بلغه دخول « لطف علي خان » إلى كرمان عدل عن عزمه ، وأرسل « بابا خان » (فتح علي شاه) مع خمسة آلاف فارس إلى كرمان . وفي الرابع من شوال من تلك السنة لحق بهما إليها فوصلها في السادس عشر من ذي القعدة . وقيل إن جيشه ذاك بلغ يومئذ ستين ألفاً .

وخرج « لطف علي خان » من المدينة بثلاثمائة محارب ، ليبارز ذلك الجيش الجرار . واشتبك الفريقان بحرب انتصر فيها ، في أول الأمر ، « لطف علي خان » . ولكن انتصاره لم يطل ، مع كل ما بذله من جهود ومحاولات خارقة ، فانهزم وعاد إلى المدينة فتحصن فيها ، وضرب « آغا محمد خان » عليها حصاراً دام أربعة أشهر وبعض الشهر ، من السابع عشر من ذي القعدة سنة ١٢٠٨ هـ إلى غرة ربيع الثاني سنة ١٢٠٩ هـ . حتى عمت المجاعة والغلاء فاضطرت المدينة إلى التسليم . وتمكن « لطف علي خان » من الفرار بما قام به من عجائب التفنن في القتال وتجنب الوقوع في الأسر وما بدا منه من ثبات وصبر حتى نجا من القتل وسلم من الأسر وفر إلى « بم » .

وظن « آغا محمد خان » أن « لطف علي خان » لا بد أن يكون ، بعد احتلال المدينة ، قد قتل أو أسر . فلما علم أنه قد استطاع الفرار واختراق عسكره الجرار الذي كان يطوق المدينة استبد به الغضب وأراد بأهالي المدينة ما كان يريده « جنكيز » و « تيمور » بأهالي البلاد المفتوحة . فأمر بقتل الكرمانيين قتلاً عاماً وأباحها لجنده يفعلون بها ما شاؤوا ، فعاملوا الأهالي المغلوبين العاجزين معاملة بلغت منتهى الفظاعة والقسوة .

لقد جمع « آغا محمد خان قاجار » حين علم في اليوم الثاني من فتح المدينة بفرار « لطف علي خان » حوالي ثمانية آلاف ، وفي رواية عشرين ألفاً ، من طفل وامرأة من أهلها ، ووهبهم أرقاء لجنده . وجميع رجالها أوقع بهم القتل أو الإعماء . وقد قدر عدد الذين أعماهم بسبعة آلاف رجل ، وفي رواية سبعين ألفاً . وقدر عدد القتلى بمثل ذلك . ومن سلم من هذا البلاء لم يسلم لأن أحداً رحمه من الجند الفاتح ولا لأنه استطاع الفرار ، بل سلم لأن أيدي الجلادين كلت وأصبحت غير قادرة على الإستمرار في العمل لكثرة ما قتلت وما أعمت .

كان يأمر رجاله بأن يحضر كل واحد منهم عدداً معيناً من العيون المقتلعة . وينبههم إلى أن من أنقص هذا المقدار عدداً واحداً اقتلعت عيناه عوضاً عنه . وكان يأمر جنده بهتك الأعراض ثم قتل من يعتدون عليها من النساء . ويمكن القول إن جميع ذكور المدينة تقريباً أصبحوا قتلى أو عمياناً وجميع نسائها قتلى أو إماء .

وأراد ، بعد اعتقال « لطف علي خان » في « بم » ، أن يقيم نصباً تذكارياً في المكان الذي اعتقل فيه . وكان لا يزال مقيماً في كرمان . فأمر بضرب أعناق ستمائة أسير ممن كانوا في يده ، وأمر ثلاثمائة أسير آخرين بحمل رؤوسهم إلى « بم » ، وليقام منها هرم حيث اعتقل « لطف علي خان » . ثم أمر بقتل هؤلاء الأسرى الثلاثمائة بعد ذلك . وقد أقيم ذلك الهرم كما أمر . وكان هذا الهرم إلى سنة ١٢٢٥ هـ الموافقة سنة ١٨١٠ م لا يزال قائماً ورآه الرحالة الإنكليزي « السير هنري بوتينجر » في تلك السنة .

اجتاز « لطف علي خان » و « جهانكير خان » خندق مدينة كرمان بعد تسليمها هاربين إلى « بم » . وأضاع « جهانكير » طريقه وانفصل عن « لطف علي خان » وتاه في طريق غير طريق « بم » . وانطلق « لطف علي خان » إلى « بم » فوصلها بعد نهار وليلة قطع فيهما مسافة ٢٤٠ كيلو متراً . ووصلها « جهانكير خان » بعد ثلاثة أيام .

وساعة وصول « لطف علي خان » إلى « بم » سأله إخوة « جهانكير خان » عن أخيهم فأجاب بأنه تخلف عنه حين أصبحا خارج المدينة ، وطمأنهم بأنه سيصل إليهم سريعاً . ومرت ثلاثة أيام في انتظاره فلم يحضر . فأيقنوا بأنه قد أسر . فارتأوا أن يسترضوا « آغا محمد خان » بتسليم « لطف علي خان » إليه لعله يكافئهم بالعفو عن أخيهم . وعزموا على ذلك . فعمدوا إلى جواد « لطف علي خان » المسمى « غران » (أي : الزائر) فعقروه ، وطعنوا « لطف علي خان » في يده ورجله وأوثقوه بالزنجير . وانتزع مقدمهم « محمد علي خان » من عضده ثلاث ماسات كانت معقودة عليه ، وهي من بقايا الجواهر التي حملها « نادر شاه أفشار » من الهند ثم وقعت في يد « كريم زند » وانتقلت منه إلى « لطف علي شاه » وتسمى بأسماء « درياي نور » (بحر النور) و « تاج ماه » (تاج القمر) و « أكبر شاهي » . انتزعها وأرسلها مع أخيه « حيدر خان » إلى كرمان ، إلى « آغا محمد خان » . ثم أركبوا « لطف علي خان » على جمل وأرسلوه ، وهو على هذه الحال المزرية ، إلى كرمان مع أحدهم « حيدر خان » وثلاثة رجال من السيستانيين . والتقى بهم « جهانكير خان » في قرية « دارزين » على بعد ستة فراسخ من « بم » ، فلم يعجبه عمل إخوته ، ولكنه لم يفعل شيئاً وسكت عن الموضوع .

وأما « آغا محمد خان » فإنه لما عرف باعتقال « لطف علي خان » أرسل

أحد رجاله « محمد ولي خان قاجار » وأرسل معه خمسمائة وألف فارس لتسلم « لطف علي خان » منهم . فلما تسلمه ضاعف وثاقه فقيده بزنجير وحبل آخر مع الزنجير الذي كان موثقاً به ، وجاء به إلى كرمان إلى « آغا محمد خان » .

ويقال إن « آغا محمد خان » حين وقع نظره على « لطف علي خان » بلغ به السرور والإندفاع بما يحمله من حقد عليه إلى أنه لم يستطع أن يصبر ريثما يمضي إلى ملاقاته من الممر المعتاد ويهبط الدرج المقام من غرفته إلى أسفل ، بل رمى نفسه قفزاً من الغرفة إلى الأرض ، وبادر إليه فاقتلع عينيه بإصبعه ثم أمر حرسه الخاص ، وأكثرهم من التركمان ، بأن يوقعوا به أعمالاً فظيعة من الإذلال والإهانة بلغت غاية القسوة والبشاعة . أعمالاً لا تصدر إلا من طاغية خارج عن طور الآدمية ! ثم أمر به فحمل إلى طهران في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٠٩ هـ . وبعد قليل من وصوله إلى طهران أمر « آغا محمد خان » في تلك السنة « الميرزا محمد خان قاجار دولو » حاكم طهران بقتله ، فقتله ودفن في مقبرة الشريف العلوي « زيد » .

وأما « جهانكير خان » وإخوته فقد انتهى أمرهم ، بعد اعتقال « لطف علي خان » ، إلى أن أمر « آغا محمد خان » بسجنهم فسجنوا . ثم أمر بإعمائهم فأعموا كلهم . ثم أمر بترحيلهم إلى طهران . وبعد ذلك ماتوا واحداً بعد آخر ، واندثرت آثارهم كلياً .

أبو مخنف لوط بن يحيى بن سعيد

ولد أبو مخنف في النصف الثاني للقرن الأول الهجري ، في مدينة الكوفة . وتعد أسرته من أكبر الأسر الشيعية ومن الأصحاب الأوفياء للإمام علي (ع) ، فقد كان جده الثاني مخنف بن سليم من أصحاب الرسول (ص) ومن مرافقي وأنصار الإمام علي (ع) ، ومن القادة والعمال المؤيدين في حكومته (ع) ، وقد اشترك في حربي الجمل وصفين في جيش الإمام علي وكانت بعهدته قيادة قبائل (الأزد) وبجيلة و (خثعم) وخزاعة ، وبعد الفراغ من حرب الجمل عينه الإمام علي (ع) عاملاً على أصفهان وهمذان . وأما أبوه يحيى بن سعيد فكان من أصحاب الإمام علي (ع) أيضاً ، وكان أخوة مخنف صقعب وعبد الله من شهداء حرب الجمل في جيش الإمام علي (ع)[1] .

ليس هناك معلومات دقيقة حول دراسة أبي مخنف أو طبيعة حياته العلمية وتعليمه وتعلمه ، ولكن من المؤكد أنه درس في الكوفة على يدي جابر الجعفي ومجالد بن سعيد وصقعب بن الزبير[2] ، إلا أن كيفية دراسته وصبغتها تبقى غامضة ، ومن المؤكد أيضاً أنه درس على الإمام الصادق (ع) ولكن أين ؟ وكيف ؟ أسئلة تبقى سائرة دون جواب ، إذ كان الإمام الصادق (ع) ، يعيش في المدينة ويلقي دروسه في مسجد الرسول (ص) ، بينما كان أبو مخنف في الكوفة ، فهل يا ترى سافر إلى المدينة ليتلمذ على يد الإمام (ع) ؟ يبقى التاريخ صامتاً ، لا يجيب ولكن يبدو أنه تلمذ على يد الإمام (ع) في الفترة القصيرة التي قضاها (ع) في العراق للزيارة ولشؤون أخرى . حيث باشر بتدريس ثلة من الطلاب ، وكان أبو مخنف من بينهم ، ومما يؤيد الاحتمال الثاني ، هو ندرة رواية أبي مخنف عن الإمام الصادق ،

(١) الطبري ، بيروت ، مؤسسة الأعلمي ، الجزء الثامن ، ص ٤٨ .

(٢) سيرة أعلام النبلاء للذهبي (مؤسسة الرسالة) ، الجزء السابع ص ٣٠١ .

وقول النجاشي أن أبا مخنف لم يكن من أصحاب الإمام الباقر (ع)[3] ، وليس هذا الأمر متعلقاً بعدم معاصرة أبي مخنف للإمام الباقر (ع) ، بل لكون الأول يعيش في الكوفة والإمام في المدينة ولم يسافر إلى العراق مطلقاً .

ولأبي مخنف العديد من الطلاب ، من أبرزهم :

١ ـ المؤرخ والنسابه ، هشام بن محمد بن السائب الكلبي (م ٢٠٤ أو ٢٠٦ هـ) .

٢ ـ المؤرخ ، نصر بن مزاحم المنقري (م ٢١٢ هـ) .

المؤرخ ، أبو الحسن علي بن محمد المدائني (م ٢١١ أم ٢١٥ أو ٢٢٥ هـ)[4] .

مذهب أبي مخنف : ـ في الحقيقة إن مذهبه غير واضح ، وثمة اختلاف في هذا الأمر . والتحقيق والبحث في هذا الامر أمر عسير ، إذ لا يمكن تحديد مذاهب أمثال هذا الشخص إلا عن طريقين : الأول : مطالعة مؤلفاتهم ، التي عادة ما تحتوي في أحشائها على تصريح بهوية المذهب أو إشارة إليها . ثانياً : ـ دراسة آراء علماء الرجال وخاصة القدماء منهم ، حول مذهب الأشخاص الذين يتحدثون عنهم .

أما الطريق الأول فمسدود ، إذ ليس ثمة مؤلفات متوفرة لأبي مخنف إلا نتفاً متفرقة . وأما الطريق الثاني فليس بالرحب ، وعلى أي حال ، يمكن احتمال تشيعه من خلال بعض الأدلة والقرائن والشواهد . فمثلاً يتحدث عنه أبو العباس النجاشي ـ من أوائل المتخصصين في علم الرجال ـ بما مضمونه : أبو مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سالم الأزدي الغامدي ؛ من الأساتذة والوجوه اللامعة لأصحاب الأخبار في الكوفة ، ونقله موضع للثقة . وهو يروي عن الإمام جعفر بن محمد (ع) ، ويزعم البعض أنه يروي عن الإمام أبي جعفر الباقر (ع) وليس ذلك بصحيح[5] .

ويقول الشيخ الطوسي في فهرسته ما مضمونه : ظن الكشي أن لوط بن يحيى ، الكنى بأبي مخنف ، هو من أصحاب أمير المؤمنين (ع) ومن أصحاب الحسن والحسين عليهما السلام ، ولكنه أخطأ في ظنه ، إذ الصواب أن أباه من أصحاب علي (ع) ، ولم يلتق هو بعلي[6] .

وكذلك أورد ابن شهرآشوب ذكره في معالم العلماء ، وكذلك العلامة الحلي في القسم الأول من خلاصة الأقوال على أنه من خواص الثقات ثم يضيف قائلاً : لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن أسلم الأزدي الغامدي (أبو مخنف) ـ رضوان الله عليه ـ هو رجل كبير من أصحاب الأخبار في الكوفة ، وما يرويه محل للثقة والاعتماد ، وقد روى عن جعفر بن محمد (ع) وأما أبوه يحيى فهو من أصحاب الإمام علي (ع) .

وكذلك أورد ذكره ابن داود في القسم الأول لرجاله على أنه من خواص الثقات ، وذكره أيضاً التفرشي[7] والأدربيي[8] .

(٣) رجال النجاشي ص ٣٢٠ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٢٠ ، سيرة أعلام النبلاء للذهبي جزء ٧ ص ٣٠١ .

(٥) رجال النجاشي ، ص ٣٢٠ .

(٦) فهرست الشيخ الطوسي ، ص ١٢٩ .

(٧) نقد الرحال للتفرشي (منشورات الرسول المصطفى) ص ٢٧٧ و٢٧٨ .

(٨) جامع الرواة للأردبيلي (دار الأضواء) الجزء الثاني ، ص ٣٢ .

وعده المامقاني من الشيعة ، ودافع عن تشيعه بكل قوة . وعموم أصحاب الرجال المتأخرون يوثقونه . وصرح بتشيعه كل من الشيخ آقا بزرك الطهراني في ذريعته (الجزء الأول ص ٣١٢) والشيخ عباس القمي في الكنى والألقاب (ج ١ ، ص ١٤٨ - ١٤٩) .

أبو مخنف في رأي أصحاب الرجال من غير الشيعة :

ذكر أبا مخنف بعض أصحاب الرجال من غير الشيعة ، وفيما يلي نورد بعضاً من آرائهم :

يقول الدارقطني : لوط بن يحيى الكوفي ، أخباري ضعيف ، وعده حاتم الرازي ضمن الرواة الذين لا يؤخذ بحديثهم ، ويقول ابن عدي : لوط بن يحيى ، أبو مخنف الكوفي شيعي متعصب ، وهو صاحب أخبارهم . . . وينقل أخباراً قبيحة لا أحبذ نقلها ، ويضيف الذهبي أن أبا مخنف أخباري لا يعتمد عليه ، ثم ينقل الذهبي رأي أصحاب الرجال فيه ، وقد نقلت أكثر آرائهم ، ثم يذكر عن ابن المعين أن أبا مخنف ليس ثقة . وقد ذكره ابن شاكر دون أن يبدي رأيه فيه . وكذلك يقول الفيروز آبادي أن أبا مخنف شيعي أخباري متروك ، وأورد إسماعيل باشا ذكره في هدية العارفين (الجزء الأول ص ٨٤١) وعده من الشيعة ، ووصفه الزركلي بالعالم المتضلع بالسيرة والأخبار وأنه امامي من أهل الكوفة . وكذا الحال بالنسبة لفؤاد سزگين إذ يصفه ؛ بإمامي من أهل الكوفة .

مما مر ذكره يمكننا أن نطرح النتيجة المحتملة السابقة بكل قوة ، وفيما يلي بعض دعائمها : -

ألف : تعارف النجاشي في رجاله والشيخ في فهرسته وابن شهر آشوب في معالم العلماء على ذكر المؤلفين والمحققين الشيعة ، وإذا حدث أن ذكروا غير الشيعة فإنهم يلفتون النظر إلى ذلك ، ومن ثم فذكر هؤلاء الثلاثة لأبي مخنف ، مطلقاً دون أن يقيدوه بكونه من غير الشيعة لدليل على كونه من الشيعة .

ب - ذكره العلامة في القسم الأول من رجاله ، وواضح أن العلامة لا يذكر شخصاً من غير الشيعة في القسم الأول .

ج - ذكره ابن داود في القسم الأول من رجاله ، وكذلك التفرشي والأردبيلي دون الإشارة إلى كونه من غير الشيعة ، ويبدو جلياً من كل ذلك أنهم كانوا يعدونه شيعياً .

د - كما مر علينا فإن بعض أصحاب الرجال من غير الشيعة ، عدوه من الشيعة وضعفه بعض آخر منهم دون أن يصرح بتشيعه ، وربما كان تشيعه سبب ضعفه لديهم .

هـ - أهم وأقوى دليل على تشيعه هو كون أسرته من أكبر الأسر الشيعية في الكوفة ، وكون أبيه وأجداده - كما مر آنفاً - من الشيعة وأتباع أمير المؤمنين (ع) ، وقد كان أبوه من الأصحاب المقربين للإمام علي (ع) ، وليس ثمة دليل على أن أبا مخنف قد ترك المذهب الشيعي .

و - آثاره ومؤلفاته مختصة - بصورة عامة بالتشيع ، وكل منها يرتبط بشكل من الأشكال بأفكار وآراء الشيعة .

الشبهات حول عدم تشيع أبي مخنف :

ورد في بعض مصادر الرجال والتاريخ الحديث عن أبي مخنف ، ووصفه بالتسنن أو يستفاد من خلال الكلام والسياق مثل هذا الوصف ، وفيما يلي نذكر أهم هذه الكتب : -

١ - يقول ابن أبي الحديد : أبو مخنف من المحدثين والأشخاص الذين يعتقدون صحة انتخاب الناس للقائد ، ولا يعد من الشيعة ولا من رجالهم .

٢ - يقول الشيخ المفيد في نهاية كتاب (الجمل) ما مضمونه : إن ما نقلناه باختصار ، هو تقريرات عن أخبار البصرة وأسباب فتنتها ، وأقوال بعض ذوي الرأي حول حرب الجمل . وكل ما ذكرناه ، أخذناه عن رجال العامة وليس عن الخاصة ، حيث لم نذكر في كتابنا هذا ما ذكره الشيعة في هذا المجال ، وواضح أن الجمل لأبي مخنف هو من المصادر الرئيسية لكتاب الشيخ المفيد ، ومن ثم فهو يعده من غير الشيعة[1] .

٣ - ذكر العلامة المجلسي مقتله في مصادر بحار الأنوار ، على أنه احد كتب غير الشيعة[2] .

٤ - نقل بعض الأمور عنه ، مما لا يتفق مع عقائد وآراء الشيعة ، فمثلاً ينقل عنه ما يلي : عندما أبلغ الوليد (عامل يزيد في المدينة) خبر موت معاوية إلى الإمام الحسين (ع) ، قال : « أنا لله وإنا إليه راجعون ، رحم الله معاوية وعظم الله لك الأجر »[3] .

ولكن تبقى هذه الأدلة ضعيفة ومهزوزة مقابل الأدلة التي تثبت تشيعه ، ولا نراها تتجاوز حد الشبهة . وأما كلام ابن أبي الحديد فهو من الأساس ليس حجة ، فأولاً كلامه محض ادعاء ، لا يدعمه بأي دليل وثانياً لأنه ليس من المتخصصين في علم الرجال ، ليمكن الاتكاء على قوله .

وأما كلام الشيخ المفيد ، فهو في مقام الجدل ، كما هو غير خاف على أهل الفن ، فإنه يريد الاستفادة من ذلك لغايته ، ومن ثم لا يمكن الاستناد إليه ، وأفضل دليل على ادعائنا هذا هو نقله في كتابه المذكور (ص ٢٢٢ وما بعدها) عن المسعودي ، صاحب مروج الذهب ، والحال أن أصحاب الرجال ومترجمي سيرته يعدونه من الشيعة . وكأنما أراد الشيخ أن يقول بأن هذه هي أيضاً أخبار أبي مخنف الذي ترفضون أخباره ، كما هو حال ابن عباس والمسعودي صاحب مروج الذهب وغيرهم ممن هم موضع لقبول الفريقين .

وأما كلام المجلسي ، فلم يكن صادراً عن تفحص أو تحقيق ومن ثم لا يمكن الاستناد إليه ، وإضافة إلى ذلك فهو يمتدحه في ص ١٦٢ .

وأما فيما يتعلق بنقله لمواضيع ضعيفة ، لا تتلائم مع المذهب الشيعي ، فينبغي هنا القول ، إن أصل الكتاب غير متوفر لدينا لنعلم حقيقة الأمر ، هل ما ينقل عنه ، صادر عنه بحق أم هو من إضافات الناقلين ، إضافة إلى ذلك ، فإنه نقل الحوادث - على غرار جميع رواة الحوادث - عن الآخرين ، ومن ثم فهو غير ضامن لصحتها ، وإلى جانب كل ذلك فإن مثل هذا النقل دليل على حفظ الأمانة ، الذي كان سبباً لقبول الفريقين له .

(١) الجمل للمفيد (النجف) ص ٢٢٥ .

(٢) بحار الأنوار (بيروت) للمجلسي ، ج ١ ص ٢٥ .

(٣) تاريخ الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (مصر) ج ٥ ص ٣٣٩ .

مقتل أبي مخنف :

يعتبر أبو مخنف من المؤرخين والمحققين المجتهدين والمثابرين ، حيث كتب مؤلفات مهمة في شرح ورواية حوادث صدر الإسلام وهو من أفضل مؤرخي عاشوراء الحسين (ع) ، إذ لم يأل جهداً في تدوين أحداث كربلاء ، وفي البحث الواسع ولقاء الحاضرين في تلك الواقعة بكربلاء أو الأشخاص الذين كان لهم علم بما جرى فيها ، ويمكن القول أنه ترك لنا المعلومات الأولى والروايات الموثوقة والمعتمدة . ولا نعدو الحقيقة إذا ما قلنا أن حفظ وبقاء الجانب الأكبر من واقعة كربلاء يرجع إلى جهوده في هذا المضمار .

يذكر ابن النديم في الفهرست (ص ١٠٦) ما يلي : قرأت مخطوطاً عن أحمد بن حارث مكتوب فيه عن قول العلماء « إن أبا مخنف قد فاق الآخرين في أمور العراق وتاريخه وفتوحاته » .

وفي هذا الأمر ، وضمن مساعيه لتدوين تاريخ الإسلام ، فإنه قد ألف أربعين كتاباً إضافة إلى مقتل الحسين ، ومع الأسف لم يبق من هذه المؤلفات إلا الأسماء والذكر .

وكان نصيب النص الأصلي لمقتل الحسين ؛ مصير مشابه لبقية الآثار والمؤلفات فليس ثمة وجود له اليوم . ومن المحتمل أن هذا المتن ظل موجوداً حتى حدود القرن الرابع الهجري ، لأنه يبدو أن الطبري كان ينقل عنه دون واسطة .

وأما ما ينسب إلى أبي مخنف تحت عنوان (مقتل الحسين)[٢] الذي طبع عدة مرات في العراق وإيران والهند ، فمن اليقين أنه ليس له ، وأفضل دليل على زيف هذه النسبة (نسبة الكتاب إلى أبي مخنف) ـ هو هذه المواضيع الواهية والروايات الكاذبة ، ونحن نجل أبا مخنف ـ بمقامه الشامخ ـ عن كتابة مثل هذه السفاسف .

وليس واضحاً بداية ظهور هذا الأثر الزائف ، ولكن يمكن حدس هذا التاريخ من خلال بعض القرائن التي ترجح كون هذا الكتاب من منتجات الدورة الصفوية .

وعلى أي حال نشير إلى بعض الأدلة والشواهد التي تظهر بكل جلاء ووضوح زيف هذا الكتاب وفيما يلي بعض منها :

١ ـ أشرنا آنفاً إلى احتمال حيازة الطبري على النسخة الأصلية لمقتل أبي مخنف ، وقد نقل الجزء الأعظم لتاريخ كربلاء عن هذا المقتل ، ولكن مقابلة هذا المقتل مع تاريخ الطبري تظهر بكل صراحة عدم انسجام الاثنين فيما يوردان ، وقد وصلنا إلى نتيجة ـ بعد تحقيق وتمحيص ـ مفادها أن لا شبه يذكر بين مقتل أبي مخنف وما ينقله الطبري ، اللهم إلا في بعض الموارد المختصرة والمحدودة .

٢ ـ كون الكتاب مفعماً بالأغلاط الفاحشة والمواضيع الواهنة ، التي لا تليق من قريب ولا من بعيد بحقيقة أبي مخنف العلمية . وقدرته التاريخية وفيما يلي نشير إلى بعض هذه المواضيع : ـ

ألف : أول موضوع في الكتاب المذكور هو : « قال أبو مخنف : حدثنا أبو المنذر هشام ، عن محمد بن سائب الكلبي . . . » .

وزيف هذا السند واضح جلي ، لأن هشام هو تلميذ لأبي مخنف .

ب ـ يقول في صفحة ١٢ : « وروى الكليني في حديث . . . » وبطلان هذا الحديث أوضح من الشمس ، لأن الكليني ولد بعد وفاة أبي مخنف بما يقارب المائة سنة .

ج ـ يقول في صفحة ٢٤ « ذكر عمار في حديثه . . . » استشهد عمار في حرب صفين في سنة ٣٧ للهجرة ، ولم يكن موجوداً عام ستين .

د ـ يقول في صفحة ٤٨ : « فحمل هاني ، فضرب فيهم يميناً وشمالاً . . . وقتل منهم خمسة وعشرين ملعوناً » ترى كيف تأتي لهاني قتل خمسة وعشرين شخصاً وهو أسير في يد ابن زياد ومحاط بعشرات الجلاوزة والجلادين ، وإضافة إلى ذلك فليس ثمة مؤرخ موثوق يذكر مثل هذا الموضوع .

هـ ـ يقول في صفحة ١٠٤ : وبعد أن قتل العباس وحبيب بن مظاهر ، حزن الإمام الحسين (ع) واغتم غماً شديداً ، فعزاه زهير بن القين وهدأ من روعه .

و ـ يقول في صفحة ١١٣ : « قتل الطرماح بن عدي بعد أن جندل سبعين بطلاً من جيش عمر بن سعد » ، بينما ينقل الطبري عن أبي مخنف أن الطرماح لم يكن موجوداً في كربلاء ، ومن ثم فهو لم يقتل[٣] .

ز ـ يذكر في صفحة ١٩٦ اسم « سهل بن سعيد الشهروزي » بدلاً عن « سهل بن سعد الساعدي » .

ويذكر الطبري أن روايات أبي مخنف مسندة ، ويذكر فيها سلسلة الرواة ، بينما لا نرى في هذا المقتل المختلق إلا الروايات المرسلة ، باستثناء عدد قليل منها .

وهناك عشرات الإشكالات والمآخذ الأخرى التي لا يمكن أن تنسب ، بوجه من الوجوه ، إلى أبي مخنف .

٣ ـ يقول في صفحة ٧ : « خاطب الإمام الحسين جمعاً من أهل الكوفة بشأن صلح أخيه الإمام الحسن قائلاً : اقسم بالله أني كنت تواقاً إلى الموت حتى جاءني أخي الحسن وأقسم علي ألا أقدم على أمر ولا أحرض أحداً ، فاطعته وكأني أرى أحدهم يجدع أنفي بسكين أو ينشر بدني بمنشار ، ومن ثم فقد أطعته رغم أنفي » .

واضح أن هذا الموضوع لا ينسجم مع الأصول الثابتة ، ولو كان هذا الموضوع من نتاجات قلم أبي مخنف ، لما اكتفى علماء الرجال الشيعة بعدم توثيقه بل لعدّوه ذلك إلى تضعيفه ، في حين أنّا نراهم قد وثقوه جميعاً .

٤ ـ صرح كبار العلماء والمحققين أن هذا المقتل مختلق ولا يمت إلى أبي مخنف بصلة . وفي هذا المجال يقول الحاج الميرزا حسين النوري (صاحب مستدرك الوسائل) ما مضمونه : « أبو مخنف لوط بن يحيى ، من كبار المحدثين ، ومعتمد لدى أرباب السيرة والتاريخ . ومقتله في منتهى

---

(١) فهرست ابن النديم . ص ١٠٥ و١٠٦ ، النجاشي في رجاله ص ٣٢٠ ، فهرست الشيخ ص ١٢٩ ، فؤاد سزگين ، تاريخ التراث العربي ج ١ ص ١٢٧ .

(٢) خانبا بامشار (فهرست كتابهاي چاپي عربي) ص ٨٩٠ .

(٣) تاريخ الطبري ، الجزء الخامس ص ٤٠٦ و٤٠٧ .

الاعتبار ، وهذا هو رأي كبار العلماء إضافة إلى ملاحظة المقتل وسائر آثاره الأخرى ، ولكن مما يؤسف له أن النسخة الخالية من العيوب لمقتله غير موجودة ، وأما المقتل الموجود الذي ينسب إليه فهو مشتمل على بعض المواضيع المحرفة والمخالفة لأصول المذهب ، والتي عمد إلى دسها المخالفون المغرضون والأصدقاء الجاهلون ، وما الهدف منها إلا أغراض السوء . ومن ثم فلا اعتبار لهذا الكتاب وهو ساقط عن الاعتماد ولا يوثق بما ورد فيه . . . وقد قام ، الشيخ خلف آل عصفور بتحمل المشاق في بعض رسائله ـ التي كانت جواباً لثلاثين مسألة ـ لإظهار المآخذ على هذا الكتاب ، والأمور التي تخالف أصول المذهب ، ولكن لا نحسب أن مثل هذه الأمور خافية على المتأمل وليس من وراء هذه المشاق إلا الجهد والنصب »[١] .

وكذلك قال الحاج الشيخ عباس القمي : « أبو مخنف من كبار مؤرخي الشيعة ، وعلى الرغم من شهرة تشيعه ، فإن علماء السنة يعتمدون عليه وينقلون عنه »[٢] .

وقال أيضاً قال المحدث القمي في هدية الأحباب[٣] ما مضمونه : « لو كان مقتل أبي مخنف موجوداً ، لكان غاية في الاعتبار ، كما يعرف ذلك من كبار العلماء الماضين ، ولكن مع بالغ الأسف فإن أصل هذا المقتل قد فقد بمرور الأيام كما هو شأن مقتل الكليني والمدائني وأمثالهما ، ولم يصلنا منها شيء . وأما هذا المقتل الموجود ، الذي طبع في آخر كتاب البحار والذي ينسب إلى أبي مخنف المسكين ، فهو ليس منه ولا يعرف من أين أتى » .

وفي هذا المضمار يقول « فؤاد سزگين » : « انتهت كتب أبي مخنف إلينا ، إلا أنها تعرضت إلى التحريف والإضافة ، حتى أصبحت بعيدة عن الأصل كل البعد »[٤] .

تراجم المقتل : يبدو أن هذا المقتل المختلق قد ترجم مرة إلى الأردو ومرتين إلى اللغة الفارسية وهما كالآتي : ـ

١ ـ عام ١٣٢٢ بقلم محمد طاهر بن محمد باقر الموسوي الدزفولي ومعه كتاب أخذ الثأر في أحوال المختار ، المنسوب إلى أبي مخنف في ٢٤٠ صفحة .

٢ ـ ترجمة أخرى عام ١٤٠٥ مع ملحق أخذ الثأر في أحوال المختار في ٣١٧ صفحة ، وقد نشر بواسطة ناشر منتفع ، وقد عنون هذا الناشر اسم الكتاب على أنه « أول تاريخ لكربلاء » .

تحتوي هذه الترجمة على مقدمة من ثلاث عشرة صفحة ، لا قيمة لها ولا معنى ، واهية العبارات ركيكة التعبير .

وقد ذكر في هذه المقدمة ، أحاديث العظماء حول أبي مخنف ولكنها لم تشر من قريب أو من بعيد إلى تزييف واختلاق هذا المقتل . ويبدو واضحاً أنهم على علم باختلاق هذا المقتل ، لأنهم يوردون في صفحات ١٢ و١٣ أحاديث النوري والشيخ عباس القمي حول هذا المقتل ، ولكنهم عملوا بالقول المأثور فقرأوا « كلوا واشربوا » ونسوا « ولا تسرفوا » ، وهكذا قدموا إلى الناس كتاباً مختلقاً لا أساس له مع دراسة لمؤلفه الذي لم يكتب منه شيئاً .

ونرى من الضروري أن يتصدى المسؤولون الثقافيون لمثل هذا إلا الابتذال الثقافي ، فيقطعون الطريق على هؤلاء الأشخاص الذين لا ترى أعينهم إلا المنافع المادية ولا يبتغون من وراء الأمور الثقافية إلا هذه المنافع .

استخراج مواضيع أبي مخنف من تاريخ الطبري : كما ذكرنا آنفاً ، فإن مقتل الحسين غير متوفر لدينا وأكثر حوادثه موزعة في تاريخ الطبري . وقد باشر البعض باستخراج وجمع هذه المواضيع وفيما يلي نعمد إلى ذكر ونقد وتحليل هذه الاستخراجات :

١ ـ مقتل الحسين ، استخراج الحسن الغفاري :

وفقاً لما ذكره المؤلف ، فإن هذا الكتاب هو عبارة عن مجموعة مستخرجة مما ذكره الطبري عن واقعة كربلاء في تاريخه . وقد تحدث في مقدمة موجزة عن أسلوب استخراجه ، وذكر أحوال أبي مخنف وأضاف : « إن هذه المواضيع المثبتة في كتابنا هذا ، هي نفس المواضيع التي كتبها أبو مخنف إلا أنها ليست كل ما كتب » . وعلى هذا الأساس فإن المؤلف يدّعي أنه قد أورد ما ذكره الطبري من مواضيع دونها أبو مخنف مباشرة أو نقلها هشام عنه .

والمآخذ على مثل هذا الاستخراج ، هو عدم وجود قطع بأن كل ما يذكره هشام هو عن أبي مخنف ، فلربما يكون هشام قد سمع حديثاً عن أبي مخنف لم يكن الأخير قد أثبته في مقتله .

والأمر الآخر أنه ذكر كل ما وجده عن هشام ، ولا بد أن تكون بعض هذه المواضيع غير منقولة عن أبي مخنف ، فعلى سبيل المثال ورد في صفحة ٢٢ : « قال هشام : قال عوانة . . . » ، وكذلك في صفحات ٩٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ينقل هشام عن عوانة بن الحكم ولكنها تنسب إلى أبي مخنف .

وفي صفحة ١٨٧ ، ينقل هشام عن أبي الهذيل ، وكذلك في صفحة ٢٣٠ ينقل هشام : « حدثني بعض أصحابنا . . . » وفي صفحة ٢٣١ : « حدثني عمرو بن حيزوم الكلبي . . . » وغيرها ، وكلها قد نسبت إلى أبي مخنف . وأهم من هذا جميعاً ما ورد في صفحة ٢٨ ، الحديث عن عمر بن شبة المتوفى عام ٢٦٢ ، ولم يلتفت المستخرج فنسبها إلى أبي مخنف ، بينما الأخير قد توفي قبل ولادة عمر بن شبة بأمد بعيد .

وخلاصة الحديث أن كتاب مقتل الحسين مستخرج من تاريخ الطبري ، وهو باستثناء بعض الأمور التي يذكرها الطبري وبعض المسائل التي ينقلها الطبري عن غير أبي مخنف ، أقول أنه باستثناء ذلك نقل عيني عما ورد في نص الطبري ، ولكنه مستقل عنه ، ورغم أن المستخرج بذل جهوداً في ذلك وذيل بعض المواضيع إلا أن هذا المؤلف يبقى خالياً من أي قيمة علمية .

٢ ـ وقعه الطف ، استخراج محمد هادي اليوسفي : ـ

هذا هو عنوان الكتاب الذي استخرجه محمد هادي اليوسفي من تاريخ الطبري تحت عنوان مقتل أبي مخنف والجدير بالذكر أن هذا الكتاب يحظى بقيمة أكثر من الكتاب الذي ذكرناه آنفاً . وهو مرفق بمقدمة مفصلة عن حياة أبي مخنف ومقتله والروايات التي استقى مقتله منها ، وكذلك يحتوي على نقد المقتل المختلق . . . وقد نشر هذا الكتاب عام ١٣٦١ هـ . ش .

ولا يخلو تحقيق السيد هادي اليوسفي من بعض المآخذ وفيما يلي نعرض لبعضها .

---

(١) النوري ـ لؤلؤ المرجان (كانون انتشارات عابدي) ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) الشيخ عباس القمي ، الكنى والألقاب (إنتشارات بيدار) ج ١ ص ٤٨ .

(٣) هدية الأحباب ص ٤٥ . طبع أمير كبير .

(٤) تاريخ التراث العربي ، الجزء الثاني ص ١٢٨ .

١ ـ جاء على جلد الكتاب وصفحته الأولى : وقعة الطف ، تأليف أبي مخنف ، تحقيق الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي والجدير بالذكر أن العنوان الموضوع للكتاب غير صحيح ، بدليل : أولاً : إن اسم كتاب أبي مخنف هو مقتل الحسين » وليس « وقعة الطف » . ثانياً : ما ذكره الطبري وما جمع في هذا التحقيق ، ليس هو كل كتاب أبي مخنف وإنما هو قسم منه .

٢ ـ ورد في صفحة ٨ عام وفاة أبي مخنف ، بالإستناد إلى فوات الوفيات لابن شاكر والأعلام للزركلي على أنه عام ١٥٨ والحال أن الاثنين يذكرون عام ١٥٧ بدلاً من عام ١٥٨ لتحديد وفاة أبي مخنف[1] .

٣ ـ ذكر في نفس هذه الصفحة ، مقتل الحسين لأبي مخنف على أنه أول تاريخ لكربلاء ، ولكن ـ كما مر آنفاً ـ فإن آقا بزرك الطهراني يذكر بأن أول تاريخ لكربلاء هو تاريخ أصبغ بن نباتة .

٤ ـ يقول في صفحة ١٩ بالاستناد إلى تأسيس الشيعة بأن ابن أبي الحديد لا يعتقد بتشيع أبي مخنف ، والحال أن هذا الأمر غير مذكور في هذا الكتاب وإنما في متن شرح ابن أبي الحديد (الجزء الأول ، ص ١٤٧) .

وفي صفحة ٢٣ تعرض لذكر المقتل المختلق فقال : غير معروف على وجه التحديد تاريخ أول طبعة لهذا الكتاب ، ويجدرُ القول أنه يبدو أن أول طبعة له كانت في طهران عام ١٢٧٥ بخط محمد رضا الخوانساري ، وبرفقة اللهوف ومهيج الأحزان ، وطبعته حجرية . وفي صفحة ٢٧ و٣٨ ورد أن ثمة خمسة أفراد قاموا بنقل تاريخ كربلاء ـ دون واسطة ـ لأبي مخنف ، ولكن إذا عددناهم لا نجدهم يتجاوزون الأربعة .

وليس هناك إشارة في هذا الكتاب إلى كيفية الاستخراج ونجد أحياناً بعض المواضيع التي وضعت في غير مواضعها ، وبعضها في الهوامش ، ولا أدري كيف أنزلت إلى الهوامش وعلى أي أساس تم إنزالها ، وإضافة إلى ذلك ، فهناك ثلاثة مآخذ رئيسية نعرضها فيما يلي :

ألف ـ حذف إسناد أبي مخنف حذفاً تاماً ، وحول الكتاب من مسند إلى مرسل ، وغير خاف على أهل الفن كم يحط هذا العمل من القيمة العلمية للكتاب .

ب ـ في بعض المواضيع ينقل هشام الكلبي عن غير أبي مخنف بينما نراها منسوبة إليه ، كما ورد في صفحة ١٦٦ في السطر الثاني : « فأخرج للناس كتاباً . . . » (يُطابق مع تاريخ الطبري الجزء الخامس ، ص ٣٩٨) وصفحة ١٦٩ ـ ١٧١ وهي ثلاث صفحات عن هشام وليست عن أبي مخنف (تقارن مع تاريخ الطبري الجزء الخامس ص ٤٠١ ـ ٤٠٣) .

ج ـ بلغ إسقاط وحذف المواضيع حداً ، يمكن اعتبار الكتاب معه ساقطاً عن الاعتبار ، وفيما يلي نشير إلى بعض هذه المواضيع التي حدث فيها الإسقاط والحذف :

١ ـ ص ٧١ و٧٢ : حذف مصراعين من الأبيات الشعرية التالية : ـ

«جاء البريد بقرطاس يخب به

فأوجس القلب من قرطاسه فزعا

قلنا لك الويل ماذا في كتابكم

كان أغبر من أركانها انقطعا »

بينما ورد ذكر هذه الأبيات في تاريخ الطبري ، الجزء الخامس صفحة ٣٢٨ على الصورة التالية : ـ

«جاء البريد بقرطاس يخب به

فأوجس القلب من قرطاسه فزعا

قلنا لك الويل ماذا في كتابكم

قالوا الخليفة أمسى مثبتا وجعاً

فمادت الأرض أو كادت تميد بنا

كان أغبر من أركانها انقطعا»

٢ ـ ص ٧٧ ، السطر التاسع « لا أدري ، أما ابن عمر ، فإني لا أراه يرى القتال ولا يحب أن يولى على الناس ، إلا أن يدفع إليه هذا الأمر عفواً » (الطبري ، الجزء الخامس ، ص ٣٣٩ ، س ٥ .

٣ ـ ص ١٦١ ، س ٣ « واحتمله ، فأنزله» (الطبري ، الجزء الخامس ، ص ٣٩٥ ، الأسطر الستة الأخيرة) .

٤ ـ من ٨٢ (الحاشية) السطر الرابع عشر « فتشاغلوا عن حسين بطلب عبد الله يومهم ذلك حتى أمسوا ، ثم بعث الرجال إلى حسين عند المساء ، فقال : أصبحوا ، ثم ترون ونرى ، فكفوا عنه تلك الليلة ولم يلحفوا عليه ، فخرج حسين من تحت ليلته وهي ليلة الأحد ، ليومين بقيا من رجب ، سنة ستين .

وكان مخرج ابن الزبير قبله بليلة ، خرج ليلة السبت فأخذ طريق الفرع » (الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٤١ ، س ٤) .

٥ ـ ص ١٥٤ ، س ٢ : « ثم إن الحسين وأصحابه امتنعوا امتناعاً قوياً » . (الطبري . ج ٥ ، ص ٣٨٥ ، س ١٦) .

٦ ـ ص ١٥٧ ، السطر الأول : « أقبل بها من اليمن » . (الطبري) الجزء الخامس ، ص ٣٨٥ ، السطر الثاني ما قبل الأخير) .

٧ ـ ص ١٥٩ ، س ٥ : « وقال الناس : « هذا الحسين يريد العراق » (الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٩٤ ، الأربعة أسطر الأخيرة) .

٨ ـ ص ١٦٢ ، س ٨ : « قالت : فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فقدم وحمل إلى الحسين » . (الطبري ، ج ٥ ص ٣٩٦ ، الأسطر الستة الأخيرة) .

٩ ـ ص ١٦٣ ، السطر الأول : « قال : ثم والله ما زال في أول القوم حتى قتل » . (الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٩٧ ، السطر الأول) .

١٠ ـ ص ١٦٥ السطران الأخران : « قالا : فقال له بعض أصحابه : إنك والله ما أنت مثل مسلم بن عقيل ولو قدمت الكوفة ، لكان الناس إليك أسرع ، قال الأسديان » . (الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٩٨ ، س ٤) .

١١ ـ ص ١٦٦ السطر الأول : « . . . قال كان الحسين لا يمر بأهل

---

(١) ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، الجزء الثالث ص ٢٢٥ والزركلي في الأعلام الجزء الخامس ص ٢٤٥ ، ياقوت في معجم الأدباء ج ١٧ ص ٤١ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ج ٧ ص ٣٠١ ، إسماعيل باشا : هدية العارفين ج/ ١ ص ٨٤١ ، عمر رضا كحّاله ، معجم المؤلفين ج ٨ ، ١٥٧ ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج ١ ص ٣٩٩ .

مـاء إلا اتبعـوه حتى إذا انتهى إلى » . (الـطبري ، ج ٥ ، ص ٣٠٨ ، س ١٠) .

١٢ ـ ص ١٦٦ ، س ٣ تتمة نفس الموضوع السابق ؛ هناك ثمانية أسطر ساقطة بعد « عبد الله بن بقطر » (الـطبري ، ج ٥ ص ٣٩٨ ، س ١١ ـ ١٩) . ونفس هذا الموضوع ينقله هشام عن أبي بكر بن عياش ، ولكنه يُنسب إلى أبي مخنف .

١٣ ـ ص ١٦٧ ، السطر الأول : « إن أحد عمومته سأل الحسين (ع) أين تريد ؟ فحدثه ، فقال له . . . » (الـطبري ، ج ٥ ، ص ٣٩٩ ، س ٨) وقد ورد في هذا الكتاب ، بدلاً عن هذه العبارة ، عبارة « فسأله أحد بني عكرمة » .

١٤ ـ ص ١٦٨ ، س ٩ : «فتبيناها وعدنا فلما رأونا وقد عدلنا عن الطريق عدلوا إلينا كأن أسنتهم اليعاسيب » (الـطبري ، ج ٥ ، ص ٤٠٠ ، الأسطر الخمسة الأخيرة) .

١٥ ـ ص ١٧١ ، س ٢ : « فقال لأصحابه انصرفوا بنا » (الطبري ، الجزء الخامس ، ص ٤٠٢ ، السطر العاشر ما قبل الأخير) .

١٦ ـ ص ١٧١ ، س ١١ : « فترادا القول ثلاث مرات » . (الطبري نفس الصفحة ، السطر الثالث ما قبل الأخير) .

١٧ ـ ص ١٧٢ ، السطر الثالث ما قبل الأخير ، هناك عشرة أسطر ساقطة ، لم نذكرها خشية الإطالة . (الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٠٣) .

١٨ ـ ص ١٧٣ ، س ٩ : « وكان بها هجائن النعمان ترعى هنالك » . (الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٠٤ ، الأسطر الأربعة الأخيرة) .

١٩ ـ ص ١٧٥ ، السطر الأخير (تتمة الحاشية) : « فأخذ أهلي يقولون : إنك لتضع مرتك هذه شيئاً ما كنت تصنعه قبل اليوم » (الطبري ، . ج ٥ ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧) .

٢٠ ـ ص ١٧٥ ، س ١١ : « قال أما هذا فلا يكون أبداً إن شاء الله . . . الحسين (ع) » . (الـطبري ، ج ٥ ، ص ٤٠٧ ، س ١٢) . وهناك العديد من المآخذ الأخرى ، ونشير من ضمنها إلى الصفحات التالية : ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ (أربعة مآخذ) ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ (أربعة مآخذ) ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، والخ .

وإذا كان كتاب أخذ الثأر في أحوال المختار ، المنسوب إلى أبي مخنف ، قد طبع ومعه ترجمتان فارسيتان للمقتل المختلق فلا نرى بأساً في الإشارة إلى هذا الأثر .

لم يبق من مؤلفات أبي مخنف سوى كتابي مقتل الحسين وأخذ الثأر المنسوبين إليه ، وقد اتضح لنا من خلال المقالة أن نسبة كتاب مقتل الحسين لأبي مخنف لا تمت إلى الحقيقة بصلة . وهذا هو حال أخذ الثأر ، وأفضل دليل على صحة ما نذهب إليه هو الفرق الشاسع بين ما ورد في هذا الكتاب وبين ما نقله الطبري عن أبي مخنف[١] .

(١) السيد علي مير شريفي .

الشيخ مجتبى القزويني

مرت ترجمة بعنوان الشيخ الميرزا مجتبى بن الشيخ الميرزا أحمد التنكابني القزويني في المجلد الثالث من (المستدركات) .

وتكررت الترجمة بعد ذلك بعنوان الشيخ مجتبى القزويني بن الشيخ أحمد بن الميرزا حسن الطبيب الحشمتي التنكابني : والترجمتان لشخص واحد[٢] .

محتشم الكاشاني .

ولد سنة ٩١٣ وتوفي سنة ٩٩٦ .

من أشهر شعراء الفرس في القرن العاشر ، له ديوان يسمّى « جامع اللطائف » مطبوع بالهند وإيران .

له ترجمة في تواريخ الأدب الفارسي ومعاجم شعراء الفرس مثل : تحفة سامي ، وتذكرة نصرآبادي ، ونتائج الأفكار ، وتذكرة حسيني ، وآتشكده آذر ، ومجمع الخواصّ ، ومجمع الفصحاء ، وطبقات أعلام الشيعة (القرن العاشر) : ١٩٩ ، والذريعة ٢٦٩/٨ و ١٨٣/٩ و ٩٧٢ ، وخزانة عامرة ص ٤٠٤ وفيه : إنّه نظم قصيدة في مدح الشاه طهماسب الصفوي وأرسلها إليه ، فأرسل إليه الشاه : إني لا يعجبني إلاّ ما كان في أهل البيت عليهم السّلام ، فنظم محتشم المراثي بهم وأرسلها إليه ، فأمر له بهديّة سنيّة وأجزل صلته ، وقد لاقت هذه القصائد قبولاً وإقبالاً منقطع النظير منذ يومه وحتى اليوم ، فهي في مقدّمة ما يحفظه الخطباء وفي الطليعة ممّا ينشده الوعّاظ في مآتم الحسين (ع) . وهي اثنتا عشرة قصيدة كل منها في اثني عشر بيتاً اشتهرت بـ (دوازده بند محتشم) وقد جاراها السيد بحر العلوم الكبير السيد مهدي ونقلها إلى العربية نظماً باسم (العقود الاثني عشر) .

الشيخ محمد باقر بن الشيخ محمد جعفر الأشتياني القزويني .

كان حياً سنة ١٢٥٣ .

من نوابغ علماء الفلسفة والمنطق ، فقيه متبحر أصولي محقق من أئمة الفتوى والإمامة في قزوين . أخذ المقدمات وفنون الأدب على أعلام عصره ، ثم تخرج في الفقه والأصول والحديث على الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وشقيقه الشهيد الثالث المستشهد سنة ١٢٦٣ وتلمذ في العلوم العقلية والفلسفة والعرفان الإلهي والمنطق على الشيخ ملا آغا الحكمي القزويني والشيخ يوسف الحكمي القزويني والملا علي البرغاني القزويني وكان من أعلام عصره في المنطق وفحول المدرسين في هذا الفن في المدرسة الصالحية بقزوين وكان أيضاً ممن حضر في الجهاد مع استاذه البرغاني سنة ١٢٤٢ عندما اجتاح الروس الأراضي الإيرانية .

له مؤلفات ورسائل في المنطق والفلسفة منها كتاب توضيح المنطق بالعربية ألفه سنة ١٢٥٣ . . . في مجلد واحد كبير لم يقف عليه شيخنا الأستاذ آغا بزرك الطهراني ولم يذكره في الذريعة . عندي نسخة الأصل بخط المؤلف ، وله رسالة في حدوث العالم ، ورسالة عرفانية[٣] .

(٢) الشيخ محمد السماني .

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

الشيخ محمد تقي بن الآخوند ملا محمد الآملي الطهراني .

ولد في طهران ١١ ذي القعدة سنة ١٣٠٤ وتوفي بها سنة ١٣٩١ .

أخذ المقدمات وفنون الأدب والصرف والنحو والمنطق على أفاضل علماء عصره وأكمل سطوح الفقه والأصول عند والده والشيخ رضا النوري وقرأ كتاب الشوارق على الشيخ علي النوري وتخرج في الحكمة والفلسفة العالية على الفيلسوف الشهير الميرزا حسن الكرمانشاهي المتوفى سنة ١٣٣٦ وبعد وفاة استاذه المذكور التحق بحوزة درس الشيخ عبد النبي النوري وحضر في الأخلاق والعرفان الإلهي على العارف السيد علي القاضي الطباطبائي وفي سنة ١٣٤٠ هاجر إلى العتبات المقدسة في العراق قاصداً الحوزة العلمية الكبرى والتحق في النجف الأشرف بحوزة الآغا ضياء العراقي والميرزا محمد حسين النائيني والسيد أبو الحسن الأصفهاني وفي سنة ١٣٥٣ عاد إلى موطنه طهران وتصدر كرسي التدريس والفتوى وكان له حلقة درس في الفلسفة والأصول والفقه بحضرها جمع من أفاضل النابهين .

له مؤلفات ، منها :

١ ـ إثبات صانع ازماتريااليسم تاايده آليسم طبع في طهران عام ١٣٧١ ، ٢ ـ حياة جاويد في الأخلاق طبع في طهران في مجلدين ، ٣ ـ خداشناسي طبع في طهران سنة ١٣٧٠ ، ٤ ـ درر الفوائد ، تعليقة على شرح منظومة السبزواري طبع في طهران مكرراً سنة ١٣٧٠ وسنة ١٣٧٧ ، ٥ ـ كتاب الصلاة ثلاث مجلدات مطبوع سنة ١٣٧١ ، ٦ ـ مصباح الهدى في شرح العروة الوثقى طبع في مجلد في طهران سنة ١٣٧٧ و ١٣٨٠ ، ٧ ـ تعليقة على المكاسب ، في مجلدين طبع في طهران سنة ١٣٧٢ ـ ١٣٧٤ مؤلفاته المخطوطة منها رسالة في الرضاع ، رسالة في قاعدة لا ضرر ، تقريرات استاذه النائيني وغيرهما[١] .

السيد محمد تقي المصطفوي

المتخصص في مجال الآثار والأبنية القديمة ـ درس الحقوق ولكنه عمل في دائرة الأبنية القديمة في وزارة الثقافة وخدم في مجال الآثار مدة ٥٠ سنة وكان مرافقاً لجمع كبير من مشاهير الأثريين العالميين مثل (كامرون ، هرتزفلد ، يوب ، گيدار ، گيرثمن) هؤلاء الذين نقبوا في المواقع الأثرية الإيرانية وأزالوا الستار عن الآثار القديمة ـ وقد كسب المترجم له منهم خبرات كثيرة فصار متخصصاً في مجال عمله ـ كما أنه كان خبيراً في الأبنية الإسلامية خاصة صناعة وفن الفسيفساء .

توفي عام ١٣٩٩ هـ وله أكثر من عشرة كتب في مجال الدراسات الأثرية[٢] .

محمد حسن خان قاجار .

« محمد حسن خان قاجار » أبو « آغا محمد خان قاجار » مؤسس سلسلة الشاهات القاجاريين الإيرانية ، وابن « فتح علي خان قاجار قوانلو »[٣] .

ولد سنة ١١٢٧ هـ ، وقتل سنة ١١٧٢ هـ في نواحي « بهستهر » . قتله كردي اسمه « سبز علي » واثنان من طائفة « يوخاري باش »[٤] القاجارية . وخلف تسعة أبناء من عدة نساء ، أكبرهم وأرشدهم « آغا محمد خان » ، وهو الذي أسس بهمته وسعيه سلسلة الملوك القاجاريين .

في سنة ١١٣٩ هـ ، و « محمد حسن خان قاجار » يومئذ في الثانية عشرة من عمره ، قتل أبوه . وفي أيام اقتدار « نادر شاه أفشار » وسيطرته كانت إقامة « محمد حسن خان قاجار » في صحراء جرجان بين تركمان « يموت » على حال من التشرد والجولان في الصحارى استمرت حوالي عشرين عاماً ، مع إقدامه أحياناً على القيام ببعض التحركات الرامية إلى غاية من التقدم .

وفي سنة ١١٥٦ هـ ، وكان « محمد حسن خان » في التاسعة والعشرين من عمره ، ذهب إلى « جرجان » وأقام هناك بين أبناء طائفته وحدثته نفسه بأمر يعلي به شأنه ويوطد مكانته ، وذلك بالتسلط على تلك النواحي وانتزاع حكمها من يد القائمين عليها .

وكان « محمد حسين خان قاجار يوخاري باش » أحد رجال « نادر شاه » حاكماً على « جرجان » من قبل « نادر شاه » . وكان عدواً لدوداً لطائفة « قاجار قوانلو » التي ينتمي إليها « محمد حسن خان قاجار » . وكان لهذا الحاكم ابن اسمه « محمد زمان بيك » قد نصبه أبوه نائباً عنه على « أستر آباد » . فجمع « محمد حسن خان قاجار قوانلو » جيشاً هاجم به « محمد زمان بيك » هذا وهزمه ، واضطره إلى الفرار إلى كرمانشاه . ورفع هذا إلى « نادر شاه » تقريراً بواقع الحال . فسير « نادر شاه » جيشاً مجهزاً لإخضاع الثائر واعتقاله ، وجعل على قيادته « محمد حسين قاجار يوخاري باش » حاكم « جرجان » أبا « محمد زمان بيك » .

وأوقع « محمد حسين خان يوخاري باش » في جيش « محمد حسن خان قوانلو » هزيمة شديدة ، وأخضع أنصاره وقتل منهم جماعة كبيرة . وفر « محمد حسن خان » عائداً مرة أخرى إلى صحارى « جرجان » وأقام بين طائفة « بكنج خان يموت دوه شي » متنكراً متخفياً من خشية « نادر شاه » إلى أن قتل هذا في سنة ١١٦٠ هـ فأظهر نفسه .

كان « محمد حسن خان » واحداً من متغطرسي ذلك الزمان ، يسعى للوصول إلى منصب الملك . فخرج من مخبئه وجمع جيشاً من أعوانه وأنصاره وذهب إلى « جرجان » فاحتلها ، واجتاز في سيره حدود مازندران . ولكنه لم يلبث أن صده « علي شاه أفشار » عن التقدم . فقد خرج هذا من خراسان بسبب قحط وغلاء شديدين وقعا فيها وذهب إلى مازندران ، واتفق أن خرج « محمد حسن خان » عليه واخترق حدود مازندران في وقت خروجه من

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٢) الشيخ محمد رضا الأنصاري .

(٣) نقلت رواية مشكوك فيها . وهي أن « فتح علي خان » رأس سلسلة « قاجار قوانلو » الملكية هذا قام بخدمات للشاه « سلطان حسين الصفوي » . فكافأه بأن وهبه إحدى جواريه ، وهي كرجية اسمها « خير النساء » . وبعد مدة قليلة ذكرت هذه الجارية أنها كانت حاملاً من الشاه الصفوي قبل أن يهبها للخان القاجاري . وسئل الشاه عن ذلك فأقر بما قالت . ثم ولدت صبياً سموه « محمد حسن » ، هو هذا المترجم له . وعلى هذا يرى بعضهم أن الشاهات القاجاريين الذين حكموا إيران هم من نسل الشاه « سلطان حسين الصفوي » .

(٤) احدى طوائف القاجاريين . وتسمى أيضاً « دولو » .

خراسان إليها ، فتصدى له وأوقفه عن التقدم .

انهزم « محمد حسن خان » في هذه المعركة ففر مرة أخرى إلى صحارى « جرجان » وتوارى فيها . ووقع أبناؤه في أسر « علي شاه » . وكان ذلك في أوائل سنة ١١٦١ هـ .

وبعد مقتل « علي شاه » وأخيه « إبراهيم شاه » ابني أخ « نادر شاه » واستقرار « شاهرخ شاه » على العرش قدم عليه « محمد حسن خان » سنة ١١٦١ من « أستر آباد » (إقليم جرجان) . وإذ رأى أن « شاهرخ شاه » لا يعتني به ، وأن المجال لا يتسع لما في نفسه من خطط وآمال ، فقد رأى صلاحه في أن يعود إلى « أستر آباد » ، فعاد إليها وانصرف إلى العمل على إنفاذ خططه والسعي إلى تحقيق آماله في الحكم .

وإذ كان يبغي الوصول إلى منصب الملك فقد أخذ يسعى إلى السيطرة على الأقسام الأخرى من إيران . واقتضاه هذا محاربة منافسيه والمتمردين عليه . ومن الحروب المهمة التي خاضها في هذا السبيل محاربته « أحمد شاه الأبدالي » مؤسس دولة « أفغانستان » الحاضرة ، وكان قبل ذلك من رجال « نادر شاه » . ومنها محاربته « آزاد خان الغليجائي » و « كريم خان زند » .

فأما « أحمد شاه الأبدالي » فقد دأب على توسيع مملكته الجديدة التي أقامها بعد مقتل نادر شاه . وغزا خراسان بجيش جرار سنة ١١٦٨ هـ وقيل سنة ١١٦٤ هـ وانتهت الغزوة بصلح لم يمكنه من الحصول على ما أمل . فأعاد الكرة بإرسال جيش من خمسة عشر ألف فارس إلى إيران لاحتلال « استرآباد » ومازندران . وكانت الأولى وقسم من الثانية في حكم « محمد حسن خان » فرده هذا عنها ، وأكثر فيه القتل . وزاده هذا النصر اعتزازاً وقوة .

وأما « آزاد خان الغليجائي » الأفغاني فكان أيضاً من رجال « نادر شاه » ، وبعد مقتله طمع أيضاً في منصب الملك واحتل أذربيجان . وحاربه « محمد حسن خان » سنة ١١٦٩ هـ ، وقيل سنة ١١٧٠ هـ ، في أذربيجان ، فهزمه واضطره إلى اللجوء إلى العثمانيين في بغداد يستنجد بهم فلم ينجدوه ، فذهب إلى والي كرجستان فلم ينجده أيضاً ، وبقي لاجئاً عنده . وانتهى أمره إلى اللجوء إلى « كريم خان زند » بعد مقتل « محمد حسن خان قاجار » واستتباب الملك لـ « كريم خان » ، فقبله وأقامه عنده مبجلاً محترماً .

وأما محاربة « محمد حسن خان » لمنافسه الآخر « كريم خان زند » فقد انتهت إلى غير ما يهوى . وكانت فيها خاتمة أمره . كان « كريم خان » يتطلع إلى الفتح والتملك . فاختار سبطاً للشاه « سلطان حسين الصفوي » اسمه « الميرزا أبو تراب » ونصبه شاهاً باسم « الشاه إسماعيل الثالث » ، وجعل من نفسه وكيلاً عنه وتلقب بلقب « وكيل الرعايا » ، أو « وكيل الشاه » . وقد تم له فتح إيران كلها تقريباً ، ما عدا خراسان كانت في حكم « شاهرخ شاه أفشار » حفيد « نادر شاه » ومازندران وأستر آباد كانتا في حكم « محمد حسن خان قاجار قوانلو » . ولم يتعرض « كريم خان » للشاه « شاهرخ » وفاء منه لجده . أما « محمد حسن خان » فقد عصى على « كريم خان » ونازعه الملك ووقعت بينهما حرب .

وساق إليه « كريم خان » مرة جيشاً إلى مازندران . ووقعت هناك بينهما معركة أوقع فيها « محمد حسن خان » انكساراً جزئياً في عسكر « كريم خان » ففر « الميرزا أبو تراب » من معسكره إلى معسكر خصمه ظناً منه أن العاقبة له . فكان عمله هذا سبباً في انحطاط شأن « كريم خان » وارتفاع شأن « محمد حسن خان » . ورأى الخان الزندي أن التراجع خير له فتراجع . وكان « محمد حسن خان » يحتل يومئذ « جرجان » ومازندران وأذربيجان وقسماً من إيران المركزية .

وبعد أن احتل « محمد حسن خان » مدينة أصفهان سار في سنة ١١٧٠ هـ ، وقيل سنة ١١٧١ هـ ، إلى مدينة شيراز مركز عمليات « كريم خان » الحربية ، وحاصرها مدة ، وأوشك أن يحتلها . ولكن كريم خان تشدد ولم يقطع الرجاء واستمر في المقاومة . وساعده على ذلك نفاد الأغذية من معسكر « محمد حسن خان » وتفرق عسكره عنه ، حتى اضطر إلى التراجع عن شيراز والعودة من حيث جاء .

ولما وصل « محمد حسن خان » في تراجعه إلى مدينة أصفهان دفعت خيبته في هذه الحرب جنده الذين كانوا يلازمون أصفهان إلى التفرق عنه والعودة إلى بلادهم . واضطر هو إلى المضي عنها إلى مازندران و « جرجان » .

وتبعه « كريم خان » بجيشه . فلما وصل إلى طهران توقف فيها وأرسل أفضل قواده العسكريين ، وهو « الشيخ علي خان زند » ، يتعقبه إلى مازندران . وحدث لـ « محمد حسن خان » في مازندران ما حدث له في أصفهان . فقد تخلى عنه عسكره وتركوه وحده . ونهض خصومه يقاومونه ، ولا سيما طائفة « قاجار يوخاري باش » ، فقد كانت أشد خصومه مخالفة له . وقد قاومته هذه الطائفة في كل مكان ، وكانت دائماً سبب انكساره وحائلاً دون تقدمه . وانتهوا به إلى أن كانوا الدافع إلى قتله .

ففي شهر جمادى الثانية سنة ١١٧٢ هـ ، إذ كان في إحدى وقائع الكر والفر هذه يعبر محلة « جر كلباد » ، علق حصانه في الوحل ، وتعذر عليه الخلاص ، ولم يلبث أن وصل إليه من كانوا يتعقبونه ، وبادروا إليه فقتلوه . قتله خادم له اسمه « سبز علي بيك » بتحريض من قاجاريي طائفة « يوخاري باش » . وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى طهران إلى « كريم خان زند » ، فأمر بدفنه بين مظاهر الاحترام في مقام « عبد العظيم الحسني » (رض) ، فدفن كما أمر . وبالغ « كريم خان » في مراعاة أعقابه والترفق بهم . وحمل ابنيه « آغا محمد خان » و « حسين قلي خان » معه إلى شيراز ، وأسكن سائر أبنائه وأقاربه في قزوين مراقبين .

الدكتور محمد حسن مشايخ

ولد سنة ١٣٣٣ في محلة عود لاجان بطهران ، وتوفي فجأة سنة ١٤١١ وهو في رحلة علمية .

درس في طهران جميع مراحل الدراسة حتى نيل الدكتوراه في الأدب . كان عضواً فاعلاً في دراسات منظمة الأونيسكو . وكانت وفاته الفجائية في باخرة يقوم فيها مع هيئة عالمية تضم علماء هنود وصينيين ويابانيين وباكستانيين تابعين للأونيسكو، برحلة استكشافية لطريق الحرير بدأتها من مدينة البندقية بايطاليا .

نشر دراسات منوعة في المجلات الإيرانية وكان من كتاب دائرة معارف التشيع ودائرة معارف الإسلام في طهران ، ونظم كتاب الشاعر إقبال الإسرار

النفسية والرموز اللاانفسية ، وسماه (صوت شاعر الغد) ، وكتب في شرح النظريات السياسية لعلي بن أبي طالب (ع) في مجلدين . وكتاباً يشتمل على على ما يقارب الألف حديث موثوق مع شرحها وترجمتها إلى الفارسية وذكر رجالها وإسنادها .

ولإيضاح الرحلة التي كان يشارك بها نأخذ هنا ما نشرته إحدى الصحف في شهر نيسان سنة ١٩٩١ . قالت الصحيفة : سينطلق فريق دولي يوم ١٩ نيسان (أبريل) الجاري من مدينة أشقباد في آسيا الوسطى السوفياتية في رحلة تستمر شهرين على امتداد واحدة من أقدم الطرق لتجارة الحرير في التاريخ القديم .

وخلال الرحلة سيتاح المجال أمام ٢٩ عالم آثار يرافقهم عدد من المؤرخين في حقل الفنون وغيرهم من الاختصاصيين من غير السوفيات لتبادل الخبرات والآراء كل في مجال اختصاصه مع زملائهم السوفيات .

وستنظم في هذا الإطار ندوتان عن موضوعين مختلفين الأول يتناول العلاقات الثقافية بين الحضر وبين الرحل ، والثاني أهمية خانات القوافل والمدن التي نشأت على جوانب طريق السهوب القديمة التي كانت تصل الشرق بأوروبا وتشتمل رحلة « طريق السهوب » على مرحلة ثانية بين أوديسا وباكو في منطقة القوقاز السوفياتية .

والرحلة هي الثالثة من نوعها في إطار مشروع « طرق الحرير» . طرق الحوار » . وقد انتهت الرحلة الثانية البحرية يوم ٩ آذار (مارس) الماضي بعد جولة دامت زهاء أربعة أشهر ونصف شهر بدأت في مدينة البندقية الإيطالية وانتهت في اليابان . مروراً بكثير من المرافىء والمحطات في اليونان ومصر وعمان والهند وكوريا والصين .

أما الرحلة الأولى التي شهدتها الصين في تموز (يوليو) ١٩٩٠ فقد انطلقت من مدينة كسيان وسارت على تخوم صحراء غوبي قبل أن تنتهي في مدينة كاشغار .

وقالت في عدد آخر :

انتهت في أواخر الشهر الفائت رحلة علمية دامت زهاء شهرين على امتداد واحدة من أقدم الطرق الأسطورية لتجارة الحرير . واختتمت الرحلة التي انطلقت من مدينة أشقا أباد (تركستان) ، بزيارة ، هي الأولى من نوعها منذ عام ١٩٤٥ ، لمنطقة تتاخم الحدود الصينية .

وقد اجتاز الفريق الدولي المؤلف من حوالي ٨٠ عالماً ومؤرخاً وإخصائياً (نصفهم من الإتحاد السوفياتي) صحارى وسهول آسيا الوسطى وصولاً إلى عاصمة كازاخستان ، وعقدوا خلال رحلتهم ندوتين رئيسيتين الأولى تناولت العلاقات الثقافية بين الحضر وبين الرحل بينما تركزت الثانية على أهمية خانات القوافل والمدن التي نشأت على جوانب طرق السهوب القديمة التي كانت تصل الشرق بأوروبا .

وقال أثر الرحلة ، السيد دودودين ، منسق مشروع اليونسكو : « إن الفريق تمكن من زيارة مسجد بانفيلوف الذي يشبه بهندسته المعمارية الهياكل الصينية ويعود تاريخ بنائه إلى القرن التاسع عشر ، كما زار هيكلاً بوذياً في ترميز قريباً من الحدود الأفغانية وقام بعض أعضاء الفريق بتنقيبات في المواقع الأثرية الرئيسية التي اجتازوها . وأضاف أن الفريق سيقدم إلى اليونسكو قائمة تتألف من ١٦ توصية ، من بينها توصية تقترح تمويل رحلات الباحثين من البلدان الفقيرة إلى الخارج ، وأخرى يطالبون فيها بالعمل على ترميم وصون العديد من المواقع الأثرية على امتداد طريق السهوب . وثالثة بشأن إعداد دراسة لمشكلة التصحر التي يعاني منها بحر أرال .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرحلة هي الثالثة من نوعها في إطار مشروع طرق الحرير . انتهت الرحلة الثانية ، التي كانت بحرية يوم ٩ آذار (مارس) الماضي بعد جولة دامت قرابة أربعة أشهر ونصف ، بدأت في مدينة البندقية في إيطالية وانتهت في اليابان . الرحلة الأولى التي شهدتها الصين في تموز (يوليو) ١٩٩٠ ، فقد انطلقت من مدينة كيسيان وسارت على تخوم صحراء غوبي لكي تنتهي في مدينة كاشغار .

وقالت في عدد ثالث :

تعيد منظمة الأونسكو الدولية . من خلال مشروعها الذي أطلقته في ١٩٨٧ ولمدة عشر سنوات متتالية ، افتتاح طريق الحرير وفتحها على أبعادها التاريخية والرمزية المختلفة فطريق الحرير ، أو بالأحرى طرقها البرية والبحرية ، كانت طرق حوار وحضارات . وهي ، وإن كادت أصولها تضيع في ليل الزمن ، لكن تاريخها حافظ على وهجه منذ أكثر من ألفي عام ، خصوصاً إن هذه الطرق قامت بمساهمة فعالة وحاسمة في تطور ونمو الحضارة الإنسانية .

وهكذا يتضح إن طريق الحرير لم تكن مرادفاً لدور تجاري مهم فحسب ، وإنما كانت تلعب دوراً ثقافياً أساسياً فانفتحت معها البلدان على بعضها وتلاقت : من الشرق إلى الغرب ، ومن الصين إلى روما والبندقية كانت تنقل البضائع التجارية المختلفة وكذلك الأفكار الجديدة ومعها المعارف .

وإذا كانت بعض الدراسات والبحوث (الأثرية والتاريخية والأنتولوجية والألسنية والجغرافية والاجتماعية) تطرقت في السابق إلى دراسة هذا الملتقى الثقافي الكبير الذي كانت تشكله تلك الطرق ، فإن المشروع الذي تنهض به منظمة الأونسكو اليوم هو الأهم في هذا المجال خصوصاً وأن هذه المنظمة بتكوينها ، قادرة على القيام بأعبائه ولعب، دور الوسيط الجامع بين مختلف البلدان المعنية والأوساط الثقافية .

فنون أسيوية

ويبدو مشروع الأونيسكو علمياً من عنوانه : « دراسة كاملة لطرق الحرير : طرق الحوار » . ومن أهداف هذا المشروع إيقاظ وعي الشعوب اليوم على ضرورة تجديد الحوار ومساعدتها على إعادة إحياء التجربة التاريخية في التفاعل والتواصل الإنسانيين .

وللمشروع بعدان أساسيان الأول ثقافي علمي ويتضمن برنامج لقاءات مع باحثين من مختلف البلدان وتقام في المواقع التاريخية التي تخترقها الرحلتان البرية والبحرية الهادفة إلى اقتفاء الرحلتان أثر طريق الحرير . أما البعد ، الثاني فهدفه تأمين تغطية نشاطات المشروع من خلال وسائل الأعلام المكتوبة والمرئية ومن خلال المطبوعات المتنوعة والمعارض والأفلام الوثائقية ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن ثمة مهرجاناً لطريق الحرير سيقام في باريس في ١٩٩٣ وسينظم معرض ضخم يتضمن للمرة الأولى أبرز مجموعات الفن في آسيا الوسطى .

في هذا الإطار ، تقام في العاصمة الفرنسية مجموعة من النشاطات الثقافية التي تقتفي آثار طريق الحرير ، ومن أبرزها النشاطات التي يقيمها حالياً وحتى نهاية حزيران (يونيو) بين ثقافات العالم وتشتمل على مجموعة من العروض المشهدية والموسيقية والغنائية والمسرحية . وتم بهذا الصدد استقدام مجموعة الفرق الفنية من عدد من البلدان التي كانت تشكل محطات أساسية على طريق الحرير من الهند وأذربيجان ومنغوليا إلى الفولغا وأوزبكستان وأفغانستان والصين واليابان ، وتكتمل الحلقة الفنية لتؤلف كلا يحفل بالتنوع ويكاشف عن جوانب مهمة من الموروث الفني عند كل بلد من البلدان المذكورة وهكذا تتحول هذه التظاهرة إلى مناسبة للتعرف إلى الاختلاف في وسائل التعبير والتقنيات والأداء ، ندخل إلى عمق هذه المجتمعات الروحي ونتطلع على بعض ملامح لاوعيها الجماعي في زمن بدأت تسوده النمطية والاحتذاء بمثال واحد يقضي على الخصوصية والتفرد وأهمية هذه اللقاءات اليوم في أنها تنقلنا عبر ما تقدمه من كلاسيكيات فنونها من الزمن الحاضر إلى الزمن الذي ازدهرت فيه طرق الحرير وما قبله . وإنها بالفعل لشهادة معاصرة عن هذا الإزدهار الآفل وهذا ما يمنحها بعداً توثيقياً بالإضافة إلى بعدها الجمالي والفني .

تقاليد عريقة

من الهند الشمالية نستمع إلى غولشان بارتي والماز حسين خان ، الأول يغني ويعزف على آلة محلية شبيهة بالأكورديون والثاني يرافقه على الطبلة ويجمع هذا الثنائي بين أناقة الإيقاع الشعبية أغاني هادئة وخفيفة تعتمد على نصوص تنشد الحب ومصدر هذا النمط من الغناء نجده في إيران في القرن الثالث عشر . أما موسيقى أذربيجان الكلاسيكية فنستمع إليها مع الثلاثي زايد غولياف (غناء وعزف على الدف) ، ومولد مسلموف (عود) وفخر الدين ددشيف (الطنبور) . وما يقدمه هؤلاء يجسد أعرق التقاليد الموسيقية في أذربيجان ، تقاليد تلقى جذورها الموسيقية في إيران والشعرية في تركيا .

من منطقة شانغان التي كانت إحدى العواصم الصينية والتي شهدت نهضة ثقافية كبيرة ، تتعرف إلى موسيقى قديمة تجد جذورها في سلالة شانغ (من القرن السابع حتى بداية القرن العاشر) . وكان هذا النوع من الموسيقى يعزف أثناء الاحتفالات التي كانت تقام لاستسقاء المطر . وتجدر الملاحظة هنا أن المدرسة الموسيقية العليا في شانغان تسعى إلى إحياء هذه الموسيقى القديمة من خلال الاتصال بمعلميها الكبار الذين حافظوا عليها وحملوا لواءها .

محطة أخرى على طريق الحرير انتقلت إلى باريس مع فرقة المسرح الياباني المقنع ، وهو مسرح شعبي تأسس في ١٩٥٩ في الضاحية الصناعية لطوكيو .

الفرقة مؤلفة في معظمها من العمال ولعبت أمام آلاف المشاهدين في عدد من دول العالم وذلك بهدف التعريف بفن تراثي قديم يقوم على الأساطير والحكايات الغربية . إيقاع الطبلة يؤلف الخلفية الموسيقية لمثل هذا النوع من العروض المسرحية . أما لماذا الطبلة تحديداً ، فلأن الساموراي المتفيين ، بلا سلاح وبلا مراكب ، كانوا يجدون فيها قوة حياة ووسيلة تعبير عن صراخهم وعواطفهم .

من خلال العروض الفنية التي يقدمها بيت ثقافات العالم ، نشاهد فصلاً من فصول إعادة اكتشاف طريق الحرير ، ومعه نعبر إلى مرحلة أساسية من مراحل الحضارة الإنسانية في رحلة تحمل نكهة الماضي والتاريخ .

(انتهى ما نشرته الصحيفة) . ونحن نخيل القارىء إلى المجلد الثالث من دائرة المعارف الإسلامية الشيعية (بحث تركستان) للأطلاع على تفاصيل واسعة عن طريق الحرير هذا .

أبو نصر غرس الدولة محمد بن أبي سعد الحسن بن محمد بن علي بن حمدون البغدادي .

ولد في شهر صفر سنة ٤٨٨ وتوفي في ذي الحجة الحرام سنة ٥٤٥ في بغداد ودفن في مقابر قريش الذي تعرف اليوم بالكاظمين عند الإمامين محمد الجواد وموسى الكاظم عليهما السّلام .

عالم فاضل زعيم رئيس كاتب محاسب في البلاط العباسي أخذ العلم والفنون والحسابات عن والده شيخ الكتاب أبي سعد الحسن البغدادي ثم عين في الديوان العباسي ومن سنة ٥١٣ كان رئيس ديوان الرسائل وكان ينوب في ديوان الرسائل عن سديد الدولة محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأنباري .

والمترجم له من آل ابن حمدون وهم من الأسر العلمية الشيعية المعروفة في بغداد وهو شقيق بهاء الدين أبو المعالي محمد البغدادي المعروف بابن حمدون المتوفى مظلوماً لتشيعه في سجن المستنجد بالله الخليفة العباسي صاحب كتاب التذكرة الحمدونية المار الذكر . ذكره ابن خلكان في ترجمة أخيه المذكور قال (وأخوه أبو نصر محمد بن الحسن الملقب غرس الدولة كان من العمال وممن يعتقد في أهل الخير والصلاح ويرغب في صحبتهم وولد في صفر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وتوفي في ذي الحجة سنة خمس وأربعين وخمسمائة ببغداد ودفن بمقابر قريش)[1] .

وقال ابن الفوطي : (غرس الدولة أبو نصر محمد بن الحسن بن علي بن حمدون البغدادي المنشيء ، أخو الصاحب بهاء الدين أبي المعالي محمد وكان ينوب في ديوان الرسائل عن سديد الدولة ابن الأنباري وكتب في الديوان من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة إلى أن مات وذكره أبو سعد ابن السمعاني وقال : سمع أبا عبد الله الحسين بن علي بن البشري كتبت عنه بافادة شيخنا أبي الحسن علي بن أحمد اليزدي ، قال وسألته عن مولده فقال : ولدت في صفر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وذكر أحمد بن صالح بن شافع في تاريخه أنه توفي في ذي الحجة سنة خمس وأربعين وخمسمائة)[2] [3] .

الشيخ الرئيس أبو المعالي بهاء الدين محمد بن أبي سعد الحسن بن محمد بن علي بن حمدون الكاتب البغدادي الملقب بكافي الكفاة والمعروف بابن حمدون ، صاحب التذكرة .

ولد في رجب سنة ٤٩٥ وتوفي في سجن العباسيين لتشيعه في يوم الثلاثاء ١١ ذي القعدة الحرام سنة ٥٦٢ ودفن في يوم الأربعاء بمقابر قريش

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان : ج ٤ ص ٣٨٢ تحقيق الدكتور إحسان عباس بيروت دار الثقافة .

(٢) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ج ٤ القم ٢ ص ١١٦٢ .

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

التي تعرف اليوم بالكاظمين من أكابر علماء الشيعة مؤرخ أديب متفنن شاعر أخذ العلم وفنون الأدب على جماعة من أفاضل عصره منهم والده وسمع الحديث على فحول محدثي زمانه منهم أبو القاسم إسماعيل بن الفضل بن إسماعيل التميمي الجرجاني في صفر سنة ٥١٠ هجرية بالمسجد المعلن المقابل لباب النوبي ببغداد ، وغيره .

وآل ابن حمدون من الأسر العلمية الشيعية البغدادية بزغ بدرها في أفق بغداد في أوائل القرن السادس للهجرة وتولوا مناصب كبيرة في الدولة العباسية ، كما نبغ منهم جماعة من العلماء والشعراء والأدباء وأول من اشتهر منهم والد المترجم له الشيخ أبو سعد الحسن بن محمد البغدادي المتوفى سنة ٥٤٦ عن عمر طويل وأخواه المترجم له الشيخ أبو المظفر البغدادي والشيخ أبو نصر محمد بن الحسن الملقب بغرس الدولة المتوفى سنة ٥٤٥ ونجل المترجم له أبو سعد وغيرهم ووصف هذه الأسرة ابن خلكان فقال : (من بيت مشهور بالرياسة والفضل هو وأبوه وأخواه أبو نصر وأبو المظفر . . .)[١] .

تصدر المترجم له كرسي التدريس والفتوى والحديث في بغداد وتخرج عليه جماعة كثيرة منهم نجله أبو سعد وأحمد بن طارق القرشي الكركي وأبو المعالي أحمد بن يحيى بن هبة الله وأبو العباس أحمد بن الحسن العاقولي وغيرهم .

وقد اشتهر المترجم له في أيام المستنجد بالله العباسي فولاه (ديوان العرض) وفي عام ٥٥٨ ولي (ديوان الزمام) ولقبه الخليفة بلقب (كافي الكفاة) ثم عثر الخليفة على بعض كتاباته التي يظهر منها تشيعه ففصله من مقامه وقبض عليه وسجنه ومات في السجن مظلوماً ثم نقل جثمانه إلى مقابر قريش الذي تعرف اليوم بالكاظمين ودفن عند الإمامين محمد الجواد وموسى الكاظم عليهما السّلام .

أقوال العلماء فيه

قال الدكتور مصطفى جواد عن ذيل تاريخ بغداد النسخة المخطوطة في (دار الكتب الوطنية بباريس) بعد ذكر اسمه : (شيخ فاضل له معرفة حسنة بالأدب والكتابة من بيت مشهور بالرئاسة والفضل هو وأبوه وأخواه أبو نصر وأبو المظفر ، وأبو المعالي هذا جمع كتاباً حسناً سماه (التذكرة) يحتوي على فنون من العلم آجاد فيه وأحسن جمعه وكان له تقدم في أيام الإمام المستنجد بالله ـ رضي الله عنه ـ واختصاص بخدمته وولي ديوان العرض مدة ثم ديوان الزمام في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وروى عنه إنشاداً سنذكره في ترجمته إن شاء الله . . . مولده في رجب سنة خمس وتسعين وأربعمائة ذكر صدقة بن الحسين الناسخ في تاريخه أن أبا المعالي ابن حمدون توفي يوم الثلاثاء حادي عشر ذي القعدة سنة ٥٦٢ وقال أبو الفضل بن شافع مثل ذلك ودفن بمقابر قريش)[٢] .

وذكره ابن خلكان بعد ذكر اسمه فقال : (كان فاضلاً ذا معرفة تامة بالأدب والكتابة من بيت مشهور بالرياسة والفضل هو وأبوه وأخواه أبو نصر وأبو المظفر وسمع أبو المعالي المذكور من أبي القاسم إسماعيل بن الفضل الجرجاني وغيره وصنف كتاب (التذكرة) وهو من أحسن المجاميع يشتمل على التاريخ والأدب والنوادر والأشعار لم يجمع أحد من المتأخرين مثله وهو مشهور بأيدي الناس كثير الوجود وهو من الكتب الممتعة .

وذكره العماد الأصبهاني الكاتب في كتاب (الخريدة) فقال : كان عارض العسكر المقتفوي ثم صار صاحب ديوان الزمام المستنجدي وهو كلف باقتناء الحمد وابتناء المجد وفيه فضل ونبل وله على أهل الأدب ظل وألف كتاباً سماه (التذكرة) جمع فيه الغث والسمين والمعرفة والنكرة فوقف الإمام المستنجد على حكايات ذكرها نقلاً من التواريخ توهم في الدولة غضاضة ويعتقد للتعرض بالقدح فيها عراضة فأخذ من دست منصبه وحبس ولم يزل في نصبه إلى أن رمس وذلك في أوائل سنة اثنتين وستين وخمسمائة . . .

وكانت ولادة ابن حمدون المذكور في رجب سنة خمس وتسعين وأربعمائة وتوفي يوم الثلاثاء ١١ ذي القعدة سنة ٥٦٢ ودفن يوم الأربعاء بمقابر قريش ببغداد وكان موته في الحبس)[٣] .

ذكره ابن الجوزي في وفيات سنة ٥٦٢ بعدما أثبت اسمه ونسبه ، قال : (كانت له فصاحة وولي ديوان الزمام مدة وصنف كتاباً سماه التذكرة وتوفي في ذي القعدة من هذه السنة ودفن بمقابر قريش) .

وذكره ابن الأثير فقال : (الكاتب ببغداد وكان على ديوان الزمام فقبض عليه فمات محبوساً)[٤] .

وذكره جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي في النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ وكرر أقوال ابن خلكان ونقل خطأ تاريخ وفاته عن ابن خلكان سنة ٥٧٥ .

من أشعاره

ومرسلة معقودة دون قصدها ... مقيدة تجري حبيس طليقها
يمرّ خفيف الريح وهي مقيمة ... وتسري وقد سدت عليها طريقها
لها من سليمان النبي وراثة ... وقد عزيت نحو النبيط عروقها
إذا صدق النوء السماكي أمحلت ... وتمطر والجوزاء ذاكٍ حريقها
تحيتها إحدى الطبائع أنها ... لذلك كانت كل روح صديقها

وأنشد أيضاً :

وحاشا معاليك أن تستزاد ... وحاشا نوالك أن يُقتضى
ولكنما استزيد الحظوظ ... وإن امرتني النهي بالرضا

وأنشد أيضاً :

يا خفيف الرأس والعقل معاً ... وثقيل الروح أيضاً والبدن
تدعي أنك مثلي طيب ... طيب أنت ولكن بلبن

من أشهر مؤلفات المترجم له كتاب التذكرة ويقال تذكرة ابن حمدون أو التذكرة الحمدونية في مجلدات عديدة وبسبب ما أورده في تذكرته هذا قبض

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان تحقيق الدكتور إحسان عباس ج ٤ ص ٣٨٠ بيروت دار الثقافة .

(٢) انظر موسوعة العتبات المقدسة قسم الكاظمين ج ٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ بيروت مؤسسة الأعلمي .

(٣) أبو العباس شمس الدين أحمد المعروف بابن خلكان : وفيات الأعيان تحقيق الدكتور إحسان عباس ج ٤ ص ٣٨٠ ـ ٣٨٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٣٣٠ بيروت دار صادر .

عليه المستنجد العباسي وسجنه وتوفي مظلوماً في الحبس . قال ابن خلكان في وصف التذكرة الحمدونية (إنها مجموعة لطيفة عظيمة من أحسن المجاميع جمع فيها التاريخ والأدب والأشعار والنوارد ولم يجمع أحد من المتأخرين مثله وهو مشهور بأيدي الناس كثير الوجود وهو من الكتب الممتعة) ونقل صاحب كشف الظنون هذه العبارات في وصفه[1] .

يقول عبد الحسين الصالحي : كتاب التذكرة الحمدونية من أهم الكتب الجامعة الرائقة ومن مصادر العلامة المجلسي في كتابه بحار الأنوار ينقل عنه بعض مواعظ الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع)[2] .

معبراً عنه بالتذكرة ومجلداته متفرقة في خزائن الكتب الخطية في مكتبات الشرق والغرب ولم أظفر بمجموعة كاملة في خزانة واحدة ويوجد منها الجزء الثاني عشر وأوله في الباب الثامن والأربعون في مزح الأشراف والنوادر وينتهي بذكر السفلة وأصحاب المهن والسوقة وهما مخطوطان بخط قديم من مخطوطات دار الكتب المصرية تحت رقم ١٥١٤ وعندنا المجلد الثاني والخامس والثامن حتى الثاني عشر بخط واضح مؤرخة سنة ٧١٠ من مخطوطات مكتبتنا بكربلاء وتوجد أجزاء مختلفة من كتاب التذكرة في خزائن راغب باشا وعاشر أفندي باسطنبول والخزانة الوطنية في باريس ومكتبة الأسكوريال في أسبانيا وخزائن المانيا ولندن وعثر الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف على أجزائها الثلاثة الأولى بدمشق ووصفها مع ترجمة مؤلفها بالجزء العاشر من المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق وذكر شيخنا الأستاذ آغا بزرك الطهراني في الذريعة[3] المجلد الأخير وهو من مخطوطات المدرسة الفاضلية في المشهد الرضوي بخراسان ويشتمل هذا المجلد على ثلاثة أبواب منه : الباب الثالث والثلاثون في الحجج ، البالغة والأجوبة الدامغة . والرابع والثلاثون في الكبوات والهفوات والسرقات . والخامس والثلاثون في أخبار الجاهلية . وهو من موقوفات فاضل خان في سنة ١٠٦٥ وقد طبع الباب الثاني والقسم الثاني من هذه التذكرة في مصر عام ١٣٤٥ هـ ١٩٢٧ م[4] .

السيد محمد الحلي ابن السيد حسين .

ولد سنة ١٣١٩ في النجف ، وفيها نشأ ودرس قواعد اللغة العربية ، وراح يتردد على قبيلة بني ركاب في قضاء الرفاعي ، متابعاً في النجف مجالس العلماء والشعراء ، مستفيداً من ملازمة أبيه ومجلسه . وقد مارس التاريخ الشعري فأرخ بعض الأحداث الشخصية والعائلية والعامة . وهو والد الشاعر علي الحلي .

من شعره في التاريخ قوله مؤرخاً وفاة ابن عمه السيد كريم :

راح كريم نافضا كفه	من هذه الدنيا كما راحوا
واستقبل الأخرى لدى جده	ووجهه بالبشر وضاح
في جنة الفردوس إذ أرخوا	(كريم أهل البيت يرتاح)

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون : ج ١ ص ٣٨٣ .

(٢) انظر بحار الأنوار ج ١٧ ص ٢٢٣ طبع تبريز المعروفة بالأميني .

(٣) انظر الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج ٤ ص ٢٦ بيروت دار الأضواء .

(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

محمد حسين آزاد

ولد سنة ١٢٤٥ وتوفي سنة ١٣٢٨ .

عرف في المجتمع الهندي من خلال شهرته في أدب اللغة الأردوية . وكان والده محمد باقر عالماً دينياً وخطيباً بارعاً فدرس عليه الفقه الجعفري ، ثم دخل معهد (دلهي كالج) ودرس هناك فقه المذاهب الأربعة .

وكان والده قد أسس سنة ١٨٣٦ م جريدة (دلي اردو أخبار) فكان للمترجم نشاط قوي فيها حيث واصل نشر المقالات والقصائد ما أكسبه شهرة في الأوساط الأدبية والثقافية . وفي سنة ١٨٥٧ م أصبح هو المشرف على الجريدة حيث عهد إليه والده بكل شؤونها . وفي هذه السنة نفسها وقعت الحوادث المؤلمة في دلهي ، فاعدم الانكليز أباه ، واستطاع هو الخروج من دلهي تاركاً كل ما كان يملك ، وسافر إلى بمبي ولكهنو وأخذ يتنقل بين البلاد حتى استقر في لاهور ، ولضرورات الحياة عمل في إحدى دوائر البريد . وفي ٥ تموز سنة ١٨٩٩ تسلم إدارة المدرسة الثانوية الحكومية ، وتنقل في عمله بين أكثر من ثانوية ، وقد استطاع أن يقوم بنشاط ثقافي أدبي فكري واسع ، وقد تجمع لديه مما كتبه مجموعات من المقالات والقصائد الشعرية باللغة الاردوية والفارسية طبع منها بالله الفارسية كتاباً باسم (سخنندان فارس) . وبرز اسمه شخصية كبرى في المجتمعات الثقافية والمؤسسات العلمية ، وصار يشرف على عدة جمعيات إسلامية ومنتديات علمية . وعمل على ترتيب وتبويب الكتب الابتدائية في الانشاء باللغتين الاردوية والفارسية فلقيت اقبالاً ملحوظاً وقررت المدارس تدريسها ، وقد قاوم الانكليز هذا الاتجاه محاولين التقليل من الاهتمام بالأدبين الاردوي والفارسي ومحاربة انتشارهما ، فأصدر المترجم كتاب (آب حياة) الذي لقي رواجاً كبيراً بين المثقفين .

ويقول السيد مرتضى حسين صاحب كتاب (مطلع أنوار) الذي هو مصدرنا الأول في هذه الدراسات ، يقول السيد مرتضى حسين : إني وجدت في مكتبتنا في لاهور تعليقان مخطوطة للمترجم على كتب أسفار حكمة العين وشرح ملا صدرا ، وتأليف مير محمد باقر الداماد ، وهذا يدل على أنه كان متمكناً من اللغة العربية . كما وجدت في مكتبته كتب الفقه والعقائد : مثل شرائع الإسلام وشرح اللمعة وشرح التجريد ، وكتباً أخرى في السير والتاريخ والحديث ، فضلاً عن كتب العلوم العصرية . ونتيجة لنشاطاته العلمية والفكرية والثقافية والأدبية في اللغات الاردوية والفارسية والعربية صار شوكة في عيون الانكليز ، وصاروا في آخر الأمر يضايقونه ، لذلك صعب عليه التنقل من مكان إلى آخر ، وكان يضطر لقطع بعض المسافات مشياً على قدميه في الطرق الضيقة وفي خارج البلد ، حيث ضاقت الأرض عليه ، وقد تسلط عليه أحد رجال الانكليز في لاهور الدكتور لائتز وسلك كل سبيل في مضايقته ، فبدأ يعاني تعباً ذهنياً ، واضطر للتخلي عن كل نشاطاته العلمية والثقافية . وفي سنة ١٨٨٩ م فقد جميع حواسه نتيجة مكابدة الضغط الانكليزي . وكانت وفاته في شهر المحرم يوم عاشوراء سنة ١٣٢٨ المصادف ٢٢ كانون الثاني سنة ١٩١٠ .

وقد وجد في مكتبته وفي غيرها من مؤلفاته كل من الكتب الآتية :

« آب حياة » (ماء الحياة) مجموعة قصائد في اللغة الاردوية .

٢ - « نيرنگ خيال» (الفكر الجديد) في إنشاء الاردو .

٣ - سخنندان فارس (حديث الفارسي) في أدب اللغة الفارسية .

٤ - « نگارشان فارس » (أدباء الفرس) .
٥ - تذكرة علماء الهند (حالات العلماء الهند) .
٦ - ديوان ذوق (موسوعة ذوق) .
٧ - سنين إسلام (حول الإسلام) تاريخ وغيره .
٨ - نصيحت كاكرن پهول (وردة النصيحة) خطابات للبنات .
٩ - قصص هند (القصص الهندية) عدة أجزاء .
١٠ - نظم آزاد (مجموعة القصائد والأشعار) .
پپ - جامع القواعد (فارسي في قواعد الصرف والنحو) .
١٢ - لغت آزاد .
١٣ - قند بارسي (مجموعة مقالات في اللغة الفارسية) .
١٤ - أموزگار فارسي (معلم اللغة الفارسية) .
١٥ - سير ايران (سياحة ايران) .
١٦ - قم كدة ازاد (مجموعة أشعار متفرقة) .
١٧ - دارما أكبر (مسرحية أكبر) وهو أحد مشاهير ملوك الهند .
١٨ - مكتوبات ازاد (كشكول آزاد) .
١٩ - مقالات، ازاد .
٢٠ - ستة كتب باللغة الاردوية كانت تدرس في المدارس .
٢١ - الكتب الابتدائية في اللغة الفارسية كانت تدرس في المدارس .
٢٢ - شهزاده إبراهيم .
٢٣ - حكايات ازاد .
٢٤ - سفر نامه جنوب آسيا (أسفاره إلى جنوب آسيا) .

الشيخ أبو الجيش المظفر بن محمد بن أحمد البلخي الخراساني ويقال المظفر بن محمد الخراساني توفى سنة ٣٦٧ .

مر ذكره في أعيان الشيعة ج ١٠ ص ١٢٩ ونزيد على ما هنالك ما يلي :

كان من أعاظم متكلمي الشيعة ومحدثيهم مؤلفاً محققاً أخذ العلم والفنون الإسلامية عن فحول علماء عصره منهم أبو سهل النوبختي ويروي المترجم له عن أبي بكر محمد بن أحمد بن أبي الثلج كما في « الارشاد » للمفيد .

أقوال العلماء فيه

ذكره الشيخ أبو العباس النجاشي في رجاله وقال (مظفر بن محمد بن أحمد أبو الجيش البلخي متكلم مشهور الأمر سمع الحديث فأكثر . له كتب كثيرة منها كتاب قد فعلت فلا تلم ، كتاب نقض العثمانية على الجاحظ ، كتاب مجالسه مع المخالفين في معان مختلفة ، كتاب فدك ، كتاب الرد على من جوز على القديم البطلان ، كتاب النكت والأغراض في الإمامة ، كتاب الأرزاق والآجال ، كتاب الإنسان وأنه غير هذه الجملة . أخبرنا بكتبه شيخنا أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان ومات أبو الجيش سنة ٣٦٧ وقد قرأ على أبي سهل النوبختي رحمهما الله)[١] .

وذكره شيخ الطائفة أبو جعفر محمد الطوسي في الفهرست قائلاً (مظفر بن محمد بن أحمد الخراساني يكنى أبا الجيش متكلم له كتب في الإمامة وكان عارفاً بالأخبار وكان من غلمان أبي سهل النوبختي فمن كتبه كتاب المثالب سماه فعلت فلا تلم كبير وله كتاب نقض كتاب العثمانية على الجاحظ ، وكتاب الأعراض والنكت في الإمامة وغير ذلك وكان شيخنا أبو عبد الله رحمه الله قرأ عليه وأخذ)[٢] .

وقال ابن شهر آشوب المازندراني (المظفر بن محمد أبو الجيش البلخي له كتب في الإمامة منها ، كتاب المثالب سماه فلا تلم كبير ، نقض كتاب العثمانية للجاحظ ، وكتاب الإمامة ، خصال الكمال ، وكتاب نقض ما روي من مناقب الرجال)[٣] .

ونقل الشيخ محمد الأردبيلي الحائري عن النجاشي وشيخ الطائفة الشيخ الطوسي في كتابه جامع الرواة[٤] .

محمد بن أحمد الظُّلَيْمي .

توفي حوالي سنة ٣٢٠ هـ .

كان أباضياً وكان أصحابه قد أرادوا مبايعته إماماً ثم فارق الأباضية إلى التشيع ، ودعا أهله وعشيرته إلى ذلك وقد ترجمه ابن أبي الرجال وقال انه « كان من سادات القبائل (في اليمن) متبوعاً مسموع الكلمة ، مشاراً إليه في النوازل » .

وأورد ابن أبي الرجال في تركه للمذهب الأباضي واعتناق التشيع قصيدة طويلة لعبد الله بن أحمد التميمي مطلعها :

الآن قمت بدولة الإسلام ونفيت عنك عماية الإظلام
ونصرت آل محمد ونصحتهم وتركتهم في العز والإعظام
وحفظت قول الله في القربى ولم تتبع ضلالة جاهل متعامي

إلى آخرها ؛ وقال أن محمد الظليمي أجابه بقصيدة منها :

يالائمي في حبّ آل محمدٍ تباً لرأيك لات حين ملامي
كفّ الملام فقد عرفت فضائلا أرجو النجاة بها من الأثام
لمحمدٍ علم الهدى وشقيقه قمر الدجى ذي الفضل والأنعام
فرعيتها وجعلت أقصى همتي حفظ المودّة سائر الأيام
من كان أصبح راعياً في نائل فسهامهم حظي من الأقسام

مير محمد أفضل إله آبادي الملقب بلقب (ثابت) .

ولد في إله آباد (الهند) ونشأ ودرس فيها . ثم سافر إلى (شاه جهان آباد) في دهلي ، وسكن هناك في القصر الملكي مدة وجيزة ، وبإرشاد المشائخ ترك ذلك واعتزل .

كان شاعراً مجيداً ، له ديوان يحتوي على ثلاثة آلاف بيت فيها الغزل ، وفيها الرباعي والمخمس في مدح النبي (ص) والأئمة عليهم السّلام ورثاء شهداء كربلاء كما أن له ديواناً كاملاً في رثاء الحسين وأهل بيته وأصحابه تتلى

---

(١) الشيخ أبو العباس احمد النجاشي : رجال النجاشي ص ٢٩٩ الطبعة الحجرية الأولى بمبئي سنة ١٣١٧ .

(٢) الشيخ أبو جعفر محمد الطوسي : الفهرست ص ٣٣١ مشهد من منشورات جامعة مشهد .
(٣) ابن شهرآشوب المازندراني : معالم العلماء ص ١٢٤ النجف المطبعة الحيدرية سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .
(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

قصائده في مجالس (التعزية) لا سيما في الأيام العشرة الأول من المحرم .

توفي سنة ١١٥٠ في دلهي .

محمد حرز بن عبد الله .

ولد في النجف وتوفي سنة ١٢٧٧ في النجف .

درس في النجف ومهر في علوم اللغة العربية والعروض وترك مؤلفات في المنطق والحديث والأوراد .

ومن شعره قوله في رثاء الشهيد زيد بن علي بن الحسين (ع) :

ولما ارتقى ظهر المطهم وانثنى على الجيش يسطو بالحسام المهند
أراق دماء المشركين بفيصل أطال حنين الأمهات الفواقد
أطل فاهوت كالجرائم جثها سراحين حرب حاسر ومجرد
يصول بعضب لا يفل فرنده واسمر أملود وسهم محدد

وله يرثي ولده جعفر :

تشب بقلبي من لظى جعفر لواذع نار تذيب الحديدا
ويسبقني إن جرى ذكره سوافح دمع تروي الخدودا
وأظهر للناس سلوانه وجذوة قلبي تشب الوقودا
لقد عاد عيشي مر المذاق وكان بقربك عيشا رغيدا
وغصن شبابي غدا ذاويا وكان بقربك غضا خضيدا
علام بني الفت الصدود ولم تك عني تسيغ الصدودا
وبالرغم إني سكنت الديار وأنك عني سكنت اللحودا
بنفسي وجهك ذاك المضيء تجر عليه السوافي برودا
فيا ليتني كنت عنك الفدا وإني قبيلك كنت الفقيدا
أتألف بعدك عيني الهجود وهيهات تألف عيني الهجودا
أروح وأرجع صفر الأكف وأحمل هما يشيب الوليدا

الشيخ محمد حسين الأصفهاني الكمباني

ولد سنة ١٢٩٦ وتوفي سنة ١٣٦١ في النجف .

درس في النجف على كل من الشيخ حسن التويسركاني والسيد محمد الغشاركي والشيخ آغا رضا الهمذاني والشيخ محمد كاظم الخراساني وغيرهم . وتخرج في الفلسفة الإسلامية على الميرزا محمد باقر الاصطهباناتي .

وكان مشاركاً في الكلام والتفسير والحكمة والتاريخ والأدب نثراً ونظماً لا سيما في الأراجيز .

وبعد وفاة شيخه الخراساني استقل بالتدريس وغدا من أعلام النجف البارزين ، ومع تعمقه في تدريس الفقه والأصول كانت شهرته مستفيضة بتدريس الفلسفة الإسلامية .

ترك الكثير من المؤلفات ، منها : نهاية الدراية في حاشية الكفاية في جزأين طبع الأول منها وبقي الثاني مخطوطاً ، وحاشية المكاسب طبع منها جزء واحد كبير ، منظومة في الفلسفة باسم « تحفة الحكيم » ، عدة أراجيز فقهية ، ديوان شعر فارسي في مدائح أهل البيت ومراثيهم ، ديوان في الغزل العرفاني ، الأنوار القدسية وهو مجموعة أراجيز عربية في تاريخ حياة النبي (ص) وأعمامه والأئمة الإثني عشر وأولادهم . طبع في النجف مع مقدمة وترجمة مفصلة للناظم بقلم الشيخ محمد علي الأوردبادي .

وغير ذلك من المؤلفات .

محمد حسين جليل الكرمانشاهي

من أسرة معروفة بالعلم والأدب والفضل منذ أيام الصفويين .

ولد عام ١٢٩٢ وتوفي عام ١٣٩٩ هـ بكرمانشاه ، كان أديباً شاعراً فاضلاً ـ قام بتحقيق عدة كتب تراثية للفارابي وغيره[١] .

السيد محمد حسين بن السيد سعيد الطباطباني الحكيم

ولد في ١٠ ربيع الثاني ١٣٣٣ وتوفي يوم الاثنين ٢٩ ربيع الأول ١٤١٠ .

ولد في النجف الأشرف ونشأ في حجر أبيه نشأة دينية وبعد الدراسة بدأ يقرأ المقدمات والسطوح على أعلامها ثم في الفقه والأصول على الشيخ حسين الحلّي والسيد محسن الطباطبائي الحكيم والسيد أبو القاسم الموسوي الخوئي وأقام يدرّس السطوح العالية كالرسائل والكاسب والكفاية فتخرج عليه عدة من الفضلاء . وفي مساء يوم ٢٧ رجب ١٤٠٣ اعتقل مع آل الحكيم بيد الطغاة الصداميين وسجن في سجن الأمن العام ببغداد ، وعذب في السجن ، واستشهد أمام عينيه أولاد وأحفاد السيد محسن الحكيم بأمر من الطاغية صدام حسين ثم أرسل إلى إيران برسالة إلى السيد محمد باقر الحكيم من صدام حسين وزمرته ، فلما جاء إلى إيران وسلم الرسالة بقي بها حتى أخبر بنبأ استشهاد .أولاده السيد محمد رضا والسيد محمد والسيد عبد الصاحب مع أولاد عمومته بيد الطاغية صدام وزمرته فأقيمت لهم الفواتح ومجالس العزاء في مدينة قم . رايته صابراً محتسباً وقوراً في جميع الحالات وعلى جميع آلام تلك المصائب . اشتغل بالتدريس وحضر لديه عدة من الفضلاء ، بقي في قم إلى أن أصيب بنوبة قلبية فنقل إلى طهران وأدخل المستشفى فلم يلبث أن توفي فنقل جثمانه إلى مدينة قم ودفن فيها .

ومن تأليفاته تقريرات أستاذه السيد الخوئي أخبرني هو بذلك[٢] .

الشيخ المولوي محمد حسين بن الشيخ محمد باقر الدهلوي المتخلص بـ « آزاد » والمشهور بشمس العلماء والملقب بـ « آزاد الدهلوي » .

ولد في سنة ١٢٤٥ وتوفي سنة ١٣٢٨ .

من مشاهير شعراء الهند ، عالم فاضل كاتب محقق .

أخذ المقدمات وفنون الأدب العربي والفارسي من أفاضل علماء مدرسة جده في دهلي وتخرج في الفقه والأصول والحديث على رجال أسرته ووالده الشيخ محمد باقر وأخذ فنون الأدب والنثر والشعر الأردوي على الحكيم أقاجان ونبغ في الفقهين الشيعي والسني معاً .

وآل الدهلوي : من الأسر العلمية الشيعية المعروفة في دهلي ، نبغ منها علماء أعلام وشعراء أفذاذ وأول من بزغ بدره من هذا البيت الجليل هو الشيخ

(١) الشيخ محمد رضا الأنصاري .
(٢) الشيخ محمد السامي .

محمد شكوه أحد كبار مجتهدي الشيعة في عصره الذي هاجر من همذان (إيران) إلى الهند وسكن في دهلي واستقبله شاه عالم السلطان التيموري هناك والتف حوله الشيعة في الهند وكان من أئمة التقليد والفتوى وأسس مدرسة للعلوم الدينية في دهلي وكان نجله الشيخ محمد أشرف الدهلوي وحفيده الشيخ محمد أكبر الدهلوي من أكابر العلماء والمدرسين في هذه المدرسة .

شرع المترجم له بنشاطه العلمي في مدرسة جده المذكورة ثم نشر مقالاته في المجلة الأسبوعية التي أصدرها والده باسم (أخبار دهلي) وفي عام ١٨٥٧م اندلعت نيران الحركة الثورية الكبرى في الهند فهجم الهنود على داره ومكتبته ومطبعة وإدارة المجلة ونهب ما فيها وأحرق قسم منها وقتل والده الشيخ محمد باقر الدهلوي على يد المهاجمين وتمكن المترجم له من الفرار ثم توارى في المدن الهندية حتى عين استاذاً للأدب العربي في جامعة لاهور الحكومية واستاذاً في كلية الألسنة الشرقية في جامعة النجاب ومارس نشاطه العلمي ثانية في هاتين الجامعتين .

ذكره شيخنا الأستاذ آقا بزرك الطهراني في طبقات أعلام الشيعة قال : (كان من أدباء الهند الباحثين وفضلائها الأعلام وهو المشهور بشمس العلماء والملقب بآزاد له تصانيف رائعة وآثار جليلة منها سخندان فارس في تراجم شعراء العجم وآب حياة في تراجم شعراء الهند بلغة أردو ذكرنا الثاني في الذريعة الجزء الأول وقلنا هناك أنه توفي في حدود سنة ١٣٣٠ وتحقق لدينا أخيراً أن وفاته في سنة ١٣٢٨ وقد عقبنا ذكره بلفظه راجعه رمزاً لعدم اطمئنان النفس بعد بتشيعه كما هو عادتنا ولما تحقق لدينا تشيعه وتعيّنت سنة وفاته أشرنا إلى ذلك في مقال لنا نشر في العدد الثاني من السنة الثالثة من مجلة الرضوان الهندية ص ٢٧ لسنة ١٣٥٦ وقد نبهنا في ذلك المقال على بعض الهنات التي تخصّ مؤلفات رجال العلم في تلك الربوع ليكون فضلاء ذلك المحيط على علم من ذلك وليبادروا إلى إصلاح ما وقع عند ذكر تلك الكتب والله الملهم للصواب وذكرنا كتابه أيضاً في الذريعة ج ١٠ ص ٢١١ بعنوان رجال وجاء هناك عند ذكر اسمه لفظ السيد وهو زائد فليتنبه له)[١] .

يقول عبد الحسين الصالحي : توفي ليلة عاشوراء العاشر من المحرم الحرام سنة ١٣٢٨ وأسرته من الأسر المعروفة في دهلي كما أشرنا إليه وقدم ترك مؤلفات وتحقيقات هامة لم يذكرها شيخنا الأستاذ جميعها في الذريعة إلى تصانيف الشيعة وإليك بعضها : ديوان شعر كبير باسم نظم آزاد ، كتاب آب حياة في تراجم شعراء الهند بلغة أردو مطبوع في الهند ، سخن وان فارس في تراجم شعراء الفرس ، قند پارسي طبع في إيران ، جامع القواعد في تراجم رجال بلاط أكبر شاه ، ديوان ذوق مجموعة من أشعاره ، لغت آزاد ألفه بعد رجوعه من إيران ، دراماي أكبر طبع في مجلة مخزن الأهوية ، آموزكار پارسي ، سنن إسلام وغير ذلك من المؤلفات[٢] .

الشيخ محمد حسين بن معصوم البروجردي .

توفي حدود سنة ١٢٨٠ .

كانت ولادته ونشأته في بروجرد وأخذ المقدمات والسطوح على أفاضل علمائها الأعلام ثم هاجر إلى كربلاء وأخذ الفقه والأصول عن السيد محمد المجاهد المتوفى سنة ١٢٤٢ ثم حضر مع استاذه المذكور في الجهاد سنة ١٢٤٠ - ١٢٤٢ في الحرب الإيرانية الروسية آنذاك وعند رجوعه من ساحات الحرب مكث في قزوين لمواصلة دراسته وتخرج في الفقه والأصول على الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري وشقيقه الشهيد الثالث البرغاني ثم أخذ الحكمة والفلسفة عن الآغا الحكمي القزويني حتى بلغ درجة عالية في العلم والفضل ورجع إلى موطنه بروجرد وانتهى إليه كرسي التدريس والفتوى والرئاسة الدينية وكان من مراجع الأمور وأئمة التقليد هناك ذكره شيخنا الأستاذ آغا بزرك الطهراني في طبقات أعلام الشيعة وذكر مؤلفاته في موسوعة الذريعة إلى تصانيف الشيعة[٣] ومن أشهر مؤلفاته كتاب صراط الحق في أفعال العباد والجبر والإختيار والقضاء والقدر ألفه باسم السلطان محمد شاه القاجاري المتوفى سنة ١٢٦٤ وفرغ منه يوم الثلاثاء في العشر الأخير من رجب سنة ١٢٦٢ وعندنا نسخة من خط المؤلف وذكرته في كتابي كربلاء في حاضرها وماضيها[٤] .

محمد حسين نورس الدماوندي .

من الخطاطين والشعراء في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر الهجريين .

سافر في شبابه من موطنه دماوند إلى اصفهان ، وحضر درس الميرزا صائب التبريزي ، ولازم محمد زمان خان .

له ديوان شعر ، في مكتبة المتحف البريطاني يشتمل على غزليات ورباعيات ومقطعات وقصائد في مدح الأئمة عليهم السّلام ومدح الشاه سليمان وزمان خان وصفي قلي خان والشيخ علي خان اعتماد السلطنة (زنگنة) .

وتتضمن أشعاره قضايا تاريخية متعلقة بسنة ١٠٨٤ و ١١١٥ هـ وله المثنوي في القضاء والقدر . وله (ديوان نورس) المكتوب بخطه الجميل نستعليق .

وكان خطه النستعليق وشعره هما مورد رزقه . وخلافاً لشعراء زمانه كان يحاول أن يسلك في شعره الأسلوب القديم[٥] .

الشيخ محمد حسين المظفر ابن يونس

ولد سنة ١٢٩٣ في قرية الشرش التابعة لقضاء القرنة في جنوب العراق ، وتوفي سنة ١٣٧١ ونقل جثمانه إلى النجف فدفن فيها نشأ في الشرش ثم سافر إلى النجف للدراسة ومنها انتقل إلى بلدة القرنة وسكنها حتى وفاته . وكان منزله فيها منتدى الأدباء .

من شعره قوله :

أماط الدجى عن صبح طلعته الغرا	فنادى منادي الحي حي على المسرى
نـووا ظعنا والقلب بـين رحالهم	يناديهم منهلاً (قفا نبك من ذكرى)
ولما أثاروا عيسهم وحدا بها	حداها وظلت تخبط السهل والوعرا

(١) انظر نقباء البشر في القرن الرابع عشر ج ٢ ص ٥٠٠ .
(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٣) انظر الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج ١٥ ص ٣٣ بيروت دار الأضواء .
(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي .
(٥) تاريخ أدبيات إيران .

ترى صرح بلقيس إذا ما رأيتها … فتعذر من قد كان يحسبه بحرا
وقبل ارتداد الطرف تطوي صحا صحا … إذا غيرها يطوي سباسبها شهرا
وإن قدحت إخفافها جمرة الفلا … ترى شرراً كالقصر أو ناقة صفرا
لقد نشأت في سرحة هي والظبا … وما ألفت إلا المهامه والقفرا
تؤم ربوعاً أسدل الغيث فوقها … بروداً من الوسمي أنبتت الزهرا
فبين شقيق شق أحشاه مذ رأى … بعينيه عين الرند تنظره شرزرا
وبين عرار ماس تيها من الهوى … فطل عليه الطل فاحدودب الظهرا
بكى الودق حتى بلّ ردنيه دمعه … غداة رأى زهر الربى باسماً ثغراً
فمن طيبها لم تألف الورق عيرها … ألم ترها تتخذ غيرها وكرا
إلى أن أناخ الدهر فيها فصوّحت … وأمست خلاءاً بعد سكانها قفرا
فكم بتّ فيها أرقب النجم لا أرى … نديماً بها إلا غرامي والبدرا
نفض أحاديث المودة بيننا … فننثرها دراً ونسكبها تبرا

وقوله في رثاء الحسين وأصحابه :

أنجد حادي العيس أم أتهما … أم أم نجد الغور أم يمما
سار وأبقاني أسير الضنا … مرتهنا أرعى نجوم السما
لم يبق لي إلف ولا مألف … إلا حمامات به حوّما
قد شفها وجدي فناحت لما … قاسيته من ألم الما
وأشعث ثار به لا يرى … إلا الأثافي حوله جثما
حتى إذا ما الركب زمت به … كوم ترامت بالفلا أسهما
أمثال ريم راعها قانص … أو الحبارى أبصرت قشعما
من نار أحشائي جرت أدمعي … فاجتمع الضدان نار وما
لا النار تطفيها دموعي ولا … دمعي بنيران الحشى أضرما
من ناشد لي يوم تر حالهم … قلباً بنيران الأسى مضرما
أودى به فرط الجوى فاغتدى … في كل لحن يندب الأرسما
أخنى عليها الدهر من بعدما … كانت لمن وافى حماها حمى
لما انجلى عنها حسين وبالـ … ـطف على رغم العلى خيما
حفته من فتيانه عصبة … كل له الموت الزؤام انتمى
تخاله بدر على طالعاً … في أفق المجد وهم أنجما
ما بين عباس إذا قطبت … رعباً مصاليت الوغى بسما
وبين من بالخلق والخلق قد … شابه خير الأنبياء فيهما
والقاسم القاسم حق العلى … بالسيف لما عالما قد سما
فلو تراهم مذ تنادوا إلى … جيش على حربهم صمما
ترى هلالاً طالعاً في سما الـ … ـهيجاء إن بدر السما أظلما
ترى زهيراً قد نمته العلى … للقين لما سله مخذما
ترى برير البر أجرى من الأ … بطال بحراً من دم مفعما
ترى حبيباً بين أصحابه … يرتاح إن طير الوغى رمما
كل ابن هيجاء تغذى بما … تحلبه اللدن فلن يعطما
لا يأمن الخائف إلا إذا … مد إلى عليائهم سلما
والجائع العاري متى جاءهم … يكفونه الملبس والمطعما
هم عصمة اللاجي وهم ديمة … الراجي وهم كنز الذي أعدما

محمد خليل خان .

« حاجي محمد خليل خان » ابن « حاجي محمد القزويني » . من رجال المال والسياسة الإيرانيين . كان في العشر الأول من القرن الثالث عشر الهجري من كبار المتمولين في إيران ومن أعاظم تجار بندر « بوشهر » الواقع على الخليج . وفي عهد « آغا محمد خان قاجار » حصل على لقب « ملك التجار » .

كان ذكياً كيساً لبقاً حسن المعاشرة والحديث واسع الصدر في مخالطة الناس واكتساب الأصدقاء من كل الطبقات . وإذ كانت له أعمال تجارية مهمة في الهند وفي غيرها من البلدان فقد اتصل به المستر « مانستي » الإنكليزي مندوب « شركة الهند الشرقية » في « بوشهر » . وقامت بينه وبين الإنكليز علاقات ودية .

وكان أحد الخراسانيين ، واسمه « مهدي علي خان » يقيم في « بنارس » في الهند ويتولى بعض أعمال « شركة الهند الشرقية » . وقد أدى إلى الإنكليز خدمات عظيمة في سنة ١٢١٢ و١٢١٣ هـ الموافقة سنة ١٧٩٨ و١٧٩٩ م . وفي سنة ١٢١٤ هـ عينته « شركة الهند الشرقية » وكيلاً لها في « بوشهر » . وفي سنة ١٢١٥ هـ أرسلت الشركة أيضاً إلى إيران « السرجان ملكم » ممثلاً لها في « بوشهر » . وأصبح « حاجي محمد خليل خان » يعد من مستشاري‌هذين الوكيلين ومرشديهما . وأكثر الأعمال التي قاما بها في إيران كانا بعدانها ويحققانها بتوجيه منه .

في تلك الحقبة ، في سنة ١٢١٢ و١٢١٣ و١٧٩٨ و١٧٩٩ م ، كان « نابليون بونابرت » يغزو مصر ويتطلع إلى احتلال الهند . وكان « شاه زمان » ملك أفغانستان يقوم بحملات على الهند ، قد احتل « البنجاب » ويتطلع إلى احتلال « دهلي » . فكانت هذه الأمور تسبب المتاعب للإنكليز وتبعث فيهم التخوف على الهند ، مستعمرتهم الثمينة ، من هذين الغازيين .

وكان أخ لـ « شاه زمان » اسمه « محمود » لاجئاً في إيران بعد أن خرج على « شاه زمان » فهزمه هذا واضطره إلى الفرار ، ومعه أيضاً أخ آخر له اسمه « فيروز الدين » . وقد أرسلت « شركة الهند الشرقية » الميرزا « مهدي علي خان » ثم « السيرجان ملكم » إلى إيران ، كما ذكرنا آنفاً ، وكيلين لها في « بوشهر » ليقوما بمهمتين ، إحداهما حمل إيران على قطع علاقاتها بفرنسا ، إن كان « نابليون » يريد غزو الهند من طريق إيران . والأخرى حملها على مساعدة الأمير الأفغاني اللاجىء فيها بجيش يغزو به أخاه فيشغله عن الهند .

وقد نجح « الميرزا مهدي علي خان » في حمل « فتح علي شاه قاجار » على مساعدة الأمير « محمود » الأفغاني بجيش غزا به أخاه .

ولكنه لم يستطع التغلب عليه وعاد إلى إيران خائباً ، إلا أنه اضطر أخاه ، كما اضطرته تحركات عسكرية إيرانية أخرى وفتن أثارها « مهدي علي خان » في شرقي أفغانستان ، إلى الانصراف عن غزو الهند والتراجع عما احتله من أرضها ليظل مرابطاً في بلاده خوفاً من هجوم يقوم به أخوه عليه . وهذا ما كان يرمي إليه الإنكليز .

وكذلك نجح « السيرجان ملكم » في عقد معاهدة سياسية وأخرى تجارية بين إيران وإنكلترا ضمنتا تحقيق المصالح الإنكليزية بما يريده الإنكليز .

وقد بذل وكيلا « شركة الهند الشرقية » الميرزا « مهدي علي خان » و « السيرجان ملكم » في هذا السبيل أموالاً وافرة في إيران رشاوى للشاه

« فتح علي » وسائر المسؤولين .

ويبلغ ما بذله « جان ملكم » مائتي ألف وسبعين ألفاً وثلاثة آلاف ليرة ذهبية . يقول « السير هارفورد جونز » سفير إنكلترا في إيران يومئذ في كتاب له عن تاريخ سفارته في هذا الموضوع : « أصبح كرم الشعب الإنكليزي مضرب المثل في إيران . والعامة فيها أصبحوا يعدون الحصول على المال من ذلك الشعب من أسهل الأمور » .

ويبلغ من انقياد « فتح علي شاه » للسياسة الإنكليزية أن أقدم ، بعد عقده تينك المعاهدتين الخاسرتين ببضعة أشهر ، على قتل الصدر الأعظم « إبراهيم خان اعتماد الدولة » وذويه قتلة فظيعة ، إذ كان هذا الصدر أدق نظراً وأكثر خبرة وأبعد فهماً في الأمور السياسية من غيره . فهب خصومه من كل جانب يدسون عليه الدسائس ويوغرون عليه صدر الشاه ليزيحوه من طريقهم ، حتى قتله .

في سنة ١٢١٥ ، إذ تمكن « السير جان ملكم » من عقد تينك المعاهدتين ، أنعمت الحكومة الإيرانية على « حاجي محمد خليل ملك التجار » بلقب « خان » ومنحته كل الامتيازات والتشريفات التي تجعله أحد رجال الدرجة الأولى في المملكة . وعينته سفيراً لها في الهند . فلما عاد « السير جان ملكم » إلى الهند صحبه معه إليها . وتكفل « حاجي محمد خليل خان » بنفقات السفارة كلها ، يعطيها من ماله الخاص . وأعدّ حاكم « بمباي » بأمر من حاكم الهند العام ، استقبالاً فخماً له في « بمباي » . وأمر الحاكم العام أحد كبار الموظفين الإنكليز في « كلكته » المستر « ريشار ستريتشي » بالسفر إلى « بمباي » ليكون السفير الإيراني ضيفاً عليه . ووصل « حاجي محمد خليل خان » إلى « بمباي » يوم ٢٨ المحرم سنة ١٢١٧ الموافق ٢٢ أيار (مايس) سنة ١٨٠٢ م .

وأقام الحاكم على باب المنزل الذي خصص لإقامته مائتي جندي وأربعة ضباط من الهنود للحراسة . واتفق يوماً أن أطلق بعض خدم « حاجي محمد خليل خان » الرصاص على بضعة طيور كانت تحط على أغصان الشجر في حديقة البيت فقتلوها . واستاء الجنود من هذا العمل لأنه محرم في شريعة الهنود ، وأدى ذلك إلى جدال ونزاع بين الخدم والجنود . وسمع « حاجي محمد خليل خان » الضجة فخرج إليهم يستطلع الخبر ثم أخذ يحاول إنهاء الخلاف وإصلاح ما بين الطرفين ، وفيما هو في ذلك إذا برصاصة تصيبه فتقتله . وكان مقتله في تموز من تلك السنة بعد وصوله بثمانية وأربعين يوماً .

وأهمت هذه الحادثة أولياء الأمور في الهند كثيراً ، وأعلنت الحكومة الهندية الحداد رسمياً ، وأعلن هذا الحداد بإطلاق بضعة قذائف مدفعية من إحدى قلاع « كلكته » ، وألغيت جميع الاحتفالات والمآدب الرسمية . وتلقت الأوساط العسكرية والمدنية النبأ بالخوف والجزع ، وعم الحداد مدينة « بمباي » كلها ، وكذلك « كلكته » و « مدراس » . ولم تترك حكومة الهند وسيلة ممكنة إلا استعملتها لإثبات أسفها وجزعها وحزنها من هذه الحادثة . وأرسل الحاكم العام اللورد « ولزلي » سكرتيره الخاص « السير جان ملكم » إلى إيران لمباحثة ورثة القتيل في هذا الموضوع . وأرسل أيضاً أحد كبار رجاله اسمه المستر « لوويت » برسالة إلى الشاه لتوضيح الحادثة وإظهار الأسف . وأدت حكومة الهند ، أي « شركة الهند الشرقية » ، دية ضخمة إلى ابن القتيل « محمد إسماعيل خان » وعينت له الحكومة الإنكليزية راتباً شهرياً مدى الحياة . وكذلك منحت الشركة الشاه والوزراء مبالغ كبيرة من المال .

السيد محمد رضا فضل الله

مرت ترجمته في المجلد التاسع من (الأعيان) وقد عثرنا له على قصيدتين ننشرهما فيما يلي :

جريء على الأيام من لا تهمه
حوادث دهر كل يوم تلمه
وذو عزمات ضاقت الأرض دونها
إذا جل يوماً حادث جل همه
وما المرء كل المرء إلا ابن نجدة
يروع قلب الدهر إن جار حكمه
ولم تزر فيه وصمة من زمانه
كما السيف لا يزري بمعناه وصمه
ولا عودة يعطي الليان لغامز
وإن طال فيه الغمز أو طال عجمه
ولا يحدثن في خلة الناس مطمعاً
فما خلة في الناس إلا تغمه
فكم من صديق قلت إني ملكته
ورغمي في ضيق الملمات رغمه
فلما رميت الظن منه بحاجة
نأى وإلى العيوق حلق نجمه
ألم يدر أن الحظ أخطأ أهله
وقد طاش فيما رام يا سعد سهمه
ولم يدر أني لست أعرى من التي
بها يكتسي من فاضل العيش جسمه
وأن أديمي مخصب النبت مونق
ولم يعف رسمي مثلما بان رسمه
فما الناس إلا الأفعوان فشمه
لبان وفيه مخبأ لك سمه
فكم قد غضضت الطرف منهم على قذى
وداويت جرحاً سال بالأمس دمه
وسالمت ذي ضغن طوى كشح ضغنه
وأعرضت عنه بعدما بان جرمه
إذا لم يظفرك الزمان بحاجة
وقد بان فيما تبتغي لك ظلمه
فكن جانحاً للسلم إن كان جارياً
بعكس المنى أمر الإله وحكمه
وحتى متى أطوي الضلوع على جوى
وضم زفير يصدع القلب ضمه
ومالي أشيم البرق من أيمن الحمى
وعرف المنى في كل آن أشمه
أما آن للظمآن ريّ من الصدى
ومنهله بالماء يطفح جمه

بلى انّ مُشتاقاً أضرّ به الجوى
وفاجاه من شوقه مُدلَهِمُّه
جديرٌ بأن لا يُحدثَ الماء ريه
إذا كانت الآمال لا تُستَجِمُّه
الا ليست لي من بارد العذب نهلةٌ
أداوي بها قلباً تطاول غمُّه
وكم ليلةٍ أفنيتُها أرقبُ الدُّجى
وما مالَ عن هام المجرَّة نجمه
وأنشق من نحو الغريين نفحةً
وعرف نسيم يفضَحُ الطيب نسمه
وطرفي ولوحٌ في شآبيب دمعه
ولولا الأسى والشوق ما فاض سجمه
وابلج وضّاح كأن جبينه[1]
به لاح من بدر الدجنه تمُّه
وفرعٌ تسامى من ذؤابة هاشمٍ
له المجد كسبٌ والمفاخر غنمه
تلفُّ بعرقي عرقه وتلُمُّني
جراثيم عزٍ في المعالي تلمُّه
فكم طلباتٍ جازها في رهانه
وكان له القدح المُعلّى وسهمه
سقى الله ربعاً بين سمنان فالنقا
وبين الكثيب الفرد لم يعف رسمه
من المُزن دلاح الحيا كل غدوةٍ
يباكرها نفنافها ويؤمُّه

وقال يرثي طفلاً له :

كفى الطرف ما يهمي به من غروبه   وحسب فؤادي ما لقي من وجيبه
وهيهات أن ترقى الدموع وفي الحشى   من الحزن جمرٌ ساطع في . . لهيبه
تباريح بين في الفؤاد . . يُثيرُها   فراق حبيب قد نأى عن حبيب
فيا نازحاً عني وفي القلب ساكناً   أيسلوك مني القلب يا ساكناً . . . به
ضنيتُ فلو . . هبَّ النسيم ومرَّ بي   لطار . . بجثماني مرور . . هُبوبه
وتسعدني الورق الهتوف بنوحها   إذا أسدل الأظلام ضافي جيوبه
تُطارحني بالنوح شجواً وطرفها   قديرٌ وطرفي سائل في غروبه
أياه باسقاً فرعاً فما افترّ باسماً   بنواره حتى ذوى في . . كثيبه
ويا كوكباً ما لاح في الأفق مُشرقاً   بأنواره حتى دنا لغروبه
بدا . . مُشرقاً وهناً وأسرع آفلاً   فإشراقه لم أدرِه من مغيبه
فقدتك غصناً مفرداً في أرومتي   رطيباً كميّاس العرار رطيبه
فقدتك ريحاناً . . وروحاً . . وراحةً   إذا ضاق من صدري فسيح رحيبه
وروضاً . . إذا ما صدَّع الهم خاطري   أميل له مستنشقاً عرف طيبه
فبعدك قد ضاقت عليَّ مذاهبي   واسدل دهري حالكات كروبه
فلا . . يبعدنك الله يا فضل إنني   رجوتك من دهري لدفع خطوبه
عداك الرَّدى مالي ومالك والردى   فمنك الردى قد . . نال أوفى نصيبه

مضيت رهين الترب تحت صفائح   يُهَمْهِمُ قفرٌ من نواحي شعوبه
به رُحتَ مُغبرَّ الجبين وطالما   جلته يدُ التنعيم مسحاً . . بطيبه
غريباً عن الأهلين ناء محله   فِداً . . لك من ناءِ المحل غريبه
مزارك دانٍ وهو في غاية النوى   فِداً . . لك من ناء المزار قريبه
لئن كان دهري ابتزّك اليوم من يدي   فما . . ذاك إلاّ . . من أقل ذنوبه
عجائب من دهري أراها ولم يزل   يفاجؤني من صرفه . . بعجيبه
يرينا مساوي عيبه كل ساعة   عياناً ويعمى عن مساوي عيوبه

وهذه الأبيات مر بعضها في ترجمته وننشرها هنا كاملة وهي في جواب رسالة :

ما روضةٌ من رياض الحزن باكرها   نفناف غيث من الوسمي سحاح
وراوحتها عهاد المذن سائلة   بعارضٍ من ملث السودق دلاح
وخفقتْ في رُباها غير عاصفة   بها النسائم من روح وأرواح
وأيقظتها فقامت في منابتها   تزهو على ساقها بالمنظر الضاحي
ولاعبتها الصَّبا فافترّ مبتسماً   ثغره الكمائم عن وردٍ وتفاح
تقابل الزهر فيها وهو مزدوج   وراح يرنو بطرف غير طمّاح
من أحمر ناصع أو أبيض يقق   أو أصفر فاقع للعين لمّاح
أذكى وأطيب أنفاساً إذا عبقت   عند الصباح بها أنفاس أرياح
من نشر مالكة أمست صحائفها   تطوى على عبق بالمسك نفاح
قد ضمنت درراً في سلكها وصوت   راحاً مشعشعةً في وسط أقداح
إذا . . تغنى بها الغريد في ملأ   أغنت عن الماء والريحان والرّاح
أو رجع اللحن فيها راح سامعها   مرنّحاً ليس بالنشوان والصّاحي
أو حكم الهزج المثنى فليس له   إلاّ . . الوقوف وصفق الراح بالراح

ومن اخوانيات ذلك الزمان قصيدتان نظمتا في تهنئة السيد محمد رضا بزفافه سنة ١٣١٧ الأولى للسيد إبراهيم الطباطبائي والثانية للشيخ عبد الكريم الزين نأخذ منهما ما يلي :

فمن قصيدة الطباطبائي :

أنت المقدم في العلى   لا من تقدَّم أو تخلّف
قد جئتنا فرداً فمن   قد جاء بعدك جاء مُرْدَف
ولد شمخت بموقف   ارغمت فيه أنوفَ آنُف
لا بل قطعت حجازها   وتركتها للخُفّ رُعّف
يا محرزاً قصبَ العوالي   الصُّم بالقصب المُجوَّف
قلم بريق رضا به   عَلقاً على الورق المزخرف
عريان من دنسٍ تجرد   نازع الشبهات مُترَف
ومُرجَّف بين الأنامل   إن أقر كذاك أرْجَف
حلّقت بالمعنى الرشيق   وسفَّ ذو اللفظ المُسفَّف
جودٌ ولا لمحلقٍ   أو حاتم الطائي يُعرف
وشجاعة في عامرٍ   قد غبّرت في ملتقى الزُّحّف
وحجى إذا وازنته   في حلم أحنف طاشَ أحنف
والباعث الخيل العتاق   كأنها العقبان خُطَّف
أنتَ السري لكل ركبٍ   سُرى تسرع أو توقف

---

(١) إشارة إلى ابن عمه السيد نجيب فضل الله .

ومن قصيدة الشيخ عبد الكريم الزين :

أنتَ المقدم عند كل عظيمةٍ
وإليك أبكار المكارم تنتمي
لك صهوة المجد التي لا تُرتقى
بالفكر يوماً لا ولا بتوهم
ولك السيادة والرياسة فاحتكم
ما شئت في هذا الزمان أو احكم
أنيّ يُباريك العدو وشأوه
دانٍ وشأوك بالمحل الأعظم
حلقت في أفق المعالي سابقاً
وكبا عدوك لليدين وللفم
وإذا تصاغرت العقول لِمُشكلٍ
كنتَ المقدم فيه غير مُلوَّم
أخلاقُ أحمدَ والوصي المرتضى
أوتيتها طبعاً بغير تعلم
علمٌ وحلم في تُقى وزهادة
وعفاف نفس في ندىً مُتقسم
رأيٌ يريك الغيب في جنباته
كالصبح يطلع في السرار الأقتم
ومواهبٌ كالبحر عبٌّ عبابه
مُتلاطم لا كالغمام المرزم
مطعام عدنان الندى مطعانها
وزعيمها والخيل تسبح بالدم
حيث الفوارس بالفوارس تلتقي
والسمر تضطرب اضطراب الأرقم
والنقع داج والسيوف لوامع
والطير بين مُوَمٍ ومُخيِّم
الواهبُ العشر المئين قلائصا
عفواً ولم يمنن ولم يتندم
خوف الجبان تخاف ربك في الخلا
وإذا تكون ملمة كالضيغم
قلم بكفك صامتٌ مُتكلم
في مثل آيات الكتاب المُحكم
كم خطبةٍ غرا وموقف حكمة
لك في القلوب نوافذ كالأسهم
يعنو اللبيبُ لها ويمضي حاسد
في مهجةٍ حرّى وانفق مُرغم
هذي الشريعة سلمتك قيادها
دون الورى من معرق أو مُشئم
كم رامها المتشدقون سفاهةً
خبط الغبي سوى بليل مُظلم
ونهضت مضطلعاً بها وفلجتهم
وقطعت شقشقة الألد الأخصم
ولَرُبَّ مشهورٍ بألسنة الورى
والله يعلم أنه لم يعلم
يقتاد أمة أحمد فيضلها
ويصدُّ عن سُنن النبي الأكرم
ولربَّ مغمور يبيت وعلمه
كالبحر تطفح ضفتاه إلى الفم
متبتلاً لله في غسق الدجى
والشوق يقدح كالزناد المضرم
يا راكباً بحراً أموناً بازلاً
تطوي السباسب مُحرماً في مُحرم
إنْ جئت عيناثا بغربي الحمى
فاحبس على تلك الربوع وسلم
هنَّ الجحاجح من أرومة هاشمٍ
من كل قرمٍ كالهزبر المقرم
الطاعنين بكل أسمر ذابل
والضاربين بكل أبيض مخذم
يحدو الركابَ ثناهم وسناهم
يهدي الركاب إلى الطريقِ الأقوم
يكفيهم فخراً إذا عقدوا الحُبا
وتناضلوا حول الحطيم وزمزم
أنَّ النجيب[1] لهم وليس لغيرهم
مثل النجيب لمنجدٍ أو مُتهم

ميرزا محمد رضا الهمداني الملقب بقزلباش خان والمشتهر في أشعاره بـ (أمير) .

من شعراء القرن الثاني عشر ، ولد في مدينة همذان بإيران ، وفي مطالع حياته سافر إلى اصفهان وحضر مجلس الميرزا طاهر الوحيد ، ودرس الأدب على مير نجاة . وفي نهاية عهد أورنك زيب (١٠٦٩ ـ ١١١٨) سافر إلى الهند فعهد إليه ببعض المناصب وفي عهد قطب الدين بهادر شاه (١١١٩ ـ ١١٢٤) لقب بـ (قزلباش خان) ، وفي عهد محمد معز الدين جهان دار تدخل في مشاحناب امراء الدولة بشأن الدكن ثم أصبح ملازماً لمبارز خان ، ناظم حيدر آباد الدكن . وفي حرب بين مبارز خان ونظام الملك آصف جاه أسر المترجم ، ولكن آصف جاه عفا عنه وصار ملازماً له . وفي سنة ١١٥٠ في عهد ناصر الدين محمد شاه (١١٣١ ـ ١١٦١) وافق آصف جاه إلى لقاء شاه جهان آباد . ومن ثم عاش في دهلي وتوفي فيها سنة ١١٥٩ .

وكان إلى شاعريته مِن كبار الموسيقيين في عصره . ومع ما حازه من مناصب في الحكم كان شديد الحنين إلى مسقط رأسه يود الرجوع إليه .

ديوانه المعروف باسم (أميد) يحتوي على قصائد في مدح النبي (ص) والإمام علي (ع) ، وناصر الدين محمد شاه وذو الفقار خان بن أسد خان من وزراء عهده . وفيه كذلك الغزل والخماسيات والرباعيات . وهو محفوظ في المكتبة البريطانية ، ومنه نسخة في المكتبة الوطنية بباريس ، ولا يتجاوز ما فيه

(١) هو السيد نجيب فضل الله .

الـ ٤٧٠٠ بيت . كما أن له منظومة باسم (كارستان) محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس[١] .

السيد الميرزا محمد رضي المعروف بـ (رضي آرتيماني) ويقال ميرزا رضي آرتيماني .

توفي سنة ١٠٣٨ ودفن في الخانقاه الذي بناه في شمال بلدة تويسركان وقبره مزار معروف هناك .

من مشاهير شعراء العصر الصفوي وأكابر العرفاء وأقطاب الصوفية وهو أديب متفنن .

ولد في قرية آرتيمان من أجمل القرى في سفوح جبال جنوب الوند من ضواحي بلدة تويسركان في محافظة همدان . ولم أقف على تاريخ ولادته .

أخذ المقدمات والعربية وفنون الأدب على أفاضل علماء عصره في تويسركان ثم توجه إلى قزوين وتخرج على أعلامها وانضم إلى بلاط الشاه عباس الصفوي في قزوين وعندما انتقلت العاصمة في سنة ١٠٠٠ من قزوين إلى أصفهان استقر في أصفهان وكان من كتاب بلاط الشاه عباس (٩٩٦ - ١٠٣٨) ويعتبر من نوابغ الشعراء وغزلياته ورباعياته معروفة يرددهما العام والخاص في إيران ، ورواد الأدب الفارسي في سائر بلدان العالم وقد اشتهر بمثنويته المعروفة باسم ساقي نامة ومطلعها :

الهى بـه مستـان ميخـانـه ات	بـه عقـل آفـريـنـان ديـوانـه ات
به درى كه عـرش است اوراصدف	بـه سـاقى كـوثـر بـه شاه نجف

وجاء في خاتمتها :

رضى روز محشر عـلي ساقي است	مكن تـرك مي تـا نفس بـاقي است

ذكره رضا قلي خان هدايت المتوفى سنة١٢٨٨ في كتابه رياض العارفين وقال : (رضي آرتيماني قدس سره اسمه الشريف الميرزا محمد رضي كان من السادات العظماء في قرية آرتيمان من نواحي تويسركان التابعة لمحافظة همدان من أجلاء السادات والعلماء ذوي الذوق السليم وأكابر العرفاء الأفاضل له يد في المعارف الالاهية حيث طبقت شهرته الآفاق وعم صيته في المدارج العرفانية كان من المعاصرين للشاه عباس الصفوي وهو والد الشاعر الشهير الميرزا إبراهيم المتخلص بأدهم ويحتوي ديوانه على ألف بيت . . .)[٢] .

ثم ذكر قسماً من شعره وفصّل عنه معصوم علي شاه في كتابه طرائق الحقائق الجزء الثالث الصفحة (٥٧٣ - ٥٧٦) وقال الميرزا محمد طاهر النصرآبادي في كتابه تذكرة نصرآبادي الذي ألفه سنة ١٠٨٣ وذكر فيه شعر العصر الصفوي ووصفه بأنه من أعاظم العرفاء النابهين وذوي الصلاح والتواضع مع زعامته ورياسته . ثم أدرج قسماً من أشعاره وغزلياته ورباعياته[٣] .

(١) تاريخ أدبيات إيران .
(٢) رضا قلي خان هدايت : رياض العارفين ص ١١٩ تحقيق مهر علي كركاني منشورات محمودي الطبعة الأولى .
(٣) انظر تذكرة نصرآبادي ص ٢٧٣ منشورات مكتبة فروغي (طهران) .

ذكر الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة في كتابه منتظم ناصري تاريخ وفاته في ذيل حوادث سنة ١٠٣٧ والصحيح ما ضبطناه في سنة ١٠٣٨ لأنه مدح في قصيدته السلطان صفي شاه الصفوي المتوفى سنة ١٠٥٢ والذي جلس على العرش الصفوي سنة ١٠٣٨ ومن البدهي أنه كان حياً حين استلم العرش الصفوي السلطان صفي شاه ومدحه وهنأه .

وهو والد الشاعر الشهير إبراهيم المتخلص بـ (أدهم) - كما تقدم - وجد الميرزا محمد هاشم ارتيماني وقال المولوي محمد مظفر حسين صبا في كتابه روز روشن في ترجمة حفيد المترجم له : (ميرزا محمد هاشم ارتيماني ابن الميرزا رضي بن الميرزا إبراهيم أدهم . . .)[٤] وهو غلط والصحيح أن الميرزا محمد هاشم المعروف بـ (دل) هو ابن إبراهيم أدهم بن الميرزا رضي ارتيماني ذكره ملا عبد النبي في تذكرة ميخانه الذي ألفه في سنة ١٠٢٨ في ص ٩٣٧ وشيخنا الأستاذ آغا بزرك الطهراني في موسوعة الذريعة إلى تصانيف الشيعة القسم الثاني من الجزء التاسع من آثاره ديوان منه نسخة في مكتبة ملك الوطنية في طهران تحت رقم (٤٥٦٨) يحتوي على ألف ومائة بيت وإذا أضفنا إليه قصائده ورباعياته فالمجموع ألف وخمسمائة بيت[٥] .

محمد بن رمضان

قال القاضي النعمان أنه شاعر شيعي من قرية (نفطة) بالجريد (تونس) . وكانت نفطة هذه تعرف بـ (الكوفة) الصغيرة لتشيعها وقد عاش هذا الشاعر في عصر إبراهيم الثاني الأغلبي الذي تأمر من سنة ٢٦١ إلى سنة ٢٨٩ .

احتمى هذا الشاعر من جور الولاة الأغالبة فالتجأ إلى بني مالك في (بلزمة) فصنع لهم الأغلبي وليمة وغدر بهم فقتلهم قتلاً قبيحاً . وقد فصل الخبر ابن عذارى في أحداث سنة ٢٨٠ .

وبعد قيام الدولة الفاطمية عين عبد الله المهدي هذا الشاعر على قضاء (ميلة) .

قال محمد بن رمضان يذكر الواقعة :

جل المصاب لئن كان الذي ذكروا	مما أتتنا بـه الأنبـاء والخبر
عن ألف أروع كالآساد قد قتلوا	بساعة في سواد الليل إذ غُدروا
لو كان من بيّت الآساد أيقظهم	حلت بـه منهم الأحداث والغير
قل لابن أحمد إبراهيم مألكة	عن الخبير بما يأتي وما يذر
عن المشرد في حب الأئمة من	آل النبي وخير الناس إن ذكروا
اعلم بأن شرار الناس أطولهم	يداً بمكروه غدر أن هم قدروا
لا سيما الجار والضيف القريب ومن	أعطوه ذمتهم من قبل ما خَفَروا
فما اعتذارك من عار ومنقصة	أتيتها عامداً إن قمت تعتذر
جرعت ضيفك كأساً أنت شاربها	عما قليل وأمر الله ينتظر
فدولة القائم المهدي قد أزفت	أيامها في الذي أنبابه الأثر
عن النبي وفيها قطع دولتكم	يا آل أغلب فارجوا ذاك وانتظروا
وقطع أمر بني العباس بعدكم	وقطع أمر بني مروان إذ بطروا

(٤) انظر تذكرة روز روشن ص ٢٦١ منشورات مكتبة الرازي (طهران) .
(٥) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

ومن شعر ابن رمضان قوله :

سلاظبية القناص أين احتلالها	فقد هاجني تقتيرها وامتذالها[١]
لعل التي عنها تفرق أهلها	فبادت مغانيها وطال اختيالها
فقد عن الدار التي بان أهلها	وعن كيف من بعد البلى صار حالها
أرقت لها من بعد أن نام إنسها	خناطيل آرام الضبا وجمالها[٢]
فهذا أوان الحق قد حان حينه	ودولة آل البغي آن زوالها
كأني بشمس الأرض قد طلعت لنا	من الغرب مقروناً إليها هلالها
فيملأ أرض الله قسطاً بعدله	بما ضم منها سهلها وجبالها
وآمن فيها ما أخاف واتقي	وأظفر بالزلفى به وأنالها

الشيخ أبو عبد الله محمد بن زكريا بن دينار الجوهري الغلابي البصري .

توفي سنة ٢٩٨ .

من أئمة الحديث وشيوخ علماء الشيعة في البصرة وكان اخبارياً واسع العلم ، من وجوه أصحابنا ، مولى بني غلاب .

بنو غلاب : من القبائل العربية الشيعية المعروفة بالبصرة وهم بطن من بني النُّضر بن كنانة العدنانية وقيل بني النضر بن معوية نبغ من هذه القبيلة علماء أعلام منهم المترجم له .

أخذ العلم والمعارف الإسلامية عن جماعة من أكابر علماء عصره وأخذ الحديث عن جعفر بن محمد بن عمارة عن جابر بن يزيد الجعفي كما في بعض (أسانيد كتاب التوحيد) ويروي أيضاً عن عباس بن بكار الضبي وعن أحمد بن عيسى بن زيد . وله كتاب يروي فيه عن كتابه في (عيون المعجزات) .

تصدر المترجم له كرسي التدريس والفتوى وتخرج عليه جماعة كثيرة ، يروي عنه الأخباري الشهير الشيخ أبو أحمد عبد العزيز بن يحيى الجلودي المتوفى سنة ٣٣٢ ويروي عنه أيضاً أبو سعيد الحسن بن علي العسكري وأحمد بن إبراهيم بن معلّى بن أسد القمي ويروي عنه الشيخ أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري مؤلف كتاب (السقيفة وفدك) الذي روى عنه ابن أبي الحديد في شرح كتاب أمير المؤمنين إلى عثمان بن حنيف من (نهج البلاغة) .

ذكره الشيخ أبو العباس أحمد النجاشي في رجاله ووصفه بعد ذكر اسمه (. . . وبنو غلاب قبيلة بالبصرة من بني نضر بن معوية وقيل أنه ليس بغير البصرة منهم أحد وكان هذا الرجل وجهاً من وجوه أصحابنا بالبصرة وكان اخبارياً واسع العلم وصنف كتباً كثيرة وقال لي أبو العباس ابن نوح أنني أروي عن عشرة رجال عنه . . .)[٣] ونقل عنه الشيخ محمد الأردبيلي الحائري في كتابه جامع الرواة ج ٢ ص ١١٤ وذكره شيخنا في طبقات أعلام الشيعة وأدرج مؤلفاته في موسوعته الذريعة إلى تصانيف الشيعة[٤].

(١) احتلالها : نزولها المكان . والامتذال : الضجر من الشيء وطلب غيره .

(٢) قراءة العجز عسيرة . والخناطيل مفردها : خنطولة وهي القطيع من الابل .

(٣) الشيخ أبو العباس أحمد النجاشي : رجال النجاشي ص ٢٤٤ الطبعة الحجرية الأولى ببمبيء عام ١٣١٧ .

(٤) انظر نوابغ الرواة في رابعة المئات ص ٢٧١ : والذريعة إلى تصانيف الشيعة ج ١ ص ٢٧٥ وص ٣٣٢ وص ٣٤٣ وج ٥ ص ١٤١ وج ١٥ ص ٥٢ وج ٢٢ ص ٢٨ .

ذكره ابن حجر في لسان الميزان وقال وثقه ابن حبان وهو ضعيف .

أقول : اما قول ابن حجر أنه ضعيف فذلك لتشيعه . قال ابن حجر : (محمد بن زكريا الغلابي البصري الأخباري أبو جعفر عن عبد الله بن رجاء الغداني وأبي الوليد والطبقة وعنه أبو القاسم الطبري وطائفة وهو ضعيف وقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال يعتبر بحديثه إذا روى عن ثقة وقال ابن مندة تكلم فيه وقال الدارقطني : يضع الحديث .

ونقل ابن حجر روايات متعددة من المترجم له ورد عليه لتشيعه[٥] .

وقد ترك المترجم له مؤلفات كثيرة منها :

١ ـ كتاب الجمل الكبير ، كتاب الجمل المختصر ، كتاب صفين الكبير ، كتاب صفين المختصر ، كتاب مقتل الحسين (ع) ، كتاب النهر ، كتاب الأجواد ، كتاب الوافدين ، كتاب مقتل أمير المؤمنين (ع) ، كتاب أخبار زيد (ع) ، كتاب أخبار فاطمة ومنشؤها ومولدها (ع) ، كتاب الجيل[٦] .

الأمير السيد شهاب الدين محمد بن أبي سعيد زيد بن حمزة العلوي الحسيني البيهقي .

توفي في حدود سنة ٥٦٣ في نواحي جاجرم من توابع بيهق .

من علماء الشيعة في بيهق وأكابر سادات العلويين في تلك النواحي . أديب شاعر حافظ مفسر ولد في قرية ستاربد من توابع پشاكوه في ضواحي بيهق وأخذ العلم والأدب من أفاضل علماء عصره في تلك النواحي . ذكره الشيخ أبو الحسن علي بن زيد البيهقي المعروف بفريد الخراساني المتوفى سنة ٥٦٥ في كتابه تاريخ بيهق ووصفه بالسيد العالم وأحال تاريخ اسرته ونسبه إلى كتابه (لباب الأنساب) ثم ذكر قسماً من شعره[٧] ونقل عنه شيخنا في طبقات أعلام الشيعة[٨] . له قصيدة منها :

جلت الهموم عن القلوب وزارة	علوية صدر المعالي صدرها
شرقية غربية خضعت لها	صيد الورى لما تقرر أمرها
لقياك علياها وعيشك فخرها	وذراك حاميها وعمرك عمرها
نفرت بغاث الطير عن ارجائها	لما طلعت لها لأنك صقرها

خلف ولده العالم الفاضل الأديب الحافظ السيد محمد البيهقي[٩] .

الشيخ أبو علي محمد بن سعدويه البيهقي .

لم أقف على تاريخ ولادته ووفاته إلا أنه كان من أكابر علماء الشيعة وفحول المحدثين في القرن الرابع للهجرة في مدينة بيهق ولد في قرية نزل آباد من قرى بيهق وأخذ العلم والفنون الإسلامية على جماعة من أفاضل عصره ثم تصدى للتدريس . وذكره ابن الفندق المتوفى سنة ٥٦٥ في كتابه تاريخ بيهق ووصفه بكثير الرواية ولم يذكر تاريخ ولادته ووفاته وأورد روايته بثلاث وسائط

(٥) انظر لسان الميزان ج ٥ ص ١٦٨ ـ ١٦٩ طبعة عام ١٣٣١ حيدرآباد .

(٦) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٧) الشيخ أبو الحسن علي بن زيد البيهقي : تاريخ بيهق تحقيق أحمد بهمنيار ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ طهران مطبعة كانون عام ١٣١٧ شمسية .

(٨) انظر الثقات العيون في سادس القرون ص ٢٦٤ بيروت دار الكتاب العربي .

(٩) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

عن الإمام جعفر الصادق (ع) آخرهم عيسى بن موسى الأنصاري[1] ونقل عنه شيخنا آغا بزرك الطهراني في كتابه طبقات أعلام الشيعة وقال : وروايته بثلاث وسائط عن الإمام الصادق آخرهم عيسى بن موسى الأنصاري الذي ليس له ذكر في كتب الرجال نعم جاء في باب المكاسب من (التهذيب ص ١٠٣) سؤال عيسى بن موسى عن الصادق (ع)[2] .

الشيخ محمد سعيد الإسكافي ابن الشيخ محمود .

ولد في النجف سنة ١٢٥٠ وتوفي سنة ١٣١٩ في كربلاء .

درس في النجف واتقن اللغة الفارسية ، وكان سريع البديهة يرتجل الشعر . وبعد النجف استقر في كربلاء .

من شعره يرثي الحسين (ع) من قصيدة :

ومذ عاد فرد الدهر فرداً ولم يجد ... له منجداً إلا الحسام المصمما
رمى الجيش ثبت الجاش منه بفيلق ... يرد لهام الجيش أغبر أقتما
وكر ففرت منه عدواً جموعهم ... فرار بغاث الطير أبصرن قشعما
تقاسم منه القلب والطرف فاغتدى ... بكافح أعداء ويرعى مخيما
تناهبه بيض الظبا فكأنما ... غدا الحدود البيض فيئاً مقسما
فأضحى لقى في عرصة الطف شلوه ... ترض العوادي منه صدراً معظما
ويهدى على عالي السنان برأسه ... لأنذل رجس في أمية منتمى
وينكته بالخيزران شماتة ... يزيد ويغدو ناشداً مترنما
(نفلق هاماً من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما)
فشلت يداه حين ينكت مرشفا ... لمرشف خير الرسل قد كان ملثما
ولهفي لآل الله بعد حماتها ... وقد أصبحت بين المضلين مغنما
إذا استنجدت فتيانها الصيد لم تجد ... برغم العلى غير العليل لها حمى
تجوب به أجواز كل تنوفة ... وتسبى على عجف المصاعب كالإما
حواسر من بعد التخدر لا ترى ... لها ساتراً إلا ذراعا ومعصما
وزينب تدعو والشجى يستفزها ... أخاها ودمع العين ينهل عندما
أخي يا حمى عزي إذا الدهر سامني ... هوانا ولم يترك لي الدهر من حمى
لقد كان دهري فيك بالأمس مشرقا ... فها هو أمسى بعدك اليوم مظلما
وقد كنت لي طوداً ألوذ بظله ... وكهفا متى خطب ألم فألما
ادير بطرف لا أرى غير أيم ... تجاوب ثكلى في النياحة أيما
رحلت وقد خلفتني بين صبية ... خماص الحشا حرى القلوب من الظما
عدمت حياتي بعد فقدك إنني ... أرى بعدك العيش الرغيد مذمما
أرى كل رزء دون رزئك في الورى ... فلله رزء ما أجل وأعظما

الشيخ محمد السماوي بن طاهر .

ولد سنة ١٢٩٢ في مدينة السماوة بالعراق وتوفي سنة ١٣٧٠ في النجف .

ترك السماوة إلى النجف لطلب العلم فدرس على أعلامها ، ثم عاد إلى بلده حتى سنة ١٣٣٠ حيث عين عضواً في مجلس الولاية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى فرجع إلى النجف بعد الإحتلال الإنكليزي لبغداد . ثم عين قاضياً فتنقل بين النجف وكربلاء وبغداد وصار فيها عضواً في مجلس التمييز الشرعي ، ثم طلب نقله إلى النجف فنقل إليها وبقي فيها سنة فحدث أن ختلف مع السيد محمد الصدر رئيس مجلس الأعيان فآثر الإستقالة من القضاء .

ومن الطرائف في هذا الموضوع أن الحكومة العراقية كانت قد وضعت قانوناً يرفع الحصانة عن الموظفين يجيز عزلهم بدون بيان الأسباب ، سمته (ذيل قانون الموظفين) ، فأصبح هذا القانون نكتة عند العراقيين ، فإذا سأل أحد عن موظف قد عزل بمفعول هذا القانون ، أجابه المسؤول : ضربه الذيل .

وصدفت استقالة السماوي في تلك الفترة بسبب خلافه مع الصدر ، فقال الشيخ محمد علي اليعقوبي :

قل للسماوي الذي ... فلك الزمان به يدور
الناس تضربها الذيو ... ل وأنت تضربك الصدور

كان السماوي عالماً فاضلاً شاعراً ، وقد وصفه الأستاذ عبد الكريم الدجيلي في مقال كتبه عنه بعد وفاته بما يلي :

كان السماوي خير من يمثل العالم في المدرسة القديمة باسلوب كلامه وطريقة حواره وهيئة بزته واتزانه وتعقله ، وهو إذا حضر مجلساً يأسر قلوب الحاضرين بسرعة البادرة وحضور النكتة وقوة الحافظة وسعة الخيال ، فهو ينتقل بك من الشعر العالي المتسامي إلى طرف من التاريخ والأدب ، ثم إلى نوادر من الحديث والتفسير ، وهو إلى جانب ذلك يسند حديثه بأحكام ودقة تعبير فيدلك على الكتاب الذي يضم هذه النادرة أو تلك النكتة وعلى الصحائف التي تحويها وعلى السنة التي طبع فيها هذا الكتاب إن كان مطبوعاً وإلى عدد طبعاته إن كانت متعددة وحتى التحريف والتشويه بين الطبعات .

وأنت إذ تستمع إليه فكأنك تصغي إلى عالم من العلماء الأقدمين في طريقة حواره وأسلوب حديثه وانتقاله من فن إلى فن ومن علم إلى علم ، فهو يعيد لك عهد المرتضى في مجالسه ، والإمام القالي في أماليه والمبرد في كامله والجاحظ في بيانه وتبيينه ، ولا تفارقه تلك الإبتسامة التي تقرأ منها عمق التفكير وجلال العلم وغبار السنين .

اقتنى مكتبة كبيرة جمع فيها كثيراً من المخطوطات وبعضها نسخها بخطه فكانت من مفاخر النجف ، ولكنها تبددت بعد وفاته فلم يبق لها أثر .

شعره

وله يرثي الإمام أمير المؤمنين (ع) :

تذكر بالرمل جلاسه ... فهاج التذكر وسواسه
وأفرده الوجد حتى انثنى ... يعاقر من حزن كاسه
فصار إذا رمقته العيون ... يطأطىء من ذلة راسه
وليل دجوجي برد الصبا ... تولت همومي إلباسه
أقام فخيم في أعيني ... وشد بقلبي أمراسه
تململت فيه أناجي الجوى ... وأدرس يا ربع أدراسه
أيا وحشة ما وعاها امرؤ ... وآنس في الدهر إيناسه

---

(١) الشيخ أبو الحسن علي البيهقي المعروف بابن الفندق : تاريخ بيهق تحقيق أحمد بهمنيار ص ١٥٩ طهران الطبعة الأولى .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

تمثل ليلة غال الشقي … بها علم القسط قسطاسه
وأرصده في ظلام الدجى … بحيث العدى آمنت باسه
أتاه وقد اشغلته الصلاة … واهدأت النفس أنفاسه
فلو أنه داس ذاك العرين … بحيث يرى الليث من داسه
لفر إلى الموت من نظرة … وألقى الحسام وأتراسه
ولكنه جاءه ساجداً … وقد وهب الله إحساسه
فقوى عزيمته واجترى … فشق بصارمه رأسه
وهد من الدين أركانه … وجذ من العدل أغراسه
وغيض للعلم تياره … واطفأ للحق نبراسه
فيا طالب العلم خب فالكتاب … قد مزق الكفر قرطاسه
ويا رخم الطير سد فالعقاب … قد مهد الموت أرماسه
فمن للعلوم يرى فكره … ومن للحروب يرى باسه
ومن لليتيم ومن للعديم … يبدل عن ذا وذا ياسه
قضى المرتضى بعد ماقد قضى … ذمام القضا بالذي ساسه
قضى حيدر العلم فالعالمون … أضاعوا الصواب بمن قاسه
قضى سيد الناس بعد الرسول … وغادر في حيرة ناسه
أعني على النوح يا صاحبي … فقد جاوز الحزن مقياسه
وقد انشب الوجد أظفاره … بقلبي ومكن أضراسه
ألسنا فقدنا إمام الهدى … وبدر الفخار ومقباسه
سأبكيك حتى أذيب الفؤاد … ولم أبق للنزع أقواسه
وإن من الحزن أن أنظم الـ … رثا واؤلف أجناسه
وأركبه سلساً طيعاً … وقد كنت عريت أفراسه
فإن يكن الشعر من جوهر … فإن رثاك غدا باسه

ولـه يرثي علي الأكبر بن الإمام الحسين (ع) :

بابأبي النازح عن أوطانه … عاد به رحب الفضاء ضيقا
نواثبت حرب عليه ضلة … بمعشر سدوا عليه الطرقا
إن شد قرم شد عنه فيلق … فما يرد أو يردي الفيلقا
وان ينازل قرنه في موقف … أطار رؤساً وأطن مرفقا
مشوا بظل السمر خير مشية … ولاقوا البيض أعز ملتقى
وأشرقوا مثل النجوم في الوغى … حتى تهاووا مغرباً ومشرقا
غادروا ابن أحمد منفرداً … بآله الأطهار أعلام التقى
ـن كل ثبت ان تكشر الوغى … ناباً وتحمر الكماة حدقا
حتى إذا القضاء حم والردى … بدا وأمر الله فيهم سبقا
رقى نوافث الوغى بأروع … لا يرهب الموت إذا الموت رقى
يا أشبه الناس بنفس المصطفى … خليقة وخلقاً ومنطقا
بمن إذا اشتاقوا النبي أبصروا … وجهاً له يجلو سناه الغسقا
فشد فيهم شدة الليث إذا … ما أصحر الليث غضوبا محنقا
يشلهم طرداً فمن سرج خلا … وجثة خرت ورأس حلقا
إذا أشار سيفه لهارب … قصره الخوف فمد العنقا
أو أغربت ضربته سرى إلى … وجه أبيه بشرها فأشرقا
لله من ظام ولكن سيفه … من الدما راو يمج العلقا
إذا تلظى عطشا حسبته … صل نقى بنفث سما مطرقا
أو اشتكى إلى أبيه حرقة … من الظما رآه أذكى حرقا
يرشف من ثغر أبيه بضعة … لا تستطيع بالظما أن تنطفا
ثم يعود للقتال جاهداً … يقط كشحا ويقد مفرقا
يستقبل البيض بوجه ويرى … أن المنا خير له من البقا
حتى هوى على الثرى موزعا … بين المواضي والقنا مفرقا
يستحمل الريح سلاماً لأب … بر فينقض عليه صعقا
يا زهرة الدنيا على الدنيا العفا … وزهرة الأفق وليت أطبقا
ونبغة ريانة من دوحة … بها النبي والوصي اعتنقا
فمن نحاك بالحسام ضارباً … جسما تغذى بالتقى وما اتقى
وأي سيف حز منك منحراً … جرى به دم الهدى مندفقا

ولـه يرثي الإمام الحسين (ع) :

كم طلعة لك يا هلال محرم … قد غيبت وجه السرور بمأتم
ماأنت إلا القوس في كبد السما … ترمي قلوب المسلمين بأسهم
ذكرتهم يوم الطفوف ومانسوا … لكن تجدد ذكره المتصرم
يوم به زحف الضلال على الهدى … وبه تميز جاحد من مسلم
بعثت بنو حرب كتائب تقتفي … بكتائب وعرمرما بعرمرم
ونحت بها عزم ابن حيدر فاستوى … منها يلف مؤخراً بمقدم
سدت بها صدر الفضا فأزالها … منه بصاعقة الحسام المخذم
وأغاضت الماء الفرات بوردها … فأفاضها بندى يديه وبالدم
خلط السماحة بالحماسة فالندى … ينهل من سحب الردى المتحتم
يثني الحديد بقوة من بأسه … ويرد كل محدد ومقوم
كم من خميس جال في أوساطه … فدحاه ملقى لليدين وللفم
قص الجناح له وأنشب قلبه … بمخالب البازي وظفر الضيغم
تتقصف الأصلاب في يوم الوغى … ماإن يقول أنا الحسين وينتمي
وتهافت الأرواح مثل فراشها … دفعا ببارق سيفه المتضرم
أترى أمية يوم قادت جيشها … ظنته يعطيها يد المستسلم
هيهات ما أنف الأبي بضارع … للحادثات من الخطوب الهجم
فقضى بحكم حسامه أجسادها … لأوابد ونفوسها لجهنم
وأبادها بالجارفين مهند … عضب الشبا وطرير رمح لهذم
في فتية يتلونه فكأنه … من بينهم قمر يحف بأنجم
يتهللون إذا تشاجرت القنا … والليث يأنس باصطكاك المأجم
واذاتنا كصت العدى وصلوا الظبا … يوم النزال بساعد وبمعصم
فقضوا على شاطي الفرات براحة … تندى وقلب من مذاقته ظمي
من كل جسم بالحسام موزع … عن كل صدر بالسهام مسهم
وقعوا فما مس الثرى جسداً لهم … مما عليه من القنا المتحطم
وتقسموا بضعا فظل عميدهم … يرنو بطرف بينهم متقسم
ماذا تظن بمخدر قد أرهقوا … أشباله في غيله المتحرم
وأتى فيا جثث النفوس تأخري … ودعا فيا قمم الرؤوس تقدمي
وأصات عن قلب تفطر بالظما … وفم تلبد بالعجاج الأقتم
فكأن نفخ الصور جاء وعيده … أوقد احيطوا بالقضاء المبرم
يا سيفه الفتاك كم من ثلة … ثلمتها وبرقت غير مثلم
إن يدعه البارّي فكم لباه في … كرم واعقبه بشخص أكرم
فثوى على حر البسيطة باسطا … كفيه بين عدى وبين مخيم
تتحاذر الأعداء وثبته وقد … علموا بصرعته حذار توهم

وقال :

أجـل الـشـنـايـا أمـلا واقـتـراح ... وانـعش بهـا روحـي في وقـت راح
بـالله واجـعـل نـقـلي بـعـدهـا ... مـن ذلـك الـورد وذاك الأقـاح
تسـارعت شمس الضحى خيفـة ... أن يقيس الـطلعة منـك الصباح
ثـار بهـا الـغيظ فـلاحـت عـلى ... حـال يـد طـوق وأخـرى وشـاح
جـلل بفـرعـيـك عـلى وجهـهـا ... فقـد دهـانـا وجهها بـافتضـاح
حـرمت يـاشمس عنـاق الهـوى ... لا خـاب من سمـاك يـومـاً بـراح

مؤلفاته

(١) حاشية على التحفة الألـوسية (٢) الكـواكب السماويـة (ط) (٣) إبصار العين في معـرفة أنصـار الحسين (ط) (٤) ظـرافة الأحـلام فيمن نظم شعراً في المنام (ط) (٥) الـطليعة إلى شعـراء الشيعة في ٣ أجـزاء صغار (٦) ملتقطات الصحو في النحـو (٧) الترصيف في التصريف (٨) نـظم السمط في علم الخط (٩) البلغـة في البلاغـة (١٠) مناهج الـوصـول إلى علم الأصـول (١١) فرائد الأسـلاك في الأفلاك (١٢) غنيـة الطلاب في الأسـطرلاب (١٣) قـرط السمع في الـربع المجيب (١٤) مشـارق الشمسين في الـطبيعي والإلهي (١٥) عنـوان الشرف في تأريـخ النجف أرجـوزه في ١٥٠٠ بيت (١٦) نـوال اللطف في تأريخ الطف أرجوزه في ١٢٥٠ بيت (١٧) صدى الفؤاد في تأريخ بلد الكـاظم والجواد أرجـوزه في ١١٢٠ بيت (١٨) وشائـح السراء في تأريخ سامراء أرجوزه في ٧٠٠ بيت ، وهذه الأربعة طبعت في النجف في جزء واحد (١٩) بلوغ الأمة في تأريخ النبي والأئمة أرجوزه في ١٢٠ بيتاً (٢٠) التـذكرة في من ملك العـراق إلى هـذا العصر أرجـوزه وهي تكملة (المخـبرة) لابن الجهم في ١٧٠ بيتاً (٢١) جمل الآداب في نظم كتاب ابن داب في فضائل أمير المؤمنين (ع) أرجـوزه في ٢٠٠ بيت (٢٢) جـذوة الـسـلام في مسـائـل علم الكـلام (٢٣) ريـاض الأزهـار مجمـوع شعـري لـه في النبي والأئمـة (ع) وغيرها .

الشيخ محمد شفيع الأسترآبادي .

توفي حدود سنة ١٢٣٨ عن عمر طويل .

فقيه متبحـر أصـولي محقق ولد في اسـترآباد وأكمـل المقدمـات هناك ثم هاجر إلى قزوين وكانت قزوين منقسمة على نفسها بين الأخباريين والأصوليين فـالتحق بمدرسـة الأصوليـين وحضر في الفقه والأصـول والعلوم العقلية عـلى زعيم الأصوليين الشيخ محمد الملائكة البرغاني المتوفى سنة ١٢٠٠ ثم توجه إلى العتبات المقدسة في العراق وسكن كربلاء والتحق بحـوزة الآغا بـاقر الـوحيد البهبهاني الحائري المتوفى سنـة ١٢٠٥ والسيد مهـدي بحر العلوم المتـوفى سنة ١٢١٢ وأجيز منهما ثم رجـع إلى موطنـه استرآبـاد وانتهت إليه فيهـا الريـاسـة الـدينية . ذكـره صاحب نجـوم السماء نقـلاً عن بعض مؤلفات نجله الشيخ مهدي المازندراني الأسترآبـادي المتوفى سنة ١٢٥٩ قال أن والـده من تلاميـذ السيد مهدي بحر العلوم وقال أن صـاحب الجواهـر الشيخ محـمد حسن اثنى عليه ومدحه . . .)

أقـول : وهو والـد العالمـين الجليلين الشيخ محـمـد كاظم المؤلف المكـثر الآتي ذكـره والمتـوفى سنـة ١٢٣٧ من علماء الحـائـر الشريف والشيـخ مهـدي الجيلاني الأسترآبادي المتوفى سنة ١٢٥٩ نزيل مدينة لكهنؤ في الهند الآتي ذكره أيضاً .

ترك المترجم له مؤلفات منها : كتاب الأربعون حديثاً في فضائـل الأئمة الطاهرين عليهم السّلام استخرجها من كتب غير الشيعـة وطرقهم . كـما ذكر في كشف الحجب والأستار ص ٣٧ ، ورسالة في البداء فارسية وكتـاب منهاج الأعمال في الصلاة والصوم إلى آخر الإعتكاف[٢] .

السيد محمد شفيع بن بهاء الدين محمد شيخ الإسلام ابن الميرزا كمال الـدين حسين بن عبد العال ابن المير السيـد حسين الكـركي العامـلي القزويني سبط المحقق الكركي وباقي النسب ذكر في الميرزا مسعود .

توفي سنة ١١٢٥ .

طبيب حاذق وفقيه كبير عارف متأله وأديب شاعر ولـد في قزوين وأخـذ المقدمات والنحو والصرف والمنطق والعـربية وفنـون الأدب على رجـال اسرته ومنهم والـده شيخ الإسلام ثم تخـرج في الفقـه والأصـول والحـديث والعلوم العقلية على الشيخ الملا محمـد كاظم الـطالقاني المتوفى سنة ١٠٩٤ وآقـارضي القزويني المتوفى سنة ١٠٩٦ .

وبعد وفاة والده تسلم منصب شيخ الإسـلام بقزوين الـذي انحصر في اسرته منذ عهد جدهم السيد الميرزا كمال الدين حسين شيخ الإسلام العامـلي الكركي حين كـانت قزوين عـاصمة للدولـة الصفوية حتى سنة ١٠٠٠ حين انتقلت العاصمة من قـزوين إلى اصفهان في عصر الشـاه عباس الكبـير وبقي رجـال هـذا البيت الجليـل في منـاصبهم بقـزوين حتى اليـوم ولا يـزالـون يعـرفـون بـ (آل شيخ الإسلام) ولهم آثار ومآثـر باقيـة في قزوين ويـذكر رجـال هذا البيت كل منهم في محله.تصدر المترجم له للتدريس والإفادة والإرشاد وكان من دعائم الدين وأعلام قزوين البارزين وزعمائها الأفذاذ له مؤلفات وحواشي على الكتب الفقهية والطبية والفلسفية وله ديوان شعر ورسالة في العرفان وكانت له مكتبـة نفيسة تفـرقت وقـد ظفـرت ببعض منهـا . كـما رأيت ختمـه في صـدر صكوك دور ومعاملات أملاك قزوين على شكل مربع . ترجمـه حفيده وسميـه السيد محمد شفيع بن بهاء الدين شيخ الإسـلام ابن المترجم لـه المار الـذكر في كتابه تاريخ العرفاء وضبط عام وفاته سنة ١١٢٥ الذي نقلناه عنه[٣] .

السيد محمد شفيع بن بهاء الدين شيخ الإسلام بقزوين ابن الأمير السيد محمد شفيـع شيخ الإسـلام ابن الميرزا بهـاء الدين محـمد شيخ الإسـلام ابن الميرزا كـمال الدين حسـين شيخ الإسـلام ابن عبـد العـال ابن المـير السيـد حسـين الكركي العامـلي القزويني سبط المحقق الكـركي إلى آخر النسب المـذكور في الميرزا مسعود .

توفي بقزوين حدود سنة ١٢٠٠ .

من كبار علماء عصره حكيم متأله فيلسوف متبحر أديب شاعـر ذكره في أعيان الشيعة المجلد التاسع صفحة ٣٦٤ ووصفه بعـالم عارف فـاضل ونـزيد

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

على ذلك ما يلي : آل شيخ الإسلام من الأسر العلمية العلوية العاملية التي بزغ بدرها في أفق قزوين في القرن العاشر للهجرة حينها كانت قزوين عاصمة الدولة الصفوية منذ عهد جدهم السيد حسين الحسيني الكركي العاملي وأول من عين من رجال هذا البيت الجليل بمنصب شيخ الإسلام هو السيد الميرزا كمال الدين الحسيني العاملي الكركي القزويني وسوف نذكر علماء هذه الأسرة كل منهم في محله .

ولد المترجم له في قزوين وأخذ المقدمات وفنون الأدب والعربية على أفاضل رجال أسرته ومنهم والده السيد بهاء الدين شيخ الإسلام بقزوين ثم تخرج في الفقه والأصول والحديث والتفسير على الشيخ محمد تقي الطالقاني القزويني المتوفى سنة ١١٨١ وأخذ العلوم العقلية والعرفان على الشيخ الملا محمد الملائكة المتوفى سنة ١٢٠٠ وغيرهما وعكف على التدريس والتأليف والتصنيف وبعد وفاة والده السيد بهاء الدين تسلم منصب شيخ الإسلام في قزوين وكان رئيساً مطاعاً وزعيماً نافذ الكلمة ومن مراجع الأمور الشرعية وهو والد السيد المير فضل الله شيخ الإسلام من أعلام علماء قزوين ، كما رأيت بعض مؤلفات المترجم له بخط نجله المذكور وذكره في كتاب الذريعة إلى تصانيف الشيعة وقال : (محافل المؤمنين فارسي ، ذيل لمجالس المؤمنين ومستدرك لما فات منه ألفه السيد محمد شفيع بن بهاء الدين الحسيني العاملي القزويني رأيت النقل عنه في عدّة مواضع منها ما نقله عنه صاحب الروضات تاريخ وفاة الشيخ لطف الله الميسي المعاصر للشيخ البهائي والمتوفى بعده بخمس سنوات أي في سنة ١٠٣٥ وباسمه يعرف المسجد الكبير الأثري في أصفهان والتاريخ هو قول . . . ومنها ما نقل عنه في بعض حواشي أمل الآمل من ترجمة الأقارضي القزويني الذي توفي ١٠٩٦ ومنها بعض المجاميع الذي نقل عنه ترجمة الشيخ علي العرب وصرّح هناك باسم المصنف ونسبه ووصفه بالعاملي ولكن الفاضل الميرزا محمد تقي الرضوي المدرس ذكر في مقدمة طبع « مجمل التواريخ » عند ذكر تأليف هذا المؤلف وكتابه « تاريخ العرفاء » الذي فرغ منه سنة ١١٨٥ أنه السيد محمد شفيع الحسيني القزويني ، قال : والمظنون أنه عاملي الأصل وقزويني الموطن أقول : ومن هؤلاء السادة في قزوين السيد جمال الدين العاملي القزويني المعاصر الذي توفي حدود سنة ١٣٣٠ والمترجم في النقباء ص ٣١٤ . . .)[1] .

السيد محمد صادق بحر العلوم ابن حسن

مرت ترجمته في المجلد الأول من المستدركات ، ونضيف إلى ما هناك ما يأتي :

لم ننشر هناك شيئاً من شعره وننشر هنا هاتين القصيدتين : قال مادحاً مؤلف موسوعة (أعيان الشيعة) من قصيدة :

سعد دعني وذكر عصر التصابي ... واذكرن (محسناً) بطيب الثناء
مفرد طاب طارفا وتليداً ... وعلا مفخراً على الجوزاء

ذو مزايا ليست تحاط بعدّ ... وغدت مستحيلة الإحصاء
هو ركن للمسلمين ركين ... وعماد الشريعة الغراء
خاض بحر العلوم منه بفكر ... ثاقب فارتقى على القرناء
كم له من صحائف بينات ... فاق فيها بفكرة وذكاء
ورث العلم والحجا عن جدود ... قد سموا في الفخار والعلياء
قل لمن قاس فضله بسواه ... قست عقد الجمان بالحصباء
كيف يرقى رقيه أو يجاريـ ... ـه مجار في الفضل والارتقاء
فهو غمر الرداء من حسنات ... ومن السيئات خلو الرداء
أيها المبتغي لنيل علاه ... إنما رمت نيل شهب السماء
كعبة الوافدين من كل قطر ... بحر جود ذو راحة سمحاء
وأكف الأنام طراً إليه ... راجيات تمد في البأساء
ما نحاه راج من الناس إلا ... آب منه بأجزل النعماء
غير بدع إن قلت فيه جواد ... فلقد فاق حاتماً بالسخاء
هذه تحفتي إليك تهادت ... في حلاها كغادة حسناء
زفها (صادق) المودة فاسمح ... بقبول يا سيد النجباء
ليس دأبي نظم القريض ولكن ... حركتني عواطف الشعراء
دمت في راحة وأطيب عيش ... وسرور ونعمة ورخاء
ولك المجد والعلى ما تغنى ... طائر السعد بالهنا والثناء

وله يرثي الملك فيصل الأول عام ١٣٥٢ من قصيدة :

لله رزء في البرية سارا ... عم العراق وطبق الأمصارا
لله رزؤك يا فقيد الشعب يا ... فخر العروبة ليثها المغوارا
العرب بعدك لم تزل تبكي أسى ... فتسيل من آماقها المدرارا
يا (فيصل) الحق الذي ألف العلى ... والمكرمات له جعلن شعارا
هذا العراق وهذه أبناؤه ... فقدت بفقدك سيفها البتارا
يا بدر هالتها وعقد جمانها ... وملاذها إن خطب دهر جارا
يا طود حلم كان صعب المرتقى ... عجباً لشخصك في الثرى يتوارى
كنا نؤمل أن تدوم لنا حمى ... فتذود عن أبنائك الأشرارا
إيه بلاد الغرب كم من مهجة ... للعرب قد أضرمت فيها النارا
فترى سكارى الناس مما ناب من ... عظم المصاب وما هم بسكارى
أسرار فقدك لم تزل مخفية ... يا ليتهم كشفوا لنا الأسرارا
خلدت بعدك للعراق مآثراً ... ما مات من قد خلد الآثارا
ورفعت للوطن العزيز دعائما ... فسما به قدراً وعز فخارا
ما مت إذ خلفت شبل عرينة ... في منهج قد سرت فيه سارا
(ملك العراق) ومذ على العرش استوى ... ملأ المحافل هيبة ووقارا
صبراً مليك العرب لا تجزع وإن ... أشجى المصاب وقرح الأبصارا

محمد صالح شمسه ابن مهدي

ولد في النجف سنة ١٣٢٣ .

درس في النجف ثم في بغداد وتخرج من دار المعلمين الابتدائية وعين معلماً ثم مفتشاً ، ونشر خلال ذلك كثيراً من المقالات في المجلات العراقية ، وساهم في الأحداث الوطنية .

شعره

من شعره قوله :

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

أنجزت وعدك آمال عذاب ... وأمان رضتها وهي عاب
وأتت طيعة بعد الإبا ... والشفيعان: مضاء وشباب
وجلت عن وجهها مسفرة ... فازدهى المربع وازدان الجناب
واستقر الحق في موضعه ... فاستراح الحق وارتاح النصاب
طوفت حيناً فلما خبرت ... شيم الناس وأضناها الطلاب
نفرت حتى إذا ما أسرفت ... شفها الوجد وآذاها العتاب
فحصت خطابها فانكشفت ... أوجه تقلى وأخلاق تعاب
عبدوا الشهوة وانقادوا لها ... غاية العيش: شراب ورباب
فإذا الحق هضيم موجع ... وإذا الشعب: صدوع وانشعاب
وإذا الامرة مال يقتنى ... وإذا الحكم احتكار وانتهاب
وإذا الناس عبيد خول ... ألفوا الذل مريراً واستطابوا
وإذا العلم ضلال وعمى ... وإذا الفضل رداء وثياب
وإذا العفة نقص في الفتى ... والمروءات شنار وسباب
رجعت تنشدك العفو وما ... أحسن العفو إذ القالون تابوا
فعسى تبلغها ما أملت ... بك والمرء حديث يستطاب
وعسى تنهض من كبوتها ... ويعيد المجد طعن وضراب
فخض اللجة لا تحفل بها ... إنما الدنيا صراع وغلاب
وأعد مجد عهود سلفت ... وادع للحق فداعيه يجاب
حيث لا الأفكار في حجر ولا ... حجب الأبصار من جهل حجاب
وصروح الظلم تنهار بها ... أن عقبى ما بنى الظلم خراب
ويعود الناس أحراراً كما ... شرع الرحمن فيهم والكتاب
أنفساً هذبها العلم فما ... يفسد الإلفة شك وارتياب
أخوة في الله لا مستضعفاً ... يزدري فيهم ولا قيلا يهاب
أخلصوا النية في أعمالهم ... فاستوى فيها ثواب وعقاب
ورضوا ما شرع الله لهم ... ليس في القوم خراف وذئاب

وله :

جئنا أبا القاسم نزجي له ... تهنئة حتمها الواجب
نصدنا الحاجب عن بابه ... أنعم بما من به الحاجب
حلأنا عن مورد آسن ... مرنق غص به الشارب
وصاننا عن موقف شائن ... هان به المطلوب والطالب

وله :

(أبو زهير) زهرة ... قد نبتت على قذى
لا نفع فيها يرتجى ... ولا سناً ولا شذا

وله بعنوان (المشهد العلوي) :

عجباً لفضلك كيف يخفى ... وأريج قدسك ذاع عرفاً
قد عبق الدنيا فماست ... من شذاه تهز عطفاً
وتراك مواج به ... أرج الإمامة فاح عصفاً
والرمل من ألق كأن عليـ ... ـه نور الشمس يضفى
مثوى أبي الحسن الزكي ... المرتضى الذهب المصفى
كالشمس قبته تمد الـ ... ـكون إشراقاً وكشفاً
هو مسجد الأفلاك ليـ ... ـس كدمنة من أم أوفى
تتزاحم الأملاك حول ... ضريحه ألفاً فألفاً
وتطوف في حرم الإمامة ... خشعاً صفاً فصفا
والعالم الأعلى يحج ... إلى الحمى القدسي زحفا
والشمس تلثم تربه ... إن لم تنل قدماً وكفا
خلع الإله عليه برد ... جلاله كرماً وأضفى
تعفو الدهور وذكره ... المعطار باق لا يعفّى
حف البها بضريحه ... وعليه ظل الله رفا
مولى الهداة ولاؤه ... كالشهد للمولى وأشفى
قسطاس عدل الله لسـ ... ـت ترى به ظلماً وحيفا
ولسان وحي الله يعـ ... ـرب هديه حرفاً فحرفا
وشعاع نور الله فا ... ض على الوجود سناً ولطفا
وحفيظ سر الله ما ... أبدى لصفوته وأخفى
وخليفة الله الذي ... أخذ الأنام به وأعفى
نور الحقيقة فيه أشرق ... يخطف الأبصار خطفا
فسما على أفق العقول ... فليس تدرك منه وصفا
ودنا من السر المحجب ... خارقاً حجباً وسجفا
قدماه ملثم أرفع الأمـ ... ـلاك منزلة وأحفى
وطأت سماء القدس تر ... قى غارباً منها وكتفا
نغم توقعه العناية ... للورى شعراً مقفى
هيهات تدركه الحجا ... رة أنها أقسى وأجفى
بهرت شوارقه الجحود ... فلجّ في عمه وسفا
وبسيفه الدين استقام ... فكان للرحمن سيفا
يرسي قواعده ويرفع ... سمكه شيداً ورصفا
لولا مضاربه لكان ... الدين كالطلل المعفى
يصلي الوغى فرداً ولم ... يألف سوى البتار إلفا
ويذب عنه وبعضهم ... قد غط في سنة وأغفى
وكأن صاعقة القضاء ... حسامه قداً وقطفا
وكأن زمجرة القوا ... صف زجره الأبطال قصفا
يسقي ندامى الحرب من ... كاساته عباً ورشفا
والشوس تهرب كالبهـ ... ـم شد فيها الليث خوفا
أيلام من يرجو النجاء ... لنفسه ويخاف حتفا؟
عدل فلست ترى لديه ... مبعداً يعرى ويحفى
يطوي النهار على الطوى ... والليل آلاماً وخوفا
ومقرباً كالهيم يملأ ... منه أكراشاً وجوفا
يختال في حلل النضارة ... مثقلاً طيشاً وسخفا
أوفى على دارين يملأ ... عيبة منه وكفا
ثقلت مساوئه فحطـ ... ـت نفسه والدين خفا
حاشا أبا حسن تنزه ... ما أبر وما أعفا
فالناس مرتبة لديه ... يريهم براً وعطفا
لم يرع غير الله فيهـ ... ـم سالكاً ليناً وعنفا
فترى القوي لديه ... أجل ما يراه الناس ضعفا
وترى الضعيف لديه ... أعظم قوة حتى يوفى
ويقض مضجعه السهاد ... مؤرقاً قلباً وطرفا
يشجيه طاو في الحجاز ... أو اليمامة عنه يخفى
الله شرفه وعظم ... قدره فجزى ووفى

أنا قد غذيت بحبه   وكرعت كأس هواه صرفا

وله :

قل للذي رضي اللئيم   لصحبة، وأطاق لؤمه
الحاجة بك تصحب الل   ؤماء أم لقصور همه
لا تبتئس إن الحذاء ال   سمل في البيداء نعمه

وله مداعباً صديقاً له :

من يشتري مني أخاه   أبي زهير منعما؟
أم من يريد إخاءه   هبة ويأخذ درهماً
أم من يخلّصني لوجه   الله منه تكرما؟
فلقد برمت به وسد   علي آفاق السما
صاحوا عليه بالمزاد   فلم أجد متقدما
إلا شقياً حظه   أكدى فبادر مقحما

وله :

ربة الشعر عاليات المعاني   طمستها حماقة الإنسان
وصفات الكمال قد شوهتها   نزوات من طبعه الحيواني
وصفاء النفوس قد كدرته   نزغات الشيطان بالأضغان
وطغى الجهل واستطال فعمت   ظلمات واحلولك الخافقان
وتفشى الظلام حيث أخوالنا   ظر مثل البصير يستويان
ودعا الشر فاستجابت نفوس   غرقت في الضلال للاذقان
وغدا الجوهر الثمين قياساً   والحصى بقرنان في ميزان
الدعاوى الجوفاء كالطبل دوى   بضجيج يصك بالآذان
حيث يدعى الفأر الحقير هزبراً   ويسمى الذباب بالعقبان
لالعاً للمجاز يطلق لفظ الـ   روض يعني صلداً من الصوان
ثم يطغى الغباء إذ يزعم الصخر   اكتساء الأزهار والأغصان
وإذا ما سمعت قعقعة الأ   لقاب أدركت ما جناه الجاني
فترى الحجة الإمام ولكن   هو بين الأنام كالسرحان
فإذا ماسطا تسير حواليه   ذئاب تعيث بالقطعان
يدرأ الحق بالتعلل والشك   لبر الأولاد والإخوان
يتراءى في زهده كاويس   وإذا ما خلا فكالسلطان
حوله يضرب الحجاب وويل   للفقير العاني من الديديان
وفقيه يصول طولاً وعرضاً   ككمي يجول في الميدان
ليس يدري من دينه غير أن   الدين در يحوزه ومجاني
وجهول ما حاز من سمة الفضـ   ـل سوى أنه فلان الفلاني
يرمق الشمس بازدراء ويرنو   باحتقار لطلعة الزبرقان
يتهادى كأنما تدرك الأرض   عظياً من مشيه المتواني
وكأن الأملاك تجري بأمر   منه إذ تستمر بالدوران
لو تقضيت أو كشفت مغطى   لوجدت الحمار نسل الاتان
لم تزل فيه حاجة لولي   أو لأم تربة يهان
وخطيب يرقى المنابر للوعـ   ـظ ويغشى ملاعب الفتيان
كيف يدعو إلى الرشاد صبي   لم يزل في مدارج الصبيان
والأديب الكبير والشاعر الفحل   وعلامة الزمان الثاني
والعميد الجليل والكاتب النحـ   ـرير واللوذعي والوجداني
كلمات بلا حقائق بين الـ   ـناس شاعت بالزور والبهتان
والزعامات قائمات على الوهم   لبذر الأحقاد والشنآن
سادرات في الغي والجهل والطيـ   ـش وغصب الحقوق والكفران
دأبها الفتك بالأنام بالعد   ل وبث الشقاق والعصيان
وامتهان الضعيف والبائس المحـ   ـروم من قوة ومن سلطان
لا ترى في الوجود صنعاً لئيماً   مثل فتك الإنسان بالإنسان
شيخة عكفا على اللهو واللعـ   ـب صنوفاً وفتية كالغواني
عبدوا المال واللذائذ والجاه   غروراً وكاذبات الأماني
ضيعوا منهج الكمال ضلالاً   وتناسوا صنائع الإحسان
لا عقول تنهى عن الفحش والسو   ء وورثت مواعظ الأديان
همل كالسوام ندت عن الرا   عي وجاست مسارح الذؤبان
أرأيت الوحوش تعبث في الغا   ب وتلهو بالفتك والنزوان
هكذا شاعت الفواحش والجهل   وغاضت منابع العرفان
وتمادى الطين الحقير عتواً   ونفوراً فباء بالخسران
لالعاً للجهول يكبو وضوء الـ   ـشمس جلّى مسارب الحيوان
نسي الناس ربهم فتهاووا   في سحيق من الحقارة دان
بلغوا أسفل الحضيض وودوا   أنهم منه في أحط مكان
جيف ترتدي الحرير لباساً   وحلياً من عسجد وجمان
ظاهراً رائقاً تسر به العين   وسراً يسوء كالثعبان
ربة الشعر هل إليك سبيل   فلقد شفني الأسى وشجاني
وسئمت المقام في العالم الأر   ضي بين الهوام والديدان
ومللت المكوث في ظلمات الـ   ـجهل والذل والشقا والهوان
فافتحي لي من أفقك الواسع الرحـ   ـب مجازاً لعاليات المعاني
وارفعيني فإن في النفس ميلاً   ونزوعاً لقدس تلك المغاني
إن يكن جسمي الكثيف من الطين   فنفسي من عالم نوراني
منه عقلي ومنه نفسي وروحي   وضميري ومنطقي ولساني
أوليس الوجود فصلاً ووصلاً   ومآبا إليه ينتهيان
كل نوع له معاد يؤديه   إلى رب نوعه الإمكاني
هيئي لي إلى السماء عروجاً   أطلقيني من أسر هذا الكيان
فلقد ضقت بالإقامة ذرعاً   وكرهت المكوث في جثماني
وجفاني أدنى الأنام لنفسي   من فؤادي وعقني أخداني
رب خل محضته صفو ودي   لم يجدني من جنسه فجفاني
وصديق سكبت روحي شراباً   عب منه ما شاء ثم قلاني
وقريب فرشت قلبي مهاداً   تحت أقدامه فما وفاني
واخ راتع حشاي وقلبي   يتملى عواطفي وحناني
فإذا ما نما استحال عدواً   وتحرى مقاتلي فرماني
لا الغريب البعيد كف أذاه   عن فؤادي ولا القريب المداني
كم جحود بررته فهجاني   وجهول لجهله عاداني
ليس لي بينهم أخ اصطفيه   قد نفضت اليدين من إخواني
لا ألوم الجحود فيما أتاه   وأود الهنا لمن آذاني
لست من سنخهم فلم يألفوني   أرأيت الضدين يجتمعان
لي قلب سما على الحقد والبغـ   ـض ونفس جلت عن الشنآن
أدركيني بنفحة منك تسمو   بي إلى ساحة العلى والأمان
وخذيني إليك للملأ الأعـ   ـلى أريني حقائق الأكوان
واكشفي لي عن وجهك المشرق الوضـ   ـاح تشرق مشاعري وجناني
وأنيري بنورك الخاطف اللما   ع قلبي وناظري وبياني

خل جسمي وشأنه أن جسمي ... عرض زائل وظل فان
وامنحي نفسي الخلود لتحظى ... بجوار المهيمن المنان
ربة الشعر اكشفي لي المعمى ... من دقيق الأسرار في الإنسان
وأنيري قلبي ليفقه معنى ... لحدود الوجوب والإمكان
غامض واضح خفي جلي ... فيه من كل خصلة ضدان
إن هذا الجرم الصغير أراه ... فيه حارت ثواقب الأذهان
كتلة ركبت من اللحم والدم ... فدقت حتى على الشيطان
حدثيني عن الإفاضة والفيض ... أجنس في السنخ أم جنسان
وعن الانبعاث في الخلق والعلـ ... ـة في الكون هل هما سنخان
وصدور الإبداع كان نجوماً ... أم ترى كان جملة في آن
خبريني أثم للفلك الدو ... ار قصد في السير والدوران
وإلى غاية يسير وفيه الـ ... شمس والبدر خضعاً يجريان
أم تراه يجري إلى غير قصد ... تائه في مجاهل اللامكان
والوجود الكلي والعقل والنفس ... وأمثالها القواصي الدواني
ومؤدى الحدوث والجعل والليـ ... ـس ومعنى التأييس بالتبيان
أهو كالضوء فاض من منبع النو ... ر أم أن الكنهين يختلفان
أم هو الموج حين يضطرب البحـ ... ـر وما غيره يرى في العيان
أم مرايا تعددت فتتالت ... صور جمة لإحدى المعاني
ما التجلي وما الظهور أبيني ... أي معنى تضم تلك المباني
والمهيات والوجود أكانا ... بالتتالي أم لاهما توأمان
أم هو الوهم والحقيقة سر ... غيبته عناية الرحمن
وتظل العقول تحكي على الدهر ... حديثاً للفيل والعميان
جل ربي عن زعمهم وتعالى ... شأنه فهو واضح البرهان
سطعت من فيوضه ومضات ... بهرت خاسء العيون الرواني
فترامى شيخ المعرة مدهو ... شاً ودكت معرة النعمان
وتردى (الحلاج) من وضح النور ... هوياً وغاص في بحران
ليس في قوله أنا الحق إلا ... لوثة من وساوس الشيطان
فغدا يهتف اقتلوني اقتلوني ... إن سراً أذعته أرداني
وتهاوى (الشبلي) حين تجلت ... ومضة من وميضة الشعشعاني
صارخاً في الجموع هيا لقتلي ... فبقائي في الحب ما أفناني
خطرات من الوساوس والوهم ... أطاحت بذلك البنيان
قد تجلى الصباح وامتلأ الكو ... ن ضياءاً وأشرق الخافقان
وصغار العقول تطلب بالشمـ ... ـعة نوراً من فيضة القمران
شام منه (أبو يزيد) شعاعاً ... فهوى لليدين والأذقان
و(السنائي) إذ تجلى سناه ... خر كالطود سائخ الأركان
وتهادى (محمود) في يده الراز ... صريعاً كالواله السكران
وتردى (الرومي) في الحيرة و(العطـ ... ـار) قفاهما (قضيب البان)
(شمس تبريز) كورت حين شامت ... بارقاً من وميض تلك المغاني
كيف لا يسقطون صرعى حيارى ... بهرتهم شوارق اللمعان
قبسة أشرقت فخر كليم ... الله موسى وزلزل الجبلان
إن هذا الوجود سر معمى ... ككتاب يبدو بلا عنوان
بابه موصد وفي الدرب طول ... خارج عن حدود هذا الزمان
وقصارى ما خامر الفكر وهم ... وقصور عن الجنى وهودان
أين هذا التراب من قدس نور ... رشحة من فيوضه العالمان
لس يرقى لذلك القدس وهم ... كيف تسمو لقدسه عينان
وتعالى على المقاييس فالعقل ... عقال يبوء بالخسران
ضم سلطانه الوجود جميعاً ... جل سلطانه العظيم الشان
أفتدري صنيعة صفة الصا ... نع أوسر ذلك السلطان
برزت فترة وطارت شعاعاً ... مالها في جميع ذاك يدان
كيف ترجو إدراكه بعقول ... صغرت عن مظاهر الأكوان
يتجلى لكل قلب نقي ... طاهر من عوالق الأدران
ولكم شع نوره في فؤادي ... فجرى نور ذكره في لساني
ولكم عم لطفه فرعاني ... ولكم جل فضله فكفاني
لا أرى في الوجود شيئاً سواه ... قد تجلى في سائر الأعيان
فتعبدته بكل زمان ... وتطلبته بكل مكان
وإلى وجهه الكريم توجهت ... حنيفاً وشافعي إيماني

وله مراسلاً صديقاً :

أبا (سحر) ألا يشجيك أني ... أكلف صحبة الأموات حيا
وأني حيثما سرحت طرفي ... فلست أرى من الأحياء شيا
ومن حولي مسوخ شاخصات ... كأن الوهم أبرزها لديا
إذا نهق الحمار غلا ارتيابي ... ورحت مسائلاً نفسي ملياً
أيوجد للحياة سواه مجلى ... فما يبدو سواه لناظريا

وقال :

لعمرك ما العطر والغاليه ... ولا المسك عبق أرجائيه
ولا البدر شع بلألائه ... ولا الشمس مشرقة ضاحيه
ولا الخمر صرفاً تبل الحشى ... وتطفىء جمرتها الواريه
بأطيب رياً وأبهى سناً ... وأروى لقلبي من (راويه)

محمد صالح محيي الدين ابن الشيخ علي .

توفي سنة ١٣٢١ في النجف .

كانت ولادته في النجف وفيها نشأ ودرس . كان ظريفاً فكهاً خفيف الروح ، وعاش حياته مفلساً فظهر أثر ذلك كله في شعره ، فمن ذلك قوله مخاطباً أحد علماء النجف :

راح ثوبي ولباسي ... أنت تاج فوق راسي
كل من عاداك عندي ... في البرايا كمداسي
أنت أن تنس جميلاً ... منك إني غير ناس
أنت غوث وغياث ... وعطوف ومواسي
أنت بحر الجود طام ... جبل في العلم راسي
ورفيق وشفيق ... ورقيق غير قاسي
ومنيل وجميل ... وجليل ذو أساس
اكسني حلة صيف ... ما أرى غيرك كاسي
كم بدا غيرك شخص ... يزدري شم الرواسي
خلته بارق تبر ... فبدا برق نحاس
ماطلاً موعد فضل ... لابساً ثوب التناسي
سد كل الطرق حتى ... سد لي طرق نعاسي
إن أمد كف افتقاري ... مد لي كف إياس
قد أناخ الهم عندي ... زمن صعب المراس

كـم لصرف الهـم عـنـدي … في الحـشـا جـرح المـواسي
قـد خـلا كـأسي وكـيـسي … فـامـلأن كـيـسي وكـاسي
عـلـم الإسـلام سـمـعـاً … نـظم شعـري في اقتـبـاس
جئـت أشـكـوك زمـانـا … قـل فـيـه مـن يـواسي
مـا أرى في الـدهـر إلا … قـابـضـاً لـلـفـضـل نـاسي
دم لنـا في الـدهـر حصـنـا … مـانـعـاً مـن كـل يـاس

الشيخ محمد طه الحويزي ابن الشيخ نصر الله .

ولد في النجف سنة ١٣١٧ .

هو من أسرة علمية عريقة وقد نشأ في النجف وفيها تلقى دراسته وبعد وفاة والده انتقل إلى الحويزة واشتغل فيها بالـزراعة طيلة خمس عشرة سنة ثم عاد إلى النجف ثم إلى كربـلاء وأخيراً استقر في مدينة (قم) بإيـران ، وهو فقيه وشاعر ولغوي .

من شعره قوله في مدح الإمام علي (ع) من قصيدة :

بـك يـا عـلي ازدانـت الـعـلـيـاء … ومن اسمـك اشتقـت لهـا أسـماء
وعـلاك مـا اطرى نعـوتـك مـادح … إلا استـطـال بـنـعـتـك الاطـراء
والـشـعـر لـيـس يـلذ إلا كـاذبـا … مـالم يـفـه بـثـنـائـك الـشـعـراء
لحقيـقـة الفـضـل التي بجـنـالهـا … متفـاوتـين تفـاضـل الفـضـلاء
نـالـوا تخلف بعـد رهط قلت قـد … علت الخـلافـة واعتـلى الخلفـاء
لله سر وجـودك الـقـدسي مـا … أخفـاه لـو يسـع الكـمال خفـاء
لكن كملت وظـل غـيرك نـاقصـاً … والـنـاقصـون بـغـيرهم جـهـلاء
نت الكـتـاب تشـابهت آيـاتـه … فـارتـاب في تـأويـلهـا الـعـلماء

محمد بن العباس بن علي بن مروان بن الماهيار المعروف بابن الجحام .

قال العلامـة الحلي : محمـد بن العبّاس بن عـلي بن مروان بن الماهيار بالياء بعد الهاء والراءِ أخيراً ، أبو عبد الله البزّاز بالزاي قبل الألف وبعـدها ، المعروف بابن الجحام بالجيم المضمومة والحاءِ المهملة بعدها .

كـان حياً سنة ٣٢٨ وسمـع منـه في هـذه السنة هـارون بن مـوسى التلعكبري ، فهو معاصر للشيخ الكليني وفي طبقته .

الثناء عليه

قال النجاشي : هو ثقة من أصحابنا عين سديد كثير الحديث . . .

وقال الشيخ الطوسي : محمد بن العبّاس بن علي بن مـروان المعروف بابن الجحام يكنى أبا عبد الله له كتب . . . أخبرنـا بكتبه ورواياتـه جمـاعة من أصحابنا عن أبي محمد هارون بن موسى التلّعكبري عنه .

وقال ابن شهرآشوب في معالم العلماءِ في فصـل من عرف بلقب أو قبيلة أو بلد :

ابن الجحام أبو عبد الله محمد بن مروان له كتاب تأويل ما نزل في النبيّ وآله عليهم السّلام ثم ذكر مؤلفاته .

وقال العلامة الحلّي في الخلاصة : هو ثقة عين من أصحابنا سديـد كثير الحديث له كتاب ما نزل من القرآن في أهـل البيت عليهم السّلام قـال جماعة من أصحابنا : أنه كتاب لم يصنّف مثله في معناه وقيل إنّه ألف ورقة .

وقال ابن داود في رجاله : هو ثقـة من أصحابنـا عين من أعيـانهم كثير الحديث سديده .

وقـال الأفندي في ريـاض العلماءِ : ابن الماهيـار هـو الشيـخ محمـد بن العبّاس بن علي بن المـاهيار الإمـام الأقـوم المعـاصر للكليني صـاحب كتـاب التفسير الموسوم بكتاب ما نزل من القرآن في أهل البيت ، وهو الثقة المأمون .

وقال المحدث النوري ضمن كلام له .

وعن الشيخ الثقـة الـسـديـد الجليـل محمـد بن العبّـاس بن عـلي بن مـروان بن الماهيـار في تفسيره في مـا نزل في أهـل البيت عليهم السّلام الـذي صرح جمـاعة من الأصحـاب إنّـه لم يُصنّف مثله في معنـاه ، وأنّـه [في] ألف ورقة .

وقال المحدّث القمي : كان ثقة كثير الحديث من أجلاءِ علماءِ الإمامية ومن مشائخ التلّعكبري .

وقال العلامة الطهراني : هو ممّن قال النجاشي في حقّه ثقة ومن مشـائخ أبي محمد هارون بن موسى التلعكبري . سمع منه في ٣٢٨ كما يظهر من كتاب الرجال للطوسي . . .

شيوخه

يستفاد من أسناد الروايات المنقولة عن تفسيره في كتاب تـأويل الآيـات للسيد شرف الدين الإسـترآبادي ومختصر البصـائر للحسن بن سليـمان وسعد السعـود واليقين ومحـاسبة النفس للسيـد ابن طاوس أن شيـوخـه في الحـديث كثـيرون جدّاً ونكتفي في هـذا المقـال بـذكـر عشرين شيخـاً منهم ، كلّهم من الأعلام الأعاظم .

١ ـ أحمد بن إدريس بن أحمد أبو علي الأشعري القمي المعلّم .

كان ثقة فقيهاً في أصحابنا كثير الحديث صحيح الرواية له كتاب النوادر كتاب كبير كثير الفائدة . مات بالقرعاءِ من طريق مكّة على طريق الكوفـة سنة ٣٠٦ .

٢ ـ أبـو العبّاس أحمـد بن محمد بن عبـد الرحمن المعروف بـابن عقـدة الحافظ .

جليل القدر عظيم المنزلة ، وأمره في الثقة والجلالة وعظم الحفظ أشهـر من أن يُـذكـر . لـه كتب كثيرة ، منهـا كتاب التـاريخ وهـو في ذكـر من روى الحديث من الناس كلهم العامة والشيعة وأخبارهم ـ خـرج منه شيء كثير ولم يتّمه ـ كتاب السنن ، وهو كتاب عظيم قيل إنّه حمل بهيمة .

قال النجاشي : ورأيت لـه كتاب تفسير القرآن وهـو كتاب حسن ومـا رأيت أحداً ممن حدّثنا عنه ذكره ، وقد لقيت جماعة ممن لقيه وسمع منه وأجازه منهم من أصحابنا ومن العامة ومن الزيدية ، ومات بالكوفة سنة ٣٣٣ .

٣ ـ أحمد بن محمد بن موسى الهاشمي النوفلي .

روى عن عيسى بن مهـران المعروف بـالمستعـطف . ولـه كتـاب نـوادر كبير .

والمستعـطف هذا عنـونه الخـطيب في تاريـخ بغداد وقـال : روى عنـه

محمد بن جرير الطبري .

٤ ـ أحمد بن نصر بن سعيد الباهلي المعروف بابن أبي هراسة = أحمد بن هوذه .

قال الخطيب في تاريخ بغداد : هو شيخ من شيوخ الشيعة .

له كتاب الإيمان والكفر والتوبة ، مات في ذي الحجة سنة ٣٣٣ يوم التروية بجسر النهروان ودفن بها .

٥ ـ جعفر بن محمد العلوي الحسيني أبو هاشم .

روى عنه التلّعكبري ، وقال : كان قليل الرواية ، وسمع منه شيئاً يسيراً .

والتلّعكبري هذا مات ، سنة ٣٨٥ .

وقال شيخنا في قاموس الرجال : المقصود من الحسيني : إنّه من ولد الحسين الأصغر من بني السجاد (ع) الستّة .

٦ ـ أبو محمد الحسن بن محمد بن جمهور العمّي .

قال النجاشي : بصري ثقة في نفسه ، ينسب إلى بني العمّ من تميم ، يروي عن الضعفاء ويعتمد المراسيل ، ذكره أصحابنا بذلك وقالوا كان أوثق من أبيه وأصلح . له كتاب الوحدة أخبرنا أحمد بن عبد الواحد وغيره عن أبي طالب الأنباري عن الحسن بالوحدة .

وقال النجاشي أيضاً : قال علي بن الحسين الهذلي المسعودي [المتوفى ٣٣٦] : لقيت حسن بن محمد بن جمهور فقال لي حدثني أبي وهو ابن مائة وعشر سنين .

٧ ـ أبو عبد الله الحسين بن محمد [بن عامر] بن عمران بن أبي بكر الأشعري القمّي .

قال النجاشي : ثقة ، له كتاب النوادر ، أخبرنا محمد بن محمد عن أبي غالب الزراري عن محمد بن يعقوب عنه .

فهو من مشائخ الكليني ويروي عنه كثيراً في كتابه الكافي .

٨ ـ حُميد بن زياد بن حمّاد .

قال النجاشي كوفي سكن سورا وانتقل إلى نينوى ـ قرية على العلقمي إلى جنب الحائر على صاحبه السلام ـ كان ثقة واقفاً وجهاً فيهم ، سمع الكتب وصنّف كتاب الجامع في أنواع الشرائع ، كتاب الخمس ، كتاب الدعاء ، كتاب الرجال ، كتاب من روى عن الصادق (ع) ، كتاب الفرائض ، كتاب الدلائل ، كتاب ذمّ من خالف الحق وأهله ، كتاب فضل العلم والعلماء ، كتاب الثلاث والأربع ، كتاب النوادر ، وهو كتاب كبير . ومات سنة عشر [أو عشرين] وثلاثمائة .

وقال الشيخ الطوسي : هو عالم جليل ثقة واسع العلم كثير التصانيف روى الأصول أكثرها له كتب كثيرة على عدد كتب الأصول .

وقال أبو غالب الزراري في رسالته إلى ولده : وسمعت من حميد بن زياد وأبي عبد الله بن ثابت وأحمد بن رماح وهؤلاء من رجال الواقفة إلّا أنّهم كانوا فقهاء ثقات في حديثهم كثيري الدراية (الرواية) .

٩ ـ أبو أحمد بن عبد العزيز بن يحيى الجلودي البصري .

كان ثقة من أكابر الشيعة الإمامية والرواة للآثار والسير ، له نحو من مائتي كتاب . ذكرها النجاشي في الفهرست . منها كتاب التفسير عن علي (ع) ، كتاب ما نزل فيه من القرآن ، كتاب التفسير عن ابن عبّاس ، كتاب التفسير عن الصّحابة .

وقال الشيخ الطوسي : هو من أهل البصرة إمام في المذهب ، له كتاب في السّير والأخبار وله كتب في الفقه ، فمن كتبه كتاب الرشيد والمسترشد وكتاب المتعة وما جاء في تحليلها .

مات بعد سنة ٣٣٠ كما في فهرست ابن النديم .

١٠ ـ أبو محمد بن عبد الله بن العلاء المذاري .

قال النجاشي : هو ثقة من وجوه أصحابنا . يقال أن له كتاب الوصايا ويقال أنه لمحمد بن عيسى بن عبيد وهو رواه عنه وله كتاب النوادر الكبير . أقول روى النجاشي عنه بواسطتين .

١١ ـ علي بن العبّاس المقانعي .

قال الشيخ الطوسي في الفهرست : له كتاب فضل الشيعة .

وعلي بن العبّاس هذا يروي عن عباد بن يعقوب الرواجني الذي مات سنة ٢٥٠ .

١٢ ـ أبو جعفر محمد بن الحسين الخثعمي الأشناني الكوفي .

قال الشيخ الطوسي : روى عنه التلّعكبري وسمع منه سنة خمس عشرة وثلاثمائة وفيها بعدها . مات سنة ٣١٧ وله منه إجازة .

ويروي عنه أبو الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبيين .

١٣ ـ أبو علي محمد بن همام بن سهل الكاتب الإسكافي .

قال النجاشي : شيخ أصحابنا ومتقدّمهم ، له منزلة عظيمة كثير الحديث . . . له من الكتب كتاب الأنوار في تاريخ الأئمة عليهم السّلام ومات سنة ٣٣٦ وكان مولده سنة ٢٥٨ .

وقال الخطيب في تاريخه : هو أحد شيوخ الشيعة مات سنة ٣٣٢ وكان يسكن في سوق العطش ودفن في مقابر قريش .

وقال الشيخ الطوسي : جليل القدر ثقة روى عنه التلّعكبري وسمع منه أوّلاً سنة ٣٢٣ ، وله منه إجازة ومات سنة ٣٣٢ .

١٤ ـ أبو عبد الله محمد بن وهبان الدبيلي .

قال النجاشي : هو ساكن البصرة ثقة من أصحابنا واضح الرواية قليل التخليط له كتب ، منها كتاب الصلاة على النّبي (ص) ، كتاب أخبار الصادق (ع) مع المنصور ، كتاب أخباره مع أبي حنيفة كتاب بشارات المؤمنين عند الموت ، كتاب أخبار الرّضا (ع) ، كتاب ترويح القلوب بطرائف الحكمة ، كتاب الخواتيم ، كتاب منْ روى عن أمير المؤمنين (ع) ، كتاب المزار ، كتاب الدعاء ، كتاب في معنى طوبى ، كتاب التحف ، كتاب الأذان حيّ على خير العمل ، كتاب أخبار يحيى بن أبي الطويل كتاب أخبار أبي جعفر الثاني (ع) .

وقال الشيخ روى عنه التلّعكبري .

١٥ ـ أبو عبد الله محمد بن القاسم بن زكريا المحاربي الكوفي المعروف بالسوداني .

قال النجاشي : ثقة من أصحابنا ، عمّر ، له كتاب الفوائد وهو نوادر .

وقال الشيخ : روى عنه التلّعكبري وسمع منه في سنة أربع وعشرين [وثلاثمائة] وله منه إجازة .

١٦ ـ أبو القاسم منذر بن محمد بن المنذر القابوسي .

ثقة من أصحابنا من بيت جليل ، له كتب ، منها وفود العرب إلى النّبيّ (ص) ، وكتاب جامع الفقه ، وكتاب الجمل ، وكتاب صفّين ، وكتاب النّهروان ، وكتاب الغارات .

روى عنه النجاشي بواسطتين .

١٧ ـ أبو محمد يوسف بن يعقوب بن إسماعيل البصري .

قال الخطيب : سمع محمد بن أبي بكر المقدمي . . . سكن بغداد ، وحدّث بها . . . وكان ثقة وكان تولّى القضاء بالبصرة في سنة ٢٧٦ وضمّ إليه قضاء واسط ، ثم أضيف إلى ذلك قضاء الجانب الشرقي من بغداد . . . مات سنة ٢٩٧ .

١٨ ـ أبو جعفر بن جرير بن يزيد الطبري .

صاحب التفسير والتاريخ المشهورين ، من أعلام العامة ومات سنة ٣١٠ .

١٩ ـ أبو عبد الله الحسين بن محمد بن سعيد البزّاز المعروف بابن المطبقي .

قال الخطيب : يقال إنّه كان علوياً ولم يكن يظهر نسبه وكان ثقة ، ذكر أنّه ولد سنة ٢٣٣ . وتوفّي سنة ٣٢٨ ودفن في داره .

٢٠ ـ أبو عبد الله الحسين بن الحكم بن مسلم الكوفي المتوفى سنة ٢٨٦ .

قال ابن شهرآشوب في معالم العلماء الحبري : له كتاب ما نزل من القرآن في أهل البيت عليهم السّلام .

أقول وهو الذي حقّقه السيّد محمد رضا الحسيني وسمّاه تبعاً لنسمات الأسحار في طبقات رواة الأخبار ـ بتفسير الحبري من منشورات مؤسسة آل البيت .

روى عنه ابن الماهيار على ما في المطبوع من كتاب سعد السّعود وأغلب رواياته عنه بالواسطة ، والظاهر سقوط الواسطة في سعد السّعود ، فابن الماهيار إنّما يروي مباشرة عن شيوخ توفّوا حدود الثلاثين وبعد الثلاثين والثلاثمائة كما تقدّم ، والحبري توفّي سنة ٢٨٦ فهو في طبقة شيوخ مشائخ ابن الماهيار .

مؤلفاته

ذكر الشيخ الطوسي في فهرسته من مؤلّفات ابن الماهيار هذه الكتب :

١ ـ كتاب التفسير الكبير .

٢ ـ كتاب تأويل ما نزل في النّبيّ [وآله] عليهم السّلام .

٣ ـ كتاب تأويل ما نزل في شيعتهم .

٤ ـ كتاب تأويل ما نزل في أعدائهم .

٥ ـ كتاب النّاسخ والمنسوخ .

٦ ـ كتاب قراءة أمير المؤمنين (ع) .

٧ ـ كتاب قراءة أهل البيت عليهم السّلام .

٨ ـ كتاب المقنع في الفقه .

٩ ـ كتاب الأصول .

١٠ ـ كتاب الأوائل .

١١ ـ كتاب الدواجن على مذهب العامة .

وذكر النجاشي : من هذه الكتب : المقنع في الفقه وكتاب الدواجن .

١٢ ـ كتاب ما نزل في القرآن في أهل البيت عليهم السّلام وقال جماعة من أصحابنا أنه كتاب لم يصّنف في معناه مثله وقيل أنه ألف ورقة .

وقال السيد حسن الصدر : له في كل علوم القرآن كتب مفردة ، له كتاب الناسخ والمنسوخ ، وله في تفسير القرآن وتأويله ، وله في محكمه ومتشابهه ، وفي زيادات حروفه وفضائله وثوابه ، وله كتاب ما نزل في أهل البيت من القرآن وهو ألف ورقة . وهو من أهل القرن الثالث رضي الله عنه كان من المعاصرين للكليني صاحب الكافي .

وكما يظهر من هذه العبارة أنّ لابن الماهيار كتاباً في المحكم والمتشابه وكتاباً في ثواب القرآن وفضائله ، وهذان مما لم يذكرا في فهرست الشيخ والنجاشي .

الرواة عنه

لم نعرف من الرواة عنه إلاّ أبا محمد هارون بن موسى بن سعيد بن سعيد التلّعكبري .

قال الشيخ الطوسي : أخبرنا بكتب ابن الجحام ورواياته عدّة من أصحابنا عن أبي محمد هارون بن موسى التلّعكبري عنه .

وقال أيضاً : سمع منه التلّعكبري سنة ٣٢٨ وله منه إجازة .

وقال ابن طاووس : هذا الكتاب ـ أي تأويل ما نزل في القرآن الكريم في النبيّ وآله بعدّة طرق .

منها عن الشيخ الفاضل أسعد بن عبد القاهر المعروف جده بشفرويه الإصفهاني حدّثني بذلك لما ورد إلى بغداد في صفر ٦٣٥ بداري بالجانب الشرقي من بغداد . . . عن الشيخ العالم أبي الفرج علي بن السعيد أبي الحسين الراوندي عن أبيه عن الشيخ أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسن الحلبي عن السعيد أبي جعفر الطوسي رضي الله عنهم .

وأخبرني بذلك الشيخ الصالح حسين بن أحمد السوراوي إجازة في جمادى الآخرة سنة ٦٠٧ (كذا) عن الشيخ السعيد محمد بن أبي القاسم الطبري عن الشيخ المفيد أبي علي حسن بن محمد الطوسي عن والده السعيد محمد بن الحسن الطوسي .

وأخبرني بذلك أيضاً الشيخ علي بن يحيى الحافظ إجازة تاريخها شهر ربيع الأوّل سنة ٦٠٩ عن الشيخ السعيد عربي بن مسافر العبادي عن الشيخ محمد بن أبي القاسم الطبري عن الشيخ المفيد أبي الحسن بن محمد الطّوسي .

وغير هؤلاء يطوي [يطول] ذكرهم .

عن السّعيد الفاضل في علوم كثيرة من علوم الإسلام والده أبي جعفر محمد بن حسن الطوسي قال : أخبرنا بكتب هذا الشيخ العالم أبي عبد الله محمد بن العبّاس بن مروان ورواياته جماعة من أصحابنا عن أبي محمد هارون بن موسى التلّعكبري عن أبي عبد الله محمد بن العبّاس ابن مروان المذكور .

قال النجاشي في هارون بن موسى التلّعكبري : من بني شيبان ، كان وجهاً في أصحابنا ثقة معتمداً لا يطعن عليه . له كتب منها : كتاب الجوامع في علوم الدين ، كنت أحضره في داره مع ابنه أبي جعفر والناس يقرأون عليه .

وقال الشيخ الطوسي : التلّعكبري يكنى أبا محمد جليل القدر عظيم المنزلة واسع الرواية عديم النظير ثقة . روى جميع الأصول والمصنّفات ، مات سنة ٣٨٥ .

وفي إيضاح العلامة الحلّي : التلّعكبري باللّام المشدّدة وضمّ العين والباء . عن فضل الله الراوندي .

قال شيخنا في قاموس الرجال بعد نقل ما في الإيضاح : بل بفتح الباء كما صرّح به السمعاني في أنسابه والحموي في بلدانه . وعكبرا على عشرة فراسخ من بغداد ، وتلّ عكبرا موضع عند عكبرا يقال له : التلّ ، والتلّ منسوب إلى عكبرا .

تفسيره

للأسف لم يبق لنا من الآثار الثمينة والمؤلفات القيّمة لابن الجحام إلّا قسم من كتابه (ما نزل من القرآن في أهل البيت) ولهذا يلزمنا البحث عنه وتعريفه بقدر الإمكان .

وهذا الكتاب النفيس كان موجوداً على عهد النجاشي المتوفى ٤٥٠ والذي قال عنه : قال جماعة من أصحابنا أنه كتاب لم يصنف في معناه مثله وقيل أنّه ألف ورقة وواضح في كلمة (قيل) أنه لم يره بنفسه .

وبقي إلى القرن السابع ، وكان عند ابن طاووس المتوفى سنة ٦٦٤ ، ونقل عنه في غير واحد من مؤلّفاته .

قال في كتابه سعد السعود : فصل في ما نذكره من المجلّد الأول من تأويل ما أنزل من القرآن الكريم في النبيّ وآله صلوات الله عليه وعليهم تأليف أبي عبد الله محمد بن العبّاس بن علي بن مروان المعروف بابن الجحام .

وقال فيه أيضاً : فصل فيما نذكره من المجلد الثاني منه .

وقال في كتابه (اليقين) الباب الثاني والتّسعون فيما نذكره من كتاب تأويل ما نزل من القرآن الكريم في النبي (ص) . . . تأليف الشيخ العالم محمد بن العبّاس بن علي بن مروان في تسمية النبيّ (ص) مولانا علي (ع) أمير المؤمنين :

(أعلم أن هذا محمد بن العبّاس قد تقدم ما ذكرناه عن أبي العبّاس أحمد بن علي النجاشي أنه ذكر عنه رضي الله عنه : إنه ثقة عين ، وذكر أن جماعة من أصحابنا ذكروا أن هذا الكتاب الذي ننقل ونروي عنه لم يُصنّف في معناه مثله وقيل أنه ألف ورقة ، وقد روى أحاديثه من رجال العامّة لتكون أبلغ في الحجّة وأوضح في المحجّة وهو عشرة أجزاء والنسخة التي عندنا الآن . . . مجلّدان ضخمان قد نسخت من أصل عليه خط أحمد بن الحاجب الخراساني في إجازة تاريخها في صفر سنة ٣٣٨ وإجازة بخط الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي وتاريخها في جمادى الآخرة سنة ٤٤٣) .

ثم نسخة ابن طاووس التي كان عليها خطه بقيت حتى زمن الشيخ حسن بن سليمان الحلي من أعلام القرن الثامن وأوائل القرن التاسع من تلاميذ الشهيد الأول مجاز منه سنة ٧٥٧ وكانت عنده رحمه الله ونقل عنه في كتابه (مختصر بصائر الدرجات لسعد بن عبد الله) .

قال في مختصر البصائر :

يقول : عبد الله حسن بن سليمان وقفت على كتاب فيه تفسير الآيات التي نزلت في محمد وآله صلوات الله عليهم تأليف محمد بن العبّاس بن مروان يعرف بابن الجحام وعليه خط السيد رضي الدين علي بن طاووس أن النجاشي ذكر عنه أنه ثقة ثقة وروى السيد رضي الدين علي بن طاووس عن فخار بن معد بطريقه إليه من الكتاب المذكور ثم نقل سبعة أحاديث من هذا الكتاب .

وقال فيه أيضاً :

ومن كتاب تأويل ما نزل من القرآن في النبي وآله صلوات الله عليه وعليهم تأليف أبي عبد الله محمد بن العبّاس بن مروان ، وعلى هذا الكتاب خط السيد رضي الدين علي بن موسى بن طاووس ما صورته : قال النجاشي في كتاب الفهرست ما هذا لفظه : محمد بن العبّاس ثقة ثقة في أصحابنا . . .

رواية علي بن موسى بن طاوس عن فخار بن معد العلوي وغيره عن شاذان بن جبرئيل عن رجاله ، ثم نقل عنه روايات كثيرة فراجع .

وعلى ما يبدو أن الكتاب كان موجوداً عند الشيخ تقي الدّين الكفعمي صاحب كتاب جنة الأمان الواقية المشتهر بالمصباح الذي فرغ من تأليفه سنة ٨٩٥ إذ ذكره في عداد مصادره في آخر الكتاب ونقل عنه في حاشيته في موردين :

وذكر أبو عبد الله محمد بن العبّاس بن مروان المعروف بابن الجحام في كتابه ما نزل من القرآن في أهل البيت وهذا الكتاب ألف ورقة ولم يصنّف مثله في معناه .

وفي هذا الزمان أعني أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر ظفر السيد الشريف شرف الدين علي الحسيني الأسترآبادي تلميذ المحقق الكركي وصاحب كتاب تأويل الآيات الباهرة في فضائل العترة الطاهرة بالمجلد الثاني منه وأدرج قسماً من رواياته في كتابه هذا .

قال السيد شرف الدين في تأويل الآيات :

قوله تعالى : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي . . . ﴾ (سورة الإسراء الآية ٧٣) تأويله : ما ذكره الشيخ محمد بن العبّاس .

ومن قبل أن نذكر رواياته الصحيحة نذكر ما قيل فيه في كتب الرجال ـ

ثم ذكر ما نقلنا من قبل عن العلّامة الحلّي في الخلاصة وابن داود في رجاله ـ ثم قال :

وهذا كتابه المذكور ـ أي ما نزل من القرآن في أهل البيت ـ لم أقف عليه كلّه بل نصفه من هذه الآية ـ أي ٧٣ من سورة الإسراء ـ إلى آخر القرآن . . .

وكان تأليف هذا الكتاب قبل سنة ٩٣٧ إذ لـه تلخيص ومنتخب فرغ من تنميقه منتخبه في سنة ٩٣٧ قال العلّامة الطّهراني في الذريعة :

وتأويل الآيات هذا من مصادر تفسير البرهان للبحراني والبحار للعلامة المجلسي وإثبات الهداة للشيخ الحرّ العاملي وغيرهم ممّن عاصرهم أو تأخّر عنهم إلى زماننا هذا وقال السيد هاشم البحراني المتوفى ١١١٤ في فصل بيان مصادر تفسيره المسمّى بالبرهان : كتاب الشيخ محمد بن العبّاس بن مروان الماهيار وهذا الكتاب لم أقف عليه لكن أنقل عنه ما نقله السيّد شرف الدّين النجفي المقدّم ذكره ولم يتفق له العثور على مجموع كتاب محمد بن العبّاس بل من بعض سورة الإسراءِ إلى آخر القرآن وأنا إن شاء الله اذكر ما ذكره عنه .

وقال الشيخ الحرّ العاملي المتوفى ١١٠٤ ، في فصل بيان مصادر كتابه المسمّى بإثبات الهداة : وقد نقلنا من كتب أخرى من مؤلّفات الإمامية لم نرها لكن نقل منها بعض أصحاب المؤلفات السابقة ونقلنا نحن منها بالواسطة وبعضها قد رأيته ولم يحضرني عند جمع هذا الكتاب فمنها . . . كتاب ما نزل من القرآن في أهل البيت عليهم السّلام لمحمد بن العبّاس بن مروان الثّقة .

وقال العلامة المجلسي المتوفى ١١١١ في مقدمة البحار عند ذكر مصادره وبيان توثيقها : كتاب تأويل الآيات الظّاهرة في فضائل العترة الطاهرة للسيد الفاضل العلامة الزكي شرف الدين علي الحسيني الأسترآبادي المتوطن في الغريّ مؤلف كتاب الغروية في شرح الجعفرية تلميذ الشيخ الأجل نور الدّين علي بن عبد العالي الكركي وأكثره مأخوذ من تفسير الشيخ الجليل محمد بن العبّاس بن علي بن مروان بن الماهيار وذكر النجاشي ـ بعد توثيقه ـ إن لـه كتاب ما نزل من القرآن في أهل البيت ، وكان معاصراً للكليني ، وكتاب كنز جامع الفوائد وهو مختصر من ذلك الكتاب لبعض من تأخّر عنه . . .

وقال في موضع آخر : وكتاب تأويل الآيات وكتاب كنز جامع الفوائد رأيت جمعاً من المتأخّرين رووا عنها ومؤلّفها في غاية الفضل والديانة .

ويظهر من عبارة نضد الإيضاح : (له كتاب ما نزل من القرآن في أهل البيت عليهم السّلام وهو كتاب جيّد) إن علم الهدى ابن الفيض الكاشاني مؤلف النضد قد رأى هذا الكتاب واستجاده إلا أن يقال لعله رآه في كتاب تأويل الآيات للسيد شرف الدين والله العالم .

حجمه . . . وأهميته

قال النجاشي : كتاب ما نزل من القرآن في أهل البيت قيل أنـه ألف ورقة .

قال ابن طاووس : هو عشرة أجزاء والنسخة التي عندنا الآن . مجلّدان ضخمان .

وأيضاً يدلّ على كبر هذا التفسير أن الروايات كثيراً ما تنقل فيه بأسانيد متعددة مثل ما يلي :

قال ابن طاووس في سعد السعود : قد روى محمد بن العبّاس بن مروان نزول يا أيها الرسول بلغ ما انزل إليك . . . في حق علي (ع) عن أحد وثلاثين طريقاً . . .

وروى فيه [اختصاص] آية المباهلة بمولانا علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السّلام من أحد وخمسين طريقاً عمن سماه من الصحابة وغيرهم .

وروى فيه حديث فدك من عشرين طريقاً .

وروى تخصيص آية التطهير بهم عليهم السّلام من أحد عشر طريقاً .

اختصره أحد الأعلام ولم نعرفه وكانت نسخته عند السيد ابن طاووس ونقل منها في سعد السّعود رواية واحدة .

قال : فصل فيما نذكره من كتاب التفسير مجلدة واحدة قالب الربع مختصر كتاب محمد بن العبّاس بن مروان ولم يذكر من اختصره ونذكر عنه رواية واحدة تفسير آية من سورة الرعد ﴿ طوبى لهم وحسن مآب . . . ﴾ .

وذكر هذا المختصر العلامة الطهراني في الذريعة .

يتبين مما ذكرنا أن قسماً من هذا التفسير الثّمين قد وصل إلينا عن طريق بعض كتب السيد ابن طاووس ومختصر البصائر ، ومصباح الكفعمي ، وتأويل الآيات للأسترآبادي فيلزمنا استخراج هذه الرّوايات من هذه الكتب ، والتحقيق في إسنادها ومتونها ، ثم جمعها ونظمها على ترتيب آيات القرآن الكريم وطبعها ونشرها بعنوان (قسم من تفسير ابن الماهيار) أو (مختصر تفسير ابن الماهيار)[1] .

الشيخ محمد حسين بن غلام علي الأيسي القزويني

ولد في قزوين سنة ١٣٣٦ وتوفي بها يوم الاثنين ٧ شوال سنة ١٤١١ حكيم مفسر محقق من رجال الفتوى وأكابر المدرسين في قزوين أخذ المقدمات والأدب عن السيد أحمد عماد حاج سيد جوادي وسطوح الفقه والأصول من حوزة الشيخ أحمد تألهي والسيد محمد مهدي التقوي وتخرج في الحكمة والفلسفة على السيد أبو الحسن الرفيعي القزويني والسيد محمد حسين الطباطبائي صاحب تفسير الميزان وتخرج في الفقه على الحاج أقا حسين البروجردي والأصول على الشيخ عباس الشاهرودي والسيد محمد الداماد ، ثم اختص به أستاذه الطباطبائي صاحب الميزان وكان من الملازمين له ، المقربين أليه حتى سنة ١٣٨٠ التي رجع فيها إلى موطنه قزوين فانتهى إليه فيها كرسي التدريس وكان وحيد عصره في تدريس الحكمة والفلسفة وتخرج عليه جماعة من الأفاضل وهو من رواد مدرسة صدر المتألهين الشيرازي وبوفاته انتهى تدريس الفلسفة في قزوين .

لـه مؤلفات منها : (تفسير القرآن) مخطوط ، رأيته عنده ، وهو بأسلوب قل نظيره ، وله حواش على أسفار صدر المتألهين الشيرازي ، وحواش على منظومة السبزواري ، وحواش على إلاهيات ابن سينا[2] .

(١) الشيخ رضا الأستادي .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

السيد محمد حسين الطهراني الحسيني ابن السيد محمد صادق

توفي سنة ١٤١٠ في مشهد الرضا .

كانت ولادته في طهران ، وفيها درس المقدمات ، ثم سافر سنة ١٣٦٤ إلى قم ، وبعد ست سنوات من الدراسة فيها سافر منها إلى النجف الأشرف حيث درس عند كبار العلماء كالسيد الخوئي في الأصول والفقه ، والسيد جمال الدين الگلبايگاني في الأخلاق . ثم رجع إلى طهران وبدأ التدريس والإرشاد وإمامة الصلاة في مسجد القائم . ثم سافر إلى (مشهد) منشغلاً فيها بالتأليف والتحقيق .

كان من أساتذته في قم السيد محمد حسين الطباطبائي حيث درس عليه الفلسفة والأخلاق . من آثاره ١ ـ رسالة في تفسير آية الرجال قوامون على النساء) . ٢ ـ معاد شناسي (معرفة المعاد) ٣ ـ إمام شناسي (معرفة الإمام) في اثني عشر مجلداً . ٤ ـ لمعات الحسين . ٥ ـ تحقيق وشرح رسالة السير والسلوك ٦ ـ رسالة لب الألباب في سير وسلوك أولي الألباب ، ٧ ـ رسالة رؤية الهلال . ٨ ـ مجموعة يكتاشناسي (معرفة التوحيد) وهي غير مطبوعة .

محمّد بن عبد الله الأبرقطي

ذكره شارح القصيدة الفزارية بكلام يفهم منه أنّه كان من أنصار الفاطميّين ، وأنّه حرض المنصور على الانتقام من الفزاري بسبب انتصاره ساعة لأبي يزيد . ولم نجدْ للأبرقطي هذا ذكراً في كتب التراجم ولا في كتب الطبقات . حتّى المالكي صاحب رياض النفوس لا يذكره .

ونقل الشّارحُ في مستهّل شرحه للقصيدة الفزاريّة ، أبياتاً للأبرقطي ، يحرّض فيها المنصور على الفزاري ويشنّع عليه هجوه لبني عبيد ، وهذا الشعر قطعتان :

المقطوعة الأولى :

امنصور هاشم من لا يحب حياتك لا صحبته الحياة
وعاجله، قبل أن ينتهي إلى أمد يبتغيه، الممات
أيمشي الفزاري فوق التراب وأظفاره فيكم داميات؟
فأين بوادرك المهلكات وأين عزائمك الموجزات؟
أزح عنه عفوك لا تبقه فأفعاله فيكم منكرات
وجاز اللعين بأفعاله فآثاره فيكم باقيات

المقطوعة الثانية :

أيظن وغد فزارةُ ظن امرىء جهل العواقب ثم لا يتفكر
أن الذي ارتكب اللعين وناله من بيت أهل الوحي ذنب يغفر؟
هيهات تلك جنية مطوية فإذا أتى الأجل الموقت تنشر

السيد محمد بن السيد عبد الحسين بن السيد أحمد بن السيد الحسن بن السيد جعفر العاملي الأصل القزويني المولد والمنشأ والمدفن المعروف بـ (صدر الصدور والمتخلص) بـ (خاك) .

ولد في قزوين سنة ١٢٨٣ وتوفي بها سنة ١٣٦٧ ودفن في الخانقاه التي أسسها في شمال مدينة قزوين عند باب مدينة قزوين الأثري المعروف بـ « دروازه راكش » .

من أعلام الفقه والأصول حكيم عارف متصوف ، أديب شاعر بالفارسية والعربية ولد في بيت علم وفضل وجاه وكان والده من أعيان العلماء وله أملاك وثراء ، أخذ المقدمات والعلوم العربية وفنون الأدب والصرف والنحو والبديع والبيان والمنطق على جماعة من أفاضل علماء قزوين وأخذ الفقه والأصول على الأخوند ملك محمد الغنوي والشيخ آقا حسين أبله كوب والميرزا شفيع الأشتياني وكان مولعاً بالكيمياء والرياضيات والعلوم الغريبة فأتقنها على الميرزا فضل الله القزويني في مدرسة شيخ الإسلام ثم هاجر إلى طهران وتخرج في الحكمة والفلسفة على الميرزا أبو القاسم حكيم اللهي التفريشي والسيد كاظم المصلاتي وأخذ الطب على الميرزا حسين حكيم الجوادي ثم توجه إلى العراق قاصداً الحوزة العلمية في كربلاء فتخرج هناك في الفقه والأصول في كربلاء على مدرس الطف الشيخ الميرزا علي نقي البرغاني الحائري آل الصالحي وأخذ العلوم العقلية على الميرزا علامة البرغاني الحائري آل الصالحي وعاد إلى موطنه قزوين ومال إلى التصوف وأسس خانقاه عند بوابة مدينة قزوين الأثرية المعروفة « دروازه راكش » وجعل فيها جناحاً لمكتبة عامة . فكان هناك مجمع الأدباء والشعراء والمتصوفة وهو من أعلام أسرته آل صدر الصدور الذي هاجر جدهم الأعلى السيد جعفر من جبل عامل في عهد نادرشاه الأفشاري الذي أنعم عليه بلقب صدر الصدور وأول من اشتهر بـ « صدر الصدور » هو السيد جعفر المار الذكر .

والمترجم له من أقرب أصدقاء الشاعر الشعبي المعروف عارف القزويني وتربطه به علاقات أخوية متينة . والمترجم له هو والد السيد عبد الحسين صدر الصدر القزويني المار الذكر .

ترك المترجم له مؤلفات مطبوعة ومخطوطة منها :

١ ـ ديوان شعر مطبوع ، ٢ ـ ديوان شعر مخطوط ، ٣ ـ قانون الرياضة في سبيل الهداية منظومة نظمها في سفره للحج عام ١٣٠٦ بمكة المكرمة وطبعت سنة ١٣١١ في طهران ، ٤ ـ شرح الصدور في حقائق الأمور طبعه في طهران ، ٥ ـ رسالة في الكيمياء ، ٧ ـ رسالة في العلوم الغريبة[1] .

الشيخ محمد بن عبد الله البحراني الشيباني .

من أعلام الشيعة في القرن السادس .

لم نقف على تاريخ ولادته ووفاته إلا أنه كان من تلاميذ الشيخ أبي محمد الحسن بن علي ويروي بإجازة عنه عن الشيخ علي بن إسماعيل كما في بعض أسانيد الكتاب العتيق قال شيخنا في طبقات أعلام الشيعة (. . . المعاصر للشيخ عربي بن مسافر ورشيد الدين محمد بن علي بن شهرآشوب وشاذان بن جبرئيل والشريف محمد بن محمد بن الجعفرية وأحمد بن شهريار وراشد بن إبراهيم البحراني وعبد الله بن جعفر الدوريستي وإضرابهم لأن الشيخ تاج الدين حسن بن علي الدربي يروي عن جمع من هؤلاء كما ذكره العلامة

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

الحلي في الإجازة الكبيرة لبني زهرة وهو يروي أيضاً عن صاحب الترجمة . . .) أقول توفي أبو عبد الله رشيد الدين محمد بن علي بن شهرآشوب سنة ٥٨٨ وتوفي شاذان بن جبرئيل بعد سنة ٥٨٨ وتوفي راشد بن إبراهيم البحراني سنة ٦٠٥ فكلهم من علماء الشيعة في القرن السادس للهجرة[١] .

الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق البيهقي السبزواري .

توفي حدود سنة ٣٣٦ .

من شعراء الشيعة المبرزين في بيهق وأكابر العلماء نحوي متفنن لغوي متضلع نابغة الأدب والفضل . ولد في مدينة سبزوار وأخذ العلم وفنون الأدب في مسقط رأسه سبزوار إحدى المراكز العلمية الشيعية آنذاك عند جماعة من فحول العلماء ثم نبغ في الشعر والأدب ثم هاجر من سبزوار إلى مدينة بيهق واستقر بها وكان له رياسة . لم أقف على تاريخ ولادته ووفاته إلا أنه كان معاصراً للشاعر القفال الشاشي المتوفى سنة ٣٣٦ وطلب منه الخليفة العباسي المطيع لله الذي خلع عام ٣٣٤ إنشاء قصيدة في جواب قيصر الروم . كما سيأتي .

والمترجم له من أسرة البديليين ومن أقارب آل بديل بن ورقاء الخزاعي النازلين في محال سبزوار ونيسابور[٢] ذكره ابن الفندق البيهقي المتوفى سنة ٥٦٥ في كتابه تاريخ بيهق بما تلخيصه وتعريبه : (أبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق البيهقي ولد في سبزوار ونشأ بها ثم هاجر إلى بيهق وفي عهد خلافة المطيع لله العباسي ارسل قيصر الروم قصيدة عربية يهدد بها خليفة المسلمين المطيع لله العباس الذي خلع عام ٣٣٤ مطلعها :

من الملك الطهر المسيحي رسالة ... إلى قائم بالملك من آل هاشم

فطلب المطيع لله العباسي من جميع شعراء وأدباء وفضلاء البلاد الإسلامية أن ينظموا قصائد في جواب قصيدة قيصر الروم التي كانت مشحونة بأنواع التهديدات فوصل من جميع أنحاء البلاد الإسلامية قصائد رائعة فأجمع الأدباء والشعراء على اختيار قصيدتين منها الأولى قصيدة المترجم له والقصيدة الثانية للقفال الشاشي فأرسلتا إلى قيصر الروم . . .)[٣] .

مطلع قصيدة المترجم له :

أو هنا وغزو الروم ضربة لازم ... اريشا وقد جاؤا بتلك العظائم
اسمعنا لألحان القيان يصغنها ... وفي الروم تدعو الويل أولاد فاطم

ومطلع قصيدة الإمام القفال الشاشي :

أتاني مقال لامرىء غير عالم ... بطرق مجاري القول عند التخاصم

ومطلع قصيدة أبو الحسن نصر بن أحمد المرغيناني :

عجبت لنظم صاغه شر ناظم ... ابفيه الثرى فيما افترى من عظائم

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .
(٢) أبو الحسن علي بن زيد البيهقي : تاريخ بيهق تحقيق أحمد بهمنيار ص ١٦٣ الطبعة الأولى طهران سنة ١٣١٧ ش .
(٣) نفس المصدر ص ١٦٢ - ١٦٣ .

وكان المترجم له شاعراً وقد جمع أشعاره السيد أبو الحسن محمد بن علي العلوي السويزي في خمس مجلدات وأشار إلى ديوانه شيخنا في الذريعة وقال : (ديوان البيهقي لأبي عبد الله محمد بن عبد الرزاق البيهقي المولود بسبزوار قال في تاريخ بيهق ص ١٦٢ أنه من آل بديل بن ورقاء الخزاعي القاطنين في بيهق وقد جمع أشعاره السيد أبو الحسن محمد بن علي العلوي السويزي في خمس مجلدات . . .)[٤] .

وله أيضاً مؤلفات منها كتاب الدارات الذي ألفه باسم الأمير ناصر الدولة أبي الحسن السمجوري .

ومن أشعاره قوله :

عليك بمن يزينك فالتزمه ... ولا تبعده من رفق ولين
إذا ما المرء ليس له صديق ... تراه كالشمال بلا يمين

ومنها :

افق أيها الإنسان من سكرة الهوى ... فليس الهوى إلا عدو موارب
وكس قبل أن يلهيك دنياك واغتنم ... فراغك للأمر الذي أنت طالب
فمن لم يكيسه أب أو مؤدب ... صبياً فكهلاً كيسته التجارب

وله :

إذا مات ميت راعنا الموت ساعة ... ونضحك في الأخرى إذا هو يقبر
كذا الشاء تنسى الرعي والذئب مقبل ... وتألف مرعاها إذا الذئب يدبر

وله :

ليس بعد القصور إلا القبور ... إنما للخراب تبنى القصور
أيها الطالب البقاء تفكر ... هل على حالة تدوم الأمور

وله :

ألفت الصياغة من غير ان ... أمس حديدا وأذكي سعيرا
اذهب وجهي بنار الأسى ... وأسبك من ماء عيني شذورا

ومن أحفاد المترجم له في بيهق العالم الفاضل الفقيه الحافظ الحسن بن أبي علي بن عبد الرزاق البيهقي المتوفى في حادثة سقوط سقف الحمام عليه في شعبان سنة ٥٦٢ ودفن في مقبرة والد أبي الحسن علي بن زيد البيهقي المعروف بابن الفندق المتوفى سنة ٥٦٥ كما ذكره في كتابه تاريخ بيهق الذي ألفه سنة ٥٦٣ وقد خلف ولداً هو علي بن الحسن البيهقي المولود في بيهق يوم الخميس السادس عشر من رجب سنة ٥٣٨ ومن أعلام هذا البيت الجليل علي بن إبراهيم بن أبي علي بن عبد الرزاق البيهقي ابن أخ الفقيه الحافظ الإمام الحسن بن أبي علي البيهقي[٥] .

محمد شهابي بن عبد السلام

ولد عام ١٣٢١ هـ وتوفي سنة ١٤٠٦ بمدينة تربت حيدرية في جنوب خراسان . درس العلوم الإسلامية في مسقط رأسه ثم في مشهد بخراسان ثم درّس في أصفهان وقم مدة ، وأخيراً جاء إلى طهران فصار

(٤) الشيخ آغا بزرك الطهراني : الذريعة إلى تصانيف الشيعة القسم الأول ج ١ ص ١٥٦ .
(٥) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

مدرساً في كلية الإلهيات وأستاذاً في كلية الحقوق والعلوم السياسية حيث در فيها لسنوات عديدة مادتي الفقه والأصول ، وبعد التقاعد سافر إلى أوروبا وسكن مدينة أستراسبورغ بفرنسا ، له مؤلفات عديدة منها : أدوار الفقه في ثلاثة أجزاء ، تقريرات الأصول ، وقد حقق كتاب لباب الإشارات لفخر الدين الرازي(١) .

السيد شمس الدين محمد بن السيد عز الدين شرف شاه بن محمد الحسيني الأفطسي النيسابوري المعروف بزبارة .

من العلماء الفقهاء في عصره ، ثقة صالح ، لم أقف على تاريخ ولادته ووفاته إلا أن والده السيد عز الدين شرف شاه المعروف بزبارة المدفون بالغري المار الذكر ، والمذكور في الجزء السابع من أعيان الشيعة ص ٣٣٧ توفي بعد سنة ٥٧٣ . أخذ المترجم له الفقه والحديث عن والده وأعلام أسرته ثم سكن في الجبل الكبير وكان من زعماء الشيعة في تلك النواحي ذكره منتجب الدين في الفهرست ص ١٢٥ وقال : (المقيم بالجبل الكبير من الفقهاء عالم صالح . . .) ونقل عنه الحر العاملي في أمل الآمل ج ٢ ص ٢٧٦ والأردبيلي الحائري في جامع الرواة ج ٢ ص ١٣٠ وصاحب تنقيح المقال في ج ٣ ص ١٣١ وغيرهم (٢).

الميرزا محمد علي ويقال المير غضنفر علي ويقال المير غلام رسول المتخلص بـ آزاد والمعروف بـ آزاد كشميري .

من أعاظم شعراء العصر القاجاري وأكابر عرفائه ومن أقطاب الصوفية ، طبيب حاذق فيلسوف متبحر ، خطاط ماهر لم أقف على تاريخ ولادته ووفاته ومشائخه إلا أنه كشميري الأصل وسكن قزوين زماناً وأخذ الحكمة والفلسفة على يد الآخوند ملا آغا الحكمي القزويني ولازم الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وشقيقه الشهيد الثالث المستشهد سنة ١٢٦٣ وتفقه عليهما وناظر الشيخ أحمد الأحسائي المتوفى سنة ١٢٤١ مؤسس الفرقة الشيخية ثم توجه إلى العتبات المقدسة في العراق وسكن كربلاء والنجف ثم رجع إلى إيران وطاف جميع أنحائها ثم سكن في أواخر عمره في بلدة نهاوند وانضم إلى حاشية الأمير محمود ميرزا القاجاري نجل السلطان فتح علي شاه القاجاري وذكره الأمير المذكور في كتابه (سفينة المحمود) الذي ألفه سنة ١٢٤٠ وذكر فيها شعراء عصره ، نلخص منها ما هو تعريبه : (آزاد اسمه الميرزا محمد علي كان قطب العارفين ونقطة دائرة الشعراء أصله من بلدة كشمير في الهند شاعر متفنن وله أسلوب قوي وشعر رائع وخط جميل بل أمهر الخطاطين أنشد مثنوياته على طريقة المحقق الرومي وله غزليات وقصائد ، أما غزلياته فلها مكانة خاصة بين أشعاره . . . كما كان من نوادر علماء الطب وتزكية النفس والمجاهدات الروحية في عصره . . . ونحمد الله أن ما يقرب من ثلاثين شاعراً انضموا إلينا اليوم ، وكذلك جمع من العلماء والفضلاء والحكماء والمنجمين وقد جعلت لهم رواتب شهرية جارية ومن بينهم المترجم له الذي اشتريت له داراً وزوجته بإحدى بنات عبيدنا وجهزتها . . . ثم تعرض له بقول خشن . . . كذلك(٣) ثم نشر قسماً من شعره وغزلياته . وذكره رضا قلي خان هدايت المتوفى سنة ٢٨٨ في كتابه رياض العارفين وكان اجتمع به في شيراز . قال : (آزاد الكشميري واسمه المير غلام رسول المشهور بـ محمد علي . كان ماهراً في أكثر العلوم المتداولة وخاصة في الحكمة والطبيعيات والعلوم العقلانية والرمل والشعر لقد طاف في جميع البلدان الإيرانية وتذوق العالي والداني من هذا العالم وتناقش مع مشائخ الصوفية المعاصرين وله كلام كثير معهم وكان من طلاب مدرسة العرفان والتصوف ويجالس الدراويش ، سافر إلى العتبات المقدسة في العراق وصحب الشيخ خالد النقشبندي الكردي وناظر وعاشر الشيخ أحمد الأحسائي واجتمعت معه في شيراز . . .)(٤) ثم نشر قسماً من شعره . ووصفه معصوم علي شاه في طرائق الحقائق بالنقشبندي وقال (المير غضنفر علي ويقال المير غلام رسول واسمه المشهور به محمد علي ، الكشميري الأصل ، من أعلام علماء الرياضيات والطبيعيات ، اتصل بجمع غفير من مشائخ الصوفية في إيران ثم هاجر إلى العراق واتصل بالشيخ الكامل خالد الكردي زعيم النقشبندية وفي أواخر عمره سكن بلدة تويسركان وتزوج هناك وله ذرية باقية . . .)(٥) .

ترك المترجم له مؤلفات وآثاراً منها ديوان غزليات في عدة آلاف بيت ، هفت دفتر في بحر الرمل ومثنوى ، ديوان خمخانه ، ديوان ميخانه أشار إلى ديوانه شيخنا الأستاذ الرازي في الجزء التاسع القسم الأول صفحة ٦ من موسوعته الذريعة إلى تصانيف الشيعة(٦) .

محمد علي بن أعثم الكوفي

توفي ٣١٤ .

مرت ترجمته في موضعها من الأعيان . ونقول هنا عن كتابه الفتوح :

ترجم إلى اللغة الفارسية سنة ٥٩٦ هـ وطبعت ترجمته بالحجر مراراً . واستفاد بعض العلماء من هذه الترجمة مثل ولكنز وأوسلي Auseley . ثم نسي الكتاب إلى أن جلب العالم التركي أحمد زكي وليدي انتباه العلماء إلى أصله العربي المحفوظ في مكتبة السلطان أحمد الثالث في سراي توب قابرن تحت رقم ٢٩٥٦ . ويوجد منه نسخة أخرى أيضاً في مكتبة تستر بيتي .

أبو جعفر محمد بن علي الإمامي القاضي بسارية ويقال بازارويه الديلمي القزويني .

لم أقف على تاريخ ولادته ووفاته هو من قرية إمام من قرى ديلمستان قرب قزوين ولا تزال هناك قرية معروفة باسم (إمام) حتى اليوم(٧) أخذ العلم عمن أعاظم علماء عصره وتصدر كرسي الفتوى والقضاء والرياسة ، ذكره الشيخ عبد الجليل القزويني الرازي في كتابه النقض(٨) الذي ألفه حدود سنة ٥٦٠ وذكر أنه من أكابر علماء عصره وأشار إلى أسرته .

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٣) الأمير محمود الميرزا القاجاري : سفينة المحمود ج ٢ ص ٥٦٨ ـ ٥٧٧ تحقيق الدكتور خيام پور طهران الطبعة الأولى .

(٤) رضا قلي خان الهدايت : رياض العارفين ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩ تحقيق مهر علي الگرگاني طهران الطبعة الأولى .

(٥) انظر طرائق الحقائق ج ٣ ص ٢٥٢ طهران الطبعة الأولى منشورات مكتبة باراني .

(٦) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٧) انظر فرهنگ جغرافيائي إيران ج ٢ محافظة الأول ص ٢٣ .

(٨) انظر النقض ص ٢١٢ : تحقيق الدكتور السيد جلال الدين المحدث طبعة طهران من منشورات انجمن آثار ملي .

من أكابر علماء الشيعة في القرن السادس للهجرة وفحول الفقهاء .

آل الإمامي : من الأسر العلمية الشيعية العريقة بزغ نجمها في قزوين في أواخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس وهم من قرية الإمام من قرى ديلم قرب قزوين وقد ظهر من هذا البيت الجليل غير واحد من أكابر العلماء وفحول المتكلمين ، منهم الشيخ مجد الدين محمد بن علي بسارية الإمامي الديلمي القزويني والقاضي ناصر الدين ناصر أبو جعفر الإمامي الديلمي نجل المترجم له وغيرهم من العلماء وأشار إلى هذه الأسرة الشيخ عبد الجليل القزويني في كتابه النقض[1] وقال عنهم صديقنا الدكتور السيد جلال الدين المحدث في تعليقاته على فهرست منتجب الدين (. . . وعلى أغلب الظن أن لقب وشهرة هذه الأسرة بالإمامي هو انتسابهم إلى قرية الإمام من قرى ديلمستان حيث قال السيد ظهير الدين المرعشي في كتابه تاريخ طبرستان ورويان ومازندران حين ذكر أولاد السيد كمال الدين وتعيين موضع قبورهم قال خلف السيد عبد الوهاب ولدين أحدهما السيد غياث الدين وقبره في قرية إمام من قرى ديلمستان وأضاف أيضاً في موضع آخر من كتابه المذكور والسيد كمال الدين قبره في قرية الإمام من قرى ديلمستان ولا تزال هذه القرية تعرف حتى اليوم باسم قرية الإمام)[2] .

وذكر المترجم له جمع من المحققين منهم منتجب الدين في الفهرست ص ١٢١ ونقله عنه الشيخ الحر العاملي في أمل الآمل ج ٢ ص ٢٨٢ ووصفه بالفقيه الورع والشيخ الميرزا عبد الله الأفندي الأصفهاني في رياض العلماء ج ٥ ص ١١٧ والأردبيلي الحائري في جامع الرواة ج ٢ ص ١٥٣ وشيخنا الأستاذ الطهراني في طبقات أعلام الشيعة وغيرهم[3] .

القاضي مجد الدين محمد بن علي الإمامي الديلمي القزويني .

من متكلمي الشيعة وفقهائهم في القرن السادس لم أقف على تاريخ ولادته ووفاته . ذكره منتجب الدين في الفهرست ووصفه (. . . بالفقيه صالح واعظ . . .)[4] ونقل عنه الشيخ الحر العاملي في أمل الآمل وقال ويحتمل اتحاده بسابقه القاضي أبو جعفر محمد بن علي الإمامي[5] ورد عليه شيخنا في طبقات أعلام الشيعة وقال (. . . ذكره منتجب الدين بن بابويه بلا فصل بينه وبين أبو جعفر محمد بن علي الإمامي فيظهر منه تعددهما . . .)[6] .

أقول وذكره أيضاً الحائري الأردبيلي في جامع الرواة ج ٢ ص ١٥٣ في ترجمتين مستقلتين وعبر عنه بالفقيه صالح واعظ وعن أبي جعفر محمد بن علي الإمامي بالورع الفقيه ومر ذكر اسرته آل الإمامي وأنها من البيوت العلمية العريقة في قزوين والديلم في ترجمة سلفه الشيخ القاضي أبو جعفر محمد بن علي الإمامي الديلمي القزويني[7] .

(١) نفس المصدر ص ٢١٢ .

(٢) تعليقات فهرست منتجب الدين : الدكتور السيد جلال الدين المحدث ص ٤٤٣ .

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٤) الشيخ منتجب الدين علي بن بابويه : الفهرست ص ١٢١ تحقيق الدكتور السيد جلال الدين المحدث قم منشورات المكتبة المرعشية .

(٥) الشيخ الحر العاملي الأمل الآمل ج ٢ ص ٢٨٢ تحقيق السيد أحمد الحسيني بغداد مكتبة الأندلس الطبعة الأولى .

(٦) الشيخ آغا بزرك الطهراني الثقات العيون في سادس القرون ص ٢٧١ بيروت .

(٧) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

محمد علي حزين

ولد سنة ١١٠٣ في أصفهان وتوفي سنة ١١٨٠ في بنارس (الهند) .

كانت دراسته الأولى على والده في أصفهان ، وقد كان والده أبو طالب من أهل العلم والفضل والتدريس . كما استفاد المترجم من قدوم ملا شاه محمد الشيرازي إلى أصفهان فقرأ عليه . وكان من أساتذته كل من الشيخ خليل الطالقاني - وهو الذي لقبه بلقب : حزين - والشيخ بهاء الدين الجيلاني وآقا هادي بن ملا صالح المازندراني وكمال الدين النسوي الأردكاني . وقد قام برحلات داخل إيران والهند ومعظم البلاد العربية ، وكان شاعراً مثنوي يبلغ الف بيت .

وعندما هوجمت إيران من الأفغانيين والأتراك لقي شدائد كثيرة ونكب وتشرد . ثم استقر به الأمر في النجف ، ثم عاد إلى إيران عن طريق الجبل ونزل المشهد الرضوي . ثم غادر المشهد سنة ١١٤٢ متنقلاً في المدن الإيرانية . وفي سنة ١١٤٤ حج بيت الله الحرام وعاد إلى أصفهان . ثم توجه إلى الهند فوصل سنة ١١٤٦ إلى مدينة نته ثم تجول في عدة مدن هندية وأقام في مدينة دلهي ثلاث سنوات وستة أشهر . وفي سنة ١١٧١ سافر إلى البنگال عن طريق اكره ثم استقر في (بنارس) وأسس فيها حسينية (الفاطميان) واستقر في بنارس وساعفته الظروف هناك بوجود مقدرين له نافذين ، فبقي فيها حتى وفاته .

وكان كما وصفه بعض من كتبوا عنه من الهنود : ففيها محدثاً مفسراً متكلماً ، له يد طولى في التاريخ وعلم الدراية والرجال والنجوم[8] وعد له الكاتب المذكور عشرات المؤلفات ما بين كتاب ورسالة ومقالة .

السيد بهاء الدين محمد بن السيد علي الحسيني الأفطسي الزباري البيهقي .

توفي سنة ٥٤٩ .

كان من كبار العلماء وأهل الفضل المبرزين في بيهق أخذ العلم والفنون الإسلامية عن أفاضل علماء بيهق ذكره ابن الفندق المتوفى سنة ٥٦٥ في كتابه تاريخ بيهق ووصفه : (السيد الإمام بهاء الدين محمد بن علي الزبارة كان من أهل الصلاح والعفاف وأهل الفضل والكرم قضى شطراً من عمره في الأسفار واختلط مع التجار والرحالة . . .)[9] .

ثم رثاه ابن الفندق بقصيدة جاء في ختامها :

وإني ناثر درر المآقي ... على قبر بهاء الدين فيه

يقول عبد الحسين الشيخ حسن الصالحي : والمترجم له عميد أسرة آل الزبارة البيهقيين في عصره من ذرية السيد محمد الزبارة بن عبد الله المفقود بن الحسن المكفوف بن الحسن الأفطس بن علي الأصغر ابن الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السّلام نبغ من هذه الأسرة علماء أعلام وشعراء أفذاذ ونقباء وفقهاء وكان ولده السيد كمال الدين أبي الحسن الزباري الحسيني البيهقي من شعراء بيهق وأخوه الإمام الرئيس ضياء الدين علي من شعراء بيهق والسيد أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن هبة الله

(٨) كتاب مطلع أنوار .

(٩) أبو الحسن علي بن زيد البيهقي : تاريخ بيهق تحقيق أحمد بهمنيار ص ٢٣١ طهران

الحسيني الأفطسي الزباري البيهقي نقيب الطالبيين في بيهق والسيد ركن الدين الحسن بن محمد بن يحيى بن هبة الله الحسيني الزباري البيهقي المتوفى سنة ٥٤٣ نقيب الطالبيين في بيهق وغيرهم من آل الزبارة أو آل الزباري البيهقي .

الدكتور محمد علي درمان

الكاتب النشيط والفاضل الأديب ، المقيم في « گارس » بتركيا صاحب الآثار الكثيرة المفيدة ، الّذي خصّ أربعة من آثارة القيّمة للإمام أمير المؤمنين ونشرها في أربعة مجلّدات كبار باللغة التركية :

١ ـ الإمام علي أسد الله (اللّهين آرسلاني علي) .
٢ ـ الإمام علي سلطان الأولياء (أولياء لارشاهي علي) .
٣ ـ الإمام علي والخلفاء الثلاثة .
٤ ـ الإمام علي ومعاوية .

انتهى ما كتبه لنا الشيخ علي أكبر مهدي يور . ولم يذكر لنا تاريخ ولادة المترجم .وما كتبه لنا كان سنة ١٤٠٨ ومع رجائنا طول الحياة للمترجم ، فقد نشرنا ترجمته هنا مع عدم تأكدنا من بقائه حياً ، ومع أننا لا ننشر تراجم الأحياء .

محمد علي دولت شاه قاجار .

« محمد علي ميرزا » . اسمه المستعار « دولت » . لقبه « دولت شاه » . أكبر أبناء « فتح علي شاه قاجار » ملك إيران . أمه كرجية . ولد سنة ١٢٠٣ هـ . توفي سنة ١٢٣٧ هـ ، وهو في الرابعة والثلاثين من عمره ، بمرض الهيضة (الكوليرا) ، إذ كان في طريقه إلى بغداد قاصداً فتحها .

كان ، بعد أخيه « عباس ميرزا نائب السلطنة » ابن « فتح علي شاه » الرابع ، أرشد إخوته وأفضلهم . وكان يتشبه بأبيه من حيث الشكل والقيافة ، وخصوصاً حرصه على إطالة لحيته .

بعد مقتل « آغا محمد خان قاجار » غادر ولي عهده « فتح علي شاه » شيراز وجاء إلى طهران في شهر المحرم سنة ١٢١٢ هـ واستخلف في مكانه ابنه « محمد علي ميرزا » هذا حاكماً على ولاية فارس ، وهو في التاسعة أو العاشرة من عمره . وجعل لوزارته[1] « الميرزا نصر الله علي آبادي » المازندراني ، الذي كان وزيراً له قبل ولاية ابنه . ولكن « فتح علي شاه » استدعى ابنه هذا إلى طهران بعد شهرين من تعيينه حاكماً على فارس ، ونصب في مكانه « حسين قلي خان » أخا « فتح علي شاه » . وفي سنة ١٢١٣ هـ عين « محمد علي ميرزا » حاكماً على قزوين .

وفي سنة ١٢١٧ هـ سار « فتح علي شاه » إلى خراسان لإخضاع « نادر ميرزا » ابن « شاهرخ شاه أفشار » ، وكان قد خرج عليه بعد مقتل « آغا محمد خان قاجار » . وفي أحد المنازل ، واسمه « شمس رادكان » أرسل « محمد علي ميرزا » مع أحد قواده مقدمة لجيشه لمحاصرة مدينة مشهد حيث يتحصن « نادر ميرزا » .

ثم انصرف « فتح علي شاه » عن محاصرة مشهد وعاد إلى طهران في تلك السنة نفسها ، بعد أن انقاد له « نادر ميرزا » . وفي سنة ١٢٢١ هـ ، و « محمد علي ميرزا » في التاسعة عشرة من عمره ، عينه أبوه حاكماً على خوزستان و « لورستان » وكرمانشاه . وفي سنة ١٢٢٤ هـ سيره إلى القفقاس لقتال الروس ، ووقعت بينه وبينهم مناوشات في طريق « تفليس » . وظل من سنة ١٢٢١ هـ إلى وفاته سنة ١٢٣٧ هـ حامياً الحدود مع العراق ووالياً على كرمانشاه وكردستان . وفي تلك الأيام أراد العثمانيون التعدي على أرض إيران فردهم وأوقع فيهم هزيمة شديدة فطلبوا الصلح ، وعقدت بينهم وبين إيران معاهدة « أرزنة » .

وفي كل الحروب التي وقعت بينه وبين العثمانيين في نواحي بغداد والموصل كان النصر له . وفي سنة ١٢٢٦ هـ أخذ من العثمانيين « السليمانية » و « شهرزور » وعين حاكماً عليهما من قبله . وعاود العثمانيون في هذه السنة تجاوز حدود إيران ، فأمر « فتح علي شاه » ابنه « دولت شاه بردهم » .

وقام أحد قادة عسكره ، واسمه « نوروز خان قاجار » ، في سنة ١٢٢٦ هـ بمهاجمة « أحمد باشا » العثماني في « سردشت » ففر هذا من وجهه . وفر أيضاً أخوه «عبدالرحمن باشا» حاكم ولاية «بابان»[2] من قبل العثمانيين . فر إلى ولايتي « كوي » و « حرير » وهما من نواحي « السليمانية » .

وفي سنة ١٢٣٧ هـ وقعت أيضاً حرب أخرى بين العثمانيين ومرابطي إيران وحكامها ، في « شهرزور » فقام « محمد علي ميرزا دولت شاه » مع خمسة عشر ألف جندي ما بين فارس وراجل بهجوم على أرض العثمانيين . والتحق به في هذه الحملة « حسن خان فيلي » أحد رؤساء « لورستان » مع جماعة من رجاله ، وانتهت المعركة بانتصار « محمد علي ميرزا » انتصاراً كاملاً وأخذ « السليمانية » من العثمانيين .

ثم سار من « سامراء » قاصداً احتلال بغداد . وأصبحت بغداد على وشك السقوط لولا أن ألم به مرض الهيضة . وفي ٢٦ صفر سنة ١٢٣٧ هـ فارق الحياة بالقرب من « إيوان كسرى » وهو في الرابعة والثلاثين . وحمل جثمانه إلى كرمانشاه .

ميرزا محمد علي بن ميرزا عبد الرحيم التبريزي الأصفهاني المشهور باسم (صائب) .

ولد سنة ١٠١٠ أو ١٠١٦ في أصفهان وتوفي فيها سنة ١٠٨١ .

أصل أسرته من تبريز من أعقاب شمس الدين محمد شيرين المغربي التبريزي الشاعر المشهور في القرن الثامن الهجري . والمترجم نشأ في أصفهان وتلقى دروسه على أساتذتها ، وتعلم الخط من عمه شمس الدين التبريزي المعروف بـ (حلو القلم) .

سافر إلى الحج وإلى زيارة مشهد الرضا وتحدث في شعره عن الإمام الرضا (ع) ، كما سافر إلى الهند في عهد جهانگير (١٠٣٧) وأقام فيها برهانيور متصلاً بشاهجان وظفرخان وأبي الحسن تربتي . وبعد سبعة أعوام من إقامته بالهند ، وبطلب من أبيه رجع إلى أصفهان على طريق كشمير ،

(١) الوزارة هنا بمعنى المساعدة والرعاية .

(٢) « بابان » طائفة من أكراد غربي إيران . والنواحي التي يسكنونها تسمى أيضاً « بابان » .

واتصل بالشاه عباس الثاني وبقي متصلاً بـه حتى آخر عهـده ، وبعده بـالشاه سليمان .

كان منزله مجتمعاً للعلماء والشعـراء والأدباء . وقـد سافـر خلال ذلـك سفرات قصيرة وظلت أصفهان مستقره حتى آخر حياته .

كـان يلقب في البلاط الصفـوي بملك الشعراء ، ومن تـلاميذه : مـلا محمد سعيد أشرف وجوياي التبريزي وميرزا محسن تأثير وخاضع فطرت .

كانت غزلياته تمتزج بمدح الملوك الصفويين ، وكانت له شهرة واسعة في إيران والهند والأناضول .

من مؤلفاته : مرآة الجمال في وصف المعشوق ، التجمـل المرآتي (شعـر في المرآة والمشط) ، بيت الخمر (شعـر في وصف الخمر والحـانـه) ، واجب الحفظ (مجموعة من غزلياته) .

السيد محمد علي العلاق ابن السيد حسين .

ولد سنة ١٣١٤ في مدينة الكوت .

هـو من أسرة نجفية الأصـل نزح والـده من النجف إلى الكـوت وفيهـا تلقى تعليمه الأول ، ثم تابع دراسته في النجف . ولما أعلنت الحرب العـالمية الأولى وأعلن علماء الشيعـة الجهاد وسـافـروا بـأنفسهم لمقـاتلة الإنكليـز رافق أباه . وبعد الهـزيمة العثـمانية عـاد إلى الكوت ، ثم رجـع إلى النجف مواصـلاً دراسته . ثم تردد بين الكوت وبلدة علي الغربي ، إلى أن استقر في الكاظمية .

من شعره قوله :

في روضـة غنـاء يضحـك زهـرهـا ... زهـواً فـينشر طيبهـا الفيـاحـا
نسجت لهـا كف السحائب مـطرفاً ... وشت جـوانبـه الـرقـاق أقـاحـا
فيهـا الشقيق مـع الشقيق تعـانقا ... والأقـحـوان يـقبـل الـقـداحـا
والنـرجس الغض البهي نـواظـر ... لمحت خـدود شـقيقـه الـلماحـا
وتـرى السماء تجلببت حلل الحيـا ... سحبـاً تهـل المـدمـع الـدلاحـا
فيمـر من فـوق الـربى متمـوجـاً ... كـبـطون حيـات تـؤم بـطاحـا
والشمس من فـوق السحاب تخالها ... خـوداً أنـاطت بـرقعـا ووشـاحـا
وحمـائم الأغصـان تشـدو فـوقهـا ... طـربـاً فتصبي العنـدل الصيـداحـا

وقوله :

خليـلي أن الدهـر أضحى معـانـدي ... فكيف بمن للدهـر صـار يعـانـد
يحـاول مني الـدهـر ذلـة مـاجـد ... وكيف يـذل القـرم والمـوت واحـد
أقـاومـه في كـل حـين بـهـمـة ... تقـاصر عنها في عـلاه الفـراقـد
وإن نـابني خـطب مهـول عـراؤه ... صـبرت بعـزم لم تـرعـه المكـايـد
ويشتـد عـزمي إن رميت بمحنـة ... وإن قـل فيهـا للدفـاع المسـاعـد
فإني امرؤ صعب القيـاد على العـدى ... ولست أبـالي أن دهتني الشـدائـد
ويقصـدني دهـري بـكـل ملمـة ... تهـد القـوى فيه وتهـوي السـواعـد
سـأصبر حتى لا مجـال لصـابـر ... فبالصبر مـا زالت تنـال المقـاصـد

وقوله :

إن تكن عينـاك بـعـدي هجعت ... فـعـيـوني ثـرة لم تـهـجـع
بـت أبـكـي أرقـا ذا زفـرة ... كـمـنـت بـين حـنـاني أضـلعـي
ظـلت أبكـي أربـعـاً قـد درست ... وهـي لا تصـغي لـقـولي أو تـعي
أنـا لا أصـغـي لـعـذل فـيـكـم ... قـد سـددتم عن عـذولي مسمعي

محمد بن علي بن شهرآشوب المازندراني .

هو الحافظ أبو عبد الله محمد بن علي بن شهرآشوب بن كيـاكي ـ المكنى بـأبي نصر بن أبي الجيش السـروي[١] المازنـدراني ، الفقيه المحـدث المفسر ، المحقق ، الأديب .

لم نـظفر بمن صرح بسنـة ولادته[٢] من أربـاب المعاجم ، غـير أن كـل من ترجمه ذكر أنه تـوفي في شعبان سنـة ٤٨٨ هـ سنة (١١٩٢ م) ، ولـه من العمر تسع وتسعون سنة وشهران ، فتكون على ذلك ولادته في جمادى الثـانية سنة ٤٨٩ هـ .

أقوال العلماء فيه

ذكره صلاح الـدين الصفدي في الـوافي بالـوفيات (ج ٤ ـ ص ١٦٤) قائلاً : « محمد بن علي بن شهـرآشوب أبـو جعفر السروي المـازندراني رشيـد الدين الشيعي أحد شيوخ الشيعة حفظ القرآن وله ثمان سنين[٣] وبلغ النهاية في أصـول الشيعـة . كـان يـرحـل إليـه من البـلاد ثم تقـدم في علم القـرآن والغريب والنحو ، ووعظ عـلى المنبر أيـام المقتفي ببغداد فـاعجبه وخلع عليـه وأثني عليه كثيراً ، وذكره ابن أبي طي في تاريخه وأثنى عليه ثناء بليغاً ، وكذلك الفيروزآبادي في كتاب البلغة في تراجم أئمة النحـو واللغة ، وزاد : إنـه كان واسـع العلم كثير العبـادة دائم الوضـوء . ثم قال : إنـه عاش مـائة سنـة إلا عشرة أشهر ومات سنة ٥٨٨ هـ .

ويقـول شمس الدين محمـد بن علي بن أحمـد الداوردي المـالكي تلميذ عبـد الـرحمن السيـوطي في طبقـات المفسرين مـا نصـه : محمـد بن عـلي بن شهرآشوب بن أبي نصر ، أبـو جعفر السروي المـازندراني رشيـد الدين أحـد شيوخ الشيعة ، اشتغل بالحـديث ولقي الرجـال ثم تفقه وبلغ النهـاية في فقـه أهـل مذهبـه ونبـغ في الأصـول حتى صـار رحلة ، ثم تقـدم في علم القـرآن والقـراءات والتفسير والنحـو ، وكان إمـام عصره وواحد دهـره أحسن الجمع والتأليف ، وغلب عليه علم القرآن والحديث ، وهـو عند الشيعـة كالخـطيب البغدادي لأهل السنة في تصانيفه وتعليقات الحديث ورجاله ومراسيله ومتفقـه ومتفرقه إلى غير ذلك من أنـواعه ، واسـع العلم كثير الفنـون مات في شعبـان سنة ٥٨٨ هـ ، قال ابن أبي طي : ما زال الناس بحلب لا يعرفون الفرق بين ابن بطة الحنبلي وابن بطة الشيعي حتى قدم الـرشيد فقـال : ابن بطة الحنبـلي بالفتح والشيعي بالضم .

وذكـره السيوطي في بغيـة الوعـاة في بـاب المحمـدين وأثنى عليـه ثنـاء حسناً .

وذكـره ابن حجر العسقـلاني في (لسـان الميـزان) ـ ج ٥ ـ ص ٣١٠ ـ نقلاً عن ابن أبي طي في تاريخه قائلاً « اشتغل بالحديث ولقي الرجال ثم تفقـه

---

(١) السروي نسبة إلى سارية مدينة بطبرستان .

(٢) ويترجح لدينا أن ولادته ونشأته بالعراق كما أن أباه وجده شهرآشوب كانا يسكنان العراق ، لأن جده كان من تلامذة الشيخ الطوسي أيام كانت له الشهرة العلمية الواسعة ويزدلف إليه العلماء من كل حدب وصوب .

(٣) ومن ذلك لقب بالحافظ .

وبلغ النهاية في فقه أهل البيت ونبغ في الأصول ثم تقدم في القراءات والقرآن والتفسير والعربية ، وكان مقبول الصورة مليح العرض على المعاني ، وصنف في المتفق والمفترق والمؤتلف والمختلف والفصل والوصل ، وفرق بين رجال الخاصة ورجال العامة - يعني أهل السنة والشيعة - كان كثير الخشوع ، مات في شعبان سنة ٥٨٨ هـ » .

وذكره الشيخ الحر العاملي في أمل الآمل في باب المحمدين قائلاً : « رشيد الدين محمد بن علي بن شهرآشوب المازندراني السروي ، كان عالماً فاضلاً ثقة محدثاً محققاً عارفاً بالرجال والأخبار أديباً شاعراً جامعاً للمحاسن ، له كتب منها كتاب مناقب آل أبي طالب ، كتاب مثالب النواصب ، كتاب المخزون المكنون[1] في عيون الفنون ، كتاب إعلام الطرائق في الحدود والحقائق[2] ، كتاب فائدة الفائدة[3] ، كتاب المثال في الأمثال ، كتاب أسباب النزول على مذهب آل الرسول (ص) ، كتاب الحاوي ، كتاب الأوصاف ، كتاب المنهاج ، وغير ذلك » .

وفي أخريات أيامه هاجر من العراق وسكن حلب من بلاد سوريا وذلك في عهد أمراء آل حمدان ، وفي مدة إقامته في حلب إلى أن توفي فيها كان مشغولاً في التأليف والوعظ والإرشاد والتدريس في علوم شتى ، وتخرج عليه هناك جماعة من الأعلام .

مشاهير أساتذته

١ - جار الله الزمخشري المعتزلي المولود سنة ٤٦٧ هـ ، والمتوفى سنة ٥٣٨ هـ ، فقد قرأ عليه مؤلفاته التي منها تفسير الكشاف ، (المطبوع) والفائق في غريب الحديث (المطبوع) ، وربيع الأبرار (المخطوط) ، وقد أجازه أستاذه المذكور بروايتها عنه .

٢ - أبو عبد الله محمد بن أحمد النطنزي ، صاحب كتاب (الخصائص العلوية على سائر البرية والمآثر العلية لسيد الذرية) وقد ترجمه ابن شهرآشوب في (معالم العلماء) في آخر تراجم المحمدين وبعد ذكره في المعالم ختمهم بترجمة نفسه ، وفي بعض نسخ (المعالم) سقطت عنها هذه الترجمة ، يقول شيخنا الشيخ آغابزرك الطهراني في (ج ٧ - ص ١٧٠) من كتابه الذريعة ما نصه : (ومن النسخ الموجودة فيها هذه الترجمة نسخة الشيخ أبي علي الحائري التي نقل عنها في رجاله (المطبوع) وكذا في نسختي التي استنسختها لنفسي عن نسخة استعرتها من شيخنا العلامة المحدث محمد الحسين النوري وكانت في مكتبته) .

٣ - السيد ناصح الدين أبو الفتح عبد الواحد التميمي الآمدي المولود سنة ٥١٠ هـ صاحب كتاب غرر الحكم ودرر الكلم (المطبوع) بصيدا ، ولم يذكر كل من ترجمه تاريخ وفاته .

ومن مشائخه الذين ذكرهم هو في (معالم العلماء) :

٤ - أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي صاحب الإحتجاج .

٥ - أبو الحسين سعيد بن هبة الله المعروف بالقطب الراوندي المتوفى سنة ٥٧٣ هـ ، كما صرح به في « معالم العلماء » عند ترجمته له في باب السين (ص ٥٥ - رقم ٣٦٨) .

٦ - أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي ، صاحب مجمع البيان المتوفى سنة ٥٤٨ هـ .

٧ - الشيخ جمال الدين أبو الفتوح الحسين بن علي الرازي صاحب تفسير روض الجنان وروح الجنان الفارسي .

٨ - أبو علي محمد بن الحسن الفتال الواعظ النيشابوري صاحب كتاب روضة الواعظين والمتوفى « شهيداً » سنة ٥٠٨ هـ .

٩ - أبو الحسن فريد خراسان علي بن أبي القاسم زيد ، وكان ابن شهرآشوب قد أخذ من أستاذه هذا كتاب حلية الأشراف تأليف والده زيد بن محمد بن الحسين البيهقي المذكور ، كما ذكر ذلك في مقدمة كتابه (المناقب) وقد توفي أبو الحسن فريد خراسان هذا سنة ٥٦٥ .

ومن مشائخه الذين روى عنهم وأجازوه :

١ - أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي صاحب الإحتجاج وهو الذي ذكرناه آنفاً .

٢ - أبو جعفر محمد بن الحسن الشوهاني نزيل مشهد الرضا (ع) .

٣ - الشيخ محمد بن علي بن المحسن الحلبي .

٤ - ركن الدين أبو الحسن علي بن علي بن عبد الصمد السبزواري النيسابوري التميمي .

٥ - أخوه محمد بن علي بن عبد الصمد النيسابوري .

٦ - والده الشيخ علي بن شهرآشوب العالم الفاضل الفقيه المعروف ، قال في أمل الآمل : فاضل عالم يروي عنه ولده محمد ، وكان فقيهاً محدثاً . وقد سمع من أبيه في صغره ، كما ذكره هو للسيد حيدر بن محمد بن زيد الحسيني الراوي عنه وذكره السيد حيدر في إجازته سنة ٦٢٩ لتلميذه الشيخ حسن بن يحيى بن يحيى .

٧ - جده شهرآشوب كما نص عليه في أول كتابه المناقب .

٨ - أبو الفتاح أحمد بن علي الرازي .

٩ - أبو سعيد عبد الجليل بن عيسى بن عبد الوهاب الرازي .

١٠ - أبو الفضل الداعي بن علي بن الحسن الحسيني .

١١ - أبو المحاسن مسعود بن علي بن محمد الصوائي .

١٢ - أبو علي محمد بن الفضل الطبرسي .

١٣ - الفقيه الحسين بن أحمد بن طحال المقدادي .

---

(١) الذي ذكره ابن شهرآشوب عند تعداد مؤلفاته (المخزون والمكنون) بالعطف بالواو ، ولعل الواو سقطت من الطابع .

(٢) الذي ذكره ابن شهرآشوب عند تعداد مؤلفاته (الطرائق في الحدود والحقائق) بدون إضافة لفظة (إعلام) فراجع .

(٣) الذي ذكره ابن شهرآشوب في المعالم عند تعداد مؤلفاته (مائدة الفائدة) بالميم بعدها الألف في اللفظة الأولى لا بالفاء بعدها الألف ، ولعله جاء بالفاء من غلط الطابع فلاحظ .

١٤ - الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي (المتقدم ذكره) .

١٥ - جمال الدين أبو الفتوح الحسين بن علي بن محمد بن أحمد الخزاعي الرازي النيسابوري المعروف بأبي الفتوح الرازي ، المتقدم ذكره .

١٦ - أبو الحسين سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندي المعروف بالقطب الراوندي ، المتقدم ذكره .

١٧ - أبو جعفر بن كميح .

١٨ - أبو القاسم بن كميح .

١٩ - المنتهى بن أبي زيد بن كيابكي الكجي الجرجاني .

٢٠ - السيد عماد الدين أبو الصمصام وأبو الوضاح ذو الفقار بن محمد بن معبد بن الحسن بن أبي جعفر أحمد الملقب بحميدان أمير اليمامة .

٢١ - القاضي ناصح الدين أبو الفتح عبد الواحد بن محمد المحفوظ التميمي الأمدي ، (المذكور آنفاً) .

٢٢ - عماد الدين أبو محمد الحسن الأسترآبادي .

٢٣ - أبو علي محمد بن الحسن بن علي بن أحمد بن علي الحافظ الواعظ الفارسي النيسابوري ، المدعو تارة بالفتال وأخرى بابن الفارسي ، والمنسوب إلى أبيه الحسن مرة وإلى جده علي ثانية وإلى جده أحمد ثالثة ، والكل تعبير عن شخص واحد كما يظهر بالتأمل في عبارة ابن شهرآشوب في المناقب .

٢٤ - مهدي بن أبي حرب الحسيني شيخ الطبرسي صاحب الإحتجاج .

٢٥ - أبو الحسن علي بن الشيخ أبي القاسم زيد بن الحسين البيهقي المعروف بفريد خراسان .

مؤلفاته

أورد هو أسماء مؤلفاته التي كان قد ألفها قبل (معالم العلماء) في ترجمة نفسه في (باب الميم) من المعالم ، وهي :

١ - مناقب آل أبي طالب .

٢ - مثالب النواصب ، قال في الذريعة (القسم المخطوط) : توجد نسخته المخطوطة في خزانة السيد ناصر حسين الهندي ، وهي بحجم مناقبه ، وتوجد نسخة أخرى مخطوطة في طهران في مكتبة السيد محمد المحيط ، على ما في بعض الفهارس .

٣ - المخزون المكنون في عيون الفنون .

٤ - الطرائق في الحدود والحقائق .

٥ - مائدة الفائدة .

٦ - المثال في الأمثال .

٧ - معالم العلماء يتضمن (١٠٢١) ترجمة ، وفي آخرها (فصل) فيما جهل مصنفه ، وباب في بعض شعراء أهل البيت عليهم السّلام ، وهم أربع طبقات المجاهرون ، والمقتصدون ، والمتقون ، والمتكلفون ذكر في مقدمته ما نصه : هذا الكتاب (معالم العلماء) في فهرست كتب الشيعة وأسماء المصنفين منهم قديماً وحديثاً ، وإن كان قد جمع شيخنا أبو جعفر الطوسي - رضي الله عنه - في ذلك العصر ما لا نظير له[1] إلا أن هذا المختصر فيه زوائد وفوائد ، فيكون إذن تتمة له ، وقد زدت فيه نحواً من ستمائة[2] مصنف وأشرت إلى المحذوف من كتابه ، وإن كانت الكتب لا تعد ولا تحد . . . ثم أني عقبت بعد ذلك بأسماء شعراء أهل البيت عليهم السّلام المعروفين منهم بقدر وسعي وطاقتي .

٨ - الأسباب والنزول على مذهب آل الرسول .

٩ - الحاوي .

١٠ - متشابه القرآن ، طبع هذا التفسير بطهران سنة ١٣٦٩ هـ بعنوان « متشابه القرآن ومختلفه » في جزءين .

١١ - الأوصاف .

١٢ - المنهاج .

وذكر له السيوطي في بغية الوعاة كتاب الفصول في النحو ، وكذا الفيروزآبادي في البلغة ، وزاد له كتاب الجديدة وقال جمع فيه فوائد وفرائد جمة ، ونسب له المير مصطفى التفريشي في نقد الرجال كتاب أنساب آل أبي طالب ، وكذا في - ج ٢ - ص ٣٧٨ - من الذريعة نسب الكتاب له نقلاً عن صاحب كشف الحجب ونسب له صاحب ريحانة الأدباء كتاب الأربعين في مناقب سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السّلام .

وفاته

في أخريات أيامه هاجر من العراق إلى حلب من بلاد سوريا وسكن بها ، وذلك في عهد أمراء آل حمدان إلى أن توفي بها في « ٢٢ شهر شعبان سنة ٥٨٨ هـ سنة ١١٩٢ م » ودفن في سفح جبل الجوشن .

ميرزا رفيع الدين محمد بن فتح الله القزويني المعروف بـ (ميرزا رفيعا) ، والمشهور بالواعظ .

توفي سنة ١٠٨٩ .

من شعراء القرن الحادي عشر الهجري ، وكان إلى ذلك عالماً واعظاً . عاش في عهد الشاه عباس الكبير والشاه صفي والشاه عباس الثاني والشاه سليمان . ودرس على ملا خليل غازي القزويني (١٠٠١ - ١٠٨٩) المتكلم والفقيه والمحدث .

أهم أثر له كتاب (أبواب الجنان) بالفارسية في الأخلاق والسنن الإسلامية وأخبار وأحاديث الأئمة عليهم السّلام . وكان عازماً على أن يتألف الكتاب من ثمانية أبواب ، ولكنه لم يكمل إلا باباً واحداً طبع في طهران سنة ١٢٧٤ وأكمل المجلد الثاني ولده محمد شفيع .

ويشتمل ديوان المترجم على القصائد والغزل والرباعيات والمثنويات . وقصائده في صفات النبي (ص) ومناقب الأئمة الاثني عشر (ع) ومدائح الشاه عباس الثاني . وأكثر أشعاره تاريخية في حوادث وأعمال ووقائع زمن

(١) يريد بذلك فهرست الشيخ الطوسي .

(٢) في نسخة مصححة (ثلاثمائة) بدل (ستمائة) .

الشاه عباس الكبير إلى جلوس الشاه صفي ، ثم وقائع الشاه عباس الثاني حتى موته وجلوس الشاه سليمان وأحداث زمانه .

ومن مثنوياته : قصة حرب نواب الخاقان الشاه إسماعيل وشيبك خان الشيباني . والمثنوي الثاني في بستان الجنة بقزوين . وبقية المثنويات في التعريف بمازندران ومدح الشاه عباس الثاني .

وله قصيدة في حرب الشاه إسماعيل مع شيبك خان وهي حماسية تاريخية تبلغ سبعين وستمائة بيت ، يبدؤها بالتوحيد والوجدانيات .

وغزلياته تحتوي على نكت أخلاقية ووعظ وإرشاد واجتماعيات ، وكل ذلك مستوحى من كونه في الأصل واعظاً .

ولا يرتفع شعره إلى المستوى العالي بل كان وسطاً[1] .

الدكتور محمد قريب بن علي أصغر خان

ولد سنة ١٣٣٠ في طهران ، وتوفي فيها سنة ١٣٩٥ ودفن في مدينة قم بمقبرة شيخان ،واصل والده من مدينة گرگان .

تخرج في دار المعلمين بطهران ، ثم سافر إلى فرنسا مع أول بعثة طلابية لدراسة الطب فكان هناك من الطلاب المتفوقين ، كما تابع بعد ذلك دراسات طبية في أمريكا وسافر في رحلات علمية إلى عدة أقطار أوروبية .

كان عضواً بارزاً في عدة مجامع علمية طبية في إيران وخارجها ، كما كان رئيساً لمؤسسة أطباء الأطفال في إيران وعضواً في هيئة الرئاسة بنادي الأطباء العالمي للأطفال .

ومن أعماله في إيران تأسيس مؤسسة نقل الدم ، ولم يكن ذلك قبله معروفاً ، وتأسيس طب الأطفال الحديث ، وأكثر أطباء إيران في هذا الموضوع هم من تلاميذه ويعملون على نهجه ، وكذلك تأسيس نادي أطباء الأطفال ، وفيه ظلت تعقد الندوات للبحث في دراسات علوم طب الأطفال حسب تطوره المستمر ، وهذا النادي هو اليوم أهم النوادي الطبية في إيران .

ومن تأسيساته : (المؤسسة المركزية لطب الأطفال) التي تتولى الاتصال بأطباء الأطفال وإبلاغهم التطورات الطبية والعلمية ، كما أسس قسم الأطفال في مستشفى الرازي ومستشفى الإمام .

وقد سافر إلى تركيا وبعد رجوعه وبمساعدة صديقه الدكتور أهري وبعض أهل الثراء بني مستشفى للأطفال (المركز الطبي للأطفال) ، وطلب من الأطباء الإيرانيين المهاجرين إلى الخارج أن يعودوا إلى إيران لمساعدته ، وقد لبى دعوته الكثيرون منهم . وقد قام هذا المستشفى على أحدث الآلات والتقنيات وحسب التطور المستمر للطب . وقد أنشئت فيه عدا الطب الأطفالي أقسام متعددة مثل جراحة الكلى ، وتصفية الدم ، وحساسية الأطفال ، والعفونة ، والأعصاب ، والسمع ، والبصر ، وغير ذلك من الأقسام . وفيه قسم خاص يتخرج منه متخصصون بطب الأطفال حيث ينتشرون في أنحاء إيران ، وبجهود هؤلاء الخريجين أسست مراكز طب الأطفال في أكثر المدن الإيرانية بإشراف المركز الرئيسي في طهران وأخذ طب الأطفال ينمو بشكل سريع ويتطور .

لم يكن المترجم طبيباً فقط ، بل كان أديباً ، ذواقة للشعر والنثر . ومن صفاته البارزة في مجالاته العلمية الالتزام بالإسلام وأحكامه ، وتعلقه بالنبي (ص) وبالأئمة الأطهار (ع) ، سواء أيام الدراسة وبعد التخرج . وكان يحث الطلبة على ذلك ، وأكثر مساعديه كانوا على طريقته هذه .

وعندما أراد السفر إلى فرنسا للدراسة واجه معارضة شديدة من والده ، فقرر مع والده الذهاب إلى مدينة قم ومقابلة المرجع الديني الأكبر الشيخ عبد الكريم الحائري وعرض الأمر عليه . وعند الشيخ تكلم الوالد والولد ، فقال الشيخ الإمام : يا بني سافر وتعلّم ، وعد إلى وطنك وساعد هؤلاء الناس .

وقد حفظ الدكتور محمد وصية الشيخ فكان يساعد الفقراء ويذهب إلى بيوتهم لمعالجتهم ويضحك لهم ويمازحهم .

كان سياسياً وطنياً بارزاً ، يجهر بالحقيقة ويلتزم العمل الجاد بالتعاون مع مجموعته ولم يتركهم ، ولم يتخل عن السياسة الوطنية. وبعد واقعة (٢٨ مرداد) ، أي بعد إقرار مجلس الشيوخ للقرار المشؤوم (الكنسرسيوم) ، وهو القرار الذي يمنح الأمريكيين المقيمين في إيران الحصانة القضائية بحيث لا تجوز محاكمتهم أمام القضاء الإيراني ـ تحرك الدكتور محمد مع كبار المناضلين كالسيد الفيروز آبادي وجماعة أساتذة الجامعة ، وكتبوا ردهم على القرار ، ووقعه هو مع أحد عشر أستاذاً جامعياً منهم الدكتور نعمة اللّهي والدكتور سحابي والمهندس مهدي بازرگان والدكتور مير بابائي والدكتور جناب .

وبعد هذا الاعتراض العلني غضب الشاه وأمر بطردهم من الجامعة ، وبهذا الطرد تعطل قسم الأطفال والقسم الفيزيولوجي في الجامعة ، كما تعطلت دروسهم .

وطرد معهم من الجامعة رئيسها لأنه كان أيضاً سياسياً وطنياً حاول كثيراً التوسط لهم . وكان قانون الجامعة يقضي بأن ينتخب رئيسها من قبل الأساتذة ، وبعد هذا الحادث تقرر أن ينتخب الأساتذة ثلاثة منهم ، ثم يكون للشاه أن يختار واحداً من الثلاثة .

وبعد أمد عُين الدكتور إقبال رئيساً للجامعة ، فكان أن عمل على إخراج الجنود من الجامعة ـ وهم الجنود الذين كان قد تقرر استقرارهم في الجامعة إرهاباً ـ كما عمل على إرجاع الأساتذة المطرودين ومنهم المترجم ، فاستقبلوا من الأساتذة والطلاب والموظفين استقبالاً حاراً .

ولم يترك المترجم العمل السياسي الوطني مع استمراره بالدرس والعلم ، فكان عضواً في جماعة (نهضة المقاومة) وهم الذين صمدوا في مقاومة الشاه بعد ٢٨ مرداد ، ويقول عنه الدكتور شيباني :

« في نهضة المقاومة احتجنا إلى بعض المال ، لأننا لم نكن نملك شيئاً منه ، وكنا نأخذ المال من الناس ، فقررنا الذهاب إليه طالبين المساعدة ، فباع قسماً نفيساً من كتبه المفقودة في السوق وأعطانا ثمنها ، وهكذا كان مع المقاومين فكراً وعملاً وتضحية ، ولم يتركهم في أشد الحالات » اهـ .

ترك كثيراً من الدراسات والتعليقات الطبية والعلمية ، وكتب المقدمات لكتب الطب والعلم الفارسية وغير الفارسية . ومن مؤلفاته : ١ ـ أمراض الأطفال . ٢ ـ المسائل الصعبة في طب الأطفال في مجلدين .

---

(١) تاريخ أدبيات إيران.

الآخوند الملا محمد كاظم الخراساني

مرت ترجمته في موضعها من الأعيان ، وننشر فيما يلي نص رسالتين متبادلتين بينه وبين ادوار براون :

وقد تم إتبادل هاتين الرسالتين بين المستشرق الإنكليزي ادوارد براون (١٨٦٢ - ١٨٢٦ م) والآخوند الملا محمد كاظم الخراساني (١٢٥٥ - ١٣٢٩ هـ) في عام ١٣٢٩ ، وهذان الشخصان غنيان عن التعريف في دورهما في استقرار المشروطة في إيران . وأصل هاتين الرسالتين موجود ضمن مجموعة لمخطوطات المشاهير ، يحتفظ بها الدكتور قاسم غني ، وقد كتب براون رسالته بيده ، بينما كتب رسالة الآخوند الميرزا عبد الرسول اليزدي ووقع الآخوند في ذيلها .

عنوان الرسالة التي بعث بها براون إلى النجف الأشرف : « سري ، تصل في النجف الأشرف إلى صاحب الشرف حضرة حجة الله السيد الملا محمد كاظم الخراساني بواسطة السيد الميرزا عبد الرسول اليزدي » .

وفيما يلي نذكر نص رسالة ادوارد براون دون أدنى تصرف في إملائها أو إنشائها :

« ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٢٩ من دار الفنون في كمبرج في الممالك البريطانية المحروسة .

حجة الإسلام : إن الرسالة التي بعثم إلينا ، جواباً على ملاحظاتي التي أبديتها فيما يتعلق بالحق السياسي للدولتين الانجليزية والروسية ، قد أبلغت السيد عبد الرسول اليزدي بشأن وصولها ، ولم أشأ حينئذٍ أن أزاحم أوقاتكم المباركة ، لهذا رجحت السكوت ، حتى استلمت هذه الأيام رسالة أخرى وكانت مدعاة شرف وافتخار ، ولأنكم تفضلتم بطلب المراسلة بين حين وآخر ، فإني امتثل لأمركم العالي ، وأتجرأ على تسطير هذه الكلمات .

في البداية أرى لزاماً علي أن أهنئكم لحسن تدبيركم الذي كان - دون ريب - سبباً لنجاة فارس والأجزاء الجنوبية لإيران من تدخل الأجانب ، إذ مضى على رسالة التحذير التي بعثتم بها ثلاثة أسابيع بل سبعة أسابيع ، وباعتراف الجميع فإن التفكير بالاستيلاء على فارس خاصة وسائر الولايات الجنوبية بصورة عامة قد زال تماماً وحصلت نعمة الأمن والاستقرار ، وانقطع الحديث عن التدخل . والأمر الآخر ، هو أن مساعيكم ومساعي سائر العلماء الكبار كانت سبباً في تحريض جميع المسلمين وخصوصاً مسلمي الهند في الانطلاق بشكواهم ومطالبتهم بإقرار العدل وحدث مثل هذا الأمر حتى في لندن نفسها .

ولأن الحكومة هنا ترغب كثيراً باسترضاء مسلمي الهند والتودد لهم ، فإنها كفت عن التفكير فيما عزمت عليه بادىء الأمر ، ولكن على الرغم من وجود هذا التطور ، لا ينبغي الركون إلى الغفلة عما يبعث به المسافرون والمخبرون عما يدور بين قبائل الجنوب وخصوصاً بين البختياريين والقاشقائيين ، وأن العلاقة بينهم غير مستحسنة ، وأيضاً كون هذه العداءات والمنافسات تشكل خطراً عظيماً على مصالح الدولة العلية في إيرن . وفي تقرير رسمي ، طبعته ونشرته الحكومة الانجليزية مؤخراً - سأبعث به إلى حضرتكم عن طريق السيد عبد الرسول اليزدي حالما يصل إلي - يبدو أن أكثر هذه القبائل نشاطاً في الفتنة والغارات هي قبيلة كوه كيلويه وخصوصاً الشعبة المسماة بـ (أحمد بويد) ومن الواضح جداً ، أنه كلما أغير على قوافل التجار لا سيما إذا قتل بعضهم في هذه الغارات ، فإن هؤلاء التجار يتعالى صياحهم ويتقدمون بشكاواهم إلى الحكومة مطالبين إياها بالتدخل . بينما إذا لم تكن مثل هذه الذرائع موجودة ، فليس هناك ذريعة للتدخل .

وفي رأيي ، فإن الحكومة هنا منشغلة بالإصلاحات الداخلية ولا تحبذ التعرض لمثل هذا العمل المفعم بالمخاطر ، ما لم يرغمها عليه إلحاح التجار . وفي الحقيقة فإن هناك الكثير من الأشخاص المقتدرين الذين لا يرون سوى أغراضهم الشخصية وحب الجاه والمال والقوة والشهرة ، مثل : جنكيز خان وتيمور وسائر السلاطين الأقوياء الذين كانوا يدأبون في سعيهم بالاستيلاء على الآخرين والتعرض لهم وكانوا باستمرار يبحثون عن ذريعة لأعمالهم ، كما كان السبب الرئيسي في استيلاء المغول والتتار على إيران في القرن السابع وما رافقه من مصائب ومآسي هو قتل بعض التجار المغول بيد خوارزمشاه ، ومن ثم فمن الضروري جداً أن يمنع جهال قبائل إيران من إعطاء هذه الذرائع للأجانب ، وليدركوا أن قطع الطرق والسرقة ، بالإضافة إلى كونه عمل قبيح ومذموم دائماً ، يعد في هذا الوقت الحساس الذي تمر به إيران ، خيانة لوطنهم .

والآن وبعد أن عُلم مدى تأثير كلام آيات الله حتى في قلوب مثل هذه القبائل المتهورة ، فإني مفعم بالأمل أنهم لن يسكتوا عن الإدلاء بمثل هذا الكلام وأنهم سيتفضلون بإسداء النصيحة لهذه القبائل ، باستمرار حتى يتسنى لهم بالتدريج أن يفهموا أن قوتهم وشرفهم يكمنان في اتحادهم وانقيادهم وليس في الإفساد وإيذاء الناس .

في هذه الأيام وصلت عدة كتب من إيران ، سواء من الإيرانيين أو من الانجليز ، وقدم اليوم أحد المسافرين من تبريز ، حاملاً بشرى ، مفادها . أن عدد القوات الروسية في هذه المدينة آخذ بالتناقص ، حتى إنه قال : على الرغم من استحالة إحصائهم ، إلا أنه يعتقد أنها لا تتجاوز الثلاثمائة أو الأربعمائة جندي ، وأضاف بأنهم عمدوا إلى هدم بناياتهم التي كانوا قد أقاموها لهم في قزوين ، وأخذوا يبيعون الأخشاب والصخور .

ويستشف من مجموع ما كتب أن حضرة نائب السلطنة يتصرف بمنتهى الحكمة والمداراة ، ولكن أحد المخبرين الانجليز ، وهو محب لإيران كثيراً وواقف على بواطن الأمور وحقائقها ، يبدي أسفه لما يراه من حدية وتطرف في الأشخاص المؤهلين والوطنيين والمجربين والعاقلين ، وما هذا التطرف وهذه الحدية إلا نتيجة لشدة حبهم لوطنهم ونفرتهم من المداراة مع أهل الظلم ، وهو يأسف لأن مثل هؤلاء كانوا بعيدون عن الساحة ، خصوصاً جناب الميرزا حسين قلي خان نواب الفرسان سابقاً وزيراً للخارجية ، والذي أرغم على الاستقالة[1] بسبب مفارقته للروس والشجاعة التي أبداها في مواجهتهم .

وقد كتب لي مراسل صحيفة التايمز ، بصورة سرية - إن هذا الشخص كان منقطع النظير في شجاعته وهمته ونشاطه وسداد رأيه وسلامة عمله ، ومما يُؤسف له أن لا يكون مثل هذا الشخص عضواً في الحكومة ، ولكنه كان هدفاً لبغض وكره الدولة الشمالية وسعت هذه الدولة في إزالته .

---

(١) قدم السيد نواب ، استقالته من وزارة الخارجية في ٢٤ ذي الحجة عام ١٣٢٨ .

الأمر الآخر الذي أحببت الخوض فيه - إن لم يكن ثمة تجرؤ - هو وصول رسالتين - مؤخراً - من السيد حسن تقي زاده ، الذي يعيش الآن منزوياً في إسلامبول ، وإذ كان هنا حين ، فقد تعرفت إليه كثيراً ، وأدركت بالبراهين الساطعة والأدلة القاطعة ، مدى صدقه وسلامة عمله ، ثم سمعت أنه تطرف بعض الشيء ، وتعرض لكلام الناس وكُفِّر . وعلى الرغم من إدراكي فيما بعد لعدم صحة هذا القول ، إلا أني كتبت إليه - للصداقة التي بيننا - إن يكف عن الحدية والتطرف ، وعلى وجه الخصوص أن يساهم في دعم حضرات آيات الله الذين يرتكز عليهم أهل إيران ، بل أهل الإسلام ، وما قدموه من تضحيات في سبيل حب الوطن معروف لدى الجميع سواء في داخل إيران أو خراجها . فكتب لي في جوابه :

« إني مستعد لإطاعة وإجابة كل نوع من نصائحكم الخالصة بروحي وقلبي ، وأتمنى عليكم أن تكتبوا لي - كمعلم مشفق - كل ما يدور في خاطركم الشريف ، دون أدنى ملاحظة ، فإن الله يشهد أني أستفيد منها بكل إخلاص ، والله شاهد أيضاً أني لم أعمل منكراً وإذا كان قد بدر مني خطأ - رغم أني لم أعرف هذا الخطأ مع كل دقتي - فلا يستحسن أن أجعل خلوص النية - التي هي كل ما أملك في هذا العالم - كفارة لهذا الخطأ .

أسأل الله أن يُنقص من مصائب إيران ويضيف إلى بلاياي ، وأن ينقذ إيران بتعاستي الأبدية » .

والآن إذا كان ثمة شخص ، على هذا القدر من حب الوطن والرغبة في مصلحته حتى ولو كانت تستلزم هلاكه وفناءه ، ألا يكون مدعاة للأسف وجود مثل هذا الشخص معتزلاً في ركن قصي .

لقد مضى شطر كبير من الليل ولا أحب أن أجهدك أكثر من هذا . إني أنتظر أوامركم باستمرار وأدعو لدوّام بقائكم الشريف .

الأقل ، محب الخير لإيران إدوارد براون الإنكليزي .

نص جواب الآخوند الخراساني :

٣ رجب ١٣٢٩ النجف .

كامبريج : حضرة العالم الفاضل الدكتور ادوارد برون دامت إفاضاته وفضائله ، يحيطكم مقام الرئاسة الروحانية للمسلمين الجعفريين علماً بما يلي :

لقد طالعت بكل سرور رسالتكم الموقرة ، وأمعنت النظر في جميع مواضيعها ، وتلقيت النصائح المشفقة والإرشادات الخالصة بكل اهتمام . وكانت ملاحظتها باعثاً لسروري وارتياحي .

أعتقد أنه قد جرى توصية وتشجيع العشائر والقبائل وسائر الطبقات على حفظ الأمن وقطع الطريق على ذرائع المعتدين ، وذلك من خلال البرقيات والرسائل ، وعلى الرغم من كون أيادي الاستبداد والرجعية لا يفوتون الفرصة - مع التحريض الأجنبي - في تغليب عنصر الجهل ، إلا أن الأوضاع الراهنة تدعو إلى الاطمئنان حتى نرى ما سيحدث فيما بعد .

وأما فيما يتعلق بوزير الخارجية السابق السيد حسين قلي خان نواب والسيد تقي زاده[1] وسائر الأصدقاء المحبين لإيران فإن الرئاسة الروحيانية ، على علم تام بها وعلى إطلاع بصلاحها وخدماتها ، ولكن مع الأسف كانت هذه التغييرات لازمة قهرية من لوازم الثورة ، وحيث أن الخادم سرعان ما يشتبه به مع الخائن ، فإن مقام الروحانية لا يتدخل في مثل هذه الجزئيات ، ولكن مع ذلك نأمل أن تتدارك الأمور ، وتوكل الأعمال إلى أشخاص لائقين بها .

والآن أكرر عواطفي الصادقة وأكتفي بهذا القدر .

محمد كاظم الخراساني

محمد محسن بن الشاه مرتضى بن الشاه محمود ، المدعو بالمولى محسن القاشاني ، والمعرف بالفيض .

قال علي أكبر الغفاري :

أحد نوابغ العلم في القرن الحادي عشر . كان نشوؤه في بلدة قم ، فانتقل إلى قاشان ، ثمّ ارتحل إلى شيراز بعدما سمع بورود السيّد ماجد بن عليّ البحراني[2] تلك البلدة للأخذ من منهل علومه ، ومن المولى صدر الدين الشيرازي وتخرّج عليهما وتزوّج ابنة المولى الصدر المعظّم ، ثمّ غادرها إلى قاشان[3] وكان هنالك مرجعاً لا يُدُّ له إلى أن توفّي بها سنة ١٠٩١ وهو ابن أربع وثمانين[4] ، ودفن هناك وقبره مشهور يزار .

أقوال العلماء في حقه

إطباق العلماء على فضله وتقدُّمه وبراعته في العلوم يغنينا عن سرد جمل الثناء عليه وتسطير الكلم في إطرائه .

قال الشيخ الحرّ العامليّ : محمّد بن المرتضى المدعوّ بمحسن الكاشاني كان فاضلاً ، عالماً ، ماهراً ، حكيماً ، متكلّماً ، محدّثاً ، فقيهاً ، محقّقاً ، شاعراً ، أديباً ، حسن التصنيف ، من المعاصرين ، له كتب - ثمّ عدّ بعضاً من كتبه ثمّ قال : - قد ذكره السيّد عليّ بن ميرزا أحمد في السلافة وأثنى عليه ثناءً بليغاً[5] .

وقال الرجاليّ الكبير محمّد بن عليّ الأردبيلي : محسن بن المرتضى - رحمه الله - العلاّمة المحقّق المدقّق ، جليل القدر ، عظيم الشأن ، رفيع المنزلة ، فاضل كامل ، أديب متبحّر في جميع العلوم[6] .

وقال السيّد نعمة الله الجزائريّ الشوشتري : كان أُستاذنا المحقّق المولى محمّد محسن القاشاني صاحب الوافي وغيره ممّا يقرب مائتي كتاب ورسالة[7] .

---

(١) أثر مقتل السيد عبد الله البهبهاني في طهران في التاسع من رجب عام ١٣٢٨ ، اتهم بعض الانتهازيين ورؤساء حزب الاعتدال - الذين كانوا في عداء مع الديمقراطيين - وزعيمهم السيد تقي زاده بالتحريض على هذا القتل . وبالفعل أغلقت أسواق طهران وطالب البعض بتكفير ونفي تقي زاده ، ولم يفلت تقي زاده من هذه الورطة حتى بادر الحزب الديمقراطي ومحمد رضا الشيرازي في استصدار براءة له من الحوزة في النجف ، ولكن على الرغم من ذلك فضل تقي زاده البقاء خارج إيران .

(٢) هو السيد ماجد بن علي بن المرتضى بن علي بن ماجد أبو علي الحسيني البحراني ، من أجلّ فضلاء البحرين وأدبائها . هو أول من نشر الحديث . قال الشيخ سليمان الماحوزي في الفصل الذي ألحقه بالبلغة في ذكر علماء البحرين : السيد العلامة الفهامة - إلى أن قال : - تلمذ عليه أعيان العلماء مثل مولانا العلاّمة محمد محسن الكاشاني صاحب الوافي .

(٣) راجع لؤلؤة البحرين ص ١٣٢ .

(٤) المستدرك ج ٣ ص ٤٢٠ .

(٥) أمل الآمل ص ٥٠٧ من طبعة الملحق بمنهج المقال .

(٦) جامع الرواة ج ٢ ص ٤٢ .

(٧) كذا في زهر الربيع ص ١٦٤ طبع طهران حسبما رقمناه .

وقال الشيخ يوسف البحراني : المحدّث القاشاني ، كان فاضلاً ، محدّثاً ، أخبارياً صلباً[1] .

وقال السيّد محمّد شفيع الحسيني في الروضة البهيّة في ترجمته : إنّه صرف عمره الشريف في ترويج الآثار المرويّة ، والعلوم الإلهيّة ، وكلماته في كلّ باب في غاية التهذيب والمتانة وله مصنّفات كثيرة .

وأثنى عليه صاحب الروضات بقوله : أمره في الفضل والفهم والنبالة في الفروع والأُصول وكثرة التأليف ، مع جودة التعبير والترصيف ، أشهر من أن يخفى في هذه الطائفة على أحد إلى منتهى الأبد[2] .

وقال المحدّث النوريّ : من مشايخ العلاّمة المجلسي العالم الفاضل المتبحّر المحدّث العارف الحكيم المولى محسن بن الشاه مرتضى بن الشاه محمود المشتهر بالفيض الكاشاني[3] .

وقال المحدّث القمّيّ : أمره في الفضل والأدب ، وطول الباع وكثرة الاطّلاع ، وجودة التعبير ، وحسن التحرير ، والإحاطة بمراتب المعقول والمنقول ، أشهر من أن يخفى[4] .

وأورده الأُستاذ « مرتضى المدرّسي جهاردهي » في كتابه المسمّى بطبقات المفسّرين قال :

كان الفيض ـ رحمه الله ـ من كبار علماء الإمامية الّذين كانت لهم عناية بالغة بالقرآن والحديث ، له مسلك خاصّ في التفسير جمع بين الطريقة والشريعة .

ألف في الحقائق القرآنيّة الّتي أُسّست على أُصول الفطرة ، والحكمة العالية الّتي تنطبق على نواميس الطبيعة ، والعرفان الصحيح الّذي يلائم الفطرة والعقل ، تفسيريه : الصافي ، والأصفي .

ونقل في كتابه « المحجّة البيضاء » الّذي ألّفه في تهذيب إحياء العلوم ، أخباراً كثيرة عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام في علم الأخلاق وعلم النفس وأدبها ، بوجه رائق ؛ والحقّ أنّه تفسير للقرآن وشرح لأحاديث الإماميّة . وهو يبحث في هذا الكتاب بحثاً تحليليّاً عن عقائد الغزّالي وآرائه ثمّ يشرع في نقدها وتهذيبها معتمداً في كلّ ذلك على الكتاب والسنّة .

واستشهد في آرائه في جميع تآليفه بالقرآن والحديث الصادر عن أهل بيت الوحي .

وإذا قسنا بينه وبين أبي حامد في فهم آيات الكتاب الحكيم والأخبار الصادرة عن منبع الوحي ، نرى تقدّمه الباهر على الغزّالي مع ما كان له من الشهرة العالميّة واشتهار الفيض في جامعة الشيعة فحسب .

ولو أنّ الدعايات المبثوثة حول الغزّالي في العالم بثّت حول الفيض ، لظهرت عبقريّته ، وعلم المحقّقون من أعلام الغرب مبلغ عظمته العلميّة ، وتوجّهوا نحو آرائه القيّمة وعقائده الحقّة في علم التفسير والحديث من ناحية الأخلاق وعلم النفس وأدبها . (انتهى) .

---

(١) لؤلؤة البحرين ص ١٣٣ .

(٢) الروضات ص ٥١٦ .

(٣) خاتمة المستدرك ص ٤٢٠ .

(٤) الكنى والألقاب .

مشائخه والراوون عنه

روى عن جماعة من الأعلام منهم :

١ ـ الشيخ البهائي محمّد بن الحسين بن عبد الصّمد العاملي .

٢ ـ المولى محمّد طاهر بن محمّد حسين الشيرازيّ ثمّ النجفي ثمّ القمّيّ .

٣ ـ المولى خليل الغازي القزويني شارح الكافي .

٤ ـ الشيخ محمّد بن الشيخ الحسن بن الشهيد الثاني .

٥ ـ المولى محمّد صالح شارح الكافي .

٦ ـ السيّد الجليل النبيل السيّد ماجد بن السيّد هاشم الحسينيّ البحراني .

٧ ـ الحكيم المتألّه الفاضل محمّد بن إبراهيم الشيرازي الشهير بمولى صدرا .

٧ ـ أبوه الشاه مرتضى بن الشاه محمود .

ويروي عنه جماعة من الأعاظم منهم :

١ ـ المجلسي محمّد باقر بن محمّد تقي صاحب بحار الأنوار .

٢ ـ السيّد نعمة الله الجزائريّ الشوشتري .

٣ ـ القاضي سعيد القمّيّ .

٤ ـ ولده المعروف بعلم الهدى .

٢ ـ تصانيفه

التفسير[5] :

١ ـ الصافي (١٠٧٥) .

٢ ـ الأصفى ـ المنتخب من الصافي (١٠٧٧) .

٣ ـ تنوير المذاهب ـ تعليقات على تفسير القرآن للكاشفي السبزواري .

٤ ـ المصفّى .

٥ ـ رسالة في تفسير آية الأمانة .

الحديث :

١ ـ الوافي ـ في ترتيب الأحاديث المذكورة في الكتب الأربعة (١٠٦٨) .

٢ ـ الشافي ـ المنتخب من الوافي (١٠٨٢) .

٣ ـ النوادر ـ في جمع الأحاديث الغير المذكورة في الكتب الأربعة .

العقائد :

١ ـ علم اليقين في أصول الدين (١٠٤٢) .

٢ ـ المعارف ، ملخّص من كتاب علم اليقين (١٠٣٦) .

---

(٥) كتبنا هذا الفهرس ـ حسب المواضيع مع ذكر سنة التأليف ـ مقتبساً ممّا يلي من المصادر :
أ ـ مقدمة كتاب المحجة البيضاء ، طبع مكتبة الصدوق (في ٨ مجلد) .
ب ـ الفهارس الثلاثة لتصانيفه مع إضافات للسيد محمد المشكوة ، طبع في مقدمة المجلّد الثاني من المحجة البيضاء طبع المكتبة الإسلامية (في ٤ مجلدات) .
ج ـ ريحانة الأدب ج ٤ ص ٣٧٨ ـ ٣٧٤ . وفيه تحقيق حول بعض الكتب المنسوبة إليه .

٣ ـ عين اليقين في أصول الدين (قريب ١٠٣٦) .

٤ ـ أصول المعارف ، ملخّص مهمّات عين اليقين (١٠٨٩) .

٥ ـ قرّة العيون ـ في معنى « أصول المعارف » بسياقة أخرى وطريقة أسنى (١٠٨٨) .

٦ ـ أنوار الحكمة ـ ملخّص من كتاب علم اليقين ، مع فوائد حكميّة اختصّت به (١٠٤٣) .

٧ ـ ترجمة العقائد ـ بالفارسية (١٠٤٣) .

٨ ـ أصول العقائد (١٠٣٦) .

٩ ـ منهاج النجاة (١٠٤٢) .

١٠ ـ السانح الغيبي ـ في تحقيق معنى الإيمان والكفر ومراتبها .

١١ ـ الكلمات الطريفة ـ في ذكر منشأ اختلاف آراء الأمّة المرحومة ـ في مائة كلمة (١٠٦٠) .

١٢ ـ الإنصاف (١٠٨٣) .

١٣ ـ هدية الاشراف في تلخيص الانصاف .

١٤ ـ رسالة في الجبر والاختيار .

١٥ ـ التذكرة في الحكمة الإلهية .

التوحيد :

١ ـ الكلمات المضنونة في بيان التوحيد (١٠٩٠) .

٢ ـ اللباب ـ في كيفية علم الله سبحانه بالأشياء .

٣ ـ اللّب ـ في معنى حدوث العالم .

٤ ـ رسالة في جواب من سأل عن كيفيّة علم الله سبحانه قبل الإيجاد .

المعاد :

١ ـ ميزان القيامة ـ في كيفية ميزان يوم القيامة (١٠٤٠) .

٢ ـ مرآة الآخرة ـ في حقيقة الجنّة والنار (١٠٤٤) .

الإمامة والولاية :

١ ـ بشارة الشيعة (١٠٨١) .

٢ ـ الأربعين في مناقب أمير المؤمنين (ع) .

٣ ـ ثناء المعصومين عليهم السّلام ـ يشبه التحيّة المنسوبة إلى الطّوسي ، إلاّ أنّه أبسط منه وأوفى .

٤ ـ رسالة في جواب من سأل عن البرهان على حقيقة مذهب الإمامية من أهل مولطان .

الدعاء :

١ ـ شرح الصحيفة السّجادية ـ مختصر .

٢ ـ ذريعة الضّراعة ـ في الأدعية المأثورة المتضمنّة للمناجاة (قريب ١٠٥٠) .

٣ ـ مختصر الأوراد وسمّي أيضاً « منتخب الأوراد » مشتمل على الأذكار والدعوات المتكرّرة في اليوم والليلة والأسبوع والشهر والسّنة (١٠٦٧) .

٤ ـ خلاصة الأذكار (١٠٣٣) .

٥ ـ جلاء القلوب ـ وسمّي « جلاء العيون » أيضاً .

٦ ـ أهمّ ما يعمل ـ مهمّات ما ورد في الشريعة المطهرة من العمل .

٧ ـ الاذكار المهمّة ـ مختصر من « خلاصة الاذكار » بالفارسية .

٨ ـ أذكار الطهارة .

٩ ـ الرفع والدفع ـ في رفع الآفات ودفع البليات بالقرآن والدعاء والعوذ والرقى والدواء ـ فارسي .

١٠ ـ الكلمات السريّة العليّة ، المنتزعة من أدعية الأئمّة المعصومين عليهم السّلام (١٠٨٨) .

١١ ـ لبّ الحسنات .

١٢ ـ زاد العقبى ـ وهما مشتملان على خلاصة ما في « منتخب الأوراد » .

١٣ ـ أعمال الأشهر الثلاثة .

الفقه :

١ ـ معتصم الشيعة في أحكام الشريعة ، خرج منه كتاب الصّلاة ومقدماتها (١٠٤٢) .

٢ ـ النخبة ـ مشتمل على خلاصة أبواب الفقه (قريب ١٠٥٠) .

٣ ـ الشهاب الثّاقب ـ في تحقيق عونيّة وجوب صلاة الجمعة في زمن غيبة الحجة المنتظر ـ عجل الله تعالى فرجه الشريف ـ (١٠٥٧) .

٤ ـ أبواب الجنان ـ مختصر في صلاة الجمعة بالفارسية (١٠٥٥) .

٥ ـ ترجمة الصّلاة ـ بالفارسية (١٠٤٣) .

٦ ـ مفاتيح الخير ـ في أحكام الصّلاة بالفارسيّة .

٧ ـ ترجمة الطّهارة ـ في أحكام الطّهارة بالفارسية .

٨ ـ ترجمة الزكاة ـ بالفارسية .

٩ ـ ترجمة الصّيام ـ بالفارسيّة .

١٠ ـ النخبة الصغرى .

١١ ـ الضوابط الخمس ـ في أحكام الشكّ والسّهو والنّسيان في الصلاة .

١٢ ـ جهاز الأموات ـ أمّهات المسائل الشرعية المتعلقة بالجنائز .

١٣ ـ رسالة في بيان أخذ الأجرة على العبادات والشعائر الدينيّة .

١٤ ـ رسالة في تحقيق ثبوت الولاية على البكر في التزويج .

١٥ ـ مفاتيح الشرائع ـ من أهمّ الكتب الفقهية المتداولة وكتب عليه شروح عديدة (١٠٤٢) .

١٦ ـ ترجمة الحجّ ـ بالفارسيّة .

١٧ ـ زاد الحاجّ ـ بالفارسية ، أخصر من « ترجمة الحج » (١٠٦٥) .

١٨ ـ تعليقات النخبة الصغرى .

أصول الفقه :

١ ـ سفينة النجاة ـ في أنّ مآخذ الأحكام الشرعية ليس إلاّ محكمات الكتاب والسنّة (١٠٥٨) .

٢ ـ الحقّ المبين في كيفيّة التفقّه في الدين (١٠٦٨) .

٣ ـ الأُصول الأصليّة (١٠٤٤) .

٤ ـ نقد الأُصول الفقهيّة ـ وهو أوّل تصنيف له .

٥ ـ راه صواب ـ بالفارسية ـ سبب الاختلاف في المذاهب ، وتحقيق معنى الإجماع (قريب ١٠٤٠) .

٦ ـ شرائط الإيمان ـ منتخب من « راه صواب » (١٠٦٢) .

٧ ـ المحاكمة ـ محاكمة بين فاضلين من مجتهدي أصحابنا في معنى التفقّه في الدين .

الأخلاق :

١ ـ المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء (١٠٤٦) .

٢ ـ الحقائق في أسرار الدين ، ملخّص كتاب المحجّة (١٠٩٠) .

٣ ـ تسهيل السبيل إلى الحجّة في انتخاب « كشف المحجة » للسيّد ابن طاووس (١٠٤٠) .

٤ ـ الخطب ـ يشتمل على مائة خطبة ونيف لجمعات السنة والعيدين (١٠٦٧) .

٥ ـ ترجمة الشريعة ـ في فائدة الشريعة وكيفية سلوكها .

٦ ـ زاد السالك .

٧ ـ رفع الفتنة ـ بيان حقيقة العلم والعلماء .

٨ ـ الفت نامه ـ في ترغيب المؤمنين إلى الأنس والاتحاد ـ فارسية .

٩ ـ التطهير .

١٠ ـ ضياء القلب (١٠٥٧) .

١١ ـ آئينه شاهى ـ منتخب من ضياء القلب فارسي (١٠٦٦) .

التراجم :

١ ـ شرح الصدر ـ في أحوالات نفسه (١٠٦٥) .

٢ ـ فهرس المصنّفات الأوّل ـ يشتمل على ثمانين كتابا ، كتبه وهو ابن ٦٢ سنة (١٠٦٩) .

٣ و ٤ ـ فهرست المصنّفات الثاني والثالث ـ كتبهما وقد بقي من مدّة عمره سنة واحدة ، وكان عدد تأليفاته حينئذ ١١٦ كتابا (١٠٩٠) .

٥ ـ الاعتذار ـ جواب مكتوب بعض الإخوان .

المنتزعات :

١ ـ المنتزع من رسائل إخوان الصّفا .

٢ ـ المنتزع من المكاتيب لقطب بن محيي .

٣ ـ المنتزع من المثنوي للمولوي الرومي ـ المسمّى بسراج السالكين .

٤ ـ المنتزع من غزليّاته .

٥ ـ منتخب بعض أبواب الفتوحات المكيّة لمحيي الدين ابن العربي .

الأدب :

١ ـ مثنوي سلسبيل .

٢ ـ شراب طهور .

٣ ـ تسنيم .

٤ ـ ندبة العارف .

٥ ـ ندبة المستغيث .

٦ ـ تنفيس الهموم .

٧ ـ وسيلة الابتهال .

٨ ـ آب زلال .

٩ ـ آداب الضيافة .

١٠ ـ قصائد دهر آشوب .

١١ ـ گلزار قدس .

١٢ ـ شوق المهدي (ع) .

١٣ ـ شوق الجمال .

سائر العلوم :

١ ـ تشريح العالم ـ في بيان هيئة العالم وأجسامه وأرواحه وكيفيّته ، وحركات الأفلاك والعناصر ، وأنواع البسائط والمركبات .

٢ ـ وصف الخيل ، وذكر ما ورد من اتّخاذ الخيل ومعرفتها وعلاماتها من الأئمة المعصومين عليهم السّلام ـ فارسي (١٠٦٧) .

٣ ـ غنية الانام في معرفة الساعات والأيّام ـ على ما يستفاد من أحاديث أهل البيت عليهم السّلام .

٤ ـ معيار الساعات ـ وهو قريب من « غنية الانام » إلاّ أنّه فارسي .

٥ ـ الأحجار الشداد والسيوف ، في نفي الجواهر الأفراد .

٦ ـ فهرست العلوم .

٧ ـ أجوبة المسائل .

٨ ـ الكلمات المكنونة (١٠٥٧) .

٩ ـ الكلمات المخزونة ـ المنتزعة من « الكلمات المكنونة » (١٠٨٩) .

١٠ ـ اللئالي ـ من ملتقطات « الكلمات المكنونة » .

١١ ـ المشواق .

١٢ ـ تقويم المحسنين ـ في معرفة الساعات والشهور والسنين .

١٣ ـ حاشية على الرواشح السماوية لمير محمد باقر الداماد .

« منهاج النجاة » وهو في مقصدين وخاتمة :

١ ـ المقصد الأول في الاعتقادات (التوحيد ، العدل ، النبوة ، الإمامة ، المعاد) .

٢ ـ المقصد الثاني في الأعمال (طاعات الجوارح ، معاصي الجوارح ، طاعات القلب ، معاصي القلب ، آداب الصحبة والمعاشرة) .

٣ ـ الخاتمة .

يورد المؤلف في هذه الرسالة مجملاً للعقائد ، والأدعية والاذكار ، والمعاصي وتجنبها ، وآداب المعاشرة والمصاحبة .

ميرزا شرف الدين محمد بن محمد رضا التبريزي ، المشتهر بالمجذوب .

ولد سنة ١٠٠٦ في مدينة تبريز ، وقيل في تاريخ ولادته غير ذلك وتوفي سنة ١٠٩٣ كان عالماً شاعراً عارفاً ، نظم في مناقب الأئمة عليهم السّلام ، وله ديوان مثنوي (طريق النجاة) ومثنوي آخر (التأييدات) في ثمانية آلاف بيت ، ومنه قصائد وأبيات في مدح الأئمة عليهم السّلام . وله ديوان من

أربعة آلاف بيت ، فيه القصيدة والغزل والمخمس والترجيح . وله أشعار في الأخلاق والنصائح .

وهو شاعر مذهبي عرفاني ، نستدل من مطالعة أشعاره أنه سافر مرتين إلى الحج وزيارة النجف وكربلاء .

أبو النضر محمد بن مسعود بن محمد بن عياش المعروف بالعياشي

قال ابن النديم والشيخ الطوسي : من أهل سمرقند وقيل أنه من بني تميم . وقال النجاشي : السلمي السمرقندي فيظهر منهم أنه كان عربيّاً تميمياً أو سلمياً في الأصل ، وسمرقندياً من حيث الموطن ، فلا وجه لما قاله شيخنا في قاموس الرجال في ذيل : قول الشيخ الطوسي في الفهرست : « من أهل سمرقند وقيل من بني تميم » لا تصلح المقابلة إلا إذا كان المراد عجمي سمرقندي أو عربي تميمي .

عصره

قال العلامة الطهراني والسيد حسن الصدر : هو من طبقة ثقة الإسلام الكليني المتوفى سنة ٣٢٨ . وتدل على هذا رواية الشيخ الكشيّ الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع عنه كثيراً في كتابه معرفة الناقلين في الرجال . وفي رجال الكشي عن العياشي أنه قال كتب إلي الفضل بن شاذان . والفضل توفي سنة ٢٦٠ ومنه يظهر أن ولادة العياشي كانت حدود سنة ٢٤٠ كما لا يخفى .

الثناء عليه

قال ابن النديم : هو من فقهاء الشيعة الإمامية أوحد دهره وزمانه في غزارة العلم ولكتبه بنواحي خراسان شأن من الشأن . . .

وقال النجاشي : هو ثقة صدوق عين من عيون هذه الطائفة . . . وكان أول أمره عامي المذهب وسمع حديث العامة فأكثر منه ثم تبصر وعاد إلينا وكان حدث السن . . . قال أبو عبد الله الحسين بن عبيد الله : سمعت القاضي أبا الحسن علي بن محمد قال [قال] لنا أبو جعفر الزاهد : أنفق أبو النضر على العلم والحديث تركة أبيه سائرها وكانت ثلاثمائة ألف دينار وكانت داره كالمسجد بين ناسخ أو مقابل أو قارىء أو معلّق مملوءة من الناس . . .

وقال في موضع آخر : داره كانت مرتعاً للشيعة وأهل العلم .

وقال الشيخ الطوسي : هو جليل القدر واسع الأخبار بصير بالروايات مطلع عليها (مضطلع بهان خ) أكثر أهل المشرق علماً وفضلاً وأدباً وفهماً ونبلاً في زمانه صنف أكثر من مئتي مصنف ذكر فهرست كتبه أبو اسحق النديم . وله مجلس للخاص ومجلس للعام .

وقال ابن شهر آشوب : هو أفضل أهل المشرق علماً كتبه تزيد على مئتي مصنف .

وقال العلامة الحلي : هو جليل القدر واسع الأخبار بصير بالروايات مطلع عليها له كتب كثيرة تزيد على مئتي مصنف . . .

وقال ابن داود : هو ثقة صدوق غير أنه يروي عن الضعفاء كان عامياً فاستبصر . قيل أنه أنفق في العلم تركة أبيه وهي ثلاثمائة ألف دينار وكانت داره كالمدرسة للمشتغلين صنف أكثر من مئتي كتاب .

وقال علم الهدى في نضد الإيضاح : محمد بن مسعود بن محمد بن عياش ـ بالشين المعجمة ـ السلمي السمرقندي أبو النضر ـ بالضاد المعجمة ـ المعروف بالعياشي ثقة عظيم الشأن جليل القدر شيخ الطائفة أنفق على العلم والحديث تركة أبيه كلها وكانت ثلاثمائة ألف دينار وكانت داره كالمسجد بين ناسخ أو مقابل قارىء أو معلق مملوءة من الناس وصنّف كتباً كثيرة في أصناف العلوم [انتهى كلام العلامة الحلي] أقول : كان في أول عمره عامي المذهب وسمع حديث العامة وأكثر منه ثم تبصر وعاد إلينا وهو حدث السن وكان واسع الأخبار صدوقاً إلا أنه يروي عن الضعفاء . وكان له مجلس للخاص ومجلس للعام .

وقال المحدث النوري : هو من عيون هذه الطائفة ورئيسها وكبيرها ، جليل القدر ، عظيم الشأن ، واسع الرواية ونقّادها ، ونقّاد الرجال .

وقال المحدث القمي : قال مشايخ الرجال أنه ثقة صدوق ، عين من عيون هذه الطائفة وكبيرها ، جليل القدر ، واسع الأخبار ، بصير بالرواية ، مضطلع بها ، له كتب كثيرة تزيد على مئتي مصنف ، منها كتاب التفسير المعروف . . . ومن تلاميذه وغلمانه ـ في مصطلح أهل الرجال ـ الشيخ الكشي صاحب كتاب الرجال المشهور .

وقال العلامة الطهراني : محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمي السمرقندي المؤلف لما يزيد على مئتي كتاب في عدة فنون : الحديث ، الرجال ، التفسير ، النجوم [الفقه] وغيرها وهو من مشايخ الكشي ، من طبقة ثقة الإسلام الكليني .

شيوخه

يستفاد من إسناد الروايات الباقية المروية عن العياشي كثرة شيوخه وقد استخرجنا أسماءهم من الروايات المنقولة منه ، في رجال الكشي ، وشواهد التنزيل للحسكاني وبعض كتبنا الرجالية كرجال النجاشي وغيره . . . وهذا تفصيلها :

١ ـ إبراهيم بن محمد بن فارس

هو من أصحاب الإمام الهادي والعسكري (ع) وقال الكشي : هو في نفسه لا بأس به ولكن بعض من يروي هو عنه وفي حاشية الشهيد الثاني على خلاصة الأقوال : قال الكشي هو ثقة في نفسه لا بأس به . وفي الرجال الوسيط للأسترآبادي : قال أحمد بن طاوس قال الكشي هو ثقة في نفسه ولكن ازراه بعض من يروي عنه .

٢ ـ أبو العباس أحمد بن عبد الله بن سهل البغدادي الواضحي

يروي عنه ابنه أبو محمد سهل بن أحمد بن عبد الله بن سهل الديباجي الذي قال النجاشي في حقه : لا بأس به كان يخفى أمره كثيراً ثم ظاهر بالدين آخر عمره له كتاب إيمان أبي طالب (رض) .

٣ ـ أبو عبد الله الشاذاني النيسابوري محمد بن أحمد بن نعيم

هو من أصحاب الإمام العسكري (ع) .

٤ ـ محمد بن أحمد بن حماد المروزي أبو علي المحمودي

هو من أصحاب الإمام الهادي (ع) .

٥ ـ أحمد بن منصور الخزاعي

روى عنه العياشي في موارد متعددة ، راجع رجال الكشي .

وعدّه الشيخ الطوسي من أصحاب الإمام الرضا (ع) وهو مستبعد .

٦ ـ أبو يعقوب اسحاق بن محمد البصري

هو من أصحاب الإمام الهادي والعسكري (ع) ، وقال العياشي هو أحفظ من لقيته [ببغداد] .

وفي اسحاق هذا كلام طويل فراجع كتب الرجال .

٧ ـ أبو محمد جبريل بن أحمد الفاريابي

قال الشيخ الطوسي : كان مقيماً بكش ، كثير الرواية عن العلماء بالعراق وقم وخراسان .

وقال القهبائي : هو ضابط الأحاديث وكاتبها ، يذكر كثيراً مؤخراً ومقدماً في رجال الكشي .

وقال الوحيد البهبهاني : هو معتمد الكشي ، حتى إنه يعتمد على ما وجد من خطه ، وفيه اشعار بجلالته ، بل بوثاقته أيضاً فتأمل .

٨ ـ أبو سعيد جعفر بن أحمد بن أيوب السمرقندي المعروف بابن التاجر .

قال النجاشي : كان صحيح الحديث والمذهب ، روى عنه محمد بن مسعود العياشي ذكر أحمد بن الحسين : أن له كتاب الرد على من زعم أن النبي (ص) كان على دين قومه قبل النبوة . . .

وروى الشيخ في التهذيب والاستبصار بعض الروايات عن العياشي عنه .

وقال الشيخ الطوسي : يعرف بابن التاجر ، من أهل سمرقند متكلم ، له كتب .

٩ ـ أبو عبد الله الحسين بن أشكيب

قال النجاشي : هو شيخ لنا خراساني ، ثقة مقدم ، ذكره الكشي في أصحاب الإمام العسكري (ع) ، روى عنه العياشي وأكثر ، واعتمد حديثه ثقة ثقة ثبت . قال الكشي : هو القمي خادم القبر قال شيخنا [المفيد] قال لنا أبو القاسم جعفر بن محمد : كتاب الرد على من زعم أن النبي (ص) كان على دين قومه و[كتاب] الرد على الزيدية للحسين بن أشكيب حدثني بهما محمد بن الوارث عنه وبهذا الإسناد كتابه النوادر ، قال الكشي في رجال أبي محمد : الحسين بن أشكيب المروزي المقيم بسمرقند وكش ، عالم متكلم ، مؤلف للكتب .

وقال الشيخ الطوسي : هو فاضل ، جليل ، متكلم ، فقيه ، مناظر ، صاحب تصانيف ، لطيف الكلام ، جيّد النظر وقال في موضع آخر : القمي خادم القبر وقال في موضع آخر : المروزي المقيم بسمرقند وكش ، عالم متكلم ، مصنف للكتب .

١٠ ـ أبو جعفر محمد بن أحمد بن خاقان النهدي القلانسي المعروف بحمدان

قال النجاشي : كوفي مضطرب له كتب منها كتاب المواقيت في الصلاة ، كتاب فضل الكوفة ، كتاب النوادر .

وقال الكشي : سألت العياشي عن جماعة هو منهم فقال : أما محمد النهدي وهو حمدان القلانسي كوفي ، فقيه ، ثقة ، ثقة ، خير .

قال شيخنا في قاموس الرجال يمكن ترجيح قول العياشي ـ وإن قالوا الجارح مقدم ـ بأن العياشي كان تلميذه وحينئذ فهو كالشاهد والشاهد يرى ما لا يرى الغائب وقد قرره الكشي .

١١ ـ أبو الحسن حمدويه بن نصير بن شامي

قال الشيخ الطوسي : روى عنه العياشي يكنى أبا الحسن عديم النظير في زمانه ، كثير العلم والرواية ، ثقة حسن المذهب .

وروى الشيخ الطوسي في التهذيب بعض الروايات عن العياشي عنه .

١٢ ـ محمد بن نصير بن شاهي

قال الشيخ الطوسي : محمد بن نصير ، من أهل كش ، ثقة جليل القدر ، كثير العلم ، روى عنه أبو عمرو الكشي .

أقول : روى عنه العياشي في موارد كثيرة . وروى الشيخ الطوسي في التهذيب بعض الروايات عن العياشي عنه فراجع معجم رجال الحديث : ١٧ ، ٢٥١ ، ٢٦٠ .

١٣ ـ عبد الله بن حمدويه البيهقي

كان من أصحاب الإمام العسكري (ع) ، وفي رجال الكشي : ومن كتاب له (ع) يعني أبا محمد (ع) إلى عبد الله بن حمدويه البيهقي : وبعد فقد نصبت لكم . . رحمهم الله وإياك معهم برحمتي لهم ان الله واسع كريم وقال الممقاني أقول أن ترحمه (ع) عليه وكتابه إليه يكشفان عن حسن حاله ، وجلالة قدره . . .

١٤ ـ علي بن عبد الله بن مروان

قال الشيخ الطوسي : بغدادي ، من أصحاب الإمام العسكري .

ونقل الكشي عن العياشي أنه قال : أما علي بن عبد الله بن مروان ، فإن القوم يعني الغلاة يُمتحن في أوقات الصلوات ، ولم أحضره في وقت الصلاة ، ولم أسمع فيه إلا خيراً .

١٥ ـ علي بن الحسن بن الفضّال الكوفي

قال الشيخ الطوسي فطحي المذهب ، كوفي ثقة ، كثير العلم ، واسع الأخبار ، جيد التصانيف ، غير معاند ، وكان قريب الأمر إلى أصحابنا الإمامية القائلين بالإثني عشر (ع) ، وكتبه مستوفاة في الأخبار حسنة وقيل أنها ثلاثون كتاباً .

وقال النجاشي : كان فقيه أصحابنا بالكوفة ، ووجههم ، وثقتهم ، وعارفهم بالحديث ، والمسموع قوله فيه سمع منه شيئاً كثيراً ، ولم يعثر له على زلة فيه ، ولا ما يشينه ، وقل ما روى عن ضعيف ، وكان فطحياً . . . وقد صنف كتباً كثيرة .

وقال الكشي : سألت محمد بن مسعود العياشي عن جماعة هو منهم فقال : أما علي بن الحسن بن فضال فلا لقيت ، فيمن لقيت بالعراق وناحية خراسان ، أفقه ولا أفضل من علي بن الحسن بالكوفة ، ولم يكن كتاب عن الأئمة (ع) ، في كل صنف ، إلا وقد كان عنده ، وكان أحفظ الناس ، غير أنه كان فطحياً ، وكان من الثقات .

وعدّه الشيخ الطوسي من أصحاب الإمام الهادي والإمام العسكري (ع).

وقال العلامة الطهراني: في عبارة شيخ النجاشي: «سمع العياشي أصحاب علي بن الحسن بن فضال» تصحيف وتصحيح: سمع أصحاب الحسن بن علي بن فضال يعني ولده علي غيره ممن أدركه وصحبه فسمع العياشي منهم. استدلّ على التصحيف برواياته الكثيرة الموجودة عن علي بن الحسن بلا واسطة.

١٦ ـ أبو العباس أو أبو محمد عبد الله بن أبي عبد الله محمد بن خالد بن عمر الطيالسي التميمي

قال النجاشي: رجل من أصحابنا، ثقة، سليم الجنبة، له كتاب نوادر، ونسخة أُخرى نوادر صغيرة، ونسخة أُخرى صغيرة.

وقال في ذيل محمد بن مسعود العياشي: سمع أصحاب علي بن الحسن بن فضال وعبد الله بن محمد بن خالد الطيالسي.

قال الكشي: سألت أبا النضر محمد بن مسعود العياشي عن جماعة هو منهم فقال: وأما عبد الله بن خالد الطيالسي فما علمته إلا ثقة خيراً.

١٧ ـ أبو الحسن علي بن محمد بن فيروزان القمي

قال الشيخ الطوسي: هو كثير الرواية، كان مقيماً بكشّ.

قال الشيخ التستري، في قاموس الرجال، روى الكشي عن العياشي عنه في موارد متعددة، ومنها يظهر اطلاعه بالرجال.

وقد روى الكشي عن العياشي في أكثر من خمسين مورداً فراجع.

١٨ ـ علي بن جعفر بن العباس الخزاعي المروزي.

روى العياشي عنه كما في شواهد التنزيل.

قال الشيخ الطوسي: هو واقفي، وممن روى عن الإمام العسكري (ع).

وروى الكشي عن العياشي في أكثر من خمسين موضعاً.

١٩ ـ الفضل بن شاذان النيسابوري المتوفى ٢٦٠

قال النجاشي، كان ثقة أجل أصحابنا الفقهاء والمتكلمين وله جلالة في هذه الطائفة وهو في قدرة أشهر من أن نصفه وذكر الكشي أنه صنف مائة وثمانين كتاباً.

وقال الشيخ الطوسي: هو متكلم فقيه جليل القدر له كتب ومصنفات... وذكر ابن النديم أن على مذهب العامة كتباً وأظن أن هذا الذي ذكره الفضل بن شاذان الرازي الذي يروي العامة عنه.

أقول: روى الكشي عن العياشي في الموارد المتعددة أنه قال: كتب إلى الفضل بن شاذان وعده الشيخ في أصحاب الإمام الهادي والعسكري وفي كونه من أصحاب الإمام الرضا والإمام الجواد كلام فراجع.

٢٠ ـ محمد بن أحمد بن أبي عوف البخاري

قال الشيخ الطوسي: هو من أهل بخارى لا بأس به.

قال الشيخ التستري: أقول هو أحد مشايخ الكشي.

٢١ ـ أبو الحسن محمد بن سعيد بن يزيد أبو مزيد الكشي

روى عنه العياشي كما في رجال الكشي.

وقال الشيخ الطوسي في باب من لم يرو عنهم (ع): محمد بن سعيد من أهل كش يكنى أبا الحسن صالح مستقيم المذهب.

٢٢ ـ القاسم بن هشام اللؤلؤي

عده الشيخ من أصحاب الإمام العسكري (ع) وقال في الفهرست: له كتاب النهي.

وقال النجاشي: أخبرنا ابن نوح،... بكتابه النوادر.

وقال الكشي سألت أبا النضر محمد بن مسعود [العياشي] عن جماعة هو منهم فقال: وأما القاسم بن هشام فقد رأيته خيراً فاضلاً وكان يروي عن الحسن بن محبوب.

٢٣ ـ محمد بن يزداد الرازي

روى عنه العياشي كما في شواهد التنزيل ورجال الكشي.

عدّه الشيخ من أصحاب الإمام العسكري (ع) وذكره أيضاً فيمن لم يرو عنهم (ع).

وقال العياشي في حقه: أما محمد بن يزداد الرازي فلا بأس به.

٢٤ ـ أبو يعقوب يوسف بن السخت البصري

روى عنه العياشي في موارد متعددة وعده الشيخ الطوسي تارة في أصحاب الإمام العسكري (ع) وأُخرى فيمن لم يرو عنهم.

وقال ابن الغضائري: يوسف بن السخت بصري ضعيف مرتفع القول استثناه القميون من نوادر الحكمة.

وعدّه العلامة في الخلاصة في الضعفاء.

قال المامقاني: ولكن المحقق الوحيد البهبهاني مال إلى إصلاح حال الرجال بما توضيحه وتوشيحه أن تضعيف الخلاصة ونحوها مبني على تضعيف ابن الغضائري وقد نبهنا مراراً على عدم الوثوق بتضعيفات ابن الغضائري سيما المبتنى منها على رمي الرجل بالغلو والارتفاع وقد مرّ أن غاية ما أفاده كلام في استثناء جماعة من رجال نوادر الحكمة هو عدم الالتزام بصحة كل ما رواه في نوادر الحكمة وإن حاله ليس حال أصحاب الإجماع...

وليعلم أن ما ذكرنا من شيوخه ليس كل ما وجدنا أسماءهم في رجال الكشي وشواهد التنزيل، وغيرهما، بل أعرضنا عن ذكر نحو من عشرين منهم لعدم عثورنا على ترجمتهم في ما بأيدينا من الكتب الرجالية والتراجم وغيرها فراجع.

تلاميذه والرواة عنه

قد سبق أن دار العياشي كانت مرتعاً للشيعة وأهل العلم وهي كالمدرسة للمشتغلين وكالمسجد بين ناسخ أو مقابل أو قارىء أو معلق وكان له مجلس للخاص ومجلس للعام.

فطبعاً كان له تلاميذ وأصحاب وغلمان ورواة كثيرون قد ذكر بعضهم في بعض كتب الرجال والتراجم.

ونحن نذكر هنا أربعين منهم كلهم أو جلّهم من الفضلاء الأجلة:

١ ـ أبو محمد حيدر بن محمد بن نعيم السمرقندي

قال الشيخ الطوسي في رجاله : هو عالم جليل يروي جميع مصنفات الشيعة وأصولهم عن عدة . . . روى عنه التلعكبري وسمع منه سنة أربعين وثلاثمائة وله منه إجازة .

وقال في الفهرست : هو جليل القدر فاضل من غلمان محمد بن مسعود العياشي وقد روى جميع مصنفاته وقرأها عليه ، وروى ألف كتاب من الشيعة بقراءة وإجازة . . . وله مصنفات منها « تنبيه عالم قتله علمه الذي معه » و « كتاب النور لمن تدبره » .

وروى النجاشي بواسطة واحدة عنه عن العياشي .

٢ ـ جعفر بن محمد بن مسعود العياشي

قال الشيخ الطوسي : فاضل أخبرنا بجميع كتب العياشي ورواياته جماعة من أصحابنا عن أبي المفضل [الشيباني] عن جعفر بن محمد بن مسعود العياشي عن أبيه . وجعفر هذا من شيوخ الشيخ الصدوق ابن بابويه المتوفى سنة ٢٨١ والتلعكبري المتوفى ٣٨٥ وغيرهما .

٣ ـ أبو عمرو ومحمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي صاحب كتاب الرجال المعروف

قال النجاشي : صحب العياشي وأخذ عنه وتخرج عليه وفي داره التي كانت مرتعاً للشيعة وأهل العلم .

وقال الشيخ الطوسي : هو صاحب كتاب الرجال من غلمان العياشي ثقة بصير بالرجال والأخبار مستقيم المذهب .

وروى الكشي في رجاله عن العياشي في الموارد الكثيرة جدّاً .

٤ ـ أبو القاسم الهاشمي

كان من مشايخ الحاكم الحسكاني وروى عن العياشي ويحتمل اتحاده مع أبي القاسم الهاشمي الذي ترجمه الخطيب في تاريخ بغداد قال : أبو القاسم الهاشمي أخو أبي العبر حدث عن أبيه روى عن أحمد بن كامل القاضي وأحمد بن كامل القاضي من أصحاب محمد بن جرير الطبري وكان من العلماء بالأحكام وعلوم القرآن والنحو والشعر وأيام الناس وتواريخ أصحاب الحديث وله مصنفات في أكثر ذلك . . . مات سنة ٣٥٠ .

٥ ـ أبو جعفر أحمد بن عيسى بن جعفر العلوي العمري

هو من ولد عمر بن علي بن أبي طالب (ع) قال النجاشي : علي بن محمد بن عبد الله أبو الحسن القزويني القاضي وجه من أصحابنا ثقة في الحديث قدم بغداد سنة ٣٥٦ ومعه من كتب العياشي قطعة وهو أول من أوردها إلى بغداد ورواها عن أبي جعفر أحمد بن عيسى العلوي الزاهد عن العياشي .

وقال الشيخ الطوسي : هو ثقة من أصحاب العياشي .

٦ ـ علي بن إسماعيل الدهقان

قال الشيخ الطوسي : هو زاهد خير فاضل من أصحاب العياشي .

٧ ـ أبو القاسم عبد الله بن ظاهر النقار

قال الشيخ الطوسي : ثقة حلواني صالح ورع يُكنى أبا القاسم من أصحاب العياشي .

٨ ـ محمد بن يوسف بن يعقوب الجعفري

قال الشيخ الطوسي : هو ديِّن زاهد من أصحاب العياشي .

٩ ـ أبو نصر أحمد بن يحيى

قال الشيخ الطوسي : هو من أهل سمرقند ومن غلمان العياشي ، فقيه ثقة خير فاضل ، كان يفتي العامة بفتياهم والحشوية بفتياهم والشيعة بفتياهم .

١٠ ـ أبو جعفر محمد بن أحمد بن أبي عوف البخاري

قال الشيخ الطوسي : هو من أهل بخارى ، ومن أصحاب العياشي ، لا بأس به وهو من مشايخ الكشي كما قال في قاموس الرجال .

١١ ـ أبو بكر القناني

قال الشيخ الطوسي : هو زاهد من أصحاب العياشي .

١٢ ـ أبو الحسن (أو أبو الحسين) بن أبي طاهر الطبري

قال الشيخ : علي بن الحسين بن علي يكنى أبا الحسن بن أبي طاهر الطبري من أهل سمرقند ثقة وكيل ، ومن غلمان العياشي له كتاب « مداواة الجسد لحياة الأبد » .

١٣ ـ محمد بن نعيم السمرقندي الحناط (الخياط)

هو أبو حيدر بن محمد بن نعيم الذي ذكرناه من قبل ، قال الشيخ الطوسي : أمّي إلا أنه كان حافظاً يروي عن العياشي .

١٤ ـ ليث بن نصر

قال الشيخ الطوسي : هو من أصحاب العياشي .

أقول : يحتمل اتحاده مع الليث الذي ترجمه الخطيب قال : ليث بن نصر بن جبريل بن حفص أبو نصر البخاري قدم بغداد حاجّاً سنة ٣٤١ وحدثهم عن نصر بن زكريا بن نصر المروزي .

١٥ ـ علي بن حسنويه الكرماني

قال الشيخ الطوسي : هو من تلامذة أبي النضر محمد بن مسعود العياشي .

١٦ ـ أبو نصر أحمد بن يعقوب السنائي

قال الشيخ الطوسي : له تصانيف ، من غلمان العياشي .

وعدّ الشيخ الطوسي ممن روى عن العياشي .

١٧ ـ الحسن بن نعيم .

١٨ ـ الحسن الكرماني .

١٩ ـ محمد بن يوسف الكرماني .

٢٠ ـ الحسن الغزال الكنتجي

وعدّ من غلمانه :

٢١ ـ إبراهيم الجبوبي .

٢٢ ـ أحمد بن الصفار .

٢٣ ـ أحمد بن محمد بن الحسين الأزدي .

٢٤ ـ أبو القاسم جعفر بن حمد الشاشي .

٢٥ ـ محمد بن طاهر بن جمهور .

٢٦ ـ محمد بن يحيى الضرير المؤدب .

وعدّ من أصحابه :

٢٧ ـ جعفر بن أبي جعفر السمرقندي .

٢٨ ـ بكر الكرماني .

٢٩ ـ محمد بن فتح المعلم .

٣٠ ـ محمد بن بلال المعلم .

٣١ ـ محمد بن شعيب البوجاكي .

٣٢ ـ قاسم بن محمد الأزدي .

٣٣ ـ عمرو الحناط (الخياط) .

٣٤ ـ أبو عمرو الحناط (الخياط) ولعله متحدّ مع ما قبله .

٣٥ ـ عبد الله الصيدلاني .

٣٦ ـ سعد الصفار .

٣٧ ـ أبو علي الوارثي .

٣٨ ـ أبو عبد الله البقال (القفال) .

٣٩ ـ أبو نصر الخلقاني .

٤٠ ـ زيد بن محمد الحلقي اليزدكي .

قال الشيخ الطوسي في ترجمة حيدر بن محمد بن نعيم الذي سبق ذكره : روى عن زيد بن محمد الحلقي .

وفي تعليقة رجال الشيخ الطوسي : ويزدكي نسبه إلى يزد البلدة المعروفة في بلاد العجم فإن استعمال اليزدكي في النسبة إليها مسموع من بعض أهلها . كذا قال بعض أرباب التراجم .

وقال المحقق التستري : أقول: يزدكي لعله محرف يزدي فلم أقف على معنى يزدك في موضع .

تنبيه

قال الشيخ التستري في مقدمات قاموس الرجال : الفصل الخامس والعشرون في أمور يوجب الحسن وما لا يوجب ـ إلى أن قال ـ وكذلك قول الشيخ الطوسي في رجاله : فلان من أصحاب العياشي أو من غلمان العياشي دال على أنه من العلماء الذين تخرجوا على يده ، فكان أبو عمرو الزاهد معروفاً بغلام ثعلب لأنه كان ملازمه ومرباه وكان عضد الدولة يقول : أنا غلام أبي علي الفارسي في النحو وغلام أبي الحسين الرازي في النجوم . وقال النجاشي في أحمد بن إسماعيل بن عبد الله : وكان إسماعيل بن عبد الله من غلمان أحمد بن أبي عبد الله وممن تأدب عليه .

وقال دام فيضه في موارد كثيرة : إن غلمان العياشي وأصحابه علماء أجلة .

مؤلفاته

قال ابن النديم: كتب أبو أحمدذ حيدر بن محمد بن نعيم ـ وهو من تلاميذ العياشي كما مر ـ إلى أبي الحسن علي بن محمد العدوي ـ وهو كما قال النجاشي : كان شيخاً بالجزيرة وفاضل أهل زمانه وأديبهم ـ كتاباً في آخره : نسخة ما صنفه العياشي وذكر أن كتبه مئتان وثمانية كتب ، وأنه ضل عنه من جميعها سبعة وعشرون كتاباً ، وذكر أسامي باقيها وهي ١٨١ كتاباً .

وقال الشيخ الطوسي في الفهرست : له كتب تزيد على مئتي مصنف ، ذكر فهرست كتبه أبو إسحق النديم ، ثم ذكر ما ذكره ابن النديم بعينه .

وقال في رجاله : صنف أكثر من مئتي مصنف ذكرناها في الفهرست .

وذكر النجاشي نحواً من مئة وستين من كتبه . وفيها ما لم يذكر في فهرست ابن النديم .

ونحن نذكر ما ذكروه جميعاً بترتيب الحروف الهجائية .

١ ـ كتاب ابتداء فرض الصلاة .

٢ ـ كتاب إثبات المسح على القدمين .

٣ ـ كتاب الإجارات .

٤ ـ كتاب الأجوبة المسكتة .

٥ ـ كتاب احتجاج المعجزة .

٦ ـ الأخماس [كذا في فهرست الشيخ وفي رجال النجاشي : الأجناس وفي فهرست ابن النديم : الأحباس] .

٧ ـ كتاب الأذان .

٨ ـ كتاب الاستبراء [لعله في استبراء الأمة من كتاب النكاح] .

٩ ـ كتاب الاستخارة .

١٠ ـ كتاب الاستنجاء .

١١ ـ كتاب الاستئذان .

١٢ ـ كتاب الأشربة .

١٣ ـ كتاب الأضاحي .

١٤ ـ كتاب الإقامة في الصلاة [ذكره النجاشي ولم يذكره ابن النديم] .

١٥ ـ في ردّ الكيسانية .

١٦ ـ كتاب الأنبياء والأئمة .

١٧ ـ كتاب الأوصياء .

١٨ ـ كتاب الأولياء والأكفاء والشهادات في النكاح [ليست جملة في النكاح في فهرست الشيخ] .

١٩ ـ كتاب الإيلاء .

٢٠ ـ كتاب الأيمان [بفتح الهمزة جمع اليمين] .

٢١ ـ كتاب الإيمان [بكسر الهمزة] ذكره النجاشي ولم يذكره ابن النديم .

٢٢ ـ كتاب باطن القراآت .

كتاب البداء [وفي فهرست ابن النديم : البدء ، والظاهر أنه تصحيف] .

٢٤ ـ كتاب البِر والصلة [وفي فهرست الشيخ : البرّ والصلاة ولعلها تصحيف] .

٢٥ ـ كتاب البشارات [ذكره النجاشي ولم يذكره ابن النديم] .

٢٦ ـ كتاب البيوع .

٢٧ ـ كتاب التجارة [وفي رجال النجاشي : التجارة والكسب] .

٢٨ ـ كتاب تطهير الثياب .

٢٩ ـ كتاب التفسير .

٣٠ ـ كتاب التقية .

٣١ ـ كتاب التنزيل [ولعله في ما نزل من القرآن في أهل البيت] .

٣٢ ـ كتاب التيمّم .

٣٣ ـ كتاب الثياب .

٣٤ ـ كتاب جراحات الخطاء [وفي فهرست ابن النديم جزافات الخطاء والظاهر أنها تصحيف] .

٣٥ ـ كتاب جزاء المحارب [وفي فهرست النجاشي : حبس المحارب ولعله تصحيف] .

٣٦ ـ كتاب الجزية والخراج .

٣٧ ـ كتاب جلد الشارب .

٣٨ ـ كتاب الجمع بين الصلاتين .

٣٩ ـ كتاب الجنائز الكبير [ذكره النجاشي فقط] .

٤٠ ـ كتاب الجنائز [ذكره ابن النديم والشيخ والنجاشي] .

٤١ ـ كتاب جناية العبيد والجناية عليهم .

٤٢ ـ كتاب جناية العجماء = جناية العجم [وفي فهرست النجاشي : العجم والجناية عليهم والظاهر اتحادهما] .

٤٣ ـ كتاب الجنة والنار [وذكرها النجاشي باسم : صفة الجنة والنار] .

٤٤ ـ كتاب جوابات مسائل وردت عليه من عدة بلدان [يعلم من عنوان هذا الكتاب مرجعيته لحلّ المسائل الدينية إجمالاً] .

٤٥ ـ كتاب الجهاد .

٤٦ ـ كتاب الحث على النكاح .

٤٧ ـ كتاب الحدّ في الزنا .

٤٨ ـ كتاب الحدّ في السرقة = الحدود في السرقة .

٤٩ ـ كتاب حدّ الشارب .

٥٠ ـ كتاب حدّ القاذف .

٥١ ـ كتاب الحدود .

٥٢ ـ كتاب حدود الصلاة .

٥٣ ـ كتاب حقوق الأخوان .

٥٤ ـ كتاب الحيض .

٥٥ ـ كتاب الخمس .

٥٦ ـ كتاب الخيار والتخيير .

٥٧ ـ كتاب الدعوات [كذا في فهرست ابن النديم وفي النجاشي : الدعاء ولم يذكرهما الشيخ الطوسي] .

٥٨ ـ كتاب دلائل الأئمة (ع) .

٥٩ ـ كتاب الديات .

٦٠ ـ كتاب الدين والحمالة والحوالة .

٦١ ـ كتاب دية الجنين .

٦٢ ـ كتاب الذبائح .

٦٣ ـ كتاب الرجعة [لعلها في رجوع الطلاق ونحوه] .

٦٤ ـ كتاب الرد على ما صام وأفطر قبل رؤية الهلال .

٦٥ ـ كتاب الرضاع .

٦٦ ـ كتاب الرؤيا .

٦٧ ـ كتاب الرهن .

٦٨ ـ كتاب الزكاة .

٦٩ ـ كتاب زكاة الفطرة .

٧٠ ـ كتاب الزنا والإحصان .

٧١ ـ كتاب الزهد .

٧٢ ـ كتاب السبق والرمي .

٧٣ ـ كتاب سجود القرآن .

٧٤ ـ كتاب السفر [ذكره النجاشي فقط] .

٧٥ ـ كتاب السلم .

٧٦ ـ كتاب سنة الصلاة [ذكره النجاشي فقط] .

٧٧ ـ كتاب السهو [الظاهر أنه في سهو الصلاة] .

٧٨ ـ كتاب سيرة أبي بكر .

٧٩ ـ كتاب سيرة عثمان .

٨٠ ـ كتاب سيرة عمر .

٨١ ـ كتاب سيرة معاوية [هذه الأربعة مما صنفه من رواية العامة . كذا في فهرست ابن النديم والشيخ الطوسي] .

٨٢ ـ كتاب الشركة .

٨٣ ـ كتاب الشروط .

٨٤ ـ كتاب الشروط أيضاً .

٨٥ ـ كتاب الشفعة .

٨٦ ـ كتاب الشهادات .

٨٧ ـ كتاب الصداق .

٨٨ ـ كتاب الصدقة غير الواجبة .

٨٩ ـ كتاب الصرف .

٩٠ ـ كتاب الصفة والتوحيد .

٩١ ـ الصلاة .

٩٢ ـ صلاة الاستقساء .

٩٣ ـ صلاة الحضر .

٩٤ ـ صلاة الحوائج والتطوع .

٩٥ ـ صلاة الخسوف والكسوف .

٩٦ ـ صلاة الخوف .

٩٧ ـ صلاة السفر .

٩٨ ـ صلاة السفينة .

٩٩ ـ الصلاة على الأئمة (ع) .

١٠٠ ـ الصلاة على الجنائز .

١٠١ ـ صلاة الليل [وفي رجال النجاشي : الوتر وصلاة الليل ويحتمل اتحادهما] .

١٠٢ ـ صلاة العيدين .

١٠٣ ـ صلاة الغدير [ذكره النجاشي ولم يذكره ابن النديم] .

١٠٤ ـ صلاة نوافل النهار .

١٠٥ ـ صلاة يوم الجمعة .

١٠٦ ـ صنائع المعروف .

١٠٧ ـ الصوم .

١٠٨ ـ صوم السنة والنافلة .

١٠٩ ـ الصوم والكفارات [وفي رجال النجاشي : صوم الكفارات] .

١١٠ ـ الصيد .

١١١ ـ الطاعة .

١١٢ ـ الطب .

١١٣ ـ الطلاق .

١١٤ ـ الطهارة = الطهارات [وفي رجال النجاشي : الطهارات الكبير ويحتمل اتحادهما] .

١١٥ ـ الظهار .

١١٦ ـ العالم والمتعلم .

١١٧ ـ العتق والكتابة والتدبير [ليست كلمة والتدبير في غير رجال النجاشي] .

١١٨ ـ العدد = العدّة .

١١٩ ـ عشرة النساء .

١٢٠ ـ العقيقة .

١٢١ ـ العمرة .

١١٢ ـ الغسل .

١٢٣ ـ غسل الميت .

١٢٤ ـ الغيبة [وفي فهرست ابن النديم الطبع الحديث : العينة ، وهو أحد أقسام البيع فراجع] .

١٢٥ ـ فداء الأسارى والغلول .

١٢٦ ـ فرض طاعة العلماء [لعله في ولاية الفقيه] .

١٢٧ ـ الفرق بين حلّ المأكول وحرامه = الفرقان بين حلّ المأكول وحرامه .

١٢٨ ـ فروع فرض الصلاة .

١٢٩ ـ فضائل القرآن .

١٣٠ ـ القبالات والمزارعة .

١٣١ ـ القبلة .

١٣٢ ـ قتال المشركين [وفي رجال النجاشي : قتل المشركين] .

١٣٣ ـ القرعة .

١٣٤ ـ القسامة [ذكره النجاشي (ره) فقط] .

١٣٥ ـ قسم الزكاة = قسمة الزكوات .

١٣٦ ـ قسمة الغنيمة والفييء = قسم الغنيمة والفييء .

١٣٧ ـ القضايا وآداب الحكّام = القضاء وآداب الحكام [وفي رجال النجاشي : القضاء وآداب الحكم] .

١٣٨ ـ القطع والسرقة .

١٣٩ ـ القول بين القولين [لعله في لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين] .

١٤٠ ـ الكعبة .

١٤١ ـ اللباس .

١٤٢ ـ لبسة الصلاة [ذكره ابن النديم ولم يذكر في فهرست الشيخ الطوسي] .

١٤٣ ـ اللعان .

١٤٤ ـ المآتم [كذا في رجال النجاشي وفهرست ابن النديم الطبع الحديث ولكن في فهرست الشيخ : المآثم بالثاء] .

١٤٥ ـ المآثم [وهو أيضاً مذكور في فهرست ابن النديم والشيخ الطوسي] .

١٤٦ ـ ما أبيح قتله للمحرم [وفي رجال النجاشي : ما أبيح قتله في الحرم والظاهر اتحادهما] .

١٤٧ ـ ما يكره الجمع بينهم [الظاهر أن الضمير يرجع إلى المماليك التي ذكرت قبله فراجع فهرست ابن النديم] .

١٤٨ ـ المتعة .

١٤٩ ـ محاسن الأخلاق .

١٥٠ ـ محبة الأوصياء [وفي فهرست ابن النديم الطبع الحديث : محنة الأوصياء] .

١٥١ ـ مختصر الجنائز .

١٥٢ ـ مختصر الحيض .

١٥٣ ـ مختصر الشهادات [كذا في فهرست ابن النديم الطبع الحديث وفي فهرست الشيخ : مختصر الطهارات] .

١٥٤ ـ مختصر الصلاة [وفي فهرست ابن النديم الطبع الحديث ذكر بعد هذا الباب : مختصر المختصر ، ولكن في فهرست الشيخ : مختصر الحيض] .

١٥٥ ـ مختصر الصوم .

١٥٦ ـ مختصر الطهارات .

١٥٧ ـ مختصر المناسك .

١٥٨ ـ مختصر يوم وليلة .

١٥٩ ـ المداراة .

١٦٠ ـ المروة .

١٦١ ـ المزار [ذكره النجاشي ولم يذكر في فهرست ابن النديم] .

١٦٢ ـ المساجد .

١٦٣ ـ المساجد أيضاً [كذا في رجال النجاشي وفهرست ابن النديم] .

١٦٤ ـ المضاربة .

١٦٥ ـ معاريض الشعر .

١٦٦ ـ المعاقل .

١٦٧ ـ معرفة البيان .

١٦٨ ـ معرفة الناقلين .

١٦٩ ـ معيار الأخيار أو معيار الأخبار مما صنفه من رواية العامة [كذا في فهرست ابن النديم والشيخ الطوسي] .

١٧٠ ـ مكة والحرم [وفي بعض النسخ : مكة والحرام والظاهر أنها تصحيف] .

١٧١ ـ الملاحم .

١٧٢ ـ الملاهي .

١٧٣ ـ المناسك .

١٧٤ ـ من تكره مناكحته .

١٧٥ ـ المواريث .

١٧٦ ـ مواقيت الظهر والعصر .

١٧٧ ـ الموضح مما صنفه من رواية العامة [كذا في فهرست ابن النديم والشيخ الطوسي ولكن في رجال النجاشي : الموضع تذكر فيه الشرائع] .

١٧٨ ـ النجوم والفال والقيافة والزجر [وفي رجال النجاشي : النجوم والقيافة] .

١٧٩ ـ النذور .

١٨٠ ـ النسبة والولاء [وفي رجال النجاشي : النساء والولاء] .

١٨١ ـ النشوز والخلع والمبارات [لا توجد كلمة المبارات في غير رجال النجاشي] .

١٨٢ ـ النكاح .

١٨٣ ـ النكاح أيضاً [ذكره الشيخ الطوسي بعنوان : كتاب آخر في النكاح ولم يذكر في فهرست ابن النديم] .

١٨٤ ـ نكاح المماليك .

١٨٥ ـ النوادر .

١٨٦ ـ وجوب الحج .

١٨٧ ـ الوصايا .

١٨٨ ـ الوضوء .

١٨٩ ـ الوطء بالملك .

١٩٠ ـ الهبة .

١٩١ ـ اليمين مع الشاهد .

١٩٢ ـ يوم وليلة [ذكره ابن النديم في فهرست الشيخ] .

وهذه المؤلفات مع أنها كلها أو جلّها دونت من الأحاديث المباركة كما نرى أكثرها في الفقه ، وبعضها في التفسير وعلوم القرآن ، وبعضها في المعارف والإمامة ، وبعضها في الرجال ، وبعضها في الاحتجاج وبعضها في الأخلاق ، وبعضها في التاريخ والسيرة ، وبعضها في النجوم .

قال السيد ابن طاوس : ومن العارفين بالنجوم ، من الشيعة والمصنفين فيها الشيخ المعظم عند كافتهم ، والمتفق على عدالته وجلالته عند خاصتهم وعامتهم محمد بن مسعود بن محمد بن عياش ، وقد أثنى عليه محمد بن اسحاق النديم ، وشيخنا أبو جعفر الطوسي ، وأحمد بن العباس النجاشي ، وبالغوا في الثناء عليه ، رضوان الله عليهم وعليه وذكروا له كتاباً في النجوم .

تفسير العياشي

لم يصل إلينا من هذه المؤلفات القيمة إلا قسم من تفسيره ، ولهذا يلزمنا تعريفه مع رعاية الاختصار .

كان هذا التفسير الثمين عند الحافظ الكبير عبيد الله بن عبد الله بن عبد الله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني النيسابوري المتوفى بعد سنة ٤٧٠ ، وجعله من مصادر كتابه : « شواهد التنزيل لقواعد التفصيل في الآيات النازلة في أهل البيت (ع) ونقل منه فيه نحواً من ثلاثين حديثاً بهذه العبارات : أبو النضر العياشي في تفسيره ، أخرجه العياشي في تفسره ، أبو النصر محمد بن مسعود بن محمد العياشي في كتابه أبو النضر العياشي قال حدثنا . . .

وكان أيضاً عند الشيخ الطبرسي المتوفى ٥٤٨ ، وجعله من مصادر تفسيره ونقل فيه عنه نحواً من سبعين حديثاً .

وعند الشيخ محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني المتوفي سنة ٥٨٨ ونقل عنه في كتابه مناقب آل أبي طالب عدّة روايات .

وكان عند السيد علي بن طاوس المتوفى ٦٦٤ ، ونقل عنه في بعض مؤلفاته .

وذكره الشيخ تقي الدين الكفعمي ، من جملة مصادر كتابه القيم جنة الأمان الواقية المشتهر بالمصباح الذي فرغ من تأليفه سنة ٨٩٥ .

وقال شيخنا المجلسي المتوفى ١١١١ رأينا منه نسختين قديمتين .

ومن عصر العلامة المجلسي إلى عصرنا هذا كان هذا الكتاب من مصادر كتب الحديث والتفسير كالصافي للفيض الكاشاني ، وتفسير البرهان وغاية المرام للبحراني ، وإثبات الهداة ووسائل الشيعة للشيخ الحر العاملي ، وبحار الأنوار للمجلسي ، وعوالم العلوم للشيخ عبد الله البحراني ، وغيرها من الكتب .

قال صاحب الروضات : للعياشي كتب كثيرة ، تزيد على مئتي مصنف منها كتاب التفسير المشهور الذي هو على مذاق الأخبار بل التنزيل على فضائل أهل البيت الأطهار أشبه شيء بتفسير علي بن إبراهيم اوتفسير فرات المشهورين ، ولم يكن عند صاحب الوسائل غير النصف الأول منه بل ولا عند صاحب كنز الدقائق الجامع لسائر تفاسير الأخبار أيضاً غير ذلك النصف .

أقول : بل ولا غيرهم من معاصريهم المجلسي ، والفيض ، والبحراني ، وصاحب العوالم . قال الشيخ الحر في مقدمة إثبات الهداة : الذي وصل إلينا هو النصف الأول ، وقد حذف بعض النساخ أسانيده .

نعم كان بأجمعه عند الحسكاني ، ونقل عن نصفه الثاني أحد عشر حديثاً ، وكذا عند الطبرسي ، ونقل عن نصفه الثاني نحواً من أربعين حديثاً .

ولم يكن تفسير العياشي عند السيد شرف الدين الأسترآبادي ، ولم ينقل عنه في تأويل الآيات إلا روايات قليلة نقلاً عن مجمع البيان عنه .

قال العلامة الطهراني في الذريعة إلى تصانيف الشيعة : تفسير العياشي لأبي النضر محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمي السمرقندي المؤلف لما يزيد على مئتي كتاب في عدة فنون الحديث ، الرجال ، التفسير، النجوم [الفقه] وغيرها ، وهو من مشايخ الكشي ، ومن طبقة ثقة الإسلام الكليني ، ويروي كتبه عنه ولده جعفر بن محمد بن مسعود ، ومنها هذا التفسير الموجود نصفه الأول إلى آخر سورة الكهف في الخزانة الرضوية ، وفي

تبريز عند الخياباني ، وفي زنجان بمكتبة شيخ الإسلام ، وفي الكاظمية بمكتبة السيد الحسن صدر الدين ، واستنسخ عن نسخته الشيخ شبر محمد الهمداني وغيره في النجف ، لكنه مع الأسف محذوف الأسانيد .

حذف أسانيد تفسيره

قد بينا أن هذا التفسير لم يصل إلى المجلسي ومعاصريه ومن بعده إلا نصفه الأول محذوف الأسانيد . وهكذا نقرأ في أول هذا النصف الموجود :

الحمد لله على أفضاله والصلاة على محمد وآله ، وقال العبد الفقير إلى رحمة الله : إني نظرت في التفسير الذي صنفه أبو النضر محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمي بإسناده ، ورغبت إلى هذا ، وطلبت من عنده سماعاً من المصنف أو غيره ، فلم أجد في ديارنا من كان عنده سماع أو إجازة منه حذفت منه الإسناد وكتبت الباقي على وجهه ، ليكون أسهل على الكاتب والناظر فيه ، فإن وجدت بعد ذلك من عنده سماع أو إجازة من المصنف اتبعت الأسانيد وكتبتها على ما ذكره المصنف ، اسأل الله تعالى التوفيق لإتمامه وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

يظهر من هذه العبارة أنه كان من العلماء وحذف الأسانيد للاختصار ولشدة احتياطه ودقّته كيلا يتوهم أن له سنداً مؤلف الكتاب ، ومثل هذا العمل كان رائجاً في مؤلفات علمائنا .

قال ابن شعبة في مقدمة كتابه « تحف العقول » وأسقطت الأسانيد تخفيفاً وإيجازاً ، وإن كان أكثره لي سماعاً ، ولأن أكثره آداب وحكم تشهد لأنفسها ، ولم أجمع ذلك للمنكر المخالف ، بل ألفته للمسلم للأئمة ، العارف بحقهم ، الراضي بقولهم .

وقال أبو منصور الطبرسي في مقدمة كتاب « الاحتجاج » ولا نأتي في أكثر ما نورد من الأخبار بإسناده أما لوجود الإجماع عليه ، أو موافقته لما دلت العقول إليه ، ولاشتهاره في السر والكتب بين المخالف والمؤلف . . .

وكتب أحد علماء القرن الثامن ، وهو زين الدين علي بن حسن بن أحمد بن إبراهيم بن مظاهر ، من تلاميذ فخر المحققين ، أمالي المفيد ، وأمالي الصدوق ، وأسقط إسنادهما للاختصار ، وهذه النسخة تاريخها كتابتها ٧٥٥ موجودة في مكتبة السيد المرعشي بقم .

وكذلك السيد الرضي رضوان الله عليه أسقط إسناد خطب أمير المؤمنين (ع) ، وكتبه ، وحكمه ، وكذلك غيرهم في بعض تأليفاتهم أو تلخيصاتهم واستنساخاتهم .

والسر في ذلك أنهم لم يعلموا ـ لا يعلم الغيب إلا هو ـ بمجيء زمان تكون مكتبتنا في حاجة شديدة إلى سند الروايات والكتب ، وزعموا أن الكتب والروايات المسندة التي كانت بأيدي غيرهم سبتقى ، ومع بقائها ليسوا مكلفين بكتابة الأسانيد وإبقائها لنا ، وبناء على هذا نقول : أن ما قاله المجلسي في حق هذا العالم الذي صار سبباً لبقاء تفسير العياشي ، ولو مع حذف الإسناد ، ليس في محله ، وإن كنا نعلم أنه قال ذلك الكلام لشدّة تأسفه على حرماننا من أسانيد تلك الروايات وصيرورتها مرسلات .

قال في أول البحار : وكتاب التفسير لمحمد بن مسعود السلمي المعروف بالعياشي الشيخ الثقة الراوية للأخبار ، روى عنه الطبرسي وغيره ، ورأينا منه نسختين قديمتين ، وعدّ في كتب الرجال من كتبه ، لكن بعض الناسخين حذف أسانيده للاختصار ، وذكر في أوله عذراً أشنع من جرمه .

والحق : لا جرم بل له الأجر الوافي عند الله وليعلم أن ما نقله الحسكاني ، عن تفسير العياشي ، في شواهد التنزيل كله مسند من هذا يعلم أن النسخة التي كانت عنده كانت مع الإسناد ، وكذلك يعلم من عبارات الشيخ الطبرسي في مجمع البيان أن نسخته أيضاً كانت مع الإسناد ، إذ هو يعبر تارة : عن العياشي بإسناده ، وأخرى : عن العياشي بالإسناد ، وثالثة عن العياشي مرفوعاً ، صحيح أنه أيضاً أسقط إسناد ما نقله عنه اختصاراً .

نعم الذي يوجب تضعيف مرسلات تفسير العياشي من حيث السند أكثر من غيرها قول النجاشي في حقه : « يروي عن الضعفاء كثيراً » إذ كثرة روايته عن الضعفاء توجب تقوية احتمال كون الاسناد المحذوفة مشتملة على الضعفاء ، كما أن قول النجاشي يوجب قوة احتمال كون مشايخه الذين لا توثيق لهم في كتب الرجال ضعفاء .

ولكن الذي يهوّن الأمر أن متون قسم من روايات تفسيره تغنينا عن السند .

رأي السيد الطباطبائي

وقال العلامة الطباطبائي مؤلف تفسير « الميزان » في تقريظه لهذا التفسير :

إن من أحسن ما ورثناه من ذلك [أي من التفاسير الروائية] كتاب التفسير المنسوب إلى شيخنا العياشي ، وهو الكتاب القيّم الذي يقدمه النشر اليوم إلى القراء الكرام .

أما الكتاب فقد تلقاه علماء هذا الشأن منذ ألّف إلى يومنا هذا ـ ويقرب من أحد عشر قرناً ـ بالقبول من غير أن يذكر بقدح ، أو يغمض فيه بطرف .

وأما مؤلفه فهو الشيخ الجليل أبو النضر محمد بن مسعود بن محمد بن العياش التميمي الكوفي ، السمرقندي ، من أعيان علماء الشيعة ، وأساطين الحديث والتفسير بالرواية ، ممن عاش في أواخر القرن الثالث من الهجرة النبوية .

أجمع كل من جاء بعده ، من أهل العلم ، على جلالة قدره ، وعلو منزلته ، وسعة فضله ، وإطراه علماء الرجل متسالمين على أنه ثقة ، عين ، صدوق في حديثه ، من مشايخ الرواية ، يروي عنه أعيان المحدثين كشيخنا الكشي صاحب الرجال ، وهو من تلامذته ، وشيخنا جعفر بن محمد بن مسعود العياشي ، وهو ولده [الذي روى هذا التفسير عن أبيه] .

إلى أن يقول السيد الطباطبائي :

وقد أصيب الكتاب من جهتين إحداهما : إن جل رواياته كانت مسندة فاختصره بعض النساخ بحذف الأسانيد وذكر المتون فالنسخ الموجودة الآن مختصر التفسير .

والثانية : إن الجزء الثاني منه صار مفقوداً بعده حتى إن أرباب التفاسير الروائية والمحدثين لم ينقلوا منه إلا ما في جزئه الأول من الروايات كالبحراني في تفسير البرهان ، والحويزي في نور الثقلين ، والكاشاني في الصافي ، والمجلسي في البحار وربما يذكر فيما يذكران بعض خزائن الكتب من بلاد إيران الجنوبية يحتوي على الكتاب بجزئيه ، ولم يتحقق ذلك ولا اهتدينا إليه بعد ،

ونسأل الله عزّ اسمه أن يوفقنا للحصول عليه ونشره بتمامه أنه سميع الدعاء قريب مجيب .

وقال بعض أساتذتنا : إن المتتبع يجد قسماً من روايات تفسير العياشي قد رويت بعينها في بعض كتبنا الأربعة ، وهذا نفسه من المؤيدات لاعتبار هذا الكتاب القيّم . وأيضاً قد توجد الرواية في بعض الكتب الأربعة بمتن وهي بعينها توجد في تفسير العياشي ، مع اختلاف يسير ، بحيث يعلم اتحادهما ولكن متن التفسير يكون أحكم وأمتن ، وهذا يدل على اتقان عمل العياشي في مؤلفاته ورواياته .

ويمكن التثبت من ذلك بمراجعة الروايات التي رواها صاحب الوسائل عن العياشي ، ورواها بعينها عن بعض الكتب الأربعة ومقارنة بعضها مع بعض .

وفي الختام أشير إلى أن : المتتبع في تفاسيرنا الروائية كتفسير الفرات ، وتفسير القمي ، والتفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ، وتفسير ابن الماهيار وغيرها يلمس بوضوح الفرق بينها وبين تفسير العياشي من حيث الاتقان والأحكام ، ومع ذلك فنحن لا ندعي صحة كل ما ورد في هذا التفسير ، لأن فيه أيضاً بعضاً من الروايات التي لا يمكننا قبولها إلا بالتأويل والتوجيه . والله الموفق[1] .

السيد محمد مشكاة

ولد عام ١٣١٩ في مدينة بيرجند وتوفي سنة ١٣٩٩ .

درس العلوم الإسلامية في مسقط رأسه ومدينة قائن (جنوب خراسان) ومشهد ثم انتقل إلى طهران ودخل معترك السياسة ثم تركها وزاول مهنة التدريس بجامعة طهران حيث كان يدرس الفقه الإسلامي كما درس الفلسفة الإسلامية في مدرسة سبهسالار . حصل على إجازة اجتهاد من السيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ ضياء الدين العراقي والسيد محمد الحجة .

كان عالماً أديباً محققاً خبيراً بالكتب المخطوطة ومن المتضلعين في ذلك وقد جمع لنفسه مجموعة نفيسة منها وقام بإهداء مكتبته لمكتبة جامعة طهران وقد طبع فهرست مكتبته المهداة في ٩ مجلدات .

تولىٰ نيابة سدانة روضة السيدة فاطمة بنت موسى بن جعفر في مدينة قم له مؤلفات عديدة تزيد على ٢٠ كتاباً[2].

الشيخ أبو الحسين ويقال أبو بكر محمد بن المظفر بن موسى بن عيسى بن محمد بن عبد الله بن سلمة بن إياس البزاز البغدادي السامرائي الأصل والبغدادي المولد والمنشأ .

ولد في بغداد في المحرم سنة ٢٨٦ وتوفي بها يوم الجمعة في آخر النهار لأربع خلون من جمادى الأولى سنة ٣٧٩ ودفن يوم السبت .

من المبرزين وأساطين الدين وفحول المحدثين في عصره وأعيان الحفاظ ، وكان محدث العراق على الإطلاق . هاجر والده من سامراء فولد المترجم له بها وأخذ العلم والفنون الإسلامية على جمهور من علماء الفريقين .

(١) الشيخ رضا الأستادي .

(٢) الشيخ محمد رضا الأنصاري .

ثم سافر إلى دمشق ومصر وأخذ على أكابر علمائهما ومن أشهر مشائخه في بغداد أبو مالك كثير بن يحيى وعمر بن عبد الله بن عمران ومحمد بن يحيى وبنان بن أحمد الدقاق والقاسم بن زكريا المطرز وعمر بن الحسن بن نصر الحلبي وحامد بن محمد بن شعيب البلخي وعبد الله بن صالح البخاري وأحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي وعبد الله بن محمد البغوي وأشباههم من البغداديين ثم هاجر إلى دمشق وأخذ الحديث من أبي عروبة الحسين بن محمد بحران وعن أبي الحسن بن جوصا وغيرهم ثم توجه إلى مصر وأخذ الحديث هناك عن أبي جعفر الطحاوي ومحمد بن زَبّان وعلي بن أحمد بن سليمان علان ، كما روى عن الهيثم بن خلف الدوري ومحمد بن جرير الطبري ومحمد بن محمد الباغندي وغيرهم .

جلس المترجم له في بغداد لتدريس الفقه والحديث وتخرج عليه جماعة من أعاظم العلماء فمنهم أبو الحسن الدارقطني وأبو حفص بن شاهين ومحمد بن أبي الفوارس وأبو بكر البرقاني وأبو نعيم الأصفهاني والحسن بن محمد الخلال وأبو القاسم الأزهري وغيرهم .

ذكره الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ في تاريخ بغداد ولم يتطرق إلى تشيعه وقال (محمد بن المظفر بن موسى بن عيسى بن محمد بن عبد الله بن سلمة بن إياس أبو الحسين البزاز ذكرلي نسبه أبو القاسم الأزهري ، وعلي بن المحسن التنوخي وقال لي عبد الواحد بن علي بن برهان الأسدي كان ابن المظفر من ولد إياس بن سلمة بن الأكوع صاحب رسول الله (ص) وعندي في ذلك نظر لأني لم أر أحداً ذكره غير ابن برهان وحدثني التنوخي قال : أملى علينا نسبه وساقه إلى إياس كما ذكرته قال وقال لنا ابن المظفر : لا أعلم أنّا من العرب وكان أبي ومن قبله من سلفي من أهل سر من رأى فانتقل أبي إلى بغداد وولدت أنا فيها في المحرم من سنة ست وثمانين ومائتين وأول سماعي للحديث في المحرم سنة ثلاثمائة . قلت : وسلمة بن الأكوع أسلمي فلو كان ابن المظفر من ولده لذكره ولم ينف علمه بأنه من العرب والله أعلم . . . حدثني أبو بكر البرقاني . قال : كتب الدارقطني عن ابن مظفر ألف حديث وألف حديث وألف حديث فعدد ذلك مرات . حدثني محمد بن عمر بن إسماعيل القاضي قال رأيت أبا الحسن الدارقطني يعظم أبا الحسين ابن المظفر ويجله ولا يستند بحضرته . وقد روى عنه في جموعه أشياء كثيرة وذاكرت محمد بن عمر إكثار ابن المظفر فقال : رأيت من أصوله في الوراقين شيئاً كثيراً ، فسألت الوراق عنها فقال باعني ابن المظفر من هذه الأصول ثمانين رطلاً . قال محمد بن عمر وكانت كلها عن يحيى بن صاعد ، قد كتبها ابن المظفر بخطه الدقيق فجئت إليه وسألته عنها فقال : أنا بعتها وهل أؤمل أن يكتب عني حديث ابن صاعد أو كما قال . أخبرني أحمد بن علي المحتسب حدثنا محمد ابن أبي الفوارس قال : كان محمد بن المظفر ثقة أميناً مأموناً حسن الحفظ وانتهى إليه الحديث وحفظه وعلمه وكان قديماً ينتفي على الشيوخ وكان مقدماً عندهم . . .)[3] .

ذهب إلى تشيعه صاحب الشذرات وذكر نسبه هكذا (أبو الحسن محمد بن المظفر بن موسى بن علي البغدادي توفي سنة ٣٧٩ وله ثلاث وتسعون سنة كان من أعيان الحفاظ قال ابن ناصر الدين : كان محدث العراق حافظاً

(٣) أبو بكر أحمد الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٣ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤ بيروت دار الكتاب العربي .

ثقة نبيلاً مكثراً متقناً يميل إلى التشيع قليلاً) وضبط تشيعه الذهبي في تذكرة الحفاظ وقال : (الحافظ الإمام الثقة أبو الحسين البغدادي محدث العراق ولد سنة ٢٨٦ وأول ما سمع في سنة ثلاث مائة سمع أحمد بن الحسن الصوفي وحامد بن شعيب وقاسم بن زكريا وعمر بن أبي غيلان والباغندي ومحمد بن جرير وعبد الله بن زيدان البجلي وأبا عروبة الحراني وعلي بن أحمد علان ومحمد بن خريم الدمشقي والحسين بن محمد بن جمعة وطبقتهم بالعراق والجزيرة ومصر والشام وجمع وألف وعن مضايق هذا الفن لم يتخلف ، روى عنه الدارقطني وابن شاهين وأبو الفتح بن أبي الفوارس والماليني والبرقاني وأبو نعيم والحسن بن محمد الخلال وعلي بن المحسن وعبد الوهاب بن برهان وأبو محمد الجوهري وخلق كثير .

يقال أنه من ولد سلمة بن الأكوع . . .

قال السلمي سألت الدارقطني عن ابن المظفر فقال : ثقة مأمون فقلت : يقال أنه يميل إلى تشيع ، فقال : قليلاً بمقدار ما لا يضر إن شاء الله وقال أبو الوليد الباجي : ابن المظفر حافظ فيه تشيع . قال إبراهيم بن محمد الرعيني : قدم علينا ابن المظفر وكان أحول أشج فحضر عند عبد الله بن محمد بن جعفر القزويني فقال له : إن هذا الذي تمليه علينا هو عندنا كثير بالعراق نريد حديث مصر فكان ذلك مبدأ ما أخرج القزويني حديث، عمرو بن الحارث فكان منه ما كان من نكير الناس عليه حتى قال الدارقطني وضع القزويني لعمرو أكثر من مائة حديث)[١].

يقول عبد الحسين الصالحي : لقد أدرك المترجم له عصر الدولة البويهية وعندما سقطت بغداد بيد البويهين وارتفع الضغط عن الشيعة ، حيث كان قبل ذلك أكثر أهل بغداد من الحنابلة المتعصبين تظاهر المترجم له بتشيعه ، وهو من مشائخ الشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣ وقد ذكره في كتابه الإرشاد وكناه في بعض أسانيده بأبي بكر[٢] .

محمّد بن المنيب

لم يذكر هذا الشاعرَ إلّا ابنُ حمّاد في تاريخه ، وحتّى ذكرُه له قد ورد مقتضباً لا تعريف فيه ولا ترجمة ، وإنّما نسب إليه أبياتاً في وصف نهاية أبي يزيد الفظيعة :

حل البلاء بمخلد … وجميع شيعته النواكر
أمسى بأرض كيانة … قد بان عنه كل ناصر
يرنو بطرف خاشع … نظر المحاصر للمحاصر
يرنو إلى عدد الحصى … والرمل من تلك العساكر
يا مخلد ابن سبيكة … يا شر بيت في العشائر
ذق ما جنته يداك قبل، … من الكبائر والصغائر
ذق هول شقك للبطون … وما ارتكبت من الجرائر
يا شر من بكيانة … وكيانة شر البرابر
أنظر إلى القفص الذي … لا بدّ فيه أنت صائر
وانظر إلى أيديك فيه … ومؤنسيك ومن تجاور
قد طال شوقها إليك، … فزرها يا شر زائر

المصدر :

ابن حمّاد : أخبار بني عبيد ص ٣٣ .

التعليق :

عبارة « النواكر » في البيت الأوّل تشير إلى النحلة الخارجية التي كان ينتحلها صاحب الحمار . و « كيانة » في البيت الثاني اسم الجبال أو الحصون التي اعتصم بها أبو يزيد في آخر أيامه ، وقد أشار إليها الايادي أيضاً ، وابن هانىء ، وكثيراً ما يخطىء المحقّقون فيقرؤنها « كتامة » وهم بالعكس أنصار الفواطم . أما الأبيات الأخيرة ففيها وصف للقفص الذي جعل فيه شخص أبي يزيد ، أي جلده المملوء تبنا ، مع قردين يتقافاذنه ويعبثان به . ذاك هو نوع التشفي الذي لجأ إليه المنصور حين تعذر أن يظفر بخصمه حيّاً ، كأنّ في تشويهه ميتاً بعضَ التعويض عن استحالة تعذيبه حيّاً .

محمد مهدي أرباب .

ابن « آقا محمد رضا أرباب » الأصفهاني ، وأبو الأديب الشاعر « محمد حسين فروغي ذكاء الملك » . ولد حوالي سنة ١٢٣٤ هـ وتوفي سنة ١٣١٤ هـ .

أديب إيراني فاضل . كان في عصره من مشاهير أصفهان . وإذ كان طويل القامة فقد دأب الشاعر الزجال الفكاهي « صادق ملا رجب » على مداعبته بجعل قامته مادة لتشبيهات هزلية .

بلغ درجة عالية في التاريخ وعلم الجغرافيا والفلك القديمين والحديثين . له كتاب في جغرافية أصفهان وتاريخها .

ومن مآثره تحقيق شاهنامة « الفردوسي » وطبعها . وكذلك تحقيق تاريخ « وصاف »[٣] وطبعه . وقد بلغ عمله في هذا الكتاب الغاية من الإجادة والجهد في المقابلة والتصحيح ، مع ما ألحقه به من حواشي وتوضيحات فارسية وعربية لا يحسنها إلا عالم ماهر ، وألحق به أيضاً فهرستاً وشروحاً لبعض النصوص الغامضة من فارسية وعربية وتركية ، وطبع الكتاب في سنة ١٢٦٩ هـ ، فكانت طبعته هذه أصح الطبعات وأجملها إخراجاً ، وجاءت رائعة من روائع المطبوعات الفارسية ، وشهادة صادقة على تبحره في فنون الأدب العربي والفارسي والفلسفة وعلم الفلك والتاريخ والجغرافيا .

أهم مؤلفاته كتابه في تاريخ أصفهان وجغرافيتها . بدأ بتأليفه سنة ١٣٠٣ هـ وأنهاه في شهر رجب سنة ١٣٠٨ هـ . ونسخته مخطوطة نادرة الوجود .

محمد مهدي عبد الرب آبادي .

الشيخ « محمد مهدي شمس العلماء » عبد الرب آبادي القزويني . عالم أديب إيراني . ولد في « عبد الرب آباد » بالقرب من مدينة قزوين . يعد من أكبر طلاب العلم تبحراً واستقصاء . كان من فضلاء عصره .

عاصر الشيخ فضل الله نوري الذي قتله أنصار النظام البرلماني في ١٣ رجب سنة ١٣٢٧ هـ الموافق ٣١ تموز سنة ١٩٠٩ م بعد تغلبهم على

---

(١) أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٩٨٠ ـ ٩٨٢ بيروت دار أحياء التراث العربي .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٣) من مؤرخي العهد الإيلخاني .

معارضيهم. وكانه من أصدقاء هذا العالم الجليل. وقد ارتأى أيام الأحداث التي سبقت عودة النظام البرلماني أن يظل مختبئاً في منزل الشيخ فضل الله نوري. فلما عاد هذا النظام مرة ثانية بعد تعطيله حماه من الموت بيد البرلمانيين الحاج السيد «نصر الله الأخوي» نائب رئيس المجلس النيابي الثاني.

كان «شمس العلماء» مقدماً على أقرانه في العلوم الفارسية والتاريخ العربي والأدب. واشترك اشتراكاً واسعاً في تأليف الكتب التي نسبت إلى «محمد حسن خان اعتماد السلطنة»[1]. وترك تحقيقات وتعليقات قيمة على بعض المؤلفات.

الشيخ مهدي ويقال محمد مهدي بن محمد شفيع المازندراي الأستر آبادي.

توفي سنة ١٢٥٩ في مدينة لكهنو بالهند.

من المراجع الدينية وأئمة التقليد والفتوى في الهند ومحقق متبحر، أصولي متضلع، ولد في أستر آباد وأخذ المقدمات على أفاضل علمائها وقرأ شطراً من السطوح على والده ثم هاجر إلى العراق وأدرك السيد علي الطباطبائي الحائري المتوفى سنة ١٢٣١صاحب الرياض وأخذ عن شقيقه الشيخ محمد كاظم الأسترآبادي الحائري المتوفى سنة ١٢٣٧ من علماء الحائر الشريف ثم رجع إلى موطنه أستر آباد ومنها انتقل إلى قزوين وتخرج في الفقه والأصول على الشيخ محمد صالح البرغاني المتوفى سنة ١٢٧١ وشقيقه المستشهد سنة ١٢٦٣ وأخذ العلوم العقلية والعرفان من حوزة الشيخ الآغا الحكمي القزويني وملا علي البرغاني والميرزا عبد الوهاب البرغاني القزويني وفي حدود سنة ١٢٣٤ استقر في كرمانشاه وكان من أكابر المدرسين فيها وعندما قام الصراع بين الشيخية والمتشرعة وقف بجانب مشائخه آل البرغاني وكان من أشد المنكرين على الشيخ أحمد الاحسائي المتوفى سنة ١٢٤١ وجرى بينهما تبادل رسائل على شكل سؤال وجواب أشار إلى بعضها السيد اعجاز حسين الكنتوري الهندي في كتابه كشف الحجب والأستار عن أسماء الكتب والأسفار وفي سنة ١٢٤٠ هاجر إلى الهند واستقبله غازي الدين حيدر أحد ملوك الهند وأكرمه كما في نجوم السماء[2] وسكن مدينة لكهنو الهندية وتصدر للتدريس وانتهت إليه المرجعية وكان والده الشيخ محمد شفيع الأسترآبادي المتوفى سنة ١٢٣٨ المار الذكر من علماء عصره وكذلك شقيقه الشيخ محمد كاظم المتوفى سنة ١٢٣٧ المؤلف المكثر من أعلام الحائر الشريف.

ترك المترجم له أكثر من ثلاثين كتاباً ورسالة ويقع بعضها في مجلدات عديدة أشار إلى بعضها السيد اعجاز حسين الكنتوري في كتابه كشف الحجب والأستار عن أسماء الكتب والأسفار[3] ونقل عنه شيخنا الأستاذ في موسوعته الذريعة إلى تصانيف الشيعة من مؤلفاته كتاب أحسن الأقوال في تحقيق ما هو الراجح بالألفاظ عند تعارض الأحوال، الاستحكام في مسائل الصيام فارسي، الاستيقان في بيان أركان الإيمان، إعانة الباري في جواب شبهات الاخباري هذا الكتاب وكتاب الاستيقان هما الرد على الشيخ أحمد الاحسائي مؤسس الفرقة الشيخية، كتاب مجاري الأنهار ترجمة للمجلد الثامن (الفتن والمحن) من مجلدات البحار للمجلسي إلى الفارسية، كتاب ثمرة الفؤاد في مسألة ترجيح الإجماع المنقول، كتاب فصل الخطاب لبيان ما هو التحقيق والصواب في حجية ظواهر الكتاب تفسير القرآن، قسطاس العقول في بيان قواعد الأصول، كتاب المسائل هو أيضاً في الرد على الشيخ أحمد الاحسائي والشيخية، كتاب مصداق الاجتهاد في أصول الفقه والحديث والتفسير وغير ذلك.

فصّل عنه الميرزا محمد علي الكشميري في نجوم السماء ص ٣٩٥ - ٣٩٧ الطبعة الحجرية[4].

الميرزا محمد مهدي المشهدي.

«الميرزا محمد مهدي» أو «الميرزا مهدي» المجتهد الإيراني المشهدي. كان من علماء خراسان المشهورين وأصحاب النفوذ فيها. كانت إقامته في مشهد. ولد سنة ١١٥٢ هـ في زمن سلطنة «نادر شاه أفشار». وهو من تلاميذ «آقا باقر» المعروف بـ «آقاي بهبهاني» (توفي سنة ١٢٠٥ هـ)

في سنة ١٢١٠ هـ ذهب «آغا محمد خان قاجار» رأس سلسلة الملوك القاجاريين إلى خراسان ـ وكان «شاهرخ شاه أفشار» الضرير يستقل بحكمها ـ قاصداً ضمها إلى سائر أقسام إيران، ثم ضم غيرها من الأجزاء التي انفصلت عن إيران بعد «نادر شاه» وتشكلت فيها دولة مستقلة.

فلما وصل «آغا محمد خان» إلى مشهد جاءه «شاهرخ شاه» وابنه «نهار قلي ميرزا» وفي معيته «الميرزا مهدي»، راجياً أن يكون وجود الميرزا معه شافعاً له عند الخان القاجاري فيراعي حرمته ويحفظ كرامته احتراماً لمقام الميرزا. ولكن «آغا محمد خان» لم يكن من الذين يقيمون وزناً لمثل هذه الاعتبارات. ومن ثم دأب مدة عشرين يوماً ـ هي مدة توقفه في مشهد ـ على إيقاع أشد أنواع العذاب بالشاه الضرير «شاهرخ».

في سنة ١٢١٧ هـ سار «فتح علي شاه» ثاني مرة إلى خراسان لاستخلاص مشهد من «نادر ميرزا أفشار» بن «شاهرخ شاه»، وكان خارجاً عليه. فحاصرها. وطال حصارها إذ ثبت «نادر ميرزا» في المقاومة لا يستسلم. ووقعت المدينة في شدة من الغلاء والحاجة. وحمل ذلك «الميرزا محمد مهدي» على الذهاب بنفسه إلى معسكر «فتح علي شاه»، والتمس منه الانصراف عن المدينة، وكذلك تعهد رؤساء خراسان وخاناتها له بأن يستخلصوا المدينة، بعد عودته عنها، من يد «نادر ميرزا» وأن يعتقلوه ويسلموه إليه. فقبل «فتح علي شاه» طلبهم، وعاد إلى عاصمته طهران.

وفي سنة ١٢١٨ هـ أرسل «فتح علي شاه» جيشاً بقيادة «حسين خان قاجار» القزويني، أحد مشاهير العسكريين، إلى خراسان للاستيلاء على مدينة مشهد وكف يد «نادر ميرزا» عنها. فلما وصل إليها وفي رؤساء عسكرها وأمراء خراسان وخاناتها بما سبق أن تعهدوا به لـ «فتح علي شاه»، فاستولوا على المدينة واعتقلوا «نادر ميرزا». وكان هذا يعتقد بأن ما أقدم عليه أهالي خراسان ورؤساؤها إنما كان بأمر من «الميرزا محمد مهدي». فذهب إليه، قبل اعتقاله، وجرى بينهما حوار فشتمه «نادر ميرزا» وأمر حارساً له اسمه «تيمور» فضربه بطبرزين كان في يده بضع ضربات شديدة فصرعه، وتقدم إليه «نادر ميرزا» نفسه فركله بضع ركلات قوية. وتوفي

(١) من رجال المناصب الحكومية الثقافية في عهد «ناصر الدين شاه». ترك مؤلفات يدل بعض القرائن وبعض المذكرات أن قسماً من تلك المؤلفات كتبها له غيره ونسبت إليه.

(٢) انظر نجوم السماء في تراجم العلماء ص ٣٩٥ الطبعة الحجرية.

(٣) انظر كشف الحجب والأستار عن أسماء الكتب والأسفار ص ٢٦ وما بعدها.

(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

بعد يومين متأثراً بجراحه ، وهو في السادسة والستين من عمره . ودفن في حرم الإمام الرضا (ع) . وعرف بعد ذلك باسم « الشهيد الثالث » . واتخذ أعقابه من بعده اسم « شهيدي » اسماً لعائلتهم .

وروي أن « شاهرخ » أودع عند أبناء « الميرزا محمد مهدي » ، وهم « عبد الجواد » و « هدايت الله » و « داود » جواهر كثيرة فلم يعيدوها إليه . وكانت أصل إثرائهم .

السيد محمد نجيب فضل الله

ولد سنة ١٩٠٨ م في عيناثا (جبل عامل) وتوفي فيها سنة ١٩٩٠ م ، بعد وفاته كتب عنه حسن السيد ما يلي :

أغمض الشاعر العاملي الكبير السيد محمد نجيب فضل الله عينيه على الحياة بعد نصف قرن من العطاء .

توفي شاعرنا تاركاً خلفه ارثاً كبيراً من الشعر المطبوع والمكتوب والمسموع . امتد على سني عمره وعلى الحقبات التاريخية المتعاقبة على جبل عامل بصورة خاصة ولبنان والعالم العربي بصورة عامة .

فالشاعر العاملي عايش فترات متفاوتة من التاريخ اللبناني ، وانخرط في عمق القضايا اليومية عبر محاكاة هذه القضايا شعراً . تترجم المعاناة بيتاً من الشعر ، وتحكي قصة التاريخ قصيدة تعود بالتاريخ إلى أصالته . وتغوص في لجج المعاني والبيان عبر خطاب يحاول استنهاض حال الركود الثقافي والاجتماعي والسياسي ، وعندما تنقصه الشواهد المعاصرة يستحضر التاريخ الإسلامي المليء بحالات الثورة الممتدة من عصر النبي ومتوجه بثورة كربلاء التي اسهب الشاعر في الاستناد إلى مدلولاتها في عطاءاته الشعرية حتى كان أكثر ما نظم في كربلاء وثورتها والأئمة وقبل كل هؤلاء بالنبي وهذا الترابط ما بين الشاعر والتاريخ ، ما بين القصيدة والواقع العاملي جعل بعض الصحافة تصفه ، وكأنه جزء من الزمن ، بل كأنه قطعة متحركة من تراث جبل عامل .

فهو صاحب الحضور المميز الذي تنشد إليه الحواس عند وقوفه على المنبر . وتلاحقه العيون وهو ينفعل مع كلماته ليزيد الجو التهابا وليؤكد أن الشعر ليس نظم قصيدة إنما هو شعور بالشعر ينبع من عمق الاحساس بالكلمة بينما الآخرون بحاجة إلى قصيدة للتعبير عن المعنى وهو في بيت واحد يعبر عن معنى قصيدة . وهذا هو الشعر بحد ذاته .

بدأ اسم « السيد » يلمع في دنيا الشعر متخطياً الكثير من أقرانه الذين بدأوا يتجنبون مبارزته لما عرف عنه من الجرأة والقوة الخطابية القادرة على الجمهور يحس بالقصيدة احساساً داخلياً يتفاعل معها ويتحرك مع كلماتها .

وكانت فترة الأربعينات من أغزر فترات عطائه حيث عرفته النوادي الثقافية والحواضر العاملية . وبدأ شعره يخرج من النطاق العاملي إلى لبنان كله ومن ثم قفزت قصائده فوق الحدود اللبنانية لتستقر في دول الخليج والعراق التي كانت أقرب إلى شعره لقربها من أصالة اللغة العربية في وقت كانت تغزو لبنان موجة الترجمة الأجنبية للشعر مما يفقده رونقه العربي وأصالته اللغوية .

فالشاعر من عائلة عريقة في العلم والأدب ، ومتمسكة إلى أبعد الحدود بالأصالة اللغوية التي تعتبرها جزءاً لا يتجزأ من المحافظة على الالتزام الديني الذي يرى في القرآن المقياس الوحيد للغة .

من هنا نجد أن الشاعر كان أقرب إلى الشعراء العرب القدامى في لغته وقافيته فنراه على سبيل المثال يعارض الشاعر العربي الشهير أبا تمام في قصيدته الثائية فيقول في ثائيته التي كسر فيها احتكار أبي تمام لهذه القافية :

نشطت إليك وتّممتك غياثا ... وجناء ترفل في السرى احثاثا
وجناء تأنف من خفاف زمامها ... ترعى المرار وتهصل الجرذاثا
قد جاوزت أعلى (فريز) وجانبت ... في وتحدها الوهدات من (عيناثا)

وفريز : اسم منتزه في عيناثا .

ويقول أبو تمام في قصيدته :

بلد الفلاحة لو اتاها جرول ... ترك الفصاحة واغتدى حراثا
والمالكية لم تكن لي موطناً ... ومساكن اللذان من قبراثا

وتثور ثائرة الشاعر عندما يجد أن زمراً تحاول التلاعب بالدين وان العلم أصبح للغرور فيشكو إلى النبي هذه الحالة في قصيدة طويلة :

يا خاتم الرسل لا دين يدان به ... كما تحب فعنه الناس قد رغبوا
ابا البرية عاد الدين من زمر ... رأساً على عقب مما به ارتكبوا
لم يطلبوا العلم إلا للغرور به ... وليت أنهم للعلم ما طلبوا

ولم يترك شاعرنا باباً من أبواب الشعر إلا وفتحه على مصراعيه وخاص غماره . من الرثاء إلى الفخر والحماسة إلى السياسة ، والغزل والمديح .

وله قصيدة طويلة في الغزل مطلعها :

على شفتيك رفت وردتان ... وفي خديك شعت جذوتان

وتغزو شاعرنا الأحزان والآلام بعدما رأى بلاد العرب تحتل من قبل اليهود وتعصف بلبنان فتنة عمياء ، ويتعرض جبل عامل كل يوم للعدوان فيضيق وسع الشعر عنده بعدما ملأ الدنيا بأحلى النغم :

ضاق وسع الشعر عندي بعدما ... ملأ الدنيا بأحلى النغم
بالأيام لنا كانت هنا ... وزمان مر حلو الحلم
وليال جوها منفتح ... انفتاح الألم المبتسم
ونواد قد عقدناها على ... رفة الوادي الشهي البرعم

ويصاب الشاعر بحزن كبير يهده أكثر من سني عمره بعد وفاة ابنته فيلقي عصا الشعر ويرثي فقيدته بقصيدة طويلة :

هاتوا لنا مثل من شيعت اصطبر ... واطلق الدمع في عيني يستغفر
ما حيلتي ويدي من حيلتي فرغت ... وبت اشتمل البلوى واعتمر
من لا يعيش بلا قلب ولا كبد ... الا أنا هل أنا من صخرة حجر
يا من بعيني من عينيك لي بصر ... واليوم أمسيت لا عين ولا بصر

شعره

قال في مولد النبي (ص) من قصيدة :

أطلّ ملء فم القرآن وارتفعا ... صوتٌ من الله هزّ . . المشرقين معا
أطلّ والفتنة الحمراء لاهبة ... من الحجاز . . نبيٌ أطفأ . . البدعا

فَطبَّق الأرضَ نوراً والسماءَ عُلا ... والخافقان لِعلياء الهُدى خضعا
تباركَ المولدُ الميمونُ طالعُه ... على البَرية بالنُّور الذي سَطَعا
كان الزمانُ ضَباباً قبلَ مولدِه ... والكائناتُ دُجىً والظُّلم مُنتَجعا
حتى ولدتَ أبا الزهراء فانكشفتْ ... وانجابَ غَيْهَبُها المُغْبَر وانْقَشَعا
وأشرقَت فيه دُنيا الحقِ وائتلَّعح ... بها القلوبُ على النَّهج الذي شرَعا
ألَّفْتَ مُختلفاً منها ومجتَمَعاً ... كما تألّف ضوءُ الشمس واجتمعا
صَدَعْتَ بالحقِ والألبابُ طائشةٌ ... فكُنْتَ أصدقَ مَنْ بالحق قد صَدَعا
لو أنزلَ الله قرآناً على جبلٍ ... رأيتَه خاشعاً لِله.. مُنصدعا
على الرسالة كم لا قيتَ من عَنَتٍ ... وكَمْ لِقتلكَ ساعٍ في الظلام سَعى
ما قمتَ بالسيف لكنْ ألزموكَ به ... حتى إذا.. ما رأوه هالَهُم هَلَعا
وشدَّ إزرَكَ في الهيجاء ليثُ وغيٌّ ... قلبَ الغطاريف مِنه انْبَتَّ وانخلعا
وكُلّما ازدلفتْ للرَّوع رايتُنا ... عنّا تضيقُ يدُ الصَّحراءِ مُتَّسَعا
يَقودُنا الفارسُ (الكرارُ) إنْ طَلَعَتْ ... خيلُ الطُّغاة عليها بالرَّدى طَلَعا
لا ينثني أو ينالُ الفتحَ صارمُه ... ضَرْباً يَهدُّ صَداهُ مَنْ له سَمِعا
سائلْ بخيبر والهنديُّ مُلتهبٌ ... ومَرحبٌ يتخطّى الموتَ مُدَّرِعا
فقيَّض اللّهُ سيفاً من مَضاربه ... في كفِّ أرْوَعَ صَبَّ الموت واندمعا
وَقدَّ... مرحبَ هاماً فارتمى بطلاً ... قدْ.. شُقَّ نصفين مِلْءَ القاع قد وَقَعا
مَشى (أبو الحسن) الميمون طائره ... والحصنُ أُرْتِجَ باباً والنَّبيُّ دَعا
وابتسَّمَ النصرُ في ... وَجهِ النبي وَقدْ
هذي أوائِلُنا في الروعِ من قِدَمٍ ... هذي العروبة إنْ وَاعي الحديثِ وعى
يا خاتمَ الرُّسلِ أدْرِكْ أُمَّةً نَزَعَتْ ... عن قَصْدِ غيرك سهماً طاش وارتجعا

وقال في الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع) :

أبا الثفنات المشرقات على الدجى ... يعبّ التَقى منها المشوق المُتيَّم
وتلثمها التقوى بأجفان مُغرمٍ ... كما لثمَ القرآن من ظُهره فم
إذا ما مشى فوق الصفا فجّر الصفا ... ينابيع منه كل جرداء تنعم
ومن يُمنه يخضَّل جدبٌ ومُمحِلٌ ... ويهتزُّ روضٌ في البطاح مُنمنم
شمائله من نبعةٍ أحمديةٍ ... فمُ الصبح من آلائها يتبسم
على منكبيه بُرد أحمد يزدهي ... وتستافه الدنيا طيوباً وتلثم
رؤوفٌ رحيم بالمساكين قلبه ... وأحنى بني الدنيا عليهم وأرحم
وكم من عفاةٍ كنتَ تحملُ زادها ... إليها وجنحُ الليل داجٍ ومُظلم
سوى اللّه لم يعلم بما أنت مخفضلٌ ... عليها ولم يعلم بما أنت مُنعم
تناولك الأدنى القريب وما درى ... بأنك تُقويه وأنك.. تُطعم
تبينَ لمّا أن قضيْتَ... بأنه ... توهّمَ شراً ساء.. ما يتوهم
وفدتَ لبيت اللّه والحج قائمٌ ... ومن دونه سيلُ الحجيج عرمرم
تأخر وارتدّ ابن مروان صاغراً ... واقبلت في بُرد النبوة... تُحرم
وعنه تنحّى الناس وانفرصوا له ... وأقبل زين العابدين.. المُعظَّم
وغاظت هشاماً هيبة لك في الورى ... وما الدين إلاّ هيبة وتكرُّم
تساءل أهلُ الشام عنكَ تجاهلاً ... وانهم من غيرهم فيك أعلم
فما راعَهُمْ إلاّ الفرزدق قائماً ... على الناس يُجلي الطيبات وينظم
وانشدَ والدنيا مسامع.. كلها ... وأنفُ بني مروان في التُرب مُرغم
أمن هو هذا.. انَّ هذا ابن فاطمٍ ... وهذا الذي بالعدل يقضي ويحكم
أبوه المُجلِّي يوم طاشتْ حلومكم ... غضوباً كما جلّى عُقابٌ وقشعم
جلى الخيل عن شاطي الفرات وكبها ... فوارسَ فوق النهر يحملها الدم
وما وسعتها البيد وهي شواردٌ ... بفرسانها من بأسه... تتحطّم
وحطَّ على راياتها... فأزالها ... مِراراً ولكنَّ القضا ليس يُهزم
ولم يُعطهم كفُّ الذليل وخاضها ... برغم المنايا لجةً... تتضرم
فحطّمَ أصناماً ونبَّهَ.. أمةً ... وزلزل عرشاً بالأباطيل يُدعم
ومن صرخة الدنيا أفاقت أميةٌ ... على سلطانها يتهدم
كذا المجد يبنى بالجماجم والدِّما ... ولكنَّ قومي دونه اليوم نُوَّم
يداوون بالكذب الصراح جراحنا ... وما الكذب للجرحى دواء... وبلسم
تباعُ أحاسيس الرجال وتُشترى ... ويخنقُ أنفاسَ الملايين... درهم
وليس بمجدٍ نُوْحُنا... وعويلنا ... فلا عاش من يشكو... ومن يتظلم
أفقْ أيها الشعبُ الذي طال نومه ... ومن فوقه دنيا العلى تتهدم
كأنَّ علينا طاعة الظلم واجباً ... ولِلظُّلم من يُعطي القيادة أظلم
تغلغلت الفوضى بنا وتمكنت ... على يد حكام بنا... قد تحكموا
حملتُ الأسى عن كل من ضاق بالأسى ... وماليَ إلاّ الوجد كسبٌ ومَغنم

وقال في رثاء السيد محسن الأمين صاحب (أعيان الشيعة) :

يا لنفسٍ كَفَمِ الصُّبحِ سناها ... وَعَتِ الحقَّ كما الحقُّ وعاها
كُلّما التفَّ بها ثوبُ الدُّجى ... لم تَنَمْ في اللّه ليلاً مُقلتاها
نَشأتْ كالنجم في ظِلِّ الهُدى ... عن بني الدُّنيا رفيعٌ مُستواها
عَظُمَتْ شأناً وَجلّتْ... رتبةً ... لم تَسَعْها الأرضُ فاحتلت سماها
في سبيل العلم نفسٌ حرةٌ ... لَقِيَتْ بالعِلم والرُّشد الإلٓه
لم تكن معصومةً كيفَ صوتْ ... عصمةَ الرُّسل وما زلّت خطاها
صانتِ العِلمَ كما قَدْ صانَها ... وعليه جمعتْ كُلَّ.. قِواها
هكذا من قامَ يدعو للهُدى ... في بيوتٍ رفعَ الله بناها
جُلُ ما كانَ له من.. همِّه ... خدمة العلم ولم يَطلب سِواها
سائلوا الأمَّةَ عن آثارها ... مَنْ عليها سَهِر الليلَ وتاها
واسألوا الشيعةَ عن أعيانها ... هل سوى مُحسن للدُّنيا رواها
تُكِلِ التاريخ في.. حُجرته ... قلماً أروعَ مِنْ لُدن.. قناها
كَمْ به نَقَّبَ عن مَكنونةٍ ... كجبين الشمس عالٍ مُنتهاها
لم يَدَعْ من فُرصةٍ سانحةٍ ... في سبيل العلم إلاّ وأتاها
إن دَعا فتَّحَ أبوابَ السَّما ... وله أَلْقَتْ مفاتيحَ غطاها
كَمْ له من حِكمةٍ... بالغةٍ ... كبيد الرسل وقرآن نداها
تتراءى مثلاً... مَرئيةٌ ... كنجوم الفجر وهّاجاً ضياها
لم تكن فلسفةً وهميةٌ ... من أساطير أرسطو أو سواها
فاملؤا قنديلكم من زيتها ... واجتلوا الأضواء من فضلِ سناها
بَلسمٌ جفّ عن الداءِ العَيَا ... بعد أنْ مسَّ جراحاً وبَراها
صار لِلّه خصاماً في الهُدى ... وعن الغيِّ إلى الله تناها
مَالَ رُكناً وَتَداعى... أُمّةٌ ... شدَّ بالأخلاق والرفق لِواها
ما رأى العُجم ولا العُرب رأتْ ... علماً فيه تَولّتْ.. أُمّتاها
قلّدته دِينها عن... خبرةٍ ... وإليه أرجعت كلَّ قضاها
إيهِ يا هاشم... ما أبعدها ... صرخة في أذن الدهر صداها
إيه يا هاشم والنجمُ هَوى ... فوقَ أرضٍ قدّس الله ثَراها
وَمُذِ الركبُ تنادى وخطا ... عَبْرَ سوريا توالتْ عبرتاها
نرمقُ التابوت في... صحرائها ... مُشرفاً كالركن عالٍ كذُراها
وعليه نكّسْ... أعلامها ... وقريشٌ حَمَلته في رِداهـ

كلما لاح لها الركب ارتمت   دونه الأبصار مكفوفاً ضياها
وكأن الشام لما أن دجت   لفها الليل فلم تبصر خطاها
وعليها طلعت شمس الضحى   من وراء البيد معصوباً ضحاها
نبأ طاف به البرق على...   صهوات الريح محموماً شجاها
القوافي التهبت... ألفاظها   والمعافي جمرات من... لظاها
تتنزى مهجاً... محمومة   تلفظ الآهات... حمر شفتاها
لا أعزي اليوم فيه أحداً   كل نفس هي ملأى من عزاها

وقال من قصيدة :

يا لذكري أحبتي ووداعي   للصبابات والكمي الشجاع
ووقوفي على قبور لداتي   في حنو المتيم... الملتاع
وأحس الردى بنفسي يحدو   وهي منه على جناح الوداع
شت عهد الهوى فآل اشتياقي   لطراد مع النوى وصراع
وارى البين لا يفارق رحلي   بين حط الخطوب والإقلاع
كم لعيني حلا اجتماعي بأهلي   ما أمر الفراق بعد اجتماع
أدمع من عرائس الشعر عندي   سكبتها الآهات من أضلاعي
كلما أمسك التأسي دموعي   أرسلتها صوائح ونواع
وعليها الأسى ألح جنوناً   في لهيب على الدجى واندلاع
وتري عوده تلاشى وغصت   في لهاتي روائع... الإبداع
وانطوى اللحن في الثرى وتوارى   كل شاد عن الربى والتلاع
سهد الجرح ليله يتنزى   في علو على الردى وارتفاع
ذكريات مواثل نصب عيني   سيرها في التراب غير مذاع

وقال في تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ :

باسمك اللهم عوناً واتكالا   لك كبرنا وأقمنا القنالا
ومشينا أمة واحدة   نرفع العزة للدنيا مثالا
بطل الصحراء... دوى صوته   فإذا الأجيال تهتز اختيالا
وأفاق الغرب من غيرته   بالعمى يمسح جفنيه اكتحالا
وأطل الفجر وهاج الضحى   في السنا يحتضن النيل احتفالا
نحن والغرب فإما ماؤها   من دم يجري وإما أن تدالا
أذن الله لنا أن أقبلا   بسراياه عن الدنيا... زوالا
قد نفخنا.. النار حتى اضطرمت   شرراً كالقصر ترمي وجبالا
وحشدنا الصيد.. من دون القنا   وملأنا البر والبحر رجالا
لا تخف سيلاً جرى عبر الضحى   لم يكن إلا سراباً يتلالا
حسبته العين في مواره   لجة يجري وبحراً حين سالا
كلما الطرف دنى منه اختفى   من رأى الطيف تراءى ثم زالا
لوه تخطى الغرب حداً بيننا   لاستحالت سحرة الأرض اشتعالا
سائلوا الصحراء عن هيجائنا   يوم ضاقت بالغطاريف نزالا
وربحنا الجولة الأولى علا   ورفعناه علم المجد... فطالا
زمن الظلم تلاشى وانطوى   في حنايا الدهر وهماً وخيالا
شرفاً حده الظبى من عزمها   وجباه الأسد... قد شدت نعالا
وقفت دون العلى وازدلفت   والمنايا الحمر تنهال انهيالا
والعذارى زغردت خلف اللوا   عن جراح الصيد... يمسحن الرمالا
تزرع النخوة في أعماقنا   همة تعتقل الموت اعتقالا
نحن سيل الليل فتيان... الوغى   ولها نحن إذا تدعو نزالا
هكذا كنا وما زلنا لها   مثلاً أعلى جهاداً ونضالا

وقال :

قل للمقيمين حكاماً على سرر   مرضونة شدها الشعب الذي اهتضموا
قل للمقيمين حكاماً جبابرة   بطونهم ملئت منا... أما تخموا
خافوا من الله واستبقوا بقيتنا   إن لم يكن لكم دين ألا ذمم
أليس منا ومن أرواحنا سكبت   والأمر تملكه النسوان والخدم
طار الرغيف على أيديكم وغدا   عنقاء مغرب لم تلحق به قدم
ما للشبيبة قد خفت بهجرتها   مواكب فوق ظهر البيد تقتحم
بين (الكويت) أو (الدمام) مركبها   غاد وفيه حياض الموت تلتطم
ما ضاق لبنان في أهليه واتسعت   أرض سواه ولكن ضاقت الشيم
كم من فتى تحت ظل الغم مسكنه واخر... داره الأوتار والنغم
يبيت عنه خلي البال من شجن   نشوان من كأسه المستأثر النهم
يبيت والماء يجري من مقاصره   ونحن في القاع لا ماء... ولا خيم
لو.. يعلم الهرم المبني من حجر   ما قد لقينا هوى عن عزه الهرم
خل الليالي كما تهوى فإن... لنا   يوماً به نحن والحكام نحتكم

وقال مادحاً سنة ١٣٨٣ هـ من قصيدة :

أبى الله إلا أن تكون المتمما   بناء المعالي قبل أن يتهدما
وتنشر ما قد أغفل الدهر نشره   حديث العلى برداً ووشياً منمنما
إليك خطبنا الطيبات فأتلعت   بنعماك جيداً قد تحلى ومعصما
من البدويات الأعاديب فرعها   على كتفيها أرقماً لف أرقما
على ثغرها الوهاج من ألق الصبا   دم إن بكته المرفات تبسما
عادت لنا عهد الهوى وفتونه   فنوناً ولم تسعد مشوقاً ومغرما
ويممت أعلى الضال دار ابن دارم   وما كل دار حقها أن تيمما
وقلت لركب الليل والليل قد هوى   بكلكله والصبح قد ثار في السما

ونادى منادي الحي من جانب الندى   نعمتم صباحاً قد قربنا من الحمى
حمى العز هذا فاترع الكأس واسقني شراباً حلالاً لا شراباً محرما
هو المورد الأسنى ولا حب نهجه   على أسس في الصالحات تقوما
إذا.. الأبيض الريان في الله قائم   يزاحم في أوج السماوات أنجما

وفي كبد الظلماء يقذف بالسنا   فتبتسم الآفاق من نوره فما
تنم عليه في الأباطح ناره   شهاباً بأعلى رأسه قد تضرما
به يهتدي الركب المغلس في السرى   إليه ومن في سيره قد تجشما
وما شهد القطر الجنوبي مثله   على الخير باق ما أعز وأكرما
وما زلت تروي عن صحاح ومسلم   إلى أن رأيناك الصحاح ومسلما
تجاوزت ما لا حد فيه من الندى   فلو كان من ماء لخضناه عيلما

أبا النعم الحمراء بوركت واهباً   وبوركت موهوباً وبوركت منعما
تبيت نفاراً حول دارك شرداً   من الخوف أن تمسي شواء ومطعما
ترى كل ضيف مقبل طعنة لها   متى حل من لباتها شخبت دما

تـرفقْ بهـا فهمتي التي يُحمـد السُّرى ... عليهـا صبـاحـاً مَنْ لَعليـاك يَمَّـمَا
رؤم عـلي بـوشـجـي حـنـيـنـهـا ... ومـا أرضعت يـومـاً فصـلاً لتفـطما
وتصرع في إرقـالهـا الـظبي بـالحصى ... كـأنّ الحصى من خِفِّهـا طـارَ أسهُـما
كـأنـك والسَّيفُ الصقيـل ولِـدتُـما ... إبـاءً لِدفـع الخطب في الـدهر تـوْأما
ويفعـلُ في الأجسـام فِعلَكَ في النّـدى ... مَـتى وزّعَ الأشـلاء وزّعتَ مَـغنمـا
ملأت حنايـا الدهـر نعماء لـو مشت ... بـرجـلٍ لَقُلنـا يَـذبـلاً . . . ويَلَمْلَما
لئن قيـلَ بـالمُـلك الملوك تَخَتَّمتْ ... فـأنـت الـذي بـالمـالكـين تَختَّما
وإن هي بـالـطِّيب الشـذى تلثَّمتْ ... فـأنت الـذي بـالـطيبـات تلثما
وتعـطي وقد أعـطيت مُلكـاً بـأسره ... عـظيمـاً وفيـه قـد تبينت أعـظما[1]
ومـا الجـانب الشرقي لـولاك مُشرق ... ولـو لم تكن فيـه لأصبـح مُـظلما
وعي الشعر فيك اليوم أحسن ماوعى ... وكـان أصمًّا صـامتـاً . . . فتكلما
متى شئتُ ان أثني عليـك تـزاحمت ... بحـارٌ ومنها كـلُّ بحـرٍ لـك انتمى
ومـا أنـا الا الشعـر من دون وحيـه ... ومـا أنت إلاّ وحيـه حـين ألهـما
ومـا أنـا إلاّ سلكـه دون . . . عقده ... ومـا أنـت إلاّ عـقـده إذا تـنـظما
تقلدتُ سيفـاً من سيوفـك مُـرهفـاً ... هـزمتُ بـه الجُلّى خميسـاً عـرمرمـا
بـه المتنبـي قـد لقـيـت وإنَّـني ... ضربـتُ بسيفي سيفـه فـتثـلّما
كـأنَّ أتـونـا بـين حـدَّيـه كـامنٌ ... متى شهـد الهيجـاء نـاراً تضرَّمـا
ومـا الجـود والاقـدام إلاَّ مـواهبٌ ... بها اختصَّك البـاري الكريم وأكـرما

وقال مهنئاً السيد عبد اللطيف فضل الله بعرسه :

البِشْرُ أنْجَـدَ في النفـوس واتهـما ... أنىَّ التـفـتَّ تجـد فـماً مُتـبسـماً
عـرسٌ لـه انـتـظر الـزمـان هـلالـه ... حتى أطـلَّ فكـان عـيـداً أعـظما
لـو أستطيـع نـثرت فـوق رُبـوعـه ... عِـوضَ القصـيـد مـن السماء الأنجما
أو كـان في الإمكـان ألْبَسـتُ الرُّبى ... حـلـلاً وَوَشَّـيـتُ الخِضَـمَ العـيـلما
أمـلٌ صـرفت العـمـرَ في إدراكـه ... حتى ظـفـرت بـه مَشـوقـاً مُـغـرماً
دقَّتْ بـبشـائـره بـآذانِ العُـلى ... ومشى الـزمـانُ مغـرداً مُـترنمـا
عـبـد اللطيف عـلى جـبـيـنـك آيـة ... وضعـت على النفس الكـبـيرة طلسـما
مـن ذا يـنـازعُـكَ السُّمـو وقـد رأى ... أخـويـن كـالـقـمـريـن فـذاً تـوأمـا
قـد صـدتَ مـن غـاب الـضـيـاغـم لَـبـوةً ... أعيْت عـلى الأسـاد أن تـسـتسـلما
أخـذت بـفـرعـي سـؤدُدٍ وتمـكَّنـت ... في المحضِ مـن علـيـا الأمـومـة مُـنـتمـى
جـاءتـك مـن بـيـتٍ أطـلّ عـلى العُـلى ... شَرفـاً وكـان لمـا الحُسـين مُـعـلَما

محمد نويدي قاسم الأصفهاني .

من شعراء إيران في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري . وليس هو نويدي الشيرازي ولا نويدي الطهراني اللذين نقرأ اسميهما في تذكرة (نصر آبادي) .

للمترجم ديوان محفوظ في المكتبة الوطنية بلندن برقم ١٨٢٩ - supp وفيه ٦٥٠٠ بيت من الغزل والقصيدة والرباعيات ، وهو مكتوب بخط الشاعر بتاريخ ١٥ المحرم ١٠٤٤ هـ ومن خلال النظر في الديوان نتعرف على جمال خطه . ومن خلال قراءة بعض أشعاره نعلم بأنه سافر إلى الهند وسكن في الدكن وتوفي فيها . وكان متألماً من اضطراره للسكن هناك ، متحرقاً إلى العودة إلى وطنه . ولكن لسبب نجهله ، وربما كان ضيق ذات اليد لم تقدر له العودة إلى الوطن .

كان ينظم الشعر على طريقة شعراء القرن التاسع ، وشعره سلس البيان ، مفهوم ، بسيط غير معقد ، بعيد عن المبالغة .

نظم القصائد في مدح الأئمة عليهم السّلام ، وكان أغلب غزله من نوع القصيدة.

الشيخ محمد هادي ابن الحاج حبيب الله الكاشاني المشهور بـ (رمزي) .

ولد سنة ١٠٤٠ .

كان كما يصفه أحد مؤرخي الأدب : من أواسط الناس في قزوين ، درويشاً بلا بضاعة . ويقول ميرزا حبيب الله أن نسبه يصل إلى ابن بابويه القمي .

برز منذ أوائل شبابه بين شعراء العصر ، وكان فناناً في النقش ووحيداً في صناعة حك الخشب المعروف بـ (منبت كاري) .

لازم في عهد الشاه عباس الثاني ، مرتضى قلي خان شاملو من الرجال البارزين في ذلك العهد وفي عهد الشاه صفي ، ثم تركه وعاش في اصفهان حياة هادئة .

له ديوان كبير في اثني عشر ألف بيت ، وله مثنويان : (رمز الحقائق) و (رمز الرياحين) ، فيهما أربعة آلاف بيت ، وهما محفوظان في مكتبة مجلس الشورى بطهران . ورمز الرياحين نظم باسم الشاه عباس الثاني .

وله أيضاً قصائد ، وغزليات ، وأشعار في التوحيد ومدح النبي (ص) والإمام علي (ع) ، ومدح الملك . وله وصف بستان الألف جريب ، وهو يصف الورود ، وردة وردة ، وعلى لسان كل وردة يمدح الوردة نفسها ويعيب الأخرى . كما اشتهر بنظم الأمثال حتى لم يدع مثلاً إلا نظمه شعراً .

الشيخ محمد هاشم بن محمد قاسم الأفشار القزويني .

توفي حدود سنة ١٢٩٠ مجتهد نحرير أصولي محقق أخذ المقدمات وفنون الأدب والعربية على أفاضل علماء قزوين ثم تخرج في الفقه والأصول والحديث على الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وشقيقه المستشهد سنة ١٢٦٣ وحضر في الفلسفة والعرفان على ملا آغا الحكمي القزويني والشيخ الميرزا عبد الوهاب البرغاني القزويني ثم حضر مع استاذه البرغاني في جهاد الحروب الإيرانية الروسية المعروفة عام ١٢٤٢ وشارك في تشييع جثمان

السيد محمد المجاهد المتوفى سنة ١٢٤٢ من قزوين إلى كربلاء وسكن الحائر الشريف زماناً وتصدر للتدريس والفتوى ثم رجع إلى موطنه قزوين وسكن قلعة الشارية في ضواحي قزوين وكان من مراجع الأمور الشرعية بها ، رئيساً مطاعاً وكانت له مكتبة نفيسة كما أنه كان مولعاً باستنساخ الكتب لنفسه من ذلك كتاب مفتاح الكرامة للسيد محمد جواد العاملي المتوفى سنة ١٢٢٦ وكتب أخرى متفرقة في مكتبات قزوين وعندنا جملة منها .

وله مؤلفات منها : كتاب التلخيص ، ورسالة في الأرث ، وحاشية على الرياض . وغيرها من حواشي وتعليقات[١] .

محمد هاشم بن هادي بن مظفر الدين حسين علوي ، المشهور باسم علوي خان معتمد الملك

ولد سنة ١٠٨٠ في شيراز وتوفي سنة ١١٦٠ في الهند .

درس على والده في شيراز وعلى الأخوند مسيحا ، وفي سنة ١١١١ جاء إلى الهند واستقر عند عالم گبير في قلعة ستاره وتولى عنده منصباً . وقد قربه إليه الحكيم محمد شفيع الشوشتري ، وفي عصر شاه عالم لقب بـ (علوي خان) .

وفي سنة ١١٢٢ توفي بهادر شاه قطب الدين وحل بمكانه معز الدين جهاندار شاه ، ثم في سنة ١١٣١ تولى محمد شاه فحظي عنده المترجم كل الحظوة ولقبه معتمد الملك . ثم ذهب إلى الحجاز للحج ، وفي سنة ١١٥٦ عاد إلى الهند فبقي فيها أربع سنين معززاً مكرماً حتى وفاته .

له من المؤلفات : حاشية على شرح هداية الحكمة ، حاشية على شرح الأسباب والعلامات ، شرح تجريد اقليدس ، شرح المجسطي ، شرح موجز القانون ، أحوال أعضاء النفس ، رسالة في الموسيقا ، التحفة العلوية والإيضاحات العلية ، جامع الجوامع ، آثار باقية ، خلاصة التجارب ، عشرة كاملة ، قرابادين علوي .

الدكتور محمد هدايتي

ولد سنة ١٢٩٣ وتوفي عام ١٤٠٦ كانت أسرة هدايتي تتولى سدانة روضة الشاه عبد العظيم الحسيني في الري منذ أيام السلاجقة حتى أيام المترجم له ، فهو آخر من تولى هذا المنصب من هذه الأسرة وباعتزاله انقطعت سلسلة سدانتهم . وكانت له أيادي كريمة في تعمير الروضة منها تجديده الصحن الكبير وإجراء التعميرات الكبيرة في داخل الروضة الأثرية ـ وكذلك تعمير الصندوق الأثري الذي يعلو القبر ، وكذلك بناء ضريح فضي له .

درس الحقوق بباريس وبعد أن عاد إلى طهران قام بالتدريس في كلية الحقوق ثم صار عميد الكلية ثم اختير نائباً في البرلمان ثم وزيراً للعدل ألف كتاب (آستانه ري ، روضة الري) وهو كتاب قيم عن تاريخ هذه الروضة منذ نشأته[٢] .

الشيخ الفقيه الرئيس أبو عبد الله محمد بن يحيى البيهقي .

استشهد في أوائل ملك السلطان طغرل السلجوقي في حدود سنة ٤٣٢ لتشيعه .

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٢) الشيخ محمد رضا الأنصاري .

من أعاظم علماء الشيعة في بيهق وأكابر فقهائهم في عصره رئيس زعيم أخذ العلم والفنون الإسلامية في نيشابور إحدى المراكز العلمية الشيعية المعروفة آنذاك حتى بلغ درجة عالية في العلم والفضل وفي عام ٣٩٥ هاجر من نيشابور إلى بيهق وقد استقبل استقبالاً شعبياً وحكومياً ورحب به العلماء والأدباء والشعراء وانشدوا قصائد بالعربية والفارسية في الترحيب به . ومن تلك القصائد :

اخلائي محمد بن يحيى	أنار بفضله قلبي واحيا
محياه لأهل الفضل نور	ومحياه لأهل الفضل محيا

وأنشد أبو عبد الله الزيادي البيهقي :

إن غاب بدر الدجى عنا فقد	أسفر عن بدر الأماني عيان
ببهجة وضاحة صورت	من ماجد يحسدها النيران

وكان المترجم له أول من هاجر من نيسابور إلى بيهق من رجالات هذه الأسرة وفصّل عنه أبو الحسن علي بن زيد البيهقي ، المعروف بابن الفندق المتوفى سنة ٥٦٥ في كتابه تاريخ بيهق وقال انه من أحفاد يزيد بن المهلب في خراسان[٣] ومن جهة الأم من أحفاد فولادوند الديلمي ونقل عن مزيد التأريخ أن جدّه نصر بن حسن بن فيروزان بن فولادوند[٤] .

انتهت إليه الفتوى والرياسة ، وكان زعيم مدينة بيهق وتلك البلاد . وهو من جهة الأم جد للسيد أبو السعادات هبة الله بن علي الحسني صاحب كتاب الأمالي شيخ محدثي الشيعة المولود في بغداد عام ٤٥٠ والمتوفى سنة ٥٤٢ وترك المترجم له ولداً هو الزعيم الرئيس حمزة الذي تزعم بعد مقتل والده وانتهت إليه الرياسة ، وبنتين إحداهما زوجة الرئيس أبي الحسن علي بن أبي جعفر محمد وأم العالم الفاضل ركن الدين أبي منصور هبة الله البيهقي[٥] .

السيد محمد اليزدي

توفي سنة ١٣٣٤ في الكاظمية ودفن في النجف .

هو أفضل ولد السيد كاظم اليزدي المرجع الشهير في عصره ، وكان سفير أبيه ومعتمده ولسانه في كثير من الوقائع ، وقد أخرجه إلى الأهواز سنة ١٣٣٣ خلال الحرب العالمية الأولى وإلى بغداد والكوت سنة ١٣٣٤ داعياً إلى الدفاع والإنضمام إلى الجيوش العثمانية في جهاد الإنكليز .

وكان عارفاً بآداب اللغة العربية يخطب فيها . وقد اقتنى خزانة كتب حسنة وله تآليف .

محمود خان ملك الشعراء .

« محمود خان » ابن « محمد حسين خان » واسم الأب المستعار « عندليب » ابن « فتح علي خان صبا » . وكل من الثلاثة يلقب بـ « ملك الشعراء » . ولد سنة ١٢٢٨ هـ .

من أدباء إيران وفضلائها . خطاط رسام عارف بفنون أخرى كالحفر

(٣) أبو الحسن علي بن زيد البيهقي : تاريخ بيهق تحقيق أحمد بهمنيار ص ٩٠ طهران موسى دانش طبعه عام ١٣١٧ ش هـ .

(٤) نفس المصدر ص ٩٣ .

(٥) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

على الحجر والخشب . وفي عهد « فتح علي شاه » كانت له خدمة في البلاط .

في سنة ١٢٦١ مرض « محمد شاه قاجار » مرضاً شديداً ، فتطلع بعضهم إلى منصب الملك وتنوقلت أخبار عن مطامعهم في العرش . وكان من هؤلاء الطامعين « الله قلي ميرزا الإيلخاني » أحد أسباط « فتح علي شاه » وحفيد أخيه الشقيق . وأخذ هذا يسعى للوصول إلى المنصب الشاهاني قبل موت « محمد شاه » أو بعد موته ، حسب ما يتهيأ له من الظروف . واجتمعت حوله جماعة من النفعيين يحركونه ويؤيدونه . ولكن « محمد شاه » تحسنت حالته وشفي من مرضه . وعاقب كل من كانت له يد في مثل هذه الدسائس والتحريكات ، وأبعد فريقاً منهم .

وكان « الله قلي ميرزا الإيلخاني » ربيب الصدر الأعظم « الحاج ميرزا آقاسي » ، إذ كان هذا متزوجاً من أمه بنت « فتح علي شاه » ، وقدم الإيلخاني أيضاً إلى الشاه مبلغ خمسة عشر ألف تومان . ولهذه الاعتبارات عفا عنه الشاه وعينه حاكماً على « بروجرد » ونواحي أخرى . وعين « محمود خان ملك الشعراء » معاوناً له . ولما استقر بهما المقام في « بروجرد » أعرض « الله قلي ميرزا » عن تعاطي العمل الموكول إليه لا يعتني به وانصرف إلى استئناف حركاته وتدابيره للوصول إلى المنصب الشاهاني . وجهد « ملك الشعراء » في نصحه لينصرف عن هذه النية ولكنه ظل متشبثاً بها لا ينصرف عنها ، وانتهى به الأمر إلى أن جهز خمسمائة فارس وسار بهم إلى طهران ليحتلها وينصب نفسه شاهاً على إيران .

وكان « ملك الشعراء » قبل ذلك ، لا ينفك يوالي إرسال التقارير إلى طهران بواقع الحال . ومن ثم كان الشاه على علم بكل شيء ، فأرسل إلى الإيلخاني من تصدى له في محلة « حوض سلطان » . ومنها أبعد إلى العراق .

في أوائل ملك « ناصر الدين شاه » رشح « محمود خان » للسفارة في إحدى الدول الأجنبية ، ولكنه استنكف عن القبول . وقد عمل موظفاً في بعض الدوائر الحكومية ، وكان مدة رئيساً لدائرة الصحافة والمطبوعات الحكومية .

كان « محمود خان ملك الشعراء» رجلاً كاملاً محترماً فاضلاً . وكان مقلاً من أكل اللحم وأكثر طعامه الفواكه والخضار ، يتجنب المسكر والمخدر . توفي سنة ١٣١١ هـ . وهو في الثالثة والثمانين من عمره .

محمود راميار

الكاتب والمحقق الإيراني ولد عام ١٣٤٠ في مدينة مشهد وتوفي عام ١٤٠٣ ودرس إلى أن حاز على شهادة الدكتوراه في ثلاثة فروع وهي الشريعة الإسلامية من جامعة باريس والعلوم السياسية في جامعة طهران والعلوم الاقتصادية في جامعة لندن ، ثم عاد من أوربا إلى إيران حيث صار أستاذاً في الجامعة وقد ألف كتباً عديدة منها :

كشف الأيمان ، وأهم كتاب له هو كتابه عن (تاريخ القرآن) وقد عمل في أواخر حياته على تفسير القرآن لكن الأجل لم يمهله[1] .

الشيخ محمود مغنية .

مرت ترجمته في موضعها من (الأعيان) ، وعدا ما نشر له من الشعر هناك ، فقد عثرنا له على القصائد التالية :

قال :

ضل الطريق وضلت العفر ... إن لم يردك بقصده السفر
وأحله الإدلاج منزلة ... الربع منها موحش قفر
يا خابطاً عشواء مجتهداً ... أرجع فخلفك يطلع الفجر
أمط الغطاء عن الوطاء فقد ... كشف الغطا وتهتك الستر
ما أنت ذا عشق وإن خفقت ... منك الحشا وتحشرج الصدر
للعاشقين علائم ظهرت ... ما فيك من آثارهم إثر
لا يبصرون سوى الحبيب ولا ... لهم يمر بغيره فكر
خفضت نفوسهم فما لهم ... في حكمها نهي ولا أمر
فسكوتهم فكر إذا سكتوا ... وحديثهم إن حدثوا ذكر
واستطيبوا ضر الهوى فغدوا ... سيان إن نفعوا وإن ضروا
فلكل بلوى عندهم نعم ... ولكل نعمى عندهم شكر
عرجت نفوسهم لمنزلة ... من دونها العيوق والنسر
فر الأنام لما له أمنوا ... وهم لما أمنوا له فروا
لكنهم شق فمسلكهم ... سهل ومسلك غيرهم وعر
أموا الحبيب فلا ينهنههم ... عن وصله ردع ولا زجر
سكروا لطيب حديثهم فهم ... سكرى وما دارت بهم خمر
كر الرجاء إذا هم منعوا ... (فالأمر يحدث بعده الأمر)

وقال :

أضيق صدر الدهر والحزم واسع ... لأي ثنيات العلى أنا طالع
أيجترىء دهري علي أما درى ... أنا الصل في أنيابه السم ناقع
أقدم والليث الهزبر مؤخر ... وأصعد حيث الطير في الوكر واقع
ومهما يسابقني جواد لغاية ... يرد على أعقابه وهو ضالع
واقنع بالشيء القليل تعففاً ... وفي كل رزق جاءني أنا قانع

وقال :

أمر لعينيك عندي غير ممتثل ... ما للخلي وما للأعين النجل
لا تصبحي لي بعد الشيب عاذلة ... فإن في الشيب ما يغني عن العذل
قد كنت أسرح في سرح الهوى ثملاً ... (فعدت لا ناقتي فيه ولا جملي)
فلا يؤرقني رسم ولا طلل ... إن أرق الصحب ذكر الرسم والطلل
ونيس يسحر قلبي ربرب غنج ... بناظر ملء جفنيه من الكحل
أسرعت ياشيب في صفوي ترنقه ... ما كان ضرك لو تمشي على مهل
نفضت عني برداً للهوى بهجاً ... وجئت تسعى ببرد للهوى ثمل
عصر الشبيبة ما أهناك من زمن ... ما كان عمرك إلا مصة الوشل
أعطى لياليك نفاح الصبا أرجاً ... وجاد يومك وكاف الحيا الهطل
يوم أقمنا سكارى من صبيحته ... إلى المساء بلا خوف ولا وجل
ترمي به الراح في أفواهنا شرراً ... يصلى بها القلب في عل وفي نهل
فمن مغن على إرث يفارقه ... ومن صريع ومن باك ومن ثمل

وقال :

وليس يضيق الدهر يوماً على امرىء ... ومن دونه درع من الصبر واسع

---

(١) الشيخ محمد رضا الأنصاري .

إذا المرء لم يهلك مطامعه التي ... تشد عليه أهلكته المطامع
وإن كان في نيل الغنى يسعد الفتى ... فخير رفيقيك الذي هو جائع
سقى الله أحباباً بسمنان فالنقا ... سحائب مزن وبلها متتابع
فهم بعثوا للقلب بعد قراره ... مريشة تندق منها الأضالع
إذا ما أضاعوني فما أنا ضائع ... ولا أنا مما أحدثوا قط جازع
وإن أنكرتني بعد عرف نفوسهم ... فقد عرفتني في الرجال المجامع
أينكر نور الشمس والشمس في الضحى ... ويجحد ضوء البدر والبدر طالع
وتصفو ومن غير العجيب مشارع ... وترنق من عند الحبيب المشارع
ومن عجب الدنيا بعيد مواصل ... يزيدك وداً والقريب مقاطع
وأبعث آمالي إليه وسائلاً ... فتصرف آمالي وهن رواجع

وقال :

زارنا والليل في غسقه ... كهلال لاح في أفقه
ناحل الطرف على ضعفه ... يصرع الألباب في حدقه
لا يبالي ما جنت يده ... كم دم للحب في عنقه
عينه الوسنى وحاجبها ... نبها طرفي إلى أرقه

وقال :

تجلى فأجلى دياجي الغسق ... ومنه عمود الصباح انفلق
رشأ علم الغصن لين القوام ... كما علم الريم مرضى الحدق
تأجج خدك ناراً ولولا ... تموج ماء الصبا لاحترق
وأخرس ألسنة الواصفين ... طرفك بالسحر لما نطق
فأنت لهذا الورى فتنة ... خلقت فسبحان من قد خلق

مرتضى فرح الله ابن الشيخ طاهر .

ولد في النجف سنة ١٣٣٢ وفيها نشأ ودرس قواعد اللغة العربية ، وحاول متابعة الدراسة الحديثة المنتظمة فحالت بينه وبين ذلك الحوائل من جمود ورجعية .

عاش المترجم في عقد نفسية مما جرى له وتقلبت به الأحوال بين اليمين واليسار فطورد وسجن ، ثم استقرت أوضاعه وسكنت .

قال عندما كان في (طويريج) معلماً في إحدى مدارسها حيث تشاهد محلات الجرش اليدوية على شواطىء الفرات :

قمرية الشاطي عداك الشجى ... ما هذه الأنشودة الحائره
أنسيتني نفسي وأشركتني ... في روحك المهضومة الثائره
قد اصبحت روحي كرجع الصدى ... فرددي ما شئت يا شاعره
أذهلتني فلم أعد ناظراً ... إلا لما أنت له ناظره
ورفرفت روحي في عالم ... روحك في آفاقه طائره
ناوحت أنغاماً تهز القوى ... وتستفز الأنفس الخائره
عاطفة كانت كمجرى الغدير ... صيرتها موارة زاخره
يابهجة الساري وسلوى المقيم ... وندبة الظعائن العابره
فتوة في الحب نادمتها ... وكنت في تمثيلها ماهره
مع المغنين بجنب الغواة ... روحي من وهم الورى ساخره
ما فاز من يصغي لغير الضمير ... وخاب من دنيا الهوى الساحره

* * *

من سابق : أذاريات الجريش؟ ... أم ذاريات الأدمع الهاميه؟
اجترشي للقوت لا تيأسي ... فالكسب في ارجائه العافيه
لئن تركت الزوج في وحشة ... فعينه من تعب غافيه
لا تهجريه وانظري فرصة ... تقصيه عن حياته القاسيه
عن ضفف أبعدت يا غادة ... أحزانها ما برحت ضافيه
يغمرك الرز وجاروشه ... وأنت من فقدانه شاكيه
لم تلق من خازنه رحمة ... يا ليتها من سخطه ناجيه

* * *

كالبدر والهالة حول الرحى ... بعد المسا تجتمع الجارشات
من فتيات ألفت زهوها ... أو امهات نشطت كالبنات
فهذه تشدو بآمالها ... وتلك في أيامها الذاهبات
تشتبك الأيدي كما تلتقي ... لرقصة، ما أروع العاملات
حمائم الشاطىء لا تهجعي ... فإن روحي تعشق الساجعات
فروحي اليقظى تمل الركود ... ولم تزل تستبق الناشطات
حتى بأحلامي أرى يقظة ... فلم يك الليل لمثلي سبات
ما شاعر يهزه النائمون ... إذ تكثر السراق تلك السنات
حمائم الشاطىء كم من يد ... إليك في الذكرى وكم للفرات
يا مربعاً ألقاه في وحدتي ... فتستمد الروح منه الصلات
ميلي (طويريج) بثوب الدلال ... فإنني أعبد هذي الهبات
البدر والنهر وأفق فسيح ... صحائف تخلد الذكريات
والنخل والزرع وتلك المروج ... بكل ما أحسه شاهدات

مرتضى مدرسي جهاردهي

ولد في مدينة النجف سنة ١٢٩٠ وتوفي بطهران عام ١٤٠٦ درس العلوم الإسلامية في مدينة رشت ثم في مدينة النجف ثم دخل كلية الآلهيات بطهران وتخرج منها وعمل في عدة مناصب حكومية وحقق عدة كتب منها :

مصائب النواصب للقاضي التستري - حياة السيد جمال الدين الأسد آبادي - سياسة تامه لخواجة نصير الدين الطوسي وله من المؤلفات : حياة الحاج ملا هادي السبزواري ، وحياة الشيخ أحمد الأحسائي ، تاريخ فلاسفة الإسلام ، سيماي برزگان ، شيخنكري بابگري ، معالم الأصول[1] .

السيد مرتضى بن السيد محمد الحسيني الفيروزآبادي .

كان والده السيد محمد من أجلاء فقهاء النجف الأشرف ، له كتاب « أصول الفقه » ، توفي سنة ١٣٤٥ .

ولد المترجم له بالنجف الأشرف في آخر ربيع الأول سنة ١٣٢٩ وتوفي سنة ١٤١٠ في قم .

درس في النجف وكان من أساتذته فيها كل من الشيخ أبو الحسن المشكيني والسيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ كاظم الشيرازي . كما تولى تدريس كثير من الطلاب . وفي سنة ١٣٩١ اضطر للهجرة إلى قم فأقام فيها حتى وفاته .

(١) الشيخ محمد رضا الأنصاري .

له من المؤلفات : ١ ـ عناية الأصول ، في شرح كفاية الأصول ، في ستة أجزاء ، طبع بالنجف الأشرف وطهران وبيروت .

٢ ـ فضائل الخمسة من الصحاح الستة وغيرها ، وهو في ثلاثة أجزاء ، طبع بالنجف الأشرف وطهران وبيروت .

٣ ـ السبعة من السلف ، جزء واحد ، طبع ببيروت وقم .

٤ ـ منتخب المسائل ، في مسائل فقهية وفروع الأحكام طبع بقم .

٥ ـ خلاصة الجواهر ، شرح استدلالي كبير للكتاب السابق ، نجز منه إلى مسائل من كتاب الحج ، طبع كتاب الطهارة منه بقم في ثلاثة أجزاء .

٦ ـ الفروع المهمة في أحكام الأئمة ، فقه استدلالي مفصل نجز منه كتاب الطهارة في ثلاث مجلدات كبار .

مرضية خانم ويقال مرضية بيكم بنت الشيخ محمد صالح ابن الشيخ الملا محمد الملائكة ابن الشيخ محمد تقي ابن الشيخ محمد جعفر ابن الشيخ الملا محمد كاظم البرغاني القزويني آل الصالحي .

ولدت في قزوين حدود سنة ١٢٣٣ وتوفيت فيها حدود سنة ١٣١٣ بعد اغتيال ناصر الدين شاه كانت من ربات السياسة والدهاء بصيرة بالكلام مفسرة فقيهة محدثة أديبة شاعرة حافظة للقرآن الكريم . قرأت المقدمات وفنون الأدب والعربية والصرف والنحو على أمها العالمة الفاضلة آمنة خانم[١] وأختها قرة العين الشهيرة وتفقهت على أبيها الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري وعمها الشهيد الثالث المستشهد سنة ١٢٦٣ وأخذت العرفان الرباني عن عمها الشيخ الملا علي البرغاني والفلسفة عن الشيخ الملا آغا الحكمي القزويني في قسم النساء من المدرسة الصالحية ولما بلغت سن الرشد زفوها إلى الشيخ الميرزا محمد علي الشريف القزويني وهو الابن الأرشد لخالها الشيخ الميرزا عبد الوهاب الشريف القزويني من أعلم علماء الشيعة في عصره[٢] ثم تعرفت على آراء مدرسة الشيخ أحمد الاحسائي مؤسس الفرقة الشيخية المتوفى سنة ١٢٤١ عن طريق عمها الشيخ الملا علي البرغاني وخالها الشيخ الميرزا عبد الوهاب الشريف القزويني الذين كانا من أبرز تلامذة الاحسائي ثم مالت إلى الشيخية ولازمت أختها قرة العين في جميع رحلاتها إلى العراق والحجاز في سفرها إلى بيت الله الحرام وكانت من أعلم نساء عصرها وتفننت في العلوم العقلية والنقلية والأدب ، كما درّست وأفتت في كل من كربلاء والكاظمين وبغداد ونزلت في دار أبي الثناء الآلوسي ببغداد وجادلته وباحثته ثم رجعت إلى موطنها قزوين وتصدّت للتدريس والوعظ والإرشاد . وفي سنة ١٢٧٠ توفي زوجها الشيخ الميرزا محمد علي الشريف القزويني فتزوجها ابن خالها الثاني الشيخ الميرزا يوسف بن عبد الوهاب الشريف القزويني ولا يزال أحفادها في طهران وقزوين وهم من سدنة جامع الشاه ومتولي أوقافه حتى اليوم في قزوين .

ومما يجدر ذكره هنا أنها كانت كثيرة التشنيع والعداء والتهجم على ناصر الدين شاه القاجاري وكشف مظالم البلاط القاجاري وخاصة بعد قتل أختها قرة العين على يد الشاه في سنة ١٢٦٨ ولكن لم يتعرض لها ناصر الدين شاه بشيء .

(١) انظر مستدركات أعيان الشيعة ج ٢ ص ٧ .

(٢) انظر مستدركات أعيان الشيعة ج ٣ ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

لها آثار ومآثر ، منها توسيع وتجديد بناء مدرسة خالها الشيخ الميرزا عبد الوهاب الشريف القزويني ومن مؤلفاتها بعض الحواشي على الكتب الفقهية والفلسفية ، مجموعة الرسائل ، رسالة في العرفان ، مجموعة مكاتيب ، ديوان شعر كلها موجودة في مكتبة أحفادها في قزوين[٣] .

مرهون الصفار ابن حسن .

ولد في بغداد سنة ١٣١٥ ، وفيها نشأ ثم انتقل إلى النجف موظفاً في المحكمة الشرعية ، ثم تنقل في وظيفته في عدة مدن عراقية .

نظم الشعر باللغة المحكية . وله فيها ديوان مطبوع باسم (الدرر اللماعة في سبيل الشفاعة) . ومن شعره قوله في مدينة بيروت وقد زار فيها ولده المريض بالسل وشهد وفاته فيها :

عروس الشرق والغرب ودنيا الضاد والعرب
لديك الأعين النجل سكارى بالهوى تصبي
وإن لم تقتل الألحاظ عشاق الهوى تسبي
ثوى حبك في قلبي وفيك قد ثوى (قلبي)

* * *

عروس الشرق يا بيرو ت فيك بهجة الدنيا
رياض العلم والآداب في أرجائك تحيا
وشعب دأبه الإصلاح يرقى لسما العليا
سقتك المزن يا بيروت أمواه الحيا سقيا

* * *

عروس الشرق لا غرو إذا ما كنت فتانه
فكم من يعشق العليا لكي يعلى لها شانه
وكم غر يرى فيك حليف الخمر والحانه
فذو العقل وذو الجهل لقد أصبحت ميزانه

* * *

عروس الشرق بيروت لأنت موطن الأنس
فأنت جنة المأوى وأنت منية النفس
ومذ زرتك أذهلت وسيطرت على حسي
أيعلو فيك (لبنان) وفي بحر الأسى أمسي

* * *

عروس الشرق بيروت أهذي لجة البحر
أم الدمع على الأحبا ب من آماقك يجري
أهذي زفرة العشاق قد جاشت من الصدر
وهل ذا دمع مظلوم جرى من سطوة الدهر
عروس الشرق والقلب إلى غيرك لا يهفو
لرؤياك تعشقنا وقد شوقنا الوصف
عسى أن يهنأ العيش إلينا فيك أو يصفو
فعدنا منك ذا يبكي وذا تحت الثرى يغفو

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

مريم بيكم بنت الشيخ محمد تقي ابن الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد تقي ابن الشيخ مقصود علي المجلسي الأصفهاني .

توفيت بعد سنة ١١٥٩ ودفنت في مقبرة آل المجلسي المعروفة في أصفهان عاملة فاضلة أديبة من ربات الفصاحة والبلاغة والزهد .

قرأت المقدمات وفنون الأدب والعربية على رجال أسرتها آل المجلسي وأمها العالمة زينب بيكم ولما بلغت سن الرشد زفوها إلى الشيخ محمد تقي ابن الشيخ الميرزا محمد كاظم ابن الشيخ عزيز الله بن محمد تقي المجلسي الأصفهاني المتوفى سنة ١١٥٩ والمترجم في المجلد التاسع صفحة ١٩٧ من أعيان الشيعة .

ذكرها السيد مصلح الدين المهدوي مع ترجمة أمها العالمة العارفة زينب بيكم بنت الشيخ محمد سعيد المتخلص بأشرف ابن الشيخ محمد صالح المازندراني المار ذكرهما[1] .

السيد الميرزا مسعود شيخ الإسلام ابن السيد الميرزا مفيد شيخ الإسلام ابن السيد حسن بن تقي بن باقر بن تقي بن بهاء الدين بن محمد شفيع بن بهاء الدين محمد بن كمال الدين حسين (وهو أول من عين بمنصب شيخ الإسلام) ابن عبد العال بن المير حسين الكركي العاملي (أول من هاجر من جبل عامل إلى قزوين) ابن علي بن حسن بن حسين بن جعفر بن علي بن عبد الله بن مفضل بن أحمد بن جعفر بن محفوظ بن حسن بن عدنان بن جعفر بن أبي محمد بن حسن بن عدي بن محمد الملقب بالديباج ابن الإمام جعفر الصادق (ع) العاملي الأصل القزويني المولد والمنشأ والمدفن .

من أعيان العلماء المبرزين وأكابر المتكلمين شيخ الإسلام بقزوين .

ولد في قزوين حدود سنة ١٢٦٠ وقتل على يد المطالبين بالانقلاب الدستوري « المشروطة » في داره في ربيع الثاني سنة ١٣٢٧ ودفن في سرداب داره ثم نقل جثمانه إلى بقعة الأنبياء « بيغمبريه » حسب وصيته وقبره مزار معروف اليوم في قزوين .

آل شيخ الإسلام ويقال آل شيخ الإسلامي : من أقدم البيوت العلمية العلوية العاملية القزوينية وأشرفها وأشهرها تحلوا بالعلم والرئاسة والزعامة وبزغ بدرهم في أفق قزوين في القرن العاشر للهجرة واشتهروا بلقب شيخ الإسلام الذي كان منصبهم في قزوين . وأول من عين في هذا المنصب من هذه الأسرة هو السيد كمال الدين حسين الجد الأعلى للمترجم حسب فرمان من السلطان الصفوي موجود عند أحفادهم حتى اليوم . وهم من أصل علوي حسيني هاجر جدهم السيد حسين من جبل عامل إلى قزوين حينما كانت قزوين عاصمة الدولة الصفوية وهم غير الأسرة العلوية الرضوية العلمية العاملية الثانية التي هاجر جدها السيد جعفر من جبل عامل في عصر نادر شاه الأفشاري وأنعم عليه الشاه بلقب صدر الصدور ، والذي مر ذكره وقد تألق ضوء أسرة المترجم وطار صيتها حين نبوغ جدها الأعلى السيد كمال الدين حسين الذي عين بمنصب شيخ الإسلام في قزوين ثم توارث المنصب أبناؤه الغر الأماثل خلفاً عن سلف وتكونت على مرور الأعوام منهم أسرة علمية نبغ منها علماء أعلام وشعراء أفذاذ كما حاز رجال منها الرياسة الدينية والدنيوية والزعامة العلمية ومنهم السيد محمد شفيع بن بهاء الدين محمد شيخ الإسلام من أعاظم علماء عصره المتوفى سنة ١١٢٥ والسيد محمد شفيع الثاني ابن بهاء الدين بن السيد محمد شفيع الأول المتوفى سنة ١٢٠٠ صاحب المؤلفات الكثيرة التي منها كتاب محافل المؤمنين وهو مستدرك على مجالس المؤمنين وكان شاعراً أديباً . ومنهم السيد ميرزا مفيد والد المترجم له المتوفى سنة ١٢٩٣ شيخ الإسلام في عصره ومنهم نجل المترجم له السيد ميرزا حسن رئيس المجاهدين المتوفي سنة ١٣٣٣ وغيرهم من الأعلام والعلماء والشعراء .

ولد المترجم له في قزوين وأخذ المقدمات والعلوم العربية وفنون الأدب على أفاضل علماء عصره ثم حضر في الفقه والأصول على والده شيخ الإسلام الميرزا مفيد وخاله الشيخ الميرزا عبد الوهاب البرغاني الصالحي المتوفى سنة ١٢٩٤ وكذلك العلوم العقلية حتى برع ثم توجه إلى العتبات المقدسة في العراق قاصداً الحوزة العلمية الكبرى في كربلاء والنجف الأشرف وتفقه على مدرس الطف الشيخ الميرزا علي تقي البرغاني الحائري آل الصالحي وأخذ الحكمة والفلسفة والأصول عن الشيخ الميرزا علامة البرغاني الحائري الصالحي وكان كثير التتبع واسع الاطلاع والإحاطة تصدر للتدريس والفتوى في كربلاء وهو سبط الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وأثناء إقامته في كربلاء تملك عقارات والدته العالمة الفاضلة خديجة سلطان المار ذكرها وسجلها باسمه أيام الحكم العثماني ولا تزال باسمه حتى اليوم ثم عاد إلى موطنه قزوين وتزعم كرسي التدريس والفتوى وانتهت إليه الرئاسة وزعامة البلدة قائماً بالوظائف الشرعية ومرجعاً للخاص والعام .

وعندما ثار الشعب الإيراني بزعامة أبي الأحرار الآخوند ملا محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية المتوفى سنة ١٣٢٩ على النظام الدكتاتوري والاستبداد الشاهنشاهي مطالبين بالنظام الدستوري كان المترجم له ونجله الميرزا حسن شيخ الإسلام المعروف برئيس المجاهدين في طليعة الثوار إلا أن بعض الأحداث والأخطاء والالتباسات التي حصلت والتي يطول علينا شرحها هنا أدت إلى انشقاق بعض العلماء الثائرين عن الثورة في معظم المدن الإيرانية وحتى العاصمة طهران الذي كان يتزعم حركة المنشقين فيها الشيخ فضل الله النوري الذي أعدم في ١٣ رجب سنة ١٣٢٧ ومن الأسباب التي أدت إلى معارضة المترجم له في قزوين ، وصول يفرم خان الأرمني في سنة ١٣٢٦ إلى قزوين في طريقه إلى رشت وكان يفرم خان هذا من الثوار المطالبين بالانقلاب الدستوري « مشروطة » فخرج أهالي قزوين المطالبين بالانقلاب الدستوري لاستقباله بصفته أحد زعماء الثورة وكانوا يهتفون [زنده باد حامي إسلام يفرم خان أرمني] أي عاش حامي الإسلام يفرم خان الأرمني وعارض المترجم له مثل هذه الهتافات وقال كيف يمكن للأرامنة أن يكونوا حماة عن الإسلام واشتد النزاع وهذا من أقوى العوامل في انشقاق المترجم له عن الثوار وظل نجله السيد الميرزا حسن شيخ الإسلام في صفوف الثوار فلقب فيها بعد برئيس المجاهدين .

وفي ربيع الثاني من عام ١٣٢٧ زحف الثوار من رشت وسائر المدن الإيرانية لفتح العاصمة طهران والقبض على السلطان محمد علي شاه القاجاري ودخلوا مدينة قزوين في طريقهم إلى طهران وانضم إليهم ثوار قزوين فترك معظم المعارضين مدينة قزوين وعرض على المترجم له أن يذهب إلى إحدى القرى المجاورة حتى تهدأ الأوضاع فأبى أن يترك قزوين وظل في

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

داره وعند وصول الثوار إلى قزوين حاصروا دار المترجم له ودخلوا عليه وكانت له دار واسعة لها ساحة كبيرة فامتلأت داره بالثوار وحضر بنفسه إلى الشرفة المطلة على ساحة الدار وأخذ يخطب فيهم عن أسباب معارضته ولكنهم أمطروه بالرصاص وأردوه قتيلاً وظل جثمانه حتى الظهر في الشمس ولم يجرؤ أحد أن يتقدم لدفنه . وعند الظهر تقدم علماء أسرة آل البرغاني والتحق بهم ابن خالته وعمائمهم في رقابهم حفاة الأقدام في موكب مهيب متوجهين إلى دار المترجم له والناس مصطفون على جوانب الشوارع ينتظرون حوادث خطيرة حتى دخل الموكب إلى داره الواقعة في شارع سپه وحمل جثمانه إلى ساحة البيت وغسل ثم دفن في سرداب داره مؤقتاً حتى تهدأ الأوضاع وتضع الحرب أوزارها وتنفيذاً لوصيته نقلت بعد ذلك رفاته إلى مثواه الأخير في بقعة الأنبياء « بيغمبريه » ورثاه جماعة من الشعراء ومنهم الشاعر القزويني المتخلص برفعت وهو العالم المتصوف الشيخ عباس علي الكيوان بقصيدة جاء فيها :

از گلشن ختم رسل وباغ مفيد	افكند گلى كه بود مسعودش نام
بگشود قضا كهان وازشست قدر	تيرى بطواف قلب أو بست احرام
رخ كرد سوى مضجع أصلى باشوق	تاريخ برفعت اين جنين شد الهام
با أول اعداد بميزان حساب	جوئى بجنان منزل شيخ الإسلام

١٣٢٧

ذكره والدي قدس سره في كتابه [الغرر والدرر] وترجمته في [كربلاء في حاضرها وماضيها] ومن آثاره ومآثره الباقية في قزوين مدرسة دينية عظيمة ومسجد كبير واقعين في شارع سپه بالقرب من داره والمدرسة والمسجد لا يزالان عامرين بالطلاب والمعلمين[1] .

الشيخ مسلم الجابري ابن الشيخ محمد .

ولد في النجف سنة ١٣٣١ .

توفي والده وعمره سنتان فكفله خاله ، ثم توفي الخال وعمر المترجم ثمان سنين فرعته والدته ووجهته وجهة خطابية حسينية ، فبرع في ذلك ، وتخرج من كلية الفقه في النجف ، ثم فاجأه مرض خبيث قضى عليه وهو في عنفوان نضوجه . وقد ترك عدة مؤلفات منها : شرح خطبة الزهراء عليها السّلام ، الغلط المشهور وقد ذكر فيه الكلمات اللغوية التي اشتهرت مغلوطة ، مجموعة شعره .

ومن شعره قوله من قصيدة :

زهرة قد جمع الله بها	كل طيب وجمال باهر
عرضتها روضة الحسن لنا	فتنة القلب وسحر الناظر
علقت روحي بها لما رأت	وجهها يزهو بحسن ساحر
أنا لو قبلتها لاحترقت	من زفيري وشعوري الثائر
كنت لا أعرفها فيما مضى	ليتني أجهلها في حاضري
ولع القلب بها فامتزجت	بدمائي ومشت في خاطري
لا تلمني إن أنا أحببتها	وأحبتني بقلب طاهر
فلأنا من وجود صانه	قدسه عن كل حس فاجر
إنما الحب شعاع قد سما	أفقه عن كل قلب داعر
زهرتي لا كالأزاهير فقد	خالفتها في الجمال الآسر
إنها أنشودة غنى بها	للهوى قيثار صب حائر
زهرتي إني لحن صاخب	يقحم الروح بسيل هادر
نخوتي سارت بصحبي مثلاً	وإبائي كالصباح السافر

وقال راثياً من قصيدة :

قد هد صرح للفضيلة عامر	فبكت علاه منابر ومنائر
وهوى من الإسلام ركن ثابت	وخبا من الإيمان نجم سائر
وتعطلت للعلم منه مدارس	واستوحشت للدرس منه محاضر
بكت الفضيلة مجدها بمدامع	يحكي غزارتها السحاب الماطر
يا ظافراً بالخلد وهو جزاؤه	عش خالداً أبداً وأنت الظافر
هذي نواظرنا تود لو أنها	ضمتك، كيف وأنت منها الناظر
هذي حياتك تزدهي بمآثر	غر ويشكرها الزمان الكافر
حاولت إصلاح الشباب بمنهج	في نوره يهدي الشباب الحائر
يا باعث الإصلاح عزماً ثائراً	ويحقق الإصلاح عزم ثائر
ما زعزعتك عواصف الجهل التي	هبت ولم يردعك قلب واغر
قد عشت لم تعلق بثوبك وصمة	ورحلت والأيام فيك تفاخر

الشيخ مصطفى زماني

ولد في مدينة نجف آباد بإقليم أصفهان عام ١٣٥٣ وتوفي سنة ١٤١١ في خم درس العلوم الدينية في مسقط رأسه ثم هاجر إلى قم ودرس على علمائها ، أسس عام ١٣٩٠ مجلة (بيام إسلام = نداء الإسلام) واستمر في تحريرها عدة سنوات وكانت تلك المجلة تربطه بشتى التيارات الفكرية كأندية الطلبة الجامعيين والمعلمين وغيرهم . قام بتأليف وترجمة عشرات الكتب الإسلامية[2] .

الحاجّ مظفر باكزاد

الفاضل الأديب البارع ، كان من أخصّ أصدقاء العلاّمة الكليناري المنشورة ترجمته في المجلد الثالث ، والمتوفى سنة ١٤٠٣ والمعاون له في بعض نشاطاته العلمية في تركيا .

له آثار مطبوعة ، وقد نقل بعض الكتب إلى التركي منها :

١ ـ الشهيد ، المطهّري .

٢ ـ أصول الدين ، للصّابري التّبريزي .

٣ ـ الأعمال الدينية ، له أيضاً[3] .

مظفر الدين شاه

« مظفر الدين شاه قاجار » . ملك إيران . ثاني أبناء « ناصر الدين شاه قاجار » . ولد سنة ١٢٦٩ هـ . وتوفي سنة ١٢٧٧ هـ ، وعندما كان في الثانية من عمره ، أرسل إلى أذربيجان والياً عليها . وأرسل معه « رضا قلي خان هدايت »[4] مربياً و « عزيز خان المكري »[5] القائد العام وكيلاً

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٢) الشيخ علي أكبر مهدي بور .

(٣) الشيخ محمد رضا الأنصاري .

(٤) أديب شاعر له مؤلفات .

(٥) من كبار العسكريين ومشاهيرهم .

و « الميرزا فتح علي خان صاحب الديوان »[1] معاوناً .

وفي أواخر ذي الحجة سنة ١٢٧٨ هـ ، وكان في التاسعة من عمره ، نصب ولياً للعهد . ولما وصل إلى منصب السلطنة كان قد أصبح شيخاً ضعيفاً منهوكاً مريضاً بلا إرادة .

وفي سنة ١٢٨٤ هـ ، وكان في الخامسة عشرة من عمره ، تزوج بابنة عمته « تاج الملوك » الملقبة بـ « أم الخاقان » بنت « الميرزا تقي خان أمير كبير » ، وأقيم لعرسه احتفال فخم جداً . وفي شهر صفر سنة ١٢٩٣ هـ ، وكان لا يزال ولياً للعهد ، غادر تبريز إلى طهران وأقام فيها . وفي تلك السنة طلق زوجته هذه .

ويوم كان « مظفر الدين شاه » مقيماً في تبريز ولياً للعهد عرف عنه أنه اتبع عقيدة الفرقة الشيخية . فبعث إليه « فرهاد ميرزا » عم أبيه برسالة نبهه فيها إلى هذا الأمر وقال في رسالته إن العلماء غير مرتاحين إليك ولا يحسنون بك الظن . ويجب عليك الاحتفاظ بالمظاهر ومراعاتها في كل الأمور .

في ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣١٣ هـ ، بعد انقضاء شهر وثمانية أيام من مقتل « ناصر الدين شاه » ، وصل « مظفر الدين شاه » إلى طهران قادماً من تبريز ، وتولى مهام الملك مع الصدر الأعظم « الميرزا علي أصغر خان أمين السلطان » .

كانت أوضاع إيران ، بعد « آغا محمد خان » مؤسس سلسلة الشاهات القاجاريين ، لا تنفك تزداد فساداً يوماً بعد يوم . والذين شبهوا « مظفر الدين شاه » بالشاه « سلطان حسين الصفوي » أحسنوا التشبيه . فقد كان شديد الغباء غير أهل للمسؤولية ضعيف النفس مهملاً . ومن ثم كان آلة بلا إرادة في يد البلاطيين والحواشي الطماعين النفعيين الذين لا تعنيهم شؤون المملكة في شيء .

وحين كان ولياً للعهد يقيم في تبريز استدعاه مرة أبوه « ناصر الدين شاه » إلى طهران ، وأقامه فيها ، وهو غاضب عليه . ثم جيء له بمعلم يعلمه الحساب . فقضى مدة طويلة لم يستطع أن يصل فيها إلى تعلم الطرح فضلاً عن الضرب والتقسيم . وكل ما كان يشغل فكره في تلك المدة هو تعلم لعبة الشطرنج ! ولم يكن يعجب أباه . قرىء عند أبيه مرة في إحدى الجرائد ثناء على ولي عهده هذا فنفر من ذلك وأمر بتغيير الموضوع .

وكان في حاشية « مظفر الدين شاه » أربعة رجال يسيطرون عليه هم الطبيب « الميرزا محمود خان » الملقب بـ « حكيم الملك » وفقيه عرف باسم « السيد البحريني » وابن لهذا السيد اسمه « حسين » ولقبه « بصير السلطنة » ووزير البلاط « حسين باشا خان » الملقب بـ « أمير بهادر » ، وهو من كبار العسكريين . فكان « مظفر الدين » يعد الأول حافظ صحته والثاني مستجاب الدعوة والثالث مسامره والرابع حافظ حياته . والأربعة يسارعون إلى المغنم من هنا وهناك أينما كان وكيفما كان !

كان هذا الشاه سليم النية عطوف الطبيعة كارهاً للشر وسفك الدماء ضعيف المزاج كثيب الخاطر ساذجاً سريع التصديق معدوم الإرادة لا يثبت على رأي ، كثير النسيان حتى أصبح لعبة في يد البلاطيين الفاسدين . وكان لا يمتنع عن الاستجابة لما يستاء منه الناس من طلبات يرفعها إليه الطماعون ، تُكْلَة عاجزاً عن الابتكار في العمل حتى أدت هذه الحال إلى تفاقم الفساد في أمور الحكم كلها . وأصبحت مناصب الحكم على الولايات والمحافظات وأمثالها من المناصب الحكومية توضع في المزاد علانية ، وابتذل الإمضاء الشاهاني حتى عاد لا اعتبار له . وكان لاحظ له من علم بالتاريخ والسياسة . قصير النظر . سيء الفصل في الأمور التي تعرض له . شديد الولع بمشاهدة « الشبيه » ، وهو تمثيل واقعة كربلاء في أيام المحرم . وكان على قدر لا بأس به من المهارة في الرماية ومعرفة أصولها . مفرطاً في حب القطط . لا يعجبه سلوك أبيه . كارهاً لكل شكل من أشكال القسوة والظلم . ولكنه ينقاد كل الانقياد لكل ما يكلفه به أنسباؤه ويذعن كل الإذعان لما يطمع فيه الأجانب من امتيازات في إيران واستثمار لها .

وفوق هذا كان « مظفر الدين شاه » يؤمن بالخرافات . رعديداً . وذكروا أنه كان يخاف خوفاً شديداً من العواصف والرعد والبرق والمطر . وكان يحتفظ بعباءة « السيد البحريني » في صرة خاصة يضعها في حقيبة عهد بها إلى ابنه « السيد حسين بصير السلطنة » يرافقه بها في حله وترحاله . فإذا وقعت ظاهرة من تلك الظواهر الطبيعية بادر فجاء بها فارتداها لائذاً بها .

ويروى أن « مظفر الدين شاه » لما سافر إلى أوروبا أول مرة رفض الصدر الأعظم الأتابك « علي أصغر خان أمين السلطان » ، وكان يرافق الشاه في سفره هذا ، أن يصطحبوا حامل العباءة معهم إلى أوروبا ، وأراد أن يبقيه في طهران ويتولى هو حمل العباءة بدلاً منه . ولكن الشاه أصر على اصطحابه . فبذل « أمين السلطان » لحامل العباءة « بصير السلطنة » مبلغاً كبيراً من المال ليرضى بالبقاء في طهران فلم يقبل . وانتهى الأمر إلى أن صحبهم إلى أوروبا .

ويروى أيضاً أن « مظفر الدين شاه » كان أحياناً يعطي « السيد البحريني » مبلغاً من المال ليفرقه على الفقراء . فكان « السيد البحريني » يحمل المال إلى بيته ، وينزع الثياب عن أجسام أبنائه ثم يعطيهم ذلك المال . فإذا لقي الشاه بعد ذلك قال له : لقد أعطيت المال من لا ثياب على أبدانهم تسترها .

ومن أقوال صدره الأعظم الأتابك « أمين السلطان » فيه : « لم أشتم أحداً من صميم قلبي قط . ولكني اليوم ، وقد جاء مظفر الدين ، أجدني مجبراً على اللعن . إذ لم يأتنا شاه على مثل هذه الحماقة . وقلما تجد أبله كهذا الأبله . في عهده أنزلوا بإيران كل ما استطاعوا إنزاله من النوائب . وأسلموا خزانة الدولة وعرض الأمة وشرفها إلى التبار » .

أعطى « مظفر الدين شاه » روسيا امتيازاً بإنشاء بنك رهون في إيران سنة ١٩٠٠ م الموافقة سنة ١٣١٨ هـ . وأعقب هذا الامتياز إقراض روسيا إيران مبلغاً من المال ، جُعل ضمانه وضع جميع الجمارك الإيرانية ، ما عدا جمارك الخليج ، في تصرف الروس . وعين هؤلاء من قبلهم موظفين اختاروهم من البلجيكيين وجعلوهم على إدارة أمور الجمارك . وأعقب هذا القرض قرض آخر في سنة ١٩٠٢ م الموافقة سنة ١٣٢٠ هـ كان شرطه إعطاء روسيا امتياز وصل بعض المدن الإيرانية ببعض بطرقات معبدة . وقد استغل

---

(١) من كبار حكام الولايات ومتولي الوظائف المهمة . ووظيفة « صاحب الديوان » كانت تطلق بمعنى « ناظر الميزانية العامة » . ومن أواسط حكم القاجاريين فما بعد أصبحت مجرد لقب لا تعني منصباً من المناصب .

رجال البلاط وحاشية « مظفر الدين شاه » جهله فجعلوا هذين القرضين نهبة بينهم في إيران وفي أوروبا في أثناء رحلاته إليها .

وأعطى هذا الشاه سنة ١٩٠١ م الموافقة سنة ١٣١٩ هـ الإنكليز امتياز استنباط النفط في جنوب إيران إلى مدة ستين عاماً في مقابل حصة زهيدة جداً من العائدات لإيران . ويسرت الأموال التي رشوا بها الإنكليز الصدر الأعظم « أمين السلطان » ووزير الخارجية وغيرهما من الكبار الحصول على هذا الامتياز .

وفي سنة ١٩٠٢ م الموافقة سنة ١٣٢٠ هـ عُدِّلت تعرفة الجمارك الإيرانية بما ينفع الروس ويضر بالإنكليز . وساعد على ذلك سراً الأتابك الأعظم « الميرزا علي أصغر خان أمين السلطان » . وأدى هذا العمل وأمثاله من الانحياز إلى الروس ومضادة الإنكليز إلى سلسلة من الفتن أثارها الإنكليز في إيران ، واستمرت إلى ما بعد وفاة « مظفر الدين شاه » حتى أنهت انكلترا وروسيا ما بينهما من تنافس على إيران بعقد معاهدة بينهما في ٣١ آب سنة ١٩٠٧ م الموافق ٢١ رجب سنة ١٣٢٥ هـ ، تقاسمتا بها النفوذ في المملكة الإيرانية بتحديد حدود معينة لكل من النفوذين . وفي نفس ذلك اليوم الذي عقدت فيه هذه المعاهدة اغتيل الأتابك الأعظم « أمين السلطان » صديق الروس ، وهو خارج من المجلس النيابي في عهد « محمد علي شاه » خليفة « مظفر الدين شاه » ! ويرى بعض المؤرخين أن « أمين السلطان » هذا كان يراهن على حياته يوم حقق تعديل التعرفة الجمركية الآنف الذكر . وجرّت تلك الإمتيازات التي أعطاها « مظفر الدين شاه » ذيولاً من الإمتيازات الأخرى للدولتين الأجنبيتين الطامعتين استمرت إلى أواسط سنة ١٩١٤ م الموافقة سنة ١٣٣٣ هـ .

سافر « مظفر الدين شاه » إلى أوروبا ثلاث مرات . وكل سفراته هذه كانت بقصد النزهة والاستجمام . ونفقاتها من تلك الأموال التي كانت تقترضها الحكومة الإيرانية من الأجانب ويجرّ اقتراضها وراءه تلك الإمتيازات التي أصبحت إيران تنوء بها . بل لم يكن الداعي إلى تلك القروض سوى توفير نفقات سفر « مظفر الدين شاه » إلى أوروبا .

وفي سفره الأول سنة ١٩٠٠ م الموافقة سنة ١٣١٧ هـ تعرض في باريس لمحاولة اغتيال ونجا منها . وروى أحد مرافقيه في سفره الثاني سنة ١٩٠٢ م الموافقة سنة ١٣٢٠ هـ أن ركوب البحر لعبور مضيق « بادو كاله » كان مصيبة على « مظفر الدين شاه » لما انتابه من رعب من ركوب البحر ، مع أن الماء كان ساكناً وسطحه كالمرآة والسفينة تمخر هادئة لا يصدر منها أدنى اضطراب . وكان حضور ابن « السيد البحريني » مطمئناً له بعض الشيء .

في كل ثلاث سنوات كان ينتابه هاجس السفر إلى أوروبا . ويحسن له ذلك ويحرضه عليه الفاسدون من البلاطيين ورجال الحاشية إذ كان هذا السفر موسم ربح ونزهة وإستجمام لهم .

وفي سفره الثالث ، وهو آخر سفراته ، أشاع أنه مسافر إلى مشهد لزيارة مقام الإمام الرضا (ع) ، ونصب ولي عهده « محمد علي ميرزا » نائباً عنه مدة غيابه . ولكنه اتجه إلى أوروبا بدلاً من مشهد . فأثار هذا العمل نقمة العامة عليه واستياءهم منه . وأغلقت الأسواق خمسة أيام إظهاراً للاستياء والاعتراض على هذا السفر . وتحصن كثير من التجار في مقام « شاه عبد العظيم » . وقام بسفره هذا سنة ١٣٢٣ هـ الموافقة سنة ١٩٠٥ م .

وتجمعت تلك التصرفات لتحمل العامة على كره هذا الشاه ، فمن جهة تبذيره المال عبثاً وولعه بالسفر إلى الخارج وتسلط الموظفين البلجيكيين والتعرفة الجمركية الجديدة واستغلال الأجانب أصحاب الإمتيازات للبلاد ، ومن جهة أخرى ظلم رجال البلاط والحاشية ظلماً تجاوز حد الاحتمال .

ومهما تكن الأسباب والدوافع التي أدت إلى إقرار النظام البرلماني في إيران فإن هذا النظام أقيم في زمن سلطنة « مظفر الدين شاه » ، قبل وفاته بعشرة أيام . وكان إقراره يوم ١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٢٤ هـ الموافق يوم ٥ آب سنة ١٩٠٦ م .

ملك « مظفر الدين شاه » عشر سنوات وسبعة أيام . وتوفي بطهران في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٣٢٤ هـ ، وهو في الخامسة والخمسين من عمره ، وقد انتابته أمراض مختلفة . ودفن جثمانه مؤقتاً في طهران ، ثم نقل بعدها إلى كربلاء حيث دفن في حرم الإمام الحسين (ع) . وخلفه على العرش ابنه ولي عهده « محمد علي ميرزا » .

السيد مظفر علي بن السيد مدد علي

ولد سنة ١٢٢٩ في قضاء لكهنو (الهند) وتوفي سنة ١٢٩٩ .

درس في بلدته ثم جاء لكهنو فأتم دراسته على أكابر علمائها ، ثم انصرف إلى السياسة والشعر . ترك ديواناً شعرياً . وترجم شعراً كتاب (حسن اليقين) ، ونسخة الترجمة موجودة في مكتبة واجد علي شاه في بلدة (ميتابرج) بالهند .

السيد الميرزا مفيد شيخ الإسلام ابن السيد الميرزا حسن شيخ الإسلام ابن السيد تقي شيخ الإسلام ابن السيد باقر شيخ الإسلام ابن السيد تقي شيخ الإسلام ابن السيد بهاء الدين شيخ الإسلام ابن السيد الأمير محمد شفيع شيخ الإسلام ابن السيد الميرزا بهاء الدين محمد شيخ الإسلام ابن الميرزا كمال الدين حسين شيخ الإسلام ابن عبد العال ابن السيد المير حسين الكركي العاملي القزويني وباقي النسب ذكر في الميرزا مسعود .

توفي حدود سنة ١٢٩٣ .

آل شيخ الإسلام : من مشاهير الأسر العلمية العلوية العاملية القزوينية بزغ بدر هذه الأسرة في أفق قزوين واشتهرت بعنوانها شيخ الإسلام الذي صار علماً لها منذ عهد جدهم السيد حسين الكركي العاملي سبط المحقق الكركي الذي هاجر من جبل عامل إلى قزوين في القرن العاشر للهجرة . ولقب شيخ الإسلام حملوه منذ عينوا به من قبل الملوك الصفوية حينما كانت قزوين عاصمة الدولة الصفوية وظلوا يتوارثونه خلفاً عن سلف . وأول من عين شيخ الإسلام من هذا البيت الجليل بمقتضى فرمان صفوي لا يزال موجوداً عند الأحفاد حتى اليوم هو السيد الميرزا كمال الدين حسين الذي ذكره في أعيان الشيعة في ترجمة حفيده السيد محمد شفيع وقال (. . . السيد كمال الدين حسين شيخ الإسلام بقزوين ابن عبد العالي ابن المير السيد حسين الكركي العاملي سبط المحقق الكركي . . .)[1] .

(١) انظر أعيان الشيعة ج ٩ ص ٣٦٤ بيروت دار التعارف .

نبغ من هذه الأسرة الجليلة علماء أعلام وشعراء أفذاذ وفقهاء مراجع وزعماء عرفوا بعلو الهمة والصلاح ووصفوا بالعفة والآباء والكرم والأخلاق الحميدة . منهم شيخ الإسلام السيد المير محمد شفيع الأول المتوفى سنة ١١٢٥ وشيخ الإسلام السيد محمد شفيع الثاني المتوفى سنة ١٢٠٠ صاحب كتاب محافل المؤمنين في مستدرك مجالس المؤمنين والسيد الميرزا مسعود شيخ الإسلام المتوفى سنة ١٣٢٧ صاحب المدرسة المسعودية وغيرهم الآتي كل منهم في محله إن شاء الله .

ولد المترجم له في قزوين في بيت علم ورياسة ونشأ نشأة عالية فتلقى مقدمات العلوم والصرف والنحو والعربية وفنون الأدب عن رجال أسرته وأعلام قزوين منهم والده شيخ الإسلام بقزوين ثم حضر في الخارج على الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وشقيقه الشهيد الثالث المستشهد سنة ١٢٦٣ وأخذ الفلسفة والعرفان على الاخوند الشيخ آغا الحكمي القزويني ولازم الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري واختص به وتزوج ابنته العالمة الفاضلة خديجة سلطان خانم المار ذكرها وانتهى إليه منصب شيخ الإسلام بعد وفاة والده وتصدر كرسي التدريس والفتوى وكان من أكابر زعماء الدين وفرسان البيان ومتكلمي الشيعة .

خلف المترجم خمسة أولاد ذكور من زوجته خديجة سلطان بنت الشيخ محمد صالح البرغاني وهم السيد الميرزا بزرك والسيد الميرزا منصور والسيد الميرزا محمود وهؤلاء الثلاثة مالوا إلى الشيخية . والسيد الميرزا مسعود والسيد الميرزا إسماعيل كانا على عكس ذلك . . . وانتهى منصب شيخ الإسلام بعد وفاة المترجم له إلى ولده السيد الميرزا مسعود شيخ الإسلام المقتول في سنة ١٣٢٧ على يد المطالبين بالانقلاب الدستوري (المشروطة) وهو صاحب المدرسة المسعودية في قزوين المار الذكر وقد رأيت وقفية مكتبة المترجم التي خصص لها جناحاً ضخماً من داره وموقوفات كثيرة وجعل التولية بيد ولده السيد الميرزا مسعود شيخ الإسلام والنظارة لولده السيد الميرزا إسماعيل وقد صرح في الوقفية باستيائه من أولاده الثلاثة الذين مالوا إلى الشيخية ونص فيها على أن ليس لهم الحق في التصرف أو المداخلة في مكتبته العامة وله مؤلفات وبعض الحواشي والتحقيقات موجودة عند أحفاده في طهران وقزوين وله آثار أخرى منها سوق في قزوين معروف بقيصرية شيخ الإسلام لا يزال في تصرفهم[1] .

الشيخ المقرىء أبو الحسن ويقال أبو محمد مقاتل بن عبد العزيز بن يعقوب البرقي المصري نزيل الإسكندرية .

ولد سنة ٥٠١ وتوفي في الإسكندرية في السادس من شعبان سنة ٥٧٩ ودفن بها .

مفسر شيخ مقرىء معروف في مصر هاجر من إيران وسكن مدينة الاسكندرية وأخذ العلم عن جماعة منهم : الشيخ جعفر بن إسماعيل بن خلف النحوي المصري نجل مؤلف كتاب العنوان المتوفى سنة ٤٥٥ ويروي المترجم له كتاب العنوان عن استاذه الشيخ جعفر النحوي ابن المؤلف وهو يروي كتاب العنوان عن والده . ذكره شيخنا في طبقات أعلام الشيعة وقال (. . . ولعلّ المترجم له من أحفاد البرقيين القميين)[1] وترجمه أيضاً الشيخ شمس الدين محمد الجزري المتوفى سنة ٨٨٣ في كتابه (طبقات القراء) ج ٢ ص ٣٠٨ وغيرهما[2] .

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

ملا مقيم المعروف بـ (مقيما) والمشتهر بـ (فوجي) .

توفي في نيسابور سنة ١٠٧٥ وكان له من العمر اثنان وأربعون سنة .

من أسرة نيسابورية تسلسل فيها الشعر ، فأبوه ملاقيدي ، وأخوته (عظيما) و (كريما) من الشعراء . وقد سافر أبوه ملاقيدي إلى الهند في عهد شاه جهان وفي رجوعه من مدينة (فوز عظيم) سنة ١٠٦٤ توفي ، كما يروي ابنه ملا عظيما .

على أنه يقال أن ابنه المترجم ملا مقيما كان قد سافر إلى الهند قبل أبيه وكان يسكن في مدينة أوريسة ، وكان ملازماً للحاكم جان بيك ، وكان يزور ابن الملك مراراً في مدينة مولتان (السند)، وتملك فيها بستاناً سنة ١٠٥٣ .

ومهما يكن من أمر فانه بعد إقامة عدة سنين في الهند والسند سافر إلى مكة ثم إلى كربلاء والنجف ، وعاد من هناك إلى أصفهان ، ثم إلى موطنه نيسابور .

وفي أصفهان التقى نصير آبادي الذي يصف المترجم ببساطة الشعر ولطف البيان .

توجد نسخة من ديوانه في مكتبة المتحف البريطاني ، وفيه خمسة آلاف بيت ، ما بين قصيدة ورباعيات وغزل .

وله قصائد في مدح الأئمة عليهم السّلام ، وفي مدح مراد ابن الملك ومدح جان بيك ، وفي غزلياته وقصائده أفكار عرفانية ، واسلوبه في غاية السلاسة . وهو يشبه في شعره أشعار الخاقاني والأنوري .

مكي بن أحمد بن سعدويه البرذعي .

لم أقف على تاريخ ولادته ووفاته إلا أنه كان من أكابر علماء الشيعة في أوائل القرن الرابع للهجرة أخذ الفقه والحديث والفنون الإسلامية على أفاضل علماء عصره ويروي عن جماعة منهم إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد بن مسيب البيهقي وأبي عمير عديّ بن أحمد بن عبد الباقي وأبي منصور محمد بن القاسم بن عبد الرحمان العتكي .

ويروي عن المترجم له الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أحمد الأصفهاني الأسواري الذي كان من مشائخ الشيخ الصدوق المتوفى سنة ٣٨١ .

والمترجم له من أسانيد كتاب التوحيد للشيخ الصدوق في (دعاء يا من أظهر الجميل) وحديث الديك وغيره من الأحاديث . ذكره شيخنا الأستاذ في طبقات أعلام الشيعة[2] .

مهدي جلالي

ولد بطهران عام ١٢٨٧ ودرس بها في مدرسة دار المعلمين العالية ونال شهادتها ثم سافر إلى أمريكا ودرس هناك علم النفس وحاز على الدكتوراه من

(٢) الصالحي .

جامعة كولومبيا ثم عاد إلى طهران ودرّس في مؤسساتها التعليمية العليا . يعد الدكتور جلالي رائد علم النفس الحديث ومؤسسه والمروج له في إيران وله تأليفات عديدة في هذا المجال(١) .

السيد مهدي حسين الشهير بآقا أبو صاحب

ولد سنة ١٢٥٠ وتوفي سنة ١٣٣٦

اشتهر بلقبه ولم يعرف إلا به . كان عالماً جليلاً تقياً أديباً ، من علماء مدينة لكهنو بالهند .

بنى مدرسة كبيرة في لكهنو لطلاب العلوم الدينية سماها (سلطان المدارس) تخرج منها العلماء والفضلاء والأدباء والشعراء ، ولا تزال قائمة حتى الآن تؤدي رسالتها .

وقد وجد له تقريظ لكتاب (بغية الطالبين) لمؤلفه السيد حيدر علي يدل على اجادته اللغة العربية .

مهرداد أوستا

ولد سنة ١٩٣٠ في بروجرد (إيران) وتوفي بطهران سنة ١٩٩٠ م .

نشأ في بروجرد ودرس فيها ، ثم انتقل إلى طهران ، وفيها عُرف شاعراً أديباً . له من الدواوين الشعرية : (ثيرانا) ، و (شراب خانگي) ، و (ترس محتسب خورده) ، و (بالَيزبان) .

وكان آخر ما نظمه : (إمام حماسه أي ديگر) .

حقق ديوان سلمان ساوجي ، وعلق على (نوروز خانه خيام) ، وكتب في قواعد اللغة الفارسية .

تولى تدريس الأدب والشعر في كلية الفنون الجميلة بطهران ، وفي سنة ١٩٨٤ صار رئيساً للقسم الشعري في وزارة الإرشاد والثقافة .

الشيخ موسى العصامي ابن محسن .

ولد سنة ١٣٠٥ في النجف وتوفي سنة ١٣٥٥ في كربلاء ودفن في النجف .

نشأ في النجف ودرس فيها ، ثم تولى الوكالة عن بعض المراجع في بعض المدن العراقية . ثم سكن كربلاء وعاش فيها فقيراً مريضاً حتى وفاته .

وقد ترك عدة مؤلفات منها : تاريخ الثورة العراقية ، الدراية في تصحيح الرواية ، كتاب في الكلام وغيرها .

ومن شعره قوله في رثاء الحسين (ع) من قصيدة :

تموت ولم تبكك البارقات ... ولا السمر والضمر الشزب
ولا لف ألوية النيرين ... لشارك فيلقه مرهب
وللشمس أعلامها عثير ... به المشرق أسود والمغرب
ولا حطم الخط مطرورة ... طعان وغاه لظى تلهب
ولا اعترضت في صدور السراة ... عوال لأرواحها تسلب
ولا الصافنات لبسن الحداد ... وطاف بها مأتم يندب
ولا بسريرك قام الرديف ... وعزت به عزها يعرب
ولا بين احيائها صارخ ... ولا في المحافل من يخطب
كأنك لست زعيم العلى ... ولا أنت غالبها الأغلب
ألست عماد وجود الوجود ... فكيف استقام فلا يقلب
سأنعاك ليلة لا صارخ ... سوى البيض بارقة تنتحب
وأبكي بأعين شهب السما ... دما في مجرتها يسكب
وأصرخ في غارة صبحت ... بشارك كل الورى تطلب
بجمع طلائعه المنجدات ... يغار بها سبسب سبسب
وتوقد نيرانها الممكنات ... وما في الوجود بها يحطب
أحاطت به وبست الجهات ... أحاط بها الخطر المرعب
رأت منه قلة أنصاره ... فظنت بكثرتها ترعب
وسامته يخضع وهو الأبي ... وأنى يقاد لها المصعب
فناجزها الحرب في فتية ... لهم باللقا شهدت يعرب
بها ليل تحسب أن الردى ... إذا جد ما بينها ملعب
لها الموت يحلو خلال الصفوف ... وما مر من طعمه يعذب
سواء عليها الفنا والحياة ... إذا استرجع التاج والمنصب
لهم دون مركزهم موقف ... إلى الحشر نادبه يندب
أشادوا الهدى فوق تاج الأثير ... ومبنى الضلال به خربوا

وله يمدح الإمام علياً (ع) من قصيدة :

تاهت بمعناك الورى وتحيرت ... فيك العقول فلم تكن لك تعرف
ولقد تجلت من علاك أشعة ... في الخافقين بها البصائر تخطف
فعمى بها قوم وأبصر معشر ... وجه الحقيقة واستهام المدنف
فقلتك طائفة وأخرى فيك قد ... غالت وقد هلك الجميع وأسرفوا

وقال وهو على فراش مرض الموت مصوراً بؤسه وحياته :

كم ليلة سهرت بها عين امرىء ... سلبته أيدي الظالمين قراره
يطوي الدجى متململاً في حسرة ... فتت مرارته واذكت ناره
وجلا كئيب النفس خاطر ليله ... بحياته فيه وخاف نهاره
لا يعرف الملوين أيهما له ... أهدى وأيهما يعز جواره
لا يستغاث ولا يرى من منجد ... إلا دموعاً تكثر استعباره
قعد الزمان وأهله عن نصره ... ولطالما كان الملا أنصاره
أتراه في أطواره اختار البلى ... فيها أم الباري إليه اختاره
أم أن أسباب الوجود تزاحمت ... أطوارهن فغيرت أطواره
وجرى التجارب في تفاعله له ... في الكائنات فبدلت أفكاره
دعها فتلك سفاسف وزخارف ... قيلت بذات مثلت ادباره
بالأمس كان وكل طرف طامح ... لشعوره ويرى الرقي شعاره
كان المفدى في النفوس إذا بدا ... واليوم تكره نفسه أخباره
وإذا تترست المحافل خلته ... بدراً أشاع بصدرها أنواره
واليوم غاب النجم عنه ولم يغب ... إلا عفاه فأنكرت آثاره
أي النفوس ترد عن صرح العلى ... سقطت ويرقى غيرهن مناره
وإذا الأمور لها بصرف طباعها ... حكم فقد عم الوري اجباره
قف واترك المسعى فدونك حاجز ... إلا إذا ما بدلت ادواره
وعلام قولك ذا قبيح يختفي ... منه وذا حسن تود جهاره

(١) الشيخ محمد رضا الأنصاري .

وله من قصيدة يمدح بها صديقه الشيخ محمد جواد الجزائري وكان من أبرز وجوه النجف علماً وشعراً وكفاحاً وصلاحاً ونصرة للحق :

يـا شامخاً فوق هـام المجد مـوضعـه ... عـطفاً معنـاك طول الهجـر يـوجعـه
مـاذا يضرك لـو تعفـو فتسمـح لي ... عـما جنيت وعبء الـذنب تـرفعـه
قـاطعتني لعـظيم الجـرم وهـو لـدى ... خـطير عفـوك سهـل حـين اصنعـه
جـد للمعنى فـما أبقى الغـرام بـه ... إلا صبـابـة وجـد فيـك يسفعـه
حـيران يهتف ما غـير الصـدى سرع ... لصـوتـه من مجيب حـين يـرفعـه
وإن تبلج وجـه الصبـح خـالـطه ... من وجـده حـين يبـدو مـا يـروعـه
يئن لا الـورق لـو أنت عـلى وكن ... بنعي ثكـلى يهـد الـطود مسمعـه
وإن حـدا ركب بغداد دجى وسرت ... أيـانـق الحي راح الـقلب يـتبعـه
واهي القـوى غير إني لـو تهب صبـاً ... صبـوت نحو شـذاها حـين تشرعـه
يـا نـائيـاً ويـا حشـاء المحب لـه ... دار ودان وفي بـغـداد مـربـعـه
ويـا رعى الله أيـامـاً سررت بهـا ... والبشر من وجهك الوضـاح مطلعـه
طلق المحيـا إذا ركب الرجـا وفـدت ... لـه وكـل بنجـح القصـد يـرجعـه
فتى يـرى النـاس كـلا واحـداً وإذا ... خـادعتـه لسخـاء النفس تخـدعـه
حاز السخا والندى مع ما خصصن به ... من مكـرمـات لهـام المجـد تـرفعـه
ذو فكـرة طـالما خـاض الخفـاء بهـا ... فـأوضحـت كـل معنى فيـه تجمعـه
ومـا نشـا العـلم إلا وهـو والـده ... وإن يكن قبـل هـذا كـان يـرضعـه

منوجهر بوزرگمهر

ولد عام ١٣٢٥ هـ وتوفي سنة ١٤١١ . درس في بـريطانيـا ثم عاد إلى إيران وخدم في وزارة التعليم ثم صار أستاذاً في جامعة طهران . يعد بزرگمهر من المترجمين البارعين في مجال الفلسفة حيث قـام بترجمـة ١٥ كتاباً من أصول كتب الفلسفة الأوروبية إلى اللغة الفارسية[١] .

ناصح الدين ، أبو الفتح ، عبد الـواحد بن محمّد بن عبد الـواحد التّميمي الآمدي .

قـاضٍ من أهل ديـار بكر من مشـايخ رشيد الدّين محمّد بن عـلي بن شهرآشوب المتوفّى سنة ٥٨٨ هـ . تـرجمه في « معـالم العلماء » وصرّح بروايتـه عنـه في المناقب ، وصرّح بتشيّعـة عند ذكـر طرقـه إلى كتب الأحاديث وجـزم بتشيّعه الأفندي في الرّياض والنّوري في خاتمة المستدرك .

وقد عدّه جماعة من الفضـلاء من جملة أجلّة العلماء الشيعة ، منهم ابن شهر آشوب في المناقب كما تقدم .

والآمـدي ينسب إلى « آمد » بكسر الميم ، وهي أعـظم مدن ديـار بكر وأجلّها قدراً وأشهرها ذكراً[٢] .

أرّخ وفاته « سركيس » في « معجم المطبوعات » سنة ٥١٠ هـ وذكر أنّه نقـل اسم المؤلّف عن كتاب مخطوط ، تـاريخ كتـابتـه ١٠٠٧ هـ[٣] وتبعـه الخياباني[٤] ولكنّ المحدّث الأرموي رجّح ما ذكـره البغدادي من أنّـه توفّي في حدود سنة ٥٥٠ هـ .

من آثاره :

١ ـ غـرر الحكم ودرر الكلم من كـلام أمـير المؤمنـين عـلي بن أبي طالب (ع) ، شرحه السيّد جمال الدين الخوانساري المتوفى سنة ١١٢٥ وطبع في سبع مجلّدات بتحقيقات وفهـارس فنيّة للمحدّث الأرمويّ وأكمله العلّي البغـدادي واسماه : « الجـواهـر العليّـة في الكلمات العلويّـة » جعله تكلمـة « للغـرر الآمـديّـة » ثم انتخب بنفسـه عن « الجـواهـر العليّـة » كتـابـاً سمّاه « منتخب الجواهر » .

٢ ـ جـواهر الكـلام في شرح الحكم والأحكام ، من قصّـة سيّد الانام عليه الصلاة والسلام وقد نقل الأفندي عن الأربلي في تاريخ أربل ، في تـرجمة « أبي عبد الله الهبشي » أنّه سمـع هذا الكتـاب عن المؤلّف[٥] . وقد عـبّر عنه البغـدادي بـ « الحكم والأحكـام من كـلام سيّـد الأنـام »[٦] وهـو الآن تحت الطبع في إيران[٧] .

ناصيف النصار

مرت ترجمتـه في المجلد العاشر من (الأعيـان) ، كما مـر بحث عنه في المجلد الأول من (المستدركات) ، ودراسة في المجلد الثالث منها .

وننشر هنا هذه الدراسة المكتوبة بقلم الدكتور حسين سلمان سليمان .

أود أن أشـير في مستهـل هـذا البحث إلى المصـاعب التي تعـترض الباحث في تاريخ بلاد الشـام عمومـاً وجبل عـامل خصـوصـاً ، خـلال معظم الفترة التي خضعت فيها للحكم العثماني (١٥١٦ ـ ١٩١٨) ، بسبب غياب المصادر الأصلية لتلك الفترة التاريخية ، فرغم الحـركة الفكـرية والعلميـة التي عرفها جبلُ عامل في ذلك الـزمن ، نلاحظ نـدرة المشتغلين من أبنائـه في علم التـاريخ ، وإعـراضهم عنه وانصرافهم إلى علوم الـدين من فقـه وتـوحيـد . ونميلُ إلى الاعتقاد بأن هذا النقص إنما هو نتيجةٌ لما أصاب البلادّ العاملية بعـد احتلالِها من قِبَـلِ أحمـد بـاشـا الجـزار ، ومـا أعقب ذلـك . من مصـادرتـه للمكتباتِ العاملية ، التي كانت تغص بالكتب والمخطوطات الثمينة . ونـأمل أن يتم سد هذا النقص ، مع نشر مزيدٍ من الوثـائقِ المحلية والأوروبيـة لتلك الحقبةِ التاريخية .

وإلى أن يتم ذلك فخيرٌ لنا أن نعرجَ من التـوقف عن المشي كلياً ، وإذا كان التعمق التاريخيُّ ضرورة ، والمادة العلميةُ أقلَ وفرةً مما نرغبُ ونتمنى ، فما هذا بعذرٍ مقبولٍ لتجنب الموضوع .

وسـوف يكون إطـار بحثنا للفـترة التاريخيـة الممتدة من منتصف القـرن الثامن عشر لغاية نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر ، مع التركيز عـلى الموقف العاملي من العثمانيين بعد نهاية الشيخ ناصيف النصّار سنة ١٧٨١ .

لم تشكل حدودُ لبنان الحاليـةُ مجتمعاً سيـاسيـاً واحـداً خلال الإمـارتين المعنية والشهابية ، ولكن عاشَ سكانُها منذ قـرونٍ في أقاليمَ منفصلة ، لم تكن تحمـلُ اسمـاً واحـداً ، ولم تستعمـل كلمـةُ لبنـانَ بـالمعنى الـرسمي المحـدد

(١) الشيخ محمد رضا الأنصاري .
(٢) معجم البلدان ج ١ ص ٥٦ .
(٣) طبقات أعلام الشيعة ، القرن السادس ص ١٦٩ .
(٤) ريحانة الأدب ١ .
(٥) رياض العلماء ج ٣ ص ٣٨٤ .
(٦) هدية العارفين ج ١ ص ٤٣٥ .
(٧) الشيخ علي أكبر مهدي پور .

المضمون ، إلا بعد إنشاءِ المتصرفيةِ اللبنانية سنة ١٨٦١ ، فقد عُرِفَ المعنيون باسم أمراءِ الدروزِ لا أمراءِ لبنان ، وكذلك عرف خلفاؤهم الشهابيون ، رغم أن هؤلاء لم يكونوا دروزاً ، ولكن من السنةِ الذين تنصروا فيها بعد(١) .

وقد أطلقت عبارة جبلُ لبنان على المقاطعات الجبلية الشمالية (جبة بشري وجبيل والبترون) ، ولم يستعمل العثمانيون هذا التعبير في مراسلاتهم السياسية مع أمراء لبنان ، لأن الاسم لم يكن متداولاً إلا بين الموارنة ، الذين لم يكن لهم كيان سياسي خلالَ الفتحِ العثماني ، بعكس الدروز الذين برز زعماؤهم كقادةٍ سياسيين في غرب سوريا(٢) . وعُرفت المنطقة الممتدة إلى الشمالِ من طرابلس باسم عكار ، وأغلب سكانها من المسلمين ، شاركوا في كثير من الأحيان في الأحداثِ السياسيةِ التي كان مسرحُها مقاطعاتِ المرتفعات الجبلية اللبنانية . في حين أُطلِقَ جبلُ الدروزِ أو جبلُ الشوفِ على البلادِ التي تشكلُ نصفَ دائرةٍ ، طرفُها الأول شمالاً في جبيل والثاني جنوباً في صيدا(٣) ، وقد عرفت بهذا الاسم على الصعيدين الرسمي والشعبي(٤) ، ومع ازديادِ هجرة موارنةِ الشمال إلى جبل الدروز ، شاع منذ نهاية القرن الثامن عشر ، استخدام عبارة « جبل لبنان » للدلالةِ على الإمارةِ بكاملِها(٥) . أما رسائلُ التنصيبِ التي كانت تُرسَلُ إلى الشهابيين ، فكانت توجهُ إلى جبلِ الشوفِ أو جبلِ الدروز ، واستمر هذا الأسلوبُ متبعاً حتى أواخر حكمِ الشهابيين سنة ١٨٤١(٦) . أما المنطقةُ الممتدةُ وراءَ صيدا فقد عرفت باسمِ جبل عامل ، وأطلقَ على البلاد التي تتصلُ بها شرقاً اسم إقليمِ وادي التيم ، وهي مهد آل شهاب(٧) . وقد ارتبط تاريخ هذه المناطق التي أشرنا إليها ارتباطاً وثيقاً ، بحيث غالباً ما كانَ ينعكسُ الحدثُ التي تصادِفهُ إحداها على الأخرى .

وقد قسمت هذه الأقاليم إلى إقطاعياتٍ محددة المساحة ، تولى على كل منها إقطاعيٌ من عصبيةٍ محليةٍ يحمل لقب أمير أو مقدم أو شيخ ، وهو ذو سطوةٍ ونفوذٍ على سكانِ مقاطعته ، الذين يقفونَ إلى جانبه عند حاجته إليهم ، ولا يخالفونَه بشيء . ويتبع هؤلاء المقاطعجية (المناصب بلغة ذلك العصر) ـ زعيم قبلي أعلى ـ (أمير حاكم في جبل الدروز) و (شيخ مشايخ في جبل عامل) ـ يلتزمون هذه المقاطعاتِ من الوالي العثماني مقابلَ مبلغٍ على المقاطعات ، فيقوم المقاطعجيةُ بجبايتها من رعاياهم(٨) ؛ وهذا أحد مظاهر الإلتزام الذي طبقتهُ الدولةُ العثمانيةُ في العديد من الولايات . كما يتوجبُ على لأمير الحاكمِ أو شيخ المشايخ ، بالإضافة إلى هذا الواجب ، أن يقدم خدماته العسكرية حين تدعوه الدولة إلى ذلك ، فيحضرُ ومعهُ أتباعهُ بالسلاح والرجال ، وعرف هذا الواجب بالإقطاع العسكري(٩) .

وهكذا يتبينُ لنا مما تقدم ، بأن السلطة العثمانية لم تفرضْ حكمَها المباشرَ على هذه الأقاليم ، بل طبقت عليها سياستها في معاملةِ الولايات الجبلية الوعرة ، أو البعيدةِ عن قلبِ السلطةِ المركزية ، وبأنها جمعت في حكم لبنان نظامين إقطاعيين اعتادت أن تطبّق أحدهما أو الاثنين معاً ، في مناطق تتمتع بوضعٍ جغرافي شبيه بلبنان ، مثلُ كُردستانَ وشبهِ جزيرة العرب ، وذلك بجعلِ الحكم العثماني فيها اسمياً أو سطحياً بمعنى أنها لم تكن ترسلُ إلى أقاليمها تلك حكاماً عثمانيين ، وإنما فقط تعترفُ بوجودِ زعيمٍ قبلي أو عسكري أو إقطاعي يحكم باسم السلطان ، ويدفعُ في كل سنةٍ الميري والجزية المقررة عليها ، ويحافظُ على النظام بين السكان(١٠) . وإذا بلغ أحدُ هؤلاء الزعماء درجةً من القوة والنفوذ ، ونزعَ إلى الاستقرار وشكل خطراً على جيرانه ، كانت السلطةُ المركزيةُ في الآستانة أو في الولايات ، تتذرعُ بالصبرِ وتنتظرُ الفرصةُ المناسبةُ للإيقاع به . وذلك لاقتناع أولئك المسؤولين بأن القضاء على جميع المتمردين في وقتٍ واحدٍ أمرٌ صعبٌ ولا نهايةَ له ، ويتطلبُ أموالاً وفيرةً وقواتٍ غفيرة . كما أن الإخفاق قد يؤدي إلى استمرار المتمردين في عصيانهم ، وإلى زوال سطوة الدولة وهيبتها ، لذلك كانت السلطاتُ العثمانيةُ تثيرُ على هؤلاءِ جيرانهم أو أقرباءهم أو أبناءهم أنفسهم(١١) .

ولم تكن الأقاليم المشارُ إليها تخضعُ مباشرةً لسلطة حاكمةٍ واحدةٍ تأتمرُ بأمرها ، ولكنها خضعت إلى سلطاتٍ عديدةٍ موزعةٍ ما بين ثلاثة ولاةٍ عثمانيين ، يفرضونَ أحياناً سلطَتهم المباشرة على رعاياهم في عواصم ولاياتهم (دمشق وعكا وطرابلس) ، وأحياناً أُخرى عن طريق وكلاء عنهم . في حين كانوا ينيبونَ عنهم متسلمين بالمدن الساحلية الكبرى(١٢) ، ويلزّمون إدارة المقاطعات الجبلية إلى زعيم عصبيةٍ محلية ، أحد بكوات آل الأسعد المرعبي في عكار ، أمراء آل حرفوش في بلاد بعلبك ، أمير شهابي في وادي التيم ، وآخر في جبل الدروز ونواحي مقاطعة جبيل ، ومشايخ آل علي الصغير في جبل عامل .

وقد سار العثمانيون في حكم جبل عامل على السياسة نفسها ، المتّبعة في إدارة الولايات الجبلية الوعرة ، فقد كانت تلك البلادُ تتبعُ ولاية صيدا في

---

(١) كمال سليمان الصليبي . تاريخ لبنان الحديث . مترجم ، الطبعة الثالثة بيروت ، دار النهار للنشر ١٩٦٧ . ص ١٣٤ ، محمد جميل بيهم . عروبة لبنان وتطورها في القديم والحديث . بيروت : دار الريحاني والنشر ، ١٩٦٩ ، انظر ص ١٩٦ .

(٢) HARIK, ELIYA, politics and changes in a traditional societies, princeton; University press. 1968. p. 16.

(٣) ESMAIL, ADEL, Documents Diplomatipues... ed, des Oeuvres politiques et Historiques, Beryrouth; 25t. 1975- 1983. t9 p.84.

(٤) HARIK. op. cit, p.15.

(٥) كمال الصليبي . مرجع سابق ، ص (١٢ ـ ١٣) .

(٦) راجع نص الفرمان في :

TESTA. (I. Baron de), Recueil des traités de la porte Ottoman avec les puissances étrangérs. 10 vols, 1892- 1894. t.3 pp (83-84).

(٧) ISMAIL. op. cit. t.9 p.104.

(٨) نظام الالتزام . أي أن السلطات العثمانية كانت تبيع حكام الولايات مناصبهم بالالتزام ، مقابل مبلغ معين يدفع بعضه مقدماً والبعض الآخر أجلاً ، ثم يقوم الملتزم بدوره بتلزيم مقاطعات ولايته أو أجزاء منها إلى ذوي النفوذ فيها . لمزيد من المعلومات انظر : عبد العزيز شناوي . تاريخ أوروبا في العصر الحديث . القاهرة ١٩٦١ . ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥ .

(٩) الإقطاع العسكري . أطلق عليه في التركية اسم « السباهية » وهم رجال من الجيش منحوا إقطاعات متباينة المساحة للإستقرار فيها وزراعتها ، مقابل الخدمة العسكرية حين تدعوهم الدولة إلى ذلك ، فيلبون النداء مع أتباعهم مزودين بالخيل والسلاح ، ويتوقف عدد أتباع كل إقطاعي على مساحة الأرض المقطعة له ومقدار مواردها . انظر : هارولد بون وهاملتون غب . المجتمع الإسلامي والغرب . تر . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، جزءان ، القاهرة : دار المعارف ١٩٧١ ، راجع ج ١ ص (٦٧ ـ ٦٩) .

(١٠) نقولا زيادة . أبعاد التاريخ الحديث (القاهرة) : جامعة الدول العربية ، قسم البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية ، ١٩٧٢ ، ص ٣٤ .

(١١) فرنسوا ، تشاسبوف فولني . سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر . تر . حبيب السيوفي ، جزءان المجلة المخلصية صيدا ، ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ ، ج ١ ص (٦٦ ـ ٦٧) .

(١٢) المتسلم شغل هذا المنصب موظفان كان كلاهما بمثابة نائب للوالي العثماني فقد أطلق هذا اللقب على حكام السناجق والمقاطعات الصغيرة أو المدن الهامة ، وأيضاً على نائب الوالي في عاصمة الولاية ، وكانوا يقومون بجباية الأموال ويرسلونها إلى الحكام الأصليين .

الفترة موضوع البحث . وكان يتولى إدارة مقاطعاتها مجموعةٌ من المشايخ ، يقيم كلٌ منهم في إحدى تلك المقاطعات مع أتباعه المزارعين ، الذين يتعهدون أرض المقاطعة لحسابه(١) . وينتمي هؤلاء المشايخ إلى ثلاث عائلات إقطاعية لها السيادةُ الأولى في تلك البلاد ، وهم بنو صعب في مقاطعة الشقيف، وبنومنكر في الشومر والتفاح وآل علي الصغير في مقاطعة بلاد بشارة ، وكان بمقدور كلِّ شيخ عند الحاجة أن يجند من مئتين وخمسين إلى ثمانمائة رجل ، إذا اجتمعوا معاً يشكلون قوة قتالية قوامها تقريباً ستة آلاف مقاتل ، مُعظمهُم من الفرسان اشتهروا في كل سوريا بشجاعتهم النادرة ، التي شهد لهم بها معاصروهم من الفرنسيين(٢)، فقد أشار إلى ذلك الدبلوماسيُّ الفرنسي باراديس (Paradis) بقوله :

« شاهدناهُم يقاتلون بترتيبٍ ونظامٍ ، مما جعلهُم ينتصرونَ على أعدائِهم الذين يفوقونهم عدداً . . . » .

وشهد جبل عامل في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ازدهاراً اقتصادياً بارزاً ، نتيجة لنشاط التجار الأوروبيين وبخصوصاً الفرنسيين منهم في بلاد الشام الجنوبية وتشجيع التجارة معهم ، فاهتم السكان بزراعة القطن والتبغ بعد أن وجدوا أسواقاً لها لدى الفرنسيين بالإضافة إلى مصر(٣) . كما أخذ التجار الفرنسيون يتصلون مباشرة بمشايخ القرى ، وصاروا يدفعون لهؤلاء ثمن قطنهم مُقدماً ، فأدت هذه العلاقة إلى ازدياد المساحة المزروعة قطناً ، واشتهرت بلدة أنصار بجودة إنتاجها من هذا المحصول(٤) .

وبازدياد مداخيل مشايخ جبل عامل نمت قوتهم العسكرية وازداد نفوذهم السياسي ، وتزعمهم شيخ المشايخ ناصيف النصار الذي اتخذ من قلعة تبنين مقراً له(٥) . واستطاع مع باقي المشايخ من ترميم القلاع العاملية وتزويدها بالأسلحة والذخائر ، وتمنعوا عن دفع الضرائب إلى والي صيدا كلما حاول الأخير أن يجبي منهم أكثر من تلك المقررة عليهم(٦) . وأشارت إلى ذلك إحدى الوثائق الفرنسية الصادرة عن صيدا بتاريخ ١٧٥٧/١١/٤ بقولها :

« . . . الشيخُ ناصيب يعتقلُ نائب قنصل الرملة ويقتاده إلى تبنين ، أبلغ القنصلُ الفرنسيُّ في صيدا باشا الولاية بالحادثة ، لكن الأخير أبدى له استياءه من تصرف الشيخ المذكور (أي ناصيف) الذي يرفضُ أن يدفع له الميري المتوجبة للباب العالي . . . »(٧) .

وجاء في وثيقة أُخرى « أرسل الشيخ (أي ناصيف النصار) مائة وخمسين فارساً لمصادرة البضائع ، وأمرهم بمصادمة قوات الباشا إذا حاولت منعهم . . . »(٨)

وبذلك شكل العامليون قوة مهيبة في المنطقة ، تطلعت إلى محالفتها قوى محلية في بلاد الشام الجنوبية ومصر ، كانت قد تمردت هي أيضاً على السلطات العثمانية ، وتطلعت إلى استغلال موارد بلادها ، والتخلص من عسف الولاة وظلمهم . وتمثلت هذه القوى في (ظاهر العمر في الجليل وعلي بك الكبير في مصر) ، وأنزل المتحالفون هزائم مُذِلَّةً بقوات كل من والي الشام عثمان باشا الصادق (١٧٦٠ - ١٧٧١) وأمير جبل الدروز يوسف الشهابي (١٧٧٠ - ١٧٨٩) ، في دمشق والحولة والنبطية وسهل الغازية وزحلة ، ولكن هؤلاء الزعماء المتمردين ما لبثوا أن سقطوا الواحد تلو الآخر .

وبإسناد ولاية صيدا إلى أحمد باشا الجزار ١٧٧٦ - ١٨٠٤) ، تجنب في الفترات الأولى من حكمه الصدام مع العامليين ، نظراً لما يعلمه عن شجاعتهم ووعورة بلادهم . ولكن ما إن ازدادت ثقته بنفسه وبقدرته على التعامل معهم بحزم ، حتى قرر عام ١٧٨١ الاستفادة من فرمان عثماني يأمره بالسير إلى جبل عامل وتدميره(٩) . فوجد في ذلك فرصة لتحقيق مكاسب عديدة ، تتلخص في مضاعفة ثروته وتعزيز مكانته في الأستانة ، وإقامة حكمٍ مركزيٍ فعّال . كما أن نجاحه في ذلك من شأنه إرضاءُ السلطاتِ العثمانيةِ التي كانت تنظرُ شزراً إلى شيعة العراق ولبنان واليمن .

وفي ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٧٨١ تصدى العامليون للحملة عند قرية يارون ، فجرى اقتتال انتهى بمقتل الشيخ ناصيف وشقيقه أحمد مع حوالي أربعمائة من مقاتليه ، في حين فقد قائد الحملة ما يقارب ثلث عساكره(١٠). ثم تقدمت القوات الغازية في جبل عامل لتحطيم قلاعه الرئيسية ، فسقطت جميعها باستثناء قلعة الشقيف ، التي صمد فيها الشيخ حيدر الفارس مع ستمائة من أتباعه ، وأبدي شجاعةً وبسالةً في مقاومة الحصار الذي فرض عليهم(١١) ، ولم يستسلموا إلا بعد أن بذل لهم الجزار وعوداً بأنه لن يلحق بهم أية أذية(١٢) .

ورغم احترام الجزار لوعده ، ومنحه للشيخ حيدر وأتباعه إقطاعات ليعيشوا عليها . فإن الأخير لم يخف عليه أن هدف الباشا من هذه المعاملة الحسنة ، ليس سوى محاولةٍ منه لتشجيع العامليين الذين فروا من بلادهم ، للعودة إليها واستثمارها ، مما سيعود على الجزار بموارد وفيرة . فما أن عاد الأخير إلى عكا ، حتى هرب الشيخ ومعه أتباعه إلى دمشق ، حيث وجدوا الحماية من واليها(١٣) .

واستبدل الباشا بمشايخ مقاطعات جبل عامل ضباطاً من عنده ، مزودين بفرقٍ عسكريةٍ قادرةٍ على السيطرة بفعالية على تلك المقاطعات ، أما من استطاع من العامليين الفرار ، فقد انتقل إلى بلاد بعلبك وعكار خشية

---

(١) ملاحظة : تباينت الأرقام لدى مؤرخي هذه الفترة . راجع فولني مصدر سابق ج ١ ، ص ٤٦٣ ، عبود الصباغ مخ . الروض الزاهر في تاريخ ظاهر . انظر ورقة ١١ .
Mariti, G, Voyage dans liisle td Chypre..., 2 vols, paris 1877 V. 2 p. 96.
اعتمدنا على تقرير الوثائق القومية في باريس من مجموعة (A.E.BI) مجلد ١٠٣٥ وثيقة صادرة عن قنصلية صيدا بتاريخ ١٧٧٢/٦/٢٨ .

(٢) PARADIS, Mémoires sur la syrie M.S á (BNP) N 6430]F. R. F (20-21).

(٣) COAEN AMNON palestine in the 18 th century. jerusalem, 1973. pp. (13-15).

(٤) دار الوثائق القومية في باريس مجموع (A.E.B1) تقرير صادر عن قنصلية صيدا مجلد رقم ١٠٣٠ تاريخ ١٧٥٥/١/٣ .

(٥) MARIT op. cit. v. 2p. 96.

(٦) المصدر السابق مجلد رقم ١٠٣٠ تاريخ ١٧٥٥/١/٤ .

(٧) المكان نفسه .

(٨) أرشيف غرفة التجارة والصناعة في مرسيليا مجموعة (j) ملف رقم ٧٩٥ وثيقة مؤرخة في ١٧٨١/١٢/٤ .

(٩) دار الوثائق القومية في باريس مجموعة (A.E.b1) تقرير صادر عن قنصلية صيدا مجلد رقم ١٠٣٩ تاريخ ١٧٨١/١٠/٢ .

(١٠) المكان نفسه .

(١١) المكان نفسه .

(١٢) المصدر نفسه تاريخ ١٧٨٢/٦/٢٢ .

(١٣) المكان نفسه .

التعرض للذل[١] . لكن هذا الشعب الذي اعتاد أن يحكم نفسه بنفسه أبى أن يخضع لتسلط الجزار وقواته . فبادر الشيخ فارس الابن الأكبر للشيخ ناصيف إلى لعب دور والده النضالي ، فجمع شمل العامليين الذين تركوا بلادهم ، وشكل منهم فرقاً انتحارية للإغارة على معسكرات الجزار[٢] ، كما سعى في الوقت نفسه إلى الاتصال بمن تبقى في البلاد العاملية ، لتنسيق الكفاح مع الفرق الانتحارية التي شكلها ، في وقت بدأت تنتشرُ فيه إشاعاتٌ بأن الباب العالي غاضبٌ على الجزار ، وسوف يرسل حملةً بريةً وبحريةً لتدميره . فتشكلت خلايا سرية في جبل عامل ، خططت للانقضاض على عساكر الباشا بمجرد تبلغهم أول إشارة رسمية عن عزله ، لكن بوصول أنباء هذه المؤامرة إلى مسامع الأخير ، أصدر أمراً في أيار (مايو) سنة ١٧٨٢ ، باقتياد الزعماء المتآمرين إلى عكا مقيدين بالحديد ، وبطرد جميع المتاولة ومعاملتهم بالشدة المتناهية[٣] .

لكن الإرهاب لم يزرعُ الخوفَ في قلوبِ العامليين ، بل زادهم تصميماً على السعي لاستعادة السيادة التامة على بلادهم ، وضاعفوا غاراتهم وهجماتهم على عساكر الجزار . وبلغت جرأتهم إلى حد قيام الشيخ عقيل فارس النصار بالهجوم على قلعة تبنين ، فأفنى العساكر الموجودة فيها .[٤]

وفشلت كلّ محاولات الجزار للإيقاع بتلك الفرق الانتحارية ، وعانى جبل عاقل كثيراً من هذا الوضع ، لأنه وقع بين نارين ، نار ضباط الجزار وعساكره ، ونار الثوار العامليين ولم يكن الجزار يعترف بالهزائم التي كان يلحقها بجنده هؤلاء بل كان يقلب الحقائق ويبذل جهوداً إعلامية لجعل الأهالي يصدقون كذبه[٥] ، كإطلاق المدافع احتفالاً بانتصار مزعوم حققته قواته ، رغم أنها في الواقع تكون مهزومة . كما كان يحاول أن يوقف نشاط الثوار ، عن طريق إثارة الرعب بين الرعايا ليتمنعوا عن إمداد هؤلاء بالمساعدات أو الانضمام إليهم . كإنزال العقاب العلني بصورة وحشية ، في من يشتبه بأن لهم علاقةً بالثوار . سواءً بوضعهم على الخازوق وإبقائهم على هذا الوضع لأيامٍ عديدة عند مداخل مدينتي صيدا وعكا ، أو برفع رؤوس القتلى على مرأى من الناس في أعالي أسوار قلعتي المدينتن المذكورتين[٦] . وأشارت إلى ذلك الوثائق الفرنسية الصادرة عن عكا بتاريخ ١٦ أيار (مايو) ١٧٨٠ بقولها :

« أصدر أمراً إلى متسلم مدينة صور باعتقال المشايخ والأعيان المتآمرين وإرسالهم إلى عكا . وفي الرابع عشر منه نفذ الباشا فيهم العقوبة ، فأمر برفع أربعة وثلاثين منهم على الخازوق عند أبواب المدينة ، ولا يزالون حتى الآن ويشاع بأنهم سوف يستبدلون بعددٍ من أبناء وطنهم الموقوفين والمتهمين كذلك بالتحالف مع المتمردين »[٧] .

(١) المصدر نفسه تقرير صادر بتاريخ ١٧٨٢/١٠/٢ .
(٢) إبراهيم العورة . تاريخ ولاية سليمان باشا العادل . مخ . نشرة قسطنطين الباشا ، حريصا (لا . ت) انظر ص ٣٤ .
(٣) دار الوثائق القومية في باريس (A.E.B1) مجلد ٩٧٩ تقرير صادر عن عكا بتاريخ ١٧٨٥/٥/١٦ .
(٤) المصدر نفسه تاريخ ١٧٨٤/٦/٤ .
(٥) المكان نفسه .
(٦) المصدر نفسه تاريخ ١٧٨٩/٦/٢ .
(٧) المصدر نفسه تاريخ ١٧٨٥/٥/١٦ .

عانى جبل عامل كثيراً من تسلط الجزار وجنده ، فعقب كل غارة يشنها الثوار على المعسكرات العثمانية المقامة في بلادهم ، يوجهُ الباشا عساكِرَه إلى القرى العاملية لمطاردتهم ، فيعيشون في البلاد فساداً ، يصادرون الغلال ويضيقون على السكان ، ويفرضون عليهم الغرامات النقدية والقيام بأعمال السخرة ، بحجة أن بعضهم يتعاون مع الثوار ويقدم لهم الإمدادات ، أو يلصقون بالسكان هذه التهمة زوراً فيطالبونهم بتقديم الهدايا للضباط وإيواء الجند وتقديم ما يحتاجونه من طعامٍ وغذاء . وتأدية العلف لخيولهم . وعند مغادرة القرية يصادرون الدواب لنقل المؤن والذخائر للعساكر ، وفي ظروف كثيرة يسترقون النساء والأطفال الرضّع ليباعوا في أسواق النخاسة ، والقيام بنهب ما يصادفونه من متاع وأثاثٍ ومؤن[٨] .

وكان الباشا يكثر من هذه الحملات الحربية ، ويتغاضى أثناء الغزوات عما يرتكبه الجند من جرائم وآثام ، لكي يعوض عليهم مرتباتهم المتأخرة منذ عدة أشهر ، وبذلك يتحقق هدفان معاً إرضاء الجند ، ومضاعفة ثروته . وأشارت الوثائق الفرنسية الصادرةُ عن صيدا إلى ذلك بقولها .

« هدّدوا (أي الجند) بالثورة ، وأعلنوا بصوتٍ عالٍ بأن نهب المدن يجب أن يكون دخلهم ، وصرح الباشا المترجمي بأنه لولا الذي حدث لكان هؤلاء التعساء (أي الجند) بحالة لا تطاق . . . »[٩] .

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الوضع إلى تضور السكان من الجوع ، فاقتصروا على اقتناء ما هم في أمسِّ الحاجة إليه من قوتٍ ولبس ، ولم يَعُدْ أحدٌ يجرؤ أن يبدُو عليه أيّ مظهرٍ يدلُّ على الثراء[١٠]. وتركتْ تلك النكباتُ بصماتها على مدينة صور ، فقد أفادنا الرحالةُ الفرنسي أوليفيه (Oliver) الذي زارها في أواخر القرن الثامن عشر ، أنه لا يوجد مدينة في الإمبراطورية العثمانية ، فيها تعاسةٌ مثلُ تلكَ الموجودةِ في مدينة صور . كما أن سان إنان (St. Aignant) قد أشار بأنه لم يبقَ من هذه العاصمة الفينيقية الأثرية ، التي كانت سابقاً في غاية الثراء والقوة ، إلا ما لم يتمكن الإنسانُ أن يَسلُبَه منها .

نجف قلي ميرزا حسام الدولة

من أحفاد فتح علي شاه القاجاري، ولد عام ١٣٠٣ في النجف، كان يجيد اللغة العربية والإنكليزية والفرنسية وعمل في وزارة الخارجية الإيرانية لسنوات طويلة ، ترجع شهرته لكتابه عن العلاقات السياسية الإيرانية (تاريخ روابط سياسي إيران بارنيا) في مجلدين ، ويعد هذا الكتاب من المصادر المهمة في معرفة تاريخ الدبلوماسية الإيرانية مع العالم[١١] .

نصر الله فلسفي

من كبار المحققين والمتتبعين والمؤرخين الإيرانيين في العقود الأخيرة ولد بطهران عام ١٢٨٠ ودرس فيها وعمل في أحدى الدوائر الحكومية ثم صار أستاذاً في جامعة طهران ثم مستشاراً ثقافياً لإيران بإيطاليا كما درّس في جامعة

(٨) إبراهيم العورة ، مصدر سابق ص ٣٥ .
(٩) المصدر السابق مجلد رقم ١٠٣٧ تقرير صادر عن قنصلية صيدا بتاريخ ١٧٧٧/٢/١٧ .
(١٠) المصدر نفسه مجلد رقم ١٠٣٩ تقرير صادر عن قنصلية صيدا بتاريخ ١٧٨١/١٠/٢ .
(١١) الشيخ محمد رضا الأنصاري .

استراسبوغ بفرنسا مدة ٣ سنوات ـ قام بتحقيقات تاريخية هامة واشتهر بكتابه عن حياة الشاه عباس الصفوي (أشهر ملوك الصفويين) مجموع ما ألف طيلة حياته يزيد على ٢٠ كتاباً وعشرات المقالات في المجلات الإيرانية توفي عام ١٤٠٠[1] .

الشيخ هادي بن زين العابدين بن إسماعيل بن محمد حسين التبريزي المرندي النجفي

ولد في سنة ١٣١٩ وتوفي ليلة الخميس ٨ ذي القعدة ١٣٩٠ في النجف ولد في النجف الأشرف وتربى في حجر والده ثم أخذ المقدمات والسطوح من أعلامها وحضر قليلاً بحث والده ثم انضم إلى تلامذة الشيخ محمد حسين النائيني الغروي والشيخ ضياء الدين العراقي في بحث الفقه والأصول واشتغل بالتدريس وكان يقيم الجماعة في مسجد البراق ويدرس الفقه والأصول خارجاً وله مؤلفات منها :

١ ـ الرسالة العملية .
٢ ـ مناسك الحج .
٣ ـ شرح كفاية الأصول في أصول الفقه .
٤ ـ تقريرات بحوث أستاذه الشيخ محمد حسين النائيني .
٥ ـ تقريرات بحوث أستاذه الشيخ ضياء الدين العراقي وخلف أولاداً فضلاء هم الشيخ موسى والشيخ عباس والشيخ كاظم الذي هو اليوم من أئمة جماعة طهران[2] .

هادي الخفاجي بن يحيي

ولد سنة ١٣٤٠ في الكوفة ونشأ في النجف ثم في كربلاء وبها أتم دراسته الابتدائية والثانوية فعين معلماً ، ثم أتم دراسته الجامعية .

شعره

قال مخاطباً بقايا (الإيوان) التي لا تزال قائمة في العراق :

برغم الليالي والليالي حواسد ... خلودك فاسلم إن مثلك خالد
عصي على كف الفناء كأنما ... تصول ولم ينهض بها الدهر ساعد
صمدت له كالطود، ثم صدمته ... بصدر تمنى جانبيه المجاهد
حملت من الأعباء ما ليس قادراً ... على حمله حتى الجبال الرواكد
وسوق[3] بها من حيث ناءت مناكب ... تزيد رسوخاً تحتهن القواعد
وإن صدوعاً في كيانك حلية ... توائم تزهو روعة وفرائد
بساقيك قد جلجلن منها خلاخل ... وبالصدر قد وسوسن منها قلائد
فكنت كنصل السيف زانت متونه ... فلول على ما كان أبلى شواهد
مهيب تغض الطرف، دونك رابضاً ... هزبراً، وحوش في الفلاة أوابد
وتبصر فيك الطير في الجو أجدلاً ... فهن وإن لم تدر ـ عنك طرائد
تسرب في بطن الثرى منك جنة ... وزاحم أعنان السما منك مارد
خفيت فتاه الفكر، والفكر حاضر ... وطلت فأعيى الفكر، والفكر شارد
فأين اللواتي كنت رجلت في الصبا ... ذوائب باتت دونهن الفراقد
وابن الجنساحان انسقن عليهما ... مقاصير بالبيض الحسان حواشد
فمنهن أمثال البدور ملائك ... ومنهن أمثال اللئالي ولائد
وأبناء كسرى حولهن غطارف ... أقارب تخشى بأسهم وأباعد
ورفرف خلد عبقري نظامه ... تمارقه مصفوفة والمقاعد
ومن عجب أن تبصر العين جنة ... وللنار عباد بها ومعابد
يعذب فيها كل جان وربما ... رمى نفسه فيها لتطهر، واقد
وكسرى على الدست الرفيع قوائماً ... وصدرك من ساسان بالصيد حاشد
وحولك من فرسانه وخيوله ... جياد عليها كل أبيض ماجد
ينششه في السلم للحرب والد ... ويرمي به في الحرب للموت قائد
وكم فيك قد زفت لكسرى عرائس ... من الحور ربات الحجال خرائد
مواسم أفراح تواصلن حقبة ... فعرس بها يمضي وعيد يعاود
وقد تعقب الأعراس فيك مآتم ... وتهزم أيام الرخاء شدائد
وأنت على الحالين ما أنت كائن ... تهزا بما يلقي الورى ويشاهد

* * *

أراك على الأيام ما زلت باذخاً ... تمانع فيما تبتغي وتعاند
وقد ذهب الأهلون عنك وأقفرت ... منازل منهم جمة ومعاهد
مضت بهم تلك الليالي ولم تعد ... وهن الليالي ماضيات عوائد
ودك جناحيك الزمان فواحد ... مهيض، ومنسول القوادم واحد
فإن كان قد ساءتك حالك بعدهم ... وقل على أمثالها من يساعد
فإنك للشمل الشتيت لشاكر ... وأنك للدهر المشت لحامد
وقد يحمد البين المفارق صحبه ... إذا صلحت بالبين منهم مفاسد
هداهم إلى الإسلام هاد فأصبحوا ... وقد أخمدت للنار فيك مواقد
(بذا قضت الأيام ما بين أهلها ... مصائب قوم عند قوم فوائد)

* * *

ترهبت تجتاب[4] المسوح وإنها ... غبار قرون فوق متنيك عاقد
وأعرضت عن هذي الحياة وأهلها ... كأخلص ما يستقبل الله عابد
يمر عليك اليوم والليل بعده ... وأنت مقيم ساهر الطرف ساهد
وتلقي عليك الشمس كالجمر ضوءها ... فيطفئه ظل من السحب بارد
وتشرب من ماء الغمائم ظامئاً ... وأنت عليها في سمائك وارد

* * *

فغرت فماً سل الزمان لسانه ... فما يخبر السؤال عما تناشد
وأبقى شفاها ما تبين كلامها ... فضجت معان خلفها ومقاصد
وأخرس فيك اليوم بالناس عالم ... خبير وللماضي المغيب رائد
تحدث إن أسطعت الحديث فإنني ... أنا السامع الواعي وغيري راقد
تحدث فكم وافاك عان معذب ... أخو وحشة بالعيش مثلك زاهد
وكم دمعة أبصرت في عين بائس ... يكابد من آلامه ما يكابد
وكم من حبيب بات يلقى جبينه ... لديك، فموعود وآخر واعد
وكم ماجن قد راح يعترض الدمى ... يطارحها أشواقه ويطارد
فقيك لها أي اجتمعن ملاعب ... وفيك لها أي التفتن مصائد
وكم شاعر حر الضمير ترددت ... على شفتيه في هواك النشائد

(١) الشيخ محمد رضا الأنصاري .
(٢) الشيخ محمد السهامي
(٣) الوسوق بضم الواو : الاحمال .
(٤) تجتاب : تلبس .

يطوف من ركن لركن كعاشق ... يخاتل من يصبو له ويراود
وكم ملك أمسى لديك ممتعاً ... معافى وأضحى وهو في الترب هامد
وكم قام قبل اليوم فوقك هادم ... على كل بان موغر الصدر حاقد
وكم نصبت للناس فيك حبائل ... فأحبطتها من آخرين مكائد
ترى فئة منهم حفاظاً وغيرة ... تجادل فيها خصمها وتجالد
وتصطرع الأجيال حولك بعضها ... يصول على بعض وأنت محايد
قد اختلف الوفاد فيك فراكع ... أمامك مسحور وآخر ساجد
ولاء يرى ضرباً من اللهو انه ... بجنبك ماش أو يظلك قاعد
فما كل من وافاك للعلم قاصد ... ولا كل من وافاك للفن وافد
ولا كل من عاينت بالحق ناطق ... ولا كل من شاهدت بالفضل شاهد
وقد لامني في وصفك اليوم معشر ... بليد الشعور مسقم الذوق فاسد
يريدونني في الشعر ذا عصبية ... ضلالاً وتأباها عليّ القصائد
وحاشا القوافي أن أراهن خضعاً ... لما نفرت عنه القوافي الشوارد
يقولون لو غنيث بالشعر ما بنى ... وناغيت ما أبقى ذووك الأماجد
فما أنت والإيوان وهو كما ترى ... غريب دخيل لا سقته الروافد
وهل أنا إلا يعربي لقومه ... هواه وأبكار المعاني النواهد
أيجحدها كالشمس تسطع جاحد ... وينقدها كالورد تنفح ناقد
وما أنا والإيوان إلا مصور ... صناع لما فيه من الفن واجد
وكل الورى للفن أهل وإنما ... أعز الفنون ثاكل الأهل فاقد

وله مراسلاً صديقاً له :

عتبت وما لي يعلم الله من قصد ... سوى إن لي قلباً هواك على البعد
وعيناً محاها الدمع بعدك والأسى ... فأصبحت في يوم كليلي مسود
حللت فؤاداً لم يحل به هوى ... سواك ولم يعرف لغيرك من ود
(أتاني ومطول من النأي بيننا ... قوارص قول هن أورى من الزند)
تفوق نبل الذم نحوي فأتقي ... شباة الهجا والذم بالمدح والحمد
إذا جرحت قلبي رجعت مضمداً ... جراحي بما قد كان للحب من وعدي
فأرجع كالموتور أعياه عضده ... ذماماً وهل لي غيرك من عضد
فلا تشمتن فينا حسوداً يود لو ... طوانا الردى بين الصفايح واللحد
ولا تطفأن نار العدى بعدما غدت ... قلوبهم تغلي عليها من الحقد
يعز على عيني - وعينك - أن ترى ... نظام الهوى والود منتثر العقد
ألا ليت شعري هل أرى لك عودة ... ترد لنا ما مر من سالف العهد
لتحيي فتى أمسى يسل صبابة ... عليك فما فيه سوى العظم والجلد
ونفس إذا ماجسها الأهل لم يروا ... سوى شبح في حر أنفاسه يعدي
صبرت على آلامها غير جازع ... وإن كان لا يغني اصطباري ولا يجدي
كأني وقد أجريت سائل أدمعي ... كهتان شؤبوب على النحر والخد
أضفت إلى النار التي في جوانحي ... بصيّب ذاك الدمع وقداً على وقد
إذا سرت يوماً قام يتبعني الضنا ... كما يتبع المأسور في حلق القيد
عجبت لقلب لا يرق لحالتي ... (ولو أنه أقسى من الحجر الصلد)
أحن وفاء والوفا غير نافعي ... حنين العطاشى حلقوها عن الورد
أأقرب في ودي إليك فلا أرى ... جزاء سوى الأعراض عن ذلك الود
أغرك أني لست في الهجر والجفا ... صبوراً ولا في نبوة عنك بالجلد
وهبتك روحي وهي غير رخيصة ... فليس لروحي من نظير ولا ند
لك الأمر فاحكم ما تشاء فليس لي ... بأمر الهوى عن حكمك اليوم من بد
وجر واحتكم أولا فاقسط فإنني ... عتبت وما لي يعلم الله من قصد

وقال :

بعز على الأيام أغضاؤها معي ... وفي نفسها لو كفكفت فيض مدمعي
ولم تترك إلا بقايا شبيبة ... تخلفن عندي بالأسى والتفجع
تمنيت لو فارقتها غير آسف ... ولاقيت شيبي بعدها غير موجع
ولكنني أبقى عليها فعلني ... أنال لها ثأراً ولما تودع
وما زلت حتى يلتقي الدمع بالدما ... فأشرب منها مترعاً بعد مترع
لعلي بها ألقي حياتي فإنها ... دمائي اغتذى منها الطغاة وأدمعي
هم فجروها سلسلاً بعد سلسل ... وهم نزفوها منبعاً بعد منبع

* * *

وكم صاحب لي من بني أمتي غدا ... به مثل ما بي من شجى وتوجع
سرى الهم في جنبيه كالنار في الغضا ... وما الهم إلا النار تسري بأضلع
يبيت ويضحي ساهد الطرف والهاً ... فلا جفنه يغفي ولا عقله يعي
وطفل على ثديين لم يبق فيهما ... سوى الجلد مطوياً على صدر مرضع
ذوي وهو ريان الطفولة مونع ... فأضحى كأن لم يرو منها ويونع
وشيخ قضى لم يدر ما النعم ساعة ... ولم يأو - إلا بعض حين - لمضجع
طوى العمر لم يطعم سوى خبز ملة ... ولم يشتمل إلا بثوب مرقع
فليت الألي لم يفقر الشعب غيرهم ... أصاخوا إلى شكوى عراة وجوع

* * *

عهدت بلادي وهي جنة بابل ... على الدهر لم تعدم غضارة أربع
جرى الخصب في أعراقها فتبسمت ... رياضاً زهت في كل أرض وموضع
وأخرى[1] على هام السماء تزينها ... بأبهى من الشهب الدراري وأسطع
تبث خفي السحر في كل ناظر ... وتفتن في أخبارها كل مسمع
فكم أمة ضاقت مواطنها بها ... ولم يلقها غير العراق بأوسع
أقامت به لا السحب ضنت بديمة ... عليها ولا البيد الفساح بمرتع
ولا الرافدان الزاهيان تبرما ... فلم يجريا بالبارد المتدفع
ضجيعان لم تطبق عيونهما ولا ... تفتحن إلا بالهنا والتمتع
يشقان أرضاً لو أصابا حديدها ... تورد يزري في جنائن تبع
فما لي أراها أجدبت بعد خصبها ... وصوح من غيطانها كل ممرع
وأضحت خلاء لا ترى غير مدقع ... من الفقر أو قفر من الأرض بلقع
وما زال فيها من فرات ودجلة ... مسارب لم تنزف ولم تتقطع
بلى إنها لم تبق غير شواطىء ... بأيدي ذئاب ضاريات وأضبع
ومدن بها أمثال تلك فإن عوت ... أجابت بأقسى من عواها وأروع
شكا الحرب أقوام صلوها وما دروا ... بمن يشتكي في السلم حرب التشجع
نسوا عندها شتى المطامع جمة ... ونحن أثارت عندنا كل مطمع
فمن تاجر لو كان بالفلس ربحه ... لباع حياة الشعب دون تورع
ومن مرتش أغراه دينار مدع ... عليه فأغضى عن حقوق لمدع
يساوم - لا يخشى عقاباً - رشاته ... علانية في كل ناد ومجمع
فأين الثقاة المخلصون؟ ألا أرى ... سوى خائن أو مجرم متقنع
أريد أكفاً مصلحات جديرة ... بقطع أكف هادمات وأذرع

---

(١) هي جنان بابل المعلقة .

شباب بلادي الناهضين بعبثها . | هجعتم ولبس العباثون بهجع
أفيقوا تروا شعباً غداً نهب ناهب | مسارح ذؤبان ألاعيب خدع
تروعه في كل آن وقبعة | توقعها أوكان لم يتوقع
فما ينفع العزل التيقظ عندها | ولم يملكوا غير البكا والتضرع

وقال :

سلام مودع قد أعجلته | شواغل ما أردن لنا اجتماعا
تيمم زائراً يحيا رجاءاً | ويفنى كلما اقترب التياعا
ولكن ساءه أن لا يراكم | وإن لا يستطيع لكم وداعا
وكان فراقنا عاماً، فما لي | رضيت فلم يتح بالقرب ساعا
لقد أتعبت عيني انتظاراً | وقد أجهدت أذني استماعا
فلا شدواً وعيت ولا هديلاً | ولا برقاً لمحت ولا شعاعا
وكنت كرائد في الليل قفراً | فأعياه ارتياداً وانتجاعا
دخلت الدار آمل أن أراها | وقد زادت نمواً واتساعا
ألم تك إذ تبلد كل فكر | لتقدحه ابتكاراً وابتداعا
وكانت روضة للعلم بكراً | تأرج نفحها زمناً وضاعا
معطرة الفضا عبقت هواء | ومخصبة الثرى كرمت بقاعا
قضينا في مغانيها زماناً | حمدناه اصطيافاً وارتياعا
أعاد إلى الشباب وقد تولى | شيوخاً للمشيب مشوا سراعا

* * *

حذار فإن داراً شدتموها | على الآداب توشك أن تداعى
فما هذا التواكل والتواني | تجاوز في مساوئه النزاعا
وأين روابع الآداب تجلى | فتعشي عين ناظره التماعا
وأين (المهرجان الحي) تحيي | لياليه القريحة واليراعا
فرائد نحن صغناها يتامى | فعشن وليس يعرفن الرضاعا
سوائر من بنات الفكر زفت | سوافر ما تعودت القناعا
تهادى كالعرائس حاليات | بما قد راق من أدب وراعا
عهدناهن مثل الدر حسناً | وفوق الأنجم الزهر ارتفاعا
وكم للشعر من سوق أقيمت | شرى لكم بها فضل وباعا
وفيض من شعوركم عنيف | كمثل الموج يندفع اندفاعا
طغى وطمى فلم يترك مجالاً | لغيركم أعاند أو أطاعا
رأيت المدعين الفضل ضاقوا | وقد بعد المدى، بكم ذراعا
فلولاكم لما انحطوا مقاما | ولا قصروا عن العلياء باعا

* * *

أحبتنا أهيب بكم جميعاً | وأرجو أن تعيروني سماعا
نصحت لكم ورب أخ ودود | لكم محض النصيحة ما استطاعا
عذرنا لو تباعدتم دياراً | ولكنا لو تلوثتم طباعا
فكيف ولم يكن هذا ولا ذا | أصابكم فطار بكم شعاعا
أعيدوها معاهد مشرقات | رودوها منورة رباعا
أيشغلكم من الدنيا متاع | عن الأدب المتاع لكم متاعا
ولستم أول الأدباء عاشوا | عراة في مواطنهم جياعا
ولا الأدباء دون الناس صرعى | ولكن أمة قتلت صراعا
ولا هم وجدهم ضاعوا ولكن | بلاد كلها ذهبت ضياعا

أقول: وأنتم أبناء شعب | أبوكم كان أشبعهم وجاعا
وسودهم فساهم رعاة | وسادوه فسموه رعاعا
أعد لهم ثيابهم حريراً | وشاد لهم قصورهم قلاعا
وفجر أدمعاً يسقي حقولاً | وكد سواعداً ينشي ضياعا
وأوب حين أوب نحو بيت | شكا من قبل أن يبنى انصداعا
وبات يظله كالقبر ضيقاً | والكمستنقع المسنون قاعاً
طويل الليل لا فجر يرجى | لناظره ولا نجم يراعى
فكان إذا بكى ألماً تغنى | وإن غنى بكى أملاً مضاعا
هم نزفوا موارده اغتصابا | وهم سلبوه لقمته انتزاعا
وهم منعوه ثم قضى فقالوا | طوى فقضى إباء أو امتناعا

وله :

يا ابنة الشرق ابن منك الثقافه | ما أراك اكتسبت إلا السخافه
رمت نيل العلا، وخبت مراما | أمثال العلا بشرب السلافه
أم بيع العفاف والطهر جريا | خلف من باع بالخنا أسلافه
هل شققت الحجاب إلا لتبدو | منك ملء العيون تلك الشفافه

ضل من قال: تمنع العلم فينا | هذه الحجب إن أردنا ارتشافه
ما احتجاب الوجوه يمنع علماً | إن كشفت الحجا بأجلى انكشافه
زعم الغرب إذ أتى مستفزاً | همم الناس طالباً أنصافه
إن للعلم والهدى منه رسلا | وهو للعلم والهدى شر آفه
خدع بحرها خضم عريض | لا تحد العقول يوماً ضفافه
آنس الجهل وهو غير خفي | بين قومي وطيشه وخلافه
فأتى ببذر الأماني وجاء الـ | يوم يجني ثماره وقطافه
مظهر غرنا كطفل غرير | راقه منظر اللهيب لطافه
فدنا من سناه حتى إذا ما | لاعب النار أحرقت أطرافه
وقنعنا من الزمان بغث | ومن العقل والحجا بالنحافه
يا ابنة الشرق فاحذري مكر قوم | غير أهليك قاصداً أهدافه
هو سم فجانبي كل شهد | إن في الشهد لو علمت زعافه
أنت أشقى الأنام إن لم تصوني | عرضك الحر أو تصدى اعتسافه
كل شيء خلا العفاف زهيد | لا حياة لمن أضاع عفافه

السيد هادي سينا ابن السيد مهدي

ولد سنة ١٣١٨ في تبريز وتوفي سنة ١٣٨٣ في طهران . نشأ في بيته بيت العلم والسيادة وربي في حجر والده الجليل . درس العلوم الإسلامية على كبار علماء تبريز كالحسيني والكوه كمري .

كما درس اللغة العربية وآدابها على الحاج ميرزا المجتهد التبريزي الذي كان متضلعاً بها وهو الذي يقول فيه الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء :

تركت سيوف الهند دونك في الفتك | على العرب العربا وأنت من الترك
تبرزت من تبريز رب فصاحة | بها مدنياً قد حسبناك أو مكي

وقد ظل المترجم في موطنه تبريز عاكفاً على الدرس والتدريس والافادة حتى الحرب العالميه الثانية حيث أحتل الروس آذربيجان بما فيها تبريز ، فنزح منها إلى طهران فتولى التدريس في كلية الآداب وكلية الالهيات ، وبقي

في طهران حتى وفاته .

ترك من المؤلفات : ١ - تاريخ الأدب العربي . ٢ - الشعر وطبقات الشعراء . ٣ - تفسير الآيات المشكلات . ٤ - شرح لبعض أشعار المتنبي . ٥ - رسالة في المنطق . ٦ - رسالة في الفلسفة وغير ذلك .

وله شعر كثير باللغة العربية .

الشيخ الميرزا هداية الله الشهير بـ (حاج مجتهد) بن الشيخ صادق بن الشهيد الثالث البرغاني القزويني آل الشهيدي

ولد في قزوين سنة ١٢٨١ هجرية وتوفي بها سنة ١٣٦٩ هجرية .

أخذ المقدمات والعلوم العربية والسطوح على أعلام أسرته في المدرسة الصالحية منهم والده والشيخ محمد علي بن محمد صالح البرغاني القزويني ثم هاجر إلى أصفهان وتخرج في الحكمة والفلسفة على أعلامها ومنها هاجر إلى العراق قاصداً الحوزة العلمية الكبرى فأخذ الفقه والأصول في كربلاء عن حوزة مدرس الطف الشيخ الميرزا على نقى آل الصالحي ومنها التحق بحوزة الآخوند الشيخ محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية والسيد محمد كاظم طباطبائي اليزدي صاحب العروة الوثقى حتى كان من أعلام النجف البارزين ومنها رجع إلى موطنه قزوين فانتهى إليه كرسي التدريس والفتوى والإمامة وكان من مراجع التقليد وقد شارك في الانقلاب الدستوري (المشروطة) ثم انشق عن المطالبين بالمشروطة وعندما قتل السيد ميرزا مسعود شيخ الإسلام في داره بقزوين وهجم الثوار علي دار المترجم له تمكن من الفرار والتجأ إلى القنصلية الروسية في قزوين فاستقبله القنصل الروسي بالحفاوة ، وبذلك تمكن من أنقاذ نفسه حتى هدأت الحالة في قزوين .

ترك المترجم له مؤلفات ، منها تقريرات أستاذة مدرس الطف الصالحي وتقريرات في الأصول لأستاذه الخراساني ، وله كتاب تحفة الأنام في معرفة الإمام في مجلد كبير وله كتاب الإمامة بالفارسية وتفسير القرآن لم يخرج من المسودة .

ومن أشهر أولاده الشيخ نصر الله المترجم في المجلد الثالث من (المستدركات)(١) .

يعقوب بن إسحاق الكندي

مرت ترجمته في المجلد العاشر من (الأعيان) كما مرت عنه كلمة في المجلد الثاني من (المستدركات) وننشر هنا هذه الكلمة المكتوبة بقلم الدكتور محمد يحيى الهاشمي .

١ - إن الكندي من الأوائل الذين درسوا الحكمة اليونانية دراسة متقنة ووصل فيها إلى ذروة عالية .

خمس عشرة مجلدة(١٣٣) فكأن السلة كانت عندهم مجمعاً للمسودات .

٢ - يمثل هذا الفيلسوف دور الانتقال من الاعتزال إلى الفلسفة .

٣ - يكاد يكون مجهولاً في الشرق مع ما كان له من خدمة عظيمة في الثقافة العالمية .

٤ - إن أكثر آثاره الفلسفية قد فقدت في الأصل العربي وموجودة في ترجمتها اللاتينية فمن الضروري نشرها وإعادة ترجمتها إلى الغربية .

٥ - كتب أقدم رسالة عن مطارح الشعاع باللغة العربية . وهي تعد أقدم رسالة عربية في البصريات .

٦ - اكتشف له المستشرقون عدداً لا يستهان به من الرسائل في العلوم الطبيعية ، فمن الضروري ، استنساخ هذه الرسائل وطبعها لحفز الشباب إلى العلوم الايجابية ، المهملة اليوم مع الأسف ، والتي هي من أهم الأسباب في تقدم الأمم .

٧ - يعده كاردن أحد فلاسفة النهضة في أوروبا واحداً من اثني عشر مفكراً هم أنفذ المفكرين عقولاً .

٨ - سبق زمنه بعصور ، فقد قال بفكرة الذرة الروحية ، كما فعل ذلك الفيلسوف الألماني « لاينيز » في القرن السابع عشر .

٩ - سيادة روح الترتيب والتنظيم في أفكاره .

١٠ - حاول حل المشكلة التي نود حلها في زماننا : ألا وهي ، إلى أي درجة يلزم أن نقتبس وإلى أي درجة يقتضي الابداع .

١١ - قام بطريقة منظمة في استخدام الموسيقى في شفاء المرضى تلك الطريقة التي أصبحت اليوم تحتل مكان الصدارة في الطب النفسي والأعصاب .

١٢ - من المستحيل لعالم واحد أو لعدة علماء الالمام بما حاول الكندي دراسته ، فمن الضروري تعاون عدة علماء ، ولا أظنني مغالياً إذا قلت إنه لمن الضروري تعاون عدة حكومات لاظهار هذا العالم بآثاره المبعثرة إلى عالم الوجود .

إن هذه الأسباب التي بينتها أظنها كافية إلى تخليد ذكرى هذا العالم والفيلسوف الفذ .

فمن مطالعة تاريخ الحكماء لابن القفطي وعيون الانباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، وفهرست ابن النديم ، واخبار البيروني المبعثرة وخاصة الجماهر في معرفة الجواهر ، نستنتج بأن الكندي كان من جنوب الجزيرة العربية وينتمي إلى قبيلة كنده ، تلك القبيلة التي أنجبت كبار الرجال . كان الصباح جد الكندي يتولى شراء الجواهر من جزيرة سرنديب لهارون الرشيد ، وكان أبوه إسحاق عاملاً على الكوفة ، وولد الكندي نفسه في البصرة .

أما عن تاريخ مولده فلا نعلم شيئاً . وجل ما نعلم عن هذا الفيلسوف أنه كان يتردد على بلاط الخلفاء العباسيين ، واشتغل منقحاً وباحثاً في الفلسفة اليونانية ومربياً لأولاد الخلفاء - المأمون والمعتصم والمتوكل - هذا كل ما نعرفه عن حياته . ولكن كيف كانت سيرته ؟ كيف كانت تربيته ؟ كيف كانت معاشرته ؟ كيف كانت معاملته ؟ كل ذلك لا نعلم عنها شيئاً كثيراً . ويذكر البيروني في كتابه الجماهر في معرفة الجواهر الحكاية الآتية :

« قال الكندي ، كان الرشيد سلم إلى يحيى بن خالد جراباً من الجواهر ليحفظه فوضعه في داره ونهض وقد نسيه وتناوله بعض الفراشين ، فلما تذكره

(١) .الشيخ عبد الحسين الصالحي .

لم يجده فاغتم لفقده ، وكنت عنده ، فاستحضر أبا يعقوب الزاجر المكفوف ، ولما استؤذن له ، قال لمن حضر ، انصتوا فلا يسمع منكم شيئاً يفسد عليه زجره ، وحين دخل قال له إني سائلك عن شيء فانظر ما هو؟ فأطرق مليئاً ثم قال : تسألني عن ضالة ، قال فما هي؟ فتفكر طويلاً وضرب بيده وقال : شيء غال رفيع سمط أبيض وأحمر وأخضر وهو في كيس في وعاء ـ قال : اصبت ـ قال فمن أخذه ، قال فراش ـ قال أين هو؟ قال في البالوعة ـ فانجلى الهم عن يحيى وقال ـ اطلبوا أثراً على بلاليع ، دارنا ـ فوجدوه على رأس واحدة ، فكشفوا عنها واخرجوا جراباً لا يدري بما فيه من الجواهر قيمة ـ ثم قال : يا غلام ادفع إليه خمسة آلاف درهم ، ومر فلاناً بابتياع دار له بجوارنا بخمسة آلاف درهم ـ فقال : أما هذه الخمسة آلاف درهم فنأخذها ، أما المنزل فلن يبتاع أبداً ـ سأله يحيى عن زجره فأجابه أن الزجر يكون بالحواس ، وليس لي بصر وإنما ازجر بسمعي ، ولما دخلت تسمعت فلم أسمع شيئاً وضللت ، فقلت ضالة ـ ولم أسمع كلاماً ما فضربت بيدي على البساط ، فوجدت قمع تمرة وقلت في النخلة وعاء وفيه الأبيض ثم الأحمر ثم الأخضر وهو كالسموط في طلعه وهذه صفة الجواهر في جراب . وقلت : من أخذه ونهق الحمار وهو علج ، فقلت لا يصل إلى مال الملوك علج غير الفراشين ـ وسألتني عن الموضع فسمعت قائلاً يقول : صبه في البالوعة ـ قال فكيف زجرت ما أمرنا لك به؟ قال ، لما أمرت بالخمسة آلاف الأولى سمعت الغلمان تقول ـ نعم ، فقلت تصل ـ وفي الخمسة آلاف الأخرى ، سمعت بعض هؤلاء يقول : لا . ثم أخذ الخمسة آلاف ومضى ، ولم تمض إلا أيام يسيرة حتى وقع بالبرامكة ما وقع وحدثت بهم النكبة » .

ومن المعلوم أن نكبة البرامكة حدثت في عام ١٨٧ هـ « ٨٠٣ م » اذن يلزم أن يكون الكندي حياً في هذا التاريخ . ولا نعلم على الضبط السن الذي كان فيه ، بل نستدل من جملة « وكنت عنده » أي عند يحيى بن خالد بأنه كان حاضراً فقط . فإذا علمنا أن جابر بن حيان كان يتردد أيضاً على البرامكة وأنه اختفى بعد نكبتهم ، نستدل على أنهم كانوا يرعون العلماء ويتفقدون شأنهم . ولعلهم رأوا في الكندي منذ طفولته ، علائم النجابة فتبنوه، منذ صغره . يقول ابن النديم في كتاب الفهرست أن أبا معشر درس على الكندي الفلك وهو في السابعة والأربعين من عمره ، وإذا علمنا أن هذا التلميذ « كما جاء في كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة » بلغ من العمر مائة عام وتوفي في آخر رمضان سنة ٢٧٢ هـ « ٨٨٦ م » فإنه يكون قد اجتمع مع الفيلسوف عام ٢١٩ هـ . « ٨٣٤ م » ، ويلزم أن يكون الفيلسوف في هذه المقابلة قد تجاوز السادسة والثلاثين من العمر ، لأنه ليس من المعقول أن يكون أصغر من خمس سنوات حينما حضر الرجز في دار يحيى بن خالد البرمكي . وإذا علمنا كما بين لنا ابن أبي أصيبعة بأن الكندي كان قبل مقتل المتوكل بشهرين حياً ، وقد كان ذلك عام ٢٤٧ هـ ـ ٨٦١ م . يكون الكندي من ٨٠٣ إلى ٨٦١ على قيد الحياة « أي ٥٨ عاماً » ويرجع دي بور الهولاندي صاحب كتاب تاريخ الفلسفة في الإسلام « ترجمة أبي ريده ١٩٣٨ » نظراً لرسائل الكندي في علم أحكام النجوم بأن الكندي حتى عام ٢٥٦ هـ ـ ٨٧٠ م لا يزال حياً . وعلى كل يلزم أن يكون قد تجاوز السبعين من العمر .

إن الجاحظ المعاصر للكندي لا ينير لنا الطريق لمعرفة بعض المجاهيل في حياة الكندي وجل ما نعلم عن الجاحظ بأنه يتهمه بالبخل في كتابه المعروف بالبخلاء ، ويقص عنه حكايات مضحكة ، وسواء كان الكندي كريماً أم بخيلاً فأننا نستدل على المنافسة بين الرجلين وعلى سيطرة روح عدم التلاؤم التي كان مبعثها الاختلاف بين المزاجين ، فمن يراجع كتب الكندي بامعان يجد الرزانة غالباً على طبعه ، يكره حشو الكلام ، رياضي التفكير ، محباً للتنسيق بعيداً عن التهكم ، لا يحب أن يحيد عن الموضوع ، ومن كانت هذه صفته كان بعيداً عن روح الجمهور . وإذا دققنا في آثار الجاحظ وجدنا أنه رغم تفكيره العميق لا يثبت على فكرة واحدة . نعم أنه كان يستند على المنطق والمشاهدة في جزئيات الأمور ، ولكنه في كلياتها كان بعيداً عن روح التنسيق كثير التهكم ، محباً للانتقال . وإذا امعنا النظر في هذين المزاجين وجدنا الفرق بينهما واسعاً ، ولا يمكن حصول روح التلاؤم بينهما بحال من الأحوال . فلا غرابة إذن من طعن الجاحظ في الكندي ولعل عدم اكثاره في ذلك لاقتناعه بكبر شخصيته وعظم منزلته . ومهما يكن الاختلاف بين الجاحظ والكندي ، كبيراً فانهما كانا قطبين مختلفين كونا تلك الحركة الفكرية الهائلة في الشرق الإسلامي ، كما يكون القطبان الايجابي والسلبي التيار في العمود الكهربائي فالكندي هو أول من صهر ببوتقة فكره مآثر العرب وحكمة أثينة ، فاسطع شمساً جديدة في سماء الشرق ، فتأثيره إذن على رزيني الفكر . أما الجاحظ فبانتقالاته من موضوع إلى موضوع واكثار المزح في كتاباته مع شديد تعطشه للمعرفة وكشفه عن غوامض الطبيعة ، أيقظ الروح العلمية في الناس ، لا في العلماء فحسب ، بل عند العامة أيضاً . وقد أثر هذان العالمان في تلك الجمعية العلمية « اخوان الصفاء » التي تأسست في البصرة في القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي . أما عن الكتب التي ألفها الكندي فاني سأزيد على ما هو معروف بأن الكندي ألف رسالة ترد على الكيميائيين ذكرها المسعودي في مروج الذهب : « طبع باريس ، ج ٨ ، ص ١٧٦ر١٧٧ » وجعلها مقالتين يذكر فيها تعذر فعل الناس لما انفردت الطبيعة بفعله وخدع أهل هذه الصناعة وحيلهم وترجم هذه الرسالة بأبطال دعوى المدعين صناعة الذهب والفضة من غير معادنها وقد نقض هذه الرسالة على الكندي ، « كما بين المسعودي » أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الفيلسوف صاحب الكتاب المنصوري في الطب .

رغم أن الكندي ينقد صناعة الذهب والكيمياء القديمة فله رسالة في كيمياء العطر والتصعيدات نشرها وترجمها إلى الألمانية كارل گربرز في لايبزيغ ١٩٤٨ . في هذا الكتاب نجد مقدرة الكندي الكيميائية الخالية من السحر والطلاسم مثل التقطير والتصعيد وغير ذلك ويشير مارتين ليفي في كتابه باللغة الانكليزية عن الكيمياء والصناعة الكيميائية في العراق الذي ألفه عام ١٩٥٩ بأن لمثل هذه العمليات أصل عراقي قديم ، ولدى دراستنا للعقاقير التي يذكرها الكندي نجد صلتها مع الهند وكذلك مع إيران قوية أيضاً . ويضيق مجال بحث هذه القضايا في مثل هذه العجالة .

للكندي رسالة في الاحجار ، فيقول البيروني في كتابه الجماهر في معرفة الجواهر المطبوع في حيدر آباد ١٣٥٥ هـ . « ص ٣١ » :

ـ ولم يقع لي من هذا الفن « في الجواهر » غير كتاب أبي يعقوب بن إسحاق الكندي في الجواهر والاشباه ، قد افترع فيها عذرته وظهر ذروته ، كاختراعه البدائع في كل ما وصلت إليه يده من سائر الفنون ، فهو امام المحدثين وأسوة الباقي . ثم مقالة لنصر بن يعقوب الدينوري الكاتب عملها بالفارسية لمن لم يهتد لغيرها وهو تابع الكندي في أكثرها . ثم يذكر الكندي في

مواضع عديدة ، ولأجل أن نعلم مدى معرفته بالأحجار والمعادن يلزم جمع جميع هذه النصوص التي تتعلق بذلك ومقارنتها ونقدها .

هناك أيضاً مخطوطة منسوبة للكندي بعنوان الجواهر في ملحق كتاب عرف باسم درة الغواص للكندي « مخطوطات غوتا العربية رقم ٢١١٧ » هقا نصها :

« هذا ما تيسر جمعه من منا ـع الأحجار الجوهرية وصفاتها ومنافعها ومعادنها وخواصها ملتقطة من كتاب درة الغواص للعلامة السلجوكي :

« ومما وجد مناسق لهذا الكتاب ، فصل من تصنيف الشيخ الأوحد الرئيس الأمين يعقوب بن إسحاق ، المعروف بالكندي رضى الله عنه . قال الجوهر ينقسم إلى قسمين أولين أحدهما من الحيوان والآخر أرضي . والأرضي ينقسم إلى قسمين ، أولين أحدهما المشف والآخر غير المشف ، والذي غير المشف ينقسم إلى قسمين اما أن لا يشف في كله ومنها أن لا يشف في بعضه ، والذي لا يشف أما أن يكون بدء كونه نباتاً وأما أن لا يكون بدء كونه نباتاً . فأما الحيواني منه فهو الدر وهو ما عظم منه واللؤلؤ ما صغر منه يخرج من الصدف والمحار الكبار والبلبل . وأما القسم الأرضي المشف فمنه الثمين وغير الثمين . والثمين منه نوعان أحدهما القاطع وهو الماس والآخر المقطوع وهو نوعان ، أحدهما الياقوت والآخر الزمرد . والياقوت منفصل بأنواعه وهو نوع الحمرة ونوع الصفرة ونوع السماوي وهو الذي يسمى السمانجوني ، ونوع البياض ، فهذه ألوان الياقوت . فأما نوع الحمرة فتنقسم إلى أربعة ألوان وهي الوردي والخمري والأحمر والبهرمان . والسمانجوني ينقسم على أربعة ألوان منه أزرق واللازوردي وهو أشبع لوناً من الأزرق والنيلي وهو من اللازوردي والكحلي وهو أشبع من النيلي . والأصفر وهو ينقسم إلى أربعة ألوان وهو قليل الصفرة كثير الماء ساطع الشعاع ومنه الخلوقي وهو أشبع صفرة من الرقيق ومنه الجلناري وهو أشبع من الخلوقي وأشد شعاعاً وأكثر ماء وأصلب حجراً . والمشف ، الذي ليس بثمين ينقسم إلى قسمين أحدهما الاشباه والآخر الذي ليس باشباه ، والاشباه ينقسم إلى نوعين أحدهما الاشباه للياقوت والآخر اشباه الياقوت والتي هي أربعة أنواع أحدهما شبه الياقوت والآخر الكركند والآخر الجزير والآخر الابدج الأحمر . وشبه الياقوت الأصفر اثنان وهو الكهركهن ويؤتى به من معدن الياقوت والأحمر وهو البلوري الأصفر يؤتى به من معدن الياقوت أيضاً . وشبه الياقوت السمائي نوعان أحدهما يؤتى به معدن والآخر يؤتى به من أرض اليمن ، وهو الجزع القرواني الرطب . وشبه الياقوت الأبيض وهو البلور الأعرابي الكر الرطب وشبه الزمرد ثلاثة أنواع أحدهما السن الثاني اليسب والثالث الياشب يخرج من معدن الزمرد ، والملي يؤتى به من بلاد الهند من ناحية سبدان من جبل هناك . وأما المشف الذي ليس بثمين ولا شبه فهو الجمشق والعقيق والبجاري والمادنج والبلوري والمعدني وأما الكاربا فصمغه كالسند روس أنشب حجراً . وأما المركب من مشف وغير مشف فالجزع وهو ينقسم إلى ستة اضراب وهو البقراني والقرواني والفارسي والحبشي والعسلي والمعرق . وأما الذي ليس بمشف فتسعة أنواع وهي الدهج واللازوردي والخلجي والعنبري والخشيشي والكزل والياسمين والبلور . وأما الذي بدؤ كونه نبات فالسند . ونقول الآن على نوع منها أشد استقصاء من هذا القول ، ونحدها بما هو مشابه لهذه الصناعة ونصف مواضعها ومعادنها وقيمة أثمانها وما يعرض لها ومحنها وعلاجاتها بقدر ما هو ممكن فيها و مشابه لهذه الصناعة من القول ونقدم في الوصف ما قدمنا في قسمة أنواعها بتأييد ذي القدرة وتوفيقه ومشيئته تم » .

نظراً لتدقيقات « و . پرچ W. Pertsch » يوجد أيضاً مخطوطات تحمل العنوان الآتي « درة الغواص وكنز الاختصاص في علم الخواص » وتحتوي على نفس الموضوع واحدة في غوتا « رقم ٢٠٦٥ » وفي كامبريج رقم ٣٥٦ والمتحف البريطاني ١٨٦٤ ورقم ١٣٩٦٥ وأن المؤلف يدعى هناك ايدمير الجلدكي ويذكر أنه عاش في عام ٧٦٠ هـ . راجع أيضاً جدول المخطوطات الملكية في غوتا ١٨٨٣ ج ٤ ، ص ١٣٤ وما بعدها ، وبراون ، جدول المخطوطات الإسلامية كامبريج ١٩٠٠ ، ص ٧٠ .

إذا قارنا ما ورد في ملحق مخطوطات السلجوكي مع ما تواتر عن الكندي في كتاب البيروني ، نجد أن البيروني يذكر أيضاً البهرماني والوردي من أقسام الياقوت ، ومن أشباه الياقوت الكركند والابلج ، وكذلك ورد ذكر الماذنج . هنا نجد التوافق ، ويمكن أن يكون هذا الملحق حقاً للكندي . بيد أننا نجد كثيراً من الجواهر تأتي تحت صنوف شتى ، مثل البلور الذي يذكر بين أشباه الياقوت وعند الجواهر غير الثمينة . نحن نعلم بأن الكندي ميال للتصنيف الرياضي ولكن نظراً لركاكة اللغة والتناقض الذي أدرجناه لا يمكننا أن نقنع بأنه بقيت تلك المخطوطة على وضعها الأصلي .

اطلعني الدكتور زكي الدين أستاذ الفيزياء في جامعة عليگره الهند على مخطوطة للكندي عن مطارح الشعاع ، كانت محفوظة في مكاتب القاهرة ، واستحصلت على صورة فوتوغرافية منها ، آمل نشرها عند سنوح الفرصة ، نجد في مقدمتها ما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ، كتاب يعقوب بن إسحاق الكندي في الشعاعات ، أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام عزه وتأييده وفضائله وكمل سعادته وأباد عدوه . انه ليس بصغير الخطر على مخارج الشعاعات الشمسية وانعكاساتها على الاجرام العاكسة لها والزوايا الحادثة عنها ونسب أبعاد النقط التي تنعكس إليها من الاجرام العاكسة من تذكية الأنفس الإنسانية وتهذيبها ورفع فكرها عن الأشياء البهيمية المعمية أبصارها ، فإن هذه خاصة جنس العلم به أعنى . . . « ونجد بعد ذلك نقصاً كبيراً ، ثم يقول » : أحرق بشعاع الشمس ، وجب من هذه الجهة إثبات ذلك ، فإنه ممكن باضطرار فنحن ناظرون في ذلك بقدر ما يمكننا واضعون لتهيئة ذلك مقدمات أشياء يسيرة نحن إليها مضطرون فيما نريد تهيئته بالمرايا . فهذا قول انثاميوس ، وقد كان يجب على انثاميوس أن لا يقبل خبراً بغير برهان في التعاليم وفي صناعة الهندسة خاصة ، ولا يوجب أيضاً شيئاً بغير برهان ، وقد مثل كيف يعمل مرآة تنعكس منها أربعة وعشرين شعاعاً على نقطة واحدة ، ولم يبين كيف كون النقطة التي يجتمع عليها الشعاع على أي بعد شئنا من وسط سطح المرآة ، ونحن ممثلون ذلك على أوضح ما يمكننا وأقربه ومبينوه بالبراهين الهندسية . والجهة الأخرى التي نذكرها على أوضح ما تبلغه طاقتنا ، ونتمم من ذلك ما كان ناقصاً ، فإنه لم يذكر لنا مفروضاً ، ونرتب ذلك بعد أن نأتي بموضوع غايتنا نحن ليكون فهم ما قال سهلاً على من أحب فهمه من محبّي التكثير في المعلومات . . » .

ثم يأتي الكندي بعد ذلك بالنظريات الشعاعية ويبرهنها بالبراهين الهندسية . هذه المخطوطة لم يحط بها مصطفى نظيف علماً ، لأنه لم يذكرها في كتابه الفذ عن الحسن بن الهيثم وبحوثه وكشوفه البصرية « القاهرة

١٩٤٢ » ، وذلك في الفصل الذي عقده عن علم الضوء قبل عصر ابن الهيثم ، ولقد قال مصطفى نظيف عن الكندي أنه من أسبق العلماء وأخطرهم شأناً في مباحث الضوء ، وجل معلومات المدقق المار الذكر عن فيلسوفنا بشأن البصريات بأن ابن القفطي ، يذكر له كتابي اختلاف المناظر واختلاف مناظر المرآة ، ويقول أيضاً أن له كتاباً موجوداً بنصه اللاتيني . أما عن المخطوطة الثمينة هذه فلم يذكر شيئاً .

هنا أيضاً بعض مخطوطات عن علة لون السماء اشتغل فيها ويده مان الكندي في مكتبة أكسفوردو خاصة « أستاذ الفيزياء في ارلانفن » والذي كان له فضل كبير على بحوث الطبيعيات العربية .

نشر هذه المخطوطة من مكتبة الاستانة محمد عبد الهادي أبو ريدة في الجزء الثاني من رسائل الكندي « القاهرة ١٩٥٣ » ص ١٠٣ بعنوان : « رسالة الكندي في علة اللون اللازوردي الذي يرى في الجور في جهة السماء ويظن أنه لون السماء . وقد ترجم خلاصتها إلى اللغة الانكليزية الدكتور زكي الدين أستاذ الفيزياء في جامعة عليگره الهند المار الذكر معتمداً على مخطوطة أكسفورد وآيا صوفيا .

لا نريد أن نتطرق عن علاقة الكندي بالموسيقى ، فقد بحث في هذا الموضوع هـ . ج . فارمر في تاريخ الموسيقى العربية وترجمه حسين نصار « القاهرة ١٩٥٦ » ولكني سوف أتطرق إلى موضوع هام جداً أي الاستفادة من الانغام لشفاء المرضى أي استخدام الموسيقى في الطب . من أجل ذلك قام فيلسوفنا في ترتيب الأنغام المنعشة والأنغام المقبضة ، فهكذا ورد عنه في ابن القفطي في مداواة أحد أبناء التجار :

« فلما رأى « الكندي » ابنه وأخذ مجسه أمر بأن يحضر إليه من تلاميذه في علم الموسيقى من قد أنعم الحذق بضرب العود وعرف الطرائق المحزنة والمفرحة والمقوية للقلوب والنفوس ، فحضر إليه منه أربعة نفر فأمرهم أن يديموا الضرب عند رأسه وأن يأخذوا في طريقة وقفهم عليها . . .

ما هي هذه الطريقة التي يذكرها الكندي يا ترى ؟ وفي تاريخ الطب لا نجد ذكراً لذلك . تلعب اليوم الموسيقى دوراً كبيراً في الشفاء وخاصة الأمراض النفسية والعصبية . وهناك مصحات عديدة في كل من أوروبا وخاصة أمريكا تداوي بهذه الطريقة . ومن يشتغل في تاريخ الطب الموسيقى يرجع ذلك إلى ذكرة الانسجام عند الفيثاغوريين . بيد أننا هنا أمام شيء طريف لا نعرف مدى صلته مع الأوائل وما هي درجة ابداعه وابتكاره وعلى ما يظهر فإن هناك طريقة جديدة وكم كان يستفيد العلم لو تابع المدققون ذلك الأسلوب الذي قد يكون قد كشفه الكندي ، ولكن مع الأسف دفن بموته ، فلو أن ابن القفطي لم يدون تلك الملاحظة لذهب ما حاول عمله نسياً منسياً .

نعم أن اليونان كانوا السباقين في هذا الميدان ، حتى أننا لو سلمنا جدلاً بأنه متبع لا مبتدع فيكفيه فخراً أنه أيقظ تلك الطريقة القديمة التي لم تجد اذناً صاغية إلا في العصور الأخيرة . فلو دون تاريخ الموسيقى في الطب ، فسيكون للكندي أيضاً مكانته المرموقة أيضاً .

السيد يوسف الحلو بن السيد عبد الحسين بن محمد رضا .

ولد في النجف الأشرف سنة ١٣٢٥ وتوفي سنة ١٤٠٤ وقرأ هناك المقدمات والأوليات ثم اختص بالسيد حسين الحمّامي واستفاد من أبحاثه وعين مدرساً بالثانوية ولكن لم ينقطع عن الحوزة ودروسه الدينية . ثم طلب احالته على التقاعد وتفرغ لتدريس العلوم الإسلامية وحضرت عنده دروس معالم الأصول وشرائع الإسلام وقليلاً من المكاسب في المسجد الهندي (في النجف الأشرف) واستفدت منه كثيراً .

كان على جانب من التقوى والصدق ، عارفاً بالحوادث والوقائع التاريخية ، سهل الأسلوب في التدريس .

وكان يقوم بإمامة الجماعة في المسجد المجاور لمقبرة الخليلي الواقعة في سوق العمارة ، وله من المؤلفات :

١ ـ ديوانه الشعري .
٢ ـ الموسوعة الفقهية ، في عدة مجلدات .
٣ ـ تقريرات بحث السيد الحمّامي في الفقه وغير ذلك .

وآل الحلو من السادات الموسوية العريقة يقطنون النجف الأشرف وسائر البلدان العراقية نزح جدهم الأعلى من قرية الصباغية (محافظة البصرة) إلى النجف الأشرف ، فخرج منهم الأدباء والعلماء[1] .

السيد يوسف الحكيم ابن السيد محسن بن السيد مهدي الطباطبائي

ولد في ١٣٢٧ وتوفي في ٢٧ رجب ١٤١١ .

ولد في النجف الأشرف وتربى في أحضان العلم والتقى وتعلم القراءة والكتابة والقرآن ، ثم تدرج في أخذ العلم ، ولما انتهى من السطوح حضر في خارج الأصول على الشيخ ضياء الدين العراقي والشيخ حسين الحلّي والمعقول على السيد أبو القاسم الخوئي والأخلاق على السيد محمدعلي القاضي الطباطبائي ولازم أبحاث والده في الفقه والأصول ثم أخذ يدرّس السطوح العالية كالرسائل والمكاسب والكفاية ودرّس مدة خارج الفقه والأصول ، وتخرج عليه جماعة من أهل الفضل وسجل أبحاثه نفر من تلاميذه منهم السيد محمد صادق الحكيم (المتوفى أول شوال ١٤٠٢) والسيد طاهر الاحسائي . وكان يقيم الجماعة في غياب والده في الصحن الحيدري والمسجد الهندي .

وبعد وفاة والده استمر على إمامة الجماعة في المسجد الهندي ظهراً والصحن الحيدري في المغرب والعشاء .

اعتقله نظام الطاغية صدام حسين مع بقية أفراد آل الحكيم في مساء يوم ٢٧ رجب ١٤٠٣ ونقل إلى مديرية الأمن العامة في بغداد وسجن هناك ولاقى في السجن صنوف الاهانات والعذاب النفسي والجسمي ثم توالت عليه المصائب واحدة بعد أخرى فقد استشهد على أيدي جلاوزة الطغيان ثلاثة من أخوته هم السيد عبد الصاحب والسيد علاء الدين والسيد محمد حسين الحكيم وأولاده السيد كمال الدين والسيد عبد الوهاب وابن أخيه السيد أحمد بن السيد محمد رضا وذلك في ٧ شعبان ١٤٠٣ وبعد ذلك استشهد أخوه السيد عبد الهادي وأبناؤه السيد حسن والسيد حسين وأولاده عمومته السيد محمد رضا والسيد محمد والسيد عبد الصاحب أولاد السيد محمد حسين بن السيد سعيد والسيد عبد المجيد بن السيد محمود والسيد محمد

---

(١) الشيخ محمد السماوي .

علي بن السيد جواد وابنه السيد محمود وذلك سنة ١٤٠٥ ثم استشهد ابن أخته السيد حسن بن السيد محمد على واحد أولاد عمومته وبعد ذلك استشهد أخوه السيد مهدي في الخرطوم فكان رحمه الله في جميع الحالات صابراً محتسباً .

ثم فرضوا عليه الحصار والمراقبة في داره فلا يتصل به أحد إلّا بعض النسوة من أرحامه وكان مرقد الإمام أمير المؤمنين (ع) هو المكان الوحيد المسموح له بالذهاب إليه وفي الطريق كانوا يراقبونه حتى لا يتصل به أحد ولا يسّلم عليه أحد .

أصيب في السنتين الأخيرتين من عمره بالشلل التام ، فكان طريح الفراش ، يشكو ظلامته إلى الله تعالى حتى وافاه الأجل مظلوماً . فدفن في جوار قبر أبيه في مقبرتهم الخاصة المجاورة للمسجد الهندي من طرف الشمال .

وله مؤلفات منها :

١ ـ بحث حول العلم الاجمالي .

٢ ـ الخيارات .

٣ ـ أبحاث في التفسير .

٤ ـ رسائل متفرقة في بعض أبواب الفقه والأصول .

٥ ـ وله قصائد شعرية نشر بعضها في المجلات الأدبية في النجف الأشرف[1] .

(١) الشيخ محمد السامي .

الفهرست

